المؤلفات الفلسفية

منقحة

بليخانوف

ترجمة

الدكتور فؤاد أيوب

مصادر الاشتراكية العلمية

دار دمشق للطباعة والنشر

المجلد الأول

مصادر الإشتراكية العلمية

بليخانوف

المؤلفات الفلسفية

المجلد الأول

ترجمة الدكتور فؤاد أيوب



تنبيـــه من الناشرين الروس

ان الطبعة الراهنــة سوف تتضمن الاعمـال الفلسفية الاساسية لجورج بليخانوف

وسوف تشتمل المجلدات الثلاثـة الاولى على النصوص المكرسـة لعرض الماركسية والدفاع عنها ضد المذهب الشعبي ، والتحريفيـة ، والماخية أما المجلد الرابع فسوف يخصص للدراسات عن الفلسفـة والفكر السياسي والاجتماعي في روسيا ونجد في المجلد الخامس الاعمال عن الادب والفن

ولقد جرى تحقيق النصوص على المخطوطات المحفوظة في دار بليخانوف في لينينغراد ، وكذلك على الطبعات المنشورة أثناء حياة المؤلف

ونجد في كل مجلد مقدمة ، وهوامش ايضاحية ، ودليلا للاسماء .

ولقد عهد بتقرير النص والهوامش الايضاحيـة الى ايلينا كوتس واسحاق بيبلنكي وصوفيا فيرصوفا وبوريس اياكوبسون

وقد أخرجت هذه الطبعة من قبل مؤسسة الفلسفة لدى أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي ، بالتعاون مع دار بليخانوف ، باشراف لجنة تحرير مؤلفة من ميخائيل ايوفتشوك وبيوتر فيدوسييف وفيرانومينا والكسندر ماسلين وبوريس تشاغين

الاشتراكية والنضال السياسي

توطئة

ان الكراسة الحالية يمكن ان تشكل حافزا لقدر كبير من سوء الفهم ، بل الاستياء[1] فالاشخاص الذين يتعاطفون مع تيار أفكار **الارض والحرية**[2] و **الاقتسام الاسود**[3] ، وهما مجلتان أسهمت في ادارتهما ، ربما أخذوا على انحرافي عن النظريات التي يقال لها شعبية، ولعل نقدي للافكار العزيزة عليهم تغيظ انصار أقسام أخرى من حزبنا الثوري ولذا لا يبدو لي من الامور النافلة أن أقدم بعض الايضاحات المسبقة

ان ارادة العمل **في الشعب** ومن أجل الشعب ، واليقين بأن « تحرر الطبقة العاملة يجب أن يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها » ، هذا الجانب **العملي** من المذهب الشعبي لا يبرح عزيزا علي بيد أن فرضياته **النظرية** تتراءى لي ، في واقع الامر ، ملوثةبالخطل من وجهات نظرعديدة. ان سنوات من الاقامة في الخارج ودراسة واعية للمسألة الاجتماعية قد أقنعتني بأن انتصار موجة من المد الشعبي من نمط عصيان ستيبان رازين أو حروب الفلاحين في المانيا ، لا يمكن أن تلبي الحاجات السياسية والاجتماعية لروسيا في اليوم الحاضر ، **وأن الاشكال القديمة لحياتنا** القومية تحمل في ذاتها بذور تفسخها ، وأنها لا يمكن أن « ترتفع الى الشكل الشيوعي الاعلى دون ان يمارس عليها حزب **عمالي** اشتراكي قوي وجيد التنظيم فعلا مباشرا وهكذا يلوح لي أن من واجب الثوريين الروس ، وهم يحاربون الحكم المطلق ، أن يبذلوا جهدهم ، على أي حال، كي يصهروا من أجل المستقبل عناصر مثل هذا الحزب ولسوف تقودهم مثل هذه العملية بالضرورة الى الانتقال الى ميدان الاشتراكية

الحالية ، طالما ان المثل الاعلى « للارض والحرية » لا يقابل أوضاع عمال الصناعة ولسوف يأتي ذلك في الوقت المناسب حيث أن نظرية الاصالة النوعية لروسيا تصبح مرادفة للتعفن والرجعية ، بينما تتجمع العناصر التقدمية للمجتمع الروسي تحت راية « نزعة غربية » أعيد إعمال الفكر فيها.

واذ انتقل الى النقطة الثانية من هذا الايضاح ابدأ بالقول دفاعا عن نفسي اني لم أتعرض للاشخاص بل للآراء ، وان خلافاتي الجزئية مع هذا الفريق الاشتراكي أو ذاك لا تؤثر البتة في احترامي لجميع اولئك الذين يناضلون باخلاص من أجل تحرير الشعب

وأخيرا ، فان ما يسمونه الحركة الارهابية تفتتح عهدا جديدا في تاريخ حزبنا الثوري ، عهد النضال السياسي الواعي ضد الحكومة . وان هذا الاتجاه الجديد الذي يتخذه نشاط ثوريينا يلزم باعادة النظر في جميع الافكار التي ورثوها عن المرحلة السابقة . آن الحياة تضطرنا الى اعادة النظر في كل متاعنا الفكري بينما نحن ننتقل الى أرض جديدة ، وأنا أعتبر هذه الكراسة اسهاما في حدود قواي في جهود النقد الذي انخرط فيه ادبنا الثوري منذ زمن طويل ولا ريب في أن القارىء لم ينس بعد الانتقادات الصارمة ، والمنصفة غالبا ، لبرنامج ونشاط حلقة « الارض والحرية » التي تتضمنها سيرة أندريه جيليابوف(٤) ، وفي مقدوره حتى درجة بعيدة ان يتبين أن محاولتي أقل حظا . ومهما يكن من شيء ، فانه لن يكون ثمة أساس على الاطلاق للحكم عليها بأنها لم تأت في أوانها

ج. ب.

جنيف في ٢٥ تشرين الاول ١٨٨٣

كل صراع طبقي هو صراع سياسي

كارل ماركس(٥)

منذ انخرطت الحركة الثورية الروسية بصورة نهائية في طريق النضال السافر ضد الحكم المطلق أصبحت مسألة مهمات الاشتراكيين السياسية المسألة الاكثر حيوية والاعظم اهمية بالنسبة الى حزبنا ولقد كانت السبب في أن رجالاً ارتبطوا بالعمل المشترك طوال سنوات قد تباعدت دروبهم ، كما كانت السبب في انحلال جماعات ومنظمات كاملة . بل انه ليمكننا القول ان جميع الاشتراكيين الروس انقسموا بصورة مؤقتة الى معسكرين يدينان بمفاهيم متعارضة على طول الخط فيما يتعلق « بالسياسة » .وكما يحدث دائما في مثل هذه الاحوال ، كان لابد من الوقوع في التطرف فقد اعتبر البعض النضال السياسي شبه خيانة للقضية الشعبية ، تظاهرة للغريزة البورجوازية عند مفكرينا الثوريين ، اهانة لنقاوة البرنامج الاشتراكي . أما البعض الآخر ، غير الراضي بمجرد المجاهدة بضرورة ذلك النضال ، فما كان يتردد في تقديم التنازلات لعناصر المعارضة الليبرالية في مجتمعنا ، مقدما على ذلك بكل نية طيبة ولقد بلغ الامر بالبعض ان اعتبر ان كل تظاهرة للتضاد الطبقي في روسيا ضارة في الوقت الحاضر تلك كانت على سبيل المثال فكرة جيليابوف الذي ، كما يقول كاتب سيرته ، « ما كان يتصور الثورة الروسية في شكل يقتصر على تحرير طبقة الفلاحين أو حتى [؟] الطبقة العاملة ، بل في صورة نهضة سياسية لكل الشعب الروسي عامة* وبكلام آخر ، فان الحركة الثورية ضد الملكية المطلقة كانت تختلط بالنسبة اليه مع الحركة الاجتماعية ــ الثورية للطبقة العاملة في سبيل تحررها الاقتصادي ؛ لقد كانت المهمة الخصوصية ، الروسية بصورة نوعية ، التي تفرضها اللحظة الراهنة تخفي عنه المهمة المشتركة للطبقة العاملة في جميع البلدان المتحضرة وما كان يمكن للاختلاف في الرأي أن يمضي أبعد من ذلك ، بحيث باتت القطيعة امرا محتما

ومهما يكن من شيء ، فقد مهد الزمن جميع هذه المبالغات وسوى عددا كبيرا من المشاكل المتنازع عليها في منحى يرضي كلا الفريقين ان الجميع ، أو الجميع على وجه التقريب ، قد اعترفوا شيئا فشيئا بأن النضال السياسي الجاري يجب أن يستمر حتى تتوصل الحركة العظمى

(*) انظر كراسة اندريه ايفانوفيتش جيليابوف ، ص : ١٠

للتحرر الشعبي والاجتماعي الى تدمير بنيان الحكم المطلق ، كما تلمرهزة ارضية قناً للدجاج اذا استطعنا ان نستعير هنا صيغة ماركس القوية .
بيد ان عددا كبيرا من اشتراكيينا لا يبرحون يتصورون هذا النضال كنوع من المواطأة بالقوة ، من النصر المؤقت «للعملي» على «النظري»،من مشاكسة الحياة لفكرةعاجزة. وان «انصارالسياسة» انفسهم ، حين كانوايسعون الى التبرؤ من اللوم المنصب على رؤوسهم، قد تفادوا اي استنجاد بالفرضيات الاساسية للاشتراكية ولم يستنجدوا الا بما تفرضه الحياة الواقعية من متطلبات لا محيد عنها ومما لا ريب فيه انهم كانوا يعتقدون في صميم قلوبهم انهم فوق السياسة ، متعزين بفكرة انه سوف يكون في مقدورهم اخيرا ، في دولة حرة ، ان يتركوا الموتى يدفنون موتاهم ، وان يكرسوا انفسهم كليا لقضية الاشتراكيةبعد الخلاص من السياسة بصورةحاسمة.
ولقد انتهى هذا الاعتقاد غير المصاغ الى انواع مضحكة جدا من سوء الفهم احيانا ان « ارادة الشعب »(٦) ، المعنية بأن تتبرأ من اللوم المزعوم « بالعمل السياسي » ، تتمسك في تحليلها لخطاب « المدعو الروسي » في مؤتمر كوار(٧) بالاشارة بصورة عابرة الى ان انصارها لا هم اشتراكيون ولا هم سياسيون راديكاليون ، بل مجرد « مدافعين عن ارادة الشعب
ان صحيفة الارهابيين تتصور ان اهتمام الراديكاليين « في الغرب »منصرف كليا الى القضايا السياسية التي لا يريد الاشتراكيون ، على العكس من ذلك ، ان يعرفوا شيئا عنها ولكن كل من يملك أقل اطلاع على البرامج الاشتراكية في أوروبا الغربية يدرك بكل تأكيد خطل مثل هذه النظرة عند غالبيتهم العظمى . ومن المعروف أن الديموقراطية الاجتماعية في اوروبا أو في أميركا لم تنحز مبدئيا قط الى جانب « نزعة التغيب » السياسية وان أنصارها لا يتظاهرون أبدا بجهل « السياسة » ؛ انهم بكل بساطة لا يتصورون رسالة الثورة الاشتراكية في شكل « نهضة لكل الشعب عامة » ، وهم يعملون على تنظيم العمال في حزب على حدة كي يفصلوا بهذه الطريقة المستغَلين عن المستغِلين ويعطوا ترجمة سياسية للتضاد الاجتماعي . من اين استخرجنا هذا اليقين ، المناقض جداً للواقع ، بأن الاشتراكية تفترض اللامبالاة السياسية ؟ ان فالنشتاين بطل شيللر يقول لماكس بيكولوميني : فكر الانسان واسع والعالم ضيق ؛ ولذا فان الافكار تتوافق بكل يسر في ذاك ، بينما الاشياء في هذا تتصادم بكل عنف افلا يجب أن نعترف من جهتنا بأن دماغنا ، على النقيض من ذلك ، لا يتوصل الى التوفيق بين الافكار التي لا تقتصر اغراضها ، في الممارسة ، على التوافق على أكمل وجه فحسب ، بل لا يمكن تصورها أيضا الواحدة دون

الاخرى ؟ كي نجيب عن هذا السؤال ينبغي لنا بادىء الامر أن نوضح الافكار التي كانت تراود ثوريينا بشأن الاشتراكية في العصر الذي ظهرت فيه الاتجاهات السياسية في وسطهم واما نقتنع بأن هذه الافكار كانت مغلوطة او متجاوزة ، فاننا سوف نتساءل عن الموضع الذي تعينه للنضال السياسي العقيدة التي لا يساوم خصومها البورجوازيون انفسهم ابدا بشأن تسميتها **الاشتراكية العلمية** وعندئذ فانه لن يتبقى أمامنا الا أن نحمل الى استنتاجاتنا العامة الملطفات التي تفرضها بالضرورة هذه الخصائص أو تلك للاوضاع القائمة في روسيا حاليا ، وبذلك نكون قد استنفذنا موضوعنا ، ويكون النضال السياسي للطبقة العاملة ضد اعدائها ، مهما يكن التشكيل السياسي الذي ينتسبون اليه ، قد كشف لنا بصورة نهائية عن ارتباطه بمهمات الاشتراكية بمجموعها

١

لقد مارست الدعاية الاشتراكية تأثيرا كبيرا جدا في تطوير الاذهان في البلدان المتحضرة ، ونكاد لانجد فرعا واحدا من العلوم الاجتماعية لم تؤثر هذه الدعاية فيه بهذا الاتجاه أو ذاك لقد دمرت جزئيا المستبقات العلمية القديمة ونقلت مستبقات أخرى من مرتبة الغلط الساذج الى مرتبة المغالطة ومن البدهي أن تأثير الدعاية الاشتراكية يجب أن يكون أشد فعلا في أنصار العقيدة الجديدة فقد أخضع تقليد الثوريين «السياسيين» القدامى برمته لنقد لا هوادة فيه ، كما حددت جميع أنماط النشاط الاجتماعي من زاوية هذا « الانجيل الجديد » . ولكن بما أن الاسس العلمية للاشتراكية لم ترس بصورة جازمة الا مع ظهور **رأس المال**(٨) ، فاننا ندرك أيضا أن نتائج هذا النقد لم تكن مرضية في بعض الاحيان وبما انه قد تواجدت ، من جهة أخرى ، في الاشتراكية الطوباوية عدة مدارس ذات تأثير متعادل على وجه التقريب ، فقد تشكل شيئا فشيئا نوع من الاشتراكية المتوسطة انضم اليها اولئك الذين ما كانوا يزعمون تأسيس مدرسة جديدة ، وان لم يعدوا من جراء ذلك في عداد المتحمسين للمدارس القائمة

ويقول انجلز

« ان هذه الاشتراكية الانتقائية تقدم مزيجا متنافرا حتى الدرجة القصوى تندرج فيه بغزارة ملاحظات نقدية معتدلة ، وفروض اقتصادية وتصورات شيع مختلفة عن المجتمع المقبل – وهو مزيج يسهل الحصول عليه بقدر ماتفقد عناصره المركبة المتباينة في المجالات العديدة زواياها الحادة وحروفها مثل الاحجار في المياه »*

(*) انظر **Entwicklung des Sozialismus** ، ص ١٨ .

ويستطرد المؤلف قائلا ان هذه الأشتراكية المتوسطة لا تبرح سائدة في غالبية الرؤوس بين العمال الاشتراكيين في انكلترا وفرنسا* ونستطيع نحن الروس أن نضيف خليطا مماثلا ساد حوالي عام ١٨٧٥ في أذهان اشتراكيينا ، وهي ارض مشتركة كان ينفصل عليها اتجاهان متطرفان : جماعة « الىالأمام »(٩) والباكونينيون(١٠) وكان الاولون يميلون الى الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ، أما الاخيرون فيمثلون النسخة الروسية للفئة الفوضوية من الامية(١١) ومن العجب أن هذين الاتجاهين المتعارضين في جميع الأمور ، أو جميعها على وجه التقريب ، كانا يتشاركان في رفضهما « السياسة » ويجب أن نعترف بأن الفوضويين ، من وجهة النظر هذه ، كانوا يبدون منطقيين اكثر من الاشتراكيين الديموقراطيين الروس لتلك المرحلة

ان المسألة السياسية تشكل ، من وجهة النظر الفوضوية ، حجر الاساس في كل برنامج عمالي ويحذف الفوضويون الذين لا يكتفون برفض اي تعامل مع الدولة الحديثة من تصورهم « للمجتمع المقبل » كل ما يذكر بفكرة الدولة من قريب أو بعيد ان «الفرد المستقل في مشاعة مستقلة» يظل شعار جميع اتباع هذه الحركة الذين يظلون منطقيين مع أنفسهم ومن المعروف أن مؤسسها برودون يتخذ في صوت الشعب المهمة الطموح حتى درجة ما بأن يفعل بفكرة « الحكومة » (التي يخلط بينها وبين فكرة الدولة) ما فعله كانط « بالدين »** ويبالغ في الحماسة المضادة للدولة حتى يجعل من ارسطو شكيا في موضوعالدولة »*** وان حل القضية المطروحة على هذا الفرار أمر يسير جدا ، ينشأ بصورة منطقية جدا ، اذا

(*) في فرنسا انتصرت الماركسية اليوم بصورة حاسمة وان « الانتهازيين » من معسكر جوريس يعترفون اليوم ، هم ايضا ، بفرضياتها الاساسية بشكل أكثر أو اقل اخلاصا (ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥)

** انظر Les confessions d'un révolutionnaire [اعترافات ثوري] ، المقدمة ، ص ٤

(***) تنفجر هذه الشكية منذ الفصل الاول من الكتاب الاول من مؤلف السياسة ، حيث يعلن أرسطو أن « الدولة » هي « الرابطة الاهم ، الرابطة التي تشتمل على جميع الرابطات الاخرى غايتها هي اول الخيرات الدولة حدث من الطبيعة ، وان الانسان هو بصورة طبيعية حيوان سياسي » ان مؤلف السياسة يبدي حيال الدولة نفس الشكية » التي يبديها برودون حيال الانتاج السلعي فلم يكن ارسطو يستطيع ان يتصور شكلا أكمل للجماعية ، كما ان فكرة امكانية توزيع الانتاج بين أعضاء المجتمع بشكل يختلف عن شكل السلع لم تلح للذهن برودون مطلقا .

جاز التعبير ، من النظريات الاقتصادية لكانط الفرنسي هذا فبرودون لم يستطع قط أن يتصور النظام الاقتصادي المستقبل الا في شكل انتاج سلعي يصححه ويكمله شكل جديد للمبادلة « العادلة » المؤسسة على القيمة المتكونة » ، وهي مبادلة من البدهي أن « عدالتها » لا تستبعد الشراء ، ولا البيع، ولا الالتزامات التعاقدية المصاحبة للانتاج والتداول السلعيين ومن المؤكد ان هذه المنظومة من الصفقات تفترض مجموعة من العقود تحدد علاقات الفرقاء ؛ ولكن بينما تقوم هذه العقود في المجتمع الحالي على أساس قواعد من الحق العام الزامية بالنسبة الى كل مواطن وتكون الدولة حارسة عليها ، فان الامور سوف تجري بصورة مغايرة قليلا في « المجتمع المقبل » فعند برودون ان الثورة يجب أن تدمر « القوانين » فلا تبقي الا «العقود» وهو يقول في Idée générale de la Revolution au XIXe Siècle [الفكرة العامة للثورة في القرن التاسع عشر] : «لا قوانين تقر البتة ، لا بالغالبية ولا بالاجماع ؛ ان كل مواطن وكل مشاعة وكل نقابة حرفية تصنع قانونها الخاص » (ص : ٢٥٩) ان برنامج البروليتاريا السياسي يتبسط بمثل هذا التصور حتى الحد الاقصى . أن دولة تعترف بالقوانين العامة فحسب ، الالزامية بالنسبة الى جميع المواطنين ، لا يمكن أن تخدم حتى كواسطة من أجل بلوغ المثل الاعلى الاشتراكي : واذا ما استخدمها الاشتراكيون لأغراضهم لم يفعلوا سوى تقوية الشر الذي ينبغي « للتصفية الاجتماعية » استئصاله في المحل الاول . ان على الدولة أن « تتفسخ » ، تاركة بذلك « لكل مواطن وكل مشاعة وكل نقابة حرفية» ملء الحرية في اصدار « القوانين » وعقد « العقود » الضرورية واذا لم يضع الفوضويون الوقت خلال المرحلة التي سوف تسبق « التصفية » ، فان هذه « العقود » سوف تكون محررة بروح **نظام التناقضات الاقتصادية،** وبذلك يضمن انتصار « الثورة » .

وتصبح القضية أبسط من ذلك أيضا مع الفوضويين الروس ان « دمار الدولة » (الذي يحل شيئا فشيئا في البرنامج الفوضوي محل « التفسخ » الذي يوصي برودون به) يجب أن يشق الطريق أمام المثل العليا للشعب الروسي ولما كانت الزراعة المشاعية والتعاونية الانتاجية تحتلان مكان الصدارة في « المثل العليا » المقصودة ، فانه يفترض أن « الروسيين المستقلين » من أصل ديموقراطي سوف يعقدون « عقودهم » ليس بروح التعاونية البرودونية ، بل بروح الشيوعية الزراعية ان الشعب الروسي ، « الاشتراكي بالولادة » ، لن يتوانى عن ادراك أن الملكية المشاعية للارض وأدوات الانتاج لا تضمن له لوحدها « المساواة » المرجوة، ولابد له أن يعمل على تنظيم « مشاعات مستقلة » على أسس شيوعية كليا.

ومهما يكن من شيء ، فان الفوضويين الروس – على الاقل الفوضويين من الصيغة التي توصف « بالمشاغبة » – ما كانوا يتخلفون مطلقا عند العواقب الاقتصادية للثورة الشعبية التي كانوا يبشرون بها ولما كانوا يعتبرون من واجبهم القضاء على الشروط الاجتماعية التي تعوق في رأيهم التطور الطبيعي للحياة الشعبية ، فانهم لم يتساءلوا عن الطريق التي سوف يسلكها هذا التطور اذا ما تحرر مرة من العوائق الخارجية أما أن هذا التكييف للشعار الشهير لمدرسة مانشستر « Laissez faire, laissez passer* » مع الذوق الثوري يستبق كل امكانية لاصدار حكم جدي على الحالة الراهنة لحياتنا الاجتماعية والاقتصادية ويحذف كل مقياس يتيح امكانية تحديد فكرة التطور الطبيعي فهذا ما لم يشك فيه لا المشاغبون ولا « الشعبيون » الذين ظهروا في وقت لاحق وفضلا عن ذلك ، فانها محاولة لا رجاء منها على الاطلاق ان يقصد الى اصدار مثل هذا الحكم طالما احتفظ ثوريونا بعقيدة برودون منطلقا لمحاكماتهم وبالفعل ، فان ضعف هذه العقيدة ، خطيئتها الاصلية، يكمن في فكرتي السلعة والقيمة التبادلية ، وهما المقدمتان الوحيدتان اللتان يمكن أن تستخلص منهما العلاقات بين المنتجين في التنظيم الاقتصادي للمستقبل ومن وجهة نظر النظريات البرودونية ، فان حقيقة ان الزراعة المشاعية في روسيا الحالية لا تستبعد الانتاج السلعي هي ذات أهمية ثانوية جدا ان البرودوني يجهل الجدلية الباطنية الحتمية » التي تحول ، في مرحلة معينة من التطور ، الانتاج السلعي الى انتاج رأسمالي** وهكذا لم تخطر لابن عمه الروسي فكرة التساؤل عما اذا كانت الجهود المبعثرة للافراد والمشاعات والنقابات الحرفية « المستقلة » تكفيها من أجل النضال ضد اتجاه للانتاج السلعي يهدد بأن يوفر ذات يوم جميل رساميل « مكتسبة جيدا » لقسم من هؤلاء « الشيوعيين بالولادة » تحولهم الى مستغلين لبقية السكان ان الفوضوي ينكر دور الدولة البناء في الثورة الاشتراكية لانه لا يفهم رسالة هذه الثورة وشروطها

وبما انه ليس في مقدورنا هنا ان نعمد الى تحليل مفصل لا للفوضوية عامة ولا للباكونينية » خاصة*** فان كل ما نريده هو ان نلفت انتباه القارىء الى هذه النقطة.

(*) [دعه يفعل ، دعه يمر]

(**) انظر **رأس المال** ، الطبعة الالمانية ، المجلد الثاني ، ص ٦٠٧ – ٦٠٨

(***) لنقتصر هنا على التذكير بالاعتراض الذي قدمه ريتنغهاوسن ضد برودون يقول الداعية الذي لا يتعب للتشريع المباشر من قبل الشعب ان السلطة ، والحكومة بمختلف اشكالها ، والادارة ، **أنواع** قليلة التعريف أو التحديد **لنمط** يسمى **تدخل المجتمع في علاقة البشر بالاشياء وبالتالي في علاقة البشر فيما بينهم** فليجرب ، واني اتحداه يرمي في وجهي مثل هذه النتيجة كنتيجة لجهوده الذهنية : « كلا ، لا داعي لتدخل المجتمع في علاقات البشر بالاشياء وبالتالي علاقات

لقد كان برودون ، مثله مثل الباكونينيين الروس ، على صواب مطلق من وجهة نظرهم حين جعلوا من عدم التدخل السياسي عقيدة اساسية في برنامجهم السياسي فقد كان يبدو أن البنية الاجتماعية والسياسية للحياة الروسية تسوغ بصورة خاصة الألزام برفض « السياسة » بالنسبة الى جميع الفوضويين ان على « الرعية » الروسي ، قبل ان ينزل الى حلبة التحريض السياسي ، أن يتحول الى « مواطن » ، يعني أن يفوز بحد ادنى من الحقوق السياسية ، وفي المحل الاول ، بكل تأكيد ، الحق في أن يفكر ما يريد ويقول ما يفكر ان هذه القضية لترتد في الممارسة الى قضية « الثورة السياسية » ، وقد اثبتت تجربة اوروبا الغربية لجميع الفوضويين بكل وضوح ان الثورات التي من هذا النوع لم تفد الشعب قط ولا تستطيع أن تفيده وأما فكرة ضرورة تربية الشعب السياسية بواسطة الاسهام في الشؤون السياسية ، فان طرحها لم يكن ممكنا على بساط البحث لمجرد حقيقة أن الفوضويين يعتبرون كما رأينا مثل هذا الاسهام مفسدا للجماهير الشعبية بالاحرى منه مثقفا لها نظرا لانه سوف ينمي عند هذه الجماهير الايمان بالدولة ، وبنتيجة ذلك الاتجاه الى الدولتية ، أو كما كان الراحل باكونين يقول ، نظرا لانه يحقن سم الرسمي والاجتماعي ، وعلى الاقل يحول الانظار ، ولو لبرهة من الزمن ، عن الشيء الوحيد النافع والملائم حاليا ، الا وهي الفتنة* » وبما ان الشعب الروسي قد قدم ، حسب فلسفة التاريخ الخاصة بأصحابنا « المشاغبين ، البرهان على كراهيته للدولة بمجموعة كاملة من الانتفاضات الكبيرة والصغيرة ، فانه في الامكان اعتباره على اقدر كاف من النضوج من وجهة النظر السياسية أف اذن من جميع « الدسائس ا سية فلنساعد الشعب في كفاحه ضد الدولة فلنجمع جهوده المبعثرة في تيار ثوري واحد ؛ ولسوف ينهار البناء المتزعزع ، ويفتتح سقوطه عصرا من الحرية الاجتماعية والمساواة الاقتصادية لقد كان برنامج المشاغبين ينحصر برمته في هذه الكلمات القليلة

يجب ألا يغيب عن نظرنا مطلقا في هذه الخلاصة لبرنامج الفئات الثورية الروسية ان النظرية التي تنص على ان « جميع الدساتير » لا تعدو كونها ، حسب صيغة العجوز فريديريك جاكوبي ، مساومات أكثر أو أقل فائدة مع الشيطان ،

البشر فيما بينهم انظر **التشريع المباشر من قبل الشعب وخصومه** ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ كان رينتغهاوسن يحسب طرح المسألة بهذه الطريقة حل لها طالما السيد برودون يعترف **بضرورة التدخل الاجتماعي** ولم يكن يتوقع ان يمضي التلامذة أبعد من معلمهم وأن نظرية **الفوضوية** سوف تستحيل مع الزمن الى نظرية عن « اللاشكلية الاجتماعية » ان الفوضويين اليوم يرفضون كل تدخل من قبل المجتمع في العلاقات بين الافراد ، وقد نادوا بذلك اكثر من مرة في صحفهم.

(*) انظر كراسة باكونين المميزة والبالغة الاهمية **العلم والقضية الثورية** .

اقول يجب الا يغيب عن نظرنا مطلقا أن هذه النظرية لم تكن وقفا على الشعبيين والفوضويين.
ان القارىء المطلع على المناظرة بين انجلز وتكاتشوف* يتذكر من دون ريب أن رئيس تحرير **الناقوس**(١٣) ، **بالرغم من خلافاته مع انصار باكونين في مسألة النضال العملي،** كان يوافق كليا على حكمهم الشامل بشأن حالة بلدنا **السياسية والاجتماعية لقد كان يرى هذه الحالة من خلال نفس الموشور الخاص بالاصالة النوعية لروسيا** و النوازع الشيوعية الفطرية عند الشعب الروسي** ومن المؤكد أنه لم يكن، **بوصفه نصيرا مخلصا لبلانكي ، ينكر السياسة ؛ بيد أنه لم يكن يفهمها الا في صورة مؤامرة تستهدف استلام السلطة وكان هذا الهدف يسد من دون ريب الساحة البصرية امام اصحابنا البلانكيين في ذلك الحين ، اذ ما أكثر ما قادهم الى التناقض مع انفسهم واما كانوا معنيين بالبقاء منطقيين مع انفسهم ، فانه لم يكن لهم بد من الاعتراف بأن عملهم لا يمكن ان يعود بالفائدة على قضية التقدم الا في الحالة الاستثنائية حيث الضربة الموجهة لا تنحرف قيد شعرة مطلقا أما اذا أخفق الاستيلاء** على السلطة ، اذا طاشت المؤامرة او قلبت الحكومة الثورية من قبل الليبراليين، فان **الشعب الروسي يجازف بأن يفقد الشيء الكثير بالاحرى من أن يكسب أي شيء على الاطلاق ولقد كانت تلك الامكانية مأسوية بشكل خصوصي ان الليبراليين لن يتأخروا عن اقامة حكومة قوية سوف تكون محاربتها أصعب جدا من ملكيتنا الحالية « المطلقة بصورة سخيفة و السخيفة بصورة مطلقة ان لهيب التقدم الاقتصادي سوف يدمر الاسس الاصلية للحياة الشعبية ، مؤديا الى تطور المبادلات ، وتثبيت الراسمالية ، ومحق مبدأ المشاعة الريفية بالذات ؛ وبكلمة واحدة فان تيار الزمن سوف يجرف الحجر الذي لم يكن الامر يتطلب من المرء** أكثر من أن يمد ذراعه منه كي يطال سماء الشيوعية وبما أن البلانكيين الروس **سيكونون قد وجهوا ضربة رهيبة الى قضية التحرر في حال الفشل ، فانهم يضعون انفسهم في الوضع الفاجع لغليوم تل ، باستثناء أن مهارة « المتمرد السويسري الاسطوري ليست من نصيبهم ، وان الشعب حين يطلع على أفكارهم عن « الاسس الاصلية ويدعى الى اعطاء رأيه بخصوص برنامجهم سوف يمتنع عن الهتاف أطلق ، لست خائفا البتة !**

(*) انظر **Otiener Briet au Hern Fr.Engels**

[رسالة مفتوحة الى السيد ف. انجلز]

(**) كي نقتنع بذلك ، يكفي أن نقارن الرسالة السابقة الذكر الى انجلز مع كراسة باكونين التي ورد ذكرها أعلاه .

ان فلسفة للتاريخ الروسي على هذا القدر من الضيق وبلا منفذ حتى هذه الدرجة لابد ان تنتهي بصورة منطقية الى النتيجة المذهلة بأن تخلف البلاد الاقتصادي اضمن حليف للثورة ، وان الركودة يجب ان تشكل البند الاول والاوحد « لبرنامجنا الادنى وانا لنقرأ في العدد الاول من الناقوس ، في تشرين الثاني ۱۸۷۷ « كل يوم يجلب الينا أعداء جدداً ، ويخلق عوامل اجتماعية جديدة معادية لنا ولقد اخذ اللهيب يلحس أشكالنا الدولية أيضا فهي قد ماتت الآن ، وتصلبت ، لكن التقدم الاقتصادي سوف يبعثها لسوف ينفخ فيها روحا جديدا ، ويمنحها القدرة والصلابة اللذين تفتقر اليهما في هذه اللحظة » ، الخ. لكنه اذا كان أشعيا قد نجح في رواية التوراة في ايقاف الشمس ، فان زمن المعجزات قد ولى ، ولا وجود لحزب سياسي قادر أن يهتف توقفي يا قوى الانتاج ! لآ تتحركي بعد الآن أيتها الرأسمالية ! » ان التاريخ لا يمنح مخاوف الثوريين اهتماما أعظم مما يمنح مرائي الرجعية ، و التقدم الآقتصادي ينجز عمله دون او ينتظر الفوضويين أو البلانكيين حتى يحققوا أهدافهم ان كل مصنع يؤسس في بطرسبورغ وكل عامل يشغل من قبل أحد الحرفيين في أياروسلافل يحييان لهيب التقدم » هذا الذي يقال انه قاض بالنسبة الى الثورة ويقللان من احتمال الانتصار الشعبي ايكون لنا الحق في نعت هذا التصور لعلاقة القوى الاجتماعية في روسيا بالتصور الثوري ؟ يتراءى لي أن لا لقد كان على الفوضويين والشعبيين والبلانكيين في روسيا ، كي يصبحوا ثوريين بالفعل لا بالاسم وحده ، ان يضعوا قبلا الثورة في ادمغتهم الخاصة ، وان يتعلموا في سبيل ذلك كيف يفهمون التطور التاريخي كيما يتزعموه بدلا من ان يتوسلوا الى الجد التاريخ أن يبطىء من خطواته حتى يتمكنوا من أن يشقوا له دروبا جديدة أكثر استقامة وأفضل تمهيدا

لقد كان فريق « الى الأمام يرى كم تفتقر هذه الآراء الضالة الى الرصانة ، وكان ثمة زمن استطاع ان يمارس فيه تأثيرا فكريا سائدا في وسطنا الثوري ، وذلك حين كانت التجربة العملية قد قرضت حتى درجة ما أسس الشعبية الفوضوية القديمة وكان جميع انصارها يستشعرون ضرورة المراجعة الجدية لبرنامجهم ولقد كان في مقدور نقد منهجي لجميع البيانات النظرية والعملية ان يجعل اذن الانعطاف المطل أشد حسما وأكثر حتمية ، كما كان من الايسر جدا على جماعة « الى الامام » ان ينخرطوا في هذا النقد طالما ان أيديهم كانت طليقة حيال العرف الشعبي ، هم الذين كانوا منضوين كليا على وجه التقريب تحت لواء الآراء الاشتراكية الديموقراطية. بيد أنه كان من واجب هذا النقد كي يبلغ اربه لا أن يدين الضرورات اليومية للواقع الروسي التي كانت تدفع ثوريينا أكثر فأكثر نحو النضال السياسي بل ان يفسرها ويستخلص العبرة منها بيد أن جماعة « الى الامام » كانوا يرفضون « السياسة » بما لا يقل من القوة عن رفض الفوضويين لها ومن المؤكد انهم ما كانوا يحسبون

ان الاشتراكية تمنع من التدخل في الحياة السياسية البورجوازية ، وكانوا يؤيدون كل التأييد برنامج الاشتراكية الديموقراطية الغربية سوى أنهم كانوا يجدون أن حق تنظيم الطبقة العاملة في حزب سياسي خاص يكلف غاليا في الدولة « الشرعية » في اليوم الراهن ان ثمنه الانتصار الحاسم للبورجوازية وتفاقم نصيب العمال الذي يصاحب عصر الراسمالية ولقد نسوا انه من الواجب في سبيل تقدير الوضع أن يؤخذ بعين الاعتبار لا توزيع الدخل القومي فحسب ، **بل جماع تنظيم الانتاج والمبادلة** ؛ لا **المقدار المتوسط** للمنتجات المستهلكة من قبل العمال فحسب ، **بل المظهر** الذي ترتديه هذه المنتجات* ؛ لا **شدة** الاستغلال فحسب ، بل ـ بصورة رئيسية ـ **شكله** ؛ لا **حقيقة استبعاد** الجماهير العمالية فحسب ، بل كذلك **الافكار والمفاهيم** التي تولد أو يمكن ان تولد في ذهن العامل تحت تأثير تلك الحقيقة**

ولقد كانوا يعترفون على أية حال بأن الانتقال بصورة خاصة من الاقتصاد الطبيعي الى الاقتصاد النقدي يضاعف من امكانيات حركة واعية للجماهير العمالية في سبيل تحررها الاقتصادي . ان القسم الفلسفي والتاريخي من عقيدة ماركس قد ظل بالنسبة اليهم صفحات مطوية من كتاب هو في متناول اليد ابدا لقد كان ايمانهم بالفضيلة الكلية القدرة لدعايتهم أعظم من أن يبحثوا عن سند لها في الشروط الموضوعية للحياة الاقتصادية ولقد كانوا يرجعون الى هذه الدعاية ، مثلهم مثل الاشتراكيين في المرحلة الطوباوية ، كل تاريخ البلد المقبل حتى الثورة الاشتراكية واما طرحت المسألة على هذا الفرار ، فقد كان في مقدورهم أن يقولوا مثل الفوضويين ، وهم يحرفون ساخرين عبارة برودون الشهيرة الثورة فوق السياسة La révolution est au dessus de la politique *** لكن ذلك كان على وجه الدقة السبب الذي كان يمنعهم من انتزاع حركتنا من النقطة الميتة التي انحشرت فيها حوالي عام ١٨٨٠ من جراء رفض كل نضال سياسي من جهة ، ومن جهة ثانية من جراء استحالة خلق حزب عمالي اكثر أو أقل قوة في الظروف السياسية الراهنة

ومما لا ريب فيه أن شرف اعطاء انطلاقة جديدة لحركتنا يعود الى « ارادة الشعب » وان الهجمات التي تعرض لها هذا الاتجاه حاضرة في ذاكرتنا جميعا ، وكاتب هذه السطور يعدّ هو نفسه بين خصومها الحازمين ، وبالرغم من اعترافه اليوم اعترافا تاما بأن الكفاح من أجل الحرية السياسية أصبح قضية الساعة في

(*) يعني اذا مثلت في شكل سلع ، او اذا استهلكت بصورة فورية من قبل أسرة المنتج ، أو رئيسه ، أو أخيرا الد ولة ، دون ان تظهر في السوق

(**) يرجى أن يؤخذ بعين الاعتبار اننا لا نتحدث عن هيئة تحرير الى الامام ، بل عن انصار هذه المجلة في روسيا

(***) [الثورة فوق السياسة]

روسيا فانه لا يشارك بعد ، وما أبعده عن ذلك ، في جميع الآراء التي كانوا ينادون بها في كتابات هذا الفريق ولا يمنعه هذا من أن يقرر ان الحق كل الحق كان الى جانب مؤيدي « ارادة الشعب » اثناء المناقشات التي جرت داخل فريق «الارض والحرية» حوالي فترة انحلاله(١٤) ، وذلك بقدر ما ظل هذا الفريق على ارض تجربتنا العملية. ان هذه التجربة المذكورة قد انتهت منذ ذلك الحين الى نتائج بارزة وغير متوقعة على الاطلاق، وهذا بالرغم من اننا لم نجرؤ على استخلاصها بسبب هذه الصفة غير المتوقعة بالضبط وفي الحقيقة ان محاولات النضال العملي « ضد الدولة كان يجب أن تقود منذ ذلك الحين الى الفكرة القائلة ان « المشاغب الروسي مجبر بفعل قوة الظروف القاهرة على توجيه تحريضه ليس ضد الدولة عامة بل ضد الدولة الاستبدادية ، وعلى محاربة لا فكرة الدولة بل فكرة البيروقراطية ، وذلك ليس باسم تحرر الشعب الاقتصادي الشامل بل باسم الغاء الاعباء التي ترهق الاوتوقراطية الامبراطورية الشعب بها ومن المؤكد أن المسألة الزراعية كانت في أصل جميع تظاهرات الاستياء الشعبي أو أصل جميع هذه التظاهرات على وجه التقريب وما كان يمكن ان يكون الأمر خلاف ذلك بين سكان من المزارعين حيث تفرض « قوة الارض نفسها في البيئة بمجموعها ، في جميع حاجات الحياة ، الخاصة والعامة على حد سواء ولقد كانت هذه المسألة الزراعية تتطلب حلا عاجلا بيد ان ما كانت تثيره لم يكن استياء سياسيا البتة ولقد كان الفلاحون ينتظرون بثقة مطمئنة حلها من فوق ، وما كانوا « ينتفضون » باسم اقتسام الاراضي بل ضد مضايقات الادارة، وضد عبء نظام ضرائبي شديد الارهاق ، وضد الاساليب الآسيوية في تحصيل الضرائب المتخلفة ، الخ وعلى النقيض مما كنا نحسب جميعا في ذلك الحين ، فان صيغة « الدولة الشرعية لا صيغة « الارض والحرية هي التي كانت تفسر معظم حالات الاحتجاج النشيط لكنه اذا كان الامر كذلك ، اذا كان الثوريون يعتبرون من واجبهم أن يساهموا في الكفاح العفوي والمشتت للمشاعات الريفية المنعزلة ضد الملكية المطلقة ، أفما حان الوقت من أجل فهم معنى جهودهم الخاصة ومن أجل استخدامها باحساس أوضح بالهدف المقصود ؟ أفما حان الوقت لدعوة جميع قوى التقدم الحية في روسيا الى هذا الكفاح ، وللهجوم على الحكم المطلق في مركزه الحيوي بعد ايجاد صيغة للوحدة الاوسع في سبيل هذا النضال ؟ ان « ارادة الشعب » ، حين أجابت عن هذين السؤالين بالايجاب ، ما كانت تفعل سوى استخلاص عبرة التجربة الثورية للسنوات السابقة ؛ وحين رفعت راية النضال السياسي لم تفعل الا أن تطبق هذه العبرة بكل شجاعة ، وان تواصل بوعي تلك الطريق التي كنا قد سلكناها دون أن نعرف أين تذهب ان الحركة « المشاغبة قد أنجبت « النزعة الارهابية » بصورة منطقيــة .

بيد ان تطور حركتنا الثوريـة المنطقي يدخل مع ظهور « ارادة الشعب » في مرحلة لم يعد يستطيع فيها الاكتفاء بالنظريات الشعبية للزمن القديم ، الزمن الذي كان المرء يظل فيه غريباً عن الاعتبارات السياسية . ان أمثلة تجاوز الممارسة للنظرية لا تنعدم في تاريخ الفكر عامة والفكر الثوري خاصة وما أكثر ما يحدث ألا يرتاب الثوري بالاختبار الذي يخضع له الافكار الشائعة القبول في وسطه حين يدخل هذا التعديل أو ذاك الى تكتيكه أو هـذا التصحيح أو ذاك الى برنامجه ان الكثيرين يقضون في السجون أو على أعواد المشانق واثقين من انهم عملوا بروح هذا التعليم ، بينما هم يمثلون في الحقيقة اتجاهات جديدة منبثقة من النظريات القديمة ، لكنها قد سبق فتجاوزتها ، وهي على وشك الحصول على تعبير عقائدي جديد كذلك كانت الحال عندنا منذ توطد اتجاه « ارادة الشعب » ولم تكن « ارادة الشعب » تصمد للنقد من زاوية الافكار الشعبية القديمة كان المذهب الشعبي يرفض بحزم كل مفهوم عن الدولة ، بينما كانت « ارادة الشعب » تعتمد على آلة الدولة من أجل تطبيق خططها عن الاصلاح الاجتماعي وكان المذهب الشعبي يلعن كل « سياسة » ، بينما كانت ارادة الشعب ترى في الثورة السياسية الديموقراطية «اداة الاصلاح الاجتماعي الأضمن وكان المذهب الشعبي يؤسس برنامجه على مطالب سكان الريف وعلى ما كان يسميه « مثلهم العليا » ، بينما لم يكن بد « لارادة الشعب» أن تتوجه بصورة رئيسية الى السكان الحضريين ، الصناعيين ، وأن تخصص بالتالي لمصالح هؤلاء السكان المكان الاهم في برنامجها وفي الحقيقة ان ارادة الشعب » كانت في سائر المجالات النقيض المطلق للمذهب الشعبي ؛ وطالما كان الفرقاء المختلفون يستنجدون بمبادىء هذا المذهب ، فقد كان من المحال الحكم للمجددين ، اذ كان نشاطهم العملي يتناقض بصورة عضالة مع مفاهيمهم النظرية ، وكان لابد من مراجعة تامة لهذه المفاهيم كي يضفى على برنامج « ارادة الشعب » الوحدة والمنطق اللذان كان هذا البرنامج يفتقر اليهما وعلى أي حال ، فانـه لم يكن بد لنشاط مؤيديها الثوري العملي أن يترافق بثورة نظرية في أذهان اشتراكيينا ؛ فحين فجر قصر الشتاء(١٥) ، كان ينبغي في الوقت نفسه تفجير تقاليدنا الفوضوية والشعبية القديمة بيد أن « مسيرة الافكار » تخلفت هنا أيضا عن مسيرة الأشياء ، ولا يمكننا ان نتنبأ بعد متى سوف تلحق بها أخيراً ولم يكن بد للاتجاه الجديد ، لانه لم يحزم أمره على القطيعة مع المذهب الشعبي ، أن يلجأ الى أوهام كانت تحل بصورة ظاهرية على الاقل التناقضات اللاصقة ببرنامجه ان فكرة « الاصالة النوعية » لروسيا قد تعرضت للتنقيح ؛ لقد قادت الى الرفض الشامل لكل سياسة ، وسوف يبرهن بعد الآن على أن نوعية تطور روسيا الاجتماعي يستقيم بالضبط في أن المسائل الاقتصادية قد حلت ويجب أن تحل فيه بواسطة تدخل الدولة وان الجهل الشديد الانتشار لدينا بتاريخ الغرب الاقتصادي يجعل أن « نظريات » من هذا النوع لا تدهش أحداً .

لقد جوبهت مرحلة التراكم الرأسمالي في روسيا بمرحلة الانتاج الرأسمالي في الغرب(١٦) ، واعتبر التنافر الحتمي بين هاتين المرحلتين من التطور الاقتصادي البرهان المفحم أولا على أصالتنا النوعية ، وثانيا على أن البرنامج الذي أسسته « ارادة الشعب » على النوعية الآنفة الذكر يتطابق مع اغراضه على أفضل صورة

ايجب أن نضيف أن كتابنا الثوريين — مثلهم كمثل غالبية الكتاب الروس — كانوا ينظرون الى الغرب بنفس العين التي كان ينظر بها التلميذ اليهودي المسكين في قصة فاينبرغ ، هذا الذي كان العالم ينقسم بالنسبة اليه الى قسمين : « روسيا والخارج ،والفوارق الوحيدة الجديرة بالاهتمام على وجه الكرة الارضية ترتد الى الفوارق التي تميز بين هذين « النصفين » ، علما بأن « الخارج » يشكل كلا منتظما بصورة حازمة ولم يجدد كتابنا « النوعيون » هذه الجغرافية الحاذقةالا في نقطة واحدة فهم يقسمون « الخارج » الى شرق وغرب ، ويشبهون عن طيبة خاطر هذا الشرق « بموطننا الصاعق » الذي ينسب اليه على هذا الفرار دور امبراطورية سماوية جديدة ان تطور ايطاليا التاريخي يوحد مع تطور فرنسا ، ولا يقام أي فارق بين سياسة انكلترا الاقتصادية وسياسة بروسيا ، ويوضع كولبر في نفس السلة مع ريتشارد غوبدن ، وتضيع الاصالة « الوطنية » لفريدريخ ليست في جمهرة الاقتصاديين « الغربيين » الذين يسعون جهدهم ، وفقا لنصيحة تورغو ، كي ينسوا أن ثمة دولا ذات حدود وذات تنظيم خاص وكما أن جميع القطط سوداء في الليل، كذلك يمحو النور الذي تعكسه أصالتنا النوعية كل الفوارق بين بلدان « الغرب » من وجهة نظر الحالة الاجتماعية تلك حقيقة بدهية : « فالفرنكيون » قد « تبرجزوا » منذ زمن طويل ، بينما احتفظ « الروس الشجعان » ببتولية « البشر الاولين » ، وهم يسلكون ، بوصفهم شعبا ممتازا ، طرقهم الخاصة وان كل ما يلزمهم ، في سبيل بلوغ الارض الموعودة ، هو الاّ يحيدواقط عن دربالنوعية ، ولا يدهشواقطلان برامج الاشتراكيين الروس تنقضها الاشتراكية العلمية الغربية ، بله مسلماتهم الخاصة أحيانا

وثمة مثال نموذجي على هذه الاوهام المهيئة كيفما اتفق في لمحة خاطفة كي تدخل البرنامج العملي « لارادة الشعب » في أطار النظريات الشعبية تلك هي النبوءة الشهيرة القائلة ان الجمعية التأسيسية الروسية المقبلة سوف تضم ٩٠ ٪ من أنصار الثورة الاجتماعية ، بشرط حصولنا على الاقتراع العام ان نظريةالنوعية تلامس هنا أعمدة هرقل التي اذا ما تجاوزتها تعرضت لخطر الفناء تحت ضربات الحس السليم الاكثر ابتذالا ان المؤمنين القدامى بالمذهب الشعبي يقبلون مع ذلك ، مهما يكن تمسكهم بهذه العقيدة شديدا ، بأنها تتطلب بعض اللمسات بعد . ان البعض يرى أن ولع — الف معذرة ، كنت أريد أن أقول حس — الاقدام والاستقلال موجود عند الشعب الروسي في حالة مضغية جدا بعد . ويسعىالبعض

الآخر الى التعبير عن المزاج النوعي لهذا الشعب في تنظيم ثوري لا يقل عن ذلك نوعية لكن الجميع يعترفون بضرورة العمل المسبق بين الجماهير وان ارادة الشعب تتجاوز هذا كله ، فافتتاحيات اعدادها الاولى تشرح فكرة أن مثل هذا العمل عقيم قبل كل شيء (« التخبط بين الشعب مثل سمكة في الجليد »(١٧) ، ونافل فضلا عن ذلك ، مادام ٩٠ ٪ من النواب الى جانب الثورة الاجتماعية يكفون كي يحققوا بدل غزارة اماني الشعبيين الروس وهكذا لم يكن في وسع برنامج « ارادة الشعب » ان يتظاهر بالمظهر الشعبي الا اذا بالغ حتى درجة السخف بالصفات المميزة لجسم العقيدة الشعبية

وان الفضيلة السلبية لاوهام « ارادة الشعب » تستقيم في هذه النقطة لقد ايقظت الفكر النقدي للثوريين الروس حين قدمت اليهم في ضوء كاريكاتوري الخصائص النوعية » لبرنامجهم الشعبي بيد انه ليس في الأمكان مطلقا الحديث عن فضيلتها الايجابية فاذا هي شدت بصورة مؤقتة من عزيمة المقاتلين الذين كانوا في حاجة الى تسويغ نظري لنشاطهم العملي فانها لم تصمد هي التي كانت متداخلة بصورة شيطانية ، لابسط لمسات النقد الجدي ، وقد أساء سقوطها الى المعركة التي كانت دائرة الرحى تحت راياتها ان « ارادة الشعب » ، بعد أن وجهت بنشاطها العملي ضربة قاضية الى جميع تقاليد المذهب الشعبي الاورثوذكسي ، وبذلت الكثير من اجل تقدم الحركة الثورية في روسيا ، لا تستطيع ان تجد مبررا لها ، ولا يجب أن تبحث لنفسها عن هذا المبرر ، الا في الإشتراكية العلمية الراهنة بيد أن من واجبها ، كي تتخذ وجهة النظر الجديدة هذه ، ان تعمد الى تعديل بالغ الجدية في برنامجها ، ذلك أن أخطاء هذا البرنامج ونقائصه النظرية تحد بصورة قاتلة من حقل نشاطها العملي

ولنحاول قبل ان نقول في أي اتجاه يجب ان يتم هذا التعديل ان نحدد ، وفقا لمشروعنا ، موقف الاشتراكية العملية حيال الحركات السياسية للطبقة العاملة

٢

ما هي الاشتراكية العلمية ؟ يقصد من هذه العبارة العقيدة الشيوعية التي أخذت تتطور بعد عام ١٨٤٠ انطلاقا من الاشتراكية الطوباوية تحت تأثير الفلسفة الهيغلية من جهة والاقتصاد الكلاسيكي من جهة أخرى ، وهي العقيدة التي كانت سباقة الى تقديم تفسير صالح لمجمل تطور الحضارة الانسانية ، والى تدمير سفسطات المنظرين البورجوازيين بلا رحمة ، والى وضع « كل المعرفة في زمانها » في خدمة البروليتاريا ولم تقتصر هذه العقيدة على بيان واضح كل الوضوح للفقر العلمي عند خصوم الاشتراكية ، مشيرة الى أخطائهم ، بل أعطت في الوقت نفسه التفسير العلمي لها ، « فربطت بذلك الى عربة انتصارها كلا من الآراء التي قهرتها » ، كي

تستعير صيغة هايم بخصوص فلسفة هيغل* وعلى غرار داروين الذي أغنى علم الحياة بفضل نظرية ذات بساطة تبعث على الذهول بالرغم من كونها علمية بصورة جازمة ، الا وهي نظرية أصل الأنواع ، فان مؤسسي الاشتراكية العلمية قد اظهرا لنا في تطور قوى الانتاج وفي صراعها ضد « شروط الأنتاج الاجتماعية » الباطلة المبدأ العظيم لتحول **انواع التنظيم الاجتماعي** أيجب أن نسمي ذينك اللذين نعتبرهما مؤسسي هذه الاشتراكية ؟ أن الفضل في ذلك يعود بصورة لا مراء فيها الى كارل ماركس وفريدريك انجلز اللذين تقف عقيدتهما حيال الحركةالثورية الراهنةللانسانية المتحضرة مثل موقف الفلسفة التقدمية الالمانية ، حسب قول احدهما ، حيال الحركة الوطنية الالمانية في وقت سابق انها تشكل **الرأس** منها ، بينما تشكل البروليتاريا **القلب** وعلى أي حال فانه من البدهي أن الاشتراكية العلمية لم تبلغ نهاية تطورها ، وان هذا التطور لا يتوقف عند مؤلفات انجلز وماركس ، بالضبط كما لا نستطيع ان نعتبر ان نظرية أصل الأنواع قد بلغت شكلها النهائي مع صدور النصوص الكبرى لعالم الحياة الانكليزي ان نص الفرضيات الاساسية للعقيدة الجديدة يجب أن يتبعه دراسة المسائل التفصيلية المنتسبة اليه ، وهي الدراسة التي ستكمل وتتوج الثورة التي حققها في العلم مؤلفا **البيان الشيوعي**** وليس ثمة فرع من علم الاجتماع لم يجدد ويوسع بصورة فائقة حقله البصري بتمثله آراءهما الفلسفية والتاريخية وقد بدأ الاثر الناجع لهذه النظريات يتضح منذ الآن فيدراسة التاريخ، والحقوق ، والحضارات المسماةبدائية الا ان هذا المظهر الفلسفيوالتاريخي للاشتراكية الحالية لا يبرح معروفا بصورة ضئيلة جدا في روسيا ، بحيث لا نرى أبدا من النافل أن نورد بعض المقتطفات التي تتيح الاحتكاك بنص ماركس بالذات

ان الأشتراكية العلمية التي تعود بأصولها الى « كانط وهيغل » بصورةخاصة هي مع ذلك العدو الاول والاحزم للمثالية انها تطردها من آخر مأوى لها ، من علم الاجتماع ، حيث استقبلها الوضعيون بكل ود انها تقترح « تصورا ماديا للتاريخ » يستقيم في تعليل تطور البشرية الروحي بتطور العلاقات الاجتماعية (وفضلا عن ذلك تحت تأثير البيئة الطبيعية) ومن وجهة النظر هذه ، كما من وجهة نظر فيكو ، فان

(*) [انظر هايم Hegel und seine Zeit ، برلين ١٨٥٧]

(**) ان السادة « نقاد ماركس » قد أخذوا فيما بعد علينا نحن « الاورثوذكسيين » اننا نعارض كل محاولة لتطوير أفكار ماركس ويرى القارىء اني لم اظهر أي نزوع الى الارتكاس على هذا الغرار لكنه من الامور المفهومة أن من واجبي ، بوصفي تلميذا لماركس ومدركا لما تتحلى به نظرياته من اهمية بالغة ، أن أعارض كل محاولة ترمي الى استبدال بعض النصوص الماركسية « بعقائد » بورجوازية متحجرة ولقد قمت بهذا الواجب في حدود وسائلي (ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥) .

« مجرى الافكار » هو الذي يتوقف على « مجرى الاشياء » وليس العكس وبالفعل، فان السبب الرئيسي للبنية الاجتماعية او تطورها يكمن في حالة قوى الانتاج وفي بنية المجتمع الاقتصادية التي تقابلها
يقول ماركس

« ان البشر يدخلون ، في سياق انتاج حياتهم الاجتماعي ، في علاقات محددة ولا غنى عنها ومستقلة عن ارادتهم ، علاقات تقابل مرحلة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية ان الحصيلة العامة لتلك العلاقات الانتاجية تشكل بنية المجتمع الاقتصادية ، وهي الاساس الواقعي الذي تنهض عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية والذي تقابله أشكال محددة من الوعي الاجتماعي ان نمط انتاج الحياة المادية يشترط التطور الحياتي الاجتماعي والسياسي والفكري بصورة عامة فليس وعي البشر هو الذي يقرر وجودهم ، بل الامر على النقيض من ذلك ، اذ أن وجودهم الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم ان العلاقات الحقوقية ، ومثلها أشكال الدولة ، لا يمكن أن تفسر لا من تلقاء ذاتها ، ولا بما يسمى التطور العام للفكر البشري ؛ انها تستمد جذورها بالاحرى من شروط الوجود المادية التي كان هيغل ، على غرار الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر ، يشملها تحت اسم « المجتمع المدني » ؛ بيد ان تشريح المجتمع يجب أن يبحث عنه في الاقتصاد السياسي

« وان قوى المجتمع الانتاجية المادية تدخل ، في مرحلة معينة من نموها ، في نزاع مع علاقات الانتاج القائمة ، أو — وهذا ما لا يعدو كونه التعبير الحقوقي عن الامر نفسه — مع علاقات الملكية التي كانت فعالة ضمنها حتى ذلك الحين وعندئذ تتحول هذه العلاقات من أشكال لتطور القوى الانتاجية الى قيود لها ، فيبدأ عصر من الثورة الاجتماعية ومع تبدل الاساس الاقتصادي تتعرض كل البنية الفوقية الهائلة للتحول بسرعة أكثر أو أقل ولا ينقرض نظام اجتماعي قط قبل أن تكون سائر القوى الانتاجية التي يتوفر لها مجال فيه قد تطورت ، كما ان علاقات الانتاج الجديدة والاعلى لا تظهر قط قبل ان تكون شروط وجودها المادية قد نشأت في أحشاء المجتمع القديم نفسه وبالتالي فان الجنس البشري لا يضع أبدا نصب عينيه سوى تلك المهمات التي يسعه حلها ، ما دمنا سنتبين دائما ، حين نمعن النظر في الامر ، ان المهمة نفسها لا تنشأ الا حين تكون الشروط المادية كلها قد توفرت مسبقا أو هي على الاقل في سبيل التكون .(*) »

اننا نفهم الآن السبب في أن ماركس وانجلز عاملا بكل ذلك الأزدراء الساخر « الاشتراكيين الحقيقيين »(١٨) آلالمان السابقين لعام ١٨٥٠ الذين كانوا ينكرون نضال

(*) مقدمة اسهام في نقد الاقتصاد السياسي [انظر ماركس وانجلز ، دراسات اقتصادية ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٤ ، ص : ٥٣ — ٥٤]

البورجوازية ضد الحكم المطلق ويبشرون الجماهير « بأنها لا تربح شيئا ، بل بالعكس تخسر كل شيء من وراء الحركة البورجوازية* ان نظرية التاريخ لماركس وانجلز تشكل « جبر الثورة الذي كان هرتزن يحسب انه واجده في الهيغلية** وهذا هو السبب في انهما ساندا « كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم ، كما انه السبب في مساندتهما بكل حرارة حركتنا التي كانت تجعل من روسيا ، حسب قولهما ، طليعة الثورة الاوروبية(١٩)

وبالرغم من أن وضوح أفكار ماركس لا يترك للالتباس أي مجال، فقد وفرت هذه الأفكار الفرصة لقدر كبير من سوء الفهم على صعيد النظرية والممارسة الثوريتين ومثال ذلك انهم يكررون عندنا أن نظرية الاشتراكية العلمية غير قابلة للتطبيق على روسيا نظرا لانها تقوم على أساس العلاقات الاقتصادية القائمة في أوروبا الغربية وانه لينسب الى ماركس الفكرة المضحكة بأن روسيا يجب أن تجتاز بالضبط نفس مراحل التطور التاريخي والاقتصادي التي اجتازها الغرب وان أكثر من فيلسوف روسي تأثر بهذا الاستنتاج الذي يتوهمونه حتميا ، وهو على اطلاع قليل على الماركسية وعلى تاريخ اوروبا الغربية على حد سواء ، قد حسب أن من واجبه ان يحمل السلاح ضد مؤلف **رأس المال** وان يدمغ تصوراته بتهمة التخطيطية الضيقة ومن البدهي ان ذلك قتال ضد طواحين هوائية ان اصحابنا من أشباه دون كيشوت لا يفهمون ان ماركس يستخدم تاريخ العلاقات الاقتصادية في أوروبا الغربية لهدف وحيد هو ايضاح **تاريخ الانتاج الرأسمالي** الذي نشأ وتطور في هذا القسم من العالم ان التصور الفلسفي والتاريخي لماركس يتناول أوروبا الغربية كما يتناول اليونان وروما والهند ومصر انه يشمل التاريخ البشري بأسره ولا يمكن أن يكون غير قابل للتطبيق على روسيا الا اذا كان مغلوطا ومفهوم أن مؤلف **رأس المال** ، وكذلك صديقه ومعاونه الشهير ، لا تغيب عن أبصارهما الخصائص الاقتصادية لكل بلد على حدة ، وهما يبحثان فيها وحدها عن تفسير لكل تطوره الاجتماعي والسياسي والفكري وهما لا يعميان عن أهمية مشاعتنا الزراعية ، وهذا ما يتبين من حقيقة أنهما ماكانا يؤمنان، منذ عام ١٨٨٢ ، بامكانية صياغة انذار جازم بخصوص مصيرها المقبل بل انهما ليقولان بكل صراحة في مقدمة ترجمتنا **لبيان الحزب الشيوعي** (جنيف ١٨٨٢)(٢٠)، أنها يمكن في بعض الشروط أن تنتقل مباشرة الى الشكل الشيوعي الاعلى » وفي رأيهما أن هذه الشروط تتوقف بصورة وثيقة على مسيرة الحركة الثورية في غربي أوروبا وفي روسيا وانهما ليقولان اذا ما أطلقت الثورة الروسية الاشارة من أجل ثورة عمالية في الغرب ، واذا ما تكاملت هاتان الثورتان ، فان الملكية المشاعية

(*) [**بيان الحزب الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ٧٠] .

(**) [الكسندر هرتزن **ذكريات وافكار**]

الراهنة في روسيا يمكن ان تخدم منطلقا من أجل تطور شيوعي » (البيان ، ص : VIII) ولسنا نعتقد أن ثمة « شعبيا يجرؤ على استنكار هذا الحل الشرطي لقضية المشاعة الزراعية ولسنا نعتقد أن كائنا من كان يجرؤ على الادعاء بأن نير الدولة المعاصرة يسهل تطور المشاعة المذكورة ، بله مجرد الحفاظ عليها ، ولن يكون ثمة شخص (بشرط أن يكون المرء على قدر من الاطلاع على أهمية العلاقات الاممية في الحياة الاقتصادية للمجتمعات المتحضرة الحالية) ينكر ان انتقال المشاعة الروسية الى « الشكل الشيوعي الاعلى » يتوقف بصورة وثيقة على مصائر الحركة العمالية في الغرب وعلى العموم فليس في أفكار ماركس عن روسيا أي شيء يناقض البداهة الاكثر أساسية ؛ وان المستبق السخيف الذي يتهم تلك الافكار « بالنزعة الغربية لا يملك حتى ظل الاساس المعقول

وثمة سوء فهم آخر يتناول بصورة مباشرة المسألة التي تهمنا ، مسألة دور النضال السياسي في تحول العلاقات الاجتماعية ، ومصدره قائم في عدم فهم أفكار ماركس عن دور العامل الاقتصادي في تقدم الحضارة وان هذه الافكار لتفسر على الاغلب وكأن مؤلف **رأس المال** لا يعزو الى النظام السياسي الا أهمية زهيدة ، وكأنه يعتبره أمرا ثانويا غير جدير بالتوقف عنده ، غير قمين بأن يشكل هدفا ، بله وسيلة للعمل النافع وليس من النادر اليوم أيضا أن نصادف عندنا « ماركسيين » يتخذون من ذلك أساسا من أجل انكار المهمات السياسية للاشتراكية ، قائلين ان العلاقات الاقتصادية هي في أساس كل تنظيم اجتماعي وان تبدل هذه العلاقات يشكل السبب في كل تعديل يطرأ على البنية السياسية وان من واجب الطبقة العاملة ، كي تتخلص من نير الرأسمال ، أن تعنى بالسبب من دون النتيجة بالتنظيم الاقتصادي للمجتمع من دون تنظيمه السياسي ان التنظيم السياسي لن يقرب العمال الى الهدف المقصود ، ذلك ان عبوديتهم السياسية سوف تظل قائمة ما لم يتم القضاء على تبعيتهم الاقتصادية حيال الطبقات المالكة . ان وسائل القتال التي يستخدمها العمال يجب أن تكون مناسبة لأغراض هذا القتال ، فلا يمكن اذن تحقيق الثورة الاقتصادية الا بالنضال على الارض الاقتصادية

اذا شئنا أن نبقى منطقيين مع انفسنا ، فان « الماركسية » المفهومة على هذا الغرار يجب أن تغير أفكار الأشتراكيين عن أغراض الثورة الاجتماعية ووسائلها بارجاعنا الى صيغة برودون الشهيرة الثورة السياسية هي الهدف ، أما الثورة الاجتماعية فالوسيلة » وانه ليجب أن تقارب كذلك حتى درجة كبيرة ، نظريا على الاقل ، بين الاشتراكيين الثوريين وتلك « الاشتراكية المحافظة » التي تعارض بكل عنف أي نشاط سياسي مستقل من جانب الطبقة العاملة وان رودبرتوس ، الممثل الاخير الذكي والشريف لهذه الاشتراكية ، هو الذي اختصم مع لاسال لان هذا الداعية الشهير كان يسعى لأن يدفع بالعمال الالمان في طريق نشاط سياسي من هذا النوع

ليس ماركس مطلقا ، بل رودبرتوس ، وليست الأشتراكية **الثورية** ، بل الاشتراكية **المحافظة** ، **الملكية** ، هي التي تنكر أهمية « مزج السياسة بالاهـداف الاقتصادية » للطبقة العاملة وان المحافظين ليفهمون على خير وجه السبب في هذا الموقف بيد أن اولئك الـذين يريدون التوفيـق بين الحركة الثورية للطبقـة العاملـة ورفض السياسة » ، اولئك الذين ينسبون الى ماركس اتجاهات برودون العملية ، بل اتجاهـات رودبرتوس ، هؤلاء يبرهنون بكـل جـلاء على انهـم لا يفهمـون مؤلف **رأس المال** مطلقا أو انهم يشوهون تعاليمه عن قصد وانا لنقول عن قصد ، لان الكتاب المعروف جيدا للاستاذ ايفانيوكوف من موسكو ليس شيئا آخر سوى تشويه مقصود لجميع النتائج الناجمة عن الفرضيات الاساسية للاشتراكية العلمية(٢١)
ان هذا الكتاب يبين أن **الاجتماعيين الشرطيين** الروس لا يمتنعون عن استغلال النظرية التي تخدم كراية للحركة الاكثر ثورية في قرننا لأغراضهم الخاصة الرجعية وان هذا الظرف يكفي ، لوحده ، كي يجعل من الضرورة بمكان دراسة البرنامج **السياسي** للاشتراكية الحالية دراسة مفصلة وهذا ما سوف نتصدى له ، دون ان ننجرف مع ذلك في المناظرة مع أمثال ايفانيوكوف ، طالما أنه يكفي أن نوضح المعنى الحقيقي لهذه النظرية أو تلك كي ندحض في الوقت نفسه التحريفات السيئة النية وفيما عدا ذلك ، فاننا سوف نوجه عنايتنا الرئيسية الى الثوريين الذين لا يبرحون مشربين حتى درجة كبيرة بالعقيدة الفوضوية ويميلون لهذا السبب ، بكل نية صادقة ، وربما بصورة لا شعورية ، لأن يبحثوا في مؤلفات ماركس عن مفاهيم لن تكون في موضعهـا الا في **الفكرة العامة للثورة في القرن التاسع عشر** وان نقد النتائج التي يستخلصونها من مفاهيم ماركس الفلسفية والتاريخية سوف تقودنا بصورة منطقية الى مسألـة ما يسمى **الاستيلاء على السلطة** وسوف تبين لنا من هو على صواب اولئك الذين يرون في هذا العمل لا أدري أية جريمة ضد فكرة الحرية ام اولئك الذين يكتشفون فيه ، على النقيض من ذلك ، ألفباء كل الحركة الاجتماعية الثورية

ولكن لنر بادىء ذي بدء مايعنيه مفهوماالسبب والنتيجة المطبقين علىالمجتمع.

اذا دفعنا كرة طاولة بيدنا أو بعصا أخذت في الحركة ؛ واذا ضربنا قطعة من حجر الصوان بقطعة فولاذية انطلقت شرارة ، وليس من العسير في هاتين الحالتين جميعا أن نقرر أية ظاهرة تلعب دور السبب وأية ظاهرة تمثل دور النتيجة

بيد أن هذه السهولة تعود الى بساطة القضية القصوى لكننا اذا أخذنا ، بدلا من ظاهرتين منعزلتين ، عملية تشترك فيها عدة ظواهر معا ، بل عدة مجموعات من الظواهر ، فان الامر سوف يتعقد ومثال ذلك أن شعلة الشمعة تشكل عملية معقدة نسبيا تؤدي نتيجتها الى ظهور النور والحرارة ولذا فاننا لن نتعرض في الظاهر للوقوع في الخطأ اذا قلنا أن الحرارة التي تطلقها الشعلة هي احدى نتائج هذه العملية الكيميائية وهذا صحيح حتى درجة ما . لكن اذا ما توصلنا بوسيلة

ما الى حرمان الشعلة من الحرارة التي تطلقها ، فان الاحتراق يتوقف في الوقت ذاته. طالما أن العملية التي تعنينا لا يمكن أن تحدث في الحرارة الطبيعية ، بحيث أن من يزعم أن الحرارة هي سبب الاحتراق يكون حتى درجة ما على صواب وحتى لا ننحرف عن الحقيقة في هذا المنحى أو ذاك ، فانه يجب أن يقال أن الحرارة التي تشكل في اللحظة ب نتيجة الاحتراق هي في اللحظة ج السبب فيه ، وبكلام آخر فانه يجب ان يقال ، فيما يتعلق بعملية الاحتراق في تعاقب مراحلها ، ان الحرارة هي في الوقت نفسه السبب والنتيجة ، أو أيضا لا النتيجة ولا السبب ، بل بكل بساطة احدى الظواهر التي تستدعيها هذه العملية والتي تشكل بالمقابل شرطها الضروري .
ولنأخذ مثالا آخر ، ليس ثمة حاجة لأن يكون المرء قد « أتم دراسته » كي يعرف ان العمليات الانباتية للعضوية الانسانية تملك تأثيرا عظيما في الظواهر النفسية ان المزاج هو نتيجة الحالة الحكمية للعضوية بيد أن مزاجا معينا يمارس في الاغلب تأثيره في العمليات الانباتية ، صائرا بذلك سببا في بعض التبدلات في الحالة الحكمية وكي لا نخطىء مطلقا في هذا المنحى أو ذاك فانه يجب أن يقال ان الظواهر النفسية والحياة الانباتية تشكل مجموعتين من العمليات المتواجدة تخضع كل منهما لفعل الاخرى واذا ما أقدم طبيب على جهل هذا الفعل النفسي مدعيا أن المزاج هو نتيجة الحالة الحكمية للعضوية ، فلا بد من الاعتراف بأن منطق المدرسة جعله عاجزا عن ممارسة حرفته بصورة عقلانية
ان الحياة الاجتماعية تتميز من حياة العضوية الفردية بتعقيد أعظم من ذلك ، ولذا كانت نسبية مفهومي السبب والنتيجة أكثر محسوسية فيها فوفقا للاقتصاد السياسي يحدد مستوى حاجات العامل الحيوية معدل الاجر وسطيا وبعبارة أخرى ، فان هذا المعدل نتيجة حالة معينة من حاجات العامل بيد أن هذه الحاجات، من جانبها ، لا يمكن أن تزداد الا اذا حدث ارتفاع في الاجور ، والا فليس ثمة سبب كاف من أجل تعديلها وهكذا فان معدلا معينا للاجور يصبح سببا لحالة معينة من الحاجات وانه لمن المحال الافلات من هذه الدوائر المفرغة بواسطة المقولات المدرسية للسبب والنتيجة والحال أننا نقع فيها لدى كل خطوة في اعتباراتنا السوسيولوجية،
اذا نحن نسينا أن النتيجة والعلة تصوران لا يصلحان بهذه الصفة الا في حال تطبيقهما على حالات مفردة ، لكننا لا نكاد تنظر الى الحالات الفردية في ارتباطها العام بالكون في مجموعة حتى تتداخل في بعضها بعضا وهي تذوب وتمتزج حين تتأمل في ذلك الفعل ورد الفعل العموميين اللذين تبدل النتائج والعلل فيهما أماكنها بصورة أبدية، بحيث ان ما هو علة في هذا المكان وهذه الآونة يصبح نتيجة في ذلك المكان وتلك الآونة، والعكس بالعكس* »

(*) انظر Hernn Eugen Duhrings Uuwalzung der Wissenschaft

[انتي ــ دوهرنغ ، مطبوعات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص : ٢٨ ــ ٢٩] .

بعد هذا التحفظ ، لنجرب الآن أن نحدد في أي منحى يجب أن نفهم الرابطة السببية بين العلاقات الاقتصادية والنظام السياسي في مجتمع معين

ما الذي يعلمنا اياه التاريخ بهذا الشأن ؟ انه يبين لنا أنه حيثما ادت عملية التطور الاقتصادي الى انقسام المجتمع الى طبقات ، فان تضاد المصالح الخاصة بهذه الطبقات قاد بصورة حتمية الى الصراع في سبيل الهيمنة السياسية ولا يجري هذا الصراع بين الفئات المختلفة للطبقات الحاكمة فحسب ، بل كذلك بين هذه الطبقات من جهة والشعب من جهة أخرى ، اذا ما وجد هذا الاخير نفسه في شروط غير ملائمة لتطوره الفكري وانا نشاهد في دول الشرق القديم الصراع بين المحاربين والكهنة ؛ ان مأساة العالم القديم تستقيم في صراع الارستقراطية ضد الديموس ، والاشراف ضد العاميين ، بينما يظهر العصر الوسيط « البورجوازي » الذي يسعى للاستيلاء على الهيمنة السياسية في حدود بلدته ؛ وأخيرا فان العامل في الوقت الراهن يخوض نضالا سياسيا ضد البورجوازية التي حققت في الدولة الحديثة هيمنة تامة لقد كانت السلطة السياسية ، دائما وفي كل مكان ، الرافعة التي حققت الطبقة السائدة بواسطتها الثورة الاجتماعية الضرورية من أجل مستوى حياتها ومن أجل تقدمها اللاحق ودون أن نمضي بعيدا ، فلنتذكر تاريخ الطبقة الثالثة 'Tiers état هذه الطبقة التي تستطيع أن تنظر بكل فخر الى ماض مليء بألمع الفتوحات في جميع ميادين الحياة والفكر ومما لا ريب فيه أنه لا يخطر في بال كائن من كان أن يتهم البورجوازية بالخراقة والجهالة في انتقاء الوسائل الانسب للاغراض التي تستهدفها. وكذلك لن يحاول كائن من كان أن ينكر الطابع الاقتصادي المحض لطموحاتها ومع ذلك لم يمنعها هذا من الانخراط في طريق النضال السياسي والفتوحات السياسية ان البورجوازية الوليدة لم تتوقف عن خوض قتال محموم لا هوادة فيه ضد الاقطاعية تارة والسلاح في يدها ، وتارة عن طريق المفاوضات السلمية ، ومرة باسم المكوس الجمهورية لمدنها ، ومرة أخرى باسم تقوية السلطة الملكية ، وكان في مقدورها ، حتى قبل الثورة الفرنسية ، أن تباهي خصومها بما فازت به من نجاحات

ويقول أحد المؤرخين

> كانت الفرص متباينة والنجاح متفاوتا في النضال العظيم الذي خاضته البورجوازية ضد الاسياد ولم يقتصر الامر على أن حصيلة الضمانات المنتزعة بالقوة او المكتسبة بالاتفاق لم تكن متساوية في كل مكان ، بل لقد نالت المدن درجات مختلفة من الحرية والاستقلال حتى في ظل الاشكال السياسية نفسها... *»

ومع ذلك فقد كان مغزى الحركة متماثلا في كل مكان ، وكانت تؤشر الى بداية التحرر الاجتماعي للطبقة الثالثة وتدهور الارستقراطية ، العلمانية والاكليريكية على

(*) انظر مبحث في تاريخ الطبقة الثالثة بقلم اوغستين تييري ، ص ٣٣ – ٣٤ .

حد سواء* وعلى الاجمال فقد حملت هذه الحركة الى سكان المدن الحريات البلدية ، واهمية الترشيح الى جميع الوظائف ، وتحديدا دقيقا للعبوديات ؛ ولقد ضمنت حقوق الشخص ضمن البلديات الحضرية** ، كما منحت البورجوازية مركزا ارفع في الدول ذات المراتب « للنظام القديم » وقادتها أخيرا بسلسلة من الفتوحات المتواصلة الى الهيمنة في المجتمعات الحديثة وان البورجوازية ، وقد وضعت نصب اعينها أهدافا اقتصادية واجتماعية محددة جيدا ، وأن طرأ عليها التعديل في سياق الزمن ، وراحت تستمد وسائل مواصلة النضال من الاوضاع المادية الملائمة التي حصلت عليها ، لم تفوت قط الفرصة من أجل اعطاء تعبير حقوقي لكل درجة بلغتها من التقدم الاقتصادي ؛ وبالمقابل ، فقد طبقت الحنكة نفسها في استخدام كل من مكاسبها السياسية من أجل فتوحات جديدة في ميدان الحياة الاقتصادية ولا حاجة بنا أن نرجع الى الوراء كثيرا كي نرى كيف عنيت « العصبة من أجل الغاء قانون القمح في انكلترا ، بايحاء نبيه من ريتشارد كوبدن ، بتقوية نفوذها **السياسي** في المقاطعات كيما تتوصل الى الغاء « احتكار » كريه في نظر أعضائها كان من الواضح كليا أن طابعه **اقتصادي** بصورة جازمة

ليس جدلي اعظم من التاريخ الذي كان مفيستوفيليس يقول عنه انه يحول العقل الى جنون والاحسان الى عذاب وانا لنرى في سياق التاريخ ، بصورة لا تقل عن ذلك أن النتيجة تتحول الى سبب والسبب ينكشف على اعتباره نتيجة وان السلطة السياسية للبورجوازية ، المنبثقة من علاقات المجتمع الاقتصادية في حينها ، لا تبرح تشكل اليوم ايضا العامل الذي لابديل عنه والذي تواصل هذه العلاقات نموها بفضله

والآن ، وقد قاربت البورجوازية نهاية دورها التاريخي وأصبحت البروليتاريا الممثلة الوحيدة للاتجاهات التقدمية في المجتمع ، نستطيع أن نلاحظ ظاهرة مماثلة، وأن حدثت في شروط جديدة ان الطبقة العاملة في الدول الاكثر تطورا في العالم المتحضر ، في أميركا وفي أوروبا على حد سواء ، تدخل حلبة النضال السياسي ، وبقدر ما يتعاظم وعيها لرسالتها الاقتصادية **تتشكل** بمزيد من الحزم في حزب سياسي متميز .

(*) كان انصار النظام الاقطاعي يفهمون جيدا الاغراض التي يستهدفها البورجوازيون » والرابطة بين مطاليبهم السياسية ومطاليبهم الاقتصادية ويقول الاب غيلبير ان البلدية اسم جديد وبغيض ، واليكم ما هو المقصود من هذا الاسم ان الناس المكلفين لا يدفعون بعد الآن الا مرة واحدة في السنة الريع الذي يدينون به لسيدهم واذا ما ارتكبوا جنحة فانهم يبرأون منها بغرامة محددة قانونا وأما الضرائب المالية التي كان من المعتاد فرضها على الاقنان فقد أعفوا منها كليا » لوران **النظام الاقطاعي والكنيسة** ، ص ٥٤٦

(**) ان ميثاق لييج يصوغ بقوة رائعة مبدأ حرمة المسكن « الرجل المسكين ملك في بيته . » لوران ، المصدر نفسه ، ص ٥٤٨

وإننا لنقرأ في برنامج الحزب العمالي الاشتراكي لاميركا الشمالية ما يلي

نظرا لان الاحزاب السياسية القائمة حتى الوقت الراهن لم تعمل قط الا في مصلحة المالكين من أجل الحفاظ على امتيازاتهم الاقتصادية ، فان من واجب الطبقة العاملة أن تنتظم في حزب عمالي كبير ، **كيما تحصل على السلطة السياسية في الدولة** ، وتكسب الاستقلال الاقتصادي بفضل تلك السلطة ، طالما ان تحرر الطبقة العاملة لا يمكن أن يتحقق الا من قبل العمال أنفسهم* »

وان الحزب العمالي الفرنسي ليقرر بنفس الروح ، وباتفاق تام مع برنامج الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ، ان من واجب البروليتاريا أن تسعى الى الثورة الاقتصادية « بكل الوسائط التي تحت تصرفها بما في ذلك الاقتراع العام الذي يتحول هكذا من أداة للخداع كما كان حتى هذا الحين الى **أداة تحرر**** » وان الحزب العمالي الاسباني يستهدف كذلك « الاستيلاء على السلطة السياسية » من أجل قلب الحواجز التي تعترض تحرر الطبقة العاملة

وفي انكلترا ، حيث استمر نضال البروليتاريا في الميدان الاقتصادي منذ نهاية الحركة الميثاقية ، تظهر الطموحات السياسية للطبقة العاملة بعض الحيوية المتجددة منذ بعض الوقت وقبل سنوات قليلة سجل الاقتصادي الالماني لويس برنتام(٢٢) ظافرا في Das Arbeitsverhältnis ,... الانعدام التام للاتجاهات « الاشتراكية الديموقراطية » في بريطانيا العظمى ، واستغرق بلذة بورجوازية تماما في اعتبارات فلسفية عميقة عن موضوع أن « انكلترا عادت في اليوم الحاضر تشكل أمة واحدة » وان العمال الانكليز حاليا يمثلون من جديد عنصرا من الحزب الليبرالي الكبير » بدلا من استهداف الاستيلاء على السلطة كي « يعيدوا بناء المجتمع وفقا لمصالحهم » (ص. ١١٠) وان البيان الذي أصدره مؤخرا « الاتحاد الدمقراطي الانكليزي »(٢٣) يبين أن فرحة هذا الاقتصادي البورجوازي كانت سابقة لاوانها حتى درجة ما وبالفعل كان الاتحاد الديموقراطي يسعى لان يفصل سياسيا بين المستغَلين والمستغِلين ويدعو الاولى من هاتين « الامتين » الى الاستيلاء على السلطة من أجل اعادة بناء المجتمع وفقا لمصالح العمال وإننا لنقرأ في هذا البيان

« هذا هو الوقت الذي يجب فيه على الكتلة الشعبية أن تأخذ في يديها ادارة الشؤون التي تعنيها أن السلطة السياسية والاجتماعية تشكل اليوم احتكار الاشخاص الذين يعيشون من عمل مواطنيهم ان الملاكين العقاريين والرأسماليين الذين يحتكرون المجلس الاعلى ويملؤون المجلس الادنى لا يستهدفون

(*) فون ستودنيتس Nordamiranknische Arbeterkaltnisse ، ص ٢٣٣ [أوضاع العمال في اميركا الشمالية]

(**) نورد نقلا عن كتاب بنوا مالون الحزب الجديد ، المجلد الاول ، ص : ١٥ .

الا الحفاظ على مصالحهم الخاصة   خذوا مصيركم بأيديكم ، ونحوا جانبا الطفيليين الاغنياء من هذين الفريقين ، ولا تعتمدوا بعد الآن الا على انفسكم ! »

وان البيان ليطالب « **بالاقتراع العام لجميع البالغين نساء ورجالا** » في المملكة المتحدة ، كما يطالب بمجموعة من الاصلاحات السياسية التي تحققها « سوف يبين بكل بساطة أن الرجال والنساء في هذه البلاد أصبحوا أسيادا في بيوتهم   ويتلو ذلك ، على اعتباره مطلبا فوريا للاتحاد ، تعداد التدابير الضرورية من أجل تطوير « جيل سليم ، مستقل ، متعلم جديا ، قادر على تنظيم عمل كل فرد من أجل خير الجميع ، وعلى **التحكم اخيرا في المسالة الاجتماعية والسياسية للدولة** ، حيث ستزول اذن الفوارق والامتيازات بين الطبقات

وهكذا فان البروليتاريا الانكليزية تعود من جديد الى الدروب التي يسلكها منذ زمن طويل عمال البلدان المتحضرة الاخرى

لكنه كما ان البورجوازية حاولت ، غير مكتفية بمكافحة الارستقراطية في ميدان العلاقات السياسية القائمة ، أن تعيد تنظيم هذه العلاقات في مصلحتها   كذلك لاتقصر البروليتاريا برنامجها السياسي على الاستيلاء على آلة الدولة العصرية ذلك انه تشيع في صفوفها أكثر فأكثر الفكرةالقائلة ان « كل وضع يحددمركزالمواطنين المتبادل كما يحدد علاقات الملكية والعمل الخاصة بهم يقابل شكلا خصوصيا للحكم يخدمه في الوقت ذاته كي يتحقق ويستمر في الوجود* »   وبينما نجد أن النظام التمثيلي (الملكي أو الجمهوري) هو ابن البورجوازية المدلل ، فان البروليتاريا تطالب **بالتشريع المباشر من قبل الشعب** بوصفه الشكل السياسي الوحيد الذي يمكنها من تحقيق طموحاتها الاجتماعية   وان هذا المطلب ليحتل أحد أمكنة الصدارة في برنامج الديموقراطية الاجتماعية في جميع البلدان ، وهو يرتبط بصورة وثيقة بالنقاط الاخرى من البرنامج المذكور **   وان البروليتاريا تثابر ، رغما عن برودون ، على اعتبار « الثورة السياسية » الاداة الاكثر فعالية من أجل الثورة الاقتصادية

ان هذه الشهادة التي يدلي بها التاريخ يجب أن تكون كافية كي تنحو بنا نحو الفكرة القائلة أن غريزة عملية أكيدة لا نظرية ضالة هي في أصل الاتجاهات السياسية للطبقات الاجتماعية المختلفة   فاذا كانت الطبقات التي تخوض بصورة واعيةالصراع

(*) انظر م. ريتنغهاوسن Sozialdemocratische Abhanlungen Dritten Heft [كتابات اشتراكية ديموقراطية ، الدفتر الثالث] Uber die Nothwendigkeit der Direkten Gesetzgebung durch das Volk ، ص : ٣٠ [في ضرورة التشريع المباشر من قبل الشعب]

(**) انظر برنامج الاحزاب العمالية في المانيا واميركا الشمالية   ان بيان الحزب العمالي الانكليزي يطالب كذلك « بالاقتراع المباشر على جميع المسائل الهامة » .

ضد خصومها تسعى ، بالرغم من تباينها التام من جميع الجوانب الاخرى ، الى أن تضمن في مرحلة معينة من تطورها النفوذ ومن بعد السيادة السياسية ، فانه من المفروغ منه أن نظام المجتمع السياسي لأبعد ما يكون عن اللامبالاة حيال التطورموضع البحث وبما اننا نرى ، من جهة أخرى ، انه ليس ثمة طبقة توصلت الى الهيمنة السياسية قد صادفت سببا يحملها على الندم على اهتمامها « بالسياسة » ، وبما أن كل طبقة منها ، على النقيض من ذلك ، لم تبلغ النقطة القمية من تطورها الا بعد حصولها على الهيمنة السياسية ، فانه لابد لنا أن نقرر ان النضال السياسي يمثل وسيلة من أجل اعادة صهر المجتمع قد برهن التاريخ على فعاليتها وان كل مذهب مضاد لهذا الاستقراء التاريخي يحرم نفسه حتى درجة كبيرة من القدرة على الاقناع؛ واذا كانت الاشتراكية الراهنة تدين المطامح السياسية للطبقة العاملة على اعتبارها لاغرض لها ، فان هذا السبب وحده يكفي ليمنعها من ادعاء لقب العلم.

فلنتحقق الآن من هذه المحاكمة الاستقرائية بالاستنتاج ، متخذين مقدمات لنا أفكار ماركس عن الفلسفة والتاريخ. فلنتمثل مجتمعا تسوده طبقة سيادة شاملة،وقد حصلت هذه الطبقة على هيمنتها من جراء وضع اقتصادي مهد لها طريق النجاح ، وفقا لمقدماتنا ، في جميع الميادين الاخرى للحياة العامة ومن المفروغ منه أنها كيفت باعتبارها طبقة سائدة ، التنظيم الاجتماعي مع الشروط الاكثر ملاءمة لوجودها حاذفة بكل عناية كل ما يمكن ان يضعف سلطانها بهذه الطريقة أو تلك

ان شيفليه يلاحظ بصواب تام

« ان الطبقة السائدة ، في كل مرحلة معينة ، هي في الوقت نفسه خالقة لحقوق وعادات خاصة بها ولايخضع أعضاؤها الا لغريزة البقاء حين يسعون الى توطيدسيطرتهم والى الحفاظ عليها أطول وقت ممكن من أجل ذريتهم ، بوصفها شرطا ضروريا من أجل مركزهم الممتاز ووسيلة من أجل استغلال المضطهدين وليس ثمة جزء من الحقوق الايجابية الا ويتمتع بمثل هذا النفوذ لدى الطبقات السائدة لعصر معين انها جميعا تنسب الى نفسها بصورة عامة طابع المؤسسة « الابدية » ، بل الاساس «المقدس» للمجتمع، طالما أنها توطد حق الشيعة وتحافظ على سيادة الطبقة* »

وما قامت الطبقة السائدة بدور حامل المثل الاعلى الاجتماعي الاكثر تقدمية لبى النظام المؤسس بجهودها جميع مطالب التقدم الاجتماعي لكنه لا يكاد التاريخ الاقتصادي للمجتمع موضع البحث يظهر عناصر جديدة للمسيرة الى الامام ، لا تكاد

(*) انظر شيفليه Bau und Leben des soz. Kôrpers B, III, S. 91 und 102
[بنية وحياة الجسم الاجتماعي]

« قوى المجتمع الانتاجية تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج القائمة ، أو – وهذا لا يعدو كونه التعبير الحقوقي عن ذلك – مع علاقات الملكية التي تحركت ضمنها حتى ذلك الحين » ، حتى ينتهي الدور التقدمي لتلك الطبقة السائدة انها تنقلب من بطل التقدم الى عدوه الالد ، وتستخدم آلة الدولة للدفاع عن نفسها وهو أمر متوقع تماما ان السلطة السياسية تتحول اذن بين يديها الى الاداة الاقوى للرجعية. وانه ليصبح اذن من الضرورة بمكان ، في سبيل فتح الطريق أمام نمو قوى المجتمع الأنتاجية ، القضاء على علاقات الملكية التي تلجم هـذا النمو ، يعني القيام بالثورة الاجتماعية وفقا لتفسير ماركس بيد ان هذا الامر يظل محالا ما دامت السلطة التشريعية بين أيدي ممثلي النظام القديم ، وبكلام آخر ما خدمت السلطة المذكورة مصالح الطبقة السائدة ولذا يجب الا نعجب اذا ما سعى المجددون ، يعني ممثلي الطبقةاو الطبقات المضطهَدة ، الى انتزاع هذا السلاح الرهيب من خصومهم وتوجيهه ضدهم ان منطق الوقائع بالذات سوف يدفع هذه الطبقة الى النضال السياسي والى الاستيلاء على السلطة طالما أنها تضع نصب أعينها الثورة الاقتصادية ولقد صاغ لاسال حقيقة عميقة حين لاحظ في كتابـه **نظام الحقوق المكتسبة** : « حيث تفقـد العلاقات الحقوقية في الظاهر كل صلة بالسياسة بانتقالها الى ميدان الحـق الخاص فانه **يتوفر فيها قدر من السياسة اعظم جدا مما في السياسة بالذات** لانها تمثل اذن عنصرا اجتماعيا*

ومن المؤكد أن هذا الأمر لا يسير في الممارسة بمثل السرعة التي يمكن افتراضها عند المحاكمة بصورة قبلية ان الطبقة المضطهَدة لا تدرك الا بصورة تدريجية الرابطة بين وضعها **الاقتصادي** ودورها **السياسي** في الدولة بل انها تظل فترة طويلة من الزمن وهي لا تملك الا فكرة ناقصة جدا عن رسالتها الاقتصادية ان الافراد الذين يشكلونها يخوضون نضالا قاسيا من أجل حياتهم اليومية حتى دون ان يتساءلوا عن مظاهر التنظيم الاجتماعي التي يدينون لها بشقائهم انهم يحاولون تفادي الضربات الموجهة اليهم ، دون ان يسعوا الى معرفة مصدر هذه الضربات ، ومن هو الـذي يوجهها في آخر تحليل انهم لا يملكون الوعي الطبقي بعد ، ولا افكارا موجهـة في نضالهم ضد هذا او ذاك من مضطهديهم ان الطبقة المضطهَدة لا تملك بعد وعي ذاتهـا ، لاتدرك انها سوف تصبح مع الزمن الطبقة الطليعية في المجتمع ، لكنها لم تصبح ذلك بعد انها لا تواجه القوة المنظمة والواعية للطبقة السائدة الا بجهود مشتتة بل متفرقة لافراد منعزلين أو لجماعات منعزلة من الافراد وليس من النادر في الوقت الحاضر ايضا ان نصادف مثلا عاملا يكره مستغلا قاسيا بصورة خاصة ، لكن دون

(*) انظر
System der erworbenen Rechte, Leipsig 1880, Ester, Vorrede, S VIII.

ان يشك مطلقا بعد في أن من واجبه النضال ضد طبقة المستغلين بمجموعها والقضاء على كل امكانية لاستغلال الانسان من قبل الانسان

ومهما يكن من شيء ، فان عملية التركيب تنجز عملها شيئا فشيئا ، ويبدأ المضطهَدون في تحقيق الوعي الذاتي على اعتبارهم طبقة ، بيد انهم لا يبرحون يفهمون بصورة ضيقة جدا خصائص وضعيتهم الطبقية ، ونوابض ومحركات الآلية الاجتماعية بمجموعها لا تبرح مستترة عن انظار فكرهم انهم لا يتمثلون طبقة المستغلين بعد الا من حيث هي مجرد تجمع للمخدومين دون ان يروا روابط التنظيم السياسي الذي يجمعهم وفي هذه الدرجة من التطور لا يرون أكثر مما يرى الاستاذ لورنز فون شتاين الرباط بين « المجتمع » و « الدولة » انهم يتصورون ان الدولة فوق التناحرات الطبقية ، ويحسبون ان ممثليها قضاة ومصالحون طبيعيون للفرقاء المتنازعين وان الطبقة المضطهَدة لتتوجه اليهم بكل ثقة وتعجب أشد العجب لان نداءاتها لطلب المعونة تظل دونما جواب ودون ان نتأخر عند الامثلة الحسية ، لنشر فقط الى أن هذا الاختلاط في الأفكار لا يبرح يتظاهر عند العمال الانكليز الذين يعتقدون انه في مقدورهم ، وهم يحاربون بعنفوان في الميدان الاقتصادي ، ان ينضموا الى صفوف حزب سياسي بورجوازي

ولا تتخذ الطبقة المضطهَدة فكرة مضبوطة عن مركزها الا في المرحلة التالية ، المرحلة العليا من تطورها انها تدرك اذن الرباط القائم بين المجتمع والدولة ، ولا تشكو بعد الآن مشاكسات مستغليها الى اولئك الذين يشكلون الجهاز السياسي لهذا الاستغلال انها تعرف أن الدولة قلعة تخدم كسور ودرع لاولئك الذين يضطهدونها ، قلعة من الواجب وفي الامكان الاستيلاء عليها ، قلعة يمكن ويجب اعادة بنائها من أجل دفاعها الخاص، لكنه من المحال تجاوزها مع التصور بأنها سوف تظل على الحياد . أن المضطهَدين يدركون شيئا فشيئا ، وهم لا يعتمدون آلا على أنفسهم، ان مبدأ « اعضد نفسك » السياسي هو الشكل الاكثر جوهرية لمبدأ « اعضد نفسك» الاجتماعي ، وذلك حسب الصيغة التي وضعها لانج انهم ليستهدفون اذن السيطرة السياسية كي يعضدوا أنفسهم بتغيير العلاقات الاجتماعية القائمة وبتكييف النظام الاجتماعي مع شروط تقدمهم الخاص وازدهارهم الخاص وانه لمن المفروغ منه انهم لا يتوصلون كذلك دفعة واحدة الى هذه الهيمنة انهم لا يصبحون الا شيئا فشيئا قوة مرهوبة تستبعد كل فكرة للدفاع في اذهان خصومهم انهم يستبسلون طويلا أجل الحصول على تنازلات فحسب ، طالبين مجرد اصلاحات لن تمنحهم السيطرة قط ، بل مجرد امكانية التطور والاستعداد من أجل سيطرتهم المقبلة ، وهي اصلاحات لا تستطيع على الاكثر الا أن تلبي مطالبهم الاعجل والاكثر حيوية ، وهي لا تكاد توسع منطقة نفوذهم على الحياة الاجتماعية في البلاد ولابد أن تمر الطبقة المضطهَدة بالمدرسة القاسية للنضال خطوة خطوة قبل أن تكتسب الاندفاع

والجراة والنضوج ، هذه الأمور الضرورية من أجل المعركة الحاسمة بيد انها اذا ما اكتسبت هذه الصفات مرة فانها تستطيع أن تنظر الى الخصم على اعتباره طبقة حكم عليها التاريخ بصورة قاطعة ، كما تستطيع بعد الآن أن تكون على ثقة تامة بالنصر ان ما يسمونه الثورة انما هو الفصل الاخير من المأساة الطويلة للنضال الثوري الطبقي هذا النضال الذي لايصبح واعيا الا بقدر مايصير سياسيا*

ولنطرح الآن هذا السؤال أينجز الاشتراكيون عملا نافعا عندما يحولون العمال عن السياسة » بحجة ان النظام السياسي لاي مجتمع محدد بعلاقاته الاقتصادية ؟ كلا بكل تأكيد انهم يحرمون بذلك العمال من نقطة استنادية في كفاحهم ، وينتزعون منهم امكانية تركيز جهودهم وتوجيه ضرباتهم الى التنظيم الاجتماعي المؤسس من قبل المستغلين ، ولن يتبقى أمام العمال الا ان يخوضوا حرب قناصة ضد مستغلين منعزلين أو في أفضل الاحوال ضد جماعات منعزلة من المستغلين الذين سيحتفظون في صفهم بالقوة المنظمة للدولة وتلك هي الخطيئة التي ارتكبها الاشتراكيون الروس الآتون مما يسمى الانتليجنتزيا حين أخذوا (الارض والحرية ، العدد الرابع) على « اتحاد العمال الروس في الشمال » ادخال بعض المطالب السياسية في برنامجه(٢٤). ولقد كررت الحبة(٢٥) نفس الخطيئة حين اوصت العمال بأن يقاتلوا في الميدان الاقتصادي ، وان يحاولوا الحصول على انقاص يوم العمل ، ورفع الاجور ، الخ ، بل ان يقتلوا الوشاة ، وكذلك رؤساء العمال والمعلمين المكروهين بصورة خصوصية ، لكن دون ان تقول كلمة واحدة عن المهمات السياسية للعمال الروس ان هذا العيب في التركيب في الافكار الثرر يمكن الا ان يمارس أسوأ تاثير في نتائج نشاطهم فحين نجعل من اللامبالاة السياسية للعامل الروسي الدلالة الجوهرية على جذرية مطاليبه الاقتصادية ، فاننا نقدم بصورة غير مباشرة خدمة للحكم المطلق الحالي وفضلا على ذلك ، فاننا حين نقطع برامجنا في الموضع حيث كان يجب استخلاص الدرس السياسي من المطالب الاجتماعية للطبقة العاملة، فاننا نقلل من أهميتها السياسية في عيون العمال الذين يفهمون أفضل منا تفاهة القتال بصفوف مبعثرة ضد مستغلين منعزلين ومن حسن الحظ أن حركتنا العماليه تجاوزت بسرعة كبيرة المرحلة الاولى من تطورها ان جواب اتحاد العمال الروس في الشمال الى هيئة تحرير الارض و الحرية (انظر العدد الخامس من مجلتنا) قد بين ان أعضاءه فهموا على اقل تقدير ، قبل « مفكرينا » عدم صلاحية « عدم تدخل الطبقة العاملة هذا(٢٦)

(*) كتبت هذه السطور قبل خمسة عشر عاما من اتخاذ السيد برنشتاين دور « ناقد ماركس ». وليحكم القارىء بنفسه أيكون الناقد المذكور واتباعه على صواب حين يأخذون على « الاورثوذكسيين » الذين هم نحن اعتبارهم ثورة البروليتاريا محض « كارثة » آنية على وجه التقريب ؟ [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

ولقد يقال ان هذا كله شيء حسن جدا ، لكن حجتك تفتقر الى الهدف انا لا ننكر انه سوف يكون من المفيد للطبقة العاملة ان تحصل على النفوذ السياسي وتستولي على السلطة ، لكننا نؤكد فحسب ان هذا محال في الوقت الراهن لاسباب عديدة ان استشهادك بتاريخ البورجوازية لايثبت شيئا ، لان وضع العامل في مجتمع بورجوازي لا يشبه وضع الطبقة الثالثة في النظام القديم ان ماركس نفسه يعترف بذلك ويفسره كما يلي في البيان :

فقد رفع القن نفسه ، في عهد العبودية ، الى درجة عضو الكومونة كما أن البورجوازي الصغير قد تدبر أمره تحت نير الاستبداد الاقطاعي كي يرتفع الى مرتبة البورجوازي أما العامل الحديث فعلى عكس ذلك تماما ، اذ بدلا من أن يرتفع ويرقى مع رقي الصناعة لا ينفك يهوي أدنى فأدنى تحت شروط حياة طبقته الخاصة ، بحيث يصبح العامل مملقا ، والاملاق يتطور بسرعة تفوق سرعة ازدياد السكان ونمو الثروة

اذا كان « تقدم سياسي » قد قابل كل مرحلة انجزتها البورجوازية في ميدان الانتاج والمبادلة ، فليس في ذلك ما يبعث على العجب البتة : ان الناس جميعايعرفون ان الازدهار المادي لطبقة ما يترافق بتزايد نفوذها السياسي وأن حقيقة أن الفتوحات السياسية التي حققتها البورجوازية كانت تفترض زيادة في ثروتها ، هذه الحقيقة بالضبط تجبرنا على ان نراقب الحركة السياسية للطبقة العاملة دون كبير أمل فلابد للعمال ، وهم يملقون » أكثر فأكثر ، ان يفقدوا من دون أدنى ريب ذلك النصيب من النفوذ الذي اكتسبوه بكفاحهم من أجل البورجوازية فالبروليتاريون لا يقاتلون اذن خلال هذه المرحلة اعداءهم الخاصين ، بل أعداء أعدائهم ، يعني بقايا الملكية المطلقة ، والملاكين العقاريين ، والبورجوازيين غير الصناعيين ، والبورجوازيين الصغار ، الخ ان نضال الطبقة العاملة السياسي لا يؤول الى شيء على الاطلاق ، وهو محكوم عليه بالاخفاق من جراء وضع هذه الطبقة الاقتصادي.

ان هذا الاعتراض ، بالرغم من خطله الصميمي ، يبدو للوهلة الاولى حاسما جدا بحيث لاتمكن معاملته بالصمت انه الحجة الاخيرة لانصار عدم التدخل السياسي الذين يعتبرون أنفسهم ماركسيين(**) وهكذا فاذاما تخلصنا مرة من هذا الاعتراض،

(*) [انظر البيان الشيوعي ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص : ٤٧]

(**) قد يبدو هذا مفارقة ، لكن حقيقة الامر أن نظرية عدم التدخل السياسي للطبقة العاملة قد صاغها باكونين من حيث هي نتيجة التفسير المادي للتاريخ لقد كان باكونين ، وهو نصير متحمس لهذا التفسير ، يفكر على هذا الغرار اذا كان النظام الاقتصادي لمجتمع ما مؤسسا على اقتصاده ، فان الثورة السياسية تصبح عديمة الجدوى ، طالما أنها ستكون نتيجة الثورة الاقتصادية ان هذا الرجل الذي كان فيما مضى تلميذا لهيغل ، والذي كان يحب فيما يبدو أن يصفي منطقه ، لم يستطع قط أن

فان نظرية عدم التدخل تنهار بصورة حاسمة ، مظهرة المهمة السياسية الاشتراكية الحالية على حقيقتها

ان نصيب الطبقة العاملة في الدخل القومي يتناقص باستمرار ، وهذا أمر لا يمكن أن يتطرق اليه أدنى شك وليس املاق البروليتاريا نسبيا فحسب ، بل مطلقا ؛ ولا يقتصر الامر على أن مداخيل الطبقة العاملة لا تزيد فحسب بنسبة مطردة مع تقدم مداخيل طبقات المجتمع الاخرى ، بل هي تهبط أيضا ان الاجر الحقيقي للبروليتاري اليوم (يعني كمية حاجات الاستهلاك التي يستطيع الحصول عليها) هو أقل مما كان عليه قبل خمسمائة عام(٢٧) ، كما تبين ذلك أعمال روجرز(٢٨) ، ودوشاتيل(٢٩) ، الخ* بيد أنه لا يترتب على ذلك مطلقا أن الشروط الاقتصادية في الوقت الحاضر أقل ملاءمة منها في القرن الرابع عشر لحركة سياسية للطبقة العاملة ولقد سبق فقلنا ذلك أعلاه : حين يراد تقدير الشروط الاقتصادية لبلد ما ، فانه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار لا تقسيم الدخل فحسب ، بل على الاخص تنظيم الانتاج ونمط مبادلة المنتجات ان قوة البورجوازية الوليدة لم تكن تستقيم في ثروتها بقدر ما كانت تستقيم في التقدم الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت حاملة له في وقت من الاوقات فليست زيادة مداخيلها هي التي دفعتها على طريق النضال الثوري وضمنت تعاظم نفوذها السياسي ، بل التناقض الذي ولدته بين قوى الانتاج والشروط التي كان يتم فيها انتاج المنتجات ومعادلتها في المجتمع الاقطاعي. واما أصبحت الناطقة باسم التقدم في هذا المجتمع فقد جمعت تحت رايتها جميع المستائين وقادتهم الى النضال ضد نظام بغيض بالنسبة الى غالبية الشعب وليس المال هو الذي أعطى هذه البورجوازية الدور القيادي في هذه الحركة التحررية ، بل التطور الناقص للطبقة العاملة ومما لا ريب فيه أن الثروة ومركزا اجتماعيا عاليا نسبيا كانا ضروريين من أجل القيام بهذا الدور ولكن ما الذي كان يحدد تلك الضرورة اذن ؟ قبل كل شيء ، استحالة تحقيق الغاء النظام القديم بالنسبة الى البورجوازية بدون مساعدة الطبقات الدنيا من السكان ولقد ساعدتها ثروتها هنا ، اذ منحتها النفوذ على الجماهير التي سوف تخوض القتال من أجل تحقيق الهيمنة

يفهم أن نظاما سياسيا معطى **خالص البناء** ، ليس هو نتيجة الاقتصاد ، بل كل حركة سياسية جديدة تصبح بدورها ، وهي صادرة عن العلاقات الاقتصادية المعطاة ، **الاداة** التي لا غنى عنها من أجل اعادة صهر هذه العلاقات ان **الفوضويين لا** يبرحون يؤسسون على **سوء الفهم** هذا اعتراضاتهم **الاكثر جدية** ضد **الاشتراكية الديموقراطية** [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

(*) يتعلق هذا الامر « بنظرية الاملاق » التي أثارت قدرا كبيرا من الضجة في عصر **البرنشتانية**. انظر في هذا الموضوع ، في الملزمتين الثانية والثالثة من **الفجر** ، مقالي « نقد نقادنا »(٣٠) [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

لها وما كانت البورجوازية تنال النفوذ بدون الثروة ، وما كانت تستطيع ان تقهر الارستقراطية بدون نفوذها على الشعب ، ذلك انها لم تكن قوية بقوتها الخاصة ، بل بالقوة التي تسيطر عليهـا وتأمرهـا بفضل رساميلها وانه ليسأل اليوم أيمكن للبروليتاريا أن تمارس نفوذا مماثلا على طبقة أخرى من السكان ، وهـل يجب أن تمارسها كي تنتصر ؟ يكفي ان يطرح السؤال كي يجيب عنه كل من يفهم الوضع الراهن للطبقة العاملة « بلا » جازمة انه من المحـال أن تمارس البروليتاريا على الطبقات الدنيا النفوذ الذي مارسته البورجوازية فيما مضى ، وذلك لهذا السبب البسيط ، الا وهو انه لا توجد طبقة أدنى من البروليتاريا انها التشكيل الاخير من التشكيلات الاقتصادية للمجتمع الحديث بيد أن البروليتاريا ليست في حاجـة للبحث عن هذا النفوذ لانها في الوقت نفسه الفئة الاكثر عددا في هذا المجتمع ، ولانها كانت على الدوام ، مع الفئات الاخرى من السكان الكادحين ، الوسط الذي ادى تدخله الى النزاعات السياسية اننا نقول الطبقة الاكثر عددا

فالطبقات الاخرى تنحط وتهلك مع نمو الصناعة الكبرى أما البروليتـاريا فهي على عكس ذلك نتاجها الخاص الاساسي

والطبقات المتوسطة المؤلفة من صغار أصحاب العمل والباعـة بالمفـرق والحرفيين والفلاحين ، تحارب البورجوازية كي تنقذ من الفناء وجودها من حيث هي طبقات متوسطة فهي ليست اذن ثورية ، بل محافظة أيضا ، أي رجعية ، لانها تحاول ترجع التاريخ القهقرى تسير بدولاب التطور الى الوراء واذا صدف أن كانت ثورية فما ذلك الا من وجهة نظر انتقالها الوشيك الى صفوف البروليتاريا ، فهي بذلك لاتدافع عن مصالحها الحاضرة ، بل عن مصالحها الآتية وهي تتخلى عن وجهة النظر الخاصة بها لتتخـذ وجهة النظر الخاصة بالبروليتاريا(*)».

لقد كانت الغلبة فيما مضى للطبقة العاملة تحت قيادة البورجوازية ، وكانت ساذجة بحيث دهشت لان جميع مصاعب النضال على وجه التقريب كانت مـن نصيبها ، بينما فازت حليفتها بجميع الامجاد والامتيازات على وجه التقريب وهي لا تكتفي اليوم بهذا الدور الخارجي ، بل توجه ضد البورجوازية القوة التي حملت فيما مضى النصر الى البورجوازية . بيد أن هذه القوة تعاظمت اليوم حتى درجـة كبيرة ، فقد كبرت وهي تكبر باستمرار ، وذلك بقدر ما يتم تمركز الرأسمال وبقدر ما تنتشر الصناعة الكبرى وفيما عدا ذلك فقد كبرت بقـدر ما تتكاثر الخبرة السياسية لطبقة عاملة أنزلتها البورجوازية نفسها الى حلبة النشاط العام أيمكن أن نرتاب في أن البروليتاريا ، التي أبانت فيما مضى عن قدر كاف من القوة كي تدمر

(*) [البيان الشيوعي ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ٤٥ – ٤٦] .

الاستبداد الاقطاعي بقيادة البورجوازية ، لن تصبح مع الزمن على قدر كاف من القوة ايضا كي تحطم بمبادرتها الخاصة الهيمنة السياسية للبورجوازية ؟ لقد استطاعت البورجوازية أن تقهر الاقطاعية بفضل ثروتها ؛ وسوف تقهر البروليتاريا البورجوازية لان البؤس الذي هو نصيبها يصبح نصيب قسم متعاظم ابدا من المجتمع الحديث

ولقد قدمت الثروة الى البورجوازية ، في تاريخها ، خدمة اخرى ، وهي خدمة « منتجة » جدا كما يقول اقتصاديوها لقد أعطتها المعرفة ، وجعلت منها الطبقة الاكثر تقدما والاكثر علما في المجتمع في ذلك الحين هل تستطيع البروليتاريا أن تكسب هذه المعرفة ؟ أيمكن أن تكون في الوقت نفسه أفقر الطبقات الاجتماعية واكثرها تطورا ؟ ذلك أن الهيمنة السياسية سوف تظل محظورة عليها اذا لم يتحقق هذا الشرط فليس ثمة سلطة دون معرفة

ولقد قلنا أعلاه أن البورجوازية نفسها هي التي باشرت تثقيف البروليتاريا السياسي لقد عنيت بتعليمها لان هذا التعليم كان ضروريا لها من أجل محاربة العدو ولقد زعزعت ايمان البروليتاريا الديني حيث كان ذلك واجبا من أجل اضعاف نفوذ الاكليروس السياسي ؛ ولقد وسعت أفق البروليتاريا الحقوقي حيث كان يجب عليها أن تعارض الحق المكتوب للنظام القديم بالحق الطبيعي ولقد حان الآن دور المسألة الاقتصادية ، والاقتصاد السياسي يلعب في الوقت الراهن ، كما أشار الى ذلك الماني حسن الاطلاع* ، دورا يضاهي في اهميته الحق الطبيعي في القرن الثامن عشر أتريد البورجوازية أن تنصب نفسها مرشدا للطبقة العاملة في دراسة علاقات الرأسمال والعمل ، هذه المسألة الرئيسية للاقتصاد السياسي بأكمله ؟ مهما يكن هذا الدور مفيدا لها ، فانها لن تقوم به عن طيبة خاطر ذلك أن طرح السؤال يعني سلفا تهديد سلطانها وهل ستكون قادرة على انجاز هذا الدور، كما فعلت فيما مضى بالنسبة الى الدين والحقوق ؟ كلا ان عملاءها الذين أعمتهم المصلحة الطبقية قد فقدوا منذ زمن بعيد كل قدرة على دراسة القضايا الاجتماعية دراسة علمية موضوعية وذلك هو كل سر انحطاط الاقتصاد البورجوازي حاليا وان ريكاردو هو الاخير الذي كان يملك ما يكفي من الادراك ، مع بقائه بورجوازيا حتى نهاية أظافره ، كي يفهم أن مصالح العمل ومصالح الرأسمال متعارضة على طول الخط وكان سيسموندي الاقتصادي البورجوازي الاخير الذي كان يملك مايكفي من الشجاعة كي يأسف دون مراءاة لهذا التضاد ومن بعدها فقدت الدراسات العلمية الشاملة للاقتصاديين البورجوازيين قسما كبيرا من قيمتها العلمية ولايلزمنا كي نقتنع بذلك الا أن نشير الى تاريخ الاقتصاد السياسي منذ ريكاردو وأن نتذوق أعمال باستيا ، وكاري ، ولوروا-بوليو ، بل الاشتراكيين Ex cathedra ** في المانيا

(*) المقصود هو رودبرتوس [ملحوظة عام ١٩٠٥]

(**) [اصحاب السلطة] .

في الوقت الحاضر(٢١) ان الاقتصاديين البورجوازيين ، الذين كانوا فيما مضى مفكرين موضوعيين بصورة صافية ، قد تحولوا الى حراس شرسين يبذلون كل جهودهم كي يحولوا من جديد لاغراض عسكرية بناء علمهم بالذات بيد انهم لا يكفون عن التراجع، بالرغم من هذه التمارين التكتيكية ، ويتخلون للعدو عن الارض التي كان علمهم يسود عليها فيما مضى دون منازع ان أشخاصا أبعدما يكونون عن اي مطمع « ديماغوجي» يؤكدون اليوم أن العمال اقدر من أمثال الامير سميث او فوشير على تمثل المفاهيم الاكثر تجريدا للاقتصاد وان الرجل الذي أصدر مثل هذا الحكم يتمتع بسلطان عظيم بين الاقتصاديين الألمان الذين لا يضمر لهم من جانبه الا احتقارا عميقا ولقد قال هذا الرجل أيضا انا نعتبر العمال أطفالا ، بينما هم قد تجاوزونا بمقدار قامة »*

اليس في هذه الكلمات بعض المبالغة ؟ هل تستطيع الطبقة العاملة أن تفهم المسائل المجردة للاقتصاد السياسي والاشتراكية ليس افضل مما يفهمها اناس قضوا في التعليم عشرات السنين بل بقدر هذا الفهم فقط ؟

علام تقوم معطيات الاشتراكية العلمية حاليا ؟ أهي تمثل احلام محسن للانسانية عاطل عن العمل ؟ من أين تستخلص عبرة الظواهر التي نصطدم بها في حياتنا اليومية، وهل تشكل تفسيرا للقوانين التي تعين دورنا في الانتاج ، وفي المبادلة أو في توزيع المنتجات بكل بساطة ؟ ان كل من يجيب عن السؤال بالعبارة الثانية للمتناوبة سيوافق على أن الطبقة العاملة تملك فرصا كبيرة كي تفهم كما ينبغي القوانين « الاعظم تجريدا للاقتصاد السياسي ، وكي تتمثل الفرضيات الاعظم تجريدا للاشتراكية العلمية ان الصعوبة في فهم قوانين علم ما وقف على الفتنا القليلة مع الحقائق التي تشكل أساسا لتلك القوانين أما حيث يتعلق الامر بظواهر الحياة الجارية ، حيث لا يفعل القانون العلمي الا اعطاء الصيغة العامة للحقائق المعروفة من الجميع ، فان الممارسين لا يقتصرون على فهم المعطيات النظرية بصورة جيدة جدا ، بل يستطيعون أيضا ، في بعض الاحيان ، أن يلقنوا المنظرين درسا اسألوا مزارعا ما اذا كانت المسافة بين مزرعته والسوق تؤثر في سعر منتجاته ، أو خصوبة التربة في معدل الريع العقاري . واسألوا صناعيا ما اذا كان توسع أسواق التصريف يؤثر في انخفاض أسعار الكلفة. اسألوا عاملا من أين يحصل مخدومه على الربح وانكم سوف تقتنعون بأن هؤلاء الناس يعرفون ريكاردو دون أن يكون بصرهم قد وقع قط على غلاف مؤلفاته ولكن جميع هذه المسائل تتمتع بشهرة وطيدة من حيث تعقيدها و « تجريدها » ، وقد أسالت أنهارا من الحبر ، وكتب في موضوعها عدد هائل من المجلدات حتى ليشعر المرء بالدوار أمام هذه الجبال من المطبوعات حين يعزم على دراسة الاقتصاد السياسي.

(*) المقصود هو رودبرتوس ايضا [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

وان الامر نفسه لينطبق على جميع فروع هـذا العلم ! خـذوا مثلا نظرية القيمـة التبادلية ، ان كلمتين تكفيان كي نفسر لاحد العمال بأي شيء وكيف تعرّف هذه القيمة ، بينما السادة الاقتصاديون البورجوازيون لا يستطيعون - أو لا يريدون - أن يفهموا بعد هذه النظرية البسيطة جدا ، ويرتكبون في مناقشاتهم عنها أخطاء في المحاكمة فظة جدا لا يتردد معلم الحساب في منح صفر عنها لتلميذ في الصف الثامن. ولذا فاننا نعتقد أن المؤلف المذكور أعلاه على صواب وأنه لا يمكن ان يكون اليوم لاكثر مسائل الاقتصاد حرقة الا جمهور مستمع متفهم ، وهو الجمهور الذي يتألف من البروليتاريين ، أو من أناس يتخذون وجهة نظر البروليتاريا واذا ما تم تمثل الفرضيات الاساسية للاقتصاد السياسي ، فلن تكون ثمة صعوبة في فهم الاشتراكية العلمية هنا أيضا لن يكون أمام العامل الا أن يتبع مؤشرات تجربته العملية ولقد أوضح ماركس بصورة مرموقة هذا الجانب من المسألة فنحن نقرأ في **اسهام في نقد فلسفة الحق عند هيغل** ما يلي

> حين تعلن البروليتاريا حل **النظام الاجتماعي الراهن ، فهي** لاتفعل سوى بيان سر **وجودها الخاص** ذلك انها تشكل هي نفسها **الانحلال الفعلي** لهذا النظام الاجتماعي. وحين تطالب البروليتاريا **بانكار الملكية الخاصة** ، فانها لاتفعل الا أن تقرر في **مبـدأ المجتمع** ما قرره المجتمع في مبدأ **البروليتاريا** ، ماتجسده هذه البروليتاريا بصورة مسبقة أن يكون لها في ذلك يد ، من حيث هي نتيجة المجتمع السلبية *

وهكذا نرى أن البروليتاريا ليست في حاجة الى الثروة المادية كي ترتفع الى ادراك شروط تحررها ان بؤسها الناجم **ليس عن فاقـة المجتمع ووحشيته بل بالاحرى عن عيوب تنظيم هذا المجتمع** ، لهو **بحيث** يسـهل ادراك تلك الشـروط بالاحرى من أن يقف حجر عثرة في سبيله

ان قوانين تقسيم المنتجات الرأسمالي هي ضد مصلحة الطبقة العاملة حتى الدرجة القصوى بيد ان تنظيم الانتاج واشكال المبادلة الخاصة بالنظام الرأسمالي توفر للشغيلة للمرة الاولى امكانية للتحرر هي موضوعية وذاتية في وقت واحد ان الرأسمالية توسع أفق العامل الذهني ، وهي تدمر الاوهام التي ورثها عن المجتمع السابق ، وتدفعه الى النضال ، بينما هي تضمن له النصر في الوقت نفسه اذ تضاعف تعداده وتضع تحت تصرفه الأمكانية الاقتصادية من أجل تنظيم مملكة العمل ان تطور الماكينية يزيد سلطان الانسان على الطبيعة ، وهو يرفع مردود العمل بنسب عالية بحيث يصبح الزام العمل الشرط الضروري من أجل تطوير متناسق لجميـع الناس في المجتمع الاشتراكي بالاحرى من أن يكون عقبة في الطريق وفي هذه الاثناء،

(*) انظر **الحوليات الالمانية الفرنسية** ، العددان الاول والثاني ، ليبفيرونغ ، ص ٨١ - ٨٥ .

فان تشريك **الانتاج** الذي يميز النظام الرأسمالي يشق الطريق أمام التملك الجماعي **لوسائل** الانتاج **والمنتجات** ان الشركات المغفلة ، وهي اليوم الشكل الاعلى لتنظيم المشاريع الصناعية ، تنحي الرأسماليين عن أي دور فعال في الحياة الاقتصادية وتجعل منهم عاطلين عن العمل لا يمكن لزوالهم أن يؤدي الى أدنى اضطراب في هذه الحياة

ويقول المحافظ رودبرتوس

اذا كانت فئة جسورة من عمد القصور قد عرف فيما مضى كيف تخلع عن العرش أسرة من الملوك الكسالى ، فلماذا لاتستطيع منظمةعمالية نشيطةوطافحة بالحياة (ان شغيلة مؤهلين يشكلون ملاك الشركات) ان تقضي ، اذا ما ساعدها الزمن ، علىمعلمين انقلبوا الى أصحاب ريع مبتذلين ؟

ذلك أن الرأسمال لايستطيع ، هو ، أن يحيد عن سبيله ! وأما انقضى زمان فقد اصبح حفار قبره الخاص

واننا لنسأل بدورنا لماذا لا تستطيع هذه المنظمة العمالية نفسها ، القادرة على « القضاء على معلمين انقلبوا الى أصحاب مشاريع مبتذلين » ، أن تستولي على السلطة في الدولة وتحصل بهذه الطريقة على الهيمنة السياسية ؟ ذلك أن الامر الواحد يفترض الامر الآخر ان « القضاء » على المعلمين أمر لاتستطيع أن تفعله الا منظمة قادرة على الحد من مقاومتهم **السياسية**

وليس هذا كل شيء فثمة ظواهر اجتماعية أخرى تزيد من امكانية انتصار البروليتاريا **السياسي**

أضف الى ذلك كله ما رأيناه من أن جماعات كاملة من الطبقات الحاكمة تتدهور، نتيجة تطور الصناعة وتقدمها ، الى طبقة البروليتاريا أو تكون على الاقل مهددة في شروط وجودها فهذه الجماعات تزود بدورها البروليتاريا بمبادىء ثقافية جديدة

وأخيرا عندما يقترب نضال الطبقات من الساعة الحاسمة الفاصلة فان عملية الانحلال الجارية في قلب الطبقة الحاكمة والحقيقة في قلب المجتمع القديم بأسره ، تتخذ شكلا يبلغ من حدته وعنفه أن جزءا من هذه الطبقة الحاكمة نفسها ينفصل عنها وينضم الى الطبقة الثورية ، الى الطبقة التي تأخذ المستقبل بين يديها. وكما انتقل فيما مضى قسم من النبلاء الى جانب البورجوازية ، كذلك في أيامنا هذه ينتقل قسم من البورجوازية الى جانب البروليتاريا ، وخصوصا ذلك القسم المؤلف من المفكرين البورجوازيين الذين تمكنوا من الاحاطة بمجموع الحركة التاريخية وفهمها بصورة نظرية *

(*) [البيان الشيوعي ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص : ٤٥] .

ان لدى العبيد في شمالي غينيا اسطورة جميلة جدا تقول ان الله دعا ذات يوم بني الزوجين البشريين الاولين. ولقد كان لأحدهما جلد ابيض ، وكان جلد الثاني اسود واما وضع الله امامهما كومة من الذهب وكتابا ، فقد أمر الاخ الاسود الذي كان البكر أن يختار ولقد اختار البكر الذهب ، بحيث كان الكتاب من نصيب أخيه الاصفر وعندئذ فان قوة سرية حملت في الحال الابن الاصفر وكتابه الى منطقة نائية متجلدة ، لكن هذا الاخ الاصفر عرف العلم بفضل الكتاب ، وصار قويا ومرهوب الجانب ، أما البكر فقد ظل في البلاد ، وعاش طويلا بحيث عرف حتى أية درجة يسمو العلم على الثروة

ولقد نالت البورجوازية أثناء الاقتسام المعرفة والثروة على حد سواء ، لقد اخذت ، على العكس من الاخ البكر في الاسطورة الغينية ، الذهب والكتاب معا ، لان التاريخ ، هذا الإله للمجتمعات الانسانية ، ينكر اي حق على الطبقات الدنيا ويعهد بها الى وصاية أبكارها لكن الساعة قد دقت ، حين خرجت الطبقة العاملة، التي غبنها الاتاريخ ، من الطفولة ؛ ولم يكن بد للبورجوازية ان تقاسم ولقداحتفظت بالذهب بينما حصل الاخ الأصفر على الكتاب وعلى الرغم من الظلمة والبرد في الاكواخ القذرة، فان الاخ الاصفر اصبح بفضل الكتاب « قويا ومرهوب الجانب ان الاشتراكية العلمية تمحو شيئا فشيئا النظريات البورجوازية في صفحات الكتاب السحري حيث سوف تتعلم البروليتاريا عاجلا كيف تستولي على السعادة المادية وعندئذ سوف تلقي بعيدا النير الدنيء للرأسمالية وتبين للبورجوازية « حتى أية درجة يسمو العلم على الثروة »

٣

سعينا أن نفسر في الفصل الأول كيف ولدت فكرة عدم تلاؤم الاشتراكية مع اي « سياسة » ، ورأينا أن منشأ هذا الرأي النظرية البرودونية ــ الباكونينية عن الدولة من جهة واحدة ، وبعض الانحراف عن المنطق عند اشتراكيينا الديموقراطيين للاعوام ١٨٧٠ ــ ١٨٨٠ من جهة ثانية وفضلا عن ذلك ، فقد كانت تلك الفكرة تتناغم مع النبرة المحلية التي كان ذانك الاتجاهان يندرجان فيها وكانت هذه النبرة المحلية تتشكل ــ وقد قلنا ذلك ، مستشهدين بانجلز ــ من خليط من المذاهب المختلفة للمؤسسين المختلفين للبيع الاشتراكية . واننا لنعرف ان الاشتراكية الطوباوية كانت تستنكر بصورة مطلقة جميع الحركات السياسية للطبقة العاملة ، وترى فيها نتيجة ارتياب أعمى حيال « الانجيل الجديد » ولقد ادخل هذا الرفض « للسياسة » الى بلادنا في وقت واحد مع نظريات الطوباويين وحتى قبل أن تنشأ في روسيا حركة ثورية ملحوظة ، كان اشتراكيونا جميعا مستعدين لتقليد « الاشتراكيين الحقيقيين » في المانيا قبل عام ١٨٥٠ (انظر البيان ، ص: ٣٢ [٦٧]) ، مستعدين

لان « يكيلوا اللعنات التقليدية لليبرالية ، والنظام التمثيلي ، والمزاحمة البورجوازية، وحرية النشر البورجوازية ، والحقوق البورجوازية ، والحرية البورجوازية والمساواة البورجوازية » ، ناسين كليا أن هذه الهجمات تفترض « وجود المجتمع البورجوازي الحديث مع ما يرتبط به من ظروف المعيشة المادية ، ومن دستور سياسي موافق له »، وبكلام آخر نفس الشروط التي ينبغي تحقيقها في بلادنا*

وكان مفعول التأثيرات المتباينة يقينا وطيدا جدا في عدم جدوى كل نضال سياسي ، اذا تركنا جانبا النضال الثوري بمعنى الكلمة المبتذل والضيق ، بحيث اخذنا ننظر بعين الريبة الى الاحزاب الاشتراكية في أوروبا الغربية لانها كانت ترى مثلا في التحريض الأنتخابي وسيلة فعالة من أجل تثقيف الجماهير العمالية وتنظيمها. ولقد كانت جميع المكتسبات السياسية والاقتصادية الحاصلة بهذه الوسيلة تبدو لنا ذات صبغة انتهازية لا تغتفر ، صفقة محفوفة بالمخاطر مع شيطان الدولة البورجوازية ، معادلا للتخلي عن طوباويات الحياة المقبلة الاشتراكية ولم نكن نرى أن نظرياتنا تحبسنا في حلقة مفرغة من التناقضات غير القابلة للحل ولقد كنا نعتبر المشاعة الريفية نقطة الانطلاق بالنسبة الى التقدم الاقتصادي والاجتماعي في روسيا ؛ بيد أننا كنا نحرم انفسنا عن طيبة خاطر ، بتخلينا عن النضال السياسي ، من كل واسطة لحماية المشاعة المذكورة ، بفعل تدخل الدولة ، ضد التأثيرات الهدامة للعصر الراهن لقد كنا نحكم على انفسنا بأن نبقى المشاهدين غير المتأثرين لعملية تهدم الاسس التي كنا نريد أن نشيد عليها بناء المستقبل

لقد رأينا ان منطق الاحداث جر على أية حال الثوريين الروس في طريق أخرى واجبرهم ، مع حزب « ارادة الشعب » ، على طلب النفوذ السياسي ، بل الهيمنة السياسية ، بوصفها أحد العوامل الرئيسية للثورة الاقتصادية ولقد رأينا كذلك أن حركتنا حين انخرطت في هذه الطريق كبرت جدا بحيث اتضح أن النظريات الاجتماعية والسياسية للانماط المختلفة من البرودونية ضيقة ومزعجة ان مجرى الامور الخاص بالحياة الروسية قد دخل في صدام مع مجرى الافكار السائدة في وسطنا الثوري ، مثيرا بذلك تيارا فكريا جديدا

ولقد قلنا بعدئذ ان هذا التيار الفكري الجديد لم يتخلص من تناقضاته الحالية الا يوم انضم الى تيار الاشتراكية الراهنة الاعمق والاوسع بصورة لا متناهية ان من واجب الثوريين الروس أن ينضموا الى وجهة نظر الديموقراطية الاجتماعية في الغرب وينفصلوا عن **النظريات** « المشاغبة » ، تماما مثلما تخلوا منذ سنوات عديدة عن **ممارسات** « المشاغبين حين ادخلوا الى برنامجهم عنصرا جديدا ، عنصرا

(*) لا يتعلق هذا ، على أية حال ، بالفريق الذي اصدر في جنيف **قضية الشعب**(٢٢) وأبان في مناسبات متعددة عن استنكاره « لنظرية عدم التدخل السياسي » .

سياسيا ولن يجدوا عناء في تحقيق ذلك ، بشرط أن يسعوا الى الحصول على رؤية سليمة للمظهر السياسي لعقيدة ماركس ، وأن يكونوا راغبين في اعادة النظر في وسائل نضالهم ومهماته الفورية ،مطبقين عليها هذا المقياس الجديد

ولقد رأينا في الفصل الثاني النتائج الخاطئة التي أدت اليها المقدمات التاريخية والسياسية للاشتراكية المعاصرة ولم تلاحظ ارادة الشعب »ذلك مطلقا ، بل اتجهت الى الدفـاع عن وجهـة نظر دوهرنغ السوسيولوجية عن التأثير المتفوق للعنصر السياسي ــ الحقوقي للنظام الاجتماعي في العنصر الاقتصادي ، كما يعبر عن ذلك بيوتر لافروف حين يريد أن يسم الاتجاهـات الاحدث للحركـة الثوريـة الروسية* ان هذه الجاذبية وحدها هي التي يمكن ان تفسر المناظرة (ارادة الشعب ، العدد السادس نشرة السياسة الداخلية) ضد اولئك الممثلين المباشرين لنظرية ماركس التاريخية الذين يعتمدون بصورة رئيسية على ثلاثية هيغـل المعروفة جيدا » دون ان يملكوا « اية مادة استقرائية أخرى » من أجل استنباطاتهم ، والـذين يفسرون القانون الهيغلي بمعنى ان الشر ، عند الدرجـة القصوى من صيرورته ، سوف يجلب الخير بكل بساطة »** وانه ليكفي الاطلاع على برنامج الاشتراكيين الديموقراطيين الالمان او الجماعيين الفرنسيين كي يتضح كيف تفهم نظرية ماركس التاريخية » من قبل تلامذة هذا المفكر في اوروبا الغربية ، أو اذا فضلنا ذلك من قبل ممثليه المباشرين اما من جهتنا فاننا نستطيع أن نؤكد لرفاقنا الروس أن الممثلين المذكورين لا يفهمون البتـة القانون الهيغلي بمعنى ان الشر في الدرجة القصوى من صيرورته يجلب الخير بكل بساطة ، وانهم يستنسبونه ، من حيث هو مادة استقرائية الا كي يدرسوا تاريخ الفلسفة الالمانية حيث يحتل القانون المذكور مركزا رفيعا جـدا لا يمكن في حال من الاحوال انتزاعه منه اكثر مما يمكن ، حسب تعبير البعض ، انتزاع اللحن من الاغنية ان الفقرة التي أوردناها لتونا تنقل بصورة حرفية تقريبا الفقرة حيث يأخذ دوهرنغ على ماركس

(*) انظر نظرة خاطفة الى ماضي وحاضر الاشتراكية الروسية » ، في تقويم ارادة الشعب لعام ١٨٨٣ ، ص ٩٠.

(**) نقاد الشرعيين نقولاس ميخائيلوفسكي وزملاءه ، قد غنوا فيما بعد اغاني عديدة على هذا اللحن وفيما عدا ذلك فان من واجبنا ان نقرر أن هؤلاء السادة لم يبتكروا في مناظرتهم معنا أي شيء جديد على الاطلاق بالنسبة الى ما كانت الادبيات غير المشروعة تعارضنا به وان كل من يود ان يقتنع بذلك يكفيه ان يقرأ مقالة السيد تيخوميروف (« ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ ») في الملزمة الثانية من رسول ارادة الشعب ، ويقارن ذلك مع الحجج التي كان على بتلوف بعد ذلك بزمن طويل يدحضها في كتابه (٢٣) لقد كان الفكر غير الشرعي » عندنا متقدما جدا على الفكر « الشرعي » [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

ان « الانكار الهيغلي للافكار يلعب » في مخططه التاريخي ، دور القابلة التي سوف تخرج المستقبل من أحشاء الحاضر ، وذلك من جراء الافتقار لوسائط أفضل واوضح* بيد ان انجلز فضح هذه العملية بقوة وعرّى الفاقة العلمية لمؤلفات العميد السابق في برلين لماذا تكرار أخطاء الآخرين والوقوف على مثل هذه الارض المترنحة من أجل نقد النظرية الاعظم والاكثر ثورية بين النظريات الاجتماعية للقرن التاسع عشر ؟ بدون نظرية ثورية لا وجود للحركة الثورية بالمعنى الحقيقي للكلمة .
ان كل طبقة تتوق الى تحررها ، وكل حزب سياسي يستهدف الهيمنة ، لا يكونان ثوريين الآ بقدر ما يمثلان الاتجاهات الاجتماعية الاكثر تقدمية ، ويكونان بالتالي الناطقين باسم الافكار الاكثر تقدما في عصرهما ان الفكرة الثورية هي ، من جراء مضمونها بالذات نوع من الديناميت لا يمكن أن يعوض عنه أي نوع آخر من المتفجرات في العالم وما دامت حركتنا أسيرة النظريات المتخلفة أو الملوثة بالاخطاء، فلن تكون ثورية الا **ببعض** مظاهرها وليس بجميع هذه المظاهر مطلقا ولسوف تحمل في ذاتها ، خفية عن اعضائها ، بذرة للرجعية سوف تحرمها فضلا عن ذلك ، في مستقبل أكثر او أقل قربا ، من هذا النصيب من الفعالية بالذات . ذلك أنه ، على حد تعبير هايتي ايضا ، لكل

عصر جديد يلزم
ثوب جديد من أجل عمل جديد

وان هذا العصر الجديد حقا سوف يأتي بالنسبة الى بلادنا أيضا

وعلى أية حال ، فان عدم فهم بعض معطيات الاشتراكية المعاصرة لا يشكل ال الرئيسية التي تعوق حركتنا الثورية عن سلوك الطريق التي مهدتها الطبقة العاملة في الغرب ان معرفة اكثر تعمقا بالادب الماركسي سوف تبين لاشتراكيينا أي سلاح قد حرموا منه أنفسهم حين تخلوا عن فهم وتمثل نظرية المعلم الشهير لبروليتاريي جميع البلدان » ولسوف يقتنعون اذن بأن حركتنا الثورية ، وهي أبعد ما تكون عن أية خسارة ، سوف تربح ربحا فاحشا اذا ما أصبح الشعبيون الروس والأنصار الروس « لارادة الشعب » ماركسيين روسا اخيرا ، واذا ما جمعت وجهة نظر جديدة ، أسمى وأرفع ، بين جميع الفئات الموجودة لدينا ، وهي فئات كل منها على صواب على طريقتها ، طالما ان كلا منها تعكس ، بالرغم من ضيقها ، حاجة أساسية ملحة للحياة الاجتماعية الروسية .

بيد ان عقبة أخرى تعوق حركتنا من التطور في المنحى الذي أشرنا اليه لتونا،

(*) انظر Kritische Geschichte der Nationalekonomie und des Socialismus, dritte auflage, S. 498

[التاريخ النقدي للاقتصاد السياسي والاشتراكية]

وهي تستقيم في أننا لم نصب التقدير سياسيا ، في أن ثوريينا لم يعرفوا منذ البداية أن يقيموا النسبة بين مهماتهم وقواهم ، وهو مالا يجب ان نبحث عن سبب له في غير التجربة السياسية عند المناضلين الروس وسواء نزلنا الى الشعب كي ننشر بينه الكتابات الاشتراكية ، او اقمنافي القرى كي ننظم العناصر المستاءة من طبقة الفلاحين، أو انخرطنا في النضال المباشر ضد ممثلي الحكم المطلق ، فقد ارتكبنا في كل مكان الخطيئة عينها لقد بالغنا دائما في تقدير قوانا ، ولم نأخذ قط بعين الاعتبار كما ينبغي المقاومة التي سيبديها الوسط الاجتماعي ضدنا ولقد تعجلنا على الدوام فجعلنا من بعض وسائط العمل التي أيدتها الظروف بصورة مؤقتة مبادىء تستبعد كل وسيلة اخرى وان جميع برامجنا قد عانت فيما بعد توازنا متقلقلا جدا بحيث كان يكفي من أجل تحطيمه أتفه تعديل يطرأ على الظروف ولقد كنا نغير برنامجنا كل عامين على وجه التقريب دون أن نستطيع قط الوقوف على ارض ثابتة ، لاننا كنا نقف دائما على ماهو ضيق وماهو متحيز ولقد كان بييلنسكي يقول أن المجتمع الروسي ، دون ان يملك ادبا بعد ، قد مر مسبقا بجميع المدارس الادبية ؛ وكذلك الامر بالنسبة الى الحركة الاشتراكية الروسية التي وجدت الوقت سلفا ، دون أن تصبح بعد حركة خاصة بطبقتنا العاملة ، كي تجرب بصورة متتابعة جميع الصيغات الممكنة للاشتراكية الغربية

ومما لا ريب فيه أن النضال ضد الحكم المطلق الذي تخوضه ارادة الشعب » سوف يسهم ، اذ يجر عمل ثوريينا على طريق أعرض ، ويستحثهم على خلق حزب حقيقي ،في القضاء على ضيق حلقات الدعاية لكنه يتوجب على الثوريين الروس، كي يضعوا حدا لهذا التبديل الدائم في البرامج ، وكي يتخلصوا من عاداتهم في البداوة السياسية ويكتسبوا اخيرا فكرا رصينا متزنا ، ان يمضوا حتى النهاية في النقد الذي انصرفوا اليه منذ ظهور اتجاهات سياسية واعية في وسطهم ان من واجبهم ان يتخذوا موقفا نقديا حيال نفس البرنامج الذي جعل من الضرورة بمكان نقد جميع النظريات وجميع البرامج السابقة ان « حزب ارادة الشعب » ابن مرحلة انتقالية ، وبرنامجه هو الاخير بين البرامج التي ولدت في شروط كان ضيق التفكير فيها امرا لا مندوحة عنه ، وبالتالي كان أمرا طبيعيا واذا هو قد وسع الافق السياسي للاشتراكيين الروس ، فانه لا يخلص من ذلك العيب وانه ليلاحظ فيه كذلك بعض المغالاة السياسية ، والعجز عن التنسيق بين الاهداف المباشرة والقوى الحقيقية او الكامنة ان « حزب ارادة الشعب » يشبه رجلا وجد الطريق الصالحة ، لكنه لا يملك بعد حس المسافات ، ولهذا السبب يتوهم انه سوف « يقطع مائة الف فرسخ دون ان ينال قسطا من الراحة مطلقا* ومن المؤكد ان الممارسة سوف تبدد هذا

(*) [من خرافة ايرشوف **الحصان الصغير الاحدب**] .

الوهم لكن هذا ربما كلف غاليا جدا وانه ليكون من الافضل أن تطرح ارادة الشعب » على نفسها سؤال ما اذا كان حذاء الاميال السبعة موجودا حقا خارج الخرافة

واننا لنقصد بحذاء الاميال السبعة عنصر المخرقة الذي نوهنا به سابقا بخصوص البرنامج موضع البحث ففي العدد الثاني من **ارادة الشعب** ينادون بالثقة بوجود غالبية اجتماعية ثورية (ولا نقول **اشتراكية** بعد) في الجمعية التأسيسية الروسية القادمة(٢٤) ، كما ان العددين الثامن والتاسع يناقشان مسألة « الاستيلاء على السلطة من قبل الحكومة الثورية المؤقتة انا على قناعة عميقة بضرر هذه الآراء الفكرية بالنسبة الى الحزب نفسه انها تضره ، بوصفه حزبا اشتراكيا ، اذ تحيد به عن مهماته الفورية بالنسبة الى الطبقة العاملة الروسية ؛ وانها لتضره بوصفه حزبا أخذ مبادرة حركة التحرر في بلادنا ، اذ ستبعد عنه دائما قسما كبيرا من العناصر والقوى التي كان في مقدورها ، في شروط أخرى ، أن تجتذب ما يسمى « المجتمع الجيد لنفسر ما نقصده بمزيد من التفصيل

الى من تتوجه ، الى من **تستطيع** ويجب أن تتوجه « ارادة الشعب » في نضالها ضد الحكم المطلق ؟ اننا نقرأ في **تقويم ارادة الشعب*** ما يلي من المفروغ منه أن انضمام **بعض العناصر من طبقة الفلاحين** القادرين على الالتحاق بتجمعنا قد كان على الدوام أمرا مؤملا لكنه فيما يتعلق بالتنظيم **الجماهيري** لطبقة الفلاحين ، فقد تراءى من صنع المخيلة الخالصة عند اقرار البرنامج ، واذا استثنينا الخطأ ، فان الممارسة لم تستطع أن تغير رأي اشتراكيينا حيال هذا الامر لعل حزب ارادة الشعب » ينوي الاعتماد على القسم الاكثر تقدما من السكان الكادحين ، يعني عمال المدن ؟ وبالفعل فانه يعطي أهمية عظيمة جدا لعمل الدعاية والتنظيم في هذا الوسط ، معتبرا أن « السكان العاملين الحضريين يجب أن يحظوا بالاهتمام الاكثر جدية من قبل الحزب » بيد أن الطريقة التي تبرر هذه الضرورة تبين أن عمال المدن ، بالنسبة الى « ارادة الشعب » ، ليسوا الا أحد عناصر حركتنا الثورية ونقرأ في هذه الوثيقة : « انهم يملكون أهمية رئيسية بصورة خصوصية **من أجل الثورة**، سواء من جراء وضعهم أو من جراء تطورهم **الفكري** النسبي ؛ طالما ان نجاح الصدمة الاولى يتوقف بأكمله على سلوك العمال والجيش » وهكذا فان الثورة المقبلة لن تكون ثورة عمالية بكل معنى الكلمة : ان على العمال أن يسهموا فيها فقط بقدر ما « يملكون أهمية رئيسية بصورة خصوصية **من أجل الثورة** » ما هي العناصر الاخرى التي سوف تدخل هذه الحركة اذن ؟ الجيش بصورة خاصة كما رأينا لتونا.

(*) « العمل التحضيري للحزب » ملحوظة في الصفحة ١٢٩ [ان التشديد في الشاهد هو من بليخانوف] .

لكن الدعاية بين الجنود البسطاء في الظروف الراهنة صعبة جدا بحيث لا يمكن ان نقيم عليها كثيرا من الآمال وان التأثير في **هيئة الضباط** يبدي ميزات أعظم بكثير انهم اكثر تطورا فكريا ، وأعظم حرية ، واكثر قابلية للتأثيرات الخارجية ! »
وهذا صحيح بصورة مطلقة ، فلا نتوقفن عنده في هذه اللحظة ولنتابع وفيما عدا العمال و « هيئة الضباط » ، تفكر « ارادة الشعب » أيضا في الليبراليين وفي «اوروبا» التي « يجب أن تسعى سياسة الحزب حيالها الى ضمان تأييد **الشعوب** للثورة ، والى اثارة تعاطف الرأي العام الاوروبي » ويجب على الحزب في سبيل بلوغ هذا الهدف « أن يذيع في أوروبا التأثير السيء الذي يمارسه الاستبداد على الحضارة الاوروبية ، ويذيع اهداف الحزب الحقيقية ومغزى حركتنا الثورية من حيث هي التعبير عن احتجاج الشعب بأسره وأما فيما يتعلق « بالليبراليين » ، فانه من الواجب حيالهم ، دون اخفاء راديكاليتنا ، أن نشير الى أن مصالحنا ومصالحهم ، في الوضع الراهن لقضايا الحزب ، تجبرنا على العمل بصورة متناسقة ضد الحكومة »

وهكذا نرى أن « ارادة الشعب » لا تعتمد فحسب ، ولا حتى بصورةرئيسية، على الطبقة العاملة والطبقة الفلاحية انها تفكر كذلك في المجتمع الجيد وفي هيئة الضباط ، التي ليست هي في واقع الامر الا الابن المدلل لذلك المجتمع ويريد الحزب ان يقنع العنصر الليبرالي من هذا المجتمع بأنه ، « في الوضع الراهن لقضايا الحزب ، تتطابق مصلحة الليبرالية الروسية مع مصلحة الحزب الاجتماعي الثوري الروسي وماذا يفعل اذن كي يحمل الليبرالية على مقاسمته هذه القناعة ؟ انه يبدأ بنشر برنامج اللجنة التنفيذية »(٣٥) ، حيث يقال ان « **ارادة الشعب** سوف تنعكس بصورة كافية وتتحقق من قبل جمعية تأسيسية منتخبة بصورة حرة بالاقتراع العام مع تفويض جازم من الناخبين بل ان اللجنة تطالب ، في **الرسالة الى الكسندر الثالث**(٣٦) الشهيرة ، بدعوة ممثلي الشعب الروسي بأسره بغرض اعادة النظر في الاشكال الراهنة للمجتمع والدولة ، وتعديلها بصورة مطابقة للرغبة الشعبية وان هذا البرنامج ليتطابق بالفعل مع مصالح الليبراليين الروس ، ومما لا ريب فيه انهم سيقبلون في سبيل تحقيقه بالاقتراع العام الذي لن تتوانى اللجنة التنفيذية عن المطالبة به ؛ وعلى أي حال ، فان هذا القسم من البرنامج يكشف عن قدر اكبر من النضوج السياسي من جميع البرامج السابقة لكن فلنذكر فحسب ، كي لا نتحدث مطلقا عن خراقة بمثل فظاظة المطالبة بحرية الاجتماع والكلام والصحافة والبرامج الانتخابية ، بصفة تدبير(٣٧) مؤقت »* فحسب بالبيانات الاخرى لحزب « ارادة الشعب » فقد أسرعت مجلته تنبه القراء الى أن غالبية

(*) انظر « رسالة الى الكسندر الثالث » في **تقويم ارادة الشعب** ، ص ١٤ .

الجمعية التأسيسية سوف تتألف من انصار ثورة اقتصادية جذرية ولقد قلنا اعلاه ان هذا اليقين ليس سوى وهم متخيل في سبيل تأطير العناصر المتنافرة لبرنامج الحزب فلنأخذ الآن بعين الاعتبار ، من وجهة نظر التكتيك ، الدعاية المعطاة لذلك اليقين هل تتجاوب الثورة الاقتصادية مع مصلحة الليبرالية الروسية ؟ أيمكن للمجتمع الجيد الليبرالي أن يتعاطف مع الثورة الزراعية التي سيطالب المندوبون الفلاحون – هذا ما تؤكده ارادة الشعب – بتحقيقها ؟ ان تاريخ اوروبا الغربية يبين بفصاحة بالغة ان « الليبراليين » قد ارتموا ، حيثما اتخذ « الشبح الاحمر » أشكالا مرهوبة حتى درجة ما ، في أحضان الدكتاتورية العسكرية الاقسى هل تعتقد المجلة الأرهابية أن الليبراليين الروس سيشكلون استثناء للقاعدة ؟ اذا كان الجواب نعم ، فعلى أي شيء تؤسس هذه القناعة ؟ وهل تتوهم أن « الراي العام الاوروبي » في اليوم الحاضر قد تشرب حتى درجة كبيرة بالافكار الاشتراكية بحيث يصفق لدعوة جمعية تأسيسية اجتماعية ثورية ؟ هل تعتقد ان البورجوازية الاوروبية ، المذعورة في بلدانها من الشبح الاحمر ستصفق حين تراه يظهر في روسيا ؟ من دون ريب، لا تنطوي « ارادة الشعب » على مثل هذه الاوهام ، ولا يفوتها أي من هذه الظروف ماالداعي اذن الى هذا البيان المغامر ؟ ربما لان مجلة ارادة الشعب واثقة حتى درجة كبرى من حتمية تحقيق نبوءاتها بحيث لا ترى من المناسب أن تحث أعضاء الحزب على اتخاذ التدابير المناسبة لخطورة الاحداث المنتظرة ؛ لكنه بما أن المجلة نفسها قد حكمت بالعقم على العمل بين صفوف الشعب فاننا نعتقد أن هذه البيانات يجب أن تستهدف التهدئة بالاحرى من التحريض انهم يتوقعون غالبية اجتماعية – ثورية بالرغم من أن العمل موضع البحث يذكر اليوم بعمل بنات داموس »*

ويمكننا الحكم على هذه البيانات بأن أهميتها تضاءلت نظرا لان ارادة الشعب ابتعدت حاليا فيما يبدو عن احلامها ركيب الجمعية التأسيسية المقبلة وبالفعل فان العدد ٨ – ٩ يتحدث عن ثورة اقتصادية تحققها الحكومة الثورية المؤقتة » قبل دعوة الجمعية التأسيسية في حال عدم توفر المبادرة الاجتماعية الثورية لدى الشعب نفسه وان كاتب هذه المقالة يرى بحق تام في هذه الثورة الضمانة بأنه « لن يكون » الا ممثلون حقيقيون للشعب في المجالس العامة التي ستنعقد» . وهكذا تبدد الوهم السابق ، ومن سوء الحظ أنه لم يتبدد الا كي يفسح المكان لوهم آخر وهو وهم أضر ايضا بقضية الحزب ان عنصر الخيال الشاطح لم يختف من البرنامج ، وكل ما في الامر أنه اتخذ شكلا آخر ، فهو يسمى بعد الآن

(*) [في الاساطير الاغريقية انهن قد حكم عليهن في الجحيم بأن يملان باستمرار براميل لا قاع لها وهي كناية عن العمل غير المجدي الذي يكلف كثيراً من الجهد] .

« الاستيلاء على **السلطة من قبل الحكومة المؤقتة الثورية** وهي عملية يجب أن تمكن الحزب من انجاز الثورة موضع البحث ومن المفروغ منه أن هذا « الطرح الجديد للقضايا الحزبية لا يمكن ان يوحي الى الليبراليين الروس ، ولا الى البورجوازية الاوروبية ، بالرغبة في التضامن مع الحركة الثورية عندنا ان المجتمع الجيد الروسي مهما يكن مخبولا وذاويا ، لم يفقد بعد كل غريزة في حفظ البقاء ، ولن يتقدم في حال من الاحوال من « الشبح الاحمر » بملء ارادته ؛ وحين « نطرح » عليه بهذه الصورة القضايا الحزبية ، فاننا نحرم أنفسنا من دعمه ، ونرد الثوريين الى قواهم الخاصة أتكون هذه القوى عظيمة جدا بحيث تمكن المجازفة برفض مثل ذلك الحليف ؟ ايستطيع ثوريونا حقا أن يستولوا على السلطة ويحتفظوا بها ولو لزمن قصير ؟ أم أن كل الضوضاء التي تثار بهذا الشأن ليست أكثر من بيع جلد الدب قبل قتله ، بل ولما تطرح مسألة قتله بعد ؟ هذا هو السؤال الذي يطرح اليوم بأقصى الحدة على روسيا الثورية

ولنتعجل الايضاح لابد ان الصفحات السابقة أقنعت القارىء باننا لسنا خصوما بصورة قبلية لعمل مثل الاستيلاء على السلطة . وفي رأينا أن تلك هي النتيجة الاخيرة ، والمحتومة فضلا عن ذلك ، للنضال السياسي الذي يجب أن تخوضه في مرحلة معينة من التطور الأجتماعي كل طبقة تطمح في تحررها ان الطبقة الثورية التي حققت الهيمنة السياسية لا يمكن أن تحتفظ بها ، ولا يمكن ان تتقي نسبيا الضربات المضادة للرجعية ، الا اذا وجهت ضد هذه الرجعية السلاح البالغ القوة للسلطة السياسية وكما يقول فاوست Den Teufel Halte wer in Hâlt!*

ان الدكتاتورية الطبقية تختلف عن دكتاتورية جماعة من العاميين(٢٨) الثوريين بقدر ما يختلف الليل عن النهار ويصح هذا التقرير بصورة خاصة عن دكتاتورية الطبقة العاملة التي لا تستقيم مهمتها اليوم في تدمير الهيمنة السياسية لقوى المجتمع غير المنتجة فحسب ، بل كذلك في القضاء على الفوضى الحالية في الانتاج ، وفي تنظيم جميع وظائف الحياة الاقتصادية والاجتماعية تنظيما ثوريا وان **فكرة** هذه المهمة تفترض وحدها طبقة عاملة متطورة جيدا ، مجربة ومثقفة سياسيا ، متحررة من المسبقات البورجوازية ، وعارفة كيف تقدر موقفها من تلقاء ذاتها . وفيما عدا ذلك فان **تحقيقها** يفترض شيوع الافكار الاشتراكية بين البروليتاريا ، ووعي البروليتاريا لقوتها بالنصر بيد ان **مثل** هذه البروليتاريا **لن تسمح** حتى لاولئك الذين يضمرون لها أفضل النوايا بالاستيلاء على السلطة انها لن تسمح بذلك لهذا السبب البسيط ، الا وهو انها سوف تتثقف في مدرسة التربية السياسية ونيتها الجازمة أن تتخرج ذات يوم في هذه المدرسة وتنزل وحدها الى حلبة التاريخ ، دون ان تنتقل ابدا من

(*) [« حين تمسك بالشيطان ، فامسك به بقوة ! » ، غوته ، **فاوست**]

وصاية الى اخرى ؛ وهي لن تسمح بذلك لان مثل هذه الوصاية سوف تكون عديمة المنفعة ، طالما ان عليها أن تقوم بالثورة الاشتراكية بنفسها ؛ وهي لن تسمح بذلك أخيراً لان مثل هذه الوصاية سوف تكون ضارة فلا مهارة المؤامرات ، ولا الشجاعة وروح التضحية عند المتآمرين مهما كانوا ، تضاهي قط مشاركة المنتجين الواعية في تنظيم الانتاج وان فكرة ان المسألة الاجتماعية يمكن حلها عمليا من قبل آخرين غير العمال انفسهم تشير لوحدها الى عدم فهم تام للقضية ، سواء صدرت عن المستشارالالماني او عن منظمة ثورية ان البروليتاريا ، اذا ما فهمت مرة شروط تحررها واصبحت على قدر كاف من النضوج من أجل هذا التحرر ، سوف تأخذ سلطة الدولة بين يديها الخاصتين كيما تشيد الحياة الآجتماعية ، بعد أن تنتهي من اعدائهـا ، ليس على أسس الفوضى التي ستجلب عليها آلاما جديدة بل على اساس نظام جامع يتيح لجميع الاعضاء البالغين في المجتمع أن يسهموا بصورة مباشرة في مناقشة الشؤون الاجتماعية وتنظيمها ومادامت الطبقة العاملة لم تبلغ بعد درجة كافية من التطور كي تحقق رسالتها التاريخية العظمى ، فان واجب اولئك الذين نصبوا انفسهـم مدافعين عنها أن يعجلوا عملية التطور هذه وان يزيلوا العوائق التي تمنع نمو القوى العمالية والوعي العمالي لا ان يتخيلوا تجارب في التشريح الاجتماعي الحي خاتمتها على الدوام أكثر من مشكوك فيها فحسب

هكذا نفهم مسألة الاستيلاء على السلطة في الثورة الاشتراكية وحين نطبق وجهة النظر هذه على الواقعالسياسي ، فلابد أن نعترف بأننا لا نؤمنمطلقا بالامكانية الوشيكة لحكومة اشتراكية في روسيا

ان ارادة الشعب ترى أن « توزيع العوامل السياسية والاقتصادية في الميـدان الروسي » في الوقت الحاضر ملائم » للاشتراكيين بصورة خصوصية(٣٩) واننا لنوافق على انه أكثر ملاءمة في روسيا منه في الهند أو ايران أو مصر ؛ لكنه مـن المحال مقارنته مع العلاقات الاجتماعية في اوروبا الغربية واذا كانت ارادة الشعب قد انتهت الى هذه القناعة بمقارنة نظامنا لا مع نظام مصر او ايران بل مع النظام القائم في فرنسا او في انكلترا ، فقد ارتكبت خطيئة فادحة ان جهالة الجماهير الشعبية وبلادتها مردهما الى « التوزيع » الراهن للعوامل الاجتماعية « في الميدان الروسي »؛ فمتى شجعت اذن مثل هذه الخصائص تحررها ؟ ومما لا ريب فيه ان ارادة الشعب تعتقد أن هذه البلادة جعلت تتبدد لان « حقدا على الشيع الحاكمة صاحبة الامتيازات وطموحا ملحا الى تغيير العلاقات الاقتصادية بصورة جذرية يستيقظان » اكثر فأكثر في صفوف الشعب لكن ما الذي يترتب على هذا الطموح ؟ ان « الحقد ضد الشيع صاحبة الامتيازات لا يثبت شيئا بعد ؛ وغالبا ما لا يترافق بأدنى وميض للوعي السياسي وفيما عدا ذلك ، فان واجبنا اليوم ان نقيم فارقا حاسـما بين وعي الشيعة ووعي الطبقة ، لان الفوارق الشيعية القديمة لا تقابل بعد الآن العلاقـات

الاقتصادية في روسيا ، وهي على وشك أن تفسح المكان لمساواة المواطنين الصورية في دولة قانونية فاذا كانت ارادة الشعب تنظر الى الافق الفكري الراهن عند طبقتنا الفلاحية من زاوية تقدم الوعي الطبقي والوعي السياسي ، فانها لن تستمر في الاصرار على توزيع العوامل الاجتماعية عندنا ، وهو التوزيع الذي يزعم انه ملائم لثورة اجتماعية ذلك انه لا يمكن في حال من الأحوال أن تعتبر من الامور «الملائمة» مثلا الاشاعات التي تملأالريف بشأنالنضال الذي يخوضه هذا الحزب ضدالحكومة. ومهما تظاهر الحقد على الطبقات* الحاكمة » بصورة قوية في هذه الاشاعات ، فان الحكومة المؤقتة الثورية » تجد نفسها في خطر كبير عندما يعمد الشعب الى انتزاع المساواة الاقتصادية من مضطهديه ومستغليه الابديين » ، وذلك نظرا لان الفلاحين يعزون الحركة الثورية الى دسائس النبلاء والموظفين الذين يريدون العودة الى نظام الرق وعندئذ فمما لا ريب فيه أن التوزيع الراهن للعوامل التي تعنينا سوف يميط اللثام عن صفات **منافية** جدا للمتآمرين الذين سيكونون قد فازوا بصورة مؤقتة

وفضلا عن ذلك ، فما معنى « انتزاع المساواة الاقتصادية ؟ أيكفي من أجل ذلك نزع ملكية كبار الملاكين والراسماليين والصناعيين ؟ افلا يجب كذلك تنظيم الانتاج نفسه بطريقة ما ، واذا كان الجواب بالايجاب فهل العلاقات الاقتصادية في روسيا الحالية ملائمة ، وبكلام آخر هل يوفر لنا « العامل الاقتصادي » حظا كبيرا ؟ اننا نعتقد أن لا ، ونعتقد ذلك للسبب التالي ان كل تنظيم يفترض بعض الخصائص للسيء المنظم تحددها هدف هذا التنظيم وطابعه ان التنظيم الاشتراكي للانتاج يفترض علاقات اقتصادية تجعل من هذا التنظيم العاقبة المنطقية لكل تطور البلاد السابق ، وبالتالي فهي علاقات محددة بوضوح خصوصي جدا وبعبارات أخرى فان التنظيم الاشتراكي يتطلب ، مثله كمثل أي تنظيم ، أساسا مناسبا ، وهو الاساس الذي لا وجود له في روسيا الحالية ان الاسس القديمة للحياة الشعبية ضيقة جدا ، ومتنافرة جدا ، وبعيدة عن المنطق جدا ، وفضلا عن ذلك مهلهلة جدا ، بينما الاسس الجديدة لم تتشكل بعد ان شروط الانتاج الاجتماعية الموضوعية لما تنضج من أجل التنظيم الاشتراكي ، وهذا هو السبب في أننا لا نصادف بعد عند المنتجين لا طموحا الى هذا التنظيم ولا استعدادا له ، فطبقتنا الفلاحية لا تستطيع بعد ان تفهم هذه المهمة ولا ان تنجزها وهكذا فانه سيكون على « الحكومة المؤقتة » لا ان تكرس الثورة الاقتصادية » بل ان **تصنعها** ، هذا اذا لم تجرفها الموجة الشعبية ، اذا وجدت ما يكفي من الليونة من جانب المنتجين

ان الشروط الغريبة على العلاقات الاقتصادية القائمة لا تصنع بالمراسيم،

(*) [« شيع » في الطبعة الاولى]

بحيث لابد « للحكومة المؤقتة » من القبول بما هو موجود ، من أخذ ما يقدمه الواقع الروسي لها كأساس من أجل عملها الاصلاحي ان بناء التنظيم الاشتراكي سوف يشيد على هذا الاساس الضيق والمترنح من قبل حكومة يدخل فيها ١ - عمال المدن الذين لم يهيأوا بعد لمثل هذا العمل الصعب ؛ ٢ - ممثلو شبيبة ثورية قد ظلوا دائما على حدة من النشاط العملي ؛ ٣ - « هيئة الضباط » التي سوف يسمح لنا بالتشكيك في معارفها الاقتصادية ولسوف نمتنع عن اصدار الفرضية المعقولة جدا بأننا سنشاهد ليبراليين يتسربون الى الحكومة المؤقتة الى جانب تلك العناصر ، وهم اناس سوف يقفون حجر عثرة في طريق « الطرح الاجتماعي الثوري للقضايا الحزبية » بالاحرى من المشاركة فيه اننا نقترح فقط على القراء أن يزنوا الظروف التي عددناها لتونا ومن ثم يتساءلون ما اذا كان ثمة معقولية كبيرة في نجاح

ثورة اقتصادية » تجري في مثل هذه الشروط ؟ أيكون، « توزيع العوامل السياسية والاقتصادية في الميدان الروسي » ملائما حقا لقضية الثورة الاشتراكية ؟ وهل اليقين بأنها ملائمة لا يندرج في عداد الاوهام المستعارة من الترسانة الفكرية الفوضوية - المشاغبة القديمة ، لكن المبالغ بها في برنامج الحزب الجديد - الذي هو حزب سياسي - حتى درجة غير مقبولة ؟ والحال ان هذا الوهم هو الذي نخدم من أجل تحديد « مهمات الحزب الفورية » ، وهو الاساس الذي يعتمد من أجل ارادة « الاستيلاء على السلطة » بصورة فورية ، هذا المطلب الذي يبعث الهلع في مجتمعنا الجيد والذي تحد المبالغة فيه من عمل ثوريينا

ورب معترض نقول ان ارادة الشعب لن تفكر في التصدي لتنظيم المجمع تنظيما اشتراكيا بعد الاستيلاء على السلطة في الحال ، وان « الثورة الاقتصادية » المنوية انما تستهدف تثقيف الشعب من أجل الثورة الاشتراكية المقبلة لنر ما اذا كانت هذه الفرضية معقولة ، واذا كانت كذلك فما هي النتيجة التي تترتب عليها

ان افتتاحية العدد ٨ - ٩ من **ارادة الشعب** تعالج المساواة الاقتصادية التي سوف « ينتزعها » الشعب نفسه ، أو تقيمها الحكومة المؤقتة فيما اذا اعوزته المبادرة ولقد سبق لنا أن قلنا ان ما يسمى المساواة الاقتصادية محالة الا في تنظيم اشتراكي للانتاج لكن فلنفترض ان « ارادة الشعب » تحسبها ممكنة في ظروف أخرى أيضا ، وانها تتصور المساواة الاقتصادية مضمونة بصورة كافية بانتقال الارض وأدوات الانتاج الى أيدي الشغيلة . ان مثل هذا الرأي لن يكون الا عودة الى المثل الاعلى الشعبي القديم « للارض والحرية » ، ولسوف يعاني من نفس نقاط ضعف هذا المثل الاعلى من وجهة النظر الاقتصادية ان العلاقات بين المشاعات ، وتحول منتجات عمل اعضائها الى سلع ، والتراكم الرأسمالي الذي سيترتب على ذلك، تهدد بأن تجعل هذه « المساواة » متقلقلة حتى الدرجة القصوى ! ومع استقلال المير « من حيث هو وحدة اقتصادية وادارية » ، مع « حكومة محلية ذات سلطات واسعة

حيت جميع الوظائف انتخابية » و « ملكية الارض من قبل الشعب » ، وهي جميعا مطالب واردة في برنامج اللجنة التنفيذية ، فان الحكومة المركزية **لن تتمكن** من اتخاذ التدابير من أجل توطيد تلك المساواة ، هذا اذا افترضنا انها فكرت في تدابير لن تلغي قوانين الامبراطورية المكتوبة فحسب ، بل قوانين الانتاج السلعي بالذات وعلى أي حال فانها لا يمكن ان تكون راغبة في مثل هذه التدابير ، وهي التي ستكون مشكلة من ممثلي الشعب المحرر اقتصاديا وسياسيا ، الذي سيتطابق مثله الاعلى في افضل الاحوال ملاعمة مع المثل الأعلى « للارض والحرية » ، دون ان يترك مكانا لادنى تنظيم للانتاج القومي (ونحن لا نتحدث ايضا عن الانتاج **الدولي**)

ولنفترض أن « الحكومة المؤقتة » لارادة الشعب » لم تنقل ، من جراء هذا الحظر ، السلطة الى ممثلي الامة وتحولت الى حكومة دائمة اليكم اذن المتناوبة التي ستواجهها اما ان تظل المشاهد غير المتأثر للتفسخ البطيء الطارىء على المساواه الاقتصادية المؤسسة بجهودها واما ان تعمد الى **تنظيم** الانتاج القومي ولابد لها أن تحل هذه القضية الشائكة بروح الاشتراكية الحالية ، وهو ما لن تستطيع القيام به ، سواء بسبب افتقارها الخاص الى الروح العملي ، أوبسبب الحالة الراهنة لتطور العمل عندنا وعادات الشغيلة انفسهم ؛ واما أن تبحث عن الخلاص من جهة « الشيوعية الرعوية التسلطية ، مع ادخال هذا التغيير الوحيد اليها ، الآ وهو أن الشيعة الاشتراكية هي التي ستدير الانتاج القومي بدلا من « أبناء السمس» الانكاس* وبيروقراطييهم . بيدان الشعب الروسي قدبلغ حاليا درجة متقدمة من التطور بحيث لا يمكن مداعبة الامل في القيام عليه بتجارب من هذا النمط وانه لمن الامور التي لا يتطرق الشك اليها فضلا عن ذلك أن هذا الشعب ، بدلا من ان يتثقف من أجل الاشتراكية تحت مثل هذه الوصاية ، سوف يفقد بصورة حاسمة كل قدرة على التقدم ، الا اذا احتفظ بها بفضل ظهور ذلك **التفاوت** الاقتصادي الذي كان الغاؤه هو الهدف الاول للحكومة الثورية ومن المفروغ منه اننا لا نقول شيئا عن تأثير الاوضاع الدولية وعن استحالة شيوعية على غرار الانكاس في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين ، حتى في أوروبا الشرقية

وعلى أي حال ، لم كل هذا الحديث عن **عواقب** الاستيلاء على السلطة من قبل ثوريينا ؟ أيكون هذا الاستيلاء على السلطة مرجحا أو ممكنا فحسب ؟ في رأينا انه على قدر ضئيل جدا من الاحتمال ، انه على قدر كبير جدا من عدم الاحتمال بحيث يجب اعتباره مستحيلا كليا أن « مثقفينا ــ البروليتاريين » قد عملوا حتى الآن الشيء الكثير من أجل تحرير بلادهم لقد نسفوا أسس الحكم المطلق ، وايقظوا

(*) [قبيلة كبيرة اقامت في البيرو امبراطورية وكانت لها حضارة قضى عليها الفتح الاسباني في القرن السادس عشر] .

المجتمع المثقف على السياسة ، وبذروا بذرة الدعاية الاشتراكية في صفوف الطبقة العاملة انهم يصنعون انتقال الطبقات العليا الى الطبقة الدنيا ، حائزين على ثقافة تلك الطبقات وعلى الغريزة الديموقراطية لهذه الطبقة الاخيرة وأن هذا الوضع قد أتاح لهم أن ينخرطوا في عمل كبير من التحريض والدعاية ، لكنه لا يترك لهم كذلك الا قدرا ضئيلا من الرجاء بشأن نتيجة مؤامرة تستهدف الاستيلاء على السلطة ههنا لا تكفي الموهبة والحمية والثقافة ؛ بل لابد كذلك من علاقات ومن الثروة، ومن مركز اجتماعي متنفذ وهذا هو على وجه الدقة ما تفتقر اليه الانتليجنتزيا الثورية عندنا ، وهي لا تستطيع أن تسد هذه الثغرة الا بالتحالف مع البقيـة من الناقمين في المجتمع الروسي المثقف ولنفترض أن خططها حصلت على تأييد العناصر المذكورة ؛ لنفترض ان المؤامرة اجتذبت الى صفهـا الملاكين العقاريين الاغنيـاء والرأسماليين ، والموظفين ، والضباط الصغار والكبار ان نجاح المؤامرة سـوف يصبح أعظم احتمالا لكن هذا الاحتمال سوف يظل ضعيفا جـدا بعد لنتذكر بالاحرى كيف انتهت معظم المؤامرات في التاريخ ومهما يكن من شيء ، فان الخطر الاكبر الذي يهدد هذه المؤامرة الاشتراكية لا يصدر عن الحكومة الموجودة فيالسلطة، بل سوف يصدر عن المتآمرين انفسهم ان الاشخاص المتنفذين وأصحاب المراكز العليا الذين سوف يشكلون قسما منهـا لا يمكن أن يكونوا اشتراكيين باخلاص الا بمحض الصدفة السعيدة اما فيما يتعلق بغالبيتهم ، فليس ما يضمن الا يطمعوا باستخدام السلطة المستولى عليها بهذه الطريقة لغايات ليس لها شيء مشترك مـع مصلحة الطبقة العاملة واذا ما استدار المتآمرون مرة عن الاهـداف الأشتراكية للمؤامرة فانه يمكن اعتبار هذه المؤامرة عديمة الجدوى بل ضارة بتقدم البـلاد الاجتماعي ليس في الامكان بدافع الحقـد الخالص على الحكم المطلق ، منـح التأييد لاولئك الذين يسميهم ستيبنياك سيجانات اليوم والـذين يريدون ان يضعوا المؤامرة في خدمة مصالحهم الخاصة وهكذا فان عواقب مؤامرة الانتليجنتزيا الاشتراكية بهدف الاستيلاء القريب على السلطة تصبح أكثر ريبة بقدر ما تجد هذه المؤامرة التأييد لدى الدوائر العليا ، وبعبارات أخرى أكثر ريبة بقدر ما يصيرنجاحها الظاهري أعظم احتمالا وعلى النقيض من ذلك ، فان هذه العواقب ، بقدر مايتعلق الامر بأغراض المتآمرين ، ستكون أكثر يقينا بقدر ما تنحسر المؤامرة عن تجاوز حلقة الانتليجنتزيا الاشتراكية عندنا يعني أكثر يقينا بقدر ما يصير نجاحها أقوى احتمالا. وان الامور جميعا توحي بأن الاشتراكية الروسية تجازف اليوم بالتعرض لفشـل من هذه المرتبة بالاحرى من المرتبة السابقة كل ما سبق يحملنا على الاعتقاد بأن الاهداف الوحيدة الواقعية حقا التي يستطيع الاشتراكيون الروس ان يضعوها اليوم نصب أعينهم هي من جهة واحدة كسب الحرية السياسية ومن جهة أخرى ارساء الاسس من أجل تشكيل **الحزب الاشتراكي العمالي** المقبل في روسيا . ان عليهم أن

يطالبوا بدستور ديموقراطي يضمن للعامل الى جانب « حقوق الانسان » حقوق « المواطن ويمنحه بفضل الأقتراع العام امكانية القيام بدور فعال في حياة البلاد السياسية ان هذا البرنامج السياسي ، دون ان يخيف أحدا « بالشبح الاحمر » ، سوف يجتذب الى حزبنا الثوري مع مرور الزمن عطف جميع الذين ليسوا بخصوم منهجيين للديموقراطية ولابد ان عددا كبيرا من الليبراليين عندنا يستطيعون ان يلتزموا الى جانب الاشتراكيين* والحال انه اذا كان الاستيلاء على السلطة من قبل جمعية سرية ثورية يظل أبدا شأنا مقصورا على هذه الجمعيةوالاشخاص المطلعين على خططها ، فان التحريض في مصلحة البرنامج موضع البحث يمكن أن يكون من شأن المجتمع الروسي بأسره ، طالما أن البرنامج المذكور سيقوي عند هذا المجتمع الارادة الواعية في التحرر السياسي وعندئذ فان مصلحة الليبراليين « سوف تجبرهم » حقا على العمل بصورة متفقة مع الاشتراكيين ضد الحكومة ، لانهم لن يعودوا يستقون في الكتابات الثوريةاليقين بأن قلب الاستبدادسيكون اشارة الثورة الاجتماعية في روسيا وبصورة موازية لذلك فان بقية الليبراليين – القسم الاقل خوفا والاكثر تعقلا – سيكفون عن اعتبار الثوريين اشبالا خياليين يضيعون في خطط غير قابلة للتحقيق ان هذا الحكم المنافي لقضيتنا سيفسح المكان للاحترام من قبل المجتمع المثقف ليس لبطولة الثوريين فحسب ، بل لنضوجهم السياسي أيضا ولسوف يتحول التعاطف شيئا فشيئا الى دعم فعال او الارجح الى حركة مستقلة، وتدق أخيرا ساعة سقوط الاستبداد ان الحزب الاشتراكي سيكون قد لعب اذن في هذا التحرر دورا مشرفا جدا ومفيدا بصورة لا تقل عن ذلك وان ماضي اعضائه المجيد وتفانيهم وحميتهم سوف تمنح مطاليبهم وزنا وسيظفرون عندئذ على الاقل بفرص الحصول من أجل الشعب على وسيلة التطور والتثقف سياسيا ، ومن أجلهم على حق التوجه صراحة الى الشعب كي يبشروا بأفكارهم وكي ينظموه في حزب مستقل

وليس هذا كافيا ، والأصح أنه غير قابل للتحقيق دون فعل مواز من نمط آخر وفي ميدان آخر ليس ثمة حق دون قوة ان أي دستور ، حسب صيغة لاسال الرائعة ، يقابل أو يسعى لان يقابل « علاقات القوة الواقعية القائمة فعلا في

(*) ان تعاطف المجتمع المثقف يهمنا جدا ، واننا لنستطيع والاصح نملك فرص الحصول عليه دون أن نغير حرفا واحدا في برنامجنا لكنه من المفروغ منه أنه يلزمنا ، في سبيل الانتقال من هذه الامكانية الى الواقع ، فطنة تعوزنا أحيانا نقد يحدث لنا على سبيل المثال أن نهاجم « الرأسمال » في مناسبات يثور هذا الرأسمال فيها بالضبط (ليس بسبب هذه الثورة طبعا) ابدا ما كان يمكن لماركس أن يرتكب مثل هذه الخطيئة الفظة في التكتيك ، بل كان يراها جديرة بكارل غرون ، « بالاشتراكيين الحقيقيين » [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

البلاد .)) ولذا فان من واجب مثقفينا الثوريين ان يعنوا منذ المرحلة قبل الدستورية، بتعديل العلاقات الواقعية للمجتمع الروسي في مصلحة الطبقة العاملة والا فان سقوط الاستبداد سيكون بعيدا عن تسويغ الآمال التي يضعها فيه اشتراكيونا ، بل ديموقراطيونا ان المطالب الشعبية يمكن أن تعامل بالازدراء ايضا ، في روسيا دستورية ، أو لا تلبى الا ضمن الحدود التي سوف تتيح زيادة المردود الضرائبي للجماهير التي انهكها جشع الدولة اليوم على وجه التغريب ان حزبا اشتراكيا كسب للبورجوازية حرية الكلام والعمل قد يجد نفسه في وضع استثنائي شبيه بوضع الاشتراكية الديموقراطية في المانيا حاليا أبدا لا يجوز الاعتماد في السياسة على الاعتراف بالجميل من قبل حلفاء الامس الذين أصبحوا اليوم أعداء — الا اذا لم يكن لدينا حقا أي شيء آخر نعتمد عليه جديا

ومن حسن الحظ أنه في مقدور الاشتراكيين الروس أن يؤسسوا آمالهم على قاعدة أضمن ان من واجبهم وفي مكنتهم أن يعتمدوا قبل كل شيء على الطبقة العاملة وان قوة الطبقة العاملة ، مثلها في ذلك على أي حال مثل اية طبقة أخرى ، تتوقف على وضوح وعيها السياسي ، وتماسكها ، ودرجة تنظيمها وان هذه العناصر من قوتها هي بالضبط ما ينبغي للانتليجنتزيا الاشتراكية عندنا ان تعمل على أساسها ان من واجبها أن تصبح مرشد الطبقة العاملة في حركة التحرر التي تتهيأ، وان تشرح لها مصالحها السياسية ، ومصالحها الاقتصادية ، والترابط القائم بين هذه المصالح وتلك ؛ ان من واجبها ان تهيء الطبقة العاملة كي تلعب دورها الخاص في الحياة الاجتماعية الروسية . ان من واجبها أن تبذل كل قواها كيما تتدخل الطبقة العاملة ، منذ خطوات روسيا الاولى في حياتها كدولة دستورية ، بوصفها حزبا مستقلا له برنامج اجتماعي وسياسي محدد جيدا ومما لا ريب فيه أن صياغة هذا البرنامج يجب أن تكون من عمل العمال أنفسهم ؛ بيد أن من واجب الأنتليجنتزيا ان توضح لهم النقاط الاهم فيه ، مثلا اعادة صهر العلاقات الزراعية الحالية والنظام الضرائبي وتشريع العمل بصورة شاملة ، ومساعدة الدولة لروابط المنتجين ، الخ وليس في الامكان بلوغ ذلك الا بتشديد العمل بين العناصر الاكثر تقدما من طبقتنا العاملة على الاقل ، والقيام بالدعاية الشفهية والمطبوعة ، وتنظيم حلقات اشتراكية للعمال ومن المؤكد أن هذه المهمات قد احتلت على الدوام مكانا أكثر او أقل أهمية في برامج أشتراكيينا ، **وتقويم ارادة الشعب** يشهد على انها لم تكن موضع النسيان في أوج معركة لا هوادة فيها ضد الحكومة (انظر بالاحرى « العمل التحضيري للحزب » ، الباب ب عمال المدن ») بيد اننا نشير بكل طيبة خاطر على كل من له اطلاع على حركتنا الثورية أن يتذكر مقدار القوة والوسائط التي امتصها عمل التهديم ويقارن ذلك مع المقدار الذي استخدم في تحضير العناصر من أجل الحزب الاشتراكي العمالي المقبل ودون أن نتهم احدا ، فاننا نعتقد ان توزيع القوى

الثورية قد اتجه كثيرا في اتجاه واحد ونخطىء اذا اردنا تعليل ذلك بطابع القوى الثورية نفسها ، أو بطابع الوسط العمالي الذي يجب أن تؤثر هذه القوى فيه وفقا لبرنامجها الخاص. ان صدور ونجاح مجلات دورية مثل **الحبة** و **المجلة العمالية**(٤٠) يبينان أن ثوريينا لم يفقدوا ذوق الدعاية وأن عمالنا لم يظلوا لامبالين بذلك ومن المؤكد أن هذه المجلات الدورية قد وقعت في الاخطاء أحيانا ، بل في أخطاء بالغة الخطورة ، لكن ليس من يخطىء الا من لا يصنع شيئا على الاطلاق وإن العيب الرئيسي هو اننا لا نجد فيها مطلقا الحمية التي يتوجه بها أدب الدعاية الى العناصر « المثقفة » في المجتمع ، وان المطابع التي اكتشفها البوليس لم يستعض عنها البتة وانه حين يصبح من المحال الاستمرار في النشر في روسيا لا ينقل النشر الى الخارج ، الخ ومن بين جميع المجلات الصادرة خارج روسيا ، وليس عددها قليلا ، تتوجه **العامل**(٤١) وحدها الى الجمهور الشعبي ، وذلك هو الفضل العظيم لمؤسسيها بيد أن **العامل** توقفت عن الصدور منذ زمن طويل ، ولم نسمع حديثا عن محاولات جديدة في هذه المرتبة من الافكار ، حتى ببرنامج جديد أكثر تكيفا مع الافكار الحاضرة لاشتراكيينا الروس وفي الحقيقة ، ماذا نشر لدينا من أجل العمال باستثناء **الحبة** و **المجلة العمالية** ؟ لاشيء بالتأكيد لا كتابا ، ولامنشورا* وذلك حين كانت الحركة الثورية تجتذب انظار كل الناس ، حين كان الشعب يتساءل بدهشة ، لدى قيام أية ضجة : ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ أيجب أن نعجب اذن للاجوبة السخيفة التي كان يكتفي بها أحيانا لانه لم يتلق أجوبة افضل منها ؟ ونعود فنقول اننا لا نتهم أحدا ، لكننا ننصح **الجميع** أن يعيروا الانتباه الى هذا المظهر من القضية كيما يعوضوا في الوقت المناسب الفرص الضائعة**

النضال في سبيل الحرية السياسية من جهة واحدة ، وتحضير الطبقة العاملة من جهة ثانية بهدف هجوم تلعب فيه دورا مستقلا ، ذلك هو في رأينا « طرح القضايا الحزبية » الوحيد الممكن في الوقت الراهن أما الرغبة في الجمع بين عملين متميزين جوهريا حتى هذا الحد ، مثل اسقاط الاستبداد والثورة الاشتراكية ،

(*) نرى فكرة مجلة دورية شعبية ليست جديدة في أدبنا ومع ذلك فقد كان لها مفعول الابتكار الخطر بالنسبة الى كثيرين من رفاقنا ، وذلك ليس في وقت متأخر عن عشية **مؤتمرنا الثاني** ، حين وجدتني الوحيد على وجه التقريب بين فريق **الايسكرا** لتأييدها ولقد دخلت الآن في الوقائع نجاح أكثر أقل وان المجيء متأخرا أفضل من عدم المجيء على الاطلاق لكن لو عرفت أيها القارىء أية حجج مذهلة رفعت في طريقها في تلك الازمان القريبة جدا بعد لهتفت مثل فاوست ايه أيها الالم ، الالم ، الالم » [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

(**) نقرأ في ملحق **صحيفة ارادة الشعب** ، العدد الاول (١٨٨٣ ، ص ٦١) خلال السنة الفائتة حدثت سلسلة من الاضرابات انتهى معظمها بفشل ذريع من جراء انعدام التنظيم عند العمال » !

والانخراط في النضال الثوري مع التصور بأن هاتين اللحظتين من التطور الاجتماعي **سوف تتطابقان** في تاريخ بلادنا ، ذلك معناه **تاخير قيامهما معا** ، والحال أنه يتوقف علينا ان **نقربهما معا**   يجب أن نحتذي المثال الرائع جدا للشيوعيين الالمان الـذين كانوا يناضلون كما يقول **البيان** « بالاتفاق مع البورجوازية ، في كل مرة تناضل فيها هذه البورجوازية نضالا ثوريا ضد النظام الملكي المطلق » ، وفي الوقت نفسه لا يتغافلون لحظة عن   ايقاظ شعور واضح وادراك صريح لدى العمال بالتضاد العنيف القـائم بين البورجوازية والبروليتاريا » ، لانهم اذ يتصرفون على هذا الغرار يريدون الا تكون الثورة البورجوازية الالمانية سوى « المقدمة المباشرة لثورة بروليتارية »*

ان الوضع الراهن للمجتمعات البورجوازيـة وتأثير الوضـع الاممي في الثورة الاجتماعية لكل بلد متحضر يعطياننا الحق في الرجاء بأن يتبع التحرر الاجتماعي للطبقة العاملة الروسية عاجلا سقوط الحكم المطلق   فاذا كانت البورجوازية الألمانية قـد « **وصلت متاخرة جدا** » ، فان البورجوازية الروسية تأخرت أكثرمن ذلك ، ولايمكن ان يدوم حكمها طويلا . كل ما يلزم هو الا يبدأ الثوريون الروس من جهتهم « متأخرين جدا » تهيئة الطبقة العاملة ، ذلك أن تلك مهمة عتيدة بصورة مطلقة ، مهمة من مهمات الساعة الراهنة

لنحدد بدقة قصدنا تفاديا لاي سوء فهم   اننا لا نعتقد مطلقا ـ تلك فكرة تعزى كما رأينا الى مدرسة ماركس بالاحرى من وجودها فيها بصورة فعلية ـ أقول اننا لا نعتقد ان الحركة الاشتراكية لن تنال تأييد طبقة الفلاحين عندنا طالما ان هذه الطبقة الاخيرة لم تتحول الى بروليتاريا ريفية وما لم تتعرض المشاعة للدمار بفعل الرأسمالية. اننا نحسب ان طبقة الفلاحين الروس ، في مجموعها ، سوف تبدي قدرا كبيرا من التعاطف مع كل اجراء يستهدف ما يسمى « تأميم الارض »   وحالما يصبح في الامكان القيام بالتحريض في هذا الوسط بقليل من الحرية** ، فانه سوف يتعاطف كذلك مع الاشتراكيين الذين من المفروغ منه أنهم لن يتوانوا عن ادخال هذه النقطة في برنامجهم   لكننا لسنا نبالغ في تقدير قوى اشتراكيينا ولا نغمض عيوننا عن العقبات ، عن مقاومة الوسط التي لابد لهم بصورة حتمية ان يحسبوا لها حسابا في عملهم   وهذا هو السبب ، **السبب الوحيد** ، الذي يحملنا على الاعتقاد بأن عليهم بادىء الامر ان يركزوا انتباههم على المراكز الصناعية . ان السكان الريفيين في الوقت الحاضر ، نظرا لشروط وجودهم العتيقة ، ليسوا فحسب أقل قدرة من عمـال الصناعة على القيام **بمبادرات سياسية** واعية ، بل هم كذلك أقل **تقبـلا** للحركة التي اطلقتها الانتليجنتزيا الثورية عندنا ، وهم يلاقون مزيدا من العناء في تمثل المذهب

(*) [**بيان الحزب الشيوعي** ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص   ٧٩ ـ ٨٠]

(**) يعني حالما يصبح هناك دستور [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

الاشتراكي ، لان شروط وجودهم تختلف جدا عن شروط الوجود التي ولدت ذلك المذهب وفضلا عن ذلك ، فان طبقة الفلاحين تجتاز في الوقت الحاضر مرحلة حرجة ان « الاسس الرعوية » لأقتصادها هي في سبيل الانهيار ؛ « ان المشاعة البائسة قد فقدت الاعتبار في عينيها الخاصتين » كما تعترف صحيفة شعبية رعوية » النزعة بقدر **الاسبوع**(٤٢) (انظر العدد ٣٩ ، مقالة م. ن. ز. **في الوطن الام**) ؛ ان الاشكال الجديدة للعمل والحياة قد أخذت تنتظم لتوها ، وهذه العملية البنائية تتظاهر على اشدها في المراكز الصناعية وكما ان المياه التي تقرض وتنخر ارضا ما تضع في مكان آخر رواسب جديدة ، كذلك يخلق تطور المجتمع الروسي بنى اجتماعية جديدة ، بينما هو يدمر الاشكال القديمة لعلاقات الفلاح مع الارض وعلاقات الفلاحين فيما بينهم وان هذه البنى الاجتماعية الجديدة تحمل بذور حركة اجتماعية جديدة ، الحركة الوحيدة التي تستطيع أن تضع حدا لاستثمار السكان الكادحين في روسيا ولما كان عمال الصناعة قد توصلوا الى درجة من التطور اعلى من طبقة الفلاحين وكانوا يملكون قدرا أكبر من الحاجات وافقا اعرض فانهم سوف ينضمون الى الأنتليجنتزيا الثورية عندنا في نضالها ضد الحكم المطلق ، ومن بعد ينتظمون ، وقد حصلوا على الحرية السياسية ، في حزب اشتراكي عمالي عليه أن يقوم بالدعاية المنهجية للاشتراكية بين الفلاحين واننا لنقول **المنهجية** ، لان اية فرصة للدعاية او التحريض بين الفلاحين يجب الا تهمل منذ الوقت الحاضر وهل ثمة حاجة لان نضيف انه من واجب اشتراكيينا ايضا أن يعدلوا توزيع قواهم بين الشعب اذا ما اكتشفت حركة مستقلة هامة عند الطبقة الفلاحية ؟

ذلك هو البرنامج الذي تقترحه الحياة بالذات على الحزب الاشتراكي الثوري في روسيا وهل يستطيع هذا الحزب تنفيذه ؟ هل يوافق على التخلي عن المشاريع والخطط غير الواقعية التي ــ ولنعترف بذلك ــ تؤثر بقوة في القلب والخيال ؟ ان الوقت لا يزال مبكرا جدا من اجل اعطاء جواب اكيد ان نشرة **رسول ارادة الشعب**(٤٣) لا تعالج الا بعبارات عامة جدا المهمات السياسية للحزب الثوري فهيئة التحرير تؤكد أنه يستهدف اغراضا « محددة جيدا » ؛ ومما لا ريب فيه أن ذلك هو السبب في انها لا ترى من المفيد تحديد هذه الأغراض من جديد ولذا يمكننا ان نخشى الا ترى أنه من المفيد مطلقا ايضا التساؤل عما اذا كانت « الشروط المحددة جيدا » للواقع الروسي المعاصر تقابل « الاغراض المحددة جيدا » لحزب « ارادة الشعب » وفي هذه الحال ، فان المجلة الدورية الجديدة لن تقابل مطلقا الحاجة الالح لادبنا الثوري ، الحاجة الى اعادة النظر بروح نقدي في البرامج البالية ووسائط العمل التقليدية واننا لنأمل على أي حال أن يبدد المستقبل هذا الخوف اننا نريد أن نعتقد أن المجلة الجديدة سوف تتبصر بأعصاب هادئة في المهمات التي يلزم تحقيقها

مستقبل حزبنا الثوري   ذلك ان الحياة الاجتماعية ستبدي من القسوة حيال أوهامها الراهنة مثل ما أبدته حيال أوهام « المشاغبين » و « الدعاة » . **وانه لمن الافضل أن نتبع منذ الآن مؤشراتها من أن ندفع في المستقبل ثمن دروسها القاسية بانقسامات جديدة وخيبات جديدة .**



خرافاتنا

دلێر زەنگنە

رسالة مقدمة الى بيوتر لافروفيتش لافروف

عزيزي بيوتر لافروفيتش(١)

انك مستاء من جماعة « تحرير العمل » ولقد تكرمت فكرست في العدد الثاني من **رسول ارادة الشعب** زاوية لمنشوراتها ، وبالرغم من ان هذه الزاوية قصيرة جدا ، فان الصفحتين ونصف الصفحة التي احتلتهما كانت كافية بالنسبة اليك كي تعبر عن خلافك مع برنامجها وعن استيائك من موقفها حيال « حزب ارادةالشعب »(٢).

ولما كنت اضمر دائما لرأيك تقديرا عاليا جدا ، ولما كنت اعرف فضلا عن ذلك كم هو مسموع بين شبيبتنا الثورية من جميع الصبغات وسائر الاتجاهات ، فاني اسمح لنفسي بأن اقول بضع كلمات دفاعا عن جماعة يبدو لي انك لم تعاملها بعدالة تامة مطلقا

واني لاجدني املك مزيدا من الحق في ذلك نظرا لأنك تحدثت بصورة رئيسية في زاويتك عن كراستي **الاشتراكية والنضال السياسي** ، ولان مؤلف هذه الكراسة يجد نفسه مدعوا اكثر من اي شخص آخر للرد على مآخذك

انك ترى انه يمكن تمييز قسمين في هذه الكراسة ، وفي رايك انه « ينبغي اصدار احكام مختلفة حيالهما » وان احد هذين القسمين ، « الفصل الثاني ، يستحق الانتباه الواجب لجميع الدراسات الجدية عن قضايا الاشتراكية » اما القسم الآخر ، القسم الاكبر من الكراسة كما تقول ، فمكرس للمناظرة ضد حزب ارادة الشعب عن نشاطه السابق والحاضر ، وهو الحزب الذي تريد صحيفتك ان تكون الناطقة باسمه في الخارج . ولا يقتصر الامر على انك تخالف الآراء الواردة هناك، بل ان حقيقة « المناظرة مع ارادة الشعب » تستحق بالذات لوما عنيفا في اعتقادك . وانك لتعتقد انه يمكن ان « يبين للسيد بليخانوف دونما عناء كبير ان هجماته يمكن ان تثير اعتراضات خطيرة جدا (خاصة وانه يورد الشواهد بصورة غيرمضبوطة،ربما

لضيق الوقت) وانك لعلى قناعة ايضا بأن « برنامجي الخاص للعمل ربما اشتمل على فجوات وطوباويات اكثر جداً مما انسبه الى حزب ارادة الشعب ، لكنه يعوزك الوقت كي تحدد هذه الفجوات والطوباويات ، الامر الذي يثير عندي أسفا بالغا جدا وانك تقول ان « المجلة الدورية لأرادة الشعب » تكرس نفسها للنضال ضد أعداء الشعب الروسي السياسيين والاجتماعيين » ، وهذا النضال المعقد جدا يشغل « كل وقتك وجميع اعمالك وانت لا تملك « لا الفراغ ولا الرغبة » كي تكرس قسما من مجلتك « للمناظرة ضد فئات من الاشتراكية الثورية الروسية تتصور ان الخلافات مع « ارادة الشعب » أهم من النضال ضد الحكومة الروسية وضد جميع المستغلين الآخرين للشعب الروسي وأما تأمل ان يتكفل الزمن بتسوية المسائل المختلف عليها في مصلحتك ، فانك ترى انه لا جدوى من تعميق خلافاتك ، غير الخطيرة جدا على أي حال مع محرري العمل كما يحلو لك أن تسمينا* بتوجيه ضربات مباشرة الى فئة يمكن أن تجد غالبية اعضائها نفسها اليوم او غدا في صفوف ارادة الشعب ان هذا التحول لمحرري العمل الى « مريدي الشعب » يزداد احتمالا في نظرك باعتبار أن « السيد بليخانوف نفسه يشير في مقدمة كراسته الى انه حقق تطورا هاما في هذه الاثناء في قناعاتهالسياسية والاجتماعية ، وانك « محق في أن تأمل في تغيرات جديدة بعد » من جانبي « في هذا الاتجاه وأما ابلغ هذه النقطة من تطوري وهي النقطة التي تلوح لك من دون ريب قمة التطور الممكن حاليا للاشتراكية الروسية ، فلعلي أعي ، وهذا ما ترجوه على الاقل ، مظهرا آخر للواجبات العملية الخاصة بكل تشكيل من الجيش الاجتماعي المشتبك مع العدو المشترك ، الا وهو أن « بث الاضطراب في تنظيم الجيش ، حتى اذا رأى المرء فيه ، اعتقد انه يرى ، بعض العيب ، أمر غير مسموح الا لاعداء فضية هذا الجيش (الذي ترغب كليا في الا تعدني في عدادهم) او جماعة تكون قادرة ، بعملها وقوتها وتنظيمها ، في البرهة التاريخية الراهنة ، على ان تصبح جيشا اجتماعيا بيد أن هذا الدور لا يمكن في تقديرك أن يكون الا في مستقبل بعيد ومشكوك فيه نوعا ما من نصيب محرري العمل بصفتهم هذه نعني باعتبارهم لم يكملوا بعد دورة تحولهم وليسوا هم في الوقت الراهن الا يرقات ، أو

(*) اسمح لي ، بالمناسبة ، بملاحظة بشأن التسمية التي ابتكرتها هنا ان « تحرير العمل » شعار جماعتنا واسمها لكن حين تسمى جماعة محرري العمل » فان خطيئة ترتكب بحق فقه اللغة وهذا مثال يجعل فكرتي أوضح فكثيرا ما يتحدث معاونوك عن « الارادة الشعبية » ؛ وان حدا أدنى من المنطق سوف يحملهم على الاعتراف بأن اسم حزبهم بالذات ارادة الشعب » مجرد شعار ، مجرد التعبير عن طموحهم الى اقامة نظام سياسي ترتبط فكرته بالذات بصيغة الارادة الشعبية » . أيعني ذلك ضمنا أن في مقدورهم أن يدعوا لقب « مريدي الشعب » ؟

هذا هو في جوهره ، وكلمة كلمة على وجه التقريب ، ما تقوله عن كراستي أيها العزيز بيوتر لافروفيتش ولعلي اتعبتك بغزارة هذه الشواهد المستقاة من نصك بالذات ، لكني كنت أخشى بادىء الامر أن أتهم أيضا « بعدم الدقة في الاستشهاد »، وكان يبدو لي فضلا عن ذلك أنه من النافع التذكير بكلماتك بكمالها كي أسهل على القراء الحكم الذي سوف يصدرونه انك تعرف ان الجمهور هو الحكم الاعلى للنزاعات الحادثة في « جمهورية الادب » الحرة ولذا كان من الواجب أن يتخذ كل من الفرقاء الحاضرين الاجراءات اللازمة ليفسر للجمهور المذكور مادة الدعوى

واما عرضت ملاحظاتك عن كراستي وحكمك بشأن التكتيك الذي اتخذته جماعة تحرير العمل حيال حزب ارادة الشعب انتقل الآن ايها العزيز بيوتر لافروفيتش الى بعض الايضاحات التي لا يمكن بدونها فهم الحوافز التي حملت رفاقي وحملتني شخصيا على التصرف كما تصرفنا

والحقيقة أني أستطيع أن اعلن كل خطاب عن الحوافز المذكورة في غير موضعه على الاطلاق ، كما يمكن للقارىء أن يجده مجردا تماما عن اية أهمية فكر في الامر اذن ! أفلا تشكل المهمات الفورية لثوريينا وتكتيكهم والتسويغ العملي لنشاطهم المسائل الاهم والالح للحياة العامة الروسية ؟ أيجب أن نعتبرها محلولة بصورة نهائية، دونما عودة ؟ أليس من واجب كل مؤلف ثوري أن يلقي النور عليها قدر طاقته وبكل الانتباه الذي يكون قادرا عليه ؟ أم انه لا يعترف بفائدة هذا الايضاح الا في الحالة التي يوحي بها بأن الثوريين الروس ، وان كانوا لا يملكون العصمة البابوية ، لم يرتكبوا مع ذلك ادنى هفوة في نشاطهم العملي ، أدنى خطيئة في محاكماتهم النظرية، وان « الامور جميعا على ما يرام » سواء في هذا المجال او ذاك والناس الذين لا يشاركون مطلقا في هذه القناعة السارة ، أيجب أن يحكم عليهم بالسكوت اذن ؟ أيوضع نقاء نواياهم موضع الشك كلما تناولوا القلم كي يستلفتوا انتباه الثوريين الى ما هو أو مايجب أن يكون عليه العمل الثوري في رأيهم المتواضع ؟ في القرن السابع عشر قال سبينوزا انه يجب أن يكون لكل امرىء ، في بلد حر ، الحق في أن يفكر ما يشاء ويقول ما يفكر أيجب أن يوضع هذا الحق موضع الشك في نهاية القرن التاسع عشر في حزب اشتراكي ، حتى في اكثر البلدان الاوروبية تخلفا ؟ اذا كان الاشتراكيون الروس يعترفون مبدئيا بحق الكلام بحرية ، واذا كانوا قد جعلوا من هذا الحق أحد مطالب برنامجهم ، فانهم لا يمكن أن يقفوا ممارسته على الفئة الوحيدة او « الحزب » الوحيد الذي يسعى الى الهيمنة في مرحلة معينة من الحركة الثورية. اني اعتقد انه في الوقت الذي يتعرض فيه ادبنا الشرعي لاضطهادات لا رحمة فيها ، في

(*) [النغلة هي المرحلة التي تسبق اليرقة في تطور الحشرات] .

الوقت الذي « كل ما هو حي وكل ما هو شريف يسقط محصودا »* في بلدنا ، سواء في ميدان الفكر او في أي من ميادين النشاط الاخرى ، أقول اني أعتقد انه في مثل هذا الوقت يجب ان يحاسب الكاتب الثوري على سكوته بالاحرى منه على نشر هذا المؤلف او ذاك واذا وافقت على ذلك – وهذا ما لايمكن أن يشك فيه مطلقا – فانك توافق ايضا على انه لا يجوز ازدراء الكاتب الثوري الذي لابد له أن يقدم كثيرا من التضحيات لما يسميه هرتزن بصورة رائعة « الكرامة الانسانية والكلمة الحرة »
واذا كان الامر كذلك ، فهل يمكن اتهامه لانه يقول بكل صراحة ، دون مراوغةاو تردد، ما هو رأيه في برامج العمل الثوري ؟ اني على يقين ، أيها العزيز بيوتر لافروفيتش، انك ستجيب بالنفي وان ضمانتي على ذلك ، بين ضمانات أخرى ، توقيعك تحت نشرة **رسول ارادة الشعب** حيث أقرأ في الصفحة ح

« ان الاشتراكية ، مثلها كمثل أية فكرة تاريخية حية ، تثير كثرة من الخلافات بين أنصارها – وان لم تكن هذه الخلافات جوهرية مطلقا – كما أن عددا كبيرا من القضايا، النظرية والعملية على السواء يظل مطروحا على بساط المناقشة فيها ونظرا للمزيد من التعقيد في تطور الاشتراكية الروسية ، والمزيد من المصاعب ونظرا لانها أقل قدما ، فلعل الخلافات الفكرية الاكثر أو الاقل أهمية هي اكثر فيها منها في أي مكان آخر ولكن هذا انما يبرهن ، ولنقل ذلك مرة اخرى ، على أن الحزب الاشتراكي الروسي حزب حي يثير في الفكر عملا شديدا ولدى أعضائه قناعات وطيدة ، حزب لايكتفي بايمان عقائدي بصيغ محفوظة عن ظهر قلب

اني لا افهم كيف يمكن لانسان حرر هذا النص ووقعه أن يؤكد على استيائه من كتابات جماعة لم يجد لتوه أن خلافاتها « خطيرة جدا » مع « ارادة الشعب » (**رسول ارادة الشعب** ، العدد الثاني ، القسم الثاني ، ص ٦٥ ، السطر العاشر وما يليه) واني لارفض ان اعتقد أن مجلة نشرت هذا البيان يمكن ان تعامل كأعداء اناسا « لا يكتفون بايمان عقائدي بصيغ محفوظة عن ظهر قلب » ذلك أن هذه الاسطر لم تكتب بهدف وحيد هو ان تفسر للقارىء السبب في أن « البرنامج الذي اذاعته **رسول ارادة الشعب** يشتمل على افكارمتنافرة حتىدرجة ما »(النشرة، ص:ز) . ولن يزعم على أي حال أن **الرسول** بعدما أذاعت هذا « البرنامج الدقيق » لا تعترف بالاهمية الحيوية « للخلافات الأكثر أو الاقل حساسية بين الاشتراكيين الروس الا في الحالة الوحيدة حيث « لا تتجاوز الحدود الخاصة ببرنامج يشتمل على « أفكار متنافرة حتى درجة ما » ان معنى ذلك أن التسامح لا يمارس الا حيال اعضاء كنيسة المرء الخاصة ، معناه القول مع شتشدرين أن المعارضة لا تأتي ضررا مطلقا بشرط الا تسبب مثل هذا الضرر قط ان مثل هذه الليبرالية ومثل هذا التسامح لن يحملا الا عزاء هزيلا الى الاشتراكيين غير الأمتثاليين الذين لابد لنا من

(*) [بيت شعر لنكراسوف]

الاعتقاد بأنهم كثرة طالما انك تتحدث في زاويتك عن **فئــات** « تتصور ان المناظرات مع « ارادة الشعب » اهم من » ، الخ ، حيث يتضح أن هذه الفئات يجب ان تكون على الاقل فئتين وان **الرسول** التي تستهدف ان تصبح جهاز التجمع لسائر الاشتراكيين الثوريين الروس » لما تبرح بعيدة عن بلوغ هدفها ، وهو اخفاق كان يجب فيما يبدو لي الا يضيق بل يوسع حدود التسامح عند محرريها ».

انك تنصحني بعدم « بث الاضطراب في منظمة » جيشنا الثوري اسمح لي ان أسألك قبل كل شيء ما هو « الجيش الاجتماعي » الذي تنوه به اذا كنت تقصد بهذا التشبيه « حزب ارادة الشعب » فاني ما كنت احسب قط أن كراستي قمينة بأن تمارس عليه أي فعل هدام ، وأنا على يقين من ان اول قادم من بين أعضائـه تسأله عن هــذا الموضوع لن يتوانى مطلقــا عن طمأنتك اما اذا كنت تقصد مــن الاضطراب في منظمة الجيش الاجتماعي » ان بعض الاشخاص الذين بقوا لسبب او آخر خارج « حزب ارادة الشعب » قد انضموا الى جماعتنا ، فان هذا لن يعود على منظمه الجيش الاجتماعي الا بالكسب ، طالما ان وحدة جديدة مشكلة من المجندين اذا جاز لي التعبير سوف تتألف في أحضانه وفيما عدا ذلك فمنذ متى كان نقد الدرب التي كان يسلكها جيش ما وتأكيد اليقين بأن ثمة دربا أخرى تقود هذا الجيش بصوره اسرع وأوثق الى النصر اقول منذ متى كان هذا الامر يعتبر على انه « بث الاضطراب في منظمة هذا الجيش » ؟ ان مثل هذا الاختلاط في المفاهيم يبدو لي ممكنا بين الحشود المتوحشة لطاغية آسيوي فقط وليس مطلقا بين جيوش دولـة متحضرة في الايام الراهنة وليس من يجهل ان نقد مناورات جيش ما لا يسيء الا الى سمعة جنرالاته الذين يفضلون بكل تأكيد أن « يفرضوا اصبع الصمت » على الأفواه المتمردة ولكن ماشأن منظمة الجيش هنا ؟ من هم رؤساؤها على أي حال ؟ انك تعرف أن الرؤساء يمكن ان ينتخبوا من قبل رجالهم او يعينوا من فوق ولنفترض لحظة أن اللجنة تنفيذية تلعب دور رئيس جيشنا الثوري أنجب أن يخضع لها حتى اولئك الذين لم يكن لهم دور في انتخابها ؟ واذا كانت قد سميت من فوق فمن سماها ، وبأي سلطة فعل ذلك ؟

انك تعد جماعتنا في عداد « فئات الاشتراكية الثورية الروسية التي تتصور أن المناظرات مع ارادة الشعب اهم من النضال ضد الحكومة الروسية وضد جميـع المستغلين الآخرين للشعب الروسي اسمح لي بهذا السؤال أتحسب في عداد خصائص الشعب الروسي و البرهة التاريخية الراهنة ان القتال ضـد المستغلـين يمكـن ان يخاض دون ان تنشـر قبلا الافكار التي يتـم فيهـا التعبير عن معنى هــذا القتال واتجاهاتــه ؟ أيكون على المشــاغب » الســابق الــذي **هو أنا(٢) أن يبرهن لرئيس التحرير السابق لصحيفة الى الامـام أن صعود الحركة الثورية لا يمكن تصوره دون ان تنشر في الطبقة صاحبة العلاقـة الافكار والمفاهيم**

الاكثر تقدمية ، والاعظم سلامة ، وباختصار الأكثر ثورية ؟ ايجب أن ألفت انتباهك الى حقيقة أن الاشتراكية « كما تم التعبير عنها » في مؤلفات ماركس وانجلز تشكل السلاح الفكري الامضى في النضال ضد جميع أنواع مستغلي الشعب ؟ ان نشر مذهب هذين المؤلفين هو الذي اعتمدناه هدفا لنا ، رفاقي وأنا ، كما يمكنك أن تجد ذلك مشروحا بكل وضوح في نشرة **مكتبة الاشتراكية المعاصرة**(٤) اما ان اشتراكية مدرسة ماركس تختلف كثيرا عن « الاشتراكية الروسية كما تم التعبير عنها في حركتنا الثورية عامة وفي حزب ارادة الشعب خاصة ، فهذا لا يحمل ظلا من شك ، طالما ان الضفيرة الباكونينية تتدلى بعد على ظهر الاشتراكية الروسية واما أنه لابد للماركسيين الروس ، لهذا السبب ، ان يتخذوا في الاغلب موقفا سلبيا حيال بعض « الصيغ المحفوظة عن ظهر قلب للاشتراكية موضع البحث فليس شيء معقول ومنطقي أكثر من ذلك ؛ لكنه لا يترتب على ذلك مطلقا انهم يفضلون على النضال ضد الحكومة النضال ضد الثوريين في **رسول ارادة الشعب** ، يبذل سيد يدعى تاراسوف قصارى جهده كي يدحض احدى الفرضيات الاساسية لنظرية ماركس التاريخية* ان مقالة السيد تاراسوف(٥) تحتل المكان الاول ، مرتبة السرف نوعا ما ، في العدد الثاني من **الرسول** ايجب أن نستنتج من ذلك أن السيد تاراسوف يجد المناظرة مع ماركس « أهم من النضال ضد الحكومة الروسية وضد المستغلين الآخرين للشعب » ؟ أم أن المناظرة التي ترى مناسبة و « هامة » تحت أقلام اتباع دوهرنغ وباكونين وبلانكي ، تصبح قدحا في الذات الملكية للثورة الروسية حالما يرفع الماركسيون أصواتهم ؟ أيكون مثل هذا الموقف منصفا (واقول أكثر قابلا للتفسير) من جانب كاتب أعلن مرارا وتكرارا اتفاقه مع نظريات ماركس ؟

أعرف أن تحديد مهمات حزبنا الثوري باتخاذ وجهة نظر هذه النظريات مهمة

(*) آمل أن يكون لي أيضا حديث خاص مع السيد تاراسوف حين ينهي مقالته واني لاقتصر اليوم على أن أسجل أن السيد تاراسوف لا يفهم ماركس مطلقا ، ولا « ورثته » ، وهو يناظر في حقيقة الامر ، في بساطه المقدسة ، مع البورجوازي الضئيل موليناري بدلا من المناظرة مع الاشتراكي الكبير ماركس وان طريقة تاراسوف لتحيرني بصورة لا تقل عن ذلك ومما لا ريب فيه أن هذا المؤلف الفاضل قد استعارها من العلم البورجوازي الذي برهن بصورة لا تقبل الدحض ابدا على « افلاسه » في العدد الاول من **الرسول**، وكما ان الكتاب البورجوازيين في سبيل اثبات « قوانينهم الطبيعية»، قد اتخذوا عادة اختراع « متوحشين » من المفروغ منه أن همهم الاول قد كان « التوفير وتراكم الرأسمال»، كذلك يبتدع السيد تاراسوف ، الذي يريد أن يتجاهل معطيات العراقة الحديثة ، « متوحشين » للمذهب البلانكسي الانقى ، طموحهم الوحيد « الاستيلاء على السلطة » على جيرانهم ان هذه الطريقة الاستقرائية بصورة أصيلة جدا تهدد بجلب « الافلاس » الاكمل على « علم » السيد تاراسوف الدوهرنغي ــ الاشتراكي .

شاقة جدا ان البيانات الاساسية لهذه النظريات لا تشكل بكل معنى الكلمة الا الحد الاكبر من القياس ، طالما انه في الامكان ، مع الأعتراف أيضا بحقيقة هذا الحد الاكبر ومغزاه العلمي العالي ، الوصول الى نتائج مماثلة ، او مختلفة ، حسب طريقة فهم المقدمة الاخرى ، الحد الاصفر ، الذي تنجز وظيفته بالحكم الصادر على الواقع الروسي الراهن ولذا فانه لا ينتابني ادنى عجب لمخالفتك برنامجنا ، بالرغم من انني أرى انه لن يكون في مقدورك ، وانت لا تبرح ماركسيا ، أن « تبرهن لي على ان برنامجي يشتمل على عدد اكبر من الفجوات والطوباويات » مما انسبه الى حزب ارادة الشعب بيد أن أي خلاف في تقدير الواقع الروسي الراهن لن يفسر لرفاقي أو لي المعاملة الظالمة التي تخصنا بها زاويتك

واني لاحتكم الى نزاهة القارىء ان على مكتب محرر رسول ارادة الشعب كراستين أصدرتهما جماعة « تحرير العمل » ، احداهما ترجمة احد مؤلفات انجلز ، وهو مؤلف يعتبره رئيس تحرير المجلة الاكرم « أبرز منتجات الادب الاشتراكي للسنوات الاخيرة »

اما الكراسة الثانية فيؤكد رئيس التحرير نفسه أنها تستحق لقسم منها « الاهتمام الواجب لجميع الدراسات الجدية عن قضايا الاشتراكية » ، لكن بقيتها تشكل « مناظرة عن النشاط الماضي والحاضر « لارادة الشعب » ، وهي مناظرة غرضها أن تثبت للحزب المذكور انه « بعد أن وجه بنشاطه العملي ضربة قاضية الى جميع تقاليد المذهب الشعبي الاورثوذكسي ، وبذل الكثير من أجل تقدم الحركة الثورية في روسيا ، لا يستطيع أن يجد مبررا له ، ولا يجب أن يبحث له عن هذا المبرر ، الا في الاشتراكية العلمية الراهنة »* وان هذا القسم من قسم من منشورات جماعة « تحرير العمل » هو الذي حسب صاحبنا رئيس التحرير انه يجد فيه البرهان على أن الجماعة المذكورة اعتمدت لنفسها هدفا أوحد على وجه التقريب هو المناظرة ضد « ارادة الشعب » ، وهي تتخلى عن طيبة خاطر ، من أجل هذه المهمة ، عن مكافحة الحكومة وان القارىء ليوافق ، دونما تجرد مبالغ فيه ، على ان هذا الاستنباط للكل من الجزء لا تسوغه اجزاء الكل الاخرى على الاطلاق

انا لا انكر الجانب الجدلي أو بصورة أدق النقدي ، لقسم من كراستي بيد أن المناظرة مع « ارادة الشعب » لم تكن غرضي الاوحد ، حتى في القسم الذي تتهمه : لقد فاتك ، يا بيوتر لافروفيتش ، أن نقدي لا يقتصر على مرحلة « ارادة الشعب » من الحركة الروسية ، بل أنا انقد كذلك المراحل الاخرى . واذا كان لابد من الاستنتاج ، من حقيقة اني عبرت كتابة ، مع تبرير ذلك ، عن مخالفتي لهذا البرنامج الثوري أو ذاك ، ان المناظرة بشأن هذا البرنامج تشكل هدف كتاباتي الاساسي ، فقد كانت الحقيقة تتطلب أن يوسع حتى درجة كبيرة حقل اللوم الموجه

(*) انظر الاشتراكية والنضال السياسي ، ص ٢٠

الي لقد كان يجب أن يقال اذن ان هـدف كتاباتي الاساسي هو المناظرة ضـد الفوضويين، والباكونينيين والشعبيين من أصحاب البيعة القديمة وانصار ارادة الشعب » ، واخيرا « الماركسيين » الذين لا يدركون دور النضال السياسي في تحرير البروليتاريا وكان يجب فضلا عن ذلك أن يؤخذ بعين الاعتبار ايضا ان « القسم الآخر من كراسة السيد بليخانوف مكرس لغرض اثبات الجانب التاريخي والفلسفي من مذهب ماركس وانجلز وعندئذ كان يتضح اني اذنبت اذ نشرت الافكار الثورية التي أشاطر فيها وناظرت بخصوص تلك الافكار التي كانت تبدو لي مغلوطة. واذا تمعنا في جميع ظروف القضية فقد كانت جريمتي تظهر اذن كما لو كانت مقصودة عن سابق عزم وتصميم ، طالما ان بافل اكسيلرود وانا نفسي نعلن بكـل صراحة في نشرة مكتبة الاشتراكية المعاصرة أن مهمتنا كناشرين سوف تستقيم

١ ـ في نشر افكار الاشتراكية العلمية عن طريق ترجمة المؤلفات الرئيسية لمدرسة ماركس وانجلز الى الروسية ، وكذلك بواسطة مؤلفات أصيلة تتوجه الى قراء من تكوين مختلف ؛

٢ ـ في نقد المذاهب السائدة في وسطنا الثوري وفي دراسة المسائل الاهـم للحياة الاجتماعية الروسية من وجهـة نظر الاشتراكية العلمية ومصلحة السـكان الكادحين في روسيا في وقت واحد

ذلك هو النعت المضبوط للعمل الذي استدعى استياءك وكيما يوجه اللوم الى الرجل الذي ارتكبه ، فانه يجب قبلا بيان انه لا فائدة فعليا من نقدالبرامج والمذاهب الشائعة في وسطنا الثوري ، أو أن هذا النقد يجب أن يتحول الى « خادم ذليل للسهرات المكتسبة ومهذار متملق للافكار المبتذلة البالية كما قال بيلنسكي في مناسبة أخرى لكنه من الصعب أن يصادف ، كما سبق فقلت ، كاتب يؤيـد هذه الاطروحة الغريبة ولن تكون انت على أي حال ، أيها العزيز بيوترلافروفيتش، الذي ستغدو تؤكد أن حزبنا الثوري يجب أن يكتفي بالايمان العقائدي بصيغ محفوظة عن ظهر قلب وفي هذه الشروط ? Woru der Lôrm *

وأن الكثيرين يظنون فيما يبدو ، دون ان يحزموا أمرهم كليا على أي حال على انكار أهمية النقد في أدبنا الثوري ، ان أي فرد ، او اي فريق من الافراد ، غير مؤهل لنقد مذهب « حزب العمل وتكتيكه ولقد حدث لي أكثر من مرة ، منذ صدور كراستي ، أن سمعت ملاحظات من هذا القبيل حيث الخوف من تدنيس « الصيغ المحفوظة عن ظهر قلب لكتاب تعليمنا الثوري يستتر بعبارات من هذا النمـط : « حزب العمل » ، « بطولة القتال » ، الخ كانوا يشكون في حقي في صياغة مخالفتي « لحزب ارادة الشعب » ، أو بصورة أدق كتاباته ، حتى دون ان يطرحوا سؤال من هو على صواب ، منشورات « حزب العمل » أم أنا نفسي وكنت أستذكر بالرغم

(*) [ما نفع هذه الضوضاء ؟]

مني حجة دون انيغوي مدروسو ، ي كوموديوس ، ي بابالا ميندو ، فارس سالامنك، في مجادلة « اللكنات » الشهيرة

لكن ياسيدي بالرغم من كل الاشياء الجميلة التي ذكرتها لي لتوك فانك تعترف لي بأن كنيستك الانكليكانية ، مهما تكن محترمة ، لم يكن لها وجود قبل دون لوثر وقبل دون ايكولامبادي ؛ فأنتم جدد اذن ، وبالتالي فأنتم لستم من أهل الدار »(*)

وكنت أتساءل هل الحجة التي ينسبها الهجاء الشهير الى اعدائه الالداء قد حملها الثوريون الروس اذن على محمل الجد ، وهذا الفارس الكاثوليكي الكاريكاتوري هل أصبح الصورة الامينة لجدليينا الثوريين؟ أعترف يا بيوتر لافروفيتش ان هذا المنظور سوف يكون شديد الايلام وان أي تخوف حيال سلامة « المنظمة لا يمكن ان يقارن بالخوف الذي يوحي به هذا الانحطاط الفكري الرهيب !

ان مصلحة « ارادة الشعب تتطلب أشد المعارضة لانحطاط ادبنا الثوري الى سكولاستيكية الثورة ولكن زاويتك أيها العزيز بيوتر لافروفيتش لمؤهلة من أجل دعم حمية « الفرسان » بالاحرى من تبريدها ان يقينك بأن « بث الاضطراب في منظمة » الجيش الثوري « غير مسموح الا لاعداء قضية هذا الجيش أو جماعة تكون قادرة بعملها وقوتها وتنظيمها ، في البرهة التاريخية الراهنة ، على أن تصبح جيشا اجتماعيا ، وكذلك ملاحظتك المتعلقة بحقيقة أن هذا الدور لا يمكن أن يكون من نصيب جماعتنا الا في مستقبل بعيد ومشكوك فيه نوعا ما ، هذا كله يمكن ان يحمل على الاعتقاد بأن جماعتنا في رأيك ، اذا « كانت تملك الجرأة على ان يكون لها رايها في سنها(**) فان من واجبها ان تخفيه كلما ناقض الراي المذكور راي احدى النشرات الدورية « لارادة الشعب » ومن المؤكد أنه يكون من قبيل الخطل استخلاص مثل هذه النتيجة من أقوالك ، لكن يجب الا ننسى أن الناس لا يتبعون دائما المنطق الحازم في أحكامهم

ان المبدأ الذي تصوغه في هذه السطور يمكن أن يثير أكثر من سوء تفاهم يؤسف له فقد يرى فيه Avis (***) في غير موضعه »على الاطلاق موجه الى قراء غير امتثاليين ، ويمكن ان يحملهم على أفكار من هذا القبيل حين تكون جماعة قادرة على ان تصبح «جيشا اجتماعيا في البرهة التاريخية الراهنة» فانه يسمح لها « ببث الاضطراب في منظمة » جيشنا الثوري ؛ وزيادة على ذلك فانه سيكون « مسموحا » لهذا الجيش وهو الفصيل المحنك المجرب ، أن « يبث الاضطراب في منظمة

(*) [بالفرنسية بالنص الاصلي أنظر فولتير ، تاريخ جيني ، الفصل الثالث] .

(**) [غريبوئيدوف كثرة الذكاء كارثة]

(***) [انذار] .

الجماعات « غير الامتثالية » التي تبدو له الهيمنة عليها بعيدة ، بل « مشكوكا فيها نوعا ما » ؛ ولكن ما هي الفئة الثورية التي تعتبرها رسول ارادة الشعب « جيشا اجتماعيا » ؟ انه حزب « ارادة الشعب » من دون ريب وبنتيجة ذلك ان النتيجة واضحة وهذه النتيجة شديدة الايلام بالنسبة الى الجماعات التي كانت تعتقد حتى الآن ، مثل جماعتنا ، انه اذا كان في مقدورنا ان ننتقد تصورات الغير فاننا لا نملك الحق في « بث الاضطراب في منظمات الغير ، بل يجب على العكس من ذلك السير الى جانبها ، وكل واحدة تدعم الاخرى وبصورة تامة »*

أيبدو مستقبل جماعتنا لك مشكوكا فيه ؟ اني اقبل بذلك عن طيبة خاطر ، بقدر ما يتعلق الامر بجماعتنا من حيث هي جماعة ؛ لكن ليس بالنسبة الى الافكار التي تمثلها**

ليس خافيا على أحد أن حركتنا الثورية تجتاز مرحلة حرجة. ان تكتيك الارهاب الذي اتبعته « ارادة الشعب » قد وضع حزبنا أمام سلسلة من المسائل الحيوية كليا التي لم تنل بعد حلا لسوء الحظ ان مخزون النظريات الباكونينية والبرودونية المتداولة لم يكن كافيا ليتيح طرح هذه المسائل كما كان ينبغي لقد بدل انحناء العصا اتجاهه ، بحيث أن انكار « السياسة الذي لا مبرر له قد افسح المكان ليقين بالقوة الكلية للمؤامرة « السياسية ، وهو يقين لا يقل عن ذلك افتقارا الى الاساس. ان برنامج « ارادة الشعب » البطرسبورغي ، بنقيضته السلافية النزعة بين روسيا والغرب ، وأمثلته للاشكال البدائية للحياة الشعبية ، وايمانه بالقدرة الخلاقة الاجتماعية للمنظمات الثورية الخاصة بالانتليجنتزيا عندنا ، قد كان نوعا من الباكونينية التي تقف على راسها لقد ظلت المبادىء النظرية على حالها دونما تغيير ، لكن النتائج العملية المستخلصة كانت على طرفي نقيض . ان الباكونينية التي جحدت عفتها السياسية قد رسمت قوسا مقداره ١٨٠ْ ، وبعثت في صورة نوع روسي من البلانكية التي تقيم آمالها الثورية على تخلف روسيا الاقتصادي

ان هذه البلانكية الباحثة عن نظرية خاصة بها قد وجدت مؤخرا التعبير الكامل تقريبا عنها في مقالة السيد تيخو ميروف : « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ »(٧) ان كل الترسانة التي يملكها البلانكيون الروس من أجل الدفاع عن برنامجهم قد اشركت في هذه المقالة وليس في مقدورنا أن ننكر على السيد تيخوميروف مهارته البارعة في استخدام سلاحه : أنه يجمع بحذاقة الحقائق في مصلحته ، ويتهرب

(*) انظر نشرة مكتبة الاشتراكية المعاصرة ، هامش الصفحة ٣

(**) ان هذه المناقشات عن المستقبل تبدو غريبة جدا حين تعاد قراءتها اليوم ، وقد تغلبت الاشتراكية الديموقراطية بين الثوريين الروس ومن المؤكد أن الاشتراكية الديموقراطية كانت تكون أقوى اليوم لولا الخلافات القائمة [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

باحتراس من تلك الحقائق التي تناقضه ، ويستنجد بالعاطفة — وينجح في ذلك — حيث لا يرجو ان يؤثر في العقل ذلك سلاح مرقع ، مجدد ، مشحوذ ؛ لكن اذا ما نظر المرء اليه عن كثب تبين انه مجرد الحسام العتيق للباكونينية والتكاتشوفية(٨) ، وقد زين بلصاقة جديدة « السيد ف. ف.(٩) في بطرسبورغ ؛ نظريات رجعية من مختلف الانماط » ولسوف أورد أدناه بعض المقاطع من **رسالة مفتوحة الى فريدريك انجلز** لبيوتر تكاتشوف ، فترى بنفسك ، ايها العزيز بيوتر لافروفيتش ان رفيقك يقتصر على تكرار ما قاله رئيس تحرير **الناقوس** قبل عشر سنوات ، وما أثار الرد العنيف من جانب انجلز في الكراسة التي تعرفها : Soziale aus Russland *

ان عشر سنوات لم تعلم اذن مؤلفينا شيئا ؟ أن « حزب ارادة الشعب » لا يريد أن يفهم اذن المغزى التاريخي للتضحيات المقدمة ، والاهمية السياسية لنضاله البطولي حقا ضد الاستبداد ؟ ولما كنا خارج روسيا فاننا لا نستطيع ، لا أنت ولا أنا ، أن نقول شيئا دقيقا عن الحالة الفكرية السائدة حاليا بين اعضاء ارادة الشعب لكنه مما لا ريب فيه على الاطلاق بقدر ما نستطيع ان نحكم بالاستناد الى ما يجري خارج هذه الجماعة ، أن الحركة الثورية مقدر لها أن تنبعث تحت راية غير راية تكاتشوف ان شبيبتنا الثورية حائرة ، مترددة ؛ لقد تخلت عن الايمان بوسائل العمل القديمة ؛ وان كثرة البرامج والنظريات التي تنبثق في وسطها تبين أن أيا منها على حدة غير قادر على تلبية مصالح حركتنا ومواجهة مهماتها ان الشكية تستعيد حقوقها ، و « ارادة الشعب » تفقد قدرتها الجاذبة وان السنوات الثلاث المنصرمة منذ قضية الاول من آذار(١٠) تتميز بانحطاط الطاقة الثورية في روسيا ، وهذه حقيقة محزنة لا يمكن انكارها لكن الكثيرين يفسرونها ، فيما يبدو لي ، بطريقة سطحية حقا ، فيقال ان الاضطهادات الحكومية اضعفت حركتنا اني أؤمن جدا « بالأهمية الراهنة » للثورة الروسية بحيث لا أرضى بهذا التفسير الصالح لكل شيء. اني اعتقد ان الطاقة الكامنة للثورة الروسية هائلة ، لا تقهر ، وان الرجعية لا ترفع رأسها الا لاننا لا نعرف ان نجعل من هذه الطاقة الكامنة طاقة حركية ان القضايا الاجتماعية في روسيا الحاضرة لا يمكن أن تحصل على حلولها المرضية في البرنامج التقليدي للتآمر البلانكي ان هذا البرنامج المهترىء سوف يصبح شيئا فشيئا سرير بروكست الخاص بالثورة الروسية فلسوف يضحى بصورة تدريجية على مذبح أهدافه الشبحية والخيالية بجميع وسائل الفعل الخاصة بالحركة ، وبجميع العناصر التي كانت تصنع قوتها ونفوذها ان الارهاب ، والتحريض بين الشعب وفي المجتمع المثقف ، ويقظة عمل شعبي مستقل وتطوره ، هذا كله لا يملك بالنسبة الى البلانكية الا اهمية ثانوية وتابعة . أن اهتمامها يتركز قبل كل شيء على المؤامرة التي تستهدف

(*) [القضايا الاجتماعية في روسيا]

الاستيلاء على السلطة   انها لا تهتم بتطور القوى الاجتماعية ، أو بخلق مؤسسات تجعل العودة الى النظام القديم امرا محالا ، بل تسعى فحسب الى الجمع بين القوى الاجتماعية القائمة   انها لا تحسب للتاريخ حسابا ، ولا تبحث عن فهم قوانينه وتوفيق العمل الثوري مع هذه القوانين ؛ انها تستعيض بكل بساطة عن التطور التاريخي بحيلة المتآمر البارعة* ولما كان نمو القوى الثورية الروسية لايزال بعيدا عن خاتمته ، ولما كانت هذه القوى لا تبرح في عملية des Werden ** ، فان التوقف المصطنع لتطورها ستكون له بالضرورة عواقب ضارة جدا ، اذ يوطدالرجعية بدلا من أن يخدم التقدم   ان امامنا واحدا من أمرين   فاما انيقامر بمستقبل الثورة على ورقة المؤامرة التي تملك الحظ الاقل في النجاح ، المؤامرة الاجتماعية الثورية ، واما أن تنبثق قوة جديدة من احشاء روسيا المعارضة والثورية ، قوة تقذف الى المؤخرة « بحزب ارادة الشعب » وتستلم قيادة حركتنا

ولعله سيكون في غير مصلحة الاشتراكيين على الاطلاق أن تنتقل قيادة النضال الى أيدي الليبراليين ، اذ سوف يحرمون دفعة واحدة من نفوذهم ، وبذلك يتأخر لسنوات طويلة تأسيس حزب اشتراكي بين الفئات الاكثر تقدما من شعبنا   وهذا هو السبب في أننا نستلفت انتباه شبيبتنا الاشتراكية الى الماركسية ، جبر الثورة كما سميتها في كراستي ، الى هذا   البرنامج » الذي يعلم تلامذته الاستفادة من كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي من أجل تثقيف الطبقة العاملة تثقيفا ثوريا واني على يقين من أن شبيبتنا وحلقاتنا العمالية سوف تجعل من هذا البرنامج الذي هو البرنامج الثوري الوحيد برنامجها الخاص عاجلا أو آجلا   وبهذا المعنى ، فان مستقبل » جماعتنا ليس « مشكوكا فيه » على الاطلاق ، وانا لا أفهم مصدر هذه الشكية عند كاتب مثلك ، انت الذي تدعو ماركس ، في نفس العدد الثاني من الرسول، المعلم الكبير الذي ادخل الاشتراكية في طورها العلمي ، وبرهن على ضرورتها التاريخية ، ووضع في الوقت نفسه أسس الوحدة العضوية للحزب العمالي الثوري »(١٢)   ذلك انه ليس في الامكان في آخر تحليل أن يعطي المرء موافقته على النصوص النظرية « للمعلم الكبير » ويستنتج منها ، في الممارسة ، الباكونينية والبلانكية

واكرر ذلك   ان الماركسيين الاكثر منطقية مع انفسهم قد تختلف آراؤهم في تقدير الواقع الروسي الراهن ، ولذا فاننا لا نريد في حال من الاحوال ان نضع

(*) هذا مثال بارز   ان نبدأ من انظمة فريق نيتشائيف(١١) يعلن بكل صراحة : « ان المبدأ العام للمنظمة ليس الاقناع ، يعني التكوين ، بل تجميع القوى القائمة »

(**) [الصيرورة] .

برنامجنا تحت وصاية اسم كبير* وفيماعدا ذلك ، فاننا على استعداد سلفاللاعتراف بأن هذا البرنامج يتضمن كثيرا من « الفجوات والطوباويات » ، مثله مثل أية محاولة اولى لتطبيق نظرية علمية على تحليل وضع اجتماعي عظيم التعقيد وبالغ الاضطراب. ولكننا في حقيقة الامر لا نملك في الوقت الحاضر ، لا رفاقي ولا انا ، برنامجا معدا بصورة نهائية من الفقرة الاولى حتى الاخيرة(١٣) اننا نبين فحسب **الاتجاه** الذي يجب أن يبحث فيه عن حل المسائل الثورية التي تعني رفاقنا ؛ اننا ندافع فحسب عن المقياس الاكيد والمعصوم الذي يستطيعون بمساعدته ان يتخلصوا أخيرا من بهارج ميتافيزيـ ثوريه كانت تسود حتى البارحة دون منازع على وجه التقريب على أفكارنا ؛ اننا نبين لهم فحسب أن حركتنا الثورية ، وهي أبعد ما تكون عن خسارة اي شيء كان ، سوف تربح ربحا فاحشا اذا ما أصبح الشعبيون الروس والانصار الروس « لأرادة الشعب » ماركسيين روسا أخيرا ، واذا ما جمعت وجهة نظر جديدة، اسمى وارفع ، بين جميع الفئات الموجودة لدينا »** ان برنامجنا لم يكتمل بعد ، ولن يكتمل الا في الميدان ، بفضل الحلقات العمالية والشبيبة الثورية التي سوف تخوض القتال كي تدخله في الوقائع ان التعديلات والتكملات والتحسينات ضرورية، لا غنى عنها وطبيعية بصورة مطلقة واننا لننتظر النقد بصبر فارغ بالاحرى من أن نخشاه ، ولن نسد آذاننا قط مثل فاموسوف(١٤) واذ نقدم الى رفاقنا الذين يعملون في روسيا هذه المحاولة الاولى لبرنامج الماركسيين الروس فاننا لا نريد مطلقا ان نناقش ارادة الشعب والاكثر من ذلك اننا لا نترجى في شيء اكثر من التوصل الى اتفاق تام وحاسم معها وانه ليبدو لنا أن **من واجب** « ارادة الشعب » أن تصبح ماركسية اذا كانت تنوي البقاء مخلصة لتقاليدها الثورية وتريد أن تنتزع الحركة الروسية من الركودة التي تمر اليوم بها

حين أتحدث عن التقاليد الثورية « لارادة الشعب » ، فاني لا افكر فيالارهاب، ومحاولات الاغتيال ، وجرائم القتل السياسية فحسب ، بل أفكر ايضا في ذلك الاتساع للحركة الروسية الذي كان النتيجة الضرورية لذلك النضال والذي بين لنا كل ما كان في النظريات التي بشرنا بها من ضيق ، وتجريد ، ونقص . لقد قتلتها المتفجرات مع الكسندر الثاني في الوقت نفسه لكن الاستبداد الروسي والباكونينية في سائر اشكالهما ، اذا كانا قد قضيا فانهما لم يدفنا بعد لقد توقفا عن الحياة ، عن التطور، لكنهما مستمران في التفسخ ؛ وان تفسخهما يلوث روسيا بأسرها ، من عناصرها

(*) قبل حسب الصحيفة الاشتراكية الديموقراطية **البروليتاري** انها ترى في صيغة مماثلة لاحدى مقالاتي ترددا حول الاسس الثابتة لرأيي ان المقصود شيء آخر فقد رفضت دائما ان Jurare in verba magistri [أقسم على أقوال المعلم] [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

(**) **الاشتراكية والنضال السياسي** ، ص ٥٦

الاكثر محافظة الى عناصرها الاكثر ثورية ان جو الماركسية السليم يستطيع وحده **أن يساعد « ارادة الشعب » على الوصول بالعمل الذي بدأته بصورة لامعة الى نهاية سعيدة ، لأن المرء ، كما يقول لاسال « يكتشف من قمم العلم أنوار الفجر بصورة** ابكر مما لو كان ضائعا في الامور اليومية ان الماركسية سوف تبين لاتباع ارادة الشعب الطريقة التي يستطيعون بها ، **اذ يضمون** الى الحركة عناصر جديدة وبكرا **بعد** على وجه التقريب ان يتفادوا في الوقت نفسه عثرة التصلب القاتل الطريقة التي يستطيعون بها ، **اذ يستخدمون الجوانب التقدمية للثورة الليبرالية ألتي تتهيأ ،** ان يظلوا مع ذلك أمناء حتى النهاية لقضية الطبقة العاملة والاشتراكية انا نتمنى « لارادة الشعب » ، **نحن الغرباء** عن عقيدة التشيع الضيقة ، **لا الاخفاق بل نجاحات** جديدة **اننا لا نمد لها الا يـدا** من أجل الصلح ؛ لكن السبب في ذلك أننا نشير ، باليد الاخرى ، الى النظرية الأشتراكية العلمية قائلين **لها : « بهذا سوف تنتصرين ! »**

مما يؤسف له أن سبنسر مصيب جدا حين يلفت الانظار الى أن جمود العضوية يتناسب **طردا مع** كمالها ان **الممارسة** الشاقة **للنضال** ضد الحكم **المطلق قد أعطت** ارادة الشعب » **منظمة** صلبة وطيدة وان هذه **المنظمة** ، الضرورية بصورة مطلقة والنافعة حتى الدرجة القصوى لا تشذ عن القاعدة العامة ؛ انهاتعوق التقـدم النظري « لارادة الشعب بقدر ما تسعى لان تنصب في عقائد ابدية برنامجا ومذاهب لا يمكن ان يكون لها الا مغزى مؤقت وانتقالي ولقد عبرت في آخر كراسة **الاشتراكية والنضال السياسي** عن الرجاء في أن تستطيع **رسول ارادة الشعب** أن تنظر بروح تقدي **الى** أخطاء برنامجها النظرية وأخطاء نشاطها العملية قائلا : اننا نريد **أن** نعتقد ان المجلة الجديدة سوف تتبصر بأعصاب هادئة في المهمات التي يلزم **تحقيقها** **مستقبل** حزبنا الثوري

ولقـد كنت أتوقـع أن تمضي **رسـول** جنيف الى أبعـد من **ارادة الشعب** البطرسبورغية لكن اذا قرأت بانتباه ، **ايها العزيز بيوتر لافروفيتش** ، مقالة السيد تيخوميروف فسوف تقتنع أنت نفسك بأن الافكار التي تتضمنها تشكل خطوة كبيرة الى الخلف ، حتى بالنسبة الى **ارادة الشعب** وان هذا لامر طبيعي جـدا ان المقدمات النظرية للبرنامج القديم لارادة الشعب » متزعزعة جدا **ومتناقضة** جدا بحيث **لابد** من السقوط اذا ما أريد **الاستناد** اليها ولا يبقى الا أن **ننتظر أن** ترفع أصواتها أخيرا عناصر أخرى من « حزب ارادة الشعب » ، **عناصر تقدمية ، أن** ننتظر أن تواصل الحركة الثورية داخل الحزب ، **كما فعلت ذلك دائما وفي كل مكان ، انطلاقا من القاعـدة .**

وحتى ذلك الحين ، فاننا لن نكف عن ابقاء الرأي يقظان لدى ثوريينا ، مهما تكن الهجمات ، والمآخذ ، والاتهامات التي تثيرها كتاباتنا ، ومهما يكن اليما بالنسبة الينا ، أيها العزيز بيوتر لافروفيتش ، أن نراك مستاء منا ، أنت الذي كان يبدو

لنا ، البارحة بعد ، اننا نستطيع الاعتماد على تعاطفك وتأييدك ولسوف نناقش « ارادة الشعب » في مصلحة قضيتها الخاصة ، آملين أن ننتهي عاجلا أو آجلا الى الاتفاق معنا واذا وضعت صراحتنا موضع الشك ، اذا أريد أن يرى فينا أعداء لا أصدقاء ، فسوف نتعزى بوعي عدالـة قضيتنا ولسوف نظل مخلصين نحن الماركسيين الحازمين لشعار معلمنا: اننا نواصل طريقنا غير آبهين بما يقول الناس(١٥)» .

اني أشد بود على يدك

المخلص لك بصدق واحترام

جورج بليخانوف

جنيف ، في ٢٢ تموز ١٨٨٤

مدخل

١ ـ ماذا ياخذون علينــا ؟

حين نتحدث عن الهجمات والمآخذ والاتهامات لا نتفاصح مطلقا ان جماعـة « تحرير العمل » قائمة منذ وقت قصير جدا ، ومع ذلك كم من اعتراضات كان علينا أن نسمع ، وهي اعتراضات كان مصدرها الوحيد عزم ثابت على عدم التفكير مطلقا في جوهر برنامجنا وكم من الخلافات المسببة عن الرغبة في نسب افكار ونوايا الينا لم تخطر لنا في بال قط ! لقد حاولوا ، البعض قاصدين الهدف باستقامة ، والبعض الآخر بدروب ملتوية ، بتلميحات ، بتضمينات ، متجنبين « الضربات المباشرة » دون ذكر الاسـماء ، لكن مستعينين بصيغنا كي يعرضوا أفكارنا بصورة مشوهـة وملتوية،لقدحاولوا أن يصورونا على اننا باحثون عقائديون باردون،مستعدون للتضحية بسعادة الشعب ورخائه على مذبح الاناقة المتناسقة لنظريات كتبية لم يكن يراد ان يرى فيها الا بضاعة مهربة سوف يسيء ادخالها الى روسيا مثـل اساءة الافيون الانكليزي الى الصين لقد حان الوقت اخيرا لوضع حد لهذا الاختلاط الذهني ! لقد حان الوقت أخيرا لايضاح هذه الخلافات التي تسوء نيتها اكثر فأكثر

ولنبدأ بالاهم .

في الفصل الاول من كراستي عاملت ببعض السخرية الثوريين الذين يخشون التقدم الاقتصادي البورجوازي » وينتهون بصورة منطقية « الى النتيجة المذهلة بأن تخلف البلاد الاقتصادي أضمن حليف للثورة وأن الركودة يجب أن تشكل البند الاول والأوحد لبرنامجنا الادنى » ولقد قلت انه يجب على الفوضويين والشعبيين والبلانكيين الروس ، « كي يصبحوا ثوريين بالفعل لا بالاسم وحده » ، ان يضعوا قبلا الثورة في أدمغتهم الخاصة ، وان يتعلموا في سبيل ذلك كيف يفهمون التطور

التاريخي كيما يتزعموه بدلا من ان يتوسلوا الى الجد التاريخ ان يبطىء من خطواته حتى يتمكنوا من أن يشقوا له دروبا جديدة أكثر استقامة وافضل تمهيدا »*

ولقد حاولت في ختام الفصل الثالث من الكراسة نفسها أن أقنع قرائي بأن « الرغبة في الجمع بين عملين متميزين جوهريا حتى هذا الحد ، مثل اسقاط الاستبداد والثورة الاشتراكية ، والانخراط في النضال الثوري مع التصور بأن هاتين اللحظتين من التطور الاجتماعي سوف تنطبقان في تاريخ بلادنا ، ذلك معناه تأخير قيامهما»**.

ومن بعد عبرت عن الفكرة بأن « السكان الريفيين في الوقت الحاضر ، نظرا لشروط وجودهم العتيقة ، ليسوا فحسب أقل قدرة من عمال الصناعة على القيام بمبادرات سياسية واعية ، بل هم كذلك أقل تقبلا للحركة التي أطلقتها الانتليجنتزيا الثورية عندنا » وقد استطردت قائلا .

« وفضلا عن ذلك ، فان طبقة الفلاحين تجتاز في الوقت الحاضر مرحلة حرجة ان « الاسس الرعوية » لاقتصادها هي في سبيل الانهيار ؛ « ان المشاعة البائسة قد فقدت الاعتبار في عينيها الخاصتين » كما تعترف صحيفة شعبية « رعوية » النزعة بقدر الاسبوع؛ ان الاشكال الجديدة للعمل والحياة قد أخذت تنتظم لتوها ، وهذه العملية البنائية تتظاهر على أشدها في المراكز الصناعية .»

لقد استخلص البعض من هذه الفقرات وغيرها حجة للاستنتاج بأن رفاقي وأنا، وقد اقتنعنا بأن المستقبل المباشر عندنا يخص الراسمالية ، نريد أن نرمي عن طيبة خاطر بالشعب الروسي بين أظافر الراسمال الفولاذية ، ونعتبر في « غير موضعه » أي نضال يخوضه الشعب في سبيل تحرره

ان السيد تيخوميروف ، في « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ » ، بعد أن يشير الى الدور العجيب الذي تلعبه السياسات التي تفتقر برامجها الى اي ارتباط بالواقع يسترسل في موضوع « الوضع المأسوي » للاشتراكيين الذين يتوهمون أنه « من واجب روسيا ، كي تخلق الشروط المادية الضرورية لامكانية نظام اشتراكي ، أن تجتاز بالضرورة مرحلة الراسمالية » ان هذا الوضع ، كما يراه السيد تيخو ميروف ، يتبدى ميئوسا منه بكل بساطة

الهول ! في كـل مكـان الهول !

ان اشتراكيينا ، الملزمين بالعمل على خلق الطبقة التي يريدون أن يعملوا باسمها » ، سوف يجدون انفسهم اذن مضطرين أن « يتمنوا أن يتم بأسرع وقت

(*) الاشتراكية والنضال السياسي ، ص ١٢ – ١٣

(**) المصدر نفسه ، ص ٧٦

ممكن تسريح هؤلاء الملايين من الشغيلة الموجودين فعليا ، لكن الذين لا يملكون ، باعتبار انهم ليسوا بروليتاريين لسوء الحظ ، دورا في المخطط العلمي للتقدم الاجتماعي » وفيما عدا ذلك ، فان دور هؤلاء المدعين الحمقى للاشتراكية لا يقتصر على أن « يعملوا » وأن « يتمنوا » Wer A sagt, mass auch B sagen * ان الاشتراكي ، اذا بقي منطقيا مع نفسه ووضع مصلحة الثورة فوق نقاوته الاخلاقية الخاصة ، يجب أن يتحالف بكل بساطة مع فرسان التراكم البدئي الذين لا يرتعش قلبهم او ترتجف يدهم حين يتعلق الامر بتطوير مختلف انواع « فضل القيمة وتوحيد العمال في الوضعية الخلاصية للبروليتاريا المعوزة واما حول الثوريون بهذه الطريقة الى دعاة لاستغلال الشغيل فان السيد تيخوميروف يطرح سؤالا في موضعه » تماما اين هو الفارق اذن بين الاشتراكي والبورجوازي ؟

لا ادري أي « اشتراكيين » يقصدهم هنا هذا المؤلف المحترم ولقد أمكن أن يرى ، على العموم ، انه لا يحب « الضربات المباشرة » ، وهو يعلن للقراء بكل بساطة، دون ان يسمي خصومه بصراحة ، أن « مجموعة كاملة من الناس » يفكرون على هذا الفرار ولا يعلم القارىء شيئا عن هوية هؤلاء الناس وما اذا كانوا حقا يفكرون كما يقول ذلك السيد تيخوميروف ولا أعلم أيضا ما اذا كان القراء يشاطرونه هلعه حيال وضع الاشتراكيين الذين ينقدهم بيد أن الموضوع المطروق بالغ الاهمية ، والتهم الموجهة ضد بعض الاشتراكيين تقترب جدا من تلك التهم التي اطلقت مرارا ضدنا ، والحل السلبي لقضية الاشتراكية يحدد حتى درجة بعيدة كل برنامج السيد تيخو ميروف، كل « توقعاته» ، بحيث تقدم هذه المقالة فرصة من أجل أيضاح المسألة.

« أيجب » على روسيا أو « لا يجب عليها » أن تجتاز « مدرسة » الرأسمالية ؟

لما كان الحل يتحلى بأهمية رئيسية بالنسبة الى تحديد مهمات حزبنا الاشتراكي، فلن يدهش أحد لأن القضية استحوذت منذ زمن طويل على انتباه الثوريين الروس . وكانت غالبيتهم العظمى تميل ، حتى هذه الاوقات الاخيرة ، نحو حلها بصورة جازمة سلبيا ، وقد دفعت أنا الآخر جزيتي لهذا الزي الشائع فقد سعيت في افتتاحية العدد الثالث من الارض والحرية كي اثبت ان التاريخ لا يملك شيئا من عملية ميكانيكية رتيبة ، وأن الرأسمالية لم تسبق الاشتراكية بالضرورة الا « في الغرب، حيث دمرت المشاعة الزراعية في زمن النضالات ضد الاقطاعية الوسيطية ، وانه عندنا ، حيث هذه المشاعة « تشكل الصفة المميزة للعلاقات بين الفلاح والارض » ، يمكن تحقيق النصر للاشتراكية بسلوك درب مختلفة كليا ان الملكية الجماعية للارض يمكن أن تقدم منطلقها لتنظيم جميع مظاهر حياة الشعب الاقتصادية وفقا لمبادىء الاشتراكية ولقد اختتمت قائلا :

(*) [من يقول ب يجب ان يقول ج]

« وهكذا فان مهمتنا الرئيسية تستقيم في خلق منظمة قتالية شعبية – ثورية غرضها تحقيق الثورة الشعبية في اقرب مستقبل ممكن »(٢٦)

واذن فقد كنت ادافع في كانون الثاني عام ١٨٧٩ عن الاطروحة التي جعل السيد تيخوميروف من نفسه بطلا لها في عام ١٨٨٤ ،

*Mit Ein Bischen Anderen Worten

حقا ، قائلا انه « خلف السر حيث تتدفق وتزبد امواج سيل التاريخ » ، او كي نتحدث بنبل اقل بعد سقوط النظام الاجتماعي والسياسي الراهن ، « فان ما ينتظرنا » ليس حكم الراسمالية كما يؤكد « البعض » ، بل « بداية تنظيم اشتراكي لروسيا ». ان ضرورة خلق منظمة قتالية شعبية – ثورية تني عند السيد تيخوميروف في المرتبة الثانية ، مفسحة المجال امام جمعية سرية من المثقفين الذين سوف يستولون على السلطة ويطلقون بذلك اشارة الثورة الشعبية ان بين أفكار السيد تيخوميروف والافكار التي كنت ادافع عنها فيما مضى نفس المسافة التي تفصل بين برنامج« ارادة الشعب »وبرنامج « الارض والحرية » بيد أن الخطيئة التي يرتكبها السيد تيخوميروف بشأن جانب القضية الاقتصادي « تتوحد على وجه التقريب مع الخطيئة التي ارتكبتها في المقالة المذكورة وهكذا فان من واجبي ، وانا أعارض فروض هذا المؤلف ، أن ادخل غالبا تصحيحات في محاكمة كانت تبدو لي مقنعة بصورة مطلقة ولا يمكن الاعتراض عليها

وان مجرد حقيقة أن وجهة نظر السيد تيخوميروف لا تتميز لا بجدتها ولا بأصالتها تجعلني لا أقتصر على نقد حججه ، وتلزمني بأن اعيد التمحيص في كل ما قيل من قبل تأييدا لحل القضية التي تعنينا حلا سلبيا وان الادب الروسي للسنوات الاربعين الاخيرة يقدم في هذا المضمار مادة اثمن جدا من مقالة « ماذا يمكن ان ننتظر من الثورة ؟

٢ – طرح المسألة

في حقيقة الامر ان السيد تيخوميروف لم يعرف حتى كيف يطرح المسألة بصورة مضبوطة

فبدلاً من أن يقول كل ما كان في مقدوره أن يقوله تبريرا لامكانية « بداية تنظيم اشتراكي على انقاض النظام السياسي والاجتماعي الحالي في روسيا ، يكرس فصلا كاملا على وجه التقريب كي ينقد « العزاء » الذي سوف يتبقى لانصار

(*) [بكلمات قليلة الاختلاف ، غوته]

الضرورة التاريخية للرأسمالية انه يتخلى بقدر كبير من السرعة ، أو بالاحرى يواري خلسة وجهة النظر الموضوعية التي اتخذها في مطلع الفصل الاول هنـاك حيث بين أن « منطق التاريخ ، مجرى الاحداث التاريخي وقس على ذلك » ، همـا قوة بدائية لا يمكن تحويلها عن الطريق التي اختارتها ، لان هذه الطريق لم تخترها بصورة اعتباطية ؛ انها حصيلة القوى التي بدونها لا يشتمل المجتمع على أي شيء واقعي قمين بانتاج أي فعل وان سؤالاً يعرض هنا هذه « القوة البدائيـة » هل يمكن ايقافها بفعل اعتبارات تتناول عزاء الاشتراكيين الروس ؟ لا بكل تأكيـد فبدلا من السؤال عما سيؤول اليه الاشتراكيون الروس في حال انتصار الرأسمالية ، كان من الواجب اذن الانصراف الى تحصيل « فكرة صحيحة عن هذه القوة ومنحاها » ، وهي فكرة لا يمكن الاستغناء عنها في العمل السياسي « طالما ان أي برنامج يفقد معناه اذا لم يتطابق معها » ، كما يؤكد ذلك السيد تيخوميروف بيد أنه يفضل الطريقة المعاكسة انه يهتم بادىء الامر باخافة قرائه ، ومن ثم يرسم « في الفصول التالية » ، « في خطوطها الكبرى » ، « أهداف ثورتنا ووسائلها » التي سوف تمكننا من الأيمان بامكانية تحويل كأس الرأسمالية عن شفتي روسيا ولسوف أترك جانبا في الوقت الحاضر مسألة معرفة حتى أية درجة أثرت هذه المناورة التخويفية في القراء الروس، لاقتصر على لفت النظر الى انه لا يجوز اللجوء الى هذه الطريقة في المناقشة عندمـا يتعلق الامر بمسائل اجتماعية خطيرة

ان المثقف الروسي قد انتهى ، لأسباب ليس ههنا المجال للتوقف عندها ، الى اهتمام بالغ القوة « بدور الفرد في التاريخ وما أكثر ما كتب عن هذه المسألة اللعينـة ؛ ولقد جرت المناقشة بشأنها أكثر من ذلك في حلقات صغيرة مختلفة ؛ ومع ذلك فان دعاتنـا لا يعرفون حتى في الوقت الحـاضر أن يميزوا دائما مجـال الضروري من مجال المبتغى ؛ وما اكثرما يحدث لهم أن يتناقشوامع التاريخ على غرار خليستاكوف مع خادم الخان لابد لي على أي حال أن آكل! اني لن أموت جوعا على اي حال ! » هذا ما كان يقوله بطل غوغول الخالد* ولعل القارىء سوف يهتف أمام التهديدات التيخوميروفية لابد لي على أي حال ، بعد هذا كله من البقاء اشتراكيا لن أضطر على أي حال الى التحالف بكل بساطة مع فرسان التراكم البدئي ! » وعلى أي حال ، فانه يمكن ان نأمل في أن تسهم اعتبارات السيد تيخوميروف عن « منطق التاريخ » الذي لا يقاوم حتى درجة بعيدة في تبديد هذه « الهفوة الفظة التي ارتكبها فكر ناقص النضوج

ان وجهة نظر جماعة تحرير العمل » تسهم فيما يخيل الي في القضاء على سوء الاستعمال هذا للطريقة الذاتية في علم الاجتماع ان المبتغى هو بالنسبة الينا تابع للضروري ، وهو لا يحل مكانه قط في محاكماتنا ان الحرية الفرديـة

(*) [في المفتش العـام] .

تستقيم بالنسبة الينا في **معرفة** قوانين الطبيعة ، يعني قوانين التاريخ بصورة خاصة، وفي القدرة على **الخضوع** لهذه القوانين ، يعني بصورة خاصة في **الجمع بينها بالطريقة الانفع** انتا على ثقة من انه حين يتوصل مجتمـع الى اكتشاف سبيل القانون الطبيعي الذي يتحكم في حركته ، فانه لا يستطيع لا أن يتخطى بقفزة واحدة ولا أن يلغي بمراسيم أطوار تطوره الطبيعي ، **لكنه يستطيع أن يختصر من فترة الحمل وأن يلطف من آلام المخاض*** وفي رايناان احدى المهام الاساسية للاشتراكيين المقتنعين بالضرورة التاريخية للرأسمالية في روسيا تكمن في هذه القدرة على الاختصار والتلطيف وان **امكانية** التخفيف من هذه الآلام هي التي يجب أن تشكل عزاءهم امـا **المنطق** الذي يريد السيد تيخوميروف أن يفرضه عليهم فهو كما سوف نرى فيما بعد ، منطق ميتافيزيائي لا يملك ادنى فكرة عن جدلية الصيرورة الأجتماعية لكن يجب الا نحيد عن موضوعنا

٣ – هرتزن

ان هرتزن ، الذي شاهد جيدا حتمية الثورة الاشتراكية في الغرب ، قد طرح منذ عام ١٨٥٤ على الديموقراطية الروسية الوليدة

السؤال المحير دائما ، الجديد في كل مرة

الـذي لا يبرح

يضني ما لا يحصى من الادمغـة القلقة

ويعذبهـا أيمـا عـذاب

وهو فيما عدا ذلك نفس السؤال الذي كان السبب في « مناظرتنا ضد حزب ارادة الشعب »

ويسأل هرتزن في **الرسائل الى لنتون**(١٧) « أيجب أن تمر روسيا بجميع أطوار النطور الاوروبي أم أن حياتها سوف تنتظم وفقا لقوانين أخرى ؟ »**.

وان الكاتب الشهير ليتعجل الأجابة عن ذلك بالعبارات التالية

اني أنكر بصورة مطلقة ضرورة هذه التكرارات لعله سوف يتوجب علينا أن نجتاز الاختبارات القاسية والاليمة للتطور التاريخي الخاص بأسلافنا،لكن على طريقة الجنين الذي يمر بجميع الدرجات الدنيا للوجود الحيواني ان العمل المكتمل ، النتيجة الحاصلة، يصبح الملكية المشتركة لجميع الكائنات المفكرة ؛ ذلك هو الكفيل المتضامن للتقدم ، بكورية

(*) [ماركس :مقدمة الطبعة الاولى من **رأس المـال**]

(**) اسكندر **العالم القديم وروسيا** ، ص ٣١ – ٣٢

الانسانية   ان كل طالب اليوم يكشف بوسائله الخاصة فرضيات اقليدس   لكن يا لل من فارق بين العمل الذي تطلبه اكتشافها من اقليدس والعمل الذي يتطلبه من التلميذ في أيامنا الحاضرة   لقد حققت روسيا تخلقها الجنيني في مدرسة اوروبا   فعندنا تشكل النبالة والحكومة دولة أوروبية في دولة سلافية   لقد اجتزنا جميع أطوار الثقافة السياسية منذ الدستورية الانكليزية حتى عبادة عام ٩٣   ولاحاجة للشعب الروسي الى قطع هذه الدرب الشاقة مرة اخرى   فما جدوى اراقة المرء لدمائه من أجل انصاف الحلول التي توصلنا اليها والتي كان دورها الاوحد أننا انتقلنا بواسطتها الى مسائل أخرى ، الى طموحات جديدة   لقد قضينا مدة أشغالنا الشاقة* من أجل الشعب ؛ لقد دفعنا الثمن لقاءه بالمشانق ، والسجون ، والنفي ، والدمار ، وبالحياة التي لاتطاق والتي نعيشها »

ان الحلقة ، الجسر الذي سوف يتيح للشعب الروسي أن ينتقل الى الاشتراكية، من المفروغ منه أن هرتزن كان يراه في المشاعة الزراعية وفي خصائص نمط الحياة الشعبية التي ترتبط بها   انه يقول

لم يباشر في معرفة الشعب الروسي الا بعد ثورة عام ١٨٣٠   لقد شوهد عندئذ ان هذا الروسي المنفعل ، العاجز عن جميع المسائل السياسية ، قد كان من جراء نمط حياته أقرب الجميع من بين الشعوب الاوروبية الى نظام الغد الاجتماعي   الحفاظ على المشاعة ، ومنح الفرد الحرية   ونشر الحكم الذاتي بحيث يشمل المدن والدولة بأكملها ، مع المحافظة في الوقت نفسه على الوحدة الوطنية ، في هذا تستقيم مسألة مستقبل روسيا   يعني مسألة التعارض الاجتماعي الذي يشغل حلها الاذهان في الغرب ويعكرها في الوقت الراهن **

ومما لا ريب فيه أن بعض الشكوك كانت تراوده أحيانا   أيكون الشعب الروسي حقا على هذه الدرجة من « القرب من نظام الغد الاجتماعي » ؟ انه يطرح السؤال على لنتون في الرسالة نفسها   ربما قلت لي ان الشعب الروسي يشبه في هذه النقطة بعض الشعوب الآسيوية   ولعلك تجابهني بالمشاعات الريفية في الهند التي تشبه مشاعاتنا حتى درجة مقبولة ؟ »   لكنه ، دون أن ينكر هذا الشبه القليل التشجيع ، يرى مع ذلك بين الشعب الروسي و « بعض الشعوب الآسيوية » فارقا هو فارق جوهري في نظره

(*) **Hard Labour** بالانكليزية في النص الاصلي .

(**) المصدر نفسه .

« ليست المشاعة هي التي تبقي شعوب آسيا في الجمود ، بل انطواؤهم وأعرافهم وعجزهم عن الخروج من النظام الرعوي ، عن الافلات من العشيرة ونحن لسنا في مثل هذه الحال ان الشعوب السلافية مرونة كبيرة انها تمتلك بيسر اللغات والعادات ، والاخلاق ، والفنون والتقنيات الخاصة بالشعوب الاخرى انها تتأقلم على حد سواء على ضفاف المحيط المتجمد وعلى ضفاف البحر الاسود . »

ان هذه المرونة قد أتاحت لها الخروج من النظام الرعوي حق الأفلات من العشيرة ، وان عليها أن تحل القضية بأسرها كما يفكر هرتزن ولقد كان نفوذه عظيما جدا ، وكانت الطريقة التي نادى بها من أجل اختصار طريق الاشتراكية مغرية جدا بحيث أن المثقفين الروس لم يميلوا قط الى الشكية بخصوص الحل الذي قدمه هرتزن الى هذا التمارض الاجتماعي المر وبحيث لم يتساءلوا كما تشير جميع الظواهر لا من أين تمر هذه الطريق المختصرة للتاريخ ولا من سوف يقود اليها شعبا روسيا « منفعلا » عاجزا عن جميع المسائل الاجتماعية لقد كان الامر الذي يهمهم في المحل الاول هو ايجاد تكريس فلسفي ما لطموحاتهم الاجتماعية، وكانوا يكتفون مؤقتا بهذا الاعتبار المجرد بأن أية فلسفة في العالم لن تجبرهم على الانقياد « لانصاف الحلول البورجوازية »

ومن المؤكد أن هذا الاعتبار المجرد لم يكن كافيا من أجل رسم وسيلة للفعل العملي ومن أجل اعداد وسائط للقتال مناسبة للبيئة الخارجية كان لابد من البحث خارج فلسفة التاريخ عن عناصر حل لهذه القضية الجديدة ، حتى اذا كانت فلسفة التاريخ هذه أكثر تماسكا وعلمية من فلسفة التاريخ عند هرتزن لقد كان بين هذه الصيغ المجردة والحاجات الحسية للحياة الاجتماعية هوة ما كان يمكن طمرها بمجرد سلسلة من الصيغ الجديدة والخصوصية أكثر فأكثر ، المتطلبة بدورها معرفة مجموعة كاملة من الظواهر المتزايدة التعقيد وفيما عدا ذلك ، فان الفلسفة قدمت الى الفكر الروسي خدمة غير مباشرة حين جعلته يتآلف مع الطريقة الجدلية وحين لقنته هذه الحقيقة التي ما أكثر ما نسيت فيما بعد ، الا وهي أن « كل شيء يجري»، « كل شيء يتغير » في الحياة الاجتماعية ، وأن الظواهر لا يمكن أن تفهم الا في صيرورتها ، في عملية توالدها وتطورها وزوالها

٤ ـ تشيرنيشيفسكي

ان نقد المستبقات الفلسفية ضد الملكية المشاعية للارض(١٨) يظل في أدبنا المع محاولة لتطبيق الجدلية على تحليل الظواهر الاجتماعية ، فالنفوذ الذي مارسه هذا المقال على تطور الانتليجنتزيا الثورية عندنا معروف لدى الجميع لقد قوى ايمانها

في المشاعة اذ **برهن** على ان هذا الشكل من الملكية العقارية يمكن في بعض الشروط أن يصبح شكلا شيوعيا للتطور **لكن تشيرنيشيفسكي وتلامذته على حد سواء قد استخلصوا في حقيقة الأمر من « نقد المستبقات الفلسفية » نتائج عريضة جدا بالنسبة الى المقدمات وفي الواقع أن الحل الذي وجده تشيرنيشفسكي جبري خالص ؛ وما كان يمكن أن يكون الامر خلاف ذلك ، طالما كان المؤلف يجابه به صيغ خصومه التي لا تقل جبرية عن ذلك فقد نادى الانصار الروس لمدرسة مانشستر بأن الملكية المشاعية للارض يجب أن تفسح المكان في كل مكان بالضرورة للملكية** العقارية الخاصة وكان ذلك مخططهم عن تطور علاقات الملكية ولقد برهن تشيرنيشيفسكي باديء ذي بدء ان هذا المخطط لا يفسر العملية التطورية بكاملها ، **طالما أن الملكية الجماعية لابد أن تعود فتصبح في مرحلة معينة الشكل السائد وفضلا عن ذلك فقد بين بقدر كبير من الصواب أنه ليس ثمة مبرر لان نسب ديمومة دائمة** ومحددة بصورة نهائية للفاصل التاريخي الذي يفصل عصر الشيوعية البدائية عن عصر اعادة بناء المجتمع بناء واعيا على اسس شيوعية وعلى العموم ، فان هذا **الفاصل هو س** قيمتها الحسابية في كل بلد تابعة لمجموعة من القوى الداخلية والخارجية المحددة بفعل التطور التاريخي للبلد المذكور وبما ان تراكيب هذه القوى متفاوتة جدا بالضرورة حسب الحالة ، **فيجب الا نعجب لأن س** موضع البحث ، يعني الزمن الذي تسود الملكية الخاصة خلاله تصبح أحيانا قيمة صغيرة بصورة لامتناهية حتى ليمكن دون التعرض للخطأ تشبيهها **بالصفر** وهكذا كان تشيرنيشيفسكي يبرهن على **الامكانية المجردة** للمرور دون انتقال من المشاعة البدائية الى الشكل الشيوعي الاعلى لكن هذه النتيجة العامة لجدلية فلسفية وتاريخية يمكن ان تطبق كذلك ، بالضبط من جراء طابع **المحاكمة** المجرد ، على سائر البلدان وجميع الشعوب التي احتفظت بالملكية المشاعية للارض ، من روسيا الى زيلاندا الجديدة ومن **زادروغا** الصربيين الى عادات هذه القبيلة أو تلك من قبائل الهنود الحمر* وهكذا اتضح ان اكتشاف تشيرنيشيفسكي غير كاف من أجل التنبؤ حتى بصورة تقريبية بمستقبل المشاعة في كل من هذه البلدان على حدة ان **الامكانية المجردة** لم تصبح بعد **احتمالا** حسيا ؛ وانها لتستطيع أقل من ذلك أيضا أن تقوم مقام الحجة الحاسمة حيث تتعلق الامر **بالضرورة التاريخية** لقد كان من الواجب ، من أجل الحديث عن هذه الضرورة بشيء من الجد الانتقال من الجبر الى الحساب وبيان أن **س** في كل حالة معطاة ، سواء أكان الامر تتعلق بروسيا أم بمملكة الاشانتيس، وبصربيا أم بجزيرة فانكوفير يمكن بالفعل ان تشبه **بالصفر** وبكلام آخر ان الملكية

(*) لم يكن معروفا بعد أن المشاعة الزراعية الروسية لا تملك شيئا مشتركا مع الشيوعية البدائية. ان المسألة قد حسمت في الوقت الحاضر [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

الخاصة سوف تضمحل فيها وهي في المهد بعد انه من الواجب في سبيل ذلك اللجوء الى الاحصاء ، واعتبار تطور البلاد او القبيلة موضع البحث وكذلك المؤثرات المطبقة عليهما ، والعمل على **الجنس** ، بله على **التنوع** لا على **النوع** ، ليس على الملكية العقارية الجماعية للبدائيين عامة ، بل على المشاعة الزراعية الروسية أو الصربية او الزيلاندية الجديدة على وجه الخصوص مع اعتبار المؤثرات المنافية او المواتية من جهة واحدة والحالة التي توصلت اليها في الوقت الراهن المشاعة المذكورة من جراء تلك المؤثرات من جهة ثانية

ان هذا النوع من الابحاث لا يحظى حتى بمجرد التلميح في **نقد المستبقات الفلسفية ضد الملكية المشاعية للارض** حيث لا يهاجم تشيرنيشيفسكي الا « خبثاء الفلسفة » وفي الحالات التي لم يكن له بد فيها من مناقشة « خبثاء الاقتصاد » ، وتدمير المستبقات « الناجمة عن عدم الفهم والنسيان ، او الجهل بالحقائق **العامة** المتعلقة بنشاط الانسان المادي ، الانتاج ، والعمل ، وقوانين العمل العامة » ، في هذه الحالات ايضا لا يتحدث الا عن ميزات الملكية الجماعية للارض عامة ، ومن هنا كانت أيضا صيغ جبرية خالصة ، اقتصاد في نظريات*

وفيما عدا ذلك ، فاننا لا يمكن أن نعجب لذلك من جانبه ان ناقد ستوارت مل ما كان يمكن ان يأخذ بعين الاعتبار الا المشاعة ما قبل اصلاح عام ١٩٦١ تلك المشاعة التي لم تكن قد خرجت بعد من شروط الاقتصاد الطبيعي والتي كان التأثير المسوي للحق الاقطاعي يرد جميع تنوعاتها الى مخرج مشترك ومن المؤكد أن هذا التأثير لم يكن يلغي التناقضات الاقتصادية الخاصة بالمشاعة الزراعية ، لكنه كان يبقيها في حالة الكمون ، مرجعا بذلك دورها العملي الى حد أدنى قريب من الصفر وهكذا فقد كان في مقدور تشيرنيشيفسكي أن يكتفي بتقرير أن كتلة الشعب حتى الوقت الحاضر أن الارض ملك مشاع أو أن كل روسي يملك في وقت واحد أرضه الام والحق في قطعة من هذه الارض ، فاذا هو تخلى عن هذه القطعة ، أو فقدها فان أولاده يحتفظون ، بوصفهم أعضاء في المشاعة ، بحق المطالبة بها لانفسهم ومع ادراكه كل الادراك أن التحرير سوف يضع الاقنان في شروط اقتصادية جديدة بصورة مطلقة ، وأن « روسيا ، التي اسهمت قليلا جداً حتى الوقت الحاضر في الحركة الاقتصادية ، تنجر معها سريعا ، بحيث أن نمط حياتنا ، الذي ظل حتى اليوم غريبا على وجه التقريب عن تأثيرات القوانين الاقتصادية التي لا تكشف عن فضائلها الا مع تقدم النشاط الاقتصادي والتجاري ، سوف يخضع لها عاجلا ، وأننا « نحن ايضا ، ربما عاجلا ، سوف نجد أنفسنا منجرفين في مجال

(*) انظر مقالتي عن تشيرنيشيفسكي في العدد الاول من **الاشتراكي الديموقراطي** جنيف ١٨٩٠ [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

الفعل التام لقانون المزاحمة فانه لم يكن معنيا الا بالحفاظ على شكل الملكية العقارية الذي سوف يتيح للفلاحين الانخراط في الحياة الاقتصادية الجديدة في ظل الشروط الاكثر ملاءمة

لقد كتب يقول في نيسان من عام ١٨٥٧

« مهما تكن التحولات التي تنتظر روسيا ، فاننا لن نفكر في المساس بعبادة مقدسة وخلاصية ورثناها عن ماض افتدي يؤسه بفائدة ربوية بهذا الارث الثمين ؛ اننا لن نفكر في الاعتداء على الاستخدام المشاعي للارض ، على هذه الحسنة التي يتوقف عليها اليوم رخاء المزارعين في أوروبا الغربية ألا فليكن مثالهم درسا لنا .»

اننا لا نريد هنا ان نحلل سائر أفكار تشيرنيشيفسكي عن الملكية المشاعيةللارض، بل كل ما نرومه الاشارة الى صفاتها الاكثر تمييزا ولذا فلنقل فقط ، دون الدخول في تفاصيل خارجة عن الموضوع ، أن الحسنات التي كان يتوقعها من الملكية المشاعية للارض يمكن ان ترتد الى نقطتين اساسيتين ، تنتسب احداهما الى مجال الحق ، وتنتسب الاخرى الى مجال التقنية الزراعية

١ – انه يقول ، مستأنفا صيغة هاكسهاوزن ان النظام المشاعي الروسي بالغ الاهمية بالنسبة الى روسيا من حيث هي دولة ، وعلى الاخص في اليوم الراهن. ان جميع بلدان اوروبا الغربية تعاني من المرض نفسه ، الذي يظل شفاؤه قضية مستعصية* انها تعاني من الاملاق ، من التحول البروليتاري ولا تعرف روسيا هذا الداء الوبيل ، فهي ممنعة ضده بفضل نظامها المشاعي ان كل روسي يملك في وقت واحد ارضه الام والحق في قطعة من هذه الأرض فاذا هو تخلى عن هذه القطعة ، أو فقدها ، فان أولاده يحتفظون ، بوصفهم أعضاء في المشاعة ، بحق المطالبة بها لأنفسهم** »

٢ – بعد ان يصف تشيرنيشيفسكي ، نقلا عن هاكسهاوزن دائما ، عادات قوازق الاورال « الذين ليست اراضيهم الا مشاعة واحدة ، سواء من وجهة النظر الاقتصادية أو العسكرية والحقوقية » ، فانه يلاحظ « اذا ما احتفظ الاوراليون بنظامهم الحالي حتى العصر الذي سوف تستخدم فيه الآلات في زراعة الحقول فسوف يهنئون أنفسهم اذن لاحتفاظهم بنظام يتيح استخدام تجهيزات آلية تتطلب ملكيات واسعة تبلغ مئات عديدة من الهكتارات » وعلى أي حال ، فانه لا يعنى ، كما يشير الى ذلك بصورة عابرة ، الا على سبيل المثال بما « سوف يفكر فيه قوزاق

(*) التشديد من قبلي.

(**) تشيرنيشيفسكي في الملكية المشاعة للارض ، ص ١٣٥ المؤلفات ، المجلد الخامس ، جنيف ١٨٧٩ .

الاورال في مستقبل ليس من المعروف بعد متى سوف يتحقق (بالرغم من أن تقدم الماكينية والتقنيات يبين بصورة لا تقبل الشك أن هذا المشتقبل آت بكل تأكيد) ان القرون الآتية لا تعنينا فمن المؤكد أن أحفاد أحفادنا سوف يعرفون كيف يتدبرون أمورهم بعقولهم الخاصة ، دون أن نضطر نحن للقلق على ذلك يكفينا أن نهتم بأنفسنا وبذريتنا المباشرة »(١٩)

ان كل من قرأ تشيرنيشيفسكي يعرف أن مثل هذه التحفظات لا تمنعه مطلقا من « الاهتمام » بالمستقبل بقوة ان أحد أحلام فيرا بافلوفنا في **ما العمل** ؟ يبين لنا بكل وضوح بأي شكل يتصور الروائي مجتمع « القرون الآتية وان نشاط بطلته العملي يجعلنا نميز الوسائل التي يمكن بها ، في رأيه ، تقريب هذا الزمان السعيد ولذا فانه سيكون ثمة موضع للعجب لو أن المؤلف لم يربط مطلقا بين شكل الملكية الفلاحية الذي كان عزيزا عليه وبين مثله الاعلى عن مستقبل ربما يكون بعيدا ، لكنه مبتغى بكل تأكيد ، والاكثر من ذلك ايضا لا محيد عنه وبالفعل ، فانه يعود اكثر من مرة الى هذا الموضوع في مقالاته عن الملكية المشاعية للارض حيث يتأمل في تأثير هذا الشكل للملكية في خلق الفلاحين وعاداتهم واننا لندرك انه ليس من الراي القائل ان « المشاعة تقتل الطاقة » ان هذه الفكرة « تجد تكذيبها الجازم في جميع حقائق التاريخ وعلم النفس التي نعرفها ان هذه الحقائق تبرهن على النقيض من ذلك على أن « الذكاء والأرادة الانسانيين يتقويان في المشاركة » ومهما يكن من شيء ، فان التفوق الاساسي للملكية المشاعية للارض يكمن في انها تغذي وتنمي روح المشاركة الذي لا يمكن بدونه تصور الاقتصاد العقلاني للمستقبل

« ان ادخال أوضاع أفضل يتعقد حتى الدرجة القصوى في أوروبا من جراء الامتداد الذي اتخذته حقوق الفرد انه لمن العسير التخلي حتى عن جزء زهيد مما اعتاد المرء على الانتفاع به ؛ وفي الغرب أخذ الفرد من قبل عادة الحقوق غير المحدودة ان التجربة المريرة والتفكير الطويل يستطيعان وحدهما أن يلقنا هناك فائدة التنازلات المتبادلة وضرورتها ان تحسين العلاقات الاقتصادية سوف يتطلب في الغرب تضحيات ، ولذا فانه سوف يكون من الصعب جدا اجراؤه انه يتعارض مع عادات القروي الانكليزي والفرنسي على حد سواء لكن ما يترك فعل الوهم في بلد ما هو واقع في بلد آخر ؛... ان العادات التي يبدو ادخالها في الحياة الشعبية في نظر الفرنسي والانكليزي عسيرا بصورة لا تقهر قائمة عند الروسي بوصفها أحد معطيات حياته الشعبية ان نظام الاشياء الذي يتقدم نحوه الغرب اليوم بطريق طويلة وشاقة لايبرح موجودا بعد عندنا في عادة شعبية قوية لحياتنا الريفية اننا نرى اية آثار محزنة ولدها في الغرب

زوال الملكية العقارية المشاعة ، وكم سيكون من الصعب أن يرد الى شعوب الغرب الخير الذي فقدته ان مثال الغرب يجب أن يقدم الينا خدمة ما »*

هكذا كان تشيرنيشيفسكي يتصور دور الملكية المشاعية للارض في حاضر الاقتصاد الروسي ومستقبله ، وعلى الرغم من احترامنا لمثل هذا الكاتب العظيم ، فاننا لا نستطيع الامتناع عن رؤية بعض الانحراف وشيء من الضيق عنده هكذا على سبيل المثال لايمكن مطلقا « لشفاء » أوروبا الغربية من قرحة البروليتاريا أن يعتبر « قضية مستعصية » حوالي عام ١٨٨٠ ، بعد سنين عديدة من صدور بيان الحزب الشيوعي ، وبؤس الفلسفة . وأوضاع الطبقات الكادحة في انكلترا.

ان ما بينه كارل ماركس وفريدريك انجلز بكمال ومنطق بياني لا يبرحان نموذجين يحتذيان لا يقتصر على اسلوب « شفاء » « المرض » الذي كان يخشاه تشيرنيشيفسكي كثيرا ، بل يتناول دوره التاريخي أيضا والظاهر حتى درجة كبيرة أن الاقتصادي الروسي لا يعرف هذه المؤلفات ؛ ومن المؤكد أن الطوباويات الأشتراكية للمرحلة السابقة قد تركت كثيرا من المسائل النظرية والعملية دون أدنى حل مرض ان الثغرة الاساسية في المفاهيم الطوباوية تعود الى أن هؤلاء المفكرين ما كانوا يرون من « جانب البروليتاريا أية عفوية تاريخية أو أية حركة سياسية خاصة بها » ، وما كانوا يتخذون بعد وجهة نظر النضال الطبقي ، وأن البروليتاريا لم يكن لها وجود بالنسبة لهم الا بوصفها الطبقة الاتعس »** واما استعاضوا بمهارتهم الخاصة في الابتداع عن تنظيم البروليتاريا التدريجي العفوي في طبقة ، وهم في الوقت نفسه أصحاب آراء مختلفة فيما يتعلق بأسس وطابع هذا التنظيم الخاص بالمستقبل ، فقد انتهوا بقرائهم الروس الى التفكير بأن أفضل العقول في الغرب لم تتوصل بعد مطلقا الى التملص من المسألة الاجتماعية . وفيما عدا ذلك ، فان مستقبل العالم يتقرر بالنسبة اليهم « بالدعاية لبرامجهم ومشاريعهم عن المجتمع وتطبيقها ، ولذا ما كان في مقدورهم أن يرضوا بمذاهبهم مفكرا نقدنا مثل تشيرنيشيفسكي وهكذا اضطر هذا الاخير أن يفتش بوسائله الخاصة عن« الشروط التاريخية » الفعلية لتحرر الطبقة العاملة في أوروبا الغربية ، واعتقد انه وجدها في الملكية المشاعية للارض وانا لنعرف من قبل أن « رخاء المزارعين يتوقف اليوم » هناك على اكتساب هذه الحسنة بيد أنه من الواضح بالنسبة الى جميع الاشتراكيين، أو جميعهم على وجه التقريب ، مهما تكن الطريقة التي يرى بها الى الدور التاريخي للمشاعة الروسية ، أن هذا الدور قد انتهى بصورة لا عودة عنها في الغرب ، وأن طريق الاشتراكية بالنسبة الى شعوب الغرب تمر بالمشاعة والملكية الخاصة ، وليس

(*) المؤلفات ، المجلد الخامس ، ص ١٦-١٩

(**) بيان الحزب الشيوعي ، ص ٨٧ - ٨٨ [٢٤] .

البتة على العكس من ذلك بالملكية الخاصة والمشـاعة وانه ليتـراءى لي أن تشيرنيشيفسكي لو انصرف بصورة افضل الى فهم « الطريق الطويلة الشاقة » التي يسلكها الغرب من أجل تحسين « نظام الاشياء الاقتصادي » ، ولو أنه حدد فضلا عن ذلك الشروط الاقتصادية لهذا التحسين ، فقد كان يتبين اذن أولا أن « الغرب » يتجه الى تحويل وسائط الانتاج الى ملكية وطنية وليس مشاعية البتة ، وكان يفهم ثانيا أن قرحة البروليتاريا » تفرز دواءها بنفسها ولقد كان يقـدر اذن دور البروليتاريا التاريخي ، الامر الذي كان يتيح له أن يحقق رؤية أعرض للدور الاجتماعي والسياسي للمشاعة الروسية

لنوضح مقصدنا

من المعروف أن كل شكل اجتماعي يمكن أن يؤخذ بعين الأعتبار من وجهات نظر شديدة الاختلاف ان في الامكان أخذه بعين الاعتبار من وجهة نظر الامتيازات التي يجلبها لجيل ما ؛ وانه لفي الامكان ايضا عدم الاكتفاء بهذه الامتيازات والاهتمام بقدرته على الانتقال الى الشكل الاعلى ، الاكثر ملاءمة لرخاء البشر ، لتقدمهم الفكري والخلقي ؛ وانه لفي الامكان أخيرا تمييز مظهرين في هذه القدرة على الانتقال : المظهر الواحد منفعل ، **انعدام العائق في سبيل الانتقال** ، والمظهر الآخر فاعل ، حضور قوة باطنة ليست **قادرة** فحسب على تحقيق هذا الانتقال ، بل هي تسببه على اعتباره نتيجة ضرورية لوجوده وفي الحالة الاولى يؤخذ الشكل الاجتماعي موضع البحث بعين الاعتبار من وجهة نظر **المقاومة** التي تجابه التقدم من الخارج وفي الحالة الثانية من وجهة نظر **العمل النافع للتاريخ** .

وبالنسبة الى فلسفة التاريخ كما بالنسبة الى العمل الثوري ، فان الاشكال الهامة الوحيدة هي تلك الاشكال القمينة بزيادة هذه الكمية من العمل النافع أو انقاصها ان كل درجة من تطور الأنسانية التاريخي تحمل أهمية بقدر ما تعد المجتمعات التي بلغتها انطلاقا من ذاتها ، بفعلها الخاص ، قوة قادرة على تدمير الاشكال الاجتماعية القديمة كيما تبني مجتمعا أفضل على أنقاضها . وبصورة عامة ، فان مقدار الحواجز التي تكبح الانتقال الى الشكل الاعلى تابع لعظم تلك القوة طالما أن هذه القوة تنجم عن تفسخ الاشكال القديمة للحياة المشتركة وبقدر ما تكون عملية التفسخ عنيفة يعظم مقدار القوة التي تحررها ، بينما يتضاءل استمرار الشكل الاجتماعي البالي . وبعبارات أخرى فان مايهم المؤرخ والثوري على حد سواء ليس هو السكون بل الحركية ، ليس المظهر المحافظ بل المظهر الثوري ، ليس تناسق العلاقات الاجتماعية بل تناقضاتها ، ذلك أن روح هذه التناقضات هو الذي

Stets das Bôse wibb und stets des Gate schafft *

(*) [يريد الشر دائما ويصنع الخير أبدا غوته ، **فاوست**] .

هكذا كان الامر حتى يومنا الحاضر ، ويجب الاّ يكون كذلك بصورة دائمة ان مغزى الثورة الاشتراكية يستقيم بالضبط في الغاء هذا القانون الفولاذي الذي ينص على ان التناقضات الاجتماعية لاتحصل قط الا على حلول مؤقتة تصبح بدورها مصادر لاضطرابات جديدة وتناقضات حديثة بيد أن تحقيق هذا الانقلاب ، الأعظم بين جميع الانقلابات ، تحقيق هذه الثورة التي يجب أن تجعل أخيراً البشر « أسياد علاقاتهم الاجتماعية » ، ليس في الامكان تصورها دون « حضور قوة تاريخية ضرورية وكافية مولودة من تناقضات النظام البورجوازي الراهن وفي البلدان الاكثر تقدما من العالم المتحضر المعاصر ليست هذه القوة « حضورا فحسب » ، بل هي تنمو ساعة فساعة ، دقيقة فدقيقة في هذه البلدان يشكل التاريخ حليف الاشتراكيين ويقترب بهم بسرعة متعاظمة باستمرار من الاغراض التي وضعوها نصب عيونهم وهكذا فاننا سوف نرى مرة أخرى ، ولنترج أن تكون المرة الاخيرة ، الحلو يخرج من المر ، سوف نرى انه لابد للتاريخ كي ينجز عملا » صالحا ، أن يظهر ارادة » رديئة اذا جاز لي التعبير ان اقتصاد البلدان البورجوازية ، « غير الطبيعي والظالم كليا على صعيد التوزيع ، يثبت انه «طبيعي» حتى درجة أعظم كثيرا في ميدان تطور قوى الانتاج و طبيعي اكثر من ذلك أيضا في ميدان انتاج الكائنات التي تريد والتي تستطيع أن « تقيم ملكوت السموات على الارض » كما قال الشاعر * ان البورجوازية «لم تصنع فحسب الاسلحة التي سوف تقضي عليها» ، وبعبارات اخرى لم تقد فحسب القوى الانتاجية للبلدان الاكثر تقدما حتى نقطة من التطور حيث لن يكون في مقدورها بعدها أن تتطابق مع النمط الرأسمالي في الانتاج ، بل أخرجت ايضا البشر الذين سيستعملون هذه الأسلحة ، الا وهم العمال العصريون ، أو البروليتاريون » **

وانه ليترتب على ذلك انه من الواجب ، في سبيل تقدير كل الاهمية السياسية التي يتحلى بها شكل اجتماعي ما ، الا يؤخذ بعين الاعتبار ما يمكن فقط أن يجلبه من امتيازات اقتصادية الى جيل او عدة اجيال أو أيضا قابليته المنفعلة للتكامل تحت تأثير قوة خارجية محسنة ، بل بصورة أساسية قابليته الباطنة للتطور بصورة مستقلة ذاتيا في الاتجاه المرجو ان تحليل العلاقات الاجتماعية سوف يبقى ، دون هذه الدراسة لجميع المظاهر ، ناقصا ابدا ، وبالتالي مغلوطا ان شكلا اجتماعيا ما يمكن أن يتبين أنه عقلاني تماما من احدى وجهات النظر هذه وغير مرض على الاطلاق من وجهة نظر أخرى وان هذا الواقع سوف يتكرر كلما واجهنا سكانا قليلي التطور ، شعبا لم يصبح بعد « سيد علاقاته الأجتماعية » ان الطابع الثوري

(*) [هايني]

(**) [بيان الحزب الشيوعي ، ص ٤٠]

موضوعيا لهذه العلاقات يستطيع وحده أن يجر الرعايا المتخلفين على طريق التقدم
واذا لم تصادف هذه الصفة في شكل الحياة المشتركة الذي يعنينا ، واذا كان هذا
الشكل يتميز في الوقت نفسه بجمود شديد ، بانعدام الطموح الى التكامل في المنحى
المراد ، وان يكن يتصف بقدر أكبر او أقل من الانصاف على صعيد الحق وتوزيع
المنتجات فانه لابد للمصلح الاجتماعي اذن ان يقول وداعا لمشاريعه والا فانه
لابد له ان يستنجد بقوى أخرى ، بقوة خارجية قادرة على تلافي نقص الفعالية الباطنة
للمجتمع موضع البحث وعلى اصلاح هذا المجتمع ان لم يكن ضد ارادة أعضائه
فعلى الاقل دون مساعدتهم الفعالة والشعورية

ولنعد الى تشيرنيشيفسكي الذي يبدو أنه عمي عن الدور الثوري للاملاق ،
هذا « الـداء » الخاص باوروبا الغربية . أما ان هاكسهاوزن ، الذي كثيرا ما يرد
اسمه في مقالاته عن الملكية المشاعية للارض ، لم يشاهد الا الجانب السلبي من عملية
« التحويل البروليتاري المقلق » ، فلا مجال للعجب هنا : فمع الأفكار السياسية لهذا
المؤلف لا يمكن لدور البروليتاريا الثوري في تاريخ المجتمعات الاوروبية في الغرب أن
يعد في حال من الاحوال بين الجوانب الايجابية والحسنة « للقرحة » موضع البحث ؛
واننا اذن لنفهم انصرافه الى وصف المؤسسات القمينة بمنع « التحويل البروليتاري».
لكن أفكارا مفهومة ومنطقية تماما في مؤلفات أحد الكتاب تبعث غالبا على الحيرة
عندما تصادف في مقالات كاتب آخر وهكذا فاننا نعترف أننا لا ندرك المعنى الذي
يجب أن نجده لهذا الحكم الذي يصدره تشيرنيشيفسكي على هاكسهاوزن : « لقد
تنبأ هو الرجل العملي،بصورة مضبوطة جدا عام ١٨٤٧ بقرب الانفجار البروليتاري
الرهيب في أوروبا الغربية ؛ واننا لنستطيع فقط أن نوافقه على نعمة مبدأ الملكية
المشاعية للارض الذي حمانا من القرحة الرهيبة للتحويل البروليتاري الريفي »*
وبالفعل فان المسألة التي تطرح هنا ليست مسألة آلام البروليتاريا الاقتصادية (التي
لا تقل عنها آلام الفلاح الروسي مطلقا على أي حال) ، ولا أيضا مسألة العادات
الاجتماعية للفلاح الروسي (التي يمكن للعامل الغربي أن يقاربها حتى درجة كبيرة ،
هو الذي اعتاد كثيرا على العمل بصورة مشتركة وعلى الرابطات من مختلف الانواع).
ان ما هو موضع البحث هنا هو « الانفجار البروليتاري الرهيب » ، وتشيرنيشيفسكي
لايبرح حتى من وجهة النظر هذه يجد مبدأ الملكية الجماعية « ناجعا » ، هذا المبدأ
الذي حمانا من القرحة الرهيبة للتحول البروليتاري ولا يمكن للمرء أن يقبل
بأن أبا الاشتراكية الروسية قد أظهر حيال الحركات السياسية للطبقة العاملة مثل
الهلع الذي اعترى البارون فون هاكسهاوزن حيالها ، كما لا يمكن أن يعتقد أن حقيقة
ثورة تقوم هذه البروليتاريا بها يمكن أن تخيفه. ولذا فانه من الواجب الافتراض بأن

(*) المؤلفات ، المجلد الخامس ، ص

ما أثار انفعاله هو هزيمة الطبقة العاملة عام ١٨٤٨ ،وان تعاطفه مع الحركات السياسيه لهذه الطبقة قد تسمم بفكرة ان الثورات السياسية عديمة الجدوى وان النظام البورجوازي عقيم وان حقيقة هذا التفسير ، أو احتماله على الاقل ليتأكد فيما يبدو لدى قراءة **صراع الاحزاب في فرنسا في ظل حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر** وبصورة خاصة صفحات هذا المقال(٢٠) حيث يفسر الكاتب الفارق بين المطامح الديموقراطية والمطامح الليبرالية فيقول

ان الاماني الاساسية ، الحوافز الجوهرية تخلف كل الاختلاف عند الليبراليين وعند الديموقراطيين ان الديموقراطيين يستهدفون يدمروا أمكن سيادة الطبقات العليا على الطبقات الدنيا في الدولة ، أن ينقصوا من جهة واحدة قوة الشرائح العليا وثروتها وان يعطوا من جهة ثانية مزيدا من الثقل والرضا للشرائح الدنيا.واما الطريقة التي ينبغي وفقا لها تعديل القوانين لهذا الغرض والمحافظة على بنية المجتمع الجديدة ، **فالامر لايهمهم أو يكاد لايهمهم*** أما الليبراليون ، على النقيض من ذلك، فانهم لن يقبلوا قط باعطاء التفوق الى الشرائح الدنيا لان هذه الشرائح ، من جراء انعدام الثقافة والعوز المادي هي **لامبالية** حيال المصالح التي يضعها الحزب الليبرالي فوق كل شيء آخر ، وعلى الاخص **حيال مبدأ حرية الكلام وحيال النظام الدستوري. ان الديموقراطي يرى أن سيبريا عندنا ، حيث يعيش الشعب الصغير في الرخاء ، تتفوق كثيرا على انكلترا ، حيث تعاني غالبية الشعب من بؤس عظيم** ومن بين جميع المؤسسات السياسية ، **ليس سوى مؤسسة واحدة يعاديها الديموقراطي بصورة عضالة** تلك هي الارستقراطية ويعتبر الليبرالي بصورة دائمة على وجه التقريب انه لابد للمجتمع من درجة معينة من الارستقراطية في سبيل التوصل الى النظام الليبرالي. ولذا فان الليبراليين يضمرون حقدا قاتلا حيال الديموقراطيين الليبرالية تفهم الحرية بمعنى ضيق وصوري خالص ان هذه الحرية تستقيم بالنسبة اليها في حق مجرد، في تفويض على الورق انعدام الحظر القانوني انها ترفض أن تفهم أن التفويض القانوني لا قيمة له بالنسبة الى الانسان الا حين يملك هذا الانسان الوسائط المادية أجل الانتفاع بذلك التفويض أحدا لايمنعنا لا أنت أيها القارىء ، ولا أنا ، أن نأكل في صحف ذهبية ؛ ومن سوء الحظ منا ، أنت وأنا لن نحصل قط من دون ريب على وسائل الانتفاع بهذا الترف ولذا فاني أعلن بصراحة أني أسخر من هذه

(**) ان التشديد كله من قبلي

الحق في امتلاك الصحف الذهبية ، واني على استعداد تام لان أبيعه لقاء روبل فضي، بل بسعر أدنى من ذلك ايضا وان هذا الامر لينطبق بالضبط ، بالنسبة الى الشعب، على جميع الحقوق التي تهم الليبراليين الشعب جاهل أفراده في جميع البندان على وجه التقريب أميون كيف له أن يتمسك بمبدأ حرية الكلام ، هو الذي لايملك مالا من أجل الحصول على التعليم ، ولايملك مالا من أجل تعليم أولاده ؟ ان الفقر والجهل يحرمانه من كل امكانية من أجل فهم شؤون الدولة ومن أجل الاهتمام بها ؛ أخبرني ، هل سيتمسك بمبادىء المناقشات البرلمانية وهل يمكنه الانتفاع بها ؟... ليس في اوروبا بلد واحد ليست العالبية الساحقة من الشعب فيه لامبالية بصورة مطلقة حيال الحقوق التي تشكل موضوع أماني الليبرالية واهتماماتها ولذا فان الليبرالية محكوم عليها بالعجز في كل مكان ان المرء ليستطيع أن يتحدث باسهاب ماشاء له ؛ ان المطامح القوية الوحيدة والمؤسسات الوطيدة الوحيدة هي تلك التي تسندها كتلة الشعب*

وبعد أقل من عشر سنوات على نشر هذا المقال أعلنت البروليتاريا الاوروبية بلسان ممثليها الاكثر تقدما انها ترى وسيلة بلوغ غرضها الاقتصادي في الحركة السياسية ، وان التحرر الاجتماعي للطبقة العاملة لا يتصور دون تحررها السياسي». ولقد اعترفت رابطة الشغيلة الاممية بضرورة التوسع المستمر للحقوق السياسية للطبقة العاملة ، وكذلك الاستيلاء النهائي من قبل هذه الطبقة على السيادة السياسية وانا لنقرأ في بيانها الاول ان « الاستيلاء على السلطة السياسية قد أصبح اذن الواجب الاول للطبقة العاملة »(٢١) وانه لمن المفروغ منه أن العامل الانكليزي أقدر على ممارسة السلطة السياسية من الشعب الصغير لسيبريا ، وانه باستثناء البرودونيين فليس انسان يمس بعد عام ١٨٦٤ أن يضع سيبريا « فوق انكلترا وفي الفترة التي كتب تشيرفينشيفسكي هذا المقال فيها ، يعني في عام ١٨٥٨ ، كان يمكن ان يلاحظ في الشعب « الجاهل والامي في قرابة جميع بلدان » اوروبا الغربية وجود عنصر — هو البروليتاريا دائما — اذا هو لم ينتفع من مبدأ حرية الكلام ومن مبدأ المناقشات البرلمانية » ، فان حافزه الى ذلك لم تكن اللامبالاة قط ، بل كان السبب الوحيد في ذلك أن الرجعية التي سيطرت على أوروبا منذ عام ١٨٤٨ كان همها الاول أن تنتزع من الشعب الاستمتاع بهذه « الحقوق المجردة واما هزم على العموم على طول الخط ، وارهق من جراء ضربات الرجعية ، وخذل من قبل الحلفاء الراديكاليين و « الديموقراطيين الذين أتوه من

(*) نضال الاحزاب في فرنسا في ظل حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، « المكتبة الاشتراكية — الديموقراطية الروسية » ، الملزمة الثالثة ، ص ٥ — ٨

الاحزاب البورجوازية الصغيرة فقد غرق في الحقيقة في نوع من السبات المؤقت ولم يبال بالمسائل الاجتماعية الا قليلا بيد انه لم يكف لحظة ، بقدر ماكان يبالي بتلك المسائل ، عن ادراك ان الوسيلة الاضمن من أجل تحرره هي في كسب الحقوق السياسية وفي استخدام هذه الحقوق بصورة عقلانية وحتى في الشيع الاشتراكية التي كانت لامبالية بالسياسة حتى ذلك الحين جعل اهتمام كبير بهذه السياسة يرتسم عندها بعد عام ١٨٥٠ ومثال ذلك أن انصار فوريه في فرنسا يقتربون من ريتنفهاوسن ويبشرون بقدر كبير من القوة بمبدأ التشريع المباشر من قبل الشعب وأما بالنسبة الى المانيا ، فان أيا من « الديموقراطي » جوهان جاكوبي ، اوتلامذته ، او الشيوعيين من مدرسة ماركس وانجلز،ماكان يمكن ان يقول انه «لايهتم» بالطريقة التي سيجري بها تعديل القوانين بفرض انقاص قوة وثروة الشرائح العليا وضمان الرخاء للشرائح الدنيا لقد كان لديهم برنامج سياسي محدد تماما ، ولم يكن هذا البرنامج عدائيا بصورة فعالة حيال الارستقراطية وحدها

ومن المؤكد ان طبقة الفلاحين في أوروبا الغربية قد ظلت على الاغلب عديمة المبالاة حيال جميع هذه « الحقوق المجردة ، ولعلها كانت تفضل احيانا النظام السيبري على النظام الانكليزي بيد ان الديموقراطيين الحقيقيين ، اولئك الذين ليسوا بدموقراطيين بورجوازيين ، بل ديموقراطيين اشتراكيين ، لا يلتفتون نحو طبقة الفلاحين انهم يلتفتون صوب البروليتاريا وان الفلاح في اوروبا الغربية ، من حيث هو بروليتاري ، ينتسب بالنسبة اليهم الى « الطبقات المتوسطة » من السكان ، الطبقات التي ليست ثورية الا « من وجهة نظر انتقالها الوشيك الى صفوف البروليتاريا فهي بذلك لا تدافع عن مصالحها الحاضرة ، بل عن مصالحها الآتية ؛ وهي تتخلى عن وجهة نظرها الخاصة لتعتنق وجهة النظر الخاصة بالبروليتاريا»*

ان التمييز أساسي ان « ديموقراطيي أوروبا الغربية لم يخرجوا من ميدان الميتافيزياء السياسية الا يوم تعلموا أن يحللوا مفهوم الشعب » وان يميزوا فيه العناأر الثورية من العناصر المحافظة

لقد كان على تشيرنيشيفسكي أن ينطلق من وجهة النظر هذه ، من وجهةالنظر الاحتماعية والسياسية ، كي يدرس بتعمق مسألة الملكية المشاعية للارض ، ولقد كان عليه أن يبين أن هذا الشكل من الملكية العقارية ليس قمينا فحسب بحمايتنا من

قرحة التحول البروليتاري ، ولا يقدم فحسب عددا كبيرا من الجوانب الملائمة لتطور التقنية الزراعية (يعني زراعة المساحات الكبرى من الاراضي بواسطةالآلات)، بل هو قمين بأن يعطي مولدا في روسيا لمجموعة من السكان لا تقل تقبلا ومرونة وحمية وثورية عن البروليتاريا الغربية لكنه ارتبك من وجهة النظر هذه من جراء الفكرة التي كونها عن « الشعب » في « قرابة جميع بلدان » الفرب ، هذه الفكرة عن

كتلة «جاهلة» ، وفي معظم الاحوال «امية» ، لا مبالية بالحقوق السياسية «المجردة». ولما كانت تعوزه النظرة المتنوعة بقدر كاف ، فان دور البروليتاريا السياسي في اوروبا الغربية ما كان يمكن أن يوفر له نقطة للمقارنة الصالحة من أجل المستقبل السياسي للجماعية الفلاحية الروسية ان المرء لا يمكن أن يتوقف عند الانفعالية واللامبالاة السياسية لدى الفلاح الروسي حين لا ينتظر كذلك اي نشاط سياسي ملحوظ من جانب الطبقة العاملة في الغرب . وهذا هو احد الاسباب التي جعلت تشيرنيشيفسكي، في دراسته للملكية المتساعية للارض ، يقتصر على اعتبارات لاتخرج مطلقا عن ميدان الحق ، وتوزيع المنتجات ، وعلم الزراعة ، دون ان يطرح على نفسه مسألة التأثير السياسي للمشاعة في الدولة والعكس بالعكس

ان المسألة لم توضح ، وبالتالي لم توضح كذلك مسألة وسائل الانتقال من **الملكية** المشاعية للارض الى **الزراعة** المشاعية للارض ، ولا الى انتصار الاشتراكية الحاسم الذي هو الشيء الجوهري كيف سوف تتحول المشاعة الزراعية الحالية الى جماعية شيوعية ، أو تذوب في دولة شيوعية ؟ وكيف يمكن للانتليجنتزيا الثورية أن تسهم في ذلك ؟ « ما العمل » من وجهة نظر هذه الانتليجنتزيا ؟ الدفاع عن الملكية المشاعية للارض ، والقيام بالدعاية الشيوعية ، وتأسيس تعاونيات للانتاج من نمط مشاغل الخياطة لفيرا بافلوفنا ، مع الامل بأن تفهم هذه المشاغل مع الزمن ، مثلها مثل المشاعات الزراعية تماما ، ميزات النظام الاشتراكي وتنصرف الى تحقيقه ؟ فلنقبل بذلك لكن الدرب طويلة ؛ أيمكن أن نضمن أن تكون مستقيمة ومستوية، وانه لن يصادف عليها مطلقا عقبات غيرمتوقعة وانعطافات مفاجئة؟ واذا قمعت الحكومة الدعاية الاشتراكية،اذا حظرت التعاونيات ، اذا وضعت أعضاءها تحت رقابة الشرطة، واذا ارسلتهم الى المنفى ؟ أيجب ان يناضل ضد الحكومة ، وان تنتزع حرية الكلام، والاجتماع ، وتشكيل الرابطات ؟ لكنه لابد اذن من الاعتراف بأن سيبريا لا تتفوق على انكلترا وبأن « الحقوق المجردة » التي « يطلبها الليبراليون » تشكل شرطا ضروريا من أجل تقدم الشعب لابد بكلمة مختصرة من الانخراط في النضال السياسي أيمكن على أي حال الاعتماد على نهاية ملائمة له ؟ أيمكن انتزاع بعض الحريات السياسية الثابتة حتى درجة ما ؟ لقد قال تشيرنيشيفسكي لنا ذلك « ان المرء يستطيع أن يتحدث باسهاب ما حلا له ؛ ان المطامح القوية الوحيدة ، والمؤسسات الوطيدة الوحيدة هي تلك التي تسندها كتلة الشعب » ؛ وان هذه الكتلة، في روسيا على الاقل ، لا تبالي مطلقا « بمبدأ حرية الكلام » ، ولا تفهم شيئا على الاطلاق من مبدأ « المناقشات البرلمانية » واذا كانت الليبرالية ، من جراء ذلك بالضبط ، « محكوم عليها بالعجز » فأين سيجد الاشتراكيون اذن العناصر من أجل النضال في سبيل « الحقوق التي تشكل موضوع أماني الليبرالية واهتماماتها » ؟ كيف الخروج

من هذه الصعوبة ؟ أيكون ذلك بتسجيل مطالب بالاصلاحات الاقتصادية الحسية الى جانب « الحقوق المجردة » للحرية السياسية في البرامج ؟ ان من الواجب اذن تعريف الشعب بهذا البرنامج ، يعني اللجوء مرة أخرى الى الدعاية لكن حين نلجأ اليها سوف نصطدم مرة أخرى بالقمع الحكومي ، والقمع الحكومي سوف يلزمنا ، هذه المرة ايضا بالانخراط في نضال سياسي لا أمل فيه من جراء اللامبالاة الشعبية ، الخ ، الخ

ومهما يكن من أمر فانه من المرجح جدا انه « اذا ما احتفظ الاوراليون بنظامهم الحالي حتى العصر الذي سوف تستخدم فيه الآلات في زراعة الحقول فسوف يهنئون انفسهم اذن لاحتفاظهم بنظام يتيح استخدام تجهيزات آلية تتطلب ملكيات واسعة تبلغ مئات عديدة من الهكتارات » وانه لمن المرجح جدا كذلك أن الرابطات الفلاحية التي ستكون قد احتفظت « بنظامها الحالي » حتى ادخال الآلات الزراعية سوف « تهنىء نفسها » لذلك لكن بم يمكن أن يهنىء به انفسهم المزارعون الذين لن يكونوا قد احتفظوا بنظامهم الحالي ؟ وبم يمكن أن يهنىء به انفسهم البروليتاريون الذين انحطوا الى حالة المياومين لدى أعضاء المشاعة ؟ ذلك أن هؤلاء سوف يعرفون كيف يدفعون باستغلال اليد العاملة حتى نفس الدرجة من الشدة التي هو عليها في المزارع الخاصة وهكذا فان « الشعب الروسي سينقسم الى طبقتين طبقة المستغِلين — المشاعات — وطبقة المستغَلين — الافراد وما سيكون مصير هذه الفئة الجديدة من المنبوذين ؟ ان البروليتاريين في اوروبا الغربية ، الذين لا تكف صفوفهم عن التضخم بفضل مركزة الرساميل ، يمكن ان يأملوا على الاقل بأنهم ، هم العبيد اليوم ، سيعرفون الاستقلال والسعادة غدا ؛ لكن هل يمكن للبروليتاريا الروسية ان تجد العزاء في هذا المنظور . هي التي سوف يظل نموها العددي بطيئا من جراء وجود الملكية المشاعية للارض ؟ أليس ما ينتظرها عبودية لا رجاء فيها ، معركة قاسية دون نصر ولا مصالحة ؟*

الى أي فريق يجب أن تنضم في هذه المعركة الانتليجنتزيا الاشتراكية عندنا ؟ اذا عمدت الى الدفاع عن البروليتاريا ، ألن يتوجب عليها اذن أن تحرق ما عبدته وان ترفض مشاعة تحولت الى قلعة للاستغلال البورجوازي الصغير ؟

ان هذه الاسئلة لم تخالج فكر تشيرنيشيفسكي : لقد كان يتحدث عن الملكية المشاعية السابقة لالغاء نظام الرق وكان يستطيع أن يأمل بأن يجعل تطور البروليتاريا الزراعية مستحيلا بفعل ترتيبات تشريعية ملائمة بيد أن هذه الاسئلة كان لابد أن تطرح جميعا على ثوريينا لما بعد عام ۱۸۷۰ الذين كانوا يعرفون ما معنى الاصلاح الشهير للتاسع عشر من شباط ومهما يكن من العسير تخيل قوانين تحمي المشاعة

---

* [ليرمنتوف : **الشيطان**].

من التفسح دون فرض سير لا يطاق في الوقت نفسه على عاتق تقدم حياتنا الصناعية ، ومهما يكن من العسير تحقيق المصالحة بين جماعية الملكية العقارية الفلاحية واقتصاد نقدي وانتاج تجاري معمم بما في ذلك الانتاج الزراعي للمشاعات نفسها ، فقد كان في الامكان بعد الحديث عن ذلك ومناقشته قبل عام ١٨٦١ بيد ان الاصلاح أعطى جميع هذه المناقشات وسائر تلك الأحاديث ركيزة واضحة جدا أن غزوات ثوريينا في ميدان مستقبل مشكوك فيه أكثر أو أقل سوف تنطلق من الآن فصاعدا من حقائق الوقت الحاضر التي لا مراء فيها وان هذا الحاضر ما كان يشبه الا من بعيد جدا لوحة الحياة الفلاحية السابقة للاصلاح كما عرفها هاكسهاوزن وتشيرنيشيفسكي . بالفعل فا مرسوم ١٩ شباط قد انتزع المشاعة من توازنها الثابت الخاص بالاقتصاد الطبيعي كي يسمم برحمته بين الانتاج لتحري والتراكم البدئي ان وداء الاراضي بالفلاحية حسب ... بي ذلك ... ماه ، على أسس معادية مبدأ الملكية المشاعية للارض ، فصلاً عن ذلك فان تسديدها ، مع احتفاظه بالمشاعة في مصلحة خزانة الدولة قد عرقد ثلثي اعضائها بحيث فتسام الاراضي بصورة نهائية وبذلك صحت عمليات اعادة الاقتسام أصعب ضا وزيادة على ذلك، فان « المزارعين الاحرار قد وجدوا انفسهم ملزمين بغرامات وضرائب لا تتفق على الاطلاق مع امكاناتهم المالية ب احتياجات الفلاحين بعد هذا « الرق الجديد » قد فعلت جميعا فعلها الحراب والسلط واستوت على روسيا الجديدة حتى من لمضاربات بالاسهم المالية وبراحت الطرق الحديدية والمصارف ، والشركات المغفلة تسبب مثل الفطور ب نبوءة تشيرنيشيفسكي بخصوص التحولات الاقتصادية الهامة » التي تنتظر روسيا قد تحققت قبل أن يسير هذا المعلم الفكري الشهير للشيبة الى المنفى لقد كان الكسندر الثاني قيصر البورجوازية بصورة حرفية ، تماما مثلما كان نقولا الاول قيصر الجيش والنبالة

تلك كانت الحقائق التي لا مراء فيها والتي كان على شبيبتنا الثورية أن تواجهها حين « ذهبت الى الشعب » بعد عام ١٨٧٠ كي تقوم بينه بالدعاية والتحريض الاشتراكي الثوري لم يكن المقصود تحرير الفلاحين من الرق فحسب ، بل تحرير جميع السكان الكادحين من الاستغلال بسائر اشكاله لم تعد المسألة بعد الآن مسألة « اصلاح فلاحي » بل « اقامة اخوية فلاحية حيث لن يكون لك ولي ، ولن يكون ربح ولا اضطهاد ، بل فقط العمل من أجل المصلحة العامة والعون الأخوي بين الجميع . »* وفي سبيل تاسيس هذه « الاخوية الفلاحية » كان من الواجب التوجه لا الى الحكومة، ولا الى لجنة التحرير ، ولا حتى الى « المجتمع الجيد » ، بل الى الفلاحين انفسهم . وقبل ان يعمد الى تحرير الشغيلة الذي يجب أن يكون من صنع « الشغيلة انفسهم »

---

* الآلية الدقيقة (٢٢) ١٨٧٧ ، ص ٤٧-٤٨

يجب أن تدرس وتحدد وتعين بمزيد من الدقة العوامل الثورية للحياة الشعبية ، ومن أجل ذلك أن تترجم الى لغة الحساب الصيغ الجبرية المجردة التي صاغها الادب التقدمي للسنوات الثلاثين الماضية ، ويجرد حساب جميع المؤثرات الايجابية والسلبية للحياة الروسية ، لان سير المشروع ونتيجته سوف يتوقفان على مجموع هذه المؤثرات. وما دامت شبيبتنا قد تعلمت من قبل من مقالات تشيرنيشيفسكي أن « كتلة الشعب تعتبر حتى الوقت الراهن الارض على انها ملكية مشتركة » ، وان « كمية الاراضي المشاعة كبيرة جدا بحيث ان القطع التي فصلت عنها بصورة نهائية كي تسلم كملكية خاصة الى اشخاص فرادى زهيدة بالمقارنة معها » فان دراسة العوامل الثورية للحياة الروسية يجب أن تبدأ بالملكية المشاعية للارض .

ماذا كانت ردة فعل تناقضات مرسوم ١٩ شباط على المشاعة ؟ أكانت تتحلى بقدر كاف من الثبات كي تواجه شروط اقتصاد نقدي لم تكن مواتية لها ؟ ألم يكن تطور الريف قد انخرط سلفا في طريق هذا « القانون الطبيعي لحركته » الذي لن تستطيع شدة التشريع ولا دعاية المثقفين أن تحرفه عنه بعد الآن ؟ واذا لم يكن الامر كذلك ، اذا كان في مقدور فلاح المشاعة أن يتمثل دائما دون كبير جهد المثل الاعلى الاشتراكي ، وبما أن هذا التمثل المنفعل لابد أن يترافق بقدرة عظمى على التحقيق العملي سوف تتطلب الكفاح ضد جمهرة من العوائق أترى سوف تسمح شروط حياة طبقتنا الفلاحية بأن تطور فيها هذه القدرة التي تظل بدونها جميع استعداداتها « الاشتراكية » عقيمة ؟

ان الاقسام المختلفة لحركتنا قد قدمت أجوبة مختلفة عن هذه الاسئلة لقد كان معظم الثوريين يوافقون هرتزن بكل طيبة خاطر على أن الشعب الروسي «منفعل، عاجز » عن السياسة ، بيد أن الاتجاه نحو امثلة الشعب كان قويا جدا ، وتفسير الجوانب المتفاوتة للحياة الشعبية قليل الوضوح جدا في ذهن اشتراكيينا ، بحيث أن العجز عن سائر المسائل السياسية » كان يبدو لهم ضمانة ضد « أنصاف الحلول » البورجوازية ، شيئا أشبه بالبرهان على قدرة الشعب على حل المسائل الاقتصادية ان الاهتمام بالسياسة والاستعداد للسياسة ما كانا يعتبران ضروريين الا من أجل الثورات السياسية التي كان ادبنا الاشتراكي في ذلك العصر يعارض بها الثورات « الاجتماعية » مثلما يعارض الشر بالخير ، مثلما يعارض خديعة بورجوازية بنقيضتها التامة من الدم المراق والخسائر المتكبدة وفي أفكارنا لذلك الحين كان ما يجب أن يشجع على الثورة « الاجتماعية » الاهتمام بالمسائل الاجتماعية الذي كان يعتقد اكتشافه في شكاوى الفلاحين من نقص الاراضي وثقل الضرائب وكانت الدرب تبدو قصيرة من وعي الشعب لحاجاته الفورية الى تفهم « مهمات الأشتراكية العمالية » ، من الشكاوى المريرة التي تثيرها هذه الحاجات الى الثورة الاشتراكية ، ومن المؤكد أن تلك الدرب تمر بالمشاعة ، ذلك أن هذه المشاعة كانت

تتراءى لنا الشاطىء الصخري الصامد الـذي سوف تتكسر عليـه امواج التطور الاقتصادي

لكن كما ان نقطة معزولة لا تكفي من أجل تحديد موضع مستقيم على مستو ، كذلك لم تكن المشاعة الزراعية التي كان اشتراكيونا جميعا يؤمثلونها كافية من أجل التوفيق بين برامجهم لقد كان كل واحد يرى في المشاعة وفي حالة اعضائها الذهنية وعاداتهم على حد سواء قدرا كبيرا من النقص ، وكذلـك عددا كبيـرا من العناصر المتناقضة بصورة مطلقة مع المثل الاعلى الاشتراكي بيد ان الوسيلة من أجل القضاء على هذه العيوب كانت تشكل بالنسبة الى فئاتنا سببا للخلاف

ومع ذلك فقد كان ثمة ، من وجهة النظر هذه ، نقطة مشتركة بين جميع تياراتنـا الثورية

وكانت هذه النقطة المشتركة الايمان بالتأثير الاساسي ، الحاسم ، للانتليجنتزيا الثورية عندنا في الشعب لقد كانت الانتليجنتزيا تلعب في محاكماتنا دور العنايـة الالهية للشعب الروسي ، وهي عناية الهية قادرة على تحويل دولاب التاريخ كما يحلو لها في أي اتجاه كان وسواء فسرت العبودية الحاليـة للشعب الروسي بانعـدام الفهم ، أو الافتقار الى التماسك ، أو غياب **الطاقة** الثورية ، أو **العجز** التـام عن **المبادرة** السياسية ، فقد كان كل واحد يتخيل على أي حال أن تدخل المثقفين سوف يقضي على السبب الذي يبرزه الى الصف الاول ، وكان الدعاة يؤمنون بحزم بأنهم يلقنون الفلاحين دون عناء حقائق الاشتراكية العلمية وكان المشاغبون يطالبون بأن تؤسس في الحال « تنظيمات قتالية » شعبية ، دون ان تخالجهم الفكرة بأن هـذه التنظيمات يمكن ان تصطدم بعقبات خطيرة وكان تلامذة **الناقوس** يحسبون اخيـرا أن « الاستيلاء على السلطة » يكفي كيما يتمثل الشعب من فوره الاشكال الاشتراكية للحياة المشتركة وكانت هذه الثقة بالذات تترافق عند مثقفينا بأمثلة في غاية الكمال للشعب ، وعند غالبيتهم العظمى على الاقل بالقناعة بأن « تحرير الشغيلة يجب ان يكون من صنع الشغيلة انفسهم » وكان يتخيل ان الصيغة سوف تجد تطبيقها الاصوب حالما تتخذ الانتلجينتزيا عندنا الشعب كموضوع لعملها الثوري اما أن هذه الفرضية الأساسية لانظمة الاممية تملك معنى آخر ، معنى يرجع اذا جاز التعبير الى فلسفة التاريخ ، وأما ان تحرر طبقة لا يمكن أن يكون من صنع افرادها الا في حالة حركة مستقلة داخل هذه الطبقة تستهدف تحررها ، فان مثقفينا اما انهـم لم يفكروا في ذلك ، واما انهم كانوا يشكلون بهذا الخصوص أفكارا على قدر كبير من الغرابة هكذا أورد على سبيل المثال الاستياء الذي أثاره اصلاح عام ١٨٦١ من أجل البرهان على أن الشعب لم يكن محتاجا لمساعدة المثقفين كي يباشر ادراك شروط تحرره الحقيقي او ان العادة جرت ، في سبيل البرهان على قابلية هذا الشعب للحركة الثورية ، على الرجوع الى « حروب الفلاحين » عندنا ، الى عصيـان ستيبان رازين أو عصيان بوغاتشوف .

وسرعان ما بينت التجربة القاسية لثوريينا ان ثمة مسافة كبيرة بصورة رهيبة بين الشكوى من نقص الاراضي والحصول على وعي طبقي ، كما انه لا يحق أن نستنتج من العصيانات التي انفجرت قبل قرن أو قرنين ان الشعب قادر على الثورة في اليوم الراهن ، ان تاريخ حركتنا الثورية بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠ هو تاريخ الخيبة التي سببتها البرامج التي بدت بادىء الامر عملية جدا ولاغبار عليها مطلقا.

لكن ما يعنينا في الوقت الحاضر ليس هو تاريخ المحاولات الثورية بل تاريخ الافكار الثورية ولابد لنا لهذه الغاية أن ننتهي من جرد النظريات السياسية والاجتماعية التي ورثناها عن السنوات الثلاثين السابقة

فلنر الآن ما خلفته لنا كل من الفئات الرئيسية للمرحلة ١٨٧٠ — ١٨٨٠

ان نظريات باكونين وتكاتشوف هي التي أثبتت أنها أكثر تنويرا. ان برنامج اولئك الذين سموا الدعاة وهو البرنامج الذي يرد الى نشر الافكار الاشتراكية كل تاريخ روسيا المقبل حتى الثورة ، ملوث بمثالية تقفز الى العيون لقد كانوا يطالبون الاشتراكيين الروس بنفس الدعاية التي كان يمكن أن يطالبوا بها الاشتراكيين البولونيين او الصربيين أو الاتراك أو الايرانيين الاشتراكيين في جميع البلدان حيث لم يكن متوفرا لهم أن ينظموا العمال في حزب سياسي معترف به ان المقارنة التي وضعها هرتزن ، والتي أوردناها أعلاه بين مصير فرضيات اقليدس والتاريخ المحتمل للافكار الاشتراكية يمكن أن تؤخذ كمثال نموذجي على حججهم ان هذه المقارنة ، المتوسطة الجسارة بحد ذاتها ، قد كانوا يفهمونها بهذا المعنى المجرد بكل دقة ، الا وهو انه يكفي من أجل تمثل مفاهيم اجتماعية وسياسية سبق ايضاحها منطق ذاتي فردي ليست به حاجة لان يدعمه المنطق الموضوعي للعلاقات الاجتماعية. واذا هم لم يخطئوا قط في تحليلهم للحالة الاجتماعية في روسيا فذلك لهذا السبب الاوحد ، الا وهو انهم لم يجربوا ذلك مطلقا على وجه التقريب

٥ باكونين

لم يفكر باكونين على هذا القرار لقد كان يدرك ان فعلا تمارسه الانتليجنتسيا الثورية على الشعب لن يكون ممكنا الا مع توفر بعض العوامل التاريخية ، الا اذا توفر لدى الشعب نفسه طموح أكثر أو أقل وعيا الى الثورة الاشتراكية ولذا فقد كان ينطلق من مقارنة « المثل الاعلى الشعبي » مع المثل الاعلى [illegible] على الافراد المثقفين اصحاب النزعة [illegible]

وفي رايه انه يتوفر لدى الشعب الروسي « على الاقل » [illegible] اللذان يمكن ان يعتبرا الشرطين [illegible] الثورة الاجتماعية [illegible] يقولان [illegible] الشعب الروسي « [illegible] » [illegible]

ان آلامه لا حصر لها ، وهو لا يتحملها بروح الاستسلام ، بل بيأس عميق [كذا] وجامح قد عبر عن نفسه مرتين في التاريخ بانفجارين مرعبين ــ عصيان ستيبان رازين وعصيان بوغاتشوف ــ وهو لم يكف عن التظاهر حتى الوقت الحاضر في سلسلة متواصلة من التمردات الفلاحية* ان مايعوقه عن اكمال ثورة ظافرة ليس هو « الافتقار الى مثل أعلى مشترك قادر على اعطاء الثورة الشعبية معنى وهدفا لو أن هذا المثل الاعلى لم يكن موجودا ، « لو أنه لم يتشكل ، على الاقل في خطوطه الكبرى ، في شعور الشعب ، فانه لابد من التخلي عن أي أمل في الثورة في روسيا ، لان مثل هذا المثل الاعلى يجب ان يصدر من أعمق أعماق الحياة الشعبية ، لانه بالضرورة نتيجة محن الشعب التاريخية ، نتيجة مطامحه ، وآلامه ، واحتجاجاته ، ونضالاته ، وفي الوقت نفسه لانه متخيل ومفهوم من الجميع اذا جاز التعبير ، لانه بصورة دائمة التعبير البسيط عن مطالبه وعن آماله الحقيقية واذا لم يخلق الشعب لنفسه هذا المثل الاعلى ، فليس في مقدور كائن من كان أن يمنحه اياه » لكنه مما « لا ريب فيه » أن هذا المثل الاعلى موجود في ذهن الفلاح الروسي ، «وليس ثمة حاجة الى المضي للبحث بعيدا في وعي شعبنا التاريخي كي نحدد صفاته الاساسية »

ان مؤلف **الدولتية والفوضوية** يعد ست « صفات اساسية للمثل الاعلى الشعبي الروسي ، ثلاث منها جيدة وثلاث سيئة لنأخذ بعين الاعتبار بشيء من الاهتمام هذا التصنيف ذلك أن أفكار باكونين قد دمغت بطابعها عددا كبيرا من اشتراكيينا الذين لم يكونوا قط تلامذة له ، بل حتى حين كانوا له خصوما

« ان الصفة الاساسية الاولى هي القناعة العمومية بأن الارض ، كل الارض ، تخص الشعب الذي سقاها بعرقه واخصبها بعمله وان الصفة الثانية ، التي لاتقل جوهرية عن ذلك ، هي أن حق الانتفاع بالارض لايخص الفرد ، بل المشاعة بأسرها ، يخص المير الذي يوزعها بصورة مؤقتة بين الافراد ؛ وان الصفة الثالثة ، التي تماثل الصفتين الاوليين في أهميتهما ، هي الاستقلال الذاتي المحلي شبه المطلق ، اكتفاء المشاعة الذاتي ، وبالتالي العداء الصريح من قبل المشاعة حيال الدولة »

« هذه هي الصفات الاساسية الثلاث التي نصادفها في أساس المثل الاعلى الشعبي الروسي وانها لتقابل تماما ، في جوهرها ، المثل الاعلى الذي تشكل منذ بعض الوقت في وعي البروليتاريا في البلدان اللاتينية ، الاقرب حدا في الوقت الحاضر الى الثورة الاجتماعية من البلدان الجرمانية بيد أن المثل الاعلى الشعبي الروسي ملوث كذلك بثلاث

---

* **الدولتية والفوضوية** [illegible] ص ٣

صفات اخرى تشوه خلقه و (nota bene!) * تعقد تحقيقه وتؤخره وان هذه الصفات الثلاث التي تشكل لطخة هي ١ السروح الرعوي ٢ ـ ابتلاع الفرد من قبل المير ؛ ٣ ـ الثقة بالقيصر ويمكننا أن نضيف اليها صفة رابعة الايمان المسيحي، سواء أكان المقصود الكنيسة الارثوذكسية الرسمية أم الشيع ؛ لكن المسألة ابعد ماتكون عن أن تمثل لدينا نفس الاهمية التي تمثلها في غربي أوروبا** »

وأن من واجب الثوريين الروس أن يكافحوا « بكل قواهم » هذه الصفات السلبية للمثل الاعلى الشعبي ، وهذا النضال « يصبح أكثر امكانية بقدر ما هو قائم سلفا في الشعب نفسه »

ان اليقين بأن الشعب انخرط سلفا في مثل هذه المعركة هو ايضا « صفة أساسية لبرنامج الباكونينيين الروس ، عود القش الذي تعلقوا به للافلات من الاستنتاجات المنطقية المترتبة على مقدماتهم الخاصة وعلى نتائج التحليل الذي قدمه معلمهم عن المثل الاعلى الشعبي وانما لنقرأ في هذا الهامش الذي استشهدنا به مرات عديدة حتى الآن : « لا يمكننا ان نمنح الفرد أو المجتمع أو الشعب ما لا يتوفر فيهم على الاطلاق من قبل ليس في شكل بذرة فحسب ، بل حتى في درجة معينة من التطور وإذا ما مضى الباكونيني الروسي حتى غاية افكاره ، فان عليه ان يتخلى عن كل أمل في الثورة في روسيا » ، الا اذا كان الشعب نفسه قد لاحظ «الصفات التي تشكل لطخة » في مثله الاعلى ، وكان الاستياء الذي يحسه قد بلغ سلفا « درجة معينة من التطور وانما لندرك اذن أن هذا الجانب قد استغرق جميع القدرات الجدلية لمؤسس المدرسة « المشاغبة »

وفيما عدا ذلك ، فلنسجل أن باكونين في هذه النقطة قريب جدا من طرح مسألة فرص حركة خاصة بالثورة الاجتماعية في روسيا بصورة صائبة ، قريب جدا من دراسة نقدية جدية لخلق الشعب الروسي و « مثله الاعلى » ، وهي الدراسة النقدية التي يفتقر اليها دعاتنا الآخرون وان ما استلفت انتباه هرتزن من قبل هو على وجه الدقة انعدام أي تعريف واضح حتى درجة ما وصالح عموما للخلق الروسي انه يقول

« لايتحدث البعض الا عن قوة القيصر الكلية ، عن التعسف الحكومي ، عن خنوع الرعايا ؛ ويؤكد البعض الآخر ، على النقيض من ذلك ، ان الحكم الامبراطوري البطرسبورغي ليس شعبيا في حال من الاحوال ، وان الشعب المرهق تحت الاستبداد المزدوج للحكومة والملاكين الكبار يتحمل النير دون أن يستسلم له ، وانه لم يسحق بل هو تاعس فحسب،

---

* [حاشية !]

** المصدر نفسه ، الهامش ٢ ، ص ١٠ .

وان كانوا يقولون في الوقت نفسه ان هذا الشعب هو الذي يمنح القوة والوحدة للامبراطورية العملاقة التي تسحقه ؛ ويضيف البعض الآخر ايضا ان روسيا يقطنها نوع من البشر اصحاب المواهب الغنية .» *

ولقد مضت ثلاثون سنة منذ كتابة هذه السطور ، ولا يزال اليوم أيضا دعاتنا، وليس الاجانب وحدهم الذين كان هرتزن يقصدهم ، ينادون بأفكار مناقضة على طول الخط فيما يتعلق بخلق الشعب الروسي « ومثله الاعلى » ولا يمكن أن يكون مثارا للعجب ميل كل حزب الى المبالغة في تعاطف الشعب مع طموحاته الخاصة غير اننا لا نصادف ، لا في فرنسا ، ولا في المانيا ، ولا في اي من بلدان اوروبا الغربية، في الأفكار التي كونها الناس عن طبقة الفلاحين ، تلك التناقضات التي تصدمنا في روسيا وتؤدي احيانا الى انواع عجيبة جدا من سوء الفهم ان الفارق بين التصورات الاجتماعية والسياسية لرجال من اتجاهات متعارضة بصورة مطلقة يرتد في أغلب الاحيان الى فارق بسيط في طريقة فهم « المثل الاعلى الشعبي ومثال ذلك ان السيد كاتكوف(٢٤) والسيد اكساكوف(٢٥) سوف يتفقان مع السيد تيخوميروف حول فكرة أن « البرنامج السياسي يجب أن يأخذ الشعب كما هو » ، وان البرنامج لن يتمكن الا في هذه الحالة من ممارسة التأثير في حياة الشعب » ومن بعد فان رئيس تحرير روسيا سيوافق تماما على انه يوجد لدينا « من أصل مائة مليون من السكان ثمانمائة الف عامل يجمعهم الراسمال » كما يؤكد السيد تيخوميروف في « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ » وأما رئيس تحرير أنباء موسكو ، فلعله يجد هذا الرقم متواضعا جدا ويسجل أغلاطا عديدة في احصائيات السيد تيخوميروف. بيد أن كليهما سوف يوقعان باليدين معا على أن روسيا بلد زراعي ، وانه لا يمكن أن يطبق عليها « تحليل العلاقات الاجتماعية الذي يجري في بلدان اوروبا الراسمالية» ، وانه من السخيف والمضحك الحديث عن الاهمية السياسية والاقتصادية للبورجوازية الروسية ، وأن الاشتراكيين الديموقراطيين في روسيا محكوم عليهم « بوضع مأسوي حقا » ، وأخيرا أنه يجب عند الحديث عن الشعب الروسي « كما هو » التفكير في الفلاح بادىء ذي بدء ومهما يكن من أمر ، فعلى الرغم من أن العالم الذهني لرجال العلم في أحزابنا المتطرفة (في الاتجاهين) « يشتمل على أفكار من بعض النواحي » متماثلة ، فان النتائج المستخلصة من هذه المقدمات تنكشف متعارضة على طول الخط فحين يكون السيد تيخوميروف هو الذي يعالج الشعب ، فانه يسرنا أن نعلم أن هذا الشعب « الذي خيب آماله القيصر المستبد » ، يريد ان يعرف « الحكم الاستبدادي الشعبي فقط » ، وانه « في المرحلة الثورية ، حين يتعلق الامر

---

* الشعب الروسي والاشتراكية (٢٣) ، لندن ١٨٥٨ ، ص : ٧-٨ .

بمبدأ الدولة الاساسي فان شعبنا لن يظل منقسما ، وان هذا الشعب سوف يثبت انه كذلك على اجماع كلي من الناحية الاقتصادية في قضية الارض ، القضية الاساسية للانتاج الروسي في الوقت الحاضر » [كذا !] وان الغبطة لتجتاحنا بصورة حاسمة حين نقرأ أن « أيا من شرائح سكاننا لا يمكن أن تقارن بالطبقة العاملة والفلاحية لا فيما يتعلق بالقوة الخلقية ، ولا فيما يتعلق بوضوح الوعي الاجتماعي ، ولا فيما يتعلق بما يترتب على ذلك من ثبات تاريخي » ، أو أن « الانتليجنتزيا لاتخطىء في حدوسها ، طالما ان الشعب ، في ساعة الخاتمة الحاسمة للبلبلة السياسية الراهنة، سوف يشكل كتلة واحدة كما لم تفعله قط حتى البورجوازية التي ما أكثر ما امتدحت [من قبل من ؟] »(٢٦)

وهكذا فان الشعب الروسي « يعرف أن يريد » اذن ، كما أكد ذلك فيمامضى كاتب روسي للفرنسيين* وهؤلاء نحن ، طافحين بهجة ، على وشك ان ننشد « **زمجري يا رعود النصر ، وأنتم ايها الروس البواسل افرحوا** ** » لكننا وقد وقع تحت أبصارنا العدد الاخير من **روسيا** ، فاننا نهبط من جديد من السماء الى الارض انه ليبدو ان الشعب لا يعرف مطلقا أن « يريد » انه يؤله القيصر ، ويتعلق بالعقوبات الجسدية ويسخر جيدا من الثورات ، ولا يطلب أكثر من ان يمزق اربا عباده حالما تبرق بطرسبورغ اليه بذلك خصيصا ان الاحالات الى قضايا الساعة الراهنة ، بل الى التاريخ ، لا تعوزنا هنا أكثر مما تعوزنا في مقالات السيد تيخوميروف ياله من أمر عجيب ! وان خيبة أملنا لن تفعل الا أن تتفاقم اذا ما توجهنا الى خبير اشتهر بنزاهته مثل السيد اوسبنسكي ولسوف يعلمنا بالفعل أن الشعب يملك « السلطة على الارض »(٢٧) ، الامر الذي يجعله منطقيا يميل نحو الاستبداد ، دون أدنى تلميح الى تحوله الى « حكم استبدادي شعبي » وباختصار فان السيد اوسبنسكي يقنعنا بأننا لا نصادف آراء متناقضة على طول الخط في موضوع الشعب عند طرفي المروحة السياسية فحسب ، بل حتى عند مؤلفين من اتجاه متماثل على وجه التقريب

الامَ تعود هذه البلبلة البابلية في الآراء ؟

ان التصنيف الباكونيني لعناصر « المثل الاعلى الشعبي » يقدم لنا تفسيرا على درجة من الاحتمال . ان السيد تيخوميروف يؤسس اعتباراته الاجتماعية والسياسية على بعض « الصفات » الايجابية للمثل الاعلى المذكور (تلك بالضبط التي « تقابل تماما في جوهرها المثل الاعلى الذي تشكل في وعي البروليتاريا في البلدان اللاتينية »).

---

* [عنوان المصدر نفسه]

** [نشيد وطني من تأليف درجافين (اواخر القرن الثامن عشر)].

« القناعة العمومية بأن الارض ، كل الارض ، تخص الشعب » وأن « حق الانتفاع بها لا يخص الفرد بل المشاعة بأسرها ، يخص المير الذي يقسمها بصورة مؤقتة بين الافراد . ومن المؤكد أن مؤلف « ماذا نستطيع ان ننتظر من الثورة ؟ » لن يتذوق مطلقا الصفة الثالثة ، التي تماثل الصفتين الاوليين في أهميتها العداء الصريح من قبل المشاعة حيال الدولة » ؛ بيد ان هذا العداء ليس ، في التصنيف الباكونيني ، الا نتيجة « الاستقلال الذاتي شبه المطلق ، اكتفاء المشاعة الذاتي » الذي يبني السيد تيخوميروف عليه قدرا كبيرا من الآمال* وأما « الصفات التي تشكل لطخة (الحالة الرعوية ، وابتلاع الفرد من قبل المير ، و « التطير الذي يسير بصورة طبيعية جنبا الى جنب مع الجهل ، والبؤس ، الخ) ، فأما أن المؤلف يجهلها ، وأما انه لايريد ان يعلم قراءه بشيء عنها أما السيد اكساكسوف فيعمل بالمقلوب انه يبني استدلاله على هذه الصفات السلبية ، ناسيا الصفات الأخرى ، أو ساكتا عنها. وكذلك فان السيد اوسبنسكي يكف عن اثارة الدهشة فينا انه يجمع بين اورموزد واهريمان، بين الجوانب الصالحة والجوانب الطالحة من المثل الاعلى، وينتهي الى الطريق المسدودة الخاصة «بسلطان الارض » التي ليس له منفذ مرئي لا بالنسبة الى الفلاح ولا بالنسبة الى روسيا التي تستند الى الفلاح كمثل استناد الارض الى ظهور ثلاثة حيتان ومرة أخرى فان عباد الشعب الذين يصفهم لنا لم يروا من خلق هذا الشعب ومثله الاعلى الا الصفات الجميلة بالنسبة الى البعض ، والا الصفات « البائسة » بالنسبة الى البعض الآخر ، دون أن يستطيعوا بالتالي الاتفاق فيما بينهم وان ذلك كله لمفهوم جيدا ؛ ولذا فان من واجبنا ان نشكر الراحل باكونين على هذا المفتاح الذي يتيح لنا أن نفهم السبب في أن تلامذته الخاصين ومعظم الدعاة عندنا على العموم لم يروا جميعا الا جانبا واحدا من المسألة

لكن باكونين لم يدرس الفلسفة الالمانية عبثا لقد كان يدرك أن التصنيف المقترح ـ سواء لم تؤخذ بعين الاعتبار الا الصفات الجميلة ، أو الصفات « البائسة » فقط ، أو ايضا الجيدة والبائسة على حد سواء ـ لا يفسر الا الجانب البيزنطي من القضية لقد كان يدرك انه من الواجب أن يؤخذ الشعب ليس « كما هو » بل **كما يتجه لان يصبح وكما يصبح** تحت تأثير الحركة التاريخية وانه ليقترب في هذه النقطة من هيغل اكثر جدا مما يقترب من السيد تيخوميروف لم يكن يكتفي بأن يقول « **كذلك** هو » المثل الاعلى الشعبي ، بل كان يعنى بدراسة صفاته » في صيرورتها وفي ارتباطها المتبادل. وفي هذه النقطة كان ، كما رأينا اعلاه ، قاب قوسين او أدنى من طرح القضية بصورة مضبوطة ولو انه طبق بصورة مناسبة الطر

---

* « ان طبقة الفلاحين تعرف أن تحكم نفسها ، انها تعرف كيف تحمل المير ملكية الارض والتمتع بها بصورة جماعية » ، الوسول العدد الثاني ، ص ٤٣٢

الجدلية على تفسير حياة الشعب وأفكاره ، ولو انه تعمق بصورة أفضل في «الحقيقة التي لا مراء فيها والتي أثبتها ماركس وأكدها كل التاريخ الماضي او الحاضر للمجتمعات البشرية والشعوب والدول ، الا وهي ان الحقيقة الاقتصادية تسبق بصورة دائمة ... الحق السياسي » ، وبالتالي المثل العليا الاجتماعية والسياسية « للشعوب » ، ولو انه تذكر في الوقت المناسب أن « احدى الفضائل العلمية الرئيسية لماركس تكمن في البرهان على هذه الحقيقة »* ، فمما لا ريب فيه اني ما كنت اضطر الى مناقشة السيد تيخوميروف ، لانه لن يتبقى اثر للباكونينية اذن

بيد ان الجدلية خانت باكونين ، أو بالاحرى خان باكونين الجدلية

ان مؤلف **الدولتية والفوضوية** ، بدلا من ان ينطلق من الحقائق الاقتصادية » في تحليله المثل الاعلى الاجتماعي والسياسي للشعب الروسي ، وبدلا من أن ينتظر تحول المثل الأعلى **القديم** تحت تأثير الاتجاهات **الجديدة** للحياة الاقتصادية ، يقيم تراتبا اعتباطيا بصورة مطلقة بين « عيوب » المثل الاعلى الشعبي ، عاملا على ايجاد تركيب « للصفات » السلبية تعطل فيه الصفة الواحدة الصفة الاخرى ان لم تمحقها كليا وهكذا تتحول المحاكمة بأسرها الى تلاعب اعتباطي كليا بتعاريف اعتباطية كليا فبعد ان يلامس المؤلف الحقيقة عن قرب شديد ينحرف عنها بصورة مفاجئة مسافة مائة ميل وذلك لمجرد أنه لم يزد على **الشعور** بضرورة اجراء دراسة جدلية للافكار الشعبية ، دون أن يستطيع أو يريد **الانكباب** عليها. وبدلا من الجدلية التي كنا ننتظرها تعتلي السفسطة خشبة المسرح ان الباكونينية قد انقذت اما تفسير مهمات الانتليجنتزيا الثورية فلم يتقدم قيد أنملة

ان تراتب عيوب المثل الاعلى الشعبي يمثل كما يلي : « ان ابتلاع الفرد من قبل المير وعبادة القيصر تشكلان النتائج الطبيعية للحالة الرعوية وليست المشاعة الا الأمتداد الطبيعي للاسرة ، للعشيرة ** وليس القيصر الا البطريرك العمومي والمؤسس ، والاب لروسيا بكاملها « ولهذا السبب لم يكن لسلطانه حدود وهكذا يتبين أن الحالة الرعوية هي « الداء التاريخي الاساسي الذي يجب أن نكافح ضده بكل قوانا لكن كيف السبيل الى مكافحة هذا الداء

---

* **الدولتية والفوضوية** ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤

** الظاهر أن باكونين لم يكن يشك في أن المشاعة ظهرت في التاريخ قبل الحالة الرعوية، وانها تصادف عند شعوب لا أثر عندها « للحالة الرعوية » وعلى أي حال فانه يتقاسم هذه الخطيئة مع عدد كبير من معاصرينا رودبرتوس على سبيل المثال ، ولاسال أيضا ان لاسال لا يأتي حتى على ذكر المشاعة البدائية في مخططه من تاريخ الملكية (System des Erworbenen Rechte, T.I, S 217-223) [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] أكرر ان المشاعة الزراعية لا علاقة لها بالمشاعة البدائية ، بيد أن هذه الحقيقة لم تكن قد تقررت بعد عام ١٨٨٥ .

التاريخي » حين يكون المرء فوضويا لايملك « لا النية ولا ادنى رغبة في أن يفرض على شعبنا – أو أي شعب كان – مثلا أعلى لنظام اجتماعي مستخرج من الكتب أو متخيل قطعة قطعة » ؟ بمجرد الاستناد الى التطور التاريخي للمثل الاعلى الشعبي وهل التطور التاريخي للمثل الاعلى الشعبي الروسي يسهم في القضاء على صفات البطريرك التي تلطخه ؟ بكل تأكيد ، واليكم بأية طريقة « ان الحرب تخاض اليوم ضد الحالة الرعوية في كل قرية وفي كل أسرة تقريبا ؛ ان المشاعة والمير قد تحولا حتى درجة كبيرة الى ادوات سلطة مركزية واستبداد بيروقراطي بغيضين الى الامة بحيث تصبح الثورة ضد هذا الاستبداد وتلك السلطة ثورة في الوقت نفسه ضد الطغيان والمشاعة والمير * وان المؤلف ، دون أن يتوقف عند اعتبار ان النضال ضد الطغيان المشاعي لابد أن يزعزع حتما مبدأ الملكية المشاعة بالذات ، يعتبر أن المسألة قد حلت بصورة جازمة وانه ليؤكد لنا أنه لم يتبق الا « عبادة القيصر » ؟ لكن « الشعب قد تعب من هذه العبادة بصورة فائقة منذ عشر او اثنتي عشرة سنة، وقد وهنت بصورة فائقة في ذهنه » ، وذلك « بفضل السياسة الحكيمة لالكسندر الثاني صديق الشعب الكريم ، بالاحرى من جراء تزعزع « الحالة الرعوية » ان الشعب ، بعد محن عديدة ، قد بدأ يفهم أنه ليس له عدو ألد من القيصر » وان من واجب المثقفين فقط ان ينفذوا ويقودوا الاتجاه المضاد للقيصر في الروح الشعبي. وانهم ليوصون في الختام بأن يكافحوا « عيبا اساسيا » آخر لم يرد بعد في التعداد السابق ان هذا العيب ، « الذي يشل الانتفاضة الشعبية العامة في روسيا ويجعلها في حكم المستحيل حتى اليوم الراهن هو انطواء المشاعة على نفسها انعزال الميرات الفلاحية وتشتتها واذا اخذنا بعين الاعتبار أن « عزلة الميرات الفلاحية » ناشئة عن كون « كل مشاعة تشكل كلا منطويا على ذاته ، الأمر الذي يترتب عليه أنه ليس ثمة مشاعة تملك ، أو حتى **تحس**** الحاجة الى الحصول على ارتباط عضوي ما بالمشاعات الاخرى » ، واذا أخذنا بعين الاعتبار « أنها متحدة ببعضها بعضا بواسطة وحيدة هي القيصر الاب الصغير وسلطانه الابوي العالي » فلابد اذن من الاعتراف بأن المهمة التي تقع على عاتق المثقفين ليست من الراحة في شيء « تحقيق الارتباط بين أفضل الفلاحين في جميع القرى ، والنواحي ، واذا أمكن المناطق وحيث يكون الامر ممكنا اقامة نفس الارتباط الحي بين عمال المصانع والفلاحين » ، والاهتمام بأن « يتعرف أفضل الفلاحين او الفلاحون الطليعيون في كل قرية وكل ناحية وكل منطقة الى الفلاحين المقابلين لهم في جميع القرى والنواحي والمناطق الأخرى » ، واقناعهم بأن « الشعب يملك قوة لا تقهر ، وهي قوة لا تملك فعلا الا بقدر ما تكون

---

* **الدولتية والفوضوية** ، الهامش آ ص ١٩

** التشديد من قبلي .

متجمعة وتعمل بصورة متوافقة ، بينما هي ظلت منسية حتى اليوم الحاضر»، وربط وتنظيم « القرى والنواحي والمناطق وفقا لخطة وحيدة ولهدف أوحد هو تحرير الشعب بأسره » ، وبكلمة واحدة اضافة بعض « الصفات الجميلة جدا الى الخلق والمثل الاعلى الشعبيين ، مع القضاء على بعض العيوب الاساسية ، ذلكم عمل جدير بالعمالقة وانه ليجب الانصراف الى هذا المشروع العملاق بفكرة ان « احدا لا يمكن ان يتصور ما لم يكن أحمق تماما او عقائديا لا شفاء له ، أنه من الجائز ان يعطي الشعب ، أن يقدم له خير مادي ما ، رصيد جديد من الافكار أو من الأخلاق ،حقيقة جديدة وبذلك ان تعطى حياته بصورة اعتباطية اتجاها جديدا أو كما كان يؤكد الراحل تشاباداييف أن يكتب ما يحلو للمرء على هذه الورقة البيضاء*

أيمكن للمرء أن يتصور تناقضا أشد صراخا بين الصيغ النظرية « لبرنامج ما »والمهمات العملية التي يدعو اليها ؟

ولم يبق بالنسبة الى اولئك الذين لايتمسكون بالانفصال عن المنطق بصورة حاسمة الا أن يتخلوا عن القسم العملي من دستور الايمان مع الاحتفاظ بمبادئه او ان يتابعوا مهماته العملية مع السعي الى ايجاد أساس نظري جديد لها وهذا هو ما حدث فيما بعد

٦ ـ تكاتشسوف

كان في الحزب الثوري الروسي تيار آخر الى جانب الباكوينينية التي كانت تحمل بذور تفسخها في أحشائها وان هذا التيار المعادي بصورة حازمة لفوضوية باكونين الفلسفية قد كان يقترب منها ـ وهذا ما أشرت اليه في **الاشتراكية والنضال السياسي** ـ بالحكم الذي كان يصدره على الواقع الروسي في ذلك العصر وفيما عدا ذلك فقد كان هذا الاتجاه ممنعــا ضد عدد كبير من اخطــاء مؤلف **الدولتيــة والفوضوية** بفضل ادعاء أقل عظما ومحاكمة من نمط منطقي أكثر مضفية

لقد كان باكونين يفتش في تطوير الافكار الشعبية بالذات عن تسويغ لاسلوب العمل الذي أوصى به ؛ بيد ان استخدام مقياس غير مناسب قد اضطره الى الاستعاضة عن التطور التاريخي للمجتمع الروسي بالتقلبات المنطقية لفكره الخاص ان مؤسس الاتجاه الذي سوف نعمد الى دراسته ، بيوتر تكاتشوف ، لم يكن يفكر حتى في تحليل جدلي للمجتمع الروسي ، بل كان يستخلص برنامجه من وجهة نظر سكونية عن هذا المجتمع فقد كان النمط الحالي للحياة الروسية يبدو له وقد خلق خصيصا اذا جاز التعبير بغرض الثورية الاجتماعية (وهو ماكان يعني في قاموسه الاشتراكية). اما المناقشة في التقدم والتطور ، فذلك في نظره خيانة بحق قضية الشعب ولقـد

---

* **الدولتية والفوضوية** ، الهامش ٢ ص ١٩

كان شعار صحيفته ، **الناقوس** : «اليوم ، او آجلا جدا ، وربما ابدا!» واننا لنصادف الفكرة نفسها في **مهمات الدعاية الثورية في روسيا** وفي كل سطر من **الرسالة المفتوحة الى انجلز** واما كان يتفادى دروب الجدلية الشائكة ، فقد كان يحترس من خطوات باكونين المنطقية الفاسدة والتي سخر منها بكل قسوة في **فوضوية الفكر** لقد كان احزم من باكونين بمعنى انه تمسك بكل حزم بمقدماته واستخلص منها نتائج اكثر منطقية ولقد كانت علته الوحيدة أن هذه المقدمات ـ مثلها كمثل وجهة النظر التي اتخذها من أجل تحقيقها، لم تكن تبلغ مستوى باكونين . لقد كانت باكونينية مبسطة، باكونينية تخلت عن أن يكون لها فلسفتها الخاصة بالتاريخ الروسي ، وهي تكفر ثوريا كل محاولة في هذا المنحى وان فقرات قليلة من مؤلفات تكاتشوف ستكون كافية من اجل اثبات هذا الحكم

فلنبدأ بالرسالة المفتوحة الى السيد فريدريك انجلز

ان الرسالة المذكورة تستهدف ان « تتلافى جهل » المرسل اليه ، أن تبين به أن « تحقيق الثورة الاجتماعية لا يصطدم في روسيا بأية عقبة وانه « يمكن في كل لحظة تحريض الشعب الروسي على احتجاج ثوري جماعي* » ان البرهان على هذا الفرض لأصيل جدا ومميز جدا لتاريخ « بؤس الفكر الروسي وهام جدا من أجل فهم برنامج حزب ارادة الشعب والحكم عليه ، وهو يتقدم من هذه الناحية كل محاكمة السيد تيخوميروف بحيث نطلب بخصوصه الاهتمام الاكثر جدية من جانب القارىء

وفي راي بيوتر تكاتشوف انه من قبيل المجازفة الحلم بأقلمة الاممية العمالية في الارض الروسية ، فالشروط الاجتماعية والسياسية في روسيا تمنع ذلك انه يكتب الى انجلز قائلا(٢٨)

> اعلم اننا لا نملك في روسيا أية وسيلة من وسائل النضال المتوفرة في خدمتكم في الغرب عامة وفي المانيا خاصة فليس لدينا بروليتاريا مدنية ، ولا حرية صحافة ولا جمعية تمثيلية ، ولا اي شيء يمنحنا الامل في الوضع الاقتصادي الراهن في أن نجمع في رابطة عمالية منظمة ومنضبطة سكانا كادحين ، مخبولين وجهلة. ادبا عماليا أمر لايمكن تصوره عندنا وحتى كان في الامكان خلق مثل هذا الادب ، فانه سوف يتبين عقيما ، ذلك ان غالبية شعبنا لاتعرف القراءة »

وان ممارسة النفوذ الشخصي في هذا الشعب أمر غير وارد كذلك بسبب مراسيم الشرطة التي تطارد اي تقارب بين المثقفين وجماهير السكان لكن هذا التراكم للشروط المنافية يجب الا يحمل انجلز على الاعتقاد ، كما يؤكد المؤلف ، بأن « انتصار

Offener Brief, S. 10 *

الثورة الاجتماعية اكثر اشكالاً واقل يقينا في روسيا منه في الغرب . ابداً على الاطلاق ! فاذا كنا نفتقر الى بعض الفرص التي تملكون ، فان في مقدورنا أن نحصي عددا كبيرا من الفرص التي تعوزكم »

فيم تستقيم هذه الفرص؟ لماذا يحق لنا ان نتوقع الثورة ؟ وماذا يجب ان نتوقع منها ؟

« صحيح انه ليس لدينا بروليتاريا مدنية،وبالمقابل ليس لدينا اية بورجوازيةعلى الاطلاق فبين الشعب الذي يتألم وطغيان الدولة التي تضطهده لاتوجد أية شريحة متوسطة، ولن يكون امام عمالنا أن يقاتلوا الا القوة السياسية ، فقوة الرأسمال لاتبرح مضغية عندنا.

« ان شعبنا جاهل ، وتلك حقيقة أيضا وبالمقابل ، في الغالبية الهائلة من الحالات، فانه مشرب بمبدأ الملكية المشاعية واذا جاز لي أن اعبر عن نفسي كما يلي ، فانه شيوعي بغريزته ، عرفا

« ويترتب على ذلك بكل وضوح أن شعبنا ، بالرغم من جهالته ، لاقرب كثيرا الى الاشتراكية من شعوب الغرب التي هي مع ذلك أكثر منه ثقافة

« ان شعبنا قد اعتاد الخضوع والعبودية ، وهذا ما لايمكن انكاره أيضا لكن يجب ألا نستنتج من ذلك أنه راض عن أوضاعه انه يحتج ، يحتج دون انقطاع ومهما يكن الشكل الذي تتظاهر به هذه الاحتجاجات ، سواء في شكل الشيع الدينية ، أو مانسميه راسكول ، أو في شكل رفض دفع الضريبة ، أو في شكل التمردات والمقاومة الصريحة للسلطة ، فان شعبنا يحتج ، واحيانا بعنف كبير

وصحيح أن هذه الاحتجاجات تفتقر الى السعة والى التماسك ومع ذلك فانها تثبت بما يكفي أن الشعب يرى حالته لاتطاق ، وانه ينتهز كل فرصة كي يطلق العنان للغضب والحقد المتراكمين في قلبه وهكذا يمكننا أن نقول عن الشعب الروسي أنه ثوري بالفطرة بالرغم من خبله الظاهري وبالرغم من انه لايملك وعيا واضحا عن حقوقه

« وان مثقفينا ليشكلون فريقا ثوريا قليل العدد ، هذا صحيح أيضا بيد أن هذا الفريق لا يملك مثلا اعلى غير المثل الاعلى الاشتراكي ؛ وان اعداءه لاعظم عجزا منه تقريبا وهذا العجز هو في مصلحته ان طبقاتنا العليا لاتشكل أية قوة ، لا اقتصادية (فهي فقيرة جدا) ولاسياسية (فهي بليدة جدا ومعتادة جدا على الاعتماد على حكمة الشرطة) وليس للاكليروس عندنا أي وزن ان دولتنا لا تبدو قوية الا اذا شوهدت عن بعد وفي واقع الامر ليست قوتها الا مظهرا ووهما فهي لاتملك جذورا في حياة الشعب الاقتصادية ان الدولة لا تجسد عندنا مصالح اية طبقة ، فهي ترهق سائر الطبقات على حد سواء ، وتتعرض لنفس الحقد من جانبها

جميعها ان هذه الطبقة تتحملها ، وتتحمل طغيانها الهمجي بلا مبالاة تامة بيد ان هذا التسامح ، هذه اللامبالاة ... هما نتيجة خطيئة : ان المجتمع قد اصطنع وهم دولة قوية ، وهو يوحي لذاته بهذا الوهم باستمرار »

ولا يتطلب تبديل هذا الوهم الشبيه الكثير « هزيمتان او ثلاث هزائم عسكرية ، ثورة متواقتة للفلاحين في مجموعة من الاقاليم ، ثورة قصر في زمن السلم ، واذا الوهم قد تبدد في الحال : ان الحكومة سوف تكتشف وحدتها ، وان الجميع تخلوا عنها

« ومن وجهة النظر هذه ، فاننا عنك اذن فرصا أكثر منهم (يعني الغرب عامة والمانيا خاصة) فالدولة عندكم لاتملك اية قوة وهمية انها تستند بثبات الى الراسمال ، فهي تجسيد مصالح اقتصادية محددة جيدا ؛ وليس سندها الجنود والشرطة فقط (كما هي الحال عندنا) ،بل كل جهاز المجتمع البورجوازي أما عندنا ...على العكس من ذلك ، فان الشكل الاجتماعي يدين بوجوده للدولة ، دولة معلقة بشعرة واحدة ، دولة لا تملك شيئا مشتركا مع النظام الاجتماعي القائم ، دولة تغطس جذورها في الماضي وليس في الحاضر »

تلك هي فلسفة تكاتشوف الاجتماعية السياسية

لو أن خطيئة مطبعية نسبت المقتطفات السابقة الى السيد تيخوميروف ، فلعل مؤلف «ماذانستطيع ان ننتظر من الثورة؟» ماكان يلاحظ ذلك،لشدة الشبه بين النسخة المنشورة في نيسان من عام ١٨٨٤ وبين الاصل الذي شاهد النور قبل ذلك بعشر سنوات ومن سوء الحظ أن المكتشفين غالبا ما ينكرون ان السيد تيخوميروف لا يشير مرة واحدة الى معلمه ! وصحيح ان مؤلف **الرسالة المفتوحة** لم يجد من المفيد ان يرجع الى **الدولتية والفوضوية** المنشور مع ذلك عام ١٨٧٣ ، حيث نجد التعريف نفسه للمجتمع الروسي ، واليقين نفسه بأن الفلاح الروسي « شيوعي بالفطرة ، عرفا » ولقد كان انجلز على حق تام في رده على تكاتشوف حين قال ان محاكمة مراسله تقوم على « العبارات الباكونينية المألوفة »

لكن الى اين يمكن ان تؤدي باكونينية لا تؤمن بعد الآن بامكانية القضاء على التأثير المباشر « للصفات المباشرة » للمثل الاعلى الشعبي ، فهي تركز كل انتباهها على هذا الظرف السعيد ، الا وهو أن **الدولة** عندنا « معلقة بشعرة واحدة » وهي « لا تملك شيئا مشتركا مع النظام الاجتماعي القائم » ، بحيث أن « **الثورة الاجتماعية لن تصطدم** بأية صعوبة » ؟ ان الجواب بدهي اذا كان الرأسمال لا يبرح عندنا في حالة « مضغية » ، واذا كان العمال لن يضطروا لاكثر من قتال « **القوة السياسية** » للقيصرية ، واذا كان الشعب مستعدا للثورة باستمرار – كمثل استعداد أوجين أونيغين للذهاب الى الميدان – فان النضال الثوري سوف يرتدي طابعا « سياسيا » على وجه الحصر لكن بما اننا لا نملك اية واسطة « كي نجمع في رابطة عمالية منظمة

ومنضبطة سكانا كادحين،مخبولين وجهلة»،ولانملك اية امكانية من اجل خلق ادب عمالي سوف يكون عديم الجدوى على اية حال، فلا بد أن نستنتج أن الذين سوف يخوضون هذه المعركة السياسية ليسوا العمال ان « الفريق القليل العدد » من مثقفينا الثوريين هو الذي سوف يعنى بذلك ، هذا الفريق الذي تكمن قوته في مثله الاعلى الاشتراكي وفي عجز اعدائه بيد ان هذه الاقلية التي ليست هي قوية الا بفضل ضعف الغير ، سواء من جراء الشروط الروسية المعاصرة أم من جراء ذات طبيعة علاقاتها مع بقية القوى الاجتماعية ، لن يتبقى لها الا ان تخلق جمعية سرية تهيىء coup d'état ، منتظرة الظروف المواتية من أجل الصدمة الحاسمة هزائم عسكرية » تمنى روسيا بها ، « ثورات متواقتة في مجموعة من الاقاليم » أو « ثورة قصر » وبعبارات أخرى، فان باكونينية تخلت عن الايمان « بالتقدم » تقودنا باستقامة الى قلب الحكومة القائمة ، والاستيلاء على السلطة ، وتنظيم المجتمع الاشتراكي بمساعدة هذه السلطة والميول « التقليدية والفطرية » الى الشيوعية عند الفلاح الروسي لقد راينا ذلك كله في اعمال بيوتر تكاتشوف حتى قبل ان نستشفه في مقال السيد تيخوميروف

وكي نعرف جيدا برنامج تكاتشوف ، او كما كان يقول برنامج هذه « الفئة التي يخصها كل ما هو مقدام وعاقل ونشيط في شبيبتنا الثورية المثقفة ، يجب أن نمضي فنبحث في كتابات أخرى لرئيس تحرير **الناقوس** ، لان **الرسالة المفتوحة** تقتصر على التأكيد بأن « المرحلة المعاصرة من التاريخ [الروسي] هي الاكثر ملاءمة لانجاز ثورة اجتماعية ،وكذلك على رسم الخطوط الكبرى لبرنامجه « نداء الى الشعب » ، خلق منظمة ثورية متينة وانضباط قاس بيد اننا نجد ، في **مهمات الدعاية الثورية في روسيا**(٢٩) ، هذه الفكرة الاصلاحية ان الثورة العنيفة لايمكن ان تقوم الا حين تعمد الأقلية ، بدلا من أن تنتظر حتى تعي الغالبية مطاليبها ، الى حزم أمرها على حمل هذه الغالبية بالقوة ، اذا جاز التعبير ، على تحصيل ذلك الوعي وأخيرا ، في مجموعة « الدرسات النقدية » لبيوتر تكاتشوف ، المنشورة تحت عنوان **فوضوية الفكر**(٣٠) ، في الفصل حيث يهاجم المؤلف برنامج مجلة **الى الامام** وكراسة **الى الشبيبة الاشتراكية الثورية الروسية**(٣١) ، نجد انفسنا وجها لوجه مع هذه المتناوبة : « يجب ان نختار واحدا من امرين فاما يجب على الانتليجنتزيا ان تأخذ السلطة بعد الثورة ، واما يجب عليها ان تلجم ، ان تؤجل الثورة حتى اللحظة المباركة حيث لن يمثل « الانفجار الشعبي » اي خطر ، يعني حين يكون الشعب قد تمثل نتائج الفكر العالمي واكتسب معارف كانت متعذرة عليه » ان مجرد حقيقة أن بيوتر تكاتشوف يصف هذه المعارف بأنها « متعذرة تبين بكل وضوح في اي اتجاه تذهب عواطفه

ان تنظيم المؤامرة بهدف الاستيلاء على السلطة سوف يصبح المهمة العملية الاساسية التي ستتكرس لها دعاية **الناقوس** ، الصحيفة بادىء الامر ، والمجلة في وقت

لاحق وبصورة موازية لذلك سوف تنمو الدعاية من اجل الارهاب وتنظيم « المؤامرة من النمط المسمى نيتشائييف » على حساب الحلقات الصغيرة من المحرضين

« بالنسبة الينا ، نحن الثوريين الذين لا نريد بعد الآن ان نتحمل بؤس الشعب ولا نستطيع أن نطيق حالتنا من العبودية الذليلة ، بالنسبة الينا نحن الذين لا نسمح بأن تتلبد أذهاننا بالهذيانات الغيبية ونؤمن بعمق بأن الثورة الروسية ، مثلها كمثل أية ثورة اخرى ، لا يمكن أن تستغني عن شنق دركيين ، ومدعين عامين ، ووزراء ، وتجارا ، وكهنة ، أو اعدامهم رميا بالرصاص ، وباختصار لا يمكن ان تفلت من العنف ، بالنسبة الينا ، نحن الثوريين الماديين «ترتد المسألة بكاملها الى الاستيلاء على سلطة قوتها موجهة في الوقت الحاضر ضدنا

ان هذه الاسطر التي كتبت عام ١٨٧٨ * ، حين لم يكن انسان يفكر بعد في خلق حزب ارادة الشعب ، تبين بما يكفي من الوضوح في أي جانب ينبغي البحث عن مصدر الافكار العملية التي أخذ هذا الحزب على عاتقه القيام بالدعاية لها ولذا فاننا نعتقد أن **الناقوس** ، من وجهة نظرها ، كانت على حق حين قررت عام ١٨٧٩ « الافلاس التام » لاولئك الذين يذهبون الى الشعب وأضافت بكل كبرياء « كنا أول من قال ان هذا الافلاس محتم كنا أول من ناشد الشبيبة الخروج من هذه الطريق الخطرة وضد الثورية كي تعود الى تقليد العمل الثوري المباشر التنظيم الثوري المركزي بهدف المعركة (يعني تقليد نيتشائييف) وان صوتنا لم يدو مطلقا في صحراء « ان التنظيم النضالي للقوى الثورية ، وتفتيت صفوف السلطة الحكومية وارهابها تلك كانت منذ البداية مطالب برنامجنا الاساسية واليوم ، اخيرا جعلت تنتقل الى الممارسة » وان هيئة تحرير المجلة ، وقد اغواها الارهاب، تمضي حتى المناداة. « ان مهمتنا الوحيدة اليوم هي ارهاب الحكومة وتشتيت صفوفها ** »(٣٣)

٧ النتائج

سوف نرى في الحال أهمية هذه الاستشهادات بالنسبة الى مسألة خلافاتنا أما الآن ، فلنأخذ بعين الاعتبار من وجهة نظر تاريخية على وجه الحصر البرامج المعروضة أعلاه ، متسائلين عن المدى الذي تطرح فيه وتحل مسألة المشاعة الروسية ومسألة قابلية الشعب الروسي لصراع واع في سبيل تحرره الاقتصادي

---

* انظر « الدعاية الثورية » ، ص ٥٠ ، في **الناقوس** ١٨٧٨ دون اشارة الى العدد اداشن (٣٢))

** **الناقوس** ١٨٧٩ ، الاعداد ٣و٤و٥ ، ص : ٢ — ٣ .

ان باكونين وتكاتشوف على السواء قد تحدثا كثيرا ، كما راينا ، عن الغرائز الشيوعية للفلاح الروسي وانهما لينطلقان من هذه النقطة باعتباراتهما السياسية والاجتماعية ، كما ان ثقتهما في امكانية ثورة اشتراكية في روسيا تقوم على هذاالاساس بصورة خاصة بيد ان ايا من مؤلف الدولتية والفوضوية او رئيس تحرير الناقوس لم يفكر فيما يبدو في مسألةمعرفة ما اذا كانت المشاعة قائمة لان الشعب « مشرب بمبدأ الملكية المشاعية للارض » ام انه « مشرب » بهذا « المبدأ » ، يعني معتادا على المشاعة ، لانه يعيش في ظل نظام الملكية الجماعية للارض ولو انهما منحا قدرا اكبر قليلا من الاهتمام لهذه القضية التي لا يمكن ان يثير حلها اية شكوك فقد كان يتوجب عليهما اذن ان ينقلا مركز ثقل محاكمتهما ، أن يخرجاها من صعيد المقالات المسهبة عن « الفريزة » والمثل الاعلى الشعبي كي ينقلاها الى صعيد الاقتصاد الوطني لقد كان يتوجب عليهما اذن أن يعنيا بتاريخ الملكية العقارية ، وعلى العموم بحق الملكية عند الشعوب البدائية ، وبظهور النزعة الفردية وتطورها التدريجي بين قبائل القناصة والبدو والمزارعين ، وكذلك بالنفوذ السياسي والأجتماعي على السواء لهذا المبدأ الجديد الذي يحقق السيادة شيئا فشيئا واما يطبقان نتائج ابحاثهما على روسيا ، فقد كان يتوجب عليهما اذن أن يقدرا عوامل تفسخ المشاعة ، وهي العوامل التي جعلت اهميتها النامية تتضح منذ الغاء الرق ولقدكانهذا التقديريقودهما بصورة منطقية الى محاولة تحديد قوة المبدأ الفردي واهميته في اقتصاد المشاعة الزراعية في الوقت الراهن ومن ثم ، نظرا لان اهمية هذا المبدا لا تكف عن التعاظم تحت تأثير الشروط المنافية للنزعة الجماعية ، فقد كان يتوجب عليهما أن يحسبا التسارع الذي تتخذه الفردية بقدر ما تتغلغل في حق المشاعات وفي اقتصادها واما يحسبان بقدر ما يتاح لهما من الدقة في هذه الحالة مرتبة عظم هذا التسارع ، فقد كانا ينتقلان الى دراسة خصائص وتطور القوة التي كانا يحسبان لا أن يمنعا بواسطتها انتصار الفردية فحسب ، ولا ان يبعثا المشاعة الزراعية في مظهرها الاصلي فحسب ، بل أن يمنحاها أيضا شكلا جديدا ، من نمط أعلى ولقد كان هذا يطرح مسألة — وهي كما رأينا مسألة بالغة الاهمية — معرفة ما اذا كانت هذه القوة سوف تنشأ عن الحياة الباطنة للمشاعة ام عن التطور التاريخي للشروط المحيطة وفي الحالة الثانية اذا ما تبين أن القوة التي تعنينا خارجية كليا عن المشاعة ، فقد كان يتوجب عليهما أن يتساءلا ما اذا كانت مؤثرات خارجية تكفي من أجل اعادة تنظيم الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لطبقة ما واما ينتهيان من هذه المسألة ، فقد كان يتوجب عليهما الأنصراف في الحال الى مسألة أخرى أين يأخذان نقطة تطبيق هذه القوة ، في ميدان شروط الحياة أم في ميدان العادات الذهنية لطبقة الفلاحين عندنا ؟ وختاما فقد كان عليهما ان يبرهنا ان قوة انصار الاشتراكية تزداد بسرعة أعظم منقوةالفردية في الحياة الاقتصادية الروسية واذا ما اصبحت هذه النقطة مرجحة على الاقل ،

عندئذ كانا يستطيعان أن يثبتا احتمال هذه الثورة الاجتماعية التي لن تصطدم في اعتقادهما « بايـة » صعوبة في روسيا

ولقد كان يتوجب عليهما ، في كل من هذه العمليات ، أن يتأملا حالة المجتمع ليس من وجهة النظر السكونية بل من وجهة النظر الحركية ، أن « يأخذا » الشعب ليس « كما هو » ، بل كما يصير ، أن يعتبرا الحياة الروسية ليس من حيث هي لوحة جامدة بل من حيث هي تطور يجري وفقا لبعض القوانين لقد كان يتوجب عليهما اللجوء الى الاداة الجدلية التي سبق ان استخدمها تشيرنيشيفسكي من اجل دراسة المشاعة في مظهرها المجرد

ولقد رأينا اعلاه أن أيا من باكونين أو تكاتشوف لم يعرف لسوء الحـظ أن يتصدى لهذا الوجه الاساسي لمسألة فرص الثورة الاجتماعية في روسيا لقـد اقتصرا على تقرير أن شعبنا شيوعي « بالفطرة ، عرفا » ، واذا كان باكونين قد عني بحق بالنقاط الضعيفة مـن « العرف » والفطرة الشعبية ، واذا كان تكاتشوف قد تبين جيدا انه ليس في الامكان القضاء على هذه النقاط الضعيفة الا بالمؤسسات وليس بالأستدلالات المنطقية ، فان كلاهما لم ينجح في المضي بالتحليل حتى نهايته لقد استنجدا بالانتليجنتزيا لانهما كانا يتوقعان من عملها معجزات اجتماعية ، لانهما كانا يفترضان أن اخلاصها سوف يقوم مقام الافتقار الى المبادرة ، وان طاقتها الثورية ستحل محل الارادة في الثورة الاشتراكية ، هذه الارادة التي كانت تعوز المجتمـع الروسي لقد كانا يتصوران الاقتصاد ونمط الحياة والعادات الذهنية في الريف لوحة جامدة ، كلا متكاملا لن يتعرض الا لتغييرات زهيدة حتى الثورة الاجتماعية

ومن المؤكد أن هذين المؤلفين ما كانا يرفضان الاعتراف بأن الاشكال الراهنة للحياة الشعبية نتيجة للتطور التاريخي ؛ لكن الامور جميعا تجري بالنسبة اليهما كما لو أن التاريخ « أوقف مجراه » لقد كانا يعتقدان أن المشاعة الزراعية ، منذ صدور **الدولتية والفوضوية** و **الرسالة المفتوحة الى فريدريك انجلز** حتى غداة او « ما بعد غداة الثورة ، سوف تحتفظ بشكلها الحالي الذي ليس بينه وبين الاشتراكية الا خطوة واحدة كما هو معروف ان كل ما يتطلبه الامر هو الاسراع قدر المستـطاع في العمل وسلوك الطريق الصالحة « اننا لن نقبل بأية مهلة ، بأي تأخير فليجمع كل واحد بسرعة اسماله وليمش ! » ، هذا ماكتبه رئيس تحرير **الناقوس**. وبالرغم من انه كان بين باكونين وتكاتشوف خلافات أساسية فيما يتعلق باتجاه هذه الطريق ، فان كلا منهما كان على ثقة من أن الشبيبة اذا سلكت **الطريق** التي يدل عليها فانه سيكون لها مايكفي من الزمن كي تصادف المشاعة في حالة الثبات المطلوب. وبالرغم من أن « كل يوم يحمل الينا اعداء جددا ويخلق اشكالا اجتماعية جديدة معادية لنا »، فان هذه الاشكال الجديدة لن تغير علاقة العوامل ضمن الحياة الاجتماعية الروسية . ان البورجوازية سوف تظل غائبة ، والدولة سوف تظل « معلقة بشعرة

واحدة » ، وكل مايلزم هو قرع « الناقوس » بقوة أعظم ، والانكباب على المهمة الثورية بنشاط أعظم ؛ عندئذ سوف ننجح في انقاذ « الغريزة » الشيوعية للشعب الروسي ونتوصل ، ونحن اقوياء بتعلق هذا الشعب بمبادىء الملكية المشاعية للارض ، الى تحقيق الثورة الاشتراكية كذلك كان راي بيوتر تكاتشوف وكذلك على وجه التقريب كان راي مؤلف الدولتية والفوضوية

لقد قرات شبيبتنا هذين الكاتبين ، وعلى الرغم من انقسامها وفقا للفئات، فقد سارعت الى العمل ويبدو غريبا للوهلة الاولى أن يكون برنامج تكاتشوف او برنامج باكونين قد وجدا انصارا في وسط من المثقفين الذين تشربوا أفكار تشيرنيشيفسكي الذي لابد أن أعماله قد عودته على قدر أكبرمن الحزم فيالتفكير ومهما يكن من أمر ، فان الظاهرة بالغة البساطة ، ونفوذ تشيرنيشيفسكي بالذات هو الذي يفسرها ، بصورة جزئية على الاقل

لقد احتفظ هيغل في فلسفته بمكان هام لقضايا المناهج ؛ وان الاشتراكيين في أوروبا الغربية ، الذين يتباهون بأن « سلالتهم تعود » الى هيغل وكانط خاصة ينسبون في دراسة الظواهر الأجتماعية الى المنهج قدرا من الاهمية اعظم مما ينسبونه الى نتائج هذه الدراسة* ان خطيئة تقع في النتيجة سوف تلاحظ وتصحح حتما اذا ما طبق منهج صحيح ، في حين ان منهجا مغلوطا لايمكن الا في حالات نادرة خصوصية أن يعطي نتائج لا تناقض هذه الحقيقة الخصوصية او تلك بيد أن المجتمعات التي تلقت تعليما فلسفيا جديا هي وحدها التي تنظر بعين الجد الى قضايا المنهج ،والمجتمع الروسي لم يستطع قط أن يتباهى بتعليم من هذا النوع ان هذا العوز الى التكوين الفلسفي قد ظهرت آثاره عندنا بين ١٨٦٠ و ١٨٧٠ ، حين أقام « واقعيو الفكر »(٣٥) عندنا عبادة علوم الطبيعة مطاردين بوحشية « ميتافيزياء » الفلاسفة وان تلامذة تشيرنيشيفسكي الذين تأثروا بهذه الدعاية المناهضة للفلسفة قد جعلوا في وضع لايستطيعون معه تمثل جدلية معلمهم ، وقد تركز انتباههم كله على نتائج دراسته. ومن المفروغ منه أن هذه النتائج كانت تتضمن القناعة بأنه كان في الامكان المرور دونمرحلة انتقالية من المشاعة الروسية الى الاشكال الشيوعية العليا للحياة الاجتماعية ولقد كانت هذه القناعة قصيرة البصر من جراء طابعها المجرد وحده فلقد كان من واجب تلامذة تشيرنيشيفسكي وهم أكثر أمانة لروح أعماله منهم لحرفيتها أن ينتقلوا دون تأخير من الجبر الى الحساب كما قلت أعلاه، من الاعتبارات العامة والمجردة عن امكانيات الانتقال من شكل اجتماعي الى شكل آخر الى الدراسة التفصيلية للحالة

---

* « لسنا بحاجة الى نتائج خام بقدر ما نحن بحاجة الى دراستها كما كان انجلز يقول واننا لنعرف منذ هيغل ان النتائج لا تملك معنى بدون العملية التطورية التي تؤدي اليها ؛ انها أسوأ من عديمة الجدوى اذا توقف البحث عندها ، اذا لم تصبح منطلقا منطقيا لعملية تطورية لاحقة.»(٢٤).

الراهنة والمستقبل **المحتمل** للمشاعةالروسيةبصورةخاصة ؛ وعندئذ كانتالاشتراكية «الروسية» تجد نفسها على أرض صلبة بصورة مطلقة. ومن سوء الحظ أنشبيبتنا الثورية لم تكن ترتاب فيأن معلمها الفكري يملك طريقته الخاصة فيالتفكير. واماهدهدت بنتيجة أبحاث تشيرنيشيفسكي ، فقد رات تلامذته في جميع المؤلفين المتعلقين بمبدأ الزراعة المشاعية ؛ وبينما لم يكن ذلك الذي ندين له **بنقد المستبقات الفلسفية** ليمنح موافقته قط لشتشابوف* مثلا ، فقد كانت ترى في اعمال هذا الاخير برهانا جديدا على نظريات معلمها وتأكيدا جديدا لها ولقد كان في مقدورها أقل من ذلك أيضا أن تخضع لنقد صارم النظريات الثوريةالجديدة كانيبدو لها أنتكاتشوف وباكونين يندرجان في نفس التيار الفكري الذي يندرج تشيرنيشيفسكي فيه وبينما تلامذة هيغل لم يتركوا حجرا على حجر من نظامه مع تمسكهم الحازم بالطريقة التي أورثهم اياها المفكر الكبير، بينما هم يحافظون على روح نظامه من دون حرفه على الاطلاق، فان مكملي تشيرنيشيفسكي ما كانوا يجرؤون حتى على اخضاع اراء معلمهم للنقد، بل حافظوا على كل حرف من كتاباته ، وبذلك فقدوا كل فكرة عن روحها وبالتالي فانهم لم ينجحوا حتى في المحافظة على نتيجة دراسات تشيرنيشيفسكي في حالتها النقية ، بل مزجوها بالميول المناصرة للنزعة السلافية ، وبذلك اصطنعوا هذا الخليط العقائدي العجيب الذي سوف يخرج منه **المذهب الشعبي**

وهكذا فان الادب الاشتراكي قد خلف لنا محاولات عديدة — لم يكن لها مقلدون قط — من أجل تطبيق الطريقة الجدلية على حل المسائل الرئيسية للحياة الاجتماعية الروسية، وبرامج اشتراكية عديدة كان أحدها يوصيبالدعاية، معتبرا الفلاح الروسي قابلا لنفوذ الافكار الاشتراكية قدر نفوذ البروليتاريا الغربية ، والآخر يدعو الى تنظيم انتفاضة الشعب بأسره ، والثالث يعتبر ، لانه لم يكن يؤمن لا بالدعاية ولا بالتنظيم ، الاستيلاء على السلطة من قبل الحزب الثوري منطلقا للثورة الاشتراكية الروسية

ولايقتصر الامر على أن الطرح النظري للقضية الثورية لم يتقدم قيد أنملة واحدة منذ تشيرنيشيفسكي ، بل لقد تراجع القهقرى من وجهات نظر عديدة فياتجاه الآراء نصف السلافية النزعة لهرتزن ، ولم تضف الانتليجنتزيا الثورية لما بعد عام ١٨٧٠ أية حجة جديدة في صالح الرد السلبي على السؤال المطروح من قبل هرتزن : « ايجب على روسيا أن تمر في جميع مراحل التطور الاوروبي ؟ »



---

* انظر أريستوف : **حياة شتشابوف واعماله** ، سان بطرسبورغ ص ٨٩ — ٩٢ .

الفصل الأول

قليل من التاريخ

١ - البلانكية الروسية

هذه عشر سنوات مضت منذ صدور البرامج الأهم للمرحلة ١٨٧٠ - ١٨٨٠ ، عشر سنوات من الجهود ، والمعارك ، وخيبات الامل القاسية احيانا ألبتت لشبيبتنا ان تنظيم حركة ثورية في الريف امر مستحيل في الشروط الروسية الراهنة ان الباكونينية والشعبية قد بطلتا من حيث هما مذهبان ثوريان ، وليس من يستقبلهما اليوم بذراعين مفتوحتين الا بعض كتاب الديموقراطية المحافظة ، فلابد لهما اما ان تفقدا كل صفاتهما المميزة وتذوبا مع التيارات الثورية الجديدة الاخصب ، واما ان تتصلبا في مظهرهما القديم وتخدما كسلاح في يد الرجعية السياسية والاجتماعية وان دعاتنا من الطريقة الاولى قد غادروا خشبة المسرح ايضا لكن الامر ليس كذلك بالنسبة الى نظريات تكاتشوف فبالرغم من أن « كل يوم » خلال السنوات العشر الماضية قد حمل الينا « أعداء جدد وخلق أشكالا اجتماعية جديدة معادية لنا » ، وبالرغم من أن الثورة الاجتماعية في سياق السنوات العشر الماضية قد « اصطدمت بعقبات » على درجة من الخطورة ، فان البلانكية الروسية ترفع اليوم صوتها بشدة خاصة وتواصل ، وهي على ثقة كما كانت في الماضي بأن « المرحلة التاريخية الحاضرة ملائمة بصورة خصوصية لتحقيق الثورة الاجتماعية » ، اتهام « اولئك الذين لا يوافقون » بالاعتدالية والحذلقة ، مكررة الاغنية القديمة بنغمة جديدة : « اليوم ، أو آجلا جدا ، وربما ابدا » ، « ليس لنا الحق في الانتظار » ، « فليجمع كل واحد اسماله وليمش » ، الخ ، الخ تلك هي التكاتشوفية الاصلب ، واذا جاز لي التعبير المتجددة الشباب ، التي نصادفها اليوم كلما كان المقصود الكتابة عن « الخلافات » التي تقسم الثوريين الروس ، وعلينا بصورة خاصة أن نحسب لها حسابا لدى دراسة « مصير الراسمالية الروسية »

ولقد سبق لي أن قلت ان مقالة السيد تيخوميروف « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ » ليست الا طبعة ثانية ، مكملة ، واحيانا مفسدة حتى درجة كبيرة ، عن افكار تكاتشوف الاجتماعية والسياسية . لكن اذا لم أخطىء في تشخيصي للاعراض المميزة للبلانكية الروسية ، فان النشاط الادبي « لحزب ارادة الشعب » يقتصر على

بعض تنوعات النغم على لازمة نظرية تكاتشوف - وان الفارق يستقيم فقط في أن « البرهة التي نجتازها » تتعلق بالنسبة الى تكاتشوف بالسنوات التالية مباشرة لعام ١٨٧٠ ، بينما هي تدور بالنسبة الى دعاة « حزب ارادة الشعب » حول عام ١٨٨٠. ان البلانكيـة الروسية ، التي تفتقر كليا الى ما يسميه الألمان « حس التاريخ » ، تؤجل - وسوف تستمر في هذا التأجيل - بوقاحة تامة من عقد الى عقد اللحظة الانسب للثورة الاجتماعية ولما تبين أنها نبي كاذب في عام ١٨٨٠ ، فانها سوف تكرر نبوءتها ، بعناد جدير بمصير أفضل ، في عشر سنوات ، أو عشرين سنة ، أو ثلاثين سنة ، حتى تتوصل الطبقة العاملة أخيرا الى فهم شروط تحررها الاجتماعي وترد على نبوءاتها بضحكة هوميرية . ذلك أن أية لحظة تاريخية تلائم الدعاية البلانكية ، ما عدا تلك اللحظة التي سوف تكون ملائمة فعليا للثورةالاجتماعية.

لكن الاوان قد حان كي أحدد بمزيد من الدقة التعبير الذي أستخدمه . ماهي البلانكية عموما ؟ ما هي البلانكية الروسية ؟

ان بيوتر لافروف ، كما راينا ، يأمل في أن « غالبية أعضاء » جماعة « تحرير العمل » يمكن أن يصادفوا اليوم أو غدا في صفوف « ارادة الشعب » وانه ليؤكد أن « بليخانوف نفسه حقق في هذه الاثناء تطورا هاما في قناعاته السياسية والاجتماعية» وانه « لنا الحق فيأن نأمل فيمزيد منالتغيرات الجديدة من جانبه في هذا الاتجاه». واذا كان « حزب ارادة الشعب » ، على الأقل بقدر ما يمكننا أن نحكم على ذلك من أدبياته ، يتمسك بوجهةنظر البلانكية ، فلابد أن نستنتج من ذلك أن « تطوري » يتم « في هذا الاتجاه » ايضا وهكذا فان الماركسية التي أدعو اليها حاليا لن تكونسوى مطهر لابد أن تعبره نفسي الاشتراكية قبل ان تنتهي الى الراحة التامة في الاحضان البلانكية ايكون هذا صحيحا ؟ أيسير هذا النوع من « التطور » في منحى التقدم ؟ كيف تمثل المسألة من زاوية الاشتراكية العلمية الراهنة ؟

اننا نقرأ في احدى مقالات انجلز(٣٦) :

« إن بلانكي ثوري سياسي ، وليس اشتراكيا الا بالعاطفة انه يشفق على الشعب ، لكنه لايملك لانظرية اشتراكية ولا اي اقتراح عملي للخلاص الاجتماعي. وفي نشاطه العملي كان على الاخص « رجل عمل » يؤمن بأن أقلية منظمة تستطيع في لحظة مختارة جيدا أن تجرب هجوما ثوريا مفاجئا وان تجر ببعض النجاحات الاولى كتلة الشعب وبذلك تصنع ثورة ظافرة ومن المؤكد أنه تمكن ، في ظل حكم لويس فيليب ، ان ينظم نواة فقط في شكل جمعية سرية وعندئذ حدث مايحدث عادة مع الايمان ان الناس الذين قرنوا الثرثرات الابدية والوعود الباطلة بالثورة الوشيكة جدا قد فقدوا الصبر اخيرا واصبحوا عصاة ولم يكن يبقى في مثل هذا الوضع الا الخيار : اما حل المؤامرة او المخاطرة بصورة

مستقلة عن الشروط الخارجية   ولقد تمت المخاطرة (في ١٢ ايار ١٨٣٩)
وسحقت في طرفة عين   وفيما عدا ذلك ، فقد كانت المؤامرة البلانكية المؤامرة
الوحيدة التي لم تستطع الشرطة التسلل اليها   لقد كان الهجوم مباغتا

« ان ضرورة الدكتاتورية بعد النجاح تبرز من تصور بلانكي   ان كل ثورة
هي هجوم مفاجيء تقوم به أقلية ثورية صغيرة   ومن الطبيعي ان المقصود ليس
دكتاتورية الطبقة الثورية بكاملها ، البروليتاريا ، بل دكتاتورية عدد ضئيل من
اولئك الذين قاموا بالهجوم المفاجيء والذين نظموا سلفا في ظل الدكتاتورية أو
في ظل سيطرة افراد قلائل »

ويستطرد انجلز قائلا :

« اننا لنشعر بأن بلانكي ثوري من جيل ماض   ان هذه الافكار عن مسيرة
الاحداث الثورية قد شاخت منذ زمن طويل ، على الاقل بالنسبة الى الحزب الالماني.
وفي فرنسا لايمكن لهذه الفكرة ان تجد صدى الا عند العمال القليلي النضوج
وناقدي الصبر وحدهم »

وهكذا نرى ان الاشتراكيين من المدرسة العلمية الراهنة يعتبرون البلانكية
وجهة نظر باطلة   ومن المؤكد ان الأنتقال من الماركسية الى البلانكية ليس مستحيلا:
ان الاشياء جميعا تصادف في هذا العالم ! لكنه ليس ثمة ماركسي يمكن أن يعتبر
هذا الانتقال لدى أي امرىء يشاطره أفكاره تقدما في « القناعات الاجتماعية
والسياسية »   ان مثل هذا « التطور » لا يبدو تقدميا الا من وجهة النظر البلانكية.
واذا كان رئيس التحرير الفاضل لرسول ارادة الشعب لم يبدل هو نفسه مطلقا رأيه
عن الاشتراكية من مدرسة ماركس ، فان النبوءة التي يطلقها بخصوص جماعة
« تحرير العمل » لايمكن الا أن تثير لدى القارىء غير المنحاز بلبلة خطيرة جدا

واننا لنرى أيضا من هذا الشاهد الذي أوردناه عن انجلز أن الفكرة التكاتشوفية
عن « ثورة عنيفة » تفرض من قبل الاقلية على الاكثرية هي من البلانكية ، بل نستطيع
أن نقول من البلانكية الخالصة ، لولا أن رئيس تحرير الناقوس ارتأى أن يبرهن لنا
على انه ليس ثمة حاجة على الاطلاق في روسيا الى فرض الاشتراكية على أكثرية
« شيوعية بالفطرة ، عرفا »

وان الصفة المميزة للنوع الروسي من البلانكية ترتد كذلك الى امثلة الفلاح ،
وهي أمثلة مستعارة من باكونين. لننتقل الآن الى آراء السيد تيخوميروف ،
ولنتساءل ما اذا كانت تدخل في هذا التعريف ، أو اذا كانت تشكل نوعا جديدا من
« الاشتراكية الروسية »

٢ • ليف تيخوميروف

أزعم أنه ليس في هذه الآراء شيء جديد على الاطلاق باستثناء بعض الاخطاء فيما يتعلق بالتاريخ ، والمنطق ، والاحصاء

وصحيح أن هذه الاخطاء تشكل شيئا جديدا ، أصيلا ، مميزا ، لكن بالنسبة الى فكر السيد تيخوميروف فحسب فلا البلانكية عامة ولا البلانكية الروسية خاصة ، قد لعبتا دورا في ولادتها وفي « تطورها المخصوص جدا

انها تستمد أصلها من قضية سلبية خالصة الجهل الذي يلعب دورا بارزا حتى درجة كافية في تكون التصورات السياسية والاجتماعية لدى الانتليجنتزيا عندنا، ويبلغ في مقالة السيد تيخوميروف ابعادا غير متواضعة في الحقيقة

ولن يجد القارىء عناء في تأكيد عدالة هذا الحكم اذا ما أراد أن يحل معنا العقدة المتشابكة ، المنكسرة في مواضع عديدة ، لمحاكمات المؤلف الشخصية جدا

لنبدأ بتاريخ الافكار الثورية في روسيا وفي الغرب

يقول السيد تيخوميروف قبل سنوات قليلة جدا فقط كان الاشتراكيون يرون ، معتمدين على تحليل المجتمعات الذي قام به أساتذتهم في الدول الرأسمالية في أوروبا ، أن العمل السياسي ضار بالاحرى بمصلحة الجماهير الشعبية بكل معنى الكلمة ، ذلك انهم كانوا يعتقدون أن دستورا عندنا سوف يكون نفس الأداة التنظيمية للبورجوازية كما كان في أوربا وعلى أساس هذه الاعتبارات كان يمكن أن يصادف لدى اشتراكيينا الراي القائل أنه اذا كان لابد من الاختيار بين شرين ، فان قيصرا مستبدا افضل من أجل الشعب من قيصر دستوري أما الاتجاه الآخر ، المسمى الاتجاه الليبرالي فقد كان يملك طابعا مضادا الخ *

ان الاشتراكيين الروس « يرون ان العمل السياسي ضار بالاحرى معتمدين على تحليل الذي قام به أساتذتهم في الدول الرأسمالية في أوروبا » عن أي تحليل يتحدث السيد تيخوميروف هنا ؟ وأي أساتذة يقصد ؟ من « الذي يرسم صورته اذن وينقل هذه الاحاديث عنه** ؟ من المعروف أن الفكر الاشتراكي الغربي ، معتمدا على التحليل الذي تم في البلدان الرأسمالية في اوروبا » ، لا يبرح يقدم « نمطين من المواقف في مسألة العمل السياسي » ان تلامذة برودون يبشرون بالامتناع السياسي ويوصون بالتمسك به حتى « غداة الثورة » وبالنسبة اليهم فان « الثورة السياسية هي الغاية ، أما الثورة الاجتماعية فهي الواسطة » ولذا فانهم يريدون أن يبدأوا بالثورة الاقتصادية ، معتبرين أن العمل السياسي

---

* رسول ارادة الشعب ، العدد الثاني ص ص

** [ليرمنتوف :صحفي وقارىء وكاتب]

في الشروط الراهنة سوف يكون « ضارا بمصلحة الجماهير الشعبية بكل معنى الكلمة » وان الدستور لن يكون الا « الاداة التنظيمية للبورجوازية » اما التيار الآخر فيملك «طابعا مضادا». فمنذعام ١٨٤٢ رسمت **الحوليات الالمانية الفرنسية**(٣٧) التي كانت تصدر في باريس **المهمة السياسية** للطبقة العاملة في خطوطها الكبرى وفي عام ١٨٤٧ بين ماركس في **بؤس الفلسفة** : « لا تقولوا ان الحركة الاجتماعية تنفي الحركة السياسية فليس ثمة حركة سياسية قط الا وهي اجتماعية في الوقت نفسه . ان **الثورات الاجتماعية** لن تكف عن كونها **ثورات سياسية** الا في نظام للامور لن تكون فيه طبقات وتضادات طبقية * »

ويعود هو وانجلز ، في **البيان الشيوعي** ، الى المسألة ليبينا أن « **كل نضال طبقي هو نضال سياسي** » **ويسخران** بقسوة من « الاشتراكيين الحقيقيين »الذين يتصورون ، مثلهم مثل السيد تيخوميروف ، أن الدساتير لن تكون في اوروبا الا « اداة تنظيمية للبورجوازية » أن الاشتراكية بالنسبة الى مؤلفي **البيان** ، حين نهضت ضد حركة تحرر البورجوازية ، « فقدت شيئا فشيئا براءتها المتحذلقة » واصبحتاداة **للرجعية السياسية والاجتماعية** واننا لنصادف مرارا عديدة نفس الفكرة في مؤلفاتهما الاخرى كما نصادفها في كتابات تلامذتهما ويمكننا القول أن كل عدد من كل صحيفة اشتراكية ديموقراطية في كل بلد من بلدان اوروبا الغربية قد كررها في هذا الشكل أو ذاك ولقد فعل ماركس والماركسيون كل شيء كي يجعلوا أفكارهم واضحة بهذا الخصوص ويبرهنوا على تهافت البرنامج البرودوني

ولكن هؤلاء نحن لابد لنا ، بعد هذا الازهار من الكتابات التي افتتحت عصرا جديدا في تاريخ الفكر الاشتراكي في أوروبا » ، أن نتعلم أن الاشتراكيين الروس ينكرون فائدة النضال السياسي لأنهم « يعتمدون على التحليل الذيقام به أساتذتهم في البلدان الرأسمالية » في الغرب ! أيمكن أن نتحدث اليوم بصورة جدية عن « تحليل مجتمعات في أوروبا الغربية غير التحليل المتضمن في أعمال ماركس وانجلز ؟ لا يمكن أن يحدث ذلك الا في دراسة تاريخية تعالج الاخطاء والثغرات لدى اسلاف ماركس فاما أن السيد تيخوميروف يجهل كل شيء عن ادبيات الماركسية ، وأما انه يفهمها على غرار السيد ايفانيوكوف الذي امتدح « أفلاسه » وبرهن عليهبصورة جزئية في الاصدار الاول **للرسول**(٣٨) واذا كان الاشتراكيون الروس قد ارتأوا أن العمل السياسي ضار ، فليس السبب في ذلك أنهم كانوا يعتمدون على تحليلالمجتمعات في اوروبا الغربية ، بل لانهم كانوا ينطلقون من التحليل الرديء البورجوازي الصغير لبرودون .أكانوا حقا برودونيين جميعا ؟ أكانوا يعتنقون جميعا مذهب باكونين الذي كان ، على طريقته ، لوثر البردونية ؟ حاشا ، وهو أمر معروف على أي حال !

---

* **بؤس الفلسفة** ، ص ١٧٧ - ١٧٨

ومهما يكن من أمر فان تكاتشوف ، مثله بالضبط مثل جميع البلانكيين في أوروبا الغربية ، لم يعتمد مطلقا على « التحليل الذي تم في البلدان الرأسمالية في أوروبا» بل على تقاليد اليعقوبية الفرنسية بالاحرى ، كي يهاجم بكل عنف مبدأ « الامتناع السياسي » أما كان تكاتشوف يكتب « قبل سنوات قليلة جدا فقط » ؟ افلا يجب أن يأخذ رأيه مكانا في تاريخ الفكر الروسي الثوري ؟ أن السيد تيخوميروف يخاطر مخاطرة كبيرة اذ أجابنا بنعم واذا لم تكن فلسفته ، بمحض الصدفة ، سوى نسخة جديدة من فلسفة تكاتشوف ؟ أن المقارنة يسهل القيام بها بالنسبة الى كل قارىء .

لكن أفلم يكن في الحركة الثورية الروسية « قبل سنوات قليلة جدا فقط » الا باكونينيون وبلانكيون ؟ أما كانت تصادف فيها اتجاهات اخرى ؟ أفلم يكن ثمة وجود على الاطلاق لمؤلفين يعرفون أن الدساتير في اوروبا ليست البتة «أداة تنظيمية» للبورجوازية وحدها ، بل لطبقة أخرى أيضا لا يمكن للاشتراكيين أن يحتقروا مصلحتها دون أن يخونوا شعاراتهم الخاصة ؟ يبدو لي انه كان لهم وجود ، انه كان لهم وجود بالضبط في معسكر خصوم تكاتشوف الذي كان يدعو مع ذلك ، وهو ينهض ضد فكرة أن العمل السياسي « ضار بالاحرى بمصلحة الجماهير الشعبية بكل معنى الكلمة » ، الى الكل أو لاشيء ، الى الاستيلاء على السلطة من قبل الاشتراكيين أو الركود السياسي في روسيا . وعندما عن له ، مستندا الى هذا الاساس ، ان يلوح أمام عيون الاشتراكيين الروس بفزاعة الرأسمالية والدستور البورجوازي ، فاليكم ما رد عليه به مؤلف روسي معروف وهو يتوجه الى « شبيبتنا الاشتراكية الثورية » :

« يقولون لكم ان الثورة ضرورية لروسيا اليوم او انها لن تقوم مطلقا انهم يصورون لكم ماحققه البورجوازية عندنا من تقدم ويشرحون لكم ان المعركة ستزداد صعوبة بصورة مطردة مع هذا التقدم،وان الثورة سوف تصبح مستحيلة. ان المؤلف الذي يقول ذلك لكم ينطوي على رأي رديء جدا عن فهمكم اذا ماتصور انكم سوف تنحنون امام حججه ما الذي يدعو الى الاعتقاد بأن نضال الشعب ضد البورجوازية لن يكون معقولا اذا ماقلت حقا في روسيا أشكال للحياة الاجتماعية مماثلة لتلك الاشكال القائمة في الخارج ؟ اليس تقدم البورجوازية هو الذي استحث البروليتاريا الى النضال ؟ أفلا تدوي جميع بلدان اوروبا بالنداءات؟ الى ثورة اجتماعية عتيدة ؟ أفلا تعي البورجوازية الخطر الذي يزداد قربا دون انقطاع والذي يهددها العمال به ؟... ليست شبيبتنا منقطعة حتى هذه الدرجة عن العالم بحيث لا تعرف هذه الاحوال ؛ وان الرجال الذين يريدون اقناعها بأن هيمنة البرجوازية سوف تكون وطيدة لا تتزعزع يعتمدون كثيرا على جهلها حين يرسمون لها هذه اللوحة الوهمية عن اوروبا ».

من الواضح أن كاتب هذه السطور لا يرى مطلقا في الدستور « اداة تنظيمية للبورجوازية وحدها كما هي الحال « في أوروبا » كما يؤكد السيد تيخوميروف أما ان هذا المؤلف على صواب أم لا ، فان على السيد تيخوميروف وحده أن يحكم على هواه ، لكننا ملزمون بالاستشهاد به عند الحديث عن « أنماط المواقف » التي تتخذها الانتليجنتزيا عندنا في قضية العمل السياسي واذا كان المؤلف المقصود ـ بيوتر لافروف ، وهو اليوم شريك السيد تيخوميروف في رئاسة التحرير* ـ لم يتوقف مطلقا عند فائـدة النضال السياسي في روسيا ، فليس السبب في ذلك ابدا انـه « يعتمد » على التحليل الباكونيني « للمجتمعات في البلدان الرأسمالية في اوروبا » ان انعدام الاحترام هذا من جانب السيد تيخوميروف للعمل الادبي لشريكه الفاضل امر لايغتفر على الاطلاق

وعلى أي حال ، فلنكن منصفين ولنحاول أن نجد ظروفا تخفف من خطيئته كيف نفسر هذا الانعدام للاحترام ؟ لماذا يحشر السيد تيخوميروف سائر الاشتراكيين الروس بالامس بـين الباكونينيين ويسكت عن كتابـات بيوتر لافروف ، وينسـى تكاتشوف ، بينما المهربون الذين يدخلون **الناقوس** الى روسيا لم ينتهـوا مـن استهلاك صنادلهم** » ؟ ان السبب في ذلك بسيط جدا ان الشكيين يؤكدون انه لا جديد تحت الشمس ، ولا يمكننا أن نأخذ هذا القول المأثور حرفيا ، كما لايمكننا ان ننكر انـه « لا جديد » حقا في كثير من برامج « الاشتراكية الروسية ومع ذلك فان انصار هذه البرامج يحبون كثيرا المناداة بأن اتجاههم قد كان « التظاهرة الواضحة » الاولى لهذا « الوعي » أو ذاك وبالفعل فانه يكفي ، كي تكون سعادتهم تامة ، أن تنسى بعض مظاهر تاريخ الحركة الثورية الروسية وان يضاف اليهـا مظاهر أخرى مبتكرة وعندئذ فانه سيتضح ان الانتليجنتزيا عندنا كانت حمـلا ضائعا حتى ظهور البرنامج المذكور، لكن منذ نطق مؤلفو هذا البرنامج بنغمتهم الممتازة، فقد بدأ « شروق الشمس المجيد » كما كان هيغل يقول عن الثورة الفرنسية *** ان وجهة النظر السليمة قد وجدت ، والضلالات تبددت ، والحقيقة اكتشفت أيجب أن ندهش لان اناسا يفضلون احلامهم علـى « انتشار الحقائق المريرة **** » ينجرفون مع هذا النوع من المنظور وينسبون الى « حزبهم » وهم ينسبون اسلافهم ومعاصريهم ، اكتشاف اساليب للنضال لا يقتصر الامر على انهم لم يكتشفوها مطلقا. بل هم لم **يفهموها** بصورة مناسبة أيضا

---

* انظر كراسته **الى الشبيبة الاشتراكية الثورية في روسيا** ، ص ٢٢ـ٢٤

** [شكسبير ، **هاملت** .]

*** [**فلسفة التاريخ** .]

**** [يوشكين **البطل** .]

ان هذه الطريقة في كتابة التاريخ التي تفتح جميع الابواب هي بالضبط ما أغوى السيد تيخوميروف لقد أراد أن يبرهن انه اذا لم تكن « الانتليجنتزيا الثورية الروسية في كتلتها العامة » ، بالرغم من « التحليل » الشهير ، « قد تنكرت للنضال ضد الاضطهاد السياسي » ، فقد فعلت ذلك « رغما عنها ، بفعل قوة الاشياء أن فكرة التوازن الحقيقي للعنصرين السياسي والاقتصادي في البرامج الحزبية لم تجد تعبيرها البراق والمدوي الا لدى ظهور ارادة الشعب*» التي يقدم المؤلف هنا الاحترام لها بمعونة الاحرف الكبيرة ان السيد تيخوميروف قد نسب الى جميع الاشتراكيين الروس ، كي يبرهن فرضيته ، افكارا لم يكن يتقاسمها الا الباكونينيون وحدهم ولما كان الباكونينيون يرون ان العمل السياسي « ضار بالأحرى » ، بينما كانوا في « ارادة الشعب » يعتبرونه نافعا ، فانه من المفروغ منه أن شرف اكتشاف منفعته يعود الى هذا الحزب . وانه ليكون من المزعج ذكر تكاتشوف لانه سوف يتضح عندئذ انه دعا الى هـذا النوع من « توازن العنصرين السياسي والاقتصادي في البرامج الحزبية » ، الذي وجد « تعبيره البراق والمدوي » عندما ظهرت « ارادة الشعب » كذلك لم يجد السيد تيخوميروف من المناسب التنويه بأعمال شريكه في رئاسة التحرير طالما لم يكن بد ، في سبيل نقدها والحكم عليها ، من اتخاذ وجهة نظر غير مألوفة مطلقا عندما يكون المرء قد تخيل حتى ذلك الحين انه ليس ثمة وجود لاي « تحليل للمجتمعات » في اوروبا الغربية غير التحليل الذي أعطاه برودون وباكونين وتلامذتهما.

لقد فعل السيد تيخوميروف كل ماهو ممكن في سبيل تعظيم حزبه ، بل لقد حاول المستحيل نوعا ما لقد قرر على سبيل المثال أن يزعم أن المؤسسين السابقين **للاقتسام الاسود** » يندرجون في عداد الخصوم الاشرس للدستور » ولو انه بحث في تمارينه التاريخية عن الحقيقة لا عن مصلحة « السياسة الحزبية »، فانه ماكان ينسى البتة اننا نجد ، فيما يتعلق بالدستور في العدد الاول من **الاقتسام الاسود** ، في **الرسالة الى رفاقنا السابقين**(٢٩) ، هذه الفكرة التي لاتقابل مطلقاً الصورة التي يتخيلها عن المؤسسين السابقين » للمجلة الدورية المقصودة:

« ارجوكم ايها الرفاق الا تتصوروا مطلقا أني ضد الدستور عامة ، ضد الحرية السياسية اني احترم الشخص الانساني جدا بحيث لايمكن أن اكون ضد الحرية السياسية القول ان فكرة الحرية السياسية عديمة المنفعة للشعب ، انه لايفهمها ، تلك خطيئة ان الحرية السياسية لازمة له بقدر ماهي لازمة للمثقف ؛ والفارق الوحيد هو أن الحاجة الى الحرية السياسية تتداخل عند الشعب مع حاجات أساسية أخرى، اكثر جوهرية ايضا وهي من طبيعة اقتصادية وانه من واجب كل حزب اشتراكي ثوري ان يأخذ هذه الحاجات بعين الاعتبار أراد أن تكون الحرية السياسية مؤكدة كليا ، مضمونة ضد تعديات وافسادات العناصر المناوئة » .

ان هذه السطور تفتقر الى الوضوح في التعبير والمفاهيم فيها غير محددة بصورة دقيقة جدا لكن الاستنتاج من ذلك أن « مؤسسي الاقتسام الاسود » كانوا « خصوما » للدستور ، وخصوما « شرسين » ، هذا ما لايمكن أن يفعله المرء الا بعد ان يودع المنطق وداعا ابديا ، اللهم الا اذا كان يفضل ان يتجاهل الحقائق في مصلحة حزبه ، أو أيضا اذا كان يجهل هذه الحقائق بالفعل ، يعني اذا كان لايعرف شيئا من تاريخ الافكار الثورية في روسيا ، التي يهتم بمعالجتها « متخذا سيماء العلماء »

لكن لعل مؤسسي الاقتسام الاسود قد عدلوا فيما بعد آراءهم عن الدستور؟ لنر ذلك ! ان « المؤسسين » المذكورين قد أصدروا عددين من هذه المجلة . واننا نعرف الآن الرأي الذي نصادفه في العدد الأول فيما يتعلق بالحرية السياسية ؛ ماعسانا نكتشف في العدد الثاني ؟

اننا نقرأ في افتتاحية هذا الاصدار

« من المؤكد انه ليس لنا ، نحن الذين ننكر كل خضوع من الانسان للانسان ، ان نرثي لسقوط الاستبداد في روسيا ؛ وليس لنا ، نحن الذين كلفنا النضال ضد النظام القائم جهودا رهيبة جدا وقدرا كبيرا من الخسائر القاسية ، أن نترجى استمراره اننا نعرف ثمن الحرية السياسية ، وكل مانأسف عليه هو ان الدستور الروسي المقبل لايحتفظ لها الا بمكان صغير جدا اننا نحيي كل معركة في سبيل حقوق الانسان ، ونحن نؤيد اولئك الذين يخوضونها تأييدا يتعاظم بقدر عنفوانهم في خوضها . . لكن فيما عدا المحسنات التي ستجلبها من دون ريب الحرية السياسية ، وفيما عدا واجب الفوز بها ، فان ثمة محسنات أخرى وواجبات اخرى ؛ وان الحق في نسيانها لهو اليوم أقل منه في أي وقت آخر اليوم وقد تسممت العلاقات الاجتماعية حتى هذه الدرجة ، بحيث يجب ، لهذا السبب بالذات ، ان تكون مستعدين لكل طارىء »

اتلك هي اللغة التي ينطق بها « الخصوم الاشرس للدستور » ؟

ومن المؤكد ان برنامج « الاقتسام الاسود » يتضمن اخطاء جوهرية جدا، لاتقل عما نجده في برنامج « حزب ارادة الشعب » لكنه يجب في سبيل نقدها بصورة فعالة اتخاذ وجهة نظر الاشتراكية العلمية لا وجهة نظر دعاة الحزب المذكور. ان هؤلاء الدعاة يعانون نفس العيوب التي عاني منها « مؤسسو الاقتسام الاسود »، أقصد العجز عن اتخاذ موقف نقدي حيال الاشكال الاجتماعية والسياسية لحياتنا الشعبية ان الاناس الذين يرضون بأمثلة هذه الاشكال ويبنون على ذلك خططهم الخاصة بالعمل يبرهنون على منطق أعظم اذا هم انضموا الى برنامج « الاقتسام الاسود » بالاحرى من تأييدهم برنامج « ارادة الشعب »

فليبرهن لنا السيد تيخوميروف على العكس

مما لاريب فيه ان الزمن سوف يعوزه وبالفعل فانه سيكون لزاما عليه بادىء الامر ان يبرهن فيما تتميز تصوراته الثورية من تصورات تكاتشوف الثورية ، فيما تختلف الفلسفة السياسية والاجتماعية لمقالة « ماذا نستطيع ان ننتظر من الثورة؟» عن فلسفة **الرسالة المفتوحة الى فريدريك انجلز** . وما لم ينجز بنجاح هذه المهمة الشاقة فان اعتباراته عن الدور التاريخي « لارادة الشعب سوف تظل عديمة المعنى ولسوف يوافق القارىء على ان اعمال هذا الحزب كانت بطولية لكن نظرياته لاتساوي كثيرا وهي بصورة خاصة لاتأتي بأي شيء جديد وبعبارات اخرى فسوف يقول أن ارهابيي ارادة الشعب قد كانوا أبطالا ودعاته أناساً لم يكونوا – لنكن مؤدبين – على مستوى مهمتهم ولن يتزعزع هذا الاستنتاج بالادعاء بأن الاشتراكيين ارتفعوا في ارادة الشعب للمرة الاولى الى اهمية الحزب ربما الحزب الاقوى في البلاد وحتى اذا لم يكن في هذه الصيغة ظل للمبالغة فانه لايمكن أن يستنتج منها الا أن الخطأ ونقص النضوج في النظريات لايمنعان مطلقا الاحزاب القوية من «الارتفاع » في بعض العصور الى نفوذ متفوق لكنه لايمكن ان يستنتج من ذلك اي شيء آخر ولابد ان يكون المرء جاهلا بكل شيء عن التاريخ كي يستدل من نفوذ حزب ما على صواب نظريته وان حزب ارادة الشعب لا يبتكر بمعنى ان سياق أفكاره متخلف جدا عن سياق الامور التي يتصدى لها ولم تفتقر الدنيا الى أحزاب لم تكن تفهم معنى عملها أمام التاريخ كما لم تفتقر الى خرافات لا تملك مع العمل الحزبي » اية علاقة ذات مغزى على الاطلاق اما أن المستقلين قد ارتفعوا لفترة ما من الزمن في انكلترا الى اهمية الحزب ، ربما الحزب الاقوى في البلاد فانه لايمكن ان نستخلص من ذلك أن عقيدتهم الدينية كانت تنطوي على قدر من الحس السليم والمنطق أعظم مما في الاحزاب الاخرى ومع ذلك أفلم ينجح المستقدون في الاستيلاء على السلطة الامر الذي لا يفعل البلانكيون الروس في الوقت الحاضر الا الوعد به ؟

وبينما يعنى مؤلفنا بتجميع عناصر اطراء للفلسفة السياسية «لارادة الشعب» على قدر اكبر من المتانة فانه سيتاح لنا الوقت كي ننصرف الى دراسة مفصلة تتناول ماذا نستطيع ان ننتظر من الثورة ؟» والى ايضاح جميع جوانب فكر السيد تيخوميروف .

اننا نعلم من قبل انه لم يكن يعرف مطلقا أو انه لم يشأ ان يعطي قراءه الفرصة كي يعرفوا جيدا التاريخ الحديث للاشتراكية عامة و «الاشتراكية الروسية» خاصة لننتقل الآن الى اعتباراته عن التاريخ بصورة عامة وتاريخ الراسمالية بصورة خاصة .

اليكم الفرصة المذهلة التي ينطلق بمناسبتها في هذه المقالة المسهبة المنورة.
انــه يقــول

النضال السياسي قد بات عاقبة للحياة الروسية محتومة حتى درجــة
كبيرة بحيث لايمكن لكائن من كان، ان يحزم أمره على انكاره لكن قسما من الاشتراكيين،
يحزموا امرهم على ذلك لايتوصلون كذلك الى ادخال هذه العاقبة في اطار
الافكار النظرية المألوفة بحيث ينتهون في الجهد الذي يبذلونه كي يجدوا الرابطة،
الى بنيانات اصطناعية تغير كليا معنى النضال السياسي الذي تخوضه «ارادة الشعب».

ماهو هذا القسم من «اشتراكيينا» وما هي هذه الافكار التي هي «مألوفة» لديهم لقد قرأنا في الصفحات السابقة من المقالة انه قبل سنوات قليلة جــدا فقط كان الاشتراكيون يرون أن العمل السياسي ضار بالاحرى بمصلحــة الجماهير الشعبية بكل معنى الكلمة » ولقد قررنا عندئذ ان جميع الاشتراكيين الروس في رأي السيد تيخوميروف ، « قبل سنوات قليلة جدا فقط قد كانوا باكونينيين، طالما ان المؤلف لا يقول كلمة واحدة عن التيارات الاخرى ولقدعلمناكذلك ان ارادة الشعب » بينت خطيئة الاشتراكيين الروس وساعدتهم في « فهم طابع التطور التاريخي لروسيا وانه ليتبين حاليا ان قسما من الاشتراكيــين الروس لا يتوصلون الى التخلص من الافكار المألوفة » وينتهون الى نتائج تبدل كليا مغزى نشاط « ارادة الشعب » والظاهر أن السيد تيخوميروف يقصــد الباكونينيين الروس الذين لم يتوصلوا مطلقا الى فهم طابع تطور روسيا » هذا على الاقل مايوحي به المنطق لنا ، لكنه ليس في حال من الاحوال مايقوله المؤلف لنا

انهم يسعون [يعني الاشتراكيين الذين ينتسبون الى القسم الآنف الذكر] منطلقين من الفكرة القائلة ان روسيا يجب بالضرورة ان تجتاز مرحلــة التطور الرأسمالي كي تصبح قابلة لادراك فكرة الاشتراكية وتحقيقها ان يجروا الثوريين الروس في طريق قتال سياسي محض ، من اجل الدستور ، متخلــين على انها وهم غير قابل للتحقيق عن كل فكرة خاصة بالحصول على ثورةاقتصادية اكثر أو اقل اهمية جنبا الى جنب مع الثورة السياسية

اننا نهتف على طريقة شتشيدرين يا لها من وثبة عجيبة » ، لان هــذه الخطبة الغنائية لايمكن ان تحل المسائل الملعونة التي تعذبنا من اين خرج هذا «القسم» من الاشتراكيين الروس ، وما يبعث على ذهول اعظم من اين تصيدوا أفكارهم المألوفة » اذا كان **جميع** الاشتراكيين الروس ، قبل سنوات قليلــة جدا فقط » ، ينكرون فائدة النضال السياسي ؟ وكيف يمكن لأناس يؤمنون بتفاهة هذا النضال ان « ينطلقوا من فكرة ان روسيا يجب بالضرورة ان تجتاز مرحلــة التطور الرأسمالي » ؟ وسواء أكانت هذه الفكرة صائبة أم مغلوطة ، فانها يجــب على كل حال ان تكون **جديدة** ، ولايمكن في حال من الاحوال ان تنسب الى النظريات

المألوفة » الخاصة « بقسم من الاشتراكيين الروس »: هذا مايكفله تاريخ مسألة الاشتراكية في روسيا وكذلك اشارات السيد تيخوميروف نفسه الى التاريخ
واذا كانت هذه الفكرة جديدة فلا بد اذن ان تقوم على بعض النظريات الجديدة ، التي كانت مجهولة او قليلة الجاذبية « قبل سنوات قليلة فقط بالنسبة الى الاشتراكيين الروس واذا كان تيار جديد قد برز الى وضح النهار في الفكر الاشتراكي الروسي ، فان الواجب يدعو الى تسميته ، والاشارة الى تكوينه ،وعدم الاقتصار على أنصاف التلميحات ، على ما لا أدري اية « أفكار نظرية مألوفة » لاتفسر بالمناسبة اي شيء على الاطلاق

وفيما عدا ذلك فقد أشرنا أعلاه الى أن السيد تيخوميروف لا يحب الضربات المباشرة » فليس فيه شيء من سفياتوسلاف الذي كان ينبه عدوه سلفا قبل ان يهاجمه انتبه ! ». ان السيد تيخوميروف يهاجم اعداءه دونما اعلان للحرب من المؤكد انها قضية ذوق ، ومن المعروف أن لكل انسان اذواقه وألوانه نحبها

واما قنعنا بألا نفهم البتة السبب في أن مؤلفنا يلتف بمثل هذا السر »، فلا بد لنا ان نبحث « بعقلنا الخاص » عن هذا التيار الجديد في الاشتراكيةالروسية، وهو سؤال بالغ الاهمية حتى الدرجة القصوى وبما اننا تخلينا نحن أنفسنا عن عدد كبير من « الافكار النظرية المألوفة » القديمة للاشتراكيين الروس ، فلعلنا نتفق ـ من يدري ؟ ـ مع المجددين الذين يعنى السيد تيخوميروف بهم ومن المؤكد انهم ليسوا جذابين كثيرا حسب الطريقة التي يقدمهم بها لكن كم قيل للناس مرارا وتكرارا »* انه يجب دائما الاصغاء الى الفريق الخصم!

٣ ـ جماعة « تحرير العمل »

في راي « الاشتراكيين من هذا التكوين ان الطموح الى الثورة الاقتصادية لن تكون الا ضارا ، طالما انه يلوح « بالشبح الاحمر » امام أنظار الليبراليين ويحرمنا من تأييدهم في النضال من اجل الدستور »

ان هذا « الشبح الاحمر يذكرنا بشيء ما في اية مقالة ، في اية كراسة صادفناه ؟ اجل ، بكل تأكيد ! اني أنا الذي استخدمت هذا التعبير في **الاشتراكية والنضال السياسي** حيث قلت ان « ارادة الشعب » تخيف مجتمعنا المثقف بتلويحها بالشبح الاحمر

---

* كيريلوف : **الغراب والثعلب**

لعل كل ما قاله السيد تيخوميروف لتوه لايعدو كونه رمزا ؟ لعلنا يجب أن نفهم من قسم من الاشتراكيين جماعة «تحرير العمل» ومن «الافكار النظرية المألوفة» أفكار اعضا هذه الجماعة ؟

لكن ذلك سيكون مضحكا جدا

متى تخلت جماعة « تحرير العمل » اذن عن اية فكرة للحصول على ثورة اقتصادية **اكثر او اقل اهمية** جنبا الى جنب مع الثورة السياسية ؟ يا له من انحراف انا لانؤمن بالنظرية العجيبة القائلة ان العمل الخاص **بطبقة** يمكن انجازه ضمن حدود اكثر أو اقل اهمية من قبل حلقة صغيرة من الرجال اننا نقول انه اذا كان في مقدور المحامي أن يمثل زبونه **أمام العدالة** ، فان اية لجنة «تنفيذية» للعمل ، او كائنا ماكان الاسم الذي يطلق عليها ، لاتستطيع ان تمثل الطبقة العاملة **امام التاريخ** ، لان تحرر الطبقة العاملة **يجب ان يكون من صنعها الخاص**، ولانه يلزمها في سبيل انجاز هذا العمل أن تحصل على ثقافة سياسية وتفهم افكار الاشتراكية وتتمثلها اننا نعتقد ان امكانية التحرر الاقتصادي للطبقة العاملةتزداد بصورة مطردة مع سرعة وشدة هذه العملية من التثقف والتمثل وان الانتليجنتزيا الاشتراكية عندنا ، التي سيكون من السخف من جانبها حتى ان تحلم بالقيام بهذه الثورة الاقتصادية بوسائلها الخاصة ، تستطيع على اي حال ان تقدم الى العمال خدمة لا تقدر بتهيئتهم لادخال الفكرة المشتركة للعالم العمالي(٤٢) » في الحقائق انه لمبين بكل وضوح ، منذ اول مؤلف لجماعة « تحرير العمل »، في الكراسة المعنونة **الاشتراكية والنضال السياسي** ، ان من واجب الانتليجنتزيا عندنا « ان تصبح دليل الطبقة العاملة في حركة التحرير التي تتهيأ وان تشرح لها مصالحها السياسية ، **ومصالحها الاقتصادية** ، والترابط القائم بين هذه المصالح وتلك ؛ ان من واجبها ان تهيىء الطبقة العاملة كي تلعب دورها الخاص في الحياة الاجتماعية الروسية ان من واجب المثقفين الاشتراكيين عندنا ان يهتموا ، منذ المرحلة قبل الدستورية ، **بتعديل العلاقات الفعلية للمجتمع الروسي في مصلحة الطبقة العاملة** ان من واجبها ان تبذل كل قواها كيما تتدخل الطبقة العاملة ، منذ خطوات روسيا الاولى في حياتها كدولة دستورية بوصفها حزبا مستقلا له برنامج اجتماعي وسياسي محدد جيدا ومما لاريب فيه ان صياغة هذا البرنامج يجب ان تكون من عمل العمال انفسهم بيد أن من واجب الانتليجنتزيا أن توضح لهم النقاط الاهم فيه مثلا اعادة صهر العلاقات الزراعيةالحدثية والنظام الضرائبي وتشريع العمل بصورة شاملة ومساعدة الدولة لروابط المنتجين ، الخ* » أيشبه هذا في شيء التخلي عن « أية فكرة للحصول على ثورة اقتصادية أكثر أو أقل اهمية جنبا الى جنب مع الثورة

---

* **الاشتراكية والنضال السياسي** ص ٨٤-٨٥

السياسية » ؟ آمل تماما أن لا ولما كان السيد تيخوميروف أذكى من الا يفهم امورا على هذا القدر من البساطة ، وكان كاتبا أصدق من أن يفير معناها عن عزم وتصميم، فمن المؤكد انه لم يكن يقصد جماعة « تحرير العمل عندما تحدث عن قسم سن الاشتراكيين » ، ولا كانت الافكار المقدمة في **الاشتراكية والنضال السياسي** هي المقصودة بالافكار النظرية المألوفة »

ومن المرجح ايضا أن « الشبح الاحمر لم ينستعر من كراستي أيضا والا فاني استطيع ، وبحق ان آخذ على السيد تيخوميروف انه يستشهد بصورة غير مضبوطة » فحين تحدثت عن « الشبح الاحمر لم أوص اشتراكيينا بالتخلي عن« الحصول على ثورة اقتصادية اكثر او أقل اهمية لقد أوصيتهم بالتخلي عن الثرثرة عن قرب مثل هذه الثورة بينما هم لم يفعلوا شيئا او فعلوا شيئا قليلا جدا من اجل تحقيقها بصورة فعلية ،وبينما لم يكن في الامكان تأسيس اليقين بقربها الا على أمثلة الشعب الاكثر صبيانية لقد عارضت هذه الثرثرات عن الشبح الاحمر بالعمل الفعال من اجل التحرر الاقتصادي للطبقة العاملة، كما يمكن ان يقتنع أي امرىء يقرأ الصفحات ٧١ وما يليها من كراستي* ، حيث شير بصورة خاصة الى مثال الشيوعيين الالمان في عام ١٨٤٨ اللهم الا اذا كان السيد تيخوميروف يتهم ماركس نفسه بالتخلي عن اية فكرة للحصول على ثورة اقتصادية اكثر أو اقل اهمية جنبا الى جنب مع الثورة السياسية ؟ واني لأقبل تماما وثمة براهين عديدة على ذلك ، بأن مؤلفنا مطلع بصورة رديئة جدا على الادبيات الاشتراكية في اوروبا الغربية ؛ بيد أن مثل هذا الجهل الصارخ امر لايغتفر على الاطلاق كلا بكل تأكيد ، فان مايقصده السيد تيخوميروف لا هو كراستي ولا هو ماقلته عن الشبح الاحمر

وما دام هذا الشبح موضع الاتهام ، فلن يكلفنا شيئا على أية حال أن نشرح بطريقة اكثر تفصيلا حتى درجة ما المناسبة التي أشرت اليه في كراستي.

في العدد السادس من **ارادة الشعب** ، في اواخر الافتتاحية ، نقرأ هذا التعنيف الموجه الى ما اتفق على تسميته بالمجتمع المثقف

« **اما نتصرف في مصلحة المجتمع المثقف** ، فاننا نريد ان نقنعه بالتخلص أخيرا من بلادته الجبانة ؛ اننا ندعوه لان يرفع صوته في مصلحته ، في مصلحة الشعب ، من أجل حياة ابنائه واخوته الذين يضطهدون ويغتالون بصورة منهجية * »

ولقد قرأت أيضا في **تقويم ارادة الشعب**(٤٣) انه « من واجبنا حيال الليبراليين، دون التستر على راديكاليينا ، ان نبين ان **مصالحنا** ومصالحهم ، في الحالة الراهنة

---

* استشهد وفقا للطبعة الاولى الصادرة في الخارج .

للقضايا الحزبية ، تجبرنا على العمل بصورة متفقة ضد الحكومة *

وحين يؤكد السيد تيخوميروف ان « بداية للتنظيم الاشتراكي لروسيا » تنتظرنا بعد سقوط الحكم المطلق فانه ليس على اي حال اول من عبر علنا عن آمال « حزب ارادة الشعب » ولم يكن المقصود مطلقا من « بداية التنظيم » نجاح ذلك البرنامج الادنى الذي كان ماركس يسميه انتصار اقتصاد العمل على اقتصاد الرأسمال ، بل بالاحرى « الثورة الاشتراكية » كما تحلو للناقوس وان النظرية التي تزعم ان في روسيا توازنا للعوامل السياسية والاقتصادية مواتيـــا بصورة خصوصية انما تخيلت من اجل اقناع الناس بامكانية مثل تلك الثورة.

واخيرا فان مفعول الدعاية بواسطة الارهاب التي فجرها « حزب ارادة الشعب » قد لمست « المجتمع المثقف » بقوة أعظم مما لمست « الشعب » بالمعنى الدقيق للكلمــة

ولهذه الاسباب جميعا فقد تساءلت من تخدع « حزب ارادة الشعب » هنا (نفسه أم « المجتمع المثقف » ؟) ، وأي سفسطائي سوف يتوصل الــى اقنــاع الليبراليين بأن « الحالة الراهنة للقضايا الحزبية » ، وبعبارة اخرى الثــورة الاجتماعية (ولا اقول الاشتراكية) كما تحلو لتكاتشوف ، سوف تجبرهم على العمل ضد الحكومة « بصورة متفقة » مع « ارادة الشعب » ، واين نجــد ليبراليين على هذا القدر من السذاجة بحيث لايلاحظون مكر مثل هـــذه السفسطة ؟ ليس في روسيا على أي حال ولما كانت « ارادة الشعب » راغبة في اقناع « المجتمع المثقف » بالتخلص اخيرا من بلادته الجبانة فهي تؤكد له في الوقت نفسه ان التخلص من تلك البلادة وتدمير الحكم المطلق يعنيان العمل بصورة مباشرة في مصلحة الثورة الاجتماعية ولقد استخلصت من ذلك ان دعاية « ارادة الشعب » لا يمكن ان تنجح بين المجتمع المثقف عندنا

وفيما عدا ذلك فان الارهاب ، بالرغم من أهميته التي لاجدال فيها ، لايملك بصورة جازمة أي شيء مشترك مع « بداية تنظيم اشتراكي لروسيا » ما الذي فعلته اذن « ارادة الشعب » بهدف هذا التنظيم ؟ هل أسست حلقات ثورية سرية في الاوساط الشعبية ؟ ولكن لماذا لانسمع اي حديث عنها قط ؟ اتقوم بالدعايــة الاشتراكية بين الشعب ؟ لكن اين هي اذن ادبياتها الشعبية ؟ اذا استثنينا المجلة العمالية – وهي على أي حال سيئة التحرير جدا – فاننا لانعرف اي نموذج آخر أتكون « بداية التنظيم الاشتراكي لروسيا » هي التي تنتظر اذن « حزب الشعب » دون ان تتلقى منه قط طلبا للمقابلة ؟ ليس في الامكان الاعتماد على مثل هذا العطف من جانب التاريخ ان « ارادة الشعب » تأمل في ان تحصد ما لم تزرعه قط انها تبحث اذا جاز التعبير عن ثورة اجتماعية تنبت في العراء انبــا

(*) التقويم ١٢٩ .

تسدد بندقيتها الى ارنب بري وتتصور انها قتلت أرنبا آخر ان « **انتظارها** » للثورة لا يستجيب له مطلقا **ما فعلته** من أجل هذه الثورة واذا كان الامر كذلك ، أفما آن الاوان لتنسيق النتائج مع المقدمات لفهم ان الارهاب معركة من أجل الحرية السياسية ولاشيء آخر ؟ أفما آن الاوان للاعتراف بأن هذه المعركة تخاض « في مصلحة المجتمع المثقف كما يعترف بذلك العدد السادس من **ارادة الشعب**؟ أفما آن الاوان للكف عن تخويف المجتمع المذكور بالتلويح بفزاعة « الشبح الاحمر من الجانب الذي لن يظهر فيه قط علم الطبقة العاملة ؟ ان الاحاديث التي يشار فيها الى هذا الشبح المستحيل منطقيا ليست ضارة فحسب لانها « تحرمنا من تعاون » الليبراليين في النضال من اجل الدستور بل هي ترسخ فينا بالاضافة الى ذلك اليقين الذي لا أساس له بأن الثورة الاشتراكية « تنتظرنا » دون أن تكون ثمة حاجة الى الجهود من قبلنا ؛ انها تحول انتباهنا عن الشيء الاساسي **عن تنظيم الطبقة العاملة في سبيل النضال ضد اعدائها الحاضرين والآتين** . هذا ما يعنيه ، هذا فقط مايعنيه ما قلته بصدد الشبح الاحمر

في فرنسا ، عشية حرب ١٨٧٠ وجد أناس ايضا يصرخون عاليا جدا بأن الجيوش الامبراطورية لن تصطدم بأي عائق على الطريق الى برلين وهؤلاء لم يهتموا بتسليح القوات العسكرية ولا بتموينها لكنه وجد كذلك أناس آخرون كانوا يقولون ان الواجب يدعو بدلا من التلويح بفزاعة العم الى الاهتمام بادىء الامر بتنظيم الدفاع الوطني من الذي كان يدرك بصورة افضل مصلحة البلاد؟

لقد حادت هذه الايضاحات بي عن موضوعي فبدلا من دراسة الفلسفة التيخوميروفية للتاريخ انجرفت في حديث عن الشبح الاحمر ان البرنامج الليبرالي و « الافكار النظرية المألوفة لقسم من الاشتراكيين سوف تعود بنا الى الطريق الصالحة ، الى الموضوع الذي يهمنا

ماذا يقول أيضا ذلك « القسم موضوع البحث وكيف يخرسه السيد تيخوميروف ؟

في رأي هذا المؤلف ان « القسم المذكور يقصر على وجه التقريب حججه على الاعتبارات الآنفة الذكر عن الدستور وعن الشبح الرهيب وهو لن يعنى حتى بتفسير افتتانه الفائق بالدستور ان هذا الافتتان البائس « غير مفهوم نوعاما، كما هي الحال فيما عدا ذلك بالنسبة الى جميع هذه البرامج [لماذا الجمع هنا ؟]. وهذا يحدث على العموم الانطباع بأنه لايقال شيء على الاطلاق ، وبأن الامور لاتوضح كليا ومع ذلك فانها جميعا تصدر عن نفس وجهة النظر الاجمالية الواضحة كل الوضوح هذا امر جيد لكن اية وجهة نظر تولد جميع هذه البرامج ،نعني برنامج « قسم من الاشتراكيين في عدادها ؟ انها وجهة نظر رديئة جدا طالما انها « تخلق تيارا يمارس هداما في الحزب الثوري

> اننا نريد ان نتحدث عن التيار الذي يعتبر الرأسمالية الروسية ضرورة تاريخية، وإما يذعن لهذه الحقيقة المزعومة محتومة يتعزى بفكرة ان روسيا لن تستطيع ، اذا لم تمر بمدرسة الرأسمالية ، ان تصبح قادرة على تحقيق نظام اشتراكي. »

ليس هذا بالامر الجديد مطلقا لقد قرأنا في الصفحة السابقة ان قسما من الاشتراكيين » يعتمدون على الفكرة القائلة ان « روسيا يجب بالضرورة ان تجتاز مرحلة التطور الرأسمالي الخ وهكذا يتبين ان وجهة النظر الاجمالية التي تصدر عنها **جميع هذه البرامج** هي نقطة الانطلاق **لبرنامج واحد** ، الامر الذي ليس هو بالجديد جدا ولا هو بالمنطقي تماما لكنه يتحلى بأهمية لامراء فيها اننا نرى بوضوح بعد الآن السبب في الافتتان الفائق الذي يحظى الدستور به.

ويسأل السيد تيخوميروف :

> « وفي الحقيقة ماحاجتنا الى الدستور ؟ أليس من اجل تزويد البورجوازية بوسائط جديدة من أجل تنظيم الطبقة العاملة وتدريبها على الاستيلاء على الاراضي ،وعلى الغرامات وعلى اللكمات الموجهة الى الوجه ؟ لايستطيع ان يرتمي على هذا الفرار في الاعصار الا ذلك الذي انحنى تماما امام حتمية الرأسمالية في روسيا وضرورتها

ان قسما من الاشتراكيين قد انحنوا أمام هذه الحتمية ، وإما أخطأوا مرة في الفكر لم يعد في امكانهم مطلقا التوقف على منحدر الشر واذ لم يكتفوا حيال الدستور بابداء « افتتان » يغطيهم بالعار في انتظار أية باكونينية أورثوذكسية ، فقد جعلوا ، أو هم لن يتأخروا البتة ، في اظهار التسامح حيال الاستيلاء على الاراضي ، وحيال الغرامات ، وحيال اللكمات الموجهة الى الوجه ، على النقيض من السيد تيخوميروف الذي لايريد البورجوازية كما لايريد حواشيها ما السبب في كل هذه البشاعات من جانب « قسم من الاشتراكيين ؟ ان القضية واضحة

> في الوضع الحالي لروسيا ، وللرأسمالية الروسية ، ولعامل المصنع في روسيا، فان الدعاية من أجل النضال السياسي يجب بصورة مؤقتة ان تحمل ذلك الذي يؤمن بالضرورة التاريخية للرأسمالية في روسيا على التخلي كليا عن الاشتراكية ان العامل القابل لدكتاتورية الطبقة لا وجود له على وجه التقريب وبالتالي فليس في الامكان اعطاؤه السلطة السياسية ألن يكون من الافضل جدا التخلي لبعض الوقت عن الاشتراكية التي أصبحت كابحا عديم الجدوى ، بل ضارا بالنهاية الوشيكة والضرورية ! ذلك يعني التفكير بصورة تناسب امرءا يمضي حتى غاية افكاره ويعرف ان يضحي بنفسه.»

اننا نعرف بعد الآن مصدر الغرامات واللكمات الموجهة الى الوجه ،و ان كنا لانرى بعد بصورة اكيدة اذا كان ذلك سيكون موجودا في مخيلة السيد تيخوميروف وحدها او سوف يرد بصورة فعلية في برنامج قسم من الاشتراكيين»

سوف نحاول بعد قليل أن نحل هذه المسألة الهامة فلنسارع الآن بالعودة الى السيد تيخوميروف الذي يخوض المعركة العامة ضد الاشتراكيين المقتنعين بالضرورة التاريخية للرأسمالية الروسية

٤ ـ ليف تيخوميروف ضد جماعة
« تحرير العمل »

انه يسأل القارىء

« أفلا تقوم حجة انصارها [انصار الرأسمالية من دون ريب ؟] على مجموعة من السفسطات ؟

انهم يوردون لنا مثال فرنسا ، وألمانيا [وانكلترا ؟ أيكون هذا الفيل قد أفلت من « قسم من اشتراكيينا ؟ »] حيث وحدت الرأسمالية العمال ، فهي ضرورية اذن من اجل توحيد عمالنا ايضا ان انصار العبودية يفكرون بالطريقة نفسها بالضبط ، فهم يشددون كذلك على دورها في المجتمعات البدائية ان العبودية هي التي علمت المتوحشين ان يعملوا ، وروضت الانفعالية البشرية ، وزادت مردود الشغيل هذا كله صحيح بصورة مطلقة أيترتب على ذلك أن البشر في افريقيا الوسطى [وأذكر هنا السيد تيخوميروف ان العبودية في افريقيا الوسطى قد استغنت كليا عن المرسلين] يجب أن ان ينصرف الى استعباد العبيد السود او ان المربي يجب ان يطبق على تعليم الاطفال نظام القسر الاستعبادي ؟

ولسوف يسارع القارىء الى الموافقة على أن أي شيء من هذا كله لن «يترتب». ويستطرد السيد تيخوميروف ، واثقا سلفا من الجواب

ان تاريخ البشرية يتبع احيانا الطرق الابعد عن الاحتمال اننا لا نؤمن بعد الان بيد إلهية توجه كل خطوة من خطوات الانسان كي تدله على سبل التقدم الاسرع والاضمن لقد كانت دروب التاريخ في بعض الاحيان شديدة التعرج ، وأخطر من جميع الطرق التي يمكننا تخيلها ومن المؤكد انه حدث احيانا ان حقيقة تاريخية ، ضارة من بعض الجوانب ومبطئة لتطور البشر ، قد خدمت من جوانب اخرى قضية التقدم ؛ كذلك كان دور العبودية بيد ان هذه المدرسة لا هي الفضلى ولا هي الوحيدة لقد اثبت علم التربية الحديثة أن القسر يشكل اسوأ الوسائل من أجل تعليم العمل وفي مسألة تطور الانتاج الكبير ، فانه من المسموح به كذلك الارتياب في أن تكون دروب التاريخ في هذا المضمار هي الفضلى ، كما هي الوحيدة الممكنة بالنسبة الى جميع الشعوب... وانه لصحيح بصورة مطلقة ان الرأسمالية التي ولدت في تاريخ بعض الشعوب الاوروبية كتلة من الشرور والكوارث قد كان لها مع ذلك ، بفعل احدى عواقبها ، ناحية جيدة، ألا وهي خلق انتاج كبير هيأ حتى درجة ما [!] الارض من اجل الاشتراكية لكنه لايترتب على ذلك مطلقا أن بلدانا أخرى ، روسيا مثلا ، لاتملك دروبا اخرى من اجل تطور الصناعة الكبرى ان جميع الاشياء تلزمنا بأن نفكر بأن نمط تشريك العمل المتضمن في الرأسمالية هو واحد من اسوأ الانماط ، لانها وهي تهيىء فعليا من جوانب

عديدة امكانية النظام الاشتراكي تؤخر بمظاهر اخرى من مظاهرها ، من جوانب عديدة ، قيـام هذا النظام هكذا على سبيل المثال تطور الرأسمالية بين العمال ، الى جانب تجميع العمال الآلي ، مزاحمة تنسف وحدتهم الاخلاقية ؛ وعلى اي حال ، فانها تعمل على ابقائهم في مستوى من التطور ادنى كثيرا مما تسمح به الحالة العامة للحضارة ؛ وعلى أي حال ، فانها تنسيهم بكل بساطة أي اشراف على مجرى الانتاج بمجموعه ، الخ ان جميع هذه الجوانب الضارة للتشريك الرأسمالي للعمل لاتنسف بصورة جازمةمغزى الجوانب الحسنة ؛ بيد انها ترمي على أي حال في دولاب التاريخ مجموعة من العصي الغليظة التي تؤخر بصورة مؤكدة حركته في اتجاه النظام الاشتراكي »

اني لا أورد ابدا هذه المقتطفات الكبيرة جدا من مقالة السـيد تيخوميروف دونما سبب وبالفعل فان هذا المقطع يكشف لنا مظهرا اصيلا لفلسفة التاريخ عند هذا المؤلف ان بيوتر تكاتشوف ، في مناظرته مع انجلز يتخلى كليا عن «الغرب» لخصمه الغربي ؛ انه يكرر اجمالا في كل سطر من سطور **الرسالة المفتوحة** ان نظرياتك تقوم على مجتمعات الغرب ، ونظرياتي على المجتمع الروسي ؛ اني مصيب على الطريقة الروسية كما انك مصيب على طريقة الغرب الاوروبية. » ويمضي السيد تيخوميروف أبعد من ذلك انه ينتقد من وجهة نظر « عقله الخالص من حيث هو روسي تطور اوروبا الغربية ، ويفتح تحقيقا كاملا بخصوص هذه «العصي الغليظة التي ترمى في دولاب التاريخ » والتي تؤخر بصورة مؤكدة حركتـه باتجاه النظام الاشتراكي ومما لاريب فيه انه يتصور التاريخ متحليا بحـركة خاصة موجهة نحو « النظام الاشتراكي » ، بصورة مستقلة عن الحالة الاجتماعية المنشأة بفعل هذه المرحلة او تلك من التاريخ ، الرأسمالية في مثالنا ان دور هـذه الرأسمالية في الحركة المقصودة سوف يكون ثانويا بله مشتبها به جـدا ان الرأسمالية وهي تهيىء فعليا من جوانب عديدة امكانية النظام الاشتراكي تؤخر بمظاهر اخرى من مظاهرها ، من جوانب عديدة ، قيام هذا النظام » لكـن ما الذي ينقل هذه الحركة الى التاريخ ؟ ذلك ان السيد تيخوميروف لا يؤمن بعد الآن «بيد إلهية قادرة على حل مسألة « النقرة القاتلة جدا بالنسبة الى فلسفة التاريخ عنده انه لمن سوء الحظ جدا ان هذه النظرية الاصيلة تحـدث الانطباع بأنه لايقال كل شيء ، وبأن جميع الامور لا تخرج الى ضوء النهار

أواه يا للسيد تيخوميروف هذا ! لشد ما يحب أن يتحدث في المواضيـع العميقة ! ان الهزل لا موضع له حيال هذه القناعة بأن « التاريخ يتبع أحيانا الطرق الابعد عن الاحتمال » او ان « دروبه كانت في بعض الاحيان شديدة التعرج ، واخطر من جميع الطرق **التي يمكننا تخيلها** » ! ولا شك انه لن يتأخر عن « تخيل » ـ هذا اذا لم يكن قد فعل ذلك مسبقا ـ دربا أخرى للاشتراكية من أجل « الغرب » ، دربا أقل تعرجا واقل خطرا من درب البلاد التي أعطت مولدا لنيوتن ، وهيغل ، وماركس،

لكنها ابتعدت بطيش وآسفاه عن روسيا المقدسة وعن نظرياتها النوعية وان السيد تيخوميروف ليملك فيما يبدو اسبابه حين يعلن انه « من المسموح به كذلك الارتياب في أن تكون دروب التاريخ في هذا المضمار [يعني في مضمار الانتقال الىالاشتراكية] هي الفضلى » ، الخ الا لانخطئن بشأن تواضع هذا الارتياب ! ان السيد تيخوميروف يتناول هنا مسألة شهيرة أيكون عالمنا حقا افضل جميع العوالم التي يمكن تخيلها والا يعاني مطلقا من كونه « محفوفا بالاخطار حتى درجة ما ؟ من المؤسف ان المؤلف يقصر اعتباراته بشأن **افضل العوالم*** على ميدان التاريخ وحده مما لاريب فيه أنه يحض القارىء اذن على تشكك مفيد يتناول مسألة معركة ما اذا كان تطور كرتنا الارضية قد كان افضل جميع التطورات التي يمكن تخيلها » ايكون المعلم بانغلوس ، الاستاذ السابق لعلم الكونيات الميتافيزيائية اللاهوتية في القصر الويستفالي توندر – دير – ترونخ ، لايبرح على قيد الحياة ؟ ان الدكتور المتفائل الشهير كان يبرهن ليس بدون براعة ،علىأن دروب التاريخ هيأفضل جميع الدروب التي يمكن تخيلها ومن المؤكد انه كان سيجيب بالنفي على من كان يسأله ما اذا لم يكن في مقدور تاريخ الحضارة الرومانية أن يستغني عن العنف الذي عانت منه لوكريسيا الطاهرة لكن المتشكك السيد تيخوميروف يرى انه من المسموح به الارتياب » في الحل البانغلوسي لهذه المسألة الشهيرة ومما لاريب فيه ان انجاز سيكستوس تاركان يبدو له محفوفا بالاخطار » واسوأ جميع الانجازات التي يمكن تخيلها بل ان هذا الخلاف يمكن أن يوفر مواد من اجل مناقشات فلسفية بناءة جدا بالنسبة الى الاجيال القادمة

بالنسبة الينا الذين نعنى قليلا جدا بالتاريخ **الممكن** للغرب **الممكن** في اوروبا **ممكنة** ، ونسخر جدا من «الدروب» التاريخية التي يمكن ان «يتخيلها» ميتافيزيائي خالي البال ، بالنسبة الينا فان الامر الهام هنا هو أن السيد تيخوميروف لم يفهم معنى ومغزى احدى المراحل الاهم من التاريخ **الفعلي** للغرب **الفعلي** في اوروبا **فعلية**.

الحكم الذي يصدره على الرأسمالية لن يرضي حتى الساخطين من اصحاب النزعة السلافية الذين سبق لهم ن أصدروا حكم حرمان **الشرق** على تاريخ **الغرب** برمته ذلك ان هذا الحكم يحتدم بالمتناقضات الصارخة ففي موضع ما من «ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ » تثار مسألة « الحضارة الجبارة لأوروبا » التي «توفر الف وسيلة من اجل ايقاظ الفضول الفكري عند المتوحش وتطوير حاجاته ، وكهربته معنويا وفي الصفحة التالية هؤلاء نحن ، نحن الروس المتوحشين المساكين الذين كهربتنا معنويا هذه السطور نغطس على حين غرة في مياه السك الجليدية اننا نعلم ان الرأسمالية التي ولدت كتلة من الشرور والكوارث

---

* Optimo Mundo . باللاتينية في النص الاصلي .

قد كان لها مع ذلك بفعل احدى عواقبها احدى **ناحية جيدة** الا وهي خلق انتاج كبير هيأ حتى **درجة ما** الارض من أجل الاشتراكية ان هذا كله « يجبر السيد تيخوميروف على التفكير بأن وسيلة تشريك العمل المتضمنة في الرأسمالية هي احدى اسوأ الوسائل ،الخ وباختصار فان السيد تيخوميروف يحس أمام قضية الدور التاريخ للرأسمالية نفس الحيرة التي استشعرها احد الجنرالات حيال قضية كروية الارض

يقولون لنا ان الارض كروية
وانا اقبل بذلك تماما
لكن ما السبب في اني اقطن
اذن مثل احد سكان الارض

ان المسائل التي يجب حلها تطرح امامنا بأعداد كبيرة تحت تأثير هذه الشكية الفلسفية اكان هناك قبل الرأسمالية « حضارة جبارة لأوروبا ؟ واذا كان الجواب بالنفي افلسنا ندين بظهورها للرأسمالية ؟ واذا كان الجواب بالايجاب، افلا يأتي السيد تيخوميروف على ذكر الانتاج الكبير بصورة عابرة ، وذلك كي ينسب اليه فقط تجميع العمال الآلي ؟ واذا كان الفرعون شيوبس قد «جمع بصورة آلية » مئات الالوف من العمال كي يشيد هرمه ، أيشبه دوره في تاريخ مصر دور الرأسمالية في تاريخ الغرب ؟ ان الفارق يبدو لنا كميا فحسب : لو ان شيوبس « جمع بصورة آلية » عددا اقل من العمال ، فقد كان « يولد » « كتلة أقل من الشرور والكوارث » ؛ ما رأي السيد تيخوميروف في ذلك ؟ ومادامت الملكيات العقارية الكبيرة الرومانية قد ولدت كتلة من الشرور والكوارث من جراء التجميع الآلي » للعمال المقيدين الى سلاسلهم ، فمما لاريب فيه انها هيأت كذلك حتى درجة ما الارض من اجل الانتقال من المجتمع القديم الى الاشتراكية ؛ ما عسى ان يقول لنا السيد تيخوميروف عن هذا الموضوع ؟ ان مقاله لايقدم اي جواب ، و

Die Brust voll Wehuhth,
Das Haupt voll Zweifel, **

نلتفت بصورة غريزية الى مؤلفي الغرب افلن ينتزعونا من شكلنا ؟

---

* لقد حذفت هذا المقطع من الطبعة الاولى بناء على نصيحة فيرا زاسوليتش التي وجدته بالغ القسوة وثمة مايدعو الى الامل في ان قسوته لم تعد ضارة اليوم ، فأنا أعيده اذن ج.ب [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥].

** [القلب غاص بالالم ، والرأس غاصة بالشكوك . هنري هايني أسئلة] .

٥ ـ دور الراسمالية التاريخي

انا نقرا في **بيان الحزب الشيوعي** لقد لعبت البورجوازية [وبالتالي الراسمالية اليس كذلك ايها السيد تيخوميروف ؟] دورا ثوريا للغاية في التاريخ».

حيثما استولت على السلطة داست بالاقدام العلاقات الاقطاعية والبطريركية والعاطفية وحطمت دون رأفة جميع الصلات المعقدة والمتنوعة التي تربط الانسان الاقطاعي برؤسائه الطبيعيين ، ولم تبق على صلة اخرى بين الانسان والانسان الا المصلحة الباردة والمتطلبات القاسية **للدفع نقدا وعدا** ولقد أغرقت الرعشات المقدسة للاشراق الديني والحماسة الفروسية والعاطفية البورجوازية الصغيرة في المياه المتجلدة للحساب الاناني ولقد بينت البورجوازية كيف ان ذلك التظاهر الفظ للقوة في العصور الوسيطة الذي كانت الرجعية معجبة به ايما اعجاب قد وجد تكملته في الخمول الاكثر توانيا وكسلا ولقد كانت سباقة الى بيان ما تستطيعه الفعالية الانسانية فأبدعت عجائب مختلفة كل الاختلاف عن اهرامات مصر ، والاقنية الرومانية ، والكاتدرائيات القوطية ، كما قادت بنجاح حملات مختلفة كل الاختلاف عن الغزوات والحروب الصليبية.

« ولا تستطيع البورجوازية سبيلا الى الوجود دون تثوير مستمر لادوات الانتاج، وهذا يعني شروط الانتاج يعني جميع العلاقات الاجتماعية وعلى العكس من ذلك ، فقد كان الابقاء على النمط القديم للانتاج دون أي تغيير بالنسبة الى جميع الطبقات الصناعية السابقة ، شرط وجودها الاول ان هذه الثورة المتصلة في الانتاج ، وهذا التزعزع الدائم في النظام الاجتماعي برمته وهذين القلق والاضطراب الدائبين تميز العصر البورجوازي من جميع العصور السالفة ان سائر العلاقات الاجتماعية التقليدية والجامدة ، بموكبها من التصورات والافكار العتيقة والمبجلة ، تنحل وتندثر ؛ وأماالعلاقات التي تحل مكانها فتشيخ قبل ان تتعظم كل ما قد كان يتحلى بالصلابة والثبات يذهب هباء منثورا ، وكل ما قد كان مقدسا يدنس ، والبشر يجبرون اخيرا على مواجهة شروط وجودهم وعلاقاتهم المتبادلة بعيون سقط غشاء الوهم عنها

وتضفي البورجوازية ، باستثمار السوق العالمية ، صبغة كوسموبوليتية على انتاج سائر البلدان واستهلاكها لقد انتزعت من الصناعة اساسها القومي الامر الذي يبعث اليأس في الرجعيين ان الصناعات القومية القديمة قد دمرت وهي تدمر يوميا، ويستعاض عنها بصناعات جديدة يصبح ادخالها مسألة حياة او موت بالنسبة الى سائر الامم المتحضرة ، صناعات لاتستخدم بعد الآن خامات وطنية ، بل خامات قادمة من المناطق الانأى ، أما منتجاتها فلا تستهلك في البلد نفسه فحسب ، بل في جميع انحاء الكرة الارضية وان حاجات جديدة تولد مكان الحاجات القديمة التي كانت المنتجات الوطنية تكفيها ، حاجات تتطلب من اجل ارضائها منتجات المناطق والاقاليم الابعد .وان

علاقات عمومية وتداخلا عموميا بين الامم تتطور في مكان العزلة القديمة للمقاطعات والامم ذات الاكتفاء الذاتي وان ماينطبق على الانتاج المادي ينطبق بصورة لاتقل عن ذلـــك على منتجات الفكر فالاعمال الفكرية لامة ما تصبح الملكية المشتركة لجميع الامم بينما يصبح الضيق والانطواء القوميان مستحيلين أكثر فأكثر يوما بعد يوم ؛ وان أدبـا عالميا ينشأ من تعدد الآداب الوطنية والمحلية

وتجر البورجوازية ، بفعل الاتقان السريع لادوات الانتاج والتحسين اللامتناهي لوسائل المواصلات ، حتى الشعوب الاكثر همجية في تيار الحضارة ان السـوق الصالحة لمنتجاتها هي المدفعية الضخمة التي تهزم جميع الاسوار الصينية وتجبـر على الاستسلام البرابرة الاشد عنادا في عدائهم للاجانب انها تلزم سائر الامم تحت عقوبة الموت ، باعتناق النمط البورجوازي في الانتاج ؛ انها تجبرها على ان تدخل الى دارها الحضارة المزعومة ، يعني على ان تصبح بورجوازية وبكلمة واحدة ، فانها تصطنع عالما على صورتها.

ولقد أخضعت البورجوازية الريف للمدينة لقد خلقت مدنا عظيمة وزادت بصورة مذهلة سكان المدن بالمقارنة مع سكان الارياف ، وبذلك انتزعت قسما كبيرا مـن السكان من بلاهة حياة الحقول ومثلما أخضعت الريف للمدينة ، والبلدان الهمجيـــة للبلدان المتحضرة ، كذلك أخضعت شعوب الفلاحين لشعوب البورجوازيين ، الشرق للغرب.

ولقد خلقت البورجوازية ، في سياق سيطرتها الطبقية التـي لم يمض عليهـا قرن واحد بعد ، قوى انتاجية اكثر عددا واعظم جبروتا مما فعلت جميع الاجيال السابقة مجتمعة اخضـاع قوى الطبيعة ، والالات ، وتطبيق الكيمياء على الصناعة والزراعة ، والملاحة على البخار والخطوط الحديدية والبرق الكهربائي واستصلاح قـارات بأسرها ، وضبط الانهر ، وشعوب كاملة تنبثق من الارض – أي عصر سابق كان يمكن يشتبه بأن مثل هذه القوى الانتاجية ترقد في احضان العمل الاجتماعي ؟ * »

هكـذا يفهم كارل ماركس وفريدريك انجلـز هذان الثوريان بالمنطـق والعاطفة » ، دور الرأسمالية كيف يفهم اذن هذا الدور **المحافظون** الاذكياء والمثقفون؟ بالطريقة نفسها على وجه التقريب اننا نقرأ في رسـالـة لرودبرتوس الـى رودولف ميير

«ان للمشاريع المساهمة [المرحلة العليا من التطور الرأسمالي أليس كذلك ايها السيد تيخوميروف ؟] رسالتها التاريخية ان عليها ان تكمل عمل الله ، فتحفر البرازخ حيث نسي الجبار ان يفعل ذلك ، او لم ير حاجة له ، وتوحد بأعماق البحار او بسطوحها البلدان التي تفصل مابينها، وتحفر الجبال، الخ، الخ . ان الاهرامات والانصاب الفينيقية لايمكن ان تقارن بما سوف يحققه الرأسمال المساهم » ، الخ(٤٤).

---

* [بيان الحزب الشيوعي ، منشورات دار دمشق ، ص ٣٥–٣٨ .

ذلك هو دور الرأسمالية في تاريخ الحضارة ماهو تأثيرها في العمال ، وعلى الاخص في طريقتهم في التفكير وفي عاداتهم الاخلاقية ؟

ماهو نوع العمال الذين تتعامل الرأسمالية معهم في اوائلها ؟

يقول انجلز في موضوع عمال النسيج الانكليز

ان الطابع الخلقي والفكري لهذه الطبقة يمكن تخمينه بسهولة كانوا يعيشون بعيدا عن المدن التي ماكانوا يقصدونها مطلقا نظرا لانهم كانوا يسلمون الخيط والنسيج الى وكلاء متجولين لقاء دفع الاجور ، وكانوا معزولين جدا في ريفهم بحيث ان شيوخا كانوا يقطنون قريبا من المدن لم يقصدوها مع ذلك قط ، حتى اللحظة التي جردتهم الماكينية فيها من مورد رزقهم فاضطروا ان يبحثوا عن العمل في المدينة لقد كان مستواهم الذهني والاخلاقي مستوى سكان الارياف الذين كانوا مرتبطين بهم على اي حال بصورة مباشرة في الاغلب بفعل مشروعهم الزراعي الصغير ولقد كانوا يعتبرون سيدهم —Squire الملاك العقاري الاهم في المنطقة – على أنه رئيسهم الطبيعي ، وكانوا يسألونه النصح ، ويعرضون عليه خصوماتهم الصغيرة ، ويقدمون اليه كل التشريفات التي تؤدي عليها هذه العلاقات البطريركية وباختصار فان العمال الانكليز لذلك العصر كانوا يعيشون ويفكرون تماما كما يعيشون ويفكرون بعد في بعض الاماكن في ألمانيا * ، منطوين على انفسهم ، على حدة ، دون نشاط فكري ، يقضون حياة ليس فيها أية اهتزازات عنيفة ونادرا ماكانوا يعرفون القراءة وأقل من ذلك الكتابة ، وكانوا يمضون الى الكنيسة بصورة منتظمة ، ولا يتعاطون السياسة ، ولايتآمرون ، ولايفكرون، ويلتذون بالتمارين الجسدية ويصغون الى قراءة التوراة بخشوع تقليدي ، ويتفقون جيدا ، هم المتواضعون الذين لا حاجات لهم ، مع الطبقات الاجتماعية الاهم وبالمقابل فقد كانوا أمواتا فكريا [اسمع اسمع جيدا ايها السيد تيخوميروف] وماكانوا يعيشون الا من أجل مصالحهم الخاصة ، الدنيئة ، من اجل نولهم وحديقتهم ، ويجهلون كل شيء عن الحركة القوية التي كانت في الخارج ، تهز الانسانية كانوا يحسون الراحة في حياتهم البليدة المسالمة ، ولولا الثورة الصناعية [يعني الرأسمالية يا سيد تيخوميروف] لما غادروا قط هذا الوجود ذا الرومانسية البطريركية ،لكن غير الجديرة بالرغم من كل شيء بالكائن الانساني

وحقيقة الامر أنهم لم يكونوا بشرا بل مجرد آلات تعمل في خدمة بعض الارستقراطيين الذين قادوا التاريخ حتى ذلك الحين ، ولم تفعل الثورة السياسية شيئا آخر سوى استخراج نتائج هذا الوضع حين أخضعت كليا العمال لدور الآلات المجردة وانتزعت منهم آخر بقايا الفعالية المستقلة لكن مع تحريضها لهم لهذا السبب بالضبط على التفكير وعلى المطالبة بلعب دور البشر . [ان هذه الثورة الصناعية هي

* لقد كتب هذا بعد عام ١٨٤٠ بوقت قصير

التي انتزعت العمال] من البلادة حيال القضايا الانسانية ذات الاهمية العامة [كي تجرهم] في اعصار التاريخ* »

هكذا يتحدث انجلز ، الذي يتهمه الاقتصاديون البورجوازيون بأنه صور بألوان زاهية جدا وضع العمال قبل ظهور الراسمالية ، وبألوان قاتمة جدا حالتهم في ظل الراسمالية ، وهي اتهامات نجدها بغزارة مثلا في كتاب برونو هايلدوبراند National Okonomie der Gegenwart und Zukunft **

لكن ماحاجتنا الى الغرب والى اساتذة ضلاله كما كان السيد أكساكوف يقول لنقرأ بالاحرى الناموس والانبياء ؛ لنقرأ باكونين

« منذ النهضة والاصلاح حرر، لم يكن في المانيا فعلى الاقل في ايطاليا وفرنسا وسويسرا وانكلترا وهولندا ، بطلة وممثلة لعبقرية التاريخ الثورية فمن احضانها خرج معظم المفكرين الاحرار في القرن الثامن عشر ، والمصلحون الدينيون للقرنين السابقين ورسل التحرر الانساني ، بما في ذلك هذه المرة رسل المانيا في القرن الماضي هي وحدها ، معتمدة بالطبع على الساعد الجبار للشعب الذي كان بها مؤمنا ، صنعت ثورة عام ١٧٨٩ و ١٧٩٣ لقد اعلنت سقوط الملكية والكنيسة ، وأخوة الشعوب ، وحقوق الانسان والمواطن تلك هي ألقاب مجدها ، وهي خالدة!***»

ومع ذلك فان هذه الالقاب الخالدة من المجد التي تتمتع بها الراسمالية الغربية هي السبب في ان الشرقي السيد تيخوميروف لايستطيع ان يتخلص من احتقاره السلافي النزعة حيال الغرب وانه يؤكد لنا بتثاؤب مضجر ان هذه الدروب ليست على اي حال أفضل الدروب «التي يمكن تخيلها» ! انه لايرى في كل تاريخ البورجوازية الا كتلة من الشرور و تجميعا آليا للعمال » وان مغزى « الانتاج الكبير » يتلخص بالنسبة اليه في هذا « التجمع » واما يتحدث عن العبودية ، فانه يريد ان يذكر بأن الفضل يعود اليه في حجة مردود اليد العاملة ؛ لكنه حين ينتقل الى الراسمالية لايعمد حتى الى الاشارة الى هذه الوسائل الجبارة المبتدعة كما لو بمعجزة التي كان في مقدورها وحدها أن تهيىء انتصار البروليتاريا انه لايملك ادنى فكرة عن تأثير الراسمالية في تقدم الفلسفة ، والحق العام او الخاص ، وفلسفة التاريخ ، وعلوم الطبيعة والآداب .ولكن هذا التأثير لايمكن أن يوضع موضع الشك، وقد كان وقت فهم الكتاب الروس فيه تأثير العلاقات الطبقية في المجتمع (ومن ذا غير الراسمالية خلق العلاقات الطبقية للمجتمع **المعاصر** ؟) في تطور العلوم عامة والفكر الفلسفي خاصة

---

* Die loge der Arbeitenden Klasse in England. S. 13—14

[اوضاع الطبقة الكادحة في انكلترا]

** [الاقتصاد الوطني للحاضر والمستقبل]

*** الله والدولة ، جنيف ١٨٨٢ ص ٩٢-٩٣ .

انا نقرأ عند تسيرنيسيفسكي

ان النظريات السياسية ، مثلها مثل جميع المذاهب الفلسفية قد تشكلت على الدوام تحت التأثير القوي جدا للحالة الاجتماعية التي كان مؤلفوها ينتسبون اليها، وقد كان كل فيلسوف ممثلا لاحد الاحزاب السياسية التي كانت تناضل من اجل السيادة في المجتمع الذي ينتسب اليه هذا الفيلسوف

الانظمة الفلسفية مشربة الاحزاب السياسية ينسب اليها مؤلفو هذه الانظمه *

لعل السيد تيخوميروف يجد ان الانظمة السياسية والفلسفية للعصر الراسمالي هي دون الانظمة المقابلة للعصور الوسيطة ؟ هذا اذا لم يكن يعتبر النظريات الخاصة بالرأسمالية أسوأ من النظريات التي يستطيع تخيلها ؟ اذن فليخيل كما يحلو له وليستمر في تجاهل تاريخ الحضارة في اوروبا الغربية ان رئيس تحرير **الرسول** سوف يخسر الشيء الكثير من جراء هذا الخلاف ، والغرب لن يفقد شيئا.

وفيما عدا ذلك ، فلا يجب اعتبار السيد تيخوميروف المسبب في هذا الخلاف. انه لايفعل سوى ان يكرر ماسبق للسيد ف.ف ان قاله في مقالات عديده ومن المعروف ان هذا المؤلف كان ميالا الى الاستخفاف بمغزى الرأسمالية الغربية في تاريخ الحضارة وعلى العكس من ذلك الى المبالغة في مغزى النظام الروسي الحالي الذي لايملك خصوما جديين في المجتمع » ، ولهذا السبب « يستطيع الا يخشى عوامل التقدم التي شنت عليها حكومات اوروبا الغربية حربا متصلة**».
أعيدوا قراءة **مصير الراسمالية في روسيا** بانتباه هذا الكتاب المحسو بالتكرارات التي تجعله ضخما بصورة لابأس بها ، ولن تجدوا فيه اية اشارة الى مغزى الراسمالية الا الاشارات التي تتناول « تشريك العمل هذا التشريك الذي يرد بدوره الى « تجمع العمال » والى مايحدث عندهم من نمو بعض العواطف العزيزة على السيد ف.ف ان هذا الحكم الضيق هو الذي يكرره السيد تيخوميروف في مقالته، وانه ليؤسس عليه **انتظاره** للثورة » ! ومما لاريب فيه ان مؤلفنا نسي النصيحة المفيدة جدا التي قدمها لاسال الى احد خصومه : ادرس ، ادرس لكن ليس الصحافة

ان المؤلفين الروس لايكتفون بهذه الفلسفة لتاريخ الرأسمالية التي يقارب ضيقها السخف انهم يخضعون هذا النمط في الانتاج لتحليلهم ويكتشفون بعقلهم الخاص اذا ما امكن هذا القول تناقضاته الباطنة ، لكن اية تناقضات ليس تلك التناقضات التي تحلها جدلية التاريخ ، اذ تستبدل شكلا قديما بشكل جديد منبثق

---

* المبدأ الايديولوجي في الفلسفة ، ص ٢-٣

** مصير الرأسمالية في روسيا ، المقدمة ص ٦

من أحشاء الشكل الاول بفعل التطور المنطقي للمبدأ الذي يشكل له أساسا ليس تلك التناقضات التي كان غوته يعبر عن معناها التاريخي حين يقول

Vernunft wird Unsium, Wohltat Plage *

بل تناقضات ليس لها أي معنى تاريخي وهي انما تنجم عن ذلك السلوك الخاص بالمشاهد البورجوازي الصغير حيال الشيء المشاهَد ، الذي يمكن التعبير عنه بهذه الصيغة خذ المقاييس عشرين مرة قبل ان تقص القماش » تنجم عن نوع من الانتقائية التي ترى في كل شيء الجانب الحسن والجانب السيء وتحبذ الاول وتدين الثاني وليس لها خطأ آخر سوى أنها لاتدرك قط الرابطة العضوية بين الجانب النير و « الجانب القليل لعصر تاريخي معين وان الراسمالية لتستطيع أن ترد على انتقاداتهم بكلمة فيورباخ أنت تدين أخطائي ، فاعلم انها نتيجة مزاياي » ان المؤلفين الروس يطبقون هنا على المقولات التاريخية طريقة برودون الذي كان يقصر مهمة الجدلية على الدلالة على الحسن والرديء في كل مقولة اقتصادية ورد ماركس عليه قائلا il veut être la synthèse il est une erreur composée [انه يريد أن يكون التركيب وهو خطيئة مركبة]

يقال ان برودون كان لفترة من الزمن تلميذا لباكونين أفلا يمكن ان يكون قد استعار من هذا المعلم المشترك الطريقة المشتركة بينه وبين الكثيرين من نقاد سمالية الروس ؟

هذه الطريقة الخاصة « بالخطيئة المركبة يمكن ان نعتبر السيد تيخوميروف واحدا من الم ممثليها طالما انه بعد الاشارة الى الجانب الحسن في الرأسمالية

---

* العقل يصبح جنونا ، والحسنة عذابا ، فاوست].

يقول سيمون بخصوص النقابات للعصور الوسيطة « العمال مهما تكن الحرفة التي ينتسبون اليها بما ان لهم من المبدأ نفس المصلحة الواحدة كان يجب الا يشكلوا اذن الا رابطة واحدة عمومية وبدلا من ذلك كانت خصوماتهم تزيد من عدد هذه الرابطات ؛ ان مبدأ التضاد قد تفوق على روح التآلف ، والانقسام لم يكف عن التحكم فيما بينهم المعارك التي كانت تنشب جزاء الجمعيات المتنوعة يجب ان ترجع الى نفس المصير الذي تنضمت فيه واما ننظر الى هذه الصراعات القاتلة ، الناشئة دونما سبب النأشبة دون مبرر من لا يميل اذن الى الاعتقاد بأن هذه الكلمة الحزينة التي قالها فيلسوف متجهم الانسان ذئب للانسان » انما قبلت بصدد هؤلاء الاجراء الفرنجة سيمون دراسة تاريخية اخلاقية عن نظام الاجراء ، باريس ١٨٥٣ ، ص ٤٣ لنعترف الرأسمالية لم تلاق مصاعب كبيرة في « نسف الوحدة الاخلاقية » للعصر السابق لها .

تجمع العمال ــ ينتقل في الحال الى الجانب السيء ولقد رأينا من قبل حتى انة ذرجة يقابل مديحه الواقع فلا ندهش اذا تبين ان اتهامه يقوم على العدم.
الى جانب تجمع العمال الآلي تطور الرأسمالية فيما بينهم مزاحمة تنسف وحدتهم الاخلاقية

مما لاريب فيه ان السيد تيخوميروف يأمل في أن « يتخيل طريقا للانتقال الى الاشتراكية تستبعد المزاحمة لندع جانبا دور هذه المزاحمة في المقولةالاقتصادية المعروفه باسم القيمة التبادلية ، والتي ترد عمل الاخصائيين المختلفين الى القاسم المشترك للعمل الانساني البسيط ، وهي فكرة لايمكن بدونها تصور أي طموح شيوعي واع ولنقصر دراستنا على الجانب السيء للمزاحمة الذي يشير مؤلفنا اليه .اننا نسجل بادىء الامر انه لا « ينسف » الا ماهو قائم في الواقع وليس في عواطف و « توقعات السيد تيخوميروف وحده أكان ثمة وحدة اخلاقية للعمال قبل اسمالية اننا نعرف ان لا ففي المرحلة الاكثر ازدهارا للانتاج الحرفي لم يكن ثمة «وحدة اخلاقية» الا بين عمال نفس النقابة الحرفية، او في افضل الاحوال نفس الاختصاص في حدود جغرافية محدودة جدا ان مفهوم العامل من حيث هو عامل وعي وحدة طبقة المنتجين ، لم يكن له وجود على الاطلاق في ذلك الحين. ان الرأسمالية نسفت ، دمرت قضت على الوحدة الاخلاقية » للاختصاصيين اصحاب البراءات لتخلق مكانها الوحدة الاخلاقية « لبروليتاريي جميع البلدان »؛ وهي انما توصلت الى ذلك بفضل المزاحمة لماذا يهاجم السيد تيخوميروف هذه المزاحمة ؟ لقد رأينا ذلك من قبل ، فالتاريخ بالنسبة اليه يتحلى بنوع من الحركة الخاصة والمجردة « في اتجاه النظام الاشتراكي » فاذا ما أعطينا انفسنا هذهالحركة مرة كان في مقدورنا ان « ننتقد » دون خوف من العقاب جميع المحركات وجميع الروابض التي جلبت للمرة الاولى طليعة البشرية الى ضرورة مواجهة تنظيمها شرطها

نه ليبدو كذلكان الرأسمالية « تسعى لابقاء العمال في مستوى من التطور ادنى حدا مما تسمح به الحاجة العامة للحضارة »

ان الجملة منسوخة فيما يبدو عن محاضر مؤتمر آيزناخ ، مؤتمر الاشتراكيين الالمان Ex Cathedra [اصحاب السلطة] ، الذين كانت المسألة الاجتماعية تتلخص بالنسبة اليهم في جلب العمال الى « مستوى من التطور اعلى بيد ان الاشتراكيين اصحاب السلطة يعرفون مايريدون وان لم يجدوا بعد ، بالرغم من كل جهودهم الوسيلة من اجل الحصول عليه انهم يفهمون الاهمية الثورية والتاريخية على النطاق العالمي ، للبروليتاريا المعاصرة ، ويريدون نسفها بواسطة المسكنات.بأن يفرضوا على العمالشعار رودبرتوس Monarchiss National, Sozial وانهم يقصدون من مستوى أعلى من التطور اجرا اعلى قليلا واثبت

قليلا وافقا ذهنيا أضيق جدا، وقدرة على الارتكاس منقوصة بصورة لاتقارن انهم يعرفون ان القانون الفولاذي » للاجور(٤٤) يحمل حكما بالموت على المجتمع الحالي ، وهم **يزخرفون** القانون عن طيبة خاطر كي يخففوا من هذا الحكم. انهم يدركون انه اذا بقيت الامور على وضعها الحالي فان البروليتاريا لن تتأخر في الاستيلاء على **كل شيء** ؛ وانهم ليعلقون كل جهودهم على استبدال تفوقها الحالي بطبق من العدس ؛ انهم يريدون البورجوازية بدون البروليتاريا لكن ما الذي يريده السيد تيخوميروف ؟ في اية مرحلة قبل راسمالية من التاريخ عرفت الطبقة العاملة مستوى من التطور أعلى منه في الوقت الحاضر ؟ في العالم القديم أيام العبودية ؟ أم في العصور الوسيطة ، أيام الاقنان ؟ اللهم الا اذا كان السيد تيخوميروف يقارن المجتمع البورجوازي مع المجتمع المقبل المجتمع الاشتراكي ؟ اذا كان الجواب نعم ، فمن المؤكد انه على حق بمعنى ان النظام الاجتماعي للعصر التاريخي العالمي في المستقبل سيجعل تطور الانسان تتناسق مع قوى الانتاج التي خلقتها الحضارة. لكن اذا تركنا جانبا ان حقيقة اتهام الراسمالية بأنها ليست في حال من الاحوال من الاشتراكية في شيء تعود الى عدم فهم أي شيء كان من التكوين التاريخي لهذه الاشتراكية فاننا سوف نلفت انتباه السيد تيخوميروف الى انه يتعثر في القاموس كما هي عادته فمن المؤكد ان المجتمع الاشتراكي غير مقبول بدون الشغيلة ؛ لكننا نستطيع ان نؤكد انه لن يكون فيه **عمال** مطلقا: ذلك ان العامل يفترض المعلم الراسمالي ، الملاك العقاري الكبير ، الخ ، بالضبط مثلما يفترض العبد سيدا ، والرقيق سيدا. ان نص السيد تيخوميروف يرتد اذن الى التأكيد العجيب بأن العامل الحالي هو في مستوى من التطور ادنى من العامل في مجتمع ليس فيه عمال

لكن لعل السيد تيخوميروف يقارن وضع العمال في المجتمع الراسمالي مع وضعهم في مجتمع يمكن تخيله بوصفه انتقالا نحو الاشتراكية ؟ اذا كان الامر كذلك فليتخيل » السيد تيخوميروف كما يحلو له مثل هذا المجتمع انـنا سوف نقرأ **روايته** باهتمام عظيم جدا لكن فليحاذر على أي حال ان يسحره الوهم ولاينس انه يجب التمييز بين **درجة** حضارة ما **وعظمها** وانه اذا كانت درجة الحضارة المادية للبروليتاريا الحالية منخفضة جدا ، فهي تنتسب مع ذلك الى حضارة من نمط أعلى من جميع الحضارات التي سبقتها ، هذا اذا لم نقل شيئا عن الثقافة الذهنية والاخلاقية لطبقة هي ، من جراء تطورها أعلى كثيرا من جميع طبقات المنتجين في جميع العصور السابقة الا فليمنح السيد تيخوميروف الاهتمام الاكثر جدية لهذا التطور الذي لن تحل مكانه لا الاشكال البدائية للملكية العقارية والانتاج ولا الانضباط الدقيق الذي طبقته هذه « اللجنة او تلك في الجمعيات الثورية للعاملين

وعلى أي حال ، فان الرأسمالية « تنسي العمال بكل بساطة كل اشراف على مجرى الانتاج » ، الخ .

وعلى هذا اللوم غير المتوقع تستطيع الرأسمالية أن ترد بأننا لسنا امراء !.. انها لاتستطيع ان تلقن العمال « الاشراف على مجرى الانتاج لهذا السبب المقبول الا وهو انها تجهل هي نفسها ذلك وان الازمات الصناعية على سبيل المثال مسببة عن هذا العيب في الاشراف لكن رب من يسأل ما اذا كان مثل هذا الاشراف معقولا خارج المجتمع الاشتراكي ؟ .فليحاول السيد تيخوميروف بادىء الامر ان يبرهن لنا أن نعم ؛ عندئذ سوف نتحدث اما الآن فلنقل له مرة اخرى ان اتهام الراسمالية بأنها ليست من الاشتراكية في شيء هو اتهام للتاريخ بأنه لم يبدأ بتحقيق برنامج **بيان الحزب الشيوعي** بدلا ما أن **يتحرك** في اتجاه النظام الاشتراكي

لعل الكثيرين من القراء يجدون هذا الحديث بشأن مغزى الرأسمالية الغربية بافلا سوف يقولون ان روسيا لا الغرب هي التي تعنينا ؛ لماذا التوسع حتى هده الدرجة في تطور الغرب التاريخي ؟ اذا كان السيد تيخوميروف قد حذف هذا الشيء أو أساء فهم ذلك الشيء فما علاقته ذلك بشؤوننا ؟

ان له العلاقة الاكثر مباشرة ان السيد تيخوميروف ينتقد الرأسمالية الغربية بفرض واضح هو صياغة برنامج للحزب الاشتراكي الثوري الروسي وانه ليعتمد على تحليله لتاريخ اوروبا الغربية كي ينتظر من الثورة عددا معينا من الحسنات واذا كان تحليله مضبوطا ، فان توقعه مسوغ اذن اما اذا كان هذا التحليل يكشف ، على العكس من ذلك ، عن جهل تام بتاريخ الغرب ، وكذلك بمناهج النقد التاريخي الحديث ، فان توقع السيد تيخوميروف يثبت اذن انه على قدر كبير من الطيش وهذا هو السبب في أني كرست كل هذا المكان لما كان يحتل بكل سهولة صفحتين (٢٣٨ و ٢٩٣ من العدد الثاني من **الرسول والآن** وقد انتهينا من فك خيوط هذه العقدة ، فاننا نستطيع ان ننتقل الى المسائل الروسية

٦ – تطور الراسمالية في الغرب

يهتف السيد تيخوميروف لدى عودته من غزوته في فلسفة التاريخ

لاتجعلوا لكم قط إلها من الرأسمال الصناعي الخاص ، ذلك ان سؤالا خطيرا لا يبرح مطروحا بعد : هل سينجح هذا الرأسمال في ان يصنع لروسيا الشيء القليل الذي صنعه من اجل اوروبا ؟ ان وضعنا الراهن يختلف حتى درجة بعيدة عن وضع البلدان الاوروبية حين بدأت في تنظيم انتاجها الوطني على اساس الرأسمال الخاص. لقد كان تحت تصرف الصناعي الخاص هناك أسواق هائلة دون يواجه مزاحمة يخشى جانبها بصورة خاصة اما نحن فاننا لانملك اية سوق على الاطلاق ان الصناعي الخاص يصطدم لدى كل من مبادراته بالمزاحمة الساحقة للانتاج الاوربي والاميركي (٤١) ».

ان هذه الاعتبارات لاتخص المؤلف هي الاخرى بل لقد استعارها من السيد ف.ف ودون ان نتيه في أصولها فلنر بالاحرى مدى صحتها بد لنا مرة اخرى ان ننكبعلى المهمة القاسية والعويصة فنوضح التشابك الابعدعن الاحتمال بين المفاهيم والوقائع

ولنطرح باديء الامر سؤالا على السيد تيخوميروف لماذا يحفظ بعواطفه للرأسمال الصناعي ((الخاص)) دون أي ذكر للاشكال الاخرى لهذا الرأسمال الصناعي نفسه ؟ لماذا يفضل السقراوات كما يقول رودبرتوس ايصور أن رأسمال الدولة الصناعي هو بين أيدي بسمارك افضل منه بين ايدي بورسيغ او كروب

لكن لعله يعارض الرأسمال الصناعي الخاص برأسمال الرابطات العمالية لم لم نحدد اذن أن عواطفه حيال الرأسمال الصناعي الذي لايخص الافراد لاتتناول الا نوعا واحدا من الرأسمال المذكور ؟ وهل يستطيع على اي حال ان يظهر تعاطفه مع هذا النوع دون تحفظات جديدة وأساسية جدا ؟

ان الاشتراكية الديموقراطية الالمانية(٤٧) تطالب بفتح اعتمادات الدولة للرابطات العمالية ؛ لكنهاتعرفعن تجربة ان هذهالرابطات لاتستطيع نجاحا يعني لاتستحيل الى مشاريع استثمارية لعمل الغير الا بشرط اشراف صارم مؤسس على المبادىء الاشتراكية ، وهو الاشراف الذي يمكن ويجب ان تضمنه الاحزاب الاشتراكية العمالية ان كل من يدعو الى فتح اعتمادات الدولة للرابطات العمالية يدعو الى تقوية نفوذ الاحزاب العمالية ؛ والا فان الاجراء المقترح لايمكن الا ان يتسبب في انقسام في قلب البروليتاريا ويزيد من نفوذ البورجوازية او الحكومة ولايخشى السيد « ف.ف هذه الامكانية الاخيرة ، ولذا فهو يطرح مشاريعه الاصلاحية امام السلطات القائمة لكن السيد تيخوميروف يعد بين الاعداء الالداء للحكم المطلق وهو يظهر في الوقت نفسه شكه الكبير في امكانية قيام نظام بورجوازي وحزب اشتراكي عمالي عندنا ولذا فان مشاريعه عن تعاونيات انتاجية عمالية — وهي على أي حال مشاريع يتيح لنا ركام قاموسه أن نستدل عليها فقط — لاتتعلق الا بمستقبل اكثر او أقل بعدا حيث « استيلاء الثوريين على السلطة سيخدم «كنقطة انطلاق للثورة ولسوف يكون لدينا اشياء كثيرة نقولها عن هذا الاستيلاء على السلطة وعن عواقبه الممكنة »، ولذا فلن نتوقف عند دراسة الشروط التي يمكن بها للتعاونيات الانتاجية العمالية انتسهمفي قضية الاشتراكيةفيروسيا واما بيما للسيد تيخوميروف غموض تعابيره الاقتصادية وبلبلتها ، لننتقل الى نقيضاته التاريخية

اما شروطنا الحالية تختلف حتى درجة كبيرة عن شروط الدولا حين بدات في تنظيم انتاجها الوطني على اساس الرأسمال الخاص فهذه فكرة نضعها موضع الشك لو ان صياغتها جاءت في لغة مقبولة ان كل يعرف ذلك ! فليس في كل التاريخ واقعتان تحققتا في سياقين متماثلين بصـ

جازمة ويجب ألا ندهش اذا كانت كل مرحلة تاريخية في اي بلد كان تختلف حتى درجة كبيرة عن المرحلة التي تقابلها في بلد آخر ولكن هذا بالضبط هـو الذي يفرغ بصورة قبلية من كل معنى النقيضة ــ الروسم بين روسيا و الغرب»، الا اذا زخرفناها بمجموعة من التحفظات والتصريحات والاضافات طالما انه لا يجوز ان نفهم من اوروبا الغربية بلدا واحدا ، بل مجموعة من البلدان الشديدة التنوع. ولا يدرك السيد تيخوميروف ضرورة هذه التجديدات انه يعارض شروطنا الحالية بتلك ((**اللحظة**)) من تاريخ ((**الدولة الاوروبية**)) حين «بدأت في تنظيم انتاجها الوطني على اساس الرأسمال الخاص » ونحن لن نشير هنا الى انه لا يمكن «تنظيم الانتاج الوطني على اساس الرأسمال الخاص ولا الى ان الفوضى الاكثر شمولا، يعني انعدام التنظيم تشكل الصفة المميزة « للانتاج الوطني في البلدان الرأسمالية، بل لنسأل فقط ونحن نتجاوز هذه الانحرافات اللغوية والمنطقية، السيد تيخوميروف ما اذا كان الانتاج الرأسمالي قد انطلق في « اللحظة نفسها في «الدول الاوروبية» أفلم تكن ثمة بالاحرى عدد من اللحظات بقدر عدد الدول الاوروبية المنخرطة في طريق الرأسمالية ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، أفلم تختلف هذه اللحظات التاريخية « حتى درجة كبيرة » عن بعضها بعضا ؟ اكانت اوائل الرأسمالية الانكليزية تشبه اوائل الرأسمالية في المانيا ؟ بقدر معرفتنا لم تكن متشابهة البتة بل لقد كان الشبه مابينها قليلا جدا بحيث كان زمن حسب فيه في المانيا أن هذه البلاد تفتقر الى الاشياء الضرورية من اجل تطوير صناعة تحويلية كبرى ولا بد لها أن تظل زراعية الى الابد وكان انصار هذه الاطروحة يشيرون هم ايضا الى الشروط الحالية لألمانيا التي «تختلف حتى درجة كبيرة» ، الخ ماهو رأي السيد تيخوميروف في هذه المسألة عامة ، وفي هؤلاء الانبياء الكذبة خاصة ؟

لقد أشرت في **الاشتراكية والنضال السياسي** الى ان بعض المؤلفين الروس يعتنقون فيما يبدو المذاهب الجغرافية للتلميذ اليهودي في قصة فاينبرغ ولقد قلت أن « كتابنا النوعيين لم يجددوا هذه الجغرافيا الثابتة الا في نقطة واحدة انهم نقسمون الخارج الى شرق وغرب ويقارنون بحماسة هذا الغرب مع روسيا التي ينسب اليها على هذا الغرار دور امبراطورية سماوية جديدة ولم أكن اشك مطلقا حين كتبت هذه الاسطر ان هذا النوع من الانحراف سوف يصادف من جديد في مجلة يديرها بصورة خاصة بيوتر لافروف ولا بد لي أن اقرر اليوم

نكه في رئاسة التحرير سبين على اعتباره تلميذا للتلميذ اليهودي حين سخيل لحظة تاريخية نقحم بها كيفما اتفق حقائق بالغة التعقيد حدا تختلف حتى درجة بعيدة اني ارى أن **رسول ارادة الشعب** يجازف يخدع توقع قرائه حتى درجة كبيرة

وصحيح ان لدى السيد تيخوميروف هنا ايضا ظرفا مخففا . فقد وقع في

الخطأ بفعل يقينه بأنه في« الدول الاوربية في« اللحظة » التاريخية موضع البحث»
« كان تحت تصرف الصناعي الخاص اسواق هائلة ، دون ان يواجه مزاحمة يخشى جانبها بصورة خاصة ، بينما « لانملك نحن اية سوق على الاطلاق » فاذا كان ذلك صحيحا فان النقيضة بين روسيا والغرب ستحظى بقدر كاف من الصحة فمهما تكن شروط ولادة الراسمالية في كل « دولة اوروبية مختلفة ، فانه سيكون بينها صفة مشتركة بالغة الاهمية جدا لن تتكرر في روسيا الحالية وجود اسواق هائلة « للتصريف ، وان هذا الظرف المواتي بالنسبة الى الدول الاوروبية » سيسبغ لونا خاصا على تاريخ اوروبا الاقتصادي برمته ويشاء سوء الطالع ان يكون السيد تيخوميروف او بالاحرى المؤلف الذي يستقي يقينه عنده ، على خطأ رهيب ففي البلدان المقصودة لم **يكن** تحت تصرف الصناعي الخاص **على الاطلاق** اية اسواق هائلة فقد **حصلت** البورجوازية على هذه الاسواق ـ وهي لم **تجدها** ففي المرحلة السابقة ، في ظل الاقطاعية ، أيام الحرفة اليدوية ، لم يكن الامر يقتصر على عدم وجود « اسواق هائلة » ، بل لم يكن ثمة وجود لأية سوق مطلقا بالمعنى الحديث للكلمة كانت تجري اذن مبادلة الفائض ، مايزيد على الاستهلاك الشخصي للمنتج ؛ وكان الحرفيون يعملون **بناء على طلب** احد الافراد ، في مكان معين ، وليس من أجل تصريف انتاجهم في السوق ان كل من يملك ادنى فكرة عن الحياة الاقتصادية في العصور الوسيطة لايمكنه انكار ذلك وليس ثمة حاجة لان يكون المرء قد « قام بدراساته » كي يدرك ان الطلب والاسواق لايمكن ان تنمو الا مع الانتاج ، ذلك ان هذا هو الذي استثارها وهي كانت تستثيره بدورها

« في الاغلب تنشأ الحاجات مباشرة من الانتاج ، او من اوضاع قائمة على الانتاج.
ان تجارة الكون تدور برمتها على وجه التقريب على حاجات الانتاج وليس على حاجات الاستهلاك الفردي *.

ان السوق العالمية اليوم ، التي هي حقا « هائلة ، تتميز بالضبط بأنه ليس الاستهلاك هو الذي يستثير الانتاج ، بل بالعكس »

« ان الصناعة الكبرى ، المجبرة من قبل الادوات التي تحت تصرفها بالذات على الانتاج على نطاق اوسع باستمرار ، لاتستطيع بعد الان انتظار الطلب ان الانتاج يسبق الاستهلاك ، والعرض يفرض الطلب**

اما ان أوروبا الغربية لم تعرف « مزاحمة يخشى جانبها بصورة خاصة » في مطلع الرأسمالية ، فانه يمكننا قبول ذلك حتى لانضيع الوقت،بالرغم من ان الحظر الذي كثيرا ماكان يفرض في ذلك الحين على استيراد منتجات صناعة الشرق الى

---

* بؤس الفلسفة ، ص ١٦

** المصدر نفسه ، ص ٤٨

« الدول الاوروبية » يدل على ان المانيفاكتورات الغربية كانت تخشى المزاحمة الاسيوية لكن المنتجين الغربيين هم انفسهم الذين ظهروا بالنسبة الى زملائهم مزاحمين « يخشى جانبهم بصورة خاصة » ويتلاشى هنا الشعور بالمفارقة حين نتذكر ان تطور الرأسمالية لم يبدأ مطلقا في « اللحظة » نفسها في «الدول الاوروبية» – على النقيض مما يتصوره السيد تيخوميروف فحين كان تطور الصناعة يبلغ في أحد البلدان درجة معينة من الشدة ، وحين كان ممثلو الرأسمال يكتسبون ما يكفي من القوة والنفوذ كي يجعلوا من القانون اداة لأغراضهم ، كان يتبين ان «الرأسمالي الخاص يصطدم في كل من مبادراته بالمزاحمة الساحقة » للبلدان الاخرى، فتبدأ اذن المطالبة بتدخل الدولة ان تاريخ القرن السابع عشر ، بتعرفاته التي كانت موضوع مفاوضات دبلوماسية ، وبحروبه التجارية التي كلفت نفقات عملاقة بالنسبة الى العصر ، يبين بكل وضوح اية جهود هائلة كان لابد « للقوى الاوروبية » أن تبذلها كي تحصل على تلك الاسواق التي يزعم انها معطاة سلفا ، حين لم يكن المقصود الحصول على اسواق خارجية فحسب ، بل الدفاع عن سوقها الداخلية ايضا أيجب حقا الاتيان على أمثلة عن هذا التاريخ الذي يجب ان يكون معروفا لدى الجميع ؟ لعل ذلك ليس بالامر النافل ، نظرا لجهل اقتصاديينا من المدرسة النوعية

لنبدأ بفرنسا

ان كولبير قد

« رأى ان فرنسا تأخذ بضائع من الخارج اكثر حتى درجة كبيرة مما ترسل اليه؛ وانه على الرغم من تور وليون ، فان ايطاليا ترسل اليها باستمرار الحرائر والانسجة المذهبة والمفضضة ، والذهب المغزول ؛ وان البندقية ترسل اليها كل عام عدة ملايين بمراياها ومخرماتها وان انكلترا وهولندا واسبانيا تمونها بالاصواف ، والادوية ، والاصبغة ، والجلود ، والصوابين لقد رأى أن الشركات الكبرى والمستعمرات التي استهوت ريشيليو في الخارج قد خربت ، وان كل التجارة البحرية الفرنسية لاتبرح بين أيدي الانكليز والهولنديين وكان فوكيه من قبل ، كي يمنع هذا الاجتياح للموانىء الفرنسية ، قد أقام في عام ١٦٥٩ قانون الخمسين فلسا على البرميل الواحد بالنسبة الى البضائع المستوردة بسفن أجنبية وكانت احتجاجات الهولنديين الملحة تثبت لكولبير ان سلفه قد وجه اليهم ضربة حساسة تلك كانت الاوضاع ولقد عمد كولبير الى تبديلها في مصلحة فرنسا ، وتحرير الامة من كل عبودية تجارية ، ورفعها بفضل تنمية صناعتها الى مستوى الامم الاكثر ازدهارا*

ولقد فعل ذلك بحمية عظيمة بحيث ان تعرفته لعام ١٦٦٧ لم تكن تستهدف اقل من دمار التجارة الهولندية

---

* لوفاسور : **تاريخ الطبقات العاملة في فرنسا** ، المجلد الثاني ص: ١٧٤–١٧٥ .

« واتخذ الانكليز والهولنديون تدابير للمقابلة بالمثل ؛ وكان النزاع على التعرفة سببا في حرب عام ١٦٧٢ ؛ واخيرا اجبر صلح نيميسغ فرنسا على استئناف العمل بتعرفة عام ١٦٦٤ *

وهكذا نرى انه لم يكن تحت تصرف فرنسا اسواق هائلة ، بل لم يكن لها بد من الاستيلاء على هذه الاسواق بواسطة سياسة اقتصادية مناسبة ، عن طريق الابتنجاد بالدبلوماسية وحتى بالسلاح وكان كولبير يعتمد فقط على الزمن والحمية » كيما تتمكن فرنسا من ان « تتحكم في الامم

ومن المعروف ان هذه السياسة الخاصة بالحماية والحظر ، التي بدات قبل كولبير ، قد استمرت بعد وزارته ولم تقم البلاد بالخطوة الاولى في طريق المبادلة الحرة الا بعد الحرب الامريكية في عام ١٧٨٦ بيد انه تبين أن هذه المحاولة الاولى لم تناسب الصناعة الفرنسية الا قليلا فوفقا للمعاهدة الفرنسية الإنكليزية لعام ١٧٨٦ ، لم يكن يجبى الا ١٢٪ من قيمة الاصواف والإقطان ، وكذلك سلع البورسلين والخزف والصيني والزجاج ؛ ولم تكن الرسوم تتجاوز ١٠٪ على السلع المعدنية (حديد ، فولاذ ، نحاس : الخ ؛ ولقد جددت الضرائب على الانسجة الكتانية والخيشية وفق التعرفة المعمول بها للامة الاكثر رعاية ؛ لكن انكلترا ، القادرة على انتاج سائر هذه السلع بسعر أقل بنسبة ٣٠ أو ٤٠ وحتى ٥٠٪ سرعان ما أصبحت سيدة السوق الفرنسية ولذا فان الناخبين عام ١٧٨٩ قد اجمعوا على وجه التقريب على مطالبة الحكومة بحماية اشد للصناعة الوطنية وان نظام عودة الملكية وملكية تموز قد تبنيا كذلك تعرفات حماية صارمة ففي سبيل تأمين تصريف البضائع الفرنسية ، حظر على المستعمرات المتاجرة مع اي بلد آخر غير الحاضرة ولم يبدأ التطور في اتجاه المبادلة الحرة الا عام ١٨٦٠ ، لكنه اثار معارضة حامية في البلاد وقد شجبه برودون بصورة خاصة وفي عام ١٨٧٧ ، ادى اخيرا الخوف من المزاحمة الإنكليزية الى تأسيس الرابطة من أجل الدفاع عن العمل الوطني من قبل انصار الحماية وان تعرفة عام ١٨١٢ تشكل مواطأة بين مطالب الحماية والاتجاهات الى المبادلة الحرة ، هذه الاتجاهات التي كانت تتظاهر بصورة رئيسية عند ممثلي الرأسمال التجاري **

هذا هو تاريخ الاسواق الهائلة التي كانت تحت تصرف الرأسماليين الفرنسيين اسمع السيد تيخوميروف شيئا عنها ؟ والمانيا ، التي يشير اليها قسم من اشتراكيينا » ؟

---

* انظر هنري فارنام Die innere franzosishe Geuerbepolitik, von Colbert Turgot, S. 17 Bis [سياسة فرنسا الصناعية من كولبير حتى تورغو] .

** انظر شارل بيريجو **تاريخ التجارة الفرنسية** ، باريس ١٨٨٤ .

لم تسر الامور فيها بصورة افضل فهنا أيضا اصطدم « الصناعي الخاص في كل من مبادراته بالمزاحمة « الساحقة » للبلدان الاكثر تقدما ومن المعروف ان الرأسمالية الالمانية هي نسبيا أحدث أصولا وفي سياق القرون الماضية ، وحتى في مطلع هذا القرن كانت فكرة مزاحمة فرنسا وانكلترا تبدو بالنسبة الى هذا البلد فكرة غير معقولة لنأخذ مثال بروسيا ففي عام ١٨٠٠ حظرت استيراد الحرائر والقطنيات والانسجة نصف الحريرية ونصف القطنية وخلال السنوات الثمانين السابقة صرفت الحكومة اكثر من عشرة ملايين تالر (الامر الذي يجب ان يثبت للسيد تيخوميروف ان الحكومة الروسية ليست الحكومة الوحيدة التي عمدت الى تنظيم الانتاج الوطني تحت أوامر البورجوازية من أجل حرائر برلين وبوتسدام وفرانكفورت على الاودر وكوبينيك بيد ان المنتجات الفرنسية والانكليزية كانت من نوعية اعلى جدا من معادلاتها البروسية بحيث أن تهريبها أقوى من صرامة القوانين قد ألغى مفعول الحظر ولقد انتزعت انتصارات نابليون من بروسيا القدرة على انقاذ مانيفاكتوراتها خلف سور صيني من نظام الحماية: ن الغزو قد تضاعف باغراق الاراضي المستولى عليها بالبضائع الفرنسية وفي مطلع كانون الاول من عام ١٨٠٦ ، طلب المنتجون دخول البضائع الفرنسية بضرائب جمركية زهيدة الى جميع الاقسام المحتلة من بروسيا وعبثا بينت حكومة برلين للغزاه أن الصناعة الوطنية لاتستطيع أن تحتمل مزاحمة الصناعيين الفرنسيين عبثا شرحت ان المانيفاكتورات البرلينية لم تصمد الا بفضل تعرفات حماية سوف يؤدي الغاؤها الى دمار تام بالنسبة الى السكان والى جعل العمال في حالةالتسول. ان الجنرالات الظافرين لفرنسا البورجوازية قد ردوا بأن استيراد البضائع الفرنسية يسكل العاقبة الطبيعية للغزو وهكذا دارت ، بصورة موازية للحرب السياسية بين الحكومات حرب اقتصادية بين الشعوب ، أو بصورة أصح بين الشرائح الاجتماعية التي تتركز بين أيديها اليوم ايضا وسائط الانتاج ان حرب الصناعيين تدور بصورة موازية لحرب الجيوش وخصومة الجنرالات تتضاعف بمزاحمة البضائع فلا بد للبورجوازية من الاستيلاء على اسواق جديدة ولا بد للبورجوازية البروسية من الدفاع بكل قواها عن السوق التي كانت تحافظ عليها بفضل تعرفات الحماية أين هي هنا أيضا الاسواق الهائلة التي كانوا يحدثوننا عنها ؟ فبعد اعلان حرب عام ١٨١٣ حين تخلص الصناعيون البروسيون أخيرا من مزاحميهم الفرنسيين ظهر خصوم آخرون هم اشد خطرا أيضا ان نهاية الحصار القاسي فتحت السوق الاوروبية امام البضائع الانكليزية التي اجتاحت بروسيا وكانت أسعارها المتواضعة تمنع المنتجين المحليين من مزاحمتها نظرا للرسوم الجمركية الضعيفة التي باتت مفروضة بعد الان على سلع البلدان الصديقة او المحايدة . لقد أجبرت شكاوى الصناعيين البروسيين الحكومة على أن تحدد مرة

اخرى دخول القطنيات الى بروسيا* ومنذ ذلك التاريخ لم تستطع الحكومة البروسية ، ومن بعد حكومة المانيا بأسرها ، ان تحزم امرها على التخلي عن تعرفات الحماية خوفا من المزاحمة « الساحقة للبلدان الاكثر تقدما واذا ما استولى البلانكيون الروس على السلطة أثناء حياة بسمارك فمما لاريب فيه ان المستشار الحديدي لن يرفض ان يكشف عن أسرار سياسته التجارية ، مقنعا دعاتنا بأن الاسواق الهائلة لاتلتقط في زوايا الشوارع

لننتقل الى اميركا

ان مستعمرات اميركا الشمالية قد جعلت من قبل حاضرتها في حالة من التبعية الصناعية بحيث لم تكن تملك الحق في أي نوع من الصناعة باستثناء الصناعة المنزلية والحرفية وان تأسيس مصنع للقبعات في ماساشوسيتس عام ١٧٥٠ قد استرعى انتباه البرلمان في لندرا وأثار فيه حسدا بالغا بحيث اعلنت جميع المعامل [المستعمرية بالطبع] مؤسسات ضارة Common Nuisances ومنذ عام ١٧٧٠ اعلن اللورد شاثام قلقا للمحاولات الاولى للانتاج الصناعي في انكلترا الجديدة ، انه لايجوز صنع مسمار واحد في المستعمرات(٤٨) »

وابان حرب الاستقلال أدت القطيعة مع انكلترا الى اعطاء للعامل من مختلف الانواع دفعة جبارة» انعكستعلى الزراعة وادت الى ارتفاع أسعار الاراضي.

لكن بما أن دستور الولايات المتحدة، بعد معاهدة باريس ، كان يمنع تطبيق نظام وحيد للتجارة الامر الذي فتح الباب امام البضائع الانكليزية التي لم تكن معامل أميركا الشمالية ، الفتية جدا بعد ، تستطيع تحمل مزاحمتها ، فقد تلاشى الازدهار الصناعي بصورة أسرع من مجيئه ولسوف يقول في وقت لاحق أحد خطباء الكونغرس في موضوع هذه الازمة بناء على نصيحة منظرين جدد اشترينا حيث كانت الاسعار أبخس ، ففرقت أسواقنا بمنتجات اجنبية ان صناعيينا قد افلسوا ، وتجارنا قدأعلنوا الافلاس ، وقد مارست سائر هذه العوامل ضارة جدا في الزراعة بحيث انخفض سعر الارض الامر الذي كان سببا في خراب ملاكيها(٤٩)

وهكذا اجتاحت العاصفة ايضا هذه الصناعة الاميركية التي تهدد «مزاحمتها الساحقة اليوم ايضا الصناعي الخاص » في بلادنا الى اية واقيات صواعق لجأ الاميركيون ؟ هل استنتجوا من ذلك ان « شروطهم الحالية تختلف حتى درجة كبيرة عن شروط القوى الاوربية في اللحظة التي بدات فيها بتنظيم انتاجها الوطني على اساس الراسمال الخاص » ؟ هل تخلوا عن الصناعة الكبرى ، ابدا اما تعلموا من التجربة المرة ، فقد كرروا القصة القديمة نفسها لقد حموا اسواقهم الداخلية من المزاحمة الاجنبية « ان الكونغرس قد حوصر بالعرائض ، الآتية من جميع

---

*[**الاقتصاد السياسي الجديد** بقلم الدكتور موريتز مير] .

الولايات والمطالبة باجراءات حماية من اجل الصناعة الوطنية » ومنذ ۱۷۸۹ صدرت تعرفة تحقق تنازلات هامة بهذا الشأن للصناعيين المحليين وان تعرفة عام ١٨٠٤ تذهب الى أبعد من ذلك في هذا المنحى واخيرا بعد سلسلة من الترددات والتجارب بالاتجاه المعاكس فان التعرفة التي تنص على حماية صارمة لعام ١٨٢٨ قد اكملت تأمين الحماية للمنتجين الاميركيين ضد المزاحمة الانكليزية*.

لكن اين هي اذن الاسواق الهائلة للسيد تيخوميروف ؟ اني أوافقه على ان تطور الرأسمالية في اوروبا الغربية كما يصفه هو أكثر مباشرة واقل مخاطر من جميع التطورات الاخرى ؛ ما الذي يستطيع ان نخاطر به «الصناعي الخاص الذي « يملك تحت تصرفه أسواقا هائلة ؟ لكنه لابد للسيد تيخوميروف ان يوافق كذلك ، من جانبه على أن هذا التطور قد تخيل بجهوده ، أو بالاحرى بجهود معلمه ، في مصلحة المذهب ، وليس له ادنى علاقة بالتاريخ الفعلي للغرب لقد جرت الامور هناك بصورة مغايرة تماما حتى ان فريدريخ ليست يصوغ قانونا ينص على أن اي بلد لايستطيع ان يدخل غمار السوق العالمية الا اذا قوى صناعته بأن يجعلها سيدة السوق الداخلية « ان الانتقال من الحالة المتوحشة الى الحالة الرعوية ومن الحالة الرعوية الى الحالة الزراعية يتم على أفضل صورة تحت تأثير التجارة الحرة ، ومثل ذلك الخطوات الاولى في الزراعة » ومن بعد فان

« انتقال الشعوب الزراعية الى مصاف الامم الزراعية الصناعية التجارية لايمكن يتحقق في المبادلة الحرة **الا اذا كانت العملية الحيوية نفسها تتحقق في نفس اللحظة** لدى جميع الامم المدعوة الى تطوير قوتها الصناعية الكمونية ، اذا وافقت جميع الامم على الا تثير نفسها عقبات على طريق التقدم الاقتصادي اذا لم تعوق بصورة متبادلة منجزاتها بواسطة الحروب والانظمة الجمركية لكن لما كانت الامم التي حصلت على التفوق في الصناعة والتجارة والملاحة قد رأت في هذه النجاحات الوسيلة الفضلى من اجل اكتساب وتوطيد نفوذها السياسي على الامم الاخرى ، فانها [يعني الامم الاكثر تقدما] قد انصرفت الى خلق مؤسسات كان الغرض منها وما يزال أن تضمن لها احتكار الصناعة والتجارة بواسطة اعاقة تقدم الشعوب الاخرى ان مجموع هذه المؤسسات حظر الاستيراد ، رسوم الجمرك على الاستيراد ، عوائق الملاحة ، الافضليات للتصدير ، الخ تسمى النظام الجمركي وتحت تأثير النجاحات الاولى للامم الاخرى ، والنظام الجمركي للبلدان الاجنبية والحروب تجد الامم الاكثر تخلفا نفسها مجبرة على البحث في ذاتها

---

* راجع Dos nationale System der Politischen Oekonomie, von Friedrich List, zweite auflage, 1842, B. I, kap. 9.
[النظام الوطني للاقتصاد السياسي ، فريدريخ ليست] راجع ايضا :
Geschichte der national oekonomie, von Eisenhart, III, Buch. 2 kap tel.
[تاريخ الاقتصاد السياسي بقلم ايزنهارت].

عن وسيلة الانتقال من الحالة الزراعية الى الحالة اصناعية انها تحد تجارتها مع البلدان المتقدمة طالما أن هذه التجارة تلجم الانتقال موضوع البحث وتخلق نظامها الجمركي الخاص وهكذا يتبين أن هذا النظام ليس ابتكارا من قبل المضاربين ، كما يؤكد أحيانا، العاقبة الطبيعية لطموح الشعوب الى ضمان وجودها وتقدمها ، بله ازدهارها ومهما يكن من امر ، فان هذا الطموح لايمكن اعتباره مشروعا ومعقولا الا في حدود مايسهم ولايناقض مطلقا وهو أبعد مايكون عن اعاقة تطور الامة الاقتصادي الهدف الاسمى للانسانية، الاتحاد العالمي المقبل .*

هكذا كان يتحدث فريدريخ ليست الذي كان يفهم على خير وجه مصلحة الراسمالية الالمانية في عصره ، ولا يخطىء الا ببعض المغالاة في تحديد الهدف الأسمى للانسانية» الذي ليس هو من وجهة نظر البورجوازية «الاتحاد العالمي» بل صراع لا رحمة فيه على السوق العالمية ولم يكن ليست يقلق من ناحية اتهام آرائه بالبطلان ، ولا ان يعارض باستحالة الصراع بالنسبة الى المانيا على السوق المذكورة مع بعض فرص النجاح لقد كان يرد على اول اعتراض بأنه ليس في حال من الاحوال خصما لدودا للمبادلة الحرة طالما انه لايطالب الا بتحديدها بصورة مؤقتة ويظل نصيرا لها في اطار الاتحاد الجمركي الالماني واما الاعتراض الثاني فقد كان يرد عليه بنقد لنظرية الاسواق ، أو بصورة اصح لشروط الاستيلاء عليها. لقد كان يشدد على ان البلدان المتخلفة تستطيع ويجب أن تعقد تحالفات كيما تناضل بصورة مشتركة ضد خصومها الافضل تسلحا وانه يجب عليها أن تهتم بالحصول على المستعمرات

يجب على كل امة صناعية ان تسعى الى اقامة مبادلات مباشرة مع بلدان المنطقة الحارة ؛ واذا كانت الامم الصناعية من المرتبة الثانية تفهم مصلحتها فان من واجبها ان تعمل بحيث لا تكتسب أية دولة نفوذا متفوقا في مجال الاملاك المستعمرية** »

وكان يؤكد على امكانية الحصول على مستعمرات جديدة بحقيقة ان عددا كبيرا من الاماكن من المنطقة الحارة لاتزال غير مستعمرة من قبل الاوروبيين.

وفي العصر الذي كان ليست فيه منصرفا الى هذه الدعاية كان الكثيرون ينكرون امكانيات تأسيس صناعة تحويلية كبرى في المانيا واليوم لايشك امرؤ في هذه الامكانيات ، وان يكن برنامج السياسة الاقتصادية الذي دعا ليست اليه لم يتحقق بعد في جميع النقاط : لقد بدىء فحسب في المانيا بطرح مسألة المستعمرات. وان الواقع قد تجاوز توقع المؤلف ان قسما من البرنامج قد كان كافيا من اجل توطيد الصناعة الكبرى الالمانية

---

* ليست المصدر نفسه ، ص ١٨ ـ ١٩

** ليست : المصدر نفسه ، ص ٥٦٠ ـ ٥٦١

ولا نجد اليوم متشككا واحدا يتساءل ما اذا كانت صناعة تحويلية كبرى ممكنة في موطن ليست ؛ بل ان السيد تيخوميروف يجد نفسه مجابها « بألمانيا هذه حيث وحدت الراسمالية العمال » وحيث الصناعي الخاص » يملك تحت تصرفه أسواقا هائلة ، فقد نسي الناس كليا الخطوات الاولى الصعبة لهذا البلد في حلبة الراسمالية ولكن كم من الزمن انقضى منذ كان ليست يكتب ؟ نصف قرن، ما لايكاد يبلغ خمس مرات الفترة التي جاهد فيها عبثا البلانكيون الروس من اجل الاستيلاء على السلطة ما عساه كان يحدث اذن لو ان ماركس وانجلز وتلامذتهما وقد تشربوا بالقناعة بأنه يجب قبول الشعب « كما هو وبأنه يجب على الشيوعيين الالمان لعام ١٨٤٧ ، حسب الصيغة المبرقشة للسيد تيخوميروف ان « يهتموا بادىء الامر بخلق الطبقة التي يريدون العمل باسمها»»، اقول ماعساه كان يحدث لو أن ماركس وانجلز ، وقد أدارا ظهرهما « للغرب ، رسما ان نقطة انطلاق » الثورة الاجتماعية في المانيا يجب أن تكون الاستيلاءعلى السلطة من قبل عصبة الشيوعيين(٥٠) ؟ ماعساه كان يحدث لو انهما كرسا جهودهما لهذا الغرض ؟ أين تكون الاشتراكية الديموقراطية الالمانية اليوم اذن ؟ ذلك ان هذه المسألة الخاصة بالاستيلاء على السلطة » لاتشكل صفة مميزة للحركة الروسية ، بل لقد أثيرت كذلك في عصبة الشيوعيين ، وكانت السبب هناك في الانقسام الى فريقين ماركس وانجلز من جهة وفيليش وسكابر من جهة ثانية

وان قصة هذا الانفصال لبناءة جدا بحيث يسمح لنا بروايتها هنا

ان فشل ثورة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ قد افقد الحزب البروليتاري ، في القارة، كل ما امتلكه ، بصورة استثنائية ، خلال تلك المرحلة القصيرة صحافة ، حرية الكلام ، حق التجمع ، يعني الوسائط القانونية من أجل تنظيم الحزب بيد أن الحزب البروليتاري بعد ١٨٤٩ كما قبل ١٨٤٨ ، لم يكن تحت تصرفه الا وسيلة واحدة : التجمع السري وكانت بعض هذه الجمعيات السرية تسعى بصورة مباشرة الى قلب السلطات القائمة وكان لهذا التكتيك مايبرره في فرنسا، حيث كانت البروليتاريا قد غلبت من قبل البورجوازية ، وحيث كان النضال ضد الحكومة القائمة يختلط مباشرة بالنضال ضد البورجوازية .» وكانت بقية هذه الجمعيات السرية تعمل في بلدان مثل المانيا ، « حيث كانت البورجوازية والبروليتاريا خاضعتين لحكوماتهما نصف الاقطاعية ، وبالتالي حيث كان أي نصر يتحقق على الحكومات القائمة لابد أن يحمل الى السلطة البورجوازية او على الاقل الطبقات المسماة الطبقات الوسطى » ، وهي بلدان كانت طليعة البروليتاريا تتخذ فيها كمهمة مباشرة ، دون ان تتخلى عن الاشتراك في الثورة القادمة ، لا الاستيلاء على السلطة بل تحضير الحزب البروليتاري المقبل وكان ذلك بصورة خاصة هدف عصبة

الشيوعيين التي كان ماركس وانجلز قائديها. وهكذا لم تكن عصبة الشيوعيين جمعية متآمرين ، بل جمعية كانت تهيىء سرا تنظيم الحزب البروليتاري ، لان البروليتاريا الالمانية وجدت نفسها محرومة من حق الكتابة والكلام والتجمع. » ومن المفروغ منه ان هذا النوع من النشاط الذي يضع نصب عينيه أن يشكل لا **حزب الحكومة بل حزب معارضة المستقبل** » لم يكن يجتذب مطلقا اصحاب الصبر النافذ الذين يفتقرون الى التكوين الصلب ؛ وعندئذ « انفصلت عن عصبة الشيوعيين جماعة كانت تطالب ان لم يكن بالمؤامرات الفعلية فعلى الاقل بمظهر التآمر ، وبالتالي بالتحالف المباشرمع الرجال العظامالعابرين للديموقراطية».
وان اسباب هذا الانفصال الذي كان الكثيرون يعزونه الى مناقشات شخصية بين زعماء الفريقين قد فسرت كما يلي من قبل الممثلين أنفسهم
حسب ماركس

« كانت الاقلية [جماعة فيليش ـ سكابر] تضع تصورا عقائديا محل التصور النقدي ومحل التصور المادي تصورا مثاليا وبدلا من الاوضاع الفعلية ، فان الارادة المجردة هي التي تصبح القوة المحركة للثورة اما نحن فكنا نقول للعمال أمامكم تجتازوا خمس عشرة او عشرين او خمسين سنة من الحروب والصراعات الاممية لا لكي تبدلوا الوضع القائم فحسب ، بل كي تتبدلوا أنتم انفسكم وتصبحوا قادرين على السلطة السياسية .أما انتم فتقولون لهم على العكس من ذلك « يجبعلينا أن نصل الى السلطة من فورنا ، والا فليس لنا الا أن ننام ملء جفوننا » وبينما كنا نحن نلفت نظر العمال الالمان بصورة خاصة الى الحالة العديمة الشكل للبروليتاريا الالمانية ، كنتم أنتم تتملقون بالطريقةالاشد فظاظة الشعور القومي والمستبق النقابيالحرفي للحرفيين الالمان* ، الامر الذي هو بكل تأكيد أكثر شعبية لقد كنتم ، مثلالديموقراطيين تماما ، تستبدلون التطور الثوري باللغو الثوري الخ

وكانسكابر من جانبه يصوغ وجهة نظره كما يلي

« لما كنت متحمسا في هذه المرتبة من الافكار فقد عبرت عن الرأي الذي يعارضونههنا المقصود هو ان نعرف بما نبدأ نعدم الاخرين او يعدموننا العمال سوف يتوصلون الى السلطة في فرنسا ، وسوف نتوصل اليها في أعقابهم في المانيا كان لابد ان يكون الامر خلاف ذلك ، فاني سوف أستكين الى الهدوء ويوم نملك زمام السلطة سوف نتخذ أجراءات بحيث نضمن حكم البروليتاريا [لنسجل بين قوسين أن السيد تيخوميروف يعد هو الاخر باتخاذ اجراءات تضمن لروسيا ادارة شعبية] اني مهووس بهذا الرأي لكن المجلس المركزي أراد العكس الخ.

---

* ومع ذلك لم يصل الامر بفريق سكابر حتى درجة منشورات من نوع المنشور الشهير(٥١) بالاوكرانية بخصوص الفتن ضد السامية التي أعلنت هيئة تحرير **ارادة الشعب** تضامنها التام معه والذي يشكل هو الآخر التملق الاتفه حيال المستبقات القومية للشعب الروسي .

لقد جرت هذه المناقشة في ١٥ ايلول ١٨٥٠ حيث اصبح الانفصال نهائيا. ولقد نشط كل من الفريقين ، فهيأ فيليش وسكابر الاستيلاء على السلطة ، واستمر ماركس وانجلز في وضع اسس « حزب معارضة المستقبل » ومرت خمس عشرة سنة ، واصبح « حزب المعارضة هذا هلع البورجوازية في جميع البلدان حيث تمثلت عشرات الآلاف من العمال أفكار مؤلفي البيان وما الذي فعله فيليش وسكابر في هذه الاثناء ؟ هل نجحا في الاستيلاء على السلطة ؟ من المعروف ان لا والمعروف اقل من ذلك هو ان « المهووس » سكابر لم يتأخر عن الاقتناع بأن خططه غير قابلة للتحقيق « بعد سنوات عديدة ، على فراش موته » ، لم يكن يستطيع أن يتحدث عن مشاريعه المجهضة بدون « سخرية لاذعة » *

ان جماعات من نمط جماعة فيليش وسكابر هي النتيجة الطبيعية لمجتمع ناقص التطور انها تنشأ ويمكن ان تحظى ببعض النجاح حين تكون البروليتاريا قليلة التطور بعد ، لدى محاولاتها الاولى من اجل التحرر واننا لنقرأ في **البيان الشيوعي** : « ان الادب الثوري الذي كان يرافق هذه الحركات الاولى للبروليتاريا قد كان يملك بالضرورة مضمونا رجعيا وحين تتشكل أخيرا تحت تأثير حالة اجتماعية أقل بدائية ، أدبيات اشتراكية جديدة في البلدان الاكثر تقدما ، فانها تجد نفسها بصورة جزئية عرضة بالضرورة لتنقيحات اكثر او اقل أصالة في البلدان التي تجعل من تخلفها عرضا للنوعية وكثيرا ماتقدم فرصة من اجل تفسيرات خاطئة ، وكذلك من اجل برامج عميلة رجعية واننا لنصادف ، ويمكن ان نصادف اليوم ايضا « ثوريين اجتماعيين من نمط فيليش وسكابر ليس في روسيا فحسب ، بل في بولونيا ايضا ، وعلى العموم في أوروبا الشرقية بأسرها** وانه لمن البدهي ان التطور المقبل للشرق الاوروبي سوف يخزي توقعهم للثورة » كما اخزى في المانيا توقع فيليش وسكابر

---

* Enthüllungen über den Kommunisten - Process zu Kôln

[كشوف عن محاكمة الشيوعيين في كولونيا] حيث استخرجت هذه التفاصيل

** لقد كتبت هذه السطور في فترة لم نكن قد توصلنا فيها الى تحديد اتجاه فالكاكلاس(٥٢) صحيفة الحزب الاشتراكي الثوري الاممي » (؟) وستطيع اليوم أن نؤكد، بعد صدور ثلاثة أعداد هذه المجلة النظريات التي تعمل على نشرها هي في أسلوب فيليش - ومهما يكن من امر فلا بد من اظهار قدر كبير من الحذر دائما عند الحديث عن «النظريات» خاصة بهذا النوع من الاتجاهات ولقد سبق لماركس ان أشار الى ذلك « حزب سكابر-فيليش يدع قط ف امتلاكه افكارا خاصة به ان مايخصه بالذات هو عدم فهم أفكار الغير والزعم متشبث هذه الافكار في بنود ايمان واستملاكها بوصفها لغوا طنانا » [عبارة ماركس وردت بالالمانية في النص الروسي ، ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥

الفصل الثاني

الرأسمالية في روسيا

١ ـ السوق الداخلية

نعرف الآن ان كل بلد متخلف يستطيع بادىء الامر قبل اغراق السوق الداخلية ان يقضي بواسطة النظام الجمركي على المزاحمة الساحقة لجيرانه الاكثر تطورا وهكذا فان اعتراض السيد تيخوميروف الذي ينص على انعدام السوق عندنا يفقد جزءا كبيرا من وزنه وبالنسبة الى البلدان المتخلفة فان المسألة لايمكن ان تصاغ الا بهذه العبارات هل ستنجح الرأسمالية الغربية ،ولكم من الزمن ، في جر هذه البلدان في فلكها قبل ان تفسح المكان لشكل من المجمع الاعلى وكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نحلل بكل عناية الوضع الحالي للبلد المحدد وهذا ما سوف نفعله من جانبنا في الفصل القادم لنرجع الآن الى السيد تيخوميروف ولنر كيف يقوم بهذا التحليل

ان كل من هو على اطلاع على الحياة الاجتماعية للسنوات الاخيرة يعرف بالطبع إلام تسعى جهود صناعيينا الفرديين » ضمان السوق الداخلبة وان هذا الطموح ليحظى بتأييد الدوائر الحكومية والصحافة على حد سواء وكذلك تأييد وسط لايمكن استبعاده من الانتليجنتزيا عندنا الا اذا تبنينا القاموس الاصيل للسيد تيخوميروف ذلك انه لاينقصنا الاساتذة والعلماء الذين سوف يجمعون تحت راياته ومع ذلك فان قضية الراسمالية الروسية تلوح للسيد تيخوميروف في وضع حرج جدا ان لم يكن ميئوسا منه » ففي رأيه ان الصناعة تتطور بجمود ، فهي لاتني تشكو من نقص العناصر المثقفة والنشيطة وهذا صحيح حتى درجة معينة ؛ لكن هل يبين هذا الظرف ان طموحات الراسمالية الروسية لارجاء منها ؟ أليس جمود تطور الصناعة في روسيا تابعا للقمع السياسي ؟ اما ان المؤسسات الحرة هو الشرط الضروري للراسمالية

في درجة معينة من تطورها فهذا مانعرفه منذ زمن طويل ، سواء « في اوروبا »أم في روسيا حيث ارتفعت قبل أكثر من ثلاثين سنة اصوات تطالب بالحرية فيمصلحة الصناعة ويستطيع السيد تيخوميروف ان يجني بعض الفائدة من مطالعة في بعض الشروط التي تسهم في تكاثر الرأسمال الوطني ، وهو خطاب القاه في حزيران ١٨٥٦ ايفان بابست في جلسة مهيبة لجامعة قازان وان هذا النص سوف يساعده على فهم كيف ان الرأسمالية التي تختبىء في أوائلها تحت المعاطف الاسراطوري تدخل شيئا فشيئا في نزاع مع الملكية المطلقة وتأخذ في المعارضة

...ـع على طريقتها التي هي لائقة ومعتدلة

...سون الاقتصادي الراحل

يصعب على المرء يتصور حتى أية درجة يمكن للحماقة الادارية وانعدام الامن والابتزاز ، والسلب ، وبلاهة المؤسسات أن تمارس تأثيرا محزنا على التوفير، والتراكم وفي نفس الوقت على تكاثر الرأسمال الوطني ان الحروب بين الاخوة ،وصراع الاحزاب السياسية والغزوات والطاعون والمجاعة لايمكن يكون لها فعل مشؤوم في ثروة بلد ما بقدر سلطة مستبدة وتعسفية فمهما عانت البلدان المباركة لآسيا الصغرى ، ومهما تعرضت له من ثورات ، فقد كانت دائما تعود من جديد جنات أرضية طالما أن الادارة التركية لم تغتلها فكروا في فرنسا في القرن الثامن عشر حيث السكان الزراعيون يتحملون نظام مضطرب من الضرائب وحيث كان كل موظف، فضلا عن ذلك يستطيع بحجة الضرائب يسرق بكل خوف من العقاب.

ثمة عدالة ضد السارقين واللصوص لكن الذي يمكن عمله عندما يتعلق الامر بأجهزة السلطة العليا وخدمها الذين يعتبرون وظيفتهم صناعة مسلية ؟ منذئذ تخبو كل طاقة كادحة ويفقد كل اهتمام بالمستقبل وبتحسين الوجود أيها السادة الرساميل وتراكمها لاتتجاوب مع مصيرها الحقيقي **الا حين تفتح درب حرة كليا امام نشـــاطها**

...شا يشير السيد تيخوميروف الى حقيقة ان حكم ألكسندر الثاني لم يكن الا محاولة من الملكية من أجل توطيد أسسها بفضل تنظيم روسيا تحت أوامر [؟] البورجوازية ، ويحسب انه يملك بذلك حجة تؤيد فكرته بأن طموحات الرأسماليين الروس لارجاء منها ان تاريخ الملكية الفرنسية منذ هنري الرابع ليس كذلك الا محاولة من اجل توطيد اسس النظام القديم بفضل تنظيم فرنسا تحت اوامر البورجوازية ففي المجالس العامة لعام ١٦١٤ تشكو النبالة من ذلك حتى بعبارة خالصة من أي التباس ولقد رأينا أعلاه الاهتمام الذي كان يخصه كولبير لتطور فرنسا الصناعي وفي القرن الثامن عشر عشية الثورة ، تتأسس مدرسة كاملة من الاقتصاديين الذين يبشرون بهوية مصالح الرأسمالية والملكية

المطلقة وفيما كانوا ينادون بالمبدأ البورجوازي الكبير Laissez faire, laissez passer* فقد كانوا يمتدحون في الوقت نفسه الصين من حيث هي نموذج للنظام السياسي وان الملكية تبذل كل جهودها كي تتكيف مع الشروط الجديدة في حدود ما تستطيع ذلك دون التخلي عن السلطة المطلقة. وعلى حافة القبر عندافتتاح المجالس العامة لعام ١٥٨٩ ، وعدت بلسان لويس السادس عشر وهي تدين « الاوهام » بأن تلبي مطالب البلاد المعقولة لكن منطق الاحداث الذي لا يرحم يبين ، بفعل انعطاف لم يكن متوقعا من قبل الكثيرين من البورجوازيين ، ان المطلب الاكثر معقولية ، وان لم يكن الجميع قد وعوا ذلك جيدا هو قلب الحكم المطلق ؛ وانه لينكشف ان المثل الاعلى السياسي للفيزيوقراطيين هو أبعد الاوهام عن التحقيق ان هذه الاستحالة التي تتناول بعد الآن تأطير الحكم المطلق مع تقدم البورجوازية قد فهمها الكثيرون من بين معاصري الفيزيوقراطيين وعلى الاخص الاشتراكي مابلي في كتابة **شكوك مقترحة على الفلاسفة الاقتصاديين** . ولم تكن البورجوازية من حيث هي طبقة تفكر بعد في الاستيلاء على السلطة بيد أن مابلي لم يكن يقول،كما يفعل السيد تيخوميروف، انه لو كانت تملك القوة من اجل ذلك لفعلته في الحال لقد كان يعرف أن ثمة مراحل تاريخية تصعدفيها قوة طبقة ووعيها السياسي بسرعة تضاهي سرعة ارتفاع الانهر عند ذوبان الثلوج ولقد كان يعرف ايضا ان قوة كل طبقة فكرة نسبية ، تتحدد على الاخص بدرجة انحطاط الطبقة التي تسبق ودرجة تطور الطبقة التي تلي ومع شعب قليل التطور ، كانت البورجوازية الطبقة الوحيدة القادرة على السيطرة في فرنسا ومن جراء ذلك فقد كان الحكم المطلق ، الذي كان يمنع البلاد من التطور تحت القيادة البورجوازية ، محكوما عليه بالموت .ولقد ثارت البورجوازية ضد الحكم المطلق ، الذي كبرت تحت معطفه حتى «العصيان». وكان مابلي يتنبأ بهذه النتيجة ، وعلى الرغم من مثله الاعلى الشيوعي فانه لم يكن له بد من الاعتراف بأن المستقبل المباشر يخص البورجوازية

اذا كان يكفي ، من اجل رفض كل مغزى وكل مستقبل ليس للطبقات الاجتماعية فحسب بل للنظريات الفلسفية والسياسية ايضا ، أن نقرر أنها تنضوي جميعا في لحظة ما من تطورها ، تحت حماية مبدأ لايقابل مطلقا تتمة تطورها فانه لابد اذن ان ننكر الحضارة بأكملها كي « نتخيل لها طرقا جديدة واقل مخاطرة ألم تولد الفلسفة في أحضان اللاهوت وعلى حسابه ؟ ان الوحدة والخضوع والحرية هي المواقف الثلاثة التي اتخذتها على التوالي الفلسفة في العصر المسيحي حيال اللاهوت الاكليريكي ، هذا مايقوله فريدريك يوبرفيغ في كتابه

---

* [دعه يفعل ، دعه يمر]

عناصر تاريخ الفلسفة * وهذا النسق من العلاقات بين العلم والايمان يمكن أن يعتبر قانونا عاما اذا أضفنا أيضا ان « الحرية تشق لها طريقا لقاء نضال قاس من اجل الوجود ان كل مبدأ جديد اجتماعي او فلسفي يولد في أحضان (ويتغذى من نسغ مبدأ قديم مضاد له ولا بد ان يكون المرء جاهلا بالتاريخ كي يستنتج من ذلك ان المبدأ الجديد محكوم عليه بالاخفاق

وصحيح ان مؤرخينا « النوعيين » يعرفونه بصورة رديئة جدا فاما سمعوا الحديث عن نظريات مدرسة مانشستر(٥٢) عن خطر تدخل الدولة وكانوا عارفين في الوقت نفسه بأن الراسماليين الروس يتوقون بكل قواهم الى مثل هذا التدخل، في حدود ما يتظاهر بتعرفات حماية ، ومنح وضمانات الخ فان العلماء الاجتماعيين الداخليين عندنا يستخلصون من ذلك ان راسماليتنا تتطور في اتجاه معاكس على طول الخط لاتجاه الراسمالية الغربية: ففي الغرب لاتتحدث البورجوازية الا عن عدم التدخل ، اما عندنا فانها تتحدث فقط عن المنح والضمانات لكن اذا كان السادة ف.ف » وشركاه لا يصدقون بغير دليل اقتصادي مدرسة مانشستر ويديرون ظهرهم قليلا الى مصادرهم النوعية » ، فقد كانوا يعلمون اذن ان البورجوازية الغربية لم تعارض لا دائما ولا في كل مكان تدخل الدولة ،وذلك في المستعمرات أقل منها في الحاضرات وأما يتحققون من ذلك ، فانهم سيرون ان نقائضهم تفقد كل معنى على الاطلاق ان الخطيئة الاساسية للاقتصاديين البورجوازيين من مانشستر تستقيم بالضبط ، كما هو معروف ، في تنصيب مبادىء لاتملك الا مغزى مؤقتا على اعتبارها قوانين طبيعية ابدية وثابتة وان تصورهم عن الماضي ليتراءى صحيحا بصورة لاتقل عن ذلك في نظر الكثيرين من الروس النوعيين عندنا ، الذين لاينتظرون مع ذلك من المستقبل ما يأمل هؤلاء الاقتصاديون فيه انهم يعتقدون ان تدخل الدولة ودعم الحكومة في تاريخ الغرب ، دون ان يخدما البورجوازية في شيء ، لم يسببا لها قط الا الضرر ههنا يجب البحث عن العيب الاساسي لنظرياتنا وبرامجنا النوعية ان السيد « ف.ف الذي يصدق بلا دليل مدرسة مانشستر ، يرى أنه من النافل ان يلقي نظرة سريعة على تاريخ اوروبا الاقتصادي وان السيد تيخوميروف ، الذي يصدق بلا دليل السيد « ف.ف » ، يرى في النفوذ المتعاظم للبورجوازية الروسية على السياسة الاقتصادية للسنوات الخمس والعشرين الاخيرة (لم يكن حكم الكسندر الثاني الا محاولة » ، الخ ،) العرض الرئيسي لضعف الراسمالية الروسية التي ولدت ميتة

Grundriss der Geschichte der Philosophie, III, TH, S. 2. *

ولا يهمنا كثيرا السيد « ف.ف المدافع عن الحكم المطلق ، ومن جراء ذلك الرجعي الشرس لكن لنعترف ان سذاجة رئيس تحرير مجلة ثورية تحزننا كثيرا.

أما ان مصالح البورجوازية الروسية تدخل الآن في تناقض عضال مع مصالح الحكم المطلق فهذا ما يعرفه كل امرىء يملك بعض الاطلاع على الحياة في روسيا خلال السنوات العشر الاخيرة* وأما ان هذه البورجوازية نفسها تنجح مع ذلك في الاستفادة من النظام القائم ولذا فهي لاتؤيد بعض مظاهره فحسب بل تدعمه دعما مطلقا على الاقل فيما يتعلق بقسم من عناصره ، فهذا مالايمكننا ان نعجب له ايضا ان تطور الطبقة الاجتماعية عملية معقدة جدا بحيث لايمكننا استخلاص اتجاهه العام من عدد قليل من مظاهره الجزئية ان بورجوازيتنا تخضع في الوقت الراهن لتحول هام لقد نمت لها رئتان تتطلبان الهواء النقي للاكتفاء الذاتي السياسي ؛ بيد ان غلاصمها لم تضمر كليا وهي تتيح لها بعد ان تتنفس في المياه العكرة لحكم مطلق في سبيله الى الانحلال ان جذورها تغطس بعد في النظام القدم بينما تطور أوراقها بميط اللثام عن الضرورة العاجلة لازدراع حتمي فلايبرح الكولاك مستمرين في الاثراء بفضل الطابع المتلاف لاقتصادنا الوطني بيد ان الصناعيين الكبار والمانيفاكتوريين والتجار والمزارعين المتبرجزين يدركون منذ الآن ان ازدهارهم يتطلب منح الحقوق السياسية وان لنا برهانا على ذلك في العرائض العديدة الموجهة الى الحكومة منذ عشر سنوات بل ان الصناعة الكبرى والتجارة الكبرى ترجوان في احداهما بطرسبورغ بألا تتخذ أي اجراء مالي قبل استشارة سابقة مع ممثليهما ما الذي تشير اليه هذه العريضة ؟ الا تبين أن التأثير المشؤوم للحكم المطلق ينعكس بطريقة حساسة جدا على مداخيل الشركات الصناعية والتجارية ؟ الا تدلنا على أن نظام الاجراءات الفردية لكل معلم قرب الوزراء ومجلس الوزراء وهي اجراءات مترافقة بالتماسات و « هبات وطنية ورشوات مبتذلة من مختلف الانواع لم يعد كافيا بعد الآن ، وانه يصبح غير فعال ويتجه الى افساح المكان امام المشاركة القانونية والمنظمة للطبقة الصناعية في حكومة البلاد ؟ وان السيد سيميون بولياكوف حر أيضا في تفضيل الوزراء المشترين على الوزراء الدستوريين المسؤولين. بيد ان المنافسين ، الذين يبعدهم أحد اصحاب السعادة لقاء هدايا و تملقات لايشاركون بكل تأكيد في وجهة النظر هذه ان النظام الذي يعود بالفائدة على **أفراد** معزولين يصبح مجحفا بالنسبة الى **طبقة** المعلمين بمجموعها أواه ان ممثلي هذه الطبقة لاينزلون الى الشارع ؛ انهم لا ينصبون الحواجز بل لايطبعون

---

* ان سلوك البورجوازية الروسية الحالي يبرهن على أن التناقض لم يكن له دواء في الحقيقة [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

منشورات سرية ؛ فالبورجوازية لاتحب هذه الوسائل المحفوفة بالاخطار وحتى في أوروبا الغربية ، فهي نادرا ما كانت سباقة الى التلويح براية الثورية :ففي معظم الحالات نسفت بصورة خفية النظام الذي كان بغيضا اليها مكتفية بأن تجني ثمرة شعب يقاتل اعداء أعدائه وأما بالنسبة الى الدعاية السياسية السرية ، ففيم تستحق البورجوازية مركزها اذا لم تكن تفهم دور تقسيم العمل انها تكلف بذلك مايسمى الانتيليجنتزيا ، حتى لا تشيح بوجهها عن رسالتها الخاصة التي هي الاثراء انها تعرف ان تلك عملية « أكيدة وان النضال السياسي الذي نخوضه المثقفون سوف يشق الطريق عاجلا او آجلا امام سيطرتها الم تترك البورجوازية الايطالية الثوريين يخرجون من النار كستناء التحرر والوحدة كيما تتخم اليوم بها ؟

أجل ، لكن اذا ما أقدم الثوريون على الاستيلاء على السلطة وقاموا بالثورة الاجتماعية ؟ ان البورجوازية لاتؤمن بذلك ، والثوريين أنفسهم لن يتأخروا عن عدم الايمان به هم أيضا انهم لن يتأخروا في التحقق من انه اذا كان المرء يفتح مظلته عندما تمطر السماء ، فانه لايترتب مطلقا على ذلك ان فتح المظلات يجعل السماء تمطر انهم سيتحققون من انه اذا كان الاستيلاء على السلطة السياسية هو العاقبة المحتومة لتقدم كل طبقة ، وعلى الاخص الطبقة العاملة ، فانه لايمكن ان نستنتج من ذلك انه يكفي ثوريي الاوساط المميزة أن يستولوا على السلطة كي يجعلوا السكان الكادحين في روسيا قادرين على تحقيق الثورة الاشتراكية انهم لن يتأخروا عن ان يدركوا جميعا انهم لايمكن أن يخدموا مصالح الشعب الا بتنظيم الشعب وتهيئته لان **يقاتل بنفسه** من اجل مصالحه

اما أن بعض ثوريينا مقتنعون بعجز البورجوازية ، فان ذلك يخدم قضيتها على خير وجه انها سوف تستأنف هذه اللازمة عند الحاجة ، وهذا هو ما تفعله بالضبط حالما تسنح الفرصة لنر على سبيل المثال مسألة القوى العمالية في الصناعة في رأي السيد تيخوميروف انه ليس في روسيا من اصل مائة مليون من السكان الا ثمانمائة ألف عامل يوحدهم الرأسمال » ؛ وفضلا عن ذلك ، فان هذه الكمية الزهيدة نسبيا « لاتزيد ، بل ربما [!] تظل عند الرقم نفسه واذ نسجل بصورة عابرة ان عبارة ((**لاتزيد**)) تعني نفس الشيء الذي تعنيه عبارة ((**تظل عند الرقم نفسه**)) فلندرس تكوين هذا الرأي

٢ ـ القوى العمالية

يستأنف السيد تيخوميروف هنا تأكيدات السيد «ف.ف» الذي يعود اليه شرط التحقق من الركودة العددية لطبقتنا العاملة وعند السيد « ف.ف. »يرجع

دور الراسمالية الى « تجميع العمال » ؛ واننا لندرك السبب في انه بذل كل هذه الجهودكي يبرهن على ان تعداد عمالنا « يظل عند الرقم نفسه » فاذا ماتقررت هذه النقطة مرة يترتب عليها أن الراسمالية عاجزة عن ممارسة ادنى فعل في تقدم الحضارة الروسية ان الناس الذين يعرفون ان دور الراسمالية لايقتصر على تجميع العمال » يعرفون كذلك ان الحقيقة التي قررها السيد « ف.ف. » لاتثبت شيئا حتى اذا كانت صحيحة واما اولئك الذين يعرفون احصائياتروسيا الحاضرة فانهم يعرفون فضلا عن ذلك ان ذلك التقرير خاطىء كيف يبرهن السيد ف.ف. على مايزعمه ؟ في مقالة نشرتها **رسول اوروبا**(٥٤) استقى اللوحة التالية المتعلقة بتاريخ المعامل والمصانع الروسية غير الخاضعة لرسم الانتاج»(٥٥)

	عدد العمال	عددالمصانع	الانتاج بالروبلات	الانتاج بالروبلات لكل عامل
لقدكانفيعام ١٧٦١	٧٨٣٩	٢٠٠	٢١٢٢٠٠٠	
في عام ١٨٠٤	٩٥٢٠٢	٢٤٢٣	٢٦٧٥٠٠٠٠	حوالي ٣٣٠
في عام ١٨٤٢	٤٥٥٨٢٧	٦٩٣٠	٩٧٨٦٥٠٠٠	
في عام ١٨٥٤	٤٥٩٦٣٧	٩٤٤٤	١٥١٩٨٥٠٠٠	حوالي ٣٠٠
في عام ١٨٦٦	٣٩٣٣٧١	١٦٤٥١	٣٢٤٩١٠٠٠٠	حوالي ٨٧٠

ويستنتج السيد « ف.ف. من هذه الارقام انه ابتداء من عام ١٨٤٢ ،يعني منذ سمحت انكلترا بتصدير الآلات الحر ، وعلى الاخص منذ عام ١٨٥٤ ، اتبع تطور الصناعة الروسية « القانون » الذي اكتشفه شخصيا ، الا وهو انه «بصورة موازية لزيادة رقم الاعمال يحدث نقص في القوى العمالية ، بحيث لا تتقدم الصناعة عرضا بل عمقا*

أهذا صحيح ؟ ليس تماما

في سبيل الحصول على قانون » تطور الصناعة الروسية يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار جماع الانتاج وليس قسما منه لماذا يستخلص السيد ف.ف نتائجه من الارقام المتعلقة بالمعامل والمصانع غير الخاضعة لرسم الانتاج ؟ لاندري ومما لا ريب فيه ان السيد تيخوميروف لايدري كذلك ، هو الذي يردد عبارات الغير دون فكر نقدي لكن طالما أن هذا السؤال لم يتلق جوابا ، فان قانون السيد « ف.ف. » سوف يظل أعرج واننا لنستطيع أن نجد فيتاريخ الراسمالية الغربية أمثلة عديدة على تقدم الصناعة « لا عرضا بل عمقا » ففي فرنسا وفقا لمورو دي جونيس ، زادت المحصلة العامة لقيمة منتجات الصناعة

---

* انظر **مصيرالراسمالية في روسيه** ص :٢٦-٢٧

الصوفية بنسبة ٧٤٪ بين سنة ١٨١١ وسنة ١٨٥٠ وتضاعف عدد الانوال ،بينما عدد العمال « نقص ١٥٠٠٠* » ايثبت ذلك أن عدد العمال الفرنسيين « يظل عند الرقم نفسه »، بل يتناقص منذ عام ١٨١١ ؟ ابدا أن نقصه في أحد فروع الصناعة تعوضه الزيادة في موضع آخر وخلال السنوات الاربعين السابقة لعام ١٨٥٠ ، جرت الراسمالية في فلكها بصورة لامراء فيها كتلة هائلة من العمال دون أن تؤمن لهم بالطبع أجورا ثابتة ، بصورة معاكسة لما يسعى الاقتصاديون البورجوازيون لاقناع قرائهم به

ويتمسك السيد ف.ف. بالبرهان على ان هذه الظاهرة لم تحدث في روسيا مطلقا ذلك ان الصناعات الخاضعة لرسم الانتاج نمت بسرعة عندنا بعد عام ١٨٤٠ بالضبط اتراه نجح في ذلك ؟ ماكان في مقدوره ان ينجح ، ذلك ان الارقام التي يوردها لا تسمح بأي استنباط جدي ومثال ذلك أن ارقام عام ١٨٤٢ لاتملك اي قياس مشترك مع أرقام عام ١٨٦٦ لقد جمعت من قبل ادارات مختلفة بواسطة وسائط متنوعة ، وبالتالي لاتمثل نفس الدرجة من الصحة .وقبل عام ١٨٦٦ كانت الاحصائيات تقوم بصورة اساسية على المعلومات الخاطئة جدا بصورة عامة ، هذه المعلومات التي كانت وزارة المالية تجمعها لدى الصناعيين وقبل عام ١٨٦١ لم تكن المعامل الخاضعة لرسم الانتاج تدخل في هذا الحساب ولم يباشر بالحصول على أرقام ادق الا في عام ١٨٦٦ ، بفضل جهود لجنة الاحصاء المركزية ولقد كان السيد « ف.ف. يبرهن على الحذر لو انه لم ينشيء قوانين على اساس « احصاء » مترنح حتى هذه الدرجة لكن حتى اذا تركنا هذه النقطة جانبا ، فان الارقام المشار اليها لاتتفق مع ارقام لجنة الاحصاء المركزية ، وهي الارقام الوحيدة التي تستأهل حدا ادنى من الثقة فحسب المعلومات الصادرة عن هذه اللجنة كان التعداد الاجمالي للعمال المستخدمين في «الصناعة المانيفاكتورية» لروسيا الاوروبية (بدون مملكة بولونيا وفنلندا) يبلغ بالفعل ٨٢٩٥٧٣ وكانوا يتوزعون كما يلي :

نمط الانتاج	العمال
معالجة الانسجة	٨٦٦ ٢٩٤
الاخشاب	٦٣٩ ١٤
منتجات تربية الماشية	٧٥٧ ٣٨
المنتجات المعدنية	٣٣٢ ٤٩
المعادن	٠٥٨ ١٢٨
المنتجات الكيميائية	٦٢٨ ١٣

* احصائيات الصناعة في فرنسا ،ص ٣٤

التبــــغ	١١٦ ٢٦
المنتجــات الغــذائية	٢٦. ٢٦٢
متنـــــوعات	٥٢. ٣*

ماذا تعني لنا هذه الارقام ؟ كما سوف يقول السيد « ف. ف. أولا انعدد العمال في عام ١٨٦٦ ، حتى في الصناعات غير الخاضعة لرسم الانتاج كان يتجاوز حتى درجة بعيدة العدد الـذي يجب ان يشهد الى جانـب « القـانون موضوع البحث

لكن هذه الارقام غير صحيحة هي الاخرى ، فهي دون الواقع ففي ملحـق الفصل الخاص بالصناعة المانيفاكتورية ، يشير ناشرو **حوليات الاحصاء العسكري** الى أن « دليل المعرض (معرض عام ١٨٧٠) واطلس تيميريازيف يتضمنان عـددا كبيرا من المعامل والمصانع غير الواردة في المصادر السابقة». وان قائمة هذه المصانع، المطبوعة بأحرف صغيرة جدا ، تحتل الصفحتين ٩١٣ و ٩١٤ من **الحوليات** ومع ذلك فاننا لانجد فيها الا المشاريع التي لايهبط انتاجها دون ٢٥٠٠٠ روبل ومعظمها يتجاوز انتاجها ١٠٠ روبل بيد ان اطلس تيميريازيف ليس كاملا هو الآخر. ففي رأي سكالكوفسكي ، الذي يستند الى شهادة صناعيين عديدين فـان الارقام الواردة في هذا المؤلف « لا تبرح بعيدة عن الحقيقة بالرغم من كـل شيء حتى بعد التصحيحات التي أدخلها السيدان الافوزوف والكسندروف**

اننا نستطيع ان ندرك ذلك دون صعوبة فبعد عام ١٨٤٢ حقا ، يعني بعـدما سمحت انكلترا بتصدير الآلات الحر ، انطلقت فروع عديدة من صناعتنا **غـير** الخاضعة لرسم الانتاج » ، « عرضا » و « عمقا » على حد سواء فمنذ هـــذا التاريخ فقط بدأت مصانع غزل القطن عندنا ، مثلا ، في التطور وان تطورها قـد شجعته جزئيا زيادة الرسوم الجمركية في عام ١٨٤١ على خيوط الغـزل المستوردة وبالرغم من ان هذا الرسم قد الغي عام ١٨٥٠ ، فان نجاح الصناعة القطنية الروسية بات مضمونا في هذه الاثناء ؛ ان المنتجات الوطنية تحل اكثر فأكثر محل المنتجات الاجنبية وانه في مقدورنا أن نحكم على الثورة التي حدثت بواسطة الارقام التالية

---

* انظر **حوليات الاحصاء العسكري** ، الاصدار الرابع ، روسيا ، سان بطرسبورغ ، ١٨٧١، ص: ٣٥٢-٣٢٥

** انظر **المحضر الاختزالي لجلسات المكتب الثالث للمؤتمر الاول للصانعين والصناعيين** الخ ص ٣٧ .

الاستيرادات في	٢٦٨ ٧٤ رطل من القطن الخام
١٨٢٤ – ١٨٢٥	٢٤٠٠ رطل من خيوط الغزل
الاستيرادات في	٥٩٠ رطل من القطن الخام
١٨٦٤	٦٠٠ رطل من خيوط الغزل
الاستيرادات في	٣٩٤ ٣ رطل من القطن الخام
١٨٦٧	٨٠٤ ١٨٦ رطل من خيوط الغزل

اما ان هذه « الثورة » هي نتيجة الانطلاقة التي اتخذتها صناعتنا الرأسمالية. خاصة عرضا بعد عام ١٨٤٢ فهذا مانتبينه من حقيقة أن عددا كبيرا من مصانع النسيج والغزل ، الخ ، حديثة التاريخ جدا عندنا

ان تطور مصانع غزل القطن قد انعكس على معالجة خيوط الغزل عندنا فقد غادرت الانوال الفلاحية الاكواخ الضيقة شيئا فشيئا كي تنتقل الى ورشات واسعة تضم عشرة انوال ونيفا ، **حيث يشتغل عمال ماجورون** فضلا عن المعلم وأخيرا فان القصر والصباغة والطباعة قد تغير مظهرها كليا **ففي هذه الفروع ، افسح العمل الحرفي والعمل المنزلي المكان لمعامل حقيقية** سرعان ماضاهى معظمها المعامل الاجنبية *

وفي راي السيد ايريسمان ان « معظم مشاريع النسيج الصغرى الموجودة حاليا في احدى النواحي الاقل تصنيعا من حكومة موسكو ناحية كلان ، « قد تأسست حوالي عام ١٨٧٠ ان مصنع الغزل بالين وماكاروف (٤٣٢ عاملا من الجنسين)يعود تاريخه الى عام ١٨٤٠ ؛ ومعامل النسيج الآلية كولين وكابوستين وكراسنوغوروف ٧٧٦ عاملا من الجنسين) الى عام ١٨٤٩ ؛ ومعامل الحرير فلاندان (٢٧٥ عاملا) الى عام ١٨٥٦ ؛ ومعامل النسيج الآلية كاشاييف (بين ٥٠٠ الى ٧٠٠ عامل) الى عام ١٨٦٤ وان صناعة اعواد الكبريت قد بدأت ١٨٦٣ ببناء أول معمل لزاخاروف ٩٠ عاملا في معمليه ؛ ٦٠ عاملا في مصنع سترام) وحوالي الوقت نفسه جعلت معالجة جلود الدباغة تتطور بصورة فائقة بفضل تشييد المعامل الجديدة في شيشينيو واما فيما يتعلق بتطور المصانع في الناحية بعد عام ١٨٧٠ ، فهذامايمكننا أن نحكم عليه من الارقام التالية التي تشير الى عدد المعامل والمصانع **التي زرناها** والتي شيدت على الاخص بعد عام ١٨٧١

معامل نسيج	١٦
مؤسسات من اجل قصر الانسجة وصباغتها	٣
مصابغ	٣
مدابغ	٣
معامل مرايا	٦

---

* **حوليات الاحصاء العسكري** ، ص ٣٧٨.

مصانع مسحوق الصندل	١
مصانع قيطاني	١
معامل للبناء الميكانيكي	١
مصـــانع للدبس	١
مصانع للنشاء	١
مصانع الثقاب	١
معامل للمنتجات الكيميائية	١
مؤسسات لصناعة الاحذية	١

وفي الحقيقة ان عدد المؤسسات المنشأة بعد عام ١٨٧١ وعلى الاخص عـدد مشاريع النسيج الصغرى التالية لعام ١٨٧٠ هو اعلى جدا مما يشار اليه هنا ، طالما انـا أولا لم نزر جميع المؤسسات الثانوية ، الامر الذي يمنعنا من الاشارة الى تاريـخ تأسيسها ومن ثم لانه لم يكن في مقدورنا دائما حتى في تلك المؤسسات التي زرناها، ن نحصل على معلومات دقيقة عن تأسيسها

ومن المناسب ان نسجل فضلا عن ذلك انهم يستمرون حاليا [في عام ١٨٨٨] في بناء مصانع جديدة في ناحية كلين هكذا مثلا توسع شركة كاشاييف انتاجها بانشاء مصنع لغزل القطن وان زاخاروف يشيد معملا جديدا لاعواد الثقاب قريبا من كلين؛ وفي دسكرة شتشيكينو في منطقة تروتيسكي ظهر مصنع جديد للغرابيل يخص الفلاح نيكيتور بافلوف المنشرة التجارية لمحطة زافيدوفو ، على خط سكة حديد نعولاس قد زادت انتاجها واخيرا قرب محطة سولنتشنوغورسك قد شيد مصنع مريسشمانك الذي ينتج شحم المحاور*

ماذا تغني لنا » هذه الوقائع المستخرجة من الحياة الاقتصادية لاحدى المناطق الاقل تصنيعا من حكومة موسكو ؟ من المؤكد انها لاتغني لنا ان تعداد عمال المصانع يظل عند الرقم نفسه انها لتغني لنا بالاحرى ان كتابنا «النوعيين» يستخدمون وسائط نوعية جدا من أجل البرهان على النوعية الروسية هـذا كقاعدة عامة وأما فيما يخص السيد تيخوميروف فانها تغني له أن برنامجه يقوم على معرفة سطحية جدا بالحالة الراهنة لصناعتنا ان السيد تيخوميروف يخطىء جدا اذا تصور بصورة جدية ان عدد عمال مصانعنا لايتجاوز ثمانمائة الف وحدة ففيما يخص روسيا الاوروبية (دون حساب مملكة بولونيا طبعا) ، فان الارقام الرسمية لاتتجاوز بالفعل ارقام السيد تيخوميروف فهي من اجل عام ١٨٧٩ تبلغ ٧١١ ٠٩٧ ، دون ان تشمل على أي حال عمال مصانع التقطير

---

* انظر ايريسمان « دراسة عن معامل ناحية كلين في معلومات احصائية عن حكومة موسكو ، » «قسم الاحصاء الصحي» ، المجلد الثالث ، الطبعة الاولى ، موسكو ١٨٨١ ، ص: ٧–٨ .

بيد ان السيد تيخوميروف نسي ان الرقم المذكور يتعلق بالصناعات التحويلية فقط ان المؤلف لم يأخذ بعين الاعتبار الصناعة المنجمية لكن ٩٥٩ ٢٨٢ عاملا كانوا يشتغلون في المناجم في السنة نفسها ١٨٧٩ ، وفي السنة التالية **زاد هذا** الرقم بحوالي عشرة آلاف وحدة ، الامر الذي يعطينا مجموعا يساوي ١٠٠٣١٤٣ . لكن ايمكننا ان نعتبر هذا الرقم مضبوطا ، حتى بصورة تقريبية ؟ لاننس ان المقصود معلومات رسمية جمعتها الادارة ، والادارة نفسها تسميها ساخرة «أرقاما وزارية».

ولقد رأينا اعلاه ان ناشري **حوليات الاحصاء العسكري** اشاروا من قبل الى أن الارقام الحاصلة على هذا الفرار هي في الاغلب ناقصة ودون الواقع ولقد تقرر ايضا أثناء المؤتمر الاول للصانعين والصناعيين والشخصيات الروسية المعنية بالصناعة الوطنية » ، في ٢٩ أيار ١٨٧٢ ، في جلسة المكتب الثالث ، ان « الوسيلة الحالية المستخدمة من أجل جمع المعلومات الاحصائية عن الصناعة بالاقتصار على استخدام الجداول السنوية المسلمة للشرطة المحلية **غير مرضية حتى درجة فائقة** ، وان الارقام المجموعة على هذا الفرار هي اقل جدا من الواقع وفي رأي السيد ايلين انها حقيقة يعرفها الجميع اننا **لانملك احصاء** لا في التجارة ولا في الصناعة* وان هذه الثغرات والاخطاء تظل حقيقة لا مراء فيها في اليوم الحاضر ايضا واننا لنقرأ في الدراسة السابقة الذكر للسيد ايريسمان ، في الصفحة ٦ ، ان المعلومات التي جمعها بنفسه تشير الى ان « عدد العمال قد تبين أعلى بمرتين **مما تشير اليه جداول مامور الشرطة في الناحية** » . اثمة سبب يحملنا على التفكير بأن احصائيات أدق سوف تقودنا الى نتيجة مختلفة في مناطق روسيا الاخرى؟ واذا لم يكن الامر كذلك ، افلا يجب ان نضرب تقريبا باثنين المجموع العام لعمال المصانع؟ أما ان هذه الفرضية ليس فيها شيء من المبالغة على الاطلاق فان مناقشات «مؤتمر الصانعين الخ تؤكد ذلك وفي رأي السيد فون بوخن ان صانعين عديدين

اعترفوا له بكل بساطة انهم **ينقصون الارقام المضبوطة بنسبة النصف** وان السيد موروزوف الذي يمثل أحد أضخم المعامل في روسيا قد أعلن انه « عندما تطلب الشرطة معلومات ، فانه يحدث ان الصناعي الكبير يأمر كاتبه بأن يسجل أرقام السنة الفائتة وهكذا فان الارقام تتراكم سنة بعد سنة خلال عشر سنوات أحيانا بينما كمية الخامات المعالجة وعدد العمال لم يكفا عن التغير ان الموظفين يسجلون أي شيء يروى لهم ؛ فهم لايعرفون شيئا عن الموضوع واذا صدقنا السيد سيرومياتنيكوف ، « **فان هناك أمثلة كثيرة** على ان صناعيين – وليسوا بأقل الصناعيين – ينقصون مردودهم **بنسبة ٥٠٪** ، **واحيانا حتى بنسبة ٩٠٪** ». اننا نطلب من القراء الا ينسوا ان هذه الكشوف تصدر عن الصناعيين انفسهم الذين لابد

---

* انظر **المحضر الاختزالي** ، **الخ** ، ص ٤٧ و ٥٤

لهم مع ذلك من اللجوء الى مثل هذه الممارسات « لاسباب دقيقة » لكن ماعسانا نفكر في مؤلفين يصرون ، دون ان يكتفوا بتشييد نظريات اجتماعية وسياسية على ارقام خطؤها واضح بصورة قبلية ، على المناداة بأن تعداد عمال المصانع لايتحرك، حتى بعد ان أوضح لهم الصناعيون أنفسهم السبب البسيط جدا في هذه الركودة؟ وحتى لانكون قساة جدا لنقل فقط ان هؤلاء المؤلفين لايعرفون مطلقا الموضوع الذي يعالجونه

لكن لماذا يلجأ الصناعيون الى مثل هذه الحيل ؟ يرد السيد فونبوخن على ذلك بقوله ان معظمهم لايقولون الحقيقة خشية أن تفرض عليهم بعض الرسوم ولقد اعلن بعضهم بكل صراحة ان ثمة **زمستفويات** تكلف المعامل فيها بصورة مطردة مع عدد **الآلات** ، **والعمال** ، الخ بحيث ثمة سبب مباشر لاعطاء رقم ادنى ». وعند وصول مستخدمي الاحصاء ، « فان الصناعي يقول في نفسه انهم قادمون على الارجح من قبل **الزمستفو** وانهم يريدون دون ريب ان يكلفوه بصورة مناسبة مع تعداد ملاكه فيصدر أمره بانقاص العدد بنسبة ٥٠٪ *

اننا نرى هنا بكل وضوح الخدمة التي يؤديها للبورجوازية الروسية يقين ثوريينا في عجزها الاقتصادي ان «صناعيينا الخاصين» ، حين يخشون ضريبة الدخل وكل التعديات الممتدة على رأسمالهم يعملون كل مافي وسعهم لاخفاء أهمية انتاجهم الفعلية وان ثوريينا ليأخذون بسذاجة مذهلة مراثيهم على انها نقد رنان ، ولايفكرون في الارتياب في صحة الارقام المقدمة لهم ويقيمون على ذلك مختلف أنواع النظريات عن توزيع القوى في المجال الروسي وينشرون بين شبيبتنا صورة مغلوطة عن استغلال الشعب الروسي مسخرين بذلك انفسهم « لفرسان التراكم البدئي » والانتاج الرأسمالي

وفيما عدا ذلك ، فاننا نظلم بعض الشيء **رسول ارادة الشعب** اذا اتهمناها بنشر هذه الاخطاء ان خطيئة الرسول الحقيقية هي انها لاتكف عن مناقضة نفسها ان يدها اليمنى حسب الصورة التي يقدمها الانجيل لاتعرف ماتفعله يدها اليسرى ان السيد تيخوميروف يؤكد ان الصناعة الروسية تتطور «بجمود». لكننا نجد العكس من ذلك تماما في « أوضاع عمال المناجم وعمال المصانع في الاورال»، وهي مقالة تعتمد فيما يبدو ((**على ملاحظات شخصية**)) وقد نشرها العدد الثاني من **الرسول** ان كاتب هذا المقال يعتبر أنه « واثق من ان قراءه لو رأوا « القاطرات والمذرات والمناخل ، والآلات الضخمة الاخرى التي يصنعها عندنا في روسيا ، عمالنا فان معظمهم سوف يهتفون اذن هو لالا ! بخ نعم** ان روسيا

---

* المصدر نفسه ، ص ٣١

** من المفروغ منه اننا لانتحمل اية مسؤولية بخصوص أسلوب الكاتب

تسير بخطى العمالقة ! بالامس فقط ، في هذا الفرع ، ماكانوا يصنعون شيئا جيدا، حتى ولا مقبولا نوعا ما وقبل حوالي خمسين عاما لم يكن يوجد عشرة معامل في روسيا كلها أما الآن .. الآن ، هناك حوالي مائتا معمل للحديد في منطقة الاورال وحدها ! وكم يوجد من هذه المعامل في بطرسبورغ وفي موسكو ، الخ ؟ وليس هذا شيئا بعد لو اعطيت لنا الحرية بعد عشر او خمس عشرة سنة ، سوف نضاعف عدد معاملنا ، والانتاج أيضا ؛ كما سوف نحسن أساليبنا التقنية»، الخ ان كاتب المقال يعتقد أن هذا الخطاب الطويل نوعا ما يعبر بصدق » عن الاوضاع الراهنة وحسب مايقوله لنا ــ وهو يعتمد كما نعرف على مشاهدات شخصية » ــ « حققنا منذ بعض الوقت في هذا المضمار (مضمار الصناعة) تقدما هائلا فكمية المعامل لاتكف عن الزيادة والتجهيزات تتحسن (« تتطور بجمود » كما كان الآخر يقول ان معرضنا الاخير (٥٦) قد أثبت أن عددا كبيرا من معاملنا التعدينية هي في مستوى أحسن المعامل الاوروبية* ان المرء ليحب أن يوضح هذه البلبلة ! من نصدق ؟ السيد تيخوميروف أو هذا الرجل الذي «شاهد شخصيا تقدم صناعتنا ؟ ذلك ان هذا الاخير يعلن ــ وهنا أوج السخرية ــ انه حين يحدث له ان يقرأ » مقالات كتبت دون معرفة شخصية بالموضوع من قبل واحد من كتابنا العلماء أو غير العلماء عن أوضاع العمال »، فان المقالات المذكورة لاتفعل الا ان تثير فيه « ضحكة مريرة » واني لأرى من هنا ضحكته المفيستفولية عندما قرأ عند السيد تيخوميروف أن صناعتنا تتطور بجمود »

لندع هنا **التناقضات الاقتصادية** التي تقع فيها **الرسول** كي نعود الى السيد تيخوميروف ان الجزء يهمنا في الوقت الحاضر اكثر من الكل

لقد بينا لهذا المؤلف أن الارقام التي يجيء بها لاتقابل حتى الحقيقة الرسمية ولقد قدمنا من جانبنا ارقاما تسمح بالاقتناع بأن الحقيقة الرسمية المذكورة لاتقابل هي الاخرى الواقع ولنضف الآن ان السيد تيخوميروف لايعرف حتى كيف يتصرف بالاحصائيات المغلوطة التي تحت تصرفه ، طالما انه يعمل بمقادير غير قابلة للقياس البتة انه يؤكد انه في بلادنا يوجد فقط ، من أصل مائة مليون من السكان ثمانمائة الف عامل جمعهم رأس المال »»، وهي نسبة منافية جدا لصناعتنا لكن هذا الرقم هذه المائة مليون (وبصورة ادق ٢٤٢ ١٣٤ ١٠١) تتناول سكان الامبراطورية بمجموعها يعني ليس روسيا الاوروبية فحسب ٩٦٥ ٥٨٩ ٧٦) بل كذلك مملكة بولونيا (٩٨٠ ٣١٩ ٧) ، وفنلندا (٧٨٢ ٠٦٠ ٢) والقوقاز ، بما في ذلك منطقتا كارس وباتوم (٩٦٦ ٢٥٤ ٦)، وسيبيريا (١٩٢ ٩٦٥ ٣) ، وآسيا الوسطى (٣٥٤ ١٥١ ٥) ولكن القوى العمالية المعطاة من قبل السيد تيخوميروف ، على أساس ارقام الشرطة ، لاتتناول الا روسيا الاوروبية فحسب . وفضلا عن ذلك « الصناعة المانيفاكتورية » وحدها . كيف يمكننا أن نصف مثل هذه الطريقة بالمقارنة الاحصائية ؟

---

* **الرسول** . العدد الثاني ، ص ١٥٥ ــ ١٥٦.

٣ ـ الحـــرفيون

ليس هذا كل شيء ان السيد تيخوميروف ، حين يورد هذه الارقام يضع نصب عينيه العمال « الذين جمعهم **الراسمال** » والذين هم « في تبعية اكثر أو أقل للبورجوازية الخ أيعرف ان عدد هؤلاء العمال أعلى جدا من الرقم المحتمل لعمال المصانع بكل معنى الكلمة ؟ ان حالة التبيعة التي يتحدث عنها تتناول قدراً عظيما من الحرفيين المحرومين تقريبا من كل استقلال وقد نجح الراسمال أيما نجاح في « تجميعهم وهذا ما تشير اليه بالفعل **حوليات الاحصاء العسكري** لعام ١٨٧١ ، كما تؤكده الدراسات الاحدث وهكذا فان السيد بروغافين يعلمنا بـأن « عدد حرفيي النسيج في حكومة موسكو وحدها **يبلغ** ٥٠ حرفي في حين أن المنطقة النسيجية الهائلة لموسكو لم تكن ممثلة في المعرض **الا باثني عشر حرفيا** ويجب أن نبحث عن السبب الاساسي لذلك في حقيقة ان **الغالبية العظمى من حرفيي النسيج لاتشتغل لحسابها** ، بل لحساب معلمين أكثر او أقل كبرا يقسمون المادة الخام بين فلاحين يعملون في المنزل وباختصار ، **فان ما يسود في حرفة النسيج هو نظام الصناعة الكبرى المنزلية*** .» وفي حكومة فلاديمير تلعب صناعة النسيج، «ذات الاشكال المتنوعة جدا» ، دورا ذا أهمية رئيسية في حياة السكان الاقتصادية. وفي **المنطقة السابقة** اوبارينو (ناحية الكسندروف)، فان الصناعة الصوفية « تشغل ٢٢ محلة يشتغل فيها ١٢٩٦ شخصا ان الانتاج الحرفي السنوي يمثل قيمة تبلغ ١٥٥ روبل أيفلت هؤلاء الحرفيون أكثر أو أقل من سيطرة البورجوازية؟ وآسفاه ، كلا ! فيما يتعلق باقتصاد الحرفة ، نتبين باديء الامر ان كتلة الحرفيين فقدت استقلالها وهي تعمل لحساب معلمين أو صناعيين وان الامور في هذا الشأن لتذهب بعيدا جدا بحيث أنه ، في صناعة الملونات حيث يتناول الحرفي ٥٠٪ أكثر من العامل **لا يمثل رقم الاشخاص الذين يعملون لحسابهم الا ٩٪ من عدد الحرفيين الاجمالي**** ».

اما أن الصناعة الصوفية الحرفية جعلت منذ الآن تتبع « الحركة الطبيعية للراسمالية فان هذا مانراه سواء من اقتصاد » هذه المهنة أم من التفاوت الذي ينشأ بين الفلاحين

الصناعة الصوفية بوثباتها المفاجئة من الركودة الى الازدهار في زمن الحرب ، قد الفت بينهم [الحرفيين] ، على الاقل اولئك الذين انتاجهم هو الاعلى،وبين

---

* انظر فكتور بروغافين **الحرفية في معرض عام ١٨٨٢** ، موسكو ص ٥٠ .

** المصدر نفسه ، ص

المضاربة الصناعية ، وافراخ الصرافة ، والاثراء السريع ، والافلاسات الاسرع ايضا
ان الصانعين المثرين* يتعجلون تشييد أبنية جديدة ، بل ذات خمس عشرة نافذة لكل
طابق وفي قرية كوربيتسيبيفو نجد أن نصف المنازل هي من هذا النوع وفي دائرة
اوبارينو يمكننا أن نكون على ثقة ، حين نرى دارا من حجر ، أو مسكنا مهيبا نوعا ما ،
ان صانعا صغيرا يقطنه **».

وفي منطقة فلاديمير يحتل النسيج القطني المرتبة الاولى « ان ناحية بوكروف تعد أكثر من ٧٠٠٠ نولا تعالج كل عام ماقيمته مليونان ونصف المليون من الروبلات. وفي ناحية الكسندروف ، تشغل صناعة القطن ١٢٠ محلة وأكثر من ٣٠٠٠ نول » بيد اننا نصادف هنا من جديد التحول نفسه للانتاج الحرفي الى الصناعة الرأسمالية الكبـرى

ويقول السيد بروغافين

« انه لما يثير الاهتمام ان نتحقق في هذا النوع من التحول المتدرج للانتاج الحرفي
الصغير الى الانتاج الآلي الضخم وان ثمة أشكالا متوسطة عديدة بين هذين الشكلين
الاقتصاديين ودراستها تعود الى تحليل عملية التحول الرأسمالي المتدرج لصناعة
النسيج الحرفي ومثال ذلك اننا نجد في ناحية بوكروف ، في صناعة القطن جميع
الاشكال الممكنة للوحدات الصناعية وان عزبة الحرفي هي التي تسود حتى الوقت
الحاضر ؛ ونحن نعد حاليا في هذه المنطقة ٤٩٠٣ نولا في المنازل مقابل ٣٢٠٠ نولا في
مصانع النسيج الآلية وان الدرجة المتوسطة تتشكل من المشاغل التي تجمع حصيلة من
الانوال تبلغ ٢٢٣٠ نولا اما المشاغل الاصغر فتعد من ٦ـ١٠ انوال ؛ والبعض منها يجمع
اكثر من نول ، وتبلغ ابعاد المعامل الحقيقية وفي هذه المشاغل الكبرى لصناعة
النسيج اليدوية تتظاهر تبعية الحائك حيال الصناعي بطريقة اشد قسوة ، فالاجور
ادنى وشروط العمل أسوأ منها في المشاريع الصناعية الصغرى خطوة اخرى
ونصل الى ميدان الحياكة الآلية حيث تحول الحرفي بصورة نهائية الى عامل
وفي ناحية بوكروف لايكف عدد المشاغل الكبيرة عن النمو ، وقد انتقل جزء منها حاليا الى الحياكة الآلية . ان عدد المشاريع الحرفية الصغرى محدود حتى الدرجة القصوى،
ولانجد ايا منها على الاطلاق في ناحية الكسندروف وفي ناحية بوكروف لا يتجاوز
تعداد شغيلتها خمسين شخصا. وبالرغم من ان المشاغل الكبيرة لاتختلف جوهريا عن
المشاغل الصغيرة ، فان ابعادها وازديادعددها المستمر تشير الى الاتجاه ــ والاقتراب
الفعلي المستمر ــ الذي ينحو بالصناعة التقنية الحرفية نحو الصناعة المانيفاكتوريةالكبرى،
نحو نمط التنظيم الرأسمالي للعمل الوطني ***».

---

* برجى الا ينسى انهم فلاحون صغار أيضا

** المصدر نفسه ، ص

*** انظر فكتور بروغافين **الصناعة الحرفية في معرض عام ١٨٨٢** ، موسكو ، ١٨٨٢ ، ص ١٣

ولننتقل الى النواحي الاخرى لحكومة فلاديمير

اننا نقرأ في دراسة اخرى لفكتور بروغافين مايلي

« ان التنظيم الاقتصادي لمناسج القطن في ناحية ايوريفيتس يشبه في جوهره التنظيم الذي شاهدناه في ناحية الكسندروف وبوكروف وكما هو الامر في هاتين الناحيتين، اتخذت هنا الشروط الاقتصادية للانتاج القطني شكل نظام **الانتاج الكبير في** المنزل فالقطن يعالج بنسبة ٩٥ر٩٨٪ حسب هذا النظام في دائرة ايوريفيتس ، وبنسبة ٥. فقط من قبل الحرفيين الصغار فيما قد تحسبون ؟ كلا ٠« من قبل صناعيين صغار مستقلين * »

وفي كل القسم الشمالي الغربي من حكومة فلاديمير تشغل المناسج والمغازل كل اليد العاملة المتوفرة تقريبا ؛ لقد تحول السكان على وجه التقريب الى عمال مصانع ، بحيث لا يتمثل الانتاج الصغير اليدوي هنا بعد الآن الا بالبقايا الاخيرة لانتاج حرفي كان مزدهرا فيما مضى ومن المؤكد ان ملكية الارض احتفظت للفلاح في تلك المنطقة **ببعض** صفات المزارع ، وعلى الاخص في الاماكن حيث التربة خصبة ؛ بيد ان خضوع هذا الفلاح للرأسمالي يكاد الا يكون اقل من خضوع عامل المصنع الذي لايملك مسكنا ان عددا كبيرا من الحرفيين بالمعنى الحقيقي ، بالرغم من استقلالهم الظاهري يجدون انفسهم كليا تحت رحمة المقاولين الذين ليسوا في حقيقة الامر الا صناعيين دون علامة مصنع**

وفي منطقة شوئيا النسيجية فان افتتاح مؤسسات جديدة للنسيج الآلي حوالي عام ١٨٧٠ سرعان ما جمع السكان في المعامل الكبرى وحولهم الى يد عاملة صناعية وهكذا فان الحائك القروي يفقد حتى ظل الاستقلال الذي كان يتمتع به في المشاغل ، هذه الحظائر المنخفضة والعفنة ، المزدحمة بالانوال والغاصة بالعمال من الجنسين ومن سائر الاعمار***

ويجب الا نحسب ان هذه الحقائق **خاصة** بحكومتي موسكو وفلاديمير، فحكومة اياروسلافل تقدم لنا اللوحة نفسها ان ستوكنبرغ ، في كتابه **وصف حكومة**

---

* ان الرقم الاجمالي لانوال الناحية يبلغ ٥٦٩٠ ، من اصلها ٥٦٣٠ عند المعلمين الكبار و ٦٠ عند الصناع الصغار احسبوا مايتبقى من أجل الحرفي الحر انظر **الكومونة الزراعية والمهن الحرفية والزراعة في ناحية ايوريفيتس (حكومة فلاديمير)** ، موسكو ١٨٨٤ ، ص ٦٠-٦١

** انظر **الدورية الاحصائية للامبراطورية الروسية** ، الملزمة الثالثة ، « وثائق من أجل دراسة الحرفة اليدوية والعمل اليدوي في روسيا » ، سان بطرسبورغ ، ١٧٨٢ ، ص: ١٩٨

*** المصدر نفسه ، ص ٢٠٠

ايارو سلافل* ، يتحدث عن حائكي قرية فيليكويه ــ ويعد منهم ١٠٠٠ حائك ــ على اعتبارهم منتجين أحرارا وان بحثه يعتمد على مؤلف السيد ديهل الذي يعود الى مرحلة ١٨٤٠ ــ ١٨٥٠ فخلال هذه المرحلة و « حتى عام ١٨٥٠ كانت صناعة النسيج في فيليكويه ترتدي طابعا فلاحيا وحرفيا بصورة دقيقة وكانت كل عزبة منسجا صغيرا وفي عام ١٨٥٠ ، اقام فلاح من المنطقة اسمه لاكالوف انوالا للنسيج وبدأ يشتري في حكومة تولا خيوط غزل كان يعطي الفلاحين قسما منها لينسجوه ولقد اقتدي به ، فاذا معامل نسيج حقيقية تظهر وفي معامل فيليكويه كانت توزع كل عام على فلاحي البلد وكذلك على فلاحي كوستروما وفلاديمير خيوط غزل تبلغ قيمتها حوالي ٣٠٠٠٠ روبل وفي عام ١٨٥٧ صنع فلاحو فيليكويه قرابة مائة ألف قطعة من النسيج وقبل أعوام قليلة كانت نساء هذه القرية وحدهن يشتغلن في الحياكة ؛ لكنه منذ ادخال الانوال ذات المكوك الطائر أصبحت هذه الحرفة على وجه التقريب حكرا للرجال والصبيان ابتداء من سن العاشرة** ان هذا التحول الاخير يشير الى أن الحياكة تشغل حاليا مكانا اكثر جوهرية في تقسيم الوظائف داخل الاسرة الفلاحية. وبالفعل ، فان غزل الكتان وحياكته يشكلان في الوقت الحاضر الحرفة الاساسية للفلاح في نواحي فيليكويه وان الدور الذي يلعبه العمل في الحياكة الحرفية الفلاحية يضح بحقيقة ان « الصناعة الكتانية لاتكف عن التطور بصورة مطردة مع تطور معامل جرش القنب وغزله في المنطقة ، وكذلك المصانع الخاصة بالقصر الكيميائي***

وفي حكومه كوستروما ، يواصل غزل الكتان وحياكته تأمين « دخل للفلاحين من الجنسين ، وعلى الاخص في نواحي كينيشما ونيريختا وكوستروما وايوريفيتس لكن هنا ايضا ، لسوء الحظ ، مع تطور المغازل اختفت على وجه التقريب صناعة نسيج الكتان انطلاقا من خيوط الغزل الحاصلة في المنازل ، نظرا لان الفلاحين الذين اقتنعوا باستحالة مزاحمة المغازل الصناعية أخذوا يشتغلون كتانهم بعناية اعظم كي يبيعوه منقطعين عن الغزل والحياكة في المنزل

ولاننس أن الحياكة المنزلية كانت توفر العمل احيانا لأسرة فلاحية بأسرها خلال تسعة اشهر ، يعني ثلاثة ارباع السنة فيم سوف تشتغل هذه الاسرة بعد الآن وقد نقصت الحياكة والإعداد اليدويان بنسبة تفوق النصف مع الانوال

---

* ستوكنبرغ دراسات احصائية ، المقالة العاشرة ، « وصف حكومة ايارو سلافل » سان بطرسبورغ ١٨٥٨

** انظر الدورية الاحصائية للامبراطورية ، ١٤٩ـ١٥٠

*** انظر تقرير اللجنة الامبراطورية لدراسة الوضع الراهن للاقتصاد الريفي ، الملحق الاول ، القسم الثاني ، ص ١٦٦

والمغازل الآلية ؟ نستطيع ان نخمن الجواب « ان الفلاحين يفضلون العمل في المعامل المجاورة على انتاج النسيج في المنزل* »

ويبدو ان بعض فروع الانتاج الحرفي في حكومة كالوغا تشكل استثناء للقاعدة العامة التي أشرنا لتونا اليها وبالفعل فان الحياكة الفلاحية تتفوق فيها على المصانع الكبرى التي تخص الصناعيين ومثال ذلك ان انتاج الوشاحات والضفائر التزيينية « قد ظهر في ناحية مالو – اياروسلافتز مع انشاء معمل وشاحات ماليوتين عام ١٨٠٤ الذي بلغ انتاجه ، منطلقا من ٢٠٠٠٠ روبل ، ١٤٠٠٠٠ روبل في عام ١٨٢٠ ، بعد تجهيزه بأنوال روشيه التي تمكن العامل الواحد من حياكة ٥٠ وشاحا او ضفيرة في وقت واحد لكن حين جعلت الحياكات الفلاحية تستخدم الانوال نفسها ، فقد انخفض انتاج مصنع ماليوتين الى ٢٤٠٠٠ روبل عام ١٨٦٠ ، واضطر اخيرا الى اغلاق ابوابه » وان « نوعيينا » ليستنتجون من ذلك ان الحرفي الروسي ليس له مايخشاه من مزاحمة الراسمالي ، وهو استنتاج لايقل طيشا عن بقية جهودهم من اجل صياغة « قوانين اقتصادية » وقبل كل شيء ، فاذا كان الحرفي الحر هزم في الحقيقة مصنع ماليوتين ، فانه يجب بعد البرهان على ان هذا الانتصار نهائي ان تاريخ صناعة النسيج في هذه المنطقة يعطينا اسبابا عديدة للشك في ذلك ان مصنع القطنيات المؤسس عام ١٨٣٠ على اراضي غوبين لم يستطع هو الآخر ان يقاوم مزاحمة المنتجين الفلاحين ، وقد ظلت الحرافة مزدهرة هناك حتى عام ١٨٥٨ لكن « الحياكة على البخار التي ظهرت حوالي ذلك الحين بدات في القضاء على الحياكة اليدوية ان ناحية ميدين التي كانت تعد حتى ذلك الحين ١٥٠٠٠ نول يدوي لا تعد اليوم سوى ٣٠٠٠ نول** » ما الذي يضمن لنا ان بعض التحسينات الفنية الجديدة لن ترجح كفة الميزان في صناعة الاوشحة والضفائر الى جانب الراسماليين الكبار ؟ افلا يترافق التقدم الصناعي على الدوام بزيادة نسبية للقسم الثابت من الراسمال ، وهي الزيادة التي تسبب ضياع المنتجين الصغار ؟ وفضلا عن ذلك ، فاننا نخطىء اذا تصورنا ان النضال كان يجري في الحالات التي اوردناها لتونا بين الراسماليين والمنتجين المستقلين ان مصنع غوبين لم يسحق من قبل الحرفيين ، بل من قبل « المؤسسات الكبرى للحياكة في العزبة» التي خفضت بصورة داعرة « **الاجرة بالقطعة** » . كانت المعركة تدور بين الراسمال الكبير والصغير ، ولم ينتصر الراسمال الصغير الا بزيادة استثمار الشغيلة ولقد حدثت الظاهرة نفسها في صناعة الاوشحة فليس الحرفيون الصغار هم الذين ابتاعوا الانوال روشيه ، بل « المعلمون الصغار » ان الحائك والوشاح والضافر لم يكفوا

---

* المصدر نفسه ، ١٧٠–١٧١

** المصدر نفسه ، القسم الثاني ، ص ١٥٨–١٥٩

عن فقدان حتى ظل الاستقلال ، اذ لم يكن لهم خيار الا بين الصناعي المحلي وهؤلاء « المعلمين الصغار » الذين « يتناولون » خاماتهم من لدى الصناعيين في موسكو ويحيكونها عندهم بأن يدفعوا للعمال بالاونة* ، أو يوزعونها على فلاحين آخرين ومن ثم يردون النسيج الى الصناعي وان الكثيرين من هؤلاء المعلمين الصغار يحققون. اعمالا كبيرة ويتحولون الى « صناعيين » حقيقيين ففي ناحية مالو ـ ايار وسلافتز يستخدم « معملان حرفيان » لحياكة القطن حتى ٤٠ عاملا ؛ وفي ناحيتي اوفتشينينو ونييديلينو تستخدم ٥ معامل فلاحية للاوشحة ١٦٤ عاملا على ١٤٥ نولا ؛ وان مصنع الاوشحة في اوفتشينينو يملك ٧ انوال و ٨ عمال ، الخ ** .وفي حكومة موسكو يملك الانتاج « الحرفي » للبروكار معامل فلاحية للبروكار يبلغ رقم اعمالها مئات عديدة من آلاف الروبلات***

ماذا تغني لنا هذه الارقام » والوقائع ؟ ان السيد بروغافين يستخرج منها اليقين بأن « الحياكة الحرفية تتحول بصورة قاضية ، وان تكن بطيئة ، الى انتاج كبير لكن أيجب أن نقصر هذا الاستنتاج على الحياكة ؟ من المؤسف انه لاتنقص فروع الانتاج الحرفي حيث الاعمى وحده لايسجل العملية نفسها

هذه على سبيل المثال صناعة الاحذية فيناحية الكسندروف (حكومةفلاديمير). ففي هذا الفرع أهمية الرأسمال الثابت والرأسمال المتداول وكذلك الدور الضئيل لمعامل الاحذية الصغرى ، وتقسيم العمل الصارم الحديث في المؤسسات الضخمة ، وبخس ثمن اليد العاملة الذي يجب طرحه من المبلغ الاجمالي لرقم الاعمال ، هذا كله يبرهن بوضوح مذهل على اننا حيال انتاج في سبيله الى التحول من المرحلة الحرفية الى مرحلة المانيفاكتورة**** »

واما بخصوص الحرفيين الدباغين ، فان عددهم لايكف عن التناقص »، ويجب أن نفتش عن السبب في ذلك في مزاحمة المعامل الكبرى، ان المعامل تستطيع ، سواء بفضل شروطها الافضل أم من وجهة نظر التموين والتجهيز ، ان تشتغل بصورة افضل وبثمن ابخس من الحرفيين ومما لاريب فيه ان الحرفيين الدباغين يلاقون الامرين في مقاومة مزاحمة الانتاج المصنعي الذي يتجاوب مع المتطلبات الراهنة بصورة أفضل

ومثال أخير صناعة النشاء والدبس في حكومة موسكو تتمركز هذه الصناعة في ٤٣ محلة تعد ١٣٠ مؤسسة ، ١١٧ من أصلها للنشاء ، و ١٣ للدبس.

---

* [نوع من القياس]

** تقرير ، الخ

*** **الاحصائية الدورية** ، الملزمة الثالثة ، ص ٣٠٨

**** فكتور بروغافين **الحرافة في المعرض** ، ص ٢٨

وليس هناك بعد معامل كبرى ، كما في المناطق النسيجية ، لكن الانتاج الحرفي جعل هنا ايضا يرتدي طابعا رأسماليا ان العمل المأجور يلعب دورا من المرتبة الاولى في هذه المهنة ؛ فهو الذي يقدم على وجه الحصر اليد العاملة في ٢٥٫٨٪ من المؤسسات وفي ٥٩٫٧٪ يتعاون مع أفراد عائلة المخدوم* ؛ وفي ١٠ ٪ فقط من الحالات يستغنى عن خدماته ويجب ان يرد السبب في ذلك الى اهمية الراسمال الثابت الذي يتجاوز امكانيات غالبية الفلاحين

ان البيطرة في حكومتي نوفغورود وتفير وفي جميع المناطق حيث تلعب دورا يملك بعض الاهمية في الحياة الفلاحية ، وكذلك صناعة التعدين الصغرى في حكومة نيجني – نوفغورود . تتميز ايضا بالانعدام التام لاي استقلال بالنسبة الى المنتجين** . ان الحرفيين لم يتعرضوا فيها بعد لمزاحمة الراسمال الصناعي الضخم ؛ بيد ان دور المستثمر يلعبه بصورة جيدة الفلاح نفسه ، أو التجار الذين يقدمون الى المنتج المادة الخام ويحصلون على المنتج المصنوع

وفي حكومة نيجني – نوفغورود « لا تنعدم الاماكن حيث جماعات كاملة تعيش في العمل الحرفي وحده وتتميز قليلا جدا من عامل المصنع فيما يتعلق بالشروط الحياتية تلك حال المحلات المعروفة جيدا لبافلوفو وفورسما وبوغورودوسكويه وليسكوفو وكذلك بعض النواحي او القرى من مناطق سيمونوفو وبالأخنا***

فاذا لم يكن العمال مجمعين » هنا من قبل رأس المال ، فمما لا ريب فيه أنهم **مستعبدون** له ، وهم يشكلون اذا جاز التعبير جيشه غير النظامي وان ضمهم الى الجيش النظامي مسألة وقت وربح فقط

ان وضع الحرفيين الراهن مقلقل جدا بحيث غالبا ما يجد المنتجون انفسهم مهددين بفقدان استقلالهم لمجرد تحسن وسائل الانتاج . لقداخترع الحرفي كوستيلكوف اربع آلات من أجل صنع الامشاط زادت المردود حتى درجة فائقة ولم تكلف في الحقيقة الا القليل جدا ومع ذلك فان السيد بروغافين يخشى بحق أن يرى هذه الآلات تثير تبدلات بالغة الأهمية في مجال التنظيم الاقتصادي لانتاج الأمشاط وذلك بدون ريب بمعنى أنها سوف تقضي على استقلال المنتجين ويرى السيد بروغافين أنه يجب في هذه الحال « تقديم العون الى كتلة حرفيي الامشاط لتمكينهم من الحصول على الآلات وفقا لمبادىء الجماعية ومن المؤكد أن تحقيق ذلك سيكون أمرا جيدا

---

* يمكن ان نحكم على وضعية العمال في هذه المشاريع العائلية من هذه الملحوظة لإيريسمان « لما سألنا ابن أحد صناع المرايا ما اذا كان يشتغل بالتبييض (الذي يستقيم في فرك المرايا بالزئبق بالزئبق) ، اجابنا بقوله « كلا ، اننا لانتمسك بافساد صحتنا ايريسمان ، المؤلف المذكور، ص: ٢٠

** انظر تقرير الخ « البيطرة في ناحية اولوما ناحية تشيريبوفتز من حكومة تونفورود) »

*** الدورية الاحصائية ، الملزمة الثالثة ، ص ٨٣

للغاية ؛ لكن المسألة كلها هي بالضبط معرفة ما اذا كان ذلك **سوف يتحقق** فمن المعروف ان اولئك الذين يمسكون بزمام السلطة لا يضمرون الا قدرا ضئيلا من التعاطف مع مبادىء الجماعية وفي الحقيقة اننا لا نعرف ما اذا كان سيتوفر لدينا قريبا سلطات أخرى أميل الى المبادىء المذكورة اننا لا نعرف ما اذا كان « حزب ارادة الشعب » مثلا سوف يمسك قريبا بالدفة كي ينشيء « بداية تنظيم اشتراكي لروسيا وطالما ان هذا الحزب يقتصر على الحديث عن الاستيلاء على السلطة ، فان الأمور لا يمكن الا ان تسير من سيىء الى أسوأ : فأولئك الذين ليسوا في الوقت الحاضر الا مرشحين بروليتاريين يتعرضون بشدة لخطر التحول غدا الى مجرد بروليتاريين أيمكن ان نغلق العيون عن هذا الامر لدى دراسة وضع روسيا الاقتصادي في الوقت الحاضر ؟ ان عدد الحرفيين يبلغ عندنا **ملايين** عديدة كما أن فروعا عديدة من الانتاج الحرفي تنتقل أو هي قد انتقلت من قبل الى نظام الانتاج الكبير في المنزل ووفقا لمعلومات تعود الى عام ١٨٦٤ ، فان « الرقم التقريبي للعمال المستخدمين في القرى في انتاج القطنيات انطلاقا من خيوط الفزل المقدمة لهم [من **هؤلاء العمال فقط**] يبلغ ٣٥٠٠٠٠ وان الحديث بعد ذلك عن ان تعداد عمال الصناعة لا يتجاوز ٨٠٠٠٠٠ عامل يعني أن المرء قد درس روسيا في الاوهامالاحصائية للكتبة والجباة وضباط الشرطة !

٤ . الحرافة والزراعة

لا يبرح حرفيونا فلاحين ، لكن يالهم من فلاحين فقد تحول الانتاج الحرفي في كثير من المناطق مما يسمى حرفة ثانية الى المصدر الرئيسي لمداخيل الفلاح الامر الذي يجعل الزراعة في حالة تبعية وخضوع انها تتحمل عواقب جميع تذبذبات الصناعة عندنا وجميع مخاطر تطورها ووفقا لراي السيد بروغافين نفسه فان **خراب الاستثمارات الزراعية** » عند حائكي حكومة فلاديمير يشكل العاقبة الحتمية لازمتنا الصناعية ونظرا لهذه التبعية التي تعانيها الزراعة حيال الصناعة ، فليس من الضرورة مطلقا أن يكون المرء نبيا كي يحدد تاريخ الزوال النهائي لأي اهتمام زراعي لدى الحائكين ان هذا التاريخ سوف يتطابق مع الانتقال من نظام الانتاج الكبير في المنزل » الى نظام المصنع ان من واجب حرفي الامس أن يتخلى عن احدى فعاليتيه كي لا يجد نفسه محروما من كلتيهما معا ومن المؤكد انه سوف يفضل أن يتخلى عن الارض التي هي أعجز ماتكون ، في المنطقة الصناعية من روسيا عن دفع الضرائب والرسوم التي توقرها

وانا لنسجل منذ اليوم حالات يتخلى الفلاح فيها عن الزراعة .

ففي راي السيد ايسايف ان قرية فيبليكويه التي ورد ذكرها اعلاه قد « كفت منذ زمن طويل عن كونها قرية حقيقية . فمن اصل ٧٠٠ بيت فيها لا يصادف تقريبا الا عشرةاو خمسة عشررئيس اسرةيزرعونالارض؛ انمعظمهم لا يعرفون انيقودوامحراثا، ولا حتى ان يمسكوا منجلا ان رؤساء الاسر العشرة او الخمسة عشر هؤلاء والفلاحين في الجوار يؤجرون لسكان القرية كل الارض المشاعة لقاء روبل لكل ارينت* مفلوح [لنلاحظ بصورة عابرة انه ليس من العسير التخلي عن الارض لقاء هذا المعدل من « الريع العقاري » !] وان تربية للماشية على ذلك الفرار تقابل مستوى الزراعة المنخفض : اننا لا نجد بقرة وحصانا لكل ثلاثة منازل الا بكل صعوبة ان ساكن فيبليكويه قد فقد ملامحه الفلاحية »

ولا تصادف هذه الظاهرة في فيبليكويه وحدها ان **حوليات الاحصاء العسكري** قد قررت من قبل انه اذا كان انتاج القطنيات « عمل ثانوي في كثير من الاماكن ، فانه يشكل في اماكن اخرى المهنة الرئيسية ، بل الوحيدة** وكذلك فان « صناعة الاحذية تخدم اليوم كواسطة رئيسية للحياة بالنسبة الى فلاحي كيمري ، وقددفعت بالزراعة الى المرتبة الثانية وفي ناحية كيمري ، يجتذب انتباه المشاهد العدد الكبير للاراضي المهجورة ؛ ان انحطاط الزراعة يقفز الى البصر هذا ما يؤكده لنا السيد بروغافين وانه ليحاول أن يعزينا ، بوصفه شعبيا صالحا ، اذ يفسر لنا انه « لايجب بهذه المناسبة أن نتهم الحرافة بقدر ما يجب أن نتهم الشروط المنافية التي يجد العمل الزراعي نفسه فيها ، وأن غالبية الحرفيين « **لم تتخل عن الارض بصورة نهائية بعد** لكن بادىء ذي بدء فان **تقرير اللجنة الامبراطورية لدراسة الوضع المالي للاقتصاد الريفي** يبين ، رغما عن السيد بروغافين ، أن غالبية فلاحي كيمري قد تخلوا عن الارض بصورة نهائية »*** ؛ ومن جهة أخرى ، فاناعتبارات السيد بروغافين بهذا الشأن لا تقدم لنا الا عزاء هزيلا فمهما يكن سبب انحطاط الزراعة ، فتلك حقيقة فعلية يتعرض من جرائها عدد كبير من الحرفيين لخطر أن يجدوا انفسهم عاجلا وقد ابعدوا عن « سلطان الارض » ومن المؤكد انه في الامكان بعد الابطاء من هذه العملية بتقديم شروط افضل للزراعة ، لكن ــ وان السؤال نفسه هو الذي يطرح دائما ــ من سوف يقدم هذه الشروط ؟ السلطة القائمة ؟ انها لا تريد ذلك الحزب الثوري ؟ انه لا يستطيع ذلك وبانتظار ان تشرق الشمس ، فان

---

* قياس قديم للطول

** ص ٣٨٤

***« في هذه المحلة ، من أصل ٦٧٠ منزلا (فلاحون لهم حصة من الارض أو لا) لا يشتغل بالزراعة الا ٧٠ رب عائلة وهم يستخدمون كل الارض التي تخص المحلة (بدلا من ان يشتغلوا بصناعة الاحذية **تقرير** ، القسم الثاني ، ص ١٥٣ ان هذه المعلومات مصدرها « عمدة وفلاحي ناحية كيمري .

لدى الندى الوقت الكافي كي يجف وبانتظار ان يصبح ثوريونا قادرين على تحقيق مشاريعهم الاصلاحية ، فانه لن يتبقى من الزراعة الفلاحية الا الذكرى في كثير من المناطق

ان انحطاط الزراعة وتفسخ « اسس » المير القديمة يشكلان العاقبة الحتمية لتطور الانتاج الحرفي — من المفروغ منه في شروط حالية ، **فعلية** ، وليس في شروط **ممكنة** ليس من المعروف متى سوف تحدث ، حيث يبحث دكاترتنا « كيفما اتفق »عن عزاء ومثال ذلك أنه في حكومة موسكو « تمارس الاحتكاكات المتعددة [للحرفيين] مع التجارة الموسكوفية تأثيرا هداما من وجهة نظر الحق الحرفي فالمير لا يتدخل بعد الآن في الانقسامات ؛ بل العمدة أو محكمة الناحية هما اللذان يشرفان على ذلك، « **بتطبيق الشريعة** » ؛ ان الاب يوزع بين ابنائه **بالوصية** ولدى وفاة الزوج ، فان الارملة التي لم ترزق أبناء تنتزع منها ملكية الاملاك غير المنقولة [البيت] التي تنتقل الى الاقارب من سلالة الزوج ، بينما لا تحصل الزوجة الا على السبع*
ان صناعة النشاء وصناعة الدبس تبينان جيدا بأية طريقة تسعى الحرافة ، وقد بلغت درجة معينة من التطور ، الى نسف الزراعة « **ان التفاوت الاقصى في توزيع حصص الارض بين العائلات يشكل** الصفة المميزة في منطقة هذه الصناعة وفي تسبينو ، وهي قرية في ناحية برونيتشي ، فان ٤٤ر٥ ٪ من الاراضي الموزعة بين ١٦٦ مزارع هي في أيدي ١٨ صناعيا صغيرا [**فلاحا** قديما] ، وكل منهم يملك ٧ر١٠ حصة فردية ، في حين أن ٥٢ مزارعا جديا لا يتصرفون الا بـ ١٧٢ حصة ، يعني ٣ر٣ لكل منزل وانا لندرك انه بقدر ما يزداد مردود الصناعة فان الصناعيين ستزداد رغبتهم في الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الاراضي وانه لممكن حتى درجة كبيرة ان المزارعين الخمسة والثلاثين الذين يستخدمون مأجورين في زراعة حصصهم من الارض سوف يجدون أنه من الافضل لهم ، مع زيادة معدل الايجار ، ان يتخلوا عن أراضيهم ويتنازلوا عنها للصناعيين وان الظاهرة نفسها لتشاهد في جميع المحلات حيث تطورت صناعة النشاء والدبس بصورة تزيد او تنقص »

٥ • الحرفي والمصنع

فلنكتف بهذا القدر : ان الحرافة في روسيا ليست موضوع دراستنا ، بل كل ما نريد هو ان نكشف عن الوقائع الثابتة التي تبرهن بصورة لا سبيل الى دحضها على الحالة الانتقالية التي يجتازها اقتصادنا وبينما الناس الذين جعلوا من الدفاع عن مصالح

---

* بروغافين **الحرافة في المعرض**

الشعب الهدف الاساسي لحياتهم يغمضون أعينهم عن الاحداث ذات المغزى البعيد جدا ، فان الرأسمالية تسير في طريقها ، طاردة المنتجين الاحرار من مراكزهم المترنحة وخالقة جيشا من العمال في روسيا بنفس الطرق المختبرة في الغرب

« اغتصاب ملكية الفلاحين وتحويلهم الى مأجورين يؤديان الى انهيار الصناعة المنزلية في الارياف وانفصال الزراعة عن أي نوع من المانيفاكتورة ومع ذلك فان المرحلة المانيفاكتورية بكل معنى الكلمة لا تتوصل مطلقا الى جعل هذه الثورة جذرية لقد رأينا أنها لا تستولي على الصناعة الوطنية الا بطريقة جزئية ، متفرقة ، وقاعدتها الرئيسية على الدوام حرف المدن والصناعة المنزلية في الارياف واذا هي دمرت هذه الاخيرة في اشكال معينة وفي بعض الفروع الخاصة وفي بعض النقاط فانها تخلقها من جديد في نقاط أخرى ، ذلك أنها لا تستطيع ان تستغني عنها من أجل الخامات في المحل الاول وهكذا فانها تؤدي الى تكوين طبقة جديدة من المزارعين الصغار الذين تصبح زراعة الارض امرا ثانويا بالنسبة اليهم والعمل الصناعي الذي يباع نتاجه للمانيفاكتورات ، اما بصورة مباشرة أو بواساطة التاجر ، العميل الرئيسي ان الصناعة الكبرى وحدها هي التي تؤسس ، بواسطة الآلات الاستثمار الزراعي الراسمالي على قاعدة دائمة ، والتي تؤدي بصورة جذرية الى اغتصاب الغالبية العظمى من السكان الريفيين ، وتكرس انفصال الزراعة عن الصناعة المنزلية في الارياف...* »

اننا نعيش في الوقت الحاضر هذه العملية الخاصة باجتياح صناعتنا بصورة تدريجية من قبل المانيفاكتورة وان هذه العملية من **الانبعاث** ، أو على الاقل الاحياء العابر لفروع عديدة من الصناعة الحرفية الصغيرة ، هي التي يستنجد بها السيد « ف. ف. وزملاؤه من أجل البرهان بنجاح ظاهري على أنه ليس لدينا مكان على الاطلاق من أجل « التحويل الرأسمالي للحرافة » ان الاجر الزهيد الذي

مكانعلى الاطلاقمن أجل « التحويل الرأسمالي للحرافة** » ان الاجرالزهيدالذي

---

* كارل ماركس Das Kapital, 2 Aufl. S. 779 - 780

** ان كل من فهم طبيعة نظام الانتاج المنزلي الكبير يفهم كذلك الطريقة التي تحقق بها العملية موضوع البحث فلنورد ، لا على اليقين ، وقائع تفسرها ان صناع الهنديات يطبعون عادة اما انسجة يزودون بها بناء على توصية من فريق ثالث ، واما نسيجهم الخاص بعدما يشترون خيوطا غزلية يعطونها من أجل الحياكة في أماكن عديدة ان الاعمال الجيدة التي يحققها هؤلاء الصناع تنحو منحى تعميم نظام توظيف خيوط الغزل في أماكن عديدة ، وبالتالي تطوير الصناعة الصغيرة الحرفية ان الانتاج الحرفي للقطنيات قد بلغ تطورا عظيما **بفضل اسهام التجار الراسماليين الكبار** الذين بعدما يشترون خيوط الغزل اما ان يجعلوها تسدى في مؤسساتهم الخاصة ومن بعد يسلمونها الى الحائكين واما يسلموا خيوط الغزل غير المسداة الى معلمين صغار يخدمون كوسطاء بين الرأسمالي والحائك نظرا لانهم لا يعنون الا بالتسدية والتوظيف في القرى » (**حوليات الاحصاء العسكري** ، الملزمة الرابعة ، ص ٣٨١ و ٣٨٤ — ٣٨٥) . « ان ابناء سافا موروزوف » مصنع يستخدم ١٨٣١٠ عمال دائمين ،

يبيع الحرفي عمله لقاءه يبطىء نوعا ما الانتقال الى الصناعة الآلية الكبرى لكنه ليس في هذه الظاهرة ولا يمكن ان يكون فيها اي شيء **نوعي** ، ولا في عواقبها الاكيدة أيضا

« ان انخفاض قيمة قوة العمل من جراء مجرد استخدام النساء والاولاد بصورة مسيئة ، ومن جراء الافساد الوحشي للشروط الطبيعية للحياة والنشاط ومن جراء النتيجة البسيطة لفرط العمل والعمل الليلي ، يصطدم آخر الامر بحواجز فيزيولوجية منيعة عندئذ تدق ساعة الآلات والتحول السريع بعد الآن للعمل المنزلي والمانيفاكتورة الى مصنع*

لقد دقت هذه الساعة الآن ، كما رأينا ، بالنسبة الى قطنيات شوئيا ، ولن تتأخر عن ذلك بالنسبة الى مناطق صناعية أخرى ان العمل المنزلي ذو دخل جيد للرأسمالي ما بقي المهنة الثانوية الحرفة الثانية للحرفي الذي يتيح له دخله الزراعي ان يكتفي بأجر لا يسد الرمق لكن هذا الدخل لا يكاد ينضب ، وعمل الارض لا يكاد يقضي عليه العمل الصناعي بصورة نهائية حتى يجد الراسمالي نفسه ملزما بأن يرفع الاجر الى مستوى الحد الادنى الحياتي الشهير وعندئذ فان مصلحته هي في استغلال العامل في المصنع حيث جماعية العمل تزيد من مردوده. ان ساعة الصناعة الآلية الكبيرة قد دقت

وانه لمن المعروف أن غزل القطن وحياكته يشكلان الفرعين الاكثر تقدما من الصناعة الرأسمالية المعاصرة. ولذا نجد فيهما أنه قد اكتملت العملية العملية التي بدأت فحسب بله لما تبدأ بصورة فعلية ، في الاختصاصات الاخرى بيد ان الظواهر التي تشكل الفروع الصناعية الاكثر اتقانا مسرحا لها يمكن ويجب أن تعتبر نذيرا حيال الفروع الاخرى ان ما حدث البارحة في ميدان معين يمكن ان يتحقق في ميدان آخر اليوم أو غدا أو في مستقبل قريب جدا**

ويعد فيما عدا ذلك ٧٤٩٠ عاملا على حدة ليسوا شيئا آخر سوى حرفيين يدينون بوجودهم للصناعة الكبرى وبالرغم من ان ألوقائع التي من هذا النوع تتصل بالرأسمالية برابطة مؤكدة تماما ، فانها مع ذلك تثير الحنان لدى الشعبيين حتى تنسيهم الحقائق الاكثر بدائية للاقتصاد السياسي

* Das Kapital, S. 493 494

** ان هذه الافكار قد شرحت فيما بعد ، ليس دون ذكاء ، في أعمال السيد توغان ـ بارانوفسكي [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

٦ . تقـدم الراسمالية الروسية

لا يعترف السيد تيخوميروف بتقدم الراسمالية الروسيـة ونحن انفسنا سوف نقول بكل طيبة خاطر للبورجوازية عندنا « مهما تفعلي ، افعليه عاجلا » لكنه ليس ثمة حاجة ، « لسوء الحظ أو حسنه » ، الى نخسها ولقد سبق للسيد ايسايف ، وهو يدحض كتاب(٥٧) أحد أصحابنا من « اشتراكيي الامبراطورية » ، ان لفت الانتباه الى صناعتنا التحويلية وفي رأيه أن المعرض الاخير يشكل الرد الافضل على التهللات الآتية في غير موضعهـا بشأن مايزعم انـه « المصير الحزين للراسمالية في روسيا »

انه يقول

« يكفي أن نتصفح قسم النسيج ان عطر الملايين يفوح منه واننا لنملك حتى في صناعة النسيج مصانع تنتج مليونا او مليونا ونصف المليون من الروبلات كل عام وأما قسم القطنيات ، فان المليون يبدو رقما بائسا فيه ان مانيفاكتورة دانيلوف تنتج ما قيمته ١٥٠٠ روبل كل عام ، وهوبنر ما قيمته ٣ ملايين ، وآل كاريتنيكوف ما قيمته ٥٠٠ ٥ ، ومصنعي بارانوف ما قيمته ١١ مليونا ، ومانيفاكتورة اياروسلافل ما قيمتـه ٦ ملايين وآل بروخوروف ما قيمتـه ٧ ملايين وكرينهولم ما قيمتـه ملايين الخ وان مصانع السكر تقدم لناكذلك انتاجا هائلا يبلغ خمسة أو ستة أو ثمانية ملايين وان التبغ نفسه يعد أصحاب ملايين بين ممثليه وان ارقـام ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢ تبين لنا توسعا هائلا في الانتاج قد زعزعته الحرب الروسية التركية ان هذه الارقام ، المضافة الى مجموعة أخرى من الارقام ، تحمل السيد اياسييف على الاستنتاج بأن الانتاج الكبير للرأسمالية الخاصة يتطور دونما توقف في روسيا*

وليست تلك فكرة السيد اياسييف وحـده ان المعرض قـد اقنع السيد بيزوبرازوف بأنه ، في صناعتنا ،

يتضح هذا التقدم لسائر الانظار بالنسبة الى المرحلة الاخيرة (منذ معرضنا السابق في سـان بطرسـبورغ عام ١٨٧٠ واذا عدنـا ربـع قرن الى الوراء ، فان هذا التقدم الذي حققته صناعتنا وبصورة خاصة الصناعة المانيفاكتورية ، هو تقدم هائل انه لا يمكن التعرف على هذه الصناعة بعد الآن من وجهات نظر عديدة فبالاضافة الى ما تحقق من اتقان نوعية منتجاتنا وطريقتها يجب أن نلاحظ ايضا

---

* انظر « طرف الادب الادب الاقتصادي » في Le Messager Juridique [الرسول القضائي] ، كانون الثاني ١٨٨٣ ، ص ٢.

التوسع الهائل الذي حققه انتاجنا ، منذ ربع قرن ، في جميع أقسامه على وجه التقريب. ان هذا التطور قد تحسن بصورة خاصة في السنوات العشر الاخيرة بعد الازمة التي أعقبت في الحال الغاء الرق ، ومن ثم بعد حرب تركيا وانه ليكفي كيما نقتنع بذلك ان نقارن « الفواتير » المقدمة من قبل الصناعيين مع السلع المعروضة والمعلومات المقدمة من قبل الاحصاء الرسمي الاخير لوزارة المالية عندنا ان هذا الاحصاء يناسب عام ١٨٧٧ ان مقارنة ارقام الانتاج المانيفاكتوري للاعوام ١٨٧٧ و ١٨٨٢ هنا وفقا للفواتير) يشير الى زيادة هائلة في كمية المنتجات لهذه الفترة البالغة خمس سنوات ؛ لقد تضاعفت في عدد كبير من المؤسسات الكبيرة* ولقد ظهر عدد كبير من المصانع الجديدة خلال هذه السنوات الاخيرة وان مركز الشرف الاول يخص مجموع صناعة النسيج (الحرائر والاصواف وانسجة الكتان والقطن) وان صناعتنا القطنية قد حققت بصورة رئيسية الانطلاقة العظمى ؛ ان البعض من منتجاتها يمكن ان يوضع في مستوى كل ما في اوروبا من أفضل المصنوعات واجملها** »

ان استنتاجات رجال العلم يؤكدها كليا المراسل سابق الذكر للرسول الذي شاهد بصورة شخصية ما حققته الصناعة الكبرى في بلدنا من تقدم هائل وهذا ما يقوله اخيرا الاجانب الذين يكتبون او كتبوا عن روسيا انهم يضعون اليوم بعض الفروع من صناعتنا على نفس مستوى صناعات أوروبا الغربية ، وعلى الاخص مصانع السكر عندنا التي يضعها ادوار موليناري « في الصف الاول للصناعة في أوروبا*** ففي عام ١٩٧٧ ظهر السكر الروسي المقطع في الاسواق الاجنبية ، وبصورة خاصة في فرنسا وبصورة موازية لذلك ، فان الجاذبية التي يمارسها البلد على الرساميل الصناعية الاجنبية ، وتدفق هذه الرساميل ، عرضان لايخدعان احدا ان الراسمالية تجد عندنا تربة مواتية لتطورها واننا لنشاهد أن الرأسماليين الاجانب ينظرون الى روسيا بشيء كثير من الحنان ، دون أن يفوتوا فرصة من أجل تأسيس مشاريع صناعية جديدة فيها أكان يمكن ان نتصور هذه الجاذبية لو أن صناعتنا كانت تتطور بذلك القدر من « التصلب » الذي يتراءى للسيد تيخوميروف؟

---

*من المفروغ منه أنه يجب في هذه المقارنة أن نأخذ بعين الاعتبار الثغرات والاخطاء التي اشرنا اليها سابقا فيما يتعلق باحصائنا الرسمي الذي حسب حجم الانتاج لعام ١٨٧٧ على أساسه وعلى اي حال ، فان استنتاجات السيد بيزوبرازوف تؤكدها عموما مشاهداته الشخصية حيث يقول « لقد استطعت بنفسي ان أتحقق من هذه الزيادة في صناعتنا المانيفاكتورية أثناء رحلتي في المنطقة الصناعية لموسكو »

** فلاديمير بيزوبرازوف « رسائل من روسيا » Economiste Français [الاقتصادي الفرنسي] ، ٢٦ آب ١٨٨٢

*** انظر « صناعة السكر في روسيا » Journal des Economistes [مجلة الاقتصاديين تموز ١٨٨٣

وصحيح ان هذا الراي يدافع عنه بصورة رئيسية في مصلحة العقيدة وان مؤلفينا النوعيين يقبلون ، في سبيل تحقيق النصر له ان يغمضوا عيونهم عن مجموعة كاملة من الظواهر التي لا لبس فيها على الاطلاق ان التصلب صفة تخص تطور الراسمالية الروسية أقل مما تميز بعض ثوريينا العاجزين عن التوفيق بين برامجهم والواقع المعاصر

والتراكم الراسمالي ، والتداول النقدي ، وعمليات الائتمان ؟ ان تطورها هائل في الحقيقة لقد كنا نفتقر بصورة تامة على وجه التقريب الى المؤسسات الائتمانية الخاصة قبل عام ١٨٦٤ ؛ ففي هذه السنة ، كان راسمال مصرف الدولة يبلغ ١٥ روبل ، وكان مجموع الودائع ذات الفائدة يبلغ ٧٠٠ ٢٦٢ روبل ومن هذه المبالغ ، لم يكن يستخدم لحاجات التجارة سوى ٤٢ مليونا فقط، من أصلها ٧٠٠ ٢٣ بشكل كمبيالات و٠٠٠ ٦٠٠ ١٨ بشكل قروض لقاء سندات وبعد ثلاثة عشر عاما ، كان الوضع قد تغير بصورة جذرية

« في عام ١٨٧٧ ، بلغ رأسمال مجموع المؤسسات الائتمانية ٨٠٠ ١٦٧ روبل، ورقم الودائع بفائدة والحسابات الجارية والودائع الزمنية الخ ٥٠٠ ٧١٧ وبكلام آخر فان الرأسمال قد بنسبة ١٨٠ ومجموع الحسابات الجارية والودائع ، الخ ، بنسبة ١٧٣ ، والمجموع بنسبة ٢٢٠ المبالغ قد تضاعفت أكثر من ثلاث مرات وبصورة موازية لذلك ، فان توزيعها قد تغير كليا ففي عام ١٨٦٤ لم يقتطع منها سوى ١٥ بشكل قروض او كمبيالات أما في عام ١٨٧٧ ، فان مجموعها على وجه التقريب (٩٦ بالضبط) قد جند في هذين البندين ولقد انتقلت القروض من ١٨٦٤ الى ١٨٧٧ من ٦٠٠ ١٨ روبل الى ٩٠٠ ٣٣٧ روبل ، أي بزيادة مقدارها ١٨٢٩ وان زيادة الحسم التجاري بالمعنى الدقيق لاعظم من ذلك أيضا ان مجموع الكمبيالات المحسومة قد ازداد من ٧٠٠ ٢٣ روبل الى ٥٠٠ مليونا ، أي بزيادة مقدارها ٢٠٠٤ وان تداول الودائع ذات الفائدة يزداد مع زيادة مجموعها الاجمالي ففي عام ١٨٦٣ جرى تداول المال أقل من مرتين ؛ لكن الدوران بلغ قرينة ٤ر٧٥ عام ١٨٧٦

« ان الائتمان والخطوط الحديدية زادت من تحول الاقتصاد الطبيعي الى اقتصاد نقدي ان الاقتصاد النقدي ـ الاقتصاد التجاري ـ اقتصاد رأسمالي وبالتالي فان الائتمان والخطوط الحديدية تعجل الانتقال من اقتصاد المنتجون هم اصحاب وسائل الانتاج فيه الى اقتصاد يصبح المنتجون فيه عمالا مأجورين* »

---

*نقولاس ـ ون **ملاحظات على اقتصادنا الاجتماعي بعد الاصلاح** ، سلوفو ١٨٨٠ الاصدار العاشر ، ص ٨٦ ـ ١٣٥ .

٧ . الاسـواق

ان هذه الوقائع في غنى عن تعليقـات أوسع انها واضحـة ، دقيقة ، تفوز بالقناعة ، وتدلنا انه حان الاوان ، على الاقل فيما يتعلق بالصناعات التحويلية ، كي لا نغمض بعد الآن عيوننا امام الواقع ، حان الاوان كي نقنع بأن هذا الواقع لا يملك على الاطلاق اية نقاط مشتركة مع الاوهام الساذجة التي ميزت المرحلة الشعبية من حركتنا يجب أن تكون لدينا الشجاعة لنقول لانفسنا بأن الراسمالية ، في الميدان موضع البحث ، لا تملك المستقبل المباشر فحسب ، بل الحاضر نفسه ايضا ان شروط المبادلة وعلاقـات الانتاج تتوجـه جميعـا ، اكثر فأكثر ، في منحى ملائم للراسماليـة

واما فيما يتعلق بالاسواق ، فقد سبق لنا ان قلنا انها ليست مسألةمستعصية بقدر ما يتوهم السيد « ف. ف. وانصاره ان الانتقال من الاقتصاد الطبيعي الى الاقتصاد النقدي يترافق في كل بلد بتوسع هائل للسوق الداخليـة وهـذه السوق تعود عندنا ، دونما ادنى ريب الى بورجوازيتنا بل هناك ما هو اكثر ان الرأسمالي الحصيف يتنبأ منذ الآن باشباعها ، ويتعجل الحصول على أسواق خارجية ومن المؤكد ان منتجات روسية عديدة سوف تجد لها اسواقا في الغرب ، اما المنتجات الاخرى فسوف ترسل الى الشرق ، تحت حماية الجنرالات « البيض » او غير البيض المكلفين بالمهمة الوطنية « لتوطيد نفوذنا في آسيا الوسطى ان المؤتمر الاخير لصناعيينا لم يناقش عبثا « التدابير القمينة بتطوير العلاقات التجارية مع شبه الجزيرة البلقانية » ، ولا « المعاهدات التجارية الواجب عقدها مع آسيا ولقد بذلت سلفا بعض المحاولات العملية في هذا الاتجاه ، وليس ما يسمح بالتكهن بفشلها ان العلاقات مع الشرق ليست شيئاً مستجدا بالنسبة الى تجارنا ، وبالرغم من ان المزاحمة الاجنبية قد كان لها احيانا انعكاسات اليمة على مصالحهم ، فاننـا نخطىء اذا حسبنا أن البلدان التي كانت سباقة الى الانخراط في طريق الراسمالية تملك ـ او يمكن أن تحتفظ ـ احتكار النقليات الارخص ، واسعار الكلفة الادنى او نوعية البضاعة ان فرنسا التي سلكت هذه الطريق بعد انكلترا قد توصلت الى تحقيق مركز مشرف في السوق العالمية ، ويمكننا أن نقول الشيء نفسه اذا قارنـا المانيا مع فرنسا ، الخ ولا تنقص « في الغرب » البلدان التي لابد لها ، مثل روسيا، من النضال بقسوة من اجل صناعتها ضد الدول الاكثر تقدما ، دون أن يعن قط لاي كاتب ثوري هناك أن ينادي بالنوعية كما يفعـل الشعبيون عندنا ومن المؤكد أن قوى الانتاج المعاصر تتجاوز حتى درجة بعيدة امكانيات توسع الاسواق ؛

ان السوق العالمية تقترب من الاشباع النهائي ؛ وان الازمة الدورية تتجه نحو الازمة المزمنة العمومية   بيد ان هذه الساعة لم تدق بعد   فليس ما يمنع في الوقت الحاضر ظهور منافسين جدد في السوق يستفيدون من بعض الخصائص الفيزيائية لبلادهم أو من الشروط التاريخية لتطورها الاجتماعي   السعر البخس لليد العاملة ، والخامات ، الخ   ويمكننا ان نمضي أبعد من ذلك   ان ظهور هؤلاء المنافسين هو الذي سوف يعجل ساعة سقوط الرأسمالية في بلدان أوروبا الاكثر تطورا   ومما لا ريب فيه أن انتصار الطبقة العاملة في انكلترا أو في فرنسا سوف يكون له انعكاس حتمي على تطور العالم المتحضر بأسره   انه سوف يقصر حكم الرأسمالية في البلدان الاكثر تخلفا   بيد ان تلك مسألة تخص المستقبل الاكثر أو الاقل بعدا   وفي هذه الاثناء فان الرأسمالية عندنا تستطيع أن تصبح ، ولقد رأينا أنها في سبيلها كي تصبح ، سيد روسيا المطلق   ان كل يوم يكفيه عناؤه ؛ ومهما تكن الامور التي تحتفظ لنا بها في المستقبل الثورة الاشتراكية التي تتهيأ في الغرب ، فان عناءنا اليوم هو الانتاج الرأسمالي*

---

* نرى من هنا انني لم اشارك قط في النظرية التي تخيلها شعبيونا (والتي انتقلت من كتاباتهم حتى الى **الموسوعة البريطانية**) ، ألا وهي أن تطور الرأسمالية مستحيل في روسيا من جراء انعدام الاسواق من أجل هذا البلد   وبعد صدور **خلافات** بوقت قصير ، عرضت في مكان آخر(٨٥) آرائي عن هذه المسألة ، وهذه هي

« وفقا لنظرية السيد « ف. ف. » ، منظر الشعبية ، يجب أن نعتبر من الآن فصاعدا انه من الامور المستحيلة ظهور منافسين جدد في السوق العالمية في صورة بلدان جديدة ، طالما ان السوق المذكورة قد استولت عليها بصورة نهائية الدول الاكثر تقدما   وهكذا فان السيد « ف. ف. » يضع مستقبل الرأسمالية الروسية موضع الشك   ان نظرية السيد « ف. ف. » لا تفتقر الى بعض النباهة ، لكنها تشهد من سوء احظ على جهل تام بالتاريخ   لقد كان وقت سيطرت فيه انكلترا على السوق العالمية ، وقد أجلت هذه السيطرة الصدام الحاسم بين البروليتاريا الانكليزية والبورجوازية وان الاحتكار البريطاني قد دمر بدخول فرنسا والمانيا المعركة ، كما أن احتكارات أوروبا الغربية تتقهقر اليوم أمام مزاحمة أميركا واوستراليا ، وحتى الهند ، الامر الذي سيؤدي بكل تأكيد الى تسميم العلاقات بين البروليتاريا والبورجوازية في أوروبا   واننا لنرى من هنا أن نظرية السيد « ف. ف. » لا يثبتها مطلقا مجرى الاحداث الفعلي   ان السيد « ف. ف. » يعتقد ان البلدان الاكثر تطورا من وجهة النظر الصناعية ، اذا ما حققت مرة الهيمنة على السوق العالمية ، سوف تسد الطريق بصورة حاسمة أمام البلدان الاقل تطورا ، وبذلك **تدفع هذه البلدان الاخيرة الى الاصلاحات الاجتماعية ، وهي اصلاحات يجب ان تقوم بها حكومة** يزعم أنها فوق المصالح الطبقية ، مثلا حكومة صاحب الجلالة الامبراطورية الحاكم المطلق لروسيا جميعا   ان الحقائق تدل بالضبط على العكس من ذلك   انها تبرهن على ان البلدان الاقل تطورا لا تظل ثابتة ، وانها تشق لها طريقا بصورة تدريجية نحو السوق العالمية ، وبمزاحمتها **تدفع البلدان الاكثر تطورا نحو الثورة الاجتماعية التي سوف تكون من عمل بروليتاريا واعية لمهمتها الطبقية** ، تستمد قوتها من ذاتها وتستولي على السلطة »

→ واضيف اليوم أن هذه الاعتبارات قد أثبتها على أفضل وجه السياق التالي لتطور الاقتصاد العالمي ، وانه يمكن الاتيان لتأييدها بجمهرة من الحقائق المستمدة اما من الكتب الزرقاء الانكليزية عن المسألة ، واما من برقيات قناصل بريطانيا العظمى وإني لالفت النظر أيضا الى انني لم أكن قط على أي حال ، نصيرا لنظرية الاسواق عموما ، والازمات خاصة ، التي انتشرت مثل الوباء في الادبيات الشرعية للماركسية عندنا بعد عام ١٨٩٠ ان هذه النظرية ـ التي يجب اعتبار السيد توغان-بارانوفسكي المدافع الرئيسي عنها ـ تنص على أن فرط الانتاج أمر محال ، وان الازمات تفسر بمجرد التفاوت في توزيع وسائل الانتاج أن الاطروحة ملائمة للبورجوازية جدا اذ هي تسوقها الى القناعة المفرحة بأن القوى الانتاجية للمجتمع الرأسمالي لن تتقدم قط على علاقات الانتاج الخاصة به وليس مما يبعث على الدهشة أن أحد أفضل منظري البورجوازية المعاصرة ، السيد فرنر سومبارت ، يخصها بقدر كبير من الحنان في المحاضرة التي القاها في ١٥ أيلول ١٩٠٣ في الرابطة من اجل السياسة الاجتماعية في هامبورغ (انظر محاضر الرابطة من أجل السياسة الاجتماعية عن أوضاع الشغيلة المستخدمين في الملاحة البحرية وعن اضطرابات الاقتصاد الالماني خلال عام ١٩٠٠ ، لايبزغ ، ١٩٠٣ ، ص ١٣٠) انما يبعث على الدهشة فحسب هو السيد سومبارت يعتبر الاقتصادي الروسي البارز توغان-بارانوفسكي أبا هذه النظرية المزعومة جديدة انها أبعد ما تكون عن الجدة وأبوها هو جان ـ باتيست سيي الذي يعرضها بتوسع في كتابه المبحث وانه لامر باعث على الاهتمام ان نسجل ان الاقتصاد البورجوازي في هذا الشأن يعود الى وجهة نظر اقتصادي مبتذل » يتفادى تسميته ، مما لا ريب فيه بدافع شعور مشكور من الحياء ففيما عدا السيد توغان ـ بارانوفسكي ، فقد بشر بنظرية جان ـ باتيست سيي عندنا السيد فلاديمير ايلين(٦٠) في ملحوظة عن نظرية الاسواق (المجلة العالمية لكانون الثاني ١٨٩٩) ، وفي كتابه عن تطور الرأسمالية في روسيا وعلى أي حال ، فان السيد فلاديمير ايلين يشهد في هذا المؤلف الاخير على انتقائية ملحوظة حيث نتبين البرهان على أن ضميره النقي من حيث هو منظر ماركسي لم يظل أخرس بصورة دائمة [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

الفصل الثالث

الرأسمالية والملكية المشاعة للارض

١ الراسمالية والزراعــة

ويرد علينا السيد ف. ف. وشركته اجل لكن القاعدة الرئيسية، القاعدة الوحيدة لاقتصادنا الوطني تظل الزراعــة وان المشاعة الزراعية تمنــع تطبيق راسمال المبادرة الخاصة على الارض فهي تظل ما كانت عليه دائما، قلعة منيعة تجابه الراسمالية فعندنا لا يكبح الاستثمار الزراعي الكبير الاستثمار الصغير بل يفسح له المكان اكثر فأكثر ان الملاكين والمزارعين الكبــار يكتفون بالمضاربة على ارتفاع الريع العقاري تاركين للموجيك أمر استغلال الارض ولابد أن يؤدي الاستثمار الزراعي الى انتصار اشكال الانتاج الزراعية، لا الراسمالية

وبالرغم من ان الخطل في هذه الحجة يمتزج بالحقيقة بصورة وثيقة فان هذه الحقيقة تفقد القدرة على الاقناع ان الزراعة تشكل، في كل مكان على وجه التقريب الفرع الاشد تخلفا من الانتاج الوطني ولا تعمد الراسمالية الى الاستيلاء عليها الا بعدما تكون قد ثبتت مواقعها في الصناعة بكل معنى الكلمة ان الصناعة وحدها، بآلاتها، توفر للزراعة الراسماليــة أرضا صلبة » ولذا فانه ليس من المطق في حال من الاحوال أن نستنتج انعدام الراسمالية في بلد ما، بله استحالتها، بحجة ان هذه الراسمالية لم تضع يدها بعد على الزراعة ومثال ذلك ان الســيد تيخوميروف يقدر بأن البورجوازية كانت في زمن الثورة الفرنسية على قدر كاف من القوة كي تمنع الشعب السيد من الاستيلاء على السلطة* ولكن البقايا الكثــيرة لدولة الاقطاعية كانت تقوم عقبة بعد، عشية عام ١٧٨٩، في وجه تطبيق « راسمال المبادرة الخاصة على الارض ؛ فقد كانت الزراعة في حالة انحطاط رهيب وكان الملاكون العقاريون يفضلون العيش في المدينة، تاركين أراضيهم للمؤاكرين أو لمزارعين منحدرين من البورجوازية كانوا على قدر من اللامبالاة بعلم الزراعة العقلاني بقدر أصحابنا المحدثين من امثال رازوفاييف(٦١) بحيث كانوا يتنازلون للفلاحــين عمــا

* « ماذا يجب أن ننتظر من الثورة ، **الرسول**، ص ٢٥١ .

استأجروه وهمهم الوحيــد ينصب علي تحقيق اعظم ربح ممكن من العملية*
هل اعاق هذا الظرف انتصار البورجوازية وظفر الراسمالية في فرنسا ؟ فما الداعي لان تثبت عندنا مقدرة اعظم بل تمارس فعلا حاسما في جماع نظامنا الانتــاجي كما يتصور الشعبيون ؟ ولسوف يقال لنا اجل لكن المشاعــات لم تكن موجودة في فرنسا عظيم ! لكن الاقطاعية كانت في فرنسا ، كما في كل اوروبا الغربية ، وكانت في زمن معين النقابات الحرفية التي كانت تعوق بشدة تقدم الراسمالية ، و « تحد من الانتاج بدلا من تسهيله ومع ذلك فان هذه الاغلال لم توقف التطور الاقتصادي والاجتماعي وحين آن أوان وجوب تحطيمها فقد حطمت فمــا الذي يحمي المشاعة الروسية ضد هذا المصير ؟

ان السيد نقولاس ــ ون الذي يملك عن الاقتصاد الروسي منذ الغاء نظــام الرق معرفة اعمق جدا من جميع الثوريين او المحافظين المختصين لا يتردد في اعلان ان المرسوم الذي حرر الفلاحين قد كان أغنية النجعة لعملية الانتــاج القديمة وان التشريع اللاحق **الموجه في منحى معاكس بصورة مطلقة** قــد مارس في آخر الامر **فعلا أكثر جوهريــة** في جماع نمــط الحياة الشــعبية من الاصلاح بالذات

وفي راي هذا المؤلف

« ان المرسوم هو الذي سيؤخر ، من جراء تسليم المنتجين ادوات عملهم تطبيق الراسمال على الارض وانجــاز رســالته التاريخية ولكن السياسة الاقتصاديــة منــذ الاصلاح تشد كلها أزر الرأسمالية ان التيار الرأسمالي **يتقوى بسرعة** فالارقام جميعا تشير الى أن قسما متعاظما دون انقطاع من المنتجين تغتصب أراضيهم بحيث يجري تحت أبصارنا تناقص في حصة المنتج من المنتج وزيادة في حصة الرأسمالي منه يضطران قسما متناميا باستمرار من المنتجين ان التخلي عن الارض الى الاقلاع عن حراثتها وفيما عدا ذلك فان المشاعة بالذات تصبح مسرحا لظاهرة عجيبة الجماعية لا تسلم المزارعين الارديا ء الا الاراضي الرديئة فهم في جميع الاحوال لن يشتغلوها ــ بينما هي تمد أكثر فأكثر في فترة التخصيص للفلاحين المجدين ، بحيث نشاهد تحول الزراعة المشاعية الى زراعة فردية**

ان السيد تيخوميروف الذي يتظاهر بجهل نتائج هذه الدراسة المرموقة يصر على الادعاء بأن هناك بعد عندنا ، بين أيدي الفلاحين حوالي ١٢٠ ٦٢٨ ٢٤٦

---

* نقولاس كاريف **الفلاحون والمسالة الفلاحية في فرنسا في الربع الاخير من القرن الثامن عشر** ، موسكو ، ١٨٠٩ ، الفصل الثاني ، ص ١١٧ وما يليها

** نقولاس ــ ون **مذكرات** ، ص ١٣٢ ــ ١٣٦

الفدان في الارض* انه ينسى أن موضوع النقاش ليس **القوانين** الحقوقية ، بل **الحقائق** الاقتصادية ولكن هذه الحقائق تبين أن المشاعة في عدد كبير جدا من المناطق قد تشوهت حتى درجة عظيمة تحت تأثير الشروط المنافية لها بحيث تحولت من وسيلة للدفاع عن المنتجين ضد الاستثمار الرأسمالي الى أداة فعالة جدا في يد هذا الاستثمار وكيما نتجنب التأكيدات الاعتباطية ، فلنأخذ الشعب اذن « كما هو ولندرس هذا المظهر من الواقع الروسي في الوقت الراهن

ومع ذلك فليسمح لنا ببعض الملاحظات المسبقة فيما يتعلق بتاريخ الشيوعية الزراعية البدائيـــة

٢ • المشـــاعة الزراعيـــة

اذا صدقنا الشعبيين ، فقد نتصور حقا ان المشاعة الزراعية الروسية تشكل شكلا تنظيميا أوحد بصورة مطلقة من وجهة نظر الاستقرار « فلا الحروب الخاصة للعصور الاقطاعية ، ولا النير المغولي ، ولا العصر الدامي لايفان الرهيب ، ولا السنوات المضطربــة لمرحلــة خلو العرش ، ولا اصلاحــات بطرس وكاترين التي أدخلت الى الواقع الروسي مبادىء الحضارة الغربية ، لم يهز شيء هذه المؤسسة المقدســة المكرسة للحياة الفلاحية أو يغير فيها » هذا ما نقراه في كتاب السيد ن ــ ون أحد شعبيينا الاشد حمية ، عن **أشكال ملكية الارض عند الشعب الروسي** « لم ينجح نظام الرق في محوها ، ولم يستطع شيء تدميرها ، لا هجرات الفلاحين الارادية نحو الاراضي الجديدة ولا أعمال النفي الجماهيري » ، الخ ، الخ وباختصار فان

---

* لم يكن السيد ن ــ ون قد نشر الا القسم الاول من مؤلفه حين كتبت هذه السطور وان الكتاب الذي اكتمل عام ١٨٩٣ قد كان بعيدا عن ان يكون عند حسن ظن الكثيرين غيري كما يتبين للقارىء حاليا لقد تبين ان السيد ن ــ ون لا يقل طوباوية عن السادة « ف. ف. وبروغافين وتيخوميروف ، الخ. ومن المؤكد انه كان لديه عدد من الحقائق أعظم مما كان لديهم ، لكنه قدمها بطريقة مغرضة حتى الدرجة القصوى وغرضه الوحيد تأكيد الطوباويات مسبقة التصور ، المولودة من تفسير خيالي للنظريــة الماركسية عن القيمة وان مؤلف السيد ن ــ ون قد ترك انطباعا سيئا جدا في انجلز ، الذي كان موقفه مع ذلك مؤيدا حتى درجة كبيرة وقد كتب لي يقول انه فقد كل ثقة في الجيل الذي ينتسب اليه السيد ن ــ ون ، طالما أن هؤلاء المؤلفين يردون الاشياء جميعا بصورة لا تخطىء ، مهما يكن الموضوع الذي يعالجونه ، الى روسيا المقدسة » ويكشفون عن مسبقاتهم سلافية النزعة ان اللوم الرئيسي الذي وجهه انجلز الى السيد ن ــ ون قد كان عدم فهمه للاهمية الثورية التي ينطوي عليها الانقلاب الاقتصادي الذي تجتازه روسيا [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

القرون قد انقضت ، وكان الطموح الى السعادة عموميا ،
وقد تبدل وجه العالم مرات عديدة*

اما المشاعة فقد ظلت ثابتة لا تتغير

ومن سوء الحظ أن هذه الخطبة ، بالرغم من بلاغتها التي لا جدال فيها ، لاتثبت شيئا ان المشاعات الريفية لا تثبت حيويتها الا حين تفلت من شروط الاقتصاد الطبيعي

« ان بساطة الجهاز الانتاجي لهذه الجماعات التي تكفي ذاتها بذاتها وتتجدد بصورة دائمة بالشكل نفسه ، واذا هي دمرت مرة بصورة طارئة عادت فتشكلت في نفس المكان وبنفس الاسم ، هذه البساطة تقدم لنا مفتاح استقرار المجتمعات الآسيوية، هذا الاستقرار الذي يتناقض بصورة غريبة جدا مع الانحلال والتجدد المستمرين للدول الآسيوية ، والتبدلات العنيفة لاسرها الحاكمة ان بنية العناصر الاقتصادية الاساسية للجمتمع تظل بعيدة عن رياح سائر عواصف السماء السياسية** »

بيد ان هذه القاعدة للمجتمعات الهمجية التي واجهت دون ان تهتز عواصف الثورات السياسية تثبت أنها عاجزة وعزلاء امام منطق التطور الاقتصادي ان نمو الاقتصاد النقدي والانتاج السلعي ، ينسف الملكية المشاعة للارض*** ويجب

---

* [نكراسوف **الجليد احمر الانف**]

** كارل ماركس Das Kapital ، الجزء الثاني ، ص ٣٣١

*** ان السيد غليب ايفانوف (غليب أوسبنسكي) قد وصف بصورة رائعة هذا الانحلال للشيوعية البدائية في الحالة الخاصة للجماعية العائلية ، فهو يقول في **صفحات من يوميات القرية** Otetchestvennyé Zapiski ايلول ١٨٨٠ ، ص ٣٨ — ٣٩

ان حياة الاسر الفلاحية تنطوي اليوم على تراكم هائل جدا للقضايا العويصة ، بل غير القابلة للحل ، بحيث أن الاسر العديدة في الريف (وأنا أتحدث عن المناطق تحت المدنية) لا تصمد الا بالتزام طقس خارجي لم تتبق فيه أية حقيقة باطنة على الاطلاق وكثيرا ما يحدث لي أن أصادف مثل هذه الاسر ان رئيسها عجوز في حوالي السبعين من العمر ، ذكية على طريقتها ، وغنية التجربة بيد أنها استقت هذه التجربة من الحق الاقطاعي ، وهي لا تتصل الا بالاعمال الزراعية التي يسهم فيها البيت بكامله والربح كله يسلم الى العجوز التي توزعه حسب حكمها وبموافقة جماعية ولكن هذه طريق تمر من هناك في الوقت الحاضر ؛ ان ونا من الملفوف المكبوس ابتاعه سائقو العجلات قد در على حين غرةربحا يساوي مثلا سنة كاملة من العمل في الحقول لفرد واحد من الاسرة ، مدمرا بصورة جلية مبدأ وحدة الاعمال والمكافآت ومن ثم مر القطار من هناك لقد ارتفعثمن العجول ، فهي مطلوبة في العاصمة ، وان أحد الابناء قد اشتغل سائق عربة ، فهو يربح في ستة أشهر أكثر مما تربحه العائلة بأكملها في عام ، وان أخا ثانيا قد اشتغل مكنسا في بطرسبورغ ، بأجر خمسة عشر روبلا في الشهر ، وهو مبلغ لم يحدث له أحيانا ان كسبه في عام كامل ومع ذلك فان الاخ الاصغر وأخواته قد قشروا

أن نضيف الى ذلك فعل الدولة الهدام ، الملزمة بفعل الظروف بالذات أن تؤيد مبدأ الفردية وقد انخرطت في هذه الطريق سواء بدافع حاجاتها الخاصة المتعاظمة أبدا أم تحت ضغط الطبقات العليا التي تتعارض مصالحها مع المبدأ المشاعي ان تقدم الاقتصاد النقدي يولد ، بنتيجة تطور القوى المنتجة ، يعني زيادة الثروة الاجتماعية ، وظائف اجتماعية جديدة لا يمكن تصور الحفاظ عيها بواسطة النظام القديم لجباية الضرائب العينية ان الحاجة الى المال تجبر الحكومة على تقديم دعمها الى كل تدبير وكل مبدأ للاقتصاد الاجتماعي يزيدان من سيولة النقد في البلاد ويسرعان نبض الاقتصاد الوطني بيد أن هذه المبادىء المجردة للاقتصاد الاجتماعي لا وجود لها في ذاتها ؛ انها لا تفعل الا ان تترجم في صيغ جامعة المصالح الفعلية لطبقة معينة طبقة التجارة والصناعة ان الطبقة المذكورة المنحدرة جزئيا من أعضاء المشاعة السابقين وجزئيا من الشروط الاخرى تملك مصلحة حيوية في تعبئة الملكية غير المنقولة وكذلك الملاكين بالذات ، في حدود كونهم شغيلة وان مبدأ الملكية المشاعة للارض يعوق تحقيق هذه الاغراض ، ولذا فهو يتعرض اولا لنفور البورجوازية الناشئة ومن بعد لهجماتها الفاصلة اكثر أو اقل بيد أن هذه الضربات لا تدمر المساعة للوهلة الاولى ، بل تتهيأ نهايتها شيئا فشيئا ان العلاقات الظاهرة بين أعضائها تظل على حالها دون تغيير لفترة طويلة من الزمن ، بينما تتعرض المشاعة نفسها من الداخل لتحولات خطيرة تؤول آخر الامر الى انحلالها ان العملية تتطلب احيانا فترة طويلة من الزمن حتى تتحقق لكنها اذا ما بلغت درجة معينة

لحاء البلوط طوال الربيع والصيف ولم يربحوا ثلث ما ربحه السائق في شهرين ويبدو أن الاشياء جميعا تستمر دون اضطراب ؛ فكل واحد يجلب « أيضا ثمرة عمله بيد ان الواقع مختلف كل الاختلاف. ان الكناس قد وضع اربعين روبلا جانبا دون ان يخبر أمه والسائق أكثر من ذلك أيضا كيف السبيل الى غير ذلك ؟ ان الابنة قد ادمت يديها وهي تقشر لحاء البلوط كي تحصل على خمسة روبلات، بينما قبض السائق خمسة وعشرين روبلا في ليلة واحدة لانه تنزه ببعض السادة في شوارع العاصمة منذ منتصف الليل حتى الصباح ان نفوذ الام سوف يظل عظيما جدا لو أن ارباح الاسرة لم تكن الا نتيجة العمل في الارض ، فهي تظل السلطة النافذة في هذه الناحية لكن ما عساها تفهم من ربح جديدة مثل ربح الكناس أو ربح السائق ؟ ما مدى معرفتها بذلك ، وما هي النصائح التي يمكنها تقديمها؟ لم يعد نفوذها الا وهما ، ولم يعد له معنى الا عند النسوة ، في البيت ؛ وفضلا عن ذلك فان النسوة يعرفن جيدا أن أزواجهن لا يظهرون للعجوز الاحترام والخضوع الا من أجل المظاهر ؛ انهن على اطلاع تام على أجور أزواجهن ، وهن يعرفن المبالغ التي أخفوها ، وهن يحتفظن بهذا السر مكتوما جدا . وكما ان نفوذ رئيسة الاسرة ليس الا وهما الآن فان نظام الجماعية العائلية يشكل هنا وهما آخر كل فرد يخفي شيئا عن العجوز تجسيد ذلك النظام ويخفيه لذاته فلتمت ولن تصمد الاسرة يومين حتى في شكلها الراهن ان الجميع سوف يطالبون اذن بنظام للحياة اصدق وهذه الارادة سوف تستجر بصورة محتومة ارادة أخرى ان يعيش كل واحد من أجره وان يستمتع بما يربح »

من الحدة فان أي « استيلاء على السلطة » لن يوقفها اذن . مهما تكن الجمعية السرية التي تقوم بذلك الاستيلاء. ان ضربة التوقيف الوحيدة الجدية حتى درجة ما التي يمكن توجيهها الى الفردية الظافرة لا يمكن ان تصدر الا عن القوى الاجتماعية الناشئة عن عملية انحلال المشاعة بالذات ان اعضاء هذه المشاعة ، الذين كانوا فيما مضى متساوين في الخيرات وفي الحقوق وفي الواجبات ينقسمون الى فريقين بفعل العملية المذكورة ان الفريق الواحد الذي تجتذبه البورجوازية المدنية يسعى الى الانصهار معها في طبقة واحدة من المستغلين ، فتتراكم أرض المير بأكملها شيئا فشيئا بين ايدي هذه الشريحة الاجتماعية صاحبة الامتياز أما الفريق الآخر فاما ان يبعد من المشاعة وعن الارض فيحمل ذراعيه الى سوق العمل ، واما ان يشكل مفوة جديدة من منبوذي المير يسهل استثمارها بصورة خاصة بفعل ميزات التنظيم المشاعي حيث تستدعي الظروف التاريخية قاعدة اقتصادية جديدة من أجل اعادة تنظيم المجتمع في مصلحة هذه الطبقة الفقيرة وفي اليوم الذي تأخذ هذه الطبقة فيه تعي الاسباب الاساسية لعبوديتها وتتصور الشروط الاساسية من أجل تحررها. هناك وفي ذلك اليوم فقط يمكن دون الانزلاق في تفاؤل أحمق توقع الثورة الاجتماعية وأن هذه العملية الجديدة لتتحقق كذلك شيئا فشيئا لكنها اذا ما شبت مرة ، فانها ستشق طريقها هي الاخرى نحو اكتمالها المنطقي بصلابة الظاهرة الفلكية ان الثورة الاجتماعية هنا لا تستند على نجاح المتآمرين « الممكن بن على المجرى المحتوم الذي لا يخطىء للتطور الاجتماعي

وأنه ليمكن أن نقول بحق المشاعة الروسية ما يلي Mutato nomine de te Fabula narratur* وبالفعل ، فان الاستقرار الظاهري لمشاعتنا حتى **هذه الايام الأخيرة** ، وهو الاستقرار الذي **لم يكف** عن اثارة الحنان في العقول قليلة الخبرة في التفكير ، انما يفسر بالفترة الزمنية القصيرة التي انقضت على تطور الاقتصاد النقدي في روسيا ان اقتصاد المجتمع بأسره واقتصاد الدولة حتى درجة كبيرة في روسيا قد كان حتى الغاء نظام الرق اقتصادا طبيعيا ملائما بصورة رائعة لبقاء المشاعة الزراعية وهذا هو السبب في أن هذه المشاعة استمرت على قيد الحياة بعد الاحداث السياسية لعصر الامارات والمدن الحرة ، كما استمرت على قيد الحياة بعد المركزية الموسكوفية ، واصلاحات بطرس و الحضارة بالمراسيم لاصحاب الحكم المطلق في بطرسبورغ ومهما يكن رد فعل الكثير من هذه الاحداث خطيرا على الرخاء الوطني ، فانها لم تكن في آخر تحليل نذيرة ثورات كبرى في اقتصاد المجتمع. بل مجرد عاقبة للعلاقات التي كانت قائمة بين المشاعات ولقد كان الاستبداد الموسكوفي قائما على هذه « القواعد العريقة للحياة الشعبية » التي يعجب بها أصحابنا الشعبيون ، وكان رجعي مثل البارون هاكستاوسن أو ثوري مثل باكونين يدرك ذلك

---

* [ان المقصود ، تحت اسم آخر في هذه الرواية هوراس] .

ايضا واذا كانت روسيا قد ظلت في حمى من تأثيرات أوروبا الغربية الاقتصادية والسياسية فانه سيكون من الصعب التكهن بالموعد الذي سوف ينسف التاريخ فيه اخيرا الاساس الاقتصادي لنظامها السياسي لكن العلاقات مع الخارج قد عجلت في التطور الطبيعي لاقتصاد نقدي وانتاج سلعي كان تقدمهما بطيئا ولقد كان اصلاح التاسع عشر من شباط تنازلا محتوما للتيار الاقتصادي الجديد الذي منحه ، بدوره، قوة جديدة ولم تنجح المشاعة في التكيف مع الشروط الجديدة ، ولم يكن في مقدورها ان تفعل ذلك وتحطم هيكلها العظمي ، والعميان وحدهم لا يرون اليوم أعراض انحلالها واليكم الحقائق

٣ ـ انحلال المشاعة

يتبين انحلال مشاعتنا الريفية حتى في مظهرها ولقد كتب السيد نقولاس زلاتوفراتسكي يقول بقيت طويلا قرب المقبرة أتأمل مظهر القرى المصطفة عند سفح الهضبة ياله من تنوع مع ذلك ههنا جمهرة من الاكواخ بنافذتين ، مغطاة بالقش ، ومنخورة من دون ريب وهناك ، على العكس ، أكواخ جديدة ذات ثلاث نوافذ ، تفصل بينها حارات عريضة ، وأسطحتها مبنية بالالواح الاردوازية ، بل أحيانا ذات غماء* مصنوع من ألواح حديدية مطلية باللون الاخضر ولها دوارات في مداخنها وهذه قرية أخرى أيضا ، مستلقية طولانيا ، تتمعج مثل حشرة الارض ، يرى فيها الى جانب بناء كولاك غني مساكن على مستوى ارض هي وسط بين الخص ووجار الكلب** وان تنوع الارقام التي يتم بها التعبير عن ميزانيات المزارعين يرد على ذلك التنوع الجذاب حتى الدرجة القصوى ان المشاعة التي اختارها السيد زلاتوفراتسكي من أجل دراسته قد كانت تتضمن بالرغم من حجمها الصغير جدا ، درجات بالغة التطرف من التفاوت الاقتصادي ، من صندوق الاوراق النقدية حيث لا يعمل المرء شيئا طوال النهار حتى التسول ـ أرملة جندي من سلاح الفرسان مع سرب أطفالها ؛ وعلى أي حال ، فقد كان من الواضح أن القرية تنقسم الى **الجانب المشمس** و **الجانب المظلم** ولقد كانت هذه المشاعة « تنتسب الى ذلك النمط المتوسط من القرية **الحديثة** التي تسعى القرى الروسية على العموم الى الاقتراب منه ، وقد نجح بعضها في التقدم مسافة كبيرة في هذا الاتجاه ، أقصد في اتجاه تفكك القرية القديمة التي هي تجسيد لمبدأ العمل والمساواة الاقتصادية ».

---

* [**الغماء** مجموع ما يصنع السطح به]

** نقولاس زلاتوفراتسكي **الريف يوما بعد يوم** ، سان بطرسبورغ ، ١٨٨٠ ، ص ٩.

وان السيد زلاتوفراتسكي ليعرف أيضا قرى ، « وثمة كثرة منها ، حيث تخمن بل تلاحظ القواعد الوطيدة ، غير القابلة للدمار » ، للمشاعة القديمة ــ « بيد أنها تنتسب الى الماضي اكثر ممـــا تتسبب الى الحاضر* ان الريف في أيامنا يحيـا أكثر فأكثر فيما يسميه الكاتب جوا من الرياء والمداهنة القرويين ، وهي العاقبـة الحتمية لانفلاق المشاعة الى شرائح متعددة ذات مصالح متنافرة بقسوة

اننا نصادف من الجانب الواحد الموجيك الجاد « الشجاع الذي لا يملك الا حصته الفردية من الارض ، لكنه يحرث ثلاث أو أربع أو خمس حصص تخص زملاء له عاجزين عن اتمام زراعتها » واننا لنصادف من الجانب الآخر اولئك « العاجزين » « القرويون الناقمون و الفقراء » ، الخ ، الذين اما ان يعملوا بالاجرة عند مكتري حصتهم من الارض ، واما ان يضعوا المفتاح تحت الباب ويمضوا حيث لا يعلم الا الله حتى دون أن يخبروا المشاعة بذلك أحيانا » وليس هؤلاء البائسون قلة وهذا نبأ ذو مغزى كبير قراناه في العدد ٢٩٢٢ من الازمان الحديثة ، بتاريخ ١٨ نيسان من هذا العام

« ان الحقيقة التالية قد أكد لنا صحتها مصدر رسمي ان بين منازل الجمعيات الريفية في روسـيا التي تعد ٩٠٧٩٠٢٤ منزلا ولا تشتمل على مناطق الفيستول والبلطيق) ، ٢٤٣٧٥٥٥ منزلا لا تملك حصانا ، أي منزل من كل أربعة منازل ولكن الفلاح الذي لا يملك حصانا يكف عن كونه مزارعا مستقلا وبكلام آخر ، فانه يجب أن تحذف من رقم المستثمرين لحسابهم الخاص ربع السكان الريفيين في روسيا**

---

* المصدر نفسه ، ص ١٩١

** ان الازمان الحديثة تنقل هذه الارقام عن كتاب احصاء الاحصنة لعام ١٨٨٢

وان المتوسط المبين هنـا تؤكده الدراسـات الخاصة المجراة في بعض الحكومات والاقضية هذه على سبيل المثال الارقام المعطاة من قبل حكومة تامبوف التي هي ، في مجموعها ، أكثر أو أقـل ثراء على أي حال

اسم القضاء

	سباسكوي	تيمنيكوف	مورشانسك		بوريسوغليبسك	
دون حصان		٢١ر٦	٢١ر٦	٥٠ر٥	١٨	٤٦ ٪
حصان واحد	٤١	٤٢ر٩	٢٨ر٩		٢٨	
حصانان أو ثلاثة	٣٣	٣١٣				

(راجع غريغوربيف أبحاث في احصائية الزمستفو في حكومة تاكمبوف روسـكايا ميسل ، ايلول ١٨٨٤ ، ص ٧٩) وفي قضاء بوروف (قضاء كوريكينو ، حكومة فلاديمير) ، « يشاهدانعدام الحصان لدى ٢٤ من المنازل ، وفي قضاء ايوريفيتس ، ليست النسبة المئوية عالية جدا لكننا نصادف عددا كبيرا من المزارعين الذين لا يملكون الا حصانا واحدا ، والبيوت التي من هذا النوع يجب ان تعد ضمن تلك البيوت ذات القدرة الضئيلة على زراعة الارض » . وفي بعض المناطق من هـذا

ان الفلاح العاجز عن زراعة حصته من الارض هو مرشح بروليتاري سرعان ما سوف يتثبت في هذه الصفقة وان هذا الفلاح ، الذي يفلت مؤقتا من الاستثمار المباشر من قبل المعلم الرأسمالي ، هو مع ذلك في تبعية تامة حيال الرأسمال الربوي الصغير لكولاك القرية أو بكل بساطة « للمزارعين المهرة وان كتاب السيد زلاتوفراتسكي ليفسر لنا على أفضل وجه كيف يعامل الموجيك الجاد زملاءه الذين وقعوا في الحاجة ان المؤلف يسأل

أتخص هذه الاكواخ ذات المصاريع المسمرة « ابناء الهواء ؟

ويبتسم المحدث ويقول الهواء هذا التعبير في موضعه انهم يطيرون مثل عصافير الدوري انهم يتعلقون ويلصقون ويتشبثون بقطعهم من الارض ومن بعد ، ذات يوم رائق ، بف ، يطيرون وكيما يحصلوا على جواز سفر يمضون فيطلبون من أحد الجيران أن يكتري حصتهم من الارض ، ويتوسلون اليه باسم الله الطيب ، ويسقونه الفودكا ويعدون بارسال المال من اجل معدل الانصبة وبأي شيء كان شريطة ان يقبل الآخر ويقولون نعم وان هذا ليناسبنا ، نحن الموجيك الجادين... ويحدث أحيانا أن يعود الآخر ، ويريد أن يسترجع أرضه ، لكن كيف يستطيع أن يشتغلها؟ ليس أمامه الا يعمل مياوما على أرضه مأجورا لذلك الذي أجره اياها ان الله الطيب يرسل الى كل امرىء حصته

كيف تجدون مشاعة هؤلاء « الموجيك الجادين ؟ اذا راقت لكم فان ذوقكم لا يشبه اذن مطلقا ذوق أبناء الهواء أولئك الذين يتوسلون باسم الله الطيب » ان يخلصوا من الحقل ولاحظوا على أي حال أن هؤلاء الابناء على حق مطلق من وجهة نظرهم ان ما يصنع الفارق بين ما تحبونه وما يحبونه يعود بكل بساطة الى ان المشاعة التي تحبونها لا تمت بصلة الى المشاعة التي يتعامل أبناء الهواء معها ان مخيلتكم تصور لكم المشاعة المثالية التي **يمكن** أن تولد بعد ثورة من طراز الارض والحرية » أو من طراز « ارادة الشعب » بيد أن « أبناء الهواء » يتعاملون مع المشاعة **الواقعية** التي استشعر بها مسبقا خصمهم العنيد الفلاح الماهر والجاد هذا الشخص الراضي جدا عن نفسه الذي يوضح لكم الامور قائلا عندنا لا يقيم الفلاح الناقم طويلا ان الهواء ينقصه هنا **وبدون هؤلاء الفتيان،** هل في مقدورنا نحن أن نحيا ؟ لسوف نكون في ضيق حقا لولا أبناء الهواء هؤلاء يكفي ان يسمح لهم **المير** بالافلات كي يشعروا بالحرية وبالرضا* ان **المير** الذي يسمح بالافلات للفقراء هو **مير** من الكولاك والمستغلين ، و أبناء الهواء » يفرون منه لأن « الهواء ينقصهم ، مثلما يتخلص المرء من نير

القضاء (ناحية نيقولسكوي) ، تشكل الاستثمارات المفتقرة الى الحصان من ١٩ (فلاحو أراضي الاسياد حتى ٢٤ فلاحو التاج) من رقم المنازل الاجمالي وفي ناحية سباسكوي لا تعدو نسبة رؤساء الاسر الذين يشتغلون أرضهم بأنفسهم ٧٣ ٪

* **الريف يوما بعد يوم** ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤

بيد ان الموجيك الماهر لا يسرح « الفلاح الناقم مجانا بصورة دائمة فحين يجعل من الحصص الاربع حصة واحدة » لا يهمل المطالبة « بمكافأته ومن هنا كانت هذه العقود المذهلة ، من نمط هذا العقد الذي خلده السيد أورلوف

في الثالث من شهر تشرين الثاني ألف وثمانمائة واربعة وسبعين أنا الموقع أدناه ، من حكومة موسكو قضاء فولوكولامسك ، قرية كورفينو ، أمنح بهذه الرسالة جمعيتي الفلاحية في قرية كورفينو أنا غريغوربيف للانتفاع العام أرضا من ثلاث حصص ، ولقاءها أتعهد ، أنا غريغوربيف ، بأن ادفع خمسة وعشرين روبلا كل عام ، وهذا المبلغ يجب يسدد في الاول من نيسان كل سنة وهو يشتمل على الجوازات التي يجب أن أدفع لقاءها على حدة كما يجب أدفع لقاء ارسال المبلغ المذكور وبناء أوقع

أما أن هذه الحالة ليست نسيج وحدها ، فهذا ما يتبين من مقارنة المدفوعات المطلوبة من أجل الحصص بمعدل ايجارها ففي الأقضية الاثني عشر لحكومة موسكو يبلغ القسط الوسطي للحصة ١٠ر٤٥ روبلا ، بينما المعدل الوسطي للايجار لا يتجاوز ٣ر٦٠ روبلا وان معدل الانصبة الوسطي الذي ينبغي للفلاح أن يدفعه من أجل الحصة المؤجرة يبلغ اذن ٦ر٨٥ روبلا

« من المؤكد اننا نجد حالات تسلم الحصة فيها لقاء سعر يغطي المدفوعات التي تبهظها لكن هذه الحالات نادرة حتى الدرجة القصوى ويمكننا اعتبارها استثناء ، بينما معدل الانصبة الاكثر ارتفاعا هو القاعدة ولذا ندرك المير لا تسيل اللعاب كما يقول الفلاحون*

ويقول لنا السيد اورلوف

ان كل من اطلع على الدراسات الرائعة للسيد جانسون عن الحصص والمدفوعات يعرف أن التفاوت الذي شاهده السيد اورلوف بين نسبة الحصة وحصيلة المدفوعات التي تبهظها هو السائد في القسم الاكبر من روسيا وكثيرا ما يبلغ هذا التفاوت أبعادا مخيفة بكل بساطة ففي حكومة فوففورود « تمثل المدفوعات المالية ، بالمقارنة مع المردود الطبيعي حسب مقولة المكلفين

فلاحو التاج	
الفلاحون المالكون	
الاراضي الاقطاعية السابقة	١٦١ ٪
أراضي الاسياد سابقا	١٨٠ ٪
الفلاحون المسترقون مؤقتا	٢١٠ ٪ (٦٢)

---

* وثائق احصائية عن حكومة موسكو قسم الاحصاء الاقتصادي المجلد الرابع ، الملزمة الاولى ، موسكو ١٨٧٩ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤

وفي الظروف المنافية يعني في حالة المدفوعات الاضافية من جانب الفلاحين المالكين أو بالنسبة الى الفلاحين المسترقين مؤقتا ، اذا كانت الحصص صغيرة وخاضعة لتكليف مرتفع فان المدفوعات تبلغ

الفلاحون المحررون حتى ٢٧٥ ٪

الفلاحون المسترقون مؤقتا حتى ٥٦٥ ٪ »*

واجمالا فان السيد « ن ـ ون قد وجد ، وهو يقارن أرقام المجلد الثاني عشر من **دراسات لجنة الضريبة** مع الارقام التي يتضمنها تقرير اللجنة الخاصة بالزراعه أن « فلاحي التاج والاراضي الاقطاعية السابقة في الحكومات السبع والثلاثين لروسيا الاوروبية (وبالتالي دون اعتبار المناطق الغربية) يدفعون ٩٢ر٧٥ ٪ من دخل الارض الخالص ، يعني أنه لا يبقى لهم لقضاء جميع حاجاتهم سوى ٧ر٢٥ ٪ وان مدفوعات الفلاحين السابقين لاراضي الاسياد بالنسبة الى دخل أراضيهم الخالص تبلغ ١٩٨ر٢٥ ٪ يعني أن الامر لا يقتصر على امتصاص كامل الدخل المذكور ، بل لابد من سحب مبلغ معادل من الاجور الثانوية وهذا ما يفسر أن الفقراء الذين سمح لهم **المير** بالهرب لابد لهم ، في معظم الحالات ، من دفع مبلغ سنوي لقاء حق التخلي عن قطعتهم من الارض والتجول بحرية في البلاد وتؤكد الحقائق هذا الاستقراء الذي لا يدحض كلما درسنا الاقتصاد الفلاحي بشيء من العناية وهكذا على سبيل المثال ، في رأي فكتور بروغافين في منطقة ايور ـ بيفيتس الرملية (قضاء حكومة فلاديمير) فان التربة البخيلة والقاحلة للارض المفروزة تشكل عبئا على المزارعين ؛ ان الارض تصبح خالة الفلاح ؛ فلا يقتصر الامر على انها لا توفي المدفوعات التي تبهظها ، بل ان الذي يؤجرها يجب أن يسدد معدلا للانصبة يبلغ ثمانية الى عشرة روبلات لكل حصة والمعدل الوسطي للا في المنطقة يبلغ أربعة الى خمسة روبلات سنويا** ان الفلاحين المنادين الذين سحقتهم الضرائب ودمرتهم الارض الشرسة يسقطون في وضع لا منفذ له ان افتقارهم الى الوسائل يمنعهم من اشتغال الارض التي يملكون ؛ لكن الاجراءات القانونية القائمة تحظر عليهم التخلي عن الاراضي التي لا تدر عليهم الا النفقات أين تؤدي مثل هذه الاوضاع ؟ هذا واضح كل الوضوح فعند السيد اورلوف أن أناس الاراضي البور ، يعني الناس المجبرين على ترك قطعهم من الارض دون حراثة يشكلون فريقا على حدة نوعا من المنبوذين من **المير** وهكذا فان المشاعة تنقسم الى فئتين متناوئتين ؛ فالمزارعون يعاملون أناس الاراضي البور

---

* تقرير **اللجنة الامبراطورية لدراسة الوضع الراهن للاقتصاد الريفي** ، الخ القسم الثالث ، ص

** فكتور بروغافين **المشاعة الريفية في قضاء ايوربيفيتس (حكومة فلاديمير)** ، موسكو ١٨٨٤ ، الفصل الثالث ، ص ٩٣ ـ ٩٥

على اعتبارهم عبئا مرهقا ، ذلك أن الكفالة المتضامنة تلزمهم بكفالتهم ، هم المفلسون بصورة عامة ؛ واما اصحاب الاراضي البور ، الذين افلسوا بصورة جازمة ولم يعد في مقدورهم الانصراف الى الزراعة ، فلا بد لهم **أن يمضوا** مع عائلاتهم ليكسبوا خبزهم لكن عليهم ان يسددوا جميع المدفوعات التي تبهظ حصتهم من الارض دون أن ينتفعوا بها مطلقا ، والا فان **المير لن** يمنحهم جواز سفر ، وفضلا عن ذلك سوف يجلدهم في مركز الناحية على اعتبارهم دافعين سيئين ؛ **من الجلي أن المير بالنسبة اليهم سخرة ، ووباء ، وعقبة** وانا لنتصور أن « الصلة بين هاتين الفئتين من المشاعة تظل صلة خارجية خالصة مصطنعة ضرائبية فلتتحطم **وسوف يحدث الانحلال بصورة نهائية** ان المشاعة لن تتألف اذن الا من مزارعين ؛ واما أحد أصحاب الأراضي ابور ، الذين لا يملكون وسيلة من اجل العودة الى الزراعة، وقد فقدوا عادتها شيئا فشيئا فسوف يتحولون نهائيا الى فلاحين لا أرض لهم ، وتلك هي حقيقتهم منذ الآن*

في مرحلة معينة من انحلال المشاعة يأخذ الافقر يتمردون على هذا الشكل من ملكية الارض الذي أصبح « وباء وعقبة وفي فرنسا » في أواخر القرن الماضي ، كثيرا ما طالب الفلاحون الاكثر بؤسا باقتسام المراعي البلدية ، لانهم اما ما كانوا ينتفعون منها لافتقارهم الى الماشية ، واما **كان يقف ضدهم** هم الذين كانوا يأملون في املاك قطعة من الارض خاصة بهم المزارعون العمال والعمال الزراعيون المشتغلون لحسابهم الذين كانوا يرسلون مواشيهم الى تلك المراعي** ولقد وقعت الظاهرة المعاكسة احيانا فقد كان الفقراء يودون الحفاظ على المراعي البلدية ، وكان الاغنياء يستولون عليها كي ينتفعوا بها وحدهم لكن الامر الذي كان لاجدال فيه هو أن المشاعة الريفية كانت ساحة صراع بين مصالح مادية متعارضة بقسوة ان التضاد قد حل محل التضامن البدائي*** وذلك هو نفس التضاد الذي نشاهده في الوقت الحاضر ؛ كما رأينا ، في القرى الروسية مع هذا الظرف الذي يزيد من خطورة هذه الظاهرة ، الا وهو أن الاتجاه عند الفقراء الى مغادرة المشاعة يتظاهر في مرحلة من الانحلال أقل تقدما ومثال ذلك أن الاراضي الزراعية لحكومة موسكو لم تصبح ملكية خاصة بعد لكن عبء ضرائب الدولة يثير منذ الآن ضد المشاعة القسم الافقر من الفلاحين في المشاعات حيث لا وجود للعوامل الملائمة للاستثمار الزراعي يؤيد الفلاحون متوسطو الحال الحفاظ على **المير** ، بينما الفلاحون متطرفو الحال ، **يعني الاكثر والاقل يسرا ، ينظرون بعطف الى استبدال**

---

* اورلوف **وثائق احصائية** ، ص ٥٥

** كاريف ، المصدر نفسه ، ص ١٣٢

*** Une Commune est presque toujours divisée par la différence des esprits qui la gouvernent et qui opposent leurs vues particulières au bien général. »

ان الكولاك و أصحاب الاراضي البور **نظام المير بالملكية الوراثية العائلية*** يتوقون على السواء الى تحطيم روابطهم بالمشاعة

اتجه هذا الطموح الى التعمم ؟ اننا نعرف مسبقا انه يتظاهر حيث « لا وجود للعوامل الملائمة للاستثمار الزراعي عند جميع الاسر حيث يملق قسم من الاسر ويذوى ، وينتهى الى التردي في انحطاط شامل ويتخلى عن زراعة الارض، وينصرف على وجه الحصر الى الحرف الصغيرة ويفصم بذلك رابطته المباشرة بأرض **المير** وحيثما يقوم هذا الوضع فان الارادة في الانفصال عن **المير** تصبح طبيعية جدا عند الفقير بحيث تشكل حقيقة ناجزة او حقيقة لن يطول انتظار تحققها فحيثما يوجد السبب لن تتأخر النتيجة عن الظهور

واننا نعرف أيضا ان معظم مشاعاتنا عرضة لشروط ليست منافية بقدر ما هي مستحيلة ان اقتصادنا سواء منه اقتصاد الدولة أم الاقتصاد **الشعبي** بصورة أخص(٦٦) نعمد في الوقت الحاضر على الاساس الاقل ضمانة ولا حاجة مطلقا الى معجزة أو الى مفاجئة من أجل تدميره تكفي من أجل ذلك منطق الحقائق الصارم ، الممارسة الاكثر طبيعية لوظائف العضوية الاقتصادية والاجتماعية ان الاسس تنهار تحت ثقل البناء وعدم تناسب أجزائه

أما السرعة التي تزل بها قدم المستثمرين الأفقر في المشاعة فهذا ما اتضح لنا قبلا من الارقام المذكورة أعلاه ، المتعلقة بنسبة المزارعين الذين لا يملكون حصانا وما يتضح لنا بمزيد من الجلاء من الحقائق ذات المغزى البعيد التالية في قضاء بورولوسك أشار احصاء عام ١٨٦٠ الى ١٧٥٠ حصة غير مزروعة من أصل ٣٣٨٠٢ حصة ، يعني ٥ ٪ ؛ واذا ترجمنا هذه الارقام الى الفدادين ، فمعناها أن ٣٥٦٤ فدانا من أصل ٦٨٥٤٤ فدانا من الاراضي الزراعية قد تركت بائرة وفي عام ١٨٧٧ لم تجمع أرقام الحصص غير المزروعة الا في ثلاث نواح ، وقد أشارت الى نسبة ٢٢٫٧ ٪ من الاراضي المهملة وليس ما يوحي على الاطلاق بأن النواحي المدروسة استثنائية ، وقد افترضنا أن نسبة الاراضي المهملة تعادل ذلك في بقية القضاء** ؛ وهكذا فاننا نكتشف أن هذا العدد للحصص غير المزروعة قد أصبح، اذا أخذنا ارقاما بلا كسور ٣٥٠٠٠ فدان من أصل ١٥٥٠٠٠ فدان ، يعني تضاعف اربع أو خمس مرات **وهذا خلال ثمانية أعوام** ! وان هذا التقدير التقريبي لعدد الاراضي المهملة تؤكده المعلومات التي تم الحصول عليها من عدد الفلاحين الذين لا يستثمرون حصصهم*** » وبالفعل ، فبينما كانت النسبة عام ١٨٦٩ هي ٦٫٩

---

* [ان المشاعة تنقسم دائما على وجه التقريب بالخلاف بين العقول التي تدبرها والتي تعارض بين آرائها الخاصة والمصلحة العامة] أورد هذا النص كاربيف ، ص ١٣٥

**سوف نرى أن هذه الفرضية صحيحة

***اورلوف ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠

منزلا من كل ١٠٠ منزل ، **فقد بلغت ١٨ ٪** عام ١٨٧٧ وذلك هو المتوسط بالنسبة الى مجموع القضاء وان الزيادة **لاسرع من ذلك أيضا في بعض الاماكن ففي** ناحية كلينوفسك ارتفعت النسبة من ٥٫٦ ٪ (١٨٦٩) الى ٣٧٫٤ ٪ عام ١٨٧٧. ومع ذلك فليس ذلك هو السقف ففي ١١ محلة أخذت كأمثلة يتبين ان تربية الماشية خلال هذه الفترة من الزمن نقصت بنسبة ٢٠٫٦ ٪ بينما ارتفعت نسبة المزارعين الذين تخلوا عن اراضيهم من ١٢٫٣ ٪ الى ٥٤٫٣ ٪ يعني انه « في عام ١٨٧٧ كان أكثر من نصف السكان يبحثون عن مورد رزقهم خارج الزراعة » وفي المناطق الافضل حالا من القضاء ، في أماكن يؤكد المؤلفون ان الزراعة تزدهر فيها ، فان نسبة المزارعين الذين يتخلون عن أرضهم زادت مع ذلك اكثر من الضعف فمن ٤ ٪ عام ١٨٦٩ بلغت ٨٫٧ ٪ عام ١٨٧٧ وان الازدهار النسبي في تلك المحلة لم يفعل الا ابطاء انفصال الفلاح عن الارض ، لكن لم يقض عليه ان الاتجاه العام لاقتصادنا الشعبي وهو اتجاه قاتل بالنسبة الى الفلاح ، لم يتغير

لكن لعل هذا القضاء يشكل استثناء للقاعدة العامة ؟ لايبدو ذلك البتة إن الاقضية الاخرى لحكومة موسكو ،وكذلك للحكومات الاخرى من روسيا الاوروبية، تعاني وضعا مماثلا ففي قضاء سيربوخوف تبلغ نسبة رؤساء الاسر غير الزراعية ١٧ ٪ وفي فيريا ١٦ ٪ وفي قضاء غجاتسك (حكومة سمولنسك) « توجد محلات هجرت فيها نصف الاراضي واحيانا ثلاثة ارباعها وبالنسبة الى مجموع القضاء ، فان الزراعة الفلاحية قد نقصت بنسبة الربع* وانـنا نستطيع ، دون الاكثار من الاستسهادات والمراجع ، أن نطبق براحة ضمير تامة على نصف روسيا على الاقل ما يقوله السيد أورلوف عن حكومة موسكو ان تناقضات قاسية تنبثق في حالة ثروة السكان الفلاحين **ان نسبة هائلة من هؤلاء السكان يفقدون شيئا فشيئا كل قدرة على زراعة الارض لحسابهم ، بحيث يزيدون من حجم فئة الفلاحين الذين لا منزل لهم ولا أرض** ، في حين أن فئة زهيدة جدا تضاعف كل سنة من رخائها المادي** ومعنى ذلك أن نصف مشاعات روسيا على الاقل هي عبء على أعضائها

ويعترف الشعبيون أنفسهم بأن النتيجة لا يمكن دحضها وقد أوردنا في كتابنا **الاشتراكية والصراع الطبقي** راي السيد ن. ز. الذي يرى أن المشاعة البائسة تفقد اعتبارها » في نظر الشعب*** ويقول السيد زلاتوفراتسكي

---

* **حكومة موسكو حسب أعمال رجال احصاء الزمشتفو** Otetchestvennye Zapiski **الدفتر الخامس ، ص ٢٢**

** معلومات تعود الى عام ١٨٧٣ ، راجع **تقرير اللجنة الامبراطورية** ، الملحقات مقالة عن « الزراعة » ص ٢

*** راجع في أرض الوطن ، **الاسبوع** ، العدد ٣٩ ، ١٨٣٣ .

كذلك في موضع ما أن المشاعة لم تعد عزيزة الا على شيوح الريف ومثقفي المدن وأخيرا فان السيد « ف. ف. » يعترف هو نفسه بأن « المشاعة تتفكك من حيث هي رابطة بالتراضي انها تبقى « جمعية » بالمعنى الاداري ، جماعة من الافراد الملزمين بالتكتل بفعل التضامن المتكافل يعني مسؤولية كل فرد منهم حيال الملاءة الناقصة لمجموع المكلفين وعجز مصلحة الضرائب عن القبول بهذا الاعسار ان الميزات التي كانت المشاعة توفرها فيما مضى قد تلاشت ، ولم يبق الا السيئات المترتبة على الانتساب الى المشاعة* ان الاساس الذي كان يقال عنه انه لا يتزعزع لنمط الحياة الشعبية ينهار كل يوم وكل لحظة تحت ضغط الدولة ولا حاجة الى الرأسمالية كي تشن حربا على هذه « الارمادا التي لا تقهر » فهي سوف تغرق من تلقاء نفسها من جراء نقص الارض وثقل الضرائب الفاحشة

لكن اذا كان الشعبيون يتركون لمصيرها مشاعة اليوم ، المشاعة **الفعلية** ، فانهم لا يتوقفون لذلك عن كيل المديح للمشاعة المجردة ، المشاعة** An und Fûr sich ، للمشاعة **الممكنة** في بعض الشروط ، انهم يؤكدون ان المشاعة تنحل بفعل ظروف خارجية لا تتوقف عليها البتة ، فانحلالها **ليس عفويا** ، وسوف يتوقف مع توقف الضغط الذي تمارسه الدولة عليها في الوقت الراهن ويجب علينا الآن أن ندرس هذا الجانب من محاكمتهم

ان شعبيينا يتميزون في الغالبية الساحقة من الحالات ، بسذاجة تبعث على العطف حقا فكيما يخلصوا المشاعة من أسرها الحالي ، فانهم يسلمون الامر بكل طيبة خاطر الى حكومة حكمت حماستها بالبؤس منذ الآن على روسيا بكاملها ، ان اصحابنا من عبدة المشاعة الشرعيين ، الذين يحتقرون السياسة من حيث هي لعب « بورجوازيين » ويستخفون بالطموحات الدستورية التي يعتبرونها متنافرة مع خير الشعب ، يجهدون انفسهم كي يقنعوا الحكومة بأنه سيكون من مصلحتها أن تدعم الاسس الشهيرة وانا لندرك انهم يهتفون في الصحراء ، عند كريلوف يصغي القط فاسكا ويتخم وهنا فضلا عن ذلك ، يحدث له أن يغلق بصخب الصحف والمجلات التي تتعب صبره خطبها عن مصلحته المفهومة جيدا ان الحكمة الدامغة الشهيرة تظل كذلك بدهية مسلما بها في مجال الحياة السياسية والاجتماعية

ان انقاذ الاقتصاد الفلاحي من الشروط المنافية له يرتد اجمالا الى انقاذ روسيا من نير الحكم المطلق وفي رأينا ان هذا التحرر السياسي لوطننا لن يصبح ممكنا الا في أعقاب التوزيع الجديد للقوى الشعبية التي سوف يترتب بالتأكيد وهو يترتب منذ الآن على انحلال قسم من مشاعتنا الزراعية ولسوف نتطرق الى ذلك فلنقم الآن بتنازل للشعبيين، وننس المشاعة **الفعلية** ونتحدث عن المشاعة **الممكنة**.

---

* « انحطاط روسيا الاقتصادي » Otetchestvennyé Zapiski ، ١٨٨١ ، الدفتر التاسع ص ١٤٩

** [في ذاتها ولذاتها] .

٤ • المشاعــة المثالية للشعبيين

كانت حجتنا السابقة تقوم بأكملها على فكرة أن المشاعة الروسية سوف تعاني طويلا من الضرائب الفاحشة ومن نقص الاراضي فلننظر الآن اليها من زاوية أخرى: لنفترض انها توصلت ، بفعل بعض الظروف ، الى التملص من هذه الاغلال أفلن يتوقف الانحلال الذي بدأ ؟ أفلن تنطلق المشاعة نحو المثل الاعلى للشيوعية بسرعة ترويكا غوغول(٦٤) ؟

في معظم الحالات تتجاوز الحصيلة الاجمالية للمدفوعات المترتبة على الحصص المفروزة دخلها الراهن حتى درجة بعيدة ومن هنا كان الاتجاه الطبيعي جدا عند بعض الفلاحين الى الانفصال عن أرض لا تدر عليهم الا ريعا سلبيا فلنتصور الآن الحالة المعاكسة لنتصور ان المدفوعات التي تبهظ ارض الفلاحين قد اصبحت في اعقاب اصلاح جدي للنظام الضريبي دون دخلها حتى درجة كبيرة وان هــذه القاعدة العامة المفترضة تمثل اليوم في صورة استثناءات خصوصية فثمة مشاعات بعد ليست الارض فيها غلا في قدمي الفلاح بل هي تدر عليه بعض الربح وان يكن ربحا متواضعا وان الاتجاهات التي تتظاهر في هذه المشاعات سوف تدلنـــا على المصير الذي سيؤول اليه هذا الشكل الروسي العتيق لملكية الارض فيما اذا عرفت **جميع** المشاعات شروطا مماثلة ملائمــة نسبيا فلنر اذن الى الامل الــذي سيحييه فينا مثال هذه المشاعات المميزة وما نملك الحق في توقعه منه

في **الوثائق الاحصائية عن حكومــة موسكو** نجد الاشــــارة التالية ذات المغزى البعيد جدا

> التقسيم العام لاراضي المير لاكثر تواترا بقدر ما يكون معدل المدفوعات التي تبهظه أعلى وبقدر ما تكون أشد تفاوتا مع دخل الارض فاذا كان معــدل المدفوعات لا يتجاوز دخل الحصة ، فان فترات طويلة من الزمن تفصل بين التقسيمات خمســة عشر عاما الى عشرين عاما وأكثر أما اذا كان معدل المدفوعات ، على العكس من ذلك ، يتجاوز دخل الارض فان الفواصل تصبح أقصر والتقسيمات تتجدد بصورة أكثر تواترا بقدر ما يكون التفاوت مع بقاء جميع الاشياء متساوية مع ذلك ، أعظم بين معدل المدفوعات وربح الارض*

ولقد سجل السيد ليتشكوف الظاهرة نفسها في حكومة ريازان ومغزى ذلك واضح تماما ان نقص الضرائب التي تخضع لها الاراضي الفلاحية يستجر اتجاها

* **وثائق احصائية** ، المجلد الرابع ، ص

الى اطالة مهلة التقسيم وبصورة ادق ، فان نقص الضرائب **يقوي هذا الاتجاه** ، لان هذا الاتجاه موجود في الوقت الراهن « ان المقارنة الجارية في اقضية مختلفة بين المتوسطات التي تعبر عن الفواصل الزمنية بين التقسيمات العامة وارقام تواتر التقسيمات تسجل اتجاها الى اطالة مهل التقسيم وبالتالي الى انقاص عدد التقسيمات يعني الى اطالة الانتفاع* وان **تقرير** اللجنة الزراعية يسجل الاتجاه ذاته بخصوص حكومات أخرى في روسيا الاوروبية وينظر شعبيون عديدون الى ذلك بعين العطف ، لانهم يعتقدون ان هذا الاتجاه سوف يمكن من القضاء على بعض السيئات التي تسببها للزراعة اعادة التقسيم العام للاراضي المشاعية أو يخفف منها وهذا صحيح ؛ والمصيبة هنا هو انه يتم القضاء على المساوىء الناتجة عن مبدأ المشاعة بطريقة تؤول الى القضاء على المبدأ نفسه وتذكرنا بشدة بالمعالجة الشهيرة للشقيقة القائمة على قطع الراس ان اطالة مهل التقسيم **هي** أحد أعراض انحلال المشاعة القريب وحيثما زال هذا الشكل للملكية العقارية تحت ضغط نزعة فردية مجتاحة ،فان هذا الزوال قد تم في كل مكان في خاتمة عملية طويلة جدا من تكيف **المشاعة** مع الحاجات الوليدة للملكية غير منقولة **فردية** وهنا كما في كل مكان سبق **الوضع الفعلي الوضع الشرعي** ان الارض التي هي ملكية المشاعة بأكملها قد بقيت فترة أطول فأطول بين أيدي العائلة التي تزرعها حتى ادت اخيرا اطالة مهل التقسيم الى شق الطريق أمام الغاء الانظمة القانونية البالية وانه لمن السهل ادراك سبب **هذه** الظاهرة ، ولن يتأخر اكتشافه اذا ما درست بشيء من الانتباه عملية التحويل الفردي للملكية غير المنقولة

ان المشاعة الزراعية تمثل **نقط احدى درجات انحلال الشيوعية البدائية**** فالملكية الجماعية للارض لا يمكن ان تنشأ الا في المجتمعات التي لا تعرف أي نمط آخر للتملك ويلاحظ السيد كوفانفسكي بحق ان **المؤرخ الاثنوغرافي** سوف يبحث عن الاشكال الاقدم لجماعية الخيرات لا عند القبائل التي استقرت بل عند الرحالة القناصين أو الصيادين ولسوف يشاهد اذن في **الملكية المشاعة** للارض عند الاولين **الامتداد البسيط للملكية غير المنقولة للافكار والمؤسسات القانونية** المولودة تحت ضغط الضرورة في عصر كان القنص والصيد فيه الوسيلة الوحيدة للحصول على الغذاء***» وان « الافكار والمؤسسات القانونية المتعلقة بالملكية **المنقولة** قد مارست أيضا تأثيرا حاسما في طابع الملكية **غير المنقولة** ؛ ولم يتضاءل هذا التأثير مطلقا بل ازداد أكثر حين أصبحت الملكية المنقولة ملكية شخصية بيد انه يؤثر

* المصدر نفسه ، ص ١٥٨

** اعود فأقول ان الاصل الضريبي لمشاعتنا قد تم البرهان عليه في الوقت الراهن [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

*** الملكية المشاعة للارض ، اسبابها وتقدمها وعواقب انحلالها ، ص ٣٧ .

بيوم في الاتجاه معاكس ففيما مضى كانت الملكية المنقولة تسعى لان تضفي طابعا جماعيا على الملكية غير المنقولة ، لان القبيلة بأسرها هي التي كانت تنتفع بها وليس الافراد أما اليوم فانها على العكس من ذلك تهاجم بكل عنف الملكية غير المنقولة المشاعية لان الافراد هم الذين ينتفعون بها وليس المشاعة بأكملها وان هذا التأثير الذي

جدال فيه للملكية المنقولة في الملكية غير المنقولة لظاهر بصورة خصوصية حيث تتطلب طبيعة المشروع بالذات ، كما هي الحال في الزراعة ، الاستفادة في وقت واحد من الملكية الفردية والملكية الجماعية ان المزارع يحتاج في المحل الاول الى الارض التي لا ينتفع بها الا لوقت محدد ، وفي المحل الثاني الى الاسمدة ، والبذار ، وحيوانات الجر وادوات العمل التي تشكل ملكيته الخاصة وان التأثير الهدام الذي تمارسه النزعة الفردية يبلغ اوجه في هذه النقطة من تقاطع نمطي الملكية ؛ ويميل النصر الى ناحية النزعة الفردية بمزيد من السرعة بقدر ما تتخذ الملكية المنقولة مزيدا من الاهمية في الزراعة يعني بقدر ما تتطلب مقولة معينة من الارض المشاعية قدرا اكبر من العمل ومن الاسمدة ومن العناية وهذا هو السبب في أن الاراضي المسورة الفلاحية -مثلا بساتين الخضار هي بصورة دائمة الافضل حراثة وتتقدم على الاراضي الاخرى في نظام الملكية الوراثية بالاسرة ، بينما المروج والأراضي البور تظل ملكية مشاعية لفترة زمنية اطول لانه يلزمها سور فقط من اجل حمايه الحيوانات التي ترعى فيها وان الاملاك المشاعة تنحشر بين هذين الحدين وفقا لدرجة تعقيد زراعتها المتعاظمة او المتناقصة

وهكذا فان اطالة مهل التخصيص هي العاقبة الطبيعية للعناية المتعاظمة ابدا المبذوله للعمل في الارض

وهذه بعض الامثلة الايضاحية

في المشاعة الزراعيةفي زائوزيوريه (حكومة نوفغورود) ينقسم مجموع الاراضي المزروعة الى مقولتين **الحقول المصنفة** والحقول المحروثة » ولا تتبدل ملكية الحقول الاولى الا اثناء التوزيعات العامة التي لا تحدث الا بمناسبة التفنيس فحسب اما الاراضي من النمط الثاني ، **الحقول المحروثة** ، « فتوزع بين المزارعين في كل خريف» . وتفسير هذا الفرق هو أن « **الحقول المصنفة** تسمد بالزبل عامة وان الفلاحين يفضلون فواصل طويلة من الزمن بين التوزيعات لانه « لابد للمرء ان ينتفع جيدا من الارض » ، كما يقولون ، و **«ما جدوى ان تتعب ، بربك ، على قطعتك من الارض اذا كنت ستتنازل عنها غدا لشخص آخر** ؟ ان حراثة أكثر عناية للارض تتطلب حقا اطول في الانتفاع يمتد بدوره بصورة طبيعية ، الى الاشكال الاخرى من الخيرات المشاعية التي تملك قيمة خاصة في عيني الفلاح ، وان كانت لا تتطلب اية مصاريف خاصة من أجل الانتفاع بها وفي مشاعة زائوزيوريه أيضا تنقسم المروج ، مثل الحقول الى مقولات عديدة ، والمروج التي من الفئة الاولى « المروج الكبيرة

المغمورة لضفاف خورنكا ، عرضة للتوزيع العام فقط*

ونشاهد الظاهرة نفسها ، لكن بصورة أبرز ، في مشاعة تورخوفو (حكومة تولا) ان المزارعين في هذه المحلة ، ((**الذين يزبلون حقلهم ، يتشبثون بـه بقوة ، ولا يقبلون بتسليمه الا عند الضرورة القصوى**)) .

وفي اقليم ميخائليوف (حكومة ريازان) ، لا يتوازع الفلاحون الاراضي المزبلة» .

وفي قضاء متسينسك (حكومة اوريل) ، تترك حصة من الارض مشاعة ، كيما يستطيع كل واحد أن يزبلها وهذا ما يسمى المزبل وهي لا تخضع للتوزيع قط ، وان لكل فلاح حقا في خمس قصبات منها

وفي قضاء كورنيخ (حكومة سمبيرسك) ، تتم التوزيعات منذ سنوات طويلة [لقد كتب هذا الكلام بعد عام ١٨٧٠ بوقت قصير] لمهل اطول ، الامر الذي يستتبع زراعة أفضل للارض ولقد تعمم تزبيل الحقول هنا**

ان الامثلة السابقة تفسر بصورة جلية الرابطة بين اطالة مهل التخصيص وتحسين الزراعة ومما لا ريب فيه أن المزارعين ينفصلون مرغمين عن أرضهم التي اضطرتهم زراعتها الى بذل بعض المصاريف ومن المؤكد ان الارادة في الاحتفاظ بالاراضي التي تم الحصول عليها بالافراز لاطول فترة ممكنة من الزمن سوف تتناقص حتى درجة بعيدة لو كان جميع أعضاء المشاعة يملكون القدرة المادية على تسميد حقلهم ايضا لو كان في مقدور جميع رؤساء الاسر ، أو غالبيتهم على الاقل ، ان ينصرفوا الى زراعة الحقول بعناية متساوية ، فلن يكون هناك فارق كبير بين الاراضي ، ولن تكون التوزيعات العامة باهظة بالنسبة الى اي كان » ، هذا ما قاله للسيد اورلوف فلاحون من حكومة موسكو بيد ان هذه المساواة تفتقر الى القاعدة الوطيدة في المشاعة الزراعية **حيث ارض المير تزرع حسب المنازل** ، وحيث كل عضو في المشاعة يشتغل على مسؤوليته الخاصة قطعة الارض التي كانت من نصيبه وان كمية الماشية ونوعية الادوات الزراعية واليد العاملة العائلية تشكل مقادير متحولة تفاضل حتى درجة كبيرة دخل كل مزرعة وان تطور الصناعة في الجوار ، أو داخل المشاعة ، يوفر امكانات جديدة من أجل كسب الرزق ، كما يوفر مصادر جديدة للتفاوت في الوقت نفسه فهذا البيت لا يملك اية وسيلة من أجل « العمل في الخارج » ، بينما ذاك البيت يحصل من هناك على حصة هامة من دخله ؛ وان واحدا من رؤساء الاسر وقد انصرف الى الحرفة اليدوية ، سوف يصبح « معلما صغيرا يستثمر أعضاء جماعته الخاصة ، بينما رئيس أسرة آخر يسقط في المقولة الاكثر عددا للمستثمرين ، وينعكس هذا كله على القدرة الاقتصادية لكل منزل واخيرا فان جميع البيوت

---

* راجع **وثائق من أجل دراسة المشاعة العقارية الفلاحية** ، منشورات الجمعية الحرة للاقتصاد والجمعية الروسية للجغرفيا سان بطرسبورغ ، ١٨٨٠ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٦٥

** التقرير ، الملحق الاول ، القسم الاول ، الفصل الثاني « الانتفاع المشاعي والجزئي بالارض. »

لا تتحمل بالسهولة نفسها عبء ضرائب الدولة وبالتالي فان المشاعة تنقسم الى « الجانب المشمس » و « الجانب المظلم » ، الى « موجيك جادين » أثرياء والى فقراء سوف يتحولون شيئا فشيئا الى « اناس الاراضي البور وعندئذ فان التوزيعات تصبح ضارة جدا بالنسبة الى المزارعين الجيدين ، اذ لابد لهم بالفعل أن يحرثوا ليس لانفسهم بل لجيرانهم الاقل حظا والاقل جدا ومن البدهي أن الفلاح الميسور يسعى جهده لتفادي هذه الضرورة الاليمة ، فيأخذ في النظر شزرا الى التوزيعات ولذا فاننا نستطيع أن نقول ان **التفاوت الذي يظهر بالضرورة بصورة باكرة أكثر أو أقل في وجود المشاعة يؤول بصورة لا تقل عن ذلك ضرورة الى اطالة مهل التوزيــع .**

وليس هذا كل شيء ان اطالة مهل التوزيع ، وهي أبعد ما تكون عن ازالة التفاوت بين أعضاء الجماعة ، تزيد منه ان المزارعين القادرين على حراثة قطعتهم من الارض بصورة أفضل لا يخشون بعد الآن أن تنتقل أرضهم غدا الى أيد أخرى انهم يبذلون مزيدا من العناية في الانتفاع بها ولا يتراجعون أمام المصاريف. ومن الطبيعي أن تتوج حماستهم بمواسم أفضل ان قطعة الارض المحروثة جيدا لرئيس الاسرة الجاد تدر ربحا أعظم من أراضي الفلاحين الناقمين* التي تكاد لا تكون قد حرثت وبالتالي فاننا نرى أن القصة القديمة الجديدة أبدا التي يرويها مثل المواهب تتكرر في المشاعة** ان المزارعين الجادين يصبحون أكثر جـدا والفقراء أشد فقرا ان المزارعين الميسورين يشكلون فيما بينهم ائتلافا دفاعيـا وهجوميا ضد الفلاحين الناقمين الذين يحتفظون بعد بحق الانتخاب في شؤون **المـير** ويستطيعون أن يطالبوا باعادة التوزيع ان الفلاحين الميسورين المتمسكين بالاحتفاظ بالاراضي الافضل حراثة في المشاعة وغير المجترئين أو غير القادرين على اقامة الملكية الوراثية بالاسرة يلجأون الى وسيلة داهية جدا انهم يجعلون من أراضيهم نوعا من الاحتياطي الذي لا يجوز تخصيص قطعه الا لافضل المزارعين.

ان حقول **المـير** تنقسم الى جزئين متفاوتين الجزء الواحد ، الذي يشتمل على أفضل الاراضي يخصص لافضل المزارعين ؛ أما الجزء الآخر الذي يتألف من الاراضي الاسوأ ، فيقع من نصيب عائلات غير المزارعين ويظل بورا*** وهكذا

---

* في ناحية سباسكويه (قضاء ايوريفتس من حكومة فلاديمير) ، تدر خمسة مقاييس من الشوفان المبذور ستمائة حزمة تعطي كل مائة حزمة منها خمسة مقاييس بعد درسها » ذلك هو المحصول المتوسط الذي يختلف حسب ثروة الفلاح فالمحصول الاغنى عند الفلاحين الميسورين هو ١٠ مائة حزمة لكل نفس ، مع حصيلة ٦ **مقاييس لكل مائة** » وان المحصول الاصغر عند الفقراء هو ٢٠٠ ــ ٣٠٠ حزمة ، مع حصيلة ٣ ــ ٤ **مقاييس** بروغافين **المشاعة الريفية** ، ص ١٥ .

** [**انجيل متى** ، الاصحاح الخامس عشر]

*** أورلوف : **أشكال الملكية الفلاحية** ، ص ٥٥

يفقد الفقراء كل أمل في ان تخصص لهم الارض المحروثة جيدا الخاصة بجيرانهم المحظوظين ويتبدل طابع المشاعة : فهي التي كانت فيما مضى حامية الناس الاكثر فقرا وقلعتهم تصبح مصدر افلاسهم النهائي **ان اطالة مهل التوزيع ، وهي نتيجة التفاوت بين اعضاء المشاعة ، يترتب عليها تفاقم هذا التفاوت وانحلال المشاعة الزراعية بصورة نهائية .**

ان المصلحين عندنا حين يعملون على تحقيق مطالبهم يتصورون انهم يشتغلون من أجل توطيد الاسس العريقة التي قاومت الخ الخ يعني في سبيل الحفاظ على الملكية المشاعية ، هذا اذا أردنا ان نترجم الى الروسية الحديث الشعبي باللغة العامية لكن الحياة تخبىء لهم مفاجآت غير سارة على الاطلاق ان تكبير الحصص وانقاص المدفوعات سوف يؤديان بالفلاح الى التعلق الشديد بالارض المزروعة وحالما يتعلق بها كثيرا ، فانه لا يعود يحب التوزيعات ويحاول تأخير موعدها وبقدر ما يؤخر هذا الموعد يشتد التفاوت بين أعضاء المشاعة ؛ وشيئا فشيئا بفعل منطق الاشياء بالذات ، تبدأ المسيرة نحو الملكية الوراثية بالعائلة . وباختصار فان التدبير الموصى به على اعتباره وسيلة للحفاظ على المشاعة لا يفعل الا مفاقمة هذا التوازن المذبذب الذي يقفز منذ الآن الى عيني المشاهد الحيادي ؛ ان التدبير موضع البحث لن يكون بالنسبة الى المشاعة الا مثل هدية داناينس* ولابد من الاعتراف بأن مخيلة لاهبة ومقدارا كبيرا من الجهل يسمحان وحدهما ببناء مشاريع اصلاح على الاساس المترنح لمؤسسة هوت في هذه التناقضات التي لا منفذ لها

ان التناقضات الخاصة بشكل اجتماعي معين تمارس فعلا قاتلا في طريقة تفكير المدافعين عنه وسلوكهم ان شعبيينا الشرعيين الخصبين جدا بالوصفات من مختلف الانواع التي تستهدف الحفاظ على الاسس العريقة لنمط الحياة الروسية وتوطيدها لا يلاحظون مطلقا انهم يصبحون في واقع الامر ، أكثر فأكثر، الناطقين باسم ذلك القسم من طبقة الفلاحين الذي يمثل المبدأ الفردي لربح الكولاك .

وان مشاريع الائتمان الشعبي والعطف الذي يتم الاعراب عنه حيال اكراء الميرات الاراضي الاميرية ، توفر مثالا جديدا على قصر البصر حيال مصالح المشاعة . وبالفعل فان الاكراء للميرات مثله كمثل الائتمان العقاري الصغير وهما أبعد ما يكونان عن توطيد الاسس العزيزة على شعبيينا يهزمان مبدأ المشاعة بالذات وهو ما سوف نعود اليه فليسمح لنا بأن ننتهي أولا من أسباب الانحلال الاخرى التي أشرنا اليها من قبل

اننا نعرف من قبل أن الفلاحين يطالبون باطالة مهل التوزيع كيما يشتغلوا الارض بصورة أفضل انهم يرفضون أن « يكدوا على قطعة من الارض قد تنتقل

---

* [حسب تعريف لايكون لحصان طروادة (**الانياذة** ، النشيد الثاني)] .

غدا الى أيدي الغير وان اشتغال الارض بصورة جيدة يفترض مصروفا ليس مصروفا من العمل فحسب ، بل من منتجات العمل السابق ايضا من وسائل الانتاج التي تسمى في الاقتصاد البورجوازي راس المال

وتغطى هذه المصاريف من الراسمال في فترة من الزمن تطول أو تقصر ان بعضها يرتد الى مالكها خلال سنة او سنتين في صورة مردود افضل للارض بينما بعضها الآخر ، على العكس من ذلك ، يستغرق وقتا طويلا جدا كي يستهلك . ان المصاريف الاولى هي ما يسمى مصاريف الراسمال المتداول والمصاريف الثانية هي مصاريف الراسمال الثابت ومن البدهي انه بقدر ما تزداد مصاريف الراسمال الثابت في الزراعة يزداد تمسك الاغنياء أو المزارعين الميسورين بحصتهم من الارض. وان تزبيل الارض لا يشكل نفقات كبيرة جدا ومع ذلك فاننا نرى انه كاف كي يثير عداوة فئة من طبقة الفلاحين عندنا ضد التوزيعات تلك حماقة ما دمت املك ثلاث بقرات بينما لا يملك هو سوى ديك واحد كما من عادة فلاحي ناحية سنغويلي (قضاء ابوريبفيتس) ان يقولوا بخصوص اعادة التخصيص* ما عسى أن تكون نتائج الطرق الزراعية الاكثر عقلانية للزراعة المكثفة ونظام المناوبات الزراعية المتعددة ؟ومن المؤكد أن الملكية المشاعة للارض سوف تصبح عقبة خطيرة في سبيل توطينها ؛ فهي تؤدي سلفا الى ظواهر شاذة كرفض تزبيل الاراضي المحروثة ففي حكومة كالوغا ، نجد أن بعض « الفلاحين يجلبون كل زبلهم على وجه التقريب الى حقول القنب ، ويزبلون حقلهم قليلا جدا ،خشية أن تنتقل الاراضي التي سمدوها الى سيد آخر عند التوزيع المقبل وفي حكومة موسكو يتوقفون عن تزبيل الاراضي قبل التوزيع بسنتين أو ثلاث سنوات » وفي قضاء كينيشما (حكومة كوستروما) ، تصادف أمثلة عن فلاحين اغنياء يبيعون كل زبلهم ويرفضون ان يسمدوا حقولهم به للاسباب المبينة أعلاه وفي حكومة تولا « عند الفلاحين الذين لم يفتدوا أنفسهم بعد وهم لا يبرحون خاضعين بصورة مؤقتة للاوبروك فان الحقول تنهك كل سنة من جراء نقص الاسمدة ، اذ قد انقضت حوالي عشر سنوات دون أن تزبل الاراضي مطلقا فهم يختزنون الزبل في انتظار التوزيع المقبل واخيرا ، في قضاء سيزران (حكومة سيمبرسك) يتبين من المعلومات العديده المجموعة عن معدلات التنازل ان تعرفة ايجار الارض في حالة الملكية المشاعة [عند التنازل عن حصص كاملة] ، هي وسطيا مرتين أقل من تعرفة الارض التي هي ملكية فردية والتي تخص احدى المزارع وان هذه الحقيقة التي لا يمكن الارتياب فيها يمكن أن تثبت بكل سهولة بسجلات العقود والصفقات للادارات في النواحي

يجب أن نبحث عن تفسير ذلك في حقيقة أن زراعة الارض بالذات بقطع من الارض زهيدة تعود الى كل رئيس عائلة ، قليلة الفائدة جدا ان القسم الاكثر

---

* بروغافين ، المشاعة الريفية(٦٥) ، ص ٤٠ ـ ٤١

يسرا وتطورا من طبقة الفلاحين يدرك ذلك جيدا الامر الذي تترتب عليه ظاهرتان مميزتان جدا من اجل تحديد الوضع الراهن لملكية الارض فأولا ، في محلات عديدة (كرافكوف وغولوفين وقسم من قرى فيدرينو وزاغارينو) اتخذت بعض المراسيم بشأن توزيع الاراضي المشاعية الى قطع فردية وفضلا عن ذلك فان بعض رؤساء الاسر ، في عدد كبير من القرى ، يدفعون مالا من اجل افتداء حصتهم مطالبين بحذفها من الارض المشاعة ولقد سجلت حالات من هذا النوع في قرى ريبييفكا وساموبكينو واوكولوفكا الخ ؛ ولقد كانت هذه الحالات تزداد عددا لو كانت الادارات الريفية تعمل جيدا ؛ لكن غموض القانون ، الذي يزيد فيه عيوب الادارة الريفية ، يلجم الافتداءات*

وليست تلك بالمساوىء الوحيدة لملكية الارض المشاعة ، بل هي تستتبع نمطا الزاميا من دوران الزراعة يقيم عقبات خطيرة ايضا في سبيل تقدم التقنية

ايمكن التفكير في تحسين الزراعة بصورة جذرية في مشاعة تورخوفو (حكومة تولا) حيث « **لا يسمح للمرء لا بتسوير حقوله ولا بتعديل نظام الزراعة** » ، وحيث نظام المناوبة كل ثلاث سنوات **الزامي لجميع الناس** » ؟ ولا تشكل هذه المشاعات استثناء ؛ بل الامر على العكس من ذلك ، اذ أن النظام المنشأ فيها يمكن اعتباره القاعدة العامة ، وهو يقوم على هذا الاعتبار البسيط جدا ، الا وهو انه اذا سورت الحقول أو عدل نظام الزراعة « بسبب مزارع واحد ، فان الآخرين سيمنعون اذن من ارسال ماشيتهم الى الاراضي المستريحة او الاراضي المحصورة** وحسب تصريحات مدير ناحية تيخونوفو وفلاحيها (قضاء كالوغا) ، فانه لا يمكن انجاز أي عمل زراعي على هوى المزارع ، مهما تكن رغبة هذا المزارع فيه فهو لا يسمح له بتثليث الاراضي المستريحة بينما الآخرون يثنونها ، طالما أن هذه الاراضي المستريحة تفيد للرعي ؛ وهو لا يستطيع كذلك ، للسبب نفسه ، أن يبذر شوفان الشتاء قبل الآخرين ؛ ان عليه أن يبدأ حصاد الكلأ بصورة متواقتة مع الآخرين ، اذ انه محظور الحش قبل توزيع المروج ؛ ولكنه من المحال كذلك الحش بعد الآخرين حتى لا يجد المرء أن تبنه تأكله ماشية الارض المستريحة وان جميع الاعمال الزراعية تصطدم بعقبات من هذا الطراز . ولا جدوى من الحديث عن ادخال زراعات جديدة، فهي مستحيلة ، ذلك انها تبذر بعد زراعاتنا ، بحيث ستدمرها ماشية المير بعد جمع المحصول*** وهكذا فاننا نستطيع أن نقول أن الصراع لا مفر منه بين المشاعة واولئك الافراد من أعضائها الذين يجدون من مصلحتهم تبديل نظام الزراعة **وهم يملكون الوسائل من أجل ذلك** ويمكن أن نتكهن بكل سهولة الى أي جانب سيميل

---

* **التقرير** ، الملحق الاول ، الفصل الثاني شروط الاقتصاد الفلاحي »

** **وثائق من أجل دراسة المشاعة العقارية الفلاحية** ، ص ١٦١ و ٢٣٤ .

*** **التقرير** « شروط الاقتصاد الفلاحي »

النصر ان الغني سوف يتغلب على الفقير دائما » ، هذا ما يقوله الفلاحون ؛ وفي هذه الحال فان الاقلية الغنية هي التي سوف تتغلب على الفقراء وذلك باستخدامها أرهب سلاح اخترعه التاريخ قط ، ألا وهو وسائل الانتاج الاكثر اتقانا

لقد سود شعبيونا قدرا كبيرا من الورق كي يثبتوا أن المشاعة في ذاتها ، يعني من جراء المبدأ الذي يشكل أساسا لها ، لا تتعارض مع تقدم الزراعة انه ليكفي أن يعمل أعضاء هذه المشاعة على هذا الاتقان ، والافضل من ذلك أيضا أن يزرعوا الارض جماعيا ، كيما تزداد العملية يسرا بالاحرى من ان تتعثر بفعل انعدام الملكية الخاصة للارض هذا صحيح جدا ، لكننا لا نفتقر الى الامكانيات التي لا يمكن تصور انتقالها الى الواقع الا بشروط هي مستحيلة في الوقت الراهن

وان الاغنية لتقول بصورة صائبة جدا

لو كانت الورود لا تخاف البرد الشديد ،

لأينعت في الشتاء أيضا

لكن أيمكن أن يكون في مناخنا شتاء دون برد شديد ؟ كلا ، أليس كذلك ؟ ولذا فان الورود لا تزهر في الشتاء الا في الدفائن وانه لفي مقدور فلاحينا أن يأكلوا المحار وأن يسقوه بالشمبانيا لو كانوا يملكون الوسيلة من أجل ذلك ان هذه المسألة الملحة الخاصة بالوسائل قد كانت على الدوام الشك الصقيعي الذي يبرد هجمات المخيلة عند دكاترتنا الذين حصلوا على شهاداتهم كيفما أتفق لو كان جميع فلاحينا يملكون الوسائل ليس حتى من أجل زراعة حقولهم وفقا للطرق الاحدث ، لكن بكل بساطة من أجل الاحتفاظ بالمناوبة الثلاثية التقليدية ، لما طرحت عندنا هذه القضية الزراعية التي يعمل السادة الشعبيون على حلها بكل هذا الحماس وبهذا القدر الضئيل من النجاح ان الحقائق تقول لنا ان الوسائل تعوز الغالبية العظمى من طبقة الفلاحين عندنا وحالما تنعدم هذه الوسائل فانه لا المزارعين الفرادى ولا الدولة بمجموعها يملكون الرغبة أو الحافز في تأجيل اتقان الزراعة حتى الزمان الذي تتحسن فيه حال غالبية أعضاء المشاعة ان محراثنا السابق للطوفان قد خدعنا كثيرا حتى الآن في النضال من أجل الاسواق ولو مع الاميركيين وحدهم هؤلاء الذين لا يؤجلون استخدام المحراث البخاري حتى العصر الذهبي الذي سوف يسود فيه الاخاء والمساواة

وبالتالي فاننا نستطيع ان نقول ان تطبيق الطرق الزراعية الاكثر اتقانا سوف يصبح عاملا جديدا في انحلال المشاعة ، الا اذا جاءت معجزة فقضت على التفاوت القائم منذ الآن بين قرى « ما بعد الاصلاح

وأما المعجزات ، فسوف نعود الى الحديث عنها لكن ما هو هذا الاتقان للزراعة ؟ أتراه يشكل الشرط السالب للتطور الاجتماعي ، نتيجة للشروط المنافية التي يعاني المزارع منها ، أو على العكس من ذلك عاقبة للقضاء على هذه المؤثرات

المنافية نتيجة لتحسين مستوى حياة الفلاح ؟ ان الفرضية الثانيــة أصح من الفرضية الاولى فيمــا نرى ان غالبية الفلاحين اليوم فقراء جـدا ، والتضامن التكافلي يهدد بالحاق الدمار حتى بالاقلية الميسورة منهم ولذا فاننا نفهم السبب في عدم تحمسهم للزراعة المكثفة لكن فليوضعوا في شروط أفضل وليخلصوا من عبء الضرائب التي ترهقهم وان التضامن التكافلي لن يبدو خطرا في نظر الفلاح الغني فبقدر ما يقل عدد الفقراء في المشاعة سوف تتناقص المسؤولية عنهم وان الفئة الغنية من طبقة الفلاحين سوف تفكر وقد اطمأنت الى المستقبل ، في تحسين الزراعة بصورة جدية بيد انها سوف تصطدم بالمشاعة اذن ، ولابد لها عندئذ أن تخوض حرب ابادة ضدها وهؤلاء نحن عدنا الى النتيجة القائلة ان تحسين مستوى الحياة الفلاحي يزيد من عدم استقرار الزراعة المشاعية ؛ انه سيكثر من الظواهر المماثلة لتلك الظاهرة المشاهدة حاليا في حكومة تامبوف حيث « الفلاحون الـذين يثرون يطبقون الملكية الفردية بينما يظل الفقراء مخلصين للملكية المشاعية مع توزيع الاراضي* ان حالة المريض سيئة سيئة جدا في الحقيقة لقد بلغ حدا من الضعف يتفسخ معه وهو حي والحميات الغذائية التي يوصي له بهـا اصحابنا التجانسيون الشعبيون الشرعيون لا تفعل الا التعجيل بالانحلال الذي بدأ بدلا من تقوية المريض

الم يحن الوقت للخلاص من المشاعة ؟ ألم نشر حتى الآن الى جميع عوامل انحلالها ؟ حسنا ، كلا ان هذه العوامل عديدة ، في الحقيقة عديدة جدا ان جميع مبادىء الاقتصاد الحديث وجميع نوابض الحياة الاقتصادية في الوقت الراهن تعارض المشاعة بصورة لا رجاء فيها وان الامــل في « تطورها » العفوي لمستغرب مثـل الامل في بقاء وتكاثر ســمكة أخرجت من المــاء وليست المسألة أن نعرف نموذج الصنارة الذي عضت السمكة عليــه ، بل ما اذا كانت اعضاؤهــا التنفسية متكيفة مع الجو المحيط ان جو الاقتصاد النقـدي الحالي يعمل على قتل الشكل العتيق للملكيــة العقارية عندنا ، على نسفه من أساسه اتريدون أمثلة على ذلك ؟ اليكم هذه الامثلة

لقد رأينا من قبل التأثير الهدام الذي يمارسه الاقتصاد النقدي في الجماعة العائلية فلنبحث الآن عن أمثلة على تأثيره في المشاعة الريفية بكل معنى الكلمة

* التقرير ، الملحق الاول ، القسم الثاني ، ص ١٧٨

٥ . عملية الافتـداء

لنأخذ حالة هذه العملية للافتداء(٦٦) المراد منها اعطاء روسيا طبقة جديدة من الفلاحين الملاكين لقد توصلت بعض المشاعات حتى الآن الى افتداء أراضيهـا، فما كان رد فعل ذلك على بنيتها الباطنة ؟
يقول لنا السيد ليونيد ليتشكوف*

« لقد بين لنا فاسيلي اورلوف في **الوثائق الاحصائية عن حكومة تامبوف** ان نظام **افتداء الاراضي يفعل بقوة عظيمة في منحى تعمير التوزيعات العقارية بين الفلاحين** ، ذلك أنه يطور وينشر لدى طبقة الفلاحين الفكرة بأن الارض المفتداة هي **ملكية شخصية وغير قابلة للتصرف** جمعنا الاعلامات الاحصائية لاحظنا رفاقي وأنا نفس الظاهرة في قضاء ريازان

ويجب أن نعرف بأن السيد ليتشكوف يشير الى حقيقة غريبة حتى الدرجة القصوى وعظيمة المغزى انه يقول

ان الفلاحين الذين **قاموا بافتداء** أراضيهم في قضاء ريازان **لا يتقاسمونها بعد الآن** في المشاعات **التي يتمسك أعضاؤها بالارض** بينما الفلاحون المسترقون مؤقتا وعلى الاخص فلاحي التاج ، يستمرون في القيام بالتوزيعات ان الملاكين لا يتوازعون الارض الا **حيث لا** يتشبث الناس بها ، يعني حيث لا يتم توزيع الارض بقدر ما يتم توزيع الواجبات التي تبهظها وانه لامر مميز تماما انه في جميع المشاعات القابلة للافتداء حيث الارض توزع « بالنفوس الحية » ، فان اعادة **التوزيع لا تجري لاحقا** ، بل **قبل وأثناء الافتداء** (**على العموم بفكرة أنه لن يعاد التوزيع بعد الآن مطلقا**) وبعد الافتداء لم يحدث توزيع الارض **في أيـة مشاعة** ، باستثناء المشاعات حيث تشكل الارض عبئا على الفلاح ، وذلك بالرغم من التفاوت الظاهر في توزيعها ومهما تكن هذه الحقيقة مؤسية ، فانه لابد من تقريرها ، ومن تقرير حقائق عديدة أخرى أيضا ، **وهي تميز جميعا ترتيبا للمصالح غير المواتية للمير على الاطلاق** ولابد من تقرير ذلك لان الواجب يدعو الى مواجهـة الواقع ، دون تزيينه بالعبارات التي لا ينتج عنها سوى الاضرار بالقضية

ولا نلاحظ هذا الاتجاه لدى الاراضي المفتـداة الى الانتقال الى نظام الملكيـة الفردية أو بالاحرى الملكية بالعائلة في حكومة ريازان وحدها بل تظهر الظاهرة نفسها في مناطق أخرى أيضا

---

* راجع في مجلة **دبيلو** (العدد الحادي عشر من عام ١٨٨١) « عملية الافتداء تدمر المشاعات » .

ففي قضاء كريستسي (حكومة نوفغورود) ، حمل اكثر من نصف الفلاحين السابقين للاراضي السيادية المفتداة **المير** على تقرير أن الارض سوف توزع « بالمسورات وبالنفوس وانه لن يعمد بعد الآن قط الى توزيع جديد وتسجل حقائق مماثلة في **تقرير** اللجنة الزراعية من اجل حكومة كالوغا وفي ستاروخينو ، وهي قرية في حكومة تولا ، « لم توزع الأرض المشاعة منذ الاصلاح وفي حالات اعادة التوزيع الجزئية ، فان كمية النفوس التي « حصلت على حصة اثناء الاصلاح تفيد كقاعدة من أجل اعادة التوزيع وحتى « في حالات التوزيع **العائلي** فان هذا الرقم للنفوس هوالذي يؤخذبعين الاعتبار ، **دون أن يشتمل على القاصرين** ولاتخضع الارض المسورة للتوزيع قط وهي تنتقل الى العائلة وهكذا نرى أن المبداالمشاعي قدم تنازلات هامة للنزعة الفردية في هذه القرية من الفلاحين **الملاكين** بالرغم من انهم يرون ، حسب رأي السيد اياكوشكينا ، في الملكية المساعية للارض الوسيلة الوحيدة كي لا يحرموا من الارض ان منطق الاشياء الموضوعي يثبت أنه أقوى من منطق الفلاح الذاتي ومع ذلك تندلع هنا معركة بين هذين النوعين من المنطق ؛ ان ثمة خلافات ؛ لكنه في مشاعة بوروك (حكومة بسكوف) ، المفتداة منذعام ١٨٦٤، عقد المنطق الذاتي للاكثرية التحالف الأوثق مع المنطق الموضوعي للاقتصاد النقدي

وحين يطالب الفقراء بتوزيع جديد يقال لهم انه بالرغم من ان المالكين الحاليين للقطع الفردية من الارض لا يحتفظون بها مطلقا بصورة شرعية [يعني وفقا لعدد النفوس] ، فقد خلصوا مع ذلك القطع المذكورة من مختلف المدفوعات [المدفوعات لقاء الافتداء] ، وبالتالي فانه ليس من العدل انتزاعها منهم* ويشار في قرية اخرى من المنطقة نفسها الى هذا الحدث المميز ان أحد الفلاحين وقد تبنى طفلا لقيطا طلب من **المير** ان تقتطع له من الاراضي المشاعة حصة اضافية دفع لقاءها ١٠٠ روبل **وحصل على حظر التقسيمات في المستقبل** ان افتداء الارض ، هنا ايضا ، يتعارض مع الملكية المشاعة لها

وتعود بنا هذه الحالة الى مسألة الافتداء ليس من قبل **المير** بأسره بل من قبل البعض من أعضائه ان القانون يسمح بهذه العملية ، وهي كثيرا ما تحدث في الواقع ان الفلاحين الذين افتدوا أراضيهم بصورة نهائية ، يستمرون أحيانا في احترام مبدأ ملكية **المير** ؛ لكنهم يعارضون التوزيع أحيانا أيضا ولابد للمير أن يعاملهم من حيث هم ملاكون وفي قرية سوروكوجينو (حكومة فلاديمير قضاء ايورييفيتس) ، توجد ثلاثة بيوت لملاكين حقيقيين قد افتدوا قطعتهم من الارض بصورة نهائية ؛ ولقد رضي اثنان منهم بدون تحفظ توزيعا عاما مع كل تواليه (قرعة جديدة ، وتناقص الحصص ، الخ) ، لكن أحدهم طالب بزيادة حصته ؛ وقد

* انظر مقال السيد زينوفييف في **الوثائق** السابقة الذكر ، ص ٣٠٨ .

اضاف **المير** الى ارضه شرائح اخذت من الحقلين المجاورين* وفي قريتي خوروشيفكا وكولايفسكوي (نفس الحكومة) يوجد ملاكون بكل معنى الكلمة ، وفي نية **المير** أن **يحرر لهم** على الاقل بالمسورات ، **حصة كاملة** من المساحة المقابلة لثمن الافتداء المسدد** وأحيانا يعارض **المير** على العكس من ذلك ، هذا النوع من التحرير وعندئذ يتباطأ الافتداء هكذا على سبيل المثال ، في حكومة تامبوف يود الكثيرون من الفلاحين ان يفتدوا حصصهم على حدة لكن الرابطات لا تسمح بذلك ، كيما يظل الفلاحون الاغنياء ملزمين بالتضامن التكافلي وقد يحدث ان يعطي المير حقولا بعيدة وغير مريحة الى المزارعين الذين سددوا افتداءهم وهكذا ، في حكومة خاركوف يفضل الفلاحون ان يبتاعوا الارض من شخص ثالث على افتداء ارضهم الخاصة***

ان هذه الحقائق تكفي لتبين مبلغ التقلقل الذي يسببه الافتداء للمشاعة ومن المؤكد أن الانتقال القانوني النهائي الى الملكية الفردية الوراثية ، وهو بعيد عن كونه النتيجة الضرورية **والفورية** للافتداء ، يشكل على العكس من ذلك ظاهرة نادرة نسبيا فالفلاح محافظ على العموم وعلى الاخص فيما يتعلق بالارض لكن هذا لا يبدل في القضية شيئا ان العلاقات القائمة بين أعضاء مشاعة افتدت أرضها لا تذكر الا بالاسم وحدة **المير** الذي عرفته الازمان القديمة **مير** زمن الاقتصاد الطبيعي ، والحق الاقطاعي ، وانعدام طرق المواصلات ان توزيع الاراضي لا يعتمد بعد الآن على حاجات الفلاح وعدد الايدي المتوفرة في عائلته ، ولا حتى على الضريبة او الأداءات العينية ان اللحن قد تغير ، والأغنية تغيرت ايضا ان الفلاحين المالكين لا يحبون التوزيع . ولا تهمهم حاجات جيرانهم الا قليلا ان الشيوخ يزمجرون ويجدون أن الشعب قد « افسد كثيرا » ؛ وان المثقفين ليتنهدون بقدر أعظم من الحماس والارهاق ايضا ، اذ يرون أن « فساد الاخلاق » لايكف عن التغلغل في الريف، وأملهم الوحيد هو في «ثورة» تصحح كل شيء، وتصلح كل شيء ، وترد الى المشاعة طراوتها التي كانت لها أيام غوستوميسل**** لكن شيئا لا يجوز أن يدهشنا في هذه الظاهرة التي تحزن حتى هذه الدرجة شيوخ القرى وشعبيي العاصمة ان الاخلاق لم تفسد وكل ما حدث انها حصلت على بنية تحتية اقتصادية جديدة لقد كانت الارض فيما مضى ملكا للقيصر ، أو « الله » ؛ لقد كانت اي شيء تريد ، لكنها لم تكن قط أرضا للبيع وكان يكفي الفلاح ان يتوصل الى الدخول في المشاعة كي يحصل على الانتفاع بالارض وهو حق ما كانت تحد منه أحيانا الا اليد العاملة التي

---

* بروغانين **المشاعة الريفية** ، ص ١٥

** المصدر نفسه ، ص ٤٨

*** **التقرير** ، القسم الثاني

**** [قاض اسطوري لمدينة نوفغورود العظمى]

يملكها الفلاح ، لكن المير كان السيد في داره ؛ وكان يسن القانون حيثما تستطيع الفأس والمنجل والمحراث ان تمر وكان الحق الاقطاعي يستعبد المزارع ،ويذله لكنه لم يكن يمس صلته بالارض وكان الفلاحون يخاطبون السيد قائلين « نحن لك ، لكن الارض لنا » وجاءت اوقات اخرى ؛ ليس الفلاح ملكا للسيد بعد الآن ؛ وبالمقابل فان الارض لم تعد تخص الفلاح يجب افتداؤها يجب دفع ثمنها بالمال الحلال ولكن ما هو المال ؟انهسلعة في جوهره لكنه سلعة من نمط خصوصي جدا سلعة تمكن من شراء سائر السلع الاخرى ، سلعة تفيد في قياس قيمة السلع والتعبير عنها وبدهي أن هذه السلعه التي من نمط على حدة لا تفلت من فعل القوانين العامة للانتاج والتداول السلعيين بل ان الامر على النقيض من ذلك فهي حاملة هذه القوانين ؛ وهي تشيع مفعولها حيثما تدخلها صدفة عقد مبادلة ولكن ما هي قوانين الانتاج السلعي ؟ ما السلعة وما منشؤها ؟ ان الانتاج السلعي لا ينمو الا في مجتمع تشكل فيه وسائل الانتاج وبالتالي المنتجات الملكية الخاصة للمنتج ؛ واذا لم يتوفر هذا الشرط فان اي تقسيم للعمل لا يكفي من اجل اظهاره. وهكذا فان الانتاج السلعي يمثل من حيث هو عاقبة لتطور الملكية الخاصة ان النقد الذي تولده مبادلة السلع بصورة طبيعية يفترض الملكية الخاصة ، بالضبط بنفس الطريقة التي يفترضها بها مجموع عملية الانتاج السلعي عامة ولا يستطيع اعضاء المشاعة ان يحصلوا على المال الا مقابل اشياء من الملكية الخاصة ، وان تكن الملكية المذكورة مشكلة من منتجات عمل أرض مشاعة وان على الفلاح ان يدفع من هذا المال من أجل الافتداء

ولكن المال يجر المال وخاصة بمعنى أن وسائل الانتاج والمادة التي يجب تحويلها والتي تشترى بفضله تشكل بصورة مسبقة قيمة تبادلية معادلا للمبلغ المصروف في سبيل الحصول عليها ، وهو مبلغ يمكن تحويله من جديد الى مال وفقا لهوى الحاصل عليه وهكذا فان الاشياء التي يبتاعها هذا الفرد أو ذاك تشكل ملكيتـه الخاصة ذلك هو المنطق الذي لا يدحض للاقتصاد النقدي وان هذا المنطق ليدخل في صراع مع تقاليد الملكية المشاعية للارض ان عملية الافتداء تضع المير في مواجهة تناقض لا يمكن حله الا بدمار المشاعة النهائي ان قوة العادة ، والاعراف ، والمعتقدات الواعية احيانا ، تعمل على بذل الجهود في سبيل انقاذ المبدأ الجماعي القديم الملكية الارض بعدما اضحت القاعدة الوحيدة لنمط تملك الارض المبدأ الفردي الجديد للمال لكنه من المفروغ منه أن هذا الجهد لا جدوى منه وان المزرعين لن يتنازلوا للمير ، على عتبارها ملكية جماعية ، عن اشياء حصلوا عليها عن طريق المبادلة على أساس الملكية الخاصة

ويقول ليتشكوف « بالرغم من ان قطع الارض الفلاحية تفتدى حسب بنود المرسوم من حيث هي ملكية مشاعة ، فان الدفع من قبل اعضاء المشاعة يتم فيغالبية المشاعات حسب العادة [يعني وفقا للوقائع التي هي دائما أقوى من الانظمة

الحقوقية واقوى اكثر من ذلك ايضا من التناقضات الحقوقية] وفقا لمقدار الارض المحتفظ بها وان اقساط الافتداء تنقص كل عام بقدر المدفوعات واليكم النتائج التي يمكن ان تترتب على ذلك ان اولئك الذين دفعوا بصورة وجدانية ، احيانا خلال عشرين أو ثلاثين سنة ، الاقساط السنوية للافتداء يتعرضون لخطر حرمانهم في الاقتسام القادم من جزء هام من الارض المفتداة ، بينما اولئك الذين لم يدفعواشيئا قد تسنح لهم الفرصة . على العكس من ذلك ، للحصول على الارض مجانا وبعبارة اخرى ، فان كل تسديد جزئي جديد ، بينما يلوح انه يقوي حق الدافع في الارض المفتداة ، يقربه في الوقت نفسه من اللحظة حيث التوزيع التالي سوف ينتزع منه ، عمليا ، الحق المكتسب بعرق جبينه وندرك ان الموجيك لن يقصر عن ملاحظة هذا التناقض الفعلي ولقد راينا أعلاه أن هذا التناقض يحل بالغاء التوزيعات وابقاء الارض بين أيدي اعضاء المشاعة الذين دفعوا الفدية عنها

في كانون الثاني ١٨٨٣ كان ٢٠ ٣٥٣ ٣٢٧ فدانا من الاراضي الفلاحية قد افتديت وكان مجموع الاراضي الفلاحية يقدر بـ ١٢٠٦٨٢٤٦ فدانا ، وبالتالي فاننا نملك الحق في القول أن عملية الافتداء قد توصلت الى وضع سدس الاراضي الفلاحية في شرط يتنافر مع المبدأ المشاعي

واليكم ما يبين بكل وضوح تنافر الملكية المشاعة للارض مع افتداء الارض أو شرائها. ان بعض الجمعيات الريفية في حكومة موسكو تملك ، فضلاعن حصص الأرض ، اراضي موهوبة ايضا يعني تم الحصول عليها كهبة عند تحريرها من السيد القديم وباستثناء قرية واحدة ، فان « ملكية الارض الموهوبة هي مشاعة في كل مكان » . وفي الحالات التي تبتاع الجمعيات الريفية فيها اراضي اميرية ، فان « ملكية الحصص التي تعود الى كل اسرة وراثية دائما ، اذ ان كل اسرة تملك الحق في التصرف الحر والتنازل الحر عن الكل أو الجزء ، بالبيع ، أو الهبة ، الخ وهكذا فان نصيب كل أسرة أسهمت في الشراء يظل ثابت المساحة*

وكذلك هي الحال بالضبط في حكومة بسكوف فحين « يحصل الفلاحون على ملكيات وثمة أمثلة عديدة على ذلك فان ملكيتها يعترف بها لهم على اعتبارها غير مشاعة

وليس هذا كل شيء ان السيد « ن ـ ون » يلاحظ بحق أن « الافتداء يجبر المنتج على أن يحول الى سلعة نصيبا متعاظما باستمرار من نتاج عمله ، وبالتالي أن يوطد أكثر فأكثر اسس الاقتصاد الراسمالي

ونفهم من هنا السذاجة القصوى للشعبيين الذين يرون في نمو الائتمان العقاري الصغير وسيلة لتوطيد المشاعة ومكافحة الراسمالية وحسب عادتهم ، فان الواسطة التي يوصون بها هي على وجه الدقة الاقدر على التعجيل بانتصار هذا النظام البورجوازي الذي يكرهونه فمن جهة واحدة نجد أن سائر المشاريع التي

---

* اورلوف ، اشكال الملكية الفلاحية في حكومة موسكو .

تسعى الى تحسين وضع المنتج المادي بفتح الاعتمادات هي أبعد ما تكون عن جعل هذا الوضع افضل بل على العكس من ذلك تقوي مركز الاقلية وتزيد مركز الاكثرية سوءا وفيما عدا ذلك فان الاراضي المبتاعة تصبح دائما الملكية الشخصية لمقتنيها وكذلك في غالب الاحيان الاراضي المفتداة ، وعلى الاخص اذا كانت أراضي جيدة

وفي حالة استئجار أراضي الاسياد أو اراضي الدولة يتحول المير كذلك الى جمعية من المستأجرين الشركاء ، الذين يتكافلون ، ويتم توزيع الاراضي المستأجرة وفقا للمبلغ المسدد إلام تصير المشاعة هذه ؟ إلام تصير « الاسس العريقة » ؟

ليس الشعبيون المسالمون وحدهم الذين يتأثرون أمام هذه الوقائع ذات الطابع المشبوه بالأحرى ان في وسع الارهابيين ان يفاخروا أيضا برأفة مماثلة ومثال ذلك ان السيد تيخوميروف ، في الحرب التي يشنها على انصار « حتمية الرأسمالية الروسية » ، يؤكد على أن « مقدار الاراضي التي تخص الفلاحين يزداد ببطء ، لكن دون توقف ويبدو انه يعتبر هذه الواقعة عظيمة المغزى جدا بحيث لا يزينها بأي تعليق وبعد كل ما قلناه عن دور الاقتصاد النقدي في تاريخ انحلال المشاعة، فان لنا الحق في أن نرى في هذه الزيادة للملكية الفلاحية ظرفا ملتبسا جدا على الاقل وان الحقائق لتؤكد بقوة تشككنا

ففي حكومة موسكو نجد ان كمية الاراضي التي ابتاعها الفلاحون زادت خلال اثني عشر عاما من ١٧٦٨٠ فدانا الى ٥٩٧٤١ فدانا » تلك هي في واقع الامر الزيادة « البطيئة لكن دون توقف » التي يتحدث عنها السيد تيخوميروف حسنا ! لكن كيف توزع هذه الاراضي الجديدة بين الفلاحين؟ من أصل الفدادين الـ ٥٩٧٤١ موضع البحث يخص ٣١٨٥٨ فدانا ٦٩ مالكا ، يعني انها تخرج من اطار الاقتصاد الفلاحي ، و ١٠٤٢٨ فدانا هي ملكيات تتجاوز ١٠٠ فدان * » ما معنى هذا النوع من « الملكية العقارية الفلاحية » ؟ أيجب أن نرى فيه البرهان على أن النظام البورجوازي لا يملك أية فرص في روسيا ؟ اذا كان الجواب نعم ، فانه من المناسب أن نطبق على تيخوميروف ما كان برودون يقوله قديما عن آدم سميث انه يرى ولا يفهم ، انه يروي ولا يعرف ما تعنيه قصته

لننته من المشاعة لقد عرضنا أفكارنا عن تاريخها عامة وعن وضعها في بلادنا خاصة ولقد أكدنا أقوالنا بالحقائق وبالامثلة ؛ وكثيرا ما تركنا الشعبيين يتحدثون بدلا عنا وكان لابد أن تظل هذه الدراسة سريعة جدا وسطحية جدا فالامر لا يقتصر على عجزنا عن تعداد جميع الحقائق التي سجلها الاخصائيون من قبل ، بل ان حدود هذا الكتاب ما كانت تسمح لنا حتى بالاشارة الى اتجاهات حالية بالغة الاهمية في الحياة الزراعية يتنافر تطورها مع المبدأ المشاعي ومع ذلك فان في

---

* ف. ف. مصير الرأسمالية ، ص ١٣٦

مقدورنا ان نؤكد بأننا لم نؤكد شيئا في الهواء لقد قدمنا ما يكفي من الامثلة واستخلصنا ما يكفي من الاتجاهات لندعم تأكيداتنا ولا يمكن بعد الآن ان يقوم أي شك جدي ان كل مراقب منزه يدرك أن المشاعة الروسية تجتاز ازمة خطيرة ، وان هذه الازمة تقترب من نهايتها ، وان الشيوعية الزراعية البدائية تتهيأ لاخلاء مكانها للملكية الفردية أو العائلية وان أشكال هذه الملكية لعديدة ففي القرية غالبا ما تختفي تحت غطاء العادات والاعراف الخاصة بالمشاعة ؛ بيد أن الشكل القديم ليس في حالة تمكنه من تغيير المضمون الجديد ، بل لابد له من التكيف معه أو الزوال وان هذه الثورة التي تتحقق بسرعة متعاظمة هذه العملية الانحلالية التي تنتشر كل يوم عرضا و « عمقا فتجتاح مساحات أعظم باستمرار تستتبع تبدلا جذريا في عادات الفلاح وافكاره فبينما يتعزى الثوريون من أصحاب النزعة السلافية بفكرة أن ثلاثة أرباع عمال المصانع عندنا « لا يملكون شيئا من البروليتاري وان «نصفهم لا يشتغلون في المصانع الا بصورة مؤقتة وبمحض الصدفة تقريباً* فان الفلاحين يدركون كل الادراك ان المشاعة لم تعد ما كانت عليه ، وان رباط الارضي بالارض ينحل يوما بعد يوم ان الفلاحين في كتاب السيد زلاتوفراسكي الريف يوما بعد يوم يقولون ان الشباب يرحلون يا صديقي الظريف، يرحلون عن الارض ان المدينة تفسدهم وبالفعل فان المدينة تتغلب على الريف اكثر فأكثر انها تجلب اليه « حضارتها ركضها وراء الربح ، تضادها بين الاغنياء والفقراء ترفع البعض وتحط البعض الآخر خالقة كولاكا « مثقفين وجيشا كاملا من ابناء الهواء لقد اصمت اذنيها عن مناحات شيوخ الريف فهي تنسف دونما رحمة الارض من تحت اقدام مصلحينا والثوريين من النمط القديم الذين استاذن بأن اسميهم فيزيوقراطيين ان هذا الموقف حيال التحول الجذري لاسسنا الفلاحية يميط اللثام عن كل عجز الفلسفة التي نعتها ماركس وانجلز بانها ميتافيزيائية

> ان الاشياء وانعكاساتها الذهنية المفاهيم ، هي معزولة بالنسبة الى الميتافيزيائي، ويجب اعتبارها الواحد تلو الآخر وفي معزل عن بعضها البعض فهي مواضيع للبحث ثابتة ، جامدة معطاة بصورة حاسمة نهائية ان الميتافيزيائي يفكر بنقائض متنافرة بصورة مطلقة به هو نعم نعم لا لا لان كل ما عدا ذلك يأتي من الشرير فالشيء بالنسبة اليه اما أن يكون موجودا واما غير موجود ، ولا يمكن للشيء أن يكون في نفس الوقت ذاته وشيئا آخر**

تلك هي على وجه الدقة فلسفة السيد تيخوميروف ومسيرة فكره ان الشعب بالنسبة اليه فكرة جامدة ثابتة معطاة بصورة حاسمة نهائية ؛

---

* يمكننا ننتظر من الثورة ! ص ٢٢٨ ٢٣٦ من الرسول ، العدد الثاني

** فريدر انجلز ضد دوهرنغ ، منشورات دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ٢٧]

والمشاعة بالنسبة اليه « موجودة او انها غير موجودة وان طبقة فلاحي المير بالنسبة اليه لا يمكن ان تكون في نفس الوقت ذاتها وشيئا آخر في هذه الحالة حاملة النزعة الفردية ، هادمة المشاعة غير الارادية ، لكن الفعالة بصورة لا دواء لها ان السيد تيخوميروف « يفكر بنقائض متنافرة بصورة مطلقة » ؛ انه لا يفهم كيف يمكن الاعتراف بأهمية الرأسمالية وتنظيم العمال في الوقت نفسه من أجل النضال ضدها وكيف يمكن الدفاع عن الجماعية وفي الوقت نفسه اعتبار انحلال احدى التظاهرات الحسية لهذا المبدأ انتصارا للتقدم ان صاحبنا الميتافيزيائي يدعي بوصفه رجلا يمضي حتى آخر المطاف بأفكاره ويعرف كيف يضحي بنفسه ان اولئك الذين يؤمنون بالحتمية التاريخية للرأسمالية الروسية » ما عليهم بعد الآن الا ان يضعوا انفسهم في خدمة « فرسان التراكم البدئي ان حجته تشكل مثالا كلاسيكيا على المحاكمة الميتافيزيائية ان العامل القابل للدكتاتورية الطبقية لا وجود له على وجه التقريب وبالتالي فانه ليس في الامكان تأمين السلطة السياسية له افلن يكون من الافيد حتى درجة كبيرة التخلي لبعض الوقت عن الاشتراكية التي اصبحت كابحا عديم الجدوى ، بل ضار بالنسبةالى النهاية العتيدة والضرورية ؟ ان السيد تيخوميروف لا يفهم ان العامل غير القابل للدكتاتورية الطبقية يمكن ان يصبح قابلا لها اكثر فأكثر كل سنة وكل يوم ، وان تقدم قدراته تتوقف حتى درجة بعيدة على عمل الناس الذين فكوا رموز معنى التطور التاريخي ان خطاب السيد تيخوميروف يعود الى هذه المقالة نعم نعم لا لا لان كل ما عدا ذلك يأتي من الشرير

« ويتراءى لنا هذا الاسلوب في التفكير للوهلة الاولى جدا لانه اسلوب التفكير الخاص بما يسمى الحس العام السليم سوى أن الحس العام السليم هذا الذي يحظى بكل احترام ما دام متربعا ضمن المجال البسيط لجدرانه الاربعة الخاصة يخوض غمار مغامرات مدهشة جدا حالما يجازف بالخروج الى عالم الاستقصاء الرهيب*

ننا نعرف المغامرات المدهشة التي جربها الحس السليم لأسيد تيخوميروف في سياق رحلاته في مجال المقدمات ؛ لقد ضاع فيها جسدا وخيرات على حد سواء ولكن تاريخ هذا الحس السليم هو في آخر تحليل جدلي أيضا انه يكف عن الوجود بينما هو يواصل الحياة في الوقت نفسه ، وبعدما تحطم على صخور المقدمات يبعث الى الحياة مثل روكامبولو ، كيما ينتصب في مجده التام على طريق النتائج الافضل تمهيدا

ندع فرصة الالتقاء مرة أخرى بهذا الرفيق الفرح تفوتنا لكنه لابد لنا ان نتوقف ونذكر بخط السير الذي جعلنا السيد تيخوميروف نسير عليه

---

* [المصدر نفسه ، ص ٢٨]

٦

الملكيــة الصغيرة

رأينا ان الانتاج الرأسمالي الكبير هو في سبيله الى التطور دون توقف في ميدان الصناعة التحويلية ؛ وانه يطرد أكثر فأكثر وتحت تصرفه فضائل الرأسمال وقوة الآلات الحديثة ، المنتجين الصغار من مراكزهم وينتصر عليهم ويستعبدهم. ولقد قلنا بعدئذ ان هناك سوقا داخلية جاهزة هي كليا في خدمة الانتاج الكبير وان المنافذ الى السوق العالمية بعيدة عن كونها مسدودة جميعا في وجه هذا الانتاج. ولقد استنتجنا من ذلك ان الرأسمالية ، في هذا المجال ، لا تملك المستقبل القريب فحسب بل الحاضر نفسه ايضا ومع ذلك فقد اعدنا الى الاذهان ان الشعبيين يرون في المشاعة سدا لا يمكن تجاوزه يعترض سبيل الرأسمالية في بلادنا حيث النصيب الاكبر من العمل الوطني تستغرقه الزراعة بعد وهكذا فقد عنينا بالمشاعة، ودرسنا وضعها الراهن ولقد قادتنا هذه الدراسة الى الاستنتاج بأن المشاعة تتداعى تحت وطأة الضرائب ، انها تنحل تحت تأثير الاقتصاد النقدي والتفاوت الذي يبرز الى الوجود فيها ؛ ولقد رأينا انها تتحول في مواضع عديدة وهي أبعد ما تكون عن البقاء وفية لرسالتها البدائية ــ الحفاظ على مصلحة اعضائها دونما تمييز والدفاع عنها ــ الى مساعة للكولاك الذين سيكون خرابهم ربحا تاما للمملقين الذين يرهقونهم. ولم نكتف بهذه النتيجة ، بل حاولنا أن نحدد الدور الذي يمكن أن تلعبه الاصلاحات التي يضع فيها آمالا كثيرة أصحابنا المتحمسون للشعب ولقد اقتنعنا بأن هذه الاصلاحات لن تفعل سوى التعجيل بالانحلال الذي بدىء مسبقا ، وأن المشاعة لن تستطيع في حال من الاحوال أن تقف حجر عثرة في سبيل شروط الانتاج التي سبق فوجهت اليها طعنات عضالة

ولننقل الآن كلمتين عن الملكية الفلاحية الصغيرة وبذلك يكون لنا الحق في استخلاص نتائج نهائية في مسألة الرأسمالية

نخطىء خطأ فاحشا اذا تصورنا أن ما يسمى « تصفية الزراعة الكبيرة سوف ينقذنا من الرأسمالية فقبل كل شيء قد لا تكون هذه التصفية الا مؤقتة ظاهرة انتقالية محضة وفضلا عن ذلك فان الزراعة الصغيرة بالذات تتجه نحو اتخاذ طابع بورجوازي . ان المزاحمة الاميركية التي يطأطىء أمامها ملاكونا العقاريون الكبار رؤوسهم سوف تدمغ بخاتمها الفلاح أيضا وبقدر ما يكتسب انتاج الحبوب عندنا طابعا سلعيا ، فان المزارع يخضع لقوانين الانتاج السلعي التي لا ترحم وان هذه القوانين التي لاترحم

تؤدي الى هذه النتيجة ان الانتاج السلعي يؤول ، في مرحلة معينة من تطوره الى استثمار المنتج ويخلق المعلم الراسمالي والعامل البروليتاري وهكذا فان مسألة « الزراعة الصغيرة او الكبيرة ترجع بالنسبة الى روسيا الى هذه المتناوبة البسيطة انتصار البورجوازية الصغيرة أو الكبيرة وعندئذ لن يقتصر الامر على ان الاسس العتيقة للاقتصاد الفلاحي لن توطد من جراء « تصفية الملكية الكبيرة بل على النقيض من ذلك سوف تعاني اكثر من ذي قبل من جراء انتقال جميع تناقضات الانتاج السلعي الى الريف ولسوف تنشطر الطبقة الفلاحية بمزيد من السرعة ايضا الى معسكرين متعارضين اقلية من المستغلين واكثرية من الشغيلة

٧ ـ نتائج

يمكننا دون تردد بعدما سبق قوله أن نستبدل السؤال عن معرفة ما اذا كانت روسيا ستجتاز مدرسة الراسمالية بسؤال جديد : لماذا لا تواصل روسيا حتى النهاية المدرسة **التي دخلتها منذ الآن** ؟

ان جميع التيارات الجديدة ـ وبالتالي الاكثر فاعلية ، لحياتنا الاجتماعية ، وجميع الحقائق الابرز في مجال الانتاج والمبادلة ، تملك معنى لا سبيل الى الشك فيه او مناقشته انها لا تشق الطريق أمام الراسمالية فحسب ، بل هي عوامل ضرورية واساسية من اجل تطورها ان **الرأسمالية تملك الى جانبها** حركة حياتنا الاجتماعية بأكملها ، جميع القوى التي ينميها عمل الآليات الاجتماعية والتي تحدد بدورها منحى هذه الحركة وسرعتها **ولا يقف في وجه الرأسمالية الا** المصلحة المشكوك فيها اكثر او اقل لقسم من طبقة الفلاحين ، وتلك القوة من العطالة التي تتظاهر بصورة بالغة القسوة احيانا عند العناصر الاكثر تطورا في بلد زراعي متخلف بيد أن الفلاحين لا يملكون القوة من أجل الدفاع عن مصلحتهم الحقيقية ، وليست لهم مصلحة في اغلب الاحيان في الحفاظ على المبادىء القديمة لحياتهم الاجتماعيه ان السيل الرئيسي للراسمالية الروسية لم يبلغ بعد حجما هائلا ؛ فليس في روسيا بعد الا مواضع قليلة حيث علاقة المخدوم والمستخدم تقابل كليا الصورة المألوفة للعلاقات القائمة بين الراسمال والعمل في المجتمع الراسمالي بيد ان هذا السيل يتضخم من كل حدب وصوب بعدد كبير من السواقي والمجاري والانهار بحيث أن الحجم الكلي للمياه المتدفقة فيه هائل وبحيث لا يمكننا ان نرتاب في سرعة التيار أو عنفوانه لم يعد في الامكان ايقافه ، واقل من ذلك تجفيفه ؛ كل ما تبقى امامنا هو تنظيم مجراه اذا كنا لا نريده ان يجلب علينا الكوارث فحسب . اذا كنا لا نخلى

عن الامل في ترويض هذه القوة الطبيعية ، جزئيا على الاقل ، بفضل عمل الانسان العقلاني

ما الذي يجب علينا أن نفعله اذن ، نحن الاشتراكيين الروس ، المعتادين على التفكير بأن التاريخ قد منح بلادنا لا ادري اية وثيقة من النوعية لقاء لا ادري اية فضائل ؟

ان الجواب سهل

ان قوانين التطور الاجتماعي تفعل ، عندما لا نفهمها بالقوة التي لا تقاوم وبالقسوة العمياء اللتين تتميز بهما قوانين الطبيعة لكن معرفة قانون ما من قوانين الطبيعة او المجتمع يعني قبل كل شيء التوصل الى الوسيلة من اجل تفادي الصدام معه ، وبالتالي تفادي تبذير القوى ؛ وفيما عدا ذلك فانه يعني التمكن من تنظيم تطبيقه بحيث يمكن الحصول على فائدة منه وان هذه الفكرة العامة تنطبق تماما على الحالة الخصوصية التي تهمنا ان من واجبنا في مصلحة الثورة ومصلحة السكان الكادحين ان نستفيد من الانقلاب الاجتماعي والاقتصادي الذي هو في سبيله الى الاكتمال في روسيا ولا يجوز لنا ان نضيع هذه الميزة الاساسية ان الحركة الاشتراكية قد بدات في بلادنا في عصر قد ولدت الراسمالية لتوها فيه ان اصحابنا سلافيي النزعة وثوريينا من اصحاب النزعة السلافية لم يخترعوا هذه الخاصية للتاريخ الروسي . انها تشكل حقيقة لا جدال فيها ، معروفة من جميع الناس ، وقمينة بأن تثبت منفعتها العظيمة لقضية طبقتنا العاملة . بشرط الا يصرف الاشتراكيون الروس طاقتهم الفكرية والمعنوية في تشييد قصور لهم في اسبانيا بأسلوب القرن الحادي عشر الروسي

* * *

الفصل الرابع

الرأسمالية ومهمات الاشتراكيين الروس

١ - طابع الثورة القادمة

ان نهاية الفصل السابق تتطلب بعض الايضاحات ان الافكار الاكثر بينة تفسح المجال لتفسيرات خاطئة حالما تستخدم للدفاع عن برنامج » ما ويجب علينا أن نضع النقاط على الحروف ذلك أن خصومنا ، اذا لم يشاهدوا هذه النقط قد يخلطون بين الحروف وانه لمن الافضل دائما للانسان أن يستخلص بنفسه النتائج من مقدماته بالاحرى من أن يترك هذا الامر لرغبة الغير وفيما عدا ذلك فقد ردت هذه المسائل البرنامجية باستمرار الى القضية الوحيدة «للنوعية» بحيث لن نضيع وقتنا اذا درسناها من وجهة نظر يتضح منها أن **النوعية** هي نزعة سلافية خالصة سواء من جانب خادم متواضع ومطيع » أم من جانب ثائر انتقل الى معسكر الثورة سواء أكانت وجهة النظر هذه صالحة أم لا ، وسواء أكان اولئك الذين يعتنقونها على حق أم لا فان حقيقة هي مؤكدة في جميع الاحوال ليس في الامكان اتهام المدافعين عنها بأنهم يجترون نظريات مضجرة »

ما الذي يجب أن يفعله اذن ذلك القسم من اشتراكيينا الذين يؤمنون بحتمية الرأسمالية ؟ ما هي الميزة الفعلية التي يمكن استخلاصها من أجل قضية الطبقة العاملة من حقيقة أن أوائل الحركة الاشتراكية قد تطابقت على وجه التقريب. في بلادنا مع نهاية النظام الاقتصادي القديم الطيب للايام الغابرة ؟ ان علينا أن نجيب عن السؤالين معا ، ولن ننسى أن نفعل ذلك لكن الكلام في هذه اللحظة ليس لنا بل هو باق كما تتذكرون للسيد تيخوميروف وان له الحق في الاستفادة من هذه الفرصة وفقا لجميع القوانين الإلهية والبشرية

لقد تعرفنا سريعا - وبفائدة كبيرة - الى المبادىء العامة لنظرياته ، في فلسفة التاريخ وفي السياسة الاجتماعية على حد سواء لقد استعرض السيد تيخوميروف نظارنا في سبيل تنوير أولئك الذين لا يفهمون وتسويس أولئك الذين ن . التاريخ القديم الطيب بطرقه العجيبة : أوروبا الغربيه المرفهة

برأسماليتها وامنا الصغيرةروسيا ، واخيرا خلودها الصيني ومشاعتها الزراعية ولقد أوضح لنا الماضي وأنار المستقبل لكن أيمكننا أن نكتفي بذلك ؟ هل سنتخلى عن القاء نظرة خاطفة على المستقبل ؟

ما الذي يخبئه هذا المستقبل لروسيا ؟

قبل كل شيء ، فيما يبدو لنا ، انتصار البورجوازية وبداية تحرر اقتصادي وسياسي للطبقة العاملة ان هذه الامكانية قد بدت لنا أكثر ترجيحا من غيرها بفعل سلسلة طويلة من الوقائع فبعدمادرسنا الوضع الراهن لاقتصادنا توصلنا الى القناعة بأن أي اصلاح لن يستطيع انقاذ أسسه العتيقة ، لكننا قمنا بهذه المحاكمة ناسين أن « تاريخ الانسانية يسلك أحيانا طرقا ليس أعجب منها » وأن السيد تيخوميروف ، الذي يحتفظ محفورا في ذاكرته بهذا المبدأ الاساسي لفلسفة التاريخ عنده ، لا يتأثر البتة ، هو ، بالاشياء التي تبعث على العجب في اللوحة التي يكشفها لنا على هوى نزهاته في المستقبل فلنتبعه اذن ولنر ما اذا كانت ثورة ارادة الشعب ستثبت أنها أكثر فاعلية من الاصلاحات الشعبية

ان خبرا طيبا جدا ينتظرنا منذ خطواتنا الاولى على هذه الدرب ان روسيا فيعشية ثورة ؛ اننا نمضي الى الكارثة وصحيح أن المرء يحس بفرحة عميقه، وفي الوقت نفسه بقشعريره غير اراديه حين يعمد السيد تيخوميروف الى رسم هذه اللوحة لنا وهي المخوفة بحد ذاتها بما فيه الكفاية من قبل في الاسلوب الرفيع للاب درجافين حين تسعى الحكومة الى كبح الحركة الثورية لا تفعل الا التعجيل باللحظة الرهيبة والمهيبة التي سترتمي روسيا فيها بكل قواها [ ] في مرحلة الانهيارات الثورية مثل تلاطم أمواج البحر وهكذا دواليك انه يكتب جيدا ، السيد تيخوميروف لكن المرء يحيا ،و اسفاه ، بالحساء الجيد وليس باللغة الجميلة أن مرحله الانهيارات الثوريه سوف تكون بصورة لا تقبل الجدال ، مرحلة من الهناءة في تاريخ بلادنا ؛ واننا لنود على أية حال أن نعرف ما يمكن أن تحمله الثورة الى روسيا ، ما ينتظرنا خلف اللغز حيث تتدفق وتزبد أمواج سيل التاريخ

« بداية تنظيم اشتراكي » ، هذا ما يجيب به السيد تيخوميروف ، على الرغم من رأي « الفئة » التي تتصور أن « مملكة الرأسمالية » تنتظرنا

لشد ما هي مغلقة دروب القدر ولشد ما هو عجيب هذا التاريخ القديم الطيب لقد تنزه « بالغرب من محن الى محن ، دون أن يغنيه بعد عن الانتاج الرأسمالي ؛ ونحن الذين تركنا بهدوء تام في نفس المقعد طوال قرون ، أفلا ينبغي أن ننقل بصوره مباغتة الى المرحلة العليا في مدرسته ؟ بأية فضائل استأهلنا ذلك ؟ لاننا بقينا هادئين طوال هذا الزمن دون أن نلاحقه بهذه الاسئلة المتطفلة التي برع فيها الغرب « الثرثار .

وعلى أي حال فهؤلاء نحن قد بدأنا نستفرق ايضا في هذه الحرية اللغوية المحرمة ، وهو تشكك في غير مكانه بقدر ما يحب التاريخ ان يسلك احيانا الدروب التي ليس اعجب منها ، مثلما كان خليستاكوف* يحب من حين لآخر أن يقرأ شيئا طريفا Credo quia absurdum**

ولكن مهما اعتبرنا النزوات الاعجب لهذا الشطط القديم محتملة جدا ، فليسمح لنا بسؤال مع ذلك ما هي الوسائل التي تحت تصرفنا من اجل انجاز الوعود التي يقدمها السيد تيخوميروف باسمه ؟ وما هي البلاد التي تمر بها الدرب المؤدية بنا الى بداية التنظيم الاشتراكي هذه ؟

كيف يجيب مؤلفنا عن هذا السؤال ؟ ماذا تقول لنا **الرسول** التي يراس تحريرها ؟

انه ليرجى من القارىء الا ينسى مطلقا ان برنامج هذه المجلة « يتناول افكارا متنافرة ضمن بعض الحدود » وان كلا من هذه الافكار تدافع عن وجودها ، وقد يحدث لها ، في الجهد الذي تبذله كي تعيش وتتطور ، ان تسبب أذى لنقيضتها ؛ ومن هنا كانت التناقضات واستحالة تكوين فكرة واضحة عن برنامج المجلة ومع ذلك فان حقيقة ناصعة تفرض علينا نفسها فحين يفسح المنفرد المكان أمام الثنائي وحين ينضم صوت بيوتر لافروف الشهير الى صوت السيد تيخوميروف فان هذا الاخير لا يعتبر نفسه مرتبطا بما يعلنه شريكه في رئاسة التحرير ، ولا حتى بكتاباته الخاصة ومثال ذلك ان حزب « ارادة الشعب » في راي السيد لافروف « يوجه **كل جهده***** [التأكيد من طرفنا] ضد العدو الرئيسي الذي يمنع كل شروع في حل عقلاني للقضية »(٦٧) ، وهي القضية التي يطرحها احد اعضاء فريقنا بالعبارات التالية**** « مساعدة الطبقة العاملة عندنا على التحول الى قوة اجتماعية واعية ، على ملء فجوات تجربتها التاريخية حتى درجة ما والنضال الى جانبها في سبيل تحرير جميع السكان الكادحين في روسيا واذا كان الواقع يتطابق جيدا مع ما يؤكده المؤلف الشهير **للرسائل التاريخية** ، فان القضية الحقيقية المطروحة على « ارادة الشعب هي مجرد تعبيد الطريق أمام الاشتراكية الديموقراطية الروسية للمستقبل ان دور الحزب يتبين بصورة اجمالية سلبيا خالصا انه لا يهيء عناصر من اجل تنظيم حزب عمالي روسي مقبل ؛ انه « **يوجه كل جهده ضد العدو الرئيسي** » الذي لا يمنع حل القضية فحسب ، بل يمنع كل شروع في هذا الحل

---

* [بطل مسرحية غوغول **المفتش العام**]

** [اصدق ذلك لانه غير معقول (تيرتوليان)]

*** راجع **الرسول** ، العدد الثاني ، القسم الثاني ، ص ٦٧

**** [فيرا زاسوليتش] في مقدمتها لترجمة كراسة انجلز **الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية** .

من هو العدو الذي يفكر السيد لافروف فيه ؟ ان الجميع يوافقونه على انه لا يمكن ان يكون اليوم سوى عدو واحـد الحكم المطلق الـذي يغل جميع القوى الحيـة لروسيا ؛ ولابد لاعضاء « ارادة الشعب » أن يوافقوا على ذلك أكثر من سواهم ، هم الذين كثيرا ما عبروا في الصحافة عن الفكرة بأن النظام السياسي في بلادنا لايستند عى نظام اقتصادي معين بل ان هذا النظام على العكس من ذلك يدين بوجوده للحكم المطلق واذا كان الامر كذلك ، فان ارادة الشعب لا تهاجم حقا وفعلا الا تحرر بلادنا السياسي ، وبطبيعة الحال فان « بداية التنظيم الاشتراكي لروسيا » يبعد الى العصر الذي سكون الطبقة العاملة فيه قد اصبحت أخيرا قوة اجتماعيـة واعية وبعبـارة اخرى فان ارادة الشعب هي قبـل كل شيء وبصورة رئيسية ، بل على وجه الحصر ، حزب دستوري ، طالما انها « توجه كل جهدها » نحو قلب الحكم المطلق أيكون الامر كذلك ؛ لعل « ارادة الشعب » لا تبرهن على افتتان بالدستور » على هذا القدر من القوة ؟ لكن كيف يمكننا أن نفهم اذن نشاطا مقصورا على النضال ضد الحكم المطلق بهدف « الانجاز الممكن لرسالة اشتراكية ديموقراطية في المستقبل ؟ وبالفعل فان مؤلفين عديدين من « ارادة الشعب » لايبدون حماسـة على الاطلاق لكلمـة « دستور » ويؤكدون أن حزبهـم يطالب بالادارة الشعبية وصحيح ان الفارق بين « الادارة الشعبية » و الدستور الديموقراطي» هو من مرتبة الفارق بين « اللحم المشوي » و « البفتيك ، اذ يستقيم بكل بساطة في استبدال لفظة محلية بكلمة معترف بها دوليا وفيما عدا ذلك فان الديموقراطية، أو الادارة الشعبية اذا شئتم ، تفترض في كل مجتمع متحضرا حدا أدنى من تهيئة الشعب السياسية ، اللهم الا اذا كانت الادارة الشعبية لا تعني الا حكم قبضة من الناس يقامرون على ارادة الشعب فالدستور الديموقراطي لن يكون اذن ، في اللحظة الراهنة هدفا قريبا حتى هذه الدرجة ، ولن يكون في الامكان التوصل اليه الا بتجميع طبقة المنتجين في حزب ديموقراطي مستقل ولكن العدو الرئيسي » في روسيا يمنع حتى « كل شروع في حل عقلاني لقضايا الطبقة العاملة السياسية والاجتماعية اذن ليسقط « العدو » وعاش « الافتتان » بالحرية الديموقراطية ، وبالتالي الدستور أيضا ! ان عمل « ارادة الشعب » يتخذ معنى واضحا متميزا

هذه النتائج المنطقية هي ما نتوصل اليه على الاقل عندما نقرأ المذكرةالفهرسية لبيوتر لافروف حيث الاشياء جميعا واضحة ، وان لم تكن في ذوق القارىء دائما . ومن سوء الحظ أن المذكرات الفهرسية لا تكفي من أجل تحديد دقيق لاتجاه مجلة « اجتماعية وسياسية » ، ونحن لم نشر الى مذكرة السيد لافروف الا لانها تتضمن جوابا مباشرا الى فريقنا وأمـا المقالات الاساسـية والمواقف التي تلزم بصورة شخصية ادارة الرسول ، فان المرء لا يتوصل مطلقا الى استخلاص اتجاه المجلـة الحقيقي منها . خذوا الاعـلان واقراوا فيه الفقرة المتعلقة بوسائط تحقيق الاهداف

العامة للاشتراكية انكم لتحسبون انكم تتعاملون مع اشتراكيين ديموقراطيين « مقتنعين ان السادة المحررين يقولون « ان هذه الغايات المشتركة بين جميع الاشتراكيين لا يمكن بلوغها **الا بطريق وحيدة** [ايها القارىء ، افتح عينيك !] ان من واجب الطبقة العاملة (في المدينة وفي الريف) ان **تتكتل شيئا فشيئا وان تتنظم في قوة** اجتماعية موحدة بجماعية المصالح والطموحات نحو هدف مشترك ؛ وبقدر ما يتعاظم تماسك هذه القوة فان من واجبها ان **تدمر شيئا فشيئا** النظام السياسي والاقتصادي القائم ، موطدة تنظيمها بالقتال ومتزايدة قوة حتى تتوصل الى الاطاحة بهذا النظام القائم بصورة جازمة وان مؤلفي **الاعلان** ليضيفون ايضا أن « الاشتراكيين الثوريين **في سائر البلدان** يتفقون على الاعتراف بضرورة هذه الطريق».

وهكذا فان في مقدورنا أن نحسب أن الاشتراكية الروسية كما يتم التعبير عنها في حزب « ارادة الشعب » ليست بأكثر أو أقل من اشتراكية ديموقراطية روسية».

ويبدو أن **الاعلان** يفسر رسالة هذا الحزب بوضوح أعظم من المذكرة الفهرسية للسيد لافروف ويقترب أكثر من هذه المذكرة أيضا من آراء « الاشتراكيين الحكماء لجميع البلدان المتحضرة وعلى أي حال فمن المعروف أن للروس في الغالب وزنين ومقياسين من أجل الحكم على الظواهر الاجتماعية مقياس من أجل الغرب وآخر للاستعمال الداخلي فهم دون أن يرفضوا قط الانضمام الى الافكار الاكثر تقدما في أوروبا يتدبرون أمرهم كي يضيفوا للعقيدة الانسانية التي يجهرون بها « لكن مثقلة بالمعنى جدا بحيث أن المثل الاعلى العزيز جدا على قلوبهم يصبح ضائع المعالم كليا ومن المفروغ منه أن **الاعلان** لم يستطع الاستغناء عن « لكن » هذه ؛ واننا لندرك كذلك انه لا يمكن اصدار أي حكم نهائي على برنامج **الرسول** طالما أنها لم تنه انقلابها العسير من الغرب الى الشرق فلننظر اذن الى **الرسول** في هذا المزلق ولننظر اليها بانتباه ذلك أن مؤلفيها روس ومن الارجح أنه ليس ثمة شيء روسي غريبا عنهم

اننا نقرأ في نفس الصفحة من **الاعلان**

« لكن برنامج الاشتراكية الروسية لا يستطيع في الوقت **الراهن** وفي الشروط **الحالية** ان يقتصر على هذه الطموحات المشتركة للاشتراكية ان هذه القضايا نفسها قد طرحها التاريخ اليوم على كل فريق اجتماعي في شكل ما ، وفقا للشروط الاقتصادية والقانونية والثقافية للبيئة المحيطة ان « حزب ارادة الشعب » على قناعة بأن القضايا المشار اليها تطرح نفسها على رعايا الامبراطورية في شكل **تعديل ضروري لنظام روسيا السياسي** بهدف اتاحة الفرصة في وقت لاحق لتطور طبيعي لجميع الاحزاب التقدمية ، **وبصورة خاصة** [التأكيد من جانبنا] الحزب الاشتراكي وهكذا ، « بصورة موازية للاهداف الاشتراكية التي تشكل الجزء الاساسي من برنامج الحزب الاشتراكي الروسي، يتخذ هذا البرنامج هدفا مباشرا أن يهيىء تعديل نظام روسيا السياسي ويعجل به . »

لابد من الاعتراف بأن «لكن » الاولى هـذه ، المصاحبـة لعرض « الاهـداف الاشتراكية المشتركة للحزب الاشتراكي الروسي ، ليست واضحة ومتميزة على الاطلاق : معادلة حقيقية ذات عدة مجاهيل ! ويحتار القارىء ما الذي يفهمه المحررون من تعديل نظام روسيا السياسي ؟ أيكون المقصود « الادارة الشعبية » التي أشار اليها السيدان تيخوميروف و ك. ت. »(٦٨) ، أو هزيمة « العدو الرئيسي » يعني الاطاحة بالحكم المطلق ؟ ولماذا تمثل هذه « المهمة الرئيسية » **بصورة موازية للاهداف** السياسية المشتركة بدلا من أن تترتب عليها بطريق الاستقراء المنطقي ؟ لابد لنا من الاقتصار على الفرضيات ؛ وان معظم الفرضيات التي سنطرحها سوف تكون محتملة، ولن تفلت أي منها من المناقشة ان هيئة تحرير المجلة تعلن ، بالفعل ، أن « التعديل» الذي تتمناه يجب أن « يتيح في وقت لاحق تطورا طبيعيا لجميع الاحزاب التقدمية ، وبصورة خاصة الحزب الاشتراكي ما هي هذه « الاحزاب التقدمية **الاخرى ؟** الاحزاب البورجوازية من دون ريب لكن التطور الطبيعي للاحزاب البورجوازية في الميدان السياسي لا يمكن ادراكه دون التطور الطبيعي » الذي يوافقه في المجـال الاقتصادي أيكون تطور البورجوازية تقدما بالنسبة الى روسيا اذن ؟ هذا ما يبدو انه يتضح فعلا من النص وفيما يتعلق بنا فاننا نقبل الانضمام الى هذا الراي ، ليس دون تحفظات على اية حال وهي تحفظات اساسية جدا لكن الامر لا يتعلق بنا ، بل يتعلق بأحد مؤلفي **البيان** ، بالسيد تيخوميروف الذي يوصي قراءه ، كما هو معروف من قبل بألا يجعلوا من راسمال المبادرة الشخصية إلها وحين فسر لنا ما « سوف ينجح رأسمال من هذا النوع في صنعه من أجل روسيا فانه لابد لنا من الاعتراف بأن « التطور الطبيعي للاحزاب البورجوازية سوف ينتهي بالنسبة اليها بخسارة جافة. وعلى أي حال فان **البيان** لايتوانى عن الاعلان بأن الحزب الاشتراكي (وكذلك جميع الاحزاب هذا ما سوف نشير اليه بصورة عابرة) يعتبر نفسه مثلا للتقدم الممكن الوحيد » اذن فلن تكون هناك أحزاب تقدمية أخرى ، لكن لماذا الاشارة اذن الى « تطورها الطبيعي

اذا كان «تعديل نظام روسيا السياسي لابد أن يتم كما يعتقـد الحزب الاشتراكي الروسي ، في مصلحة الاحزاب التقدمية وكان لا يوجد حزب تقدمي آخر سوى الحزب الاشتراكي فان « التعديل » موضوع البحث سوف يتحقق في مصلحة هذا الحزب على وجه الحصر وبكلام آخر فان الثورة القادمة يجب ان تؤول على الاقل الى انتصار الادارة الشعبية يعني الى الهيمنة السياسية للطبقة العاملة في المدينة والريف بيد أن الاشتراكيين الثوريين في جميع البلدان » يتفقون على الاعتراف بأن الطبقة العاملة غير قادرة الا شيئا فشيئا » على « تدمير النظام **السياسي و** الاقتصادي » ، وبالتالي التعجيل – « شيئا فشيئا » على الدوام – بساعة هيمنتها ومهما تكن من أمر ففي رأي محرري هـذا النص أن

« الاشتراكيين الثوريين في جميع البلدان » سيوافقون على انه لا يمكن بلوغ الثورة الاشتراكية « الا بطريق وحيدة » ، وهي الطريق التي تستقيم في تجميع الطبقةالعاملة وتنظيمها « في قوة اجتماعية » ، الخ اتجعل رسول ارادة الشعب من هذا التجمع القضية الرئيسية للاشتراكيين الروس ؟ ومع ذلك فاننا نعرف انه يوجد في روسيا اليوم في رأي السيد لافروف عدو رئيسي يمنع كل شروع في حل عقلاني للقضية ولكنه طالما ان هذه القضية لم تحل فان الثورة الاشتراكيةتظلمستحيلة. ومستحيلة ايضا الادارة الشعبية أفليست الاحتمالات اذن هي ما تقصده هيئة التحرير حين تتحدث عن « تعديل نظام روسيا السياسي ؟ لكن ما الذي تعنيه من هذه الصيغة السرية ؟ أفلا يكون ذلك الدستور الذي يثير افتتاننا « غير مفهوم حتى درجة ما » عند السيد تيخوميروف ؟ وما هي الاحزاب التقدمية التي « سوف تسمح لها ارادة الشعب » في وقت لاحق بتطور طبيعي ؟ افلا يكون ذلك لحزب « راسمال المبادرة الخاصة » ؟

لشد ما كانت جميع الامور واضحة « في الغرب ولشد ما غمضت جميع الامور في الشرق وفكروا في ان السبب في هذا الكسوف هي « لكن » تلك التي تزخرف لوحة « الاهداف المشتركة للاشتراكية اية فضيلة سرية يمكن ان يكشف عنها هذا المقطع الواحد ؟ ؟

ليس الامر بالغ التعقيد

عند هذه النقطة من العرض تبدأ العملية التي ستجعل العناصر المركبة لبرنامج الرسول « حتى درجة ما [بل حتى درجة كبيرة جدا] متنافرة » . ان الشرق يشن القتال ضد الغرب حالما ينتهي عرض « الاهداف المشتركة للاشتراكية »والطريق الوحيدة التي تقود اليها ان هذا النزاع ، المقنع بادىء الامر يبلغ ذروته في « ماذا ســـ ع أن ننتظر من الثورة ؟ ان الغرب عرضة للريبة والاشارة اليه تلهم الى السيد تيخوميروف اعتبارات طويلة « مجازفة بصورة مقبولة عن طرق التاريخ المحفوفة بالمخاطر و العجيبة » بحيث أن الطريق الوحيدة التي يدلنا عليها من أجل بلوغ النصرتتحولالى طبعة جديدة مصفحة عن برنامج الناقوس الراحلة وقد اضيفت اليها الرسوم التزيينية التي ندين بها لنوعية السيد تيخوميروف . انالاشياء جميعا تتغير والاشياء جميعا تصبح ضائعة المعالم والاشياء جميعا تتحول الى نقائضها حالما نجتاز « لكن الصغيرة التي تفصل الغرب عن الشرق في تفكير المحررين، أو بصورة أدق الافكار التي يتقاسمونها عن الافكار التي تشكل الحصة الخاصةبالسيد تيخوميروف وان الاستحالة لتكتمل بفضل « لكنات جديدة مقتنصة من مقالات بيوتر تكاتشوف ان حجة قليلة الاقناع في فم رئيس تحرير الناقوس لا تصبح مقنعة بالتأكيد في رسول ارادة الشعب . لكنه يسعدنا جدا أن نلتقي بالاصدقاء القدماء بحيث لا نقاوم اغراء التوقف قليلا عند محاكمة السيد تيخوميروف .

ان السيد تيخوميروف ، بوصفه تلميذا صالحا لبلانكي ، او بصورة ادق لتكاتشوف ينصرف بادىء الامر قبل ان ينتقل الى بحث المسائل الثورية ، الى احلال ارادته الخاصة محل التطور التاريخي الى الاستعاضة عن مبادرة **طبقة** بمبادرة **لجنة** ، الى تحويل ما يجب أن يكون عمل جميع السكان الكادحين في البلاد الى عمل جمعية سرية وانه لمن الصعب تحقيق هذه الالاعيب السحرية تحت انظار جمهور تأثر اكثر او اقل بدعاية الاشتراكية الحديثة ، حتى وان يكن مقتنعا نصف اقتناع بأن تحرر العمال يجب ان يكون من صنع العمال انفسهم ولذا فان مؤلفنا يستبسل في البرهان على أن قضية اللجنة التنفيذية سوف تكون قضية الشعب بأسره وليس بمعنى **المصلحة** وحدها بل كذلك بمعنى **الارادة والوعي** واما اضطر الى الاعتراف بأن **التطور التاريخي** لم يساعد مطلقا حتى الوقت الراهن في تكوين وعي اشتراكي واتجاهات **ثورية** (ولا اقول **فتنية**) عند الشعب الروسي، فانه يبذل مزيدا من الحمية ليحملنا على القبول بمتانة وثبات **الاشكال قبل التاريخية** للحياة والذهنية الروسيتين

ان الثورة الاقتصادية التي يقترب الغرب منها بعدما اجتاز دربا طويلة وشاقة سوف تكون على العكس من ذلك في متناول يدنا بفضل ركودتنا العريقة في القدم لكنه لما كانت بعض الصبغة التاريخية يمكن ان تشكك في هذا الغرب فانه يبين من جديد لقارىء ان طرق التاريخ المذكور قد كانت في بعض الاحيان شديدة الالتواء ، واشد خطرا من جميع الطرق التي يمكن تصورها ان اصالة مخطط التطور الاجتماعي الروسي هذا المخطط العزيز جدا على قلوب اصحابنا الباكونينيين .تصبح على هذا الفرار نوعا من الضمانة لاحتماله وان الاسلوب نفسه يتيح التملص من ضرورة اسباغ **طابع طبقي** على النضال في سبيل تحرير العمال الاقتصادي

ان النقيضة روسيا ــ الغرب تثير هنا ايضا جميع المصاعب ان في الغرب طبقات محددة بكل وضوح من وجهة النظر الاقتصادية وقوية متماسكة من وجهة النظر السياسية وانالدولة فيه تشكل نتيجة صراع طبقي وسلاح هذا الصراع في يد المنتصر ؛ ولذا فان الاسيلاء على السلطة غير ممكن الا بمعارضة طبقة بطبقة اخرى، الا بتحقيق النصر على المنتصر وليس الامر كذلك عندنا ان العلاقة بين المجتمع والدولة عكسية عندنا وليس الصراع الطبقي هو الذي يحدد النظام السياسي عندنا ، بل على النقيض من ذلك فالنظام السياسي هو الذي يولد الطبقات وصراعاتها وتضاداتها واذا ما قررت الدولة أن تغير سياستها فان الطبقات العليا سوف يحكم عليها بالموت وقد حرمت من سندها وسوف يتاح عندئذ تطور طبيعي للمبدأ الشعبي الخاص بالجماعة البدائية لكن حكومة رومانوف لا تريد ولا تستطيع ان تتخلى عن تقاليدها النبالية والبورجوازية ، فيما ستطيع نحن ونريد أن نفعل ذلك ، نحن الذين يلهمنا مثل أعلى عن المساواة

الاقتصادية و الادارة الشعبية اذن فليسقط آل رومانوف وعاشت **لجنتنا !**
ذلك هو المخطط الذي لا تتغير لمحاكمة اليعقوبية الروسية سواء قرأناها في الاصل.
يعني في الرسالة الى فريدريك انجلز أم في النسخة عنه **يعني في** «ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟

ولقد قلنا من قبل ان المعطيات الاساسية لبرنامج تكاتشوف مستقاة من المصدر الذي استقى منه الفوضويون الروس حكمتهم السياسية انها نظريات باكونين التي تعتمد الفئتان عليها لكننا نعلم ان نفوذ باكونين لا يتوقف هنا لقد كان له تلامذة في الغرب أيضا في البلدان التي كان يعارض بها روسيا بكل طيبة خاطر وانه جدير بالملاحظة أن التلامذة الغربيين لمؤلف **الدولتية والفوضى** يعزون الى الدولة ، في تاريخ العلاقات بين الطبقات « الغربية ، الدور الحاسم الذي نسبه اليها السيدان تكاتشوف وتيخوميروف في روسيا وحدها بخلاف البلدان الاخرى

« الغوا الدكتاتورية الحكومية ، ولن يتواجه اذن الا بشر متساوون . الا قوى اقتصادية سوف يحقق توازنها في الحال بفعل قانون احصائي بسيط فالدولة والدولة وحدها ، هي التي تصنع ضعفكم وبؤسكم ، مثلما تصنع قوة الآخرين وسفههم

هكذا يتوجه آرثر ارنو* الى العمال الفرنسيين وبالمناسبة فان الفوضويين في الغرب يفكرون بجرأة وعنفوان أعظم من الباكونينيين والتكاتشوفيين انهم يرجعون الى الصفر في تاريخ جميع البلدان دون استثناء قيمة هذا العامل الاقتصادي الذي يحكم عليه « شركاؤهم » الروس بعدم الفاعلية في روسيا وحدها وهكذا تبين أن الصفة المميزة للنوعية الروسية استيهام كوسموبوليتي للجهل الفوضوي ان الشرط الموضوعي لتطور بلد ما لم يعد سوى العيب الذاتي . الانحراف المنطقي «لقسم من الاشتراكيين » في جميع البلدان المتحضرة

ان اعتبارات اليعاقبة الروس ، وقد حرمت من الآن فصاعدا من جزء هام من نوعيتها ، تظل ذات فائدة مع ذلك فاذا هم لم يقولوا شيئا جديدا عن مسألة معرفة **كيف يجب** اعتبار واقعنا ، فانهم يبينون على الاقل بصورة مرموقة بمثالهم **كيف لا يجوز** اعتباره ، **كيف لا يجوز** تعليل مظاهره المميزة

ان السيد تيخوميروف يسعى جهده ، حسب عادة اليعاقبة الروس كي برهن لقرائه ــ كما قال تكاتشوف من قبل ــ ان البرهة التي نجتازها ملائمة بصورة خاصة للثورة الاجتماعية انه يحلل التوزيع الحالي للقوى الاجتماعية في الميدان الروسي وينتهي الى النتيجة بأن شيئا لا يمكن أن يخرج من الثورة الآتية اللهم الا « بداية للتنظيم الاشتراكي في روسيا » ولا حاجة به الى الذهاب بعيدا حدا بحثا عن اثبات ذلك ان **الرسالة الى فريدريك انجلز** هي مكثف للحجج الروسية اليعقوبية

---

* **الدولة والثورة ، ص ٦٥**

يحتفظ بعد عشر سنوات بالنسبة الى عدد كبير جدا من القراء ، بكل آيات الطراوة والجدة ويكفي تمديده في ماء البلاغة الحار كي نستخرج منه جميع « توقعات الثورة العزيزة على السيد تيخوميروف لنلق نظرة عاجلة على هذه الطريقة المبسطة لصنع برنامج « جديد ولنبدأ بالعامل السياسي

ماذا نجد لهذا العرض في الحساء التكاتشوفي ؟

مما لا ريب فيه ان القارىء يتذكر المقتطفات الكبيرة التي اوردناها أعلاه من **الرسالة المفتوحة الى فريدريك انجلز** ولم ينس قناعة تكاتشوف ليس **عندنا** بروليتاريا مدنية هذا صحيح وبالمقابل فانه ليس عندنا على الاطلاق اية بورجوازية فليس بين الشعب الذي يتألم والاستبداد الذي يضطهده اية طبقة وسطى متوسطة ان انعدام البورجوازية هذا هو الذي نجده في أساس جميع اعتبارات السيد تيخوميروف السياسية

واذا صدقناه فانه لاوجود لبورجوازيتنا بالمعنى الاقتصادي وهي عاجزة بالمعنى السياسي أما فيما يتعلق بالشعب فان ثمة نقاطا لا يستطيع بشأنها الانشطار الى جماعات ، بل على العكس من ذلك يثبت انه مجمع عليها بصورةمطلقة ، (ص ٢٥١ وان أولى هذه النقاط هي المفاهيم المتعلقة بالسلطة العليا وبالفعل فان السلطة العليا في تفكير الشعب تمثل الامة بأسرها لا طبقة واحدة وان الصلابة الخالدة لهذه القناعة هي وحدها التي حافظت على سلطان القياصرة وان هذا اليقين بطابع السلطة العليا القومي هو الذي يثبت ايمان السيد تيخوميروف بالنصر الآتي للادارة الشعبية ان الانتقال الى هذه الادارة انطلاقا من الاوتوقراطية القيصرية « لا يملك شيئا أصيلا [؟] فقد انتقل الشعب الفرنسي كذلك وبدون صعوبات] من فكرة مليك سيد قادر على أن يقول l'état, c'est moi* الى فكرة peuple souverain** بيد أن اهمية الشعب السيد لم تستطع أن تتحقق هناك بالفعل بسبب قوة البورجوازية أما عندنا فعلى النقيض من ذلك لا وجود للبورجوازية ؛ ولذا فليس هناك ما يقف حاجزا في طريق انتصار الادارة الشعبية « فقط بشرط الا تبقى الاوتوقراطية الوقت الكافي بحيث تتيح للبورجوازية أن توطد نفسها حتى درجة تتوصل معها الى تنظيم مجموع انتاجنا على أسس رأسمالية لكن روسيا في حالة الفوضى التي تعيشها اليوم لا تستطيع أن تنتظر اليوم الذي تجد البورجوازية نفسها فيه قادرة على ادخال اي نظام ولو كان بورجوازيا الى هذه المتاهة وبنتيجة ذلك فاذا تم انهيار النظام القائم قبل ذلك اليوم فان البورجوازية لا تملك أي شيء مما يلزمها من أجل الاستيلاء على السلطة السياسية

---

* الدولة هي كلمة شهيرة للويس الرابع عشر]

** الشعب السيد]

وان هذا ليبين لنا أن « البرهة التي نجتازها » هي بالفعل الاكثر ملاءمة للثورة الاجتماعية فمن جهة واحدة « لا تستطيع روسيا ان تنتظر » وفيما عدا ذلك فليس في مقدور كائن من كان ان يستولي على السلطة ، الا الشعب » ومن دون ريب الحزب الثوري لقد كان بيوتر تكاتشوف على حق مطلق حين قال ان الثورة ستحدث « اليوم او بعد زمن طويل جدا وربما ابدا » ولكن بيوتر لافروف هو المخطىء اذن حين ينعت هذا الحكم بالمقامرة على جهالة القارىء الروسي

اننا نرى ايضا ان السيد تيخوميروف » في مسألة « العامل السياسي لم يجد عناء كبير في احماء الحجج التكاتشوفية لقد اكتفى باكمال اعتبارات تكاتشوف العامة عن قوة البورجوازية الغربية وضعف البورجوازية الروسية بمثال خاص هو مثال الثورة الكبرى التي كانت ستمكن بالتأكيد الشعب الفرنسي من تحقيق السيادة لو ان البورجوازية لم تهدىء الامور

كان تشيرنيشفسكي يقول

طوبى للناس الذين يملكون **مبدأ صالحا لجميع الامور** ذلك أنه لا حاجة بهم الى مراقبة الحقائق ولا الى التفكير انهم يملكون دائما علاجا جاهزا بصورة مسبقة لكل الادواء ، ولكل داء نفس الدواء الواحد ، مثل ذلك الطبيب الشهير الذي كان يخاطب جميع زبائنه بقوله purgare et cliystirizare*

ان كثيرا من الناس يملكون عقاقير مماثلة وبالنسبة الى الشخصية الهامة التي قصدها اكاكي اكاكييفينش** ليشكو لها فقدان معطفه ، فقد كانت تلك الصيغة الطلسمية « السائغة ولقد كان الاقتصاديون من المدرسة القديمة يستخدمون كعقار هذا الشعار الظريف **عدم تدخل الدولة**

وليسمح لنا بأن نضيف بأن « البورجوازية هي التي تلعب هذا الدور الخاص بالكلمة الطلسم بالنسبة الى « الاشتراكيين الروس من المدرسة التي لا تقل عن ذلك قدما ان الاشارة الى ضعفها او عدم وجودها تكفي من اجل حل اصعب مسائل الماضي والحاضر والمستقبل ولا يتخلف السيد تيخوميروف مطلقا من بين الحائزين السعداء على هذا الحجر الفلسفي لماذا لم تقم سيادة الشعب في فرنسا ؟ لأن قوة البورجوازية منعتها ولماذا سوف تقوم عندنا عندما يتحرر الشعب من وهم الاوتوقراطية ؟ لأن البورجوازية ضعيفة عندنا ولماذا تظل الطريق الوحيدة في الغرب التي يمكن بها الوصول الى « الاهداف المشتركة لجميع الاشتراكيين هي التنظيم البطيء والتدريجي للطبقة العاملة المدنية والريفية « في قوة اجتماعية واعية » بينما « يقولون أحيانا » عندنا أن « الاستيلاء على السلطة من قبل الثوريين»

---

* [خذ مسهلا وحقنة من **المريض الواهم**]

** [بطل قصة غوغول **المعطف**]

يمكن أن يصبح « نقطة انطلاق الثورة » ، هذه الثورة التي سوف تخدم بدورها كنقطة انطلاق لتنظيم روسيا الاشتراكي دائما لأن البورجوازية ضعيفة عندنا وقوية في الغرب Purgare et clystirizare ! لشد ما يبسط هذا الزعم الفارغ الوصف الإمراضي ولسد ما يخفف عنك التطبيق الدوائي ومن سوء الحظ أن المسائل الاجتماعية اعقد حتى درجة ما من المسائل الطبية ولابد للكتاب الصحفيين الاقرب نسبا بأطباء موليير ان يتزودوا بأكاسير افضل اعدادا واننا لنستطيع الوفاء بوعدنا ان المفتاح الذي في حوزة الاشتراكيين الروس لن يفتح لهم قط ابوابا في التاريخ. ما السبب في أن الشعب الاسباني وقد فقد وهم ملوكه لم ينتقل دون صعوبة الى فكرة الشعب السيد ومع ذلك فان اسبانيا احد البلدان الاكثر غربية في اوروبا ولابد ان السيد تيخوميروف نفسه لن نقرر ابدا أن ننسب الى البورجوازية الاسبانية قوة كبيرة على الاخص في مطلع هذا القرن وفيما عدا ذلك فان مبادىء الملكية المشاعة للارض كما برهنت على ذلك الاعمال الجديدة للسيد لوتسيتسكي(٦٩) تظل اكثر انتشارا في اسبانيا منها في اي من بلدان الهرطقة الاخرى مهما حاولنا فان هذا باب لن يفتح قط بمفتاح السيد تيخوميروف

ولذا فاننا نسمح لأنفسنا بأن نطير الى نجدة الاشتراكيين الروس الذين وقعوا في مازق كانت راسان افضل من راس واحدة فان لنا الحق ايضا في أن نعون ان تعويذتين افضل من تعويذة واحدة ، مهما تكن جيدة لماذا لا نكمل كلمة بورجوازية بي لفظة أخرى لا تقل عنها سحرا مثلا كاثوليكية أو بروتستانتية باختصار أية ديانة اخرى غير الاورثوذكسية أواه ! ليس هذا الاكسير بالجديد . بل لقد تبخر بصورة لا بأس بها بين ايدي أصحاب النزعة السلافية من المدرسة المحافظه . بيد ان عموميته تتجاوز حتى درجة ما عمومية «البورجوازية». ألدينا بورجوازية ام لا ؟ اذا كانت لدينا بورجوازية . فهل هي حقا اضعف من بورجوازية بلدان الغرب حيث الشعب في لحظة ما فقد وهم ملوكه ؟ هذه اسئلة لا تبرح مفتوحة بيد ن الدولةالاورثوذكسية تشكل عرضا لا جدال فيه روسيا بصورة حقيقية وسيئة مجهولا بصورة مطلقة في غرب اوروبا وهو سيبيح لنا أن نحل بضربة واحدة مسألة معرفة ما الذي منع اقامة سيادة الشعب في اسبانيا عام ١٨٢٠ حيث لم يكن للبورجوازية القوية وجود مطلقا يكفي الاستنجاد بالكاثوليكية، أيها السادة وسوف ترون اذن

وعلى اي حال فمعاذ أن نستخف بالكلمة الطلسم للسيد تيخوميروف اننا نعرف ثمنها جيدا بحيث سوف نحاول ان نطبقها بأنفسنا لماذا يعرف الاشتراكيون العاقلون في الغرب ما يقولونه ولا يدحضون مطلقا التيه التيخوميروفي في المسائل التي يشرحونها ؟ الا يكون ذلك لأن البورجوازية « الغربية » امتن من بورجوازيتنا ؟ يبدو ان ... كذلك . فحيث تكون البورجوازية قوية وحيث يكون تطور البلاد

الاقتصادي متقدما فان النظام الاجتماعي هناك يكون واضحا وحيث يكون النظام الاجتماعي واضحا لا مكان لحل القضايا السياسية حلا وهميا وهذا هو السبب في أن فوضى الفكر التي تميز في الغالب الاحزم من بين الاشتراكيين العاقلين » في روسيا لا تكون في الغرب من نصيب غير الاذهان التي لا يتوقع شيء منها واذا خرجت من ريشة السيد تيخوميروف مقالات لا تساوي شيئا فيجب ألا نلومه على ذلك مطلقا بل نلوم ضعف بورجوازيتنا فقط وهكذا نرى أن المفتاح المفضل لمؤلفنا يستطيع ان يفتح صناديق ذات ثلاثة اقفال

ان حجج السيد تيخوميروف وان لم تقدم لنا شيئا من الاصالة على الاطلاق تبهرنا مع ذلك بما فيها من مجازفة من اين جاء السيد تيخوميروف بأن السلطة العليا « **تمثيلية** » في نظر الشعب ؟ لقد كنا نعتقد حتى الآن بأن مفاهيم الشعب الحالية بخصوص السلطة العليا انما تفسر لأن الشعب لا يملك اية فكرة على الاطلاق عما هو تمثيلي ان رعايا شاه ايران وخديوي مصر وامبراطور الصين يملكون عن السلطة العليا نفس المستبقات السخيفة التي يملكها الفلاح الروسي ايترتب على ذلك أن الايرانيين والمصريين والصينيين سوف ينتقلون بمثل تلك السهولة الى فكرة الشعب السيد ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فاننا بقدر ما نتقدم نحو الشرق يقترب انتصار الادارة الشعبية أكثر فأكثر وسؤال آخر لماذا يرى السيد تيخوميروف أن الشعب الذي فقد وهم » مليكه سوف يصبح بالضرورة بطل سيادته الخاصة ؟ ايمكن لفكرة خاطئة عن طبيعة الحكم المطلق أن تعفي فردا أو شعبا من أفكار خاطئة أخرى بخصوص طبيعة الملكية المعتدلة أو الجمهورية البورجوازية ويقول السيد تيخوميروف ان ملايين الناس من شعبنا سوف ينهضون بالاجماع ضد دولة طبقية اذا ما اتضح هذا الطابع حتى درجة ما بيد أن معرفة نقائص الحاضر تكفي لأن تعطي الشعب فكرة صحيحة عن المستقبل أليست الملكية المطلقة عندنا ، كما هي في كل مكان آخر دولة طبقية ؟ ان السيد تيخوميروف نفسه يعترف تاريخيا بوجود النبالة **من حيث هي مرتبة سائدة حقا** » على الاقل منذ فرمان الاعفاء ألم نفسر الشعب بنفوذ السادة الموظفين بل بأوامرهم جميع ترتيبات تشريعنا التي كانت تجر عليه الآلام وجميع الافعال الاعتباطية وجميع ابتزازات الادارة ؟ اذا كان الجواب نعم فان طابع ملكيتنا الطبقي قد كان بينا جدا اذن وبالفعل فان الاحتجاج ضد الدولة الطبقية قد كان أحد الثوابت في تاريخنا وبالفعل فان الملايين من الناس قد نهضوا وان يكن بقدر من الاجماع أقل مما يتكهن السيد تيخوميروف به من أجل الغد ولكن ما الذي خرج من ذلك ؛ هل قضت هذه الاحتجاجات على الدولة الطبقية وقادت الشعوب الى اليقين بأن السلطة العليا القائمة لا تتجاوب مع مثله الاعلى السياسي ؟ والا فما الذي يضمن لنا أن هذا التاريخ البائس لن يتكرر في كل ملكية دستورية ؟ حقيقة ن الشعب سيكون

قد فقد وهم ملوكه ؟ ولكن مم سوف ينقذه ذلك ؟ وضد ما سوف يحميه ؟ اليست النتائج من دون المقدمات هي التي تشكل في راي السيد تيخوميروف نقطة الضعف في فلسفة الشعب السياسية ؟ واذا صدقنا هذا المؤلف فان الشعب الروسي سيعرف على خير وجه **ما يجب أن تكون** السلطة العليا التي يطالب بأن تكون « ممثلة للامة بأسرها وهو لن يخطىء الا في الحالات التي ينبغي له فيها ان يحكم ما اذ كان نظام معين يتجاوب مع مثله الاعلى ولكنه وقد تحقق من خطيئة واحدة قد يرتكب خطيئة اخرى يؤسف لها بصورة لا تقل عن ذلك ، كما انها لا تقل عن ذلك فظاظة فقد لا يعرف على الاطلاق ما هي الشروط التي تكف حقوقه السيادية الخاصة بموجبها عن أن تكون صيغة مرائية جوفاء قناعا يخفي الهيمنة السياسية للطبقات العليا ايعرف السيد تيخوميروف بأن الشعب الروسي **يمكن** بالفعل الا يعرف مطلقا هذه الشروط ؟ فيما يخصنا فاننا لا نتردد لحظة واحدة في الرد على على ذلك بالايجاب ؛ فالامر لا يقتصر على أن الشعب يمكن تماما الا يعرفها بل الارجح انه لا يعرفها واذا كان لا يعرفها فانه سوف يخطىء ؛ واذا هو اخطأ فانه لن يوصل ، بقدر ما يخطىء ، الى تحقيق المثل الاعلى الذي ينسبه السيد تيخوميروف اليه ؛ انه لن يصبح سيدا ويعتقد السيد تيخوميروف ان الشعب لا يستطيع ان يتحمل انتكاسات سياسية مماثلة لما يحدث في الغرب ، وانه من المحال تصور هذه الانتكاسات في شرقه الحبيب ، في البلدان التي حماها التاريخ الودود من قرحة الراسمالية وان العزاء ليكون حاسما لو أن مفاهيم الشعب السياسية لا ترتبط بصورة وثيقة بتطوره الاقتصادي وهي رابطة لا يمكن لسوء الحظ وضعها موضع الشك ان الشعب لا يفقد وهمه بملوكه الا حين يفقد الاقتصاد البدائي هذا الطابع كي يصبح اقتصادا بورجوازيا بصورة تزيد أو تنقص وعلى أي حال فان البورجوازية تقوى بصورة مطردة مع ذلك ؛ وان الانتقال المباشر الى سيادة الشعب يصبح مستحيلا اذن ويعتقد السيد تيخوميروف انه يطمئننا بالاعتبار الخاص بالتطور النوعي لروسيا بيد أن خصائص البلد التاريخية ، قبل كل شيء ، لا تعفيه قط من فعل القوانين السوسيولوجية العمومية ؛ وفيما عدا ذلك فان واقع روسيا الاقتصادي حاليا كما نعرف ذلك من قبل ، لا يثبت مطلقا المفارقات السياسية لرئيس تحرير **الرسول** ان خيبة الشعب بالنسبة الى الاوتوقراطية بدأ لتوه يبدو **«حتملا ،** بينما انحلال المشاعة وتغلغل المبادىء البورجوازية في الحياة الشعبية يشكلان اكثر فأكثر حقيقتين لا يمكن الارتياب فيهما كما لا تمكن مناقشتهما ما عساه يحدث اذا استمر هذا التوازي في المستقبل ؟ ان البورجوازية قد تصبح كلية القوة يوم يقطع الشعب علاقاته بالقيصرية بصورة حاسمة من أين ستأتي اذن الادارة الشعبية»؟

اننا لا نعارض سيادة الشعب بحكم البورجوازية الا لان السيد تيخوميروف ولنذكره بصورة عابرة ، قد وجد من المناسب أن يفعل ذلك . ونحن شخصيا نرى

ان مثل هذه المعارضة لا معنى لها الا في حالات استثنائية ان سيادة الشعب لاتصونه من العبودية الاقتصادية كما لا تستبعد تقدم الراسمالية في البلاد ان مقاطعة زوريخ هي في وقت واحد احدى المقاطعات الاكثر ديموقراطية والاكثر بورجوازية في سويسرا ولا يصبح الدستور الديموقراطي واسطة التحرر اجتماعي بالنسبة الى الشعب الا اذا جعل التطور الطبيعي للعلاقات الاقتصادية استمرار سيادة الطبقات العليا لفترة زمنية اطول أمرا مستحيلا ومثال ذلك أن الانتاج في البلدان المتقدمة يرتدي أكثر فأكثر طابعا جماعيا بينما التملك الفردي لمنتجاته من قبل فئة المعلمين يثير مجموعة من الاختلاجات في كامل العضوية الاقتصادية والاجتماعية ولقد شرع الشعب يفهم السبب في هذه الظواهر المرضية ولذا فانه سيستخدم من دون ريب عاجلا أو آجلا السلطة السياسية كي يتحرر اقتصاديا لكن لنتصور مرحلة أخرى من التطور الاجتماعي لنفترض بلدا لا تبرح الصناعة الكبيرة فيه في مرحلة الطموح الى الهيمنة ، بينما الاقتصاد يعتمد مسبقا على الانتاج السلعي ؛ وبكلام آخر، لننتقل الى حالة بلد آخر تسود فيه البورجوازية الصغيرة ما هي القضايا الاقتصادية التي يجب ان يحلها الشعب السيد ؟ قبل كل شيء ، وعلى وجه الحصر قضية حماية المنتجين الصغار الفرادى طالما أن هذه الطبقة تشكل الاكثرية ولكننا في هذه الطريق لا نتفادى الراسمالية ، ولا سيطرة البورجوازية الكبيرة طالما أن منطق الانتاج السلعي بالذات يعمل على تحويل المنتجين الصغار الفرادى الى عمال مأجورين من جانب والى معلمين بورجوازيين من جانب آخر وحين يكتمل هذا التحول فمن المؤكد أن الطبقة العاملة ستسخر جميع وسائطها السياسية كي تشن معركة عنيفة ضد البورجوازية لكن العلاقات بين الطبقات الاجتماعية سوف ترتدي في ذلك اليوم طابعا قاطعا بكل وضوح أن الطبقة العاملة ستأخذ مكان الشعب والسيادة ستتحول الى دكتاتورية البروليتاريا

ويترتب على ذلك أن درجة تحضير الشعب لديموقراطية حقيقية لديموقراطية ليست خديعة في حال من الاحوال ، يتوقف على درجة تطوره الاقتصادي ان وضوح العلاقات الاقتصادية سيستتبع وضوحا لا يقل عن ذلك في التجمع السياسي ان التضاد بين الرأسمال والعمل يثير النضال بين الاحزاب العمالية والبورجوازية وان تطور قوى الانتاج يقرب الخاتمة ويضمن انتصار البروليتاريا كذلك كان الامر وسوف يبقى دائما في البلدان الغربية

لكن ثوريينا من أصحاب النزعة السلافية لا يريدون أن يكون الامر كذلك في روسيا ان المثقف عندنا وهو أشبه ما يكون بالفلاح الروسي الذي لا يحب القوانين المكتوبة ويفضل أن يدبر أموره على طريقته الخاصة ، قلبا لقلب يخشى وان التاريخية انه سيستنجد بالنوعية بالطريقة الذاتية في علم الاجتماع ، الخ باختصار بالقلب واذا ما أخذ التاريخ من وجهة نظر

« القلب » فانه يتخذ لونا اصيلا جدا انه لا يعود سوى سلسلة من مؤامرات الاشرار ضد الاخيار ، وقوة اولئك وضعف هؤلاء يعوقان وحدهما قيام ملكوت الله على الارض ومن المفروغ منه ان الاشرار لايتوصلون قط ، من جراء فسادهم ، الى اقامة ائتلاف متين ودائم فيما بينهم واذهم لايرضون بالقتال ضد الاخيار . فانهم يقاتلون فيما بينهم ويشكلون شيعا وعصبا ويقضون وقتهم في التنازع على « مقبض الدولة » وان هذه الصراعات الباطنية تعود بالفائدة على الاخيار الذين تشكل بالنسبة اليهم لحظة ملائمة بصورة خصوصية تلك اللحظة التي لا تعود فيها فئة من الاشرار قادرة على الاحتفاظ بالسلطة بينما الفئات الاخرى لم تبلغ بعد قدرا كافيا من القوة من اجل الاستيلاء على هذه السلطة وعندئذ تصبح السعادة شيئا ممكنا وفي متناول اليد ؛ ليس امام الاخيار اذن الا ان يبذلوا جهدا صغيرا جدا كي يقيموا ــ بحد ادنى ــ الادارة الشعبية وان « الاشتراكية الروسية كما عبرت عن نفسها في مقالات بيوتر تكاتشوف والسيد تيخوميروف وهي الحساسة والكريمة بطبيعتها تحب أن تأمل بأن اللحظة التي نجتازها تسجل على وجه الدقة فترة ما بين حكم الاشرار والفاسدين ، ونفاد الحكم المطلق ، وعجز البورجوازية

ولقد بذلنا جهدا كبيرا في الصفحات السابقة كي ندمر هذا الجانب الساذج التفاؤل من الفلسفة الثورية الروسية لكن مادام السيد تيخوميروف يفضل أن ينضم الى رأي السيد تكاتشوف أستاذه ، بالاحرى منه الى راي خصم سياسي مثلنا فاننا سنعارض هيبة رئيس تحرير **الناقوس** بهيبة زميل السيد تيخوميروف بالذات في رئاسة تحرير **الرسول** ومما لا ريب فيه أن السيد لافروف لن يفكر الافكار التي تعبر عنها أفتتاحية العدد ٢٧ من **الى الامام** ! ان مؤلف هذه المقالة الجميلة يؤكد لنا أن الرأسمالية في روسيا تنمو بسرعة وقوة بكل عواقبها وان المدافعين عن النظام الحالي وخصومه على حد سواء لا ينكرون ذلك ، وان الاشتراكيين لا يرون في هذه الظاهرة الا عملية قاضية ليس هناك الا سبيل واحد للتحرر منها **ان تطور النظام الراسمالي بالذات يجب أن يحرض** ويهيىء الثورة التي سوف تطيح به » لسوف يكون السيد لافروف على حق تام اذا سأل السيد تيخوميروف عما فعله بالراسمالية والبورجوازية الروسيتين اللتين كانتا موجودتين بصورة لا تقبل الجدال على الاطلاق حين كانت مجلته التي تصدر كل شهرين تنشر في لندن واذا هو توصل الى اقناع زميله بأن الراسمالية ليست ابرة ضاعت في خضم الحياة الروسية فان السيد تيخوميروف سيرى بنفسه من اي جانب يأتي الخطر الذي يهدد ، في بلادنا هذه الادارة الشعبية الذي يتصور انها مدعوة لتحل دون انتقال محل اوتوقراطية القياصرة ذلك انه حيث تنمو الراسمالية بسرعة وقوة ، بكل عواقبها » ، فان البورجوازية تستطيع دائما أن تثبت قدرتها على الوقوف حجر عثرة (كما حدث ذلك في فرنسا اذ صدقنا السيد تيخوميروف) في سبيل سيطرة « الشعب السيد » .

اذا كان كاتب افتتاحية العدد ٢٧ من **الى الامام !** محقا في الاشارة الى اندفاعة الراسمالية في روسيا فان السيد تيخوميروف لا يمكن ان يكون على حق في الحكم على الشروط الحالية على اعتبارها الاكثر ملاءمة على وجه الدقة من اجل اقامة بداية تنظيم اشتراكي في بلادنا ان اعتباراته في هذا الشأن لا تعدو كونها تنوعات سطحية مستمدة من مواضيع تكاتشوف وباكونين

ان بيوتر تكاتشوف كما نعرف قد خاطب انجلز قائلا ان شعبنا جاهل، هذه حقيقة وبالمقابل ، فانه في الغالبية الساحقة من الحالات مشرب بمبادىء الملكية المشاعية واذا جاز لي التعبير فانه شيوعي بالفريزة عرفا وان السيد تيخوميروف . وهو صدى امين لتكاتشوف . يؤكد ان « مفاهيم الشعب وعاداته تقدم ما يكفي من العناصر من اجل تنظيم فعال لقواه ان الفلاح يعرف كيف يدير اموره ؛ وان المير يعرف كيف يأخذ على عاتقه الملكية الجماعية للارض ويتصرف بها بصورة جماعية*

ان وجود الملكية المشاعية للارض في روسيا قد اوحى لرئيس تحرير **الناقوس** الفكرة بان شعبنا بالرغم من جهله اقرب الى الاشتراكية من شعوب الغرب ولا يجسر رئيس تحرير **الرسول** أن يتبع استاذه في مثل هذه الاستنتاجات الجريئة، لكنه لا يتخلف عن التذكير ، وهذا ما كان في مقدورنا أن نتوقعه ، بأن فلاحنا يملك عن حق الشعب في الارض وعن الطابع الاجتماعي لأداة العمل هذه وعيا لا يقل وضوحا عن وعي البروليتاري الاوروبي لحقوقه في معمل المعلم ان السيد تيخوميروف الذي يملك اعلاما سيئا عن فلسفة التاريخ الخاصة بالاشتراكية الحديثة لا يتوصل الى ادراك هذه الحقيقة الاساسية الا وهي أن الامر الهام بالنسبة الى الثورة الاشتراكية لا يقتصر فقط على وعي البروليتاري الاوروبي »

لحقوقه في معمل المعلم ان البروليتاريين الرومان في العهود القديمة قد كانوا يملكون كذلك وعيا على قدر كاف من الوضوح لحقوقهم في الملكيات الكبيرة (latifundia) التي كان الاغنياء يحصلون عليها بوضع ايديهم على اراضي الدولة واغتصابهم الملاكين الصغار لكنه لو تمكن البروليتاري الروماني من تحقيق النصر لهذا الحق فانه ما كان يخرج من ذلك اي نوع من الاشتراكية ان ما يسهل ويهيىء الثورة الاشتراكية ليس هذا النمط او ذاك من **الملكية** مطلقا بل تقدم القوى الانتاجية **وتنظيم الانتاج** ان الاهمية التاريخية للراسمالية من حيث هي مرحلة تحضيرية تستقيم في حقيقة أن هذا التنظيم يرتدي طابعا اجتماعيا وهي اهمية يرجعها السيد تيخوميروف مستأنفا صيغة السيد « ف. ف. الى تجمع آلي للعمال ان ايا من بيوتر تكاتشوف او السيد ف. ف. او السيد تيخوميروف وبصورة اجمالية اياً من الشعبيين او الباكونينيين لم يكلف نفسه

---

* **الرسول** العدد الثاني ، ص ٢٥٥

عناء البرهان لنا على أن الشعب الروسي يملك وعيا واضحا بقدر «البروليتاري الاوروبي عن ضرورة **التنظيم الاجتماعي للانتاج** ومع ذلك فتلك هي القضية بأكملها وان من واجب السيد تيخوميروف ان يتذكر جيدا ان تنظيم الانتاج تقرره الانظمة القانونية بل ان الانظمة القانونية هي التي يحددها تنظيم الانتاج وان لنا ضمانة على ذلك في تاريخ المجتمعات بأكمله بما فيها مجتمعات المتوحشين و النوعيين واذا كان الامر كذلك اذا لم يكن للراسمالية حقا اي مكان بيننا، فانه من الواجب اذن في سبيل مقارنة روسيا بالغرب ان نأخذ كنقطة انطلاق ليس النتيجة بل السبب ليس النمط السائد **لحيازة** الارض بل النمط السائد **لزراعة** الارض تنظيمه والتبدلات التي تتهيأ فيه ذلك أن مصير اشكال حيازة الارض بالذات يتوقف عليها فليجرب السيد تيخوميروف اذن أن يبين لنا ما اذا كان اتجاه زراعتنا العام هو نفس اتجاه الصناعة الآلية للبلدان الراسمالية يعني اتجاها الى التنظيم المنهج على الاقل ضمن حدود الدولة واذا هو نجح في ذلك ، فان الجانب الاقتصادي لتوقعه للثورة سوف يتخذ معنى وفي الحالة المضادة ، فان جميع اعتباراته وجميع مقارناته السياسية والاقتصادية تعود الى الطريقة القديمة لحل جميع القضايا الاجتماعية بما نرجو أن يسمح لنا بتسميته حذف البورجوازية المجهولة ان بداية تنظيم روسيا الاشتراكي تفقد كل صلة بلحظه الكارثة العتيدة كي ترمى من جديد في ابعاد أكثر اقل سديمية

اتكون هذه الايضاحات كافية اذا لم تكن كافية فلنطلب النجدة مرة اخرى من بيوتر لافروف الشهير اننا نقرأ في الافتتاحية المرموقة للعدد ٢٧ من **الى الامام** : ان الشعور الوراثي بتضامن **المير** او **الارتيل** في أشكاله المختلفة لا يتجاوز مطلقا ، بالنسبة الى الغالبية الساحقة من الشعب الروسي اطارا بالغ الضيق يبدأ ماوراءه ميدان المزاحمة والصراع من أجل الحياة بين جماعات من الجياع والمضطهدين من كل حدب وصوب ولدى هذه الغالبية فان العرف القديم الذي ينص على أن الارض تخص من يزرعها وكذلك الحقد القديم على المستثمرين المباشرين للعمل الشعبي لم يتوصلا الى اتخاذ صورة واضحة في شكل وعي ضرورة الشيوعية الاقتصادية ان هذه الغالبية عاجزة عن أن ترى بوضوح الفارق الهائل الذي سيتم بالنسبة الى المجتمع المقبل اذا ما اقتصرت الثورة الاقتصادية ، في أعقاب انفجار شعبي فعال **على توزيع جديد** للخيرات [كان يجب ان يقال « وسائط الانتاج] ، بدلا من اعلان مساعيها دونما تحفظ ان الكاتب الذي نستشهد به يعتقد بحق أن توزيعا جديدا للخيرات يحل محل اشاعتها سوف يؤول بصورة محتومة الى انقسام جدي الى طبقات الى استثمار جديد وبالتالي الى تجدد المجتمع البورجوازي في صورة جديدة وبالفعل فان ما سمي حق الشعب بأسره في الارض لا يستتبع مطلقا جماعية وسائل الانتاج المنقولة ، وبالتالي فانه يتيح

التفاوت في توزيعها واستغلال الفقراء من قبل الاغنياء ان التأثير الهدام للملكية الخاصة المنقولة هو الذي ادى الى انحلال الاشكال البدائية للملكية الجماعية

ما عسى ان تقول لنا في هذا الموضوع رئيس التحرير السابق لمجلة **الى الامام** !؟ هل سيواصل اعتبار المحاكمة الموردة أعلاه صحيحة أم انه حقق تطورا هاما جدا في معتقداته السياسية والاجتماعية بحيث يقاسم الآن آراء بيوتر تكاتشوف والسيد تيخوميروف بالرغم من تنافرها التام مع تلك المحاكمة لا

ن جوابا مباشرا وجازما سوف يتخذ هنا أهمية رئيسية وبالفعل فاذا كان وعي الشعب لحقه في الارض لا يشكل مطلقا أساسا وطيدا بما فيه الكفاية من احل بداية تنظيم اجتماعي لروسيا » ، فان استنتاجات السيد تيخوميروف العملية تفقد معناها واهميتها واذاكان الشعب لا يملك مطلقا وعيا واضحا للشروط الحيوية لتحرره الاقتصادي فان هذا التحرر بالذات يصبح أمرا غير معقول وبنتيجة ذلك فان استيلاء الثوريين على السلطة لا يمكن مطلقا ان « يخدم كنقطة انطلاق للثورة ضد البورجوازية التي ينتظرها السيد تيخوميروف وهكذا فانه لا يجوز لنا ابدا ان نتحدث عما نستطيع أن **ننتظره** من الثورة بل ان نقول يجب علينا ان **نفعله** من أجلها ، كيف نوضح للشعب القضايا التي نطرحها عليه وكيف نتجنب أو كيف نضع في خدمة هذا الشعب ، انتصار البورجوازية ، وبأية طريقة نتوصل الى ان يؤدي تطور النظام الراسمالي بالذات الى اثارة وتهيئة الثورة التي سوف تقضي عليه

ان قسما من ثوريينا قد نصح « الشبيبة الثورية بأن تقوم بالدعاية بين عمال الصناعة ولقد انتفع السيد تيخوميروف من اخطاء الاخصائيين البوليسيين عندنا وجهلهم كي يعلن أن هذه النصيحة عديمة الجدوى وفي رايه ان تعداد العمال في مراكزنا الصناعية هزيل جدا بحيث لا يمكننا ان نؤسس اي رجاء في الثورة الاجتماعية على هذا الجزء من السكان الكادحين بل انه لفي مقدورنا أن نستخلص مما يفسره لنا في هذا الموضوع أن المؤلف يتمسك بوجهة النظر الشعبية القديمة التي كانت تمجد الريف ولا تريد أن تعرف عن المدينة شيئا بيد ان هذه الفرضية لاتملك الا أساسا جزئيا انه لمن المؤكد أن السيد تيخوميروف يمجد الريف ؛ ومع ذلك فان كل قارىء حصيف سوف يدرك في الحال أن الريف لن يحمل هذه المدائح الى الفردوس وبالفعل فان ثمة طرقا عديدة للامثلة ، وهي تؤول الى نتائج عملية مختلفة كل الاختلاف لقد كان الشعبيون فيما مضى يؤمثلون الشعب بغرض أن يدربوا هم انفسهم بصورة خاصة ويجروا معهم الانتيلجنتزيا عندنا الى العمل الثوري بين الشعب زيدوا هذه الامثلة درجة واحدة وسوف تنتهون الى اليقين بأن شعبنا لا يحتاج البتة ، بفضل ميوله المشاعية ، الى الانتيلجنتزيا الاشتراكية وعندئذ سوف يصبح دور الانتيلجنتزيا سلبيا خالصا لسوف يقتصر اذن على حذف

الحواجز الخارجية التي تعوق انتصار المثل الاعلى الشعبي وذلك هو النوع من الامثلة الذي نواجهه في مقالة السيد تيخوميروف فهو يرسم ما يلي في لحظة الثورة لا يمكن لشعبنا أن يظهر منقسما ، وذلك بقدر ما يتعلق الامر بمبدأ السلطة السياسية ولسوف يبرهن كذلك على اجماعه من وجهة النظر الاقتصادية في مسألة الارض وفي سبيل تجميع الجماهير في قوة لا تقاوم حول هاتين النقطتين **لا تمس الحاجة الى دعاية خصوصية** ؛ يجب فقط ان يعرف الشعب حقيقة المسألة ان أمثلة الشعب وقد رفعت الى هذا الحد الاقصى تفرغ العمل بين الشعب من كل مغزى ومن كل اهمية بيد ان التآمر يتخذ اذن اهمية معاظمة ان الثورة الاجتماعية ــ هكذا يفكر المتآمرون ــ تلجمها الحكومة القائمة اقضوا على هذا التأثير وسوف يترتب على عملكم الهدام بالضرورة ظهور بداية تنظيم اجتماعي لروسيا في النضال السياسي « تخص السلطة ذلك الذي يستطيع ، في كل لحظة ان يوفر الحماية لقضيته من قبل أكبر قدر ممكن من القوى البشرية ولا فائدة من الاستفسار عن الطبقة التي ستأتي هذه القوى منها ، فهناك طرق مختلفة جدا من أجل الحصول عليها بل انه في مقدور المرء أن يشتري المدافعين عنه أو اجبارهم على الدفاع عنه بواسطة ضغط اقتصادي ما* وبالاحرى فانه في الامكان تجنيدها من اية طبقة من طبقات المجتمع ان نجاح القضية انما يتوقف على المهارة في استخدام القوى التي « حصل » المرء عليها بهذه الطريقة ، واستخدامها بصورة تتفق مع اهداف المؤامرة وهذا هو السبب في أن السيد تيخوميروف يتحدث أحيانا عن استيلاء الثوريين على السلطة بوصفه نقطة انطلاق الثورة وانها لنتيجة منطقية ، وهي تترتب على جميع مقدمات مؤلفنا

ان المصيبة هي ان مقدمات السيد تيخوميروف لا تصمد للنقد ، وأن الامور جميعا ، بين الشعب ، لا تجري كما نتمنى ، حتى فيما يتعلق « بالنقطتين » الرئيسيتين ، وأنه توجد نقاط أخرى أيضا يهدد الجهل بها بجر خيبات عظيمة على الثوريين واما تنهار المقدمات تنهار معها النتائج العزيزة على السيد تيخوميروف لكن قليلة الملاءمة جدا لنجاح الحركة الاشتراكية في روسيا اننا نشاهد كيف يتبدد الضباب العاطفي لتلك الامثلة للشعب المدعاة والكاذبة ؛ ويظهر الواقع من جديد ، بمتطلباته التي لا يمكن الافلات منها اننا نتبين انه من المحال أن نأمل في أدنى خاتمة ايجابية للحركة الثورية الروسية بدون دعاية خصوصية بين الشعب واننا لنقتنع بأن ثوريينا لا يمكن أن يكتفوا ببرنامج تكاتشوف ولن يرتكبوا أمرا إداً اذا هم تذكروا برنامج **الى الامام** ! ومع ذلك فاننا لم نصدر بعد حكما حاسما على نقطة واحدة : حتى اية درجة سنستحسن أن نقطع علاقتنا بالتقليد البلانكي الخاص بنا ؟ انه لجيد أن نعرف ، في هذه القضية العسيرة ، الرأي النافذ للسيد لافروف

---

* **الرسول** ، العدد الثاني « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ » ، ص ٢٥٠ .

٢

« الاستيلاء على السلطة »

اننا نستطيع أن نخمن هذا الرأي جزئيا ان رئيس التحرير الفاضل لن يوافق بكل تأكيد على كون السيد تيخوميروف « يتحدث أحيانا عن الاستيلاء على السلطة من قبل الثوريين على اعتباره نقطة انطلاق الثورة » ولقد كان من عادة بيوتر تكاتشوف أيضا ان يتحدث أحيانا عن هذا الاستيلاء على السلطة ، وقد تسبب له هذا في ان يصحح السيد لافروف خطاه بكل شدة بل ان رئيس تحرير **الى الامام !** وجد من المناسب أن يحذر شبيبتنا الثورية من الائتلاف مع **الاصدقاء الكذبة** ، فهو يقول

ثمة دوائر ثورية تزعم أنها تريد مصلحة الشعب وتؤكد أنها سوف تحقق ذلك بالثورة ، لكنها ثورة لن تكون شعبية »

وان فلسفة الثورة بالنسبة الى هذه الدوائر تتلخص بالاستيلاء على السلطة

ويريد آخرون دكتاتورية مؤقتة فقط كي يحلوا الجيش ويقضوا على القادة الاعداء ، ومن بعد سوف ينسحبون عن المسرح ويتركون للشعب أن يقرر مصيره آخرين أيضا يحلمون بأن يعتزلوا الدكتاتورية عندما ينجزون عملهم ويسلموها لرئاسات تتألف من ممثلين عن الشعب لجمعيات محلية الح ان ما يشترك فيه جميع الثوريين الذين من هذا النوع هو الثورة التي تحققها أقلية ، وهي مخرّجة بدكتاتورية أكثر أو أقل امتدادا تمارسها هذه الاقلية

ويؤكد لنا السيد لافروف أن المجلة التي يديرها لن تقبل قط بأن تستقبل **دون اعتراض** نظرية الدكتاتورية الثورية التي تمارسها الاقلية أو ما يسمى النظرية اليعقوبية واليكم الاسباب المحترمة بما فيه الكفاية التي يحكم من أجلها على هذه النظرية بالابعاد

ان التاريخ قد برهن وعلم النفس يؤكد لنا أن اية سلطة غير مقيدة ، اية دكتاتورية تفسد أفضل العقول وأن العباقرة أنفسهم حين أرادوا أن يصنعوا سعادة الشعب بالمراسيم ، لم يتوصلوا الى ذلك مطلقا فلابد لاية دكتاتورية من أن تحيط نفسها بقوة قهر وبأدوات طيعة لها بصورة عمياء ، كما أية دكتاتورية ملزمة بأن تسحق بالعنف ليس الرجعيين فحسب بل أولئك الذين يناقشون طرائقها ؛ ولقد اضطرت كل دكتاتورية قائمة لان تبذل من الوقت والجهد والطاقة في النضال ضد الخصومات كي تحتفظ بالسلطة أكثر مما تبذل من أجل تطبيق برنامجها بفضل هذه السلطة ان أي حزب لا يستطيع أن يحلم في التنازل عن الدكتاتورية التي حققها بالعنف [يعني يحلم بأن تكون الدكتاتورية

نقطة « انطلاق للثورة » فقط   أليس كذلك يا سيدي رئيس التحرير ؟] الا قبل استيلائه على هذه الدكتاتورية   ففي صراع الاحزاب من أجل السلطة ، في الجو المتوتر من المؤامرات المستترة أو المفضوحة ، تثير كل لحظة تمر ضرورة جديدة من أجل التشبث بالسلطة ، واستحالة جديدة للتخلي عنها   ولا يمكن الا لثورة أخرى أن تنتزع الدكتاتورية من يد الدكتاتور   أحقا يمكن لشبيبتنا الثورية أن تقبل بأن تخدم مرقاة الى العرش من أجل دكتاتوريين لا يمكن الا أن يصبحوا ، حتى اذا كانوا منزهين ، مصدرا لكوارث عامة جديدة ، لكنهم من المرجح أنهم لن يكونوا حتى مهووسين منزهين   بل طموحين متحمسين يتوقون الى السلطة من أجل السلطة ، يتوقون الى السلطة من أجل أنفسهم ؟   اذا كان صحيحا   قسما من شبيبتنا يريد الدكتاتورية فعليا   فان استيلاء أقلية على السلطة لن تكون **الى الامام** قط الناطقة باسمه   ليشن اليعاقبة الروس الحرب على السلطة   فنحن لن نثير العقبات في طريقهم   لكنهم سيجدون دائما في سبيلهم حزب الثورة الاجتماعية للشعب حالما يفكرون في مد أيديهم الى السلطة التي تخص الشعب وحده ولا تخص اي شخص سواه*

ان نبوءة بيوتر لافروف قد تحققت كلمة فكلمة ، فمجلة **الى الامام** ! لم تصبح قط الناطقة باسم اليعاقبة الروس   وصحيح أن بيوتر لافروف أصبح هو نفسه رئيس تحرير مجلة « هذا القسم من الشبيبة »   لكن تلك قصة أخرى لا تعنينا هنا

اليكم ما يعنينا في الوقت الحاضر   ان مؤلف **الرسائل التاريخية** لم يقل قط انه غير رأيه في موضوع الاستيلاء على السلطة ، الامر الذي يخولنا أن نؤكد بيقين تام أن رئيس تحرير **الرسول** ظل معارضا لذلك بصورة مطلقة   وانه ليقين لطيف جدا!   فانه لطيف على الدوام أن ينضم المرء الى رأي كاتب معروف ومحترم   ونحن نملك الحق في القول اننا نشاطره كليا حكمه على الاستيلاء على السلطة   وان كنا توصلنا الى هذا الراي بطريق تختلف حتى درجة ما   لقد عنينا دائما بأن نركز اهتمامنا ليس على مظهر الاشياء الذاتي بل على مظهرها الموضوعي   ليس على أفكار الافراد ومشاعرهم — حتى اذا كان هؤلاء الافراد يحملون لقب رئيس التحرير — بل على الشروط الاجتماعية التي ينبغي لهم أخذها بعين الاعتبار   على المعنى الباطن للقضايا الاجتماعية التي تصدوا لحلها   ولذا فاننا لن نقول مطلقا بخصوص الاستيلاء على السلطة ان   اية دكتاتورية تفسد افضل العقول   ذلك انه لا   التاريخ   ولا علم النفس   قد حلا المسألة حقا   لكننا نرى أنه اذا كان   تحرر العمال يجب أن يكون من صنع العمال انفسهم   فان اية دكتاتورية لن تنجح حيث لا تكون الطبقة العاملة   المدنية والريفية   مهيأة للثورة الاشتراكية .وان هذا التحضير ليسير

---

* الى الشبيبة الاشتراكية الثورية في روسيا   بقلم مدير مجلة **الى الامام**   لندن ١٨٧٤ ،

عادة بصورة متوازية مع تطور القوى الانتاجية وتنظيم الانتاج الذي يقابله وهـذا هو السبب في سؤالنا حتى اية درجة تبرر حالة روسيا الاقتصادية برنامج الرجال الذين يريدون الاستيلاء على السلطة والذين يعدون بأن يحققوا بفضلها مجموعة من المعجزات السياسية والاجتماعية أيملك هؤلاء الناس من الوسائل المادية من أجل الوفاء بوعدهم اكثر مما يملكه فرقب كريلوف* الذي كان يريد أن يشعل البحر لم يكن لنا بد من الجواب بالنفي ولقد شرحنا بطريقة مفصلة جدا في **الاشتراكية والنضال السياسي** السبب في اننا نعتبر هذا الجواب الجواب الممكن الوحيد في الوقت الحاضر. ولقد لامس السيد تيخوميروف المسألة في مقالته دون ان يحلل حججنا بصورة مباشرة موجها ضد قسم من اشتراكيينا قسما من العبارات التي استخدمناها لكن محاكمته قليلة الاقناع جدا حسب المألوف والمؤلف لا يسعى الى الاقناع دائما بل انه يكف أحيانا عن البرهان مقتصرا على التأكيد على اصدار المراسيم اذا جاز لي التعبير فكأنه يملك سلفا السلطة على اذهان قرائه واما يؤنب الناس الذين يرون أنه المحال أن يستولي الحزب الثوري الحالي على السلطة ويتهمهم بتشويش المفاهيم فانه يعارضهم مثلا بالبيان التالي لا يمكن الارتياب في أن مسألة الاستيلاء على السلطة من قبل اية قوة ثورية هي قبل كل شيء وقف على مسألة معرفة ما اذا كانت الحكومة القائمة على قدر كاف من البلبلة والترنح واللاشعبية ؛ واذا ما توفرت هـذه العنـاصر جميعـا فان الانقـلاب لن يكون محالا على الاطـلاق ولا حتى صعبا بصورة خصوصية ** ودون ان نتوقف أكثر من ذلك عند هذه المسألة الهامة ننتقل من فوره الى مناقشة فرص « الاحتفاظ بالسلطة من قبل ثوريينا ؛ ان « أولئك الذين لا يوافقون لابد لهم شاؤوا أو ابوا ان يقبلوا بالايجاز غير المألوف السنة لمؤلفنا ولسوف نقبل به أيضا وخاصة أنه « لا يمكن الارتياب هنا بحقيقة بعض تأكيدات لكننا نستشعر مع ذلك الحاجة الى طرح سـؤال من الذي « يشوش المفاهيم اذن أهو السيد تيخوميروف أم خصمه ؟ وبادىء ذي بدء ، فان الانقلاب شيء مختلف كل الاختلاف عن الاستيلاء على السلطة من قبل اية قوة ثورية وحيث « تكون الحكومة القائمة على قدر كاف من البلبلة والترنح واللاشعبية فان الانقلاب لن يكون محالا على الاطلاق فحسب بل هو على وجه التقريب محتوم ، وبالتالي ـ وهذا ما ندركه جيدا ـ ليس صعبا بصورة خصوصية بيد انه لا يترتب على ذلك أن « اية قوة ثورية يمكن أن تحل محل الحكومة التي تمت الاطاحة بها وتتخذ المكان الذي فقدته ان الانقلاب يمكن أن يتحقق بالعمل المتشارك لعدد من القوى المتعادية وان تكن ثورية بالنسبة الى النظام القائم وعندئذ سوف تعود « السلطة » ليس الى هذه القوة او تلك مطلقا ،

---

* [نوع من الطيور]

** **الرسـول** ، العدد الثاني ، ص ٢٥٥

بل الى حصيلتها التي سوف تجسدها الحكومة الجديدة المؤقتة او النهائية وأن مسألة الاستيلاء على السلطة وهي ابعد ما تكون عن الحل سوف تزداد تعقيدا بالنسبة الى كل من تلك القوى من جراء هذه الخاتمة فبدلا من ان تواجه خصما مضعفا ولا شعبيا سوف تضطر الى النضال ضد منافسين جدد تماما ، طافحين عزما لم تنهكهم المعركة بعد ويملكون خلفهم تأييد قسم من الامة هذا كله واضح وضوح النهار وحالماسضح افي مقدورنا ان نجعل من القضية التي تعنينا ، قضية الاستيلاء على السلطة من قبل حزب ارادة الشعب » مجرد مسألة هساشة الحكومة القائمة والانقلاب المحتمل ؟ انملك الحق في أن نستبدل مفهومين مختلفين كل الاختلاف في مضمونهما واهميتهما ؟

لكنه سوف يقال لنا انكم تعطون « الانقلاب معنى مختلفا كليا عن المعنى الذي يقصده السيد تيخوميروف انه لا يعني من ذلك سقوط الحكومة القائمة واقامة حكومة جديدة فحسب ؛ بل يفترض كذلك أن هذه الثورة سوف تتحقق بفضل مؤامرة ناجحة في قلب حزب ثوري معين حزب وطيد العزم وله مؤيدوه ان المؤامرة مشروع سري تتحقق دون معرفة جميع اولئك الذين يستطيعون ، بعد الانقلاب ان يصبحوا منافسين للمتآمرين حين كان نابليون الصغير يفكر في حركته في الثاني من كانون الاول فانه لم يخطر في باله قط ان يعلن عن نواياه للاورليانيين والشرعيين واقل من ذلك أن يطلب العون منهم وان الغنيمة التي استولى عليها البونابرتيون وحدهم قد ظلت بكاملها بين أيديهم ولم يكن في وسع المنافسين الا أن يجتروا غيظهم ، آسفين لانه لم تخطر لهم فكرة هذه العملية المثمرة ولم ينالوا جدارتها أليس في مقدور ثوريين مخلصين ان يفعلوا ما فعله ابن الاخ الشهير ؟ أيكون امتياز النصر مقصورا على الشيطان وحده ؟ وهل سلاح برهن على فعالية بين يدي مغامر في السياسة يرفض خدماته لاولئك الذين يريدون خير بلادهم ؟

اذا كان السيد تيخوميروف يعطي هذا المعنى حقا للانقلاب فانه يشوش المفاهيم » بصورة اشد فظاظة مما نحسب ما الذي يمنحه الحق في ان يحل محل الواقع الحسي امكانية مجردة وذلك بصورة مفاجئة ودون وازع من ضمير ؟ افلا يبين **الممكن** عامة مستحيلا بصورة حاسمة عند تطبيقه على بعض الحالات الخصوصية عندما يوصي الحزب الثوري الروسي بسلوك طريق التآمر أيكون من المشروع الاقتصار على العموميات من نوع ان تنظيم مؤامرة ناجحة ليس صعبا بصورة خصوصية عندما تكون الحكومة مبلبلة ولا شعبية ؟ أيكون الثوريون الروس متآمرين على العموم متآمرين شبحيين يفلتون من الشروط التي تحول ما هو ممكن بالنسبة الى البعض الى استحالة وهمية بالنسبة الى الآخرين ؟ الا تتوقف فرص نجاح المؤامرة اذن على خصائص البيئة التي ينتسب المتآمرون اليها ؟ وألا تؤثر اذن خصائص هذه البيئة في مطامح المتآمرين واهدافهم ؟ يكفي أن ننظر الى وسطنا الثوري

من وجهة النظر هذه كيما تفقد في الحال كل معنى العموميات المتعلقة بالصعوبة القليلة لمؤامرة ظافرة

الى اية طبقة ، الى اية شريحة اجتماعية ينتسب حتى الوقت الراهن غالبية ثوريينا ؟ الى ما سمي وسط « المثقفين البروليتاريين ولقد تحدثنا من قبل عن خصائصه في **الاشتراكية والنضال السياسي** ، ونأسف جدا لان السيد تيخوميروف لم يجد من المناسب مطلقا أن يكذبنا

لقد كتبنا نقول

مثقفينا البروليتاريين قد عملوا حتى اشيء احل تحرير بلادهم لقد نسفوا أسس الحكم المطلق يغدا المثقف على السياسة، ويذروا الدعاية الاشتراكية في صفوف الطبقة العاملة يصنعون انتقـ الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا حالزين على ثقافة تلك الطبقات وعلى المعريزة الديموقراطية لهذه الطبقة الاخيرة هذا الوضع قد لهم يحرطوا في عمل كبير من التحريض والدعاية لكنه لا يترك لهم كذلك الا قدرا ضئيلا من الرجاء بشأن نتيجة مؤامرة تستهدف الاستيلاء على السلطة فهي لا تكفي الموهبة والحمية والثقافة بل لابد كذلك من علاقات ، ومن الثروة ، ومن مركز اجتماعي متنفذ وهـذا هو على وجه الدقة ما تفتقر اليه الانتيلجنتزيا الثورية عندنا وهي لا تستطيع تسد هذه الثغرة الا بالتحالف مع البقية من الناقمين في المجتمع الروسي المثقف ولنفترض أن المؤامرة اجتذبت الى صفها الملاكين العقاريين الاغنياء والرأسماليين والموظفين والضباط الصغار والكبار ان نجاح المؤامرة سوف يصبح أعظم احتمالا لكن هذا الاحتمال سوف يظل ضعيفا جدا بعد لنتذكر بالاحرى كيف انتهت معظم المؤامرات في التاريخ ومهما يكن من شيء ، فان الخطر الاكبر الذي يهدد هـذه المؤامرة الاشتراكية لا يصدر عن الحكومة الموجودة في السلطة بل سوف يصدر عن المتآمرون مرة عن الاهداف الاشتراكية للمؤامرة فانه يمكن اعتبار عديمة قسما منها لا يمكن أن يكونوا اشتراكيين باخلاص الا بمحض الصدفة السعيدة أما فيما يتعلق بغالبيتهم فليس ما يضمن ألا يطمعوا باستخدام السلطة المستولى عليها بهذه الطريقة لغايات ليس لها شيء مشترك مع مصلحة الطبقة العاملة ما استدار المتآمرون مرة عن الاهداف الاشتراكية للمؤامرة ، فانه يمكن اعتبار هذه المؤامرة عديمة الجدوى بل ضارة بتقدم البلاد الاجتماعي . ليس في الامكان بدافع الحقد الخالص على الحكم المطلق منح التأييد لاولئك الذين يسميهم ستيبنياك سيجانات اليوم والذين يريدون أن يضعوا المؤامرة في خدمة مصالحهم الخاصة وهكذا عواقب الانتليجنتزيا الاشتراكية بهدف الاستيلاء القريب على السلطة تصبح أكثر ريبة بقدر ما تجد هذه المؤامرة التأييد لدى الدوائر العليا بعبارات أخرى أكثر ريبة بقدر ما يعبر نجاحها الظاهري أعظم احتمالا »

اترانا أوضحنا ما نقصد اليه ؟ أكنا على حق حين قلنا أن العدمي المنشق ، المفيد جدا على اعتباره خميرة ثورية داخل البيئة الاجتماعية لن يستلم السلطة ، لان مركزه الاجتماعي يحظر ذلك عليه ؟ ولم يكن بونابرت يتصف بأية صفة من صفات العدمي لكنه احتاج هو الآخر باديء الامر من أجل انقلابه ن يصبح لا أكثر ولا اقل من رئيس السلطة التنفيذية للجمهورية وهل يعقل على اية حال أنه بعدما اجتذب الى حزبه عددا كافيا من الشخصيات المتنفذة وعالية الرتبة وبعدما ضم الى حاشيته جنرالات من مختلف الالوان ، سيكون العدمي هو الذي سينتفع من مركزهم الاجتماعي وليسوا هم الذين سيستغلون شجاعته كي يجعلوا من التآمر اداة اغراضهم الخاصة ؟ ورب من يقول لنا ان مركزا اجتماعيا ظريفا لا يفسد دائما بصورة عضالة صاحبه ، وان قلبا مخلصا لشعبه يمكن ان ينبض تحت بزة الجنرال ولسنا نرفض هذه الفرضية مطلقا لكننا لا نكف من اجل ذلك عن التخوف من حصان طروادة فما هي الضمانات التي يملكها الثوريون بشأن اخلاص وصراحة المتآمرين من أصحاب الرتبة العالية ؟ ان اللجنة المركزية تعرف هؤلاء السادة شخصيا ؟ ولكن ما الذي يكفل لنا أن اللجنة المذكورة لا تخطىء ابدا في اختيار الرجال ؟ أيمكن الاكتفاء بمثل هذه الضمانات في قضية بالغة الخطورة مثل قضية مصير الطبقة العاملة في بلد كامل ؟ ههنا ينكشف فارق وجهات النظر بين الاشتراكيين الديموقراطيين والبلانكيين ان الاولين يطالبون في سبيل نجاح قضيتهم بضمانات موضوعية ، ضمانات تستقيم بالنسبة اليهم في وعي واستقلال وتنظيم متعاظمة جميعا لدى الطبقة العاملة أما الاخيرون فيكتفون بضمانات ذاتية خالصة ؛ انهم يسلمون قضية الطبقة العاملة لافراد ولجان ؛ وانهم ليجعلون من انتصار الافكار العزيزة عليهم مسألة صفات شخصية للمتآمرين فليكن هؤلاء المتآمرون شرفاء ومقدامين ومجربين وسوف تنتصر الاشتراكية ؛ وليفتقروا الى الحزم والمهارة في العمل وسوف يتأخر انتصار الاشتراكية ؛ ولسوف يتأخر هذا الانتصار لفترة قصيرة من الزمن اذا برز متآمرون آخرون أعظم مهارة لكنه سيتأخر الى ما لا نهاية اذا لم يتوفر مثل هؤلاء المتآمرين ان الاشياء جميعا تتوقف هنا على المصادفة وعلى ما تتحلى به عناصر منفردة من ذكاء وحذق وارادة*

---

* ليس تماما على اية حال المتآمر يتصور أحيانا شروط النصر الموضوعية في شكل مؤثرات فيزيائية أو مناخية ومثال ذلك أننا نجد في أحد أعداد **الناقوس** مقالة عن مؤامرة الجنرال ماليه وانه ليتبين من هذه المقالة أنه لم تحدث ثورة في فرنسا في عام ١٨١٢ لهذا السبب الوحيد ، ألا وهو أن السماء أمطرت بصورة غزيرة جدا في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ تشرين الاول من السنة المذكورة في وقت غير مناسب على الاطلاق وضد جميع التوقعات أتجد أيها القارىء أن هذه الشطحة غير معقولة ؟ اقرأ الفقرة التالية واحكم بنفسك عندما انتهى كل شيء اراد ماليه ان يقصد في الحال الثكنة الاقرب، لكن السماء كانت تمطر بالسطول فقرر المتآمرون ان ينتظروا حتى الساعة الثالثة ، وتلك كانت الخطيئة

ولا يعترضن احد علينا بأن البلانكيين الروس الحاليين لا ينكرون اهمية عمل التحضير في الوسط العمالي فلا يمكن أن يحوم أدنى شك حول هذا الموضوع منذ أعلن **تقويم ارادة الشعب** أن السكان العماليين في المدن يملكون « اهمية عظيمة بصورة خصوصية بالنسبة الى الثورة ص ١٣٠ لكن هل يوجد في العالم حزب واحد لا يوافق على ان الطبقة العاملة يمكن أن تقدم معونة كبيرة في ملاحقة اغراضه ؟ ان سياسة بسمارك الراهنة تبين جيدا أن هذه الحقيقة لم تغب عن اذهان كبار الاقطاعيين البروسيين أنفسهم ان العالم بأسره نتوجه اليوم نحو العامل لكن العالم كله لا يخاطبه باللغة نفسها كما ان جميع البرامج السياسية لا تحتفظ له بالدور ذاته وان هذا الفارق ليتضح حتى بين الاشتراكيين ففي نظر الدموقراطي جاكوبي كان تأسيس رابطة عمالية واحدة أغلى من معركة سودوفا بالنسبة الى تاريخ الحضارة ومن المؤكد أن البلانكي ينضم الى هذا الرأي لكنه لا يفعل ذلك الا لأن المؤامرات الثورية لا المعارك هي التي تشكل بالنسبة اليه النابض الاساسي للتقدم خيروه بين نقابة و نبيل نادم »(٧٢) ،لواء على سبيل المثال وهو لن يتردد لحظة واحدة وسوف يفضل هذا الاخير والامر بدهي فمهما تكن اهمية العمال من أجل الثورة فان أنصارها ذوي المراكز العالية اهم من ذلك اذ من المحال القيام بخطوة واحدة بدونهم وكثيرا ما يمكن أن تتوقف نتيجة المؤامرة بكاملها على سلوك واحد من أصحاب السعادة* ويرى الاشتراكي الدموقراطي أن حركة ثورية حقا غير ممكنة اليوم الا في قلب الطبقة العاملة ، في حين يرى البلانكي

القاضية لقد كانت جميع فرص النجاح متوفرة للمؤامرة في ظلام الليل ، اذ لم تكن السلطة المدنية والسلطة العسكرية تملكان الوقت للتشاور ولقد أفلت المتآمرون اللحظة المناسبة ومن جراء ذلك ، ولهذا السبب وحده فشلت المؤامرة

ومهما يكن الحكم الذي نصدره على هذه الطريقة في تفسير تاريخ الشعوب فليس من يعترض على أنها لا تزودنا بأية وسيلة للتكهن بحد أدنى من الحس السليم بالظواهر الاجتماعية ، وبعبارة أخرى أنها تحظر كل محاولة من أجل مناقشة قضايا البرنامج بصورة جدية

وهكذا فان بداية التنظيم الاشتراكي لروسيا الذي حدثنا عنه السيد تيخوميروف قد يتاخر هو الآخر بفعل تقلبات الجو الامطار الطوفانية تثبت أنها ضارة بانتصار الاشتراكية بقدر ما توحد قضية هذه الاشتراكية بانتصار هذه اللجنة أو تلك وبقدر ما يعرض عن اعتبار درجة التطور السياسي والاجتماعي للطبقة العاملة في بلد معين

* ان مؤامرة الجنرال ماليه كما تروي **الناقوس** قصتها تؤكد على اهمية « الالوية » بل الضباط العاديين بالنسبة الى الثورة » « كيما يستطيع ماليه ينجح في تنفيذ الخطة التي وضعها لابد له [illegible] ضمن مساعدة ضابطين على الاقل وحاذقين [illegible] بالحقد على الامبراطور » ، الخ

ان الثورة لا تعتمد على العمال الا بصورة جزئية ، فأهميتهم هائلة بالنسبة اليها، لكن ليست اساسية في حال من الاحوال ان ذاك يرى أن **الثورة** « ذات اهمية عظيمة بصورة خصوصية **بالنسبة الى العمال** ؛ أما هذا فيرى ان **العمال** كما نعلم هم الذين يملكون اهمية عظيمة بصورة خصوصية **بالنسبة الى الثورة** . ان الاشتراكي الديموقراطي يريد أن يصنع العامل **بنفسه** ثورته اما البلانكي فيطالب بأن **يدعم** العامل ثورة قام بها آخرون وهم يقودونها من أجله وباسمه ، السادة الضباط على سبيل المثال اذا ما تصورنا الامر على طريقة مؤامرة الديسمبريين . وان طبيعة العمل وتوزيع القوى على حد سواء يتغيران من جراء ذلك فالبعض يتوجهون بصورة اساسية الى الوسط العمالي ؛ أما الآخرون فيرون أن ذلك عنصر ثانوي لن يلجأوا اليه الا اذا كانت الضرورات المتعددة ، والمعقدة وغير المتوقعة والمتزايدة الالحاح باستمرار لمؤامرة حبكت خارجا عن ذلك الوسط لا تقف حجر عثرة في سبيل ذلك وان الفارق ليثبت انه ذو اهمية عملية هائلة ؛ وهذا ما يفسر بصورة خاصة عداء الاشتراكيين الديموقراطيين للخرافات البلانكية عن المؤامر

٣ • العواقب المحتملة لثورة « شعبية »

لنكن متسامحين ولنقبل بغير المعقول لنفترض أن السلطة هي حقا بين أيدي أصحابنا الثوريين الحاليين إلام سيؤول النصر ؟
لنصغ الى مؤلفنا

راجب الاول ، الواجب الفوري للحكومة المؤقتة الظافرة هو تسرع الى نجدة الشعبية . السلطة السياسية التي تم الاستيلاء عليها يجب ان تستخدم من أجل تنوير الجماهير الشعبية في كل مكان وتنظيم السلطة لها وان الثوريين ليعملون على أرض سببه في حجز هذه المهمة وليس أمام الحكومة المؤقتة اي شيء تخلعه ها عنه فقط تطبق العمل للقوى الموجودة في الشعب والتي هي في حالة من السدة ذلك ولا حاجة ها بالحكومة المؤقتة لا الى جمهرة الشعب الى معينه انها لا تفعل سوى أن تحمل اليه عونا خارجيا خالصا ※»

هكذا تتصور السيد تيخوميروف دور حكومة مؤقتة ملزمة باستلام السلطة انه على يقين من أن العون الخارجي الخالص المقدم الى الشعب سوف يؤول الى بداية مجتمع الاشتراكي لروسيا واذا ما بحثنا عن مصادر هذا اليقين فا حد فيه ما يبعث على الدهشة ان المؤلف قد حصل عليه من سلالته ولد تكاتشوف وتكاتشوف ولد تيخوميروف واخوته

※ رسول إرادة الشعب عدد الثاني ، ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦

واذا كان الاسلاف الادبيون المباشرون لمؤلفنا واثقين كل الثقة من أن الشعب مستعد دائما للثورة الاجتماعية فانه من الطبيعي تماما أن يؤمن سليلهم بأن الشعب يملك هذا الاستعداد ، على الاقل في اللحظة التي نجتازها ليس السيد تيخوميروف هو الذي يجب أن يدهشنا طالما أنه يتبع بكل اخلاص تقاليد أسلافه الروحيين بالرغم من كل الحياء الذي ينتابه عند الاعتراف بقرابته ان ما يجب أن يبعث فينا الذهول بالاحرى هو أن بعض القراء الذين ينكرون نظريات باكونين وتكاتشوف يتصورون أن السيد تيخوميروف يحمل اليهم شيئا جديدا أكثر جدية، وأعظم قابلية للتحقيق ان الروح النقدي عند هؤلاء القراء مجرد صيغة عابثة والمنطق فكرة جوفاء كليا

عندما ينتهي المرء بصورة لا عودة عنها من خرافات باكونين وتكاتشوف فان نقين السيد تيخوميروف تثبت أنه عديم الاساس بصورة مطلقة وعندئذ فانه يدرك ان الثورة الاشتراكية تفترض مجموعة كاملة من التدابير من أجل التنظيم الاشتراكي للانتاج وان هذا ليكفي كي لا نكون في الامكان في حال من الاحوال اعتبار العون « الخارجي الخالص للحكومة المؤقتة قادرا على ضمان خاتمة ظافرة لهذه الثورة وعلى أي حال فان التنظيم الاشتراكي للانتاج يفترض شرطين من المحال مباشرته بدونهما أولهما شرط موضوعي يقوم في طبيعة العلاقات الاقتصادية داخل البلاد وثانيهما شرط ذاتي خالص يتعلق بالمنتجين انفسهم ان الامكانية الاقتصادية الموضوعية للانتقال الى الاشتراكية لا تكفي يجب فضلا عن ذلك أن تفهم الطبقة العاملة هذه الامكانية أن تعيها وان الشرطين ليترابطان بصورة وثيقة ان العلاقات الاقتصادية تؤثر في المفاهيم الاقتصادية والمفاهيم الاقتصادية تؤثر في أسلوب النشاط وفي العلاقات الاجتماعية وبالتالي الاقتصادية وحالما نكف عن الايمان باليمين الإلهية وبالافكار الفطرية يبقى علينا أن نعترف بأن

نظام الافكار نقرره نظام الاشياء وأن الافكار التي نكونها عن الواقع الاقتصادي المحيط بنا مشروطة بخصائص هذا الواقع نفسه وأن هذه الخصائص لتحدد كذلك اتجاهات الطبقات المختلفة المحافظة في هذه المرحلة من التاريخ الثورية في هذه المرحلة الاخرى ولا تثور طبقة ضد الواقع المحيط بها ولا تدخل في تناقض معه الا حين يتجزأ هذا الواقع في ذاته حين تنكشف التناقضات فيه وأن طابع القتال الجاري ضده ومجراه وخاتمته تتوقف جميعا على طبيعة هذه التناقضات وأن أحد التناقضات الاقتصادية الرئيسية في البلدان الراسمالية هو ذلك التناقض الذي يقيم التعارض بين الطابع الاجتماعي للانتاج والتملك الفردي من قبل المعلمين لوسائل الانتاج وأدواته وبالتالي لمنتجاته ونظرا لاستحالة التخلي المطلقة عن التنظيم الاجتماعي للانتاج فان الاسلوب الوحيد من أجل حل التضاد يقوم في تحقيق التوافق بين الانظمة القانونية والحقائق الاقتصادية في نقل

ملكية ادوات العمل ومواضيع العمل الى المجتمع الذي سيوزع المنتجات بصورة تتطابق مع حاجات الشغيلة وان هذا التناقض وكذلك الحاجة الملحة الى حله ، يعيهما اكثر فأكثر أولئك الذين يعانون منهما ان الطبقة العاملة تميل اكثر فأكثر نحو الثورة الاشتراكية وتتهيأ لها ولقد كررنا عدة مرات هذه الحقيقة التي برهن ماركس عليها الا وهي أن التناقض المذكور أعلاه نظهر بالضرورة في درجة معينة من تطور الانتاج السلعي بيد أن الانتاج السلعي مثله مثل جميع الاشياء في هذا العالم لايملك نهاية فحسب بل له بداية أيضا فهو لا يهيىء فحسب نظاما اجتماعيا جديدا بفضل التناقضات الخاصة به بل لقد ولد هو نفسه فيما مضى من تناقضات النظام الذي سبقه ومن المعروف أن الانتاج السلعي سبقه الاقتصاد الطبيعي والجماعية البدائية وان التناقضات التي برزت داخل المشاعات البدائية قد كان سببها الرئيسي عزلة عن هذه الجماعيات ، واستحالة تطبيق المبدأ الشيوعي على العلاقات بين المشاعات ولقد ادت هذه العلاقات الى نمو **المبادلة** وبذلك أصبحت منتجات العمل الجماعي سلعا ومارست في هذا الوضع الجديد تأثيرا مفككا في التنظيم الداخلي للمشاعة بالذات ومن المعروف أن مرحلة انحلال الجماعية البدائية المعروفة باسم المشاعة الزراعية تتصف بكون **المزارعين المفردين** يستغلون فيها **أرضا جماعية** وان هذا التناقض يستتبع تطور الملكية الخاصة ويوطد اكثر فأكثر الانتاج السلعي ويؤدي الى ازدهار التناقضات الخاصة بهذا الانتاج يعني استثمار العمل من قبل الرأسمال ان الانتاج السلعي يسير نحو نهايته بفضل التناقض القائم بين التنظيم الاجتماعي للانتاج والنمط الفردي للتملك ؛ وعلى العكس من ذلك فانه يتقدم بفضل التناقض بين الطابع الفردي للاقتصاد والطابع الجماعي لتملك احدى الوسائط الرئيسية للانتاج التي هي الارض ولنطرح الآن سؤالا على السيد تيخوميروف في أية مرحلة من تطور الانتاج السلعي توجد روسيا في الوقت الحاضر ؟ أي من التناقضين آنفي الذكر يسم نظامها الاقتصادي ؟ اذا كان التناقض الاول فان التعارض بين روسيا والغرب لا يملك أي معنى وكذلك اذن أصالة البرامج « الاشتراكية الثورية الروسية واذا كان التناقض الثاني ، فكيف يمكن لحكومة ثورية أن توقف تقدم الانتاج السلعي ؟ وكيف ستحل التناقضات اللاصقة بمشاعتنا الزراعية ؟

ان استيلاء الثوريين على السلطة يمكن أن يستتبع احتمالين

فاما أن تقتصر الحكومة المؤقتة على تقديم « عون خارجي خالص للشعب ، وتدعه ينظم بنفسه نظامه الاقتصادي دون أن تلقنه أي درس ودون أن تلزمه بأي شيء كان

واما أن تحتفظ بالسلطة التي استولت عليها دون أن تعود الى حكمة الشعب وتنظم بنفسها الانتاج الاشتراكي

ولقد عالجت هذين الاحتمالين في **الاشتراكية والنضال السياسي** ولا يبقى امامنا الا ان نكرر ما قلناه من قبل شارحين فكرتنا

ويوفر علينا السيد تيخوميروف ضرورة ايضاح رأينا بصورة مفصلة بشأن الحالة الثانية انه لا يريد أن يسمع حديثا عن استبداد حكومة شيوعية انه يطالب بان تقدم الحكومة المؤقتة « عونا خارجيا خالصا الى الشعب كيما تنظم الشعب بصورة مؤقتة وفي حدود لا تتجاوز ما تتطلبه الامر كيما تمارس سيادته في هذه الشروط ومهما تكن هذه العبارة غامضة فان معناها بقدر ما تملك معنى هو في التخلي التام عن اية محاولة من اجل اقامة الاشتراكية بواسطة مراسيم تصدر عن جمعية سرية تكون قد « استولت على السلطة واخيرا فان مؤلفنا يعلن بصراحة تامة ان الحكومة المؤقتة لا يجوز لها بالتأكيد أن تستخدم هذه السلطة من اجل خلق نظام اشتراكي هذا بكل تأكيد قول آخر مخالف للمنطق جدا لأنه سيكون من المضحك الا تستخدم حكومة اشتراكية ولو مؤقتة، سلطتها من اجل خلق نظام اشتراكي وعلى اي حال فان ثمة نقطة واضحة ن السيد تيخوميروف يؤمن بصورة وطيدة ان الحكومة المؤقتة لن تخلق شيئا بل سوف تطلق العنان فقط للقوى الموجودة في الشعب فلنر اذن إلام يمكن أن تؤدي مثل هذه السياسة الخاصة باطلاق العنان

ان مؤلفنا لا يوضح رأيه بشأن ديمومة المرحلة التي ستعمد خلالها الحكومة المؤقتة الى تنظيم سلطة الجماهير الشعبية كذلك لا يطلعنا على المقصود من هذا التنظيم وكيف سيترجمه من لغة حزبه الصوفية الى اللغة الروسية الادبية انه لا يقول كلمة واحدة عن الطريقة التي ستسلم بها حكومة « حزب ارادة الشعب التي استولت على السلطة مقاليد الامور لحكومة منتخبة وخاضعة للمراقبة وقابلة للعزل من قبل الشعب وهكذا لا يبقى أمامنا الا أن نختار بأنفسنا أكثر الفرضيات الممكنة معقولية ان بلدان الشرق لم تعرف حتى الآن الا ثورات من القصر او حركات شعبية لم تكن السياسة الواعية تحتل اي مكان فيها وكيما نتصور بشيء من الوضوح المسيرة المحتملة للثورة الروسية يجب علينا اذن شئنا ام ابينا أن نقبل بانها سوف تتحقق بالرغم من نوعيتها على الطريقة الغربية ، جزئيا على الاقل ولكن اليكم كيف جرت الامور عادة في الغرب ان الحكومة المؤقتة المنبثقة عن الثورة كانت تدعو وهي تستمر في الدفاع عن هدف الثورة ضد هجمات الرجعية ، جمعية تاسيسية تضع مصير البلاد بين يديها وكانت الجمعية . بعد أن تعد دستورا جديدا، تقيم حكومة نهائية مطابقة مع المطالب الالح للبلد بأسره او بعض من طبقاته ومن البدهي أن الحكومة الجديدة لم تكن نهائيــة الا حتى الثورة التالية أو حتى التعديل التالي للبيان الدستوري

ولنفرض الآن أن « حزب ارادة الشعب » ، وقد استولى على السلطة ، وفى بوعود

السيد تيخوميروف ودعا ممثلي الشعب الروسي دون ن يلزمه بأي شيء كان.
الى جمعية تأسيسية ولنفترض بأن الانتخابات أجريت في الشروط الاكثر ملاءمة
للثوريين بعد ان تم ضمان استقلال الشعب الاقتصادي يعني بعد أن تنتزع
ملكية الملاكين العقاريين الكبار والصناعيين الكبار ولنفترض كذلك أن الحكومة
المؤقتة اقامت نظاما للاقتراع حسب المرتبة والطبقة ، فلم تعترف بالقدرة السياسية
الا للفلاحين والحرفيين وبروليتاريي العمل الفكري واليدوي ولنفترض اخيرا أن
الحكومة المؤقتة تعرف كيف تدافع عن الاستقلال السياسي للشعب وأن الجمعية
التأسيسية تعرف كيف توطده ان العملية الاخيرة سوف تكون أعسر بقدر ما تأتي
بصورة أسرع تلك اللحظة التي تنبأ بها السيد تيخوميروف من اجل الثورة ذلك
أن هذا السيد تيخوميروف نفسه قد علمنا أن الادارة الشعبية ليست ممكنة
حتى مع بورجوازية عاجزة الا اذا كان الشعب قد فقد أوهامه بصورة كافية بشأن
الاوتوقراطية القيصرية وانه ليترتب على ذلك انه اذا لم تكن هذه الخيبة على
قدر كاف من القوة حوالي برهة الانفجار الثوري ، فانه لن تكون ادارة شعبية على
الاطلاق كما ان الثورة تجازف بولادة مسخ سياسي على غرار الامبراطوريةالصينية
القديمة او امبراطورية الانكاس ، يعني استبدادا قيصريا متجددا استبدادا على
خلفية شيوعية لكن لندع التشاؤم جانبا ؛ لنأخذ بعين الاعتبار أن روسيا « لاتستطيع
أن تنتظر ولنفترض ان بلادنا من جراء هذا التطرف سوف تتعجل الانتهاء
من الحكم المطلق بل لنبالغ في روح التفاؤل حتى نعتبر أن الخاتمة الافضل هي
الاكثر احتمالا حتى القبول بأنه سيقوم عندنا الشكل الانقى للادارة الشعبية
يعني التشريع المباشر من قبل الشعب ولنسأل فقط أمكننا أن نتوقع أن
يقيم الشعب السيد في الحال « بداية التنظيم الاشتراكي لروسيا » ؟

انا نعرف على أي حال أن

Wo die Begriffe fehlen
da stellt ein Wort zur rechten Zeit sich ein❊

ومع ذلك فاننا سنرجو القارىء أن يفكر في معنى كلمات **التنظيم الاشتراكي للانتاج** وطلبا لمزيد من الوضوح أن يتصور ما سوف يقرره من دون ريب في هذا الشأن الشعب السيد

فلابد لجمعية ممثليه ان تعود الى حكمه في جميع المسائل التشريعية الهامة

لسوف تسأله ما اذا كان يؤيد ويكرس انتزاع ملكية الملاكين الكبار المقرر من قبل الحكومة المؤقتة ومن المؤكد انه سيجيب بالايجاب ن الارض والمناجم والمعامل والمانيفاكتورات ستعلن ملكية وطنية

لكن تغيير المالك لا يعني بعد تغييرا في تنظيم الانتاج ان مسألة **انتزاع الملكية** ستقود الى مسألة **استثمار** الاملاك المصادرة

❊ [... حيث تنعدم الافكار تأتي دائما كلمة في الوقت المناسب . غوته : **فاوست**] .

ان من واجب الشعب السيد أن يعيد تنظيم كامل اقتصاده وانتاجه وتوزيع جميع منتجاتـــه

ما هو نمط التنظيم الذي سوف يعتبره ضروريا ؟ هل ستعلن غالبية طبقة الفلاحين عندنا انها الى جانب الشيوعية ؟

ان السيد تيخوميروف نفسه لا يتوقع ذلك ان الشعب اذا كان في نفس مستوى تطوره في الوقت الراهن ، أو في مستوى قريب جدا منه ، لن يريد ، وفضلا عن ذلك لن يعرف أن يمنح نفسه اقتصادا شيوعيا

وحتى بالنسبة الى زراعة الحقول ، فمما لا ريب فيه أنه سيحافظ على التنظيم الحالي للانتاج ان الارض المؤممة ستظل تزرع بالاسرة ونحن نعرف الى أين يؤول هذا التناقض انه يولد التفاوت ، ويسهم في تطور الانتاج السلعي ويستتبع بالتالي التناقضات الجديدة التي لا تنفصل عنه ان قصة انحلال المشاعة وتمايز الطبقات الاجتماعية سوف تتكرر في شكل آخر وعلى نطاق أوســـع ان من عادة الشعبيين وانصار ارادة الشعب أن يعزوا انحلال المشاعة الى عداوة دولة قائمة على أساس المراتب والطبقات وليست بنا حاجة البتة بعدما سبق قوله في هـــذا الشأن في الفصل السابق الى التوقف من أجل دحض هذه الحجة ، أو بالاحرى من أجل ايضاح معناها الحقيقي ان العلم الحديث لا يترك ادنى شك في هذه النقطة ان التفاوت يظهر في المساعات البدائية قبل أن تنتظم هذه المشاعات في دولة ان الدولة، وهي البعيدة عن كونها **السبب الاصلي** للتفاوت، هي تاريخيا **نتيجة** له وبالتالي فمن المؤكد أنها تمارس فعلا على العلاقات الاقتصادية وتدمر الشيوعيـــة البدائية لكن كل من يريد أن يقضي على التفاوت من جذوره (ولا يمكن للمرء أن يكون اشتراكيا دون أن يريد ذلك يجب أن يركز انتباهه على السبب الاساسي وليس على السبب المسبق البتة انه ليكون من غير المنطقي أن نسعى الى تدمير نمط الدولة الذي **يفاقم** من التفاوت دون أن نمس العلاقات الاقتصادية التي **تخلق** التفاوت والدولة «الطبقية» على حد سواء ان هذا النوع من اللامنطق سوف يكون خطيئة حكومة اشتراكية لن تضـــع قط نصب أعينها أن تلقن دروســـا للشعب أو تلزمـــه بتنظيم اشتراكي انها لن تفعل في أحسن الاحوال حين تكلف بهذا التنظيم منتجين لم يستعدوا له على الاطلاق وحين تكتفي بأن تقدم الى الشعب « عونا خارجيا خالصا »، ان تنسر الجذع تاركة الجذور التي تدعمه سليمة وان اعضاء مثل هذه الحكومة المؤقتة سوف يبرهنون على قدر كبير من السذاجة اذا دهشوا بعد فوات الاوان لأنه نبت مكان الجذع القديم المتعفن جذع أمتن وأكثر حيوية

اننا نكرر ذلك اذا قامت ادارة الشعب حقا عندنا واذا ما سئل الشعب السيد ما اذا كان في حاجة الى الاراضي وما اذا كان من الواجب انتزاعها من الملاكين الكبار فانه سيجيب : « نعم انها تلزمني ومن الواجب انتزاعها » . لكن مسألة

معرفة ما اذا كان يحتاج الى « بداية تنظيم اشتراكي سيجيب عنها أولا بأنه لا يفهم ما الذي يطلب منه . ومن بعد سيرد ، وقد فهم بشيء كثير من الصعوبة ما هو المقصود: « كلا لا حاجة بي الى ذلك ولما كان انتزاع ملكية الملاكين العقاريين الكبار لا يعادل مطلقا بداية تنظيم اشتراكي فان اية اشتراكية لن تترتب على استلام السلطة من قبل الثوريين* لسوف يحدث ما تنبأ به السيد تيخوميروف بصورة غير ارادية حين أكد أن الحكومة المؤقتة لن تستعمل سلطتها « لخلق نظام اشتراكي». ولسوف نجد انفسنا امام المشاعة الزراعية الحالية والفارق الوحيد هو ان المشاعة المذكورة التي تملك حوالي ثلاث مرات من الاراضي اكثر مما تملكه في الوقت الحاضر ربما انحلت بصورة أبطأ ، وبالتالي أفسحت المكان بصورة ابطأ لاشكال عليا من الحياة المشتركة

وتطور المشاعة الذاتي ؟ لكن هذا التطور يستقيم بالضبط في انحلالها وان كل من ينكر ذلك يجب ان يقدم البرهان على العكس ، أن يحمل الينا ان لم يكن أمثلة تاريخية على تحول المشاعة الزراعية الى مشاعة شيوعية فعلى الاقل الاشارة الى انها تتوجه نحو هذا التحول والى انها لا تتوجه نحو ذلك في عقول شعبيينا فقط بل في تنظيمها بالذات وفي تطور زراعتها بكامله اننا نعرف أين وكيف ولماذا تحولت المشاعات الشيوعية البدائية الى مشاعات لمزارعين منعزلين لكننا لا نعرف لماذا ولا كيف ستصبح مشاعتنا الروسية شيوعية ولما كنا نحب أن نتجاذب احيانا اطراف الحديث مع الشعبيين فاننا لم نستطع بكل تأكيد ان نجهل أن مشاعتين أو ثلاث مشاعات من مشاعاتنا قد انصرفت الى زراعة الارض بصورة مشتركة لقد كان زمن ازدهر فيه اسم غريكوفكا وهي القرية التي جعلتها هذه المأثر شهيرة على شفاه جميع اصدقاء الشعب وكان يعتقد ان هذه القدوة سوف تحل المسألة الاجتماعية في روسيا كلها لكن لو أن فلاحي هذه المحلة قد لوحقوا بتهمة السيوعية فان محاميهم ما كانوا يجدون أية صعوبة في البرهان على أن المدعي العام لا يفهم شيئا من العقيدة الشيوعية ان زراعة الارض بصورة مشتركة ليست بالشيوعية اكثر من العمل المشترك للمسخرين أو تلك « الفلاحات الجماعية » التي أقامها نقولاس الاول بضربات السياط وطعنات الحراب ومهما يكن الامبراطور الخالد الذكر احمق فانه ما كان ليحسب قط أن الفلاحة بصورة مشتركة تكفي لجر المشاعة نحو الشيوعية ليس لب المسألة الطريقة التي يشتغل المزارعون بها — ما اذا كان بصورة مشتركة أو على انفراد — بل وجود استثمارات مفردة وارادتها في التجمع في كل شيوعي ان مثل هذه الارادة لم تتظاهر في قرية غريكوفكا فقد ظل المزارعون الذين يقطنون هذه القرية مالكين لمنتجات عملهم التي

* هذا ما لا يفهمه « الاشتراكيون الثوريون الحاليون الذين يستبسلون لبعث أوهامنا القديمة عن الثورة » [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

يحولونها الى بضائع وطالما انهم لم يلغوا الطابع التجاري للمنتجات المذكورة ، فاننا نستطيع ان نبرهن رياضيا على أن الاتجاه السائد لهذه المشاعة كان يحملها نحو الراسمالية وليس نحو الشيوعية

ن الزراعة الجماعية للارض شيء حسن جدا ونافع جدا لكنه سيكون امرا بالغ العجب أن يتصور المرء انها سوف تصبح طريقا موصلة بين المشاعة الحالية والمثل الاعلى الشيوعي انها تستطيع على الاكثر أن تلعب دور درب فردية صغيرة تنفذ الى طريق رئيسية تذهب في اتجاه مغاير تماما انها ستقدم خدمات كبيرة في الغرب حيث سوف تقتصر اهميتها على تلقين التعاون للفلاحين منقصة مقاومتهم ضد ثورة شيوعية ستصدر مبادرتها عن البروليتاريا المدنية والريفية لكن الميزة التي توفرها لا تمضي الى أبعد من ذلك ففي كل حركة تاريخية او ميكانيكية ، يستخدم قسم من القوة المحركة في التغلب على المقاومة وان انقاص المقاومة يعني تحرير جزء من القوة التي تمتصها والاسراع في الحركة عبدوا دربا سيئة ، شحموا آلة وانكم لتنقصون بذلك عناء الحصان الذي يجر العربة كما تختصرون من مصروف المحروقات لكنه لا يوجد ميكانيكي واحد يتصور أن الآلة ستدور من تلقاء نفسها لانه انقص الاحتكاك بين قطعها ؛ ولن يخطر في بال اي سائق عربة أن يحل أحصنته لانه نفذ الى طريق معبدة ان من يتخيل ذلك او يفعله سوف يعتبره الناس جميعا مجنونا ولن يكون في الامكان على الاطلاق استئناف هذا الحكم فلابد في سبيل اثارة الحركة من قوة فاعلة وليس منفعلة البتة من شرط ايجابي وليس سلبيا البتة وينطبق الامر نفسه على المشاعة ان زراعة الارض الجماعية امر جيد اذا كان ثمة قوة فاعلة تحرض وتعجل الانتقال الى الاشكال العليا للحياة المشتركة وأن دور هذه القوة يقع في الغرب على كاهل البروليتاريا التي سوف تباشر الثورة الشيوعية في مجال مختلف كليا ، مجال الانتاج الكبير والزراعة الكبيرة ، في المعامل ، والمصانع ، وفي المشاريع الزراعية الضخمة وفي أصل قوةالبروليتاريا، وفي سبيل توجيه تطبيق هذه القوة ستقوم العلاقات الاقتصادية المحددة جيدا الموجودة بصورة مستقلة عن المشاعة وخارجا عنها أما في بلادنا في دولة من الموجيك مؤسسة بفعل ثورة ارادة الشعب من أين يمكن ن تأتي هذه القوة الفاعلة ؟ من الفلاحين انفسهم ؟ ان السيد تيخوميروف يعتقد . كما رأينا ، أن التاريخ يملك لا ادري اية حركة خاصة نحو الاشتراكية ويسره أن يفكر أن هذه « الحركة الخاصة سوف تتظاهر في طبقة الفلاحين ايضا لكن لندعه لقناعته كيما نتوجه الى القراء الاقل سذاجة منه ان هؤلاء سيوافقوننا على الاقل على أن الاتجاهات **الاقتصادية** لكل طبقة يحددها طابع الشروط الاقتصادية التي تحيا فيها. ان فلاحنا يحيا في شروط الانتاج السلعي ، وفي الانتاج السلعي يكون المنتَج سيد المنتج ويفرض عليه قوانينه . ولكن قوانين الانتاج السلعي هي بحيث تسهم بصورة

رئيسية في تطور الراسمالية والاتجاهات الراسمالية ولا تسهم في تطور الاتجاهات الشيوعية مطلقا فمن أين يستطيع فلاحنا اذن ان يستقي اتجاها الى الشيوعية ؟

أهذا واضح كلا ؟ لننتقل اذن من الحجة الى المقارنة ان قوزاق الدون يمكون في الوقت الحاضر قدرا من الاراضي يساوي ما سوف يحصل عليه الفلاحون بعد ثورة شعبية (ونارودنية) حوالي ٣٠ فدانا لكل نفس ولاتخص هذه اشخاصا خاصين ، ولا حتى مشاعات ، بل تخص مجموع هذه « الفصيلةالمختارة وليسمح لنا بسؤال ايبدي قوازق الدون أي ميل الى اقامة اقتصاد شيوعيعندهم؟ بقدر ما نعلم فان ما يتمكن أكثر فأكثر في بنيتهم هي الطموحات البورجوازية من دون الطموحات الشيوعية ولعل ذلك يعزى الى تأثير الدولة المفسد ؟ لكنه كان زمان كان هذا التأثير يساوي فيه الصفر على وجه التقريب لماذا لم ينتقلوا الى الشيوعية اذن ؟ لان حالتهم العسكرية منعتهم من ذلك ؟ افترضوهم اذن معفيين من أية خدمة ومنصرفين الى المشاغل المدنية وحدها ما الذي سيحدث ؟ سوف نقول لكم ذلك ان ما تبقى من الشيوعية البدائية سيأخذ في الانحلال بسرعة متسارعة ، وسرعان ما سوف تدق ساعة حكم البورجوازية القوزاقية

ان وفرة الاراضي لم تحفظ القوزاق من التفاوت مطلقا ولا من استثمار الفقراء من قبل الاغنياء ان الامر على النقيض من ذلك تماما ، فوفرة الاراضي هي التي أسهمت فينشوء التفاوت* ان الراحل الاستاذ بيلاييف ، بالرغم من صبغته السلافية النزعة الشديدة قد فهم بصورة ممتازة دور وفرة الاراضي في ظهور الطبقات فهو يقول

> « من المؤكد أنه كان في روسيا القديمة أراض كثيرة ، أكثر حتى درجة كبيرة مما كانت الحاجات تتطلبه وتتذاك ، وكان كل من يشاء ذلك يستطيع أنيشغلبملءالحريةمساحات شاسعة من الغابات ومن الاراضي البكر التي لا تخص كائنا من كان ، **الامر الذي ما كان** يقصر عن القيام به جميع اولئك الذين يملكون الوسائل له**

لكن الناس جميعا ما كانوا يملكون نفس الوسائل ولذا فان الناس جميعا ما كانوا يشغلون نفس القدر من الاراضي ؛ بل كان البعض لا يشغلون اية اراض على الاطلاق لانهم ما كانوا يملكون مطلقا أية وسيلة من أجل استصلاح الارض وزراعتها. ومن هنا كان التفاوت في المداخيل وتبعية الفقراء للاغنياء وانه لمن المؤكد كذلك أن العمل الحر وزراعة الارض لم يكونا يتأخران في الاتيان بفكرة الملكية العقارية في كثير من الحالات وان هذا المظهر من المسألة قد شرحه جيدا مكسيم كوفاليفسكي في كتابه عن الملكية المشاعية للارض(٧٣) وحتى هذه الازمان الاخيرة ، عند قوازقالدون

---

* وهذا ما أثبتته بعدبضع سنوات الاعمال المرموقة للسيد بورودين عن قوزاق الاورال [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥]

** الفلاحون في روسيا ، الطبعة الثانية ، ١٨٧٩ ، ص ٤٩

(ولعل هذا موجود عند قوزاق كوبان أيضا   استمر حق اشغال الاراضي غير المزروعة بكل حرية ؛ وهذا ما أتاح للاغنياء أن يغتنوا أكثر وطرح على هذه الارض العذراء البذور الاولى للصراع الطبقي

لكن قارئا آخر قد يعترض علينا قائلا ان الدولة التي حولتها الثورة سوف تمنع الامور عندنا من اتخاذ هذا المنحى

انه لمن العسير أن نقول سلفا ما سوف تفعله دولة شعبية في هذه الحالة الخاصة أم تلك ؛ لكننا حين نعرف الشروط الاقتصادية لحياة غالبية من المواطنين   فاننا نستطيع أن نتنبأ دون صعوبة بالاتجاه العام لسياستهم الاقتصادية   وفي توقع السيد تيخوميروف ، فان الدولة التي ستقيمها الثورة ستكون دولة فلاحية بصورة رئيسية   وان الفلاح الذي لا ينطوي الا على رغبة ضئيلة في اقامة « بداية تنظيم اشتراكي » في مشاعته ، وهو عاجز عنه فضلا عن ذلك   لن يعرف ولن يريد أن يطبق هذا التنظيم على نطاق الدولة الاوسع جدا   ولسوف تكون سياسة الدولة الشعبية على قدر ضئيل من الشيوعية مثل المشاعات التي تركبها   ومن المفروغ منه انها ستعمل على القضاء على سوء الاستعمال الناجم عن وضع الاراضي الجماعية بين أيدي الافراد أو جماعات الافراد الذين يزرعونها ، لكنها لن تعقد العزم قط على أن تغتصب من المزارعين الاغنى ما يخصهم من محاصيل مخزونة وادوات عمل   وعلى أي حال ، فانها ستجد انه من العدل ومن الطبيعي أن تحد من حق المزارع على الارض   لكن ذلك لن يتم الا على اسس عمله والوسائط التي تشكل   طبعا   ملكيته الخاصة وهكذا فانه اذا كان الفلاح يملك مثلا أعلى عن النظام الاجتماعي   فانه في المحل الاول مثل أعلى عن الغزارة الزراعية يتيح لكل امرىء أن يشغل أراضي شاغرة حيثما تستطيع الفأس والمنجل والمحراث   أن تعمل   ان   الثورة الشعبية   سوف توفر امكانية تحقيق هذا المثل الاعلى بصورة جزئية على الاقل ؛ واننا لنعرف أن هذا التحقيق سيؤول الى التفاوت بين المزارعين   واذا ما اعطيت هذه الانطلاقة مرة ، فاننا نتصور أن التفاوت سيتطور حتى نهايته المنطقية ، مرجعا « الى العدم » جميع نتائج «الثورة الشعبية

ولنتابع

من المفروغ منه أن الدولة الفلاحية لن تمس الرأسمال التجاري ؛ ولا حتى الرأسمال الصناعي في معظم الحالات   وانه ليبدو ان السيد تيخوميروف نقل بذلك حين يفترض أن الثورة الشعبية سوف تقتصر على **اضعاف** « بورجوازية ونبالة هما سلفا على قدر كاف من الضعف   و   الاضعاف   لا يعني التدمير   اثمة حاجة الى الاشارة الى العواقب التي سيؤول اليها وجود الرأسمال الصناعي والتجاري ؟ ان السيد تيخوميروف يعتقد أن الحكومة الشعبية سوف تكبح الجماح هنا أيضا واننا لنلفت انتباهه الى أن ما يتراءى ضارا في نظر الاشتراكي لا ينظر الفلاح اليه

بنفس المنظار ولا الحكومة الفلاحية أيضا واذا كان السيد تيخوميروف لا يقل عنا عداء حيال « راسمال المبادرة الخاصة فان الفلاح لا ينقم الا على بعض تطبيقات المبدأ الراسمالي لكنه لا يملك شيئا ضد مبدا الراسمال انه يقبل تماما بامكانية الربح بالنسبة الى المبادرة **الخاصة** وبالتالي فان حكومة « شعبية لن تملك هي الاخرى شيئا ضد هذا الربح وفي افضل الفرضيات فانها ستكون على قدر كاف من الجذرية كيما تناضل ضد رساميل الصناعي الكبير لكنها لن تفكر حتى في وضع حد لاستثمار ارباب المهن عامة وهذا اذن عامل ثان لانحلال هذه المساواة النسبية التي ستقيمها الثورة ويعتقد السيد تيخوميروف ان هذا العامل سيلغي من جراء « حذف الارض من مجال الاستثمار لكننا نعرف سلفا أن الارض لن تحذف من هذا المجال كليا فالحكومة الشعبية ستقبل أيضا بالمساواة في توزيعها كما ستقبل بالحق في ستثمار « مياوم صغير » من بين المزارعين المفلسين ان المثل الاعلى **الفلاحي** يتكيف جدا مع وجود **العامل الزراعي** وفضلا عن ذلك ، فان كل من يملك بعض الاطلاع على المسألة يعرف أن الاشتراكية المسماة بورجوازية صغيرة هي الاشتراكية الوحيدة التي تأمل في تقديم الخير للشعب « باضعاف البورجوازية او بحذف هذه الواسطة الانتاجية الخاصة أو تلك من ميدان الاستثمار واذا هي انطوت على هذا الرجاء فلأن « الشعب الذي يهمها تقتصر على البورجوازية الصغيرة التي ستحقق ربحا جزيلا من ضعف البورجوازية الكبيرة ان ما يميز الاشتراكية البورجوازية الصغيرة هو أن مشاريعها الاصلاحية لا تمس الانتاج السلعي. وهذا بالضبط ما يصنع ضعفها النظري والعملي ان الحركة العمالية في أيامنا الراهنة، هذه الحركة الثورية حقا وفعلا لا تملك شيئا مشتركا مع التخيلات الخجولة للبورجوازية الصغيرة ان « الاشتراكية الروسية كما تعبر عن نفسها في مقالة السيد تيخوميروف تقترب لسوء الحظ من الاشتراكية البورجوازية الصغيرة أكثر حتى درجة كبيرة من اقترابها من الاشتراكية العمالية انها لا تمضي في مشاريعها الثورية مثلها كمثل تلك الاشتراكية حتى تدمير الانتاج التجاري بل تترك أمر العناية بهذا الامر لتاريخ الدولة الروسية المقبل بعد الثورة واما ترفض ان تأخذ بعين الاعتبار التطور الاقتصادي في تحليل مقدماتها الثورية فانها تؤسس عليه آمالا مبالغا فيها حالما يتعلق الامر بنتائج الثورة التي تبشر بها انها تستنجد **بالثورة** حيث لا يمكن تصورها دون تطور مسبق ، وهي تلتجىء الى **التطور** حيث لا يمكن أن يحدث دون **ثورة اقتصادية** جذرية انها تريد أن تكون الاشتراكية الثورية الممتازة ، لكنها تبرهن على أنها التباس غير منطقي في جوهرها* ولسوف نرى لتونا من أين تستمد هذه الصفة التي تحيل عباراتها الثورية هباء منثورا

---

* هذا التعريف يطبق حرفيا هنا أيضا على « الاشتراكيين الثوريين » في أيامنا الحاضرة [منحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

وإن السيد تيخوميروف كيما يقنع قراءه بأن الحكومة الشعبية سوف تلغي العواقب الضارة لثورة اقتصادية على هذا القدر من التردد يصف كما يلي المجرى المحمس للتطور الاجتماعي في روسيا الغد

الحكومة المسؤولة عن سير الامور في البلاد ، والمعنية بازدهارها لانشعبيتها الخاصة تتوقف على ذلك سوف تجد نفسها من دون ريب ملزمة باتخاذ تدابير قمينة بزيادة انتاجية العمل وبصورة خاصة بتنظيم الانتاج الكبير ان محسنات الانتاج الكبير وضرورته واضحة جدا ، وهذه الضرورة تبرهن في حالات عديدة على أنها محتومة ولن تجد جمهرة الشعب صعوبة في فهم ذلك وفيما عدا ذلك ونستلفت الانظار الى أن هذا الامر هو الامر الاهم فان المبادرة الخاصة التي وجدت نفسها ملجمة في حقل الانتاج الرأسمالي لن تفوت أية فرصة ما ألطف ذلك كي توضح للشعب ميزات الانتاج الجماعي واهميته ونحن لا نتحدث أيضا التأثير الذي ستمارسه الانتليجنتزيا الاشتراكيه على هذا الشعب يكون فيمقدور ذلك يسهل شيئا فشيئا الانتقال من المشاعة الى رابطة الى تنظيم للمبادلة بين المشاعات وتجمعات المشاعات ، بل الى تجمع مشاعات عديدة بهدف هذا الانتاج بانتقال النظام الاشتراكي جميع وظائف البلاد وهو يطور شيئا فشيئاويلغي الاقتصاد الخاص فأكثر باستمرار (»

قدوم الثورة الاشتراكية ان لم يكن في أوروبا بأسرها ففي عدة بلدان على الاقل سوف يضع روسيا في الضرورة المطلقة على وجه التقريب بتنظيم مبادلاتها الدولية على الاسس نفسها [يعني على أسس اشتراكية] وبالتالي سوف تفرض علينا على وجه التقريب التنظيم الاشتراكي في مجال المبادلات الداخلية أيضا ٢٥٨

هكذا يتصور السيد تيخوميروف المسألة وإننا نقدم ملاحظتين بصورة عابرة أن ندرس لب القضية

ان مؤلفنا يقيم آمالا كبيرة على دور الانتليجنتزيا الاشتراكية الروسية والثورة العمالية في أوروبا الغربية وإننا لنعترف نحن أيضا بأهمية هذين العاملين لكننا لا نعتقد أنها أهمية مطلقة

أصحيح قبل كل شيء أننا سنشاهد بعد ثورة فلاحية انتيجنتزيا اشتراكية ، وحتى انتليجنتزيا بكل بساطة بالمعنى الحالي للكلمة تولد دون عوائق ؟ من اين اخذ السيد تيخوميروف هذا ؟ ان الانتليجنتزيا الاشتراكية عندنا مثلها كمثل كل بقية الانتليجنتزيا في الوقت الحاضر تأتي بصورة رئيسية من وسط الموظفين والملاكين العقاريين الكبار والتجار والكهنة . يعني الطبقات التي تجد في التعلم وسيلة للوصول وان جامعاتنا التي تكوّن وصوليين تكوّن ثوريين بصورة ملحقة لكن الوصوليين والثوريين يصدرون جميعا عن الدولة البيروقراطية وعن طبقاتها العليا وان هذا لمؤكد جدا بحيث أن وعي أصلهم البورجوازي » يجبر ثوريينا على الاشارة

دون انقطاع الى دينهم نحو الشعب في نفس الوقت الذي يتقدمون فيه بصورة منهجية على اعتبارهم نقيضة هذا الشعب ان الانتليجنتزيا الاشتراكية تدرك انها ليست الا احد الفروع الصادرة عن الجذع المشترك لدولة بيروقراطية « طبقية ». وان السيد تيخوميروف يريد ان ينشر هذا الجذع دون ان يكف عن الرجاء في أن الفرع العزيز عليه لن يجف مطلقا بل سوف ينمو من الآن فصاعدا دون عوائق وان هذا ليذكرنا بالاوكراني الذي نشر الغصن الذي كان يقعده ودهش جدا لانه سقط ارضا هذا الا اذا كان السيد تيخوميروف يتصور ان « الانتليجنتزيا الاشتراكيــة » سوف تولد دون عوائق من طبقة الفلاحين بعد الثورة الشعبية ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فاننا نخشى جدا أن يكون مخطئا

إلام تعود الثورة التي ينتظرها ؟ الى انقلاب زراعي الى اغتصاب الملكيات الكبرى الى امكانية اعطاء الفلاحين حصصا اكبر ثلاث مرات منها اليوم الى الغاء الاعباء الضرائبية أتوهم السيد تيخوميروف أن هذا التوسيع لقطعة ارض الفلاحين سوف يقنعهم بضرورة التعليم العالي . وانه سيحملهم على ارسال أبنائهم الى الجامعات ويعمل على أن تدعم حكومتهم مؤسسات التعليم العالي الموجودة أو تؤسس مؤسسات جديدة ؟

ان وفرة الاراضي سوف تبسط وضع الفلاح حتى درجة كبيرة وتزيــد من قيمة اليد العاملة العائلية حتى درجة كبيرة بحيث لن يكون في مصلحة المزارع على الاطلاق ان يفقد وقته وماله في التعليم العالي ، كما لن تتوفر له أية امكانيــة من اجل ذلك

ان الدولة البيروقراطيــة والبورجوازية والنبالة في حاجــة الى جامعات وان البروليتاريا سوف تحتاج اليها لانها لن تتمكن بدون تكوين علمي من الانتفاع من القوى الانتاجية الموضوعة تحت تصرفها لكن الجامعات في مملكة المساعات الفلاحية سوف تكون ترفا لن يغوي مطلقا فكر المزارعين العملي ولنقبل على أي حال بأن الفلاحين لن يجدوا اية صعوبة في فهم اهمية التعليم العالي ولنذكر فضلا عن ذلك انه ستكون بورجوازية ونبالة موجودتين بعد الثورة الشعبية ولنفترض ان هاتين البورجوازية والنبالة سوف تكونان على قدر كاف من الضعف كي لا تلحقا أي ضرر اقتصادي بالشعب ، لكنهما تحتفظان بالقدرة على ارسال أولادهما الىالمدارس الكبرى ما الذي يحمل السيد تيخوميروف على الاعتقاد بأن هذه المدارس سوف تصبح مشاتل لانتليجنتزيا اشتراكية ؟ ان سويسرا تقدم لنا مشهد طبقة فلاحيــة غنية الى جانب بورجوازية ضعيفة بصورة مقبولــة وبكلام آخر الى جانب بورجوازية صغيرة استخرج عدد كبير من الاشتراكيين في المدارس السويسرية حيث يدرس بالفعل عدد كبير من أبناء الفلاحين ؟

ومع ذلك فان الفلاحين السويسريين لن يلاقوا « اية صعوبة فيما يقال في فهم محسنات تنظيم اشتراكي للانتاج

اتعتقدون ذلك ؟ تصوروا اذن انهم لم يفهموا ذلك مهما كانت صعوبة هذا الفهم ضئيلة انهم لا يريدون أن يسمعوا حديثا عن الاشتراكية ان ما تبقى عندهم من الملكية المشاعة للارض لا يستطيع شيئا حيال ذلك وكذلك تعاونياتهم الشهيرة لصنع الاجبان

ان ميزات المجتمع الاشتراكي بينة جدا بحيث يمكن الاعتقاد بأن الجميع « لا يجدون اية صعوبة في فهمها لكن اشتراكيي المرحلة الطوباوية يستطيعون وحدهم ان يجهلوا ان فهما حقيقيا للاشتراكية يسير يدا بيد مع الضرورة الاقتصادية الملحة ولكن هذه الضرورة لا تمثل في دولة فلاحية الا بصورة استثنائية

ولسوف يسأل القارىء والانتليجنتزيا التي لدينا اليوم ؟ أفلن تستطيع بعد الثورة الشعبية أن تكرس نفسها « لخدمة الشعب ، لتنظيم عمله ونظامه الاجتماعي»؟

الديها الكثيرون من المثقفين من هذا الطراز ؟ اصفحوا عن السؤال . لكن أيفهمون هم انفسهم اشياء كثيرة ؟ وما عساهم يفعلون ضد المنطق الذي لا يرحم للانتاج التجاري ؟

هل ستأتي ثورة أوروبا العربية فتعضد جهدهم ؟ لنتحدث عنها اذن

ان الثورة في أوروبا الغربية ، بالرغم من أنها ستكون قوية لن تكون كلية القوة فكيما تستطيع دول الغرب الاشتراكية أن تمارس تأثيرا حاسما في البلدان الاخرى لابد لها من حوامل تمكنها من ذلك وان « المبادلات الدولية » حامل جبار لكنه ليس هو الآخر كلي القوة ان البلدان الاوروبية تقيم علاقات تجارية نسيطة مع الصين ، لكنه لن يكون في مقدورنا مع ذلك أن نؤكد أن ثورة عمالية في الغرب سوف تفرض » على الصين عاجلا « تنظيما اشتراكيا في مجال المبادلات الداخلية لماذا ؟ لان « البنية الاجتماعية » في الصين تتعارض بصورة جازمة مع نفوذ الافكار والمؤسسات الاوروبية ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن تركيا ، وايران الخ وبالفعل ما الذي تمثله « البنية الاجتماعية للباب العالي ؟ جوهريا دولة فلاحية استمرت في داخلها لا المشاعة الزراعية وحدها ، بل **الزادروغا** التي تقترب من الاشتراكية أكثر من المشاعة الزراعية في مخطط الشعبيين عندنا ولا يمنع هذا من اننا لا نستطيع أن نتصور ، مهما تكن الثورات « الشعبية » داخل الامبراطورية العمانية ن البروليتاريا الاوروبية سوف تفرض دونما صعوبة الاشتراكية على الرعايا الاتراك حتى الذين من اصل سلافي يجب أن نميز هنا أيضا قوة الظروف الفاعلة التي **تدفع** شعبا ما الى الاشتراكية، والشروط السلبية التي **تسهل** الانتقال الى الاشتراكية. ان المنطق الموضوعي للبنى الداخلية لدولة فلاحية لن تفرض عليها تنظيما اشتراكيا في مجال المبادلات الداخلية فهذا أمر لا يمكن أن يفرض نفسه بصورة خالصة من « الخارج » ان الثورة العمالية الاوروبية سوف تمارس فعلا لا جدال فيه وقويا جدا في جميع البلدان حيث بعض المقولات من السكان على الاقل تسبه الطبقةالعاملة

الاوروبية من حيث الوضع الاقتصادي والثقافة السياسية والعادات الفكرية لكن هذا الفعل سوف يبقى على النقيض من ذلك ضعيفا نسبيا حيث لا وجود لمثل هـذه العناصر ان ثورة شباط قد تركت صداها في جميع البلدان الشبيهة بفرنسا من حيث «البنية الاجتماعية» لكن الموجة التي اثارتها تحطمت على عتبة أوروباالفلاحية. حاذروا كي لا يتكرر هذا غدا ، ابان الثورة البروليتارية

وحكمة هذه القصة ان الغرب يظل هو الغرب وروسيا هي روسيا وبكلام آخر انك لا تملك غذاءك جاهزا على مائدة الغير فلا تنتظر اذن الظهر كي تغـادر فراشك فمهما تكن ردة الفعل الممكنة لثورة أوروبية بالغة القوة فان من واجبنـا أن نعني بخلق الشروط التي تجعل من ردة الفعل هذه حقيقة واقعة ان ثورة السيد تيخوميروف الحائرة ، ثورته الفلاحية والبورجوازية الصغيرة معا لن تكون بعيدة عن خلق هذه الشروط فحسب بل سوف تقضي حتى على تلك الشروط المتوفرة في الوقت الحاضر

وان توقع السيد تيخوميروف في هذه الحال كمـا في الحالات الاخرى ، يغص بالتناقضات ان نفوذ الغرب على روسيا يتراءى له ممكنا من جراء « المبادلات الدولية وانه ليترتب على ذلك انه بقدر ما تكون هذه المبادلات أهم فان الغرب سوف يفرض » علينا بسرعة أعظم تنظيما اشتراكيا في مجال المبادلات الداخلية». لكن نمو مبادلاتنا الدولية يفترض عندنا نمو التجارة والانتاج التجاري لكنه بقدر ما يتطور الانتاج التجاري فان هذه المساواة الاقتصادية النسبية التي تستتبعها الثورة الشعبية سوف تزداد تفتتا كما أن التنظيم الاشتراكي في مجال المبادلات الداخلية » سوف يزداد صعوبة ، لفترة من الزمن على الاقل ، حتى يبلغ تقدم الانتاج التجاري خاتمته المنطقية ولكن الثورة الشعبية هي التي تفرغ في هذه الحال من اي معنى على الاطلاق

اذا نحن عدنا بعد الانقلاب الى الاقتصاد الطبيعي فانه ستقوم حقا عندنا « مساواة نسبية لكن الغرب لن يستطيع اذن أن يفرض فعلا علينا من جراء ضعف المبادلات مع الخارج واذا على النقيض من ذلك تطور الانتاج التجاري في روسيا ، فان الغرب سيصادف عناء كبيرا في ممارسة فعل فينا ، طالما أن « المساواة النسبية » سوف تتزعزع بقوة وأن روسيا ستتحول الى بلد بورجوازي صغير ان التوقـع الذي يقيمه السيد تيخوميروف على الغرب محكوم عليه بالتطور في حلقة مفرغـة اليكم اين تقودكم الميتافيزياء اليكم اين تقودكم عادة أخـذ الاشياء بعين الاعتبـار الواحد تلو الآخر والواحد دون الآخر »

Mein theuer Freund, ich rath'euch drun
Zurrst Collegium logicum.*

* [يا صديقي العزيز ، انصحك بادیء الامر باتباع دروس في المنطق غوته **فاوست**] .

وان الرجل الذي يوحي اليه الغرب بجميع **هذه** الآمال المتناقضة هو نفس المؤلف **الذي** يتهم التاريخ الاوروبي بكامله « **بالمجازفة** » وينعته بعدم المعقولية ان درس **المنطق** سوف يعود في الحقيقة بفائدة عظيمة على السيد تيخوميروف
وبعد هذه الملاحظات لننتقل الى الشيء الاساسي من الفقرة المذكورة اعلاه

٤ . تذبذبات السيد تيخوميروف

بين البلانكية والباكونينية

ان مشاريع السيد تيخوميروف عن التنظيم الاشتراكي لروسيا تظهره لنا باكونينيا من الطراز الانقى والحال انه لا **يدمر الدولة** لكن دولته لا تحمل الى التنظيم المذكور الا « عونا خارجيا خالصا » انها لا **تخلق** عناصر هذه العملية بل تكتفي بمساعدتها ان السلف المباشر للسيد تيخوميروف في الادب بيوتر تكاتشوف ، قد كان يرى أنه من واجب الاقلية ، بعد استيلائها على السلطة **أن** تفرض الاشتراكية على الاغلبية ان حكومة السيد تيخوميروف **تسهل** على الشعب « دون اللجوء الى العنف تنظيم الانتاج الاجتماعي معنية بالا تعضد « **الحركة التي لا تستطيع الا أن تحدث من تلقاء ذاتها في البلاد** » ولقد ظل السيد تيخوميروف في اعتباراته عن الحاضر أمينا لتعاليم تكاتشوف ان ما نتوقعه من المستقبل يشكل حالة من الردة الايديولوجية ، من العودة الى نظريات سلفروحي ابعد.

ومن المعروف أن الفوضوي آرثر ارنو(٧٤) قال الغوا الدولة ولسوف تتحقق توازن القوى الاقتصادية بفعل قانون بسيط من قوانين علم السكون ويقول لنا السيد تيخوميروف الغواالدولة **الحديثة** ، انتزعوا ملكية الملاكين الكبار ولسوف يتحقق توازن القوى الاقتصادية في روسيا « من تلقاء ذاته لقد كان الاول يستنجد « بأحد قوانين علم السكون أما الثاني فيستنجد « بالمفاهيم والعادات الشعبية تعني « المثل الاعلى الشعبي الذي نعرفه من مؤلفات ميشيل باكونين ان آرثر ارنو يستهدف الدولة دون أن يلاحظ ان نقده يصيب الدولة الحديثة وحدها الدولة البورجوازية المركزة ويريد السيد تيخوميروف ان يؤسس دولة « شعبية فيخترع نوعا جديدا من الدولة البورجوازية دولة تظل دون ان تنكر بصورة حاسمة مبدأ laissez faire, laissez passer تعني دون أن « تخلق شيئا قادرة مع ذلك على أن تعضد حركة مجتمعنا الخاصة نحو نظام اشتراكي

ولا تشكل الباكونينية نظاما في حال من الاحوال انها مجموعة من التناقضات التي يتقاسمها السادة الباكونينيون والسادة الفوضويون وفق حصيلة مفاهيم وعادات كل واحد منهم

ولقد اختار مؤلفنا النوع الاصيل من الباكونينية التي يشكل برنامج بيوتر تكاتشوف شكلا متفسخا منها لكنه لا يظل أمينا له حتى النهاية لقد احتفظ بذكرى تعاليم السابق » حتى درجة كبيرة ، ولم ينس أنه اذا كان « شعبنا في حاجة ماسة الى المساعدة فان « ابلها بكل معنى الكلمة يستطيع وحده ان يتصور أنه في الامكان تلقينه اي شيء كان ، أو اعطاء اتجاه جديد لحياته بصوره اعتباطية ولذا فقد قرر ان يخيل حكومة ثورية سوف تحمل الى الشعب « عونا خارجيا خالصا» يستطيع دون أن يسعى الى « الزام جمهرة السعب او تلقينه درسا » أن يسير مع ذلك بالقضية الى نهايتها السعيدة

لقد سألنا السيد تيخوميروف لتونا عمايمكن أن يميز الفلسفة السياسية والاجتماعية لمقاله من فلسفة **الرسالة المفتوحة الى فريدريك انجلز** ؟ ولا نجد الآن ايه صعوبه في الجواب بانفسنا ان الصفة المميزة لفلسفة السيد تيخوميروف هي الشحوب حياء الفكر الطموح الى توفيق ما لا يمكن توفيقه ما عسانا نستطيع أن نقول عن هذه النسخة الساحبه في حين أن الاصل نفسه لا يستطيع كما يقول انجلز أن يعرر الا ببعض الطلاب المراهقين

لقد كان ميشيل باكونين يبسر بحقد لا رحمة فيه على سائر أشكال الدولة وينصح ثوريينا بالا يستلموا السلطة قط ، فان كل سلطة هي من الشيطان وكان بيوتر تكاتسوف على العكس من ذلك يرى أنه من الواجب استلامها والاحتفاظ بها طويلا ولقد اختار السيد تيخوميروف الحد الوسط فهو يعتقد أن استلام السلطة يمكن أن يبرهن على فائدته وضرورته لكنه يقدر في الوقت نفسه انه لا يجوز للثوريين أن **يحتفظوا** بسلطتهم الى ما لانهاية ؛ ان من واجبهم ان **يحافظوا عليها** فقط حتى تبدأ الثورة السعبية

ولا يمكن أن يكون هناك الا طريقتان من اجل الخروج من هذا الوضع غير المريح بين مقعدين فاما أن يمضي مؤلفنا فيقعد على مقعد باكونين واما أن يختار مقعد تكاتسوف اما أن يصبح فوضويا واما ان يجعل من نفسه بصورة حازمة تلميذ بيوتر تكاتسوف وليس مكمله السري فحسب انه لن يتمكن قط أن يبث في برنامج « ارادة السعب مضمونا جديدا حقا ولن يتمكن قط من أن يبرهن لنا على ان هذه الفكرة الجديدة او تلك لم تتخذالا لدى ظهور ارادة السعب ابدا حتى الآن لم تلد انتقائية جوفاء نظريات جديدة وقوية ؛ أبدا حتى الآن لم يباشر الخجل التردد الذي يتذبذب بين برنامجين شائخين عصرا جديدا في تاريخ الافكار الثورية في اي بلد كان

لقد اختار السيد تيخوميروف أن يكون مكمل تكاتشوف يوم الثورة وان يتحول الى باكونيني في ختام شهر العسل

ولكن ما هي الباكونيية المطبقة على * lendemain de la révolution ?

اننا نكرر أن الباكونينية لا تشكل نظاما في حال من الاحوال انها خليط من النظريات الاشتراكية « للبلدان اللاتينية » مع « المثل الاعلى » الفلاحي للروس ، مزيج من مصرف برودون السعبي والمشاعة الزراعية مزيج من فوريه وستنكا رازين

واننا لنصادف هذه الخليطة المتنافرة في عملية تشريك العمل التي ينادي بها السيد تيخوميروف من أجل بلادنا وهي عملية لم يكن لها وجود قط في أي مكان ولا يمكن أن توجد قط في أي مكان

وانه ليمكن ان نطبق عليها هذا البيت من السعر لغريبوئيدوف

كل شيء فيها اذا لم تكن خديعة

فكل شيء فيها المشاعة ، و الانتقال من المشاعة الى الرابطة ، و « تنظيم **المبادلة** بين المشاعات وتجمعات المشاعات ، بله تتويجا للكل تجمع **العديد من** المشاعات بهدف **هذا الانتاج أو ذاك** » ; وباختصار فاننا نجد هناك مجمل ذلك «التنظيم للمنتجين من القاعدة الى القمة » ، وهو التنظيم العزيز على الفوضويين الباكونينيين واذا كان القارىء يملك بعض الاطلاع على هذا « التنظيم فلا حاجة به على الاطلاق الى برهان آخر على باكونينية تيخوميروف لكنه لم تسنح له الفرصة للتعرف الى النظريات الفوضوية (وليست تلك خسارة جسيمة) فنحن نوصيه بقراءة **أفكار عن التنظيم الاشتراكي** ، وهي كراسة صغيرة بقلم شخص يدعى غليوم قد كانت له فيما مضى شهرة قليلة واذا ما اطلع مرة على « عملية تشريك العمل المعروضة في هذه الكراسة ، فانه سيرى أن النظريات الثورية للاخصائيين الروس تملك صلة القرابة الوثيقة جدا مع نظريات الفوضويين الاوروبيين

يجد المثقف الروسي عناء كبيرا في الافلات من نفوذ الغرب ومهما نادى المفكر السياسي الروسي بأن النظريات الاوروبية الاكثر تقدما « غير قابلة للتطبيق » على بلاده فانه لا يحافظ بذلك على أصالته ، لانه لا يفعل سوى نقل تعاطفه من النموذج الذي يتحلى بالجدية الى صورته المسيخة وهكذا فان السيد « ف. ف. يصبح الاح التوأم « للاشتراكيين في امبراطورية » القيصر الالماني والسيدتيخوميروف فوضويا يمشي على رأسه

وان هذه الوضعية غير المريحة لا تساعد مطلقا على تسلسل الافكار ولذا فان مؤلفنا لا يمضي حتى نهاية النتائج التي توصل اليها ميشيل باكونين ان تحفزات « الخيال الثوري » للسيد تيخوميروف لا تجازف حتى درجة القضاء على ربح المخدوم.

---

* [غداة الثورة] .

فمن تنظيم الانتاج الاجتماعي سوف « يحصل المخدوم على بعض الميزات على اعتباره مؤسسا يتحلى بموهبة التنظيم [ان باستا نفسه لن ينكر لهذا الايضاح]. وهي بكل تكيد ميزات اقل مما يحصل عليه في الوقت الراهن لكنها الميزات الوحيدة التي سكون في متناول يده في ذلك العصر* » ان هذا الجزء من مشروع « تنظيم اشتراكي لروسيا يذكرنا بصورة لا تقاوم بغيرة الاشتراكي البورجوازي الصغير من «الميزات» الضخمة التي يحصل المعلم الكبير عليها كما يذكرنا في الوقت نفسه بتوزيع الارباح بين العمل والراسمال والموهبة كما ينادي فوريه به لقد كنا على صواب حقا حين قلنا ان بعض أنواع الاشتراكية الروسية ليست لا اكثر ولا أقل من خليط من فوريه وسكارازين

ولسوف يرد القارىء قائلا على الاقل ليس ثمة خديعة هنا

وبالفعل ، فان السيد تيخوميروف **لا يخدعنا** انه **يخدع نفسه** ليس ثمة ظل من سوء النية هنا ، بل سذاجة هائلة وان هذه السذاجة لتقوم في الاعتبارات عن « التنظيم **الاشتراكي للمبادلة** » وبالنسبة الى كل من هو على اطلاع قليل على المسألة وهي مجرد حديث متهافت في واقع الامر فان التنظيم المذكور يساوي الجزمتين المهترئتين لتشرنيشيفسكي ولابد ان يكون المرء تلميذا بورجوازيا صغيرا للبورجوازي الصغير برودون كي يرى في هذا العبث شيئا ما ممكنا ومبتغى وصحيح انه قيل عن برودون انه يفهم في الجدلية بالضبط بقدر ما يفهم الحطاب في علم النبات. ان النظام الاجتماعي الذي سوف تقيمه البروليتاريا لا يمكن ان يملك أي شيء مشترك مع **المبادلة** انه لن يعرف سوى توزيع المنتجات حسب **حاجات** الشغيلة وان شيوعيين لا منطقيين يجدون أن توزيعا متتناسبا مع نصيب الشغيل في الانتاج يكون عمليا بصورة أفضل وليس من الصعب اكتشاف ضعف هذا المطلب** لكن أولئك الذين يقدمونه بالذات لم يكفوا قطعن ادراك استحالة «المبادلة» في الدولة الاشتراكية.

من نقول مبادلة يقول سلعة ؛ وان من يدافع عن السلعة يقبل بجميع التناقضات اللاصقة بالسلعة وان الفوضويين وحدهم مستأنفين صيغ برودون قد استطاعوا هنا أيضا أن يتصوروا وجود حجر فلسفي يمكن من تخليص المبادلة الاشتراكية من التناقضات البورجوازية الخاصة بالمبادلة العادية

لقد أوضح ماركس عام ١٨٥٠ على خير وجه هذا الجانب من القضية(٧٥) ، متقدما بذلك مسافة شاسعة ، على درب العلم الحديث ، على النظريات البورجوازية الصغيرة للفوضويين والباكونينيين من مختلف الالوان ولابد أن يكون المرء جاهلا بأبجدية الاشتراكية الثورية حتى يؤسس « توقعه للثورة » على تنظيم اشتراكي للمبادلة

يجب أن ننتظر الح **الرسول** ، العدد الثاني ٢٥٨

** المفر منه هذا المطلب ليس لا منطقيا من حيث هو **مثالي** أما حيث هو تدبير **انتقالي** فقد ينكشف أنه مسوغ تماما [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

ولقد عالجنا هذا الامر في موضع آخر* ، لكن المسألة بالغة الاهمية بحيث لانفقد شيئا من تكرارها وطلبا لمزيد من الوضوح سنترك جانبا الصيغ العلمية المجردة ، مقتصرين على أمثلة بسيطة ومؤثرة

ان المبادلة الاشتراكية مبادلة بدون نقد ، مبادلة مباشرة بين منتج ومنتج وفق كمية من العمل المصروف في انتاجهما ان الفكرة خرجت من دماغ برودون في هذا الشكل وهو لم يفعل هنا على أي حال الا تكرار خطيئة مرتكبة قبله

لنفرض الآن أن أصحابنا الباكونينيين نجحوا غداة الثورة في اقناع معرفتنا القديمة مساعة تورخوفو في حكومة تولا بمحسنات التنظيم الاشتراكي للمبادلة وان سكان هذه المساعة وقد عزموا على تحريك هذا التنظيم قد أعلنوا عن قرارهم بأصوات بعض Narodnyé Védomosti. ولقدسمعنداءهم صيادو الاسماك في ارخانجيلسك وصانعوا المسامير في نوفغورود والحذاؤون في كيمري والنحاسون في قولا والخياطون في موسكو ، وجميع الشغيلة في تعاونيات أناس الميرات الذين تشربوا هم ايضا المبادىء الجديدة للمبادلة تحت تأثير الباكونينيين المولودين دون عوائق ويعقب العمل القول في الحال ان « عقدا يوقع ولا يلزم بعد الآن سوى تطبيقه واما تم جمع المحصول فان فلاحينا البرودونيين يعمدون الى المبادلة ، فيرسلون بعض القناطير من القمح الى ارخانجيلسك ويتلقون سمكا من هناك، ويبعثون ببعض عربات البطاطا الى كيمري ويعودون بالاحذية من هناك وانهم ليقدمون الذرة الى الخياطين ، والبرغل الى صانعي المسامير وهكذا دواليك ولم يتم اختيار أي من هـذه البضائع عن طريق الصدفة المحضة بل وفقا للبنود التي تمت مناقستها مسبقا ولابد من جهد كبير في سبيل تسيير جميع هذه الاشياء كيفما كان . ومما لا ريب فيه أنه كان من الافضل بيعها في السوق المجاورة ؛ بيد أن أصحابنا الموجيك أصحاب أفكار وهم يتمسكون بهذا المبدأ الجديد للمبادلة حتى اذا كان ذلك سيكلفهم كثيرا كما يقال وان المبادلة لتتم اذن وهؤلاء قرويونا يملكون الآن مسامير وسمكا وأحذية ، وسماورات وثيابا جاهزة لكن هناك مشكلة واحدة ان هذه السلع لأبعد ما تكون عن تلبية جميع حاجات الفلاح فلابد له بعد من عدد كبير من حاجات الاستهلاك أدوات زراعية واسمدة وماشية الخ وان أولئك الذين ينتجون هذه السلع لا يريدون البتة ان يسلكوا سبيل المبادلة الاشتراكية اما لانهم قرأوا ماركس وهم يسخرون من اكتشافات برودون الاقتصادية واما لانهم لم يرتفعوا بعد حتى لطائف البرودونية فهم لا يبرحون بائعين مبتذلين للبضائع ذلك أن السيد تيخوميروف نفسه يعترف بأن النظام «الاشتراكي» الذي يبسر به لن يتطور الا شيئا فشيئا كيف سيتصرف اذن أصحابنا البرودونيون في تورخوفو ؟ كيف يستطيعون أن يواجهوا الحاجات المتعددة التي

* كتب أقصد هنا عرضي ونقدي لمذهب رودبرتوس الاقتصادي [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠]

لا سواصلون الى تلبيتها بالمبادلة « الاشتراكية » ؟ ليس أمامهم الا سبيل واحد **شراء** ما يلزمهم وان **الخياطين سيواجهون الحالة نفسها** ، **طالما انهم** لا يستطيعون ان يعيشوا بدقيق الذرة وحده ، ومثلهم صانعو المسامير الذين لا يستطيعون أن يحيوا بالبرغل وحده وباختصار ، **فان المبادلة القديمة لقاء النقد الرنان** المبادلة الوثنية اذا جاز التعبير ، سوف **تستمر بصورة موازية للمبادلة الاشتراكية «العادلة»**.

فلابد من اللجوء الى هذا maudit argent* حتى في الاتفاقيات بين المتحمسين للبرودونية . واذاكان الحذاؤون في كيمري لا يحتاجون سوى لمقدار من البطاطا يمثل س يوم عمل بينما التورخوفيون يريدون كمية من الاحذية تتطلب من أجل صنعها مرتين أكثر من أيام العمل ، فلابد من تسوية الفارق **بالمال** ، **هذا اذا كان الحذاؤون لايريدون** أن يقبضوا شوفانا ولا تبنا ولا قشا ، ولا أية سلعة زراعية مهما كانت **وان هذا الامر لممكن الحدوث تماما اذا ما تحققت نبوءة السيد بروغانين وعاد الحذاؤون في كيمري الى الزراعة بعدما تكون « شروط » هذه الزراعة قد** « تحسنت ما الذي سيحدث اذن ؟ أن المنتجين البرودونيين الذين لا ينتظمون الا شيئا فشيئا سوف يجابهون الكتلة الهائلة من المنتجين المتعلقين اقتصاديا بالايمان القدم وعندئذ فان التقدم الزهيد الحاصل بفضل « التنظيم الاشتراكي للمبادلة سوف تقابله خسارة فادحة تراجع المساواة النسبية وهي العاقبة المحتومة للانتاج السلعي ونظام المبادلات المألوف المبادلة البورجوازية ان الرذيلة سوف تنتصر على الفضيلة والنظام البورجوازي سوف يتغلب على الاشتراكية البرودونية وان البرودونيين المحاصرين بأغلبية بورجوازية صغيرة ، سوف يأخذون في الفساد خاصة وأن ثروتهم الشخصية سوف تتألف بنسبة عالية من نقد من النوع القديم نقد المستغِلين » وان **أهالي كيمري الذين لذ الربح لهم** قد يرسلون الى سكان تورخوفو **أحذية** نعالها **من الورق المقوى** ، **وعندئذ** فان أهالي تورخوفو قد يسددون ثمنها بالبطاطا المتعفنة **ان العدو قوي » كما هو معروف** ، ولسوف تعتمد قوته في هذه الحال على المنطق الذي لا يقاوم للانتاج السلعي الذي سوف يظل مغلبا حتى في المشاعات العاملة « بالمبادلة الاشتراكية ان الرابطات التي أنشئت بقدر كبير من العناء سوف تنحل ، والبرودونيين سوف يتحولون الى منتجين بورجوازيين صغار مبتذلين والانتليجنتزيا التي انشئت بالباكونينية سوف تضطر دون انقطاع الى استئناف مهمتها العقوق **في الدعاية** ، والى ايضاح مبادىء الاقتصاد الجديدة دون توقف تلك هي اللازمة المبتذلة لاغنية **السفينة الصغيرة** صخرة سيسيف وان السيد تيخوميروف ليفرض على الاشتراكيين الروس عتالة صخرة سيسيف هذه لفرض أوحد هو الاسراع حتى الحد الاقصى بقيام الاشتراكية ، حتى لا نبلغها بالطريق الطويلة والوعرة للراسمالية **ان من يسرع كثيرا لا يصل أبدا**

---

* [النقد اللعين] .

وفيما سعلق بالتنظيم الاشتراكي في مجال المبادلات الداخلية وبالتجارة الدولية على حد سواء فان هناك واحدا من أمرين : أما أن تعود بنا الثورة الشعبية الى الاقتصاد الطبيعي وابتداء من ذلك سوف تتطور « المبادلة الاشتراكية ببطء ، لان المبادلات على العموم ستكون ضعيفة جدا واما ان تحافظ الثورة الشعبية على الاتجاه الى تقسيم للعمل متعاظم أبدا والى الانفصال بين الزراعة والصناعة وفي هذه الحال سوف يتبين أن تنظيم المبادلات الاشتراكي مهمة صعبة حتى الدرجة القصوى نظرا لتعقد آلية الانتاج في البلاد ولكن بطء تطور تنظيم المبادلات الاشتراكي ينزع منه حتى المغزى الذي ينسبه انصاره اليه. فكيما تستطيع **مشاعة زراعية واحدة** أن تتخلص من التاثير المفسد للاقتصاد النقدي يجب عليها أن تتوصل الى تنظيم الانتاج الاشتراكي مع **سائر منتجي** السلع المطلوبة ؛ وفي الحالة المضادة فان هذا المسح الاشتراكي والنقدي سوف يختنق بتناقضاته الخاصة بيد أن مساعة واحدة تعجز عن ان تزود بالمنتجات الزراعية **سائر** منتجي **سائر** سلع الاستهلاك الضرورية لها وعندئذ فلابد لهؤلاء المنتجين اما ان يبيعوا قسما من المواد الاولية التي تعوزهم، يولدوا بدورهم مسخا اقتصاديا نقديا ـ مناهضا للنقد الامر الذي سيسبب اخفاق جميع مساريعهم عن الاشتراكية واما أن ينظروا اليوم المبارك الذي سيبلغ فيه عدد المشاعات الزراعية البرودونية المستوى الضروري والكافي ان مجيء هذا اليوم المبارك سوف يمكن من تنظيم الخلية الاساسية الاولى للمبادله ـ الانتاج ولكن ماهي خلية واحدة من هذا النوع في العضوية الاقتصادية الهائلة للدولة الروسية لسوف تختنق هي الاخرى في جو المزاحمة حيث ستجد نفسها لسوف تكون نقطة العسل في برميل المرارة لسوف يكون هناك الى جانبها وحدها جمهرة المنتجين غير المؤمنين بالانجيل لسوف تتعثر لدى كل خطوة بعثرات نبالة وبورجوازية«اضعفتها» الثورة « الشعبية لكن لم تدمرها أتتصور أيها القارىء أن النظام الاشتراكي لن يتأخر في هذه الشروط عن « الاحاطة اخيرا بجميع وظائف البلاد نتا نعتقد أنه في أفضل الاحوال سوف يتأخر كثيرا لكن لنكرر مرة أخرى أن السيد تيخوميروف سير الى هذا النوع من عملية تشريك العمل الا بفرض الاسراع في الحركة والضغط على التاريخ ان الطريق التي اختارتها الاشتراكية الديموقراطية في جميع البلدان المتحضرة تبدو له « شديدة الاعتدال وشديدة التدقيق ولقد اراد مؤلفنا ن « يسلك الطريق المختصرة فتورط في اخدود الاصلاحات البورجوازية الصغيرة التي لا تملك ظلا من المنطق او الاصالة أو الاقدام

لكن لنمتنع عن الخروج عن الموضوع لنفترض أننا توصلنا سريعا الى تنظيم المبادلة الاشتراكية ، ولنر إلام سيؤدي تطبيق مبادئها العملي

ان مشاعة تورخوفو الزراعية قد تحالفت مع رابطة الحذائين في كيمري . ومبادلة المنجات تتم على أساس « القيمة المكونة التي تقاس بالعمل وبالعمل وحده . ان

برودون ينتصر لكن أهالي تورخوفو وهم مزارعون « جديون وأصحاب فكر عملي يسألون عن نوع العمل الذي سوف يخدم مقياسا للقيمة وان سكان كيمري الذين هم أكثر انسياقا مع الافكار ـ ان الحذائين هم دائما فلاسفة حتى درجة ما ـ يردون في الحال بأنه العمل عامة ، العمل المجرد لكن « المزارعين الاحرار »لاينخدعون بذلك فيجيبون بأن هذا العمل مجهول منهم وأنه قد يكون موجودا عند «العلماء»، اما هم فانهم يتعاملون مع العمل المحدد الحسي للحذائين ايفان وبيوتر وفيدور أو مجموع الرابطة ايفان ـ بيوتر ـ فيدور واما تنتابهم الشكوك البورجوازية فانهم يقولون في انفسهم أن تزويد اهالي كيمري بمقدار من القمع يفوق ما سوف يقضيه هؤلاء من الزمن في صناعة احذيتهم معناه تقديم جائزة الى الجهلة الى الكسالى الى الخرقاء وان الحذائين يتخلون اذن عن صاحبهم برودون وقد يئسوا من هذه البلاهة الفلاحية ويستنجدون ـ هذا ما يحسبونه على الاقل ـ بماركس نفسه انهم يوضحون أنه من الواجب اتخاذ مقياس لقيمه سلعهم العمل الضروري اجتماعيا الكمية المتوسطة من العمل الضروري في الحالة الراهنة من التقنية . من اجل انتاج زوجين من الاحذية لكن عناد أهالي تورخوفو لا يرضخ امام هذه الحجة انهم لا يفهمون كيف يمكن التوصل الى تحديد كمية العمل الضروري اجتماعيا المتضمن في شغل هؤلاء الحذائين المتطفلين وان هؤلاء ليطلبون النجدة عند رودبرتوس ويلوحون ظافرين بـ der Normalarbeitsag* وكذلك بالمراسلات مع بيترز مهندس شويرين ؛ ان الاقتصادي البوميراني** يبرهن فيها على أنه في الامكان دائما تحديد ما يستطيع العامل المتوسط ويجب عليه أن يفعله في فرع معين من الانتاج ؛ وان هذا المردود المتوسط يجب أن يعتبر العمل الضروري اجتماعيا ؛ وان من يتجاوزه يقبض اكثر ومن لا يبلغه يقبض أقل ان القضية قد حلت بصورة نهائية فيما يبدو

ويهتف أهل تورخوفو الذين أوشكوا على الخضوع دقيقة واحدة لنقبل بأنه في الامكان تحديد المردود المتوسط لعملكم وعملنا ولنامل أن تتكفل الدولة بذلك كي تسهم في التنظيم الاشتراكي للعمل لنفترض أن صنع زوجين من الاحذية يتطلب يومين لكن هناك ، على هامش رابطتكم عددا هائلا من الحذائين الذين ينتجون كي يبيعوا وانتم أيضا عندما ترسلون الينا الستين زوجا من أحذيتكم في العام فانكم ستبيعون في السوق الآلاف من الازواج المتبقية لكم ولنفترض أن العرض تتجاوز الطلب بالنسبة الى هذه السلعة ان قيمتها التبادلية سوف تنخفض إذن طالما ان كل زوجين لا يمثلان سوى ثماني عشرة او ست وثلاثين ساعة من

* [العمل الطبيعي]

** [نسبة الى بوميرانيا وهي مقاطعة المانية في الاصل ضمت الى بولونيا]

العمل الضروري اجتماعيا اتتصورون انا سوف نزودكم بنفس المقدار من القمح ان هذا لن يكون في مصلحتنا ابدا ، طالما أن الشفقة المنظمة جيدا ، كما تعرفون ، تبدأ بالنفس أولا واذا كان انتاج الاحذية ضئيلا على العكس من ذلك ، فانكم **أنتم** الذين لن تجدوا اذن من مصلحتكم أن تسلموننا اياها بالسعر المتفق عليه بالسعر الاشتراكي العادل وعلى العموم ، فانه يبدو لنا أن العدالة تقوم على مبدأ نفعي وانه لا يمكن أن تعتبر اتفاقية « عادلة اذا كانت تسيء الى أحد الفريقين ونظرا لتحولات الاسعار التجارية في الوقت الراهن فليس ثمة واسطة لتنسيق مصالحنا المتبادلة ، طالما ان التحولات وحدها تحدد العلاقة بين العمل الفردي للمنتجين المنعزلين (أو مجموع عمل رابطة معينة من المنتجين) **والعمل الضروري اجتماعيا .**
وطالما أن السوق تملي علينا شروط مبادلتنا الاشتراكية ، فان عقودنا ستظل مجرد نظم للآلىء . اننا سنحصل منه ، تقريبا ، على نفس الميزات التي نحصل عليها فيما اذا اتفقنا على كتابة فواتيرنا بالاحرف الرومانية بدلا من الاحرف العربية وأنتم احذاؤون ، اننا نعرفكم ، ولا نعرفكم لعشقكم الزجاجة فحسب ، بل لنزوعكم الطبيعي الى الطوباوية وأما نحن فاننا موجيك غير حمقى على الاطلاق ونحن لا نضيع وقتنا في الاوهام
ويرد الحذاؤون لكن مساوىء المبادلة الاشتراكية سوف تنقطع حالما يقبل جميع المنتجين بممارستها وفي ذلك اليوم لن يعوق شيء المبادلة الاشتراكية عن الاحاطة بجميع وظائف البلاد
ويجيب المزارعون أن الحلزون سينتهي هو الآخر الى الوصول ذات يوم وعندما يتفق الناس جميعا وملعون اذن من يرجع عن التزامه وفي انتظار ذلك ، فاننا لا نمشي
وهكذا يتأجل تنفيذ « العقد sine die* ، وفي هذه الاثناء يواصل الانتاج التجاري مسيرته وينسف « المساواة النسبية
ويترتب على ذلك أن ساعة « التنظيم الاشتراكي في مجال المبادلة الداخلية » لن تدق الا حين يمكن القضاء على جميع التناقضات التي أشرنا اليها لتونا ولن يكون ذلك ممكنا الا حين **يكون عمل كل فرد قد ارتدى طابعا اجتماعيا** ، حين تشكل الآلية الاجتماعية للانتاج جملة منهجه لكن تنظيم المبادلة لن يكون وقتئذ الا الدولاب الخامس في العربة ، لان المبادلة لا تملك معنى الا بقدر ما تتشكل آلية الانتاج الاجتماعية من عناصر منعزلة لم تتحد عضويا البتة ، بقدر ما يرتدي عمل المنتج طابعا خاصا لا طابعا اجتماعيا فلا العشيرة ولا المشاعة العائلية عرفتا المبادلة الداخلية » ، ولم تحتاجا الى تنظيمها ، وذلك لسبب بسيط هو اعتمادهما على **الانتاج المنظم** ان

* [لاجل غير مسمى]

كل ما كانا تحتاجان اليه هو **تنظيم التوزيع** ، لكنه مع التطور الحالي لقوى الانتاج **يمكن أن يرتد هذا التنظيم الى مبدأ أوحد** حاجات الانسان وهؤلاء نحن ، **بعدما** تسكعنافي أروقة التنظيم الاشتراكي للمبادلة قد عدنا الى النقطة التي انطلقنا منها . الى مسألة معرفة كيف سنتوصل في روسيا الى **التنظيم الاشتراكي للانتاج .** ولقد راينا انه لا الحكومة المؤقتة ولا الحكومة الشعبية النهائية سوف تطبقانه ؛ ولقد راينا كذلك انه لا الملكية المشاعة للارض ولا زراعة الارض بصورة مشتركة تؤديان اليه لقد تأكدنا حاليا أن « التنظيم الاشتراكي في مجال المبادلات الداخلية » ، فضلا عن ذلك . لا يؤدي اليه هو الآخر ولكن السيد تيخوميروف قد تنبأ لنا « ببداية تنظيم اشتراكي لروسيا » ؛ وان كل معنى ثورة « حزب ارادة الشعب » قد كان ينطوي في هذا الامر كيف ستستطيع هذه النبوءة أن تتحقق ؟

ويهتف السيد تيخوميروف يجب أن يكون لدينا الايمان يجب أن يكون لدينا الايمان بالشعب ، بقواه الخاصة ، وبالثورة

اني أؤمن ، ياسيد ، ارحم تشككي ! اننا نعرف أن الايمان شيء ممتاز واننا لنعرف أيضا أن « البحار يحركه الايمان عندما يسلم العناية الالهية قاربه الهزيل فيفضل تقلب الامواج العاصفة على العنصر الصلب للارض الصلدة لكن الصوفي الذي كتب هذا المديح للايمان كان يستطيع ان يفسر لنا أيضا في أي توازن مترنح يجد هذا الايمان نفسه عندما يدخل في تناقض مع العقل ان ايمان السيد تيخوميروف يعاني كثيرا من هذا التناقض القاتل انه يؤمن بثورته نصف الباكونينية ، نصف التكاتشوفية لان الفلسفة الباكونينية التكاتشوفية ترضي عقله ارضاء تاما لكن فليصبح هذا العقل اكثر تشددا ولن يبقى أثر من **ذلك** الايمان . وان السيدتيخوميروف سيفهم اذن انه يخدع نفسه بصورة قاسية حين يتخيل أنه يمكن الحديث عن الثورة الاقتصادية دون الالمام بأبجدية الاقتصاد ، وما هو النقد والسلعة ، والمبادلة

وعلى كل حال ، فاننا لن نوجه الى مؤلفنا كثيرا من اللوم بشأن هذه النقطة الاخيره ولسوف نقول أن ايمانه خلصه انه لم يكن مخطئا الا لانه آمن بكاتشوف وبباكونين وان الخطيئة لتقع على كاهل هذين المجربين وليس عليه بالذات

ان ما يهمنا هو النتيجة التي يجب استخلاصها مما سبق وانه لفي الامكان صياغتها كما يلي **ان ما ينتظره السيد تيخوميروف « من الثورة » يشكل انحرافا نقطة فنقطة ، عودة للفكر الروسي التقدمي على دروب الباكونينية المطروقة** لكن

وداعا ايتها السلال ، فقد انتهى جمع العنب كما تقول حكمة الشعوب ؛ ان ما كان لن يعود مطلقا ان الباكونينية ، التي فقدت الاعتبار بعد عام ١٨٧٠ لن تستأنف الحياة الماضية بعد عام ١٨٨٠ ليس في مقدور أي خطيب ، حتى اذا كان مصقعا أكثر من السيد تيخوميروف ، أن يتوصل الى بعثها .

ولعل القراء الميالين الى تأييد هذه النتيجة يقدمون الي هذا الاعتراض الاخير سوف يقولون لي ان محاكمتنا كلها تعتمد على فرضية أن السيد تيخوميروف سوف يقتصر على صيانة السلطة التي في يده وليس على **الاحتفاظ** بها طويلا . ما عساه يحدث لو أن الثوريين اتبعوا تكاتشوف بدلا من تيخوميروف ، اذا تحقق الرأي الذي أصدره بيوتر لافروف قبل عشر سنوات ، الا وهو أن « ثورة أخرى تستطيع وحدها أن تنتزع الدكتاتورية من يدي الدكتاتور

٥ العواقب المحتملة للاستيلاء على السلطة من قبل الاشتراكيين

ما عساه يحدث ؟ بكل بساطة الافلاس الارهب للحزب الاشتراكي الروسي ! لسوف يتوجب عليه أن يقوم « بتنظيم يتجاوز قواه وفهمه على حد سواء ان الجميع سوف يتحدون في سبيل سحقه عدم استعداده الخاص ، وعداء الطبقات العلياوالبورجوازية الريفيــة ، ولا مبالاة الشعب حيال خططــه **التنظيمية** ، وتخلف اقتصادنا وان الحزب الاشتراكي الروسي سيؤكد بمثال تاريخي جديد الحكم الذي أصدره انجلز بمناسبة **حرب الفلاحين في ألمانيا**

ان أسوأ ما يمكن أن يقع لزعيم حزب متطرف هو أن يضطر لاخذ السلطة بين يديه في مرحلة لم تنضج الحركة فيها بعد من أجل سيطرة الطبقة التي يمثلها ومن أجل تطبيق التدابير التي تتطلبها سيطرة هذه الطبقة ما يستطيع يفعله لا يتوقف على ارادته ، بل على المرحلة التي بلغها تناحر الطبقات المختلفة وعلى درجة تطور شروط الوجود المادي وعلى حالة الانتاج ووسائل النقل ، وهي ما يحدد في كل برهة معينة درجة تطور التناحرات الطبقية

ما يجب عليه يفعله ما يتطلبه منه حزبه الخاص لا يتوقف عليه مرة أخرى ، لكنه لا يتوقف كذلك على درجة تطور الصراع الطبقي وعلى شروطه انه مرتبط بالمذاهب التي نادى بها والمطالب التي طرحها حتى ذلك الحين وهي مذاهب ومطالب غير مشتقة من العلاقات **الوقتية** للطبقات الاجتماعية المتواجدة بل من التفهم الاعظم أو الاقل للاتجاهات العامة للتطور الاجتماعي والسياسي وهكذا يجد نفسه بالضرورة حيال لغز مستعص ان ما **يستطيع** يفعله يناقض كل نشاطه الماضي ومبادئـه ومصالح حزبه الفورية ، وما **يجب** أن يفعله غير ممكن التحقيق وبكلمة واحدة ، فانه ملزم بألا يمثل حزبه وطبقته ، بل الطبقة التي نضجت الشروط من أجل سيطرتها انه ملزم ، في مصلحة الحركة بأكملها يدافع عن مصلحة طبقة غريبة عنه وأن يغذي طبقته الخاصة بالعبارات والوعود والتأكيد على أن مصالح هذه الطبقة الغريبة هي مصالحها الخاصة . ان كل من يقع في هذا الوضع المغلوط ضائع بصورة لا علاج لها .

وانه ليترتب على ذلك أن السيد تيخوميروف يخطىء خطأ فادحا حين يتصور أن الاستيلاء على السلطة من قبل الثوريين سوف يكون « نقطة انطلاق الثورة أن الامر على النقيض من ذلك تماما فهذا الاستيلاء سوف يخدم كاشارة للرجعية وحدها انه لن يوطد نفوذ القوى التقدمية في بلادنا ، بل سوف يضمن وقد استهلك تلك القوى في محاولة عقيمة أولى انتصار الاحزاب المحافظة والرجعية ان الثورة الروسية لن تبتعد فحسب عن النموذج الوحيد العزيز على قلب يعاقبتنا، وهو النموذج الوحيد الذي يفهمونه ، نموذج الثورة الفرنسية بل سوف تسلك المسيرة المعاكسة فبينما حدث في فرنسا حتى لحظة معينة ان كل موجة ثورية جديدة دفعت الى حلبة التاريخ بحزب جديد أكثر تقدما عن سابقيه فان يعاقبتنا المحليين سوف يرجعون الى العدم المرحلة المقابلة من الثورة الروسية واما يغلبون على أمرهم ويسقط اعتبارهم فانهم سوف يغادرون المسرح تحت وابل الضحكات والاتهامات من جانب العدو وأما كتلة الشعب التي بقيت دون مرشدين ودون نظام ودون تماسك فانها لن تستطيع التغلب على مقاومة الخصم المنهجية ان الانتفاضات الشعبية لن تؤدي في أفضل الفرضيات سوى الى قلب أطلال النظام القديم دون أن تحمل الى الطبقة الكادحة الاصلاحات التي تتعلق بمصالحها بالصورة الاكثر مباشرة

يشير ماركس الى أن الاحداث الكبرى في التاريخ تتكرر مرتين دائما المرة الاولى كمأساة والمرة الثانية كمهزلة(٧٦) ان تاريخ اليعاقبة في فرنسا هو المأساة الاشد تأثيرا والاعظم سموا وان تاريخ مؤامرات البلانكيين المعاصرين الروس والاجانب على حد سواء **بالرغم من بعض صفات البطولة** الفردية ، يظل مهزلة يقوم المضحك المبكي فيها في العجز الكلي عند ممثليها عن فهم معنى وطابع الثورة العمالية المقبلة



الفصل الخامس

المهمات الحقيقية للاشتراكيين في روسيا

١ الاشتراكيون الديموقراطيون واللكمات في الوجـه

ان الاشتراكية الروسية كما يتم التعبير عنها في حزب ارادة الشعب سوف تظل اذن غريبة عن القضايا الكبرى للاشتراكية الاوروبية طالما لم تتخل بصورة جازمة عن موقفها بين المقعد الفوضوي لباكونين والمقعد البلانكي لتكاتشوف ، وبعبارة اخرى طالما لم تتنكر للآراء العقيمة لفكر السيد تيخوميروف

ولما كانت هذه الآراء الفكرية تمثل المحاولة الاخيرة اليائسة من أجل ردالاعتبار الى نظرياتنا الثورية القديمة فان اشتراكيتنا عندما ترتفع الى هذا الحكم سوف تكف عن كونها « روسية » كي تنصهر في الاشتراكية العالمية تلك الاشتراكية التي يتم التعبير عنها في مؤلفات ماركس وانجلز وفي مؤلفات لاسال جزئيا وسوف تفهم أنصارها اذن

ـ ان الثورة الشيوعية للطبقة العاملة لا يمكن مطلقا أن تخرج من الاشتراكية الفلاحية والبورجوازية الصغيرة التي يتحمس لها في الوقت الراهن جميع ثوريينا على وجه التقريب

٢ ـ ان المساعة الزراعية تتجه بصورة أساسية بحكم تنظيمها الباطن الى افساح المكان أمام أشكال بورجوازية وليس شيوعية للحياة الاجتماعية ؛

٣ ـ أن الدور الذي يخصها في الانتقال الى هذه الاشكال دور **منفصل** لا **فاعل**. ذلك أنه ليس في مقدورها أن **تدفع** روسيا في طريق الشيوعية . بل أن تبدي فحسب حيال هذه الحركة **مقاومة أقل** من الملكية الفلاحية الصغيرة ؛

٤ ـ ان الطبقة العاملة في مراكزنا الصناعية تستطيع وحدها أن تأخذ مبادرة الحركة الشيوعية

٥ ـ وأن هذه الطبقة لا تستطيع أن تحصل على تحررها الابجهدها الواعي الخاص .

اذا مافهمت هذه الحقائق الاساسية مرة فان الاشتراكيين الروس من الاوساط المميزة سوف يتخلون عن كل مشروع للاستيلاء على السلطة ، تاركين أمر هذاالاستيلاء لحزبنا الاشتراكي العمالي المقبل ولسوف تتجه جهودهم فقط **نحو خلق هذاالحزب والقضاء على جميع الشروط المنافية لنموه وتطوره .**

ومن المفروغ منه ان هذا النوع من النشاط لا علاقة له بتجميع الطبقة العاملة بواسطة الاستيلاء على الاراضي والغرامات واللكمات في الوجه التي يعتبرها السيد تيخوميروف الامكانية الوحيدة المتوفرة حاليا للاشتراكيين الديموقراطيين الروس ولقد كانت مثل هذه القضية تكفي لتخليد هذا المؤلف لولا أنها مثلها كمثل بقية حججه تتألق بانعدام الاصالة التام فيها. وبالفعل فان السيدتيخوميروف لم يفعل سوى تكرار ما يقوله ويطبعه منذ زمن طويل أصحابنا السعبيون«الشرعيون» والسريون وان الروايات « الموجيكية النزعة ليحتفظ كتابها فيها أيضا للماركسيين بدور عملاء الرأسمالية ففي **الآنسة فولكونسكي**(٧٧) وهي قصة عجيبة سرتها قبل حوالي سنتين **رسول أوروبا** يقدم لنا السيد ارتيل ملاكا عقاريا ليبراليا ، وبورجوازيا متنورا وشعبيا يجمع الاغاني الشعبية في أوقات الفراغ التي تتركها له علاقاته الغرامية. مع البطلة ، وماركسيا نذر نفسه لاتقان الزراعة في أراضي السيد الليبرالي ومن المؤكد ان ماركسي ارتيل لا يحب « الغرامات واللكمات في الوجه » ؛ لكنه يصبح شاعريا حالما يضع السيد في رأسه أن يبتاع آلة زراعية جديدة ان لم يكن مصنعا أو مشغلا ان مصالح الراسمالية تمسه بقوة عنيفة بحيث عقد في الحال تحالفا ليس اكثر منه اخاء وودا مع البورجوازي المتنور لدى وصول هذا الاخير في زيارة لمعلمه وفي الحقيقة أن « البرنامج لا ينطوي على شيء من الاغراء لكن الخطيئة في ذلك لا تقع على عاتق الماركسية عموما ولا على عاتق هذا الماركسي الخاص طالما أن هذا الاخير لا يستطيع أن يتصور برامج أخرى غير البرامج التي تفضل السيد ارتيل فيهبه اياها ان فرح البط عوام وهذا ما نعرفه منذ زمن طويل ونعرف كذلك أن أبطال الرواية لا يستطيعون أن يكونوا أخبث من مؤلفيهم وان هذا ليمثل تأكيدا جديدا على الحماقات التي لا حصر لها والتي ينطق بها حتى شعبي السيد ارتيل ومثال ذلك الحوار الـذي يقنع خلاله الماركسي بأن ماركس قد أجهزت عليه المقالات الجديدة المنسورة في المجلات الروسية (الا يكون المقصود مقالات السيد ف. ف. في **حوليات الوطن**(٧٨) ؟ واذا أخـذ القارىء هـذه الحقيقة بعين الاعتبار فانه يتوجب عليه اذ يغسل الماركسي من كل لوم أن يعامل بمزيد من التسامح أيضا الماركسية بالذات التي تقتصر جريمتها على أنها لم تفهم ولم تقدر على الاطلاق من جانب المفكرين النوعيين لروسيا

واذا أعملنا الفكر قليلا فاننا ندرك أن الاشتراكيين الديموقراطيين لن يستطيعوا قط ، في أي بلد كان أن يكونوا الى جانب البورجوازية من أجل استعباد العامل بل

الامر على النقيض من ذلك فهم وحدهم القادرون على تنظيم مقاومة فعالة ضد الاستغلال الرأسمالي وطلبا لمزيد من الوضوح سنأخذ مثالا حسيا آخر ان الوضع الراهن لحرفيي النسيج معروف جيدا فلنتساءل عما يمكن أن يكون وكيف يجب أن يكون موقف الفئات الاشتراكية المختلفة حيالهم

ليس ثمة شيء كثير يقال عن الفوضويين انهم سيوصون عمال النسيج « بالدعاية بالفعل وينصحونهم بنسف حانتين أو ثلاث حانات وقتل اثنين أو ثلاثة من أصحاب المصانع فليس في الامكان أن نطلب خطة منهجية للعمل من برنامج ميزته الاساسية انكار كل منطق وكل منهج

ان البلانكيين أهم بالنسبة الى موضوعنا ففي وطن بلانكي . في فرنسا لايملك أولئك الذين ينتسبون الى هذا الرجل الفذ عملا منهجيا الا بقدر مايفقد برنامجهم صفات النوعية كي ينصهر مع برنامج « الحزب العمالي » كما يتضح خلال الحملات الانتخابية وفي الدعاية من أجل النضال الطبقي الخ لكن عمل البلانكيين في جميع الحالات حيث يحتفظون بعلاقتهم الخاصة سليمة يفقد كل خط موجه ويرتد الى الصيغة التالية اثارة الضوضاء »(٧٩) وانهم ليفتتحون اكتتابا اليوم من أجل تقديم مسدس كهدية شرف الى بيريجوفسكي(٨٠) ؛ ولسوف يطالبون غدا بالغاء الجيش الدائم كما سوف يثورون بعد غد ضد السجن ان نشاطا صاخبا حتى هذه الدرجة يظل بالطبع محظورا على تلامذة بلانكي الروس . يعني انصار الناقوس المكشوفين أو السريين ان نشاط البلانكيين في روسيا يقتصر لاسباب قاهرة على الارهاب بصورة رئيسية فيما يتعلق بالدعاية ، وأما فيما يتعلق بالتنظيم فينحصر في تأسيس الجمعيات السرية ما الدور الذي يستطيع هناأن يلعبه الحرفي بصفته هذه يعني الحرفي الذي لم يغرق نفسه في أحضان الانتليجنتزيا بل لا يبرح رجل حرفة يرتبط بالرأسمال بالعلاقات التي يفرضها عليه التاريخ ؟ ان الارهاب لايستطيع أن يشغل الا افرادا قلائل وان دعوة عمال النسيج الى التكتل في حزب عمالي أمر غير وارد ، طالما أن « العامل القابل للدكتاتورية الطبقية لا وجود له على وجه التقريب وبالتالي فليس في الامكان « اعطاؤه السلطة السياسية الخ وهكذا لا يبقى أمام عمال النسيج الا تسليم الامور للمستقبل وتأييد الحزب الثوري في ارادته الاستيلاء على السلطة مع الرجاء في أن تكون نتيجة هذا الاستيلاء بداية تنظيم اشتراكي لروسيا

سوف يأتي السيد
ويقاضينا*

لكن السيد قد يتأخر ، وقد لا يأتي مطلقا وقد ينفى يوم وصوله دون

* _ ن. نكراسوف : القرية المنسية]

أن ينجح في اقامة « البداية » الشهيرة ما الفائدة العملية التي سيجنيها الحرفيون من الحركة الثورية ؟ ما هي الميزات المباشرة التي ستحملها اليهم هل ستوضح لهم أوضاعهم الخاصة ؟ هل ستعلمهم انيتنظموا كييدافعوا بصورة جماعيةعن مصالحهم؟

كلا ، لن تعلمهم ذلك او اذا هي علمتهم ذلك فبطريق الصدفة المحضة وبصورة ثانوية طالما أن البلانكيين لا يركزون جهدهم الرئيسي على الدعاية الاشتراكية بين العمال لقد راينا ان الثورة السيخوميروفية تأمل في تجميع القوى الشعبيه حول نقاط ليس ثمة حاجة الى أية دعاية خصوصية » من أجل ايضاحها ، في حين أن النضال الحاد والفعال لعمالالنسيج ضد مستغليهم يتطلب على وجه الدقه « دعاية خصوصية » ان البلانكيين الروس ، بالرغم من ارادتهم في « اخذ الشعب كما هو »، لا يستطيعون أن يجهلوا معظم حاجاته ومتطلباته العملية

كيف سيتصرف الاشتراكي الديموقراطي الروسي حيال عمال النسيج هو الذي يتهمونه غالبا وباستمرار بانه يحلم وبانه يفتقر الى الفكر العملي انه سوف ينصرف ، عارفا أن تحرر العمال يجب أن يكون من صنع العمال انفسهم وان درجة الاستغلال الراسمالي وقف بصورة خاصة على حاجات المستغَلين وتطورهم السياسي، الى تحريض العمال على النضال ضد الرأسمال وبما أن الجهود المبعثرة لعمال هذا المصنع او ذلك المشغل لا تستطيع أن تضمن النصر فلا بد أن يعطي النضال طابعا طبقيا ولا بد لــه في سبيل ذلك ان ينصرف بطاقة عنيــدة الى هــذه الدعايــة الخصوصية » التي تسمى الدعاية الاشتراكية لكنه من المعروف أن كل نضال طبقي هو نضال سياسي ولذا فلا بد لدعاية اشتراكينا الديموقراطي أن تتخذ من الوهلة الاولى طابعا **اجتماعيا وسياسيا في وقت واحد** فهو سوف يخاطب العمال قائلا

ان تحسين أوضاعكم المادية لا يمكن تحقيقه اذا لم يكن هناك تدخل فعال من جانب الدولة وان هذا التدخل يمكن ويجب يقوم بالنسبة الى أولئك الذين أصبحوا من بينكم بصورة نهائية على وجه التقريب عمالا في المصانع ، في الدفاع بقوة القانون عن مصلحة البالغين والنساء والاولاد وأما المنتجون المستقلون الذين يواصلون النضال الرأسمالية فانهم لا يستطيعون توطيــد مركزهم الا فتحت الدولة الاعتمادات للرابطات العمالية لكنه ليست أية دولة ستتخذ حيالكم دور الحليف هذا ان الدولة تكون حما في صفكم الا حين تصبح دولة عمالية ، دولتكم وان جميع جهودكم يجب تنصب على هذاالهدف وما لم يتم الوصول الى هذا الهدف فان عليكم تجبروا الدولة على التنازلات حتى كانت هذه الدولة عدوة لكم ولا تنسوا أن هذه التنازلات ستكون أعظم بقدر ماتكون مطالبكم أعنف وحزبكم أقوى اخلقوا هــذا الحزب تكتلوا بحيث تصبحون قوة منضبطة ومتوعدة وحين تحققون النصرالاخير فسوف ترمون الى الابد بنير الرأسمال ؛ وفي انتظار ذلك فانكم ستعملون على أن تلجموا عنانه تحموا على الاقل أولادكم وأنفسكم ضد الانحلال الجسدي والخلقي والفكري. ليس ثمة سوى سبيلين أمام وضعكم الراهن القتال أو الخضوع غير المشروط للرأسمال واني أدعو الي أولئك الذين يريدون أن يقاتلوا .

ما راي القارىء ؟ الن يكون عمل من هذا الطراز الاكثر عملية بين جميع الاعمال الممكنة ؟ ولسوف تقولون لي أن النجاح لن يأتي الا ببطء ولن يكون مضمونا جدا اني أقبل بذلك لكن أساليب العمل الاخير لا تتيح لنا الا نجاحا أقل وثوقا من ذلك ؛ فلا الدعاية الفوضوية « بالفعل » ولا المؤامرات البلانكية ستتقدم خطوة واحدة بالصراع الطبقي في روسيا ؛ وان تحرر الشغيلة انما يتوقف على هذا الصراع وحده

ومن المؤكد أن الاشتراكي الديموقراطي لن يفعل الا ما **في وسعه** ؛ لكن ميزة وضعه تستقيم في أن **في وسعه أن يعمل من أجل الطبقة العاملة أكثر جدا من أي** « اشتراكي ثوري انه سيحمل الى الطبقة العاملة **الوعي** الذي لا يمكن بدونه التصدي للنضال الجدي ضد الرأسمال واذا ما حمل هذا الوعي مرة ، فانه سيعطي الحركة الثورية قوة واستمرارا وجبروتا ما كان يمكن لنا أن نحلم بها قط اذا ما اقتصرنا على البرامج القديمة

ولاحظوا جيدا ان الاشتراكي الديموقراطي لا يحتاج مطلقا الى « الاهتمام [كما هي الصيغة الروسية بصورة نموذجية !] بخلق الطبقة التي يريد ان يعمل باسمها » ولابد أن يكون المرء جاهلا كل شيء عن الوضع الاقتصادي في روسيا الحالية كي لا يرى هذه الحقيقة التي لا جدال فيها ان الطبقة المقصودة قدخلقت بصورة جزئية ، وفيما عدا ذلك فان المجرى الذي لا يرحم للتطور التاريخي يكمل **خلقها** بسرعة مضاعفة أبدا ولابد ان يكون المرء عاميا كليا عن الدور التاريخي للرأسمال الذي يسوي جميع الاشياء كي يقارن وضع طبقتنا العاملة بالوضع الاستثنائي أكثر أو أقل « لنبالتنا »(٨١).

ان الافتتان الفرنسي بالمؤسسات الانكليزية في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لم ينجح في أن يؤقلم في فرنسا المؤسسات الارستقراطية الانكليزية ! لكن الحزب العمالي الفرنسي يستطيع ، دون أن يسقط في الطوباوية مطلقا أن يتبنى نفس البرنامج الذي يعتنقه الاتحاد الديموقراطي الانكليزي إلام يعود الفارق ؟ ذلك سر لن يجد السيد تيخوميروف نفسه عناء في اكتشافه اذا قرأ بشيء من الانتباه على الاقل **بيان الحزب الشيوعي**

وبعدما أوصيناه بهذا المؤلف المرموق فلننقل كلمتين أخريين عن مهمات الاشتراكيين الذين يعتبرون الرأسمالية حتمية تاريخية وهو التيار الذي نتشرف بالانتساب اليه

ان الحجة المألوفة جدا التي يعارضونهم بها ــ وتلك حجة **عاطفية** بالاحرى منها عقلية ــ هي في الاشارة الى استحالة التقدم السريع للحركة الثورية في روسيا اذا كانت فرصها تتلخص في نمو الطبقة العاملة الروسية وان هذا الاعتبار ليثير من جهة واحدة الافتتان بالبرامج « النوعية ومن جهة ثانية الخوف الذي سبقت الاشارة اليه من ان يضع الثوريون انفسهم في خدمة الرأسمال ولن يتخلفوا كذلك عن معارضة محاكمتنا بهذا الاعتراض .

ولذا فانه لا يبدو لنا امرا نافلا أن نستلفت انتباه القارىء الى انعدام المنطق الغريب عند الناس الذين يثيرون هذه الصعوبة ان هذا اللامنطق سيبين لنا بوضوح فائق ان الكثيرين من تلامذة تشيرنيشيفسكي المزعومين لم يتمثلوا الا نتائج ابحاثه دون أن يدركوا ايما ادراك طريقته

عندما يدور الحديث عن المصير المحتمل للراسمالية الروسية أو عن تأثيرها في الموقف السياسي ، فان من عادة الشعبيين ان يشيروا في الحال الى الحقيقة التالية ، التي لا جدال فيها فيما يبدو الا وهي أن الراسمالية عندنا هي في نفس مستوى التطور الذي كانت عليه في « أوروبا الغربية » قبل قرن من الزمان وانهم ليستنتجون من ذلك أنه لابد من انقضاء قرن كامل قبل أن تقدم الراسمالية لتاريخنا « الخدمة » التي قدمتها من قبل لتاريخ « الغرب وان هذا لطويل وبما أنالانتليجنتزياعندنا اعتادت ان تضع ارادتها الثورية محل الانطلاقة الثورية الفعلية ، فانها تلتفت بأنظارها نحو المشاعة وتسير كما حسب تسيرنيسيفسكي أنه برهن على ذلك الى امكانية الانتقال المباشر من المشاعة الى الاشكال الاشتراكية للحياة بصورة مشتركة واذا هي نادت بأنه في الامكان **القضاء التام** على احدى مراحل التطور الاجتماعي فذلك أولا لانها لا تفهم انه في الامكان **تقصير مدتها** انه لا يخطر في بالها أن اختفاء مرحلةتاريخية ليس هو الا حالة خصوصية لتقلصها وأننا حين نبين امكانية ذلك الاختفاء فاننا نؤكد ــ وبمزيد من القوة ــ احتمال هذا التقلص

ولقد رأينا أعلاه على مثال بيوتر تكاتشوف أن هذه الخطيئة المنطقية الفظة تقوم في أساس برنامج البلانكيينعندنا ومن سوء الحظ ان البلانكيين ليسوا الوحيدين الذين كرروا هذه الخطيئة

ان عددا كبيرا من الاشخاص يحسبون أن الثورة الاجتماعية يمكن أن تحدث في روسيا « اليوم • أو آجلا وربما أبدا وبكلام آخر على أساس الحالة الاقتصادية الراهنة والا على أساس نظام سوف يضيع انساؤه وتوطيده في مستقبل مضب ولكنانعرف وتاريخ أوروبا العربية هو الذي يعلمنا ذلك مرة اخرى أنالخطوة الاولى هي التي كلفت الراسمالية باهظا وان اندفاعتها المستمرة من الغرب الى الشرق تتم بسرعة متزايدة ابدا ان تقدمها في روسيا لا يمكن ان يتحقق بعد الآن بمثل البطء الذي تم به في انكلترا مثلا كما ان ديمومتها بالذات لا يمكن بعد الآن أن تكون ما كانت عليه في بلدان أوروبا الغربية ان الراسمالية عندنا سوف تذوي حتى قبل أن تزدهر **بصورة نهائية** وان ضمانتنا على ذلك التأثير الذي لا يقاوم للوضع العالمي ومهمايكن من أمر فانا لا نستطيع أن نسك كذلك في النصر الاكثر أو الاقل شمولا الذي سوف تحققه فلا الانكار الاعتباطي للحقيقة الناجزة ولا النفجعات على انقاض الاشكال القديمة لحياة الشعب العريقة لاشي يمكن أن يوقف بلادا « انخرطت في طريق القانون الطبيعي لتطورها لكن هذا التطور بالذات يمكن أن

يكون اكبر او اقل بطئا ان المخاض قد يكون أكثر أو أقل الما كل شيء يتوقف على تلاقي العلاقات الاجتماعية والدولية للبلد المذكور وان طابع هذا التلاقي الاكثر او الاقل ملاءمة للطبقة العاملة يتوقف بدوره على سلوك الناس الذين سوف يفهمون معنى التطور الذي ستحققه بلادهم ان تطور الراسمالية في المانيا قد صادف طبقة عاملة اكثر تطورا مما في انكلترا أو فرنسا ولـذا كانت المعارضة ضد الاستغلال الراسمالي أسرع واحزم فيها ولم يفكر الشيوعيون الالمان في ان يضعوا أنفسهم في خدمة الراسمالية لقد كانوا يعرفون أن انتصار الطبقة العاملة الاكثر او الاقل قربا يتوقف بصورة خاصة على التأثير الذي سيمارسه على هذه الطبقة الرجال الذين فهموا التطور التاريخي ولقد قاموا بدعاية نشيطة في الاوساط العمالية . فتجاوز النجاح توقعهم لماذا لا يكون في مقدورنا الاقتداء بهم

يشير ارسطو الى أن السيدالقديم لا يمكن تصوره دون العبد. وانالصناعيالحديث لا يمكن كذلك تصوره دون العامل ان تطور البورجوازية يفترض تطور الطبقةالعاملة؛ ان نمو الراسمالية التاريخي يشكل عملية ذات وجهين وكل طبقة اجتماعية تتجمع على الوجه الذي يقابلها وتنشد اليه « بصورة امتن من انشداد بروميثيوس الى صخرته بفعل أغلال فولكان ففي المجتمع الرأسمالي تسيطر السلعة على المنتج وتملي عليه سلوكه لكن بعض الافراد يحتفظون بامكانية الاختيار الواعي بين القطبين المتضادين وان المثقفين هم من هؤلاء ، وموقفهم حيال قضية الطبقة العاملة يتوقف على تطورهم الاخلاقي والفكري وليس في مقدور أية سفسطة كانت أن تبرر أخلاقيا انتقال الاشتراكيين الى معسكر المستغِلين وفضلا عن ذلك فان السفسطات المستعملة ضعيفة جدا وبائسة جدا بحيث لا يمكن ان تعطي لحظة واحدة وهم الحقيقة لاي امرىء قادر على بناء أدنى قياس في القواعد

لابد ان يكون المرء متصلبا جدا وبليدا جدا بقدر دعاتنا « النوعيين كي يزعم أنه لابد للاشتراكي بالضرورة أن يقدم مشاركته الشخصية في تطور الراسمالية في بلاده لقد اعتاد « النوعي » أن يحل هواه الخاص محل التطور التاريخي وأنيكتفي بالاعتبارات العقائدية حيث لا بد من دراسة نقدية انه يفكر على هذا الغرار ان الراسمالية محتومة من حيث هي مرحلة انتقالية ؛ وبالتالي فانه لابد من بشر يقيمون النظام الراسمالي ولكنني لا استطيع أن اضع نفسي في خدمة فرسان التراكم البدئي لا استطيع أن اسلب العامل مع الاحتفاظ بضميري مرتاحا وطاقتي سليمة »
ما عساه يحدث اذاكان هناك كثيرون من الناس في مثل حالتي ؟ ما عساه يحدث اذا شاطرني **جميع الناس** افكاري ؟ سوف يحدث أن الراسمالية لن تقوم ، وهي مع ذلك محتومة من حيثهيمرحلةانتقالية. وهكذا دواليك. وهكذافان«النوعي»المسكينيقع في حلقة مفرغة من المقدمات التي تدور حولها دوائر متراكزة من النتائج أفلن يكون من الافضل « التخلي لفترة من الزمن عن الاشتراكيـة والعمل على توسيع

الرأسمالية وتوطيدها طالما أنها ضرورة لا شرطية حتى هذه الدرجة ؟ وان السيد تيخوميروف ليسأل بأي حق سوف نبث في العامل أفكارا اشتراكية سوف تبعد أفضل عناصر هذه الطبقة عن الرغبة في تحقيق النجاح في الرأسمالية بينما ليس من ينجح فيها بصورة أفضل من أولئك القادمين من الطبقة العاملة ؟ »(٨٢) « سوف يكون لدينا الوقت من اجل العودة الى الاشتراكية حين تكون الرأسمالية قد انجزت رسالتها التاريخية وهكذاالى ما لا نهاية ان النوعي يقطن عالما من الافكار والحقائق المعطاة بصورة نهائية والمعزولة بصورة حازمة عن بعضهابعضا دون أن يملك أدنى فكرة عن **العملية التي** تولد هذه الافكار وهذه الحقائق ولذا فانه حين يوصل بطريقة ما الى تبنيها الواحدة تلو الاخرى تغيب عن نظره كليا روابط التبعية المتبادلة التي تجمع ما بينها

انه ينطلق من الفرضية بأن نشر الافكار الاشتراكية مستحيل دون تطور الرأسمالية لكنه سرعان ما ينسى فرضيته ، في تعجله البرهان على بطلان أفكار خصومه. كي يخبرنا بأنالانتشار السريعجداللافكارالاشتراكية يمنع تطور الرأسمالية. انه يقبل تماما بالاعتراف بأن احدى الظاهرتين نتيجة والاخرى علة ؛ لكنه يخشى أن تظهر النتيجة قبل العلة ، بحيث تعوق هذه العلة عن ممارسة فعلها يعني عن اثارة النتيجة اياها وهكذا فان صاحبنا « النوعي أول من يقع في فخ السخافات الذي حفره لخصومه بكل عناية ولا يعود أمام هؤلاء الخصوم الا اخراجه من ذلك الفخ بواسطة محاكمة بالغة البساطة

لسوف يقولون له انه اذا كان انتشار الافكار الاشتراكية ممكنا في كتلة الشعب دون انقلاب شامل في شروط الوجود الناشئة عن الرأسمالية فانه لن تكون ثمة حاجة الى الاطلاق الى الحديث عن المراحل الانتقالية لتطورنا التاريخي أن هذه المراحل لا حساب لها بالنسبة الينا الا بقدر ما تشق الطريق أمام الدعاية الاشتراكية. ولسوف يكونمضحكا اذن أن نخشى أن توقف دعايتنا الحالية تطور الرأسمالية في البلاد وفيما عدا ذلك فلن تكون التخلي عن هذه الدعاية أقل سخفاً من ذلك طالما أن امكانيتها بالذات تشير الى أن التاريخ قد سبق فهيأ لها الارض جزئيا وبقدر ما نزرع هذا الجزء بصورة أسرع ، وبقدر ما يتحقق تطورنا التاريخي بصورة اسرع فان اكمال الطريق التي تنفتح أمام شعبنا سيكلفه قدرا أقل من الجهود والتضحيات. اننا لا نريد أننسير بعكس التاريخ ، لكننا لا نريد كذلك أن يسبقنا هذا التاريخ خطوة واحدة وكما قال تشيرنيشيفسكي فاننا لا نبكي ما ولى زمانه لكننا لن نؤجل قط للغد ما يتضح اليوم انه مناسب وممكن اننا ننشر أفكارنا لاننا نستطيع أن نبرهن رياضيا على أن كل تقدم على طريق تطور روسيا الاجتماعي يقرب ساعة انتصار هذه الافكار ويسهل بقية عملنا .

انا نختلف عنكم في نقطة واحدة فبينما لا يكف تطور العلاقات الاقتصادية القائمة عن ابعادكم عن مثلكم الاعلى **المشاعي** ، فان مثلنا الاعلى **الشيوعي** بفضل هذا التطور بالذات يقترب دون انقطاع انكم اشبه برجل يريد ان يمضي الى الشمال فيصعد في قطار وجهه الجنوب اما نحن فاننا نعرف طريقنا لقد صعدنا الى قطار التاريخ الذي يقودنا باقصى سرعته نحو هدفنا وصحيح أن الاتجاه الذي اتخذناه يدهشكم ذلك أنه يبدو لكم أن الاشتراكي لا يمكن أن ينظر بعين التعاطف الى تقدم النظام البورجوازي للانتاج لكن مرد ذلك الى أن منطقكم أيضا نوعي حتى درجة كبيرة.

انكم تتصورون أن اشتراكيا امينا لمثله الاعلى يجب في كل مكان وفي كل زمان أن يعارض تقدم الراسمالية ان تفكيركم هنا ايضا لمن نمط بدائي حتى درجة كبيرة انكم تقولون أن عرقلة تقدم الراسمالية يعني الاضرار بمصلحة المعلمين وبما أن مصلحة هؤلاء المعلمين تتعارض على طول الخط مع مصلحة العمال فان كل ما يضر بالراسمال هو في مصلحة العمل وانكم لتنسون أن الراسمالية لا تتعارض **فحسب** مع الحلقة التي **تتلوها** في تسلسل التطور التاريخي، **لكن** مع الحلقة التي **تسبقها** أيضا. وانها لاتقاتل المحاولات الثورية للبروليتاريا فحسب. بل الطموحات الرجعية للنبالة والبورجوازية الصغيرة ايضا. انكم تحملون للرأسمال حقدا الاهبا جدا بحيث تريدون مهاجمته دون اعتبار للزمان والمكان. بيد ان هذه الحمية تحملكم على التصفيق لاخفاقات تمنى الرأسمالية بها لا يمكن ان تفيد **الا الرجعيين وحدهم** ان برنامج « اشتراكيتكم الروسية يتطابق اذن مع برنامج الاشتراكيين المحافظين الالمان ، دون ان يتبقى فيه أثر على الاطلاق لمطامحكم التقدمية وكيما تتفادوا هذه التحولات تفعلون خيرا اذا وعيتم اخيرا التصور الجدلي للتاريخ ان واجبكم هو في تأييد الراسمالية في نضالها ضد **الرجعية** وفي الوقت نفسه البرهان على أنكم الاعداء الالداء لهذه الرأسمالية في نضالها ضد **الثورة** العمالية المقبلة ان برنامجا من هذا النوع سيكون وحده جديرا بحزب يعتبر نفسه حامل طموحات القرن الاكثر تقدمية لكنه لابد لكم مرة أخرى كي تروا الامور من هذه الزاوية من أن تتخلوا عن اتخاذ وظيفة الهيئة المتوسطة بين الطبقات وأن تنضموا الى صف العمال

٢ الدعاية بين العمال

أيكون هذا التجمع ممكنا في الوقت الحاضر ؟ هل الدعاية بين العمال ممكنة في الشروط السياسية الراهنة ؟

ليس المستحيل الا حالة خصوصية من الصعب وان الصعب الذي يتحول أحيانا الى مستحيل هو من مرتبتين فثمة صعوبات تتوقف على القدرات الفردية

للشخص الفاعل ، على الطابع السائد لطموحاته ومفاهيمه وميوله وان هذه المرتبة من المصاعب تصدر عن البيئة الاجتماعية عن طريق الافراد ولذا كانت انواعها كثيرة بقدر قدرات الافراد انفسهم ان ما كان **صعبا** على شخص مثل غولدنبرغ قد كان **سهلا** على شخص مثل جيليابوف(٨٣) ؛ ان ما هو مستحيل بالنسبة الى رجل ذي خلق معين وصاحب قناعات معينة قد يبدو ضروريا وبالتالي ممكنا وان أمكن أن تكون صعبا بالنسبة الى ذلك الذي اتخذ عادات أخرى وآراء أخرى وكثيرا ما يعتبر مستحيلا ليس ما هو مستحيل في ذاته ، بل ما يستتبع ، في رأي فرد معين ، ميزات تعدل مطلقا الجهد المبذول وان تقدير الميزات المترتبة على عمل سياسي يتوقف كليا على الحكم الذي يصدره الشخص الفاعل عن ذلك العمل ان السيد « ف. ف. الذي يعتقد أن السلطات العامة سوف تتكفل بتنظيم الانتاج الوطني بصورة تتفق مع تمنياته سوف يجد بصورة طبيعية تماما ان التضحيات والجهود التي تكلفها اليوم الدعاية بين العمال نافلة وفي غير موضعها وكذلك فان المتآمر الذي يعتمد بصورة رئيسية على هذه « اللجنة » أو تلك ، سوف يتخلى دون جدال باطني كبير عن الدعاية بين العمال الذين يرى انهم **هامون** « من أجل الثورة فقط دون أن يعتبرهم الصانعين الاساسيين لهذه الثورة(٨٤) وان الاشتراكي الديموقراطي سوف يفكر بصورة مغايرة، وذلك لانه يعتقد انه ليس العمال هم الضروريون **للثورة** بل الثورة هي الضرورية **للعمال** وفي اعتقاده ان الدعاية بين العمال سوف تصبح الهدف الرئيسي لجهوده ولن يتخلى عنها قبل أن يختبر جميع الوسائل التي تحت تصرفه . قبل أن يقوم بجميع الجهود القادر عليها وبقدر ما يزداد تشرب الانتليجنتزيا الثورية عندنا بالافكار الاشتراكية حقا فانها واجدة أكثر فأكثر أنه من الممكن والسهل العمل في الاوساط العمالية وذلك لسبب بسيط هو طموحها المتعاظم الى هذا النوع من العمل

اننا لا نريد أن نخدع أحدا ، وفضلا عن ذلك لا نستطيع أن نفعل ذلك ان الجميع يعرفون المصاعب والاضطهادات التي تنتظر اليوم اولئك الذين يقومون بالدعاية والتحريض السياسي بين الشعب لكنه لا تجوز المبالغة في هذه المصاعب ان الاضطهادات البوليسية تعقد حتى درجة كبيرة جميع أساليب النشاط الثوري دون استثناء وهذا لا يعني أن الارهاب الابيض حقق أهدافه ، وانه اقتلع العصيان من جذوره ان كل فعل يثير رد فعل ؛ وكل اضطهاد يولد نكران الذات ؛ ومهما تكن تدابير الحكومة الرجعية شديدة ، فان الثوري سيعرف دائما كيف يتجاوزها اذا هو وضع موضع العمل القدر المطلوب من الطاقة لقد كان زمان كان تفجير قنبلة في قصر الشتاء أو حفر خندق تحت مالاباسادوفايا(٨٤) يبدوان فيه أمرا مستحيلا وغير قابل للتحقيق في نظر الثوريين انفسهم لكنه وجد رجال استطاعوا المستحيل وحققوا ما هو غير قابل للتحقيق ايمكن أن يكون مثل هذا العناد غير معقول في الميادين الاخرى للنشاط الثوري ؟ أيكون المخبرون الذين يكلفون بمطاردة «الارهابيين»

اقل مهارة وعددا من اولئك الذين يكلفون بحماية طبقتنا العاملة ضد « المذاهب الكاذبة للاشتراكية والشيوعية ؟ لن يجازف بتأكيد هذا الا ذلك الذي عقد عزمه على التهرب باي ثمن من عمل لا

واما خصائص الهيئة العمالية نفسها فانها لا تبرر التكهنات القاتمة الصادرة عن المتسائمين عندنا وحقيقة القول اننا لم ننصرف قط في بلادنا بشيء من المثابرة والمنهجية الى الدعاية بين العمال ومع ذلك فان التجربة قد بينت ان الجهود المبعثرة لبضع عشرات من الرجال تكفي لان تعطي انطلاقة كبيرة للنشاط الثوري الخاص بالطبقة العاملة عندنا لنتذكر بالاحرى اتحاد العمال الروس في الشمال ، وبرنامجه الاشتراكي الديموقراطي وتنظيمه الواسع جدا بالنسبة الى جمعية سرية لقد اختفى هذا التجمع لكنه من واجب الانتليجنتزيا عندنا قبل أن تتهم بذلك العمال انفسهم ان تتساءل عما فعلته من اجل تأييده ولقد كان تأييده ممكنا مع ذلك وهو أمر لم يكن على قدر كبير من الصعوبة ففي **الرسالة الى هيئة تحرير « الارض والحرية »** حدد مندوبو الاتحاد شكل المعونة التي يرجونها ويحتاجونها ان تقدم لهم المساعدة في تجهيز مطبعة سرية من اجل اصدار مجلة عمالية لكن تحقيق هذه الامنية قدوجدته الجمعية المثقفة **للارض والحرية** امرا غير مناسب لقد كان مثقفونا الاشتراكيون يوجهون اذن جهودهم في منحى مختلف كل الاختلاف ولم تقتصر عاقبة هذه الجهود على أن العمال لم يحصلوا على التأييد فحسب بل لقد اشتدت الاضطهادات البوليسية اكثر فأكثر وتناولت فيما تناولته التجمعات العمالية أيجب أن ندهش اذن اذا ما تبعثر اتحاد الشمال الى تجمعات صغيرة لا تربط بينها وحدة الخطة والعمل بعدما أسلم لقواه الخاصة في صراع سري لم يألفه ومع ذلك فان هذه الحلقات الصغيرة هذه القبضات من العمال الاشتراكيين قد استمرت في الوجود حتى يومنا الحاضر في مراكزنا الصناعية وانه ليكفي القليل من الحزم والجهد والعناد كي نصنع منها من جديد كتلة هائلة

ومن البدهي أن جمعيات سرية من العمال لا تشكل بعد حزبا عماليا وان اولئك الذين يقولون ان برنامجنا يأخذ بعين الاعتبار المستقبل اكثر من الحاضر لهم على حق تام من وجهة النظر هذه لكن ما الذي يجب أن نستنتجه من ذلك ؟ انه لا يجوز لنا أن ننصرف في الحال الى العمل من اجل تطبيقه ؟ ان الدعاة « النوعيين الذين يفكرون على هذا الفرار يحبسون من جديد في تيه من الاستنتاجات لا منفذ له ان حركة عمالية قوية تفرض ، لفترة من الزمن على الاقل ، الحصول على حد أدنى من الحريات لكن الحصول على هذه الحريات يتبين انه بدوره مستحيل دون الدعم السياسي من جانب العناصر الاكثر تقدما من السكان كيف الخروج من هذا المازق ؟ ان تاريخ أوروبا الغربية قد حطم الدائرة السحرية بواسطة تثقيف سياسي بطيء للطبقة العاملة . لكن الثوريين عندنا لا يخشون شيئا قدر خشيتهم من بطء

المسيرات المتمهلة القديمة انهم يريدون الثورة بأسرع وقت ممكن وبأي ثمن لماذا لا يتذكرون اذن القول المأثور القديم من يحب السباق في العربات يجب أن يحب تضميد الجياد وهو قول مأثور يمكن لتطبيقه السياسي أن يرتد الى هذا البيان الذي لا جدال فيه كل من يريد الحرية بأسرع وقت يجب أن يسعى جهده كي يثير اهتمام الطبقة العاملة بالنضال ضد الحكم المطلق ان تنمية الحس السياسي عند الطبقة العاملة هو أحد الاشكال الاساسية للنضال ضد العدو الرئيسي الذي يمنعنا من العمل « بصورة عقلانية » من أجل خلق حزب عمالي عندنا على غرار أوروبا الغربية . حين يقول لنا المؤرخون ان البورجوازية ، او ـ وهذا يعود الى الشيء نفسه على وجه التقريب ـ المجتمع المثقف في بلد ما قد دخل في صراع ضد الحكم المطلق ، فكيف يجب أن نفهم ذلك ؟ بكل بساطة بهذا المعنى الا وهو أن البورجوازية قد دفعت وقادت الطبقة العاملة الى القتال او على الاقل اعتمدت على تأييدها وطالما أنها لم تضمن هذا التأييد فقد كانت جبانة لانها كانت عاجزة ما الذي فعلته ضد نابليون الثالث البورجوازية الجمهورية التي كانت تفتقر ـ ولقد فعلت كل شيء في سبيل ذلك ـ الى تأييد الطبقة العاملة ؟ لم يكن لها خيار الا بين بطولة اليأس وبين الموافقة المرائية على الواقع القائم ومتى برهنت البورجوازية الثورية لعام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٨ على البطولة ؟ حين كانت الطبقة العاملة قد حققت النصر سلفا على الحواجز وليس في مقدور مجتمعنا المثقف أن يعتمد بعد على مثل هذا التأييد العمالي نه لا يعرف بعد من الذي ستكون من نصيبه رصاصات العامل الثائر أتراه سوف يطلق النار على المدافعين عن الحكم المطلق أم على أبطال الحريةالسياسية. ومن هنا كان وجل هذا المجتمع وتردده ، ومن هنا كان الاعياء واليأس الكئيب اللذان يفترسانه اليوم لكن فليتبدل الوضع وليشعر مجتمعنا المثقف » ان تأييد الاحياء الشعبية وحدها مضمون له ولسوف ترون أنه يعرف ما يريد وأنه يعرف أن يخاطب الحكومة بلغة المواطنين الحقيقيين لنتذكر اضرابات عام ١٨٧٨ وعام ١٨٧٩ في بطرسبورغ(٨٦) ان ضجيج هذه الاضرابات لا يهم الاشتراكيين وحدهم ان جميع المثقفين في العاصمة ، وجميع الناس الذين يفكرون أو جميعهم على وجه التقريب، قد اهتموا بذلك ؛ كان ذلك حدث الساعة وافترضوا الآن أن هذه الاضرابات لم تعبر فحسب عن التضاد بين مصالح المعلمين والعمال في مصنع ما بل عن بداية انفصام سياسي بين الطبقة العاملة في بطرسبورغ والملكية المطلقة وهو انفصام كان يمكن تماما أن يقع نظرا للطريقة التي عاملت الشرطة بها المضربين تصوروا أن عمال معمل الخيوط القطنية الجديد لم يطالبوا فحسب بزيادة أجورهم بل كذلك بمنح الحقوق السياسية لجميع المواطنين الروس لقد كانت البورجوازية تتبين اذن أن عليها أن تأخذ بعين الاعتبار بمزيد من الجدية المطالب العمالية وفيما عدا ذلك فان أولئك من عناصرها الليبرالية الذين ما كان انتصار الاحزاب يهدد بصورة مباشرة

مصالحهم الاقتصادية كانوا سيشعرون بأن لمطاليبهم السياسية بعد الآن أرضا صلبة وأن تأييد الطبقة العاملة يزيد حتى درجة كبيرة من احتمال خاتمة سعيدة للنضال ضد الحكم المطلق ان حركة العمال السياسية ستكون اذن قد بثت ثقة جديدة في جميع انصار الحرية السياسية ولعل الشعبيين انفسهم كانوا سيأخذون بعين الاعتبار هؤلاء الابطال الجدد القادمين من الشعب ويكفون ـ نستطيع أن نعتقد ذلك ـ عن التفجعات العقيمة والميئوس منها على اطلال « الاسس » العزيزة على قلوبهم*

ورب من يسأل من يستطيع حقا أن يسهم في تطوير الطبقة العاملة سياسيا غير الانتليجنتزيا الثورية ؟ ان هذه الانتليجنتزيا الواثقة جدا من نفسها ما كانت تستطيع مطلقا أثناء اضرابات عام ١٨٧٨ أن تتباهى بوعي سياسي نير جدا ولذا فان المضربين لم يحصلوا منها على أي تعليم بشأن الروابط بين المصلحة الاقتصادية للطبقة العاملة وحقوقها السياسية وانه ليسود بعد اضطراب كبير في ذهن « شبيبتنا الثورية » لكننا نستطيع على الاقل أن نأمل في أن يفسح هذا الاضطراب المجال اخيرا لنظريات الاشتراكية العلمية الحديثة ويكف عن شل حركتنا وحين يأتي هذا اليوم السعيد فان الحلقات العمالية الصغيرة لن تتأخر عن اتخاذ وجهة النظر الصالحة عن السياسة. وسوف يدخل النضال ضد الحكم المطلق في مرحلة جديدة اذن هي المرحلة الاخيرة. وان المطالب السياسية للقسم الاكثر تقدما من مجتمعنا المثقف سوف تحصل أخيرا مؤيدة من كتلة العمال ، على التلبية المنتظرة منذ زمن طويل جدا

لو أن موت الكسندر الثاني ترافق باضطرابات عمالية في مدن روسيا الكبرى فمما لا ريب فيه أن عواقبه كانت تصبح أخطر حتى درجة كبيرة بيد اننا لا نستطيع أن نتصور تحريضا على قدر من السعة في الوسط العمالي دون مساعدة اكبر عدد من الروابط السرية المنظمة بصورة مسبقة في قلبها تهيىء أذهان البروليتاريا وهي توجه عملها ولذا نستطيع القول ان المآثر الاعظم اقداما التي يأتيها الارهابيون لن تكون الا مجرد ضربات لامعة اذا لم تترافق بعمل جاد في الوسط العمالي ، وبالتالي اذا لم تحصل على الدعم الواعي من قبل الروابط العماليةالسرية . ان «العدوالرئيسي» سيسجل بعض الهزائم لكن القضاء عليه لن يتحقق من جراء ذلك ؛ وهذا معناه أن العمل **الارهابي** لن يبلغ هدفه لانه لا يمكن أن يكون له هدف آخر سوى سحق الحكم المطلق بصورة تامة لا هوادة فيها

انوضع روسيا السياسي الحالي وهو ابعد ما يكون عن ارغامنا على التخلي عن العمل بين العمال ، يبين لنا على العكس من ذلك أننا **لن نستطيع الا بهذا العمل وحده أن نتخلص من النير الذي لا يطاق للحكم المطلق .**

---

* ان احداث هذه السنة تقدم تأكيدا لامعا لهذه الفرضية ان البروليتاريا الروسية قد أيقظت الوعي السياسي عند « المجتمع المثقف [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

لننظر الآن الى المسألة من زاوية أخرى ان ما قلناه لتونا يؤكد مرة أخرى أن الطبقة العاملة هامة جدا بالفعل « من أجل الثورة لكن الاشتراكي يجب أن يعني بصورة رئيسية بأن تكون الثورة مفيدة لسكان بلاده الكادحين واذا تركنا جانبا لبرهة قصيرة طبقة الفلاحين فانناسوف نشير الى أن الطبقة العاملة سوف تحصل من نضالها السياسي على مزيد من الحسنات بقدر ما ترى بمزيد من الوضوح الرابطة بين حاجاتها الاقتصادية وحقوقها السياسية وفي بلدان أوروبا الغربية كثيرا ما حاربت البروليتاريا الحكم المطلق تحت رايات البورجوازية وقيادتها العليا ومن هنا كانت تبعيتها الفكرية والمعنوية بالنسبة الى زعماء الليبرالية وايمانها بالطابع المقدس للشعارات الليبرالية وقناعتها بعدم جواز المساس بالنظام البورجوازي وفي المانيا كان لابد من كل طاقة وكل بلاغة رجل مثل لاسال من أجل زعزعة، تعلق العمال الروحي بالتقدميين حتى درجة ما ان « مجتمعنا المثقف لا يملك هذا القدر من النفوذ في الطبقة العاملة واشتراكيينا لا يملكون (ولا مصلحة لهم) أن يوفروا له هذا النفوذ ان من واجبهم أن يجمعوا العمال تحت راياتهم العمالية الخاصة ، وأن يعطوهم زعماء قادمين من وسطهم العمالي الخاص وباختصار أن يعنوا بألا يكون المجتمع المثقف البورجوازي ، بل الجمعيات السرية العمالية هي التي تتمتع بالنفوذ المتفوق على اذهان العمال وبذلك يتم الاسراع حتى درجة كبيرة في تكوين ونمو حزب اشتراكي عمالي روسي سوف يحتل مركز الشرف بين الاحزاب الاخرى حين يسهم وهو في القماط بعد ، في قلب الحكم المطلق وتحقيق الظفر للحرية السياسية

ان ثوريينا لا يحتاجون ، في سبيل الاسهام على هذا الفرار في تحقيق الاستقلال الفكري والسياسي للطبقة العاملة ، للجوء الى تدابير اصطناعية ، لاتخاذ وضع خاطىء وملتبس انه ليكفيهم أن يتشربوا مبادىء الاشتراكية الديموقراطية المعاصرة وأن يقنعوا المستمعين اليهم دون انقطاع ، دون أن يقتصروا على الدعاية السياسية ، بأن « تحرر الطبقة العاملة الاقتصادي هو الهدف العظيم الذي يجب أن تخضع له كل حركة سياسية من حيث هي وسيلة* وحين تكون طبقتنا العاملة قد تمثلت هذه الفكرة فانها لن تجد عناء في المرور بين شاريبد وسكيلا ، بين الرجعية السياسية لاشتراكية الدولة والشعوذة الاقتصادية للبورجوازية الليبرالية

وحين يسهم ثوريونا في تكوين حزب عمالي فانهم ينجزون العمل الاخصب والاهم الذي يمكن لروسيا الحالية أن تفرضه على « رجل طليعي ان الحزب العمالي وحده قادر على حل التناقضات التي تحكم اليوم على الانتلجنتزيا عندنا بالعجز النظري والعملي ولقد رأينا لتونا أن أكثر هذه التناقضات حساسية هي في الساعة الراهنة

---

* . [كارل ماركس **الخطاب الافتتاحي لرابطة الشغيلة الاممية**] .

ضرورة قلب الحكم المطلق واستحالة التوصل الى ذلك دون تأييد الشعب ولسوف تحل الجمعيات السرية العمالية هذا التناقض حين تجر الى النضال السياسي العناصر الاكثر تطورا من الشعب وليس هذا كل شيء ان الحزب الاشتراكي العمالي في روسيا ، حين يحصل على القوة والعزيمة تحت حماية الحريات السياسية ، سوف يحل تناقضا آخر لا يقل عن ذلك اهمية ، ومن طبيعة اقتصادية هذه المرة ان الناس جميعا يعرفون أن المشاعة الزراعية في الوقت الراهن يجب أن تفسح المكان للشيوعية وتنحل نهائيا ولكن التنظيم الاقتصادي للمشاعة يفتقر الى النوابض التي تدفعه في طريق الشيوعية ان المشاعة لا تستطيع وهي تسهل انتقال طبقة الفلاحين عندنا الى الشيوعية ، أن تزود الفلاحين **بالمبادرة** الضرورية من أجل هذا الانتقال ان تقدم الانتاج التجاري ينسف اكثر فأكثر على العكس من ذلك المبدأ المشاعي القديم ، ولا يملك المثقفون الشعبيون عندنا أيةوسيلة من أجل القضاء بضربة واحدة على هذا التناقض الاساسي ان قسما من المشاعات الزراعية تنهار تحت ابصارهم ، وتتهدم، وتتحول الى « وباء » و « كابح » بالنسبة الى القسم الافقر من الفلاحين لكن مهما تكن هذه الظاهرة اليمة فانه ليس في وسع الانتليجنتزيا على الاطلاق أن تعالجها في الوقت الراهن فليس بين الشعب » وأصدقائه أية صلة على الاطلاق فهناك من الجانب الواحد المشاعة التي تتحلل ، ومن الجانب الآخر البكاؤون من الانتليجنتزيا دون أن تستطيع تلك المشاعة أو يستطيع هؤلاء البكاؤون أن يضعوا حدا لهذا الوضع المحزن كيف الافلات من التناقض أيجب حقا أن يودع مثقفونا كل محاولة للعمل العملي ويبحثوا عن عزاء لهم في « الطوباويات على غرار السيد غليب اوسبنسكي ؟ أبدا ! ان في مقدور شعبيينا أن ينقذوا قسما على الاقل من مشاعتنا الزراعية . بشرط أن يعتمدوا على جدلية تطورنا الاجتماعي لكن هذا السبيل لن يكون ممكنا الا بوساطة الحزب الاشتراكي العمالي

ان انحلال مشاعتنا حقيقة لا جدال فيها ولا سبيل الى مناقشتها بيد ان سرعة هذه العملية وشدتها تختلفان من مكان الى آخر واذا أراد الشعبيون أن يوقفوها تماما حيث تحتفظ المشاعة بعد بعنفوانها فان عليهم أن يستعملوا القوى التي يحررها انحلال المشاعة في المناطق الاكثر تصنيعا وليست هذه القوى الا البروليتاريا الوليدة ان هذه القوى وحدها تستطيع أن تخدم كحلقة متوسطة بين طبقة الفلاحين والانتليجنتزيا الاشتراكية ؛ وهي وحدها تستطيع أن تملأ الهاوية التاريخية التي تفصل الشعب عن الاشخاص المتعلمين » وان الدعاية الاشتراكية سوف تتغلغل بمعونة هذه القوى وبواسطتها في سائر أنحاء روسياالريفية أخيرا وفيما عدا ذلك ، فانها اذا جمعت في الوقت المناسب ونظمت داخل الحزب العمالي ، فانها تستطيع أن تقدم دعمها الرئيسي الى الدعاية الاشتراكية في مصلحة الاصلاحات الاقتصادية التي سوف تنقذ المشاعة من الانحلال العمومي وحين تأتي

ساعة الانتصار الحاسم للحزب العمالي على الطبقات العليا ، فانه هو ، وهو وحده ، الذي سيأخذ على عاتقه مبادرة التنظيم الاشتراكي للانتاج الوطني وتحت تأثيره ، وعند الحاجة تحت ضغطه سوف تبدأ المشاعات الزراعية الباقية في الانتقال حقا الى السكل الشيوعي الاعلى وفي ذلك اليوم سوف تصبح ميزات الملكية المشاعة للارض **فعلية لا ممكنة** فحسب وان الاحلام الشعبية عن التطور النوعي للطبقة العاملة الروسية سوف تتحقق اذن على الاقل بالنسبة الى قسم من هذه الطبقة

وهكذا فان القوى المحررة بفعل انحلال المشاعة في بعض مناطق روسيا تستطيع أن تحميها من الانحلال التام في مناطق أخرى كل ماينبغي هو معرفة استخدام هذه القوى في الوقت المناسب وتوجيهها في الاتجاه الصالح يعني تجميعها بأسرع وقت في حزب اشتراكي

لكن النوعيين سوف يعترضون علينا قائلين ان ملاكي الارض الصغار سوف يعارضون الاتجاهات الاشتراكية للحزب العمالي بمقاومة عنيفة ان هذا ممكن جدا، لكن ثمة اناسا يكافحون هذه المقاومة ان تشكيل طبقة الملاكين العقاريين سوف يقابله نمو البروليتاريا الثورية عددا وقوة هذه البروليتاريا التي سوف تحيي اخيرا وتحرك آلة دولتنا الثقيلة فليس ما يخشى من المقاومة حيث توجد قوة تاريخية قادرة على قهرها تماما كما ان العكس من ذلك ، يعني انعدام المقاومة المفترض ، يجب الا يبعث على الغبطة حيث يكون الشعب عاجزا عن **التحرك** في سبيل الاشتراكية ، حيث تتحطم جهود الافراد البطولية على عطالة كتلة عمياء جاهلة

كذلك يجب ألا يغيب عن أنظارنا أن هذا الحزب العمالي سوف يخدم عندنا كحامل للتاثيرات العربية ان العامل لن يظل أصم حيال حركة البروليتاريا الاوروبية ، كما يمكن أن يحدث ذلك بسهولة لطبقة الفلاحين وان القوى الموحدة للحركة الداخلية والحركة الاممية سوف تكون كافية جدا من أجل ضمان الثورة على الطموحات الرجعية للملاكين الصغار

مرة أخرى نقول ان **تشكيل حزب عمالي بأسرع وقت ممكن هو الوسيلة الوحيدة من أجل حل جميع التناقضات الاقتصادية والسياسية في روسيا الحالية** وعلى هذه الدرب فان النجاح والظفر في انتظارنا ؛ ولا تؤدي الطرق الاخرى الا الى الهزيمة والعجز.

لكن الارهاب ؟ هذا ما سوف ينادي به أبطال ارادة الشعب وطبقة الفلاحين ؟ هذا ما سوف ينادي به الشعبيون من جانبهم هؤلاء انتم مستعدون للاستسلام للرجعية الراهنة في مصلحة مشاريعكم بعيدة المدى هذا ما سوف يستخلصه الاولون أيها العقائديون الضيقون انكم تضحون بمصالح فعلية على مذبح انتصار أفكاركم هذا ما سوف يهتف به الاخيرون في جزع

لسأل خصومنا دقائق من الصبر فسوف نحاول أن نرد على الاقل على بعض المآخذ التي تنهال علينا

باديء ذي بدء ، نحن لا ننكر مطلقا اهمية الارهاب في حركة التحرر الراهنة. ان الارهاب صادر بصورة طبيعية عن شروط روسيا الاجتماعية والسياسية ؛ ولابد له بصورة لاتقل طبيعيةعن ذلكمن الاسهام فيتحسينها. لكن الارهاب اذا اخذ بحد ذاته لا نفعل سوى تدمير قوى الحكومة دون ان يسهم كثيرا في التنظيم الواعي لقوى خصومها ان الارهاب لا يوسع مجال حركتنا الثورية بل على النقيض من ذلك يقصره على بعض الاعمال البطولية التي تقوم بها حفنات من القناصة ان حزبنا الثوري بعد نجاحات متألقة عديدة قد ضعف بصورة بينة من جراء فرط التوتر العصبي وهو لا يستطيع بعد الآن ان يتغلب على الازمة دون تدفق قوى جديدة صادرة عن شرائح جديدة من السكان وانا لنوصيه بالتوجه الى الطبقة العاملة ، لانها الطبقة الاكثر ثورية بين جميع طبقات المجتمع المعاصر ايجب ان نجتذب انتباهه. على العكس من ذلك الى امكانية اعطاء هذا النضال مزيدا من السعة ومزيدا من التنوع نعني المزيد من الفعالية لكنه من المفروغ منه اننا لا نستطيع أن ننظر الى سبب الحركة العمالية من وجهة نظر واحدة هي اهمية العمال من اجل الثورة اننا نريد أن نضع انتصار الثورة في خدمة السكان العاملين في روسيا وهذا هو سبب في نعتبر من الضرورة بمكان تسهيل تطور هؤلاء السكان الفكري وتماسكهم وتنظيمهم ننا لا نريد على الاطلاق أن تتحول الجمعيات السرية العمالية الى مشاتل سرية للارهابيين العمال بيد اننا ندرك جيدا أن تحرر روسيا السياسي يتطابق مع مصلحة الطبقة العاملة ولذا نرى أنه من واجب الحلقات الثورية الموجودة في هذا الوسط أن تحمل اسهامها الى النضال السياسي للانتليجنتزيا عندنا بواسطة الدعاية والتحريض وأحيانا قتال الشوارع وانه لمن الظلم أن نلقي على كاهل الطبقة العاملة جميع مصاعب حركة التحرر لكنه من العدل والمفيد تماما أن نجر العمال ضـ هذه الحركة

ان في المجتمع عناصر اخرى اكثر قابلية حتى درجة كبيرة للقيام بمهمة النضال بالارهاب ضد الحكومة وعلى اية حال . فان الطبقة العاملة هي الوحيدة التي سوف تستطيع في اللحظة الحاسمة أن ترمي أرضا بالمسح السياسي الذي جرحه الارهابيون وتقضي عليه ان الدعاية بين العمال لا تجعل الارهاب عديم الجدوى ، بل تعطيه فرصا جديدة لم تكن معروفة من قبل قط ❊

كان هذا الكلام موجها الى الارهابيين لننقل كلمتين للشعبيين الآن

❊ هذه الفقرة هي التي اعتمدها البعض في وقت لاحق للادعاء بأن جماعة تحرير العمل كانوا « يعاطفون » مع الارهاب. وفي واقع الامر أن هذه الجماعة كانت ترى ، منذ تأسيسها ، الارهاب لايناسب العمال لكننا كنا نضيع وقتنا اذا حاولنا أن ننهض ، في ذلك العصر ، ضد الارهاب عند المثقفين لقد كان الارهاب بالنسبة اليهم بندا من بنود الايمان [ملحوظة عام ١٩٠٥] .

انهم نفسمون لجميع البرامج التي لا تحتفظ بالمكان الرئيسي للعمل الثوري في طبقة الفلاحين . لكن بالرغم من ان هذا العمل يشكل كل برنامجهم

فان الشعب لا يكسب منه الا القليل

وحياته لا تصبح أكثر رخاء بفضله

منذ حوالي عام ١٨٨٠ وبصورة دقيقة جدا منذ انشقاق جمعيـة الارض والحرية لم يفعل العمل الثوري بين الفلاحين بدلا من الاتساع سوى الذبول ، ويمكننا دون خطأ كبير ن نمثله بصفر في الوقت الراهن ومع ذلك فاننا لم نعدم منذ ذلك الحين اناسا يتخيلون أن مركز ثقل حركتنا الثورية يجب أن ينتقل على عجل الى الوسط الفلاحي ما السبب في هذا التناقض ؟ انه ليكون ظلما أن نتهم الشعبيين بالعطالة والجبن والتلمس ان التفسير الوحيد لذلك هو أنهم أخذوا على عاتقهم مهمة لا يمكن تحقيقها في الشروط الحالية وان الانصهار الثوري للانتليجنتزيا عندنا مع الشعب لا يجوز مطلقا ان يبدأ بطبقة الفلاحين ذلك هو التعليل الذي ننضم اليه في واقع الامر لكن هذا لا يعني أننا **لا نعزو أية أهمية** للعمل الثوري بين الفلاحين اننا نقرر الواقع ونحاول في الوقت نفسه أن نفهم مغزاه ونحن على قناعـة تامـة بأن الشعبيين عندنا حين يدركون السبب في اخفاقهم سيعرفون كيف يتجنبون تكرار خطيئتهم وانه ليلوح لنا بالضبط أن تسكيل حزب عمالي سوف يقينا من التناقض الذي ترتب عليه ، طوال السنوات السبع الاخيرة انه لم يوجد في روسيا الا شعبيون مقطوعون عن الشعب .

كيف سيتوصل الحزب العمالي الى ذلك ان كل العرض الوارد أعلاه يبين ذلك . لكننا لا نخسر شيئا اذا قلنا بعض الكلمات الاخرى في هذا الموضوع

لابد في سبيل ممارسة التأثير في كتلة جاهلة من حد أدنى من القوى لن تؤدي بدونه جهود الافراد المنعزلين الا الى نتائج هزيلة وان الانتليجنتزيا الثورية عندنا لا تملك هذا الحد الادنى من القوى وهذا هو السبب في أن محاولاتها الثورية في الريف لم تترك عمليا اي اثر على الاطلاق اننا نستلفت انتباهها الى عمال الصناعة على اعتبارهم وسيطا قمينا بتسهيل عملية انصهار الانتليجنتزيا مع الشعب أيجب ان نستنتج من ذلك اننا نتجاهل عن عمد طبقة الفلاحين ؟ أبدا يجب أن نستنتج من ذلك على العكس نتابحث عن وسائل أكثر فعالية للتأثير فيها

لنتابع يجب أن نضيف الى هذا الحد الادنى من القوى ، اذا أردنا أن نمارس بعض النفوذ على الوسط المقصود حدا أدنى من التجاذب الخلقي بين هذا الوسط والرجال الذين يتوجهون اليه ولكن الانتليجنتزيا الثورية عندنا لا تملك اي تجاذب مع طبقة الفلاحين لا في العادات الفكرية ولا في القدرة على العمل البدني هنا أيضا ، على العكس يشكل عامل المصنع حدا وسطا بين الفلاح و « الطالب . ولذا كان من الواجب ان يخدم كحلقة تجمع بينهما

واخيرا يجب الا يغيب عن نظرنا ظرف اخير بالغ الاهمية مهما قيل عن الطابع المزعوم زراعيا على وجه الحصر لروسيا الحالية ، فانه مما لا ريب فيه ان الريف لا يستطيع ان يحتوي سائر قوى الانتليجنتزيا الثورية عندنا ولسوف يكون ذلك امرا لا يعقل لسببين على الاقل ان هذه الانتليجنتزيا لا تعبأ في الريف بل في المدينة؛ وان الثوري حين تطارده الشرطة ولو من أجل الدعاية بين الفلاحين لا يبحث عن ملجأ له بين الفلاحين بل في المدينة ولذا فان مدننا الكبرى هي المراكز التي يصادف فيها، بمقادير كبيرة اكثر او اقل ، القسم الاكبر من قوى الانتليجنتزيا الثورية وانه لامر مفروغ منه أن هذه الانتليجنتزيا تتعرض بالضرورة لتأثير المدينة ، وأن نمط حياتها هو نمط حياة المدينة ولكن نمط الحياة هذا قد اخذ يرتدي منذ بعض الوقت طابعا سياسيا واننا لنعرف أن الانتليجنتزيا عندنا بالرغم من البرامج الاكثر « شعبية لم تستطع أن تقاوم التيار الذي كان يجرفها الى النضال السياسي وطالما انه لا يوجد لدينا حزب عمالي ، فان من واجب الثوريين المدنيين ، شاؤوا ام ابوا ان يتوجهوا الى المجتمع المثقف الذي يمثلون في واقع الامر عنصره الثوري وان « الشعب لينتقل الى المؤخرة الامر الذي لا يؤخر فحسب تشكيل رابطة بين الانتليجنتزيا وبينه بل يدمر حتى تلك الرابطة التي كانت قائمة فيمامضى بين المثقفين الثوريين « للريف » و المدينة ومن هنا كان عدم تفاهم متبادل لنقاط الخلاف والنزاع ولن يحدث شيء من هذا اذا ما ارتدى النضال السياسي في المدن طابعا عماليا بصورة أساسية ان الثوريين في المدينة والريف لن يتميزوا اذن الا بمكان نشاطهم وليس مطلقا بطابع هذا النضال ان هؤلاء واولئك سوف يكونون ممثلين للحركة **الشعبية** في مختلف مظاهرها ؛ ولن يضطر الاشتراكيون بعد الآن لان يضحوا بحياتهم في مصالح **« مجتمع مثقف »** لا يشاطرهم أفكارهم على الاطلاق

ليس هذا التفاهم الجيد طوباوية في حال من الاحوال ، بل انه لمن السهل جدا الوصول اليه واذا كان الشعبيون المقيمون في الريف من اجل تحقيق برنامجهم من اجل خدمة **الثورة** ، يعدون اليوم على أصابع اليد فانه لا ينقص بالمقابل الديموقراطيون الصادقون والمتعلمون الذين يعيشون في الريف من اجل خدمة **الدولة** وممارسة حرفتهم وان الكثيرين من هؤلاء لا يتعاطفون مع نضالنا السياسي **في شكله الراهن** ؛ وهم لا ينصرفون الى عمل ثوري منهجي بين الفلاحين لسبب وحيد هو انهم لا يرون مطلقا حزبا يستطيعون أن يوفقوا جهودهم معه ان مثالا واحدا كما هو معروف ، لا يؤدي الى استنتاج عام خذوا المبادرة في حركة اجتماعية وسياسية في الوسط العمالي وسوف ترون أن هؤلاء الديموقراطيين في الريف سوف يتبنون شيئا فشيئا وجهة نظر الاشتراكية الديموقراطية كي يخدموا هم ايضا ، كحلقة متوسطة بين المدينة والقرية .

وعندئذ سوف تتوزع قوانا الثورية بصورة بسيطة جـدا ان جميع اولئك الذين تجبرهم على ذلك الزاماتهم المهنية سوف يقصدون الريف ، ومن المفروغ منه أن أعدادهم ستكون كبيرة وأما اولئك الذين يستطيعون الاقامة في المدن أو المراكز الصناعية فانهم سيوجهون جهودهم على الوسط العمالي ويبذلون جهودهم كي يجعلوا منه طليعة الجيش الاشتراكي الديموقراطي في روسيا

هذا هو برنامجنا انه لا يضحي بالريف من أجل المدينة ولا يجهل طبقة الفلاحين في مصلحة عمال الصناعة **انه يتخذ رسالة له أن ينظم القوى الاجتماعية الثورية في المدينة كي يجر الريف في حركة تاريخية على صعيد العالم بأسره .**

* * *

الفصل السادس

خاتمة

ليسمح لنا الآن ببعض الكلمات الختامية

فيما يخص بكل ما يتعلق بالدفاع عن **وجهة النظر** الخاصة بنا فاننا نتوجه الى عقل القارىء لا الى قلبه واما كنا متعلقين بالحقيقة وحدها فاننا سنعرف كيف نذعن لها حتى اذا كان ثمة انفصال بينها وبين أعز قناعاتنا ولذا فاننا لا نتوجه الا برجاء واحد الى اولئك الذين يقرؤوننا لينتقدوا حججنا بالانتباه الذي تستحقه المسائل الثورية التي تطرقنا اليها وحتى اذا كان المرء مخالفا للحل الذي نقترحه ، فان الفكر الثوري لا يمكن الا ان يربح من دراسة جديدة للنتائج التي توصل اليها

وعلى أي حال فان ثمة مظهرا آخر للقضية ، وهو لا يمس مطلقا صميم افكارنا، بل الشكل الذي اتخذناه من أجل عرضها انه في الامكان اتهامنا ، أو بالاحرى اتهامي **شخصيا** بقدر كبير من القسوة ، من العداء حيال الفئات السياسية التي ادت الى قضية الثورة خدمات ليست بالضئيلة وهي تستحق اذن بصورة لا جدال فيها ، كل الاحترام

وان بعض الفتيان من معارفي قد يمضون أبعد من ذلك ويعاملونني كعدو للثورة الروسية بأكملها

وفيما يخص كل مايمس **هذه** المسألة ، فانه لا يبدو لي من النافل أن أستنجد بعاطفة القارىء اقصد بحس العدالة والنزاهة عنده

وفي هذا الفصل الختامي لا يسعني الا ان اكرر بقلب صادق كليا في الرسالة الى بيوتر لافروفيتش لافروف التي تفتتح هذا الكتاب لست أتمنى لارادة الشعب الاخفاق بل نجاحات جديدة واذا كنت قد اظهرت هذا القدر الكبير من القسوة حيال التمارين الادبية لاحد أعضائها ، فقد كانت لي أسبابي الوجيهة لذلك وهي لا تنشأ على الاطلاق عن أي عداء حيال الثورة أو حيال أية فئة ثورية كانت*

---

* لابد من ملحوظة بالاضافة الى ذلك كنت أعرف جيدا السيد تيخوميروف قد فقد أوهامه بشأن ارادة الشعب قبل زمن طويل من نشر ماذا نستطيع أن ننتظر الثورة ؟ وأما انه دافع عن هذا البرنامج فهذا ما يكتسي بطابع المراءاة الباعثة على النفور [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

يجب أن ندرك باديء ذي بدء أن الثوري ليس الثورة وان **نظريات الثوريين** لابعد ما تكون عن ان تستحق دائما وفي جميع النقاط ، اسم **النظريات الثورية**

لست انكر على الاطلاق اهمية وفائدة العمل الثوري لاعضاء « ارادة الشعب »، لكنني أفسره كما يفعل المفوضون الرسميون لهذا « الحزب اني اراه في ضوء يجرح نظر دعاة هذه الجماعة ولقد شرحت بكل وضوح في **الاشتراكية والنضال السياسي** الحكم الذي اصدره عن هذا العمل ؛ لقد قلت ان « ارادة الشعب لا يمكن أن تجد تبريرا ولا يجوز ان تبحث عن مثل هذا التبرير خارج الاشتراكية العلمية الحديثـــة

وقد ارتأى السيد تيخوميروف أن يصدر في هذا الشأن رأيا آخر هو اثبت وأكثر ثورية في نظره

فاما استاء من أن « الفكرة السياسية الديموقراطية قد « اتخذت شكلا يغير طبيعها بالذات في بعض الاوساط الثورية فقد قرر أن يصحح ذلك كله وسعى جهده في « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ كي ينسق عمل حزبه مع نظريات باكونين وتكاتشوف وان النظريات الرسمية « لحزب ارادة الشعب حين اتخذت هذا المظهر قد كفت عن كونها ثورية وبات في الامكان اخضاعها ، دونما ادنى اساءة الى الثورة . الى نقد لا يقل قسوة عن نقد المنتجات الرجعية الاخرى التي تعيث فسادا في الوقت الحاضر بقوة متزايدة في الآداب الروسية

ليست النظريات الرجعية مغرية قط لكنها لا تشكل خطرا ما دامت تعرض الوانها الخاصة انها لا تصبح سما زعافا ، جرثومة فكرية حقيقية ، الا حين تنضوي تحت راية ثورية وعندئذ فليس عدو الثورة ذلك الذي ينتزع عنها قناعها الثوري ، بل الشاهد اللامبالي على هؤلاء الادباء المزيفين سواء اكان مرغوبا فيهم ام لا

ليست اللامبالاة من طبعي ولست أطمح اليها مطلقا اني أكره الرجعية عامة، وهي تزداد بغضا في عيني حين تطلق نداءاتها باسم الثورة وكيما اعترف بأني مذنب حين عاملت السيد تيخوميروف بحمية مفرطة يجب أن يبرهن لي

١ ـ ان نظريات السيد تيخوميروف لا تشـكل طبعة ثانية لمذهبي باكونين وتكاتسوف

٢ ـ ان هذه المذاهب تستحق أن تنعت بالرجعية بالمقارنة مع الاشتراكيـــة العلمية لكارل ماركس

فليحاول خصومي أن يبرهنوا على هاتين الموضوعتين بدلا من أن يتهموني بتهور بالقدح في الذات الملكية حيال الثورة الروسية وعندئذ اكون سباقا الى المنـاداة بأن حميتي لم تكن في موضعها اذا كانت حججهم مقنعة طبعا

لكنه يجب بصورة خاصة في سبيل ذلك ان نتخـذ اساسا للمناقشـــة بيانات السيد تيخوميروف التي وفرت الفرصة لمناظرتي معه وبالفعل فان الاتجاه

العام **لرسول ارادة الشعب** يفتقر جدا الى الوضوح والدقة بحيث ان الاتجاه "لباكونيني – الكاتشوفي لمقالة « ماذا نستطيع أن ننتظر من الثورة ؟ لا يستبعد وجود اتجاهات ماركسية في مقالات الكتاب الآخرين في هذه المجلة بله في المقالات اللاحقة للسيد تيخوميروف نفسه مهما يكن توقعنا لذلك ضئيلا ليس من المحال على الاطلاق ن يكرس مؤلفنا وقد تذكر ذلك القسم من برنامج **الرسول** الموجود في الجانب الآخر من لكن المصيرية . صفحات بليغة للدرب **الوحيدة** المؤدية الى « الغايات الاشتراكية المستركة لكن هذا التغيير في الجبهة لن يخفف من المغزى الرجعي للمقالة التي حللناها انه سوف يبين فحسب أن السيد تيخوميروف لا يملك الثبات في أفكاره

واما فيما يتعلق بالقراء الاكثر نزاهة من محامي هذا المؤلف فاني سوف ارجوهم ان يتذكروا أن المرء يستطيع ان يتعاطف من كل قلبه ليس مع الثورة عموما فحسب بل مع الحزب » الثوري « لارادة الشعب » خاصة وهو يقول في نفسه في الوقت ذاته ان المهمة الاعجل المترتبة على هذا الحزب ، النجاح الاول الذي نتمناه له . والاكثر ضرورة هو أن **يقطع علاقاته كليا بنظرياته الحالية**

ان انصار « ارادة الشعب » يخطئون حين يعتقدون أن مثل هذا الانقطاع سيكون معناه خيانة ذكرى أبطال الارهاب الروسي ان الارهابيين الاشهر قد بدأوا مسلكهم بدراسة نقدية للبرامج الثورية التي كانت سارية في زمانهم لماذا لا يستطيع الرجال الذين يتبعون أثرهم تطبيق نفس الفكر النقدي على البرامج الحاليه ؟ لماذا التصور بأن نقد جيليابوف يجب أن يتوقف أمام عقائد السيد تيخوميروف

ليفكر شبان ارادة الشعب » في هذه المسألة ؛ فهي تستحق عناء ذلك*

***

انظر عبا جوابا جديا عى كتابي صحيح ن العدد الخامس من **رسول ارادة الشعب** قد حشر محوظة مرجعية قصيرة(٨٧) حيث ورد أنه لا يمكن الرد علي دون العرض **لشخصي** ، لكن تركنا جانبا هذا **التلميح** الذي من البين أنه يقصد **الخبث** ، فان هيئة تحرير **الرسول** لم تصنع **شيئا على الاطلاق** للدفاع عن التوقع التيخوميروفي للورة ولسوف ينادي السيد تيخوميروف نفسه بعد سنوات قليلة ، بعد هذا التوقع ويعترف بأنه يعتبر حزب **جثة هامدة** منذ وصوله الى الخارج فقد قدم لخلافنا خاتمة غير متوقعة ، وان تكن ذات مغزى كبير ولم يبق لي الا اصدار الحكم على النتائج وهو ما نصه في مقالة انعطاف محتوم المنشورة في **الاشتراكي الديموقراطي** وفي كراسة **مدافع جديد عن الحكم المطلق أو مصائب السيد تيخوميروف**(٨٨) الصادرة في جنيف عام ١٨٨٩ [ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

نصوص مختلفة

١٨٨٣ - ١٨٩٣

برنامج الفريق الاشتراكي الديموقراطي

((تحرير العمل))

ان فريق ((**تحرير العمل**)) يتخذ هدفا لـه نشر الافكار الاشتراكية في روسيا وتكوين عناصر من أجل تنظيم **حزب اشتراكي** عمالي في روسيا(١)

وانه ليمكنني التعبير عن جوهر أفكاره في الموضوعات القليلة التالية *

— ان التحرر الاقتصادي للطبقة العاملة لن يتم الحصول عليه الا بتسليم العمال كملكية جماعية ، جميع وسائل الانتاج وجميع منتجاته وكذلك بتنظيم جميع وظائف الحياة الاقتصادية والجماعية وفقا للحاجات الاجتماعية

٢ — ان تطور التقنية الحديثة في المجتمعات المتحضرة لا يوفر **الامكانية المادية** لهذا التنظيم فحسب ، بل **يجعله ضروريا وحتميا** من أجل حل التناقضات التي تعارض التطور الطبيعي والمتناسق لهذه المجتمعات

٣ — ان هذه الثورة الاقتصادية الجذرية سوف تستتبع تعديلا جذريا في مجموع العلاقات الاجتماعية والدولية

وحين تقضي هذه الثورة على صراع الطبقات بفعل زوال الطبقات بالذات ، وحين تجعل النضال الاقتصادي بين الافراد امرا محالا ولا غرض منه بفضل القضاء على الانتاج التجاري والمزاحمة المترتبة عليه ، وباختصار تلغي الصراع في سبيل الحياة بين الاشخاص والطبقات والمجتمعات ، فانها ستجعل الاجهزة الاجتماعية التي تطورت خلال قرون في سياق هذا الصراع من أجل الحياة والتي كانت أدوات له أمورا نافلة

---

* ملحوظة رقم انا لا نعتبر مطلقا أن البرنامج المطروح هنا على حكم الرفاق كل مكتمل يتطلب تصحيحات في التفاصيل أو ايضاحات تكميلية وعلى النقيض من ذلك نحن على استعداد لان ندخل اليه جميع التصحيحات التي لن تناقض أبدا المفاهيم الاساسية للاشتراكية العلمية والتي تتجاوب مع النتائج العلمية الناجمة عن هذه الافكار فيما يتعلق بنشاط الاشتراكيين في روسيا .

وانـنا لنسـطيع منـذ الآن ، دون الانسياق مع الطوباويات المتعلقـة بالتنظيم الاجتماعي والدولي في المستقبل ان نكهن بدمار اهم أجهزة الصراع المزمن داخـل المجتمعات يعني **الدولة من حيث هي جهـاز سياسي مناهض للمجتمع** وظيفتـه الاساسية الدفاع عن مصلحة الطبقة السائدة وانـنا لنستطيع منذ الآن ايضا ان نتنبأ بالطابع الاممي للثورة الاقتصادية المقبلة ان التطور الراهن للمبادلات الاممية للمنتجات يجعل اشتراك جميع المجتمعات المتمدنة في هذه الثورة امرا ضروريا

ولذا فان الاحزاب الاشتراكية في جميـع البلدان تعترف بالطابع الاممي للحركة العمالية المعاصرة وتنادي بمبدأ التضامن الاممي بين المنتجين

ن فريق «**تحرير العمل**» ليعترف كذلك بمبادىء «**رابطة الشغيلة الاممية**» السابقة وبوحدة مصالح الشغيلة في العالم المتمدن بأسره

٤ ــ وحين تدخل الثورة الاشتراكية **الوعي** الى حيث تسود في الوقت الراهن **الضرورة الاقتصادية العمياء** وحين تستبدل السيطرة الراهنة **للنتاج على المنتـج** بسيطرة **المنتج** على **النتاج** فانها تبسط جماع العلاقات الاجتماعية وتعقلنها بينما هي تزود في الوقت نفسه كل مواطن بالامكانية الفعلية للمشاركة بصورة مباشرة في مناقشة الشؤون العامة وتسييرها

وان هذه المشاركة من قبل المواطنين في ادارة جميع الشؤون العامـة تفترض القضاء في السياسة ، على النظام التمثيلي الحالي الذي سوف يستبدل **بالتشريع المباشر من قبل الشعب**(٢)

ان من واجب الشيوعيين في نضالهم الراهن ألا تغيب مطلقا عن نظرهم ضرورة هذا الاصلاح السياسي وان يعملوا على الحصول عليه بشتى الوسائل التي في قدرتهم .

وإن ضرورة ذلك لتزداد الزاما بقدر ما تشكل الثقافة السياسية للطبقة العاملة على يديها بالذات وسيادتها السياسية الشرط المسبق الذي لا غنى عنه من أجـل تحررها الاقتصادي ان دولة **ديموقراطية** كليـا تستطيع وحدهـا أن تحقق اقتصادية مطابقة مع مصالح المنتجين وملزمة باسهامهم العقلاني في تنظيم الانتـاج ووضع نظمه الادارية على حد سواء

* * *

ان الطبقة العاملة في البلدان الاكثر تطورا تدرك بوضوح معاظم ضرورة هـذه الثورة الاجتماعية والسياسية معا وهي تنظم في حزب للعمل مناوىء لجميـع أحزاب المستغلين

و ن هذا التنظيم الذي يتم وفقا لمبادىء «**رابطة الشغيلة الاممية**» يستهدف على أي حال في المحل الاول ، استيلاء العمال على السلطة السياسية في داخـل

كل دولة وأنه لامر مفروغ منه أن « البروليتاريا في كل بلد يجب أن تنتهي قبل كل شيء من بورجوازيتها الخاصة

وان هذا ليدخل عنصرا من التنوع في برامج الاحزاب الاشتراكية في مختلف الدول ملزما كلا من هذه الاحزاب بالتقيد بشروط بلده الاجتماعية

ومن البدهي أن القضايا العملية وبالتالي برامج الاشتراكيين ترتدي طابعا اكثر تعقيدا وأعظم اصالة في البلدان حيث لم يصبح الانتاج الرأسمالي مسيطرا بعد، وحيث تنوء الجماهير الكادحة تحت النير المزدوج لرأسمالية في سبيل التقدم واقتصاد رعوي في حالة الانحطاط

وان من واجب الاشتراكيين في مثل هذه البلدان ، في وقت واحد ان ينظموا الطبقة العاملة من أجل النضال ضد البورجوازية وان يسنوا النضال ضد ما تبقى من العلاقات الاجتماعية قبل البورجوازية هذه العلاقات الضارة بعدم الطبقة العاملة وبازدهار الشعب بأسره على حد سواء

وذلك هو وضع الاشتراكيين الروس ان السكان الكادحين في روسيا يتحملون بصورة مباشرة ثقل الآلة الهائلة لدولة بوليسية مستبدة ، بينما هم يقاسون في الوقت نفسه جميع الآلام الخاصة بعصر **التراكم** الراسمالي ويخبرون في بعض الاماكن في مراكزنا الصناعية ، نير **انتاج** رأسمالي لا يحد منه بعد تدخل الدولة الاكثر أو الاقل شدة . ولا المقاومة المنظمة للعمال أنفسهم ان روسيا اليوم — ولقد قال ماركس ذلك بخصوص غرب القارة الاوروبية — لا تعاني من تقدم الانتاج الرأسمالي فحسب ، بل تعاني من نقص هذا التقدم ايضا

وان احدى العواقب الاشد ضررا لتخلف الانتاج هذا تكمن في التطور الناقص ابدا للطبقة المتوسطة ، هذه الطبقة التي لا تجد نفسها قط عندنا في حالة تمكنها من اتخاذ **المبادرة** في النضال ضد الاستبداد

ولذا لم يكن بد للانتليجنتزيا الاشتراكية أن تتزعم اليوم حركة للحرر رسالتها الرئيسية تستقيم في ادخال الحريات السياسية الى بلادنا اذ من واجب الاشتراكيين أن يعملوا جاهدين كي يتيحوا للطبقة العاملة الاسهام بصورة فعالة ومثمرة في الحياة السياسية المقبلة في روسيا(٢)

وان الوسيلة الاولى من أجل بلوغ هذا الهدف يجب أن تكون التحريض في مصلحة دستور ديموقراطي يضمن

١ — الاعتراف بحق الانتخاب والترشيح — سواء الى الجمعية التشريعية أم الى الاجهزة الاقليمية والبلدية للادارة المحلية — لكل مواطن لم يصدر بحقه حكم شائن عن أفعال محددة بالقانون بصورة دقيقة يترتب عليها العجز السياسي*

---

* ملحوظة رقم يمكن نضم الى هذه الافعال **الفساد الانتخابي** والتدابير الجبرية التي يتخذها المعلمون ضد عمالهم الخ

٢ ــ دفع تعويض يحدده القانون لممثلي الشعب كيما تكون في الامكان اختيارهم من الطبقات الفقيرة للسكان ؛
٣ ــ حرمة أشخاص المواطنين ومنازلهم
٤ ــ الحرية التامة للضمير والكلام والصحافة والاجتماعات وتشكيل الجمعيات؛
ــ حرية التنقل والمجاهرة بالرأي
ــ المساواة التامة بين جميع المواطنين دون اعتبار للدين أو الاصل العرقي※
ــ استبدال الجيش الدائم بالامة المسلحة
٨ ــ اعادة صياغة القانون المدني وقانون العقوبات والغاء امتيازات الشيع والعقوبات غير المتلائمة مع كرامة الانسان

بيد أن هذا الهدف لن يتم بلوغه واستقلال العمال السياسي سوف يظل أمرا لا يمكن تصوره اذا تم اسقاط الاستبداد وهم في حالة من عدم التهيؤ وعدم التنظيم

ولذا فانه يقع على عاتق الانتليجنتزيا الاشتراكية واجب تنظيم العمال **وتحضيرهم** في حدود جميع الوسائل من اجل محاربة النظام الحكومي الحالي والاحزاب المقبلة للبورجوازية على حد سواء

ن من واجب هذه الانتليجنتزيا أن **تتصدى في الحال لتنظيم** العمال في مراكزنا الصناعية (العناصر الطليعية لجميع السكان الكادحين في روسيا) في رابطات سرية مرتبطة ببعضها بعضا تملك برنامجا سياسيا واجتماعيا محددا بصورة جيدة يقابل الحاجات الراهنة لكل طبقة المنتجين في روسيا ويتطابق مع المهمات الاساسية للاشتراكية

وان فريق « **تحرير العمل** » الذي يدرك أن تفاصيل هذا البرنامج لا يمكن أن تحدد الا في وقت لاحق ومن قبل الطبقة العاملة نفسها المدعوة الى الاشتراك في الحياة السياسية والمتجمعة في حزبها الخاص يرى أن النقاط الرئيسية **للقسم الاقتصادي** من البرنامج العمالي يجب أن تستقيم في **المطالب** التالية

١ ــ الاصلاح الجذري لنظامنا الزراعي ، يعني شروط افتداء الارض وتخصيصها للجماعات الفلاحية الاعتراف للفلاحين الذين يجدون مصلحتهم في ذلك بحق التحلي عن قطعتهم من الارض والانسحاب من المشاعة الخ(٤)
٢ ــ الغاء نظام الضرائب الحالي وانساء ضريبة تصاعدية على الدخل

※ ملحوظة رقم ٣ ان هذه النقطة ترجع بصورة منطقية الى البند الرابع الذي يطالب بصورة خاصة بحرية الضمير التامة وعلى أي حال ، فانه يبدو لنا من الضرورة بمكان أن نحددها في مقالة على حدة طالما انه يوجد لدينا في الوقت الراهن مقولات كاملة من السكان ، **اليهود** مثلا ، لا ينتفعون حتى بالحقوق البائسة المعترف بها لبقية « المقيمين » .

٣ ــ التنظيم القانوني للعلاقات بين العمال (في المدينة والريف والمخدومين ، ومن أجل ذلك تنظيم **هيئة للتفتيش يكون العمال ممثلين فيها** .

٤ ــ معونة الدولة **لرابطات** المنتجين التي سوف تنظم في جميع فروع الزراعة والصناعة الاستخراجية والتحويلية على حد سواء من قبل المزارعين وعمال المناجم وعمال المعامل والمصانع والحرفيين الخ(٥)

ان فريق « **تحرير العمل** » لعلى يقين من ان نجاح هذه الحركة الواعية للطبقة العاملة الروسية بله امكانيها يتوقفان في المحل الاول على نشاطات الانتليجنتزيا في الوسط العمالي

وان هذا الفريق ليرى على أي حال أنه من واجب الانتليجنتزيا ، قبل كل شيء ، أن تتخذ وجهة النظر الاشتراكية العلمية الحديثة ولا تحتفظ من التقليد النارودني الا بما لايعارض مطلقا مع مبادىء تلك العقيدة

وبنتيجة ذلك فان فريق تحرير العمل يضع نصب عينيه مهمه نشر الاشتراكية العلمية في روسيا وتهيئة الطبقة العاملة استعدادا لحركة سياسيه واجتماعية واعية وانه ليكرس لهذه المهمة جميع قواه ويدعو شبيبتنا الثورية لمساعدته والتعاون معه

وان فريق تحرير العمل وهو يتابع هذا الهدف بجميع الوسائل التي في متناول يده ، يعترف بضرورة مكافحة الحكومة الاستبدادية بالارهاب(٦) ، ولا ينفصل عن حزب « ارادة الشعب » الا في المسألة التي يقال لها الاستيلاء على السلطة من قبل الحزب الثوري ، وكذلك في موضوع **نشاط الاشتراكيين المباشر في الطبقة العاملة**.

ان فريق « تحرير العمل » **يأخذ بعين الاعتبار حتى درجة عظيمة طبقة الفلاحين التي تشكل الغالبية الساحقة من السكان الكادحين في روسيا** وانه ليرى على أي حال انه من واجب الانتليجنتزيا ، وعلى الاخص في الشروط الحالية للمعركة السياسية والاجتماعية ، ان توجه عملها الاساسي على العناصر الاكثر تطورا من هؤلاء السكان ، وهي حال عمال الصناعة ولن يكون للانتيلجنتزيا الاشتراكية الحق في أن تأمل بقدر كبير من الصواب في توسيع نفوذها بحيث يشمل طبقة الفلاحين الا بعد أن تضمن تأييد هذه العناصر وبصورة خاصة اذا توصلت قبل ذلك الى الحصول على حرية الدعاية والتحريض السياسي وانهلامرمفهوم على أي حال ان توزيع قوى اشتراكيينا يجب **أن يعدل اذا ما برزت حركة ثورية خاصة لدى طبقة الفلاحين** وان أولئك الذين هم على اتصال مباشر بطبقة الفلاحين يستطيعون منذ الآن ، بنشاطهم في هذا الوسط ان يقدموا خدمات هامةالى الحركة الاشتراكية في روسيا وان فريق تحرير العمل وهو أبعد ما يكون عن صد هؤلاء الناس سوف يبذل جهوده كي يتفاهم معهم بشأن نقاط البرنامج الاساسية(٧)

جنيف١٨٨٤

مشروع برنامج

الاشتراكيين الديموقراطيين الروس

ان الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ، مثلهم كمثل الاشتراكيين الديموقراطيين في البلدان الاخرى يريدون تحرر العمل التام من اضطهاد راس المال(١) وانه ليمكن تحقيق هذا العمل بالانتقال الى الملكية الجماعية **لسائر وسائل وجميع اغراض** الانتاج ، وهو الانتقال الذي سوف يستتبع

ـ القضاء على الانتاج التجاري الحالي يعني بيع المنتجات وشراءها في السوق

ب ـ استبداله بنظام جديد للانتاج الاجتماعي بصورة مطابقة مع خطةمقررة بصورة مسبقة بغرض تلبية حاجات المجتمع بأسره وكل فرد من اعضائه على حد سواء وذلك في الحدود التي تقررها حالة القوى الانتاجية في حينه

وان هذه الثورة الشيوعية سوف تستتبع التعديلات الاكثر جذرية في نظام العلاقات الاجتماعية والدولية بأسره

واما تستبدل هذه الثورة السيطرة الحالية للنتاج على المنتج بسيطرة المنتج على النتاج ، فانها سوف تدخل الوعي الى حيث سادت حتى الوقت الراهن الضرورة الاقتصادية العمياء ؛ واما تبسط جماع العلاقات الاجتماعية وتعقلنها ، فانها ستوفر لكل مواطن الامكانية الاقتصادية الفعلية من أجل الاسهام بصورة مباشرة في مناقشة جميع الشؤون العامة وتسييرها

ان هذا الاسهام من قبل المواطنين في ادارة جميع الشؤون العامة يفترض القضاء في السياسة على النظام التمثيلي الحالي واستبداله **بالتشريع المباشر من قبل الشعب(٢)**

واننا لنستطيع فيما عدا ذلك ان نتنبأ منذ الآن بالطابع الاممي لثورة الغد الاقتصادية فنظرا للتطور الراهن في المبادلات الدولية لن تصبح هذه الثورة وطيدة الا اذا اشترك فيها جميع المجتمعات المتمدنة أو عدد كبير منها على الاقل ومن هنا ينشأ **تضامن مصالح المنتجين في جميع البلدان** الذي سبق لرابطة الشغيلة الامية الاعتراف به واعلانه .

لكن بما ان تحرر العمال يجب أن يكون من صنع العمال انفسهم وبما أن مصلحة الشغيلة ، بمجموعهم هي على طرفي نقيض مع مصلحة المستغلين وبالتالي بما أن الطبقات العليا سوف تناهض دائما هذه الاعادة لتنظيم العلاقات الاجتماعية ، فان الشرط المسبق واللازم لاعادة التنظيم هذه هو **استيلاء الطبقة العاملة على السلطة السياسية في كل بلد** . ان هذه السيادة المؤقتة للطبقة العاملة تستطيع وحدها ان تشل مساعي أعداء الثورة وان تضع حدا لوجود الطبقات وصراعها

وان هذه القضية السياسية تدخل عنصرا من التنوع الى برامج الاشتراكيين الديموقراطيين في مختلف البلدان وفقا للشروط الاجتماعية السائدة في كل منها

ان القضايا العملية وبحكم ذلك برامج الاشتراكيين الديموقراطيين سوف تتخذ بصورة طبيعية جدا طابعا أشد تعقيدا في البلدان حيث لا يفعل الانتاج الرأسمالي الحديث الا السعي الى الهيمنة وحيث تنوء الجماهير الكادحة تحت النير المزدوج لرأسمالية في ملء التطور واقتصاد رعوي في انحطاطه وان من واجب الاشتراكيين الديموقراطيين في هذه البلدان أن يسعوا جهدهم ليحققوا بصفة درجات متوسطة . بنيات اجتماعية قائمة قبلا في البلدان الاكثر تقدما ، وهي ضرورية من أجل التطور اللاحق للحزب العمالي وذلك هو وضع روسيا لقد حققت الرأسمالية فيها تقدما هائلا منذ الغاء نظام الرق ، والنظام القديم للاقتصاد الطبيعي يتنحى أمام الانتاج التجاري ،مفتتحا بذلك سوقا داخلية هائلة للصناعة الكبرى وان الاشكال الرعوية المشاعية لملكية الارض تنحل سريعا ؛ فالمشاعة تتحول الى مجرد أداة لاستعباد السكان الفلاحين من قبل الدولة ؛ وانها لتخدم كذلك في أماكن عديدة كأداة لاستثمار الفقراء من قبل الاثرياء وبصورة موازية لذلك فنظرا لانها تثبت على الارض اهتمام عدد كبير من المنتجين ، فانها تقف حجر عثرة في طريق تطورهم الفكري والسياسي وتحد أفقهم بالتقاليد الريفية وان الحركة الثورية الروسية التي سيخدم انتصارها طبقة الفلاحين قبل كل شيء ، لا تجد عندها عمليا لا التعاطف ولا الدعم ولا الفهم وان الاستبداد ليحصل على سنده الرئيسي من اللامبالاة السياسية والتخلف الذهني عند الفلاحين الامر الذي يستتبع بالضرورة عجز ووجل العناصر المثقفة للطبقات العليا التي تتعارض مصلحتها المادية والفكرية والاخلاقية مع النظام السياسي القائم وان أولئك الذين يتحدثون من بينها باسم الشعب يدهشون اذ يتبينون أن الشعب يظل عديم المبالاة بنداءاتهم ومن هنا كان تقلب النظريات السياسية عند مثقفينا وأحيانا يأسهم الكئيب(٢)

وان الوضع ليكون لا رجاء منه على الاطلاق لو أن تطور العلاقات الاقتصادية في روسيا لا يوفر الفرص الجديدة للمدافعين عن مصالح الطبقة الكادحة ان انحلال المشاعة يخلق عندنا طبقة جديدة هي طبقة البروليتاريا الصناعية وان هذه الطبقة ، الاكثر تقبلا وحركية وتطورا تتجاوب مع نداء الثوريين بصورة اسهل من سكان الارياف المتخلفين وفيما يلتفت المثل الاعلى للمشاعة نحو الماضي نحو اقتصاد

وغوي تشكل اوتوقراطية القياصرة تكملته السياسية الضرورية فان عامل الصناعة لا يستطيع ان يرى مصيره يتحسن الا بتقدم الاشكال الجديدة والاكثر حرية للحياة المشتركة وان شعبنا ليدين لهذه الطبقة بأنه يجد نفسه للمرة الاولى في نفس الشروط الاقتصادية لجميع الشعوب المتحضرة ؛ ولذا فانه لن يستطيع الا بوساطة هذه الطبقة أن يسهم في طموحات البشرية المتمدنة الى التقدم وعلى هذا الاساس، فان الاشتراكيين الديموقراطيين الروس يرون واجبهم الاول والاهم هو تأسيس حزب عمالي ثوري وأن نمو هذا الحزب وتطوره سيصطدمان مع ذلك بمقاومة بالغة العنف من قبل الاستبداد الروسي المعاصر

ولذا كان النضال ضد الاستبداد واجبا حتى بالنسبة الى الحلقات العمالية الصغيرة التي تشكل حاليا مضغة حزبنا الثوري المقبل وان الاطاحة بالاستبداد يجب أن يكون واجبهم السياسي الاول

ان الاشتراكيين الديموقراطيين الروس يرون أن التحريض في الطبقة العاملة ونشر الافكار الاشتراكية والمنظمات الثورية في صفوفها يشكلان الوسيلة الرئيسية التي في متناول الحلقات العمالية من اجل النضال السياسي ضد الاستبداد ولما كانوا متحدين بصورة وثيقة في كل متناسق ولما كانوا لا يكتفون بالاشتباكات الجزئية مع الحكومة ، فانهم لن يتأخروا حين تأزف الساعة في التحول الى الهجوم الحاسم دون تراجع امام ما يسمى الارهاب ، فيما اذا تطلبت مصلحة النضال ذلك(٤).

ان نضال الحزب العمالي ضد الاستبداد يستهدف الحصول على دستور ديموقراطي يضمن

١ ــ الاعتراف بحق الانتخاب والترشيح ــ الى الجمعية التشريعية والى الاجهزة الاقليمية والبلدية للادارة المحلية على حد سواء ــ لكل مواطن لم يصدر عليه حكم شائن عن افعال محددة بالقانون بصورة دقيقة يترتب عليها العجز السياسي ؛

٢ ــ دفع تعويض يحدده القانون لممثلي الشعب كيما يكون في الامكان اختيارهم من الطبقات الفقيرة للسكان ؛

٣ ــ التعليم العلماني المجاني والالزامي للجميع مع تعهد الدولة بتوفير الطعام واللباس والمواد المدرسية للاطفال ؛

٤ ــ حرمة اشخاص المواطنين ومنازلهم ؛

٥ ــ الحرية التامة للضمير والكلام والصحافة والاجتماعات وتشكيل الجمعيات؛

٦ ــ حرية التنقل والمجاهرة بالرأي ؛

٧ ــ المساواة التامة بين جميع المواطنين دون اعتبار للدين او الاصل العرقي ؛

٨ ــ استبدال الجيش الدائم بالامة المسلحة ؛

٩ ــ اعادة صياغة القانون المدني وقانون العقوبات ، والغاء امتيازات الشيع والعقوبات غير المتلائمة مع كرامة الانسان ؛

ان الحزب العمالي معتمدا هذه المطالب السياسية الاساسية يصدر(ه) سلسلة من المطالب الاقتصادية المباشرة وعلى الاخص

١ ــ الاصلاح الجذري لنظامنا الزراعي ، يعني شروط افتداء الارض وتخصيصها للجماعات الفلاحية. الاعتراف للفلاحين الذين يجدون مصلحتهم في ذلك بحق التخلي عن قطعتهم من الارض والانسحاب من المشاعة الخ(٦)

٢ ــ الغاء نظام الضرائب الحالي وانشاء ضريبة تصاعدية على الدخل ؛

٣ ــ التنظيم القانوني للعلاقات بين العمال (في المدينة والريف) والمخدومين ، ومن أجل ذلك تنظيم **هيئة للتفتيش** يكون العمال ممثلين فيها(٧)

٤ ــ معونة الدولة **لرابطات** المنتجين التي سوف تنظم في جميع فروع الزراعة والصناعة الاستخراجية والتحويلية على حد سواء (من قبل المزارعين وعمال المناجم وعمال المعامل والمصانع . والحرفيين الخ) (٨).

ن هذه المطالب تتجاوب مع مصلحة طبقة الفلاحين ومصلحة عمال الصناعة على حد سواء ولذا فان الحزب العمالي في مسعاه من اجل أن تتحقق سوف يشق الطريق عريضة من أجل التقارب مع السكان الزراعيين ان البروليتاري الذي طرد من الريف على اعتباره عضوا مفلسا في المشاعة سوف يعود اليها على اعتباره محرضا اشتراكيا ديموقراطيا وان قدومه في هذا الدور سوف يغير مصير المشاعة الذي لا رجاء منه في الوقت الحاضر وليس انحلال هذه المشاعة عضالا الا حتى اليوم الذي سوف يخلق فيه هذا الانحلال بالذات قوة شعبية جديدة قادرة على وضع حد لحكم الراسمالية وان هذه القوة سوف تكون الحزب العمالي والعناصر الفقيرة من طبقة الفلاحين التي سيجرها هذا الحزب معه

خامس ان الاشتراكيين الديموقراطيين الروس يرون ، كما يتبين لنا أنه من واجب الانتليجنتزيا وعلى الاخص في الشروط الحالية للنضال السياسي والاجتماعي ان توجه عملها الاساسي على العناصر الاكثر تطورا من السكان الكادحين وهي حال عمال الصناعة ولن يكون للاشتراكية الديموقراطية الحق في ان تأمل بقدر كبير من الصواب في توسيع نفوذها بحيث يشمل طبقة الفلاحين الا بعد أن تضمن يد هذه العناصر وبصورة خاصة بعدما تتوصل الى الحصول على حرية الدعاية والتحريض السياسي وانه لامر مفهوم على اي حال أن اولئك الذين هم على اتصال مباشر بطبقة الفلاحين يستطيعون منذ الآن بنشاطهم في هذا الوسط. ان يقدموا خدمات هامة الى الحركة الاشتراكية في روسيا وان الاشتراكيين الديموقراطيين وهم أبعد ما يكون عن صد هؤلاء الناس سوف يبذلون كل جهودهم كي يتفاهموا معهم بشأن المبادىء الاساسية ووسائل العمل(٩).

مدافع جديد عن الحكم المطلق

أو مصائب السيد تيخوميروف

(رد على الكراسة : لماذا لم أعد ثوريا)

تنبيـــه

ن الكراسة الراهنة سوف ترى النور في وقت مدخر عن الوقت المناسب(١) فقد أعاقني المرض عن اتمامها في الوقت المناسب ومع ذلك فان نسرها لان « خطيئة السيد تيخوميروف لا تبرح مسألة مطروحة في جدول الاعمال بالنسبة الى عدد كبير من القراء

بوجي ، ٣ آذار ١٨٨٩

١

اذا كان السيد تيخوميروف لا يتحرج في موضوع حب الذات اكثر مما يفعل هيروستراتوس ، فمما لا ريب فيه انه سوف يبارك اليوم والساعة اللذين عزم فيهما على كتابة **لماذا لم اعد ثوريا** ان هذا الكراس قد اجتذب الى شخصه الانتباه العام، فزادت شهرته بنسبة هائلة ، بالرغم من كبرها السابق بيد أن السيد تيخوميروف ليس بالرجل الذي يكتفي بمجد مجنون أفسس انه يطمح في أن **يعلم** وليس في **اثارة الدهشة** ، او اذا فضلتم ذلك فانه لابد له أن **يثير دهشة القارىء** بما في قصته من **عنصر تعليمي** ، بالنضوج الاستثنائي لمعتقداته السياسية ، بالافكار المقررة جيدا عن النظام الاجتماعي وضرورة السلطة القوية التي ميزته منذ زمن طويل في الاوساط الثورية* أواه ! انه لم يرفض قط أن يعنف نفسه على ضلالات ماضيه الثوري ان الشعائر المقررة جيدا للثوري الذي أعيد الى الصراط المستقيم لا تسمح له بذلك لكن السيد تيخوميروف قد تملص بمهارة من العقاب الذاتي المحتوم بصورة لا محيد عنها واما نتظاهر بأنه يمزق صدره فانه يتدبر أمره كي يجلد رفاقه السابقين الثوريين عامة ، هذا التحزب الثوري الذي نجح لفترة

* **لماذا لم أعـد ثوريا** ، ص ١١

من الزمن في أن يقيد اليدين والقدمين حتى لمثل هذه الشخصية البارزة ان السعائر تطبق لكن لسعات الانضباط وهي أبعد ما تكون عن الحاق أدنى سوء بمؤلفنا التائب تصبح تمرينا لطيفا يتيح له أن يتخذ حيال الجمهور اوضاعا تلائم مصلحته ان مذنبا مبتذلا قد كان يعترف بذنبه بتلك الفظاظة الساذجة للكائنات غير المثقفة لقد كان يقول مثلا ، كما فعل أحد المتهمين في قضية بتراشيفسكي

لقد حدث لي اكثر من مرة ، في جنوني الاجرامي أن وصفت صاحب الجلالة الامبراطورية بالابله ليس هذا بالتصرف اللبق جدا وهو من الخراقة بمكان ايجد صاحب الجلالة لذة كبيرة في سماع مثل هذه الاعتراضات ، بينما الهدف المنشود هو اثارة عاطفة الرحمة فيه ؟ ويتصرف السيد تيخوميروف بصورة مغايرة وبما انه كتب كثيرا في حياته فانه يعرف كيف يتلاعب بالعبارات انه ينسق صلاة اعترافه بمهارة فائقة بحيث تتحول الى تسبيحة شكر لانتصار السيد تيخوميروف على أخطبوط الثورات وفي الوقت نفسه تمجيدا للاوتوقراطية الروسية ، وبصورة عابرة للسيد تيخوميروف نفسه ولم يبق أمام المليك الذي ثارت أشجانه وهدأ غضبه الا أن يفتح ذراعيه الجليلتين لهذا الابن الشاطر ويشد ذلك الجبين الذي كان دنسا فيما مضى على صدره البدين ويأمر بذبح العجل المسمن من أجل الوليمة المهيبة. ولقد كان بييلنسكي يهتف فيما مضى بالهذا الشعب الروسي من داهية ، يا أخي ! »(٢) ولقد كان في مقدوره أن يضيف يا للادباء من دهاة ، يازملائي

واذا شئتم الصراحة فاني لا ادري ما اذا كان سمينا جدا ، العجل الذي يستعدون لذبحه من أجل عودة السيد تيخوميروف الى العواطف الصالحة للخدام الصالحين اما انهم قد بدأوا الاستعدادات للوليمة ، فهذا ما توحي به الغيرة التي استسلم لها الابناء العاقون للاوتوقراطية ، هؤلاء الذين لم يخطر لهم العصيان في بال قط ان هذه الغيرة تبرز في كل صفحة من **رسول روسيا**(٣) التي ترفض بكل عناد المصالحة مع السيد تيخوميروف وترعد غضبا ضد « مكاتب بطرسبورغ » المتسامحة جدا حيال الارهابي السابق وهكذا فان قبعة كاتكوف لم تفد شيئا فلنأمل في الا يتأخر عطف الاجواء العليا عن رد هذه المجلة الى الصواب بتذكيرها بمثل الابن الشاطر وعلى أي حال فان سهام **رسول روسيا** ستكون قد أفسدت على السيد تيخوميروف لذة المصالحة مع السلطة القوية

ولولا هذا **الرسول** لاعتبر السيد تيخوميروف نفسه أسعد الفانين على الاطلاق. ان تحوله ليفتنه بصورة مجنونة وهو يدعو المترددين والحيارى لان يكرسوا له تأملاتهم وبما أنه واثق سلفا من موافقتهم الحماسية فهو يهديهم مسطرة من النصائح الفاصة بالافكار المرموقة لاصالتها وحسها السليم على حد سواء انه يقول لهم انه يجب على المرء أن يتعلم ، وان نفكر ، والا يغتر بالعبارات ، الخ

لكن لنفترض أننا من هؤلاء المترددين وهؤلاء الحيارى و لنكرس افكارنا للتحول الذي تعرض له لتوه المؤلف صاحب العلاقة . ان قصته معروضة في **لماذا لم أعد ثوريا** •

٢

يقول السيد تيخوميروف لقد تأصلت بعمق عندنا ، وفي أماكن أخرى ،الفكرة بأننا نعيش لا ادري اية « مرحلة هدامة » سوف تنتهي فيما يقال الى انقلاب رهيب، في انهار من الدماء ، ودوي الديناميت الخ ومن بعد فيما يقال سوف تبدأ « مرحلة خلاقة ان هذا التصور الاجتماعي خاطىء بصورة مطلقة وكما اشير الى ذلك من قبل فهو مجرد الانعكاس السياسي لافكار كوفيه القديمة ومدرسة الكوارث الجيولوجية وفي واقع الامر في الحياة الفعلية فان الهدم والخلق يسيران يدا بيد ، بل لا يمكن تصورهما الواحد دون الآخر والحقيقة ان دمار ظاهرة ما ينشأ عن كون شيء آخر يخلق فيها ، في مكانها وعلى العكس من ذلك فان تكون الجديد ليس سوى دمار القديم*

ان « التصور الذي ينكشف في هذه الفقرة لا يألق بوضوحه مطلقا ونستطيع على اي حال أن نرد معناه الى هذين البيانين

١ — ان الثوريين عندنا وفي أماكن أخرى لا يملكون اية فكرة عن **التطور** ، عن التغيير التدريجي لنمط الظواهر حسب تعبير السيد تيخوميروف في موضع آخر

٢ — لو أن هؤلاء الثوريين كانوا يملكون أدنى فكرة عن التطور عن التغير التدريجي لنمط الظواهر فانهم ما كانوا يتخيلون على الاطلاق اننا « نعيش لا ادري اية مرحلة هدامة

لنر أولا كيف يمثل الوضع في هذا المجال **في أماكن أخرى** يعني في الغرب

ان في الغرب حاليا ، كما هو معروف ، حركة ثورية للطبقة العاملة التي تطمح الى تحررها الاقتصادي وان سؤالا يطرح هل توصل منظرو هذه الحركة ، يعني **الاشتراكيين** الى تأطير طموحاتهم الثورية في نظرية عن التطور الاجتماعي مرضية حتى درجة ما ؟

ان كل من يملك أدنى فكرة عن الاشتراكية الحديثة سوف يرد بالايجاب ودون ظل للتردد أن جميع الاشتراكيين الجديين ، في أوروبا وأميركا على حد سواء ، يتبعون نظريات ماركس ؛ ويعرف الجميع أن هذه النظريات هي قبل كل شيء مذهب عن تطور المجتمعات البشرية . ولقد كان ماركس نصيرا متحمسا للعمل الثوري »، وكان يتعاطف بعمق مع **سائر** الحركات الثورية الموجهة ضد النظام الاجتماعي والسياسي القائم وقد لا تشاطرون اذا شئتم ، في عواطف على هذا القدر من التهديم ! لكنكم لا تملكون الحق في أن تستخلصوا من وجودها أن « فكر ماركس كان مفتونا

---

* لماذا لم أعد ثوريا

بالانقلابات العنيفة وأنه كان ناسيا للتطور الاجتماعي وبطء المسيرات المتدرجة ولا يقتصر الامر على أن ماركس لم ينس التطور ، بل لقد اكتشف على النقيض من ذلك عددا كبيرا من قوانينه الاساسية ففي ذهنه وللمرة الاولى قدم تاريخ الانسان لوحة متناسقة ليست وهمية في حال من الاحوال ولقد كان السباق الى البرهان على ان **التطور الاقتصادي يؤدي الى الثورات السياسية** ولقد أعطى الحركة الثورية هدفا محددا بوضوح وقاعدة نظرية معدة بصورة دقيقة فلماذا يتصور السيد تيخوميروف اذن أنه سيتوصل ، بواسطة بعض العبارات العويصة عن «الخلق» الاجتماعي الى البرهان على لامعقولية الطموحات الثورية « عندنا وفي أماكن أخرى ؟ أفلا نكون السبب في ذلك انه لم يكلف نفسه عناء فهم مذهب الاشتراكيين المحدثين ؟

ان السيد تيخوميروف ستشعر النفور من الكوارث المفاجئة و انقلابات العنيفة ان الامر يتعلق به على أية حال فهو ليس الاول ولا الاخير في اصدار مثل هذه الاحكام ان خطيئته هي في الاعتقاد باستحالة الكوارث المفاجئة في الطبيعة وفي المجتمعات البشرية على حد سواء وبادىء ذي بدء ، فان فجائية هذه الكوارث مفهوم نسبي ان الشيء **المفاجيء** بالنسبة الى أمرىء **لن يكون كذلك على الاطلاق** بالنسبة الى امرىء آخر ان كسوفات الشمس مفاجئة بالنسبة الى الجهلة وهي ابعد ما تكون عن المفاجئة بالنسبة الى الفلكيين وكذلك الامر بالنسبة الى الثورات ، هذه « الكوارث السياسية التي لا تحدث « بصورة مفاجئة » الا بالنسبة الى الجهلة والى العدد العديد من المرائين ، لكنها في الغالب من الاحيان لا تكون مفاجئة بالنسبة الى من يدرك الظواهر الاجتماعية المحيطة به وفيما عدا ذلك فلو ان السيد تيخوميروف فكر في ان ينظر الى الطبيعة والتاريخ من زاوية النظرية التي يبشر بها حاليا فقد كانت هذه الدراسة تحتفظ له بسلسلة من المفاجآت المذهلة لقد وضع في رأسه أن الطبيعة لا تقوم بقفزات واننا اذا هجرنا عالم أوهام الثورة لنهبط الى ارض الواقع استطعنا « بالمعنى العلمي ان نتحدث فقط عن « تغير بطيء لنمط الظواهر بيد ان الطبيعة تقوم بالقفزات دون ان تصغي الى الخطب المسهبة ضد الفجائية ويعرف السيد تيخوميروف أن « أفكار كوفيه القديمة خاطئة وأن الكوارث الجيولوجية لا تشكل الا وهما فقيها ولنفترض أنه قضى أياما هانئة في جنوب فرنسا دون أن يعكر مزاجه هاجس أي خطر على الاطلاق وهذه هزة أرضية تحدث كتلك التي وقعت قبل عامين ان الارض تنشق ، والمنازل تنهار ، والناس يهربون وهم فريسة الهلع وباختصار تحدث كارثة حقيقية تشهد على استخفاف عجيب من جانب أمنا الطبيعة وان السيد تيخوميروف الذي اتعظ بتجربته القاسية سوف يراجع مفاهيمه الجيولوجية ويخلص الى النتيجة بأن التغير البطيء لنمط الظواهر (حالة القشرة الارضية في هذه المناسبة) لا يستبعد

الانقلابات ابدا ، بالرغم من أن هذه الانقلابات يمكن ان تعتبر من وجهة نظر معينة مفاجئة او عنيفة »*

ان السيد تيخوميروف يغلي ماء ، فيظل ماء لا مباليا بجميع المفاجآت » طالما ينتقل من حرارة الصفر الى حرارة ٨٠ درجة ولكن هذا هو يسخن حتى العتبة القاضية و ــ يا للهول ! ــ انها الكارثة ان الماء يتحول الى بخار فكان ذهنه مسحور بالانقلابات العنيفة

ويبرد السيد تيخوميروف هذا الماء فاذا القصة العجيبة نفسها تتكرر ان الحرارة تنخفض بالتدريج دون ان يكف الماء عن كونه ماء لكن ميزان الحرارة يشير الى الصفر وهذا الماء يتحول الى جليد دون ان يهتم بأن « الانقلابات المفاجئة » هي « تصور خاطيء »

ان السيد تيخوميروف يشاهد حياة حشرة ذات تحولات ان اليرقة تواصل تطورها ببطء وهي تظل حاليا يرقة ويفرك صاحبنا الفيلسوف يديه ويفكر « هنا ، هذا رائع فلا العضوية الاجتماعية ولا العضوية الحيوانية تتعرضان لهذه الانقلابات المفاجئة التي حدثت لي مشاهدتها في العالم غير العضوي ان الطبيعة تصبح عاقلة وقد توصلت الى خلق الكائنات الحية لكن سرعان ما يفسح الفرح مكانه أمام الالم ان اليرقة تنجز ، ذات يوم ، « انقلابا عنيفا وتتحول الى فراشة ولابد للسيد تيخوميروف بذلك من الاقتناع بأن الطبيعة العضوية ليست هي الاخرى في مأمن من « المفاجآت » .

ومع ذلك ، فاذا حدث بمحض المفامرة أن « كرس السيد تيخوميروف أفكاره بصورة جدية لتطوره الخاص فانه واجد فيه من دون ريب بعض الانعطاف أو الالتواء المماثل لسوف يتبين تلك القطرة من الماء التي طفح بها كيل عواطفه التي أصبح بعدها ، هو الذي كان فيما مضى **مدافعا** أكثر أو أقل ترددا عن الثورة ، **الخصم** الاكثر أو الاقل صدقا لها

لنتسل مع السيد تيخوميروف بالجمع لنأخذ الرقم **خمسة** ، ولنضف اليه بكل وقار وحدة « **بصورة تدريجية** » ستة سبعة ثمانية ان جميع الامور تسير حسنا حتى رقم تسعة لكننا لا نكاد نفكر في زيادة هذا الرقم الاخير وحدة حتى يقع الحادث

---

* أما العلم رفض نظرية كوفيه الجيولوجية ، فانه لا يترتب على ذلك مطلقا أنه تم البرهان على استحالة الكوارث أو الانقلابات الجيولوجية ولم يكن في مقدور العلم ان يقدم هذا البرهان دون انكار ظواهر معروفة جيدا مثل الهيجانات البركانية والهزات الارضية الخ ولم يعد أمامه الا ان يفسر هذه الظواهر على اعتبارها النتيجة المتراكمة لقوى طبيعية نستطيع في كل لحظة أن نشاهد تأثيرها البطيء وبكلام آخر ، فقد كان على الجيولوجيا أن تفسر ثورات القشرة الارضية بتطورها. وقد أمام العلوم الاجتماعية مشكلة مماثلة للحل وقد حلتها منذ هيغل وماركس بمثل نجاح الجيولوجيا .

تحول **وحداتنا** الى **عشرات** وان المصيبة نفسها تحل بنا حالما ننقل من **العشرات** الى **المئات**

وتبقى الموسيقى ؛ اننا لن نعزفها مع السيد تيخوميروف فاللحن فيها يتغير بصورة مفاجئة جدا وقد تتسبب هذه الالحان المتباينة في هزيمة «تصوراته»

ان الثوريين المحدثين يستطيعون ان يواجهوا بصورة ظافرة اعتبارات السيد تيخوميروف المشوشة عن الانقلابات العنيفة بسؤال بسيط جدا كيف يجب ان تعامل الانقلابات التي حدثت في الحياة الفعلية والتي تشكل في جميع الاحوال « مراحل هدامة ؟ أيجب أن نعتبرها Nuls et non avenus ** اذ نعزوها الى افراد لا عقل لهم لا يمكن لسلوكهم ان يستوقف انتباه « عالم اجتماعي » جدي ؟ ذلك انه لابد لنا آخر الامر كيفما نظرنا الى هذه الاحداث ، من الاعتراف بان انقلابات عنيفة و كوارث سياسية قد وقعت في التاريخ ولماذا يريد السيد تيخوميروف أن يرى أننا نشهد على تصورات اجتماعية خاطئة اذا نحن قبلنا بامكانية ظواهر مماثلة في المستقبل

لا يقوم التاريخ بقفزات هذه حقيقة محضة لكنها حقيقة محضة أيضا ان التاريخ قام بعدد كبير من هذه القفزات انه عرف سلسلة من الانقلابات العنيفة وان على ذلك أمثلة لا عداد لها ما معنى هذا التناقض ؟ بكل بساطة أن الاول من هذين البيانين لم يصغ بصورة دقيقة بحيث غالبا ما يفهم بصورة سيئة كان يجب أن يقال ان التاريخ لا يقوم بقفزات دون اندفاع فلا يمكن ان تحدث قفزة دون سبب كاف وهو السبب الذي يكمن في التطور الاجتماعي السابق لها وبما ان هذا التطور لا يتوقف قط في المجتمعات التي تتقدم ، فانه يمكن القول ان التاريخ يزجي وقته في تحضير القفزات والانقلابات وانه لينصرف الى ذلك بمثابرة لا هوادة فيها انه يعمل ببطء ؛ لكن نتيجة عمله (القفزات والكوارث السياسية امر لا مفر منه

ان البورجوازية الفرنسية قد « غيرت النمط بصورة بطيئة فبورجوازي عهد وصاية دوق اورليان لم يكن شبه البورجوازي في عهد لويس الحادي عشر ومع ذلك فقد ظل وفيا ، اجمالا لنمط « البورجوازي » الخاص بالنظام القديم لقد كان أغنى واكثر ثقافة ، وأعظم تشددا لكن لم يكف عن كونه le roturier ***
الذي ينبغي له في كل مكان وزمان أن يتخلف عن الارستقراطي ولكن جاءت سنة
لذي ينبغي له في كل مكان وزمان ، ان يتخلف عن الارستقراطي ولكن جاءت سنة
١٧٨٩ فاذا البورجوازي يرفع رأسه وتمضي بضع سنوات فاذا هو سيد

---

* تكراسوف [في الزمان]

** [كأنه لم يكن]

*** [العامي] .

الساحة ، وبأية وسيلة في ملء « أنهار الدماء » ، وسط قرع الطبول ، على «دوي» المدافع (لم يكن الديناميت قد اخترع بعد) وانه ليدفع بفرنسا في مرحلة هدامة حقيقية ويسخر تماما من حمقى المستقبل الذين ربما جاؤوا يرددون ن الثورات العنيفة « تصور خاطىء

وان نمط المجتمع الروسي يتغير ببطء ان الامارات الاقطاعية تزول ، والسادة النبلاء يخضعون للقيصر ويصبحون رجال الحاشية وتقهر موسكو التتر وتستولي على سيبيريا ، وتلحق بأراضيها نصف روسيا الجنوبية ، وتظل موسكو القديمة الآسيوية ولكن بطرس يأتي ، فاذا « انقلاب عنيف يحدث في حياة الدولة الروسية ان مرحلة جديدة من التاريخ الروسي تبدأ . وهي المرحلة الاوروبية. ان أنصار النزعة السلافية قد نعتوا بطرس بالمسيح الدجال بسبب « فجائية هذه الثورة لقد زعموا أنه لم يأبه بالتطور مطلقا في حميته الاصلاحية ، لم يأبه « بتغير النمط البطيء للبنية الاجتماعية لكن كل من يفكر قليلا يدرك أن ثورة بطرس قد تطلبها بالضرورة « تطور روسيا التاريخي ، وان **هذا التطور قد حضر لها**

ان التبدلات الكمية تتحول ، من جراء تراكمها المتواصل الى تبدلات نوعية ، وهذه التحولات تتحقق بقفزات ولا يمكن أن تتحقق بصورة مغايرة أن اصحابنا أشباه لاسالين(٤) . أصحابنا ذوي القلوب الرقيقة السياسيين من مختلف الاصناف ، الذين نصبوا الاعتدال ودقة المواعيد عقيدة ، لا يمكن ان يفهموا قط هذه النقطة التي فسرتها الفلسفة الالمانية منذ زمن طويل ان في مصلحة المرء هنا كما في كثير من الحالات الاخرى ان يتذكر أفكار هيغل التي يمكن اتهامها بكل صعوبة بالنزوع الى النشاط الثوري يقول هيغل

حين نريد نفهم **ظهور أو اختفاء** شيء نتخيل عادة أننا سوف نفسر الظاهرة بتمثيلنا هذا الظهور و هذا الاختفاء في شكل **التواصل** ولكن تغيرات الوجود لا تتحقق بالانتقال من كمية الى أخرى فحسب، بل بالانتقال من الفرق النوعي الى الفارق الكمي .والعكس بالعكس وهو انتقال **يحطم التواصل** يستبدل الظاهرة الواحدة بظاهرة أخرى تتميز منها نوعيا نظرية التواصل قد نشأت عن الفكرة القائلة ان ما يظهر هو موجود بصورة مسبقة في الواقع ، وان السبب الوحيد في عدم اجتذابه للاهتمام هي أبعاده الضيقة وكذلك حين نتحدث الدمار التدريجي نتوهم لاوجود ظاهرة معينة الظاهرة الجديدة التي يجب أن تحل محلها موجودة مسبقا وان كنا لا نلاحظها بعد لكننا نحذف بهذه الطريقة كل مفهوم الظهور والاختفاء تفسير الظهور والاختفاء بواسطة التغير معناه ارجاع القضية الى لغو تفه وتمثل ما يظهر او ما يزول وكأنه معطى من قبل ، يعني **قد ظهر بصورة مسبقة او زال بصورة مسبقة**※

Wissenschaft der Logik, erster Band, S. 313 - 314

[**علم المنطق** ، القسم الاول ، ص ٣١٣ — ٣١٤] .اننا نستشهد من طبعة نورمبورغ لعام ١٨١٢ .

وبعبارة اخرى ، فانك حين تريد أن تفسر ظهور الدولة ، فانك تكتفي بتخيل تنظيم مجهري للدولة ينتهي ، اذ يتغير حجمه بصورة تدريجية الى جعل تحققه محسوسا من الشعب الطيب وكذلك فانك حين تريد أن تفسر زوال العشائر فانك تتصور حدا ادنى من اللاوجود في هذه البنية الاجتماعية ، واذا المسكلة قد حلت ومن البدهي أن هذه الطرق في التفكير لا تمضي بك بعيدا في المعرفة وان احدى فضائل هيغل الكبرى هي بالضبط انه خلص مفهوم الصيرورة من هذه التجريدات بيد ان السيد تيخوميروف يسخر تماما من هيغل ومن فضائله وقد اعلن بصورة جازمة أن النظريات الغربية لا يمكن تداولها عندنا

ومهما يكن رأي مؤلفنا في الانقلابات العنيفة والكوارث السياسية فاننا نؤكد بثقة تامة أن التاريخ يهيىء في البلدان الاكثرتطورا ثورة هامة حتى الدرجة القصوى. وثمة اسباب قوية للاعتقاد بأنها ستتم بواسطة العنف تلك هي الثورة التي ستغير أسلوب توزيع منتجات العمل

ان التطور الاقتصادي قد خلق قوى انتاجية عملاقة يتطلب تشغيلها شكلادقيقا لتنظيم الانتاج وليس في الامكان تشغيل هذه القوى الا في المشاريع الصناعية الكبرى المؤسسة على العمل الجماعي على الانتاج الاجتماعي بيد اننا نواجه بصورة تتناقض بعنف مع هذا النمط الاجتماعي **للانتاج** تملكا فرديا للمنتجات قد نشأ في شروط اقتصادية مختلفة كل الاختلاف ، حين كانت الصناعة الصغيرة والزراعة الصغيرة مزدهرتين وهكذا فان نتاج عمل العمال يصبح ملكية فردية للمعلمين ان هذا التناقض الاقتصادي الاساسي يقرر جميع التناقضات الاخرى الاجتماعية والسياسية التي نشاهدها في المجتمعات الحديثة وان هذا التناقض الاساسي ليزداد حدة باستمرار ان المخدومين لا يمكن أن يتخلوا عن التنظيم الاجتماعي للانتاج مادام مصدر ثروتهم بل ان المزاحمة تلزمهم بتوسيع هذا النمط للتنظيم بحيث يشمل فروع الصناعة التي لم يطبق فيها بعد ان الصناعة الكبيرة تقتل الانتاج الصغير ، وكذلك تزيد عدد الطبقة العاملة ، وبالتالي قوتها واننا لنقترب من الخاتمة الاخيرة ان من واجب العمال كي يقضوا على التناقض الذي يضر بمصلحتهم ـ التناقض بين نمط الانتاج ونمط توزيع منتجات العمل ـ ان يحصلوا على السلطة السياسية التي هي حاليا ، في واقع الامر ، بين أيدي البورجوازية قل اذا كان هذا يرضيك ، ان العمال سوف يثيرون « كارثة سياسية ان **التطور الاقتصادي** يؤول بصورة حتمية الى **الثورة السياسية**، وهذه الثورة سوف تصبح بدورها مصدرا لتغيرات رئيسية في بنية المجتمع الاقتصادية ان نمط **الانتاج** يتخذ شيئا فشيئا وباستمرار طابعا اجتماعيا وان النمط الموافق له الخاص **بتملك المنتجات** سوف يكون نتيجة لثورة عنيفة

هكذا يجري التطور التاريخي ((**في أماكن أخرى**)) ، في ذلك الغرب الذي

بعث تطوره الاجتماعي كليا من « تصورات » السيد تيخوميروف . وان يكن قد اخذ على عاتقه أمر ملاحظة الثقافة الفرنسية الجبارة

ان الثورات العنيفة . و « أنهار الدماء والفؤوس . والسندانات والبارود، والديناميت هي ظواهر يؤسف لها جدا لكن ما عسانا نفعل ، من فضلك . اذا كانت محتومة ؟ لقد كان العنف دائما مولد المجتمعات الجديدة لقد قال ماركس ذلك ولم يكن وحده في مثل هذا التفكير ان مؤرخا مثل شلوسر كان مقتنعا بأن التبدلات الكبرى في مصير البشر لا يمكن أن تحدث الا بالحديد والنار *

ما منشأ هذه الضرورة التي يؤسف لها ؟ من هو المذنب في هذا المجال ؟

اتكون ثمة أشياء

تخرج عن طاقة العقل ؟(٥)

أجل ان هناك مثل هذه الاشياء بعد انها لموجودة بسبب الفوارق في المصالح بين طبقات المجتمع ان ثمة ميزة بله ضرورة مطلقة ، لطبقة معينة في اعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية بطريقة معينة ان ثمة ميزة ، بله ضرورة مطلقة ، لطبقة أخرى في منع اعادة التنظيم هذه ان ما سوف يحمل الى الطبقة الاولى الهناءة والحرية يهدد الطبقة الاخرى في امتيازاتها ، يهدد بتدميرها من حيث هي طبقة مميزة وأي طبقة لا تقاتل من أجل حياتها ؟ أي طبقة لا تملك غريزة حفظ البقاء ؟ ان البنية الاجتماعية التي هي في مصلحة طبقة معينة تتبدى في عينها ليس من حيث هي عادلة فحسب ، بل من حيث هي البنية الممكنة الوحيدة حاولوا أن تغيروا هذه البنية وسوف تكون ذلك في نظرها تخريبا لأسس كل مجتمع وهي تعتقد ان رسالتها الدفاع عن هذه الاسس ، وان يكن بقوة السلاح ومن هنا كانت أنهار الدماء ؛ من هنا كان الصراع والعنف

وان الاشتراكيين الذين يعملون الفكر في الانقلاب القريب يستطيعون على أي حال ان يتعزوا بفكرة انه بقدر ما تنتشر مذاهبهم الهدامة أكثر وبقدر ماتزداد

المعرفة العميقة بالتاريخ التي كان شلوسر يملكها قد مالت به فيما يبدو الى تبني أفكار كوفيه الجيولوجية القديمة واليكم ما يقوله بشأن مشاريع الاصلاح التي وضعها تورغو ، وهي المشاريع التي لا تني تثير الحنان في قلوب البورجوازيين ان هذه المشاريع تتضمن جميع الحسنات الاساسية التي حصلت فرنسا عليها في وقت لاحق بفضل الثورة وكانت الثورة وحدها ستمكن من الحصول عليها ، لان وزارة تورغو كانت تبرهن في آمالها على ذهن فلسفي بصورة عضالة جدا فقد كانت تحسب بالرغم من الخبرة وبالرغم من التاريخ ، أن وصفاتها سوف تكفي لتغير بنية اجتماعية كونها الزمن ووطدتها متينة ان التحولات الجذرية لا تكون ممكنة في التاريخ ، كما في الطبيعة ، الا حين يتم القضاء بصورة مدمرة بالحديد والنار على جميع الاشياء التي كانت موجودة من قبل (تاريخ القرن الثامن عشر) الترجمة الروسية الطبعة الثانية سان بطرسبورغ ١٨٦٨ المجلد الثالث ص ٣٦١ بالهذا العالم الالماني من حالم هذا ما سوف يقوله لنا من دون ريب السيد تيخوميروف .

الطبقة العاملة ثقافة وتنظيما وانضباطا ، فان « الكارثة » المحتومة ستكلف عددا اقل من الضحايا

وفيما عدا ذلك ، فان انتصار البروليتاريا الذي سوف يضع حدا لكل استثمار للانسان من قبل الانسان وبالتالي لتقسيم المجتمع الى طبقات المستغِلين وطبقات المستغَلين لن يجعل الحروب الاهلية عديمة الجدوى فحسب بل مستحيلة بكل بساطة وعندئذ تستطيع الانسانية ان تمضي قدما « بقدرة العقل وحدها دون ن تمسها حاجة الى السلاح من أجل دعم حججها

٣

لننتقل الآن الى روسيا

ان الاشتراكيين في الغرب يتبعون تعاليم ماركس ، لكن الاشتراكية الشعبية هي التي سادت حتى هذه الازمان الاخيرة بين الثوريين الروس . وان الفارق بين الاشتراكي الغربي يعني **الاشتراكي الديموقراطي** ، والاشتراكي الشعبي يقوم في أن ذاك يتوجه الى الطبقة العاملة ويعتمد على الطبقة العاملة وحدها ، بينما لم يعد هذا يتوجه منذ زمن طويل الا الى الانتيلجنتزيا يعني الى نفسه ولا يعتمد الا على هذه الانتيلجنتزيا وحدها وبكلام آخر على نفسه وان أكثر ما يخشاه الاشتراكي الديموقراطي هو أن يجد نفسه في عزلة في وضع مغلوط ينقطع فيه صوته عن الوصول الى جماهير البروليتاريا ولا يعود الا صوتا صارخا في الصحراء أما الاشتراكي الشعبي الذي لا يملك اي سند في الشعب فلا يرتاب البتة في خطأ موقفه؛ انه ينسحب عن طيبة خاطر الى الصحراء ، وهمه الوحيد أن يصل صوته الى أذنيه الخاصتين ويفرح قلبه الخاص ان الطبقة العاملة كما يتصورها الاشتراكي الديموقراطي قوة لا تقاوم ، في حركة متصلة ، وهي الوحيدة القادرة اليوم على دفع المجتمع في طريق التقدم ان الشعب كما يتصوره الاشتراكي الشعبي ، هو ايليا موروميتز(٦)، قادر على البقاء ثابتا لقرون عديدة على « الاسس » الشهيرة وفي رأي الاشتراكي الشعبي ان هذا الشلل الذي يعاني منه هذا الفارس الاخرق للارض المزروعة لا يشكل عيبا بل هو جدارة عظيمة جدا ولا يأسى الشعبي لذلك بل يسأل التاريخ فضلا: الا يسمح للبطل الروسي الاسطوري بمغادرة موقعه العريق في القدم حتى اللحظة المباركة التي يكون فيها الاشتراكي الشعبي الطيب قد انتهى من الراسمالية والقيصرية وغير ذلك من « المؤثرات الضارة » ، فيتقدم سعيدا وراضيا الى ايليا موروميتز ويعلن بكل اجلال Monsieur est servi * ولسوف يعب الفارس دون أن يلتقط

---

* [ليتفضل سيدي !]

أنفاسه كي يفتح شهيته كوبا من برميل من الخمرة الجديدة ولا يبقى عليه الا ان يجلس بكل هدوء الى المائـدة المعـدة الخاصة بالمطعـم المشترك ان الاشتراكي الديموقراطي يدرس بكل عناية قوانين التطور التاريخي ومسيرتـه أما الاشتراكي الشعبي الروسي فيتخيل مطولا وبكل رضى عن الذات التطور الذي سيبدأ بالنسبة الى شعبه لا ندري متى ، في العالم الآخر ، « غداة الثورة » ، ولا يريد أن يعرف شيئا عن التطور الاقتصادي غير الوهمي على الاطلاق الجاري يوميا في كل دقيقة ، في روسيا الحالية ان الاشتراكي الديموقراطي يعرف مجرى التاريخ ، ومجرى التاريخ يجرف الاشتراكي الشعبي أبعد باستمرار عن « مثلـه الاعلى » وان الاشتراكي الديموقراطي **ينتوجه** الى التطور ، أما الاشتراكي الشعبي فيستنجد بكل السفسطات الممكنة كي **يعرض عنه** .

وأكثر من ذلك قبل مائة أو مائتي عام كانت المشاعة أمتن منها اليوم بصورة لا متناهية ولذا فان الاشتراكي الشعبي يموت رغبة في ارجاع العقارب الى الوراء مائة أو مائتي عام على مزولة التاريخ*

ويترتب على ذلك أن تقدير السيد تيخوميروف مصيب تماما اذا ما طبق على الاشتراكيين الشعبيين الروس وبالفعـل ، فانهـم لا يعرفون كيف يوفقـون بين مفهومي **التطور** و **الثورة** .

لكن مؤلفنا وجد من النافل تحديد أنه كان الكاتب الرئيسي والاخصب لهـذا التيار في حزبنا الثوري لقد ناضل في مقالاته طويلا وبكل عنف ضد جميع اولئك الذين كانوا يحاولون ان ينشئوا رابطة معقولة بين مطالب الثوريين الروس ومجرى التطور الاجتماعي في روسيا الذي يسير في اتجاه واحد المشاعة الزراعية في طرف و « الانتيلجنتزيا » في الطرف الآخر قد كانا على الدوام المفهومين الحدين اللذين لم تفامر « ثورية » السيد تيخوميروف ما وراءهما قط

لكنه من البدهي أن الثوري لا يستطيع أن يجهل تطور بلاده دون عاقبة ، وهذا ما أثبتته التجربة القاسية للاشتراكيين الشعبيين الروس انهم لم يتوجهوا دائما الى نفوسهم وحدها ولم يضعوا آمالهم جميعا في الانتيلجنتزيا وحدها لقد كان زمن حاولوا فيـه أن يستنهضوا « الشعب » ، وهم يقصدون طبعا من هـذه العبارة الفلاح ، حامل المثل الاعلى المشاعي وبطل تضامن **المير** لكن الفلاح ، وهذا ما كان من الواجب توقعه ، قد أصم أذنيه عن نداءاتهم الثورية ، بحيث اضطروا،

---

* اننا نقصد بالاشتراكيين الشعبيين جميع الاشتراكيين الذين يجب ان تشكل المشاعة بالنسبة اليهم القاعدة الاقتصادية الرئيسية للثورة الاشتراكية في روسيا وبهذا المعنى فانه يجب أن نعتبر انصار « ارادة الشعب » شعبيين أيضا وانهم ليعترفون هم انفسهم بهذه الصفة ، اذ يطلقون على انفسهم اسم الاشتراكيين الشعبيين بكل بساطة في برنامج اللجنة التنفيذية(٧) .

شاؤوا أم أبوا ، أن يحاولوا القيام بالثورة بوسائلهم الخاصة ولكن ما عساهم كانوا يستطيعون انيفعلوا بهذه الوسائل ؟ ان أية امكانية للدخول في صراع مكشوف مع الحكومة لم تسنح لهم ان التظاهرات السياسية التالية لعام ١٨٧٥ قد أشعرت الانتيلجنتزيا » بصورة مقنعة جدا ان الوسائل تعوزها من أجل تحقيق النصر حتى على الدفورنيك وشرطة المدينة وأمام هذه الاوضاع ، ونظرا لنظرياتهم فانه لم يبق أمام الاشتراكيين الشعبيين مخرج آخر الا ما يسمونه الارهاب عندنا ، أو الثورة المنفردة حسب تعبير السيد تيخوميروف لكنه ليس في مقدور أية « ثورة منفردة أن تقلب الحكومة ويقول مؤلفنا بصورة لاذعة يبدو لي ان المدافعين عن الاغتيال السياسي يدركون نادرا جدا أن عجز الثورة هو الذي يصنع في الوقت الحاضر قوة الارهاب في روسيا » وهذا صحيح بصورة مطلقة ان خطيئة السيد تيخوميروف الوحيدة هي تصوره أن اكتشاف هذه الحقيقة البدائية قد كان يحتاج الى عقله البناء فأثناء مؤتمري ليبيتسك وفورونيج(٨) لفت النظر الى ذلك اولئك الذين كانوا يريدون ، من بين ثوريينا ، ان يحتفظوا بالبرنامج القديم للارض والحرية » ولقد كانوا على حق تام حين قالوا أن اية حركة ثورية مستحيلة دون تأييد قسم على الاقل من الجماهير الشعبية لكنهم حين تمسكوا بوجهة النظر القديمة الشعبية ، لانهم لم يستطيعوا أن يكونوا فكرة ، ولو غامضة ، عن وسيلة العمل التي سوف تمكن حزبنا الثوري من ممارسة تأثير خصب في الجماهير وبالتالي سوف توفر عليه العجز المحتوم الذي سيفرضه عليه « النضال الارهابي» .
ومع ذلك فقد كان الارهاب يملك ميزة لا جدال فيها على جميع البرامج القديمة لقد كان على الاقل بصورة فعلية ، ذلك القتال من أجل الحرية السياسية الذي ما كان الثوريون من الجيل القديم يريدون ان يسمعوا شيئا عنه

ولم يكد الاشتراكيون الشعبيون يطأون بأقدامهم ساحة القتال السياسي حتى اصطدموا بقضية التطور فليس في مقدور الاشتراكي أن يعتبر الفوز بالحريات السياسية خاتمة لعمله الثوري وليست الحقوق التي تضمنها البرلمانية الحديثة للمواطنين في نظره أكثر من مرحلة في الطريق المؤدية الى الهدف الاساسي ، يعني الى اعادة تنظيم العلاقات الاقتصادية ولابد أن ينقضي فاصل زمني بالضرورة بين الفوز بالحريات السياسية وبين اعادة التنظيم هذه وأن سؤالا ليطرح اذن ألن تتغير الحياة الاجتماعية الروسية في هذا الفاصل واذا هي تغيرت ففي أي منحى ؟ ألن يؤدي نظام دستوري الى تدمير الاسس القديمة للحياة الفلاحية ، العزيزة على الاشتراكيين الشعبيين ؟ ولم يكن بد ، في سبيل الجواب بصورة مرضية ، من الانصراف الى نقد المبادىء الاساسية للنزعة الشعبية

وانه ليمكن أن نسجل بلا صعوبة ، في أدبنا الثوري وعيا متعاظما أبدا للضرورة الداعية الى تقديم الايضاحات أخيرا عن الرابطة بين الثورة الروسية والتطور في روسيا وان السيد تيخوميروف الذي كان كما رأينا أحد المؤمنين القدامى

الاعند بين ثوريينا والذي دافع بغيرة عن العقائد الشعبية التي آمن بها ضد تطفل اية فكرة جديدة **قد تعرض هو نفسه لتأثير هذه المرحلة الانتقالية** وان **لماذا لم اعد ثوريا** يتضمن في هذا المجال دلالات واضحة جدا ويشير السيد تيخوميروف، في رواية تحوله ، الى مقالة حررها للعدد الخامس من **رسول ارادة الشعب** ولم تنشر مطلقا لان رفاقه لم يوافقوا عليها وانه ليؤكد لنا انه قد شرح فيها الفكرة القائلة ان « **تطورا معينا للحياة الشعبية يستطيع وحده ان يوفر المجال من اجل النشاط الثوري** » وهويقول «**لقد كانت نزعتي الثورية تبحث بالضبط عن هذا التطور، هذه العملية التاريخية لتغيير النمط ، كيما تفعل بصورة تتفق معه**❊ . »

وما الذي وجدته اذن « النزعة الثورية » للسيد تيخوميروف ؟

ينادي مؤلفنا

انی أطالب بوحدة الحزب والبلاد اني أطالب بالقضاء على الارهاب وتكوين حزب وطني كبير ولكن ما حاجتنا اذن الى المؤامرات ، والعصيانات ، والانقلابات ؟ ان الحزب الذي التمس خلقه سيعرف فيما يبدو أن يعد نظاما للتحسينات الممكنة كليا والخصبة بكل وضوح ؛ وانه لسوف يجد اذن الوسيلة من أجل اقناع الحكومة ايضاً هذه التي لن تطلب أكثر من تزعم الاصلاح❊❊

من الواضح أن « النزعة الثورية للسيد تيخوميروف وهي تبحث عن التطور قد اسقطت في« عنايتها » **الثورة** التي لم يبق منها **في** أفكاره الراهنة مجرد الاثر ان الامر ليؤسف له ، لكنه ينطوي على **منطقه القاهر** ان الرجل الذي كان يريد ان يؤمثل بأي ثمن شروط الريف الروسي الاقتصادية السابقة للطوفان لابد بصورة طبيعية أن ينتهي الى أمثلة القيصرية التي هي الثمرة السياسية الطبيعية لتلك الاوضاع ان الافكار الحالية للسيد تيخوميروف هي بكل بساطة النتيجة المنطقية ، وقليلة الحمد جدا للمقدمات النظرية للاشتراكية الشعبية ، هذه المقدمات التي كانت على الدوام غير قابلة للدحض في نظره

لكنه من البدهي في الوقت نفسه أن هذه النتيجة لا تملك اية علاقة **بالتطور في** أي شكل من الاشكال

لقد بحث السيد تيخوميروف عن التطور حيث لم يكن له وجود قط ، وبالتالي حيث كان من المحال اكتشافه

ما هي « وحدة الحزب والبلاد ؟ ان في كل بلد خرج من الطفولة طبقات او شيعا تختلف مصالحها تارة وتتعارض كليا تارة أخرى وليس في مقدور اي حزب أن يوفق بين هذه المصالح ، ولذا فانه ليس في مقدور اي حزب أن يحقق وحدته مع البلد **باكمله** فالحزب لا يستطيع الا أن يعكس مصالح طبقة او شيعة معينة .

❊ ص ١٣ – ١٤ من الكراس

❊❊ المصدر نفسه ، ص – ١٣

ومن المؤكد ان هذا لا يعني ان الاحزاب محكوم عليها بألا تمثل في السياسة الا المصالح الانانية لطبقة ما ففي كل مرحلة من التاريخ طبقة يرتبط انتصارها بمصلحة البلاد وتقدمها وليس في مقدور المرء ان يخدم بلاده الا بالمساعدة في انتصار هذه الطبقة وهكذا فان « وحدة الحزب والبلاد » لا يمكن ان يكون لها بصورة معقولة الا معنى واحد وحدة البلاد والطبقة التي هي حاملة التقدم حاليا وليس ذلك في حال من الاحوال المعنى الذي يعطيه السيد تيخوميروف لهذه الصيغة فقد نفى على الدوام وجود الطبقات في مجتمعنا ، وهو ينكره حاليا أكثر من اي وقت مضى.

ان تمايز مصالح الطبقات ينجم عن تطور المجتمع عن **التطور التاريخي** وإن فهم الفارق في المصالح الطبقية يعني فهم مجرى التطور التاريخي ؛ وعلى العكس من ذلك فان عدم فهمه معناه عدم امتلاك ادنى فكرة عن التطور التاريخي معناه الانحباس في ظلمة فكرية حيث القطط جميعا سود ومتشابهة مثل قطرتين من الماء وحين يأتي مؤلف يحيا في هذه الظلمات فيحدثنا عن التطور فاننا نستطيع ان نكون على يقين من ان ما يعتبره تطورا هو النقيض من ذلك تماما

لكن حتى اذا تركنا جانبا هذه الاعتبارات جميعا ، فاننا لا نستطيع الامتناع عن طرح هذا السؤال الهام على السيد تيخوميروف ما الذي يحمله على التفكير بأنه حين يتوصل الحزب الى « الاتحاد » مع البلاد ، فان الحكومة « لن تطلب أكثر من تزعم الاصلاح الذي يطالب الحزب به ؟ لعل مؤلفنا يتذكر من دون ريب حادثة وقعت قبل مائة عام بالضبط لقد كان ممثلو الطبقة الثالثة في بلد معين يعبرون عن مصالح الغالبية العظمى من السكان فيه ؛ ولقد أعدوا نظاما للتحسينات الممكنة كليا والخصبة بكل وضوح ولكن حكومة ذلك البلد لم ترغب في تزعم الاصلاح واستخدمت كل عنايتها في السعي الى سحق هذا الاصلاح بمساعدة الحراب الاجنبية وطبيعي أن هذا لم يمنع الاصلاح من الحدوث ؛ لكن « عناية الحكومة جرت عليها أسوأ العواقب وصحيح أن السيد تيخوميروف يحسب ، من دون ريب، أن حكومة بلاد خاصة جدا مثل روسيا سوف تسلك في مثل هذه الحال طريقها الخاصة بحيث أن مثال البلدان الاخرى لا يصلح لنا

ان مؤلفنا في بحثه عن وسيلة توحيد الحزب والبلاد قد ضل في دربه قادته الى الاتحاد هو نفسه مع الحكم المطلق وما علاقة مصلحة الحكم المطلق بتقدم روسيا اذن ؟

اننا نقرأ في الصفحة ٢٥ من كراس السيد تيخوميروف

> اليكم كيف انظر الى قضية الحكم المطلق قبل كل شيء في روسيا كما هي عليه ، يمثل الحكم المطلق ظاهرة لا جدوى على الاطلاق من مناقشتها انه نتيجة للتاريخ الروسي لا تتطلب التأييد ولا يستطيع أي انسان الغاءها طالما ان في البلاد عشرات وعشرات الملايين لا يعرفون ولا يريدون يعرفوا شيئا آخر في السياسة » .

ان السيد تيخوميروف يحاول أن يفهم معنى « **التطور** » الروسي وكيما يحل **هذه** القضية فان عليه الا يقصر تساؤله على **ما هي روسيا** بل بصورة خاصة **إلامَ تصير** ، وفي أي منحى يتغير نمط نظامها الاجتماعي واذا لم ينتبه المرء الى هذا المظهر من المسألة فانه لا يحق له أن يتحدث عن **التطور** بل عن **الركودة فقط** ولكن السيد تيخوميروف يجهل بالضبط هذا الجانب من القضية ولذا يحدث له ما يحدث لجميع الاشخاص الميالين « الى الوضع القائم انهم يتصورون انهم يعالجون البلد « **كما هو** » بينما آراؤهم مثبتة في البلد **كما كان قبلا وكما لم يعد** اليوم حتى درجة كبيرة ان احلامهم عن الوضع القائم تقوم على أمثلة الشروط الاقتصادية والسياسية التي باتت بالية

تحدثوا اذن الى السيد تيخوميروف عن العلاقات الاقتصادية في روسيا ولسوف يقول لكم ان المشاعة نتيجة للتاريخ الروسي لا تتطلب التأييد طالما ان العشرات والعشرات من ملايين الناس لا يعرفون ولا يريدون ان يعرفوا شيئا آخر في الاقتصاد » ولكن المسألة كلها تقوم في هذه الكلمة الصغيرة **طالما** ان من يعالج **التطور** لا يجوز له أن يتحدث عن الحاضر وحده واذا هو أراد أن يقنعنا بأن للمشاعة مستقبلا وطيدا ، كان عليه أن يبين لنا أن « **طالما** » الخاصة به ليست مكرسة لموت عتيد وان المشاعة لا تتضمن ولن تتضمن قط عناصر للانحلال ، أو على الاقل ان تتضمن هذه العناصر حتى فترة طويلة من الزمن وكذلك اذا هو أراد أن يقنعنا بمستقبل الحكم المطلق في روسيا فان عليه أن يبين لنا أن نظامنا الاجتماعي لا يتضمن مطلقا عوامل سوف يكف بفعل تأثيرها عشرات وعشرات الملايين من الناس ، ربما في وقت قريب ، عن الرغبة في سماع الحديث عن الحكم المطلق ان « طالما » صيغة مشوشة جدا ، س يمكن أن تساوي مليونا كما يمكن تعادل الصفر وأن دور صاحبنا تطوري النزعة يجب أن يكون تحديد ... هذه لكن هذه المهمة تتجاوز قواه ولما كان يطفح بالخصوصية ، فقد عاش على الدوام في علاقات مشدودة جدا مع العلم الذي يأتينا من الغرب كما هو معروف بحيث لم يعد يملك على الاطلاق قوة على حل أتفه القضايا

ان السيد تيخوميروف ، كي يحدد افكار الشعب الروسي السياسية ، يحدثنا عن روسيا **كما هي** ، أو بالاحرى كما يتصورها بيد ان انظاره تتوجه بصورة لا تقاوم نحو **الماضي** حين يأتي الى التساؤل عما اذا كان الحكم المطلق لا يشكل عقبة في سبيل « الحضارة الروسية » ومن الطبيعي أن السؤال بالنسبة الى كل فكر غير منحاز وغير منساق مع السفسطة لا يمكن ان يصاغ الا كما يلي هل الحكم المطلق اليوم ، « **كما هو** » ، يشكل عقبة أمام تقدم روسيا أو انه يسهم فيه ؟ ان السيد تيخوميروف يفضل أن يطرح المسألة بصورة مغايرة انه يحدثنا عن الحكم المطلق كما يرى **أنه كان** فيما مضى « كيف يمكن للمرء أن ينسى

تاريخه الخــاص بحيث يهتف في دهــشة ما هو العمــل التمــديني الــذي يمكن الحديث عنه في ظل القياصرة ومن سوء حظ السيد تيخوميروف ان الروس الذين يطلقون هذا الهتاف كثرة) ويقول مؤلفنا مغيظا الم يكن بطرس قيصرا ؟ وهل عرف التاريخ العمومي عملا تمدينيا أسرع وأوســع الم تكن كاترين قيصره ؟ أو لم تتطور في ظل نقولا الأول جميـــع الافكار الاجتماعية التي ستوحيها المفكرون الصالحون في روسيا اليوم ؟ وهل توجد أخيرا كثرة من الجمهوريات حققت خلال ستة وعشرين عاما قدرا من الخير مثل الذي حققه الامبراطور الكسندر الثاني؟ ان الناس عندنا لا يعرفون أن يجيبوا عن سائر هذه البيانات الا بعبارات حقيرة ، كان يقولوا إن هذه الامور جميعا كان لابد أن تتحقق رغمــا عن الحكم المطلق وحتى اذا كان الامر كذلك ، أفليس سواء بالنسبة الينا أن تكون قد تحققت «بفضل» أو رغما عن طالما أنه يتبين أن التقدم ممكن ، وهو تقدم سريع جدا فضلا عن ذلك ؟ »*

اسمح لنا بسؤال أيها المتعالم المدافــع عن التطور أفلا تفهم مطلقا هــذه الحقيقة البديهية ألا وهي أن الحاضر قد لا يشــبه الماضي وأن مثال بطرس ، وكاترين بله الكسندر الثاني لا يصح من أجل الكســندر الثالث أو نقولا الثاني ؟ لقد أراد بطرس ان يجعل من روسيا بلدا مستنيرا لكن الكسندر الثالث يحلم باعادتها الى الهمجية وان روسيا لتستطيع أن ترفع عشرين نصبا جديدا لبطرس وأن تجد ن المشنقة كافية من أجل الكسندر الثالث ولماذا العودة الى بطرس الاكبر حين يكون المقصود الكسندر الضخم وحده ؟

وكيف السبيل الى فهم الحجة التي تزعم أنك تستقيها من حكم نقولا ؟ انك تقول إن الافكار التي ستوحيهــا المفكرون الصالحون في روسيا اليوم تطورت في ظل نقولا هذا صحيح لكن لا تغضب يا سيد تيخوميروف ، واســمح بأن نسألك عن الدور الذي لعبه ، في هذا المجال هذا البابا للرجعية العالمية المنتعل جزمة الذي هو نقولا افترض أن الحرب اندلعت بين القطط والفئران . وان الفئران ، وقد قضت بأن النوع القط ضاربشعبها قررت الخلاص بصورة قاطعة من المسألة السنورية ولكن هذا المعلم الثعلب يظهر ويخاطب الفئران بهذه اللغة . وهو يهز ذيله الضخم بكل تلاطف انتها الحيوانات الصغيرة البلهاء والعقوقة ، اني لا اتمكن من فهــم كيف تنسون تاريخكم الخاص بحيث تهتفون بكل دهشة أية حياة يمكن أن تعاش في ظل القطــط الم يكن عنبر قطــا ؟ تكن فلة قطــة ؟ افلم يتكاثر نوعكم في ظل حتى أن صاحب الـ اضطر الى ابتياع المزيد من مصائد الفئران أولم تستمروا في التكاثر بالرغم من كل حماسة عنبر في ابادتكم ؟ افليس سواء بالنسبة لكم اكان ذلك ـن عنبر أم رغما عنه

---

* المصدر نفسه ، ص ٢٥

ما عسى أن ترد به الفئران على طرطوف هذا ؟

ويؤكد لنا السيد تيخوميروف في الصفحة ٢٦ أن تقدما عظيما في الادب لا يتفق مع الملكية المطلقة في الحقيقة أن في ذلك قدرا كبيرا من الخبث أريد أن أقول من الخراقة وصحيح أن المؤلف قد يتصور أن قراءه يجهلون تاريخ الشهادة الطويلة للآداب الروسية ، ولكن من تراه نسي نوفيكوف وراديتشيف اللذين اختبرا مخالب سميراميس الشمال ؟ وبوشكين الذي نفي في ظل الكسندر «الحبيب» ؟ وبوليجاييف الذي اغتاله نقولا آبد الذكر ؟ وليرمنتوف الذي نفي من أجل اشعار لم تكن تهدد مع ذلك أسس العرش وشفتشينكو الذي أشبع بالاهانات تحت سيدارة الجندي العادي ؟ ودوستويفسكي البريء من كل جرم المحكوم بالاعدام أولا ومن ثم المنقول الى الاشغال الشاقة « بفضل العفو والمحبوس في بيت الموتى حيث جلد مرتين ؟ وبيلنسكي الذي وفر عليه الموت وحده التعرف الى رجال الدرك ؟ أيتصور السيد تيخوميروف أن قراءه نسوا شتشابوف المنفي وميخائيلوف الذي قضى في سيبريا وتشيرنيشيفسكي الذي بقي فيها أكثر من عشرين سنة ، وبيساريف الذي قضى في معتقل أجمل سنوات حياته دون أن نحسب الكتاب الروس الحاليين الذين يصعب أن نجد بينهم مفكرا حرا لم يوضع تحت المراقبة أو ابعد الى مناطق نائية أكثر او اقل ودون أن نحسب الاعمال الجنونية للرقابة الروسية التي لا يريد أن يصدقها الناس الذين يجهلون ما هي ملكيتنا المطلقة » ؟ ان تاريخ اباطرة روسيا هو تاريخ الاضطهاد الذي لا يرحم لكل فكر حي وقد دفع أدبنا الثمن غاليا بصورة رهيبة من أجل التقدم الذي تحقق رغما عن الحكم المطلق هذا ما لا يجهله أحد فليتحدث السيد تيخوميروف على هواه وليرفع سائر قصائد المديح لمن شاء من الاباطرة لكن لا يمسن الآداب الروسية اذ يكفي أن يفكر المرء فيها كي يتملكه الحقد الامر على ملوكنا

لقد اعترض غريتش فيما مضى على كتاب كوستين(٩) عن روسيا في عهد نقولا بأن المرء يستطيع أن يكتب في بطرسبورغ بمثل الحرية التي نكتب بها في باريس أو لندن وان اعتبارات السيد تيخوميروف المتعلقة بازدهار الآداب الروسية في ظل القياصرة لا تفعل سوى تطوير فكرة غريتش الجريئة وحين صدر كتاب **لماذا لم أعد ثوريا** تخيل الكثيرون ان السيد تيخوميروف يطمح لان يصبح كاتكوف جديدا لكن بذكاء « بناء » أكثر من رئيس التحرير الراحل **لأنباء موسكو**(١٠) وكانت تلك خطيئة فحين ننظر الى الامر عن كثب ، فانه يتضح ان مجد غريتش كان يحرم السيد تيخوميروف من النوم ولابد من الاعتراف بان اسلوب السيد تيخوميروف بالذات يذكرنا بهذا النموذج ان القدر يحظر عليه أن يكون كاتكوف جديدا لكن هذا الرجل يملك ما يلزم كي يأخذ محل غريتش بصورة محتصرة طبعا

افليس سواء بالنسبة الينا ان يتحقق التقدم الاجتماعي عندنا بفضل » القياصرة أو رغما عنهم ؟ كلا ، يا سيد تيخوميروف ان هذا لابعد جدا من أن يكون سواء بالنسبة الينا فليس سواء بالنسبة الينا على الاطلاق أن تقع مؤسساتنا التعليمية بين أيدي أشباه تولستوي وديليليانوف ورونيتش وماغنتسكي. ليس سواء بالنسبة الينا على الاطلاق ان يكون الانتساب الى جامعاتنا محدودا أو أن تقطيبة من حاجب القيصر تستطيع ان تحظره كل لحظة وان يكون لدى الشبيبة صف ضباط عوضا عن فولتير * ليس سواء بالنسبة الينا على الاطلاق أن يعمر طلابنا الشمال والشرق وان الاهلين حين يرسلون ولدهم الى الجامعة ، ينظرون اليه على انه الميت الحي ليس سواء بالنسبة الينا على الاطلاق ان يجلد خمس المقيمين في الريف على الاقل ، في امبراطوريتنا البوليسية ، عند جباية الضرائب ليس سواء بالنسبة الينا على الاطلاق أن يتعرض العمال ، لدى أدنى احتجاج ضد نظام المعامل الجهنمي ، للملاحقات غير القانونية من قبل الادارة ، وان يحالوا الى المجالس الحربية اذا شاء ذلك حاكمنا المطلق ، الامر الذي حدث أكثر من مرة في عهد نقولا ليس شيء من ذلك سواء بالنسبة الينا ابدا ! ان هوى قياصرتنا الطيبين يكلفنا غاليا جدا ولقد كان زمن أيها السيد تيخوميروف ،لم يكن ذلك سواء حتى بالنسبة اليك ايضا فكر في ذلك اذا بقيت فيك ذرة من الانسانية فانك سوف تتذكر رغما عنك ، رغما عن «تطورك» كله ، ذلك الزمان اكثر من مرة وتتذكر انه كان المرحلة الاحلى في حياتك

وفي رأي السيد تيخوميروف انه اذا كانت شبيبتنا الجامعية محاطة بالمخاطر ، فان اللوم في ذلك يقع على المشاغبين الذين يجتذبونها الى السياسة ان تدخل الطلاب في السياسة يستتبع عواقبه الاسوأ في شكل تظاهرات من مختلف الانواع حيث تفقد البلاد خلال اربع وعشرين ساعة أحيانا من أجل احتجاج حقير ضد أحد العمداء المساكين عدة مئات من العناصر الشابة التي لا تعوض». ونود ان نشير باديء الامر الى أن « تدخل الطلاب في السياسة شيء ومايسمى « مشاكل الطلاب شيء آخر تماما ان للطلاب طرقا اخرى للتدخل في السياسة غير محاربة العمداء واننا لنسأل السيد تيخوميروف بكل تواضع ، ثانيا أن يقول لنا من هو الملوم حين تفقد البلاد عناصر ثمينة فعلا ولا تعوض بصورة لاجدال فيها أفليست تلك خطيئة حكومة قمينة بأن تغتال المئات من الشباب من أجل احتجاج حقير ضد أحد العمداء المساكين ؟ انه لمن الغريب ان يكون الحكم المطلق عندنا حتى في راي السيد تيخوميروف ، غولا منتهى الحذر السياسي حياله هو عدم الوقوع بين قوائمه

* ـ غريبوئيدوف : **فرط الذكاء مصيبة**]

اواه انه لخير مائة مرة بالنسبة الى بلادنا أن يستطيع شبابنا أن يدرسوا ويتطوروا في سلام من يجادل في ذلك ؟ ومن سوء الحظ أن هذا الامر يظل مستحيلا ما لم يقض أخيرا على النظام السياسي الذي يقضي في الوقت الراهن على شبيبة بلادنا أن الحكومة لن تغفر لها قط « تدخلها في السياسة وهي لن تمتنع قط عن التدخل فيها ذلك أن شبيبة المدارس هي التي تلعب في كل مكان الدور الاكثر فاعلية في المعركة من أجل الحريات السياسية لقد أجابت جورج صاند بصورة لاذعة على المرائين الذين كانوا يلومونها على ذلك ــ ولا يعود تاريخ ذلك الى الامس ــ انه اذا كانت العناصر الافضل والاكرم من الشبيبة تنهض ضد النظام ، فليس ثمة برهان أسطع من ذلك على أن هذا النظام لا ينفع شيئا

لكن السيد تيخوميروف لا يتمنى قط أن يصرف انظار شبيبة المدارس عن المعركة السياسية ، بل انه ليدعو حتى قراءه الاشيب لنسيان هذه المعركة ناصحا اياهم كمتنفس بالعمل التمديني مع الاذن من فوق وانه ليؤكد انه ليس في مقدور أية وزارة أن تثير العقبات في وجه هذا النوع من النشاط فيقول

مهما تكن الحكومة فانها تستطيع أن تنتزع من الشعب كل ما يمكن تصوره ، لكن من دون امكانية العمل من أجل الحضارة على افتراض أن الشعب مستعد له هذا رائع ؛ لكن ثمة مصيبة واحدة الا وهي ان المرء لا يتوصل الى التكهن بما هو هذا « العمل الباعث على الذهول الذي يقف وأجرؤ على هذا القول من عضة البراغيث وعضة الصدأ على حد سواء والذي سوف نستطيع أن ننصرف اليه على هوانا حتى اذا انتزعت الحكومة منا كل ما يمكن تصوره . ومثال ذلك ان نشر التعليم هو العمل» الاكثر تمدينا ولكن الحكومة تستطيع دائما أن « تنتزعه » منا ومن المؤكد أن السيد تيخوميروف يعرف قبل سواه أمثلة عديدة على مثل هذا الحظر وان الكتابة يجب أن تعتبر كذلك عملا تمدينيا ولكن السيد تيخوميروف يعرف جيدا أن ذلك نشاط تستطيع الحكومة أن تحظره على أي واحد منا فأي نوع من الاعمال يمكن اذن أن يتحدث مؤلفنا عنه ؟ بناء السكة الحديدية ؟ الاسهام في تقدم « الصناعة الوطنية»؟ لكن الامور جميعا وقف هنا على تعسف المكاتب فالحكومة تستطيع في كل حين أن ترفض السماح بمشروعك ، وأن تقتله بضربات الضرائب والتصرفات غير المعقولة الخ وماذا يتبقى لنا بعدما تكون الحكومة قد انتزعت كل ما يمكن تصوره ؟ (والحقيقة أنها ليست بعيدة حاليا عن تحقيق ذلك

يبدو لنا أنه كان من واجب السيد تيخوميروف أن يوجه الى قرائه بصراحة ودون مواربة العزاء الذي كان الرواقيون قديما يهدونه الى العبيد أن في مقدور أسيادكم أن ينتزعوا منكم كل ما يمكن تصوره لكنهم لا يقوون على حرمانكم من

الحرية الباطنة « لأناكم وهذه الحرية وحدها هي المهمة بالنسبة الى كل كائن عاقل ومن المؤكد أننا لا نعدم الناس الذين سيفهمون صحة هذا الاعتبار الفلسفي

عندما يكون « مثقف » روسي قد امضى شبابا عاصفا سياسيا وهو في سنه المقدمة تتمنى أن يلتقط انفاسه قليلا ويعيش على هواه فانه يروح يتنهد بشأن العمل التمديني وفيم يجب أن يستقيم هذا العمل التمديني هذا ما يعرف عنه الشيء الكثير والعادة أن نقطة واحدة تبرز بشيء قليل من الوضوح من فوضى ايضاحاته ان قسما بالغ الاهمية من هذا العمل المقبل سيخدم من اجل الحفاظ على فرديته الثقافية ان هذا kulturträger* يوضح لك وهو يتجنب النظر في عينيك اعذرني ، لكن كل رجل مثقف ثمين عندنا وبكلام خر فان ذهنيتــه شيء صالح جدا وبالغ المنفعة بحيث تكفي أن يتملها الشعب كي يشفى في الحال من عدد من الامراض مثلما كان العبرانيون وهم في الصحراء يشــفون حــين نظرون الى الافعى البرونزية التحول الى أفعى من البرونز هذا هو العمل الذي يوصي السيد تيخوميروف قراءه به ان الرجل الذي أغراه فيما مضى مجــد روبسبيير اوسانجوست تتظاهر الآن بأنـه مفتون بالمثالين المجدين لكوستانجوغلو الاقطاعي المثقف أو جابي الضرائبمورازوف(١١) صاحب النفس الملائكية

وفيما يتعلق بالعمل التمديني فانه من الافضل على اية حال الا يستنجد بتاريخ وحين تذكر قراءه ببطرس وكاترين والكسندر الثاني فانه يرتكب طيشا خطيرا ان في مقدور القارىء ، **وهو يفكر في معنى هذه الأمثلة** ، أن يقول في نفسه ان « عملا تمدنيا هاما في عهد هؤلاء الاشخاص ، سواء اكتمل أم لم يكتمل ، قد استقام — **وذلك بقدر ما تحقق حقا « في البلاد »** — في اصلاح المجتمــع بصورة تتفق مع حاجــات العصر الاشــد احاحــا وان سؤالا يعترضنا أيمكــن للقيصرية كما هي حاليا ، أن تأخذ المبادرة في اصلاح يفيد المجتمع الروسي ، وبصورة تتفق مع حاجات **عصرنا** ؟ يقال ان الاصلاح الاشد ضرورة بالنسبة الى هذا المجتمع سيكون الحد من السلطة الامبراطورية أيمكن للقيصر أن يقوم بهذا «العمل التمديني ؟ يالها من فكرة خطيرة ياسيد تيخوميروف ان القارىء الذي يطرح على نفسه سؤالا مماثلا لا يستبعد كثيرا أن يكون صاحب تفكير رديء جدا وقد تستطيع بعض القراء أن تذهبوا الى ابعد من ذلك أيضا وينساقوا مع أفكار «هدامة». فقد تقولون في أنفسهم ن اصلاحات الكسندر الثاني قد أملتها مذبحة القرم التي فرضت علينا برنامجا من التحديدات التي من المؤكد انه لا غنى عنها من اجل الابقاء

* [حامل الثقافة]

على روسيا بوصفها دولة أوروبية وكان الغاء نظام الرق اذن قاعدة سائر الاصلاحات الاخرى ولم تكن الباعث عليه اعتبارات اقتصادية فحسب ، بل كذلك العدد المتعاظم كل سنة للفتن الفلاحية التي كانت تبعث على الخوف من انتفاضة شعبية وانــه ليترتب على ذلك فيما يبدو اننا اذا كنا نريد أن نحمل القيصر على القيام بعمل تمدني فان علينا أن نهدده بانتفاضة . وطبعا نهدده بصورة جدية ، يعني دون الاقتصار على العبارات ، بل بتحضير الانتفاضة بصورة فعلية وبعبارات اخرى فان الفعل الثوري عمل تمدني لكن مأخوذ من وجهــة نظر أخرى وانــه لنوع من العمل التمدني المفيد جدا لملوكنا في واقع الامر ذلك انهم سوف يتحولون بكل سهولة الى قياصرة « محررين » بعد أن يحركهم الخوف من العصيان ولم يكن بد كيما يفكر الكسندر الثاني في الاصلاحات من الا نترك وضع روسيا الميئوس منه لنقولا مخرجا آخر سوى الانتحار ان الثوريين سوف يهدون القياصرة الى المنظور المحتوم للعمل في سبيل الحضارة ولعل الانتحارات الامبراطوريــة تصبح نافلة اذن

هل تدرك ، يا سيد غريتش ، التجربة التي تستحث قراءك على الوقوع فيها ؟ كيف يمكنك أن تتصرف بمثل هذه الحماقة ؟ وانك لتجسر بعد على التباهي بهـذا « الخاتم الايجابي » الذي « يميزك » دائما ! لماذا تتعثر في التاريخ ؟ اكتف اذن بتمجيد العمل التمديني العزيز على قلبك الذي لا يمس حالة المجتمع مطلقا والذي يكافئنا مائة ضعف على كل متاعبنــا حتى اذا كان الحكم المطلق ينتزع من الروس الشجعان « كل ما يمكن تصوره

ان صاحبنا غريتش الجديد يعرف جيدا القدر الضئيل من الحماسة الــذي سدبه الملوك الروس « للعمل التمديني ولذا فانه لا يريد أن يلمس وطنيتنا بتبيان المهمات القومية التي تستطيع حكومة قوية فقط ان تنجزها في نظره ويبدو بمعنى ما أن القيصرية لم تفتقر قط الى القوة لكن هل اسهم هـذا الظرف كثيرا في العمل التمديني ؟ لنتذكر بالاحرى التاريخ الحديث جدا للمسألــة الشرقيــة

لقد قيل لنا ان « رسالتنا القومية تقتضي تحرير مولدافيا وفالاشيا ولقد قاتلنا في سبيل هذا التحرير وحين تحقق نجــح حكمنــا المطلق في ان يجعل من الرومان أعداء لنا اثارة الرومان ضد روسيا اكان ذلك اذن اسهاما في تحقيق الرسالة التاريخية لروسيا ؟

ولقد قيل لنا ان تحرير صربيا ضروري بنتيجة « رسالتنا التاريخيــة ولقد اسهمنا في هذا التحرير ، لكن سياسة القياصرة القت بصربيا بين ذراعي النمسا ـ المجر هل تقدم ذلك بانجاز الرسالة موضوع البحث ؟

ولقد قيل لنا أن مصلحة روسيا تقتضي تحرير بلغاريا . الامر الذي أسال قدرا غير قليل من الدماء الروسية ، وهؤلاء البلغاريون الآن بفضل سياسة حكومتنا الحازمة و القوية ، يكرهوننا فكأننا أسوأ مضطهديهم ما مصلحة روسيا في ذلك(١٢) ؟

ان انجاز رسالة قومية يتطلب شرطا قبل كل شيء مهما يكن البلد المقصود ان تتفق سياسة الحكومة « بقوة » مع مصلحة الامة ولا وجود لهذا الشرط عندنا. ولا يمكن أن يوجد لان سياستنا تتوقف حتى درجة بعيدة على تقلبات مزاج أصحاب الجلالة لقد أعلنت اليصابات الحرب على فريدريك البروسي ، واذا روسيا بأسرها تتلقى الامر بالتفكير بأن ذلك في مصلحتها القومية ولكن هذا بطرس الثالث يعتلي العرش ولما كان قيصرا قاصرا بعد ، فقد تصرف كخائن ان الجنود الروس الذين كانوا يقاتلون البارحة **ضد** فريدريك ينتقلون في الحال **الى صفه** . ويتلقى الشعب الروسي الامر بالتفكير بأن مصلحتهالقومية تتطلب ذلك. فليتذكر السيد تيخوميروف تصرفات بولس الماجنة الاوتوقراطية ، أو تصرفات نقولا الاول ايضا هذا الذي كان يؤمن بأن رسالة روسيا القومية الاساسية هي أن تلعب بصورة لا مخذ عليها دور الدركي في أوروبا ما الذي كسبته روسيا من حملتها في المجر ؟ بعد سنوات قليلة من هذا الحادث سأل خالد الذكر رجلا بولونيا من هو منذ جان سوبيسكي ملك بولونيا الاحمق ؟ واذ لم يعرف محدثه ما يجيب به قال الامبراطور موضحا أنا لأني أنا الآخر انقذت بكل بلاهة فيينا الم تجر بلاهة صاحب الجلالة امبراطور روسيا وملك بولونيا بالضرورة على روسيا وعلى مصلحتها القومية أسوأ العواقب ؟

ان الرسالة القومية الاكثر جوهرية بالنسبة الينا هي الفوز بالحريات السياسية التي ستكف بلادنا بفضلها عن أن تكون لعبة بيد أحد الشجعان المزيفين وان مقرظي الاوتوقراطية حين يتحدثون عن المصلحة القومية لا يفعلون سوى تذكير روسيا بهذا الواجب

ان مؤلفنا يؤكد أن « رومانسية الثوريين العضالة وحدها تتيح " معاملة الملوك الروس الوراثيين كما لا يجوز أن يعامل الا المغتصبون ان القياصرة لم يسرقوا سلطانهم ، بل تلقوه من أجداد انتخبوا بكل مهابة وحتى اليوم لم تنبس الغالبية الساحقة من الشعب بكلمة واحدة لتعبر عن رغبتها في انتزاع القوة الكلية من آل رومانوف وان السيد تيخوميروف ليذكرنا أيضا ، زيادة في انارة جلالة السلطة الامبراطورية بأن الكنيسة الروسية المعترف بها من قبل الغالبية الساحقة من السكان تكرس القيصر اذ تسبغ عليه لقب رئيسها العلماني* .

---

* المصدر نفسه ، ص ١٦

وهذه ملاحظة صغيرة جدا نبدأ بها ليست الكنيسة هي التي كرست القيصر اذ أسبغت عليه ذلك اللقب ، بل قيصر انتحله بمبادرته الخاصة وفي مصلحة عرشه وليست هذه جريمة كبرى ، لكن ما السبب اذن في ان السيد تيخوميروف يشوه التاريخ

وعن أي آل رومانوف يتحدث ؟ لقد كان بالفعل زمان احتل فيه آل رومانوف عرش القياصرة وليس في مقدورنا ان نقول ان انتخاب هذه العائلة المالكة قد نشأ من اعتبارات « مهيبة حقا ان بعض المؤرخين يؤكدون ان السادة الاقطاعيين اختاروا ميسيل الطيب هذا لانه كان « ضعيف العقل قليلا بحيث كانوا يأملون في ان يظل مخلصا لهم ويروون ايضا ان القيصر المختار قد وعد من جانبه « بمهابة » باحترام حقوق « البلاد » لكن احدا لا يعرف شيئا دقيقا عن هذا الموضوع ، وفيما يتعلق بآل رومانوف ، فالافضل ان نتناول الابيات الساخرة للكونت الكسي تولستوي:

كان ذلك صيفا

لكن أكان ثمـة اتفاق ؟

ان التاريخ ، بكل حـذر

يلوذ بالصمت في هذا الخصوص*

ومهما يكن من أمر فان آل رومانوف قد انتخبوا حقا وفي مقدور قياصرة روسيا أن يستندوا الى هذا الاقتراع الشعبي اذا كانوا ينتسبون حقا الى هذه العائلة المالكة لكنه مضى الآن زمن طويل على زوالها فبعد موت اليصابات ارتقى بطرس دي هولستاين ــ غوتورب سدة العرش ، وبزواجه من أميرة من آل انهال ــ زيربست لا يمكن في حال من الاحوال أن يتحدر من آل رومانوف حتى اذا اعتبرنا ولادة بولس شرعية ، وهو ما تنفيه كاترين بصورة حازمة في الذكريات ولم يشترك الشعب مطلقا في انتخاب بطرس دي هولشتاين ومن المؤكد أن روابط قربى من السلالة الانثوية تصله بالعائلة المالكة المندثرة لكن اذا كان من الواجب تسميته على هذا الاساس من آل رومانوف وتسمية سلالته ايضا ، فانه من الواجب أن نسمي كذلك أولاد أمير أدنبره** مثلا وهو ما يبدو أن أي انسان لم يفكر فيه بعد ومن المؤ ان الثوريين الروس سيسخرون كليا من معرفة ما اذا كانوا سوف يطيحون بآل رومانوف او آل هولشتاين ــ غوتورب ، ولكن مرة اخرى لماذا نشوه التاريخ ؟

ليس لنا الحق في ان نسمي القياصرة الروس مغتصبين ؟ هذا ما كان ينقصنا بعد لقد تصورنا على الدوام اننا لا نستطيع أن ننعتهم الا بالمغتصبين واننا نتصور ذلك ن القياصرة الروس ، في كثير جدا من الاحيان ، قد نعتوا أسلافهم بهذه

تاريخ الامبراطورية الروسية منذ غوستوميسل حتى تيماشيف]

١٨٤٤ الاد الثاني للملكة فكتور دوق الدوقة

الكسندر الثاني

الصفة . ايتذكر السيد تيخوميروف تاريخ القرن الثامن عشر ؟ ايتذكر ارتقاء كاترين . اليصابات سده العرش ؟ ان أمامنا أحد أمرين . فاما أن * ces dames قد اغتصبتا السلطة الامبراطورية . واما أن السابقين لهما كانوا مغتصبين اذا كانتا قد تصرفتا بصورة شرعية . لقد اتهم بولس عمل كاترين بالاغتصاب دائما . ويؤكدون أن نقولا الاول كان يساطره هذا الرأي . ايتذكر السيد تيخوميروف اغتيال بولس ؟ ايتذكر أنه في الامكان . في هذه القضية . اتهام الكسندر الحبيب على الاقل بعدم مساعدة شخص في خطر . ؟ كيف نسمي رجلا يعتلي العرش بفضل مؤامرة ضد أبيه وأمبراطوره بالذات ؟ أواه ، ان الثوريين الروس يسخرون كليا من مسألة ما اذا كانوا يواجهون قياصرة بنعمة الله أو بنعمة الحكام — فرسان بريوبراجنسكي على سبيل المثال . ولكن ، مرة أخرى . لماذا نهين التاريخ ، لماذا نتحدث عن عرش تم الحصول عليه شرعيا من . الاجداد . ولماذا جميع هذه «الاوهام» عن قداسة عرش دنسته جرائم عديدة ؟

الا اذا كان السيد تيخوميروف يحسب قراءه جهلة كليا بالتاريخ الروسي ويقامر على ذلك . أو انه يجهل هو نفسه هذا التاريخ . فيرمي بنفسه في الماء ليرى . كما يقال .

أيها البطل المقدام ، ان شجاعتك سوف تقضي عليك

هذا هو المدافع الشجاع عن العرش الذي لم تفهمه رسول روسيا ولم تقدره ان هذه المجلة تؤكد أن السيد تيخوميروف لم ينطق بجديد . ولكن من يمكن أن نجد الجديد . أيها السادة ، طالما أنكم استنفذتم كل ما يمكن أن يقال في مصلحة الحكم المطلق . وفضلا عن ذلك . فان التهمة ليست عادلة بصورة مطلقة . ان في كراسة السيد تيخوميروف طريقة للتهديد جديدة كل الجدة من أجل صرف الناس عن العمل الثوري . واليكم ثمرة هذه الاصالة التيخوميروفية .

انا نقرأ في الصفحة ١٨ من كراسه

« نمط الحياة بالذات يتنافى حتى درجة كبيرة مع مصلحة المتآمر الارهابي . . ان الشعور الذي يسود كل شيء هو الشعور بأنه يجب أن يكون مستعدا للموت ليس اليوم أو غدا فحسب ، بل في الثانية الآتية . وان الامكانية الوحيدة للعيش مع هذا الشعور هي في عدم التفكير في جملة من الاشياء التي يجب التفكير فيها مع ذلك كان لابد للمرء . يظل انسانا طبيعيا . وان أي تعلق جدي مهما يكن ضئيلا ومن أية مرتبة كان يصبح . في هذه الحال ، كارثة حقيقية . ان دراسة اية مسألة ، اية ظاهرة اجتماعية ، الخ . لا تعود أمرا معقولا ، كما ان خطة للعمل على قدر ما من التعقيد ، وعلى قدر ما من السعة ، لا يمكن حتى ان تخطر في البال . ولابد للمرء اذن ان يخدع الناس جميعا . باستثناء نصف اثني عشرية من انصاره) من الصباح حتى المساء ، وان يختفي عن العالم كله . وان يستشم عدوا في أي انسان »

---

* هاتين السيدتين] .

وباختصار فان حياة المتآمر الارهابي هي حياة « **ذنب مطارد** » والنضال الذي يخوضه يحط منه

يالها من مقارنة اتكون تلك « لطافة لغوية » كي نستعير كلمة نكراسوف ؛ فكروا في معنى حجج السيد تيخوميروف وسوف ترون انه ليس على ذلك القدر من السذاجة الذي يتظاهر به غالبا ان في روسيا قوة لا ترحم وبالغة القسوة تسحقنا وتنتزع منا كل ما يمكن تصوره اننا نحتج بصورة منعزلة ضد هذه القوة ، وهي تجعلنا هباء منثورا اننا ننتظم لكي نناضل بصورة منهجية وهؤلاء نحن ((**ننحط**)) بفعل هذا النضال الذي كان يبدو لنا أنه يجب أن يحررنا ان الحكمة واضحة اذا كنت لا تريد أن ((**تنحط**)) فلا تحتج استسلم للسلطة التي أقامها الله احن راسك أيها الفارس المتكبر

ويبدو أن النتيجة لا تنطبق بصورة مباشرة الا على الارهابيين ؛ لكنه اذا كانت المقدمات صحيحة فان **كل عمل ثوري** في روسيا يجب أن يعتبر محطا ذلك أن جميع الثوريين دونما تمييز يجب أن ((**يناضلوا**)) ضد الحواسيس وأن يستسلموا لفكرة أنهم قد « يموتون ليس اليوم أو غدا فحسب بل في الثانية الآتية أيكون مؤلفنا على حق على اية حال ؟ من حسن الحظ أننا بعيدون عن هذا التقدير ليس السيد تيخوميروف مخطئا ومخطئا جدا فحسب ، بل هو يقول نقيض الحقيقة كليا ، ويكفي حد أدنى من الانتباه لنرى كيف تذهب هذه السفسطة بأسرها هباء

لنبدأ بتصحيح صغير جدا لكن لا مفر منه ان الثوريين **لا يناضلون** ضد الجواسيس بل ضد الحكومة الروسية التي تستخدم ، من أجل مطاردتهم السرطة والمحرضين ، وهو ما يسمونه عيون القيصر » وان هذا الاسلوب في النضال ضد الثوريين يؤثر في الحكومة بالطريقة الاكثر انحطاطا ولايقول السيد تيخوميروف كلمة واحدة عن ذلك، لكن الامر بدهي* وأما الثوريون، فماعسى أن يكون أثر الاضطهادات البوليسية فيهم ؟ أولا، يجب ان تغذي هذه الاضطهادات في كل واحد منهم الشعور بأنه يجب أن يكون مستعدا للموت في سبيل قناعاته « ليس اليوم أو غدا فحسب بل في الثانية الآتية » ولا يملك جميع الناس القوة على احتمال وسواس

* يكفي نتذكر جازة سوديكين كي نتبين المودة المذلة مع الوشاة التي حققتها لقياصرتنا طريقهم في محاربة الثوريين الاسر الشهير لالكسندر الثالث في غاتشينا(١٣) قرأنا مجلة غاب اسمها عن ذاكرتنا أن العائلة الامبراطورية السامية قد رتبت شجرة عيد الميلاد لمستخدمي شرطة القصر صاحبة الجلالة فائقة السمو جدا الامبراطورة تفضلت فوزعت بيديها الهدايا على الموظفين وبعد مثل هذا الفضل حيال شرطة **لا تخفي اسمها** لن يدهش أي انسان حين يعلم من الصحافة أن صاحبي الجلالة قد منحا بصورة أخوية ، في ختام اسبوع الآلام قبلة الفصح لعملاء الشرطة السر ، « انصارهما » الاكثر مودة

مثل هذه الفكرة انـنا نجد في تاريخ الجمعيات السرية في جميع البلدان امثلة على الضعف والتردد ، و « الانحطاط » بله الانهيار التام لكن ـ من سوء حظ الطغاة ـ ليس جميع الثوريين من هذا النمط ان الاضطهاد الدائم يمارس في الكائنات الاقوى تأثيرا مناقضا تماما انه لا ينمي **الخوف** فيهم ، بل العزم التام ، الراسخ على **القتال حتى التضحية الاسمى** في سبيل القضية العادلة وان هذا العزم ليمنحهم معنويات لا يستطيع البورجوازي الطيب الذي لم يثر قط الشك عند أدنى الوشاة أن يشكل عنه حتى فكرة تقريبية ان جميع المصالح الخاصة ، الانانية ، تنتقل الى المستوى الخلفي ، أو بالاحرى تنسى كليا ولا تبقى الا المصلحة السياسية المشتركة فكرة وحيدة وهوى وحيد لكنه مثل الحريق*
ان الانسان ليرتفع حتى البطولة وان حركتنا الثورية لم تفتقر الى مثل هؤلاء الرجال انظروا بالاحرى ما كتبه كينان(١٤) بعد تعرفه على المنفيين الروس في سيبريا؛
انه يقول في احدى الرسائل التي استشهدت بها السيدة داوز في عدد آب ١٨٨٨ من المجلة الاميركية The Century

> ان ما شاهدته وتعلمته في سيبريا حرك أوتار قلبي السرية وفتح أمامي عالما من المشاعر الجديدة وطهر أفكاري الاخلاقية وسما بها من وجهات نظر عديدة لقد صادفت هناك رجالا أبطالا حقا وفعلا كبارا بقدر أكبر الرجال الذين حدثنا عنهم التاريخ لقد شاهدت هناك أناسا شجعانا وأقوياء عازمين بصورة لا محدودة على التضحية ومستعدين للموت في سبيل معتقداتهم لقد توجهت الى سيبريا وأنا شديد التحامل على المنفيين السياسيين وحين ودعتهم عانقتهم وكانت عيناي تغصان بالدموع

كيف سيفسر لنا السيد تيخوميروف هؤلاء البشر ؟ انه ليبدو بالفعل ان النضال « المحط ضد الجواسيس لم ينحط بهم مطلقا آه يا سيد غريتش ، ياسيد غريش ، أتكون القذى قد سقطت من عينيك ؟
وانه لمن المؤكد أن الحال تكون أفضل بصورة لا متناهية لو أن ثوريينا لم يكونوا عرضة للتجسس مطلقا لكن الامر يتوقف على الحكومة ولقد كان تيخوميروف يقدم لنا خدمة فخورة لو أنه اقترح على دوائرنا العليا أن جميع الوسائل ليست مشروعة في النضال ضد الثوريين ، وان عيون القيصر لا تعطيه على الاطلاق المظهر اللائق جدا
واما خداع كل الناس ، كما يبدو أنه يجب على ثوريينا أن يفعلوا « من الصباح حتى المساء فاليكم الاعتبار الذي نعرضه على السيد تيخوميروف اننا نجهل ما اذا كان قد خدع أناسا كثيرين أيام كان يعتبر ثوريا هذا ممكن جدا على أية حال ان اعترافاته الخاصة تبين أن نشاطه الادبي حين كان يسهم في تحرير

---

* [ليرمنتوف : **متسيري**]

رسول ارادة الشعب كان **يخدع** القارىء ، طالما انه لم يكن يؤمن بالقضية التي يدافع عنها لكنه لا يترتب على ذلك انه لابد **لجميع** الثوريين أن يخدعوا بالضرورة ان المثال الحزين للسيد تيخوميروف لا يصلح لهم ان النشاط الثوري يتطلب فقط **الحافظ على السر** لكن المسافة بعيدة بين الحفاظ على السر **وخداع** الآخرين ان نسان الاصدق الذي لم يتفوه قط بكذبة واحدة طوال حياته يمكن أن تكون له أسرار وانه لحق أخلاقي صارم له ألا يتقاسم هذه الاسرار **الا** مع « انصاره أيكون حقيقة أن السيد غريتش لم يفهم ذلك

لكن اليك أيها القارىء ، الامر الابعث على الدهشة ان الحكم المطلق الروسي لفظيع جدا بحيث أن السيد تيخوميروف لا يتوصل حتى وقد انحرف في طريقه الى دمشق✻ الى القيام حتى النهاية بدوره ككاتب للملك فبعد مماحكات عديدة وبعد سفسطات كثيرة متخيلة بغرض الدفاع عن القياصرة فانه يأخذ بصورة ليس ابعث منيا على العجب في السخرية على طريقة شيشدرين ، فيقول

> حسب القوانين الروسية يشكل المليك مصدر السلطة التشريعية والتنفيذية الناخبين هم هذا المصدر في الجمهوريات المشكلين ميزاتهما ، لكن العمل السياسي مهما يكن مصدره لا يتظاهر الا بوساطة بعض المؤسسات [أحيانا ، على سبيل المثال المتاريس يا سيد تيخوميروف] وان هذه المؤسسات لتتوفر في روسيا وسائل العمل لسياسي بصورة لا تقل عن مؤسسات البلدان الاخرى ان لدينا مجلسا للدولة ، ومجلسا لشيوخ ، ووزارات ، مع كثرة من الاجهزة المعارضة ، مثل شعبة التجارة والصناعات ، هذا تركنا جانبا مجموعة كاملة من اللجان الدائمة ص ٣١

اننا لنستطيع ، اكراما لهذه الدعاية السوداء أن نغفر لمؤلفنا قسما كبير من مخالفاته للمنطق والحس السليم ولكن ليس للصدق السياسي طبعا

٤

لعل القارىء يستنتج مما سبق اننا لا نعترف بأية جدارة للاستبداد في بلادنا ليس هذا صحيحا تماما ان للاستبداد الروسي فضائله التاريخية التي لاجدال فيها واهمها انه ادخل هو نفسه الى روسيا بذرة موته الخاص ومن المؤكد انه اضطر الى ذلك من جراء جوار أوروبا الغربية لكنه فعل ذلك على أية حال فهو يستحق من جانبنا الامتنان الاصدق

✻ [الاشارة الى ما حدث للقديس بولس من اهتداء الى الايمان المسيحي وهو في طريقه من اورشليم الى دمشق] .

لقد كانت السمة المميزة لموسكوفيا القديمة أنها آسيوية كليا وهو ما يتضح تماما من نظام البلاد الاقتصادي ومن عاداتها ونظامها السياسي على حد سواء لقد كانت موسكو نوعا من الصين لكنها صين واقعة في اوروبا ومن هنا كان هذا الفارق الاساسي بينما كانت الصين الحقيقية تبذل كل جهدها لابقاء اوروبا بعيدة عنها فان صيننا الموسكوفية قد حاولت منذ أيام ايفان الرهيب ، بقوة السلاح أن تنحت لها في اوروبا هذه كوة على الاقل ولقد تمكن بطرس من حل هذه القضية الرئيسية حين حقق ثورة هائلة انقذت روسيا من التصلب لكن هذا القيصر ما كان يستطيع ان يحقق الا ما هو في قدرة قيصر لقد خلق جيشا على الطريقة الاوروبية ، وحول نظام الحكومة على الطريقة الاوروبية وبكلمة واحدة ، فان « القيصر النجار » قد طبق لجذع موسكوفيا الآسيوي ذراعين اوروبيتين ويقول رامبو* بحق بخصوص هذه المرحلة من تاريخنا لسوف يشيد على تنظيم اجتماعي يعود فيما يبدو الى القرن الحادي عشر دبلوماسية وجيش نظامي وتراتب بيروقراطي وصناعات ترفية ، ومدارس واكاديميات لكن هاتين الذراعين الاوروبيين اللتين قدمتا خدمات هائلة لروسيا في السياسة الخارجية قد مارستا تأثيرا سلبيا من وجهات نظر عديدة في المجال الداخلي ان هذا القيصر العظيم وقد اشبه روسيا كمايقول بوشكين. سحق الامة تحت وطأة الضرائب وقاد الاستبداد الى درجة من القوة لم يسبق لها مثيل ان جميع المؤسسات التي كانت تلجم نوعا ما السلطة الامبراطورية قد دمرت ؛ ونسيت جميع التقاليد وجميع العادات التي كانت تحافظ قليلا على كرامة الشعب ؛ ومنذ وفاة بطرس بدات جميع هذه اللطائف العسكرية التي تدين لها تاريخ الامبراطورية الروسية ببقائه طويلا مأساة **Nel un lupanar حسب تعبير كاتب ايطالي لقد كان « اصلاح بطرس » مناسبا لذوق قياصرتناوقيصراتنا لانه كان يوطد الاوتوقراطية بصورة رهيبة وأما « العمل التمديني الذي قام به بطرس فقد حاولوا قدر المستطاع التخلص منه ، وكان لابد من هزات قاسية كي يتذكر الملوك الروس « الحضارة » الروسية ولقد سبق فقلنا ذلك ان النهاية البائسة لحرب القرم هي التي ذكرت الكسندر الثاني بهذه « الحضارة » ان مذبحة ١٨٥٤ قد بينت له المسافة الهائلة التي كانت تفصلنا عن اوروبا الغربية وبينما كنا ننام على أكاليل الغار التي جمعناها خلال الحروب ضد نابليون ، وبينما كنا نضع جميع آمالنا في قدرة العذاب الآسيوي عند الجندي الروسي والخصائص الرائعة للحربة الروسية ، فقد توصلت الشعوب الاكثر تقدما في أوروبا الى استثمار جميع انجازات التقنية الحديثة. وكان لابد لنا أن نتحرك نحن ايضا شئنا أم أبينا كانت الدولة في حاجة الى مصادر جديدة للدخل ؛ لكنه لم تكن بد في سبيل ايجادها من انفاء نظام الرق الذي كان يعوق حتى درجة كبيرة تقدم صناعتنا ولقد الغاه الكسندر الثاني ، ويمكن القول أن الحكم

---

* [تاريخ روسيا]

** [في الماخور] .

المطلق في بلادنا قد حقق رسالته الارضية يوم التاسع عشر من شباط عام ١٨٦١ لم يعد في مقدور الاوتوقراطية أن تلبي بعد الآن المتطلبات الاجتماعيـة الجديدة التي ظهرت في روسيا الا اذا كفت عن ان تكون اوتوقراطية

والحقيقة أن الذراعين الاوروبيتين مارستا شيئا فشيئا تأثيرا هائلا في جذع العضوية الاجتماعية التي تحولت بصورة تدريجية من آسيوية الى اوروبية كان لابد، في سبيل الابقاء على المؤسسات التي انشأها بطرس في روسيا ، من المال ، ومن مزيد من المال دائما وحين كانت الحكومة تبتز هذا المال من الشعب فقد كانت تسهم في الوقت نفسه في تنمية الاقتصاد التجاري وكان لابد كذلك ، في سبيل الحفاظ على المؤسسات المذكورة ، من حد أدنى من الصناعة ، وكان بطرس هو الذي وضـع الاسس لها وفي البداية وبصورة تتفق مع أصولها كانت هذه الصناعة خاضعة كليا للدولة ، وفي خدمتها فهي عبدة للتاج ، مثلها كمثل سائر القوى الاجتماعيـة في روسيا وكان عمل الفلاحين الاقنـان الملحقين بالمصانع والمعامل هو الـذي يشغلها ولقد انجزت عملها مع ذلك ، تساعدها على أية حال الظروف الدولية وان ما يبين على أفضل وجـه ما حققـه الاقتصاد الروسي من تقدم منـذ بطرس حتى الكسندر الثاني هو أن اصلاحات بطرس **كانت تنطلب تقوية نظام الرق** بينما كانت اصلاحات ألكسندر الثاني **غير معقولة دون الغائه**

وفي سياق السنوات الثماني عشرة التي تفصلنا عن ١٩ شباط ١٩٦١ حققت الصناعة الروسية تقدما سريعا جدا بحيث تبدلت ملامح علاقاتها مع الدولة تبـدلا كليا لقد كانت فيما مضى **خاضعة للدولة** كليا ، وهي الآن تسعى الى **اخضاعها** الى جعلها في خدمتها ان تجار معرض نيجني نوفغورود في أحد الالتماسات التي يوجهونها الى الحكومة كل سنة على وجه التقريب ينعتون بسذاجة وزارة المالية بأنها جهاز « لاصحاب » التجارة والصناعة ان الصناعيين الذين ما كانوا يعرفون فيما مضى أن يخطوا خطوة واحدة دون تعليمات من الحكومة يطالبون اليوم بأن تطيـع الحكومة **توجيهاتهم** . وان تجار نيجني نوفغورود انفسهم يعبرون بتواضع عن الامنية بألا تتخذ من الآن فصاعدا التدابير القمينة بممارسة تأثير في حالة الصناعة عنـدنا الا بموافقة المندوبين عن مرتبتهم وهكذا نرى ان الحكم المطلق قد انتهى زمانه في مجال التقدم الاقتصادي فوصايته **لم** تكف عن كونهـا ضرورية فحسب ، بل هي **تسيء** الى صناعتنا وليس بعيدا ذلك اليوم الذي ستضطر فيه « مرتبة التجارة والصناعة وقد اقتنعت بعبث التمنيات المتواضعة ، الى تذكير القيصرية بمزيـد من الصرامة ❊ Tempora mutantur et nos mutamur in illis

---

❊ [الزمن يتغير ونحن نتغير معه فرجيل] يعتقد عادة عندنا أنه حالما تصدر الحكومة تعرفات حماية جمركية ولا تقتر في المخصصات المعينة لهـذه الشـركة المغفلة أو تلك ، فليس لـدى بورجوازيتنا أي سبب للاستياء . ان في هذا خطيئة كبرى ان النوايا الطيبة لا تكفي هنا ، كما انها

ان السيد تيخوميروف ، الذي مجد فيما مضى الفلاح « الحقيقي الذي كان يرى فيه قوة ثورية رهيبة ، يشدد حاليا على قابلياته الرجعية فكأن ذلك أمر مفروغ منه ذلك انه يفكر في هذا « الموجيك » حين يقول ان عشرات الملايين من الروس لا يريدون أن يسمعوا حديثا عن نظام غير القيصرية ، وهذا هو على استعداد الآن ، مثله مثل وكيل الاغنية في **مقالة جيليخوفسكي**(١٥) لان ينشد بصوت عطوف

شكرا لله القدير
فالموجيك هو منقذنا

وبالفعل فان الموجيك سوف ينقذ السيد تيخوميروف و انصاره » في الوقت الراهن اذا كان في مقدور السيد تيخوميروف والانصار المشار اليهم أن ينقذوا الموجيك الذي خلفه لنا الزمن القديم الطيب لكن « أية قوة في العالم لن تنقذه .

ان تطور الانتاج التجاري والانتاج الرأسمالي قد غير حياة السكان الكادحين في روسيا من الاساس لقد كان الاستبداد الموسكوفي ثم البطرسبورغي يقوم

لا تكفي في أي موضوع آخر ، فلابد أيضا من **الحنكة** ، وهذا ما تفتقر اليه حكومتنا ان ايفان اكساكوف الذي كان ، بالمناسبة ، الناطق باسم تجار موسكو يؤكد مثلا في مجلته **روسيا** (٣٠ تشرين الاول ١٨٨٢) ان جميع الجهود التي بذلها تجارنا وصناعيونا من أجل ايجاد أسواق خارجية جديدة « لا تفتقر فحسب الى الدعم القوي من الادارة الروسية ، بل يمكن القول انها تشل على الدوام من جراء انعدام أية سياسة تجارية جامعة مرسومة بوضوح لدى حكومتنا وانه ليفسر هذا الانعدام بهذه الحقيقة المضبوطة بصورة مطلقة ، ألا وهي مجالات الادارة ، في نظامنا البيروقراطي ، موزعة على الاقسام دونما اعتبار للمجموع ، وكل قسم يشكل على وجه التقريب دولة ضمن دولة واليكم الحجج التي يقدمها تأييدا لموضوعته :

ان وزارة المالية ، على سبيل المثال ، تعد وتنشيء نظاما كاملا لتشجيع الصناعة والتجارة الروسيتين ومساعدتهما ، وكذلك تعرفة من اجل استيراد البضائع الاجنبية الى روسيا ، بينما مكاتب الخطوط الحديدية التابعة لوزارة أخرى هي وزارة المواصلات تنظم تعرفة للنقل الحديدي تحيل ترتيبات وزارة المالية هباء منثورا وتحمي التجارة الخارجية على حساب التجارة الروسية وفي الوقت نفسه نجد أن وزارة ثالثة هي وزارة الداخلية ، التي ترتبط بها طرق المواصلات الطبيعية ، تهمل طريقا تجارية قديمة هامة تصبح غير سالكة ، فيما وزارة الشؤون الخارجية تعقد اتفاقية دون ان تبالي بصورة كافية بالمصالح التجارية الروسية (بادخالها مثلا ، في معاهدة برلين ، البند الذي يلزم بلغاريا بالتقيد بالتعرفة التركية المنافية كليا لروسيا والملائمة جدا لانكلترا والنمسا ، الخ الخ وفي العدد التالي من **روسيا** يحدد أكساكوف أن جميع التدابير التي تحمي الصناعة الروسية لم يحصل صناعيونا عليها الا بالنضال القاسي يعني بعد مرافعات طويلة وملحة وفي العدد نفسه يعلن رئيس تحرير المجلة سلافية النزعة بخصوص النقل عبر القفقاس ــ ونكرر انه كان هنا الناطق باسم صناعيي موسكو ــ عالم الصناعة » مستاء من الاتجاه الذي اتخذته المسألة في بطرسبورغ لقد فقد كل أمل ، وقد أخذه الاستياء والحيرة والخجل ، في أن يرى دوائر العاصمة الرسمية تؤيد بقوة المصالح القومية (كذا) » . هذا كله واضح جدا ، أليس كذلك ؟

على وجود سكان ريفيين متخلفين تعود شروط وجودهم الاقتصادية الى القرن الحادي عشر على وجه التقريب حسب صيغة رامبو ولقد دمرت الراسمالية تدميرا تاما مجتمعنا الرعوي القديم في الريف ان غليب اوسبنسكي الذي تصور أقاصيصه لنا بأمانة الصورة الفوتوغرافية الموجيك الحقيقي يعترف بأن هذا الموجيك لن يعيش طويلا بعد الآن ، وان الاشكال الفلاحية القديمة تتفسخ وان «شيعين» جديدتين تظهران في الارياف البورجوازية ، وبروليتاريا تغادر القرية مع ولادتها قاصدة المدينة والمراكز الصناعية ، والمعامل والمصانع

واما أن تطور البروليتاريا يقحم الثورة في المجتمع فلا حاجة لان يكون الانسان عالما كبيرا ليعرف ذلك ان الجميع يعرفون الدور الذي لعبته الطبقة العاملة في تاريخ أوروبا المعاصر ففي المجتمع الاوروبي الراهن ، حيث تقدم لنا الطبقات الحاكمة لوحة كريهة عن المراءاة ، والكذب ، والفجور ، والاحتيال ، والمضاربة في البورصة ، والافلاس السياسي تظل الطبقة العاملة السند الوحيد والامل الوحيد لجميع أنصار التقدم المخلصين والذين يفكرون

وان تكون هذه الطبقة لذو أهمية أعظم من ذلك ايضا في بلادنا فبقدر ما تظهر بتعير طابع الحضارة الروسية بالذات ان اقتصادنا **الآسيوي** القديم يتلاشى مفسحا المكان لاقتصاد جديد هو اقتصاد **أوروبي** وانه يقع على عاتق الطبقة العاملة الروسية أن تكمل عمل بطرس الاكبر أن تنهي **التحويل الاوروبي لروسيا** ، ولسوف تسبغ الطبقة العاملة طابعا جديدا كل الجدة على هذا العمل الذي يتوقف عليه وجود روسيا بالذات من حيث هي بلد متحضر وان هذا العمل الذي بوشر فيما مضى **من فوق** ، بالارادة الحديدية لاكثر **الطغاة** الروس **طغيانا** ، سوف يكمل من **تحت** ، بجهد **التحرير** للطبقة الاكثر **ثورية** في التاريخ ان هرتزل يسجل **في مذكراته** أنه ليس في روسيا شعب بكل معنى الكلمة ، بل رعاع جاثون وجلاد فقط . وان **شعبا** هو في سبيله الى الخلق في روسيا مع الطبقة العاملة ، شعبا بالمعنى الاوروبي للكلمة ان السكان الكادحين في وطننا سوف يقومون ظهورهم مع الطبقة العاملة للمرة الاولى ويطالبون جلاديهم بالحساب وعندئذ تدق الساعة الاخيرة للاوتوقراطية الروسية

وهكذا فان المجرى الذي لا ينعكس للصيرورة التاريخية يحمل جميع التناقضات التي ميزت عندنا ليس « الانتيلجنتزيا الثورية فحسب بل كل أنتيلجنتزيا بصورة عامة وحقيقة الامر ان الانتيلجنتزيا الروسية تشكل الثمرة العارضة كليا لثورة بطرس الاكبر نعني للتعليم الذي بوشر وقتذاك في اعطائه للشباب في المدارس والاكاديميات وان هذه المدارس التي نظمت على الطريقة الاوروبية بصورة أكثر أو أقل قد لقحت المراهقين الذين كانوا يتعلمون فيها بعدد كبير من الافكار الاوروبية التي كانت العادات الروسية وعلى الاخص ممارسة الاوتوقراطية ، تناقضها لدى كل خطوة ولذا فاننا نفهم أن يكون قسم من الروس المثقفين ، الذين ما عادت ترضيهم منظورات **تشين** العظيمة . قد اتخذوا موقف المعارضة حيال السلطة . وهكذا تكونت

عندنا الطبقة التي تسمى عادة « انتيلجنتزيا » وبقدر ما كانت هذه الطبقة ترتكز على قاعدة اجتماعية تعود على وجه التقريب الى القرن الحادي عشر فقد كان في مقدورها أن تثور تماما وان تفتن بجميع الطوباويات لقد كانت عاجزة كل العجز عن تغيير اي شيء كان في الواقع المحيط بها لقد كانت ، في التطور العام للحياة الروسية طبقة من غير النافعين . « فائضا فكريا » كما كان هرتزل يقول عن بعض أفرادها ولكن جميع الامور تتغير بقدر ما تتهدم الاسس الاقتصادية للمجتمع الروسي وتتشكل الطبقة العاملة وحين يمضي ثوريو الانتيلجنتزيا عندنا الى العمال . ويحملون اليهم المعرفة ، ويوقظون الوعي الطبقي عند البروليتاريين فان في مقدورهم أن يصبحوا عاملا جبارا للتقدم الاجتماعي هم الذين كثيرا ما تخلوا عن القضية بدافع اليأس وكثيرا ما تحولوا من برنامج الى آخر مثل مريض مصاب بداء عضال يرتمي على جميع الادوية وان الثوريين الروس سوف يجدون عندالبروليتاريا السند « الشعبي » الذي أعوزهم حتى اليوم الراهن ان قوة الطبقة العاملة سوف تنقذ الثورة الروسية من العجز الذي يتحدث عنه اليوم السيد تيخوميروف و انصاره والابتسامة على شفاههم وبالفعل فان « الثورات المنفردة لا يمكن ان تدمر أي نظام سياسي على الاطلاق (وليست كل حركة صادرة عن الانتيلجنتزيا» وحدها اكثر من مجموعة من الثورات المنفردة بيد ان هذه الثورات المنفردة سوف تنصهر في ثورة جماهيرية في « ثورة » طبقة بأكملها ، مثل السواقي التي تأتي فتنصهر في النهر

ولم يفت الوقت من اجل ذلك بعد لم يفت الوقت كثيرا بعد هل ستفهم الانتيلجنتزيا عندنا مركزها هل ستعرف أن تلعب دورها ، الدور الرائع الذي احتفظ التاريخ به من أجلها ؟

سواء عرفت ذلك أو لم تعرفه فالاحداث لن تنتظرها ان انعدام الحلفاء القادمين الانتيلجنتزيا لن يمنع طبقتنا العاملة من وعي مصلحتها من فهم رسالتها من ايجاد زعماء في أحضانها من خلق الانتيلجنتزيا الخاصة بها ، انتيلجنتزيا عمالية وان هذه الانتيلجنتزيا لن تخون قضيتها لن تتخلى عنها لرحمة القدر

ومع ذلك فلا بد من الاشارة مرة أخرى الى أن الطبقة العاملة لن تكون على الارجح وحدها في نضالها ضد الحكم المطلق وان يكن من المفروغ منه أنها تستطيع وحدها أن تعطي هذا النضال الاتجاه الحاسم وان مجرى الاحداث بالذات سوف يدفع الى المعركة ببورجوازيتنا بأكملها ، في نطاق قواها يعني المجتمع المثقف ، وعالم التجارة والصناعة والملاكين العقاريين الكبار هؤلاء البورجوازيين النبلاء بصورة مقلوبة وحتى الطبعة الثالثة في الارياف

أشباه كولوبايف ورازوفاييف(١٦) لبلهاء جدا ومحافظون جدا بحيث يعتقد

بادىء الامر انهم مدعوون لان يقدموا غدا الابطال الاوثق « للحفــاظ على النظام وبالفعل فانهم سينتهون مع الزمن الى اتخاذ هذا الدور لكنه لابد لهم قبل ذلك من اجتياز مرحلة من العواصف

ان نظامنا المالي يقوم على أساس عبودية الفلاح لدولة تبتز منه كل ما يمكن تصوره لانها تنطلق من المبدأالتبسيطي القائل ان الآخر سيتدبر أمره ! »(١٧) وان الصبر الملائكي لهذا الآخر قد برر طويلا هذه الثقة المخادعة ؛ ولكن هذه قدرتــه الرائعة على تدبر أمره قد أخذت تثقل عليه لقد سبق فقلنا ذلك ان الآخر يجتاز عملية تمايز انه يتحول الى بروليساري أو الى كولاك ولما كان الجابي الاكثر حماسة والاكثر يقظة لن يستطيع أن يبتز شيئا كثيرا من البروليتاري الغافل فان ثقل الضرائب التي تبهظ المشاعة يقع أكثر فأكثر على كاهل الفلاحين الذين أثروا ومن المؤكد أن هؤلاء يحاولون التعويض على انفسهم بالاستيلاء على قطع الارض التي تخلى عنها البروليتاريون لكننا ندرك دون صعوبة انه لن يكون في الامكان قط . فيما يتعلق بالضرائب والتكاليف أن يصنع منهم ملائكــة للنزاهة تمكن مقارنتهــم بذلك « الآخر » الشجاع لقدكان يحلم فقط . في بساطته، بمزرعة صغيرة خاصة به . وحين كان يحصل عليها ــ وهو ما كان يحدث له في الغالبية الكبرى من الحالات مع النظام القديم ــ فقد كان في مقدور الدولة أن تستعبده وان تنتزع منه جميــع مقولات المداخيــل المعروفة من رجال الاقتصاد دون أن تترك له أكثر من أجر بائس لكن هذا الاجر لا يمكن أن يرضى به . ان عليه أن يدفعه لعامله الزراعي وأن يضمن لنفسه ربحا شريفا . ولكن هذا الامر لا يمكن تصوره اذا لم يعدل من الاساس اقتصاد روسيا المالي وهو التعديل الذي لا يمكن ان يقوم به الا ممثلو البلد بأسره وحدهم ولا حاجة مطلقا لان يكون المرء نبيا كي يعرف سلفا بأن احتكاكات خطيرة سوف تقوم في هذا الشأن بين الكولاك و « أبيه الصغير القيصر

وهكذا فان الحكم المطلق الروسي يواصل تحضير موته الخاص وليس بعيدا ذلك الوقت الذي سوف يصبح هذا الحكم المطلق فيه مستحيلا على الاطلاق في روسيا وسوف لن نجد البتة عندنا وهذا ما لا ريبة فيه أناسا مثقفين يأسون عن أنه لجائز بل مفيد أن نناقش الوسائل التي سوف تمكننـــا من الحصول على الحريــة السياسية لكن مسألة معرفة ما اذا كانت هذه الحرية ضرورية لا يمكن ان تطرح أناس شرفاء ليسوا بأميين وعلى اية حال فنحن نعرف ما هو الحكم المطلق القديم عندنا لا مواطأة بعد الآن ولا تردد لنمسك به من حلقه ولنضغط بركبتنـــا على صدره*

---

* كلمات لاسال في ? Was nun [والآن]

٥

كلمتان ختاميتان بخصوص صاحبنا غريتش

يرى القارىء الآن فيم كان يستقيم وفيم سوف يستقيم تقدم نظرياتنا الثورية وكما أعلاه فان الاشتراكيين الشعبيين من مختلف الالوان بما في ذلك حزب ارادة الشعب » ، وهم أبعد ما يكونون عن **التوجه** نحو التطور . قد استنجدوا كي ينصرفوا عنه بكل السفسطات المكنة ان عقائدهم تستقيم في أمثلة بنية اقتصادية سوف تحكم عليهم بالعجز الى الابد اذا كانت وطيدة حقا وثابتة بصورة لا تتزعزع حقا بالقدر الذي يعتقدونه ولذا كان نقد الشعبية بالضرورة الخطوةالاولى لاولئك الذين يريدون أن يدفعوا بحركتنا الثورية قدما لو أن السيد تيخوميروف كان يأسف باخلاص لعجز الثوري الروسي عن وضع التطور والثورة في اطار واحد ، فقد كان من واجبه ان ينصرف الى هذا النقد اذن لكنه تصرف على العكس من ذلك تماما فبدلا من نقد الشعبية دفع موضوعاتها الاساسية حتى حدودها القصوى ان الاخطاء الاساسية للفكر الشعبي قد بلغت في دماغه ابعادا عملاقة جدا بحيث أن ثمة مجونا حقا من جانب هذا الرجل حين يطلق على نفسه لقب صانع التقدم (المسالم أو غير المسالم هذا ما لا اهمية له هنا) وباختصار ، فاذا كان الشعبيون ينطلقون من بعض الموضوعات المغلوطة ، فان السيد تيخوميروف قد جعل منهامسوخا كي نقلع وهو في صحة ممتازة في العبث ان المرء لا يمضي الى أبعد من ذلك على هذا المركب !

ان قصة ثورية هذا المؤلف قصة حزينة ان الثورية موضع البحث قد عرفت طويلا عزلة نظرية تامة ؛ ومن ثم دقت الساعة التي أدرك الرجل فيها انه «ليس جيدا أن يعيش المرء وحيدا فسعى الى الزواج من نظرية ما عن التطور . وبعدسنوات قضاها في البحث عن زيجة مناسبة صادف نظره المغرم اخيرا نظرية «وحدة الحزب والبلاد» . ان هذه النظرية العذراء ذات المظهر المتواضع المدعية انها نظرية تطورية ، حقيقية جدا وقديمة السلالة اذا جاز التعبير ، قد تبين أولا أنها زوجة شرسة دفنت ثورية السيد تيخوميروف وفضلا عن ذلك المكر بالذات اذ لم تكن تملك اية صلة للقربى مع أدنى نظرية للتطور الاجتماعي

أيعتقد السيد تيخوميروف أن قصته ذات مفزى ؟ انها لكذلك بالفعل ، لكن بمعنى يسر ف صاحبها مطلقا

السيد تيخوميروف يتخيل أن كل قارىء سوف يقول في نفسه بعد مطالعة

لماذا لم أعد ثوريا هذا أمر مفروغ منه . ان الكاتب لم يصبح ثوريا الا بخطيئة الغير ، لان جميع الناس المثقفين عندنا قد اكتسبوا عادات التفكير على حدود العبث ; لكنه لم يعد كذلك بفضل ذكاء « بناء لا مثيل له وكذلك بفضل عمق وطنيه المرموق وآسفاه ان **رسول روسيا** نفسها لم تستخلص هذه النتيجة

ان شعورا بالتفوق المغرور يبرز من خلال احتجاجات السيد تيخوميروف على المتاعب التي سببها لـه تطوره من جانب الثوريين فلما كان اذكى من الآخرين لم يفهمه الآخرون دائما ; ان الآخرين لم يعرفوا أن يقدروه حق قدره وقد تنغص بصورة رهيبة **عندما اضطروا أن يصفقوا له .**

يا للخطيئة القاسية ! ان السيد تيخوميروف يدين بتطوره لحقيقة انه لم يكن **متطورا** بصورة كافية ليست مصيبته انه ذكي جدا ، بل **افتقاره الى الثقافة .** وان هذا الرجل الذي يعرف عن الاشتراكيـة بالضبط قدر ما يعرفه سكرتير أيـة مفوضية للشرطة هذا الرجل هو الذي اعتبر طويلا نبيا وشارحـا لما لا ادري أيـة اشتراكية « روسية » كان يسره أن يعارض بهـا اشتراكية أوروبا الغربيـة وان الشبيبة الثورية التي كانت تعير أذنها لهذه الماحكات ، معتبرة مؤلفها مكملا لجيليابوف وبيروفسكايا تتبين الآن حقيقة هذا التلميذ المزعوم ان خيانته قد أجبرت الثوريين عندنا على اعادة النظر في **الرجـل** وهذا لا يكفي . بل تجب اعادة النظر في كل **ماكتبه** هذا الرجل منذ عام ١٨٨٠ في وقت لم يكن هو نفسه يؤمن فيه بما كان يقول ، ومع ذلك كان يجد من المناسب أن يتظاهر بأنه كاتب ثوري* . ولقد تفوه طوال هـذا الزمن بحماقات عديدة وشوش مسائل عديدة وطالما اننا لم نوضح هذا اللغو حتى بعد أن نقطع كل علاقة لنا به وحتى بعد ان نحكم عليه بما يساويه فاننا سنظل بعد تحت تأثير **تيخوميروفية نظرية لابد لنا من التخلص منها .**

وداعا ياسيد تيخوميروف ! فليحفظك رب الاورثوذكسيين في صحـة جيـدة وليجعلك رب الاوتوقراطيين جنرالا على أقل تعديل !

---

* انظر الصفحة ٨ من الكراس السيد تيخوميروف يخدم قضية الثورة في نفسه وشعوره الا حتى حوالي نهاية عام ١٨٨٠ ومنذ ذلك البعيد لم يحفظ الا باخلاص شكلي خالص للتعاليم الثورية ومع ذلك فقد كتب عددا من الابحاث في موضوع الثورة ، وهي بحاث يعترف هو نفسه بأن تشغل أكثر من سبعمائة صفحة بأحرف صغيرة

خطاب

في المؤتمر الاشتراكي الاممي

[آ٠ اعادة الترجمة

حسب النص الروسي المنشور عام ١٩٢٦]

أيها المواطنون(١)

نظرا للعدد الكبير من الخطباء المسجلين ، وباعتبار أن المؤتمر لا يستطيع لهذا السبب أن يمنحهم الا وقتا قليلا من أجل تقاريرهم عن الوضع الاقتصادي والسياسي للبلدان التي يمثلونها ، فسوف أبذل جهدي كي أقصر قدر الامكان تقريري عن الحركة العمالية في روسيا

لعلكم تدهشون اذ تشاهدون في هذا المؤتمر مندوبين عن روسيا حيث لاتزال الحركة العمالية بعيدة عن بلوغ التطور الذي بلغته في بلدان أوروبا الغربية . لكننا نعتقد ، نحن الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ، أن روسيا الثورية لا يجوز أن تقف متنحية عن بقية أوروبا العمالية والاشتراكية ، بل الامر على النقيض من ذلك ، اذ أن تقاربها الراهن معها سوف يعود بفائدة عظمى على الحركة الاشتراكية العالمية

انكم تعرفون جميعا الدور الدنيء الذي لعبه الحكم المطلق الروسي حتى اليوم الراهن في تاريخ أوروبا الغربية

ان قياصرة روسيا ، هؤلاء الدرك المتوجين ، قد اعتبروا أن واجبهم الاقدس هو الدفاع عن الرجعية الاوروبية في جميع البلدان ، من بروسيا الى ايطاليا واسبانيا.

وانه ليكون من قبيل الثرثرة الفارغة أن نتحدث عن الدور الذي لعبه نقولاس الاول بائس الذكر في الاحداث المعروفة جيدا لعام ١٨٤٨ على سبيل المثال

وهذا هو السبب في ان انتصار الحركة الثورية في روسيا سيكون انتصارا للعمال الاوروبيين

ولذا فانه يهمنا أن نوضح بأية طريقة وفي أية شروط تستطيع الحركة الثورية الروسية أن تحقق هذا النصر

انها تستطيع ذلك أيها المواطنون ، ونحن على يقين من ذلك . بشرط وحيد هو أن يعرف الثوريون الروس كيف يفوزون بعطف الشعب

فطالما ظلت حركتنا مقصورة على المثقفين وشبيبة المدارس ، فلعلها تشكل خطرا شخصيا على القياصرة ، لكنها لن تشكل أي خطر على القيصرية من حيث هي نظام سياسي

ان من واجبنا كي نسقط القيصرية ونسحقها نهائيا أن نعتمد على عنصر أكثر ثورية من شبيبة المدارس ، وهذا العنصر موجود في روسيا انها طبقة البروليتاريين، هذه الطبقة الثورية من جراء وضعها الاقتصادي العصيب ، هذه الطبقة الثورية بفضل طبيعتها بالذات

ان بعض الاقتصاديين الذين يتمتعون بموهبة خيال أشد التهابا ويبرهنون على الارادة الطيبة أكثر من المعارف الراسخة يصورون روسيا على غرار صين أوروبية لا تملك بنيتها الاقتصادية أي شيء مشترك مع أوروبا الغربية **هذا زور كليا** ان الاسس الاقتصادية القديمة لروسيا هي في ملء الانحلال وان مشاعتنا الزراعية التي جرى الحديث عنها كثيرا حتى في الصحافة الاشتراكية . لكن التي كانت في واقع الامر سند الحكم المطلق الروسي ، هذه المشاعة التي ما أكثر ما امتدحت تصبح أكثر فأكثر ، بين أيدي الفلاحين الاغنياء . أداة للاستغلال الراسمالي بينما الفقراء يغادرون القرى ليذهبوا الى المدن الكبرى والمراكز الصناعية وفي هذه الاثناء تتطور الصناعة الكبيرة في المعامل ، مبتلعة الحرافة التي كانت مزدهرة في القرى فيما مضى

ان الحكومة التعسفية تعمل كل ما في وسعها كي تزيد هذا الوضع سوءا وتسهم بذلك في تطور الراسمالية في روسيا ونحن الاشتراكيين والثوريين لا نستطيع الا أن نغتبط بهذا الجانب من نشاطها طالما انها تهيء بهذه الطريقة نهايتها الخاصة

ان البروليتاريا الصناعية ، التي جعلت تستيقظ الى الشعور ، سوف توجه الضربة القاضية الى الحكم المطلق وعندئذ سوف تشاهدون في مؤتمراتكم ممثليها المباشرين الى جانب مندوبي البلدان الاكثر تقدما

ان مهمتنا تستقيم في اللحظة الراهنة في الدفاع معكم عن قضية الاشتراكية الاممية ، ونشر تعاليم الاشتراكية الديموقراطية بمختلف الوسائل بين العمال الروس، وقيادتهم الى الهجوم على قلعة الحكم المطلق

وختاما أكرر ــ واصر على هذه النقطة الرئيسية ان الحركة الثورية في روسيا لن تنتصر الا بوصفها **حركة عمالية** ، والا فانها لن تنتصر أبدا !

[ب. النص المنشور في **الاشتراكي الديموقراطي**
العدد الاول ١٨٩٠)]

لعلكم تدهشون اذ ترون في هذا المؤتمر العمالي مندوبين عن روسيا هذه حيث الحركة العاملة ، لسوء الحظ ، بالغة الضعف لكننا نعتقد ان روسيا الثورية لايجوز

في حال من الاحوال أن تقف متنحية عن الحركة الاشتراكية في أوروبا الحاليــة ، بل الأمر على النقيض من ذلك اذ أن تقاربها الحالي معهــا سيعود بفائدة عظمى على قضية البروليتاريا العالمية انكم تعرفون جميعا دور الحكم المطلق الروسي فيتاريخ أوروبا الغربية فقياصرة روسيا هؤلاء الدرك المتوجين ، قد اعتبروا واجبهــم الاقدس أن يحموا الرجعية الاوروبية ويدافعوا عنهــا سواء في بروسيا أو في ايطاليــا واسبانيا ؛ وانه ليكون من قبيل الثرثرة الفارغة أن نتحدث هنا عن الدور الذي لعبه على سبيل المثال نقولاس الاول عام ١٨٤٨ و ١٨٤٩ وانه لأمر مفهوم أن الاطاحــة حكم المطلق الروسي يضاهي انتصار الحركة الثورية الاممية في أوروبا بأسرها وثمة سؤال واحد يواجهنا : في اية شروط تستطيع الحركة الثورية الروسية أن تحقق النصر على الحكم المطلق الروسي ؟

ان بعض المؤلفين ، الاغنى بالخيال جدا منهم بالمعارف الاقتصادية والاجتماعية ، يصورون روسيا على غرار صين لا تملك بنيتها الاقتصادية شيئا مشتركا مع الغرب هذا زوركليا ان الاسس الاقتصادية القديمة لروسيا هي في سبيل الانحلال التام . وان مشاعتنا الزراعية ، العزيزة جدا فيما مضى حتى على بعض الاشتراكيين والسنــد لرئيسي للحكم المطلق عندنا في واقع الامر ، تصبح أكثر فأكثر ، بين أيدي البورجوازية الريفية أداة استغلال أغلبية المزارعين انالقسم الفقير من طبقة الفلاحين مضطرالى الانتقال الى المدن والمراكز الصناعية ؛ وفي هذه الاثناء تتطور الصناعة الكبيرة في المعامل مبتلعة الحرافة التي كانت مزدهرة في القرى فيما مضى . وان حكومتنا ، تدفعها الى ذلك الحاجة الى المال تسهم بكل قواها في تقدم الراسمالية في روسيا . وان هذا الجانب من نشاطها لا يمكن الا أن نغتبط له نحن الاشتراكيين طالما أن الاوتوقراطية تحفر بهذه الوسيلة قبرهــا الخاص وان البروليتاريا التي هي في سبيل التكون ، في أعقاب انحــلال المشاعــة الزراعية سوف توجه الضربة القاضية الى الحكم المطلق واذا كانت الاوتوقراطية لم تقهر بعد في روسيا بالرغم من الجهود البطولية للثوريين الروس فانه يجب أن نبحث عن تفسير ذلك في عزلة الثوريين عن كتلــة الشعب ان قوى ايديولوجيينــا الثوريين وتفانيهم يمكن أن تكفي من أجل النضال ضد القياصرة من حيث هم أفراد ، لكنها لا تكفي من أجل الانتصار على القيصرية من حيث هي نظام سياسي لذا فان رسالة الانتيلجنتزيا الثورية عندنا تستقيم ، في أنظــار الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ، في التعمق في نظريات الاشتراكية العلمية الحديثة ، وفي نشرها بين العمال ، وفي الهجوم بمساعدتهم على قلعة الحكم المطــلق ان الحركة الثوريــة في روسيا لا تستطيع أن تنتصر الا من حيث هي حركة ثورية للعمال . ليس هناك حل آخر ، ولا يمكن أن يكون هناك حل آخر

بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل

قبل ستين عاما ، في ١٤ تشرين الثاني ١٨٣١ ، مات رجل سوف يخصه دائما ودون أي جدال ممكن أحد الامكنة الرئيسية في تاريخ الفكر(١) وليس ثمة علم واحد من بين العلوم التي يسميها الفرنسيون «Morales et politiques» * لم يتأثر تأثرا شديدا بالنفوذ الخصب جدا للعبقرية الهيغلية . فالجدلية ، والمنطق ، والتاريخ ، والحقوق ، وعلم الجمال ، وتاريخ الفلسفة ، وتاريخ الاديان ، جميعها قد تغيرت ملامحها بفضل الدفعة التي أعطاها هيغل اياها

ان الفلسفة الهيغلية قد غذت وكونت فكر رجال مثل دافيد شتراوس وبرونو بوير وفيورباخ ، وفيشر ، وهانس ، ولاسال ، وأخيرا انجلز وماركس ولقد تمتع هيغل وهو على قيد الحياة بعد بمجد هائل عمومي ؛ وبعد وفاته ، وحتى حوالي عام ١٨٤٠ ، اتخذت الحماسة العامة تقريبا لفلسفته أبعادا أبعث على الدهشة أيضا ؛ لكن سرعان ما حدثت ردة الفعل لقد أخذوا يعاملون هيغل بالطريقة التي عامل بها ، في زمن ليسنغ ، مندلسون الشريف سبينوزا ، يعني حسب تعبير ماركس(٢) « مثل كلب فاطس وتلاشى كل اهتمام بفلسفته من الاوساط « المثقفة » ، وضعف في العالم العلمي جدا بحيث لن يجازف اي اخصائي في تاريخ الفلسفة ، حتى هذا اليوم ، بأن يحدد أو يفصح عن « القيمة الباقية » للفلسفة الهيغلية في فروع المعرفة المتعددة التي تطرقت اليها كيف يفسر هذا النفور حيال هيغل ، هذا ما سوف نراه لتونا بصورة جزئية ونقتصر في اللحظة الراهنة على الاشارة الى أننا نملك الحق في أن نتوقع ، في مستقبل قريب ، اشتداد الاهتمام بفلسفته ، وعلى الاخص فلسفة التاريخ عنده ان النجاح الهائل للحركة العمالية ، اذ يجبر الطبقات التي يقال لها مستنيرة على الاهتمام بالنظرية التي تحشد هذه الحركة تحت راياتها ، سوف يجبر الطبقات موضوع البحث على الاهتمام ايضا بالاصول التاريخية لمثل هذه النظرية

واما يستيقظ هذا الاهتمام ، فان تلك الطبقات لن تتأخر عن العودة الى هيغل الذي سوف يتحول من « فيلسوف عودة الملكية » كما كانوا ينظرون اليه الى ابي الافكار الاكثر تقدما في ايامنا الراهنة .

ولذا فاننا نستطيع منذ الآن أن نتكهن بأنه اذا ما استيقظ الاهتمام بهيغل يوما

---

* [الاخلاقية والسياسية]

في الطبقات المستنيرة فانها لن تظهر له أبدا العطف العميق الذي كانت تنطوي عليه حياله قبل ستين عاما في البلدان ذات الثقافة الالمانية . ان الامر على النقيض من ذلك تماما لان العلماء البورجوازيين سوف ينصرفون بصورة محمومة الى « الدراسة النقدية » لفلسفته ، وما أكثر أطروحات الدكتوراه التي ستنال الموافقة اذن في النضال ضد « مبالغات » الاستاذ الراحل و « استقطاباته »

ولن يربح العلم من هـذه « الدراسة النقدية » الا ان المرافعين في مصلحة الراسمالية سوف يظهرون أكثر فأكثر فقرهم النظري الواضح جدا منذ الآن في الميدان السياسي وانه لمفيد دائما بعد أن يحفر المرء ، كما يقولون ، حوالي جذور الحقيقة : ان اشتداد الاهتمام بالفلسفة الهيغلية سوف يوفر للمفكرين المنزهين فرصة دراسة مؤلفاته بصورة مباشرة ؛ وان هذا العمل ، الوعر بكل تأكيد ، سوف يثبت أنه بالغ الخصوبة ، لان اولئك الذين يملكون حقا الشهية الى المعرفة يستطيعون أن يتعلموا الشيء الكثير عند هيغل

واننا لنود هنا أن نحاول اصدار حكم على أفكار هذا المؤلف الالماني الشهير في موضوع فلسفة التاريخ ، وهو عمل تم انجازه من قبل بصورة أساسية ، ومن قبل معلم قدير ، في مقالات انجلز الرائعة عن **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، الصادرة بادىء الامر في **الحياة الجديدة** ، ومن بعد في كراسة مستقلة بيد أن أفكار هيغل بخصوص هذه النقطة تستحق فيما يبدو لنا دراسة أكثر تفصيلا .

ان أهمية هيغل في علم المجتمعات تعود قبل كل شيء الى اعتباره ظواهر هـذا العلم من وجهـة نظر des Werxdens (الصيرورة) ، يعني من وجهـة نظر ظهورهـا وزوالها ولعل الكثيرين يرون انها جدارة ضئيلة ، لانه ليس في الامكان فيما يبدو اعتبار هذه الظاهرة بصورة مغايرة لكننا سوف نرى في الحال أن الكثيرين من الذين يعتبرون أنفسهم « **تطوريين** » بعيدون جدا بعد عن فهم وجهة النظر هذه ؛ وان اولئك الذين كانوا ، في زمن هيغل ، يعنون بالعلوم الاجتماعية قد كانوا أبعد من ذلك أيضا فلنتـذكر بالاحرى الاشتراكيين الاقتصاديين لتلك الفترة من الزمـان لقـد كان الاشتراكيون يعتبرون النظام البورجوازي النتيجة المشؤومة جدا بكل تأكيد ، لكن **العارضة** بصورة مطلقة ، للاخطاء البشرية واذا كان الاقتصاديون يعجبون به ، دون أن يجدوا عبارات على قـدر كاف من القوة كي يرفعوه الى السحب ، فانهـم كانوا يتصورونه مع ذلك ثمرة اكتشاف **عارض للحقيقة** . لم يكن هؤلاء او أولئك يرتفعون فوق هذه **النقيضة المجردة « الحقيقة — الخطأ »** بالرغم من أن المذاهب الاشتراكية كانت تنطوي منذ ذلك الحين على بذور رؤيا أصح للاشياء .

ولقد كانت مثل هذه النقيضة ، بالنسبة الى هيغل ، تدخل في مقولة السخافات التي ما أكثر ما يقع فيها الفكر « العقلاني » لقد كان جان باتيست سي يرى أن دراسة تاريخ الاقتصاد السياسي عديمة الجدوى ، طالما أن جميع الاقتصاديين حتى

آدم سميث قد بشروا بنظريات مغلوطة . أما بالنسبة الى هيغل فالامر على العكس من ذلك ، اذ لم تكن الفلسفة سوى التعبير الذهني عن عصر معين

ففي رأيه أن كل فلسفة « متجاوزة قد كانت **صحيحة في عصرها** وكان هذا كافيا ليمنعه من أن يلقي في البحر بالانظمة الفلسفية السابقة وكأنها قطعة من حديد غير صالحة للاستعمال . وعنده ان « الفلسفة الاخيرة في الزمن تنتج عن جميع الفلسفات السابقة ويجب بالتالي أن تنطوي في ذاتها على مبادئها جميعا (**الموسوعة** الفقرة ١٣ ومن المؤكد أن هذا التصور عن تاريخ الفلسفة يقوم على موضوعة مثالية بصورة حازمة : « ان مرشد هذا العمل الفكري (عمل الفكر الفلسفي) هو روح حي أوحد تستقيم طبيعته المفكرة في وعي ذاته ، واذا ما توصل الى ذلك في الارتفاع في الحال فوق الدرجة التي بلغها كي يمضي قدما » (المصدر نفسه) لكن المادي الاحزم لن يرفض الاعتراف بأن أي نظام فلسفي لا يعدو كونه التعبير الذهني عن عصره* واذا رجعنا الى تاريخ الاقتصاد السياسي وتساءلنا من أية زاوية يجب اعتباره في الوقت الراهن فاننا نرى في الحال كم نحن أقرب الى هيغل منا الى جان باتيست سي

فمن وجهة نظر سي ، يعني من وجهة نظر النقيضة المجردة بين الحقيقة والخطأ ، ليس النظام التجاري مثلا ، بله نظام الفيزيوقراطيين الا سخافتين سقطتا صدفة في عقول البشر ولكننا نعرف في الوقت الراهن كم كان كل من هذين النظامين ناجماً بالضرورة عن عصره

اذا كان النظام النقدي التجاري يميز التجارة العالمية والفروع الخصوصية للعمل التي تصب بصورة مباشرةفي التجارة العالميةايجعل منها الحقيقية الوحيدة للثروة ، للمال ، فلابد لنا أن نأخذ بعين الاعتبار أن القسم الاعظم من الانتاج الوطني كان يجري في ذلك الحين في الاطر الاقطاعية ويشكل بالنسبة الى المنتجين أنفسهم المصدر المباشر لوسائط معيشتهم فلم يكن القسم الاكبر من المنتجات يتحول الى سلع ، وبنتيجة ذلك الى مال ؛ لم تكن هذه المنتجات تدخل مطلقا في المبادلة العامة لمعيشة المجتمع بالتالي لم تكن تظهر من حيث هي تجسيد العمل المجرد العام ومن جراء ذلك تخلق ثروة بورجوازية لقد كان هؤلاء الانبياء غير المعترف بهم – الامر الذي كان طبيعيا على عتبة الانتاج البورجوازي – متشبثين بحزم بالشكل الصلب والملموس والمتألق للقيمة التبادلية ، بشكلها من حيث هي بضاعة عامة تتعارض مع جميع البضائع الخاصة

(كارل ماركس Zur Kritik der politischen Oekonomie **

برلين ١٨٥٩ ص ١٣٨ – ١٣٩)

ويفسر ماركس المناقشة بين الفيزيوقراطيين وخصومهم على أنها مناقشة بشأن

---

*من المؤكد انه يمكن ان يكون – وهو كذلك دوما – التعبير عن **جانب معين** من هذا العصر لكن هذا لا يغير شيئا في صميم القضية

** [اسهام في نقد الاقتصاد السياسي]

معرفة ما هو نمط العمل الذي يخلق فضل قيمة (المصدر نفسه ، ص ٣٥) ألم تكن المسألة على قدر كبير من الاهمية الحالية بالنسبة الى بورجوازيــة تتهيأ كي تصبح « كل شيء ؟

ولا يعتبر هيغل الفلسفة وحدها نتاجا طبيعيا وضروريا لزمانهــا بل يصدر الحكم نفسه على الدين والحقوق وانه لمن المناسب ان نسجل هنــا أن الفلسفة ، مثلها كمثل الحقوق والدين ، والفن ، بله التقنية (* technische Geschicklichkeit) هي عند هيغل في علاقة وثيقة جدا

لا يمكن لبنية سياسية معينة أن توجد الا في حضور ديانة معينة ؛ ولا يمكن لفلسفة معينة وفن معين يوجدا الا في حضور بنية سياسية معينة**

وقد يبدو هذا مطروقا جدا أيضا فليس من يجهل أن سائر مظاهر وجميع تظاهرات حياة بلد ما تترابط بصورة وثيقة ؛ ليس ثمة تلميذ لا يعرف ذلك لكن هيغل لم يكن يتصور هذه الرابطة بين المظاهر والتظاهرات المختلفة لحياة بلد ما بالطريقة التي يتصورها بها اليوم بعد التلامذة والكثير من الناس « المتعلمين انهم يتصورون هذا الرباط في شكل تفاعل بسيط لهذه المظاهر والتظاهرات ، والتفاعل نفسه يظل عديم التفسير بصورة جازمة ، والاخطر من ذلك أن الناس جميعا ينسون انه لا بد أن يكون ثمة مصدر مشترك تنشأ منه جميع هذه المظاهر وهذه التظاهرات الفاعلة في بعضها بعضا وهكذا يتبين أن نظرية التفاعل لا تقوم على أي أساس ان الحقوق تؤثر في الدين والدين في الحقوق وكلا منهما وكليهما في الفلسفة وفي الفن اللذين يؤثران بدورهما وكل منهما يؤثر في الآخر في الحقوق ايضا الخ تلك بالفعل وجهة نظر الحس العام لكن اذا افترضنا أننا نستطيع أن نكتفي بهذه اللوحة من أجل عصر معين فان سؤالا لا يبرح يواجهنا ما الذي يحدد الصيرورة التاريخية للدين والفلسفة والفن والحقوق ، الخ ، حتى العصر المأخوذ بعين الاعتبار ؟

ردا على ذلك يستنجد عامة بظاهرة التفاعل بالذات التي تكف على هذا الغرار عن تفسير أي شيء كان ؛ واما نستنجد ببعض الاسباب العارضة التي قد مارست فعلها في هذا المظهر او ذاك من حياة البلد دون أن يكون بينها اي شيء مشترك على الاطلاق ؛ واما ان ترد الاشياء جميعا آخر الامر الى المنطق الذاتي ؛ هكذا يقال لنا مثلا ان فلسفة فخته نشأت بصورة منطقية من فلسفة كانط ، وان فلسفة شيلنغ نشأت بصورة منطقية من فلسفة فخته وان فلسفة هيغل نشأت من فلسفة شيلنغ ؛ وانهم ليفسرون بمثل

---

* [الفن التقني]

** Philosophie der Geschichte, dritte aufiage, Berlin 1848 Enleitung, S. 66 [فلسفة التاريخ ، الطبعة الثالثة ، برلين ١٨٤٨ ، المدخل ، ص ٦٦] .

هذه « الطريقة المنطقية » بالذات تتابع المدارس الفنية ومما لا جدال فيه أن ثمـة نصيبا من الحقيقة هنا ، لكنه مما يؤسف له انه لا يفسر أي شيء على الاطلاق ان الانتقال من نظام فلسفي الى آخر أو من مدرسة فنية الى أخرى يتم أحيانا بسرعـة عظيمة ، في سنوات قليلة ، بينما يتطلب في أحيان أخرى قرونا ؛ من أين ينشأ الفارق؟ ان البنوة المنطقية لا تفسره البتة كذلك لا يمكننا أن نحصل على أي شيء من الحس العام المدرسي الذي يستنجد بالتفاعل ، كمـا لا نحصل على أي شيء من الاسباب العارضة لكن الناس « المتعلمين » لا ينزعجون لذلك مطلقا فاما أصدروا احكاما عميقة على تفاعل المظاهر المختلفة لحياة بلد ما فانهم يكتفون بهذه « الشهادة » العميقة ويكفون عن التفكير **بالضبط حين ينبغي للفكر العلمي حقا ان يخوض المعركة**

ولقد كان هيغل على مسافة ألف فرسخ من مثل هذا العمق انه يقول :

« ان الاقتصار على النظر الى مضمون معين من وجهة نظر التفاعل يشكل طريقة نقيرة ذهنيا حتى الدرجة القصوى ؛ ان المرء ليبقى في مجال الواقع الخام ، ولا يتحقق مطلب الوساطة الذي يتظاهر عندما يكون المقصود اكتشاف سبب الرابطة أن قصور الطريقة التي تستقيم في اعتبار الظواهر من وجهة نظر التفاعل يكمن في أن علاقة التفاعل به بدلا من أن تحل محل المفهوم يجب أن تدرك هي نفسها ؛ وهذا ما لا يتم التوصل اليه الا حين يوحد المظهران الفاعلان الواحد في الآخر على اعتبارهما نتيجة عنصر ثالث متسام بدلا من أن ينظر اليهما على اعتبارهما معطيين مباشرين* »

وبكلام آخر ، فاننا حين نعالج مثلا المظاهر المختلفة لحياة بلد ما لا يجوز ان نكتفي ببيان تفاعلها ، بل البحث عن تفسير له في شيء ما جديد ، « متسام » ، يعني فيما يحدد وجودها بالذات كما يحدد امكانية تفاعلها

أين نجد هذا الشيء الجديد ، هـذا المتسامي ؟ يقول هيغـل في الروح القومي وان الجواب لمنطقي كليا من وجهة النظر الخاصة به فعندهيغل ان التاريخ بأسره مجرد تطور الروح العمومي واكتمالـه ؛ وان تطور هـذا الروح العمومي يتم **على درجات**

ان كل درجة ، بقدر ما تتميز من الدرجات الاخرى ، تملك مبدأها الخاص المحدد جيدا ان روح الامة الخاص يمثل مثل هذا المبدأ في التاريخ وان خصائص هـذا الروح القومي تعبر بصورة حسية عن جميع مظاهر الوعي القومي والارادة القومية ، عن واقع هذا الروح بأسره أنها تدمغ بطابعها الدين ، والنظام السياسي ، والاخلاق ، والحقوق، والعادات ، وكذلك العلم والفن والتقنيـات ان جميع هـذه الخصائص الخاصة تفسـر الخصائص العامة للروح القومي كما ان العكس صحيح يمكن استخلاص هـذه الخصائص المشتركـة من العناصر الموضوعية للوجود القومي كما تجري دراسـتها في التاريخ** »

---

* Enzyklopadie ، الفقرة ١٥٦

** **فلسفة التاريخ** ، المدخل ، ص ٤٧٣

وانه لفي مقدور كائن من كان أن يحقق هناك اكتشافا متألقا ان هذا التصور للتاريخ العمومي مشرب **بالمثالية الانقى** وكما كان غوغول يقول ، لا حاجة بالمرء الى الخروج من المعهد كي يقفز ذلك الى أبصاره . وانه لفي مقدور كائن من كان أيضا ان يقصر « نقده » لفلسفة التاريخ الهيغلية على هزة احتقار من كتفيه حيال هذه المثالية المفرطة وما اكثر ما نرى اناسا يفعلون ذلك وهم عاجزون عن التفكير المنطقي، يأخذون على الماديين ماديتهم ، وعلى المثاليين مثاليتهم ، وهم راضون بصورة جنونية عن انفسهم ، بحجة أن فلسفتهم الشخصية عن العالم تتفادى كل تطرف ، بينما هي في واقع الامر خليطة بائسة وعسيرة الهضم من المثالية والمادية ان فلسفة هيغل تملك على الاقل هذه الجدارة التي لا جدال فيها ، الا وهي عدم احتوائها على ذرة واحدة من **الانتقائية** واذا كان الاساس المثالي الذي يشكل خطيئتها يتضح جدا في كثير من الاحيان ، اذا كان يفرض حدودا على مسيرة فكر هذا العبقري ، فانه لابد لنا مع ذلك، لهذا السبب بالذات ، أن نمنح فلسفة هيغل أعظم الانتباه ، لان ذلك بالضبط هو ما يجعلها منوّرة حتى الدرجة القصوى ان فلسفة هيغل تشكل ، لانها فلسفة مثالية ، البرهان الافضل الذي لا يمكن دحضه على ضعف المثالية ، بينما هي تعلمنا في الوقت نفسه أن نربط بين أفكارنا بصورة منطقية وان كل من اجتاز هذه المدرسة القاسية ، بشرط أن يفعل ذلك بجد ومحبة ، سوف يخرج منها بهلع صحي حيال التفاهات الانتقائية

واذا كنا نعرف اليوم أن التاريخ العمومي ليس « تطور الروح العمومي واكتماله»، فانه لا يترتب على ذلك أنه في مقدورنا الاكتفاء ببعض التغييرات الجارية في موضوع النظام السياسي الذي يؤثر في العادات ، والعادات التي تؤثر في الدستور ، وقس على ذلك يجب أن نوافق هيغل تماما على أن العادات والبنية السياسية تنشأ من مصدر مشترك ما هو هذا المصدر ؟ هذا ما يبينه لنا التفسير المادي الحديث للتاريخ الذي سنقتصر حاليا على القول بخصوصه ان السادة الانتقائيين يعانون في فهمه قدر ما يعانون في النفوذ الى أسرار المثالية الهيغلية المناقضة له على طول الخط

وكلما أراد هيغل أن يصدر حكما على أحد شعوب التاريخ الكبيرة برهن على معرفة عميقة وتقدير مذهل ؛ انه يصدر حكما لامعا ومنورا في نفس الوقت ، مزخرفا بالمناسبة بأثمن الملاحظات المتعلقة بالمظاهر المختلفة لحياة هذا الشعب وانه ليفتنك حتى لتكاد تنسى انك أمام مثالي ، وتكاد تعترف بأن هيغل « die geschichte nimmt, wie sie ist ✻ » حقا ، وانه يحافظ بدقة على مبدئه الخاص : « الوقوف على أرض التاريخ ، على أرض التجريبية » ولكن ما حاجته الى أرض التاريخ هذه ، الى هذه التجريبية ؟ كي يحدد **خصائص روح** الشعب موضوع البحث . ولقد رأينا لتونا أن روح

✻ [يأخذ التاريخ كما هو]

شعب ما ليس سوى درجة في تطور الروح العمومي الذي لا تستخرج خصائصه من دراسة التاريخ العمومي ؛ انه مفهوم هذا الروح الـذي **يندرج في دراسة التاريخ** من حيث هو فكرة معطاة بصورة نهائية وكاملة من جميع الجوانب ومن هنا كانت هذه النتيجة مادام التاريخ لايناقض فكرة الروح القومي ولا قوانين تطور هذا الروح، فان هيغل يتناوله «كماهو» ؛ انه يقف « على أرض التاريخ على أرض التجريبية ». لكن التاريخ حتى دون أن يناقض «قوانين» تطور الروح العمومي لايكاد يفادر ثلم هذه الصيرورة المفترضة ، لايكاد يفلت من تكهنات **المنطق** الهيغلي حتى يهمل كليا. ويستطيع المرء أن يحسب أن هذا الموقف يجب على الاقل ان يجنب هيغل الوقوع في التناقض مع نفسه أبدا ان هيغل لأبعـد ما يكون عن تجنب التناقضـات ؛ واليكم على ذلك مثالا باهرا

يقدم هيغل أفكار الهند الدينية بهذه العبارات

ان الحب ، والسماء ، وبكلمة واحدة الروحي بأسره ، تمر عند الهندي بأقنية الخيال، بينما يتصور الهندي من جهة ثانية كل ما هو ممكن التصور في شكل لا يقل عاطفية عن ذلك، بحيث أنه يظل مستغرقا في هذه العاطفية ولذا فان أغراض العبادة الدينية اما أن تكون صورا مصطنعة ، وأما أشياء من الطبيعة فكل طير وكل فرد إله ، كائن عمومي بصورة جازمة ان الهندي عاجز عن اعتبار الاشياء من وجهة نظر التحديدات العقلانية ، لانه لابد من التفكير من أجل ذلك✻

وانطلاقا من هذا التفسير يعتبر هيغل عبادة الحيوانات كنتيجة طبيعية لحقيقة أن **روح الهند القومي** يمثل احدى **الدرجات** الادنى في تطور **الروح العمومي** وان الفرس ، الذي ألهوا النور كما ألهوا « الشمس والقمر وخمسة أجرام سماوية أخرى » ينعتونها بصور هورموزد الشريفة ، يأتون عنده فوق الهنود

لكن لنر قليلا ما يقوله بشأن عبادة الحيوانات عند المصريين

« تستقيم هذه الشعائر بصورة جوهرية في عبادة الحيوانات واننا لننفر من عبادة الحيوانات اننا نستطيع أن نعتاد تأليه السماء ، لكن عبادة الحيوان تظل غريبة عنا ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن الشعوب التي تعبد السماء والكواكب ليست أعلى من الشعوب التي ألهت الحيوانات ؛ ان الامـر على النقيض من ذلك ، نظرا لان المصريين كانوا يتأملون الجوهري والحريز في عالم الحيوانات✻✻

وهكذا فان عبادة الحيوانات تتخذ بالنسبة الى هيغل معنى مختلفا بصورة مطلقة حسبما يتعلق الامر بالهنود أو بالمصريين لماذا ؟ أكان لدى الهنود طريقة غير طريقة المصريين لتأليـه الحيوانات ؟ كلا ، لكن الروح القومي المصري ، الـذي يسجل **« الانتقال »** نحو الروح الاغريقي ، يحتل مكانة مرتفعة نسبيا في التصنيف الهيغلي ؛

✻ **فلسفة التاريخ** ، ص ١٩٢ – ١٩٣

✻✻ **فلسفة التاريخ** ، ص ٢٥٨

ولذا فليس في وسع المؤلف أن يتبين فيه نقاط الضعف التي يكشفها في الروح الهندي الذي يأتي مكانه أوطأ في التراتب ولسوف يعامل هيغل **الشيع** بالطريقة نفسها من جهة أخرى ، حسبما يتعلق الامر بالهند أو بمصر ان شيع الهند « تصبح فوارق طبيعية » ؛ ولذا كان الشخص الانساني فيها أقل ثمنا ، في تقديره الخاص ، منه في الصين حيث تسود مساواة الجميع التي لا يحسد عليها أمام الطاغية وأما الشيع المصرية ، فاننا نعلم انها وهي بعيدة عن كونها متحجرة ، موجودة في حالة من النضال والتداخل المتبادلين فكثيرا ما يحدث لها ان تنحل كي تبعث بعدئذ ولكن ما يقوله لنا هيغل نفسه عن شيع الهند يبين جيدا أن النضالات والتداخلات المتبادلة تكن مجهولة فيها أيضا ان هيغل ملزم هنا ، كما هي الحال في عبادة الحيوانات ، لأن ينسب معنى مختلفا لظاهرتين اجتماعيتين متماثلتين بصورة جازمة وذلك في مصلحة بيان منطقي على درجة كبيرة من الاعتباطية

وان نقطة الضعف تنكشف اكثر من ذلك أيضا حيث يريد هيغل أن يفسر كيف ينتقل مركز ثقل التطور التاريخي من شعب الى آخر ، أو كيف يتغير المضمون **الباطني** لشعب ما وبالفعل فانه من الطبيعي جدا أن تطرح هنا مسألة أسباب الانتقال أو التبدل المأخوذ بعين الاعتبار وهيغل يفتش عن الجواب ، بوصفه مثاليا صالحا في خصائص هذا **الروح** الذي يشكل التاريخ ، في نظره ، اكتماله ومثال ذلك انه حين يتساءل عن السبب في أن فارس انحطت بينما الصين والهند مستمرتان في الوجود ، فانه يسبق الجواب بهذه الملاحظة الاولية

يجب بادىء الامر أن نبعد المستبق الذي ينص على أن الديمومة تشكل علامة تفوق ان الجبال التي لا يمكن تدميرها لا تتفوق على الازهار التي تذبل سريعا

ولا يمكننا أن نعتبر هذه الملاحظة جوابا صالحا على الاطلاق واليكم الاعتبارات التي تعقب ذلك

« ان مبدأ الروح الحر في تعارضه مع الطبيعي يبدأ في بلاد الفرس ؛ ولذا فان هذا الوجود الطبيعي يذبل ، يأخذ في الانحطاط ؛ اننا نشاهد في مملكة فارس فعل مبدأ تمييز بالنسبة الى الطبيعة ؛ ولذا فان هذه المملكة تتفوق على العوالم الخاضعة للطبيعة* تلك نتيجة لضرورة التقدم الطبيعية ؛ ان الروح قد اكتشف نفسه وهو يريد أن يتحقق ان الصيني لا يتخذ أهمية الا بعد وفاته ؛ والهندي يتحول الى ميت حي ؛ يستغرق في براهما ، يتلف وهو حي بعد في حالة من اللاشعور المطلق ، اللهم الا اذا أصبح إلها بفضل ولادته**. ليس ههنا أي تبدل ، أي تقدم ، لان التقدم محال الا حين يبلغ الروح الاستقلال الذاتي ولا يبدأ التأمل الروحي الذي ينفصل الروح فيه عن الطبيعة الا مع نور الفرس***

---

* يعني العالم الصيني وعالم الهند

** ولد براهمانيا

*** الذي كان الفرس يعبدونه

وهذا هو السبب (كذا !) في اننا نصادف هنا للمرة الاولى ان الموضوعية تظل حرة ، بمعنى ان الشعوب المختلفة * ليست مضطهدة ، بل تحتفظ بثرواتها ، ومؤسساتها ، وديانتها ولقد كان ذلك الجانب الضعيف لفارس بالمقارنة مع اليونان** »

في هذه المحاكمة الطويلة لا يمكن الا للسطور الاخيرة ، السطور المتعلقة بالتنظيم الداخلي لمملكة الفرس من حيث هو سبب الضعف الذي كشفت عنه في نزاعها مع اليونان أن تعتبر محاولة لتفسير الحقيقة التاريخية لانهيار فارس لكن هذه المحاولة لا تملك علاقة البتة مع التفسير المثالي للتاريخ الذي هو تفسير هيغل ان العلاقة أكثر من مشكوك فيها بين نور الفرس وضعف التنظيم الداخلي لبلاد الفرس حين يظل هيغل أمينا **للمثالية** ، فانه لا يفعل في أفضل الاحوال سوى القاء معطف مثالي على الحقيقة التي يقصد تفسيرها وان مثاليته لتؤول دائما الى هذا النوع من الخيبة

ولنأخذ على سبيل المثال قضية انحلال اليونان ان العالم الاغريقي بالنسبة الى هيغل عالم من الجمال و المناقبية المؤسسة على أخلاق الجمال*** لقد كان الاغريق كائنات متفوقة ، مخلصة بعمق لموطنها ، وقادرة على أجمل ملامح التفاني.

لكنهم ينجزون « دون تفكير مآثرهم السامية لقد كان الوطن ضرورة بالنسبة الى الاغريق ، وما كان في مقدورهم أن يعيشوا بدونه وفي وقت لاحق ، تحت تأثير السفسطائيين ، ظهرت مبادىء انحلالية التفكير الذاتي ، والضمير الفردي ، والنظرية التي تنص على أنه من واجب كل امرىء أن يعمل وفق قناعاته عندئذ بدأت في الانحلال « المناقبية المؤسسة على أخلاق الجمال ؛ ان التحرر الذاتي للعالم الباطن » يقحم اليونان في الانحطاط وكان **الفكر** احد مظاهر هذا العالم الباطن وهؤلاء نحن اذن نواجه ظاهرة تاريخية هامة ان الفكر يستطيع ، في عداد أفعال ممكنة أخرى ، أن يعمل « كمبدأ انحلال اخلاقي ان هذه الفكرة تستحق الوقوف عندها ولو لمجرد أنها تمضي أبعد جدا من التصور الجامد للقرن الثامن عشر حيث كان يعتقد أن تطور الفكر عند كل شعب يؤدي مباشرة وبصورة لا تخطىء الى«التقدم».

وعلى أي حال فان مسألة تظل مطروحة ، وهي معرفة أصل هذا « التحرر الذاتي للعالم الباطن » ان فلسفة هيغل المثالية ترد على ذلك بأن « الروح لا يستطيع أن يتوقف طويلا عند وجهة نظر المناقبية المؤسسة على أخلاق الجمال » واننا لندرك أن ذلك لا يشكل جوابا ، بل مجرد ترجمة للسؤال في القاموس الفلسفي للمثالية الهيغيلية ويبدو أن هيغل نفسه يحس ذلك ، فهو يتعجل أن يضيف

---

* التي تشكل مملكة فارس

** فلسفة التاريخ ، ص : ٢٧٠ – ٢٧١

*** من المعروف أن هيغل يميز الاخلاق و المناقبية .

« ان مبدأ الانحلال قد **اكتشف ذاته** اولا في تطور السياسة الخارجية ، سواء في الحروب بين الدول الاغريقية أو في الصراع بين الفئات داخل المدن* »

هؤلاء نحن الآن على أرض تاريخية **مشخصة** وفي رأي هيغل نفسه أن صراع الفئات داخل المدن قد كان نتيجة لتطور اليونان **الاقتصادي** ، وبكلام آخر فان صراع الاحزاب السياسية لم تكن بفعل الا ترجمة **ألتناقضات الاقتصادية** التي كانت قد ظهرت في المدن الاغريقية واذا تذكرنا أن حرب بيلوبونيز لم تكن ، كما يرى عند ثوسيديدس، الا امتدادا لصراع الطبقات الى اليونان بأسرها فاننا نستنتج دون عناء انه يجب أن نفتش في تاريخ **اليونان الاقتصادي** عن أسباب انحلالها** فهيغل يوحي الينا اذن بتصور مادي للتاريخ بينما الصراع الطبقي في اليونان ليس عنده الا تظاهرة لمبدأ الانحلال الخلقي وكي نستأنف عباراته بالذات ، فاننا نستطيع أن نقول أن **المادية تنبين أنها حقيقة المثالية** هذا هو نوع المفاجأة الذي تخبئه لنا لدى كل خطوة فلسفة التاريخ الهيغلية انه ليقال ان أعظم **المثاليين** قد جعل مهمته أن يشق الطريق امام **المادية** . فليتحدث عن مدن العصر الوسيط ، وانه لينظر اذن الى تاريخها ، وقد أدى الضريبة المثالية ، من جهة واحدة على اعتباره صراع البورجوازيين ضد الاكليروس والنبالة ومن جهة ثانية على اعتباره الصراع بين المقولات المختلفة من المواطنين ، الاغنياء البورجوازيين والشعب البسيط »*** أيتحدث عن الاصلاح وانه من جديد بعدما يكشف لنا عن خفايا « الروح العمومي » يقدم بخصوص انتشار البروتستانتية هذه الملاحظة التي تبعث على أعظم الدهشة حين تخطها ريشة أحد المثاليين

« كان الاصلاح قد حقق نجاحات هامة في النمسا وبافاريا وبوهيميا لكنه مهما تم التأكيد على أن الحقيقة اذا دخلت قلب البشر مرة لا يعود في الامكان انتزاعها منه ، فان الاصلاح قد قهر في هذه البلاد بقوة السلاح ، وبالحيلة ، وبالاقناع **لقد كانت الشعوب السلافية شعوبا زراعية** [التشديد من هيغل] ، والزراعة تؤدي الى ظهور الاسياد والفئات الدنيا ان الدور الاساسي في الزراعة يخص الطبيعة ؛ ومهارة الانسان والفعل الذاتي لا يملكان ، بكل معنى الكلمة ، الا مكانا ضئيلا في هذا العمل ولذا فان السلافيين يتوصلون

---

* **فلسفة التاريخ** ، ص ٣٢٣

** يقول هيغل

Lacedaemon besonders wegen Ungleichheit des Besizes hermnterkam

[كان التفاوت في الخبرات السبب الرئيسي لانحطاط لاسيدومونيا]

*** يقول هيغل عندما نأخذ بعين الاعتبار الحياة المتغيرة أبدا والتي لا تعرف الراحة لهذه المدن ، والصراع المتواصل بين الفئات ، فاننا نرى بدهشة أن الصناعة من جهة ثانية مزدهرة فيها ، وكذلك التجارة برا وبحرا ان نفس مبدأ الحيوية الذي تغذى من هذه الحركة الباطنة قد تسبب في هذا الازدهار .

بصورة ابطأ ، وبعناء كبير ، الى الوعي الذاتي ، الى وعي العمومي ؛ ولم يستطيعوا ان يسهموا في عملية التحرر التي بدأت*

ان هيغل يقول لنا بكل صراحة في هذه الفقرة انه يجب البحث في النشاط الاقتصادي لشعب ما عن تفسير لافكاره الدينية وجميع حركات التحرر التي تجري ضمنه والاكثر من ذلك ان الدولة ، التي هي في تفسير هيغل « تحقق الفكرة الاخلاقية وروح المناقبية التي تنكشف في ذاتها على اعتبارها الحقيقة الجوهرية الاوضح ارادة تفكر ذاتها تعرف ذاتها وتنجز ما تفكره وما تعرفه** ان الدولة بالذات تنكشف ، عند هيغل على اعتبارها **نتاجا خالصا للتطور الاقتصادي**

يقول هيغل

ان الدولة الحقيقية والحكومة الحقيقية لا تولدان الا حيث توجد المراتب ، عندما تصبح الثروة والفقر عظيمين جدا وعندما يتشكل وضع لا تكون الاغلبية قادرة فيه بعدئذ على تلبية حاجاتها بالطريقة المألوفة لديها *** »

وان هيغل ليربط بصورة وثيقة ، بالطريقة نفسها قيام مؤسسة **الزواج** بتاريخ الانسانية **الاقتصادي**

« كان الحق كليا الى جانب أولئك الذين أرجعوا البداية الحقيقية للدول وتأسيسها الاول ، وكذلك **مؤسسة الزواج** ، الى ظهور الزراعة ، ذلك ان الزراعة تستتبع الملكية الخاصة ، وبذلك فان الحياة غير المستقرة للمتوحش الذي يبحث لنفسه عن سند في عدم الاستقرار تتوصل الى تهدئة الحق الخاص والى الارضاء المؤكد لحاجاتها وفي الوقت نفسه فان الحد من الغريزة الجنسية بواسطة الزواج يحول العلاقات الجنسية الى اتحاد دائم ؛ ان ارضاء الحاجات يصبح **هم العائلة** ، والحيازة **ملكية عائلية** ****

ونستطيع أن نورد أمثلة أخرى كثيرة من هذه المرتبة ونظرا لان المكان يعوزنا فاننا سوف نكتفي بالاشارة الى المغزى الذي ننسبه هيغل الى الاساس الحفرافي « للتاريخ العمومي »

ما أكثر ما كتب ، **قبل هيغل وبعده** ، عن أهمية العامل الجغرافي في تطور الانسانية التاريخي لكن المؤرخين قبل هيغل وبعده على حد سواء كثيرا ما ارتكبوا خطيئة الاقتصار على اعتبار التأثير **السيكولوجي** ، بل **الفيزيولوجي** ، للوسط

---

* **فلسفة التاريخ** ، ص ٥٠٦

** **فلسفة الحق** ، الفقرة ٢٥٧

*** **فلسفة الحق** ، المدخل ، ص ٦ – ١

**** **فلسفة الحق** ، الفقرة ، ٢٠٣ ، الهامش لم يكن في مقدور أفكار هيغل عن أوائل تاريخ الاسرة والملكية أن تقدم كثيرا من الوضوح في حالة العالم في ذلك العصر ان الامر الذي يهمنا هو انه يخمن منذ ذلك الحين الجانب الذي يجب ان نفتش عن التفسير فيه .

الطبيعي في الانسان ، ناسين كليا تأثير الوسط المذكور في حالة **قوى الانتاج الاجتماعية، وبواسطتها** في حصيلة العلاقات الاجتماعية وبناها الفوقية الايديولوجية*
ولقد تجنب هيغل كليا هذه الخطيئة الفادحة ان لم يكن في التفاصيل فعلى الاقل **في طريقة طرح المسألة بصورة عامة** وعند هيغل أن ثمة ثلاثة أوساط جغرافية مميزة: ١ ـ الهضاب المحرومة من المياه ذات السهول والسهوب الواسعة ؛ ٢ ـ الوديان الواطئة التي تقطعها الانهار الكبرى ؛ ٣ ـ الاراضي الساحلية المجاورة للبحر بصورة مباشرة

ان تربية الماشية هي التي تسود في الاوساط الاولى **والزراعة** في الاوساط من النمط الثاني والتجارة والحرافة في النمط الثالث وان البنى الاجتماعية للسكان الذين يقطنون هذه الاماكن تقابل هذه الفوارق الاساسية ان السكان الاصليين للهضاب مثلا **المغول** ، يحيون الحياة الرعوية وحياة البداوة ؛ وهم لايملكون تاريخا بكل معنى الكلمة ومن حين لآخر وقد تجمعوا في كتل هائلة ، ينقضون مثل العاصفة على البلدان المتحضرة ولا يتركون وراءهم الا الدمار والخراب** وتبدأ الحضارة في الوديان التي تدين للانهار بخصوبتها

« لقد كانت الصين والهند وبابل ومصر وديانا من هذا النوع وفي هذه البلاد تنشأ الامبراطوريات الكبرى وتتشكل الدول العظمى ويعود ذلك الى أن الزراعة ، التي تسود هناك على اعتبارها المبدأ الاساسي لوجود الافراد تتطلب تكيفا حازما للاعمال مع تتابع الفصول الحازم وهناك تظهر الملكية العقارية مع العلاقات الحقوقية المرتبطة بها »

لكن الشعوب الزراعية التي تقطن الوديان تتميز بعطالتها وجمودها ، وطابعها المغلق انها لا تعرف كيف تنتفع في العلاقات الانسانية من الوسائط التي تضعها الطبيعة تحت تصرفها وان الشعوب الساحلية تجهل هذا العيب فالبحر لا يفصل بينها بل يوحدها ولذا فان الحضارة ومعها تقدم الوعي الانساني يبلغان هنا أعلى درجة من التطور ولا حاجة الى البحث عن الامثلة بعيدا لنتذكر فحسب اليونان القديمة***

لعل القارىء يعرف كتاب ليف متشنيكوف **الحضارة والانهار التاريخية الكبرى**(٣) الصادر عام ١٨٨٩ وبالرغم من أن المؤلف يخضع فيه أحيانا لاغراء المثالية ، فان وجهة نظره تظل على الاجمال وجهة نظر رجل مادي وماذا نرى فيه ؟

---

* ومثال ذلك أن مونتسكيو كثيرا ما ينساق **في روح الشرائع** مع اعتبارات تتعلق بتأثير الطبيعة في الفيزيولوجيا البشرية ويحاول جهده أن يفسر كثيرا من الظواهر التاريخية بهذا التأثير

** يقول هيغل الهضاب تؤدي الى وديان جبلية ضيقة تقطنها شعوب جبلية مسالمة ، رعاة يهتمون بالزراعة قليلا تلك هي حالة السومريين واننا لنصادف في آسيا شعوبا من هذا الطراز ، لكنها لا تلعب في آخر الامر اي دور على الاطلاق »

*** **فلسفة التاريخ** ، المدخل

ان التصور الذي يتخذه هذا **المادي** عن الدور التاريخي للبيئة الجغرافية يتطابق بصورة كلية على وجه التقريب مع تصورات **المثالي** هيغل ، ومما لا ريب فيه أن ميتشنيكوف سيكون أول من يدهش اذا بينت له هذه القرابة

وان هيغل ليفسر كذلك ، جزئيا ، بالوسط الجغرافي ظهور التفاوت في المجتمعات الاكثر أو الاقل بدائية هكذا يسجل ان الفوارق بين الطبقات (يقصد من ذلك الشرائح الاكثر أو الاقل يسرا من السكان (سكان السهول ، وسكان الهضاب ، والسكان الاصليين في السواحل) كانت تقوم ، في اتيكا **قبل سولون** على فوارق المسكن ومما لا ريب فيه أن فوارق المسكن وما يترتب عيها من فوارق **الاعمال** ، قد مارست تأثيرا هاما في التطور **الاقتصادي** للمجتمعات البدائية ومن سوء الحظ أن المؤرخين المعاصرين لا يأخذون ذلك بعين الاعتبار الا نادرا جدا

لم يعن هيغل مطلقا **بالاقتصاد السياسي** لكن عبقريته أتاحت له ، هنا كما في كثير من الميادين الاخرى أن يدرك المظهر الاكثر تمييزا والاكثر جوهرية للظواهر لقد شاهد بصورة أوضح من جميع الاقتصاديين في زمانه ، بما فيهم ريكاردو أن زيادة الثروة في طرف واحد في مجتمع قائم على الملكية الخاصة تترافق حتما بتعاظم البؤس في الطرف الثاني وانه ليؤكد ذلك بصورة ليس اجزم منها في **فلسفة التاريخ**، وبصورة خاصة في **فلسفة الحق** وفي رايه أن **الجدلية التي** تستتبع ، بالنسبة الى غالبية السكان ، انخفاضا في مستوى الحياة يترتب عليه أن الناس لايستطيعون اذن ان يواجهوا حاجاتهم وهي تركز الثروات بين أيد أقلية نسبيا يقول ان هذه الجدلية تؤول بالضرورة الى وضع حيث المجتمع المدني ، بالرغم من **غزارة الثروات ، ليس على قدر كاف من الثروة** ، يعني انه لا يملك بعد الآن الوسائل القمينة بالقضاء على فرط البؤس عند السوقة (des Pöbels) *

وبالتالي فان المجتمع المدني** **يجد** نفسه مجبرا على الخروج من حدوده الخاصة والبحث عن أسواق جديدة والالتفات نحو التجارة الخارجية والاستعمار وان فوريه وحده ، من بين جميع معاصري هيغل ، قد شاهد بمثل هذا الوضوح وأدرك بمثل هذه القوة جدلية الاقتصاد البورجوازي

ولعل القارىء قد تبين أن البروليتاريا ليست بالنسبة الى هيغل الا « Pöbel غير قادرة على الانتفاع من الميزات الروحية للمجتمع المدني لم يكن هيغل يملك **أدنى فكرة** عن الفارق الهائل الذي يقوم بين البروليتاريا الحالية وبروليتاريا العصور القديمة ، بروليتاريا روما على سبيل المثال ؛ لم يكن يعرف أن الاضطهاد الذي تعاني منه البروليتاريا في المجتمع المعاصر تقود هذه الطبقة بالضرورة الى رد الفعل وانها سوف تخلف البورجوازية بعيدا جدا خلفها من وجهة النظر الفكرية لكن الاشتراكيين

---

* **فلسفة التاريخ** ، ص ٢٨٥ ، **وفلسفة الحق** ، الفقرة ٢٤٣ .

** انه يقصد انكلترا بصورة رئيسية

لطوباويين ما كانوا يعرفون ذلك أيضا هم الذين لم تكن البروليتاريا بالنسبة اليهم ايضا سوى Pobel »، جديرة تماما بالشفقة والعطف ، لكن عاجزة عن أية مبادرة. ان الاشتراكية **العلميـــة** وحدها قد عرفت كيف تفهم الاهميـــة التاريخيـــة الهائلة للبروليتاريا الحديثة

لنلخص أن هيغل على اعتباره مثاليا ، ما كان يستطيع أن يتصور التاريخ الا من وجهة نظر مثالية لقد استخدم كل جبروت عبقريه والموارد العملاقة لجدليته كي يضفي طابعا علميا نوعا ما على التصور المثالي للتاريخ وكانت نتيجة المحاولـــة الاخفاق ويقال أحيانا أن النتائج التي انتهى اليها لم تكن تكفيه وأنه قد وجـــد نفسه ملزما بالهبوط من القمم المضبة للمثالية الى الارض الحسية للشرط الاقتصادي. **وفي كل مرة التجأ الى الاقتصاد كان ينقذه من العثرات التي أوقعته مثاليته فيها . وهكذا يتبين أن التطور الاقتصادي هو الشرط المتقدم الذي يحدد مجرى التاريخ بأسره .**

وهذا ما حدد اتجاه العلم اللاحق ان الانتقال الى المادية الذي تحقق بعد وفاة هيغل ما كان يمكن بعد الآن أن يكون مجرد عودة الى المادية الميتافيزيائية الساذجة للقرن الثامن عشر كان لابد للمادية ، في المجال الـــذي يعنينا هنا ، مجال تفســير التاريخ ،، أن تلجأ بصورة رئيسية الى **الاقتصاد وما كان لاية مسيرة اخرى الا أن تكون تقهقرا لا تقدما بالمقارنة مع الفلسفة الهيغلية للتاريخ**

أن يكون للمرء تصور مادي عن الطبيعة لا يعني بالضرورة أن يملك تصورا ماديا عن التاريخ لقد كان ماديو القرن الماضي ينظرون الى هذا التاريخ بأعين المثاليين ، ومثاليين سذج جدا وحين كانوا يعالجون تاريخ المجتمعات البشرية ، فقد كانوا ينصرفون الى تفسيره **بتاريخ الفكر** وكانت حكمة أناكسا غوروس الشهيرة القائلـــة

ان العقل يحكم العالم ترتد بالنسبة اليهم الى فكرة أن **العقل** الانساني **يحكم التاريخ.** وكانت الصفحات القاتمة من هذا التاريخ تحملون مسؤوليتها لاخطاء هذا العقل واذا كان سكان بلد ما يتحملون بصبر نير الطغيان ، فانما السبب الوحيد في ذلك انهم لم يفهموا بعد ميزات الحرية واذا كانوا يعيشون في التطير فالسبب في ذلك انهـم ينساقون مع تضاليل الكهنة الذين تخيلوا الدين في مصلحتهم الخاصة واذا كان الجنس البشري يعاني من الحرب فالسبب في ذلك أنه لم يعرف أن يدرك أن الحرب مدمرة. وهكذا دواليك . . ولقد قال أحد المفكرين الكبار في مطلع القرن الماضي ، جان ـ باتيست فيكو **« ان مجرى الافكار يتقرر بمجرى الاشـــياء »** وكان الماديون يفكرون على النقيض من ذلك تماما ان مجرى الأشياء في المجتمع يتقرر بمجرى الأفكار وهـــذا المجرى بما لا ندري ماذا قواعد المنطق الصوري ، أو تراكم المعارف على سبيل المثال.

وكانت مثالية هيغل المطلقة بعيدة جدا عن مثالية الفلاسفة الساذجة واذا كان هيغل يكرر بعد اناكساغوروس ، ان العقل يحكم العالم فهذا لا يعني مطلقا في فمه أن العالم يحكمه فكر الانسان واما ان الطبيعة نظام عقلاني ، فانه لا يترتب على ذلك مطلقا أنها تتمتع بالوعي .

« ان حركة النظام الشمسي تتم وفق قوانين ثابتة ، وهذه القوانين تشكل عقل هذا النظام لكنه لا الشمس ، ولا الكواكب التي تدور حولها وفقا لهذه القوانين ، تملك الوعي بذلك*

واما الانسان ، الذي يتحلى بالوعي ، فانه يحدد لعمله اهدافا محددة ؛ لكن التاريخ لايمضي كما هي رغبة البشر ان كل فعل انساني يترافق بنصيب مما هو غير موقع ، وهذا النصيب هو الـذي يشكل في الاغلب او بالاحرى على الدوام المكسب الاكثر جوهرية للتاريخ ؛ انه هو الذي يؤدي الى اكتمال الروح العمومي

في التاريخ العمومي ينجم عن الاعمال الانسانية شيء ما غير ما كانت تسعى اليه**. »

ان البشر يتصرفون كما تتطلب مصلحتهم لكن عاقبة الفعل شيء جديد شيء من المؤكد انه كان محتوى في هذا الفعل بيد انه لم يكن مطلقا في الشعور ولا في النيـة

ان الدولة والشعوب والافراد يسعون الى غايات خاصة ، فردية ، ومن وجهـة النظر هذه فمما لا ريب فيـه انهم عاملون **واعون ومفكرون** لكنهم يحققون غايات الروح العمومي بصورة لا شعورية ، وهم يلاحقون بصورة شعورية غاياتهم الخاصة (التي تشهد عادة على بعض الطموحات المشتركة الى الخير والعدل)

لقدكان قيصر، في روما، يريد الملكية؛ ذلك كان هدفه الشخصي ؛ لكن الملكية في ذلك الحين كانت ضرورة تاريخية ؛ وهكذا كان قيصر ، وهو يسعى الى تحقيـق اهدافـه الشخصية يخدم الروح العمومي وبهذا المعنى نستطيع ان نقول ان الشخصيات التاريخية والشعوب هي **ادوات عمياء للروح** الذي يحملها على العمل لحسابه ملوحا بطعم الغاية الشخصية ومستخدما في سبيل نخسها **الهوى** الذي لا يتحقق بدونه اي شيء عظيم في التاريخ

ليس ههنا حيال البشر اية صوفية « للاشعوري ان الفعـل ينعكس على الدوام في الفكر لكن هذا الانعكاس ليس هو الذي يقرر التطور التاريخي ان **مجرى الاشياء** لا يتقرر **بمجرى الافكـار** ؛ انه يتقرر بعنصر خارجي مستقل عن الارادة ومستتر عن الشعور

ان احتمـال الحرية الانسانية والحكم الانسـاني يفسح المكـان **للقوانـين** ، يعني **للضرورة** وفي هذا يقوم التفوق الذي لا شك فيه للمثالية **المطلقة** » على مثاليـة الفلاسفة الساذجة ان المثالية الاولى تمثل بالمقارنة مع المثالية الثانية ما تمثلـه الوحدانية بالمقارنة مع الصنمية او السحر ان السحر لا يترك اي مكان لقوانـين الطبيعة انه يفترض أن في الامكان في اية لحظة تحويل مجرى الاشياء من قبل

---

* **فلسفة التاريخ** ، ص ١٥

** المصدر نفسه ، ص ٣٥

الساحر وان الوحدانية تنسب الى الله اقامة قوانين الطبيعة ، لكنها تنادي ، في صورتها الاعلى على الاقل ، حين تكف عن قبول المعجزة ، بان مجرى الاشياء قداخضع بصورة حاسمة لقوانين بفعل الخلق ؛ وبذلك تحتفظ للعلم بميدان فسيح للعمل وكذلك فان المثالية المطلقة حين تسعى الى تفسير التطور التاريخي في شيء ما لا يتوقف مطلقا على حرية الانسان ، تعين للعلم مهمةتفسير الظواهر التاريخية بقوانين، وحل القضية يجعل فرضية الروح عديمة الجدوى ، هذا الروح الذي يتبين أنه غير صالح على الاطلاق لهذه الرسالة

اذا كان التصور الذي صنعه الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشرعن التطور التاريخي يرتد الى التأكيد بأن العقل الانساني يحكم العالم ، فانه يمكن صياغة ماكانوا يتوقعونه من المستقبل كما يلي من الآن فصاعدا سوف يعاد ترتيب جميع الامور وتنظيمها من قبل عقل مستنير ، من قبل الفيلسوف . وانه لامر ذو مغزى أن مثالية هيغل المطلقة كانت تعين للفلسفة دورا أكثر تواضعا حتى درجة كبيرة

اننا نقرأ في مقدمة فلسفة الحق

« فيما يخص العقيدة المتعلقة بما يجب أن يكونه العالم فان الفيلسوف يصل على الدوام متأخرا جدا ان هذا الفكر العمومي لا يظهر الأ حين يكون الواقع قد اختتم عملية تشكله وارتدى مظهرا مكتملا بصورة مسبقة وحين تبدأ الفلسفة في رسم زخارفها الرمادية على القاع المكفهر للواقع ، فانها لا تستطيع بعد الآن أن ترد اليه شبابه ؛ ان كل ما تستطيعه هو ان تفهم ان بوم منيرفا لا يطير الا في الغسق*

ومن المؤكد أن هيغل يمضي بعيدا جدا وحين نسلم له بأن الفلسفة لا تستطيع أن تحيي نظاما اجتماعيا باليا عفا زمانه نستطيع أن نسأله عما يمنع الفلسفة من أن تدلنا على طابع النظام الاجتماعي الجديد الذي سيحل مكان النظام القديم وذلك في خطوطه الكبرى طبعا ان « الفلسفة تنظر الى الظواهر في صيرورتها ؛ والصيرورة تملك مظهرين الولادة والدمار واننا لنستطيع أن نعتبر هذين المظهرين متميزين في الزمان أما في الطبيعة ، وعلى الاخص في التاريخ فان الصيرورة هي في كل لحظة عملية مزدوجة ان ما شاخ يضمحل في نفس الوقت الذي يولد فيه شيء جديد من انقاضه أتظل هذه العملية الخاصة بتكوين الجديد مغلقة الى الابد على « الفلسفة ؟ ان « الفلسفة » تعرف ما هو كائن وليس ما يجب أن يكون في رأي هذا الانسان أو ذاك. لكن ما هو كائن في كل لحظة ؟ شيء ما شائخ يهلك وشيء ما جديد في سبيله الى الولادة واذا لم تكن الفلسفة تعرف الا ما يهلك فقط، فانها لا تملك اذن الا معرفة وحيدة الجانب ، وهي لا تستطيع أن تحقق رسالتها التي تستقيم في معرفة ما هو كائن وان هذا ليناقض يقين هيغل في الجبروت المعرفي للعقل

---

* فلسفة الحق ، ص : XXIII — XXIV

ان المادية الحديثة تجهل هذه المبالغة انها قادرة ، على اساس ما هو كائن ، وما يهلك ، على اصدار حكم على ما هو صائر ويجب الا ننسى على اية حال أن فكرتنا عما هو صائر تختلف بصورة جوهرية عن فكرة الواجب أن يكون (sein sollenden) التي تقصدها عبارة هيغل عن بوم منيرفا عندنا أن ما هو صائر هو العاقبة الضرورية لما يهلك واذا كنا نعرف ما هو صائر فهو هذا الشيء وليس هذا الشيء الآخر فاننا ندين بذلك للعملية الموضوعية للتطور الاجتماعي التي تهيئنا لمعرفة ما هو في سبيله الى الصيرورة اننا لا نعارض الوجود الخارجي بفكرنا .

ولم تكن الامور على هذا الغرار من جانب الناس الذين كان هيغل يناضل ضدهم . لقد كانوا يتخيلون أنه في مقدور الفكر أن يعدل على هواه المجرى الطبيعي لتطور الوجود ولذا فانهم ما كانوا يرون من الضروري في حال من الاحوال دراسة هذا المجرى أو أخذه بعين الاعتبار لقد كان تصورهم عن الواجب أن يكون لا يعتمد على دراسة الواقع الخارجي ، بل على الاحكام التي كانوا يصدرونها في لحظة معينة على النظام الاجتماعي الوحيد الطبيعي والعادل في نظرهم وعلى أي حال فان هذه الاحكام قد كان يوحى بها اليهم بكل بساطة من قبل هذا الواقع المحيط ، وعلى الاخص من قبل مظهره السلبي وكان الاقتداء بها معناه ، في واقع الامر اتباع مؤشرات الواقع لكنها مؤشرات مسجلة دونما نقد على الاطلاق ، دونما أدنى محاولة للتحقق من صحتها بدراسة الواقع الذي أوحى بها كان ذلك أشبه بالرغبة في معرفة شيء ما دون مشاهدته مباشرة ، بل بمشاهدة انعكاسه في مرآة مقعرة وكانت الاخطاء والخيبات أمورا لا مناص منها اذن وبقدر ما كان هؤلاء الناس ينسون أن فكرتهم عن الواجب أن يكون تصدر عن الواقع الخارجي كانوا يزدادون ايمانا بأن هذه الفكرة سوف تتيح لهم ان يفعلوا في الواقع على هواهم بينما كانت حفرة متزايدة العمق أبدا تنحفر بين ما يريدون وما ينتهون اليه ما أبعد المجتمع البورجوازي الحالي عن مملكة العقل التي كان الفلاسفة يحلمون بها ان جهل الواقع لم يكن يخلصهم على الاطلاق من قبضة قوانينه كل ما في الامر انهم كانوا يحرمون انفسهم من أية امكانية للتكهن بفعل هذه القوانين واستخدامها لاغراضهم وهذا هو السبب في أن هذه الاغراض قد تبين أنها عصية المنال

ان التشبث بوجهة نظر الفلاسفة ما كان يتيح للمرء أن يتجاوز النقيضة المجردة بين الحرية والضرورة انه ليبدو للوهلة الاولى أنه اذا كانت الضرورة تسود التاريخ، فانه لا يمكن أن يتوفر في هذا التاريخ مكان لفعالية الانسان الحرة وان المثالية الالمانية هي التي صححت هذه الخطيئة الفادحة ولقد بين شيلنغ من قبل أنه اذا أمعنا

النظر جيدا ، فان **الحرية تتبين ضرورة والضرورة حرية*** ولقد حل هيغل بصورة حاسمة التناقض بين الحرية والضرورة فقد بين أننا لا نكون أحرارا الا في حدود معرفتنا لقوانين الطبيعة ، والتطور الاجتماعي والصيرورة التاريخية وانا بقدر ما نخضع لها نستند اليها وذلك كان أروع اكتشاف سواء في ميدان الفلسفة أم في ميدان العلوم الاجتماعية وهو الاكتشاف الذي لم ينتفع منه كليا على أي حال الا المادية المعاصرة ، المادية الجدلية

ان التفسير المادي للتاريخ يفترض الجدلية كمنهج للفكر ولقد كانت الجدلية معروفة قبل هيغل ، لكن هيغل قد عرف كيف يستخدمها كما لم يفعل ذلك أي من سابقيه ولقد أصبحت بين يدي هذا المثالي العبقري أداة رائعة من أجل معرفة كل ما هو موجود

انـه يقول

ان الجدلية هي روح البحث العلمي ، وهي تشكل المبدأ الوحيد الذي يمكن بمساعدته أن يحصل مضمون العلم على رابطة وضرورة محايثتين ان الانحراف عن التحديدات العقلانية المجردة يتراءى للشعور المشترك على انه ايحاء من الحس السليم ، وذلك بصورة متطابقة مع الحكمة القائلة عش ودع الآخرين يعيشوا ، والاشياء جميعا تمثل اذن على انها سواء في الجودة بيد أن حقيقة الامر تستقيم في أن المنتهي لايحد من الخارج فحسب، بل يجب أن يدمر ويحول الى ضده ، من جراء طبيعته الباطنة بالذات**

وبقدر ما يبقى هيغل مخلصا للطريقة الجدلية ، فانه يثبت أنه مفكر تقدمي حتى درجة عظيمة

---

* يبين شيلنغ أن الحرية لا تدرك دون الضرورة « اذا لم تكن أية تضحية ممكنة دون القناعة بأن النوع الذي ننتسب اليه لن يتوقف قط في حركته ، فكيف يمكن ان تكون هذه القناعة ممكنة اذا كانت تقوم على الحرية وحدها ؟ لابد أن يكون ههنا شيء ما أسمى من الحرية الانسانية نستطيع أن نعتمد عليه بصورة مؤكدة في سلوكنا وفي عملنا وبدون ذلك لا يمكن لاي امرىء أن يجازف قط في القيام بعمل جسيم العواقب ، لانه حتى أخذ بعين الاعتبار الحصيف هذه العواقب ، فانها يمكن ان تعدل حتى درجة كبيرة من جراء تجاوز حرية أخرى بحيث يمكن أن يترتب على الفعل شيء ما مختلف كل الاختلاف عما كان مقصودا في الاصل وان الواجب نفسه لا يمكن أن يأمرني بأن أظل لا مباليا حيال عواقب أفعالي انطلاقا من البرهة التي حزمت فيها امري ؛ ذلك انه اذا كان فعلي يتوقف علي ، يعني يتوقف على حريتي، فان عواقب أفعالي ، أو ما سوف يتطور انطلاقا منها ، بالنسبة الى نوعي بأكمله وهي أبعد ما تكون عن التوقف على حريتي ،ترجع الى شيء ما مختلف كل الاختلاف واسمى (« System des transzendentalen Idealismus », Schelling Werke, III. Band. Stuttgart und. Augsrburg 1859, S. 395) . [نظام المثالية المتسامية]

** الموسوعة ، الفقرة ٨١ والملحق .

انـا نقول ان الاشياء جميعـا (يعني كل ما هـو منتـه بصفته هـذه) يجب أن تحال الى محكمة الجدلية ـ ومن جراء ذلك نعرف أن هذه الجدلية على اعتبارها القوةالعمومية التي لا تقاوم المدعوة الى تدمير جميع الاشياء ، مهما بدت باقية »

ولذا فان هيغل على حق تام حين يقول انه أمر بالغ الاهمية أن نفهم الجدليـة جيدا ونتمثلها بصورة جادة ذلك انها الاداة العلمية الجوهرية التي ورثتها الماديـة المعاصرة خليفة المثالية الالمانية

وعلى أي حال فانه لم يكن في مقدور المادية أن تستخدم الجدلية في شكلهاالمثالي . كان لا بد بادىء الامر من تخليصها من غلافها الصوفي

ان أعظم الماديين ، وهو رجل لا يتخلف في عبقريته عن هيغل مطلقا ، وهو المكمل الحقيقي لهذا الفيلسوف الكبير ، كارل ماركس ، قد قال بحق ان طريقتـه تمثـل النقيضة التامـة لطريقة هيغل

« عند هيغل أن حركة الفكر التي يشخصها تحت اسم الفكرة هي مبدعة الواقع ، هذا الواقع الذي لا يعدو كونه الشكل الظاهري للفكرة وعندي ، على العكس ، أن حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الحقيقية ، المنقولة الى دماغ الانسان والمترجمة فيه*

ان الفلسفة المادية ترتفع بفضل ماركس الى تصور منسجم ومنطقي عن العالم ، وهو تصور يشكل كلا واحدا وانا لنعرف من قبل ان ماديي القرن الاخير قد ظلوا مثاليين سذجا جدا في ميدان التاريخ ولقـد طرد ماركس المثالية من هذا الملجـأ الاخير لقد راى ، مثله مثل هيغل ، في تاريخ البشرية عملية تطورية خاضعة لقوانين ومستقلة عن الحرية البشرية ولقد نظر ، مثله مثل هيغل ، الى جميع الظواهر في عملية ولادتها ودمارها ؛ وكهيغل لم يكتف فقط بتفسير ميتافيزيائي عقيم للظواهر التاريخية واخيرا ، مثله مثل هيغل ، سعى لان يرد الى ينبوع مشترك أوحد جميع العوامل الفاعلة في الحياة الاجتماعية والمؤثرة في بعضها بعضا وهو لم يجد هذا الينبوع في الروح المطلق ، بل في التطور الاقتصادي الذي لم يكن لهيغل بد كما رأينـا ، من اللجوء اليه عندما تبين أن المثالية سلاح عديم الجدوى والنفع ، حتى بين يديـه الماهرتين والقويتين ومهما يكن من شيء ، فان ما ظل عند هيغل حدسا طارئا عبقريا بصورة اكثر أو اقل قد بات عند ماركس استقراء علميا دقيقا

أن المادية الجـدلية المعاصرة قـد ادركت بصورة أفضل مـن المثالية الحقيقـة التالية ان البشر يصنعون التاريخ دون شعور منهم بذلك ان مجرى التاريخ ، من وجهة نظرها نقرره في آخر تحليـل ليس الارادة الانسانية بل تطور قوى الانتـاج المادية وان المادية لتعرف كذلك في أية لحظة « يطير بوم منيرفا » ؛ لكنها لا ترى في انطلاقة هذا الطير ، كما في حالات عديدة أخرى ، أي شيء سري ، لقد عـرفت كيف تطبق على التاريخ العلاقة التي أقامتها المثالية بين الحرية والضرورة لقدصنعالبشر ،

* [راس المال ، المقدمة ، المجلد الاول ، اجزء الاول ص ٢٥ ، منشورات دار اليقظةالعربية].

ولابد لهم ان يصنعوا ، تاريخهم **بصورة لا شعورية** ، بقدر ما تفعل القوى المحركة للتاريخ دون درايتهم . في الظل لكنه اذا ما اكتشفت هذه القوى مرة ، اذا ماعرفت قوانين فعلها فان البشر سوف يصبحون قادرين على استخدامها على اخضاعها لعقلهم وان جدارة ماركس لتقوم في اكتشافه هذه القوى واخضاع فعلها لدراسة بالغة العناية ان المادية الجدلية التي يرى المراؤون انها لابد أن تحول الانسان الى رجل آلي تفتح الابواب للمرة الاولى في التاريخ أمام مملكة الحرية والفعل الشعوري لكنه لا يمكن الدخول الى هذه المملكة الا بشرط التعديل التام للفعالية الاجتماعية الحالية وان المرائين ليدركون ذلك ، أو يستشعرونه على الاقل ولذا فان التفسير المادي للتاريخ يحزنهم بصورة عميقة ؛ وهذا هو السبب في اننا لا نجد مرائيا يستطيع او يأمل في أن يفهم الماركسية أو يتمثلها بمجموعها لقد كان هيغل يعتبر البروليتاريا رعاعاً أما بالنسبة الى ماركس والى الماركسيين فان البروليتاريا قوة هائلة حاملة المستقبل ان البروليتاريا وحدها قادرة على تمثل عقيدة ماركس (ونحن لا نتحدث عن الاستثناءات) وأن تتشبع في الواقع ، كما نرى ،بمضمونها بصورة عميقة

ان المرائين في جميع البلدان يدعون في ضوضاء بأن الادب الماركسي لا يتضمن اي مؤلف هام باستثناء **رأس المال** أولا هذا خطأ ؛ ومن بعد ، حتى اذا كان هذا الادعاء صحيحا فان اية حجة لا تترتب عليه ايمكن الحديث عن ضحالة فكر يستولي كل يوم على جماهير من التلامذة ويفتح امام طبقة اجتماعية كاملة منظورات جديدة شاسعة

يتحدث هيغل عن الشعب الاثيني الذي كانت تمثل أمامه مآسي ايزخليوس وسوفوكليس . والذي تحدث عن أجله بيريكليس والذي خرج منه « رجال ظلوا امثلة كلاسيكية لقرون طويلة وانا لنفهم حماسة هيغل ومهما يكن من شيء فلابد من ملاحظة أن شعب أثينا كان **شعباً من ملاكي العبيد** ، وان بيريكليس لم يكن يتحدث الى العبيد ، وان الآثار الفنية لم تكن موجهة الى هؤلاء العبيد أيضا ان العلم في الوقت الحاضر يتوجه الى الشغيلة ، ونحن على حق تام في أن نتطلع باعجاب الى الطبقة العاملة المعاصرة التي يتوجه اليها أعظم المفكرين والتي يخاطبها اعظم الخطباء اليوم فقط تحقق الاتحاد أخيرا ، الصميمي والوثيق ، بين العلم والعمال ، وهو اتحاد يضع أسس عصر خصب وسام للتاريخ العمومي

يقال احيانا ان وجهة نظر الجدلية تتوحد مع وجهة نظر التطور ومما لاجدال فيه أن بين الطريقتين نقاط احتكاك ومع ذلك فان بينهما فارقا هاما ، فارقا بالغ العمق ، ولابد لنا ان نعترف انه في غير مصلحة نظرية التطور ان التطوريين في الوقت الحاضر يضيفون الى مذهبهم نسبة لا بأس بها من الروح المحافظ فهم يريدون أن يبينوا أنه ليس في الطبيعة كما ليس في التاريخ وثبات على الاطلاق ولكن الجدلية تعرف بصورة جيدة جدا أن الوثبات **محتومة** في الطبيعة كما في الفكر البشري وفي

التاريخ بيد انه لا يغيب عن نظرها حقيقة اخرى لاجدال فيها ان نفس **العملية المتصلة الواحدة هي التي تجري في سائر مراحل التبدل وان كل ما تسعى اليه هو ان تدرك** السروط التي يؤول التبدل المتصل فيها بالضرورة الى وثبة*

وعند هيغل أن الطوباويات **تملك اهمية عرضية في التاريخ انها تشهد على تناقضات العصر وتلك هي بالضبط وجهة نظر المادية الجدلية ان الحركة العمالية** التي لا تكف عن النمو في الوقت الحاضر لا تستقيم شروطها في حال من الاحوال في الخطط الطوباوية **لمختلف المعلمين ، بل في قوانين الانتاج والمبادلة وهذا هو السبب** في ان الطوباويين في الوقت الراهن ، على خلاف الطوباويين فيما مضى هم رجال سياسة يسعون الى ايقاف دولاب التاريخ ان **الصفة الاشد تميزاً لعصرنا الراهن هي أن الاستنجاد بالطوباوية لا يصدر عن المصلحين بل عن خصومهم الطوباويين المدافعين عن الواقع الراهن قليل التشويق ، الذين يريدون أن يقتنعوا وان يقنعوا** الآخرين بأن هذا الواقع يملك جميع الكمالات وبأنه يكفي القضاء على ما أمكن أن يتراكم فيه من تجاوزات وان هذا ليذكرنا بصورة لا تغلب بحكم هيغل عن الاصلاح:
انـه يقول (

لقد كان الاصلاح نتيجة **لفساد الكنيسة** بيد أن فساد الكنيسة لم يكن **في** حال من الاحوال نتيجة المصادفة ، أو **تجاوزات** السلطان والقوة فقط ان الناس يعتبرون على العموم التجاوزات على أنها **السبب** في الفساد ، مضمرين وراء ذلك أن **الاساس جيد وأن الموضوع** كامل في ذاته ، لكن الاهواء والمصالح الذاتية والارادة الطارئة للبشر عامة تستخدم **هذا** الخير على اعتباره وسيلة من أجل ارضاء مطامح شخصية، وبنتيجة ذلك فانه لايبقى امامنا الا القضاء على الصدفة

---

* لقد برهن هيغل بوضوح مرموق العبث القائم في ارادة تفسير الظواهر من وجهة نظر التبدل المتصل واليكم ما يقوله في هذا الشأن

« حين نريد أن نفهم **ظهور أو اختفاء** شيء ما ، نتخيل عادة أننا سوف نفسر الظاهرة بتمثيلنا هذا الظهور أو هذا الاختفاء في شكل **التواصل** ولكن تغيرات الوجود لاتتحقق بالانتقال من كمية الى أخرى فحسب ، بل بالانتقال من الفارق النوعي الى الفارق الكمي والعكس بالعكس ، وهو انتقال **يحطم التواصل** يستبدل الظاهرة الواحدة بظاهرة أخرى تتميز منها نوعيا ان نظرية التواصل قد نشأت عن **الفكرة القائلة** ان ما يظهر هو موجود بصورة مسبقة في الواقع ، وان السبب الوحيد في عدم اجتذابه للاهتمام هي أبعاده الضعيفة وكذلك حين نتحدث عن الدمار التدريجي نتوهم ان لاوجود ظاهرة معينة ، أو الظاهرة الجديدة التي يجب أن تحل محلها ، موجودة مسبقا وان كنا **لا** نلاحظها بعد لكننا نحذف بهذه الطريقة كل مفهوم عن الظهور والاختفاء ان تفسير الظهور والاختفاء بتواصل التغير معناه ارجاع القضية الى لغو تفه وتمثل ما يظهر أو ما يزول وكأنه معطى من قبل ، يعنى قد ظهر بصورة مسبقة أو زال بصورة مسبقة »

ان وجهة النظر هذه تنقذ الموضوع وتجعل من الشر أمرا خارجيا بيد أن الموضوع الذي يساء استعماله مصادفة لا يمكن أن يكون سوى أمر ثانوي ؛ ان الامور تجري بصورة مغايرة تماما حين يكون المقصود شرا كبيرا[1] وعموميا في موضوع هو في عمومية الكنيسة وشمولها* »

ويجب الا نعجب اذا كان هيغل غير محبوب من جانب الناس الميالين الى الاستنجاد بالثغرات الطارئة حين يكون المقصود تبدلا أساسيا في الموضوع نفسه انهم يخافون ما في الروح الذي تشربت فلسفة هيغل به من جراة وجذرية

لقد كان زمان واجه هيغل فيه معارضة من جميع الذين ينتسبون أكثر أو أقل الى معسكر المجددين ان ما كان يبعدهم عن الفيلسوف هو موقفه البورجوازي الصغير حيال الواقع البروسي في ذلك العصر لقد كان خصوم هيغل هؤلاء على خطأ كبير كان **الغلاف** الرجعي يخفي عنهم **نواة** النظام التجديدية وعلى أي حال ، فان نفورهم من المفكر الكبير كان يقوم على حوافز كريمة تفرض الاحترام وفي ايامنا الراهنة ، فان اولئك الذين يدينون هيغل هم رجال علم البورجوازية ؛ وانهم ليدينونه لانهم يفهمون ، أو على الاقل يحسون بصورة غريزية الروح التجديدي لفلسفته وهذا هو السبب في أنهم يغضلون اليوم السكوت على فضائل هيغل ، وأنهم يعارضونه عن طيبة خاطر بكانط ، وأنه لا يوجد على وجه التقريب خريج شاب الا ويعتقد انه مدعو لان يرفع الى السحب « مفكر كينسبرغ انا نحيي كانط ، ولا نجادل في فضائله ؛ لكنه يبدو لنا أمرا مشكوكا فيه جدا أن ميل الفلاسفة البورجوازيين الى النقد الكانطي يتشبث بصورة حصرية على وجه التقريب بنقاط هذا النقد الضعيفة وبالفعل ، فان تلك هي **الازدواجية** الخاصة بالنظام الذي يستميل هؤلاء الايديولوجيين بصورة خاصة ولكن الازدواجية شيء مناسب جدا في مجال « **الأخلاق** » ، **فهي** تتيح بناء المثل العليا الاكثر اغراء ، والقيام بالحملات الاعظم جراة في « أفضل العوالم دونما ادنى اهتمام في تحقيق « **المثل العليا** » **في الواقع** ليس شيء عملي أكثر من ذلك ومثال ذلك أنه يمكن في المثل الاعلى القضاء على الطبقات وعلى استثمار طبقة من قبل طبقة أخرى ، لكن في الواقع الدفاع عن الدولة الطبقية وهكذا دواليك ويرى هيغل أنه ليس ثمة اهانة بحق العقل الانساني أسوأ من الرأي الشائع الذي ينص على أن المثل الاعلى لا يمكن أن يتحقق ان كل ما هو عقلاني واقعي وكل ما هو واقعي عقلاني » انه لمن المعروف أن هذه الصيغة قد وفرت الفرصة لقدر كبير من سوء الفهم ، في المانيا والخارج على حد سواء ، وبصورة خاصة جدا في روسيا ويجب أن نفتش عن السبب في ذلك في عدم الفهم الواضح للمعنى الذي ينسبه هيغل الى كلمتي « **عقلاني** » و « **واقعي** » . ولقد كان في الامكان الاعتقاد، على النقيض من ذلك ، بأنه حتى اذا أخذت هاتان الكلمتان في تفسيرهما المبتذل ،

---

* **فلسفة التاريخ** ، ص : ٤٧٩ ـ ٤٥٨

المألوف ، فانه لا يمكن ان يتطرق ادنى شك على الاطلاق الى ما في القسم الاول من الصيغة من روح ثوري « كل ما هو عقلاني واقعي » ذلك أن هذه الحكمة اذا ما طبقت على التاريخ تشهد فقط على القناعة الراسخة بأنه لا يمكن لشيء مما هو عقلاني ان يظل « في ميدان العالم الآخر » ، وأن كل ما هو عقلاني يجب أن ينتقل الى الواقع. وبدون هذه القناعة المشجعة جدا كان الفكر التجديدي يفقد كل أهمية علمية وعند هيغل أن التاريخ يمثل تظاهر الروح العمومي (يعني العقل) واكتماله في الزمان كيف يمكن من وجهة النظر هذه تفسير التبدل المتصل للاشكال الاجتماعية ؟ اننا نستطيع ذلك بشرط وحيد ، الا وهو أن نتذكر انه ، في الصيرورة التاريخية ، « يصبح الجنون عقلا والشر خيرا حين يتحول العقل الى نقيضه ، حين يصبح جنونا ، فانه لا يجوز أبدا في رأي هيغل التهيؤ للانصراف لقد خرق قيصر الدستور الروماني باستيلائه على السلطة وان هذا الخرق ليتراءى جريمة ، وكان يبدو أن خصوم قيصر على حق تام في اعتبار أنفسهم حماة الحق طالما انهم يقفون على أرض القوانين بيد أن الحق الذي كانوا يدافعون عن قضيته « كان حقا صوريا يفتقر الى روح الحياة وقد تخلت الآلهة عنه » ولذا فان خرق هذا الحق لا يشكل جريمة الا من وجهة نظر الشكل ؛ وبالفعل ، فليس أسهل من الغفران لجوليوس قيصر خرقه للدستور

وبشأن سقراط ، المحكوم عليه لانه اعتدى على الاخلاق السائدة اليكم ما يقوله هيغل

« لقد كان سقراط بطلا لانه فهم بصورة واعية المبدأ الاسمى ونادى به ان المبدأ الاسمى يملك حقا مطلقا ذلك هو على العموم شرط الابطال في التاريخ العمومي فبوساطتهم يتحقق صعود العالم الجديد وان المبدأ الجديد ، من جراء مناقضته للمبدأ القائم ، يبدو مبدأ هداما وللسبب نفسه يبدو أن الابطال يعتدون على القوانين وانه لمحكوم عليهم ، فرديا ، بالفناء ؛ لكن مبدأهم يواصل فعله ، وان يكن في صورة أخرى ، وانه لينسف ماهو قائم*

ان هذه الفقرة واضحة بما فيه الكفاية بحد ذاتها وانها لتزداد وضوحا اذا تذكرنا ان الابطال الافراد ليسوا هم وحدهم الذين يعتلون خشبة المسرح بل الشعوب حالما تصبح حاملة المبدأ الجديد للتاريخ العمومي وحين تقوم هذه الحالة ، فان حق الشعوب يمارس على حقل شاسع جدا

ان فكر الشعوب الاخرى يفقد حقوقه حيال هذا الحق المطلق في كونه حامل الفكر العمومي في مرحلة معينة من صيرورته ان هذه الشعوب قد عفا الزمان عليها ؛ انها لا تنتسب الى التاريخ العمومي**

---

* تاريخ الفلسفة ، القسم الثاني ، ص ١٢٠

** فلسفة الحق ، الفقرة ٣٤٧

وانا لنعرف ان حامل المبدأ الجديد للتاريخ العمومي في الوقت الحاضر ليس شعبا بل طبقة لكننا نظل اوفياء لروح الفلسفة الهيغلية اذا قلنا ان طبقات المجتمع الاخرى لن تجد مكانها في التاريخ العمومي الا بقدر ما سوف تعرف كيف تحمل تأييدها الى الطبقة المقصودة

ان العبرة التي اورثتنا اياها المثالية الالمانية الكبيرة هي ان الطموح الى عظم الهدف التاريخي يجب ان يكون جارفا لا يقاوم .

***

(تنبيه وملحوظات

من أجل الترجمة الروسية لكتاب انجلز

لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية)

تنبيـه من المترجم

اما ننشر ترجمة الكتاب المرموق الذي وضعه انجلز عن فيورباخ ، فليسمح لنا بأن نقول كلمات قليلة عن الاهمية التي يمكن أن يحظى بهابالنسبة للقارىء الروسي(١).

ان الرجعية الظافرة تتدثر عندنا في جملة اردية التنكر الاخرى برداء الفيلسوف كما تشهد على ذلك مجلة **مسائل الفلسفة وعلم النفس**(٢) ان تيار الرفض للستينات يتهم حاليا بالطيش الذي لا أساس له ، بينما عشاق الحكمة»(٣) من أمثال أستافييف أو لوباتين يعتبرون فلاسفة كبارا انظر على سبيل المثال ما يرويه السيد ياكوب كولوبوفسكي بشأن « الفلسفة عند الروس في الملحق الذي كتبه لترجمة **تاريخ الفلسفة الحديثة** بقلم يوبرفيغ ـ هاينزه (٤)).ولا بد للاشتراكيين الروس بالضرورة أن يحسبوا حسابا لهذه الردة الفلسفة وبالتالي أن يعنوا بالفلسفة ولسوف يكون ماركس وانجلز المرشدين الاوثق لهم في هذا الميدان ، كما هي الحال في ميدان العلوم الاقتصادية والسياسية وانالكراسةالتي نضعها بين أيديهم تشكل المجموعة الاكمل لافكار هذين المفكرين الفلسفية

ولما كانت الكراسة الحالية ذات تحرير دقيق جدا فانه لم يكن لنا بد من تزويقها ببعض الملحوظات الايضاحية ولسوف تصادف أطول هذه الملحوظات في نهاية المؤلف ولقد وضعنا فيه كذلك ملحقين أحدهما (كارل ماركس **فروض عن فيورباخ**) موجود ايضا في الطبعة الالمانية ، بينما الملحق الثاني (كارل ماركس **المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر**) قد اسعير من Die heilige Familie der Kritik der kritischen Kritik, gegen Bruno Bauer und Comp (**العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي ضد برونو بوير وأمثاله**) لماركس وانجلز ، المنشور في فرانكفورت عام ١٨٤٥ وليست هذه الاستعارة مباشرة على اي حال ، فالمؤلف المقصود يشكل طرفة مكتبية(٥) لقد ترجمناه نقلا عن المجلة الاشتراكية الديموقراطية Neue Zeit التي أعادت نشره قبل سنوات قليلة(٦)

ان مناظرة ماركس وانجلز ضد برونو بوير وأمثاله (من أجــل برونو بوير انظر الملحوظة رقم ٤ تسجل عصرا جديدا في تاريخ الفكر انه الهجوم الكبير الاول الذي تشنه المادية الجدلية الحديثة ضد الفلسفة المثالية ان هذا الكتاب الــذي يتحلى باهمية عظمى سواء بالنسبة الى مغزاه التاريخي او بالنسبة الى مضمونــه الخاص (على الاقل بقدر ما نستطيع ان نحكم على ذلك من الفقرات التي نعرفها) يمكن ان يلعب اليوم أيضا دورا كبــيرا في روسيا حيث يستمر المؤلفون الاكثر تقدمــا في التمسك بوجهة نظر مثالية عن الحياة الاجتماعية ولسوف نعمل بكل طيبة خاطر على نشره بالروسية لو كان في متناول يدنا لكن لما كنا نجهل متى سوف يتم ذلك ، فاننا نكتفي في الوقت الراهن بترجمة فصل واحد منه* وان هذا الفصل الذي يمس بصورة وثيقة ما يقوله انجلز عن فيورباخ ، يشكل اجمالا كلا واحدا بحد ذاته ، وفيما يتعلق بثراء الفكر يتجاوز حتى درجة كبيرة الاعتبارات الضخمة التي كرسهــا لانج(٨) للمادية الحديثة في المؤلف الذي نعرفه واننا نستلفت بصورة خصوصية انتباه القراء الى الرابطة التي ينشئها ماركس بين الاشتراكية الطوباوية للقرن التاسع عشر والمادية الفرنسية للقرن الثامن عشر

ان صدور كتاب شتارك(٩) عن فيورباخ هو الذي حث انجلز على كتابة كراسته. وعلى أي حال فانه يتحدث فيها قليلا جدا عن هذا المؤلف بحيث وجدنا أن الاتيان على ذكره هنا لا طائل منــه ولسوف يجد القارىء المعلومــات الضروريــة عن ذلك في الملحوظة رقم ٥

حزيران ١٨٩٢

ج. بليخانوف

---

* لقد نشر الكتاب اليوم في المجلد الثاني من طبعة مهرنغ للمؤلفات المختارة لماركس وانجلز للمرحلة ١٨٤١ ١٨٥٠

(Gesammelte Schriften von K. Marx und Fr. Engels 1841 bis 1850)

[ملحوظة لطبعة عام ١٩٠٥] .

ملحوظـــات

١

[بخصوص العبارة « **ولم يكن هذا الرجل في الحقيقة سوى هنريخ هايني** ». **انظر** ص ٣٣ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

يقصد المؤلف مجموعة المقـالات عن المانيا التي نشرهـا هايني بادىء الامر في **مجلة العالمين** قبل أن يصدرها في مجلد مقدمة الطبعة الاولى مؤرخة في كانون الاول ١٨٣٤ ولسوف يجد القارىء هذا الكتاب المرموق(١٠) في الطبعة الكاملـة لمؤلفات هايني ومن سوء الحظ أن ترجمته الروسية تعرضت للتشويه بصورة رهيبة من قبل الرقابة

ان ارستوفان القرن التاسع عشر يعالـج فلسفة عصره بصورة مغايرة تمامـا للطريقة التي عامل بها الاثيني العبقري السفسطائيين واما لم يكتف **بفهم** الاهميـة الثورية للفلسفة الالمانية ، فقد **تعاطف** بحرارة معها بسبب أهميتها الثورية بالضبط . وعلى أي حال ، فان هايني في كتابه عن المانيا يتوسع بخصوص المغزى الثوري لكانط وكتابه **نقد العقل الخالص**< وهو مغزى يبالغ جدا فيه* > اكثر حتى درجة كبيرة مما يتوسع عن هيغل ولم يحكم على هيغل بمزيد من الحزم الا بعد عام ١٨٤٠ واننا لنجد في الفقرة المحتفظ بها من رسالته الاولى والوحيدة عن المانيا تبادلا ساخرا للاراء بين المؤلف و امبراطور الفلاسفة حين اظهرت بعض الحيرة أمام عبارة « كل ما هو موجود عقلاني راح يضحك بصورة غريبة وبين لي أنها تعني كذلك كل ما هو عقلاني **يجب** أن يوجد ومن ثم استدار في شيء من القلق لكنه حين تبين أن هنريخ بيهر هو الوحيـد الذي سمعه اطمأن من جديد ولا يهمنا من كان هنريخ بيهر ان ما يجب أن نسجله فقط هو أن هيغل اذا صدقنا هايني ، كان يدرك الجانب الثوري من فلسفته ويخاف ان يظهره حتى أية درجـة كان هيغل يدرك ذلك حقا ؛ ذلك سؤال آخر أيضا والكراسة الحالية تجيب عنـه وعلى أي حال ، فان ما لا يمكننا أن نرتاب فيه هو أن هايني لا يدخل في مقولة هؤلاء المفكرين قصيري النظر الذين كانوا يخشون **النتائج** المترتبة على الفلسفة الهيغلية وهو لم يغير دون قصد ، في الحوار الذي يرويه ، صيغة هيغل الشهيرة مستبدلا « **كل ما هو موجود** » بـ « **كل ما هو واقعي** » . مما لا ريب فيه أن هايني كان يريد أن يبرهن أن العبارة تحتفظ **بمعنى ثوري** حتى في الشكل المبتذل الذي ترتديه في أفواه الاشخاص قليلي الاطلاع على أسرار الهيغلية

---

* [ان المقاطع المؤشر عليها بعلامة < > لا توجد الا في طبعة عام ١٩٠٥]

٢

[بخصوص العبارة « **وعليه فقد كان للبروسيين ، في ذلك الوقت ، الحكومة التي يستحقونها** » انظر ص ٣٤ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

من المعروف أن مسألة معرفة كيف نفهم النظرية الهيغلية عن عقلانية « الواقع » قد لعبت دورا كبيرا في اوساطنا الفلسفية بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٤١ تقريبا وان فيساريون بيلنسكي الذهن الاصفى بين جميع الكتاب الروس ، يدين لها بأنه عاش مأساة حقيقية . ان مقالاته عن منزل وعن **بورودينو** جوكوفسكي تفص بنقود عنيفة ضد الناس الذين يسمحون لانفسهم بادانة « الواقع » ، يعني النظام الاجتماعي الذين يحيون فيه . وفيما بعد ، لم يكن بيلنسكي يحب أن يتذكر هذه النصوص التي كان يعتبرها خطيئة مشينة فلم يكن في مقدور أي اعتبار فلسفي عن العقلانية المزعومة للنظام الروسي أن يقف عائقا اذن في وجه الرفض اللاهب الذي كان هذا النظام البغيض يثيره فيه وان أولئك الذين كتبوا بعده لم يجدوا من المناسب العودة الى هيغل للتحقق من المقدمات النظرية التي انطلق منها الناقد الروسي الكبير في الفترة التي كان عرضة فيها للاغراء المحافظ كان يبدو لهم أن المقدمات المقصودة لا يمكن الا أن تكون خطيئة خالصة وكان ذلك هو أيضا رأي الكتاب « التقدميين لروسيا الراهنة أهم على حق ؟

في **ذكريات وأفكار** يروي هرتزن كيف أتاح له المنطق أن يلف حول العائق الذي كانت تقيمه للنظرة الاولى في طريقه (ويجب أن نقول انها كانت نظرة سطحية جدا ومغلوطة) نظرية « عقلانية الواقع ولقد قرر أنها لا يمكن أن تكون سوى صيغة جديدة لمبدأ السبب الكافي ولكن مبدأ السبب الكافي لا يبرر أي نظام اجتماعي كان فاذا كان في روسيا سبب كاف لاقامة الاستبداد وتطوره ، فلابد انه كان كذلك لحركة الدسمبريين التحررية سببها الكافي واذا الاستبداد قد كان بهذا المعنى « عقلانيا » ، فان قرار التخلص منه بصورة نهائية لم يكن أقل « عقلانية » من ذلك وان هرتزن ليستنتج ان نظرية هيغل تشكل اذن بالاحرى التبرير الفلسفي للكفاح من أجل التحرر ذلك جبر حقيقي للثورة(١٢)

ولقد كان هرتزن على حق مطلق باستخلاص هذه النتيجة ، بيد أنه قد توصل اليها بالطريق الخاطئة لنفسر ذلك بمثال

يقول انجلز ، الذي يشرح هنا فكرة هيغل

« كانت الجمهورية الرومانية واقعية لكن الامبراطورية الرومانية التي حلت مكانها كانت واقعية هي الاخرى »

فلماذا حلت الامبراطورية اذن محل الجمهورية ؛ ان مبدأ السبب الكافي يؤكد لنا فقط انه لابد أن يكون لهذا الحدث سبب ، لكنه لا يزودنا بأية دلالة بخصوص الاتجاه الذي يجب أن نبحث فيه عن أصول الحدث المقصود أو أسبابه لعل الجمهورية أفسحت المكان للامبراطورية لان قيصر كان يملك عبقرية عسكرية أعظم من بومبي وربما أيضا لان كاسيوس وبروتوس ارتكبا أخطاء وربما ايضا لان اوكتافيوس كان حاذقا وعظيم الحيلة ؛ وربما أخيرا لسبب طارىء آخر ولم نكن هيغل يكتفي بتفسيرات من هذا النمط فعنده ان المصادفة ليست سوى الغطاء الذي تستتر الضرورة خلفه ومن المؤكد انه في الامكان فهم فكرة الضرورة بطريقة سطحية جدا ؛ فانه يمكن القول ان سقوط الجمهورية الرومانية أصبح ضروريا من جراء هذا الواقع وحده ، الا وهو أن قيصر هزم بومبي بيد أن هذه الفكرة تملك عند هيغل معنى مختلفا كل الاختلاف وأعمق بصورة لا تقارن فحين يقول ان ظاهرة اجتماعية ضرورية ، فان معنى ذلك عنده أن هذه الظاهرة قد هيأها كل تطور البلد الذي تتحقق فيه انه من الواجب البحث في هذا التطور عن أصولها او عن اسبابها فاذا كانت الجمهورية الرومانية قد زالت فليست مواهب قيصر العسكرية هي التي تفسر ذلك ، ولا أخطاء بروتوس ، ولا أخطاء أي فرد كان ، أو اية جماعة كانت من الافراد انها حقيقة ان تبدلات وقعت في البنية الباطنة لروما جعلت من المحال استمرار الجمهورية اية تبدلات ؟ ان هيغل غالبا ما أعطى عن أسئلة من هذا النمط أجوبة لا تشفي الغليل الا قليلا لكن ليس هذا ما يشغلنا ان الامر الهام هو أن هيغل ، في فكرته عن الظواهر الاجتماعية ، يمضي أبعد جدا من الناس الذين لا يعرفون الا انه **لا نتيجة بلا سبب** وليس هذا كل شيء فقد سلط هيغل النور على حقيقة أعمق من ذلك واكثر جوهرية لقد قال ان كل نظام للظواهر يولد ، **انطلاقا من ذاته** وبقدر ما يتطور القوى التي تؤول الى انكاره ، يعني الى زواله ، وان كل نظام اجتماعي بالتالي ، بقدر ما يتطور تاريخيا يولد **انطلاقا من ذاته** القوى الاجتماعية التي سوف تدمره كي تستبدله بنظام جديد ومن هنا كانت هذه النتيجة بأن هيغل في الحقيقة لا يوضح فكرته اذا نهضت ضد نظام اجتماعي ، فان رفضي لن يكون **عقلانيا** الا اذا تطابق مع العملية الموضوعية للرفض الجارية في قلب هذا النظام بالذات يعني حين يفقد النظام موضوع البحث مغزاه التاريخي ويدخل في تناقض مع الحاجات الاجتماعية التي ولدته

لنحاول الآن أن نطبق وجهة النظر هذه على المسائل الاجتماعية التي كانت تهز الشبيبة المثقفة لروسيا بعد عام ١٨٣٠ ان الواقع الروسي ـ نظام الرق ، والاستبداد ، وجبروت الشرطة والرقابة ، الخ ـ قد كان يبدو في عينيها ظالما ومشينا ولقد كانت تتذكر بعطف غير ارادي محاولة الديسمبريين الحديثة جدا بعد من أجل تحسين شروط مجتمعنا بيد أنها لم تكن تكتفي مطلقا (أو على الاقل

لم تكن العقول الابرز من بينها تكتفي مطلقا) بالرفض الثوري المجرد للقرن الثامن عشر ولا بالرفض العابث والمتكبر للرومانسيين كانت قد اصبحت بفضل هيغل أشد الحاحا كانت تقول في ذاتها اثبتي ان رفضك عقلاني ، وسرغيه بالقوانين الموضوعية ستطور الاجتماعي أو تخلي عنه كما تتخلين عن نزوة ، عن هوى شاذ صبياني بيد أن تبرير رفض الواقع الروسي باسم القوانين الباطنة لتطور هذا الواقع قد كان يعني حل قضية لم يكن هيغل نفسه قادرا على التملص منها ولنأخذ مثال الرق لقد كان تبرير رفضه يتطلب البرهان على انه ينكر ذاته يعني لا سجوب بعد الآن مع الحاجات الاجتماعية التي ولدته ولكن ما هي الحاجات الاجتماعية التي نصادفها في روسيا في أصل الرق ؟ الحاجات الاجتماعية لدولة كانت تقضي انهاكا لو لم تستعبد الفلاحين وهكذا فقد كان من
اجب البرهان على أن الرق بات في القرن التاسع عشر وسيلة باهظة جدا من أجل مواجهة الحاجات الاقتصادية للدولة وانه أبعد ما نكون عن مواجهتها بل هو نعوق تلبيتها ولقد أثبتت حرب القرم ذلك فيما بعد وبصورة مقنعة جدا ولكن لنكرر مرة أخرى أن هيغل نفسه لم يكن قادرا على **اثبات ذلك نظريا** ومن المؤكد أنه كان يترتب على فلسفه ان أسباب التطور التاريخي لكل مجتمع تغرس جذورها في التطور الباطن لهذا المجتمع وهكذا فقد كان هيغل يشير بصورة مضبوطة جدا الى القضية الاساسية لعلم المجتمعات بيد ان هذه الفكره الصحيحة جدا قد كان هو السباق الى مناقضتها ولم يكن في مقدوره الا أن ينقضها لقد كان هو المثالي المطلق يعتبر الخصائص المنطقية ((**للفكرة**)) السبب الاساسي لكل صيروره وهكذا كانت خصائص الافكار تصبح السبب المقرر للتطور التاريخي ولقد كان هيغل ستنجد بادىء الامر بهذه الخصائص كلما طرحت مسألة التاريخ الكبرى بيد ان الاستنجاد بها كان يعني مفادرة ارض التاريخ مع حرمان الذات تلقائيا من كل امكانية العثور على الاسباب الفعلية للصيرورة التاريخية ولقد كان هيغل بذكائه ستثنائي العبقري حقا يملك حدس وجود شرح في النظام كان يستشعر أن تفسيراته في حقيقة الامر لا تفسر شيئا ولذا فقد كان يستعجل النزول من جديد الى أرض التاريخ الحسية بعد أن يدفع جزيته ((**للفكرة**)) ويبحث عن الاسباب الفعلية للظواهر الاجتماعية ليس في خصائص الافكار بل في الظواهر نفسها في الحقائق التاريخية التي تصدى لتحليلها ولقد كان يصدر في هذه المناسبة فرضيات عبقرية في غالب الاحيان مسجلا الاسباب **الاقتصادية** للصيرورة التاريخية) لكن هذه الفرضيات وان تكن عبقرية كانت تظل فرضيات خالصه . واما كانت تفتقر الى الاساس الوطيد الخاص بنظام معين فانها لم تلعب دورا ملحوظا في النظريات التاريخية الخاصة بهيغل والهيغليين ولذا فان أحدا على وجه التقريب لم يلحظها عند تقديمها

كانت القضية الكبرى التي طرحها هيغل على العلم الاجتماعي للقرن التاسع عشر تنتظر حلها بعد فالاسباب الفعلية ، الباطنة ، للصيرورة التاريخية الانسانية لم يتم العثور عليها بعد وانه لمن المفروغ منه ان الرجل القادر على العثور عليها ما كان يمكن أن يظهر في روسيا لقد كان المجتمع الروسي قليل التطور جـدا ، وكانت الركودة الاجتماعية مستقرة بصورة وطيدة جدا ، بحيث ما كان يمكن لمجاهيل المعادلة أن تظهر على سطح الظواهر الاجتماعية ولقد اكتشف ماركس وانجلز هذه المجاهيل في الغرب ، في واقع اجتماعي مغاير تماما وبعد ذلك بوقت قصير ففي البرهة التي نتحدث عنها ، كان هيغليو اتجاه الرفض ، هناك أيضا اسرى تناقضات المثالية بعد وهكذا نفهم السبب في أن تلامذة هيغل الروس الشباب قـد بدأوا بالاستسلام « لواقع » روسي كان ــ ولنقل ذلك بين معترضتين ــ مشينا جدا بحيث ما كان يمكن لهيغل أن يعتبره « واقعيا في حال من الاحوال ؛ ان النفور الذي كان هذا الواقع يثيره فيهم لم يكن يملك مطلقا في انظارهم ، لافتقاره الى الاساس التاريخي، اي حق عقلاني في الوجود ولقد جعلوا منه انكاراً للذات ، وبتفان شجـاع ضحـوا بمطامحهم الاجتماعية على مذبح الاخلاص الفكري لكن الواقع أخذ على عاتقه حملهم على الرجوع عن هذه الذبيحة فاما كان يجرح أنظارهم ببلاهته في كل حين وبرهة ، فقد **كان يلزمهم** بالرفض بأي ثمن كان حتى بالرفض الـذي يفتقر الى الاسـاس النظري الكافي ؛ واننا لنعرف انهم استسلموا لالحاح الواقع ان بييلنسكي ، الـذي قرأ السلام على طاقية هيغل الليلية الفلسفية الخاصة قد هاجم بكل حميته النظام الاجتماعي الذي غفر له في العشية ومن المؤكد ان هذا التصرف قد كـان سليما لكنه لابد من الاعتراف بأن هذا الكاتب العبقري حين تصرف على هـذا الغرار تساهل قليلا بشأن **صرامته النظرية** ؛ لقد اعترف في شخصه بالذات بأن الفكر الروسي التقدمي **عاجز عن دفع دينه للنظرية**(١٣) ومع ذلك فقد نطق أحيانا بأحكام عميقة بصورة نادرة عن الحياة الاجتماعية لروسيا هكذا يؤكد على سبيل المثال في رسالة مؤرخة عام ١٨٤٨ أن البورجوازية وحدها ، يعني الرأسمالية ،سوف تقدم قاعدة من أجل رفض جدي حقا لواقع روسي شنيع(١٤) لكنه كان على العموم يقتصر في رفضه على تصور **طوباوي** للظواهر الاجتماعية قد كان في الوقت نفسـه تصور تشيرنيشيفسكي ، و الذاتيين » للاعوام ١٨٦٥ ــ ١٨٧٥ ، والثوريين من جميع الاتجاهات (في العصر ذاته)

ان ما يستلفت النظر هو انه بقدر ما ينسى هيغل مع مرور الزمان يقل ادراك ثالبي المجتمع الروسي للخطيئة الاصلية التي تصدر أفكارهم عنها ان أصحابنـا الذاتيين » قد نصبوا الاملاق العلمي عقيدة وكانوا يمنحون دونما توقف ، وهم يفيضون حماسة ، الفكر الاجتماعي الروسي شهادات عن العوز النظري كانوا يحسبون انها تنطوي على اطراء بالغ وما كان يمكن ان يستمر ذلك الى الابد . فقد كانت

اخفاقات الحركة الثورية بين ١٨٧٠ و ١٨٨٠ كافية لحمل الفكر السياسي على الاقلاع عن الاعجاب ببؤسه ان القضية النظرية التي كانت تبدو مستعصية بالنسبة الى الحلقات الفلسفية الروسية للاربعينات قد تبين انها من أسهل القضايا على الحل بعدما تمكن ماركس من وضع الفلسفة الهيغلية و « راسها الى الاسفل » يعني بعد ان زودها بأساس مادي لقد اكتشف ماركس الاسباب الباطنة لتطور الانسانية التاريخي ، ولم يتبق الا ان يؤخذ المجتمع الروسي بعين الاعتبار من وجهة نظر هذا المؤلف وهذا ما فعله الاشتراكيون الديموقراطيون الذين غالبا ما توصلوا ، دون تشاور فيما بينهم ، الى افكار متوافقة عن الحياة الروسية ان الفكر السياسي الروسي يندرج معهم أخيرا في تيار الفكر العلمي للقرن التاسع عشر ان الخطيئة الجدية لاصحاب النزعة الغربية عندنا فيما مضى قد افتديت : لقد عثر في **باطن** الواقع الروسي على الاساس **الموضوعي** الذي لا يدحض لانكاره < انظر مقالتي بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل ، Neue Zeit ، تشرين الثاني ١٨٩١ وكذلك محاضرتي عن بيلنسكي ، جنيف ١٨٩٨(١٥) >

٣

بخصوص الفقرة « **فلسفة البورجوازية الراديكالية الصاعدة التي ما عادت تحتاج الى الرداء الفلسفي الا في سبيل خداع الرقابة** » انظر ص ٤٣ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

ان الهيغلي هيننغ قد عمد في عام ١٨٢٧ الى اصدار Jahrbücher für Wissenschaft lich Kritik (**حوليات النقد العلمي**) كي ينشر افكار معلمه ويدافع عنها لكن هيننغ كان ينتسب الى الاتجاه المحافظ ، ولم تكن مجلته ترضي الهيغليين الشباب وفي عام ١٨٣٨ اسس ارنولد روج وتيودور ايخترميير **حوليات هال للعلم والفن الالمانيين** (Hallische Jahrbücher fûr deutsche Wissen schaft und Kunst) التي تغير عنوانها ، وقد جعلت تصدر في لايبزغ اعتبارا من ١٨٤١ ،بحيث اصبح Deutsche Jahrbücher (**الحوليات الالمانية**) وكانت **الحوليات الالمانية** ، من وجهة نظر الدين والسياسة على حد سواء،راديكالية الاتجاه. وفي عام ١٨٤٣ حظر صدورها في ساكس ، فقرر ارنولد روج مع ماركس اصدارها في باريس بعنوان **الحوليات الالمانية الفرنسية** Deutsche Fransösische

Jahrbücher ، وكان فريدريك انجلز وهنريخ هايني في عداد المحررين . ومن سوء الحظ انه لم يصدر منها الا اصدار واحد كان يضم العددين الاول والثاني ، نجد فيه بصورة خاصة مقالتين مرموقتين لماركس Einleitung zur Kritik der Hegel'schen Rechtphilosophie مدخل الى نقد فلسفة الحق عند هيغل ») ، المترجمة الى الروسية والمنشورة في جنيف عام ١٨٨٨ ، و « zur Judenfrage (« في المسألة اليهودية») ـ وكذلك مقالة لانجلز لاتقل عن ذلك اهمية : « Unrisse zu einer Kritik der Nationalökonomie مبادىء نقد الاقتصاد السياسي ») ، التي أعيد نشرها في العدد الثامن السنة التاسعة) من Neue Zeit

ولقد اسست Rheinische Zeitung (١٦) (**المجلة الرينانية**) في كولونيا من قبل كامفاوزن وهانسمان وانصارهما ، وكان ماركس احد افضل وانشط المحررين فيها ، كما اصبح رئيس تحريرها عام ١٨٤٢ (حوالي منتصف تشرين الاول) ولم يكن قد أصبح اشتراكيا في ذلك الحين لكنه كان منذ ذلك الوقت يهاجم الحكومة بعنف شديد بحيث لم تعش المجلة الا اشهرا قليلة تحت ادارته (ان عدد ١٧ آذار ١٨٤٣ قد نشر هذا الاعلان المقتضب : « انا الموقع ادناه ، **الدكتور ماركس** ، اشهد بأني اتخلى عن رئاسة تحرير **المجلة الرينانية** نتيجة **لشروط الرقابة الراهنة** . » (ان التشديد وارد في الاصل) وفي ٣١ آذار من السنة نفسها اضطرت الصحيفة الى التوقف عن الصدور بفعل مرسوم يعود تاريخه الى ٢٥ كانون الثاني ، وقد صدر العدد الاخير منها قبل أيام قليلة من المهلة المحددة ، في ٢٧ آذار وعلى اي حال ، فان ماركس اغتبط على وجه التقريب بهذا الحظر ، فنشاطه كمؤلف قد اقنعه بنقصان ثقافته **الاقتصادية** ، وكان يطمح الى اكمال هذه الثقافة . ان الحظر الذي وقع على الصحيفة الكولونية قد اتاح له ان يحبس نفسه في مكتب عمله وحين عاود النشاط الادبي والسياسي لم يكن قد اكتسب قدرا كبيرا من المعارف الاضافية فحسب ، بل كان قد وضع نظرية جديدة عن الاقتصاد سوف تكون لها اهميتها العظيمة في تاريخ هذا العلم

< ان اهم المقالات التي نشرها ماركس في **المجلة الرينانية** قد أعاد فرانز مهرنغ نشرها مؤخرا في Gesammelte Schriften von Karl Marx und Friedrich Engles, 1841 Bis 1850. المجلد الاول ، ص: ٢٠٨ـ٣٢١ . وان هذه المقابلات لتحتفظ بأهميتها الصحفية بالنسبة الى الجمهور الروسي ولا حاجة لنا لان نضيف انها بالغة الاهمية بالنسبة الى تاريخ تطور ماركس الفكري >

وفي حزيران من عام ١٨٤٨ ، بالتعاون مع انجلز وفرايليغراث وويلهلم وولف (الذي اهدي **راس المال** لذاكره) ، اسس ماركس ، في كولونيا ايضا ، **المجلة الرينانية الجديدة** ان ماركس ومعاونوه يتحدثون في هذه المجلة بوصفهم اشتراكيين بالمعنى الحديث للكلمة بالمعنى الذي أعطته أعمالهم الخاصة لهذه العبارة . ولقد كانت **المجلة**

«الربنانية **الجديدة** » باعتراف اعدائها انفسهم الحدث الابرز في الادب السياسي لذلك العصر ويجب أن نضيف الى ذلك ان اية من الصحف الاشتراكية التي **سبقتها** والتي تبعتها لا يمكن ان تقارن بها ولقد حظرت في حزيران ١٨٤٩ بتهمة التحريض على العصيان » من قبل حكومة تعافت سريعا من الضربة التي وجهتها الثورة اليها(١٧)

٤

بخصوص العبارة **الجوهر أم الوعي الذاتي »** انظر ص ٤٤ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

لنا ندين لعناية الرقابة الفائقة بأن أفكار شتراوس وبرونو بوير التي ننوه انجاز بها هنا غير معروفة بعد من الجمهور الروسي الا بصورة ضئيلة جدا ولذا يبدو لنا من المناسب ان نلخصها هنا

اليكم ما هو المقصود اذا كنا نؤمن بأن الكتب التي يقال عنها مقدسة قد املاها إله (وبصورة أدق روح قدس) اختار على التعاقب أمناء سر له هذا القدس أو ذاك ، فانه لا يمكننا ان نقبل بفكرة ان الكتاب المقدس يمكن أن يضم <اخطاء و> خرافات ان كل ما يروى فيه يتخذ قيمة حقيقية لا جدال فيها ان الافعى تتفوه، كي تغوي حواء ، بخطاب جدير بأكثر اليسوعيين حيلة وخبرة ؛ وإن هذا ليبعث على شيء من العجب ؛ لكنه ليس ثمة محال بالنسبة الى الله ان الغرابة الظاهرة هي مثال جديد على جبروته ان اتان بلعام تتحاور مع راكبها ؛ هذه كذلك ظاهرة غير مألوفة ؛ لكن بالنسبة الى الله وهكذا دواليك بفضل الحكمة التي صيغت بصورة جازمة لا شيء يجوز أن ينفر الايمان (حتى ولا العبث credo quia absurdum » « اما الايمان فهو قيام المرجوات فينا وبرهان غير المنظورات٭ وبالنسبة الى المؤمن ، فان جبروت إله خالق وسيد للطبيعة هو بالضبط « **رجاؤه** » الاعظم

ليكون هذا كله جيدا جدا ، ومؤثرا جدا ، بله وطيدا حتى الدرجة القصوى ، لو أن الانسان لم يضطر ، في نضاله من أجل حياته ضد الطبيعة ، الى تذوق ثمار « شجرة الخير والشر ، يعني دراسة **قوانين** هذه **الطبيعة** شيئا فشيئا واما ذاق مرة هذه الشجرة المحفوفة بالاخطار ، فقد اصبح أقل عرضة للخديعة واذا هو

٭ [**الرسالة الى العبرانيين** ، الاصحاح الحادي عشر ، الآية الاولى] .

استمر بقوة العادة ، في الاعتقاد بإله جبار فان ايمانه يتخذ طابعا آخر ان الله ينسحب ، اذا جاز لي هذا التعبير ، الى كواليس الكون والطبيعة هي التي تنتقل الى المرتبة الاولى ، بقوانينها الفولاذية ، قوانينها الازلية والثابتة ولكن المعجزة لا تتصالح مع عالم خاضع لقوانين ؛ فالعالم الخاضع للقوانين لا يترك لها مكانا لان المعجزة انكار للقوانين الطبيعية كيف سيتصرف اذن حيال المعجزات التي ترويها التوراة بشر ارتفعوا الى فكرة القانون الطبيعي الثابت ؟ لسوف يضطرون الى **انكارها.** بيد أن الانكار يتخذ اشكالا مختلفة وفقا لبنية وتطور المجتمع حيث تتحقق مسيرة الفكر هـذه

في القرن الثامن عشر كان الفلاسفة يسخرون بكل بساطة من أقاصيص التوراة التي كانوا يعتبرونها تظاهرة للجهل ، بله للشعوذة وان ما أملى على الفرنسيين هذا الانكار القاسي هي المعركة التي كانت الطبقة الثالثة تخوضها اذن ضد اصحاب الامتيازات عامة ، وضد الاكليروس خاصة وكان الامر يختلف في المانيا البروتستانتية في ذلك العصر فبادىء ذي بدء لم يعد الاكليروس يلعب فيها منذ الاصلاح الدور الذي كان يحفظ به في البلدان الكاثوليكية وفيما عدا ذلك فقد كانت الطبقة الثالثة في المانيا على بعد مسافة مائة ميل بعد من محاربة النظام القديم وان هذين الظرفين ليدمغان بطابعهما كل تاريخ الادب الالماني في القرن الثامن عشر فبينما كانت العناصر المثقفة من الطبقة الثالثة في فرنسا تستخدم كسلاح لها كل اكتشاف علمي جديد (وكل فرضية جديدة) في نضالها ضد الافكار والآراء الصادره عن مجتمع باطل فقد كان المقصود في المانيا **توفيق** مستبقات الماضي مع الاكتشافات الجديدة بالاحرى من **تدميرها** لقد كان الدين بالنسبة الى الفلاسفة أصحاب المزاج الثوري، ثمرة **الجهل و الكذب** أما بالنسبة الى الالمان المستنيرين ، حتى أكثرهم تقدمية (بالنسبة الى ليسنغ على سبيل المثال) ، فقد كان **« مربي الجنس البشري »** ولذا ما كانوا يحكمون على التوراة بوصفه كتابا يمكن طرحه بكل ازدراء كانوا يعملون على **« تنويره »** ، وعلى اعطاء أقاصيصه معنى جديدا على توفيقهـا مع روح العصر» وعندئذ اخذ في التماس هذا الكتاب بكل اندفاع ان الله يتكلم في كل صفحة على وجه التقريب من العهد القديم وهذا لا يعني أنه تكلم فعلا ذلك احد التعابير المستعارة العزيزة على الشرقيين فحين تقرأ ان الله قال هذا الشيء او ذاك يجب ان نفهم ذلك بمعنى انه الهم هذه الفكرة لفلان من المؤمنين به وينطبق هذا الامر على افعى التجربة ، وعلى اتان بلعام أيضا وحقيقة الامر أن هذين الحيوانين لم ينطقا قط كل ما في الامر انهما استدرجا محدثيهمـا الى بعض الافكار ومن المعروف ان الروح القدس نزل على الرسل يوم العنصرة بصورة السنة من نار وهذا تعبير مستعار أيضا ! أن مؤلف أو مؤلفي **اعمال الرسل** قد ارادوا ان يقولوا بكل بساطة ان الاثني عشر قد احسوا في ذلك اليوم بهجمة قوية من الحمية الدينية وان بعض

المفسرين المستنيرين يرون الامور بصورة مختلفة قليلا ان السنة النار التي نزلت على الرسل ظاهرة طبيعية بصورة جازمة فهي شرارات كهربائية وكذلك اذا كان بولس قد اصيب بالعمى على الطريق الى دمشق ، فذلك فعل طبيعي للصاعقة ؛ وانه لمفروغ منه ان حنانيا العجوز شفاه بوضع يديه عليه ، نظرا لان الشيوخ غالبا ما تكون ايديهم باردة ولان البرودة تشفي الالتهاب واذا كان يسوع قد بعث هذا العدد من الموتى ، فالسبب انه لم يكن حيال جثث حقيقية ، بل حيال اجساد حية اصيبت بالتصلب وكذلك فان موته على الصليب لم يكن الا موتا ظاهريا وفي رأي شخص يدعى الدكتور باولوس* ، وقد كان شهيرا حتى درجة ما في زمانه ، فقد دهش يسوع ايما دهشة voll Verwunderung لعودته الى الحياة واما الصعود الى السماء ، فهذا ما لا يمكن الحديث عنه لان الانجيليين انفسهم ظلوا في التباس في هذه النقطة فهم يقولون أن يسوع اختطف الى السماء (مرقص) ؛ لكن أفلا يعني ذلك ان نفسه رفعت الى السماء **بعد وفاته** ؟ وعلى أي حال ، فما الذي حمل الانجيليين على رواية اقاصيص لا يمكن ان يصدقها اي عالم طبيعي ، أو أي عالم فلكي « قادر على ان يحسب بصورة دقيقة الزمن الذي يلزم قنبلة المدفع كي تبلغ سيريوس

ولا جدوى من البرهان على ان **هذا النقد** للاناجيل يفتقر بصورة مطلقة الى الاساس وانه يبرهن عند الذين ينصرفون اليه على انعدام الموقف النقدي حقا حيال المسالة المطروحة < كان يمكن أن يكون مفيدا على اعتباره **خطوة اولى** لكن هذه الخطوة الاولى قد قام بها سبينوزا من قبل ؛ وكان من الواجب ان تتلوها خطوة **ثانية** ، وهو بالضبط ما لم يقم به المان عصر الانوار >

وتستقيم جدارة شتراوس (١٨٠٨ — ١٨٧٤) في انه وضع حدا لهذه الجهود العقيمة من أجل جعل غير المعقول معقولا وجعل ما لم يكن له وجود في التاريخ قط معقولا تاريخيا لقد رأى شتراوس في أقاصيص الاناجيل لا رواية أكثر او اقل دقة واكثر او اقل تشوها ، لاحداث فعلية ، بل مجرد **خرافات** تكونت بصورة لا شعورية في احضان الجماعات المسيحية وهي تعبير عن الافكار المسيانية للعصر الذي ظهرت فيه وان احاديث يسوع اجملها بصورة خاصة تلك التي تروي في انجيل يوحنا قد بدت لشتراوس ثمرة خلق لاحق واليكم كيف يعرض في النص الاخير لكتاب **حياة يسوع** أفكاره من ولادة الخرافات الانجيلية

« اقترحت فكرة الخرافة كي أفسر المعجزات التي ترويها الاناجيل وكذلك الكثير من القصص المضادة للتاريخ التي نصادفها فيها ولقد قلت انه يكون من العبث نبحث عن تفسيرات طبيعية لوقائع من نمط الوقائع التي ترويها قصة نجمة المجوس

---

* انظر كتابه Ewangeliencommentar [**تعليقات على الاناجيل**] المنشور في ١٨٠٠ ١٨٠٤ و Das Leben Jesu [**حياة يسوع**] ، لعام ١٨٢٨ الذي نستشهد به في جميع اشاراتنا الى باولوس .

وقصة التجلي أو قصة تكاثر الخبز لكن بما اننا لا نستطيع من جهة ثانية ان نقبل بأن مثل هذه الظواهر فوق الطبيعة قد حدثت فعلا فانه لا يبقى أمامنا الا نعتبر هذه الاقاصيص وهمية وأما مسألة معرفة السبب في تأليف أقاصيص من هذه المرتبة عن يسوع حوالي زمن ظهور الاناجيل فقد أجبت عنها اولا بالاشارة الى الانتظار المسيائي في ذلك الحين ولقد قلت انه حين جعلت جماعة صغيرة ومن بعد اناس متزايدو العدد يعبرون يسوع المسي فقد اقتنعوا بأنه لابد يحدث ليسوع كل ما كانوا ينتظرونه من المسيوفقا لنبوءات العهد القديم والتصورات المسبقة وتفسيراتها الشائعة ومهما يكن معروفا ان يسوع ولد في الناصرة ، فقد كان لابد له ، على اعتباره المسي وابن داوود ، ان يولد في بيت لحم ،طالما أن ذلك وارد في نبوءة ميخا وبالرغم من التقليد احتفظ لنا بالاحكام البالغة الحدة التي أصدرها يسوع عن تعلق مواطنيه بالمعجزات ، نظرا لان موسى الذي هو اول محرر للشعب قد اجترح معجزات ، فان من الواجب يجترح المسي المحرر الاخير يعني يسوع ، مثل هذه المعجزات ايضا لقد تنبأ اشعيا بأنه عند ظهور المسي سوف تنفتح عيون العميان ويسمع الصم ويركض العرجان مثل الغزلان ، كما ان عقدة اللسان سوف تنحل عند البكم وهكذا فقد كان من المعروف بصورة دقيقة ما هي الاعاجيب التي سيحققها يسوع ، يعني المسي وهذا هو السبب في أن الجماعات المسيحية الاولى كانت تستطيع بل لم يكن لها بد تخيل الروايات بشأن يسوع ، دون ان تعي مع ذلك بأنها تتخيلها ان هذه النظرية تعيد وضع تكون الخرافات المسيحية على صعيد نعرفه جيدا من تاريخ الديانات الاخرى. ان أحدث الاكتشافات في ميدان الاساطير تستقيم في ان العلم فهم كيف تولد الاساطير التي ليست هي في حال من الاحوال الابتكار الشعوري والمتعمد لمؤلف ما ، بل نتاج الابداع الجماعي لجماعة دينية ، لشعب بأسره ومن المؤكد أنه لابد ان يكون شخص ما اول من يترجم هذه القناعة الجماعية بيد أن الاسطورة ليست غلافا يخفي فيه ساحر ما فكرة معينة في مصلحة الجمهور الجاهل وبهدف تثقيفه ففي الاسطورة تولد الفكرة مع الرواية ، وهي لا وجود لها في شكل الرواية ، أما في حالتها النقية فهي غير مفهومة حتى من الراوي نفسه

لكنه بقدر ما ترتدي خرافات الانجيل ، بصورة جزئية على الاقل ، طابعا جديدا مستقلا ، تزداد الصعوبة في تصور ان مؤلفيها ما كانوا يعون انهم يجعلون من ابتكاراتهم الخاصة حقائق فعلية ان ذلك الذي كان سباقا الى جعل ولادة يسوع تتم في بيت لحم يمكن أنه آمن بذلك بكل اخلاص ، طالما أن النبي ميخا تنبأ بأن المسي سوف يأتي من بيت لحم ولقد كان يسوع هو المسي ، وبالتالي فلابد له أن يولد في بيت لحم وعلى العكس من ذلك ، فان ذلك الذي روى للمرة الاولى ان حجاب الهيكل انشق في لحظة وفاة يسوع (متى ، ١٧ ٥١ لابد فيما يبدو أنه أدرك أنه يروي امرا لم يشاهده ، ولم يحدثه انسان به بل قد تخيله لوحده . وفي مثل هذه الحال ، فان

تعبيرا مستعارا مثل ذلك الذي نصادفه في **الرسالة الى العبرانيين** (، ١٩   ، حيث يقال ان موت يسوع قد فتح لنا طريق قدس الاقداس عبر حجاب الهيكل يمكن أن يفهم بكل سهولة من قبل المستمع بمعناه الحرفي ، وبذلك يمكن ان تنشأ الرواية دون ان يكون للاختراع الشعوري دور فيها   وان قصة دعوة صيادي النفوس الخاصة بالرسل الاربعة يمكن كذلك ان تكون قد انتقلت بادىء الامر في هذا الشكل ، ألا وهو أن الصيد الذي يدعوهم يسوع اليه أخصب جدا من حرفتهم المتواضعة السابقة ؛ ومن بعد فان هذه القصة ، وقد انتقلت من فم الى فم ، قد تحولت دونما عناء الى قصة الصيد العجائبي (لوقا ، ٥)   وان المعطيات الفعلية التي تقوم عليها قصة بعث المسيح يبدوكذلك، للوهلة الاولى ، انها تضعنا أمام متناوبة   أحداث فعلية ، أو كذب فاضح وشعوري

بيد أن دراسة أشد انتباها تبين ان الامر ليس على هذا الغرار   لعل أحد اليهود خاطب مسيحيا وهو يتناقش معه قائلا « لن أدهش أن يكون النعش فارغا ، ما دمتم قد سرقتم الجسد   » ويرد المسيحي محتجا   سرقناه ! وكيف لنا ان نفعل ذلك ما دمتم أقمتم حراسة مشددة ؟   انه يتحدث هكذا لان تلك هي فرضيته   لكن الراوية التالي يعبر عن الرد بصورة أحزم جدا   « لقد أقيمت الحراسة امام النعش »   ومن ثم يروحون يروون ان النعش كان مختوما ، طالما ان دانيال يتحدث عن الاختام   وطالما أن حفرة الاسود في هذا السفر تمثيل لقبر يسوع   او لعل اليهودي قال « لعله ظهر لكم ، لكنه شبح قادم من العالم الآخر   ويحتج المسيحي قائلا « العالم الآخر ! لقد كانت عليه علامات المسامير (هذا امر مفروغ منه بالنسبة الى المسيحي) ، وقد أرانا اياها وحين انتقلت الرواية ، فلعله أضيف اليها أن شخصا ما لمس الجروح ؛ وأن جميع هذه الاقاصيص قد ألفت من دون ريب بنية طيبة ، وان تكن مناقضة بصورة مطلقة للحقيقة التاريخية *

من المؤكد ان نظرية شتراوس تسجل تقدما عظيما جدا بالنسبة الى أفكار السابقين له   لكننا نرى دونما عناء ان الثغرات الكبيرة لا تنعدم فيها

«   ان التحول الذي تتعرض له الحقائق التاريخية عندما تجتاز التقليد الشفهي ، التنبت الاسطوري الذي أشار شتراوس اليه ، وباختصار الاسطورة المسيحية الشعبية ، لا تفسر الا السمات المشتركة بين سائر الاناجيل ، أو سمات الخلافات بينها التي ، وهي تملك صفة طارئة وغير   ية ، لا تفضح اتجاها دقيقا كما انها ليست خاصة بواحد من هذه العروض   لكننا حين نرى   على العكس من ذلك ، ان بعض الصفات المميزة تتكرر باستمرار في واحد من اناجيلنا بينما هي غريبة عن بقية التقليد الانجيلي ، فانه لا يعود في مقدورنا ان نفسرها بالحوافز المشتركة عند الاسطورة المسيحية بأكملها   لابد لنا

---

* Das Leben Jesu für das deutsche Volk bearbeitet von David Friedrich Strauss, dritte Auflage, Leipzig 1874, S. 150 - 155

[حياة يسوع ، مكتوبة للشعب الالماني بقلم دافيد فريدريك شتراوس] .

نتبين فيها تأثير الآراء والمصالح الخاصة بمؤلف الكتاب او الجماعة من المسيحيين الذي هو الناطق باسمها وحين لا يتظاهر هذا الطابع النوعي في نقاط منعزلة من الكتاب فحسب ، بل يبدو أن المؤلف بأسره قد وضع بغرض ابرازه ، حين يدمغ بطابعه ترتيب المواد ، والتسلسل الزمني ، والتفاصيل الملحقة بالرواية ،والاسلوب نفسه ؛ حين يتضمن العمل خطابات أو أحاديث طويلة ليس من عادة الاسطورة الاحتفاظ بها — وهي جميعا ظروف تستلفت انتباهنا بشدة في الانجيل الرابع ، وكذلك في الانجيل الثالث وان يكن بدرجة أقل — فاننا نستطيع اذن أن نكون على يقين من أن ما يقع تحت أبصارنا ليس مجرد تحرير اساطير دينية ، بل عمل مدروس يقوم به أحد الكتاب* »

وهكذا فان النظرية الشتراوسية عن الاسطورة بعيدة جدا عن تفسير كل مايجب عليها تفسيره ولابد أن شتراوس اقتنع بذلك في وقت لاحق ففي الطبعة الاخيرة من كتابه **حياة يسوع** يخصص مكانا اكبر جدا لابداع المؤلفين الشعوري لكنه في العصر الذي يرد ذكره عند انجلز ، يعني قبل عام ١٨٥٠ لم يكن بعد واعيا لنقاط الضعف التي فضحها برونو بوير بصورة خاصة دون هوادة

ان برونو بوير ١٨٠٩ — ١٨٨٢) يتهم شتراوس بالنزوع الى **الصوفية** و **فوق الطبيعي** ، طالما ان « العرق والجماعة الدينية ، والعرف وعلى الاجمال بعض الموجودات تفعل بصورة مباشرة في نظريته الخاصة بالاساطير دون ان تترك مكانا **للفعل التوسطي للوعي الذاتي** انه يقول لا تستقيم خطيئة شتراوس في عدم اظهاره قوة جماعية معينة (قوة العرف) بل في أن هذه القوة لا تفعل عنده الا في شكلها الجماعي على وجه الحصر النابع بصورة مباشرة من أحشاء الجماعة ذلك تصور ديني ، ايمان بالمعجزة ، نقل للتصورات الدينية على صعيد النقد ، بدائية دينية وعقوق حيال الوعي الذاتي ان التعارض بين أفكار شتراوس وافكار بوير هو « تعارض العرق والوعي الذاتي ، الجوهر والذات** وبعبارات أخرى، فبينما يصر شتراوس على ما في ظهور الاقاصيص الانجيلية من عنصر لا شعوري ، فان بوير يوضح ان عملية تشكلها التاريخي قد مرت بوعي أناس **الفوها عن عمد** ، بغرض هدف ديني معين وهذا واضح جدا في انجيل يوحنا*** الذي يخلق يسوع لا يشبه مطلقا يسوع الاناجيل الاخرى لكن الانجيليين الاخرين لم يفلتوا أيضا من اغراء الاختراع ان انجيل لوقا يعيد تفصيل وخياطة انجيل مرقص على طريقته الخاصة ؛ وان الانجيل المنسوب الى متى والذي كتب بعد الانجيليين السابقين ، يعاملهما دون كبير اعتبار في جهده كي يجعلهما متطابقين أو يكيف رواياتهما

---

* ادوار زيللر **كريستيان بوير ومدرسة توبنجن** ، ترجمة شارل ريتر ، باريس ١٨٨٣ ، ص:٩٨.

** Die gute Sache der Freiheit, Zurich und Wintertur 1842. S. 117 - 118

[**قضية الحرية العادلة(١٨)**]

*** من المعترف به حاليا أن يوحنا ليس مؤلفه

مع طموحات العصر وأفكاره الدينية بيد انه لا يتوصل الى النجاح في هذه المهمة الصعبة ويتعثر اذن في سلسلة من التناقضات السخيفة وهذا مثال بين مائة مثال يقول متى ان الروح قاد يسوع بعد معموديته الى البرية كيما يجربه الشيطان هناك. ما حاجة الروح ، يعني الله ، الى تعريض يسوع للتجربة من قبل الشيطان ؟ كان في مقدوره أن يعرف مع ذلك ان ذلك الذي سماه لتوه ابنه الحبيب [بعد المعمودية عصي على التجربة* ان مرد ذلك بكل بساطة الى أن متى قد ارتبك في روايته لم يكن يريد أن ينسخ بكل بساطة روايات سابقيه بل كان يسعى الى تفسيرها واكتشاف رابطها** لقد قر عند لوقا وعند مرقص أن الروح قاد يسوع الى البرية وان يسوع جربه الشيطان هناك وانه ليروي ذلك في انجيله دون ان يلحظ الوضعية السخيفة التي وضع فيها الله الجبار الذي يجد من الضرورة بمكان اختبار ابنه بالذات لكن هذا مثال أبهر أيضا ان اشعيا يتحدث في نبوءته عن «الصوت الصارخ في البرية هيئوا سبل الرب) وكيما تتحقق « كلمة النبوءة » فان مرقص ومتى يلزمان يوحنا المعمدان بالتبشير في الصحراء بل ان متى يشير الى أي موضع من الصحراء بالضبط في صحراء اليهودية ومن بعد يقول لنا ، وهو يستأنف بصورة واضحة نص مرقص ولوقا ان جمهرة من الصيادين تراكضوا اليه وانه عمدهم في مياه الاردن ولكنه يكفي ان نلقي نظرة واحدة على خارطة فلسطين كي نتبين أن يوحنا لم يكن يملك أية وسيلة مادية وهو يبشر في صحراء اليهودية كي يعمد الصيادين في مياه الاردن ، فالصحراء والنهر بعيدان عن بعضهما بعضا***.
ولذا فانه من الواجب أن نعتبر هذه الاخطاء ثغرات **خاصة** بالرواية)

ان المؤمنين او الاشخاص العاطفيين بكل بساطة ، حين ينتقون عند الانجيليين المختلفين تلك المآثر من حياة يسوع التي تلوح لهم أبعث على الاثارة يصطنعون لاستعمالهم الروحي صورة للمخلص أكثر أو أقل اغراء وهي صورة تتطابق مع افكارهم واذواقهم وميولهم ولقد قام نقد شتراوس من قبل عقبة خطيرة في وجه هذا الترتيب ليسوع الموسوي وان بوير يهدد ، في نقده للاناجيل**** بأن يجعه

---

* Kritik der evangelischen Geschichte der Synoptiker, 2 weitg Auflage, Leipzig 1846, I. Band S. 213 [نقد التاريخ الانجيلي للاناجيل الاربعة]

** المصدر نفسه ، ص ٢١٤

*** المصدر نفسه ص ١٤٣

**** الطبعة الاولى Kritik der evangelischen Geschichte der Synoptiker, 1 und II Band, Leipzig 1841 [نقد التاريخ الانجيلي للاناجيل الاربعة] Kritik der evangelischen der Synoptiker und der Iohannes, IIIund letzer Band, Braunschweg 1842. [نقد التاريخ الانجيلي للاناجيل الاربعة وليوحنا] .

مستحيلا كليا انه لا يعترف بالطابع التاريخي ليسوع . ولذلك فاننا نفهم الهلع الذي بعثه في الاتقياء المحترمين لقد منع من التعليم في كلية اللاهوت (وقد كان *Priva - Docent في الكلية المذكورة في بون) كما هوجم بعنف في مجموعة كاملة من الكراسات والمقالات والاخبار العلمية لكن المانيا قبل نصف قرن لم تعد المانيا القرن الثامن عشر لقد كانت العاصفة الثورية لعام ١٨٤٨ تقترب كان الهياج يتعاظم تحت الابصار اذا جاز التعبير بين العناصر التقدمية من السكان ولم يكن الكتاب من هذا الوسط يجزعون مطلقا لحقيقة ان نتائج نقدهم يتعارض مع الافكار الشائعة ؛ بل لقد كان الامر على النقيض من ذلك تماما اذ كانوا يبشرون اكثر فأكثر بارادة الرفض وقد رد برونو بوير بعنف شديد على هجمات خصومه «المحترمين»، دون ان يوفر الدين عامة ، ولا الدولة المسيحية ولقد اظهر اخوه ادغار مزيدا من العنف ايضا في المناظرة وان كتابه Der Streit der Kritik Mit Kritik und Staat (مناظرات النقد مع الكنيسة والدولة) المنشور في برن عام ١٨٤٤ قد ادى به الى الحبس في زنزانة مسلحة ومن المؤكد ان هذا النوع من المحبة لا يشرف المدافعين عن النظام القائم ؛ وعلى أي حال ، فلا بد من الاعتراف بأن ادغار بوير مضى بعيدا جدا في هذا الكتاب بحيث تبعث أفكاره الخوف اليوم في أكثر من « ممثل لطليعة في الادب الروسي انه لا يعترف لا بالله ولا بالملكية الخاصة ولا بالدولة لقد مضى بعيدا جدا بحيث لا يمكن للمرء أن يمضي أبعد من ذلك في الانكار

لا ، كان في الامكان وكان من الواجب القيام بخطوة اخرى في هذا الاتجاه الخطوة الحاسمة ؛ كان في الامكان وكان من الواجب طرح سؤال آخر بعد ايكون سلاح النقد وطيدا حقا ؟ ايقوم انكاره على أساس حقا ؟ أو بعبارة اخرى ، حتى أية نقطة تخلص هو نفسه من المستبقات التي يفضحها ؟

هذا هو السؤال الذي طرحه رجلان مضيا أبعد من الاخوين بوير ، ماركس وانجلز في Die heilige Familie (العائلة المقدسة) ولقد تبين ان النقد النقدي يرسل جذوره في المثالية التي يشن عليها مثل هذه الحرب اللاهبة وذلك كان عيبه الرئيسي فبقدر ما كان برونو بوير ، مستندا الى حقوق « الوعي الذاتي » يحلل روايات الانجيل ، فقد كان في مقدوره ان يوجه ضربات عنيفة عديدة الى المستبقات المقدسة لعصره لكنه حين انتقل مع أخيه الى نقد « الدولة » وأراد ان يحكم على احداث بالغة الاهمية كتلك الاحداث التي جرت في فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن الحالي ، فقد تبين ان نتائجه تفتقر الى الاساس والى قوة الاقناع ، بل هي خاطئة بكل بساطة ما كان يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك فالقول ان شكلا اجتماعيا معينا يناقض الوعي الذاتي لا يترتب عليه تقرير اهميته التاريخية

---

* [استاذ] .

ونظرا لعدم تقدير هذه الاهمية فانه لا يمكن فهم الشكل الاجتماعي المقصود **ولا** محاربته باحتمال كبير في النجاح

لقد فعل ماركس وانجلز ما اوحته اليهما مسيرة الفكر الفلسفي في القرن التاسع عشر فبعد توديع المثالية كان لابد من قطع العلاقات ايضا مع دكتاتورية الوعي الذاتي كان لابد من اكتشاف وتحديد الاسباب التي تقرر **بدورها** هذا الوعي هل حل ماركس وانجلز القضية ؟ ليس هذا مكان التوسع في هذه النقطة بل ان القارىء سوف يحكم على ذلك بالاستناد الى مؤلفاتهما ولنسجل على أي حال أن الراديكالية المجردة للاخوين بوير تذكر من نواح عديدة « بالطريقة الذاتية في علم الاجتماع عندنا : الاشارة المتصلة نفسها الى « النقد والى الروح النقدي » (الذي سمى التفكير النقدي عندنا) ؛ العجز نفسه عن تحليل العملية **النقدية** التي تجري **في قلب العلاقات الاجتماعية** وتحدد « الوعي الذاتي » عند الأنسان وانه ليكون من الهام جدا والمفيد جدا تكريس دراسة خاصة للتوازي بين الحجج التي يقدمها ادغار بوير ضد هيغل في الفصل الرابع من **Der streit der Kritik** والاعتراضات التي يرفعها نقولاس ميخائيلوفسكي(١٩) ضد هربرت سبنسر .ان هذه المقارنة سوف تظهر القليل من الجدة المتوفر في الطريقة الذاتية الشهيرة كما سوف تبين ان كل أصالة علماء الاجتماع الذاتيين الروس تقتصر على اجترار اخطاء الغير وهي الاخطاء التي سجلها مفكرو أوروبا الغربية وصححوها منذ زمن طويل

٥

[بخصوص الفقرة **وما الكائنات العليا التي خلقتها خيالاتنا واوهامنا الدينية سوى الانعكاس الوهمي لماهيتنا الخاصة** انظر ص ٤٥ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

بما انه لا حاجة بنا كما اننا لا نملك الوسيلة من أجل التوسع هنا في حياة فيورباخ فاننا سنقتصر على ايراد الفقرة التي يكرسها له يوبرفيغ ـ هاينزه في كتابه **تاريخ الفلسفة الحديثة** (ص ٣٩٤ من الترجمة الروسية)

« لقد ولد ابنا لعالم الجرائم الشهير أنسيلم فيورباخ عام ١٨٠٤ ودرس اللاهوت بادىء الامر واصبح نصيرا لهيغل واما استقر عام ١٨٢٤ في برلين واظب على الدرس فيها ولم يتأخر عن تكريس نفسه للفلسفة حصرا وفي عام ١٨٢٨ درّس في ايرلانجيم وابتداء من عام قطن قرية بروكبرغ ، بين لنباخ وبايروث ، ومن ثم رايشنبرغ بعد عام ١٨٦٩ قريبا من نورمبورغ حيث عاش في ضيق ولقد مات عام ١٨٧٢ »

ونستطيع ان نلخص في كلمات قليلة(٢٠) كتابه **جوهر المسيحية :**

يقول فيورباخ ان الدين هو وعي الانسان اللاشعوري لذاته فالانسان يؤله في الدين ذاته ، يؤله «**جوهره** الخاص ان جوهر الله هو جوهر الانسان ، او بصورة أدق جوهر الانسان المنقى والمخلص من حدود الفردي

يقول لايبنز في كتابه Théodicée

« ان صفات الله الكاملة هي صفات نفوسنا ، لكنه يملكها بصورة غير محدودة انه محيط لم نتلق منه سوى قطرات ان فينا **بعض** القدرة **وبعض** الطيبة ؛ لكنها جميعا**كاملة** في الله .»

هذا صحيح بصورة مطلقة ، لكن الصيغة تعني فقط أن « **جميع خصائص الله هي خصائص للانسان** وعلى أي حال فان المؤمن **لا يعي** انه انما يؤله جوهره **الخاص** في الدين انه يموضعه يعني يتأمله ويجله على اعتباره جوهرا خارجيا، مستقلا ، مختلفا عنه ان الدين ازدواج للانسان انفصام بين الانسان وذاته ومن هنا كانت نتيجة مزدوجة

١ ــ يشوه هيغل الحقيقة حين يعلن ان ما يعرفه الانسان عن الله هي المعرفة التي يملكها الله عن نفسه او بعبارة أخرى ان الله يعرف نفسه في الانسان فالحقيقة هي على النقيض من ذلك تماما ان الانسان يعرف نفسه في الله ، و ما يعرفه الانسان عن الله هي المعرفة التي يملكها عن نفسه ان صفات الله تتبدل وفق فكر الانسان وحساسيته « فبقدر ماساوي الانسان ساوي الله الذي يصطنعه هذا الانسان ، ولا شيء أكثر من ذلك ان الدين هو الكشف المهيب عن كنوز الانسان المخبأة الاعتراف العلني بأسرار حبه وان كل تقدم للدين هو تقدم للانسان في معرفة ذاته ، والمسيح الذي هو تجسيد لله هو إله معروف من البشر شخصيا اليقين الفرح بأن الله موجود وأنه موجود في ذلك السكل الذي يحتاج الشعور ويتمنى أن نكون موجوداً فيه ولذا فان الامنية الاخيرة للدين تتحقق في المسيح وحده ، كما ينكشف فيه وحده سر الشعور الديني (وذلك في اللغة المتخيلة الخاصة بالدين طبعا ان ما كان **الجوهر** في الله قد أصبح **الوجود** في المسيح وبهذا المعنى يمكن القول ان الدين المسيحي هو الدين المطلق » وان الأديان الشرقية ، الدين الهندي مثلا ، تتحدث عن تجسدات الله بيد أن هذه التجسدات متواترة جدا فيها ، و « لذا فهي تفقد كل مغزى وفي هذه الادىان لا يصبح الله المتجسد **شخصا**، يعني **إنساناً** ذلك انه لا وجود لانسان دون شخص

٢ ــ نظرا لان الانسان لاتعامل في الدين الا مع ذاته في صورة كائن على حدة مستقل ومناقض ، ونظرا لان هذا الدين هو مجرد ما يحصل عليه الانسان من شعور **لا شعوري** بالذات فانه يؤول بالضرورة الى مجموعة كاملة من التناقضات فحين ينادي المؤمن بأن الله محبة فهو في واقع الامر يقول بكل بساطة ان المحبة تتفوق على الأشياء جميعا بيد أن المحبة في شعوره الديني تنتقص الى مرتبة **صفة** لكائن على حدة ، **إله** موجود بصورة مستقلة عن المحبة وهكذا يصبح الايمان بالله بالنسبة

الى الانسان الشرط الواجب لمحبته لاشباهه وانه ليكره الملحد باسم المحبة التي يبشر بها ويؤلهها بالذات وهكذا فالايمان بالله يغير العلاقات بين البشر اذ يغير سلوك الانسان حيال ماهيته الخاصة انه يصبح مصدر التعصب وجميع الأهوال المترتبة على هذا التعصب انه يلعن باسم الخلاص ، ويعيث فسادا باسم الغبطة ان الله وهم بيد انه وهم ضار حتى الدرجة القصوى ، يشل العقل ويقتل اندفاعة الانسان الطبيعية نحو الحقيقة والخير ولذا كان من واجب **العقل الذي توصل الى الوعي الذاتي ان يدمر هذا الوهم** وليس هذا بالأمر العسير يكفيأن نقلب جميع العلاقات التي خلقها الدين فما هو في الدين **وسيلة** (مثلا الفضيلة التي تخدم من اجل الحصول على الهناءة الابدية) يجب ان يصبح **غاية** ؛ وما هو في الدين عنصر ثانوي ، **شرط** مثلا محبة القريب التي هي **شرط** النعمة الألهية) يجب ان يصبح العنصر الجوهري ، **السبب** . ((**ان العدل والحق والخير تحصل من ذاتها على أساسها المقدس، انها تحصل عليه من صفاتها الخاصة . ان الانسان هو ، بالنسبة الى الانسان ، الكائن الاسمى**)) .

(في عام ١٩٠٢ افتتحت مجلة الحركة الاشتراكية(٢١) استفتاء عن موقف الاحزاب الاشتراكية في البلدان المختلفة حيال**الاكليريكية** وهذه مسألة تتضح كلياً في الوقت الراهن اهميتها **العملية** لكنه لا بد مثلا ، في سبيل حلها ، من ايضاح مسألة اخرى من مرتبة **نظرية** بصورة رئيسية:**مسألة موقف الاشتراكية العلمية حيال الدين:** وتكاد هذه المسألة لا تكون موضع دراسة في الادب الاشتراكي العالمي اليوم ، وتلك ثغرة كبرى تجد تفسيرا لها في كون ((**الممارسة**)) تستغرقجدا معظمالاشتراكيين المعاصرين . ويقال لنا ان الدين قضية خاصة واننا نوافق على ذلك لكن بالمعنى الضيق وحده وانه لمن البدهي ان الحزب الاشتراكي في اي بلد كان يتصرف بطيش كبير اذا هو رفض أن يفتح صفوفه لرجل نقبل برنامجه ويرضى بالعمل في سبيل تحقيقه مع احتفاظه في الوقت نفسه ببعض المستبقات الدينية لكن الحزب الذي يتخلى عن العقيدة التي نقوم برنامجه عليها يتصرف بصورة اشد طيشاً ولكن العقيدة **الاشتراكية العلمية** الراهنة ترفض الدين من حيث هو تصور خاطىء أصلا عن الطبيعة والمجتمع وتدينه من حيث هو عقبة في سبيل تطور البروليتاريين **اننا لا نملك الحق** في اغلاق الباب في وجه رجل لوثه الايمان ؛ لكنه **من واجبنا** أن نفعل كل ما في وسعنا كي ندمر هذا الايمان فيه ، أو على الاقل نمنع رفيقنا التقي (نمنعه طبعا بأسلحة الفكر) من نشر أوهامه بين العمال واذا هو أراد أن يظل منطقيا مع نفسه فان الاشتراكية لا يمكن في حال من الاحوال أن تتفق مع الدين فلا عجب اذن اذا كان مؤسسا الاشتراكية العلمية قد عارضاه بشدة واننا لنقرأ عند انجلز

اننا نريد ان ننحي عن طريقنا كل ما يمثل امامنا تحت علامة فوق الانساني وفوق الطبيعي ولذا فاننا نعلن بصورة جازمة الحرب على الدين وعلى الافكار الدينية*)) .

[انظر انجلز : Die Lage Englands] .

ومن جانبه كان ماركس يقول ان الدين هو الافيون الذي تحاول الطبقات العليا به تنويم وعي الشعب وان سعادة الشعب الفعلية تتطلب القضاء على هذه السعادة المزعومة وماركس بالذات هو الذي يقدم هذه الملاحظة

« ان نقد الدين يوقظ الانسان من أوهامه كيما يفكر ويعمل ويكون واقعه على اعتباره انسانا اصبح عاقلا ، كيما يدور حول نفسه وبالتالي حول شمسه الحقيقية*

وان هذا لصحيح جدا بحيث نجد اليوم عندنا أن « الماركسيين السابقين الذين لا يتمنون ولا يمكن ان يتمنوا من جراء اتجاهاتهم البورجوازية ان تحتفظ البروليتاريا بوضوح الذهن يعودون اليوم الى أحضان الكنيسة

٦

[بخصوص الفقرة **اللذين كان كارل غرون أفضل ممثل نموذجي لهما** ، انظر ص ٤٦ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

لا يستخدم انجلز كلمتي الادب » و « الادبي » بالمعنى الذي نعطيه لهما اليوم في روسيا ومن هنا كانت امكانية سوء الفهم ولسوف يتساءل القارىء كيف يمكن اذن للاشتراكية الحقيقية ان تتفسخ الى ادب سيء ؟ أيكون انصارها قد سفسفوا روايات مغرضة ؟ ان مرد ذلك الى أن الالمان يدخلون في الادب » (ما يسمونه Schönen Wissenschaften) لا السعر فحسب (Dichtkunst) بل البلاغة (Redekunst) ايضا وهكذا فحين يقال ان الاشتراكية الحقيقية تفسخت الى ادب يجب ان نفهم من ذلك انها تفسخت الى علم البيان كذلك يكتب المؤلف الروسي ولنسجل أن كلمة « الادب ، عند بييلنسكي ايضا ، لم تكن تملك المعنى الذي نعطيها اياه اليوم

< وفيما يتعلق بالاشتراكية الالمانية ، بالاشتراكية « الحقيقية انظر فرانز مهرنغ ** Geschichte der deutschen Sozialdemokratie المجلد الاول ، ثيل ص ١٩٩ — ٢٠٣ ، الطبعة الاولى . ان مهرنغ يعالج بمزيد من التفاصيل هذا الاتجاه في الهوامش الايضاحية للطبعة التي اصدرها لمؤلفات ماركس وانجلز ؛ انظر *** Aus dem literarischen Nachlass. المجلد الثاني ص ٣٤٩ — ٣٧٤ وان كتاب الاستاذ ادمر Geschiche der ersten sozialpolichen Bewegungen in Deutscnland **** كتاب هام بما نجده فيه من مقتطعات من مؤلفات

---

* [كارل ماركس **اسهام في نقد فلسفة الحق عند هيغل**]

** [**تاريخ الاشتراكية الديموقراطية الالمانية**]

*** [**الميراث الادبي**]

**** [**تاريخ الحركات السياسية والاجتماعية الاولى في المانيا**] .

الاشتراكيين « الحقيقيين » ، وبصورة خاصة موزيس هيس وكارل غرون وان الدراسة الفضلى عن هذا الاخير تصادف في مقالة(٢٣) ماركس « karl Grün Die soziale Bewegung in Frankreich und Belgien oder die Gescnmichtsschrei-bung des wahren Sozialismus* » المنشورة بادىء الامر في Westfalischen (٢٤) Dampfboot في آب وتشرين الاول من عام ١٨٤٧ ، والمعاد نشرها منذئذ في Neue Zeit ١٨٩٩ — ١٨٩٠ الاعداد ١ — ٦ واخيرا — ** last not least — من المناسب ان نذكر بشأن الاشتراكية الحقيقية ببعض الصفحات الكثيفة جدا والعادلة جدا ، وان تكن عنيفة جدا ، من **بيان الحزب الشيوعي** (الفصل الثالث ، ص ٢٩ — ٢٣ من ترجمتي لعام ١٩٠٠). وان مقالتي السيد ستروفيه(Neue Zeit ١٨٩٥ — ١٨٩٦ ، العددان ٢٧ و ٢٨ ، و ١٨٩٦ — ١٨٩٧ ، العددان ٣٤ و ٣٥) قد فقدتا على وجه التقريب كل اهميتهما في الوقت الحاضر ان المقالة الاولى تلخص مقالتين لماركس نشرت احداهما اليوم بكاملها من قبل مهرنغ (المقالة عن هرمان كريج Aus dem literarischen Nachlass المجلد الثاني ، ص ٤١٥ — ٤٤٥) ، والمقالة الثانية المقالة عن كارل غرون) قد أعيد نشرها في الاعداد من neue zeit المذكورة اعلاه وان مقالة السيد ستروفيه الثانية Studien und Bemerkungen zur Entwickelungsgeschte des wissenschagte: chen Sozialismus*** مكرسة «**لتاريخ فكرة صراع الطبقات** » رفي رايه ان لورنز فون شتاين كان اول من نادى بها ، في الادب الالماني على الاقل وقد استعارها ماركس منه ان الفرضية سواء في اللامعقولية والاعتباط ولم يكن بد للسيد ستروفيه من أجل اثباتها من أن يبين ان ماركس ، عند صدور كتاب لورنز فون شتاين عن الاشتراكية الفرنسية ، كان يجهل بصورة مطلقة مؤرخي عصر عودة الملكية الذين اتخذوا بصورة جازمة وجهة نظر صراع الطبقات ولم يبين السيد ستروفيه ذلك ، وهو لن يبينه قط

وبالنسبة الى القارىء الذي سوف تعنيه هذه المسألة اسمح لنفسي بأن أرجعه الى مقدمتي **لبيان الحزب الشيوعي** طبعة ١٩٠٠ ان مقالة السيد ستروفيه تهمنا في الوقت الحاضر من زاوية أخرى انها تبين لنا ان المؤلف بالرغم من عيوب فكره ونجوات تكوينه ، قد بلغ حوالي عام ١٨٩٧ القمم الحقيقية لقاء المستوى الذي انحط اليه في مجلة **التحرير**(٢٥) انه لامر مشجع جدا أن يعرف المرء ان الانسان ينحدر من القرد ؛ أما الطفرة المعاكسة فانها تبعث على قدر عظيم من الاسى

ان الخطيئة **النظرية** للاشتراكيين الحقيقيين قد كانت تستقيم في افكارهم

---

* كارل غرون الحركة الاجتماعية في فرنسا وبلجيكا او تاريخ الاشتراكية الحقيقية »]

**[اخيرا لا آخرا]

***[**دراسات وملاحظات عن تاريخ تطور الاشتراكية العلمية**] .

التام الى أية فكرة عن الاقتصاد عامـة وعن صراع الطبقات خاصة ؛ وفيمـا يتعلق **بالنشاط العملي** ، فان خطأهم الاثقل هو رفضهم « **السياسة** ان كائنا من كان من بين اصحابنا المحافظين في الوقت الحاضر سوف يوقع باليدين على هجمات كارل غرون ضد الحركة الليبرالية للبورجوازية الالمانية وقد دان ماركس بقسوة بالغة هذه الخطيئة الفظة ، وتلك واحدة من جداراته العديدة لكنه لدى ادانة الاشتراكيين الحقيقيين يجب على المرء ان يتذكر ان قضية العلاقات بين الاشتراكية والسياسة **لم تحل في أي بلد كان من** قبل الاشتراكيين الطوباويين ولا تشكل روسيا استثناء للقاعدة ان « الارض والحرية » و ارادة الشعب » **قد تعثرتا** فيها ايضا والاكثر من ذلك اننا نرى ، حتى فيالوقت الحاضر ان تصورا غريبا يشيع بين **اشتراكيينا الديموقراطيين** عن الدور السياسي للطبقة العاملـة ؛ لنتذكر فقـط المناقشات عن **الاستيلاء على السلطة** من قبل الاشتراكيين الديموقراطيين اثناء الثورة **البورجوازية** القادمة ان انصار هذا الاستيلاء على السلطة ينسون أن دكتاتورية الطبقة العاملة لن تقوم في حينها الا حين نتعامل مع ثورة اشتراكية ان فريق صحيفة **بروليتاري**(٢٦) يرجع الى افكار المرحومة **ارادة الشعب** وقد كان لمؤسسي الاشتراكية العلميـة وجهة نظر مغايرة تماما عن المسألة

يقول انجلز في Der deutsche Bauerkrieg » ❊

« ان اسوأ ما يمكن يقع لزعيم حزب متطرف هو يضطر لاخذ السلطة بين يديه في مرحلة لم تنضج الحركة فيها بعد من اجل سيطرة الطبقة التي يمثلها ومن أجـل تطبيق التدابير التي تتطلبها سيطرة هذه الطبقة ان ما **يستطيع** أن يفعله **لا** يتوقف على ارادته ، بل على المرحلة التي بلغها تناحر الطبقات المختلفة وعلى درجة تطور شروط الوجود المادي وعلى حالة الانتاج ووسائل النقل ، وهي ما يحدد في كل برهة معينة درجة تطور التناحرات الطبقية

« ان ما **يجب** عليه أن يفعله ، ما يتطلبه منه حزبه الخاص ، لا يتوقف عليه مرة أخرى ، لكنه لا يتوقف كذلك على درجة تطور الصراع الطبقي وعلى شروطه انه مرتبط بالمذاهب التي نادى بها والمطالب التي طرحها حتى ذلك الحين وهي مذاهب ومطالب غير مشتقة من العلاقات **الوقتية** للطبقات الاجتماعية المتواجدة ، بل من التفهـم الاعظـم أو الاقل للاتجاهات العامة للتطور الاجتماعي والسياسي وهكذا يجد نفسه بالضرورة حيال لغز مستعص ان ما **يستطيع** أن يفعله يناقض كل نشاطه الماضي ومبادئه ومصالح حزبه الفورية ، وما **يجب** أن يفعله غير ممكن التحقيق وبكلمة واحدة ، فانه ملزم بألا يمثل حزبه وطبقته ، بل الطبقة التي نضجت الشروط من أجل سيطرتها انه ملزم ، في مصلحة الحركة بأكملها ، أن يدافع عن مصلحة طبقة غريبة عنه وأن يغذي طبقته الخاصة بالعبارات والوعود والتأكيد على مصالح هذه الطبقة الغريبة هي

❊ [حرب الفلاحين في المانيا]

مصالحها الخاصة. ان كل من يقع في هذا الوضع المغلوط ضائع بصورة لا علاج لها(٢٧)*.
(أوردت في **خلافاتنا** ، ص ، ٢٨٨ ـ ٢٨٩)

ان لينين ، **المحاط باتباع نيتشه وماخ** ، **سوف يجني فائدة كبيرة اذا فكر في** هذا الامر لكن **ثمة اسبابا عديدة تدعونا الى الخشية من أن يكون هؤلاء « البشر** المتفوقون » **قد فقدوا كل قدرة على التفكير** > (٢٨)

/// فيما يخص الاشتراكية «الحقيقية» الالمانية*، **انظر بيان الحزب الشيوعي** لماركس وانجلز (ان ترجمة روسية جديدة قد نشرت في جنيف عام ١٨٨٢) ، وكذلك Geschihte der ersten sozialopolitischen Bewegungen in Deutshland لأدلر (يجب الا نخلط بينه وبين **الآخر** ، زعيم **الأشتراكيين الديموقراطيين** النمسويين) ، وهو مؤلف بعيد جدا عن الكمال على أية حال ، لكنه يعطي معلومات عن نشاط **كارل غرون** ان الاشتراكية « الحقيقية » الالمانية قد كانت لونا من الاشتراكية الطوباوية حيث لم يتبق أثر من عمق الفكر الذي يضيء كل صفحة من صفحات اوين وسان سيمون وفوريه لقد كان انصار « الاشتراكية الحقيقية ينهضون ضد **السياسة دون ان يفهموا شيئا من صراع الطبقات** وتلك هي الخطيئة التي لا يبرح نقع فيها ، كما نعرف بعض الاشتراكيين الروس الذين لا يقلون عن ذلك «حقيقية» واننا لنفكر اليوم بشأن « السياسة » بصورة مغايرة عن الاشتراكيين الحقيقيين .اذ نعتبرها جميعا ضرورة وعلى أي حال فان هذا لا يعني اننا نشكل جميعا فكرة مضبوطة عنها ان كل من يعارض السياسة الاشتراكية لا يفهم ان كل صراع طبقي هو صراع سياسي ومثال ذلك ان من يعلن لنعن **بادىء الأمر** بالسياسة ، ولنسقط الحكم المطلق ، ومن بعد ننتقل الى الاشتراكية هذا لا يرتفع قيد انملة فوق افكار الاشتراكية الطوباوية ؛ انه لا يفقه شيئا من سياسة الطبقة العاملة ؛ ومما لا ريب فيه انه سيدافع عن سياسة لا تملك أدنى صلة بمهمات الاشتراكية السياسية /// *

٧

[بخصوص العبارة « **قبول المادية في الخفاء ، بينما هي تنكر علانية** » انظر ص ٥٢ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

ما معنى « انكار امكانية معرفة الكون أو « عدم الاعتقاد بامكانية معرفة تامة عن الكون » ؟ هذا ما سوف نراه

---

* [ان الفقرات المؤشر عليها بعلامة /// و /// قد حذفت من قبل بليخانوف في طبعة عام ١٩٠٥]

لا استطيع لبرهة واحدة ان اشك في وجودي الخاص ؛ ان ضمانتي على ذلك ثقة باطنية لا يمكن لاي شيء القضاء عليها ولعل القارىء يضيف لنفكر بصورة سليمة واسمح لي بالاعتقاد بأنك لا تملك سببا للشك في الورق الذي تكتب عليه الآن وبالفعل فاني لن اشك فيه مطلقا في ظروف أخرى ؛ ولكن هذه الرغبة في التفلسف تتملكني ، وبالنسبة الى الفيلسوف ليس الحس المشترك حاسمابصورة دائمة ولسوف أسأل القارىء عن اي وجود للورق تتحدث ؟ اذا كنت تفترض أن هذا الورق موجود خارجا مني ، انه موجود في عداد الاشياء التي تدخل في تركيب العالم الذي يسمى خارجيا فاني سوف أطرح عليك سؤالا جديدا كيف تعرف وجود هـذه الاشياء ؟ (ما الـذي يضمن لك وجود عالم خارجي ؟) ان حواسك الخارجية هي التي تعلمك عنه . انكتملك البرهان عليه بواسطة احساساتك ؛ انك ترى هذا الورق؛ انك تلمس هذه الطاولة؛هذا أمر لا جدال فيه. لكن هذالايعني سوى انكتتعامل ليس مع أشياء بكل معنى الكلمة ، بل مع احساسات وتصورات تتشكل على هذاالاساس؛ انك لا تستنتج وجود الاشياء الا بالاستناد الى شهادة الاحساس ولكن ما الـذي يثبت لك حقيقـة هذا الاسناد ؟ انك تحسب أن الاشياء هي سبب الاحساس؟اذاتركنا جانبا مسألة معرفة حتى اية نقطة تصلح فكرتك عن السبب عامة ، فاني ارجوك أن تفسر لي السبب في قناعتك البالغة هذه بأن سبب احساساتك يقوم خارجا منك وليس في ذاتـك ومن المؤكـد اننا اعتـدنا أن نميز بين مقولتـين من الاحساسـات ١ ـ الاحساسات التي يقوم سببهـا فينـا ، ٢ ـ الاحساسات المسببة عن اشـياء خارجية لكن تلك عادة فقط كيف تعرف ان هذا التصنيف المألوف للاحساسات ليس في حال من الاحوال نتيجـة خصائص « انـا لا تعي ذاتها الا بقـدر ما تبني وتعارض بذاتها ، داخل ذاتها ، عالما خارجيا لا أنـا » ، وذلك بفعل من الخلق غير الشعوري ؟ انه ليبدو لي أقرب الى الحقيقة ان الامور تجري على هذا الفرار وانه لا وجود لاي عالم خارجي ، أي عالم خارج « أناي »

وبينما انت تثور ضد سفسطاتي ، أواصل تفلسفي لكني اتخلى الآن عن وجهة نظر المثالية الذاتية التي كان فخته ابرز ممثليها واصبح شكيا

اني افتح كتاب بحث في الادراك الانساني لدافيد هيوم واقرأ لك هذه الفقرة من الفصل الثاني عشر يبدو من المؤكد ان البشر مدفوعون بفعل الفريزة او استعداد طبيعي الى الثقة في حواسهم وانه ليبدو من المؤكد ايضا ان البشر حين يتبعون هذه الفريزة الطبيعية العمياء والجبـارة يفترضون دائما ان الصور التي تقدمهـا حواسهم اليهم هي الاشياء الخارجية بالذات ، ولا يراودهم أدنى شك على الاطلاق في ان تلك الصور ليست شيئا آخر سوى تصور هذه الاشياء الخارجية لكنه اذا كانت الفلسفة راغبة في البرهان على أن الفريزة لا تخدع البشر ، فانها تقع في مصاعب لا حصر لها . ان التجربة وحدهـا تستطيع ان تقدم الحجة الحاسمـة ؛

وهنا « تلوذ التجربة بالصمت ويجب ان تلوذ بالصمت » انتا نتعامل مع التصورات وحدها ولن يكون في مقدورنا قط أن نتحقق مما يربطها الى الاشياء ولذا فان العقل لا يقدم أي سبب للاعتراف بهذه الرابطة ومن المفروغ منه انه لا يجوز للمرء ان ينساق مع التأثر ان مثل هذه الاعتبارات لعبة فكرية عقيمة وان الشكي نفسه لسوف يصاب بدهشة عظيمة اذا ما سئل عما يريده على وجه الدقة ، واين يرجو أن ينتهي بهذه المحاكمة البارعة « ان من واجب الانسان ان يفعل ، ويحاكم ، ويؤمن بالرغم من انه لا يستطيع ، بالرغم من سائر جهده ، ان يكتسب يقينا تاما بشأن الاساس الاول لافعاله واستقراءاته لكن من واجب الفلسفة الا تغيب هذه الاستحالة عن نظرها يجب ان تذكر بأن مجال الكون القابل لمعرفتنا محدود بحدود ضيقة جدا بل اننا عاجزون عن فهم الطبيعة الحقيقية لرابطة السببية بين ظاهرتين لقد رأينا الف مرة حجارة تسقط ؛ ولذا فاننا نعتقد انها سوف تسقط دائما اذا لم يأت شيء ما فيعترض سقوطها لكن اعتقادنا يقوم على العادة وحدها ؛ والعقل لا يجعله الزاميا ؛ وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك ان العقل لا يضمن ان ما نسميه « قانون الطبيعة » سوف يظل ثابتا لا تغير فيه

ولنتابع مع التذكير بالبدهية الاساسية الفلسفة الكانطية التي تأثرت بشكية هيوم ثمة أشياء خارجا عنا ، لكن اية أشياء ؟ اننا لا نعرف ذلك اننا لا نتعامل الا مع احساساتنا الخاصة ومع صور الاشياء التي تتشكل فينا على هذا الاساس ولكن الاحساس ، وبالتالي الصورة ، هو حصيلة قوتين خصائص الاشياء التي تحدث فينا انطباعا معينا ، وخصائص المستقبل الذي يسجل هذه الاحساسات ، خصائص أنانا التي تجمعها بطريقة معينة ، التي ترتبها وتربط ما بينها اذا جاز التعبير ، بصورة مطابقة لطبيعتها الخاصة وهكذا نرى ان تصوراتنا لايمكن ان تشبه الاشياء التي تثيرها ، ان التصور والاشياء كما هي في ذاتها امران متميزان

وليس هذا كل شيء لقد قلنا ان أنانا » تجمع الانطباعات المحدثة فينا بفعل الاشياء الخارجية (الاشياء في ذاتها عصية علينا) بصورة مطابقة لطبيعتها الخاصة. لكن كيف هي تجمعها ؟ كيف ترتبها ، تربط ما بينها ؟ اننا نرى الاشياء في المكان هل يوجد المكان في ذاته ؟ ان التجربة عاجزة عن تقديم الجواب المباشر واما فيما يتعلق بالعقل ، فان فرضية مكان موجود خارجا عنا وبصورة مستقلة عنا تقوده الى استنتاجات متناقضة ؛ ولذا فانه من الواجب الافتراض بأن المكان (مثله مثل الزمان) ليس سوى شكل لحدسنا (لاسلوبنا في الرؤية كما يقول بعض الكتاب الروس) ، وبالتالي فليس ثمة أي شيء مشترك بينه وبين الاشياء في ذاتها (Nouménes)

لننتقل من التصور الى المفاهيم ولناخذ على سبيل المثال مفهوم السبب انه لممكن جدا اننا نخطىء حين نقول أن الظاهرة آ هي سبب الظاهرة ب لكننا لا نخطىء

حين نقول انه يوجد على **العموم** رابطة سببية بين الظواهر الغـوا فكرة السبب ولن يبقى لكم الا تيه من الظواهر **لن تتبينوا فيه اي شيء على الاطلاق** ان اساس القضية هو اننا **لا نستطيع على وجه الدقة ان نلغي هذا المفهوم** انه الزامي بالنسبة الينا ؛ **انه احد مقولات ادراكنا** ولا جدوى من تعداد المقولات الاخرى لنقل فقط ان هذه المقولات من حيث هي مقولات **لادراكنا** تفقد كل معنى حالما نتحدث عن الاشياء الموجودة في ذاتها ، **بصورة مستقلة** عن ادراكنا وبكلام آخر ، فان ما نسميه قوانين الطبيعة لا يسمل الا عالم الظواهر الموجود في فكرنا وأما الاشياء في ذاتها فانهـا لا تخضع لها على الاطلاق

وهكذا يجب أن نميز عنصرين في عقيدة العالم عند كانط ١ ـ عنصر **مثالي** ذاتي ـ أشكال الحدس ومقولات **الادراك** ، مبادىء المعرفـة بصورة عامـة ؛ ٢ ـ عنصر **واقعي** ـ المواد غير المحددة التي توفرها لنا الاشياء في ذاتها والتي يعدها الفكر وان كانط ليسمي فلسفته **مثالية متسامية** ولما كانت فكرتنا عن الضرورة الطبيعيـة لا تنطبق على عالم الاشياء في ذاتها ، فاننا **نستطيع** اعتباره ، كما يحلو لنا عالم الحرية التامة ؛ وانه لفي مقدور جميع الاستيهامات ان تلتجىء الى هذا العالم ـ الله ، النفوس الخالدة حرية الاختيار ـ أهي التي لا تجد لهـا مكانا في مفهوم القانون الطبيعي وان كانط الذي حاربها في **نقد العقل الخالص** يستسلم امامها في **نقد العقل العملي** يعني حالما يتعلق الامر بالفعل لا بالاستقراء المجرد

ان هذا الازدواج ، هذه **الثنائية** يشكل عيب درع المثالية الكانطية وعلى اى حال فان ضعفها ينكشف بكل وضوح من وجهة نظر مقدمات كانط بالذات

ومثال ذلك ما هي **الظاهرة** بمعنى الفلسفة الكانطية ؟ انها حصيلة عاملين

١ ـ **فعل أشياء (أشياء في ذاتها) موجودة خارجا عنا*** في **انانا** ، وهي اشـ مجهولة تماما منا الا بوساطة الانطباع الذي تتركه فينا ؛

٢ ـ خصائص **الانا** التي تعد الانطباعات التي نتلقاها من الاشياء في ذاتها

واذا أثيرت الظاهرة بفعل الشيء في ذاته فينا فمعنى ذلك أن هذا الفعـل يشكل **سبب الظاهرة** ولكن **مقولة السببية غير قابلة للتطبيق** في راي كانط ، **الا في حدود عالم الظواهر ولا يمكن تعميمها على الاشياء في ذاتها** وليس هناك الا منفذان لهذا التناقض ، الواضح جدا بحيث سجلته الفلسفة الالمانية من قبل في أواخر

---

* انانقرا في الفقرة ٣٢ من الكتاب الشهير **تمهيدات الى أية ميتافيزياء مقبلة سوف تمثل لنا من حيث هي علـم** ، وهو مؤلف صدر بعد **نقـد العقـل الخالص** ، ما يلي « **في الحقيقة** اذا كنا لانـرى ، كما هو صواب في أشياء الحواس **الا** ظواهر بسيطة ، فاننا نعترف كذلك بأن للظواهر اساسا هو شيء في ذاته ؛ وبالرغم من اننا **لا** نستطيع البتة أن ندرك طبيعتـه الصميمية ، بل تظاهرها الظواهري فحسب يعني الطريقة التي تتأثر حواسنا وفقا لها بهذا الشيء الذي نعرفـه . [الفقره واردة بالالمانية **في** النص الروسي] .

القرن الثامن عشر **اما** الاستمرار في التأكيد بأن مقولة السببية غير قابلة للتطبيق على الاشياء في ذاتها ، الامر الذي يؤدي الى رفض فكرة ان الظاهرة ناجمة عن **فعل** شيء في ذاته **فينا** ؛ **واما** الاستمرار في اعتبار هذه الفكرة صحيحة ، وعندئذ لابد من الاعتراف بأن مقولة السببية تنطبق على الاشياء في ذاتها وفي الحالة الاولى نمضي باستقامة الى **المثالية الذاتية** ، طالما ان الشيء في ذاته **لا يفعل** فينا وطالما اننا لانعرف شيئاً عن وجوده ، وأن فكرة مثل هذا « الشيء » بالذات يجب أن ينادى بها عقيمة يعني حشوية في فلسفتنا وفي الحد الثاني من المتناوبة **ننخرط في طريق المادية** ، ذلك أن الماديين انفسهم لم يزعموا قط أننا نعرف الاشياء كما هي في ذاتها ، يعني بصورة مستقلة عن تأثيرها فينا ، بل ان هذه الاشياء معروفة عندنا بالضبط لانها تفعل في أعضاء الحواس ، وفي حدود فعلها في هذه الاعضاء

يقول دولباخ

اننا لا نعرف عناصر الاجرام على الاطلاق ، لكننا نعرف بعض خصائصها أو صفاتها، ونحن نميز المواد المختلفة بفضل ما تحدثه في حواسنا من آثار أو تبدلات وهكذا فان المادة بالنسبة الينا هي على العموم كل ما يؤثر في حواسنا بطريقة ما*

وصحيح أن لانج يؤكد في كتابه **تاريخ المادية** (المجلد الاول ص ٣٤٩ من الترجمة الروسية ان المقصود هو هولباخ بالضبط) ان المادية تصر بعناد على تناول عالم الظاهر المحسوس على اعتباره عالم الاشياء الواقعية » ؛ لكن مرد ذلك الى انه هو نفسه « يصر بعناد على **عدم فهم المادية**

ومهما يكن من أمر ،فان مسألة عدم قابلية العالم الخارجي للمعرفة تحصل في حالتين على حل **ايجابي** وبالفعل ، فاذا انتقلنا الى وجهة نظر المثالية الذاتية يتضح ان **اللا أنا** التي تخلقها **أنانا** قابلة للمعرفة من قبل هذه الانا واذا كنا نفضل أن نصبح ماديين فلابد لنا من الاستنتاج بعد بعض التفكير بأنه اذا كنا **نعرف بعض خصائص الاشياء** في ذاتها بفضل فعلها فينا ، فاننا اذن **نعرف** بالرغم من دولباخ ، **طبيعتها** حتى درجة **معينة** ذلك ان **طبيعة** الشيء تنكشف في **خصائصه** ان التعارض الشائع بين الطبيعة والخصائص لا يتماسك وهذه النقيضة بالضبط هي التي ضيعت نظرية المعرفة في مجاهل السكولاستيكية حيث ضل كانط ولا يبرح

* [انظر دولباخ **نظام الطبيعة**]

ان المادي الانكليزي جوزيف بريستلي لاحزم أيضا من وجهة النظر هذه انظر بصورة خاصة كتابه Disquisitions relating to Matter and Spirit, vol I, second edition, Bir - gham, MDCCL XXXII, p. 134, [**أبحاث في المادة والروح**] . وإما يقترب بريستلي كثيراً بماديته من طاقية اوستوالد ، فمن المؤكد يمضي بعيداً جداً : لكن لا أهمية لذلك هنا .

جميع خصوم المادية يتيهون دون رجاء ان غوته بعبقريته الشاعرية ، **قد رأى** اين تقوم الحقيقة بصورة افضل من مثالي متسام مثل كانط ، **بل بصورة افضل من** دولباخ نفسه ، حين يقول

Nichts ist innen, Nichts ist draussen,
Denn was innen, das ist aussen.
So ergreifet ohne Saümniss
Heilig öffentlich Geheimniss ..*

ثمة هنا ما يمكن أن نسميه نظرية المعرفة للمادية بأكملها لكن السكولاستيكيين الذين ينادون بأن العالم الخارجي غير قابل للمعرفة لم يتوصلوا بعد الى فهم هذه الابيات الاربعة ، كما لم يفهموا النظرية المادية عن المعرفة

لقد فضح هيغل بكل وضوح الخطيئة المنطقية ، أو **المعرفية** اذا كنا نفضل ذلك، القائمة في أصل جميع المحاكمات التي تزعم أن الاشياء في ذاتها غير قابلة للمعرفة وبالفعل فاننا لا نملك اية امكانية كي نرد على السؤال ما هو الشيء في ذاته ؟ ». لكن السبب في ذلك بسيط جدا ان السؤال « **ما هو** ؟ يفترض أن الشيء يملك خصائص يجب تحديدها ، وهو لا يملك معنى **الا في هـذه الفرضية** ولكن « الناس الفلسفيين** » الذين يحاضرون عما هو غير قابل للمعرفة **يحذفون سلفا جميع خصائص الشيء في ذاته بحيث يجعلون السؤال سخيفا** ، وبالتالي **الجواب مستحيلا** . ويقول هيغل ان المثالية المتسامية الكانطية « تنقل الى الشعور جميع خصائص الاشياء ، من وجهة نظر الشكل ومن وجهة نظر المضمون على حد سواء ومن وجهة النظر هذه فمن المفروغ منه انه يتوقف علي ، على الذات أن تبدو لي ورقةالشجرة خضراء لا سوداء ، والسكر حلوا لا مرا ، وانه حين تعلن الساعة الثانية فاني أدرك الدقتين بصورة متتالية لا متوافقة ، واني لا اعتبر الدقة الاولى سببا للدقة الثانية ولا نتيجة لها». الخ .(Wissenschaf der Logik ، المجلد الاول ، القسم الاول،ص ٥٥ ، والقسم الثاني ، ص ١٥٠ وان بريستلي في كتابه Disquisitions , وكذلك في مناظرته مع برايس(٢٩)، قدقدم قبل هيغل ملاحظات ذكية جدا عما يجب أن نفهمه من كلمة **معرفة**)

---

* [ليس ثمة داخل ، وليس ثمة خارج
لان ما هو في الداخل هو في الخارج ايضا
اسرع واكتشف اذن
السر المقدس المكشوف للجميع]

** « La gente Philosorhique »

ولسوف يعترض القارىء علينا قائلا من فضلك ، اليس اللون والصوت ذاتيين خالصين ؟ انك لن تقول لي ان الاحساس السمعي او اللوني يشبه الحركة التموجية المسببة له كما تعلمنا ذلك علوم الطبيعة الحديثة ؟ من المؤكد انه لا يشبهها مطلقا لكنه اذا كان **الحديد** يتغير **لونه** حسب **الحرارة** ، فان لذلك **سببا موضوعيا** لا يتوقف على خصائص عضويتي الروحية لقد كان عالم الغريزة الشهير عندنا ، سيتشينوف ، على حق مطلق حين يقول ان « تبدلا محددا في الموجة الصوتية يقابل في واقع الامر كل اهتزاز صوتي نحسه وكل تبدل في شدته وارتفاعه ومدته ان الصوت والضوء ، من حيث هما احساسان هما نتاج العضوية الانسانية ؛ لكن الاشكال والحركات التي نراها ، ومثلها التموجات الصوتية التي نسمعها ، ترسل جذورها خارجا منا ، في الواقع (**الفكر الحسي والواقع في اغاثة الجائعين** ، منشورات **أنباء روسيا** ، ص ١٨٨) ويضيف سيتشينوف : « **مهما تكن الاشياء الخارجية في ذاتها ،بصورة مستقلة عن شعورنا ـ حتى اذا كان انطباعنا عنها علامة اتفاقية خالصة ـ فان تشابهات وفوارق فعلية تقابل التشابهات والفوارق التي ندركها** وبكلام آخر فان « **التشابهات والفوارق التي يكتشفها الانسان بين الاشياء المدركة هي تشابهات وفوارق فعلية** (المصدر نفسه ، ص ٢٠٧) وهذا صحيح أيضا يجب فقط أن نسجل أن السيد ستيشينوف يظل غامضا حتى درجة ما فاما يعترف بأن انطباعاتنا لا تشكل الا علامات اتفاقيــة عن الاشياء في ذاتها ، فانه يبدو أنه ينسب الى هذه الاشياء في ذاتها لا ندري أي « مظهر » مجهــول ومستعص على معرفتنا ولكن « **المظهر** » انما هو نتيجة فعل الاشياء في ذاتها فينا ؛ **وهذه الاشياء في ذاتها لا تملك أي « مظهر » خارج عن ذلك الفعل** ولذا فان معارضة المظهر الذي تملكه في شعورنا بالمظهر الذي تملكه بصورة فعلية معناه عدم فهم سمه « مظهر » ولقد رأينا من قبل أن « نظريةالمعرفة » في السكولاستيكية الكانطية تقوم على هذا الغموض في المصطلح واني أعرف، أن السيد سيتشينوف لا ينزع الى ذلك مطلقا لقد قلت من قبل أن نظريته عن المعرفة صحيحة كل الصحة ؛ لكنــه لا يجوز للمرء في الفلسفة أن يرضى بتنازلات مصطلحية للخصم تعــوق التعبير عــن فكره الخاص بصورة دقيقة واني لاصر على تقديم هذا التحفظ لاني في ملحوظتي للطبعة الاولى عبرت عن نفسي بشيء من الغموض وأحسست فيما بعد بكل مساوىء هذا التذبذب

وهكذا فليس للاشياء في ذاتها أي « مظهر اذن فلا وجود لمظهرها الا في شعور الذات التي تفعل فيها لكن من هي هذه الــذات ؟ الانسان ؟ كلا ، ليس الانسان وحده ، بل سائر العضويات التي تملك ، بفضل بعض خصائص بنيتهــا ، خاصية « **رؤية** » العالم الخارجي بطريقة او أخرى ولكن بنيــة هــذه العضويــات تختلف ، وبالتالي فان العالم الخارجي يتخذ بالنسبة اليها « **مظهرا** » **مختلفــا** ؛

لا اعرف كيف « يرى الحلزون ؛ لكني على يقين انه لا يرى مثل الانسان ومهما يكن من امر ، فانه لا يترتب على ذلك مطلقا أن **خصائص العالم الخارجي لاتملك** معنى آخر سوى المعنى الذاتي ابدا على الاطلاق ! حين ينتقل الانسان والحلزون من آ الى ب فان المستقيم يظل بالنسبة الى الانسان والحلزون على السواء الطريق الاقصر بين هاتين النقطتين : لتتحرك هذه العضوية وتلك في خط متكسر وعندئذ فانه **لابد لهما من صرف مزيد من العمل من أجل التحرك** وبكلام آخر ، **فان خصائص المكان تملك أيضا مغزى موضوعيا** وان تكن العضويات المتفاوتة التطور لا تتصورها بالطريقة نفسها

وليس هذا كل شيء ما الحلزون **بالنسبة الي** ؟ عنصر من العالم الخارجي يمارس في « تأثيرا مشروطا بعضويتي واذا قبلت بأن الحلزون « يرى العالم الخارجي بطريقة ما ، فلابد لي اذن من الاعتراف بأن « المظهر » الذي يتمثل الحلزون العالم الخارجي به مشروط هو نفسه بخصائص عالم خارجي موجود فعليا وهكذا فان العلاقة الموضوع ــ الذات ــ الوجود ــ الفكر حيث يرى انجلز القضية الاساسية للفلسفة المعاصرة تمثل لنا في ضوء جديد كل الجدة ان التعارض بين الذات والموضوع يتلاشى ان **الذات** تصبح **موضوعا** ايضا ، **والمادة** تذكروا تعريف دولباخ: وهكذا فان المادة بالنسبة الينا هي على العموم كل ما يؤثر في حواسنا بطريقة ما) تتبين انها تتحلى **بالشعور في بعض الشروط** هذه مادية في حالة النقاوة ، لكنها ايضا الجواب الوحيد المرضي حتى درجة ما وغير المناقض للعلم الذي نستطيع اعطاءه ردا على مسألة العلاقة بين الذات والموضوع

لنمض قدما ليس ثمة نقطة اتصال واحدة بين النظرية الكانطية عن المعرفة **ونظرية التطور** التي تسود العلم الحديث والذي أسهم كانط نفسه اسهاما كبيرا في تأسيسها بمؤلفه* Allgemeine Theorie und Geschichte des Himmels. تلك ثغرة خطيرة ، ومن المؤكد ان حالة علم الحياة في عصر كانط تفسرها ؛ بيد ان علماء حياة متعلقين بشدة بالكانطية يدركون اليوم ذلك بكل وضوح. وعلى سبيل المثال أورد المقالة الهامة التي نشرها في السنة الفائتة الاستاذ راينكة Kants Erkenntnisslehre und die moderne Biologie** وذلك في مجلة Deutsche Rundschau تموز ١٩٠٤) ،

ويرى راينكه ان العلوم الطبيعية ، وعلم الحياة على الاخص، لا تنسجم مع النظرية الكانطية عن « الخصائص القبلية للادراك الانساني

ومن المعروف ان كانط يؤكد ان مقولة السببية لا تنطبق على **الاشياء في ذاتها** بل على **الظواهر** وحدها ، مادامت تدخل الى الظواهر من قبل ادراكنا ، وهو قانون قبلي للطبيعة ذلك ان الادراك ، بالنسبة الى كانط ، يقوم على العموم في أصل نظام

---

* [تاريخ الطبيعة العام ونظرية السماء]

** [نظرية المعرفة الكانطية وعلم الحياة الحديث]

الطبيعة فهو الذي يملي قوانينه على الطبيعة وهـذا ما يضايق راينكه ، فهو يتساءل « أثمة وجود لهذه القبلية ؟ واليكم كيف يجيب على ذلك « لابدللانسان منذ ولادته ، يعني قبل اية تجربة - بفضل خصائص ادراكه ، ان يفكر حسب مقولة السببية وان يتصور الظواهر في الزمان وفي المكان [يسمي راينكه الزمان والمكان مقولتين وليست هذه زلة ، بل طريقة معينة في فهم نظرية المقولات ومن اتوسع في هذا الموضوع] وعلى اي حال فلابد له ، بفضل خصائص عضويته ، أن يتنفس ويتحرك ويتغذى الخ ولما كان يشكل جزءاً من الطبيعة فانه يخضع للقانون الطبيعي الكبير الخاص **بالتكيف** مع شروط الوجود وانـه ليكون سخفا خالصا ان نتصور أن ادراكنا هو الذي فرض هذا القانون على الطبيعة ان الخصائص **الروحية** للعضويات تخضع له أيضا ، فهي الاخرى مناطة بالطبيعة وتتطور أيضا بقدر ما تتطور العضوية أن جميع أشكال تكيف العضوية مع البيئة المحيطـة (رئـات ، غلاصم الخ معطاة كذلك للعضوية بصورة قبلية مثلهـا كمثـل أشكال الفكر ان هاتين الزمرتين من الخصائص العضوية وراثيتان ، فهما تتطوران بقدر ما تتطور العضوية انطلاقا من الخلية البدائية التي كانت هذه الخصائص غير ملموسة فيها على الاطلاق واذا سئل كيف تم اكتشافها من قبل نوع حيواني معين ، فلابد من اللجوء الى تاريخ تطور الارض لكنه اذا اخذنا فردا خاصا بشريا او حيوانيا ، فان جميع خصائصه البدنية والروحية على حد سواء ، معطاة بصورة قبلية

هكذا يفكر راينكه وان تفكيره لباعث على الاهتمام وصحيح ؟ بيد انه ينسب الى القبلية الكانطية مظهرا جديدا كل الجدة لن يوافق عليه كانط ابدا وليكفنا أن نشير أن كانط يرفض ان ينسب الى الزمان والى المكان والى السببية طابعـا ذاتيا على الحصر ما أبعده عن ذلك انه يقول ان التماثل مع تكيف الاشكال الجسدية يقودني الى الاستنتاج بأن قوانين الفكر القبلية ماكانت توجد لو لم تكن تقابل واقعا خارجا عنا ان اللكنـة مادية بصورة مطلقة بالرغـم من أن راينكه أحد عمد **النظرية الحيوية الجديدة** ، لم يكن ماديا بكل تأكيد وانـه لبدهي أن الكانطيين الجدد المعاصرين كوهن ولاسويتز أو حتى ريبهل لن يوافقوا بأي ثمن كان على مايقوله عـن القبليـة بيـد أن علم الحيـاة الحديث يطـاردهم في عزلتهـم

ويقول كاتب الماني آخر لا اعرف كيف يتوصل انصار النقدية الكانطية الـى التفاهم مع نظرية التطور ان النفس عند كانط مقـدار ثابت معطى مع جميـع عناصره ؛ وكل ما هو مقصود جرد ما تملكه بصورة قبلية واستنتاج كل الباقي منه ، دون تفسير أصل هذا الارث لكنه اذا انطلقنا من البدهية القائلة ان الانسان تطـور شيئا فشيئا انطلاقا من الهيولى البدائية فلابد اذن ان نستخلص من التظاهرات الاساسية للخليـة كل ما كان ، عنـد كانط ، اسـاس ... عالم الظواهر (بيك :

Die Nachahmung und ihre Bedetung Für Psychologie und Vopkerkunde*
لايبزغ ١٩٠٤ ، ص ٣٣) ولكن الكانطيين لم يتساءلوا قط ما اذا كانت نظريتهم عن المعرفة تتلاءم مع نظرية التطور ؛ بل لقد دهشوا ايما دهشة عندما اقترح عليهم التفكير في ذلك ، واني لاتذكر كيف كان اصدقائي الكانطيون يهزون اكتافهم بكل ازدراء عندما عارضت كانط ، في مناقشتي مع كونراد شميدت(٣٠) ، بنفس الاعتبارات التي قدمها بيك في المقالة التي استقيت منها هذه الفقرة لكن الحقيقة تنتهي دائما بالانتصار ، واليوم اضطر حتى كانطي عضال ، اذا جاز لي التعبير مثل فيندلباند ان يتساءل ما اذا كان اولئك المشغوفون بنظرية التطور يستطيعون الاعتراف « بظاهرية الزمان (die Phaenomenalitat der Zeit) انظر مقالته nach Hundort Jahren ¬ في المجموعة المشتركة * Zu Kant's Gedachtniss برلين ١٩٠٤ ، ص ١٧–١٨) .

ويرى فيندلباند ان العلم يطرح هنا على الكانطية« مشكلةشائكة » وبالمناسبة، فليس في المشكلة اي شيء « شائك » ؛ أنها بكل بساطة **غير قابلة للحل** .

لما كان التطور يحدث **في الزمان** ، بينما لا يعدو الزمان كونه ، عند كانط ، شكلا ذاتيا للحدس فاني أناقض نفسي اذا تمسكت بفلسفة كانط حتى اذا تحدثت عما كان موجودا **قبلي** يعني حين لم يكن لي وجود ولم يكن ثمة وجود كذلك لاشكال حدسي المكان والزمان

ولقد حاول تلامذة كانط التخلص من الصعوبة بتحديدهم ان المقصود عند اساذهم ليست أشكال ومقولات الانسان الفرد في حال من الاحوال بل الانسانية

ها وان هذا التصحيح لأبعد ما يكون عن تقديم أية معرفة بل هو لا يفعل مضاعفة المصاعب

هذا أنا قبل كل شيء أمام هذه المتناوبة **اما** أن الناس الآخرين لا وجود لهم في **تصوري** ، وفي هذه الحال فانه لم يكن لهم أي وجود قبلي ولن يكون لهم اي وجود بعد **وفاتي** ؛ **واما** أنهم موجودون **خارجاً مني** وبصورة مستقلة عن شعوري ، وفي هذه الحال فان فكرة وجودهم قبلي وبعدي لا تنطوي بالتأكيد على اي تناقض ، بل تخلق أمام الفلسفة الكانطية مصاعب جديدة لا يمكن التغلب عليها اذا كان البشر موجودين **خارجا عني** ، فان هذا **الخارج عني** هو فيما يبدو ما اتصوره بفضل بنية دماغي على انه **المكان** فليس المكان اذن مجرد شكل ذاتي للحدس ؛ انه يقابله معين (« في ذاته » an sich معين) موضوعي واذا كان بشر قد وجدوا **قبلي** وسوف يستمرون في الوجود **بعدي** فلا بد بكل بداهة أن تقابل هذا « **القبلي** » وهذا

---

* [**المحاكاة واهميتها في علم النفس والاثنولوجيا**]

* [« بعد مائة عام » ... **في ذكرى كانط**]

« **البعـدي** » أشياء an sich لا تتوقف على شعوري بل هي تنعكس في شعوري في شكل الزمان وبالتالي فان **الزمان ليس هو الآخر ذاتيا خالصا** واخيراً فاذا كان البشر موجودين خارجا عني ، فلابد أن نضعهم في عداد الاشياء في ذاتها التي قابليتها للمعرفة هي بالضبط موضوع النزاع الذي يقوم بين الكانطيين وبين الماديين الذين هم نحن واذا كان سلوك **الغير** قمينا بتقرير **فعلي** بطريقــة ما ، كما ان فعلي قمين بالتأثير في فعل الغير (وهذا ما لابد بالضرورة أن يقبل به كل من يعتبر أن المجتمعات البشرية وتطور حضارتها ليست موجودة في شعوره وحده) ، فانه يتضح اذن أن مقولة السببية تنطبق على عالم خارجي موجود فعليا يعني عالم الاشياء في ذاتها ومرة أخرى ليس ثمة سوى منفذين **اما مثالية ذاتية** تؤول بصورة منطقية الى **الاحادية** (يعني تقرير أن البشر الآخرين لا وجود لهم الا في تصوري) ؛ **واما** التخلي عن المقدمــات الكانطية وهو التخلي الذي مآله المنطقي وجهة النظر **المادية** ، كما برهنت على ذلك في مناظرتي مع كوبراد شميدت

ولنمض قدما لننتقل بالفكر الى العصر حيث لم يكن يوجد على الأرض سوى أسلاف الانسان البعيدين جدا الى العصر الثاني مثلا كيف كان **اذن** المكان والزمان والسببية ؟ **ومن هو** الذي كانت هي أشكاله ومقولاته الذاتية ؟ أهي الدكصورات ؟ **وأي ادراك** كان يملي **اذن** قوانينه على الطبيعة ؟ أهو ادراك المجنح الاثري ؟ وبمـــا أن فلسفة كانط **لا تستطيع أن تعطي اجوبة** عن هذه الاسئلة فانه لابد من رفضها على اعتبارها متنافرة مع العلم الحديث

تقول المثالية لنا : **لا موضوع بدون ذات** لكن تاريخ الارض يبين لنا **أن الموضوع قد وجد قبل ظهور الذات بوقت طويل** يعني قبـــل زمن طويل من ظهور عضويات بلغت درجة معينة من الشعور . ويقول المثالي لنا **أن الادراك يملي قوانينه على الطبيعة** ولكن تاريخ العالم العضوي يبين لنا أن الادراك لم يظهر الا في درجة عالية جدا من التطور . ولما كان هذا التطور لا يمكن تفسيره الا بقوانين الطبيعة وحدها ، فانه يترتب على ذلك أن الطبيعة هي التي أملت قوانينها على الادراك . ان نظرية التطور **تكشف لنا عن حقيقة المادية .** وان تاريـــخ الانسان حـــالة خاصـــة مـــن **التطـور عامة** وهكذا فـــان ما قلناه لونا يجيب عن السؤال الخاص بمعرفة ما اذا كان في الامكان الجمع بين نظرية كانط وبين تفسير مادي للتاريخ ومن المؤكد ان فكر الانتقائي قمين بجميع الخلائط بالجمع بين ماركس وكانط بل الواقعيين » في العصر الوسيط أمـــا بالنسبة الى أولئك الذين يضعون نظاماً في أفكارهم فان تساكن ماركس والفلسفة الكانطية سوف يبدو دائماً على صورة مسخ حقيقي

ان كانط يؤكد في **نقد العقل العملي** ان واجب الفيلسوف الاول هـــو ان يظـــل **منطقياً مع نفسه** ، وان تكن هذه الصفة نادرة جدا . وان المرء ليستشعر برغبة

لاتقاوم في تطبيق هذه الملاحظة على المؤلف ، وكذلك على جميع المدعين الحمقى والفلاسفة **المتعلمين** الذين يريدون أن يمدوا جسرا بين فكره وفكر ماركس

ان نقاد ماركس، وعلى الاخص der arme Konrad ❋ قد زعموا ان انجلز برهن على عدم فهم تام لكانط حين قال ان التجربة والصناعة **أفضل دحضين لعدم** قابلية **معرفة** العالم الخارجي وفي الحقيقة أن انجلز كان على صواب مطلق ان كل **تجربة** بشرية ، كل نشاط انتاجي يقوم به الانسان يبرهن على انه يتصرف **بصورة فاعلة** حيال العالم الخارجي وانه يثير فيه عن قصد بعض الظواهر لكنه لما كانت الظاهرة نتيجة لفعل أشياء في ذاتها في لكوني **« تأثرت »** بهذا الشيء كما يقول كانط فاني عندما انجز تجربة او انتج شيئا اجبر الشيء في ذاته على التأثير في **« أناي »** بطريقة معينة محددة بصورة مسبقة وبنتيجة ذلك فاني اعرف على الاقل بعضا من خصائصه تلك الخصائص التي استخدمها كي اجبره على الفعل وليس هذا كل شيء عندما اجبر هذا الشيء على الفعل في بطريقة معينة فاني اتصرف حياله من حيث انا **سبب** ولكن كانط يؤكد أن مقولة السببية لا علاقة لها البتة « بالاشياء في ذاتها » ؛ وهكذا فان التجربة تحمل اليه هنا تكذيبا قاطعا بصورة **اشد** من التكذيب الذي حمله الى نفسه بنفسه حين قال ان مقولة السبب لاتتعلق **الا بالظواهر** وحدها (وليس بالاشياء في ذاتها) بينما كان يؤكد في الوقت نفسه **أن** الشيء « **في ذاته** » يمارس فعلا في **« أنانا »** ، يعني يخدم **كسبب** للظواهر ومن هنا يترتب مرة أخرى أن كانط كان يخطىء خطأ فادحا حين قال ان أشكال فكرنا (مقولات الادراك أو مبادىء العقل مثل السببية والتفاعل والوجود والضرورة **هي مجرد « أشكال قبلية »** ، وبكلام آخر أن الاشياء في ذاتها لاتخضع مطلقا لعلاقات السببية والتفاعل ، الخ وفي الواقع أن أشكال الفكر الاساسية لا تقابل فحسب نقطة **فنقطة** العلاقات القائمة بين الاشياء **في** ذاتها بل **يجب بالضرورة أن تقابلها** ، لان وجودنا لولا ذلك يصبح مستحيلا وبالتالي وجود « أشكال الفكر ومن المؤكد **اننا** قمينون جدا بالخطأ في دراسة هذه الاشكال الاساسية فقد نأخذ على انه مقولة شيئا ليس هو كذلك لكن تلك مسألة اخرى ، وهي ليست هنا موضوع البحث بصورة مباشرة لنقتصر على ملحوظة بشأنها حين نقول أن العالم الخارجي قابل للمعرفة لا نقصد أن أول فيلسوف قادم تشكل عنه فكرة صائبة

حسنا . . لنقبل بأن كانط يخطىء ، لنقبل بأن ثنائيته لاتعمد للنقد . أن وجود الاشياء الخارجية لا يتم البرهان عليه من جراء ذلك كيف سوف تثبتون أن هيوم **مخطىء وأن** المثاليين الذاتيين يخطئون بركلي على سبيل المثال ، الذي عرضنا أفكاره في **مطلع** هذه الملحوظة ؟

فيما يخص المثالية الذاتية لا اجد اية ضرورة للرد ان من يمكن ان يجد

❋ [كونراد المسكين]

غذاءه الثقافي في فلسفة تقود منطقيا ، كما قدمت أعلاه ، الى الاحادية ، فان **المناقشة** معه مضيعة للوقت لكنه يمكن ويجب ان يطلب منه المضي الى غاية أفكاره ولكن المضي الى غاية أفكاره بالنسبة الى مثل هذا الانسان يعود مثلا الى انكار حتى حقيقة ولادته الخاصة فالاحادي ، طالما انه لايعترف بأي شيء خارج (**أناه**) ، يرتكب خطيئة منطقية فظة ، ❊salto mortale حقيقيــة . اذا قبــل بأن أمــه وجــدت او كان لها أي وجود خارج تصوره وفضلا عن ذلك ، فليس شخص يدرك ذاته أثناء عملية الولادة ؛ ولذا فليس لدى الاحادي اي سبب على الاطلاق كي يحسب انه « مولود من امرأة » لكنه لا بد أن يكون المرء ذلك المجنون البائس الذي يتحــدث عنه بوبريشتشين (٢١) كي يرضى بمثل هذه المثالية ذلك أن هذه المثالية لاتعدو كونها ارجاع النقد الذي يضع امكانية معرفة العالم الخارجي مــوضع الشــك الى العبث كان هيوم يقول أنه لا بد للانسان أن يفعل ويفكر ويؤمــن بواقع هذا العالم واما نحن الماديين ، فأننا نضيف أن هذا الايمان يشكل الشرط المسبق والذي لا غنى عنــه لفكر **نقــدي** ، بالمعنى السليم للكلمة ، انــه ❊❊ salto vitale التـــي لايستطيع الفيلسوف استغناء عنها (٢٢) اننا لانحل المسألة الاساسية للفلسفــة بمعارضة « **الانا** » ب « **اللا أنا** » ، يعني بالعالم الخارجي ان هذه النقيضة لايمكن ان تؤدي الا الى طريق العبث المسدودة لابد في سبيل حل المسألة من اجتياز حدود « **الانا** » والتساؤل كيف يتصرف « **الغــير** » (العضوية المتحلية بالشعــور) حيــال **العالم الخارجي** المحيط به لكنه حالما يطرح السؤال في هذا الشكل ، وهو الشكل العقلاني الوحيــد ، فانه يتضح في الحال أن « الذات » عامة ، وبالتالي « **الانا** » ، وهي ابعد ماتكون عن املاء قوانينها على العالم الموضوعي ، لاتمثل سوى قسم مــن هذا العالم **المأخوذ بعين الاعتبار من زاوية اخرى** ، من زاوية الفكر بدلا من أن يؤخذ بعين الاعتبار من زاوية الديمومة ، كما كان سبينوزا يقول ، هو الذي كان ماديــا بصورة لا جدال فيها وأن يكن مؤرخو الفلسفة يرفضون اعتباره كذلك❊❊❊

أن هذا المنهج النقدي الحاسم هو الذي يحل معضلة شكلية هيوم فما دمت ارتاب في وجود الأشياء الخارجية ، فانه من **البديهي ان** مسألة رابطة سببية **بينها** تحتفظ بالضرورة بالشكل الذي أعطاها هيوم أياه اني لا أملك الحق الا في الحديث

❊ [قفزة الموت]

❊❊ [قفزة الحياة]

❊❊❊ انظر فيورباخ

« Was für mich , oder subjectiv , ein reingeistiger, immaterifeller , unsinnlicher Akt , ist an sich oder objectiv einmaterieler sinnlicher »

[أن ما هو بالنسبة الي ، أو ذاتيا ، فعل روحي خالص ، لا مادي وغير محسوس هو في ذاته . موضوعي ، مادي ومحسوس] المؤلفات ، المجلد الثاني ص ٣٥٠ .

عن التسلسل **المنطقي للاحساسات الاتية من حيث لايدري أحد** لكنه حين أقنعني عمل فكري بأن الارتياب في وجود العالم الخارجي يؤدي بي الى العبث حالما **أضع** وجود هذا العالم خارج الشك **ليس « بصورة عقائدية » بل « بصورة نقدية »** ، فاني أعترف اذن ، من جراء ذلك ، بأن احساساتي نتيجة لفعل الاشياء الخارجية في ، يعني أعزو الى السببية معنى موضوعيا

ومن المؤكد ان الذات المفكرة تستطيع ، حسب استعدادها الفكري ان تجد قفزة الحياة التي اوصي الفكر بها غير مشروعة ، ولعلها تميل الى العودة الى هيوم. لكن وجهة نظر هيوم تحكم على الفكر بأن نظل جامدا ولقد تخلى هيوم نفسه عنها كلما بدأ ، وهو يأمل في التفكير ، في الايمان بوجود العالم الخارجي ولذا كانت العودة الى هيوم تشكل ، حسب ملاحظة انجلز الصحيحة ، تقهقرا بالنسبة الى المادية وان هذا التقهقر هو ما يقوم به على اي حال **التجريبيون الاحاديون** الذين يسمى ريهل بحق فلسفتهم شكليةهيومية اشيعزيهامنجديد (Zur Einleitung in die Philosophie der Gegen wart* لايبزغ ١٩٠٣ ص ١٠.١٠)

/// هكذا نعرف،وفق نظرية كانط،ان الاشياءفيذاتها،اذ تفعل فينا توفرمادة بعدها الشعور لكنه كما يلاحظ يوبرفيغ بحق (الصفحة ٢٣٣ من الترجمة الروسية لكتابه **تاريخ الفلسفة الحديثة**) ، فان « هذا الفعل ينطوي على الزمنية والسببية اللتين لا يعترف لهما كانط على اي حال بأية قيمة الا في حدود عالم الظواهر وليس ماوراءه على الاطلاق وانه لفي الامكان اظهار عدد كبير من التناقضات من هذا النوع ؛ بيد أن هذا يتجاوز أطر ملحوظة مقتضبة

ان فلاسفة روسا والمانا يتوسعون اليوم بكل طيبة خاطر في موضوع عدم قابلية معرفة « الاشياء في ذاتها ويعتقدون أنهم يعبرون بهذا الخصوص عن حقائق نادرة العمق وانهم ليرتكبون خطأ جسيما ان هيغل يشير بصواب عظيم الى أن «الشيء في ذاته ليس سوى تجريد فارغ سحبت منه كل خاصة ، ولا يمكن **معرفة أي شيء** عنه طالما أنه محروم من أي تعريف الا نعرف ما هو الشيء في ذاته ؟ كلا بكل تأكيد ان السؤال « ما هو ؟ » يفترض أن الشيء يملك بعض الخصائص التي ينبغي تحديدها بدقة . لكنه **حالما نغض النظر عن جميع خصائص شيء** ما فاننا لا نستطيع بكل تأكيد أن نجيب بشيء عن السؤال «ما هو ؟»» طالما أن السؤال نفسه ينطوي بصورة مسبقة على استحالة الجواب ان المثالية المتسامية « تنقل الى الشعور جميع خصائص الاشياء ، من وجهة نظر الشكل ومن وجهة نظر المضمون على حد سواء ومن وجهة النظر هذه، فانه من البدهي أنه يتوقف علي وحدي، على الذات ، ان تتراءى لي ورقة شجر خضراء وليس سوداء البتة ، والشمس مدورة وليس مربعة البتة،

---

* [بدلا من مدخل الى الفلسفة في الوقت الحاضر]

والسكر حلوا وليس مرا البتة ، وانه حين تدق الساعة **الثانيــة** فاني أدرك الدقتين بصورة متتالية وليس بصورة متواقتة البتة ، واني لا اعتبر البتة الدقة الاولى سببا في الدقة الثانية أو نتيجة لها الخ

(Wissenschaft der Logik I. B. I. Abth S 55 II Abth S 150)

ولسوف يعترض القارىء علينا قائلا من فضلك، اليس اللون والصوت ذاتيين؟ انك لن تقول لي أن الاحساس السمعي أو اللون يشبه الحركة التموجية التي تثيره؟ ابدا على الاطلاق لكن « **تبدلا محددا في الموجة الصوتية يقابل كل اهتزاز سمعي نحسه ، وكل تبدل يطرأ على الصوت في الشدة أو الارتفاع أو الديمومة .** أن الصوت والضوء من حيث هما احساسان هما نتاج للعضوية الانسانية ؛ لكن الاشكال والحركات التي ترى ، وكذلك التموجات السمعية التي تسمع ترسل جذورها خارجا عنا ، في الواقع » (**الفكر الحسي والواقع في اغاثة الجائعين ،** منسورات **أنباء روسيا** ، ص ١٨٨ وعلى العموم فانه « مهما تكن الاشياء الخارجية في ذاتها ، بصورة مستقلة عن شعورنا ــ حتى اذا كان الانطباع الذي نملكه منها اشارة اتفاقية خالصة ــ فان تشابهات وفوارق فعلية تقابل التشابهات والفوارق التي ندركها وبعبارات اخرى ، فان التشابهات والفوارق التي يكتشفها الانسان بين الاشياء المدركة هي تشابهات وفوارق فعلية (المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ هذا مالا يمكن ان نضعه موضع الشك وبالتالي لا يمكن ان نقول ان الاشياء في ذاتها **غير قابلة للمعرفة** ، وذلك فيما اذا نوينا أن نتحدث بعد عن هذه «الاشياء» بعدما بين هيغل الاصل **المنطقي** لهذه الاشياء المزعومة

ان احساساتنا نوع من الهيروغليفات(٢٢) يحمل الى معرفتنا ما يجري في الواقع. ولاتشبه هذه الهيروغليفات الحقائق التي تعلمنا عنها بيد أنها تعلمنا بصدق تام سواء عن الحقائق او عن ــ وهذا هو الامر الرئيسي ــ العلاقات القائمة ما بينها ويؤكد انجلز انه ليس ما يدحض نظرية كانط افضل من التجربة والصناعة وان الفقرة التي أوردناها لتونا عن سيتشينوف تبين جزئيا كيف يجب أن نفهم ذلك ، لكننا لانخسر شيئا اذا توقفنا **قليلا** عند هذه المسألة ان كل **تجربة** وكل **صناعة** ، يعني كل انتاج لاشياء نافعة للانسان كل **فعل** يثير عن عمد بعض الظواهر ، يميز سلوكا **فاعلا** للانسان حيال الطبيعة وان هذا السلوك الفاعل ليسقط على الطبيعة ضوءا جديدا أشد بريقا حتى درجة كبيرة من ذلك الضوء الذي يخرج من تسجيل الانطباعات المنفعل وبالفعل فانه في مقدور الانسان ان يبدع خطا حديديا كهربائيا بانتفاعه من قوانين الطبيعة وهذا يعود الى القول انه يثير **عن عمد** بعض الظواهر تحويل الكهرباء الى حركة بكل معنى الكلمة الخ لكن ماهي الظاهرة بالمعنى الكانطي ؟ انها حصيلة قوتين ١ ــ « **أنانا** » ، ٢ ــ الفعل الذي يمارسه الشيء في **ذاتــه** في هذه « **الانا** » . وبنتيجة ذلك فاني حين أثير ظاهرة ما أجبر هذا « **الشيء** »

على التأثير في « **أناي** » بطريقة معينة محددة بصورة مسبقة . وبنتيجة ذلك فاني اعرف على الاقل **بعضا** من **خصائصه** ، تلك الخصائص التي استخدمها كي أجبره على الفعل . وليس هذا كل شيء:عندما اجبر هذا الشيء على الفعل في بطريقة معينة، فاني أتصرف حياله من حيث أنا **سبب** ولكن كانط يؤكد ان مقولة السببية لا علاقة لها البتة « بالاشياء في ذاتها وهكذا فان التجربة تحمل اليه هنا تكذيبا قاطعا بصورة أشد من التكذيب الذي حمله الى نفسه بنفسه حين قال ان مقولة السبب لاتتعلق الا **بالظواهر** وحدها وليس بالاشياء في ذاتها وبينما كان يؤكد في الوقت نفسه أن « الشيء في ذاته يمارس فعلا في « **أنانا** » ، يعني يخدم **كسبب** للظواهر ومن هنا يترتب مرة اخرى أن كانط كان يخطى خطأ فادحا حين قال ان اشكال فكرنا (مقولات الادراك أو مبادىء العقل مثل السببية والتفاعل والوجود والضرورة هي مجرد « **أشكال قبلية** » ، وبكلام آخر ان الاشياء في ذاتها لا تخضع مطلقا لعلاقات السببية والتفاعل الخ ،. وفي الواقع أن أشكال الفكر الاساسية لا تقابل فحسب نقطة فنقطة العلاقات القائمة بين الاشياء في ذاتها **بل يجب بالضرورة أن تقابلها** ، لان وجودنا لولا ذلك يصبح مستحيلا ، وبالتالي وجود أشكال الفكر ومن المؤكد أننا ممنيون جدا بالخطأ في دراسة هذه الاشكال الاساسية فقد نأخذ على انه مقولة ماليس هو كذلك لكن تلك مسألة أخرى وهي ليست هنا موضوع البحث بصورة مباشرة لنقتصر على ملحوظة بشأنها حين نقول ان العالم الخارجي قابل للمعرفة فاننا لانقصد أن أول فيلسوف قادم يشكل عنه فكرة صائبة تماما

حسنا . . . لنقبل بأن كانط يخطىء ؛ لنقبل بأن ثنائيته لا تصمد للنقد ؛ ان وجود الاشياء الخارجية لا يتم البرهان عليه من جراء ذلك كيف سوف تثبتون ان المثاليين الذاتيين يخطئون ؟ كيف سوف تثبتون على سبيل المثال خطيئة **بركلي** الذي عرضنا أفكاره في مطلع هذه الملحوظة ؟

يمكننا ان نقدم هذا البرهان اقرأوا بالاحرى مايتعلق بهذا الموضوع في أعمال **يوبرفيغ** .

(٨)

[بخصوص العبارة « كان قيدا نوعيا للمادية الفرنسية الكلاسيكية انظر ص ٥٥ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

نستطيع أن نلاحظ في هذا الشأن أن الكيمياء وعلم الحياة يرتدان دونما شك في اخر تحليل الى الميكانيك الذري(٢٤) لكن القارىء يتبين أن انجلز لا يتحدث عن هذا الميكانيك الذي لم يكن في مقدور الماديين الفرنسيين أن يفكروا فيه ــ ولسبب ــ

اكثر مما كان في مقدور استاذهم ديكارت أن يفكر فيه بخصوص بنية ((**الحيوانات الآلات**)) ان الاسباب الميكانيكية التي كان ديكارت يلجأ اليها من أجل تفسير الظواهر التي كانت تتم في العضوية الحيوانية تتبين بصورة واضحة من القسم الاول من بحثه **أهواء النفس** (Des passions en général , etc *) وان الكتاب الشهير **نظام الطبيعة** يبين على وجه جيد حتى أية درجة كان تصور الماديين الفرنسيين يتفق قليلا مع مفهوم تاريخي عن الطبيعة . ففي الفصل السادس يصطدم مؤلفو هذا الكتاب(٢٥) بمسألة **أصل الانسان** وبالرغم من ان فكرة تطور تدريجي (حيواني) لا تبدو لهم أبدا ((**متناقضة**)) ، فان الامور جميعا تشير الى انها كانت تظهر لهم فرضية معقولة بصورة ضئيلة جدا واذا مانهض امرؤ ضد هذه الفرضية ، اذا ما قيل لهم ان الطبيعة تفعل بحصيلة معينة من القوانين الثابتة والعامة (فكأن قوانين عامة وثابتة يمكن أن تحظر التطور !) ، وأضيف الى ذلك أن «الانسان، والرباعي الاطراف ، والسمك ، والحشرة والنبات الخ هم موجودون منذ الازل ويظلون الى الابد ما هم عليه فان المؤلفين ما كانوا يعارضون ذلك بل كانوا يلاحظون فحسب أن الفكرة لاتتناقض مطلقا مع حقائق المادية الميكانيكية التي يعرضونها وفي اخر الامر كانوا يتملصون من الصعوبة باعتبارات من هذا النمط لم يعط الانسان ان يعرف كل شيء ؛ لم نعط أن نعرف أصله ؛ لم يعط أن يتغلغل الى ماهية الاشياء ولا أن يصعد الى المبادىء الاولى ؛ لكنه أعطي أن يملك عقلا ،ونية طيبة ويقر ببراءة أنه يجهل مالا يستطيع أن يعرفه وبالا يستعيض مطلقا بكلمات غير مفهومة وافتراضات شخصية عن شكوكه ((**نظام الطبيعة** لندن ١٧٨١ القسم الاول ص ٧٥ وان هذا الانذار لصالح بالنسبة الى اي امرىء يحب أن يتفلسف عن حدود معرفة الطبيعة

أن مؤلفي **نظام الطبيعة** يفسران بانعدام ((**العقل**)) جميع مصائب الانسانية ان الامم لم تعرف قط الاسس الحقيقية للسلطة ولم تجرؤ على مطالبة هؤلاء الملوك بالسعادة وهم المكلفون بتوفيرها لها ومن جراء متتالية ضرورية لهذه الاراء، فان السياسة قداستحالت الى الفن القاتل الخاص بالتضحية بهناءة الجميععلى مذبحهوى فرد واحد أو بعض الخبثاء من أصحاب الامتيازات الخ (المصدر نفسه ص ٢٩١) وكانت هذه الافكار تتيح النضال الظافر ضد « الامتيازات لكنه ما كان في الامكان الحديث عن تصور علمي للتاريخ من أجل مزيد من التفاصيل انظر بلتوف **دراسة في تطور التصور الاحادي للتاريخ** ، وكذلك كتابي Beiträge zur Geschichte des Materialismus **

---

* [**في الاهواء عامة . الخ**]

** [**دراسة في تاريخ المادية**]

٩

[بخصوص العبارة   المثالي الكامل هيغل   انظر ص ٦٠ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

ماهو الامر الجازم ؟ لماذا يتحدث عنه انجلز بكل هذا الازدراء ؟ أيكون السبب الوحيد في ذلك أن الامر المذكور يسمو كثيرا بالمثل الاعلى ؟ (ليس ذلك هو المقصود)

ما المثل الاعلى ؟ سوف يرد علينا البورجوازي الصغير قائلا   ان المثل الاعلى هو الهدف الذي تجبرنا الاخلاق على السعي اليه   لكنه رفيع جدا بحيث لن نبلغه أبدا   وان البورجوازي الصغير يستنتج من ذلك ، وهذا مايرضيه ، ان «الايمان بالمثل الاعلى   يتفق مع افعال هي أبعد ماتكون عن   المثالية   لقد كنا نصادف في روسيا حوالي عام ١٨٧٠ عددا من أولئك الضباط الدركيين « المثاليين   الذين كانوا حين يعتقلون « عدمياً   يؤكدون له ان الاشتراكية شيء جيدا جدا في الحقيقة ، بل ليس في امكان المرء أن يتخيل شيئا أفضل منها ، لكنه من سوء الحظ انها مثل أعلى لابطال   وأن المخلوق الارضي يجب ان يفكر في خيرات هذا العالم   وان خيرات هذا العالم تتطلب من ضابط الدرك المثالي ، « وقد قام بتحقيقه ، أن يحيل الى قاضي التحقيق » العدمي الذي لا يقل عنه تعلقا بالمثالية،«وهذا ماسوف يعمد اليه في الحال» .

ان جميع الظواهر تشير الى أن الدركيين كانوا يكذبون عندما كانوا يتحدثون عن طموحاتهم الى   المثل الاعلى   لكن لنأخذ مثالاً آخر   ان شعبينا «الشرعيين» قد كانوا يطمحون الى « مثلهم الاعلى   بصدق تام ، ولنر مع ذلك إلام كان هذا الصدق يؤدي   لقد كان مثلهم الاعلى   اجتماعيا   شعبا   حرا سوف نتطور بحركته الخاصة دون أن تقف عثرة في طريقه الحكومة أو الطبقات الحاكمة   وهو مثل أعلى حيث تنتهي الحكومة والطبقات الحاكمة الى الامحاء آخر الامر   بل الاضمحلال   وما الذي كان يفعله الشعبيون من أجل تحقيق مثلهم الاعلى ؟ لقد كانوا يأسون على دمار « الاسس   (كما كان غليب اوسبنسكي يقول   كانوا يبكون على الأرقام   ) (٢٦) ؛ أو كانوا ينصحون الحكومة بزيادة الحصص وانقاص التكاليف الضرائبية ؛ أو ــ وتلك كانت حال المتشددين الذين كانوا يمضون الى خاتمة أفكارهم ــ كانوا « يذهبون الى الارض   لكن هذا لم يكن يقرب الواقع الروسي من المثل الاعلى الشعبي   لذا فان انصار هذا المثل الاعلى الشعبي ماكانوا يبكون على الارقام فحسب ، بل على مصيرهم الخاص أيضا . لقد كانوا يدركون أن

مثلهم الاعلى عبث لكن ما مصدر ذلك الغرور اذن ؟ من المؤكد ان مصدره قد كان انعدام اية رابطة عضوية تربط مثلهم الاعلى بالواقع لقد كان الواقع يمضي من جهته ومثلهم الاعلى من جهته ، او بالاحرى كان يراوح في مكانه « كان يجلس ارضا » مع السادة الشعبيين الشرعيين بحيث ان المسافة بين المثل الاعلى والواقع كانت تكبر مثلها كمثل عجز هذا المثل الاعلى

ذلك هو نوع المثل الاعلى الذي سوف يسخر انجلز منه كما سخر هيغل منه بيد ان السخرية لاتستهدف سمو المثل الاعلى بل تتوجه الى **عجزه** ، الى حقيقة انقطاعه عن الواقع الروسي لقد كرس انجلز نفسه لانبل المهمات لتحرر البروليتاريا لقد كان له ، هو الاخر مثله الاعلى ؛ بيد أن هذا المثل الاعلى لكن في حال من الاحوال متقطعا عن الواقع بصورة لا رجاء منها لقد كان مثله الاعلى الواقع بالذات لكنه **واقع الغد** ؛ واقع سوف يكون ليس لان انجلز كان يملك مثلا أعلى بل لان خصائص واقع اليوم هي من طبيعة بحيث أنه من هذا الواقع من جراء قوانينه الباطنة سوف يولد واقع للغد يمكن تسميته المثل الاعلى لانجلز وان اذهانا في الاقماط بعد ربما تسأل اذا كانت الاشياء جميعا تتوقف على اخصائص الواقع ، فما شأن انجلز هنا ؟ لماذا يحشر مثله الاعلى في عملية تاريخية غير قابلة للعكس ؟ لماذا يسعى كثيرا دونما جدوى ؟ ان موقف انجلز يمثل **من زاوية الموضوعية** كما يلي ان الواقع هو الذي اختاره من حيث هو اداة ضرورية من أجل الانقلاب الذي يتهيأ في عملية الانتقال من شكل الى آخر **ومن زاوية** الذاتية ، ، يستشعر انجلز لذة لكونه أحد صنعة هذه الصيرورة التاريخية ؛ انه يرى أن ذلك واجب مترتب عليه ، الرسالة الانبل لحياته ان قوانين التطور التاريخي لهي عاجزة عن التحقق دون تدخل الانسان بقدر عجز قوانين الطبيعة دون تدخل المادة وهذا لايعني أنه في مقدور « **الفرد** » ان يجهل قوانين التطور الاجتماعي في افضل الفرضيات فانه سوف يعاقب على ذلك بوقوعه في موقف دون كيشوت المضحك

في كتاب شهير * Wirtschaft und Recht يبدي سامر تأثرا بالغا لان الاشتراكيين الديموقراطيين يعتبرون الثورة البروليتارية **محتومة** ، وهم يرون في الوقت نفسه انه من الضروري بمكان الاسهام في مجيئها ان الامر ليتراءى له غريبا جدا مثل تكوين حزب سياسي من أجل تسهيل كسوفات الشمس ان هذه الشطحة ، مثلها على اي حال مثل الكتاب بكامله ، تبين أن المؤلف لم يفهم شيئا من الفلسفة **المادية** التي تقوم عليها الاشتراكية الراهنة ويقول جوزيف بريسلتي بحق Though the chain of events is necessary our own determinations and actions are necessary links of that chain

---

* [الاقتصاد والحق] .

بالرغم من أن سلسلة الاحداث ضرورية ، فان **قراراتنا وافعالنا** هي حلقات ضرورية من تلك السلسلة **Disquisations** المجلد الاول ص ١١٠
وكان كانط يعتبر بريستلي قدريا اين نجد القدرية هنا ؟ ليس ثمة اثر لها ولقد برهن بريستلي على ذلك على أفضل وجه في مناظرته مع برايس

لنتحدث الان عن الامر الجازم ماهذا ؟ يسمي كانط أوامر المبادىءالاساسية المسملة على مقياس الالزام ويمكن أن يكون الامر **جازما أو شرطيا** ولا يقرر الامر الشرطي الارادة الا بالنسبة الى فعل معين ومؤمل أما الامر **الجازم** فيقرر الارادة **بصورة مستقلة** عن كل فعل مطلوب ، انه يقرر الارادة من حيث هي ارادة حتى قبل ان اتساءل ما اذا كنت املك القوة الضرورية كي أحدث نتيجة مرغوبا بها ، أو مايجب أن أفعل من أجل احداثها * فيما عدا مقياس الالزام يشتمل الامر الجازم نتيجة ذلك على مقياس **الضرورة** المطلقة فحين يقال انه من الواجبالعمل والتوفير من أجل الايام السود فذلك **أمر شرطي** ان من واجب الانسان أن يوفر فقط في حالة عدم رغبته في معرفة البؤس في شيخوخته مطلقا وهو لايملك وسائل اخرى من اجل الاحتماء من الحاجة أ. لكن المبدأ القائل **لا تخدع نفسك بالوعود** انما يمس الارادة من حيث هي ارادة ولايتعلق مطلقا بالاهداف المرجوة ان الارادة تتحدد بصورة قبلية بفعل هذا المبدأ وهذا امر **جازم** واذن فالقوانين العملية لاتتعلق الا بالارادة بصورة مستقلة عما يتم تحقيقه بفعل السببية وفي الامكانغض النظر عن هذه السببية من أجل الحصول على تلك القوانين في نقاوتها
(**نقد العقل العملي** ترجمة سوكولوف سان بطر سبورغ ١٨٩٧ ص ٢١).

وفي حقيقة الامر ليس ثمة سوى أمر جازم واحد وهو مصاغ كما يلي
« تصرف بحيث أن مبدأ فعلك يمكن ان ينصب من قبل ارادتك قانونا عموميا »
Grundlegung zur Metaphysik der Sitten لايبزغ ١٨٩٧ ص ٤٤

ويورد كانط بعض الامثلة كي يوضح فكره ان بائسا قد اصبحت الحياة عبئا بالنسبة اليه يسأل ما اذا كان يستطيع أن يضع حدا لايامه اين نبحث عنالجواب؟ في الامر الجازم ما عساه يحدث لو أن الانتحار أصبحح قانونا عموميا ؟ سوف يحدث أن تزول الحياة وهكذا فان الانتحار يتنافى مع الاخلاقية ومثال آخر أنأحد الناس قد أودع أملاكه أمانة لدى شخص ثالث ايملك هذا الشخص الثالث الحق في اختلاسها ؟ يرى كانط أن حل المسألة سهل بواسطة الامر الجازم اذا ما اختلس كل امرىء الاموال التي يستأمن عليها فان احدا لن يودع أملاكه اذن ومثال ثالث ان غنيا في مقدوره مساعدة الفقراء يرفض أن يفعل ذلك ، أليس هذا منافيا للقانون الاخلاقي ؟ أجل ليس من يأمل في أن يصبح هذا السلوك قاعدة عامة ، طالما أن كائنا من كان يمكن أن يسقط في العوز

ان هذه الامثلة تنير فكر كانط جيدا بيد انها تكشف عن ضعفه ولقد أشار هيغل بحق الى أن مثال الاموال المودعة لايقنع ، طالما اننا نستطيع أن نتساءل ما اذا كان الاعراض عن تكليف الاخرين برعاية أموالنا يسبب ضررا فادحا ورب من يرد بأن التوفير سوف يصبح أصعب اذن والملكية نفسها مستحيلة لكنه يمكن الاجابة بسؤال جديد مانفع الملكية ؟ في رأي هيغل انه لايوجد في عقيدة كانط قانون اخلاقي واحد حقيقته مفروغ منها هو في غنى عن الاعتبارات التكميلية ، ولاينطوي على أية تناقضات ، ولايتطلب مطلقا اللجوء الى تحديدات أخرى ان الملحوظة صحيحة ، ومثال الانتحار يبرزها بصورة خصوصية جدا ذلك أن المقصود ليس هو انتحار الانسانية بكاملها بل مجرد الرجال الذين سحقهم الصراع من أجل الحياة أما أنهم وضعوا حدا لحياتهم فهذا ما لن يضع حدا للحياة عامة

ويضيف هيغل ان كل قانون أخلاقي هو عند كانط تأكيد خالص لغو فارغ من المعنى ومبني حسب الصيغة ب ب : ان الوديعة وديعة والملكية ملكية . الخ هذا صحيح جدا ومعقول جدا وبالنسبة الى كانط فان الاسئلة التي يعارض هيغل بها تأكيداته الفارغة » غير موجودة بكل بساطة ؛ انه لايتساءل عن الشر الذي ربما يحدث اذا ما توقف الناس عن ايداع اموالهم وما نفع الملكية ، الخ **ان المثل الاعلى عند كانط ، ((مملكة الغايات)) عنده (** **Reich der Zweicke** انظر **Grundlegung** ص ٥٨) **هو المثل الاعلى المجرد لمجتمع بورجوازي كان كانط يتمثل مبادئه من حيث هي واجبات غير قابلة للتقادم** خاصة « بالعقل العملي » ان اخلاق كانط هي الاخلاق البورجوازية المترجمة الى قاموس فلسفة عيبها الاساسي نقوم كما رأينا لتونا في عجز تام عن حل قضايا التطور

وكيما اثبت ذلك أود أن اتوقف عند المثال الثالث من الامثلة الكانطية الموردة اعلاه. لكني سوف أسأل القارىء قبل ذلك ان يتذكر أن كانط كان خصما عنيدا للاخلاق النفعية فعند هذا الفيلسوف أن مبدأ السعادة لا يتضمن أية مبادىء أخرى لتقرير الارادة سوى تلك المبادىء اللاصقة بالقدرة على الرغبة أن العقل الذي يقرر الارادة لايحتاج لأن يأخذ بعين الاعتبار هذه القدرة الدنيا ، فهي تتميز منه حتى درجة كبيرة بحيث أن أقل اضافة صغيرة لحوافز من هذا الاصل « تفسد قوته وتفوقه ، تماما كما أن أضأل عنصر تجريبي يدخل في برهان رياضي ينقص قيمته وقوته ويدمرهما (**نقد العقل العملي** ، ص ٢٧) ان مبدأ الاخلاقية مستقل عن الغرض المرغوب

ولقد وفر هذا الاستقلال منذ زمن طويل الفرصة لدعابات عديدة وهجاءات متعددة . انظر على سبيل المثال **الهدايا** رقم ٣٨٨و٣٨٩ لشيلر وغوته ، فأنا لا استطيع

أن أوردها جميعا ✻) أريد أن أقول فقط أن المثـال الثالث لا يمكن أن يعتبر مقنعاً **الا اذا اتخذنا وجهة نظر الاخلاق النفعية باجبارنا ((عقلنا العملي)) على أن يأخذ بعين الاعتبار ((قدرتنا على الرغبة))** وبالفعل فعند كانط أنه من واجبي أن أمـد يـد المساعدة الى الغير لاني قد احتاج مساعدته يوما ما ما هو أكثر نفعية من ذلك وأود كذلك أن أوجه انتباه القارىء الى نقطة حين يفضح كانط النفعيين فانـه يضع دائما نصب عينيه مبدأ ((**السعادة الشخصية**)) الذي يسميه بحق **مبدأ حب الذات**. ومرد ذلك الى انه لا يعرف أن يوضح القضية الاساسية للاخلاق وفي الحقيقة أن ما يقوم في أساس الاخلاق ليس الطموح الى **السعادة الشخصية** مطلقا ، بل الـى **سعـادة مجموع مـا** قبيلـة شعب الجنس البشري وليس **لهـذا** الطموح أي شيء مشترك **مع الانانية . انه يفترض دائما** ، على العكس من ذلك ، درجة معينة من **نكران الذات** ، وبما ان العواطف الاجتماعية يمكن أن تنتقل من جيل الى جيل وهي تتقوى بفعل الانتقاء الطبيعي (انظر ملاحظـات داروين الأريبة جدا بهذا الشأن في كتابه عن أصل الانواع(٣٧)) ، فان نكران الذات قد يتخذ أحيانا مظهر «ارادة ذاتية» لاتفسدها اية رغبة بيد أن هذه الحقيقة التي لا مراء فيها لاتقضي مطلقـا علـى **الاساس النفعي** لهذه الصفة النبيلة فاذا لم يكن نكران الذات نافعا مطلقا لمجتمع ما ، لطبقة ما ، وفي أخر تحليل لنوع حي في صراعه من أجل الحيـاة (لنتذكر أن المشاعر الاجتماعية لا تخص الانسان وحده) فـان الافراد الذين ينتسبون الى هذا المجتمع أو هذه الطبقة او هذا النوع سوف يتجاهلونه وهذا كل شيء ان الفرد يولد بقدرة قبلية على نكران الذات ، تماما مثلما يولد ، حسب ملحوظة راينكـه (انظر الملحوظة رقم ٧) ، بقدرة ((قبلية)) على التنفس والتغذي لكـن هـذه القبلية لا تملك أي شيء عجيب ان عملية تطوريـة طويلة جدا هي التي كونتها

✻ وهذه واحدة منها مع ذلك

GEWISSENSKRUPEL

Gerne diene'ich den Freunden, dech thu'ich es leider mit Néigung
Und so Wurmt es mir oft dass ich nicht tugenhaft bin

DECISUM

Da ist kein Andrer Ret , du musst Suchen sie zu Weruchten,
Und mit Abschen alsdann thunn , wie die Pflicht dir gebtelet.

✻ (وهذا يعني **التشكك** أخدم أصدقائي بكل طيبة خاطر ، لكن من سوء الحظ ـ كيف أخشى ألا أكون مناضلا على الاطلاق **حل مشكلة ضميرية** ليس ثمة سوى حل واحد يجب عليك أن تكرههـم ـ ونفذ بهلع ما يأمرك به واجبك) .

اذا ما اتخذنا وجهة نظر التطور والمنفعة الاجتماعية حللنا دون عناء الاسئلة التي استخدمها هيغل من أجل سحق القوانين الاخلاقية لكانط مانفع ايداع المرء أمواله ؟ مانفع الملكية ؟ واكرر ذلك أن عجز كانط وتلامذته عن اتخاذ وجهة نظر الصيرورة ينكشف في نظرية الاخلاق اكثر مما ينكشف في نظرية المعرفة وانا نستطيع ان نشير هنا لدى كل خطوة ، كما هي الحال بخصوص النظرية الكانطية عن المعرفة ، الى كلمات المعلم نفسها ان واجب الفيلسوف الأول هو أن يظل **منطقيا مع نفسه** ، وان تكن هذه الصفة نادرة جدا

ان أحد المعاصرين الذين أثارت أخلاق كانط حفيظتهم ، جاكوبي ، قد كتب في رسالة الى فخته : أجل انني ملحد ، زنديق ؛ وكيما أوازن ارادة ترفض أن تريد شيئا أتمنى أن أكذب كما كانت دسدمونة تكذب ساعة الموت، أكذب وأخدع البشر مثل بيلادوس عندما تنكر في زي اوريست ؛ أتمنى أن أغتال الناس مثل تيموليون ؛ أتمنى أن أحنث باليمين مثل ايبامينونداس وجان دي ويت ؛ أتمنى أن انحر مثل اوثون وانهب هيكلا مثل داوود ، وأرى السنابل تلتقط يوم السبت لاني جائع ، ولان القانون قد خلق من أجل الانسان وليس الانسان من أجل القانون مطلقا ؟ هذا جميل جدا ، وقد كان هيغل على حق حين قال انه يرى أفكار جاكوبي « ذات نقاوة تامة ، طالما ان كونها ترد بصيغة المتكلم ـ «انني» ، «اريد» ـ لا ينتزع شيئا من موضوعيتها. ان الفكرة الصائبة جدا ، الا وهي أن القانون قد صنع من أجل الانسان ، وليس الانسان من أجل القانون ، أفلا توفر أساسا لا يدحض للاخلاق النفعية المدركة بمعناها الحقيقي ، يعني الموضوعي ؟)

/// وأما بخصوص الامر الجازم لكانط ، أثمة ضرورة حقا للحديث عنه؟ ان أي تاريخ للفلسفة يفسره بصورة أفضل مما سوف نفسره نحن في الاسطر القليلة لهذه الملحوظة. لنقرأ بالاحرى **تاريخ الفلسفة الحديثة** ليوبرفيغ ـ هاينز (ص ٢٤٥ ـ ٢٥٦ من الترجمة الروسية) وأما اولئك الذين يودون أن يعرفوا كيف سخر هيغل من الامر الجازم فاننا نوصيهم بصورة خاصة بكتاب **علم ظواهر الفكر** (ص ٥٥٠ ـ ٥٥١ من الطبعة الالمانية الاولى) اننا نود فقط ان نلاحظ أنه اذا كان هيغل يحتقر « المثل الاعلى غير القابل للتحقيق » ، فليس حافزه الى ذلك في حال من الاحوال نزوع البورجوازي الصغير الى الاستسلام للنظام القائم ، بل احتقاره للجانب التافه عند كانط وانا لنعتقد أن هذا يكفي ///

١٠

[بخصوص العبارة « ليس تاريخ الاقطاعية والبورجوازية سوى برهان واحد متصل ، ص ٧١ من الترجمة العربية الصادرة عن دار دمشق]

لقد لفت هيغل الانظار من قبل الى أنه من قبيل السخف النظر الى الحقائق التاريخية من وجهة نظر الاخلاق (**انظر دروس في فلسفة التاريخ** ، المجلد التاسع من المؤلفات الكاملة الطبعة الاولى ص ٦٧) لكن «مؤلفينا الطليعيين» يستمرون في عدم فهم صحة ملحوظة لابد على أي حال انهم لم يسمعوا بها مطلقا انهم يأسون بكل صدق على انحطاط الاخلاق الذي يترافق به انحلال الاسس العميقة للحياة الشعبية هذه الاسس التي نبتت عليها غابات هائلة من الاسواط وجبال شاهقة من الصفعات ، كما ان بروليتاريا المصانع تبدو في انظارهم الاناء الذي يحتوي على الشرور جميعا لكن الاشتراكية العلمية تنظر الى الامور بصورة مغايرة

أما أن تطور الانتاج الراسمالي يستتبع بصورة حتمية مايمكن أن نسميه تدهور معنويات الشغيل يعني أساسا الانفصال عن المناقبية التي تقررت في سياق القرون، فهذا ما عرفه معلمو الاشتراكية العلمية قبل وقت طويل من ملاحظة المؤلفين الروس الطليعيين له (انظر على سبيل المثال كتاب انجلز Die Lage der Arbeitenden Klasse in England* . لايبزغ ١٨٤٥، ص: ١٢ ومايليها). بيد ان انجلز لم يكن يحلم في بعث المجتمع الرعوي، والأهم من ذلك انه كان يدرك أن «لا أخلاقية» البروليتاريا الصناعية تولد « اخلاقا » جديدة اخلاق **الكفاح الثوري ضد النظام القائم** هذه الاخلاق التي سوف تخلق اخيرا بنية اجتماعية جديدة يكف العمال فيها عن « الفساد الاخلاقي » لان مصادر « فسادهم ستكون قد تلاشت (ص ٢٥٦ ومايليها) ان الحالة الراهنة للفكر الروسي الطليعي يمكن ان تحدد على وجه التقريب كما يلي اننا لا نملك حتى اية فكرة عما كان يعرفه مفكرو الغرب الاكثر تقدما قبل نصف قرن من الان – وهو سبب كاف بالفعل من اجل السقوط في اليأس

ان هذه الاسطر تعود الى عام ١٨٩٢ حين كانت مناظرتنا مستمرة مع المذهب الشعبي غير الشرعي – بقايا «ارادة الشعب» – في مرحلة كانت المناظرة مع الشعبيين

---

* [اوضاع الطبقة العاملة في انكلترا]

الشرعيين لاتبرح في حالة مضفية بعد انها لم تصبح جدية حقا الا بعد عام ١٨٩٥
واليوم لا يملك مؤلفونا « الطليعيون فرصة للأسى على انهيار « الاسس العتيقة » ،
وهم لا ياسفون مطلقا على ولادة **البروليتاريا** عندنا لقد بينت التجربة لهـم الاهمية
الثورية العظيمة لهذه الطبقة ، بحيث ان الصحافة « التقدمية لاتقتصد في المديح
لها ان المثل يقول **وصولك متاخرا أفضل مـن عدم وصولك** ؛ واني لأضيف عن
طيبة خاطر وصولك باكرا أفضل من تأخرك لو أن أصحابنا « الطليعيين تخـلوا
بصورة أبكر عن الفكرة السخيفة التي كونوها عن البروليتاريا ، عن فكرة **«القرحة»** ،
وكانوا بعد التخلي عنها ركزوا جميع جهودهم على تطوير وعي هذه الطبقة لما لعب
المتطرفون عندنا الدور السياسي المحفوف بالاخطار الذي يلعبونـه في اليـوم
الراهن ان المرافعة العنيدة الطويلة للأنتليجنتزيا الفلسفية عنـدنا في مصلحة
المستبقات الشعبية هي التي تشكل **جريمتها السياسية** الحقيقية وان التاريخ
الذي لا يرحم يعاقبها على ذلك بصورة قاسية في الوقت الحاضر

١١

بخصوص الفقرة « وهذا مايكفي هنا » ص ١٠٢ من الترجمة العربية الصادرة
عن دار دمشق]

فيما يخص المجتمعات البدائية ، حصلت نظرية ماركس التاريخية على اثبات
متألق لها في اعمال **مورغان** (انظـر **المجتمع القديم**)(٢٨) المنشور في الاصـل باللغـة
الانكليزية ؛ وثمة حاليا ترجمات له الى الالمانية (والى الروسية) ، واذا لم اكـن
مخطئا الى البولونية) ان انتقادات ذات نية طيبة مترنحة تشير الى أن نظريـة
العشائر عند مورغان لاتقوم الا على أساس دراسة الهنود الحمر في أميركا الشمالية.
ويكفي ان نتصفح الكتاب كي نتبـين ان هذه « الملحوظة لا أساس لهـا وكذلك
يكفي ان يعرف المرء بشيء من الجدية ، يعني أن يستقي المعلومات بنفسه ، تاريخ
العالم القديم كي يدرك استحالة نقض مايقوله عنه مورغان وانجلز (انظر كتاب انجلز
Der Ursprung der Familie des Privateigenthuns und des Staats
ـ **أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة)** .

بالرغم من عداء عدد كبير من الاخصائيين لمؤلف مورغان، فان الاثنولوجيا الحديثة
قد انتفعت من اراء هـذا الكاتب العبقريـة فبتأثيره تأسست في أميركا الشماليـة

مدرسة لعلماء العروق تنشر اعمالهم سنويا في **التقارير** المرموقة جداً
الصادرة عن Smithsonian Institution وهي توفر وثائق من المرتبة
الأولى من اجل تفسير مادي لتاريخ المجتمعات البدائية ومن بين المؤلفات
الصادرة في اوروبا والمعتمدة على أعمال مورغان يجب ان نورد في المحل الأول
الدراسات القيمة لرفيقنا الألماني هنريخ كونوف عن نظام القرابة عند السكان
الاصليين لاوستراليا والبنية الاجتماعية للمكسيك القديمة ودولة « الانكاس
وكذلك عن العلاقات بين نظام الأمومة وتطور قوى الانتاج عند القبائل المتوحشة(٢٩)
وحين نتحدث عن اوروبا يجب على كل حال ان نسجل ان نفوذ آراء مورغان لايبرح
ضعيفاً نسبياً فيها ومهما يكن من شيء ، فانه أمر لا جدال فيه أن الاتنولوجيا تلجأ
اكثر فاكثر هنا أيضاً إلى تفسير مادي خالص للظواهر الاجتماعية ولا أحسب
أن اخصائياً مثل كارل فون دن شتاين قد عني بالمادية التاريخية ، ولسنا نسجل
في مؤلفاته اي تلميح يتيح لنا ان نستخلص منه انه كان يملك أدنى اطلاع على هذه
النظرية. وان كتابه المفيد جداً *Unter den Naturvölkern Zentral-Brasiliens
(برلين ١٨٥٤ يطبق بصورة متصلة - وفي كثير من الحالات بصورة مناسبة جداً -
الطريقة التي يوصي بها الماديون الاقتصاديون وان راتزل نفسه ، الذي يرى مع
ذلك انه من الضرورة بمكان أن يدافع عن نفسه ضد تهمة المادية (انظر كتابه
**Völkerkunde المجلد الثاني. ص:٦٣١).يجعل تطور الحضارة «الروحية» وقفاً
على تطور الحضارة « المادية إنه يقول عند كل درجة من تطور أي شعب فان
حصيلة مكتسبات الحضارة تتركب من المكتسبات **المادية والروحية** وان هذه
المكتسبات لتتحقق بطرق مختلفة ، وسهولة مختلفة وأوقات مختلفة وان
المكتسبات المادية هي التي نجدها في أساس المكتسبات الروحية للحضارة (المصدر
المجلد الأول ص ١٧ وأن هذا لمن المادية التاريخية أيضاً وان تكن
مادية ذات فكر مضغي ولهذا السبب فهي غير منطقية تارة ، وساذجة تارة أخرى
واننا لنصادف المادية نفسها في الحالة المتوحشة ، إذا جاز التعبير ، ولهذا السبب فهي
مادية ساذجة ولا مادية بصورة تزيد أو تنقص،في مجموعة من المؤلفات المكرسة لتطور
هذا المجال الخاص أو ذاك من « الحضارة » البدائية ، أو الايديولوجيات إذا شئنا ان
نستعمل لغة ماركس هكذا على سبيل المثال استقرت الدراسات عن **الفن** البدائي
بصورة وطيدة على أرض « مادية واننا نستطيع ان نثبت ذلك بتعدادنا مجموعة
طويلة من المؤلفات التي تصدر في أوروبا والولايات المتحدة ؛ وإني لاكتفي بالاشارة

---

* [بين الشعوب البدائية لاواسط البرازيل]

** [الاتنولوجيا] .

إلى مؤلفي غروس* Die Anfange der Kunst ويوخر ** Arbeit und Rhythmus
وذلك لأنهما مترجمان إلى الروسية وانه لمما يبعث على الاهتمام ان نسجل ان هذا الكتاب الأخير قد كتبه مؤلف أراؤه عن الاسباب الأساسية للتطور الاجتماعي تتعارض بصورة مطلقة مع النظرية المادية (انظر بصورة خاصة ما يقوله يوخنر عن العلاقات بين **العمل والنار**) ، بيد أن المرء لا يستطيع أن يفلت من الحقيقة أبداً حتى اذا كان عالما بورجوازياً لا يحب الاعتراف بها من جراء مستبقاته الخاصة **إن** الاشياء جميعا تشير إلى اننا نقترب من البرهة التي سيحدث فيهافي العلوم الاجتماعية ما نلاحظه منذ اليوم في العلوم الطبيعية ؛ إن جميع الظواهر سوف تحصل على تفسير مادي بينما ترفض الفكرة الموجهة للمادة وتتهم بالخطل وليس من العسير فهم اصل موقف على هذا القدر من التناقض ان **المادية** التي تمضي حتى مآل أفكارها هي **فلسفة ثورية جوهريا** ، و « الطبقات المثقفة » في الغرب لا تحس في الوقت الحاضر أي ميل إلى الثورة ولست افتري عليها: اننا نجد البرهان على ذلك في الكتاب الصغير للاميركي «إدوين سيليغمان*** The Economic Interpretation of History (نيويورك ١٩٠٢ أن الاستاذ سيليغمان يشرح لنا بكل صراحة ان المادية التاريخية تسيء إلى نفسها أيما إساءة في نظر العلماء من جراء العلاقة الوثيقة التي تربطها بالاشتراكية (ص:٩)،وكذلك من جراء **مبالغاتها السخيفة** (absurd exagerations) وبصورة خاصة رفضها الدين عامة والمسيحية خاصة (الفصل الرابع بكامله) وطالما نجد سيليغمان أن التفسير المادي للتاريخ صحيح ، وبما أنه يرغب في تعريف زملائه عليه ، فانه يعمل جاهداً كي يبرهن على أن المرء يستطيع ان يكون نصيراً للتفسير المادي للتاريخ دون ان يشاطر في الاستنتاجات الاشتراكية والملحدة التي تتوصل إليها الغالبية الساحقة من اولئك الذين يتمسكون بهذا التفسير ويجب أن نعترف بأن سيليغمان مصيب على طريقته الخاصة ، وأن العملية التي يقترحها لا بد أن تكون ممكنة لقاء بعض المخالفة للمنطق وان العلوم الاجتماعية سوف تستفيد من انتفاع الاخصائيين البورجوازيين من النصيحة التي يقدمها سيليغمان إليهم من المؤكد انهم سوف يرتكبون خطيئة فادحة إذا هم تخلوا عن « مبالغات الماركسية بيد انهم سوف يرتكبون مجموعة من الاخطاء الفادحة إذا هم رفضوا المادية التاريخية وان الشر الاول لأهون الشرين على اي حال

ومهما يكن من شيء فان الراحل ميخائيلوفسكي قد أخطأ بصورة فادحة عندما زعم في مناظرته مع تلامذة «ماركس» أن نقاط الضعف الباطنة للمادية التاريخية تمنعها

---

* [اوائل الفن]

** [العمل والنسق]

*** [التفسير الاقتصادي للتاريخ]

من اجتذاب انتباه العلماء إن العالم بأسره يعلق اليوم أنظاره على هذه المادية ، وبالرغم من أن العلماء البورجوازيين لا يميلون في معظم الحالات ، للسبب الذي اوردناه لتونا إلى الاعتراف بجدارتها العلمية ، فليس من النادر مطلقاً أن يتحدث **الجغرافيون** انفسهم عنها في كتاباتهم ان بعض اعضاء اللجنة الجغرافية في برلين قد بددوا حتى الآن قدراً لا بأس به من المداد من أجل طردها ، وتلك امارة من أمارات هذا الزمن مشجعة جداً ومثقلة بالعواقب

/// ان دور الحاجات الاقتصادية والعلاقات الاقتصادية في تاريخ الشرق القديم مفسر بصورة جيدة في كتاب ليف ميتشنيكوف : **الحضارة والأنهر التاريخية الكبرى** . وان يكن المؤرخ المأسوف عليه لم يحدد لنفسه هذا الهدف وعلى أي حال فان دور هذه الحاجات وهذه العلاقات يبرز بصورة واضحة جداً من كتاب لونورمان الضخم **التاريخ القديم للشرق** وأما فيما يتعلق بالعصر الوسيط وبأصل مؤسسات العصر الوسيط ، فانا نحيل القارىء بصورة خاصة إلى أوغستان تييري ، وغيزو وموور . وبصورة جزئية إلى فوستيل دي كولانج واخيراً فان أهمية العلاقات الاقتصادية وصراع الطبقات المترتب عليها في التاريخ الحدث قد شرح ببريق مرموق في كتاب ماركس الرائع Der Achtsehnte Brumaire des Louis Bonaparte **(انقلاب لويس بونابرت في ١٨ برومير)** ولسنا نتحدث عن **رأس المال** الذي يتحلى بأعظم الأهمية على اعتباره مؤلفاً تاريخياً أيضا وباختصار فان كل تقدم للعلوم التاريخية يحمل برهانا جديداً في مصلحة « المادية الاقتصادية ومن هنا كانت الواقعة التالية: الا وهي أن عدداً كبيراً من المؤلفين ، وعلى الأخص المؤرخين، يكتشفون اليوم بصورة مستقلة عن ماركس (يعني دون أن يملكوا ادنى فكرة عن نظريته ، أو بصورة أدق يستشفون بصورة غامضة مزقاً من اميركا قد تم اكتشافها منذ زمن طويل بيد أن هذا الاستقلال » حيال أهم نظرية تاريخية في عصرنا لا يبقى دون عقوبة مطلقاً وهذا ما نتبينه من كتاب جيرو ـ تولون عن **تاريخ العائلة** الذي ترجم مؤخراً إلى الروسية

إن النظرية الماركسية عن التاريخ مدعوة لأن تخدم أساساً لمجموعة من الاعمال التاريخية. وأن ماركسيين عديدين لا يدركون بعد كل أهميتها. لكن عندما يسأل « فلاسفة » من نوع بول بارث (أنظر *Geschichtsphilosophie Hegel,s und der Hegelianer) بكل دهشة عن المؤلفات التي يتم فيها البرهان على صحة نظرية ماركس، فانهم لا يفعلون بذلك إلا الكشف عن جهلهم أو عن ذلك العجز عن المحاكمة الذي كان كانط يجده بكل حق مستعصياً بصورة عضالة . ////

---

* [**فلسفة التاريخ عند هيغل والهيغليين**]

البورجوازيون فيما مضى من الزمان

« إن الشقاء العمومي على وجه التقريب الذي يعاني منه البشر والشعوب يتوقف على نقص قوانينهم والاقتسام المتفاوت جداً للخيرات(١) وليس في معظم الممالك إلا طبقتان من المواطنين احداهما تفتقر إلى الضروري والأخرى تختنق بالفائض وليس في مقدور الطبقة الأولى أن تكفي حاجاتها إلا بعمل زائد ، وهذا العمل شر جسدي للجميع وعذاب حقيقي بالنسبة إلى البعض وان الطبقة الثانية تحيا في البحبوحة ، لكن في آلام الملل أيضاً ، وان الملل لشر لا يقل خطورة عن العوز وهكذا فان معظم الامبراطوريات لا يقطنها بالضرورة إلا البائسون ما العمل من أجل جلب السعادة إليها ؟ انقاص ثروة البعض ، وزيادة ثروة البعض الآخر ؛ جعل الفقير في حالة من الرخاء بحيث **يستطيع بعمل سبع أو ثماني ساعات أن يغطي ببحبوحة حاجاته وحاجات أسرته ، وعندئذ فانه يصبح على وجه التقريب سعيداً بقدر الامكان . »**

هذه كانت محاكمة هيلفيسوس قبل اكبر من مائة عام* ، وهو الذي كان مقتنعا بانه «إذا كان العمل يعتبر شراً عموماً ، فالسبب في ذلك ان المرء لا يحصل على ضروراته في معظم الحكومات إلا بعمل زائد ، وان فكرة العمل تذكر من جراء ذلك بفكرة العناء وكان يضيف أن العمل عندما يكون معتدلا هو على العموم أسعد استخدام ممكن للوقت الذي لا تتم فيه تلبية أية حاجة والذي لا يتم فيه الاستمتاع باي من لذات الحواس بلا مراء اكثرها حيوية واقلها ديمومة

مما لا جدال فيه أن هيلفيتيوس كان بورجوازياً راسخا ، وكان حق الملكية بالنسبة إليه الحق الاول والأقدس » بيد أن بورجوازيي عصر هيلفيتيوس ماكانوا يشبهون البورجوازيين في زماننا إذ كانت البورجوازية قمينة إذن بالعواطف الكريمة. فإما كانت تناضل ضد الاكليروس والنبالة ، ضد الكبار ، والاتوباء » و أصحاب الامتيازات فقد كانت تناضل في سبيل قضية الجنس البشري بأسره ولم تكن المثل الأعلى الذي تتوق إليه ممثلوها المستنيرون مجتمعاً يعيش فيه بضعة آلاف من الرأسماليين من عرق الملايين من البروليتاريين . لقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر في منأى عن ذلك ، وكانوا يحلمون بمجتمع يتألف من ملاكين متفاوتين في ثرواتهم لكن مستقلون جميعاً وهم يعملون لحسابهم الخاص وكان هذا الحلم مستحيل التحقيق إذ كان يناقض جميع قوانين الانتاج الرأسمالي

لكن طالما كان الفلاسفة يداعبون هذا الحلم ، فانه ماكان يمكنهم أن يصبحوا محامين عن المستثمرين بل ما اكثر ما كانوا يخاطبونهم بأقوال يصعب هضمها

وهكذا فقد كان هيلفيتيوس يدرك منذ ذلك الحين أن مصالح المتعهدين تتناقض

---

* [في **بحث الانسان** الذي أخذت منه جميع هذه الفقرات]

مع مصالح « **الأمة** بمجموعها لقد كان يقول ليس مايناقض المصلحة القومية من بعض وجهات النظر اكثر من اعداد كبيرة من البشر دون ملكية ومع ذلك فليس مايناسب مصلحة التاجر اكثر من ذلك فبقدر مايكون المعوزون اكثر عدداً تنقص الاجره التي يدفعها لهم . وان هيئةمن التجار هيفي الأغلب الأقوىفي بلد يدينبالتجارة . »
[يريد هيلفيتيوس ان يقول **بالانتاج الرأسمالي**] .

وكان دولباخ ، وهو احد فلاسفة البورجوازية الثورية ايضاً يثور ضد أوضاع حيث « امم بأسرها مجبرة على أن تعمل ، وتعرق وتسقي الارض بدموعها كي تغذي ترف وملذات وهناء عدد قليل من المجانين عدد ضئيل من البشر عديمي المنفعة ، الذين اصبحت هناءتهم مستحيلة لأن مخيلتهم الضالة لم تعد تعرف حدودا لها

لقد كان هيلفيتيوس يتكهن سلفاً بجميع العواقب الاخلاقية للنضال من أجل الوجود في المجتمع البورجوازي

لقد كان يقول إنه في جميع البلدان حيث يسود المال يحاول البشر الاثراء باي ثمن كان ، بيد أن « حب الثروة لا يمتد إلى جميع طبقات المواطنين **دون أن يوحي إلى القسم الحاكم بالرغبة في السرقة، وأعمال الكيد** » .

وعندئذ فان « بناء مرفأ أو معمل سلاح او تأسيس شركة تجارية ، أو حرباً تخاض فيما يزعم من اجل شرف الأمة ، واخيراً أية حجة من اجل نهب هذه الامة يطبق عليها بكل شراهة وعندئذ فان جميع الشرور وهي بنات الطمع تتغلغل دفعة واحدة إلى الامبراطورية ، وتلوث بصورة متتالية جميع اعضائها وتدفع بها أخيراً إلى دمارها

تلك كانت فضائح تونس وباناما التي تم التنبؤ بها قبل قرن كامل

لقد تغيرت الأمور كثيراً منذ أيام هيلفيتيوس ان كل بورجوازي يحترم نفسه يعتقد اليوم انالسرف يملي عليه الزاماً انيرعد ضد يوم العمل من ثماني ساعات ، وضد جميع المطالب الأخرى التي يقدمها المستثمرون وبينما تتطور القوى الانتاجية للمجتمعات الحديثة بنسب لم يسبق لها مثيل فان السادة المستثمرين لا يريدون أن يسمعوا شيئاً عن أدنى انقاص للعناء العمالي وبينما فساد البورجوازية يتجاوز بفضل حب الثروة كل ما يمكن أن تولده مخيلة أعدائها فانهم يسعون إلى اقناعنا بأن العالم البورجوازي هو أفضل العوالم الممكنة

اترانا ننخدع بما يقوله نمامو البورجوازية ؟!

إن يوم العمل الذي تمناه هيلفيتيوس فيما مضى والذي تطالب به اليوم الطبقة العاملة في العالم أجمع لن يجعل العامل سعيداً بقدر الامكان لكنه سيوفر له أسلحة جديدة في النضال من أجل تحرره التام الكامل

ولم يكن هيلفيتيوس يعرف « دواء نوعياً للشر الذي كان يتكهن به أما نحن فاننا نعرف مثل هذا الدواء ، وهو لايخطىء **إنه دكتاتورية البروليتاريا من حيث هي وسيلة في التنظيم الاشتراكي لانتاج الخيرات من حيث هو غاية .**

دراسة في تطور

التصور الاحادي عن التاريخ

AUDIATUR ET ALTERA PARS *

---

* ليسمع الفريق الخصم أيضا

مقدمة الطبعة الثانية

لم اصحح هنا الا **اخطاء عدم الانتباه والطباعة** التي انزلقت في الطبعة الاولى(١).
فلم أر من حقي أن اغير أي شيء كان في **حججي** ، وذلك لهذا السبب البسيط الا وهو أن هذا الكتاب مؤلف **مساجلة** ، وان تغييراًي شيء في مؤلف للمساجلة يضاهي مهاجمة الخصم بسلاح جديد مع اجباره على الدفاع عن نفسه بسلاح قديم ان مثل هذه العملية سوف تكون غير مشروعة ، وفي الحالة الراهنة أقل شرعية نظرا لأن خصمي الرئيسي ، نقولاس ميخائيلوفسكي ، لم يعد في عداد الاحياء

ان نقاد آرائنا زعموا أن هذه الآراء قد كانت أولا مغلوطة في ذاتها وثانيا مغلوطة بصورة خاصة في تطبيقها على روسيا التي يبدو أنها مدعوة الى سلوك دروبها الخاصة في ميدان الاقتصاد وثالثا ضارة نظرا لانها تهيىء انصارها للعطالة عن العمل للطمأنينة ،وليس من يخطر في باله أن يكرر هذا اللوم الأخير في الوقت الراهن وان اللوم الثاني قد دحض في نظر الجميع وعرفهم بفعل مجمل تطور الحياة الاقتصادية الروسية خلال السنوات العشر الاخيرة وأما اللوم الاول ، فانه يكفي المرء أن يتعرف الى الأدبيات **السلالية** الحديثة كي نقتنع بصحة **تفسيرنا للتاريخ** . ان كل عمل جاد عن حضارة البدائيين » مجبر على الاستنجاد بها كلما طرحت مسألة الرابطة السببية لظواهر الحياة الاجتماعية والروحية عند الشعوب المتوحشة واني لأقتصر على الاستشهاد بالمؤلف الكلاسيكي لفون دن شتاينن

Unter dem naturvolkern Zentral - Brasiliens

ومن المفروغ منه انه ليس في مقدوري التوسع هنا في هذا الموضوع

اني أرد على البعض من نقادي في مقالة ملحقة هنا بضع كلمات الى خصومنا » ولقد نشرت هذه المقالة اول الامر باسم مستعار ، وهذا هو السبب في انني أتحدث فيها عن كتابي كما لو كان كتاب شخص آخر اشاطره آراءه(٢) بيد ان هذا النص لا يدحض السيد كودرين(٣) الذي خاصمني في **الثروة الروسية** بعد نشره(٤) ولذا فاني سأتوجه ههنا بكلمتين الى هذا المناقض

ان أكثر حججه جدية ضد المادية التاريخية تستقيم فيما يبدو في هذه الحقيقة التي يسجلها ان نفس الدين الواحد ، البوذية على سبيل المثال ، تجاهر به أحيانا شعوب هي في مراحل مختلفة جدا من التطور التاريخي بيد أن هذه الحجة ليست مسندة فيما يبدو الا للوهلة الاولى ان التجربة تبين «أن نفس

الدين الواحد » **يتغير مضمونه بصورة جوهرية** في مثل هذه الحالات وفقا لدرجة التطور الاقتصادي التي بلغهـا الشعب الذي يجاهر بـه

وهذه ايضاً نقطة أود بخصوصها أن أرد على السيد كودرين لقد سجل مغالطة في ترجمتي لبلوتارك (انظر الهامش ـ مـن ٦١٩ . ٦٢٠) وهو يقـدم بهـذا الشأن ملاحظات ساخرة جدا والحال انني في الحقيقة « لاشأن لي بهذه الخطيئـة فلما كنت على سفر فقد ارسلت المخطوطة الى بطرسبـورغ دون الشاهد مـن بلوتارك مقتصرا على الاشارة الى المرجع وان احد الاشخاص الذين كانوا معنيين بنشر هذا الكتاب (**وهو اذا لم أكن مخطئا تلميذ قديم في الكلية** حيث درس العليم كودرين) قد ترجم الفقرات التي أحلته اليها وارتكب الخطأ الذي سجله مناقضي ومن المؤكد ان ذلك أمر يؤسف له لكنه لابد لنا من الاعتراف بأن تلك هي الهفـوة الوحيدة **التي استطاع** خصومنا اقناعنا بها كان لابد لهم من الحصول على بعـض التعويض ولذا فاني أمضي « انسانيا » ، حتى درجة الاغتباط لاننا عرضنـا لهم أنفسنا للنقد .

ن. بلتنـوف

الفصل الأول

المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر

يقول السيد ميخائيلو فسكي

صادفنا اليوم شابا يعلن لك ، بشيء من العجلة النافلة ، انه مادي ، فان هذا لايعني مطلقا أنه مادي **بالمعنى الفلسفي** كما كان عندنا فيما مضى انصار بوخنر وموليشوت ففي الغالب جدا من الحالات لايعنى محدثك على الاطلاق بمظهر المادية الميتافيزيائي أو مظهرها العلمي بل لا يملك الا أفكارا ملتبسة جدا منهما انه يقصد يقول انه نصير للمادية الاقتصادية وهذا بمعنى خصوصي ايضا ، معنى متفق عليه ...* »

اننا نجهل النوع من الشباب الذين صادفهم السيد ميخائيلوفسكي ، لكن مايقوله قد يوحي بأن مذهب أنصار المادية الاقتصادية لايملك اية علاقة بالمادية « بالمعنى الفلسفي المألوف أيكون هذا صحيحا ؟ أحقا أن « المادية الاقتصادية ضيقة وفقيرة المضمون حتى هذه الدرجة كما يبدو للسيد ميخائيلوفسكي ؟

ان خلاصة وجيزة لتاريخ هذا المذهب سوف تتيح لنا الجواب على ذلك ماهي المادية بالمعنى الفلسفي المألوف ؟.

ان **المادية** نقيضة **المثالية** ان المثالية تسعى الى تفسير جميع الظواهر الطبيعية ، جميع خصائص المادة ، بهذه الخاصة او تلك من خصائص **الروح** اما المادية فتعمل على النقيض من ذلك تماما انها تحاول ان تفسر الظواهر النفسية بهذه الخاصة او تلك من خصائص **المادة** ، هذه الخاصية العضوية او تلك من خاصيات **الجسد** الانساني أو الحيواني ان جميع الفلاسفة الذين تشكل **المادة** المعطى الاول عندهم ينتسبون الى معسكر **الماديين** ، وجميع الفلاسفة الذين يعتبرون **الروح** المعطى الأول ينتسبون الى معسكر **المثاليين** هذا كل مايمكن قوله عن المادة بصورة عامة ، عن « المادية بالمعنى الفلسفي المألوف ؛ ذلك ان الزمن قد شيد على أساسها بنى فوقية متباينة جدا بحيث تضفي على مادية كل عصر مظهراً يميزها كليا عنمادية العصور الاخرى

* **الثروة الروسية** ، كانون الثاني ١٨٩٤ ، القسم ١١ ، ص ٩٨ .

المادية والمثالية الى هذا تعود الاتجاهات الكبرى للفكر الفلسفي ومن المؤكد انه قد وجدت على الدوام بصورة موازية لذلك انظمة **ثنائية** تنصب **الروح** و **المادة** في **جوهرين** متميزين مستقلين بيد أن الثنائية لم تستطع قط ان تقدم جوابا مرضيا عن سؤال من المحال حله كيف يمكن لجوهرين متميزين لايملكان اي شيء مشترك فيما بينهما ان يمارسا تأثيرا في بعضهما بعضا ؟ ولذا فان المفكرين الاكثر حزما وعمقا مالوا على الدوام الى **الاحادية** ، يعني الى تفسير الظواهر **بمبدأ أساسي واحد** ان كل **مثالي** حازم أحادي ، مثله كمثل كل مادي حازم وبهذا المعنى فانه ليس ثمة فارق على الاطلاق بين بيركلي ودولباخ مثلا لقد كان الاول **مثاليا** حازما ، والثاني **ماديا** لايقل عن ذلك حزما ، لكن كليهما كان **أحاديا** ولقد كان كلاهما يدرك على حد سواء عجز **الانظمة الثنائية** ، ربما الاكثر انتشارا حتى أيامنا الحاضرة

ولقد شاهد النصف الاول من قرننا سيادة الاحادية **المثالية** في الفلسفة اما النصف الثاني من هذا القرن فقد شاهد ، في ميدان العلم ـ الذي انصهرت **الفلسفة** معه خلال هذه المرحلة ـ انتصار الاحادية **المادية** التي ليست فيما عدا ذلك منطقية او صريحة على الدوام

وليس لنا ان نعرض هنا تاريخ المادية بصورة مفصلة انه يكفي غرضنا ان نأخذ بعين الاعتبار تطورها منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهنا ايضا يهمنا بصورة خاصة أن ندرس أحد تياراتها وهو في الحقيقة التيار الرئيسي مادية دولباخ وهيلفيتيوس وانصارهما

ان الماديين من هذا الاتجاه قد خاضوا مساجلة عنيفة مع المفكرين الرسميين للعصر الذين كانوا يستشهدون بديكارت دون ان يفهموه جيدا على الدوام ، ويزعمون ان لدى الانسان بعض **الافكار الفطرية** يعني المستقلة عن التجربة ولم يفعل الماديون الفرنسيون شيئا في دحضهم هذه النظرية الا استئناف عقيدة لوك الذي برهن منذ اواخر القرن السابع عشر على انه **لاوجود للافكار الفطرية** no innate principles بيد انهم اضفوا على هذه الموضوعة وهم يعيدون عرضها مظهرا اكثر منهجية ؛ لقد وضعوا النقاط على الحروف التي لم يشأ لوك ، من حيث هو ليبرالي انكليزي حسن التربية ، ان يلمسها لقد كانوا ، وهم يمضون حتى نهاية شوط افكارهم ، **حسيين** لايهابون ، يعني انهم اعتبروا أن جميع وظائف الانسان النفسية مجرد **تبدلات للاحساس** ولاجدوى ان نتساءل هنا حتى اية نقطة ظلت حججهم صالحة ، في هذه الحالة او تلك ، في نظر العلم الحالي وانه لمن المفروغ منه ان الماديين الفرنسيين كانوا يجهلون أشياء كثيرة يعرفها في الوقت الراهن كل طالب مدرسة فلنرجع بالاحرى الى نظريات دولباخ الفيزيائية والكيميائية ، وهو الذي كان مع ذلك على اطلاع وثيق على علوم الطبيعة في **عصره** لقد كانت لهم على الاقل الفضيلة غير المشكوك فيها اذ قادوا فكرهم بصورة منطقية من وجهة نظر

العلم في عصرهم ، وهذا كل مايحق لنا ان نطالب المفكر به وليس من العجيب ان يكون العلم المعاصر قد تجاوز الماديين الفرنسيين للقرن الماضي ؛ لكن الشيء الهام هو ان **خصوم هؤلاء الفلاسفة كانوا يتخلفون بالقياس الى العلم في ذلك الحين**. ان من عادة مؤرخي الفلسفة ان يعارضوا مفاهيم الماديين الفرنسيين بمفاهيم كانط الذي من المؤكد انه يكون من قبيل النقص انكار معارفه العلمية لكن هذه المعارضة تفتقر بصورة مطلقة الى الاساس فليس من العسير البرهان على أن كانط والماديين الفرنسيين قد انطلقوا من نفس المبدأ،لكن طوروه بصورة مختلفة،منتهين بذلك الى نتائج مختلفة وذلك تحت تأثير المجتمعات المختلفة التي عاشوا وفكروا في ظلها وانـنا لنعرف ان هذه الفكرة سوف يقضى عليها بأنها تدعو الى المفارقة من قبل اولئك الذين اعتادوا ان يصدقوا مؤرخي الفلسفة على عهدتهم ؛ ولايجوز لنا ان نؤيدها هنا بحجج مفصلة لكننا سوف نفعل ذلك عن طيبة خاطر اذا ما أبان خصومنا عن رغبتهم في ذلك

ومهما نكن من شيء ، فان الجميع يعرفون ان الماديين الفرنسيين كانوا يعتبرون جماع فعالية الانسان النفسية على أنها تغير للاحساس (Sensations transformées وان اعتبار الفعالية النفسية من وجهة النظر هذه يعود الى اعتبار كلية التصورات والمفاهيم والمشاعر من حيث هي متولدة **بفعل البيئة الخارجية في الانسان** ولقد كانوا ينظرون الى المسألة على هذا الفرار بالضبط لقد نادوا دونما كلل بهوى وبالطريقة الاحزم بأن الانسان مع جميع أفكاره ومشاعره هو ماتصنعه البيئة ، يعني **الطبيعة** في المحل الاول والمجتمع في المحل الثاني ان الانسان ثقافة كله* ، هذا مايؤكده هيلفيتيوس الذي يقصد بالثقافة جماع التأثير الاجتماعي وان هذا التصور للانسان من حيث هو نتاج البيئة يوفر للماديين الفرنسيين أساسهم النظري الرئيسي من اجل **المطالبة بالاصلاحات** .

وبالفعل فاذا كان الانسان تابعا للبيئة الخارجية وهو مدين لها **بجميع** خاصيات خلقه، فانه مدين لها كذلك بعيوبه ؛ واذا كنا نريد انناضل ضد هذه العيوب، فانه من الواجب اذن ان نبدل وفقا لذلك البيئة ، وبصورة دقيقة جدا البيئة **الاجتماعية** طالما ان الطبيعة لاتصنع الانسان صالحا ولا رديئا ضعوا هذا الانسان في مجتمع عاقل ، يعني في شروط تكف فيها غريزة البقاء عن دفع كل امرىء الى النضال ضد الجميع وفقوا بين مصالح الفرد ومصالح المجتمع بأسره ، وان **الفضيلة**** سوف تظهر من تلقاء ذاتها ، تماما مثلما يسقط الحجر من تلقاء نفسه اذا ماحرم من نقطة الاستناد ان الفضيلة **لايبشر بها** بل **تهيأ**

---

* L'homme est tout éducation ، بالفرنسية في النص الاصلي .

** La vertu ، بالفرنسية في النص الاصلي

بفعل تنظيم عام للمجتمع ان الماديين الفرنسيين يدينون للخدمات الجيدة التي قدمها المحافظون والرجعيون في القرن الماضي باستمرار الناس على اعتبار اخلاقهم اخلاقا **للانانية** وقد عرفوها بقدر اعظم جدا من الصواب بأنها اخلاق تختلط كليا مع **السياسة**

ان النظرية التي تنص على ان الحياة الروحية نتاج للبيئة قد قادت الماديين الفرنسيين الى استنتاجات كانت غير متوقعة حتى بالنسبة اليهم هكذا زعموا على سبيل المثال ان افكار الانسان لاتملك على وجه الدقة اي تأثير في سلوكه، وبالتالي ان نشر هذه الفكرة او تلك في مجمع ما لا يمكن ان يعدل في تاريخه قيد شعرة ولسوف نشير فيما بعد الى جوهر خطأهم في هذا المجال لننتقل الآن الى مظهر آخر لتصوراتهم

اذا كانت افكار الكائن الانساني تتحدد بالبيئة المحيطة به ، فان افكار الانسانية ، في صيرورتها التاريخية، تتحدد بتطور البيئة الاجتماعية ، بتاريخ المجتمعات . واذا شئنا ان نصف « تقدم العقل » دون ان نقتصر على سؤال ((**كيف ؟**)) (**كيف تطور العقل تاريخيا ؟**) ، بل بأن نطرح كذلك السؤال الطبيعي جداً « **لماذا ؟**)) (**لماذا تطور العقل بهذه الطريقة وليس بصورة مغايرة ؟**) ، فان من واجبنا ان نبدأ بتاريخ البيئة، بتاريخ تطور المجتمعات وهكذا فان مركز الثقل سوف ينتقل ، في البداية على الاقل نحو البحث عن قوانين التطور الاجتماعي ولقد وصل الماديون الفرنسيون حتى هذه القضية ، لكنهم لم يعرفوا حتى كيف يطرحونها بصورة مضبوطة فكم بالحري كيف يحلونها

وعندما كان عليهم ان يعالجوا تطور الانسانية التاريخي فقد نسوا نظريتهم الحسية عن الانسان بأحرف كبيرة وزعموا ، على غرار جميع «الناس المستنيرين» في عصرهم ان **الراي هو الذي يحكم العالم*** » يعني المجتمعات البشرية ** وفي هذا يكمن التناقض البدئي للمادية في القرن الثامن عشر ولقد تجزأ هذا التناقض في محاكمات انصار تلك المادية الى مجموعة من التناقضات المشتقة من التناقضات الثانوية الاشبه بالنقود الصغيرة التي تصرف اليها ورقة نقدية

الموضوعة الانسان مع كلية **آرائه** نتاج **البيئة**، وبصورة اساسية البيئة الاجتماعية تلك هي النتيجة الحتمية لمبدأ لوك , no innate principles **لاوجود لافكار فطرية .**

---

* C'est l'opinion qui gouverne le monde بالفرنسية في النص الاصلي

** « اقصد بالراي نتيجة كتلة الحقائق والاخطاء المنتشرة في أمة ما وهي النتيجة التي تحدد احكامها الخاصة بالاحترام او الاحتقار ، والحب والحقد التي تشكل ميولها وعاداتها، شرورها وفضائلها ، وبكلمة واحدة اخلاقها وهذا الراي هو الذي يجب ان يقال عنه انه يحكم العالم». سوار : Mélanges de littérature ، المجلد الثالث ، الملحق ١٢ ص ٤٠٠

النقيضة البيئة مع كلية خصائصها نتاج الراي تلك هي النتيجة الحتمية لمبدأ فلسفة التاريخ لدى الماديين الفرنسيين **ان الراي هو الذي يحكم العالم**❋

ومن هذا التناقض البدئي ينشأ عدد من التناقضات المشتقة ؛ مثال ذلك

الموضوعة يحكم الانسان على الاشكال الاجتماعية النافعة له بأنها صالحة ويحكم على تلك الاشكال التي تضره بأنها رديئة **ان الراي لدى اي شعب يتحدد على الدوام بمصلحة سائدة** ❋ هذا مايقوله سوار❋❋ وليست تلك حتى نتيجة لفلسفة لوك بل مجرد تحريف لنصه «No innate practical principles..Virtue generally approved not because innate but because profitable Good and Evil are nothing but Pleasure and Pain, or that which occasions or procures Pleasure or Pain to us

لاوجود لافكار عملية فطرية الفضيلة مؤيدة عامة ليس لانها فطرية ، بل لانها تعود بالمنفعة الخير والشر ليسا سوى اللذة والالم او ما يسبب أو يوفر لنا اللذة أو الالم❋❋❋

النقيضة ان الاشكال موضع البحث تبدو للبشر نافعة او ضارة حسب نظام آرائهم ووفقا لسوار نفسه ، فان كل شعب « **لايريد ولا يحب ولا يؤيد الا مايظنه نافعا** » . وفي آخر تحليل فان جميع الاشياء تعود اذن مرة اخرى الى **الرأي الذي يحكم العالم** .

الموضوعة انها لخطيئة فادحة ان نتصور ان الاخلاق الدينية مثلا مبدأ محبة القريب ، قد أسهمت حتى اسهاما ضئيلا في تحسين الأخلاق ان مثل هذه المبادىء ، مثلها على أي حال مثل الافكار عامة ، لا تملك سلطانا على الانسان ان الاشياء جميعا وقف على البيئة الاجتماعية ، على حالة المجتمع❋❋❋❋

❋ بالفرنسية في النص الاصلي

❋❋ سوار ، المجلد اول ص ٤٠١

❋❋❋ Essay concerning human understanding الكتاب الاول الفصل الثالث ، الكتاب الثاني ، الفصل العشرون والحادي والعشرون والثامن والعشرون [**بحث في الادراك البشري**]

❋❋❋❋ تصادف هذه الموضوعة عدة مرات في **نظام الطبيعة** لدولباخ ويعبر هيلفيتيوس عن الفكرة نفسها « فلا قرر الرأي الاسخف ، الرأي الذي يمكن أن تستخرج منه العواقب الاشد كراهة ، فاني اذن لم أغير شيئا **في القوانين** ، لم أغير شيئا في اخلاق الامة » (**في الانسان** ، القسم السابع ، الفصل الرابع) واننا لنجد هذه الموضوعة ايضا في **المراسلة الادبية** لغريم الذي عاش طويلا في بيئة الماديين الفرنسيين ، كما نجدها عند فولتير الذي كافحهم في عدد كبير من النصوص ، وعلى الاخص في **الفيلسوف الجاهل** ، يبين « بطربرك فيرنيي » أن أي فيلسوف لم يمارس بعد تأثيرا في سلوك اقربائه ، نظرا لان هؤلاء يتحكمون بسلوكهم وفقا للعادة وليس وفقا للميتافيزياء .

النقيضة : ان التجربة التاريخية تبين لنا ان **الآراء المقدسة كانت المصدر الحقيقي لآلام الجنس البشري** * ، وان هذا الامر قابل للادراك تماما طالما انه مادامت الآراء عامة تحكم العالم فان الآراء المغلوطةتسوده علىطريقةالطغاةالدمويين.

وانه ليكون أمرا يسيرا ان نطيل هذه القائمة من التناقضات التي أورثتها المادية الفرنسية لعدد من معاصرينا الماديين بالمعنى الفلسفي المألوف » لكن ذلك سيكون امرا تافلا . فلنستخلص بالاحرى الطابع المشترك لها

ان ثمة تناقضا وتناقضا فحين يتناقض السيد « ف.ف. لدى كل خطوة، في كتابه **مصير الراسمالية** او في الجزء الاول من **لوائح دراسة اقتصادية لروسيا** ، فان تشويهاته للمنطق لاتهمنا على الاطلاق الا من حيث هي وثيقة انسانية .ان المؤرخ المقبل للفكر الروسي الذي سوف يسجل تلك التشويهات لن تكون له مندوحة عن دراسة مسألة تتحلى بأهمية بالغة جدا بالنسبة الى علم النفس الجماعي: ماهو السبب في ان هذه التناقضات بالرغم من وضوحها وثباتها الشديدين قد افلتت من عدد كبير من قراء السيد ف.ف.» ؟ ان هذه التناقضات بحد ذاتها عقيمة بقدر عقم شجرة التين في المثل لكن ثمة نوعا آخر من التناقضات. فبالرغم من انه لاسبيل الى مناقشتها مثلها مثل تناقضات السيد «ف.ف.»، فانها تتميز عنها بأنها لاتخدر الفكر البشري كما لاتؤخر تقدمه ، بل تدفعه قدما ، واحيانا بشدة عظيمة بحيث يتبين انها أخصب من حيث نتائجها من أكثر نظرياته تناسقا وانه ليمكننا ان نورد بشأنها صيغة **هيغل** « Der widerspruch ist das fortleitende (التناقض هو مايدفع الى الامام) وانه لمن الواجب ان نصنف في هذه المقولة تناقضات المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر

فلنتوقف عند التناقض البدئي **ان البيئة هي التي تحدد الآراء ؛ ان الآراء هي التي تحدد البيئة** . يجب ان نقول عنها ماكان كانط يقوله عن تناقضاته ان **الموضوعة** هي في مثل صلاحية **النقيضة** وبالفعل فانه لن يكون في مقدورنا ان نضع موضع الشك ان البيئة الاجتماعية تحدد الآراء وانه لمن الأمور التي لاتقل عن ذلك ريبة ان أي شعب لايمكن ان يتكيف مع نظام اجتماعي مناقض لآرائه جميعا ، وانه سوف يثور على مثل هذا النظام ويعيد قولبته على طريقته فلا بد لنا اذن من الاعتراف بأن الراي أيضا يحكم العالم لكن كيف لموضوعتين صحيحتين بحد ذاتهما ان تتناقضا ؟ ان تفسير هذا الامر سهل جدا انهما لاتتناقضان الا لاننا نأخذهما بعين الاعتبار من وجهة نظر رديئة فمن وجهة النظر هذه يبدو ــ ويجب بصورة مطلقة ان يبدو ــ انه اذا كانت الموضوعة صحيحة فان النقيضة مغلوطة ، والعكس بالعكس لكن فلنجد وجهة النظر الجيدة فاذا التناقض يزول واذا كل

---

* بالفرنسية في النص الاصلي

من الموضوعتين اللتين تحيراننا ترتدي مظهرا جديدا ولسوف يتبين ان كلامنهما تكمل الاخرى وبصورة ادق انها تقررها ، دون ان تنفيها مطلقا ، وانه اذا كانت هــذه الموضوعة مغلوطة ، فان **الاخرى** سوف تكون مغلوطـة أيضا بالرغـم مـن انها بدت لنا مناقضة لها باديء الامر

كيف نحد وجهة النظر الجيدة هذه ؟

لنأخذ مثالا ما اكثر ماقيل ، في القرن الثامن عشر بصورة خاصة ، ان النظام السياسي لشعب من الشعوب مقرر بأخلاق هذا الشعب وان هذا لصحيح تماما. فحين زالت أخلاق الجمهورية القديمة عند الرومان أخلت الجمهورية المكان للملكية. بيد انه تــم التأكيد بصورة لاتقل عن ذلك من جهــة أخرى ، على أن أخلاق شعب من الشعوب مقررة بنظامه السياسي وهذا ما لايمكن كذلك وضعه موضع الشك. وبالفعل فمن أين للرومان في عهــد هيليوغابال ان يدينوا بأخلاق جمهوريــة ؟ اليس من البين حتى درجة اليقين ان أخلاق الرومان في زمن الامبراطورية لابد ان تشكل شيئا مناقضا بالنسبة الى الاخلاق الجمهورية القديمة ؟ وعندئذ فاننا ننتهي الــى الاستنتاج بأن النظــام مقرر بالاخلاق وان الاخلاق مقررة بالنظام بيــد ان هــذه النتيجة متناقضة. ومما لاريب فيه اننا قد انتهينا اليهــا لان احــدى الموضوعتين خاطئة اية موضوعة منهما ؟ مهما أجهدنا عقولنا في الامر فاننا لن نجد خطأ لا في الموضوعة الاولى ولا في الموضوعة الثانية ؛ فكلتاهمــا لا غبار عليهما طالما ان اخلاق أي شعب تؤثر بالفعل في نظامه السياسي وبهذا المعنى تشكل **السبب** فيه ، بينمــا هي من جهة اخرى مقررة بهذا النظام الذي تشكل بهذا المعنى نتيجة له ايــن نجد المخرج اذآ ؟ في المسائل التي من هذا النوع يكتفى عادة باكتشاف **تفاعل** ان الاخلاق تؤثر في البيئة ، والبيئة تؤثر في الاخلاق وكل شيء يصبح واضحا مثل ضــوء النهار ، واولئك الذين لايرضيهم هذا الصفاء يشهدون على ميل مستنكر جــدا الى **الضيق الفكري** . هكذا على الاقل يفكر مثقفونــا بمجموعهم على وجــه التقريب . أنهم ينظرون الى الحياة الاجتماعية من **زاوية التفاعل** ،وكل من مظاهر هذه الحيــاة يؤثر في جميع المظاهر الاخرى ويتعرض بدوره لتأثيرها تلك هي الطريقةالوحيدة في النظر الى الامور الجديرة بعالم اجتماعي رصين ؛ واما اولئك الذين يسعون، على غرار الماركسيين الى اكتشاف اسباب أعمق للتطور الاجتماعي فانهم بكــل بساطة لايدركون مبلغ تعقيده ولقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر يميلون ايضــا الى وجهة النظر هذه عندما كانوا يحسون الحاجة الى وضع النظام في تصوراتهم عن حيــاة المجتمعــات والى حل التناقضات التي كانت ترهقهــم وان العقول الاكثر منهجية بينهم (اننا لانتحدث عن **روسو** الذي لاعلاقة له على العموم بالفلاسفة) لم تكن تمضي الى ابعد من ذلك ومثال ذلك ان مونتسكيو يتوقف عند وجهــة نظر التفاعل هذه في مؤلفاته الشهيرة جدا مثل **عظمة الرومان وانحطاطهم او في روح**

القوانين ✽ ومن المؤكد ان وجهة النظر صحيحة **فمما لاريب فيه ان ثمة تفاعلا بين جميع مظاهر الحياة الاجتماعية** ومن سوء الحظ ان وجهة النظر الصائبة هذه لا توضح لنا الا الشيء القليل ، وذلك لهذا السبب البسيط **فهي لاتقدم اية** اشارة بشأن **اصل القوى التي تمارس هذا التفاعل** فاذا كان النظام السياسي يفترض بصورة مسبقة الاخلاق التي **يؤثر فيها** فمن الواضح ان هذه الاخلاق لاتدين له بظهورها وان الملاحظة نفسها تصح للاخلاق ؛ فاذا هي كانت تفترض مسبقا النظام الذي تؤثر فيه فمن الواضح انها ليست هي التي خلقته ولابد لنا في سبيل الخروج من هذه المتاهة ان نجد العامل التاريخي الذي انتج في وقت واحد اخلاق شعب معين ونظامه السياسي ، **خالقا** في الوقت نفسه **امكانية تفاعلهما** فاذا نحن اكتشفنا هذا العامل وجدنا وجهة النظر الجيدة التي هي غرض بحثنا ويكون في مقدورنا عندئذ ان نحل دونما عناء التناقض الذي يحيرنا

واذا طبقنا ذلك على التناقض البدئي للمادية الفرنسية ، فاليكم مايعنيه لقد كان الماديون الفرنسيون يخطئون عندما كانوا يزعمون ، مناقضين بذلك تصورهم المألوف للتاريخ ان الافكار ليست **شيئا** ، طالما ان البيئة سوف تكون **كل شيء** ؛بيد ان في تصورهم المألوف للتاريخ (**ان الرأي هو الذي يحكم العالم**✽✽) ما لايقل من الخطأ عن ذلك ، لانه يجعل من الراي السبب الرئيسي الاساسي لوجود اية بيئة اجتماعية معينة مما لاريب فيه ان ثمة تفاعلا بين الراي والبيئة لكن تحليلا علميا لا يستطيع ان يقتصر على الاعتراف بهذا التفاعل نظرا لان هذا التفاعل لا يفسر لنا على الاطلاق المظاهر الاجتماعية فكيما نفهم تاريخ الانسانية ــ في الحالة الراهنة تاريخ آرائها من جهة . ومن جهة اخرى تاريخ المجتمعات التي عرفتها في سياق تطورها ــ يجب ان نتجاوز وجهة نظر التفاعل يجب ان نكتشف اذا كان هذا الامر ممكنا العامل الذي يحدد في وقت واحد **تطور البيئة الاجتماعية وتطور الآراء** .

ولقد ترتب على العلوم الاجتماعية للقرن التاسع عشر ان نكتشف هذا العامل

ان الراي هو الذي يحكم العالم بيد ان الراي لايظل ثابتا لا يتغير ما الذي يشرف على تبدله ؟ ان La Mothe le Vayer في القرن السابع عشر قد ردت على ذلك بما يلي نشر الانوار ذلك هو التعبير الاكثر تجريدا والاكثرسطحية

✽ يتمسك دولباخ في كتابه **السياسة الطبيعية** بوجهة نظر التفاعل بين الاخلاق والنظام السياسي لكن بما أنه يجد نفسه في هذا الكتاب مسوقا الى معالجة مسائل عملية ، فان وجهة النظر هذه تحبسه في حلقة مفرغة لا بد في سبيل اصلاح الاخلاق من تحسين النظام ، ومن أجل اصلاح النظام ينبغي تحسين الاخلاق وانه ليخلص من ذلك باستنجاده **بالامير الصالح** العزيز على جميع الفلاسفة ، هذا الذي يحل التناقض ، مثله مثل إله يعمل من الخارج ، باصلاحه الاخلاق والنظام السياسي على حد سواء

✽✽ (بالفرنسية في النص الاصلي)

الفكرة السلطان العمومي الذي يتحلى الرأي به ولقد تمسك فلاسفة القرن الثامن عشر به بكل ثبات مكملين اياه احيانا بعموميات كئيبة عن مصير الانوار غير الاكيد من سوء الحظ بيد اننا نلمس عند افضل العقول من بينهم ، منذ ذلك الحين الشعور بما في مثل هذا التصور من قصور ان هيلفيتيوس يشير الى ان تقدم المعارف خاضع لقوانين وان ثمة بالتالي اسبابا خفية اسبابا مجهولة يتوقف هذا التقدم عليها بل انه يقوم بمحاولة بالغة الاهمية وهي محاولة تقدر حتى الآن حق قدرها ، كيما يفسر التطور الاجتماعي والفكري للانسانية **بحاجاتها المادية** . بيد ان هذه المحاولة تنتهي الى الاخفاق وما كان يمكن ان تنتهي خلاف ذلك لاسباب عديدة وانها لتبقى على الاقل مثل نوع من الوصية لمفكري القرن التالي الذين يودون ان يواصلوا عمل الماديين الفرنسيين

الفصل الثاني

المؤرخون الفرنسيون في عصر عودة الملكية

« ان احدى اهم النتائج التي يمكن استخلاصها من دراسة التاريخ هي ان الحكومةهي السبب الاكثر فعاليةمن بين أسباب خلق الشعوب؛وان فضائل الشعوب وشرورها ، طاقتها وميوعتها مواهبها وانوارها أو جهالتها ليست قط على وجه التقريب نتائج المناخ أو صفات عرق خصوصي وأن **كل شيء** قد اعطي الى **الجميع** من قبل الطبيعة ، بينما الحكومة تحتفظ او تمحق في البشر الخاضعين لها الصفات التي كانت تشكل بادىء الامر ميراث الجنس البشري وفي ايطاليا لم تحدث تغيرات لا في المناخ ولا في العرق كان مجلوب البرابرة تافها جدا بحيث لا يمكن يعدل خصائصها « لقد ظلت الطبيعة هي نفسها بالنسبة الى الايطاليين في جميع العصور الحكومة وحدها هي التي تغيرت ان ثوراتها قد استبقت دائما او صاحبت تغير الخلق القومي.

بهذه العبارة يدحض **سيسموندي** النظرية التي تجعل مصير الشعوب وقفا علىالبيئة الجغرافية وحدها*. ولاتفتقر اعتراضاته الى الاساس ذلك أن **الجغرافيا** بعيدة جدا بالفعل عن تعليل جميع الامور في التاريخ ، وذلك بالضبط بقدر ما هي **من التاريخ** ، يعني حسب تعبير سيسموندي بقدر ماتتغير الحكومة بينما تظل البيئة الجغرافية ثابتة لاتتغير ونحن لانسجل ذلك الا بصورة عابرة ، ذلك ان مسألة مختلفة كل الاختلاف تعنينا هنا

مما لاريب فيه ان القارىء قد لاحظ قبلا أن سيسموندي ، حين يعارض ثبات البيئة الجغرافية بتبدلات مصير الشعوب التاريخي ، يرد هذا المصير الى عامل اساسي وحيد الى ((**الحكومة**)) ، يعني الى **نظام البلاد السياسي** ان طابع الشعب سوف يتحدد كليا بطابع الحكومة ان هذه الموضوعة المعلنة بصورة

* [**تاريخ الجمهوريات الايطالية في العصر الوسيط**] ، الطبعة الجديدة المجلد الاول ، باريس ، المدخل ، ص : هـ ـ و .

قاطعة من المؤكد ان سيسموندي يخفف في الحال من حدتها ، وبصورة ملموسة جدا فيقول ان الثورات السياسية قد استبقت او **صاحبت تغير** الطابع القومي؛ ومن هنا يظهر ان طابع الحكومة يتحدد احيانا بطابع الشعب بيد أن فلسفة التاريخ عند سيسموندي تصطدم عند هذه النقطة بالتناقض المعروف جيدا لدينا والذي ضايق الفلاسفة الفرنسيين ان اخلاق أي شعب تتوقف على نظامه السياسي ؛ ان النظام السياسي يتوقف على الاخلاق ولم يكن في مقدور سيسموندي أن يحل هذا التناقض أكثر مما كان ذلك في مقدور الفلاسفة ، الامر الذي أجبره ان يؤسس محاكماته على هذه الموضوعة او تلك من التناقض بصورة دورية لكنه حين توقف عند احداهما ، عند الموضوعة التي تؤكد ان طابع الشعب يتوقف على حكومته ، فقد نسب الى فكرة الحكومة اتساعا مبالغا فيه ان هذا المفهوم يشمل عنده **جميع الخصائص دون استثناء لبيئة اجتماعية معينة** جميع مظاهر المجتمع وبصورة أدق ، فان جميع الخصائص دونما استثناء لبيئة اجتماعية معينة تصبح عنده من شأن « الحكومة » نتيجة النظام السياسي .تلك هي وجهة نظر القرن الثامن عشر فحين كان الماديون الفرنسيون يرغبون في ان يعبروا في شكل مكثف عن قناعتهم بالتأثير كلي القوة للبيئة المحيطة بالانسان ، فقد كانوا يقولون **ان التشريع هو الذي يصنع كل شيء**✻ وحين كانوا يتكلمون عن التشريع فقد كانوا يضعون نصب أعينهم بصورة حصرية تقريبا **التشريع السياسي ، النظام السياسي** وان بين اعمال **جان باتيست فيكو** الشهير مقالة صغيرة جدا عنوانها بحث في نظام الفقه حيث يفسر الحق المدني لدى الرومان بثوراتهم السياسية✻✻ وبالرغم من أن هذه الدراسة كتبت في مطلع القرن الثامن عشر فان الآراء التي تعبر عنها بشأن العلاقات بين الحق المدني والنظام السياسي قد سادت حتى عهد عودة الملكية كان الفلاسفة يردون كل شيء الى«السياسة» .

✻ C'est la législation qui fait tout بالفرنسية في النص الاصلي.

✻✻ نترجم عن الفرنسية ، ونسرع الى الاشارة الى أن المقالة نفسها ليست معروفة لدينا الا من خلال بعض المقتطفات بالفرنسية التي أخذت منها ولم نتمكن من الحصول على الاصل الايطالي الذي لم ينشر في حدود معرفتنا الا في طبعة عام ١٨١٨ وهو غير وارد أبدا في طبعة ميلانو الصادرة في ستة مجلداتعام ١٨٣٥ وعلى أي حال فان مايهمنا ، بالمناسبة ، ليست **الطريقة** التي حل فيكو بها مشكلته ، بل تقرير أية **مشكلة طرحها على نفسه**

ولنستبق بصورة عابرة لوما مما لاريب ان نقادا حصيفين سوف يتعجلون توجيهه الينا لسوف يقولون لنا انك تستعمل لا على التمييز صيغتي الفلاسفة والماديين ؛ ولكن الفلاسفة لم يكونوا ماديين جميعا ، حاشا وان البعض من بينهم فولتير على سبيل المثال ، قد عارضوا المادية بكل عنف » هذا صحيح بيد ان هيغل قد بين في موضع آخر ان الفلاسفة الذين نهضوا ضد **المادية انما كانوا ماديين غير منطقيين .**

لكن النشاط السياسي « للمشرع » هو على اي حال نشاط **واع** وان يكن من المؤكد انه ليس متماسكا بصورة دائمة وان النشاط الواعي للانسان يتوقف على « الآراء الخاصة به وبهذه الطريقة كان الفلاسفة يعودون ، دون ان ينتبهوا لذلك ، الى فكرة **جبروت الراي** ، بينما كانوا يريدون أن يبرزوا فكرة **جبروت البيئة**.

وكان سيسموندي يتمسك بوجهة نظر القرن الثامن عشر* بيد ان المؤرخين من الجيل الفتي قد انضموا الى مفاهيم اخرى

ان مجرى الثورة الفرنسية ومآلها ، بمفاجآتها التي أفحمت المفكرين الاكثر « استنارة قد اتت بالدحض الاشد تألقا لفكرة ان الرأي كلي القوة وعندئذ فقد الكثيرون ايمانهم بفضيلة « العقل بينما رفض آخرون الانجراف مع خيبة الامل ، واتجهوا بمزيد من القوة الى تأكيد جبروت **البيئة** والى دراسة تطور **هذه البيئة**. لكن هذه البيئة نفسها اخذوا في عصر عودة الملكية يعتبرونها من وجهة نظر جديدة ان الاحداث التاريخية العظمى قد سخرت حتى درجة كبيرة من « **المشرعين** » والدساتير بحيث بدا منذ ذلك الحين انه من المستهجن ارجاع جميع خصائص البيئة الاجتماعية الى هذه الدساتير كما لو انها كانت العامل الاساسي فيها ؛ لقد بدأوا الآن يعتبرونها شيئا مشتقا **نتيجة** وليس **سببا**.

يقول غيزو في كتابه « **دراسات في تاريخ فرنسا** » **

« ان معظم الكتاب والعلماء والمؤرخين والناشرين قد سعوا الى معرفة حالة المجتمع ودرجة حضارته او نوعها من دراسة مؤسساته السياسية وفهمها ان المؤسسات نتيجة قبل ان تصبح سببا ان المجتمع ينتجها قبل أن يتغير بفعلها وبدلا من ان نبحث في نظام الحكومة أشكالها عن كيف كانت حالة الشعب ، فانه من الواجب دراسة حالة الشعب قبل كل شيء من اجل معرفة كيف كان يجب أن تكون ، كيف أمكن تكون الحكومة ان المجتمع وتركيبه وطريقة معيشة الافراد وفقا لاوضاعهم الاجتماعية، وعلاقات مختلف الطبقات من الافراد ، واخيرا **حالة الاشخاص** ، من المؤكد ان تلك هي المسألة الاولى التي تسترعي انتباه المؤلف الذي يريد أن يشاهد حياة الشعوب والناشر الذي يريد أن يعرف كيف كانت تحكم***

ان هذه الفكرة على طرفي نقيض مع فكرة فيكو فعند فيكو ن تاريخ الحق المدني يفسر بالثورات السياسية ، اما عند غيزو فان النظام السياسي يفسر بحالة الاشخاص يعني بالحق المدني وان المؤرخ الفرنسي ليمضي الى ابعد من ذلك أيضا في تحليل « التركيب الاجتماعي واذا اتخذنا صيغه فعند جميع الشعوب التي دخلت الحلبة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب تكون « **حالة**

* لقد بدأ يعمل في تاريخه للجمهوريات الايطالية في عام ١٧٩٦

** ظهرت الطبعة الاولى عام ١٨٢١

*** **دراسات** ، الطبعة العاشرة ، باريس ١٨٦٠ ، ص ٧٣-٧٤ .

الاشخاص » تابعة **لحالة الاراضي** * بحيث ان دراسة حالة الاراضي هذه يجب ان تسبق دراسة حالة الاشخاص : **« كيما نفهم السياسة يجب ان نعرف الشروط الاجتماعية المختلفة وعلاقاتها ، وكيما نفهم الشروط الاجتماعية المختلفة يجب ان نعرف طبيعة الملكيات وصلاتها ** »** .

من هذه الزاوية يدرس غيزو تاريخ فرنسا في ظل السلالتين الاوليين الذي يصبح عنده تاريخا لصراع الشروط الاجتماعية وفي تاريخه للثورة الانكليزية يمضي خطوة أخرى إذ يمثل هذا الحدث كصراع للبورجوازية ضد الاستقراطية وذلك اعتراف ضمني بالحقيقة التالية وهي انه يجب في سبيل تفسير الحياة السياسيةلبلد ما لا دراسة حالة الاراضي فحسب بل حالة الاملاك بصورة عامة ***

ان هذا التصور لتاريخ اوروبا السياسي قد كان وقتذاك بعيدا جدا عن كونه خاصا بغيزو وحده بالذات بل كان مؤرخون عديدون يتقاسمونه ونذكر من بينهم **اوغستان تييري ومينييه** .

ففي كتابه **مشاهد الثورات في انكلترا** يقدم اوغستان تييري تاريخ الثورات الانكليزية على اعتباره صراعا للبورجوازية والاستقراطية انه يقول بخصوص الثورة الاولى

---

* état des terres بالفرنسية في النص الاصلي

** **دراسات** ، المصدر نفسه ص ٧٥ـ٧٦

*** كان نضال الاحزاب السياسية والدينية في انكلترا في القرن السابع عشر يغطي مسألة اجتماعية هي صراع الطبقات المختلفة من أجل النفوذ والسلطة ولم يكن ذلك لانهذهالطبقات كانت في انكلترا منفصلة بشدة ومتعادية ، كما كانت في بلاد اخرى ان البارونات الكبار قد أيدوا الحريات الشعبية مع حرياتهم وهذا ما لم ينسه الشعب لقد كان سادة الريف وبورجوازيو المدن يعقدون الجلسات معا منذ ثلاثة قرون ، باسم مجالس العموم في انكلترا في البرلمان لكن تغيرات كبرى طرأت منذ قرن على القوة النسبية للطبقات المختلفة في قلب المجمع ، دون ان تحدث تغييرات مماثلة في الحكم ان البورجوازيين ، وسادة الكونتيات ، والمزارعين والملاكين الصغار فيالريف، الذين كان عددهم كبيرا اذن . ما كانوا يمارسون تأثيرا في الشؤون العامة يتناسب مع أهميتهم في البلاد لقد كبروا أكثر مما ارتفعوا ومن هنا كان ، فيما بينهم وفي الصفوف التي دونهم ، روح فخور وعنيف من الطموح على أهبة ينتهز جميع الفرص من أجل الانفجار

Discours sur l'histoire de la révolution d'Angleterre

برلين ١٨٥٧ ١٣ـ١٤ راجع كذلك المجلدات الستة للمؤلف نفسه عن تاريخ الثورة الانكليزية الاولى ودراساته عن حياة رجالات الدولة في ذلك الزمن غيزو يتمسك فيها بصورة دائمة على وجه التقريب بوجهة نظر صراع الطبقات

« كل شخصية كان أسلافها قد انخرطوا في جيش للغزو كانت تغادر قصرهالتمضي الى المعسكر الملكي تشغل المركز القيادي الذي يخولهـا لقبهـا ايـاه وكان سكان المدن والموانىء يمضون بأعداد كبيرة الى المعسكر المعارض وكان يمكن ان يقال أن شـعار تجمع الجيشين قد كان من جهة واحدة **البطالة والسلطة** ومن الجهة الثانية **العمـل والحرية** ؛ ذلك ان العاطلين ، الاناس الذين ماكانوا يرغبون في عمل آخر في الحيـاة غير عمل الاستمتاع دونما عناء ، من اية شيعة كانوا قد كانوا ينخرطون في القوات الملكية حيث كانوا يمضون للدفاع عن المصالح المتفقة مع مصالحهم في حين أسـر جماعة المنتصرين القدامى الذين ربحتهم الصناعة ، كانوا يتحدون بحزب العموم❊

لم تكن الحركة الدينية الخاصة بذلـك العصر في نظـر اوغستان تيري ، الا انعكاسا للمصالح الايجابية القائمة

كانت الحرب تتصل من هذا الجانب وذلك في سبيل هذه المصالح الايجابية ولم يكن ما عدا ذلك سوى مظهر وذريعة أولئك الذين كانوا ينخرطون في قضيـة **الرعايا** قد كان معظمهم من أنصار الكالفانية ، يعني أنهم كانوا يرفضون أي نير ، حتى في مجال الدين وأما أولئك الذين كانوا يؤيدون القضية المضادة فقد كانوا أسقفيين أو بابويين ذلك أنهم كانوا يحبون أن يصادقوا حتى في أشكال العبادة سلطة يمارسونها وضرائب يجبونها من البشر

وانه ليورد في هذا المجال كلمات فوكس في كتابه History of the reign of James the Second [**تاريخ حكم جيمس الثاني**]

كان الهويغ ينظرون الى جميع الآراء الدينية من زاوية السياسة وحتى حقدهم على البابوية ما كان يعود الى مايعزى الى هذه الشيعة غير الشعبية من أوهام أو صنمية بقدر ما كان يعود الى طموحها الى اقامة السلطة المطلقة في الدولة

وفي رأي مينييه أن

المصالح التي تسود تحدد الحركة الاجتماعية ان هذه الحركة تبلغ أهدافهـا عبر المعارضات ، وتكف عند بلوغها ،ويستعاض عنها بحركة أخرى لاتعي نفسها حين تبدأ ، ولا تكشف عن هويتها الا حين تصبح الاقوى كذلك كانت مسيرة الاقطاعية فقد كانت في مجال الحاجة اليها قبل أن تكون في مجال الواقع ، وتلك هي مرحلتها الاولى ؛ ومن بعد اصبحت في مجال الواقع اذ كفت عن كونها في مجال الحاجة اليها ، وتلك هي مرحلتها الثانية ؛ ولقد انتهى هذا الامر بها الى اخراجها من مجال الواقع ولا توجد حتى الآن ثورات على الاطلاق لم تتحقق بهذه الطريقة❊❊

❊ **عشر سنوات من الدراسات التاريخية** ، المجلد السادس من **المؤلفات الكاملة** لاوغستان تيري ـ الطبعة العاشرة ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٦٦

❊❊ **في الاقطاعية ، ومؤسسات القـديس لويس وتـأثير تشـريع هـذا الامر** ، باريس ١٨٢٢ ـ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

ان مينييه يتخذ ، في تاريخه للثورة الفرنسية ، وجهة نظر الحاجات »الخاصة بالطبقات الاجتماعية المختلفة ان صراع هذه الطبقات يشكل بالنسبة اليه النابض الرئيسي للاحداث السياسية ومن البدهي ان مثل هذا التصور ماكان يمكن ان يتفق مع ذوق الانتقائيين ، حتى في ذلك الزمان الطيب القديم الذي كانت رؤوسهم فيه تعمل افضل جدا مما تعمل اليوم لقد اتهموا انصار النظريات التاريخية الجديدة **بالقدرية وبالفكر المنهجي*** وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالات فانهم ماكانوا يلاحظون على الاطلاق الجوانب الضعيفة الحقيقية للنظريات الجديدة ويهاجمون بالمقابل بأقصى العنف جوانبها المتينة بصورة لابطالها الشك وان هذا فيما عدا ذلك لقديم قدم العالم وبالتالي غير ذي اهمية ان ماهو اهم من ذلك حتى درجة كبيرة هو ان احد الممثلين الاكثر تألقا للاشتراكية في ذلك الحين **السان سيموني بازار** قد دافع عن التصورات الجديدة

لم يكن بازار يعفي من كل لوم كتاب مينييه عن الثورة الفرنسية هذا الكتاب الذي كان عيبه يستقيم في تقديره على الاخص في ان هذا المؤلف يقدم الحادث الموصوف كما لو كان حقيقة منعزلة لا ارتباط لها بالسلسلة الطويلة من الجهود التي كان لابد لها اذا قبلت التنظيم الاجتماعي الاوروبي القديم ان تسهل الوسائط من أجل اقامة نظام جديد » لكن المؤلف يملك حسنات لاريب فيها ان الكاتب بعد ان قصر موضوعه على الفعل الثوري الخاصة يأخذ على عاتقه أن يصف الاحزاب التي توجهه كلا بدوره وان يربط هذه الاحزاب بطبقات المجتمع المختلفة وان يبين بأي تسلسل للعواقب تتعاقب في قيادة الاحداث ، وكيف تزول « أخيرا ان « الفكر المنهجي والقدري » ، هذا الذي كان الانتقائيون يصمون به المؤرخين من أصحاب الاتجاه الجديد ، قد كان يميز بصورة سعيدة في رأي بازار مؤلفات غيزو ومينييه من كتب المؤرخين الادبيين يعني المعنيين بجمال الاسلوب وحده) الذين لم يتقدموا بعلم التاريخ ، بالرغم من عددهم خطوة واحدة منذ القرن الثامن عشر**

وإما سئلوا عن مسألة معرفة ما اذا كانت اخلاق أي شعب تخلق نظامه السياسي او ما اذا كان هذا النظام على النقيض من ذلك هو الذي يخلق الاخلاق فان اوغستان تييري وغيزو أو مينييه على حد سواء كانوا يجيبون بأن الاخلاق والنظام ، مهما يكن التفاعل عظيما ومؤكدا بين أخلاق أي شعب ونظامه السياسي تدين بوجودها في آخر تحليل الى عامل ثالث اكثر أساسية **حالة الاشخاص وحالة الاملاك**

---

* fatalisme et esprit de système بالفرنسية في النص الاصلي .

** انظر **اعتبارات عن التاريخ في المنتج** القسم رابع .

ان التناقض الذي وقع فيه فلاسفة القرن الثامن عشر قد حل بذلك ان كل فكر حيادي لابد أن يعترف مع بازار بأن أنصار التصور الجديد للتاريخ قد حققوا لتوهم خطوة للعلم الى الامام

لكننا رأينا من قبل ان هذا التناقض لايعود لكونه حالة خصوصية للتناقض البدئي الخاص بالنظريات الاجتماعية للقرن الثامن عشر ١ـ ان الانسان ، بجماع أفكاره ومشاعره هو نتاج البيئة ؛ ٢ ـ ان البيئة هي عمل الانسان ، نتاج «آرائه» أكان هذا التصور الجديد للتاريخ يحل التناقض البدئي للمادية الفرنسية؟ لنر كيف فسر مؤرخو عصر عودة الملكية أصل حالة الاشخاص هذه وحالة الاملاك هذه اللتين تستطيع دراستهما وحدها، في رأيهم، أن تقدم مفتاح الاحداث التاريخية

ان حالة الاملاك منوطة **بالحق** : ان الملكية هي قبل كل شيء مؤسسة حقوقية وان الادعاء بأن مفتاح الظواهر التاريخية يجب أن يبحث عنه في حالة الاملاك يعود الى القول بامكان العثور عليه في المؤسسات الحقوقية لكن من اين تأتي هذه المؤسسات ؟ ان غيزو يؤكد بصواب تام أن الدساتير كانت نتيجة قبل أن تصبح سببا وأن المجتمع بدأ بخلقها قبل أن يتحول تحت تأثيرها لكن الا يمكننا أن نقول الشيء نفسه عن حالة الاملاك ؟ الم تكن هي الاخرى نتيجة قبل أن تصبح سببا ؟ الم يعمد المجتمع الى خلقها مثلا قبل أن يتحمل فعلها ؟

ان غيزو يقدم أجوبة على أقل مايمكن من الإرضاء عن هذه الأسئلة المشروعة كليا

فلدى الشعوب التي دخلت الحلبة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية كانت حالة الاشخاص تابعة للملكية العقارية* ان علاقة الرجل بالارض تحدد شرطه الاجتماعي ولقد كان جماع المؤسسات الاجتماعية طوال مرحلة الاقطاعية تابعا في آخر تحليل لحالة الاراضي التي كانت محددة « في الاصل وفي الازمان الاولى التي تلت غزوات البرابرة بالشرط الاجتماعي للملاك حسب صيغة غيزو نفسه حسبما كان الرجل أكثر أو أقل حرية ، أكثر أو أقل قوة ، اتخذت الارض التي شغلها هذا الطابع او ذاك** لكن ما الذي كان يحدد في مثل هذه الحال الشرط الاجتماعي للملاك ؟ ما الذي كان يحدد « في الاصل وفي الازمان الاولى التي تلت غزوات البرابرة درجته الاكثر أو الاقل ارتفاعا من الحرية والقوة ؟

---

* عند هذه الشعوب **وحدها** ؟ ان هذا التحديد لغريب بقدر ما كان المؤلفون الاغريق والرومان قد لاحظوا من قبل الرابطة الوثيقة بين الحالة المدنية والسياسية لبلدهم وحالة الاراضي ومهما يكن من أمر فان هذا التحديد العجيب لم يمنع غيزو من يرى رابطة بين سقوط الامبراطورية الرومانية وتنظيمها الاقتصادي انظر **دراسته الاولى في النظام البلدي في الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس من العصر المسيحي** .

** يعني أن ملكية الارض كانت ترتدي هذا الطابع **الحقوقي** أو ذاك كانت ملكيتها تستتبع درجة من التبعية أكثر أو أقل ارتفاعا حسب قوة المالك وحريته المصدر المذكور ، ص ٧٨ .

اتكون الحالة السياسية التي كانت قائمة من قبل لدى الغزاة البرابرة ؟ ولكن غيزو سبق فقال لنا ان هذه الحالة السياسية نتيجة وليست سببا وفي سبيل فهم حالة البرابرة السياسية قبل سقوط الامبراطورية الرومانية يجب بناء على نصيحة المؤلف بالذات دراسة حالة الاشخاص والنظام الاجتماعي وعلاقات الطبقات المختلفة لنفس البيئة الخ وان هذه الدراسة سوف تعود بنا الى المسألة البدئية: ما الذي يحدد حالة الاملاك ، ما الذي خلق أشكال الملكية سارية المفعول في المجتمع موضوع البحث ؟ واننا لندرك انه لن يفيد شيئا ان نفسر شرط الطبقات الاجتماعية المختلفة بالاستناد الى درجاتها النسبية من الحرية والقوة ان ذلك لأبعد مايكون عن تشكيل جواب ، ولن يكون سوى تكرار بسيط للسؤال في شكل جديد وببعض التفصيل الاضافي

ولم تكن مسألة اصل حالة الاملاك تطرح بالنسبة الى غيزو بقوة ودقة القضية العلمية ولقد رأينا ان حلها كان أمرا مستحيلا بصورة مطلقة عليه ؛ بيد أن التباس الاجوبة التي يعطيها عنها يبرهن على أنه لم يكن يتصورها بكل وضوح ولقد كان يفسر تطور اشكال الملكية ، في آخر تحليل ، باشارات ضبابية جدا الى **الطبيعة الانسانية** ولذا لايسعنا ان ندهش لان هذا المؤرخ المتهم من قبل الانتقائيين بقدر كبير من الفكر المنهجي قد تبين بالاحرى انه انتقائي هو نفســـه ، على الاخص في مؤلفاته عن تاريخ الحضارة

ان اوغستان تييري الذي كان صراع الطبقة الثالثة ضد النبالة يستهويه ، اذ يأخـذ بعين الاعتبـار صراع الشـيع الدينيــة والاحـزاب السـياسـيـة مــن وجهة نظر « **المصالح الايجابية** » لمختلف الطبقات الاجتماعيــة ، يفسر أصل الطبقات والشيع **بالفتح** « **هــذا كله يعود تاريخه الى فتح ، فثمة فتح ماوراء ذلــك** »* هذا مايقوله بخصوص الطبقات والشيع عند الشعوب الحديثة التي يعنى بها عــلى وجه الحصر وانه لايكل عن الضرب على هذه الوتيرة سواء في مقالاته الدعائية او في مؤلفاته العلمية اللاحقة لكنه فيما عدا ان الفتح الذي هو عمل السياسة الخارجية ، كان يعود به الى وجهة نظر القرن الثامن عشر حيث كان جماع الحياة الاجتماعية يفسر بفعل المشرع ، يعني السلطة السياسية ، فان كل حقيقة من حقائق الفتح تثير هذا السؤال بصورة محتومة لماذا نتج عنها هذه النتيجة الاجتماعية من دون تلك ؟ فقبل غزو برابرة جرمانيا كانت بلاد الغول قد خضعت للفتح الروماني، وان العواقب الاجتماعية التي ترتبت على **هذا الفتح** قد اختلفت كثيرا عن العواقب التي استتبعها الفتح **الجرماني** وان العواقب الاجتماعية لفتح الصين من قبل المغول لاتشبه البتة العواقب الاجتماعية لفتح انكلترا من قبل النورمانديين مــن اين يأتي

---

* « Tout cela date d'une conquête , il y a une conquête là-dessus »

[بالفرنسية في النص الاصلي)]

هذا الاختلاف ؟ ان التاكيد بأن أنظمة اجتماعية خاصة بشعوب مختلفة تتجابه في عصور مختلفة تحدد ذلك الاختلاف يضاهي عدم قولنا أي شيء على الاطلاق طالما ان ماتحدد النظام الاجتماعي المذكور يظل مجهولا وان الاستنجاد بهذا الخصوص بفتح سابق يعود الى الانحباس في حلقة مفرغة فمهما تكن سلسلة الفتوحات التي نعددها فاننا ننتهي دائما الى النتيجةالحتمية التالية،الا وهي ان في حياة الشعوب س ، مجهولا هو ابعد مايكون عن كونه تابعا للفتح بل **نتائج الفتح تابع له** بله **الفتح نفسه** في غالب الاحيان وربما دائما وان شيئا ما قائم في أصل التصادمات بين الشعوب.

ان اوغستان تييري يشير في كتابه **تاريخ فتح انكلترا من قبل النورمانديين** على اساس الوثائق المتوفرة في عصره الى الحوافز التي قادت الانكلوسكسونيين في نضالهم اليائس من أجل الاستقلال يقول أحد دوقاتهم يجب علينا ان نقاتل مهما يكن الخطر بالنسبة الينا ، لأن الامر هنا لايتعلق بسيد جديد نستقبله ان الامر يتعلق بشيء مختلف تماما ان دوق نورماندي قد أعطى أراضينا الى باروناته وفرسانه الى جميع رجاله وقد قدم له القسم الاعظم منهم الولاء لقاء ذلك ؛ انهم يريدون جميعا ان يحصلوا على هبتهم اذا ما اصبح الدوق ملكا علينا ولسوف يتوجب عليه هو نفسه أن يسلمهم املاكنا ونساءنا وبناتنا لأن جميع الاشياء قد وعدوا بها مسبقا انهم لا يأتون كي يدمرونا فقط ، بل كي يدمروا ذريتنا كي ينتزعوا منا بلاد اجدادنا الخ وان غليوم الفاتح يعلن لرفاقه من جانبه فكروا ان تقاتلوا جيدا وان تقضوا على كل شيء ، ذلك اننا اذا تغلبنا عليهم سنصبح جميعا أغنياء ان ما سوف اكسبه سوف تكسبونه انتم ؛ اذا فتحت سوف تفتحون ، واذا اخذت الارض فسوف تحصلون عليها✻ ليس في الامكان ان نبرهن بصورة اوضح من ذلك على ان الفتح لم يكن غاية في ذاته وانه كان يوجد « ما وراء ذلك **مصالح** ايجابية يعني **اقتصادية** . لكن رب من يسأل ما الذي كان يضفي على هذه المصالح المظهر الذي كانت ترتديه ؟ ما الذي يجعل سكان البلاد الاصليين والغزاة على حد سواء متمسكين بالشكل الاقطاعي للملكية العقارية من دون أي شكل آخر ؟ ان « الفتح هنا لا يفسر شيئا

ان **تاريخ الطبقة الثالثة** لاوغستان تييري نفسه وجميع دراساته عن تاريخ فرنسا وانكلترا الداخلي تعطينا لوحة كاملة حتى درجة جيدة عن تقدم البورجوازية ويكفي ان نلقي عليها نظرة خاطفة كي نتحقق من نقص النظرية التي تريد ان ترد الى الفتح اصل النظام الاجتماعي وتطوره وبالفعل فان هذا التطور جرى بصورة معاكسة لمصلحة الارستقراطية العقارية وامانيها وبعبارة اخرى لمصلحة واماني الغزاة وسلالتهم

وليس من المبالغ فيه ان نقول ان اوغستان تييري اخذ هو نفسه على عاتقه ، في

✻ **تاريخ الفتح** ، الخ باريس ، المجلد الاول ، ص ٢٩٦ و ٣٠٠ .

اعماله التاريخية ، دحض تصوره الخاص عن دور الفتح*

ونجد الالتباس نفسه عند مينييه انه يتحدث عن تأثير الملكية العقارية في الاشكال السياسية لكن ما الذي تتوقف عليه اشكال الملكية ، ولماذا هي تتطور في هذا الاتجاه او ذاك ؟ لايعرف مينييه شيئا عن ذلك ان اشكال الملكية العقارية تفسر اخيرا عنده ايضا **بالفتح****

نه شعر جيدا اننا نواجه في تاريخ الصدمات بين الشعوب كائنات من لحم ودم تملك حقوقا وعلاقات اجتماعية محددة لا تجريدات من نمط الفاتحين » المغلوبين » لكن تحليله هنا لايمضي بعيدا أيضا انه يقول « حين يختلط شعبان فوق ارض واحدة ، لأنهما يعيشان عليها ، فانهما يفقدان بصورة متبادلة جوانبهما الضعيفة ويتناقلان جوانبهما القوية***

ليس ذلك عميقا وليس هو واضحا جدا

ففي مواجهة مسألة تاريخ علاقات الملكية ، كان كل واحد من هؤلاء المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية سيحاول ان يتخلص من الصعوبة ، مثل غيزو بالاستنجاد بالطبيعة الانسانية بقدر اعظم او اقل من النجاح

ان هذا المفهوم عن طبيعة انسانية هي السلطة العليا التي سوف تحسم جميع الحالات الوجدانية في مجال الحق والاخلاق والسياسة والاقتصاد قد ورثها مؤرخو القرن التاسع عشر عن الفلاسفة

اذا كان الانسان عند مجيئه الى العالم لا يجلب معه مؤونة مهيأة من الافكار العملية اذا لم تكن الفضيلة محترمة لأنها فطرية ، بل لأنها نافعة ، كما يؤكد لوك ذلك اذا كان مبدأ المنفعة الاجتماعية يشكل القانون الاسمى كما يقول هيلفيتيوس ، اذا كان الكائن الانساني مقياس جميع الاشياء حالما يتعلق الامر بالعلاقات بين البشر فانه يترتب على ذلك بمنطق تام انه يجب علينا ان نحكم من زاوية الطبيعة الانسانية على منفعة العلاقات موضع البحث وضررها وعقلانيتها وعبثها ولقد كان الفلاسفة يناقشون من وجهة النظر هذه النظام الاقطاعي القائم

---

* انه لمما يبعث على الاهتمام ان نسجل ان السان سيمونيين ادركوا سلفا هذه النقطة الضعيفة في تصور اوغستان تييري عن التاريخ ففي المقالة المذكورة آنفا يشير بازار أيضا الى ان الفتح قد مارس تأثيرا في تطور المجتمع الاوربي أقل جدا مما يتصور اوغستان تييري وانه ليقول ان كل امرىء يفهم قوانين تطور الانسانية يرى ان دور الفتح ثانوي كليا ومهما يكن من امر ، فان اوغستان تييري في هذه الحالة يقترب اكثر من بازار من آراء معلمه القديم سان سيمون وبالفعل فان هذا الاخير كان ينظر الى تاريخ أوربا الغربية منذ القرن الخامس عشر من زاوية التطور الاقتصادي لايرى في النظام الاجتماعي للعصر الوسيط الا نتاجا للفتح

** انظر **في الاقطاعية** ، ص ٥٠

*** **في الاقطاعية** ص ٢١٢

والاصلاحات التي يعتقدون بضرورتها على حد سواء ان الطبيعة الانسانية تشكل حجتهم الرئيسية في المساجلات مع الخصوم وان هذه الملاحظة لكوندورسيه تبين جيدا الاهمية العظمى التي ينسبونها اليها ان هذا الفيلسوف يؤكد ان افكار العدالة والحق تتشكل بصورة متماثلة تماما لدى جميع الكائنات التي تملك القدرة على الشعور وتحصيل الافكار ؛ ولذا فهي سوف تكون متماثلة ، ومن المؤكد انه قد يغيرها البشر لكن كل انسان يفكر بصورة صحيحة لابد ان يتوصل كذلك بالضرورة الى بعض الافكار سواء في الاخلاق أو في الرياضيات وان هذه الافكار هي نتيجة تلك الحقيقة التي لا جدال فيها لأن الانسان كائن يحس ويفكر (٨) وحقيقة الامر ان الفلاسفة ما كانوا يستخلصون نظرياتهم الاجتماعية من هذا المفهوم الهزيل جدا ، بل كانت البيئة التي يحيون فيها هي التي تمليها عليهم ان « الانسان الذي يشيرون اليه لاتتميز فحسب بالقدرة على الشعور والتفكير ان « طبيعته تتطلب نظاما بورجوازيا معينا (ان المطالب التي ستضعها الجمعية التأسيسية موضع التنفيذ في وقت لاحق موجودة في مؤلفات دولباخ) ؛ انها تطالب بحرية التجارة ، وبعدم تدخل الدولة في نظام الملكية (Laissez faire, laissez passer) ، الخ ، الخ

لقد كان الفلاسفة يرون الطبيعة الانسانية من خلال موشور بعض الحاجات الاجتماعية وعلاقات اجتماعية معينة لكنهم ما كانوا يرتابون على الاطلاق في أن التاريخ وضع مثل هذا الموشور امام أعينهم ؛ لقد كانوا يتصورون ان « الطبيعة الانسانية » بالذات هي التي تنطق بألسنتهم طبيعة انسانية قد فهمها أخيرا ممثلون مستنيرون للانسانية وقدروها حق قدرها

وفيما عدا ذلك ، فان كتاب القرن الثامن عشر ما كانوا يشكلون جميعا نفس الفكرة عن الطبيعة الانسانية ، وقد كانت وجهات نظرهم حيالها تتباعد جدا في بعض الاحيان لكنهم كانوا جميعا يعتقدون ان فكرة صحيحة عن هذه الطبيعة تستطيع وحدها ان تزودنا بمفتاح الظواهر الاجتماعية

ولقد قلنا اعلاه ان الكثيرين من الفلاسفة قد سبق فتبينوا ان تطور العقل الانساني يخضع لبعض القوانين وان**تاريخ الادب** هو الذي آل بهم بصورة خاصة الى هذه الفكرة كانوا يتساؤلون أي شعب لم يبدأ بأن يكون شاعرا وينتهي بأن يكون فيلسوفا** ؟ لكن كيف كانوا يفسرون هذا الترابط ؟ لقد كان الفلاسفة

---

* ليس دائما على أي حال فقد يحدث ان ينصح الفلاسفة المشرع ، باسم الطبيعة المذكورة ، بلطف من التفاوت في الملكية ذلك احد تناقضاتهم المتعددة لكنه تناقض لايعنينا في الوقت الحاضر ان مايهمنا هو **الطبيعة الانسانية** بحد ذاتها تخدمهم في كل الاوقات كحجة تؤيد المطامح الحسية لهذه البيئة او تلك من المجتمع ، ومجتمع **بورجوازي** على وجه الحصر

** غريم Correspondance littéraire [مراسلات ادبية] ، آب ١٧٧٤ ان غريم لايفعل ، حين يطرح السؤال ، الا استئناف الفكرة التي عرضها الاب ارنو في خطابه امام المجمع العلمي الفرنسي .

يجيبون اذن بالحاجات الاجتماعية التي تحدد تطور اللغة يقول الأب أرنـو في المقالة (٩) التي اشرنا اليها في الهامش ان فن الكلام هو ، مثل جميع الفنـون ، نتاج الحاجة والمصلحة العامة وان الحاجة لتتغير وبالتالي فـان « الفنـون تتغير بأن تتطور لكن ما الذي يحدد الحاجة العامة ، حاجات البشر الذين يشكلون المجتمع ؟ الطبيعة الانسانية وبالتالي فان من واجبنا ان نبحث في هذه الطبيعة عن تفسير حقيقة ان تطور العقل يسلك هذه الدرب من دون أي درب اخرى

ومما لا ريب فيه انه لم يكن بد من طبيعة انسانية **ثابتة** ، معطاة بصورة نهائية ، كي تلعب دور هذا المقياس الأسمى ولقد كان الفلاسفة يعتبرونها كذلك فعليـا ، كما يمكننا ان نرى من ملاحظة كوندورسيه الآنفة لكن كيف لنا ان نفسر بطبيعـة انسانية ثابتة تطور الانسانية الفكري او الاجتماعي ؟ كيف تجري الصيرورة بصورة عامة ؟ بسلسلة من التغيرات ايمكن لشيء ثابت ومعطى بصورة نهائية ان يفسر هذه التغيرات ؟ ايمكن للمتحولات ان تتحول لأن الثوابت لاتتحول ؟ لقـد كان الفلاسـفة يدركون جيدا ان الجواب **بالنفي** ، وكانوا يزعمون كي يتخلصوا من الصعوبة ان كـل مقدار **ثابت** لابد ان يخضع للتغير ضمن حدود معينة ان الانسان يجتاز مراحـل مختلفة من النمو الطفولة ، والمراهقة ، والبلوغ الخ وليست متطلباته ثابتـة في جميع الاعمار

في الطفولة لا يملك الانسان الا الحواس والمخيلة والذاكرة انه لايحتاج الا للتسلية ويلزمه اغان وخرافات ويعقب ذلك عمر الاهواء ، حيث تريد النفس ان تتأثر وتختلج ومن بعد يتوسع الذكاء ويتقوى العقل ان هاتين القدرتين تتطلبان ان تمارسا بدورهما ، وان نشاطهما ينصب على كل مايستلفت فضول الانسان*

وهكذا يتطور الانسان الفرد ان طبيعته تحدد سبل تطوره ؛ وبما ان هـذه التغيرات لاصقة بطبيعته ، فاننا نصادفها من جديد في التطور الفكري **للانسانية جمعاء** : انها تفسر حقيقة ان الشعوب تبدأ بالملحمة وتنتهي بالفلسفة

واننا لنرى دونما عناء ان مثل هذا التفسير لايفسر شيئا على الاطلاق ؛ كـل مايسمح به هو تشريب مسيرة التقدم الذهني للانسانية ببعض الخيال ان المقارنة تبرز على الدوام بمزيد من الوضوح الوان الشيء الموصوف واننا لنرى كذلـك دون عناء ان مفكري القرن الثامن عشر ، بالتجائهم الى هذا التفسير ، قد وقعوا من جديد في الحلقة المفرغة المعروفة جيدا ان البيئة تخلق الانسان ، والانسان يخلق البيئة ان تطور الانسانية الذهني ، وبعبارة اخرى تطور الطبيعة الانسانية ، يفسر بالحاجات الاجتماعية ، وفي الوقت نفسه يفسر تطور هذه الحاجات الاجتماعية بتطور الطبيعـة الانسانيـة

وبصورة اجمالية فان هذا التناقض لم يحذف من قبـل المؤرخين الفرنسيين لعهد عودة الملكية ، بل كل ما فعلوه أنهم أعطوه شكلا جديدا .

---

* سوار : المؤلف المذكور ، ص ٣٨٣

الفصل الثالث

الاشتراكيون الطوباويون

اذا كانت الطبيعة الانسانية ثابتة واذا كان في مقدورنا ، عارفين خصائصها الاساسية ، ان نستنتج بيقين رياضي مبادىء الاخلاق وعلم الاجتماع فانه من اليسير اذن تخيل نظام اجتماعي يكون **النظام الاجتماعي الأمثل** لأنه يستجيب استجابة تامة لمتطلبات الطبيعة الانسانية ولقد كان ماديو القرن الثامن عشر ينطلقون عن طيبة خاطر في بحوث عن موضوع **التشريع الكامل** * وكانت هذه البحوث تشكل **العنصر الطوباوي** في أدبيات الأنوار **

ان الاشتراكيين الطوباويين للنصف الاول من القرن التاسع عشر قد كرسوا انفسهم لهذه البحوث بكل اخلاص

ولقد تقاسموا كليا الآراء الانتروبولوجية للماديين الفرنسيين وكانوا مثلهم يعتبرون الانسان نتاج البيئة الاجتماعية*** ، كما انحبسوا مثلهم في حلقة مفرغة بتفسيرهم الخصائص المتحولة لهذه البيئة بالخصائص الثابتة **للطبيعة الانسانية**

---

* [Législation parfaite ، بالفرنسية في النص الاصلي]

** نجد في كتاب هيلفيتيوس **في الانسان** مشروعا مفصلا عن مثل هذا « التشريع الكامل » وانه لمما يبعث على الاهتمام ويعود بعميم الفائدة في الوقت نفسه ان نقارن هذه الطوباوية بطوباويات النصف الاول من القرن التاسع عشر ومن سوء الحظ ان فكرة هذه المجابهة لم تخطر بعد على فكر مؤرخي الاشتراكية أو مؤرخي الفلسفة وعلى أي حال ، فان هؤلاء الاخيرين يستخدمون حيال هيلفيتيوس طرقا لا تعقل البتة ان المسالم لانج ، بالرغم من كل اعتداله ، لايجد كي يصفه الا كلمة « السطحي » وان هيغل ، المثالي المطلق ، هو الذي ابدى اكبر قدر من العدل حيال المادي المطلق هيلفيتيوس

*** أجل ، ليس الانسان الا مايصنعه المجتمع الكلي القوة أو التربية الكلية القوة ، مع اخذ هذه الكلمة بمعناها الاوسع ، لا تربية العلم والمدرسة والكتاب فحسب ، بل تربية الاشياء والاشخاص والظروف والاحداث التربية التي تتناول الطفل في المهد كي لاتفارقه لحظة واحدة » (كابيه : Voyage en Icarie ، ١٨٤٨ ، ص ٤٠٢)

ان الطوباويات المختلفة للنصف الاول من قرننا انما هي محاولات تستهدف املاء تشريع كامل متخذة **الطبيعة الانسانية** مقياسا اسمى ان **فوريه** ينطلق من تحليل **للاهواء** اما **روبرت اوين** ، في كتابه **الوجيز في نظام عقلاني للمجتمع** ✻ ، فيعتمد على **المبادىء الاولى للطبيعة الانسانية** » First principles of human nature ويؤكد ان الحكومة العقلانية يجب قبل كل شيء **ان** تحدد ماهي الطبيعة الانسانية » ascertain what human nature is

وان **السان سيمونيين** يعلنون انهم يؤسسون فلسفتهم على **تصور جديد للطبيعة الانسانية**✻✻ ويزعم انصار فوريه ان التنظيم الاجتماعي الذي تخيله **معلمهم** شكل جملة من الاستنتاجات غير القابلة للدحض انطلاقا من القوانين الثابتة للطبيعة الانسانية✻✻✻

ومن المفروغ منه ان فكرة الانسانية المنصبة مقياسا اسمى لم تمنع المدارس الاشتراكية المختلفة من التباعد بشدة في تعريفها لخصائص هذه الطبيعة وهكذا فان افكار اوين في راي انصار سان سميون « متناقضة جدا مع ميول الطبيعة الانسانية حيث ان ذلك النوع من الحظوة التي يبدو انها تتمتع بها في هذا الوقت (في عام ١٨٢٥) امر لا تفسير له للوهلة الاولى✻✻✻ » واننا لنجد في كراسة فوريه **اشراك وشعوذة شيعتي سان سيمون واوين اللتين تعدان بالمشاركة والتقدم** عددا من الاشارات القاسية الى حقيقة ان المذهب السان سيموني يناقض جميع ميول الطبيعة الانسانية ولقد تبين ، كما كانت الحال في ايام كوندورسيه ، ان الاتفاق على تعريف الطبيعة الانسانية اصعب جدا من تعريف شكل هندسي

ان الاشتراكيين الطوباويين للقرن التاسع عشر ، بتمسكهم بوجهة نظر **الطبيعة الانسانية** ، قد ارتكبوا من جديد خطيئة مفكري القرن الثامن عشر وهي

✻ Outline of the rational system of society

✻✻ [sur une nouvelle conception de la nature humaine] بالفرنسية في النص الاصلي)] **المنتج** (، المجلد الاول ، المدخل ، باريس ١٨٢٥

✻✻✻ غرضي ان أعطي **عرضا اساسيا** واضحا وسهل الادراك عن التنظيم الاجتماعي المستخلص من قبل فوريه من قوانين الطبيعة الانسانية ف كونسيدران **المصير الاجتماعي** ، المجلد الاول ، الطبعة الثالثة ، بيان) « لقد حان الاوان أخيرا من أجل الاتفاق على هذه النقطة أمن المناسب قبل صنع القوانين ، الاستقصاء عن طبيعة الانسان الحقيقية من أجل تنسيق القانون ، الذي هو قابل للتعديل بحد ذاته ، مع الطبيعة التي هي ثابتة وسائدة ؟ **افكار اساسية عن العلم الاجتماعي لفوريه ، بقلم مؤلف الدفاع عن مذهب فوريه** ، هنري غوربس ، باريس ١٨٤٤ ، ص ٣٥) [الشاهدان بالفرنسية في النص الاصلي]

✻✻✻✻ **المنتج** ، المجلد الاول ، ص ١٣٩

الخطيئة التي وقع فيها على أي حال كل العلم الاجتماعي في زمانهم * بيد اننا نجد عندهم جهدا واضحا جدا من أجل التخلص من مستنقعات المفهوم المجرد والاستناد الى ارض الواقع الحسي

وان اعمال سان سيمون لتتميز بصورة خاصة في هذا المضمار فبينما كان الفلاسفة يعتبرون على الاغلب التاريخ كسلسلة من الاحتمالات المرتبة بشيء أكثر أو أقل من التوفيق** فان سان سيمون يفتش فيه عن **القوانين** قبل كل شيء وفي اعتقاده ان علم المجتمعات البشرية يستطيع ويجب ان يصبح علما دقيقا مثل علوم الطبيعة وانه لمن الواجب دراسة تاريخ البشرية كي نكتشف فيه قوانين تقدمه ولا نستطيع ان نتنبأ **بالمستقبل** الا ذلك الذي فهم **الماضي** واما حدد رسالة العلم الاجتماعي على هذا الغرار فان سان سيمون قد انصرف بصورة خصوصية الى تاريخ أوروبا الغربية منذ سقوط الامبراطورية الرومانية واننا نستطيع الحكم على جدة ارائه وسعتها من حقيقة ان اوغستان تييري تلميذه قد ثور على وجه التقريب دراسة تاريخ فرنسا ولقد كان سان سيمون يؤكد ان غيزو أيضا استعار تصوراته.

---

* لقد سبق لنا برهنا على ذلك بالنسبة الى مؤرخي عصر عودةالملكية. وانه ليكون من السهل جدا توسع البرهان بحيث يشمل الاقتصاديين فاذا هم دافعوا عن النظام الاجتماعي البورجوازي ضد الرجعيين والاشتراكيين فانما ذلك بالضبط من حيث هو نظام أكثر مطابقة للطبيعة الانسانية وان جهودهم من أجل اكتشاف قانون مجرد لمبدأ السكان ـ سواء صدرت عن المعسكر الاشتراكي أو عن المعسكر البورجوازي ـ ترتبط بصورة وثيقة بتصور طبيعة انسانية هي اساس العلم الاجتماعي نقتنع بذلك يكفي نقارن مذهب مالتوس في هذا الشأن مع مذهب غودوين او مذهب مؤلف **ملاحظات عن ستيوارت ميل** ان مالتوس وخصومه على حد سواء يفتشون عن قانون وحيد، ومطلق اذا جاز **التعبير**، عن السكان اما اليوم فان **الاقتصاد** السياسي يطرح المشكلةبصورة مغايرة انه يعرف كل طور من اطوار التطور الاجتماعي يملك قانونه الخاص عن السكان ولسوف نعود الى هذا الموضوع في وقت لاحق

** ان اللوم الذي يوجهه هيلفيتيوس الى مونتسكيو لذو مغزى كبير في هذا الشأن « ان مونتسكيو في كتابه **اسباب عظمة الرومان وانحطاطهم** لم يعرف بما فيه الكفاية المصادفات السعيدة التي خدمت روما قد وقع في الخطأ المشترك جدا بين المفكرين الذين يريدون ان يفسروا كل شيء؛ وكذلك في عيب طلاب العلم المتوحدين الذين ينسون طبيعة البشر وينسبون الى جميع الهيئات دونما تردد آراء ثابتة ومبادىء منتظمة ومع ذلك فان رجلا واحدا هو الذي يوجه في أغلب الاحيان على هواه تلك الجماعات الهامة التي تسمى مجالس الشيوخ **افكار وتأملات**، الفقرة المائة والاربعون في المجلد الثالث من المؤلفات الكاملة لهيلفيتيوس، بباريس ١٨١٨ الا يذكرنا ذلك بالنظرية الشائعة في روسيا في الوقت الحاضر عن الابطال » و الجمهور (١٢) ؟ ان ما سوف يلي سيبين اكثر من مرة ضآلة الاصالة في « علم الاجتماع » الروسي

ولنسجل هنا دون زعم من جانبنا بحل هذه القضية المتعلقة بالابوة المذهبية ، **ان** سان سيمون دفع تحليل النوابض الباهنة لتطور المجتمعات الاوروبية ابعد مما **فعل المؤرخون المحترفون** في زمانه فاذا كان اوغستان تييري ومينييه وغيزو يجعلون **من** حالة الاملاك أساس النظام الاجتماعي ، فان سان سيمون الـذي كان سباقـا **الى** تسليط الانوار بقوة على تاريخ الملكية في أوروبا الحديثة ، قد حقق خطوة اخرى **الى** الامـام حين تساءل عن السبب في ان هذا العامل على وجه الدقـة هو الـذي يلعب الدور الاساسي وفي رأسه انـه يجب البحث عن الجـواب عن ذلـك في **ضرورات تطور الصناعة**

لقد كانت السلطات الزمنية قبل القرن الخامس عشر متمركزة بين ايدي النبلاء ، وكان هذا الترتيب نافعا لان النبلاء كانوا في ذلك الحين الصناعيين الاكفأ كانـوا هم الذين يوجهون اعمال الزراعة ، وكانت هذه الاعمال في ذلك الحين المشـاغل الصناعيـة الوحيدة التي تملك اهمية كبرى*

واما السؤال عن السبب في ان ضرورات تطور الصناعة تمارس مثل هذا التأثير لرئيسي في تاريخ الجنس البشري ، فانه يجيب عنـه كمـا يلي **لأن الغرض مـن التنظيم الاجتماعي هو الانتاج** وانه لينسب الى هذا الانتاج اهمية عظمى بحيث يوحد بين **النافع والانتاجي** (**ان النافع هو الانتـاج**) معلنـا بصـورة حازمـة **ان السياسة هي علم الانتاج**

ولقد كان يجب على هذه الآراء ، منطقيا ، ان تقوده الى فكرة ان قوانين الانتاج هي بالذات تلك القوانين التي تحدد في آخر تحليل التطور الاجتماعي والتي تفرض دراستها نفسها على المفكر المعني بالتكهن بالمستقبل وانه ليبدو في بعض الاحيان قريبا جدا من هذه الفكرة ، لكن في بعض الاحيان فقط ، وهو لايفعل الا مقاربتها فحسـب

ان الانتاج يتطلب أدوات عمل ، وليست الطبيعة هي التي توفرها جاهزة ، **بل** الانسان يخترعها وان الاختراع بل مجرد استخدام أية أداة ، يفترض عند المنتج درجة معينة من التطور الذهني وهكذا فان تقدم الصناعة يمثل من حيث هـو العاقبة المباشرة لتطور الانسانية الذهني. وانه ليبدو هنا أيضا ان الرأي ، **الانوار****، تتحكم بالعالم دونما شريك وبقدر ما ينكشف الدور الرئيسي الذي تلعبه الصناعـة يبدو ان نظرية الفلاسفة تزداد ثبوتا وان سان سيمون يتمسك بها بحزم أعظم مما فعل مفكرو القرن السابق نظرا لانه لايجد حاجة الى التفكير في تأثير البيئة بعدما اعتبر مسألة اصل الافكار في الاحساسات محلولة ان تطور المعارف يشكل عنده العنصر

---

* **الآراء الادبية والفلسفية والصناعية** ، باريس ١٨٢٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ . انظر أيضا كتاب **التعليم المسيحي للصناعيين**

** [Lumiéres ، بالفرنسية في النص الاصلي]

الاساسي للتقدم التاريخي* وهو يسعى الى الكشف عن قوانينه . فيقرر الحالات الثلاث ـ **اللاهوتية والميتافيزيائية والوضعية** ـ الذي سيقدمه اوغست كونت في وقت لاحق بكل نجاح ، على انه اكتشافه الخاص** بيد ان هذه القوانين تفسر اخيراً لديه أيضا **بخصائص الطبيعة الانسانية**
انه يقول

لما كان المجتمع يتألف من أفراد ، فانتطور المجتمع الذهني لايمكن الا ان ينسخ ، على نطاق اوسع ، تطور الفرد الذهني

وبما أنه انطلق من هذا المبدأ كان كلما صادفه النجاح في العثور في تطور الفرد على بعض الشبه الموفق الذي يؤيد فرضيته جعل يعتبر قوانينه الخاصة بالتطور الاجتماعي وقد تم ايضاحها واثباتها بصورة نهائية ومثال ذلك انه يؤكد ان دور السلطة في الحياة الاجتماعية سوف يؤول مع الزمن **الى العدم** *** وان التناقض التدريجي والمتواصل لهذا الدور يشكل احد قوانين التطور البشري ولكن كيف يبرهن على ذلك ؟ ان حجته الرئيسية تستقيم في الاشارة الى تطور الانسان الفردي ففي المدرسة الابتدائية لابد للطفل ان يطيع دونما تحفظ الاشخاص الكبار اما في التعليم الثانوي والتعليم العالي فان عنصر **الطاعة** ينتقل شيئا فشيئا الى

---

* يدفع سان سيمون بالتصور المثالي للتاريخ حتى درجته القصوى فليست **الافكار** عنده **الاساس الاول للمجتمعات** فحسب ، بل ان الدور الاساسي ينسب ، من بين جميع الافكار العلمية الى نظام العالم العلمي الذي تنجم عنه الافكار الدينية التي تحدد بدورها **المفاهيم الاخلاقية**. تلك هي **الذهنية التي** كانت سائدة وقتذاك لدى الفلاسفة الالمان ، سوى انها كانت ترتدي عندهم مظهرا مختلفا كل الاختلاف.

** لقد احتج ليتريه بعنف عندما كشف هوبار عن هذه الاستعارة فعند ليتريه سان سيمون لم يضع الا قانون الحالتين ، اللاهوتية والعلمية ؛ وينضم فلنت الى رأي ليتريه انه على حق حين يقول ان قانون الحالات الثلاث لايرد ذكره في أي من مؤلفات سان سيمون **تاريخ الفلسفة في فرنسا والمانيا** ، ادنبره ولندرا ، ١٨٧٤ ص ١٥٨ واننا لنجابه هذه الملاحظة بالفقرة التالية من سان سيمون اين هو الفلكي او الفيزيائي أو الكيميائي أو عالم الفريزة الذي لايعرف الفكر البشري استخدم الميتافيزياء طويلا قبل ينتقل في كل فرع ، من الافكار اللاهوتية الخالصة الى الافكار الوضعية ؟ اليس كل من فكر في مسيرة العلوم مقتنعا بأن هذه الحالة المتوسطة كانت مفيدة ، **بل لا** غنى عنها على الاطلاق ، من اجل تحقيق الانتقال ؟ **في النظام الصناعي** ، باريس ١٨٢١ **المقدمة** ، ص ز ـ ح) ولقد كان قانون الحالات الثلاث في نظر سان سيمون ذا اهمية عظمى بحيث كان يستخدمه عن طيبة خاطر كيما يفسر ظواهر اساسية خالصة ، مثال ذلك حكم الفقهاء والميتافيزيائيين في ظل الثورة الفرنسية وما كان فلنت يلاقي عناء كبيرا في اكتشاف » ذلك لو انه قرأ بعناية **مؤلفات هذا الكاتب** ومن سوء الحظ انه من **الايسر جدا كتابة تاريخ واسع الاطلاع عن الافكار من دراسة مسيرتها الفعلية**

*** لسوف يستعير برودون منه هذه الفكرة ويشوهها كي يبني عليها نظريته عن الفوضى .

المؤخرة ، مفسحا المكان بصورة نهائيـة امام النشاط **المستقل** عنـد الرجـل البالغ ومهما نكن الراي الذي يشكله المرء عن « السلطة » ، فان الجميع متفقون اليوم عـلى ان المقارنة هنا ، كما هي في كل مكان آخر ،لاتشكل برهانا.ان التطور المضغي لكل **فرد** (Togenese) يبدي وجوها عديدة من الشبه مع تاريخ **النـوع** الذي ينتسب هذا الفرد له ، بحيث يقـدم **علم تطور الكائن** عددا كبيرا مـن الدلائل الهامـة عـلى عـلم **تكـون الانسال** (Phylogenese) لكن ما عسانا نقول اليوم عن عالم الحياة الذي يسعى الى التأكيد بأنه يجب علينا ان نفتش في علم تكون الفرد عن التفسير الاولي لعلم تكون الانسال ؟ ان علم الحياة الحديث يعمل في الاتجاه المضاد تماما ، فهو يفسر التطور المضغي **للفرد** بواسـطة تاريخ **النوع**

ان اللجوء الى الطبيعة الانسانية قد اضفى طابعا خصوصيا جـدا عـلى مجموع قوانين التطور » الاجتماعي التي صاغها سان سيمون نفسه وتلامذته على حد سواء.

لقد وقعوا في حلقة مفرغة « **ان تاريخ الجنس البشري يفسر بالطبيعة الانسانية**. وكيف نعرف الطبيعة الانسانية ؟ **بواسطة التاريخ** » . وانه لمن المفروغ منه اننـا لـن نتوصل قط ، ونحن ندور في هذه الحلقة ، لان نفهم أيا من طبيعة الانسان أو تاريخه كل ما يمكننا ان نحققه هو اصدار بعض الملاحظات الاكثر أو الأقل عمقا ، هنا وهناك ، المتعلقة بهذا المجال أو ذاك من الواقع الاجتماعي ولقد قدم سان سيمون عددا من هذه الملاحظات ــ الدقيقة والعبقرية حقا في بعض الاحيان ــ لكن دون ان يبلغ هدفه الذي هو اعطاء السياسة أساسا علميا متينا

انـه يقـول

« ان القانون الاسمى لتقدم العقل البشري يجرف جميع الامور ويتحكم فيها ، وليس البشر بالنسبة اليه الا ادوات وبالرغم من ان هذه القوة [يعني هذا القانون] تنبع منا ، فليس في مقدورنا مع ذلك ان نتحرر من نفوذها أو نسيطر على فعلها أكثر مما نستطيع ان نغير على هوانا الاندفاعة البدائية التي تجعل كرتنا الارضية تدور حول الشمس ان كل ما نستطيعه هو الخضوع لهذا القانون عنايتنا الالهية الحقيقية) بوعي تام مدركين المسيرة التي يرسمها لنا ، بدلا من ان يدفعنا بصورة عمياء ولنشر بصورة عابرة الى ان الخطوة العظمى الى الامام التي سوف يحققها الفكر الفلسفي لعصرنا سوف تستقيم عـلى وجه الدقة في هذا الامر*

وهكذا فان الانسانية تخضع كليا لقانون تطورها الذهني الخاص وتكون عاجزة عن الافلات من فعل هذا القانون حتى اذا كانت راغبة في ذلك لندرس هذه الموضوعة بمزيد من الدقة ولنأخذ طلبا للمزيد من الوضوح قانون الحالات الثلاث ان الانسانية

---

* L'organisateur ١١٩ من المجلد الرابع من مؤلفات سان سيمون المجلد العشرون من المؤلفات الكاملة لسان سيمون وانفانتان

تنتقل من الفكر اللاهوتي الى الفكر الميتافيزيائي ومن الفكر الميتافيزيائي الى الفكر الوضعي وهذا القانون جازم مثل قوانين الميكانيك

ولعل الامر كذلك حقا ، لكن رب من سأل كيف السبيل الى فهم ان الانسانية، **حتى اذا كانت راغبة في ذلك ،** لاتستطيع ان تعدل فعل هـذا القانون ؛ أيمكن انها ما كانت تستطيع ان تتجنب المرحلة الميتافيزيائية حتى لو انها وعت منذ نهاية المرحلة اللاهوتية تفوق الفكر الوضعي ؟ كلا بالتأكيد وبالتالي فان هناك بما لا يقل من التأكيد بعض الالتباس في فكرة سان سيمون عن القوانين التي تتحكم في التطور الذهني

فيم ستقيم الالتباس ؟ وما منشاه ؟

انه ستقيم في **معارضة القانون للرغبة في تعديل فعله .** فحالما تتظاهر مثل هذه الرغبة تشكل بحد ذاتها واقعا تاريخيا لتطور الانسانية الذهني ولا بد للقانون من احتواء هذا الواقع بدلا من الدخول في نزاع معه وما دمنا نقبل بامكانية مثل هذا النزاع فلا بد ان يظل الغموض محيطا بفكرة هذا القانون بالذات ولا بد لنا من الوقوع بصورة حتمية في احد هذين الضدين فاما ان نتخلى عن مبدأ الضروري كي ننطلق من مبدأ **المرغوب فيه** ، واما ان يغيب المرغوب فيه عن بصرنا ـ وبصورة ادق **المرغوب** من قبل البسر فيعصر معين ـ كي نضفي على **القانون** نوعا من الهالةالصوفية، كي نحوله الى نوع من القدر وان قدرا من هذا النمط هو بالفعل ما يؤول اليه القانون » عند سان سيمون وعند الطوباويين بصورة عامة كلما ذكروه ولنلاحظ بصورة عابرة ان « العلماء الاجتماعيين الذاتيين عندنا ينطلقون في حرب ضد النظرية **الطوباوية** عن مجرى الامور الطبيعي وهي نظرية غامضة ، بدائية ، وبالتالي واهنة وذلك عندما يرفعون درعهم للدفاع عن « الشخص الانساني عن المثل الأعلى ، وعن اشياء اخرى هي موضع التبجيل انه ليقال انهم لم سمعوا قط شيئا عن **الفكرة الحديثة للقانون العلمي الخاص بالتطور التاريخي والاجتماعي .**

ما هو منشأ الغموض الذي يتناول الفكرة الطوباوية عن القانون ؟ انه ينشأ عن العيب الاصلي الذي سجلناه من قبل في تصور الطوباويين لتطور الانسانية (وقد رأينا انهم لم يكونوا الوحيدين في هذا المضمار ان الطبيعة الانسانية هي الي تفسر التاريخ البشري واذا ما اعطيت تلك الطبيعة مرة ، فان قوانين التطور التاريخي سوف تكون معطاة هي الاخرى ؛ ان التاريخ برمته سوف يكون معطى an sich كما كان هيغل يقول ولن يكون في مقدور الانسان ان يتدخل في مجرى تطوره الخاص ، اكثر مما في مقدوره ان يكف عن كونه انسانا **ان قانون** التطور يظهر في ملامح عناية آلهية

تلك قدرية تاريخية ، عاقبة للنظرية التي تعتبر تقدم المعرفة ـ وبالتالي الفعالية الانسانية الواعية ـ النابض الاساسي للصيرورة التاريخية .

ولنواصل ...

اذا كانت دراسة الطبيعة الانسانية هي التي تتيح فهم التاريخ ، **فان دراسة معطيات التاريخ الفعلية تهمني اقل مما يهمني فهم تلك الطبيعة فحالما** احصل على فكرة صحيحة عن الطبيعة المذكورة افقد على وجه التقريب كل اهتمام بالواقع التاريخي **كما هو عليه** واركز كل انتباهي على الواقع الاجتماعي **كما يجب ان يكون وفقا للطبيعة الانسانية** ان القدرية التاريخية ، وهي ابعد ما تكون عن معارضة اتخاذ موقف طوباوي بالنسبة الى الواقع في الممارسة، تشجع على مثل هذا الموقف بفصمها حبل البحث العلمي. **ان القدرية عموما تسير في اغلب الاحيان جنبا الى جنب مع الذاتية الاشد تطرفا.** ان القدرية تنصب في كل حين هالتها الذهنية الخاصة قانونا محتماً للتاريخ ويمكننا ان نقول عنها **مايقول الشاعر**

Was sie den Geist der Geschichte nennen
Ist nur der herren eigner Geist.*

ان انصار سان سيمون **يؤكدون ان حصة المنتج الاجتماعي التي تعود الى مستثمري عمل الغير عرضة لنقص مستمر** وكيما يبرهنوا على هذا النقص الذي يلوح في نظرهم القانون الاهم لتطور الانسانية الاقتصادي يشيرون الى الانخفاض التدريجي **في معدل الفائدة** والريع العقاري ولو انهم تمسكوا هنا بطرق البحث العلمي الدقيق لوجب عليهم ان يسعوا الى اكتشاف الاسباب الاقتصادية لتلك الظاهرة وكان لابد لهم لهذه الغاية ان يدرسوا بكل عناية انتاج المنتجات وتكاثرها وتوزيعها وعندئذ فقد كان في مقدورهم ان يتحققوا من ان انخفاض معدل الفائدة ، بل معدل الريع العقاري اذا كان حادثاً بالفعل لاثبت مطلقا ان حصة المالكين تتناقص **وعندئذ لابد بكل تأكيد ان يصاغ « قانونهم » الاقتصادي بطريقة مختلفة** كل الاختلاف بيد انهم لم يكونوا معنيين بهذه الطريقة فاما كانوا مقتنعين بجبروت القوانين السرية الناجمة عن الطبيعة الانسانية ، فقد كانوا يوجهون ابحاثهم في اتجاه مغاير كليا **ولقد كانوا يقولون ان الاتجاه الذي ساد حتى الوقت الحاضر في التاريخ** لايمكن الا ان يشتد **في المستقبل ؛ ان النقص المستمر في حصة المستثمرين** سوف يؤول بالضرورة الى زوال هذه الحصة كليا ، يعني الى زوال طبقة المستثمرين بالذات. وانه لمن واجبنا في انتظار ذلك ان نبتكر منذ الآن اشكالا جديدة للنظام الاجتماعي حيث لا مكان لها ووفقا للخصائص الاخرى للطبيعة الانسانية يتبين ان هذه الاشكال يجب ان تكون كذا وكذا وسرعان ما يرسم مخطط اعادة تنظيم المجتمع ان الفكرة البالغة الاهمية من وجهة النظر العلمية بأن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين لا تولد في آخر المطاف الا وصفتين أو ثلاث وصفات طوباوية

ولقد كان الطوباويون في ذلك الحين يعتبرون مثل هذه الوصفات مهمة المفكر الاولية ان مبادىء الاقتصاد السياسي ليست بحد ذاتها هامة على الاطلاق وهي

---

* [ان مايسمونه روح التاريخ لايعدو كونه فكر هؤلاء السادة انفسهم غوته **فاوست** ، القسم الاول] .

لاتكتسب اهمية الا بالنظر الى النتائج العملية المستخرجة منها ان جان‌باتيست‌سي يناقش ريكاردو بشأن مايحدد **القيمة التبادلية** للسلع ولعل تلك المسألة خطيرة من وجهة نظر الاخصائيين ، بيد انه يهمنا اكثر من ذلك ان نعرف ما يجب ان يحدد تلك القيمة ؛ ومن سوء الحظ ان الاخصائيين لا يفكرون في ذلك على الاطلاق فلنفعل ذلك نحن اذن من اجلهم ان الطبيعة الانسانية تقول لنا بكل وضوح هذا الشيء أو ذاك.
ونحن لا نكاد نصيخ بسمعنا الى صوتها حتى نفاجأ بالتحقق من ان تلك المساجلة البالغة الاهمية في نظر الاخصائيين ، ليست في حقيقة الامر هامة على الاطلاق انه لفي الامكان ان نؤيد جان باتيست‌سي طالما ان النتائج المترتبة على موضوعاته تتفق كليا مع متطلبات الطبيعة الانسانية ويمكننا كذلك ان نؤيد ريكاردو طالما ان نظريته، اذا هي فسرت واكملت بصورة مناسبة ، لاتفعل الا دعم تلك المتطلبات وعلى هـذا الغرار فان الفكر الطوباوي يتدخل بصورة طائشة في مناقشات علمية يظل مغزاهـا غامضا عليه وان رجالا مثقفين منحتهم الطبيعة مواهب عظيمة ، انفانتان على سبيل المثال قد حسموا على هذا الغرار المسائل المتنازع عليهـا في الاقتصـاد السياسي في عصرهم

لقد كتب انفانتان عددا من اعمال الاقتصاد السياسي التي لايمكننا اعتبارهـا اسهامات جدية في العلم ، ومع ذلك لايمكننا ان نتظاهر بتجاهلها ، كمـا فعـل حتى الوقت الراهن مؤرخو الاقتصاد السياسي والاشتراكية ان دراسـات انفانتـان الاقتصادية تملك اهميتها من حيث هي مرحلة في تطور الفكر الاشتراكي واليكم على اي حال مثالا يبين جيدا موقف مؤلفها من مساجلات الاقتصاديين

من المعروف ان مالتوس عارض بشدة ـ وبصورة فاشلة على اي حال ـ نظرية الريع عند ريكاردو ويرى انفانتان ان الحقيقة كانت في واقع الامر الى جانب مالتوس. لكنه لايعارض من جراء ذلك نظريـة ريكاردو ، معتبرا انـه لاجـدوى من ذلـك ففي رأيه ان

« جميع المناقشات عن طبيعة الريع وعن الارتفاع او الانخفاض الفعليين والنسبيين في الحصة المنتزعة من الشغيلة لحساب الملاك يجب ان تعود الى هذا السؤال الوحيد ماهي طبيعة العلاقات التي يجب ان تقوم ، للمصلحة الاجتماعية بين المنتج المنسحب [هكذا يسمي انفانتان الملاكين العقاريين] والمنتج الفعال [المزارع] ؟ عندما تصبح هذه العلاقات معروفة ، فانه سيكون كافيا ان يعنى بالوسائل اللازمة من أجل التوسل الى اقامتها ، مع اخذ حالة المجتمع الراهنة بعين الاعتبار ، لكن أي سؤال آخر [غير الذي طرح اعلاه] سوف يكون ثانويا ولن يفيـد الا في اعاقـة الترتيبـات التي يجب تسـهل تطبيـق تلـك الوسائل*

* « considerations sur les progrès du loyer des objets mobiliers et immobiliers Le producteur, المجلد الاول ص ٥٦٤

[اعتبارات عن الانخفاض التدريجي لايجار الاشياء المنقولة وغير المنقولة] **المنتج** ، المجلد الاول ص ٥٦٤.

ان المهمة الرئيسية للاقتصاد السياسي (التي كان انفانتان يفضل ان يسميها التاريخ الفلسفي للصناعة ») تستقيم في تحديد علاقات المقولات المختلفة من المنتجين ببعضها بعضا وفي الوقت نفسه علاقة طبقة المنتجين بمجموعها بطبقات المجتمع الاخرى وانه لمن الواجب ان يقوم هذا التحديد على اساس تاريخ طبقة الصناعيين ، ومثل هذه الدراسة يجب ان تنطلق من تصور جديد للنوع البشري يعني للطبيعة الانسانية*

ان دحض نظرية الريع عند ريكاردو يرتبط عند مالتوس بصورة وثيقة بدحض النظرية المعروفة جيدا (كما يقال حاليا) عن القيمة ــ العمل ودون ان يمضي انفانتان الى صميم النزاع يتعجل حسمه باضافة طوباوية (يقولون اليوم في روسيا تصحيحا الى نظرية الريع عند ريكاردو انه يقول

« اذا فهمنا هذه النظرية جيدا يبدو لنا من الضروري ان نضيف الى هذه النتيجة ان الشغيلة يدفعون في شكل الريع الى بعض الناس كي يرتاحوا وكي يتركوا تحت تصرفهم مواد الانتاج

ن انفانتان يقصد من « الشغيلة » هنا خاصة ــ بل بصورة رئيسية ــ المزارعين المستثمرين .وان ما يقوله عن علاقاتهم بالملاكين العقاريين صحيح كلياً بيد ان تصحيحه لايفعل الا التعبير بمزيد من القسوة عن ظاهرة معروفة جيدا عند كاردو وفيما عدا ذلك فان هذه القسوة في الصياغة (نجد احيانا صيغا اقسى منها ايضا عند آدم سميث لاتحل مسألة القيمة ولا مسألة الريع بل تجعلهما تغيبان كليا عن نظر انفانتان وعلى أي حال فليس لهما وجود بالنسبة اليه ان الشيء الوحيد الذي يعنيه هو النظام الاجتماعي للمستقبل ؛ وان مايهمه هو ان يقنع القارىء بأن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج يجب **الا توجد** وانه ليقول ذلك بكل صراحة لولا المسائل العملية من هذا النوع فان جميع المناقشات العلمية عن القيمة لن تكون سوى مماحكات خالصة تلك هي باختصار **الطريقة الذاتية في** الاقتصاد السياسي

ان الطوباويين لم يوصوا بها صراحة في أي مكان اما انهم كانوا ميالين بشدة اليها فهذا مانراه على الأخص في تهمة **الموضوعية** المفرطة التي يوجهها انفانتان الى مالتوس انه ليبدو ان الموضوعية تشكل العيب الاساسي لهذا المؤلف وان من يعرف مؤلفات مالتوس يعرف معذلك ان الموضوعيةبالذات (التي تميز ريكاردو مثلا) هي التي اعوزت على الدوام مؤلف **دراسة في مبدأ السكان** واننا لنجهل ما اذا كان انفانتان قرأ هذه الدراسة (ان جميع الأمور تحمل على الاعتقاد بأنه لم يكن يعرف

---

* انظر بصورة خاصة مقالته المعنونة considerations sur les progrès de L'economie politique » [اعتبارات عن تقدم الاقتصاد السياسي] Le producteur المجلد الرابع .

نظريات ريكارو مثلا الا بفضل الشواهد التي استخدمها الاقتصاديون الفرنسيون) ، لكنه حتى لو قراه لما عرف قط ان يقدره حق قدره ولا ان يبين ان الحقائق هي ضد مالتوس ان انفانتان ، المنهمك في الاعتبارات عما يجب ان يكون ، لايملك الوقت ولا الرغبة في إعمال الفكر جديا فيما هو كائن ولقد كان يعلن بكل طيبة خاطر لأول جاسوس يصادفه انك على حق ؛ فالأمور تجري في المجتمع المعاصر بالضبط كما تصفها بيد انك تبالغ في **الموضوعية** ؛ انظر الى الامور من زاوية النظر الانسانية وسوف ترى ان مجتمعنا يجب ان يعاد بناؤه من جديد

ان الطوباوي ، المجبر من جراء كونه مجرد هاو على أن يقدم تنازلات نظرية لكل مدافع اكثر أو أقل علما عن النظام البورجوازي كيما يهدىء من الشعور بعجزه ، يبحث عن العزاء باتهام خصومه بالموضوعية ليكن ، فانتم تملكون مزيدا من المعرفة، اما انا فاملك المزيد من العاطفة. انه لايدحض المرافعات العلمية التي تؤيد البورجوازية، وانما يضيف اليها بكل بساطة « ملاحظات و تصحيحات

ان موقفا على هذا القدر من الطوباوية حيال العلوم الاجتماعية يقفز الى النظر في كل صفحة بالنسبة الى كل من يقرأ بانتباه مؤلفات علماء الاجتماع « الذاتيين » ، وهو ما سوف نعود اليه كثيرا اما الآن فلنكتف بمثالين بارزين

في عام ١٨٧١ نشرت اطروحة الراحل نقولاس سيبير **نظرية القيمة والرأسمال عند ريكاردو في ضوء الاضافات والايضاحات اللاحقة** ، التي تأتي مقدمتها في شيء من التسامح ، لكن دونما اصرار ، على ذكر المقالة التي نشرها يولي جوكوفسكي في مجلة **سوفريمينيك** (١٣) في عام ١٨٦٤ مدرسة آدم سميث والمذهب الوضعي في العلوم الاقتصادية ان هذه الاشارة العابرة توحي الى السيد ميخائيلوفسكي بالاسطر التالية

« يسرني ان اذكر بأنني ، في مقالتي « في النشاط الادبي ليولي جوكوفسكي » ، اعرفت جيدا بفضائل اقتصادينا، مؤكدا على انه نادى منذ زمن طويل بضرورة العودة الى مصادر الاقتصاد السياسي التي نجد فيها جميع العناصر اللازمة من أجل حل عادل لمسائل هذا العلم الاساسية ، وهي عناصر افسدها كليا الاقتصاد السياسي الجامعي المعاصر لكنني اشرت كذلك في ذلك الحين الى ان شرف السبق بالنسبة الى هذه الفكرة ، التي تبين فيما بعد انها عظيمة الخصوبة بين يدي كارل ماركس القويتين ، يعود في روسيا ليس الى جوكوفسكي بل الى مؤلف آخر هو مؤلف « النشاط الاقتصادي والتشريع » (**سوفريمينيك** ١٨٥٩) ، و « رأس المال والعمل ١٨٦٠) ، **وملاحظات عن ستوارت ميل** (١٤) ، الخ وفيما عدا الترتيب الزمني ، فان الفارق بين هذا المؤلف والسيد جوكوفسكي يتبين بكل وضوح في الحقيقة التالية اذا كان السيد جوكوفسكي يبرهن مثلا بطريقة مفصلة وعلمية صارمة ، بل بشيء من الحذلقة ، ان العمل يشكل مقياس القيمة وان كل قيمة هي نتاج العمل ، فان كاتب هذه المقالات يصر بالاحرى ، دون ان يغيب عن ناظريه المظهر النظري

للعضيه على النيجة العمية الي تترتب عليها منطقيا كل قيمة نظرا لانها منتجة من قبل العمل وقابلة للقياس به ، يجب ان تخص العمل*

لا حاجة لأن يكون المرء متعمقا جدا في الاقتصاد السياسي كي يعرف ان مؤلف **ملاحظات عن ستوارت ميل** لم يفهم شيئا من نظرية القيمة التي شرحت بصورة لامعة في وقت لاحق « بين يدي كارل ماركس القويتين وان كل من يعرف تاريخ الاشتراكية يدرك لماذا « غاب المظهر النظري للقضية عن ناظري المؤلف المذكور بالرغم من جميع تأكيدات ميخائيلوفسكي ، بينما انساق المؤلف نفسه مع اعتبارات خاصة بالقواعد التي يجب ان تتحكم في مبادلة المنتجات في مجتمع جيد التنظيم لقد نظر مؤلف **ملاحظات عن ستوارت ميل** الىالاقتصاد السياسيمنوجهةنظر **الطوباوي،** وكان ذلك امرا طبيعيا جدا بالنسبة الى عصره لكن العجب انالسيد ميخائيلوفسكي لم ينجح في التخلص من وجهة النظر هذه بعد عام ١٨٧٠ (ولا بعد عام ١٨٨٠) ؛ والا كان قد صحح خطأه في الطبعة الجديدة لمؤلفاته ، في حين ان مؤلفات التبسيط نفسها كانت تمكن المرء من ان يتخذ دونما عناء نظرة ادق عن الامور. ان السيد ميخائيلوفسكي لم يفهم قط ما قاله « مؤلف **ملاحظات عن ستوارت ميل** عن القيمة ، والسبب في ذلك انه هو الآخر قد **« غاب عن ناظريه المظهر النظري للقضية » فانساق مع النتيجة العملية التي تترتب عليها منطقيا** ، يعني مع اعتبارات عن حقيقة ان « كل قيمة يجب ان تخص العمل ولقد سبق لنا فرأينا ان حب النتائج العملية اساء على الدوام الى محاكمات الطوباويين النظرية وان تلك النتائجالتيضللت السيد ميخائيلوفسكي ليست جديدة **ان الطوباويين الانكليز لعام ١٨٢٠** قد سبق فاستخلصوها من نظرية القيمة عند ريكاردو لكن السيد ميخائيلوفسكي ، بصفته طوباويا ، لا يهتم بتاريخ الطوباويات

وهذا مثال آخر في عام ١٨٨٢ قدم السيد « ف. ف. كما يلي كتابه **مصير الرأسمالية في روسيا**

تتألف هذه المجموعة من مقالات نشرت من قبل في مجلات مختلفة ولقد اقتصرنا ، كي نجعل منها مؤلفا ، على اعطائها وحدة خارجية ، على تغيير ترتيبها نوعا ما وعلى حذف التكرارات [ليس جميع التكرارات ، فما ابعد ذلك ، اذ لا يزال هناك الكثير منها ـ ج.ب] بيد ان المضمون ظل هو نفسه ؛ ان المرء لن يجد فيه الا الشيء القليل من الحقائق والحجج الجديدة واذا كنا قد عزمنا مع ذلك على ان نقدم مرة اخرى هذه الدراسات امام الجمهور ، فذلك لغرض وحيد ، الا وهو اجبار الانتليجنتزيا ، بفعل الهجوم على تصورها للعالم بكل الاسلحة التي تحت تصرفنا ، على ان توجه انتباهها الى المسألة

---

* مؤلفات ميخائيلوفسكي ، المجلد الثاني الطبعة الثانية ، سان بطرسبورغ ، ١٨٨٨ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .

المطروحة [موضوع اللوحة ان السيد «ف.ف.» يطلق **بكل الاسلحة التيتحت تصرفه »** ليشن الهجوم على تصور العالم عند قرائه وان الانتليجنتزيا مخلوعة القلب تستسلم شروط ، وتوجه انباهها الخ **ج.ب.**] وكذلك حث دعاتنا العلماء والمحلفين المدافعين عن الرأسمالية والشعبية على دراسة قانون التطور الاقتصادي لروسيا الذي هو اساس جميع ظاهرات الحياة في البلاد وبدون معرفة هذا القانون يكون كل نشاط عام منهجي وفعال مستحيلا ، في حين ان الصورة التي تسود بيننا عن مسقبل روسيا المباشر لايمكن تسمى قانونا الا بكل صعوبة [ايمكن **لصورة** ان تسمى قانونا ؟ ــ **ج.ب.**] ولا يمكن الا بكل صعوبة ان تسهم في توفير اساس متين من أجل تصور علمي عن العالم المقدمة ، ص

وفي عام ١٨٩٣ وقد وجد الوقت كي يتحول الى داعية « محلف » ــ وان لم يكن عالما في حال من الاحوال ــ للمذهب الشعبي فان السيد « ف.ف. هذا نفسه يجد نفسه بعيدا جدا عن التفكير في ان قانون التطور الاقتصادي يشكل اساس جميع تظاهرات الحياة في البلاد انه يوجه حاليا « جميع أسلحته ضد تصور العالم عند انصار هذا الراي ويرى اليوم ان العملية التاريخية في الراي المذكور بدلا ان تكون من صنع الانسان تتحول الى قوة مولدة ويتحول الانسان الى اداتها الطيعة✻ وانه ليرى في الوقت الحاضر ان الانظمة الاجتماعية هي من صنع حياة الانسان الروحية✻✻ ويعتبر ان الفكرة القائلة ان الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين فكرة مشكوك بها جدا ويعارضها بفلسفة التاريخ العلمية لأستاذ التاريخ نقولاس كاربيف ايها الوثنيون اصغوا وانحنوا ان السيد الاستاذ يتحدث اليكم بصوتي✻✻✻ (١٥)

يا له من انقلاب عجيب لكن ما الذي احدثه ؟ هذا بكل بساطة ان السيد ف.ف. حين كان يبحث في عام ١٨٨٢ عن **قانون** التطور الاقتصادي لروسيا » قد كان بصوره مجرد انعكاس علمي **لمثله الأعلى** الخاص بل لقد كان على يقين من انه وجد قانون عدم قابلية الحياة عند الرأسمالية بيد انه لم يعش عبثاً السنوات الاحدى عشرة التالية ولم يكن له بد من الأعتراف على الاقل بصورة ضمنية ، بأن هذه الرأسمالية غير القابلة للحياة لا تكف عن النمو ولقد جرت الامور بحيث اصبح تطور الراسمالية ، على وجه التقريب قانون التطور الاقتصادي لروسيا » الاكثر ثباتا عندئذ أسرع السيد « ف.ف. » يقلب « فلسفة التاريخ » الخاصة به ؛ فهو الذي كان قد بحث عن قانون جعل الآن يروي ان مثل هذا البحث ليس سوى مضيعة للوقت لا جدوى منها ان الطوباوي الروسي يحب كثيرا

✻ **تياراتنا** ، سان بطرسبورغ ، ١٨٩٣ ، ص ١٣٨

✻✻ المصدر نفسه ، ص ٩ ، ١٣ ١٤٠ ، الخ ، الخ

✻✻✻ المصدر نفسه ، ص ١١٤ وما يليها

ان يستنجد « بالقوانين لكنه ينكرها عاجلا مثلما انكر بطرس يسوع حالما تتعارض هذه « القوانين » مع « المثل الأعلى » الذي يترتب عليه التبشير به ضد جميع الأنواء.
ومهما يكن من أمر فان السيد « ف.ف. لم يتخاصم اليوم أيضا مع القوانين بصورة نهائية

« ان الاتجاه الطبيعي نحو تنهيج الافكار لا بد ان يقود الانتليجنتزيا الروسية الى اعداد مخطط مستقل لتطور العلاقات الاقتصادية بصورة تتطابق مع متطلبات تطور بلادنا وشروطه ومن المؤكد ان مثل هذا العمل سوف ينجز في مستقبل قريب جدا
(تياراتنا ، ص ١١٤

وحين تعد الانتليجنتزيا الروسية المخطط المستقل المذكور سوف تتكرس لنفس العملية التي تكرس لها السيد « ف.ف. في **مصير الرأسمالية** حين كان يبحث عن قانونه وحين يتم العثور على ذلك المخطط ـ وان السيد ف.ف. نقسم الايمان المغلظة على ان ذلك سوف تحقق في مستقبل قريبجدا ـ فان مؤلفنا سوف يتصالح مع فكرة القانون بمثل المهابة التي تصالح بها الأب مع الابن الساطر في المثل الانجيلي عجباً لهؤلاء الناس

ومن المفروغ منه ان السيد ف.ف. حين كان يبحث بعد عن قا لم يكن يدرك اذن بكل وضوح المعنى الذي يمكن ان يكون لهذه الكلمة عندما تطبق على الظواهر الاجتماعية لقد كان يتصور القانون على طريقة الطوباويين لعام ١٨٢٠. ولا يمكن الا بهذه الطريقة ان نفسر أمله في اكتشاف قانون صالح لتطور روسيا **وحدها** لكن لماذا ينسب الى الماركسيين الروس طرقه الخاصة في التفكير ؟ انه يخطىء اذا تصور ان فكرتهم عن قانون خاص بالظواهر الاجتماعية لاتمضي الى ابعد من فكرة الطوباويين ولكنه يتصور ذلك وهذا ماتشهد عليه جميع الاعتراضات التي يوجهها اليهم وعلى أي حال ، فانه ليس الوحيد الذي يفكر على هذا الغرار ان السيد « استاذ التاريخ كارييف يفكر هكذا هو الآخر ومثله جميع خصوم « الماركسية انهم يبداون بأن ينسبوا الى الماركسيين فكرة طوباوية عن قوانين الحياة كي يدحضوها فيما بعد بنجاح مشكوك فيه معركة حقيقية ضد طواحين هوائية

ولنقل كلمتين عابرتين عن استاذ التاريخ العالم اليكم كيف يوصي بتطبيق الذاتية على تاريخ الانسانية « اذا كنا نعنى في فلسفة التاريخ بمسألةالتقدم، فان هذه الحقيقة بالذات تملي علينا انتقاء مضمون المعرفة الأساسي وحقائقها وتجمعات هذه الحقائق لكن الحقائق لايمكن ابتداعها كما لايمكن تقديمها في علاقات متخيلة [وبالتالي فانه لايمكن ان يوجد محل للعفوية لا في الانتقاء ولا في التجميع وبنتيجة ذلك فان التجميع يجب ان نقابل الواقع الموضوعي بصورة دقيقة اسمعوا ما سوف يلي ... ـ ج.ب.] وسوف نظل عرض مسيرة التاريخ موضوعيا من

وجهة نظر معينة ، بمعنى أمانة العرض وصدقه بيد ان ذاتية من مرتبة أخرى تتدخل هنا ان الترتيب الخلاق يمكن ان يبني عالما مثاليا كاملا من القواعد ، عالما مما يجب ان يكون ، عالما من الحق والعدل يمكن ان يقارن به التاريخ الفعلي، يعني التصور الموضوعي لمسيرته ، المجمع بطريقة معينة من وجهة نظر التغيرات الاساسية الحادثة في حياة الانسانية وان تقدير العملية التاريخية يتم على اساس هذه المقارنة ، وهو تقدير لايمكن ان يكون هو الآخر اعتباطيا في حال من الاحوال يجب علينا ، حين نتخذ وجهة نظر معينة ونتخذ مقياسا معينا من أجل تقدير الحقائق ، ان نبين أن هذه الحقائق ، المجمعة كما هي معطاة لنا ، تملك بالفعل المغزى الذي ننسبه اليها

ان « المؤرخ الموسكوفي المحترم » الذي يتحدث عنه تششيدرين يقول متباهيا بموضوعيته سواء بالنسبة اليه أهزم أياروسلاف ايزياسلاف ، ام هزم ايزياسلاف أياروسلاف » ان مثل هذه الموضوعية غريبة عن السيد كاربيف الذي ابتدع « عالما مثاليا كاملا من القواعد ، عالما مما يجب ان يكون، عالما من الحق والعدل ولو انه مال على سبيل المثال الى أياروسلاف ، فمن المؤكد انه لن يسمح لنفسه بتقديم هزيمته على انها انتصار (« الحقائق لايمكن ابتداعها لكنه يحتفظ لنفسه بحق ذرف دمعة أو دمعتين على مصيره المحزن ، ولن يتردد في صب اللعنات على يزياسلاف الذي هزمه وانه لمن الصعب ان نسخر من مثل هذه « الذاتية بيد ان السيد كاربيف يخطىء حين يقدمها في هذا المظهر الذي لا لون له ، وبالتالي الذي لا ضرر منه ان تقديمها على هذا الغرار معناه عدم فهم طبيعتها الحقيقية معناه اغراقها في السفسطة العاطفية وحقيقة الامر ان الصفة المميزة للمفكرين « الذاتيين » تستقيم في ان « عالمهم مما يجب ان يكون عالمهم من الحق والعدل لايملك ادنى رابطة بمسيرة التاريخ الموضوعية فهناك من جهة واحدة « **مايجب ان يكون** ومن جهة ثانية « **ماهو كائن** » وتفصل هوة بين هذين المجالين نفس الهوة التي تفصل عند الثنائيين بين العالم المادي وعالم الروح (١٦) ان العلم الاجتماعي للقرن التاسع عشر قد اخذ على عاتقه في جملة المهمات الاخرى أن يلقي جسرا فوق هذه الهوة التي لا قرار لها فيما يبدو وما لم يشيد هذا الجسر فلا بد لنا ان نغمض عيوننا امام **ماهو كائن** ، مكرسين كل انتباهنا « **لما يجب ان يكون** (كما فعل انصار سان سيمون مثلا) ، ومن البدهي ان ذلك لايمكن الا ان يؤخر تحقيق **مايجب ان يكون** » طالما انه يجعل من الاصعب تشكيل فكرة مضبوطة عنه

ولقد رأينا من قبل ان مؤرخي عصر عودة الملكية كانوا يعتبرون ، على العكس من فلاسفة القرن الثامن عشر ، ان المؤسسات السياسية نتيجة للشروط المدنية في بلد معين ، وقد حظيت هذه الفكرة الجديدة وقتذاك بانتشار واسع ونالت تأييدا عظيما بحيث انتهى الناس في تطبيقها الى مبالغات مذهلة وغير معقولة تقريبا بالنسبة الينا في الوقت الحاضر . هكذا كان جان باتيست سيي يزعم ان رجل الاقتصاد يجب

الا يهتم بالمسائل السياسية طالما ان اقتصاد أي بلد يمكن ان يتطور في ظل انظمة سياسية على طرفي نقيض وهي نظرية يشير اليها سان سيمون مقرظا ، وان كان قد عمقها في واقع الامر حتى درجة ما وان جميع طوباويي القرن التاسع عشر مع بعض الاستثنائات النادرة جدا يصدرون على السياسة الحكم نفسه

لكن هذا الحكم خاطىء بصورة مزدوجة من وجهة النظر النظرية فأولا ينسى اصحابه انه في الحياة الاجتماعية كما في كل مكان نواجه فيه لا ظاهرة منعزلة بل **عملية منطورة** ، تتحول النتيجة الى السبب ، ويصبح السبب بدوره نتيجة ؛ وباختصار فقد تخلوا هنا ، في وقت غير مناسب على الاطلاق ، عن وجهة نظر **التفاعل** التي كانوا يقصرون عليها تخيلهم في حالات اخرى ، وفي وقت غير مناسب على الاطلاق ايضا وفيما عدا ذلك ، فاذا كانت العلاقات **السياسية** نتيجة للعلاقات **الاجتماعية**، فاننا لانفهم كيف يمكن لنتائج على هذا القدر من التباين مؤسسات سياسية ذات طابع متعارض على طول الخط) ان تنشأ عن السبب نفسه الذي هو حالة متماثلة من الثروة » انه لمن الواضح أن ذات فكرة الارتباط السببي بين الحالة الاقتصادية لبلد ما ومؤسساته السياسية لاتبرح من اشد الافكار غموضا وانه ليمكن البرهان دونما عناء على غموضها الشديد بالفعل لدى جميع الطوباويين

ولقد ادى هذا الغموض في الممارسة الى عاقبة مزدوجة فاولا كان هؤلاء الطوباويون ، الذين ما أكثر ما تحدثوا عن تنظيم العمل ، قريبين جدا في بعض الاحيان من استئناف الشعار القديم للقرن الثامن عشر Laissez faire, laissez passer وان سان سيمون ، الذي كان تنظيم الصناعة يشكل بالنسبة اليه المهمة الرئيسية للقرن التاسع عشر ، يؤكد اذن ان « **الصناعة تحتاج ان تساس اقل مايمكن*** » ومن جهة اخرى فان الطوباويين ــ مرة اخرى مع بعض الاستثناءات التي تنتسب الى مرحلة تالية ــ كانوا غير آبهين مطلقا بمجرى السياسة بالمسائل السياسة ذات الاهمية الراهنة

فاذا لم يكن النظام السياسي سببا بل نتيجة، وكانت هذه النتيجة تظل كذلك الى الابد، دون ان تصبح قط سببا بدورها ، فانه يترتب على ذلك ان « السياسة » لايمكن ان تخدم من أجل تحقيق « المثل الاعلى الاقتصادي والاجتماعي وانا لنستطيع اذن ان نفهم الحالة الذهنية للطوباوي الذي يعرض عن السياسة لكن ما الذي كان

---

* L'industrie a besoin d'être gouvernée le moins possible

[بالفرنسية في النص الاصلي]

كان الفلاسفة يتناقضون مع ذلك ، وان يكن تناقضهم قد انكشف في اتجاه مغاير تماما فعلى الرغم من كونهم انصارا لعدم التدخل من قبل الدولة ، فقد كانوا مع ذلك يطالبون الشارع بتنظيم دقيق جدا وكذلك فان العلاقة بين « السياسة » (التي كانوا يعتبرونها **سببا**) والاقتصاد (الذي كانوا يعتبرونه **نتيجة**) لم تكن واضحة تماما في نظرهم

يعتمد هؤلاء الرجال عليه من أجل تحقيق مشاريعهم عن التحول الاجتماعي ؟ وعلى أي شيء كانوا يؤسسون آمالهم العملية ؟ **على كل شيء وعلى لا شيء** **على كل شيء** بمعنى انهم كانوا يتوقعون العون من القطاعات الأشد تعارضا **وعلى لا شيء** بمعنى ان آمالهم لم يكن لها أي اساس على الاطلاق

كان الطوباويون يتخيلون انهم اناس عمليون جدا وكانوا يبغضون « العقائديين (١٧) ويضحون دون ادنى تردد بمبادئهم الأعظم رنينا على مذبح **افكارهم الثابتة** الخاصة واما لم يكونوا ليبراليين ولا محافظين ولا ملكيين ، ولا جمهوريين ، فقد كانوا على استعداد لأن يسيروا **مع** الليبراليين **ومع** المحافظين أو الملكيين او الجمهوريين **على حد سواء** كي يحققوا **عمليا** تلك المشاريع التي كانت تبدو **عملية** جدا في انظارهم وان فوريه من بين طوباويي الجيل القديم لجدير بالملاحظة بصورة خاصة في هذا المضمار لقد كان يسعى جهده مثله مثل كوستا نجوغلو بطل غوغول ان يستفيد من جميع الحثالات انه يلوح امام اعين المرابين بالفوائد المدهشة التي سوف يحصلون عليها من رساميلهم في المجتمع المقبل كما يتوجه الى هواة البطيخ والارضي شوكي مشيرا الى البواكير الفائقة التي سوف تتوفر في المستقبل وانه ليؤكد للويس فيليب ان اميرات آل اورليان اللائي يحتقرهن اليوم امراء الدم سوف يتعرضن في نظام الغد الاجتماعي للهجوم من قبل الراغبين بالزواج انه يتعلق بكل قشة لكن واأسفاه فان المرابين وهواة البواكير و الملك المواطن على حد سواء كانوا صما جميعا ولم يعيروا ادنى انتباه لحسابات فوريه التي كانت تبدو على قدر كبير جدا من الاغراء لقد كان الاخفاق مقدرا لعمليته بصورة مسبقة هي التي بدت اشبه بمطاردة بائسة لبعض **الحظ السعيد**

مطاردة الحظ السعيد تلك كانت المهمة التي انصرف اليها الفلاسفة بكل حماسة ولقد سعوا بكل الوسائل أملا في مثل هذا الحظ الى عقد صلات الصداقة مع جميع المشرعين وسائر الارستقراطيين المستنيرين قليلا في عصرهم وانه ليعتقد عادة انه حين يقول امرؤ في نفسه ان الراي يحكم العالم فليس عنده اذن أي سبب لليأس من المستقبل **ان العقل سوف يكون على حق في النهاية***

لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن متى سوف ينتصر العقل وباتباعه اية سبل ؟ لقد كان الفلاسفة يقولون ان كل شيء في الحياة الاجتماعية يتوقف في آخر تحليل على المشرعين ولذا فقد كانوا يسعون الى اكتساب هؤلاء المشرعين الى جانبهم بيد انهم كانوا يعرفون حق المعرفة ان خلق المرء وافكاره تتوقف على تربيته، وهذه التربية على العموم لم تهيىء « المشرعين للانضمام الى المذاهب المستنيرة واما وعوا انهم لايستطيعون ان يقيموا آمالا كبيرة على هؤلاء الناس فانه لم يتبق امامهم اذن الا الاعتماد على مصادفة سعيدة افترضوا صندوقا ضخما مليئا بعدد

* La raison finira par avoir raison [بالفرنسية في النص الاصلي]

كبير من الكرات السود في عدادها كرتان بيضاوان أو ثلاث اذا تناولتموها الواحدة تلو الاخرى فان لدكم في كل مرة حظا اقل حتى درجة كبيرة بأن تسحبوا كرة بيضاء بالأحرى من الكرة السوداء ، لكن اذا تكررت العملية عددا كافيا من المرات فلا بد ان تقعوا اخيرا على كرة بيضاء وينطبق الامر نفسه على « المشرعين ففي كل مرة تتفوق الاحتمال بأن يكون المشرع ضد « الفلاسفة لكنه لابد أن يوجد أخيرا مشرع واحد يتفق مع آرائهم ويعمل كل ما يمليه العقل **هكذا حرفيا** كان هيلفيتوس يفكر ** ان **المثالية التاريخية الذاتية** ان الراي يحكم العالم ، اذ **يبدو انها تحتفظ بمكان واسع للحرية الانسانية ، تجعل في حقيقة الامر من الانسان لعبة في يد المصادفة** ولذا فان مثل هذه النظرية هي **في جوهرها باعثة على الياس**

وهكذا فاننا لانعرف ، مثلا ما هو أبعث على اليأس من نظريات الطوباويين في أواخر القرن التاسع عشر يعني الشعبيين وعلماء الاجتماع الروس ان لدى كل واحد منهم خطته الجاهزة من أجل انقاذ المشاعة الزراعية ومعها طبقة الفلاحين بمجموعها وان لدى كل واحد منهم " صيغته عن التقدم ولكن وآسفاه فان الحياة تتابع مجراها دون ان تأبه للصيغ التي لاتبقى لها هي الاخرى الا ان تتابع مجراها بصورة مستقلة عن الحياة في عالم التجريدات والاوهام والتخبطات المنطقية لنصغ بالاحرى الى السيد ميخائيلوفسكي ، آخيل المدرسة الذاتية

« ان القضية العمالية في أوروبا قضية ثورية لانها تتطلب هناك **وضع** شروط العمل أيدي العامل ونزع ملكية الملاكين الحاليين وان القضية العمالية في روسيا قضية محافظة لانها لا تتطلب هنا سوى **ابقاء** شروط العمل بين ايدي العامل وتوفير ضمانة للملاكين الحاليين عن ملكيتهم انه ليوجد عندنا على ابواب بطرسبورغ في منطقة مغطاة بالمصانع والمعامل والحدائق والدور الريفية ، قرى يعيش سكانها على ارضهم **الخاصة** ، ويشعلون حطبهم **الخاص** ويأكلون خبزهم **الخاص** ، ويرتدون معاطف وجلود غنم من صنع ايديهم **الخاصة** باصواف خرافهم **الخاصة** اضمنوا لهم هذه الملكية بصورة دائمة فتحل بذلك القضية العمالية في روسيا وانه ليمكن يضحى بكل شيء في سبيل هذه الغاية ما فهمنا كما ينبغي اهمية مثل هذه الضمانة الدائمة ولسوف يقال لنا انه لمن المحال الاكتفاء الى الابد بالمحراث الخشبي والزراعة ثلاثية الحول مع اساليب سابقة للطوفان من أجل صناعة المعاطف وجلود الخراف هذا امر لا ريب فيه لكن ثمة طريقتين للتخلص من هذه الصعوبة الاولى ، الحائزة على موافقة وجهة النظر العملية ، بسيطة

« Dans un temps plus ou moins long il faut, disent les sages, que* toutes les possibilités se réalisent pourquoi se désesperer du bonheur futur de l'humanité »

يقول الحكماء انه لابد خلال زمن قد يطول أو يقصر تتحقق جميع الامكانات لم اليأس اذن من السعادة الآتية للانسانية !] .

ومناسبة جدا ارفعوا التعرفات واعفوا المشاعات ، وهذا يكفي ان صناعة مثل صناعة-
بريطانيا سوف تنمو اذن مثلما تنمو الفطور بعد المطر بيد انها سوف تلهم السعيل
وتغتصب ملكيته وان هناك سبيلا آخر ، ومن المؤكد انه اصعب ، لكن الحل السهل لايعني
الحل الصحيح مطلقا وان هذا السبيل الآخر يستقيم في تطوير تلك العلاقات القائمة
منذ الآن بين العمل والملكية ، وان يكن بطريقة فظة وبدائية حتى الدرجة القصوى ومن
البدهي ان هذه الغاية لن تتحقق دونما تدخل واسع من الدولة التي يجب يكون اولى
لها توطيد المشاعة تشريعيا*)

في ملء هذا العالم الفسيح
تجد النفوس الحرة سبيلين للسلوك
فاجمع كبرياءك
واحـزم امـرك
لتعرف أي سبيل تسلك**

انه لتفوح بقوة من هذه المحاكمة رائحة البطيح والأرضي شوكي ولا تخطئنا
هنا حاسة السم على الاطلاق وما هي الخطيئة التي ارتكبها فوريه في تعامله مع هذه
الثمار والخضراوات السابقة لأوانها ؟ كانت خطيئـة السـقوط في علم الاجتمـاع
الذاتي لقد كان عالم الاجتماع الموضوعي يسأل نفسه قبلا أثمة اي احتمال
لأن تجتذب اللوحة التي ارسمها هواة البطيح والارضي شوكي ان الارجح انـه
سوف يرد بالنفي عن هذين السؤالين ولن يضيع وقته بالتالي في الحوار مع اولئك
الهواة » بيد ان هذا السلوك هو سلوك عالم اجتماعي موضوعي سلوك رجـل
ينطلق في جميع حساباته من فكرة ان التطور الاجتماعي يخضع لقوانين بيد ان عالم
الاجتماع الذاتي يرفض هذا الخضوع للقوانين باسم المرغوب فيـه وبالتـالي
لاسبيل له من سبيل آخر سوى الاعتماد على المصادفة وكما يقول المثل الروسي
القديم فان المرء يستطيع ، في الكوارث ، ان يجعل من اية عصا سهما له ، وذلـك
هو العزاء الوحيد الباقي لعالم الاجتماع الذاتي المسكين

تستطيع في الكوارث ان تجعل من اية عصا سهما لك لكن للعصا نهايتين ،
ولا ندري من اية نهاية منهما ينطلق السهم وان اصحابنا الشعبيين واذا اجاز لنا
التعبير اصحابنا الذاتيين قد جربوا عددا كبيرا من العصي وحتى فكرة جبايـة
الضرائب المتأخرة في النظام المشاعي لزراعة الارض رفعت من قبلهم الر مرتبة العصا
السحرية) وقد تبين في الغالبية العظمى من هذه الحالات ان تلك العصي عاجزة عن
ان تلعب دور السهام وحين امكن استخدامها بفعل المصادفة ارتدت سهامها لتصيب
الشعبيين الذاتيين لنتذكر المصرف الفلاحي (١٨) اية آمال لم تقم عـلى هـذه

* ن ميخائيلوفسكي **المؤلفات** ، المجلد الثاني ، الطبعة الثانية ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .
** نكراسوف **من تحلو له الحياة في روسيا**

لوسيلة الخاصة بتوطيد « الاسس » الاجتماعية ولشد ما كانت فرحة السادة الشعبيين عظيمة حين افتتح هذا المصرف ابوابه وما الذي جرى اذن ؟ لقد ارتد السهم بالضبط على اولئك الذين ابتهجوا انهم ليعترفون هم انفسهم بأن المصرف الفلاحي ـ وهو على اية حال مؤسسةعظيمةالفائدة ـ لا يفعل الا نسف « الأسس وان هذا الاعتراف يضاهي الاعتراف بأن اولئك الذين ابتهجوا انصرفوا أيضا ـ على الاقل لبعض الوقت ـ الى ثرثرة باطلة (١٩)

ـ اجل ، ولكن المصرف لا ينسف « الاسس » الا لأن انظمته وعمله لم تكن تتفق كليا مع أفكارنا ولو ان هذه الافكار نفذت باخلاص لتغيرت النتائج

ـ أولا ، ما كانت لتتغير على اية حال ؛ فلقد كان المصرف ، في احسن الاحوال ، سهم في تطوير اقتصاد نقدي ، والاقتصاد النقدي لن يقصر في نسف « الاسس » وفيما عدا ذلك ، فاننا حين نسمع هذه « الاذا » باستمرار يخيل الينا ان بائعة تصيح تحت نوافذنا بطيخ ، بطيخ حلو ، ارضي شوكي طري !

حوالي العشرينات من هذا القرن كان الطوباويون الفرنسيون يؤكدون باستمرار على الطابع « المحافظ » للاصلاحات التي تخيلوها ولقد كان سان سيمون يلوح امام عيني الحكومة ، وكما نقول عندنا « المجتمع المثقف ، بشبح ثورة شعبية كان المحافظون يتصورونها في الملامح المرعبة لحركة اللامتسرولين التي لا تبرح ذكراها طرية في الاذهان بيد ان هذه الفزاعة لم تؤد الى اية نتجية ، واذا كان التاريخ يلقننا دروسا حقا ، فان احد هذه الدروس الأكثر فائدة هو الذي يشهد على ان خطط جميع هؤلاء الطوباويين الذين يزعمون انهم عمليون هي غير قابلة للتطبيق على الاطلاق

وحين كان الطوباويون يحاولون وهم يشيرون الى الطابع « المحافظ » لخططهم ، ان يستميلوا الحكومة لتطبيقها ، فقد كانوا يؤيدون افكارهم عادة بلمحة تاريخية عن بلدانهم في مرحلة تاريخية منتقاة بصورة اعتباطية ، وهي لمحة تاريخية كان يتضح منها ان « اخطاء ارتكبت في هذا الحين أو ذاك ، وهي اخطاء ادت الى تغيير تام في التوازن الاجتماعي بطريقة يؤسى لها جدا وانه ليكفي الحكومة ان تتبين هذه « الاخطاء » وان تصححها كيما تقيم في الحال على الارض نوعا من الفردوس

وهكذا كان سان سيمون يؤكد لآل بوربون ان التحالف بين الملكية والصناعيين كان يشكل الصفة المميزة لفرنسا في ظل النظام القديم وكان يقول ان الطرفين انتفعا بذلك التحالف على حد سواء. وابان الثورة عارضت الحكومة ، من جراء سوء فهم، مطالب الصناعيين المشروعة ، كما ناهض هؤلاء الملكية من جراء سوء فهم مؤسف بصورة لا تقل عن ذلك ، ولقد ترتب على ذلك كل الشر الذي نعرفه والآن ، وقد عريت جذور الشر فليس أيسر من تصحيحه يكفي ان يتصالح الصناعيون مع

الحكومة ضمن شروط معينة وان هذا الحل **المحافظ** سوف يوفر للطرفين الطريقة الأعقل من أجل الخروج من مصاعبهما المتعددة ولا جدوى من الاشارة الآن الى ان أيا من آل بوربون أو الصناعيين لم يتبع هذه النصيحة الحكيمة

« بدلا من تمسكنا الحازم بتقاليدنا القديمة ، وبدلا من تشجيعنا المبدأ الذي ورثناه بشأن الرابطة الحميمة بين وسائل الانتاج والمنتج المباشر وبدلا من الانتفاع بمكتسبات العلم الغربي وتطبيقها من أجل تطوير شكل من الصناعة المؤسسة على ملكية لوسائل الانتاج وبدلا من زيادة انتاجية عمله بواسطة مركزة وسائل الانتاج بديه وبدلا من استخدام تنظيم الانتاج القائم في اوروبا الغربية بالاحرى من شكله بدلا من ذلك كنه انخرطنا في الطريق المعاكسة اننا لم نكتف بعدم معارضة تطور الاشكال الرأسمالية للانتاج ، بالرغم من انها تقوم على اغتصاب ملكية طبقة الفلاحين بل على النقيض من ذلك بذلنا كل ما في وسعنا لتأييد انقلاب اقتصادي انتهى الى المجاعة عام ١٨٩١*

هكذا تتفجع السيد « ن ــ اون (٢٠) الذي يوصي المجتمع المثقف باصلاح هذه الخطيئة بعدما تحل القضية « العسيرة جدا » لكن غير المستحيلة الا وهي قضية تطوير قوى السكان الانتاجية بحيث يستطيع الانتفاع بها الشعب بأسره وليس أقلية زهيدة فحسب ** ان المشكلة لاتعدو كونها مجرد اصلاح خطيئة

وانه لمما يبعث على الاهتمام ان نسجل كيف ان السيد ن ــ اون تتخيل نفسه منيعا ضد الطوباويات من أي نوع كانت انه يستشهد لدى كل خطوة بالمؤلفين الذين ندين لهم بالنقد العلمي للاشتراكية الطوباوية وانه ليكرر في اثرهم في كل مناسبة ، وحتى من دون مناسبة ان كل شيء متوقف على الاقتصاد وان الشر كله نابع من هناك وهكذا فاذا ما اكتشف هذا الشر مرة فالسبيل الى القضاء عليه يجب ان يقوم أيضا في تبديل شروط الانتاج نفسها » وايضاحا لذلك يستشهد مرة أخرى بأحد نقاد الاشتراكية الطوباوية « لايجب ابتكار هذه الوسائل ذهنيا بل يجب اكتشافها بالفكر في شروط الانتاج المادية القائمة

ومهما يكن من امر ففيم تستقيم هذه « **الشروط المادية للانتاج التي ستقود المجتمع الى حل القضية التي يطرحها السيد « ن ــ ون » ، او على الاقل الى فهمها ؟** هذا ما يظل لغزا بالنسبة الى القارىء وبالتأكيد بالنسبة الى الكاتب أيضا طالما ان مجرد طرح قضيته يبرهن بكل وضوح على ان تصوره **للتاريخ** لا يبرح تصورا طوباويا خالصا بالرغم من الاستشهادات المستقاة من مؤلفات كتاب هم أبعد

* نقولاس ــ ون **ملاحظات عن اقتصادنا الاجتماعي بعد الاصلاح** ، سان بطرسبورغ ، ١٨٩٣ ، ص ٣٢٢ ــ ٣٢٣

** المصدر نفسه ، ص ٣٤٣

م يكونون عن الطوباوية*

أ يمكن ان يقال ان خطط فوريه تناقض « الوقائع المادية » للانتاج في عصره ؟ كلا، بل هي بالأحرى قائمة كليا على اسس هذه الوقائع حتى في نقائصها لكن هذا الامر لم يمنع فوريه من ان يكون طوباويا لأنه اذ اسس مشروعه « بواسطة الفكر على شروط الانتاج المادية في زمنه **فقد اخفق في اخذها بعين الاعتبار في تحقيقه ، وأصر بصورة لا طائل منها على تقديم « مهمته العظمى » الى شرائح وطبقات اجتماعية لا تملك ، من جراء تلك الشروط المادية بالذات ، لا الميل الى تكريس نفسها لحلها ولا الامكانية من أجل حلها** . ان السيد ن ـ ون يخطىء بهذه الطريقة بالضبط مثل فوريه او رودبرتوس الذي لانحبه مطلقا ؟ وانه ليذكرنا بالأحرى برودبرتوس على وجه الدقة ، لأن اسناداته الى التقاليد العريقة تلائم ذوق هذا الكاتب المحافظ

ويسير السيد ن ـ ون ، كيماينور « المجتمع المثقف الى مثال أوروبا الغربية المرعب انها لعادة قديمة عند اصحابنا الطوباويين أن يلجأوا الى مثل هذه الاسنادات كيما يضفوا على انفسهم مظهر المفكرين الايجابيين الذين لاتغرهم الاوهام بل يعتمدون على دروس التاريخ فقط وعلى أية حال فان هذه الطريقة **ليست بالجديدة مطلقا** فقد سبق للطوباويين الفرنسيين ان حاولوا القاء الرعب في قلوب معاصريهم وردهم الى الصواب بواسطة **مثال انكلترا** المرعب حيث تفصل مسافة كبيرة بين صاحب العمل والعامل الذي يثقل عليه نير نوع معين من الاستبداد واننا لنقرأ في صحيفة **المنتج** يجب على البلدان الاخرى التي تتأثر انكلترا على درب التطور الصاعي ان تدرك انه ينبغي لها ان تبحث عن وسيلة تمنع بها مثل هذا النظام من القيام فوق أراضيها ** وان العائق الوحيد الفعلي في سبيل قيام الطرق

---

* كذلك فان خطط السيد ن ـ ون العملية تمثل تكرارا حرفيا على وجه التقريب لتلك المطالب » التي قدمها **شعبيونا الطوباويون** قبل فترة طويلة من الزمن ودونما ادنى نتيجة على الاطلاق طبعا ، وبصورة خاصة السيد بروغافين لنقارن على سبيل المثال الفقرة التالية المأخودة من هذا المؤلف مع الاستشهادات التي استقيناها لتونا من مؤلف السيد الاهداف والواجبات الاخيرة لنشاط المجتمع والدولة (انتم ترون انه لاينسى المجتمع ولا الدولة) **في مجال الاقتصاد المانيفاكتوري** يجب تكون ، من جهة واحدة ابتياع جميع ادوات العمل لحساب الدولة ووضعها تحت تصرف الشعب من اجل الاستخدام المؤقت ، من أجل الاستئجار ، ومن جهة ثانية اقامة تنظيم لشروط الانتاج » يريد السيد بروغافين يقول الانتاج بكل بساطة لكنه يستخدم كعادة جميع الكتاب الروس الذين يتزعمهم السيد ميخائيلوفسكي ، عبارة شروط الانتاج دون ان يفهم معناها) « ينطلق من حاجات الشعب والدولة وليس من مصلحة السوق من التصريف والمزاحمة كما هي الحال في التنظيم السلعي الرأسمالي لقوى البلاد الاقتصادية ف.س. بروغافين **الحرف اليدوية في المعرض** ، موسكو ١٨٨٢ ، ص ١٥)

** Le Producteur المجلد الاول ، ص ١٤٠

الانكليزية في البـلدان الاخـرى انمـا هـو التنظيم السـان سيموني للعمـل والعمـال*

ومع تطور الحركة العمالية في فرنسا اصبحت المانيـا المسرح الرئيسي للأحلام بخصوص الافلات من الراسمالية ان **المانيا** قد قامت طويلا وبكل عناد ، في شخص طوباوييهـا ضـد أوروبـا الغربيـة (den westlichen Landern)

ويقول الطوباويون الالمان ان الطبقة العاملة هي حاملة فكرة تنظيم جديد للمجتمع في البلدان الغربية ، اما بالنسبة الينـا فـان الطبقـات المثقفة (مايسمى في روسـيا **الانتليجنتزيا** هي حاملة تلك الفكرة وان الانتليجنتزيا الالمانية هي التي كان يعتقد انها مدعوةالىتجنب المانيا كأس الرأسمالية** لقد كانت الرأسمالية مخيفة جدا بالنسبة الى الطوباويين الالمان بحيث كانوا مستعدين للقبول آخر الامر بالركودة التامة في سبيل تجنبها ولقد كانوا يحسبون ان انتصار النظام الدستوري سوف يؤدي الى تفوق الارستقراطية المادية وبالتالي فالافضل الا يقوم اي نظام دستوري

---

* انظر بخصوص هذا التنظيم صحيفة Le Globe لعامي ١٨٣١ ١٨٣٢ حيث يوجد عرض مفصل عنه ، بما في ذلك الاصلاحات التحضيرية الانتقالية

** يعمل اقتصاديونا الوطنيون جاهدين كي يرفعوا المانيا الى تلك المرحلة من الصناعة التي لاتبرح انكلترا تسيطر منها على البلدان الاخرى انكلترا هي مثلهم الاعلى ومن المؤكد انكلترا تعجب بنفسها بكل طيبة خاطر فهي تملك ممتلكاتها في جميع انحاء العالم وتعرف كيف توطد نفوذها في كل مكان ، وهي تملك اغنى اسطولين تجاري وحربي وتعرف في جميع الاتفاقات التجارية كيف تخدع شركاءها ولديها اكثر التجار خبرة في موضوع المضاربة ، واكبر الرأسماليين واكثر العقول ابتكارا ، واحسن الخطوط الحديدية ، واعظم التجهيزات الميكانيكية ومن المؤكد انكلترا بلد سعيد عندما ننظر اليها من هذا الاتجاه لكننا نستطيع ان ننظر اليها من وجهة نظر اخرى ، ومن وجهة النظر هذه يتجاوز **بؤس** انكلترا سعادتها حتى درجة فائقة فانكلترا هي ايضا بلد البؤس الاقصى ، ومن السهير ان المئات يموتون جوعا فيها كل عام ، وان حوالي خمسين الف عامل يرفضون العمل فيها لانهم لايكسبون، بالرغم من كدهم وعذابهم ، ما يكفي لسد رمقهم ان انكلترا هي البلد الذي فرض فيها الاحسان قانونيا في شكل ضريبة الفقراء انظروا ايها الاقتصاديون الوطنيون ، الى هذه الهيئات المترنحة والمحنية والمشوهة في المصانع ، انظروا الى كل هذا البؤس الروحي والجسدي – وانكم لراغبون بعد في تحويل المانيا الى انكلترا ثانية ؟ ان انكلترا لم تتمكن من بلوغ قمم الصناعة حيث تقف اليوم الا من خلال الشقاء والبؤس ، ولن تحقق المانيا نتائج مماثلة الا بواسطة التضحيات نفسها يعني ان يصبح الاغنيـاء أغنى والفقـراء أفقـر Gazette de Trèves [**مجلة تريف**] ، ٤ أيار ١٨٤٦ ، وقـد اعيد نشره في المجلد الاول من المجلة التي يصدرها موريس هيس بعنوان Miroir de la société Etat social du monde cultivé [**المرآة الاجتماعية.الشروط الاجتماعية في العالم التمدن**] ، [ان النص قد ورد بالالمانية في الطبعة الروسية]

عــلى الاطــلاق*
ولم تتجنب المانيا الرأسمالية والطوباويون الروس هم الذين يتحدثون عــن تجنبها في الوقت الحاضر وهكذا هاجرت الافكار الطوباوية من الغرب الى الشرق ، مبشرة في كل مكان بانتصار تلك الرأسمالية التي ثارت وناضلت ضدها لكن **مغزاها** التاريخي كان يتبدل بقدر ما كانت تتغلغل في الشرق أكثر فأكثر فقد كان الطوباويون الفرنسيون في ايامهم **مجددين** عباقرة جريئين ، وكان الالمان دونهم حتى درجة بعيدة، اما الروس فكل ما يستطيعونه في الوقت الحاضر هو اخافة الغربيين بمظهرهم السابق للطوفــان

وانه لمما يبعث على الاهتمام ان كتاب عصر التنوير الفرنسي راودتهم هم أيضا فكرة تجنب الرأسمالية هكذا كان استياء دولبــاخ عظيمــا لأن انتصــار النظــام الدستوري أدى في انكلترا الى تغلب **مصلحة التجار الدنيئة** ** تغلبا تاما ولقــد احزنه جدا ان الانكليز كانوا يبحثون دون كلل عن اسواق جديدة ــ ان هذا الركض خلف الاسواق الهاهم عن الفلسفة ولقد دان دولباخ أيضا التفاوت في الملكية القائم في انكلترا لقد كان بوده مثله مثل هيلفيتيوس ان يعبد الطريق امام انتصــار العقل والمساواة لا المصالح التجاريــة ولكنه لم يستطع مثله مثــل هيلفيتيوس وجميع الكتاب الآخرين لعصر التنوير ، أن يعارض مجرى الاحداث في ذلك الحين الا بالمديح الموجه الى العقل والتعنيف الاخلاقي ضــد شــعب البيون*** ان عجز هؤلاء الناس في هــذا المضمار يضاهي عجز أصحابنــا الطوباويين الروس في الوقت الحاضر

ملحوظة أخرى ونتنهي من الطوباويين ان وجهة نظر **الطبيعة الانسانية** ادت في النصف الاول من القرن التــاسع عشر الى اســاءة اســتعمال التشــابهات **البيولوجية** وهو ما يعاني منه حتى درجة كبيرة علم الاجتمــاع الغربي في الــوقت الحاضر وبصورة خاصة الادبيات الروسية ذات المزاعم السوسيولوجية

اذا كان لابد من البحث عن سبب كل التقدم الاجتماعي التــاريخي في طبيعــة الانسان واذا كان المجتمع يتألف من الافراد كما يلاحظ سان سيمون نفســه بكل صواب فان طبيعة الفرد يجب ان تزودنا اذن بمفتاح تفسير التاريخ ان طبيعــة الفرد هي موضوع **علم الغريزة** بالمعنى الواسع للكلمة يعني العلم الذي يغطي أيضا

---

* يقول بوخنر نجح الدستوريون في اسـقاط الحكومـات الالمانيـة وادخـال ملكية أو جمهورية عموميتين فانه سيكون لدينا هنا ارستقراطية مالية كما في فرنسا فالافضل اذن ان تظل الامور كما هي عليه حاليا جورج بوخنر **المؤلفــات المختــارة** ، مطبوعات فرانسوز النص الاصلي بالالمانية في الطبعة الروسية]

** l'intérêt sordide des marchande بالفرنسية في النص الاصلي

*** « Peuple d'Albion » ، بالفرنسية في النص الاصلي

الظواهر **السيكولوجية** وهذا هو السبب في ان علم الغريزة يشكل في نظر سان سيمون واتباعه اساس **علم الاجتماع** الذي يسمونه **الفيزياء الاجتماعية** ولقد ورد في **الآراء الفلسفية والادبية والصناعية** التي طبعت في حياة سان سيمون وبمشاركة فعالة منه مثال بالغ الأهمية ، لكنه ناقص لسوء الحظ ، بقلم **دكتور في الطب** لم يذكر اسمه في علم الغريزة المطبق على تحسين المؤسسات الاجتماعية

ان الكاتب يعتبر **علم المجتمع** جزءا مكملا **لعلم الغريزة العام** الذي يكرس نفسه لاعتبارات من « مرتبة أعلى بعدما اغتنى بالملاحظات والتجارب الخاصة « **لعلم الغريزة الخاص** ان الافراد هم بالنسبة اليه مجرد اعضاء في الجسم الاجتماعي » الذي يدرس وظائفه « **بالضبط كما يدرس علم الغريزة الخاص وظائف الافراد** » ان علم الغريزة العام يدرس (يقول المؤلف يعبر » عن) قوانين الوجود الاجتماعي الذي يجب ان تتطابق القوانين المكتوبة معها ان علماء الاجتماع البورجوازيين سبنسر على سبيل المثال قد استخدموا في وقت لاحق عقيدة العضوية الاجتماعية ليستخلصوا اشد النتائج محافظة بيد ان الدكتور في الطب الذي استشهدنا به كان مصلحا في المحل الاول ، وقد درس الجسم الاجتماعي بهدف **اعادة تنظيم المجتمع** ، طالما إن **علم الغريزة الاجتماعي** و **علم الصحة** المرتبط به بصورة وثيقة يزودانا « بالأسس الايجابية التي يمكن ان يبنى عليها نظام التنظيم الاجتماعي الذي تتطلبه الحالة الراهنة للعالم المتمدن لكنه من الواضح ان علم الغريزة الاجتماعي وعلم الصحة لايوفران قدرا كافيا من الغذاء لمخيلة المؤلف الاصلاحية ، لأنه وجد نفسه مضطرا أخيرا ان يتوجه الى الأطباء ، يعني الاشخاص الذين يتعاونون مع العضويات الافرادية ، يسألهم ان يعطوا المجتمع « **في شكل وصفة صحية** نظاما للتنظيم الاجتماعي

ان هذه النظرية عن الفيزياء الاجتماعية اجترها ـ أو طورها اذا كنتم تفضلون ذلك ـ اوغست كونت في وقت لاحق في أعماله المختلفة واليكم ما قاله عن العلم الاجتماعي وهو في شبابه بعد ، حين كان يكتب في صحيفة **المنتج** السان سيمونية لما كانت الظاهرة الاجتماعية ظاهرة انسانية فمما لا ريب فيه انها يجب ان تصنف بين الظواهر الفيزيولوجية لكنه بالرغم من ان الفيزياء الاجتماعية يجب ان تنطلق من علم الغريزة الفردي وتكون على صلة دائمة به ، فانه يجب مع ذلك دراستها وتطويرها كما لو كانت علما منفصلا ؛ ذلك ان الأجيال المختلفة من البشر تؤثر في بعضها بعضا واذا نحن تمسكنا بوجهة النظر الفيزيولوجية الخالصة، فاننا لانستطيع ان ندرس ذلك التأثير كما ينبغي ومع ذلك فان تقديرها يجب ان يحتل المركز **الرئيسي** في الفيزياء الاجتماعية * »

---

* Considérations sur les sciences et les savants [**اعتبارات عن العلوم والعلماء**] في صحيفة **المنتج** ، المجلد الاول ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

ويمكنكم ان تروا الآن التناقضات اليائسة التي تجابه اولئك الذين ينظرون الى المجتمع من وجهة النظر هذه

أولا طالما ان « منطلق الفيزياء الاجتماعية » هو علم الغريزة الفردي ، فهي مبنية على اساس **مادي** خالص فليس في علم الغريزة مكان لوجهة نظر **مثالية** بيد ان هذه الفيزياء الاجتماعية نفسها كانت معنية بصورة رئيسية بتقدير التأثير التقدمي للجيل الواحد في الجيل الآخر . ان الجيل الواحد يؤثر في الجيل التالي ، ناقلا اليه سواء المعرفة التي ورثها عن الاجيال السابقة او المعرفة التي اكتسبها هو نفسه ولذا فان الفيزياء الاجتماعية » تدرس تطور النوع الانساني من وجهة نظر تطور المعرفة و «الانوار» (Lumières) تلك كانت وجهة النظر المثالية الخالصة للقرن الثامن عشر **ان الآراء تحكم العالم** وان المرء ليتحول الى **ثنائي** محض حين يربط بصورة وثيقة ، بناء على نصيحة كونت ، وجهة النظر المثالية هذه بوجهة النظر المادية الخالصة لعلم الغريزة الفردي ، وليس اسهل من تتبع التأثير الضار الذي تمارسه هذه الثنائية في الآراء السوسيولوجية ، بما فيها آراء كونت بالذات وليس هذا كل شيء لقد لاحظ مفكرو القرن الثامن عشر ان ثمة تطابقا معينا مع القانون في تطور المعرفة ولقد تمسك كونت بمثل هذا التطابق ، ووضع في المقدمة القانون السهير للحالات الثلاث اللاهوتية والميتافيزيائية والوضعية

ولكن لماذا يمر تطور المعرفة بهذه المراحل بالضبط ؟ يرد كونت « كذلك هي طبيعة الذهن البشري ان الذهن البشري يمر بفعل طبيعته [par sa nature حيثما يفعل بثلاثة شروط نظرية مختلفة* هذا رائع لكنه لابد لنا كي ندرس هذه « الطبيعة » ان نتوجه الى علم الغريزة الفردي ، وعلم الغريزة الفردي لايعطينا تفسيرا مناسبا ؛ ولا بد لنا مرة اخرى ان نشير الى « الأجيال » السابقة ، و «الاجيال» تردنا مرة أخرى الى الطبيعة ان هذا يدعى علما وليس للعلم أي اثر فيه ، بل كل ما هنالك حركة لاتنتهي حول دائرة مغلقة

ان علماء الاجتماع الذاتيين عندنا بالرغم مما يزعمونه من أصالة ، يتقاسمون كليا وجهة النظر مع الطوباوي الفرنسي للعشرينات من القرن التاسع‌عشر . يحدثنا السيد ميخائيلوفسكي عن نفسه قائلا

« بينما كنت متأثرا بنوجين بعد ، وتحت ارشاده جزئيا ، عنيت بمسألة الحدود بين علم الحياة وعلم الاجتماع وامكانية الجمع بينهما ولا استطيع ان اقيم تقييما عاليا بصورة كافية الفائدة التي كسبتها من هذه المشاركة في افكار نوجين ومع ذلك فقد في هذه الافكار عنصر هام من المصادفة ، من جهة واحدة لانها كانت تتطور بعد في نوجين وحده ، ومن جهة ثانية بسبب معرفته المحدودة في ميدان العلوم الطبيعية وواقع الامر اني لم احصل من نوجين الا على دفعة في اتجاه معين ، لكنها كانت دفعة قوية وحاسمة

---

* المصدر نفسه ، المجلد الاول ، ص ٣٠٤

وخصبة لم اكن قد تعمقت في دراسة علم الحياة بصورة خاصة ، فقد قرأت مع ذلك قدرا كبيرا بايحاء من نوجين وتنفيذا لوصيته اذا جز التعبير ولقد ألقى هذا التيار الجديد في مطالعاتي نورا اصيلا استغرقني حتى درجة كبيرة على تلك المواد الهائلة ــ وان تكن مضطربة ، وعديمة الجدوى بكل بساطة حتى درجة ما التي كدستها قبلا من الوقائع والافكار على حد سواء *

ان ميخائيلوفسكي قد وصف نوجين هذا تحت اسم بوخارتسيف في مجموعة دراساته **على القارعة** وكان بوخارتسيف « يحلم في اصلاح العلوم الاجتماعية بمساعدة العلوم الطبيعية ، وقد أعد مشروعا كبيرا لهذا الغرض ». ويمكن تبين طرق هذا النشاط الاصلاحي مما يلي لقد انكب بوخارتسيف على ترجمة مبحث كبير في علم الحيوان من اللاتينية الى الروسية ، وارفق الترجمة بهوامشه الخاصة التي قرر ان « يضمنها نتائج عمله المستقل بأسره بينما اضاف الى هذه الهوامش هوامش جديدة ذات طابع سوسيولوجي وان السيد ميخائيلوفسكي ليتفضل فيعرف القارىء بأحد هذه الهوامش المستوردة من القبو الثاني

ليس في مقدوري في تعليقي على فان ديرهوفن اتمادى بعيدا في المناقشات والاستنتاجات النظرية المتعلقة بتطبيق جميع هذه المسائل التشريحية المحضة في حل المسائل الاجتماعية والاقتصادية ولذا فاني استلفت انتباه القارىء مرة اخرى الى حقيقة ان نظريتي التشريحية والمضغية برمتها تتركز بصورة رئيسية على اكتشاف قوانين علم غريزة المجتمع ، وبالتالي فان جميع اعمالي اللاحقة سوف تؤسس طبعا على المعطيات العلمية المعروضة في هذا الكتاب

ان النظرية التشريحية والمضغية تتركز على اكتشاف قوانين علم غريزة المجتمع ان هذه العبارة سيئة الصياغة جدا لكنها مع ذلك تميز جيدا علماء الاجتماع الطوباويين لقد بنى نظرية تشريحية ينوي بمساعدتها ان يكتب عددا من الوصفات الصحية من أجل المجتمع المحيط به و علم الغريزة الاجتماعي الخاص به يرجع الى هذه الوصفات ان علم الغريزة الاجتماعي لبوخارتسيف ليس هو علما للغريزة بكل معنى الكلمة ، بل « علم الصحة الذي تعرفنا اليه من قبل ليس علما يتناول ماهو كائن ، بل علم يتناول مايجب ان يكون على اساس النظرية التشريحية والمضغية لبوخارتسيف بالذات

وبالرغم من ان بوخارتسيف نسخة عن نوجين فانه يمثل مع ذلك حتى درجة ما نتاج العمل الفني والابداعي للسيد ميخائيلوفسكي (هذا اذا كان في مقدورنا ان نتحدث عن عمل فني بخصوص الدراسات الموردة) وبنتيجة ذلك فلعل هامشه الاخرق لم تكن له وجود قط وفي هذه الحال فانه يميز على خير وجه السيد ميخائيلوفسكي الذي يتحدث عنه باحترام عظيم

---

* الادب والحياة في **روسكايا ميست** ، ١٨٥١ المجلد الرابع ، ص ١٩٥ .

ويقول تيومكين الذي تروى القصة باسمه ولقـد حـدث لي مع ذلـك ان صادفت في الأدبيات الانعكاس المباشر لافكار صديقي ومعلمي الذي لا انساه ان السيد ميخائيلوفسكي قد عكس ، ولا يزال يعكس ، افكار بوخارتسيف ـ نوجين ان للسيد ميخائيلوفسكي صيغته الخاصة بالتقدم وهذا نصها

ان التقدم اقتراب تدريجي من وحدة الفرد،من تقسيم العمل الذي لايمكن ان يكون اكثر كمالا وتنوعا منه بين الاعضاء ومن اقل تقسيم ممكن للعمل بين الناس وان كل مايؤخر هذه الحركة لا اخلاقي وظالم وضار ولا عقلاني ان الاخلاقي والعادل والعقلاني والنافع هو ما ينقص تنافر المجتمع بينما هو يزيد في الوقت نفسه التنافر بين اعضائه الفرادى ✽

ما عسى ان تكون القيمة العلمية لهذه الصيغة ؟ أتراها تفسر الصيرورة التاريخية للمجتمعات ؟ أتخبر كيف حدثت هذه الصيرورة ، ولماذا حدثت بهذه الطريقة بالأحرى من تلك ؟ أبدا على الاطلاق ، وليس ذلك هو هدفها الرئيسي » على أي حال انها لاتتحدث عن مسيرة التاريخ ، بل عن كيف يجب ان تكون هذه المسيرة كي تحظى بموافقة السيد ميخائيلوفسكي تلك وصفة صحية ابتكرها رجل طوباوي على اساس استقصاء دقيق لقوانين التطور العضوي ـ بالضبط ما كان الطبيب السان سيموني يبحث عنه

تكرر ذلك ان الاستخدام الحصري للطريقة الموضوعية في علم الاجتماع يعادل ـ اذا كان هذا الامر ممكنا ـ جمع القامات والقناطير✽✽ ، الامر الذي يترتب عليه ، على أي حال ، انه يجب نبذ الطريقة الموضوعية نبذا مطلقا من هذا الميدان للبحث ، بل ان الاشراف الاعلى يجب ان تمارسه الطريقة الذاتية✽✽✽

ان هذا « الميدان للبحث » هو علم غريزة » **المجتمع المثالي** ، ميدان الطوباوية. ومن الطبيعي ان استخدام الطريقة الذاتية فيه يسهل حتى درجة كبيرة عمل « الباحث » لكن هذا الاستخدام لايقوم في حال من الاحوال على اية « قوانين » ، بل على فتنة الاحلام الزاهرة ✽✽✽✽ » وان أي امرىء انساق مع هذه الفتنة لن يثور قط حتى ضد استخدام كلتي الطريقتين ، الذاتية والموضوعية ، في نفس الميدان » الواحد ـ بحقوق مختلفة حقا ـ وان يكن مثل هذا الخلط في الطرق يعني في حقيقة الامر جمع القامات مع القناطير✽✽✽✽✽

✽ ن.ك. ميخائيلوفسكي ، **المؤلفات** ، المجلد الرابع (الطبعة الثانية) ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦

✽✽ [القامة مقياس للطول والقنطار مقياس للوزن ، ومن الطبيعي ان جمعهما محال]

✽✽✽ المصدر نفسه ، ص ١٨٥

✽✽✽✽ [بيت من قصيدة **ايليا مورومتز** لكارامزين]

✽✽✽✽✽ وعلى اية حال فان عبارتي الطريقة الموضوعية و « الطريقة الذاتية » تشهدان على تشوش نادر ، على الاقل لغويا

الفصل الرابع

الفلسفة الألمانيـة المثاليـة

كان ماديو القرن الثامن عشر على يقين راسخ بأنهم وجهوا الضربة القاضية الى المثالية ، وكانوا يعتبرونها نظرية بالية تم التخلي عنها الى الابد لكنه بدأ في أواخر ذلك القرن رد فعل ضد المادية ؛ وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر جاء دور المادية لتشكل في نظر الناس مركز النظام الذي شاح ودفن نهائيا ولم تبعث المادية الى الحياة فحسب بل اجتازت تطورا منقطع النظير ولامعا حقا وفعلا . ومن الطبيعي انه كان لذلك اسباب اجتماعية ليس غرضنا دراستها هنا بل سنرى فحسب ما اذا كانت **مثالية** القرن التاسع عشر تتفوق في شيء على مادية العصر السابق وفي هذه الحال ما هي ميزاتها

لقد كشفت المادية الفرنسية عن ضعف يبعث على الدهشة ولا يمكن تصديقه تقريبا في الوقت الحاضر كلما تصدت لمسائل التطور في الطبيعة والتاريخ لنأخذ **أصل الانسان** مثالا على ذلك فعلى الرغم من ان فكرة **التطور التدريجي** لهذا النوع لم تبد « **متناقضة** » في نظر الماديين ، فقد كانوا مع ذلك يعتبرون هذه « الفرضية » بعيدة الاحتمال جدا ان مؤلفي **نظام الطبيعة** (انظر القسم الاول ، الفصل السادس) يقولون انه اذا ما ثار امرؤ يوما ضد هذه الفرضية معترضا بأن الطبيعة تعمل بحصيلة معينة من القوانين العامة والثابتة ومؤكدا ان « الانسان والحيوان ذا القوائم الاربع والسمكة والحشرة والنبتة ، الخ موجودون منذ بداية الازمان ولا يتغيرون الى الابد فانهم لن يعترضوا على ذلك بل سيقتصرون على ملاحظة ان مثل هذا الرأي لايتناقض أيضا مع الحقائق التي يطرحونها « لم يعط الانسان ان يعرف كل شيء وهو لايستطيع معرفة اصوله — هذا كل ما يقوله مؤلفو **نظام الطبيعة** في النهاية بصدد هذه المسألة الهامة

ويبدو ان هيلفيتيوس يميل الى فكرة تطور الانسان التدريجي ، فيلاحظ « ان المادة أبدية لكن اشكالها تختلف معيدا الى الاذهان ان الاجناس البشرية

تتغير حتى في الوقت الحاضر تحت تأثير المناخ* بل يمضي حتى تقرير ان جميع الانواع الحيوانية بصورة عامة عرضة للتغيير بيد ان هذه الفكرة السليمة يصوغها بصورة غريبة حقا فعنده انه يترتب على ذلك ان اسباب « عدم التشابه » بين الانواع المختلفة من الحيوانات والنباتات تعود اما الى طبيعة « البذور واما الى الفوارق في البيئة الى الفوارق في « تنشئتها**

وهكذا فان **الوراثة** تنفي **التحولية** والعكس بالعكس فاذا نحن اعتنقنا نظرية التحولية وجب علينا بنتيجة ذلك ان نفترض بصورة مسبقة انه يمكن ان ينشأ من اية بذرة معينة ، في الظروف المناسبة ، أي حيوان أو نبات ؛ من بذرة السنديان مثلا ثور أو زرافة ومن الطبيعي ان مثل هذه « الفرضية لايمكن ان تلقي ضوءا على مسألة اصل الانواع وهيلفيتيوس نفسه لايعود اليها مطلقا بعدما طرحها بصورة عابرة

ولم تكن الماديون الفرنسيون اطول باعا في تفسير ظواهر التطور **الاجتماعي** فعندهم ان انظمة التشريع المختلفة لاتعدو كونها ثمرة النشاط الخلاق الواعي للمشرعين كما ان الانظمة الدينية المختلفة هي ثمرة دهاء الكهنة الخ

ان هذا العجز الذي تعاني منه المادية الفرنسية حيال مسائل التطور في الطبيعة والمجتمع قد جعل محتواها الفلسفي بالغ البؤس ففي نظريتها عن الطبيعة اقتصر هذا المحتوى على مكافحة التصور الاعرج عن المادة الذي ينادي به **الثنائيون** كما اقتصر في نظريتها عن الانسان على تكرار لاينتهي لمبدأ لوك القائل انه **لاتوجد افكار فطرية** مع ادخال بعض التعديلات عليه ومهما تكن فائدة هذا التكرار في مكافحة النظريات الاخلاقية والسياسية البالية ، فانه ما كان يمكن ان يملك قيمة علمية جدية ما لم ينجح الماديون في تطبيق تصورهم على تفسير تطور الفكر البشري ولقد سبق فقلنا ان الماديين الفرنسيين (وعلى وجه الدقة هيلفيتيوس) قاموا ببعض المحاولات المرموقة جدا في هذا الاتجاه ، لكنهم انتهوا الى الاخفاق (ولو انهم نجحوا لأثبتت المادية الفرنسية قوتها العظيمة في مسائل التطور) لقد اتخذ الماديون في نظرتهم الى التاريخ موقفا مثاليا خالصا — الا وهو ان **الآراء تحكم العالم** ولم تكن المادية تقتحم تأملاتهم في التاريخ الا من وقت لآخر وفي الندرى وذلك في صورة بعض الملاحظات عن تلك الذرة التائهة التي وجدت سبيلا الى راس « المشرع فسببت فيه اضطرابا في وظائف المخ بحيث عدلت مجرى التاريخ لقرون عديدة لقد كانت **مثل** هذه المادية **قدرية** بصورة جوهرية ، ولم تترك مكانا للتنبؤ بالاحداث ، يعني للنشاط التاريخي الواعي للافراد المفكرين

---

* Le vrai sens du système de la nature [**المعنى الحقيقي لنظام الطبيعة**] ، لندن ١٧٧٤ ، ص ١٥

** De l'homme [**في الانسان**] ، **مؤلفات هيلفيتيوس الكاملة** ، باريس ١٨١٨ ، المجلد الثاني ، ص ١٢٠ .

عجب اذن اذا كان اناس حصيفون وموهوبون غرباء عن صراع القوى الاجتماعية التي كانت المادية فيها سلاحا نظريا رهيبا في أيدي اليسار المتطرف قد حكموا على هذه العقيدة بأنها **ضيقة وكئيبة، وباعثة على القنوط** هذا مايقوله عنها غوته على سبيل المثال (٢٢)

ولم يكن بد للمادية ، كي تتخلص من هذه الملامة ، ان تتخلى عن نمط تفكيرها الجاف والمجرد وتحاول ان تفهم وان تفسر الحياة الفعلية ـ السلسلة المعقدة والزاخرة من الظواهر المشخصة ـ من وجهة نظرها الخاصة بيد انها كانت عاجزة، في الشكل الذي كانت ترتديه وقتذاك ، عن القيام بهذه المهمة الكبيرة التي تصدت لها اذن **الفلسفة المثالية**

ان النظام الهيغلي شكل الحلقة الرئيسية والختامية في تطور هذه الفلسفة ولذا فاننا سنشير بصورة رئيسية الى هذا النظام في عرضنا

كان هيغل ينعت **بالميتافيزياء** موقف اولئك المفكرين أكانوا مثاليين أم ماديين، الذين عجزوا عن فهم عملية تطور الظواهر فتمثلوها ومثلوها للآخرين طوعا أو كرها على انها جامدة متفككة عاجزة عن الانتقال الواحدة الى الاخرى ولقد عارض هذا الموقف بالجدلية التي تدرس الظواهر في تطورها بالذات وبالتالي في ترابطها

وعند هيغل أن الجدلية **مبدأ الحياة** وكثيرا ما يلتقي المرء باناس يعترفون عن طيبة خاطر ، وقد عبروا عن موضوعة مجردة ما بأنهم ربما كانوا على خطأ ، وان وجهة النظر المعارضة تماما قد تكون هي الصحيحة هؤلاء اناس حسنو التربية ، مشربون « بالتسامح » حتى رؤوس اصابعهم ؛ انهم يقولون في ذاتهم عش ودع الناس يعيشوا وليس ثمة شيء مشترك بين الجدلية والتسامح المتشكك لافراد البشر ، لكنها تعرف هي أيضا كيف تجمع بصورة مباشرة بين موضوعات مجردة على طرفي نقيض انا نقول ان الانسان فان ، معتبرين ان الموت شيء غريب كليا عن طبيعة الانسان الحي ، وهو متجذر في الظروف الخارجية عنه وانه ليترتب على ذلك ان للانسان صفتين أولاهما ان يكون حيا ، والثانية أن يكون فانيا أيضا لكنه يتبين عند التعمق في الامر ان **الحياة** نفسها تحمل في احشائها بذرة **الموت** وان اية ظاهرة على العموم هي **متناقضة** بمعنى انها تطور انطلاقا من ذاتها العناصر التي ستضع حدا لوجودها عاجلا أو آجلا وتحولها الى نقيضتها الخاصة. ان الاشياء جميعا تسيل، الاشياء جميعا تتغير ، وليس ثمة قوة قادرة على اعاقة هذا التيار المستمر ، أو ايقاف هذه الحركة الابدية ليس ثمة قوة قادرة على مقاومة جدلية الظواهر وان غوته ليشخص الجدلية في صورة روح

In Lebensfluthen, in Thatensturm
Wall'ich auf und ab ,
webe hin und her !
Geburt und Grab -

Ein ewiges Meer
Ein wechselnd Weben ,
Ein glühend Leben ,
So schaff'ich am sausenden Webstuhl der Zeit
Und wirke der Gottheit lebendiges Kleid ❊

في لحظة محددة يكون جسم متحرك في بقعة معينة لكنه يكون في الوقت نفسه خارج هذه البقعة ايضا لأنه اذا كان موجودا في تلك البقعة فقط فانه سيصبح اذن في تلك اللحظة على الاقل ، **عديم الحركة** ان كل حركة عملية جدلية، تناقض حي وبما انه لاتوجد في الطبيعة ظاهرة واحدة لن نحتاج مع الوقت ان نستنجد بالحركة من أجل تفسيرها فلا بد لنا ان نوافق هيغل الذي يقول ان **الجدلية هي روح اية معرفة علمية** الامر الذي لاتقتصر صحته على معرفة الطبيعة وحدها مثال ذلك ماهو معنى القول المأثور القديم ❊❊ **Summum jus , summa injuria** ? أيكون معناه ان سلوكنا سوف يكون اصح بقدر ما نعطي كلا من الحق والباطل حقه ؟ كلا. لأن ذلك لايعدو كونه تفسير «التجربة المبتذلة والتفكير الاحمق». ان القول المأثور يقصد ان كل حق مجرد ، اذا دفع الى نقطة مآله المنطقي ، يتحول الى باطل، يعني الى نقيضه بالذات وان مسرحية شكسبير **تاجر البندقية** تمثل برهانا ساطعا على ذلك

ولنلق الآن نظرة على الظواهر الاقتصادية ما هي النتيجة المنطقية « **للمزاحمة الحرة** ؟ ان أي رأسمالي يسعى جاهدا الى قهر منافسيه والى البقاء السيد الوحيد للسوق وليس من النادر طبعا ان يحقق شخص مثل روتشيلد أو فاندرليت هذا الطموح بكل نجاح ، بيد ان هذا يبين ان المزاحمة الحرة تعود الى الاحتكار ، يعني الى انكار المزاحمة ، أي الى نقيضها بالذات أو انظروا الى النتيجة التي يقود اليها مايسمى **مبدأ ملكية العمل** الذي ما أكثر ما تمتدحه ادبياتنا الشعبية لا شيء يخصني

❊ [في امواج الحياة وفي عاصفة الفعل ،
أصعد وأهبط ،
وأسبح هنا وهناك
الولادة والرمس ،
والبحر الابدي ،
وحياة تتبدل وتتدفق ،
محرقة لاهبة
هكذا اعمل على نول الزمان الصاخب
وامسج معطف الحياة الذي ترتديه الالوهية ،
فاوست ، القسم الاول ، المشهد الاول]

❊❊ [فرط الحق يؤدي الى انكاره ، شيشرون De officiis] .

الا ما ابدعه عملي ليس ماهو اعدل من ذلك ولا يقل عن ذلـك عدلا ان استخدم الشيء الذي ابدعته وفق هواي فقد استعمله شخصيا أو اقايضه لقاء شيء آخر تمسني اليه لسبب ما حاجة أعظم وبالتالي فانه لايقل عما سبق عدلا ان استعمل الشيء الذي حصلت عليه بالمقايضة وفق هواي مرة اخرى مثلما يحلو لي ، وكمـا هو أفضل وانفع لي ولنفترض الآن اني بعت نتـاج عملي الخـاص لقـاء المـال ، واستخدمت المال كي أستأجر عاملا ، أي اني ابتعت قوة عمل شخص آخر وامـا استخدم قوة عمل الغير هذه ، فاني اصبح مالك قيمة هي أعلى حتى درجة كبيرة من القيمةالتيأنفقتها منأجل شرائها، انهذا ليتفقجدا معالعدل منجهةواحدة،لأنهقد تم الاعترافمنقبلبأنياستطيعاناستخدمما حصلتعليهبالمقايضةكما هو أفضلوانفعلي؛ لكنه من جهة ثانية انكار تام للعدل ، لأني استغل اذن عمل **الغير** وبذلك اتنكر للمبدأ الذي يقوم في اساس تصوري عن العدالة ان الملكية المكتسبة بعملي الشخصي تأتيني بملكية هي من ابداع عمل الغير Summum jus summa injuria وهذا Injuria ينبثق من ذات طبيعة الأشياء لدى كل حرفي ميسور على وجه التقريب ، ولدى كـل فلاح ناجح على وجه التقريب*

وهكذا فان كل ظاهرة تتحول الى نقيضتها عاجلا أو آجلا ، لكن بصورةحتمية، بفعل تلك القوى بالذات التي تحدد وجودها .

لقد قلنا ان الفلسفة المثالية الالمانية ترى الى الظواهر من وجهة نظـر تطورها ، وان ذلك هو المقصود من النظر اليها **جدليا** ويجب ان نسجل هنا ان **الميتافيزيائيين** يعرفون كيف يشوهون عقيدة التطور بالذات انهم يؤكدون انه لاتوجد قفزات عـلى الاطلاق لا في الطبيعة ولا في التاريخ وحين يتحدثون عن **اصل** ظاهرة ما أو مؤسسة اجتماعية ما ، فانهم يصورون الامر كما لو ان هذه الظاهرة أو المؤسسة الاجتماعيـة كانت فيما مضى ضئيلة جدا غير ملحوظة البتة ، ومن ثم نمت بصورة تدريجية وحين يكون المقصود **دمار** هذه الظاهرة أو المؤسسة أو تلك فانهم يفترضون عـلى العكس من ذلك انها تتناقص بصورة تدريجية حتى تبلغ ذلك الحـد حيث تجعلهـا

---

* ان هذا السلطان الابدي والعمومي للجدلية يبـدو امـرا غير معقـول بالنسـبة الى السـيد ميخائيلوفسكي فيسأل في شك مشبع بالسخرية أتتغير جميع الاشياء باستثناء قوانين الحركـة الجدلية ؟ ونرد عليه أجل ، كذلك هو الامر ، واذا هو ادهشك ، واذا كنت تريد ان تنقض هذا الرأي ، فتذكر انه لابد لك ان تناقض أيضا المبدأ الاساسي للعلم الحديث وكيما تقتنع بذلك يكفيك ان تتذكر تلك الكلمات التي قالها بلييفير والتي جعل منها لايل عنوانا لمؤلفه الشهير **مبادىء الجيولوجيا** « في ملء ثورات الكرة الارضية ظل اقتصاد الطبيعة منتظما وكانت قوانينها الشيء الوحيد الذي قاوم الحركـة العامة ان الانهار والصخور والبحار والقارات قد تبدلت في جميع اقسامهـا لكن القـوانين التي وجهت هذه التغيرات والانظمة التي تحددها ظلت ثابتة لم تتغير » [وردت هذه الفقرة بالانكليزية في النص الروسـي] .

ابعادها المجهرية غير ملحوظة على الاطلاق ان التطور المتصور بهذه الطريقة لا يفسر شيئا البتة انه يفترض بصورة مسبقة وجود الظواهر التي يريد تفسيرها ولا يأخذ بعين الاعتبار **التبدلات الكمية** التي تطرا عليها ولقد كان سلطان الفكر الميتافيزيائي بالغ الجبروت في العلوم الطبيعية فيما مضى من الزمان بحيث لم يكن الكثيرون من علماء الطبيعة يستطيعون ان يتصوروا التطور الا في شكل مثل هذه الزيادة التدريجية

النقص التدريجي في حجم الظواهر المستقصاة وبالرغم من الاعتراف الذي تحقق منذ ايام هارفي بأن « **كل ماهو حي يتطور انطلاقا من البيضة** » فمن المؤكد ان هذا التطور انطلاقا من البيضة لم يؤد الى قيام أي تصور دقيق بحيث وفر اكتشاف النطفة المواد لظهور نظرية تقول ان الخلية المنوية تنطوي بصورة مسبقة على حيوان جاهز كامل التطور لكنه ضئيل بصورة مجهرية بحيث يعود كل تطوره الى مجرد **نموه** وان بعض الحكماء المبجلين ، بما فيهم علماء اجتماع مشاهير في أوروبا يدينون بمذهب التطور ، لايبرحون ينظرون الى « تطور المؤسسات السياسية مثلا بهذه الطريقة بالذات ان التاريخ لايتقدم في وثبات بل va piano سير الهويني)

ونهضت الفلسفة المثالية الالمانية بحزم كبير ضد هذا التصور المسخ عن التطور فقط سخر هيغل منه بصورة قاسية ، وبرهن بصورة لاتدحض على ان **القفزات** تشكل في الطبيعة وفي المجتمع الانساني على حد سواء مرحلة اساسية في التطور على قدم المساواة مع التبدلات الكمية التدريجية ويقول هيغل

ان التبدلات في الوجود لاتقتصر على انتقال الكمية الواحدة الى الكمية الاخرى ، بل هي تستقيم أيضا في أن الكيفية تتحول الى الكمية والعكس بالعكس ان كل انتقال من النوع الاخير يشكل انقطاعا في الاستمرارية Ein Abbrechen des Allmählichen أو يضفي على الظاهرة مظهرا جديدا متميزا كيفيا من المظهر السابق وهكذا فان الماء يقسو حين يبرد لا بصورة تدريجية بل دفعة واحدة ؛ واذا هو برد من قبل حتى نقطة التجمد ، فانه يمكن ان يظل سائلا مع ذلك اذا حافظ على وضعية الراحة ، ومن ثم تكفي أوهى صدمة كي يقسو على حين غرة وفي عالم الظواهر الاخلاقية تجري نفس التبدلات من الكمي الى النوعي ، والفوارق في النوعية تقوم هنا ايضا على اساس الفوارق الكمية وهكذاا فان **الاقل قليلا والاكثر قليلا يشكلان** الحد الذي يكف الطيش ما وراءه عن كونه طيشا ليتحول الى شيء مختلف كل الاختلاف ، الى الجريمة وكذلك فان الدول ـ اذا ما تساوت الشروط الاخرى ـ تكتسب طابعا مختلف النوعية من جراء الحجم وحده وان القوانين والنظام السياسي تكتسب مغزى مختلفا كل الاختلاف مع امتداد اراضي الدولة وعدد مواطنيها* »

---

* **تاريخ المنطق** (الطبعة الاولى القسم الاول الكتاب الاول ، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤)

ويعرف العلماء الطبيعيون المحدثون على أفضل صورة حتى اي حد كبير تؤدي التبدلات الكمية الى التبدلات في النوعية ما السبب في ان قسما من الطيف الشمسي يولد فينا الاحساس باللون الاحمر وقسما آخر يولد فينا الاحساس باللون الاخضر الخ ؟ ترد الفيزياء على ذلك بأن الأشياء جميعا تتوقف هنا على عدد اهتزازات جزيئات الاثير فمن المعروف ان هذا العدد يتبدل بالنسبة الى كل لون من الوان الطيف متعاظما من الاحمر الى البنفسجي وليس هذا بكل شيء ان شدة الحرارة في الطيف تتزايد بنسبة الاقتراب من الحد الخارجي للشريط الاحمر وتبلغ اقصاها على مسافة ضئيلة منه ، خارج الطيف وانه ليترتب على ذلك ان في الطيف اشعة من نوع معين لاتصدر ضوءا بل حرارة فقط وتقول الفيزياء هنا أيضا ان صفات الاشعة تتغير بنتيجة التبدلات في عدد اهتزازات جزيئات الاثير

وليس هذا بكل شيء أيضا ان لأشعة الشمس تأثيرا كيميائيا معينا كما يتضح على سبيل المثال من الالوان التي تبهت عند التعرض لها وان مايميز الاشعة البنفسجية والاشعة المسماة فوق البنفسجية هذه التي لاتثير فينا اي احساس بالضوء هو قوتها الكيميائية الاعظم واما الفارق الكيميائي للاشعة المختلفة فيفسر مرة اخرى بالفوارق الكمية في اهتزازات جزيئات الاثير **ان الكمية تتحول الي نوعية.**

وتؤكد الكيمياء الشيء نفسه ان للاوزون صفات تختلف عن صفات الاوكسيجين ماهو منشأ هذا الاختلاف ؟ ان في جزيء الاوزون عددا من الذرات يختلف عما في جزيء الاوكسجين العادي فلنأخذ ثلاثة مركبات من ماءات الفحم CH_4 الميتان) و C_2H_6 الايتان و C_3H_8 (البروبان) ان هذه المركبات جميعا تتركب وفقا للصيغة ع ذرة من الفحم و ٢ غ + ٢ ذرة من الهيدروجين فاذا كانت ع تساوي واحدا حصلنا على الميتان واذا كانت ع تساوي اثنين حصلنا على الايتان ، واذا كانت ع تساوي ثلاثة حصلنا على البروبان وان سلاسل كاملة تتشكل بهذه الطريقة يستطيع أي كيميائي ان يحدثكم عن اهميتها ، وجميع هذه السلاسل تؤكد بالاجماع مبدأ المثاليين الجدليين القدامى القائل **انالكمية تتحول الى نوعية .**

هؤلاء نحن نعرف الآن السمات الرئيسية للفكر الجدلي لكنه يبدو للقارىء ان شيئا ما يعوزه بعد انه يسأل لكن اين هي الثلاثية الشهيرة الثلاثية التي تشكل ، كما هو معروف جيدا ، ماهية الجدلية الهيغلية بأكملها ؟ عفوك أيها القارىء، فاننا لم نأت على ذكر الثلاثية لمجرد انها **لا تلعب مطلقا في عمل هيغل الدور الذي ينسبه اليها** الناس الذين لايملكون ادنى فكرة عن فلسفة هذا المفكر ، والذين درسوها

من **كتاب القانون الجنائي** للسيد سباسوفيتش على سبيل المثال* ان هؤلاء الناس ضعاف العقول لمقتنعون تماما في بساطتهم المقدسة بأن محاكمة **المثالي** الالماني بأكملها ترتد الى الاستعانة بالثلاثية وانه مهما تكن الصعوبات النظرية **التي** اصطدم العجوز بها فقد ترك الآخرين يحطمون عليها رؤوسهم غير المستنيرة **بينما** كان هو ينتشىء في الحال وعلى شفتيه ابتسامة هادئة ، هذا القياس المنطقي **ان** جميع الظواهر تحدث وفق الثلاثية وانا اواجه ظاهرة فلأرجع الى **الثلاثية** اذن** ذلك بكل بساطة **هراء جنوني** على حد تعبير احدى شخصيات كارونين ، او **ثرثرة مناقضة للطبيعة اذا** كنتم تفضلون تعبير تششيدرين ولا تلعب « **الثلاثية** » دور **الحجة** مرة واحدة في المجلدات الثمانية عشرة لأعمال هيغل ، وكل من اطلع **بعض** الاطلاع على عقيدته الفلسفية يدرك انه **ما كان يمكن ان تلعب مثل هذا الدور** ان للثلاثية عند هيغل نفس المغزى الذي كانت تملكه من قبل عند فخته **الذي تختلف** فلسفته بصورة جوهرية عن الفلسفة الهيغلية وانه لمن البدهي ان **الجهالة المطبقة** وحدها يمكن ان تعتبر ان الصفة المميزة الرئيسية لنظام فلسفي معين هي **تلك الصفة** التي تخص **على الاقل** نظامين مختلفين كل الاختلاف

---

* يحدثنا السيد ميخائيلوفسكي فيقول حين كنت اطمح الى مهنة المحاماة طالعت بهوى ، **وان** بصورة غير منظمة مؤلفات قانونية مختلفة كان في عدادها **كتاب القانون الجنائي للسيد** سباسوفيتس ان هذا المؤلف يتضمن **عرضا مقتضيا لانظمة فلسفية مختلفة في علاقاتها بالعلم** الجنائي **ولقد تأثرت بصورة خاصة بالثلاثية الشهيرة لهيغل التي تنص على ان العقاب يصبح بقدر** كبير من الرحمة مصالحة التناقض القائم بين القانون والجريمة وان الطابع الجذاب **لثلاثية الحدود** الهيغلية في **تطبيقاتها** معروف جيدا ولا عجب في افتتاني بها في وجيز السيد سباسوفيتش ، **كما** انه لاعجب في انها اجتذبتني من بعد الى هيغل والى كثيرين سواه (**الفكر الروسي** ، ١٨٩١ المجلد الثالث ، القسم الثاني ، ص ١٨٨ انه لمن المؤسف ، والمؤسف جدا ، **ان السيد** ميخائيلوفسكي لايقول لنا حتى اية درجة ارضى حنينه الى هيغل ان جميع الظواهر **تشير الى انه** يقطع شوطا **كبيرا في هذا الاتجاه**

** يؤكد لنا السيد ميخائيلوفسكي ان الراحل ن سيبير ، حين كان يناقشه **في حتمية قيام** الرأسمالية في روسيا قد استخدم جميع الحجج الممكنة ، لكنه يختبىء **عند اوهى الاخطار خلف** ظل التطور الجدلي ثلاثي الحدود الثابت وغير المشكوك فيه **الفكر الروسي** ، ١٨٩٢ المجلد السادس ، القسم الثاني ١٩٦ وانه ليزعم كذلك ان كل ما يسميه **نبوأت** ماركس عن حصيلة التطور الرأسمالي انما يستند الى الثلاثية ولسوف **نناقش ماركس في وقت** لاحق ، لكننا نستطيع ان نلاحظ بشأن ن سيبير اننا تحاورنا معه فيما مضى اكثر من مرة **ولم نسمعه** قط يستخلص **حججه من « التطور الجدلي » ولقد قال هو نفسه اكثر من مرة انه جاهل كليا بنفوذ** هيغل **في** تطور الاقتصاد الحديث ومن المؤكد انه ليس ماهو اسهل من القاء **تبعة جميع الامور على** الموتى وبالتالي فان برهان ميخائيلوفسكي لايمكن دحضه

يؤسفنا ان « الثلاثية » الهتنا عن عرضنا . لكن بما اننا اتينا على ذكرها فلا بد لنا ان نخلص الى نتيجة . ولذا فلنر أي نوع من الطيور هي .

ان كل ظاهرة تتحول في مآل تطورها الى نقيضتها ، لكن بما ان الظاهرة الجديدة ، المناقضة للظاهرة الاولى ، تتحول بدورها الى نقيضتها الخاصة ، فان المرحلة الثالثة من التطور تحمل **تشابها صوريا مع المرحلة الاولى** . وفي الوقت الحاضر ، لنترك جانبا مسألة معرفة حتى أي مدى يتفق مجرى التطور هذا مع الواقع ، بل لنقبل بأنه من قبيل الضلال ان نتصور انه يتفق معه كليا ، لكنه من الواضح على اي حال ان « الثلاثية » انما تشكل **نتيجة** لاحدى مبادىء هيغل ، ولا تحتل عنده في حال من الاحوال مكانة المبدأ الرئيسي بالذات . وان ذلك لفارق اساسي كليا ، لأنه لو ان الثلاثية مثلت على اعتبارها مبدأ رئيسيا ، فأنه في مكنة الناس الذين نسبوا اليها مثل هذا الدور الهام ان يبحثوا اذن عن الحماية في « ظلها » . لكن بما انها لا تلعب مثل هذا الدور ، فليس من يستطيع الاختفاء وراءها الا اولئك الذين ضيعوا حمارة خالتهم على حد تعبير المثل الشائع .

ومن الطبيعي ان الحال لن تتغير على الاطلاق اذا التجأ الجدليون ، لدى ادنى خطر ، بدلا من الاختفاء خلف « الثلاثية » ، الى حماية « ظل » المبدأ القائل ان كل ظاهرة تتحول الى نقيضتها الخاصة . أبيد انهم لم يتصرفوا بهذه الطريقة ايضا . والسبب في ذلك ان المبدأ المذكور لايستنفد في حال من الاحوال آراءهم بخصوص تطور الظواهر . وفيما عدا ذلك فانهم يؤكدون على سبيل المثال بأن الكمية تتحول في عملية التطور الى النوعية ، والنوعية تتحول الى الكمية ، وبنتيجة ذلك فانه لابد لهم ان يأخذوا بعين الاعتبار مظهري العملية النوعي والكمي على حد سواء . الامر الذي يفترض مسبقا بذل اهتمام كبير لمجراها **الفعلي** في **واقع الامر** . وهذا يعني بدوره انهم لايكتفون باستخلاص **النتائج المجردة من المبادىء المجردة** — او على أي حال يجب ألا يكتفوا بمثل هذه النتائج اذا كانوا راغبين في الاستمرار في اخلاصهم لنظرتهم الى العالم .

« يؤكد هيغل في كل صفحة من مؤلفاته باستمرار وبلا كلل ان الفلسفة متماثلة مع **جماع التجربة** ، وان الفلسفة لاتتطلب شيئا باصرار قدر اصرارها على التعمق في العلوم التجريبية . ان الوقائع المادية المفتقرة الى الفكر لا تملك الا اهمية نسبية ، كما الفكر بدون وقائع مادية وهم خالص . ان الفلسفة هي ذلك **الوعي** الذي تبلغه العلوم التجريبية عن ذاتها ، ولا يمكن ان تكون شيئا آخر » .

تلك هي مهمة الباحث المفكر كما يراها **لاسال** في ضوء عقيدة الفلسفة الهيغلية* . ان من واجب الفلاسفة ان يكونوا اخصائيين في تلك العلوم التي يرغبون

---

* انظر System der erworbenen Rechte [**نظام الحقوق المكتسبة**] .

في مساعدتها على بلوغ الوعي الذاتي وان ثمة مسافة شاسعة تفصل بين الدراسة المتخصصة في موضوع معين وبين تلك الثرثرة العابثة على شرف «الثلاثية» ولا يأتين احد ليقول لنا ان لاسال لم يكن هيغليا « فعليا ، وانه كان ينتسب الى اليسار وكان يأخذ على « اليمين » انخراطه الخالص في التراكيب الفكرية المجردة ان الرجل يقول بكل صراحة انه أخذ نظرته عن هيغل بصورة مباشرة

لكن لعلكم تريدون ان تطعنوا في شهادة كاتب **نظام الحقوق المكتسبة** مثلما يطعن في شهادة الاهلين في المحاكم انا لن نجادل ولن نماحك ، بل سنطلب كشاهد شخصا غريبا عن الموضوع كليا ، الا وهو مؤلف **صور عن المرحلة الغوغولية** ، اننا نطلب الاهتمام ، فالشاهد سوف يتحدث مطولا ، وبكل حكمة كما هي عادته

« اننا لانتبع هيغل اكثر مما نتبع ديكارت او ارسطو، فهيغل يخص الان التاريخ الماضي، اما الحاضر فيملك فلسفته الخاصة ويتبين بكل وضوح النقائص في النظام الهيغلي ومهما يكن من امر ، فلا بد من الاعتراف بأن المبادىء التي قدمها هيغل كانت في واقع الامر قريبة جدا من الحقيقة ، كما ان المفكر عرض بعض مظاهر الحقيقة بقوة تبعث على الدهشة حقا الفضل في اكتشاف عدد كبير من هذه الحقائق يعود الى هيغل بالذات ، اما الحقائق الاخرى فلا تخص نظامه على وجه الحصر بل تخص الفلسفة الالمانية بمجموعها منذ ايام كانط وفخته ، لكن احدا قبل هيغل لم يصغها بمثل هذا الوضوح ولم يعبر عنها بمثل هذه القوة كما في نظامه

وقبل كل شيء يجب نشير الى المبدأ الخصب جدا لكل تقدم ، هذا المبدأ الذي يميز بكل وضوح وبصورة ساطعة جدا الفلسفة الالمانية عامة ، والنظام الهيغلي خاصة ، من الآراء المرائية والجبانة التي كانت سائدة في ذلك الحين مطلع القرن التاسع عشر) بين الفرنسيين والانكليز الحقيقة هي هدف الفكر الاسمى ؛ ابحثوا عن الحقيقة ، لان الخير في الحقيقة وكائنة ما كانت الحقيقة فهي أفضل من الباطل ان واجب المفكر الاول الا يتراجع امام اية عواقب ، فمن واجبه ان يتهيأ للتضحية بأعز الاراء عنده على مذبح الحقيقة ان الخطأ مصدر الشر كله والحقيقة هي الخير الاسمى ومصدر الخير كله وكيما يتمكن المرء من تقدير الاهمية القصوى لهذا المطلب ، المشترك بين الفلسفة الالمانية برمتها منذ ايام كانط والذي عبر عنه هيغل بقوة استثنائية ، فان عليه ان يتذكر القيود العربية والضيقة الي فرضها على الحقيقة مفكرو المدارس الاخرى في ذلك العصر انهم لم يأخذوا في التفلسف الا كي يبرروا المعتقدات العزيزة على قلوبهم أي أنهم لم يبحثوا عن الحقيقة بل عن التأييد لمستبقاتهم لقد تناول كل منهم من الحقيقة ما حلا له ورفض كل حقيقة لم تحل له ، معترفا بكل صراحة بأن الخطيئة السائغة تناسبه اكثر من الحقيقة المنزهة حتى درجة كبيرة وان الفلاسفة الالمان (وهيغل خاصة) قد سموا هذا السعي لا خلف الحقيقة بل خلف اثبات المستبقات السائغة الفكر الذاتي ايها القديسون في الاعالي لعل هذا هو السبب في ان مفكرينا الذاتيين سموا هيغل مدرسيا ؟ - المؤلف) . « التفلسف من أجل اللذة الشخصية وليس من أجل الحاجة الحيوية

للحقيقة ان هيغل قد شجب بقسوة هذه السلبية الخبيثة والعابثة » (اصغوا جيدا !)
« ولقد قدم هيغل « طريقته الجدلية في التفكير » الشهيرة كتدبير واق ضد الاتجاه الى الاشاحة عن الحقيقة في مصلحة الرغبات والمستبقات الشخصية وان جوهر تلك الطريقة يستقيم في ان من واجب المفكر الا يرضى بأي استقراء ايجابي ، بل يجب ان يبحث عما اذا كان الموضوع الذي يفكر فيه ينطوي على صفات وقوى هي مناقضة لتلك الصفات والقوى التي اظهرها الموضوع له عند النظرة الاولى وهكذا كان المفكر ملزما بأن يدرس الموضوع من سائر جوانبه ، وقد بدت الحقيقة له من حيث هي مجرد عاقبة نزاع قائم بين الاراء المتعارضة الممكنة وبصورة تدريجية ، بنتيجة هذه الطريقة ، استبدلت التطورات الضيقة السابقة عن الموضوع باستقصاء كامل وجامع ، وبذلك تم الحصول على تصور حي عن جميع صفات الموضوع الواقعية ولقد اصبح الواجب الرئيسي للفكر الفلسفي هو تفسير الواقع. ومن هنا كان اهتمام فائق بالواقع الذي كان موضع التجاهل سابقا وقد تعرض للتشويه دونما ادنى تردد في مصلحة المستبقات الشخصية المحدودة [De te fabula narratum ! * وهكذا فان بحثا مخلصا لا يكل ولا يتعب عن الحقيقة قد اخذ مكان التعليلات الاعتباطية السابقة ومهما يكن من امر ، فان جميع الاشياء تتوقف في واقع الامر على الظروف ، على شروط المكان والزمان ، وبالتالي فقد وجد هيغل ان العبارات العامة السابقة التي كانت تصدر الاحكام بها على الخير والشر دون دراسة الظروف والاسباب التي تؤدي الى قيام ظاهرة معينة ، أن جوامع الكلم المجردة هذه لايمكن ان ترضي الفكر ان لكل موضوع ، لكل ظاهرة مغزاها الخاص ، ويجب ان يصدر الحكم عليها وفقا للبيئة التي توجد فيها ولقد تم التعبير عن هذه القاعدة بالصيغة التالية ليس ثمة حقيقة مجردة ، فالحقيقة مشخصة » ، يعني أن حكما محددا لايمكن اصداره الا عن حقيقة محددة ، بعد دراسة سائر الظروف التي تتوقف عليها **

---

* [انت المقصود بهذا الحديث هوراس ، **القصيدة الاولى**]

** تشيرنيشيفسكي ، **صور من المرحلة الغوغولية من الادب الروسي** ، بطرسبورغ ١٨٩٢ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ ويحدد المؤلف بصورة مرموقة في هامش خاص ما الذي يقصده بهذه الدراسة المنصبة على جميع الظروف التي تتوقف الظاهرة عليها وسوف نستشهد هنا بهذا الهامش أيكون المطر خيرا ام شرا ؟ هذا مثال على مسألة مجردة ، ولا يمكن اعطاء جواب محدد عنه ان المطر مفيد ، ومع ذلك فانه ضار احيانا ، وان يكن بصورة أندر جدا ويجب على المرء ان يطرح سؤالا دقيقا بعدما تمت زراعة البذور امطرت السماء بغزارة طوال خمس ساعات ـ المطر مفيدا للمحصول ولسوف يكون الجواب واضحا ودقيقا لقد كان المطر بالغ الفائدة ـ لكن السماء أمطرت سيولا طوال اسبوع في ذلك الصيف نفسه ، عندما حان أوان الحصاد أكان المطر مفيدا للمحصول ؟ والجواب « كلا ، لقد كان هذا المطر ضارا ، هو جواب سواء في وضوحه وصحته كذلك تقرر جميع المسائل من قبل الفلسفة الهيغلية أتكون الحرب ضارة ام نافعة ؟ هذا سؤال لايمكن الجواب عنه بصورة واضحة على العموم يجب ان يعرف المرء ما هي الحرب المقصودة ، فالامور جميعا تتوقف على الظروف والمكان

وهكذا يقال لنا من جهة واحدة ان الصفة المميزة لفلسفة هيغل هي استقصاؤها بالغ الدقة للواقع ، الموقف الاشد اخلاصا حيال اي موضوع خاص ، دراسة هذا الموضوع في بيئته الحية ، مع سائر تلك الظروف المكانية والزمانية التي تحدد وجوده او ترافقه ان شهادة ن.ع. تشيرنيشيفسكي متماثلة في هذه الحالة مع شهادة ف لاسال ومن جهة ثانية يقال لنا ان هذه الفلسفة مدرسية جوفاء يستقيم سرها كله في استخدام الثلاثية بصورة سفسطائية وفي هذه الحال فان شهادة السيد ميخائيلوفسكي تتفق كل الاتفاق مع شهادة السيد ف.ف. وجحفل كامل من الكتاب الروس المحدثين الآخرين كيف يمكننا ان نفسر هذا التباعد في الشهادات ؟ فسروه كما يحلو لكم ، لكن تذكروا ان لاسال ومؤلف **صور من المرحلة الغوغولية** كانا يعرفان الفلسفة التي يتحدثان عنها ، بينما السادة ميخائيلوفسكي و ف.ف. واخوتهما لم يكلفوا انفسهم بكل تأكيد عناء دراسة حتى مؤلف واحد من مؤلفات هيغل

ولاحظوا ان مؤلف **الصور** لا يقول كلمة واحدة عن الثلاثية وهو يعرّف الفكر الجدلي كيف حدث انه لم يلاحظ ذلك الفيل نفسه الذي كان السيد ميخائيلوفسكي وشركاه يعرضونه بكل عناد وباحتفال عظيم على انظار الكسالى ؟ نرجو مرة اخرى ان تتذكروا أن مؤلف **صور من المرحلة الغوغولية** كان يعرف فلسفة هيغل بينما لايملك السيد ميخائيلوفسكي وشركاه أية فكرة عنها

ولعله مما يسر القارىء ان يتذكر بعض الاحكام الأخرى عن هيغل الصادرة عن مؤلف **صور من المرحلة الغوغولية** ؟ ولعله يحيلنا الى المقالة الشهيرة نقد المستبقات الفلسفية ضد الملكية المشاعة للارض ؟ ان هذه المقالة تتحدث عن الثلاثية ، وجميع المظاهر تشير الى ان هذه الثلاثية تقدم من حيث هي حصان القتال الرئيسي للمثالي الالماني **لكن ظاهريا فقط** ان الكاتب يؤكد في مناقشته لتاريخ الملكية انها ستعود في المرحلة الثالثة والعليا من تطورها الى نقطة انطلاقها اي ان الملكية الخاصة للارض ووسائل الانتاج سوف تفسح المكان للملكية الاجتماعية وانه يقول ان مثل هذه العودة قانون عام يتظاهر في كل عملية تطورية وفي حقيقة الامر ان حجة المؤلف في هذه الحال ليست سوى اسناد الى الثلاثية وفي هذا يقوم عيبها

والزمان ان مضار الحرب ملموسة بصورة أقل لدى الشعوب المتوحشة ، ومنافعها ملموسة عندهم بصورة أعظم وبالنسبة الى الشعوب المتحضرة تسيء الحرب أكثر مما تنفع بيد ان حرب عام ١٨١٢ على سبيل المثال كانت حربا للخلاص بالنسبة الى الشعب الروسي ، كما ان معركة ماراثون كانت حدثا عميم الفائدة في تاريخ الجنس البشري ذلك هو معنى القول المأثور ليس ثمة حقيقة مجردة ، فالحقيقة مشخصة يكون المفهوم مشخصا عندما يمثل موضوعه بجميع صفاته وخصائصه ، وفي البيئة التي يوجد فيها وليس مجردا عن هذه الظروف وعن صفاته الحية الخاصة (كما يمثله الفكر المجرد الذي تملك أحكامه اذن أي معنى بالنسبة الى الحياة الواقعية)

الاساسي **انها مجردة** فتطور الملكية يدرس دون ارتباط بشروطه التاريخية المشخصة ــ ولذا كانت حجج المؤلف ذكية ولامعة ، لكنها غير مقنعة انها تدهش ، وتبهر لكنها لاتقنع لكن أيكون هيغل مسؤولا عن هذا العيب في حجة كاتب « نقد المستبقات الفلسفية » ؟ اتحسبون حقا ان حجته ستحافظ على طابعها المجرد لو انه اخذ الموضوع بعين الاعتبار بالطريقة التي كان هيغل حسب شهادته الخاصة ، ينصح بأن تؤخذ سائر المواضيع بعين الاعتبار وفقا لها يعني بالبقاء على ارض الواقع مع تقدير جميع الشروط المشخصة جميع الظروف المكانية والزمانية ؟ كلا فيما يبدو فالظواهر تشير الى اننا ما كنا نسجل مثل هذا العيب في المقالة فما اصل هذا العيب اذن اصله ان كاتب مقالة نقد المستبقات الفلسفية ضد الملكية المشاعية للارض نسي ، في دحضه حجج خصومه المجردة نصائح هيغل الجيدة **ولم يكن مخلصا لطريقة** هذا المفكر بالذات الذي يستشهد به وانه ليؤسفنا ان نكون قد ارتكب مثل هذه الخطيئة في حمأة المناظرة ؛ لكن ايكون هيغل مرة اخرى ملوما لأن كاتب « نقد المستبقات الفلسفية » برهن في هذه الحالة الخصوصية على عجزه عن استخدام طريقه ؟ ومتى كانت الاحكام على الانظمة الفلسفية تصدر ليس وفقا لمضمونها الباطن بل وفقا للاخطاء التي يمكن ان يرتكبها الناس الذين يستشهدون بها ؟

ومرة اخرى ، مهما كان اصرار الكاتب الذي اتيت على ذكره في اسناده الى الثلاثية . فانه لايجعل منها مع ذلك حجر الاساس في الطريقة الجدلية فليست الثلاثية عنده المبدأ الاساسي هنا بل على الاكثر نتيجة غير مشكوك فيها ان مبدأ الجدلية الاولي صفتها الميزة الرئيسية مبينة عنده بالكلمات التالية « **تبدل الاشكال الابدي ، الانكار الابدي لشكل ولده مضمون معين او اتجاه معين ، بنتيجة اشتداد هذا الاتجاه ، او التطور الاعلى لذلك المضمون بالذات** ــ ان من فهم هذا القانون العظيم ، الازلي العمومي ، وتعلم ان يطبقه على سائر الظواهر ــ أواه ! بأي هدوء ستنجد بالقدر الذي يخشاه الآخرون الخ

تتابع الاشكال الابدي الانكار الابدي لشكل ولده مضمون معين ان المفكرين الجدليين ينظرون بالفعل الى مثل هذا التبدل ، الى مثل هذا الانكار للاشكال على انه قانون عظيم وازلي وعمومي ان بعض الاخصائيين في العلوم الاجتماعية الذين لايملكون الجرأة على مواجهة الحقيقة ويتمسكون بالدفاع عن المستبقات العزيزة عليهم حتى بمساعدة الضلال هم وحدهم الذين لاشاركون في هذا الرأي في الوقت الحاضر وان من واجبنا ان نقدر اكثر فأكثر جدارة المثاليين الالمان الكبار الذين تحدثوا باستمرار ، منذ اوائل القرن الحالي ، عن تبدل الاشكال الابدي ، عن انكارها الابدي بنتيجة اشتداد المضمون الذي ولد تلك الاشكال

وقبل قليل تركنا دون تمحيص « **بصورة مؤقتة** » ، مسألة ما اذا كانت كل ظاهرة تتحول ، كما يفكر المثاليون الجدليون الالمان الى نقيضتها الخاصة . واننـــ

لنأمل ان يوافقنا القارىء الان على ان هذه المسألة لاتحتاج الى تمحيص على الاطلاق. فحين تطبقون الطريقة الجدلية على دراسة الظواهر يجب ان تتذكروا ان **الاشـكال تتبدل ابدا بنتيجة « التطور الاعلى لمضمونهـا** واذا كنتم راغبـين في اسـتنفاد موضوعكم فان عليكم ان ترسموا هذه العملية الخاصة بانكار الاشكال في كمالها أما ما اذا كان الشكل الجديد نقيضا للشكل القديم فهذا ما سوف تتبينونـه مـن التجربة ولا اهمية على الاطلاق لمعرفة هذا الامر بصورة مسبقة وصحيح ان كـل حقوقي فطن سوف نخبركم بالضبط بالاستناد الى التجربـة التاريخيـة للجنس البشري بأن كل مؤسسة قانونية سوف تتحول عاجلا أو آجلا الى نقيضتها بالذات. انها تلبي في الوقت الحاضر بعض الحاجات الاجتماعية ، وهي اليوم نافعة وضروريـة نظرا لهذه الحاجات بالضبط ، ومن بعد تأخذ في تلبية هذه الحاجات بصورة متعاظمة السوء واخيرا تتحول الى **عائق** في سبيل تلبيتها انها تتحول من شيء **ضروري** الى سيء **ضار** ــ ومن ثم تضمحل خذوا ماشئتم من تاريخ الادب او تـاريخ الانـواع ــ ولسوف تشاهدون مثل هذه الجدلية حيثما يوجد تطور لكن ذلك الذي يريد ان ينفذ الى طبيعة العملية الجدلية مبتدئا قبل كل شيء باختبار فكرة **تعارض** الظواهر التي تسكل سلسلة في داخل كل عملية تطورية انمـا يقترب مـن الفضيلة بصـورة مقلوبة اذن

وبالفعل فان انتقاء وجهة النظر ينطوي ، في مثل هذا الاختبار ، على قدر كبير من **التعسف** فالمسألة يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار من جانبهـا الموضوعي وبكلام آخر فان من واجب المرء ان يتساءل ماهو هذا التبدل الحتمي للاشكال الذي ينطوي عليه تطور مضمون محدد ؟ تلك هي الفكرة نفسها وقـد تم التعبير عنهـا بكلمـات مختلفة لكنه عند اختبارها في الممارسة لا مكان للانتقاء التعسفي لان وجهة نظر الباحث محددة **بطبيعة الاشكال والمضمون بالذات**

وفي رأي انجلز ان جدارة هيغل تقوم في كونه سباقا الى اعبار سائر الظواهـر من وجهة نظر تطورها من وجهـة نظـر نشوئهـا ودمارهـا ويقـول السـيد ميخائيلوفسكي

> أما ما اذا كان السباق الى ذلك فأمر يحتمل الجدال ؛ لكنه لم يكن الاخير على أي حال ، ونظريات التطور الحديثة ــ تطورية سبنسر والدارونية وافكار التطور في علم النفس وعـلم الفيزيـاء وعـلم طبقـات الارض الخ ــ لاتملـك ادنى علاقة مشـتركة بالهيغلية ✻

اذا كانت العلوم الطبيعية الحديثة تثبت لدى كل خطوة الفكرة الهيغلية العبقرية عن التحول من الكمية الى الكيفية اكون لنا الحق في الادعاء بأنها لاتملك ادنى علاقة مشتركة مع الهيغلية ؟ وصحيح ان هيغل لم نكن « الاخير بين اولئك الذين تحدثوا

✻ **الثروة اروسية .** ، ١٨٩٤ المجلد الثاني ، ص ١٥٠ .

عن مثل هذا التحول،لكن لنفس ذلك السبب الذي لم يكن داروين من أجله « الأخير » بين أولئك الذين تحدثوا عن تحول الانواع كما لم يكن نيوتن الاخير بين اتباع نيوتن ماذا تستطيعون ضد ذلك ؟ تلك هي مسيرة الفكر البشري ! **اطلق فكرة صحيحة** ومن المؤكد انك لن تكون الاخير بين المدافعين عنها قل **حماقة** ما ، وبالرغم من ان الناس قد يقبضونها بادىء الامر فانك تجازف مع ذلك بأن تكون آخر من يدافع عنها وهكذا يجازف السيد ميخائيلوفسكي مجازفة كبرى ، في رأينا المتواضع بأن يكون المدافع الاخير » عن الطريقة الذاتية في علم الاجتماع » ؛ واذا شئتم الصراحة فاننا لانجد سببا للاسف على هذه المسيرة الخاصة بتطور العقل

اننا ندعو بالاحرى السيد ميخائيلوفسكي ـ الذي يجد ان جميع الامور في العالم تحتمل الجدال والكثير سوى ذلك ـ الى دحض موضوعتنا التالية حينما ظهرت فكرة التطور ـ في علم النفس وعلم الفيزياء وعلم طبقات الارض ، الخ » ـ فمما لا ريب فيه انها تملك دائما « علاقة مشتركة كبيرة مع الهيغلية أي ان احدث نظريات التطور تستأنف دونما جدال ممكن بعض الموضوعات العامة التي قدمها هيغل .(ونقول **بعض** لا **كل** لان الكثيرين من علماء التطور المحدثين المفتقرين الى الثقافة الفلسفية اللازمة يفهمون التطور **بصورة مجردة ومحدودة** ومثال ذلك اولئك الناس الذين سبق ذكرهم والذين يؤكدون لنا انه لا الطبيعة ولا التاريخ يقومان بقفزات ان مثل هؤلاء الناس يحققون كسبا كبيرا من الاطلاع على **منطق** هيغل فليدحضنا السيد ميخائيلوفسكي لكن عليه الا ينسى مطلقا انه لن يستطيع ذلك بمعرفة هيغل من موجز القانون الجنائي » وحده للسيد سباسوفيتش ومن كتاب لويس **تاريخ الفلسفة** ان عليه ان يكلف نفسه عناء دراسة هيغل بالذات

وحين نقول ان التعاليم الراهنة لعلماء التطور تملك علاقة مشتركة كبيرة مع الهيغلية فاننا لانؤكد ان علماء التطور الحاليين استعاروا آراءهم من هيغل،بل الامر على النقيض من ذلك تماما اذ كثيرا مايخطئون في نظرتهم اليه كما يفعل السيد ميخائيلوفسكي واذا كانت نظرياتهم بصورة جزئية على الاقل وحيث يتضح انها صحيحة ، تشكل برهانا حديثا على « الهيغلية فان هذا الظرف انما يبرهن بمزيد من القوة على ما يتحلى به المثالي الالماني من فكر جبار ؛ فالناس الذين لم يقرؤوه قط ملزمون بفعل قوة الحقائق وحدها وشهادة « الواقع البينة ان يتكلموا كما تكلم هو وليس في مقدور المرء ان يتصور أعظم من هذا الظفر بالنسبة الى فيسلوف ان **القراء** يجهلونه لكن **الحياة** تثبت آراءه

وانه ليصعب بعد حتى هذا اليوم ان نقرر حتى اية درجة تأثرت العلوم الطبيعية بصورة مباشرة بالمثاليين الالمان في الاتجاه آنف الذكر ، وان يكن مما لا جدال فيه ان العلماء الطبيعيين في المانيا كانوا يدرسون في النصف الاول من هذا القرن

الفلسفة في الجامعة ، وان بعض علماء الحياة الافذاذ مثل هيكل يتحدثون اليوم بكل احترام عن النظريات التطورية لبعض فلاسفة الطبيعة بيد ان فلسفة الطبيعة كانت نقطة الضعف في المثالية الالمانية التي تستقيم قوتها في **نظرياتها التي تعالج الجوانب المختلفة للتطور التاريخي** اما بالنسبة الى هذه النظريات فليتذكر السيد ميخائيلوفسكي ـ اذا كان قد سبق له علم ذلك ـ ان تلك الكوكبة المتألقة من المفكرين والباحثين الذين جددوا كليا دراسة الدين وعلم الجمال والقانون والاقتصاد السياسي والتاريخ والفلسفة وهلم جرا قد خرجوا جميعا من مدرسة هيغل بالضبط ففي جميع هذه الفروع من المعرقة ، وخلال مرحلة معينة بالغة الخصب ، لم يكن ثمة اخصائي شهير الا وكان مدينا لهيغل بتكوينه وبآرائه المستحدثة في فرعه الخاص من المعرفة ايعتقد السيد ميخائيلوفسكي ان هذا الامر يحتمل الجدال » ايضا ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فليحاول اذن

حين يتحدث السيد ميخائيلوفسكي عن هيغل يحاول ان يفعل ذلك بحيث يفهمه الناس غير المطلعين على « اسرار هذه القلنسوة الفلسفية ليفور فيدوروفيتش (٢٣) كما كان بيلنسكي يسميه قذعا حين رفع راية العصيان ضد هيغل وانه ليتناول في سبيل هذا الغرض مثالين من كتاب انجلز انتي دوهرنغ (لماذا لايتناولهما من هيغل نفسه ؟ ان ذلك ليلائم بصورة افضل كائنا مطلعا على الاسرار ، الخ

تقع حبة الشوفان في شروط ملائمة ، فتمد جذورا ، وبالتالي **تنكر بصفتها هذه** ، من حيث هي حبة وان ساقا تنمو في مكانها ، وهذه الساق **انكار** للحبة ؛ وتنمو النبتة ، وتحمل ثمارا ، أي حبوبا جديدة من الشوفان ، وحين تنضج هذه الحبوب تموت الساق لقد كانت **انكارا** للحبة ، وهذه هي الآن **تنكر** هي نفسها ومن بعد فان هذه العملية من « **الانكار** و انكار **الانكار** تتكرر عددا **لا** متناهيا » كذا من المرات وان **التناقض** ليقوم في اساس هذه العملية ان حبة الشوفان هي حبة وهي **ليست** حبة في الوقت نفسه ، نظرا لانها على الدوام في حالة من النمو الفعلي الكموني

ومن المفروغ منه ان هذا الامر يحتمل الجدال » في نظر السيد ميخائيلوفسكي. واليكم كيف ينتقل من هذه القدرة الجذابة الى الفعل

ان المرحلة الاولى ، مرحلة الحبة ، هي الطريحة أو الموضوعة ، والمرحلة الثانية حتى تشكل الحبوب الجديدة هي النقيضة أو التناقض ، والمرحلة الثالثة هي التركيب أو المصالحة » ان السيد ميخائيلوفسكي قد قرر ان يكتب للجماهير ، ولذا فهو لا يترك اية كلمة اغريقية دون تفسير او ترجمة والمراحل الثلاث جميعا تشكل الثلاثية ، أي ثلاثية الحدود وذلك هو مصير كل حي انه ينشأ ، وينمو ، ويقدم مبدأ تكرره ، ومن بعد يموت وان عددا كبيرا من التظاهرات المنعزلة لهذه العملية تقوم في الحال في ذاكرة القارىء طبعا ، وقانون هيغل يثبت صحته في العالم العضوي بأسره (ولا نذهب في الوقت الحاضر الى ابعد من ذلك) وعلى أي حال ، فاننا اذا تعمقنا في مثالنا تبين لنا ما يتصف

به تعميمنا من سطحية واعتباطية بالعتين لقد اخذنا بالفعل حبة ، وساقا ، ومن جديد حبة أو بصورة ادق مجموعة من الحبوب لكن النبتة تزهر قبل ان تثمر وحين نتحدث عن الشوفان ، أو عن أي نوع آخر من الحبوب ذات الاهمية الاقتصادية ، فاننا نستطيع ان نأخذ بعين الاعتبار الحبة المزروعة والساق ، والحبة التي حصدت اما ان نعتبر ان هذه المراحل الثلاث قد استنفدت حياة النبتة بكاملها ، فذلك أمر غير معقول على الاطلاق ففي حياة النبات تترافق مرحلة الازهار باشتداد للقوى بالغ واصيل ، وبما ان الزهرة لاتنشأ من الحبة بصورة مباشرة ، فاننا نواجه ، حتى التزمنا بمصطلحات هيغل ، لا ثلاثية حدود بل على الاقل رباعية حدود ، يعني انقساما رباعيا ان الساق تنكر الحبة ، والزهرة تنكر الساق ، والثمرة تنكر الزهرة وان حذف مرحلة الازهار لذو اهمية كبيرة بالمعنى التالي أيضا . فلعله كان جائزا[1] في ايام هيغل اتخاذ الحبة منطلقا في حياة النبتة ، وقد يكون من الجائز ان نفعل ذلك حتى في اليوم الراهن من وجهة النظر الزراعية ان السنة الزراعية تبدأ بالبذار بيد ان حياة النبتة لا تبدأ مع الحبة فنحن نعرف على أفضل وجه في الوقت الحاضر ان الحبة شيء معقد جدا في بنيته ، وهي تمثل بذاتها نتاج تطور الخلية ، وان الخلايا اللازمة من أجل التكاثر تتشكل بالضبط في برهة الازهار وهكذا فان الامر لا يقتصر في المثال المأخوذ من الحياة النباتية على ان نقطة الانطلاق اتخذت بصورة اعتباطية وغير صحيحة ، بل ان العملية حشرت بصورة مصطنعة ، ومرة اخرى بصورة اعتباطية ، في اطار ثلاثية الحدود* وان النتيجة هي **لقد حان الاوان لنكف عن الاعتقاد بان الشوفان ينمو حسب هيغل** » (٢٤)

كل شيء يجري كل شيء يتغير قديما وهو طالب كان كاتب هذه السطور معنيا بالعلوم الطبيعية فقد كان الشوفان ينبت « حسب هيغل » ؛ لكننا نعرف جيدا » في الوقت الحاضر ان تلك كانت حماقة ، **وقد غيرنا الان ذلك كله****: اترانا « نعرف » حقا ما الذي « نحن نتحدث عنه ؟

ان السيد ميخائيلوفسكي لايقدم المثال الذي اخذه عن انجلز كما يعرضه انجلز نفسه فانجلز يقول

تختفي الحبة من حيث هي حبة ، **تنكر** ، تستبدل بالنبتة المولودة منها انكار الحبة لكن ماهو المسلك الطبيعي لهذه الحبة ؟ انها تنمو ، تزهر ، تلقح ، وتنتج اخيرا حبات جديدة من الشعير*** ؛ وحالما تنضج هذه الحبات تضمحل الساق ، اذ تنكر من جهتها وكنتيجة لهذا الانكار للانكار نحصل مرة اخرى على حبة الشعير الاصلية ، لكن لا حبة واحدة ، بل اكثر عشر أو عشرين أو ثلاثين مرة »

---

* **المصدر نفسه ، الكتاب الثاني ، ص ١٥٤ ــ ١٥٧**

** Nous avons changé tout cela بالفرنسية في النص الاصلي

*** يتحدث انجلز عن الشعير وليس عن الشوفان ، لكن هذا الامر لا اهمية له طبعا .

ان انكار الحبة عند انجلز هو النبتة بكاملها التي تتضمن دورتهـا الحياتيـة **الازهار والالقاح** على حد سواء والسيد ميخائيلوفسكي ينكر النبتة مستبدلا اياها بكلمة **الساق** ومن المعروف ان الساق لاتشكل الا **جزءا واحدا** من النبتة ، ومن المفروغ منـه انهـا **تنكر** مـن قبـل اجزائهـا الاخـرى Omnis determinato est negatio ✻ لكن ذلـك هـو السبب بالضبط الـذي ينكر السـيد ميخائيلوفسكي من أجله العبارة التي يستخدمها انجلز مستبدلا اياها بعبارة خاصة به انه ينادي بأن الساق تنكر الحبة ، والزهرة تنكر الساق والثمرة تنكر الزهرة فهناك رباعية الحدود على الاقل هذا صحيح يا سيد ميخائيلوفسكي لكن ذلك انما يبين انك في مناظرتك مع انجلز لاتتوقف حتى عند كيف اعبر عن ذلـك بقـدر اكبر من اللطف **((مرحلة)) تحريف كلمات خصمك** وان هـذه الطريقـة لذاتية حتى درجة ما

وحين تتم مرحلة التحريف عملها ، فان الثلاثية المقيتة تنهار مثل بيت من

لقد حذف مرحلة الازهار و حذف مرحلة الازهار ذو اهمية عظيمة —

هذا ما يأخذه ((عالم الاجتماع الروسي على الاشتراكي الالماني ولقد راى القارىء ان مرحلة الازهار لم تحذف من قبل انجلز بل من قبل السيد ميخائيلوفسكي، عند عرضه لآراء انجلز ؛ وهو لا يجهل ان مثل هذا الحذف تعلق عليه في عـالم الادب اهمية كبيرة وان تكن اهمية سالبة ان المرحلة التي استخدمها السـيد ميخائيلوفسكي هنا لاتشرفه على الاطلاق لكن ما عساه يفعل ؟ ان ((الثلاثية مقيتة حدا والانتصار لذيذ جدا و الناس غير المطلعين بتاتا على اسرار القلنسوة السهيرة لسذج حتى درجة كبيرة

نحن جميعا نعلق منذ الولادة
اهمية عظيمة على شرف الزوج ؛
لكن بعض الظـروف القـاهرة
تجعلنا نخطىء بالرغم منا✻✻

ان الزهرة عضو من النبتة ، وهي بصفتها هذه عاجزة عن انكار النبتة بقـدر عجز رأس السيد ميخائيلوفسكي عـن انكار السـيد ميخائيلوفسكي نفسـه لكن الثمرة وبصورة ادق البويضة الملقحة هي بالفعل انكار النبتة التي ولدتها طالما انها تشكل نقطة انطلاق عملية حياتية جديدة وان انجلز ليأخذ بعين الاعتبار كذلك دورة حياة النبتة منذ بداية تطورها انطلاقا مـن البيضة الملقحة حتى **تكاثرها** المنتج لبويضة ملقحة اخرى ويشير السيد ميخائيلوفسكي بلهجة العالم ببواطن الامور الى ان ((حياة النبتة لاتبدأ مع الحبة وانا ((نعرف جيدا في الوقت الحاضر)) وهلم

✻ [كل تحديد هو انكار سبينوزا الرسالة الخمسون]

✻✻ [اوفنباخ **هيلين الفاتنة**]

جرا وباختصار ان احدا لايجهل حاليا ان البذرة تلقح ابان الازهار وان انجلز ليعرف ذلك طبعا قدر معرفة السيد ميخائيلوفسكي له لكن ما الذي يثبته ذلك ؟ واذا كان السيد ميخائيلوفسكي يفضل ان نسعيض عن **الحبة بالبويضة الملقحة** ، فان معنى الدورة الحياتية للنبتة لايتعرض بذلك لأي تعديل ، ولن تكون الثلاثية قد دحضت ان الشوفان سوف يستمر في النمو وفقا لهيغل »

ولنفترض على أي حال ان مرحلة الازهـار تطيح بجميع حجج الهيغليين ما عسانا نفعل بالنباتات التي لاتزهر كي نرضي السيد ميخائيلوفسكي ؟ هل سيتخلى عنها لسيطرة « الثلاثية ؟ ذلك تنازل خاطىء ، لأن الثلاثية سوف تسيطر اذا على عدد كبير جدا من المواضيع

ونحن لم نطرح هذا السؤال الا محاولة لاستكشاف فكرةالسيد ميخائيلوفسكي، لاننا لانبرح نحن أنفسنا مقتنعين بأنه لايمكن الافلات من الثلاثية حتى بواسطة الزهرة » ولسنا وحدنا الذين نفكر على هذا الفرار فهذا مايقوله مثلا العالم النباتي فيليب فان تييفيم

مهما يكن شكل النبتة ، ومهما تكن الزمرة التي تنتسب اليها من جراء هذا الشكل، فان جسدها ينشأ على الدوام من جسد آخر كان موجودا قبلها وهو قد انفصل عنه وانه ليفصل بدوره عن كتلته ، في لحظة معينة ، اقساما خاصة تصبح نقاط الانطلاق أو البذور لاجساد جديدة بعددها ، وهلم جرا وبكلمة واحدة فانها تتكاثر كما ولدت ، بالانفصال*

تفضل وخذ هذا بعين الاعتبار ؟ هذا عالم شهير ، عضو في المجتمع ، استاذ في متحف التاريخ الطبيعي يتحدث مثل هيغلي حقيقي فيقول ان كل شيء يبدأ بالانفصال وينتهي به من جديد ، ولا ينطق بكلمة واحدة عن « مرحلة الازهار » ؟ واننا لندرك كم سيكون هذا الامر مزعجا بالنسبة الى السيد ميخائيلوفسكي لكن ما العمل ؟ ان الحقيقة كما يعرف الجميع أغلى من افلاطون

لكن لنفترض مع ذلك ان مرحلة الازهار تطيح بالثلاثية في هذه الحال ، اذا التزمنا بمصطلحات هيغل ، فاننا لا نواجه ثلاثية حدود ، بل على الاقل رباعية حدود ، يعني انقساما رباعيا » ان « مصطلحات هيغل » تذكرنا **بموسوعته** واننا لنفتح الجزء الاول منها ونعلم منه ان ثمة حالات كثيرة تتحول فيها **ثلاثية الحدود** الى **رباعية الحدود** ، وان ثلاثية الحدود على العموم لاتسود الا في ميدان الفكر **وحده**** وانه ليترتب على ذلك ان الشوفان ينمو وفقا لهيغل » ، كما يؤكد لنا فان تييفيم ، بينما هيغل يتصوره **حسب السيد ميخائيلوفسكي** ، كما تؤكد لنا Enztklopädie der philosophischen Wissenschaften im Grundrisse ***

---

* **مبحث علم النبات** (الطبعة الثانية) ، باريس ١٨٩١ ، الجزء الاول ، ص ٢٤ .

** Enzyklopädie erster Teil ، الفقرة ٢٣٠

*** [**الموسوعة المختصرة للعلم الفلسفي**]

يا عجبا هي تبحث عنه وهو يبحث عني وانا ابحث عن الساقي *

وهذا مثال آخر مأخوذ عن انجلز من قبل السيد ميخائيلو فسكي من أجل تنوير « غير المطلعين وهو يتعلق هنا بافكار روسو (٢٥)

في رأي روسو البشر كانوا متساوين مثل الحيوانات في حالتي الطبيعة والتوحش بيد ان الانسان يتميز بقدرته على الكمال ، وقد بدأت عملية الكمال هذه مع ظهور التفاوت ومنذ ذلك **الحين** كانت كل خطوة جديدة في الحضارة متناقضة كانت « في الظاهر خطوة نحو كمال الانسان الفرد ، لكن في واقع الامر نحو انحطاط النوع وقد كان التعدين والزراعة الفنين اللذين ادى اكتشافهما الى هذه الثورة الكبرى الذهب والفضة بالنسبة الى الشاعر لكن الحديد والقمح بالنسبة الى الفيلسوف ، هما اللذان مدنا البشر ودمرا النوع البشري **

ويستمر التفاوت في النمو ويتحول مرة اخرى عند بلوغه الاوج ، في الانظمة الاستبدادية الشرقية ، الى المساواة العمومية للتفاهة العمومية ، يعني يعود الى نقطة انطلاقه ومن بعد تؤدي العملية بتواصل نموها الى مساواة العقد الاجتماعي

هكذا يورد السيد ميخائيلو فسكي المثال الذي قدمه انجلز وانه لامر مفروغ منه انه يجد ان هذا الامر أيضا « يحتمل الجدال »

« ان تفسير انجلز يثير ملاحظات عديدة ، لكن الذي يهمنا فقط ما الذي يقدره على وجه الدقة في مبحث روسو (Le discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes انه لا يتطرق الى مسألة ما اذا كان روسو يصيب أو يخطىء في فهم مجرى التاريخ ، بل كل مايهمه هو ان روسو يفكر جدليا انه يرى التناقض في محتوى التقدم بالذات ويرتب عرضه بحيث يجعله قابلا للتكيف مع الصيغة الهيغلية الخاصة **بالانكار وانكار الانكار** . وفي الحقيقة انه يمكن القيام بذلك حتى اذا لم يكن روسو عارفا بالصيغة الجدلية الهيغلية

كان ذلك الاشتباك الاول مناوشة دورية متقدمة ضد « الهيغلية » في شخص انجلز ثم يأتي الهجوم *** sur toute la ligne

لقد كان روسو ، دون ان يعرف هيغل ، يفكر جدليا وفقا لهيغل لماذا روسو وليس فولتير أو أي شخص آخر ؟ لان جميع الناس ، بفعل طبيعتهم بالذات ، يفكرون جدليا ومع

---

* من المسرحية الفكاهية لغريبوئيدوف **فرط الذكاء مصيبة**]

** **مقالة في اصل واسس التفاوت بين البشر** ، القسم الثاني ، **مؤلفات روسو**،جنيف١٧٨٢ ، المجلد الاول ، ص ٩٧ — ٩٨

*** [على طول الخط]

ذلك فان روسو على وجه الدقة هو الذي يقع الاختيار عليه ، وهو امرؤ يتفوق على معاصريه ليس بمواهبه الطبيعية ـ فالكثيرون لم يكونوا يتخلفون عنه في هذا المضمار ـ بل بذهنيته الخاصة وطبيعة نظرته الى العالم ولعلكم تفكرون ان مثل هذه الظاهرة الاستثنائية ما كان يجب ان تؤخذ كاختبار من أجل التحقق من قانون عمومي لكن المرء يضع يده على مايختار ان روسو مثير للاهتمام وهام ، اولا لانه كان اول من برهن بصورة باهرة بما فيه الكفاية على **الطابع التناقضي** للحضارة ، والتناقض هو الشرط الاساسي للعملية الجدلية. لكن يجب ان نلاحظ على اية حال ان التناقض الذي تبينه روسو لا علاقة له مطلقا بالتناقض بالمعنى الهيغلي للكلمة ان تناقض هيغل يستقيم في ان كل شيء يجتاز عملية مستمرة من الحركة والتغير وبطريقة ثلاثية على الدوام هو في كل وحدة معينة من الزمان ذاته و « **لاذاته** تركنا جانبا مراحل التطور الثلاث الالزامية ، فان التناقض يشكل هنا بكل بساطة عكس الحركة والتطور والصيرورة وان روسو ليتحدث أيضا عن عملية التغير لكنه لا يرى التناقض في حال من الاحوال في حقيقة التغير بالذات جزءا من محاكمته ، سواء في **المقالة** أم في مؤلفاته الاخرى يمكن ان يلخص كما يلي التقدم الفكري قد ترافق بالتقهقر الاخلاقي ومن المفروغ منه ان الفكر الجدلي لا شأن له مطلقا هنا ليس ثمة انكار للانكار هنا بل اشارة فقط الى وجود الخير والشر بصورة متواقتة في زمرة معينة من الظواهر وان كل التشابه مع العملية الجدلية يقتصر على هذه **الكلمة الوحيدة** التناقض ومهما يكن من امر فذلك جانب وحيد من القضية فحسب. وفيما عدا ذلك ، فان انجلز يرى ثلاثية حدود بينة في محاكمة روسو فالمساواة البدائية يعقبها انكارها ـ التفاوت ، ثم يأتي انكار الانكار ـ مساواة الجميع في انظمة الشرق الاستبدادية ، في مواجهة سلطة الخان أو السلطان أو الشاه ان لدينا هنا الحد الاخير للتفاوت ، النقطة النهائية التي تكمل الحلقة وتلتقي بالنقطة التي انطلقنا منها » لكن التاريخ لايتوقف هنا ، بل هو يطور تفاوتات جديدة ، وهلم جرا ان الكلمات التي استشهدنا بها هي كلمات روسو الفعلية ، وهذه الكلمات هي العزيزة على قلب انجلز بصورة خاصة كبرهان جلي على ان روسو يفكر وفقا لهيغل*

ان روسو يتفوق على معاصريه هذا صحيح ما الذي جعله يتفوق ؟ لانه كان يفكر **جدليا** بينما كان معاصروه ، دون استثناء على وجه التقريب ، **ميتافيزيائيين** ان نظريته عن اصل التفاوت **هي على وجه الدقة نظرية جدلية** ، بالرغم من ان السيد ميخائيلوفسكي ينكر ذلك

وفي راي السيد ميخائيلوفسكي ان روسو اشار فحسب الى ان التقدم الفكري يترافق في تاريخ الحضارة بالتقهقر الاخلاقي لا لم يقتصر روسو على الاشارة الى ذلك فحسب ففي رايه ان التقدم الفكري هو **سبب** التقهقر الاخلاقي وان المرء ليستطيع ان نقتنع بذلك حتى دون مطالعة مؤلفات روسو يكفيه ان يتذكر ،

---

*ان جميع هذه الفقرات مأخوذة عن المجلد الآنف الذكر من **الثروة الروسية**

على اساس الفقرة السابقة طبيعة الدور الذي لعبه التعدين والزراعة في احداث الثورة الكبرى التي قضت على المساواة البدائية لكن اي امرىء قرا روسو بنفسه لم يس بكل تأكيد الفقرة التالية في **المقالة عن اصل التفاوت** بقي علي ان آخذ بعين الاعتبار وان اجمع المصادفات المختلفة التي استطاعت ان تحكم العقل البشري مع افسادها النوع البشري جاعلة هذا الكائن شريرا حين جعلت منه كائنا اجتماعيا ❊

ان هذه الفقرة ذات اهمية خصوصية لانها تشهد على افضل وجه على رأي روسو في قدرة العرق البشري على التقدم ولقد تحدث « معاصروه عن هذه القدرة مطولا ايضا بيد انها لم تعد كونها عندهم قوة سرية حققت بفعل جوهرها الباطن بالذات نجاحات العقل وفي رأي روسو ان هذه القدرة « **ما كانت تستطيع مطلقا ان تتطور من تلقاء نفسها** بل لقد تطلبت في سبيل تطورها دفعات مستمرة من الخارج وان ذلك ليشكل احدى الصفات النوعية الاهم للنظرة الجدلية عن التقدم الفكري بالمقارنة مع النظرة الميتافيزيائية ولسوف نعود اليها في وقت لاحق، اما الآن فان الشيء الهام هو ان الفقرة المستشهد بها اعلاه تعبر بأعظم الوضوح عن رأي روسو فيما يتعلق بالعلاقة السببية بين **التقهقر** الاخلاقي **والتقدم** الفكري❊❊ وان هذا الأمر بالغ الاهمية من أجل توكيد رأي هذا الكاتب فيمسيرة الحضارة واذا صدقنا السيد ميخائيلوفسكي فقد اشار روسو بكل بساطة الى وجود تناقض ولعله ذرف بعض الدموع الكريمة عليه وفي حقيقة الامر ان روسو يعتبر هذا التناقض النابض الرئيسي لتطور الحضارة التاريخي ان مؤسس المجتمع المدني وبالتالي حفار قبر المساواة البدائية ، قد كان ذلك الانسان الذي سور للمرة الاولى قطعة من الارض وقال « هذه تخصني وبكلام آخر فان الملكية هي اساس المجتمع المدني هذه الملكية التي اثارت كل تلك النزاعات العديدة بين البشر وايقظت فيهم كل ذلك الجشع وبذلك افسدت اخلاقهم بيد ان نشوء الملكية افترض بصورة مسبقة تطورا معينا للتقنية والمعرفة de l'industrie et des lumières وهكذا فان العلاقات البدائية اضمحلت بالضبط من جراء هذا التطور ؛ لكنه حين قاد هذا التطور الى انتصار الملكية الخاصة في الوقت نفسه ، فان العلاقات البدائية بين البشر كانت قد بلغت من جانبها

❊ روسو المصدر نفسه ، الجزء الاول ص ٨٦ الفقرة واردة بالفرنسية في النص الروسي]

❊❊ وهذه فقرة اخرى من أجل المتشككين لقد عينت هذه الدرجة الاولى من انحطاط الاخلاق للحقبة الاولى من فنون الادب في جميع بلدان العالم » رسالة الى السيد الاب رينال ، **مؤلفات روسو** ، باريس ١٨٢٠ ، المجلد الرابع ص ٤٣ [هذه الفقرة وردت بالفرنسية في النص الروسي] .

حدا اصبح معه استمرارها في الوجود **مستحيلا** ❊ واذا نحن حكمنا على روسو وفق الطريقة التي تصف بها السيد ميخائيلوفسكي التناقض الذي تشير اليه فقد نحسب ان الجنيفي الشهير لم يكن اكثر من عالم اجتماعي ذاتي بكاء قادر على الاكثر على ابتكار صيغة تطور فوق اخلاقية من أجل معالجة الشرور الانسانية وفي الحقيقة ان اكثر ما كان روسو يبغضه هو هذا النوع من الصيغ بالضبط وقد كان يدوسها بالاقدام كلما سنحت له الفرصة

لقد قام المجتمع المدني على انقاض العلاقات البدائية التي تبين انها عاجزة عن الاستمرار في الوجود، وكانت هذه العلاقات تنطوي في باطنها على بذرة انكارها الخاص. وحين برهن روسو على هذه الموضوعة كان يبرهن بصورة مسبقة على فكرة هيغل القائلة ان كل ظاهرة تدمر نفسها وتتحول الى نقيضتها الخاصة وان آراء روسو عن الاستبداد يمكن ان تعتبر برهانا آخر على هذه الفكرة

والآن فليحكم القارىء بنفسه على درجة الفهم الذي يبرهن عليه السيد ميخائيلوفسكي بخصوص هيغل وروسو عندما نقول من المؤكد ان الفكر الجدلي لا شأن له مطلقا هنا — وحين نتوهم بكل سذاجة ان انجلز سجل روسو بصورة اعتباطية في قسم الجدليين على اساس أن روسو استخدم عبارات « التناقض » ، و الدورة و العودة الى النقطة التي انطلقنا منها الخ

ولكن لماذا استشهد انجلز بروسو من دون أي شخص آخر لماذا روسو وليس فولتير أو أي شخص آخر ؟ لأن جميع الناس بفعل طبيعتهم بالذات يفكرون جدليا

انك مخطىء ياسيد ميخائيلوفسكي ليس جميع الناس فما ابعد ذلك فأنت مثلا ما كان يمكن ان يعتبرك انجلز جدليا قط يكفيه ان يقرأ مقالتك « كارل ماركس امام محكمة السيدي جوكوفسكي كي يسجلك دون ادنى تردد بين المسافيزيائيين الذين لا رجاء منهم

يقول انجلز عن الفكر الجدلي

« لقد فكر البشر جدليا قبل زمن طويل من معرفتهم ماهية الجدلية ، تماما مثلما كانوا ينطقون بالنثر قبل زمن طويل من وجود كلمة النثر وان قانون انكار الانكار الذي يعمل بصورة غير واعية في الطبيعة والتاريخ وكذلك في رؤوسنا حتى تم التعرف اليه ، لم يصغ بصورة واضحة للمرة الاولى الا من قبل هيغل❊❊

وكما يرى القارىء ، فالاشارة هنا الى الفكر الجدلي غير الشعوري الذي تفصله بعد مسافة كبيرة جدا عن شكله الشعوري فحين نقول ان « **الحدود القصوى تتلاقى** » نعبر دون ان نلاحظ ذلك عن نظرة جدلية الى الامور ، وحين نتحرك ننخرط،

❊ انظر مطلع الجزء الثاني من **المقالة عن التفاوت**

❊❊ [**انتي — دوهرنغ** ، الترجمة العربية ، دار دمشق ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٠] .

مرة اخرى دون ان نرتاب في ذلك ، في الجدلية المطبقة (لقد سبق لنا القول ان الحركة تطبيق التناقض) لكن ايا من الحركة او الامثال الجدلية لاتكفي لانقاذنا من **الميتافيزياء في مجال الفكر المنهجي** • ان الامر على النقيض من ذلك فتاريخ الفكر يبين ان الميتافيزياء ازدادت قوة اكثر فأكثر خلال فترة طويلة من الزمن – ولم يكن بد من ان تزداد قوة – على حساب الجدلية البدائية والساذجة

تحليل الطبيعة الى اجزائها المفردة ، وفصل العمليات والاشياء الطبيعية المختلفة الى اصناف محددة ودراسة البنية الباطنة للاجسام العضوية في تنوع اشكالها التشريحية ، تلك كانت الشروط الاساسية لخطواتنا العملاقة التي تمت خلال السنوات الاربعمائة الاخيرة في مجال معرفتنا بالطبيعة بيد ان هذا الاسلوب في العمل قد اورثنا أيضا عادة مشاهدة الاشياء والعمليات الطبيعية على انفراد ، في معزل عن ارتباطها بالكل الكبير ، عادة مشاهدتها في حالة السكون وليس في حالة الحركة ، بوصفها ثابتة وليس متحولة جوهريا في حالة الموت وليس في حالة الحياة وحين نقل هذه الطريقة في النظر الى الاشياء ، بفضل بيكون ولوك ، من العالم الطبيعي الى الفلسفة فقد خلقت ذلك الاسلوب الضيق والميتافيزيائي في التفكير الخاص بالقرن الاخير*

هذا مايكتبه انجلز الذي يعلمنا أيضا ان

الفلسفة الاحدث بالمقابل على الرغم من ان للجدلية فيها انصارا لامعين ديكارت وسبينوزا مثلا) قد انزلقت تحت النفوذ الانكليزي بالخاصة اكثر فأكثر فيما يسمى الاسلوب الميتافيزيائي في التفكير هذا الاسلوب الذي خضع له الفرنسيون أيضا في القرن الثامن عشر دون استثناء تقريبا وذلك في آثارهم الفلسفية بالخاصة على أقل تعديل ومهما يكن من امر ، فان الفرنسيين قد انتجوا روائع من الجدلية خارج الفلسفة بالمعنى الضيق للكلمة ويكفي ان نشير الى كتاب ديدرو **ابن اخي رامو** ومؤلف روسو **المقالة في اصل واسس التفاوت بين البشر** **

اننا نرى السبب في ان انجلز يتحدث عن روسو وليس عن فولتير أو أي رجل كان ولسنا نجرؤ على الظن بأن السيد ميخائيلوفسكي لم يقرأ كتاب انجلز الذي يستشهد به والذي يستقي منه « الامثلة التي يدرسها واذا استمر السيد ميخائيلوفسكي في مضايقة انجلز بأي رجل كان » فلا يبقى امامنا الا هذه الفرضية ان مؤلفنا يلجأ هنا ايضا الى مرحلة الشعوذة التي الفناها من قبل ، مرحلة التشويه المقصود لكلمات خصمه وان استغلال مثل هذه « المرحلة » ليناسبه اكثر نظرا لأن كتاب انجلز لم يترجم الى الروسية ولا وجود له بالنسبة الى القراء الذين لايعرفون الالمانية « اننا نضع يدنا على ما نختار » هنا وان ثمة تجربة جديدة هنا أيضا « **تجعلنا نخطىء بالرغم عنا**

---

* [المصدر نفسه ، ص ٢٧]

** [المصدر نفسه ، ص ٢٦]

اخبريني يا فينوس اية لذة تجدين
في تحطيم فضيلتي على هذا الغرار ❋ ؟

لكن لنتخلص من السيد ميخائيلوفسكي كي نعود الى المثاليين الالمان an und für sich ❋❋

قلنا ان فلسفة الطبيعة كانت نقطة الضعف عند هؤلاء المفكرين الذين يجب ان نبحث عن خدماتهم الرئيسية في **الفروع المختلفة لفلسفة التاريخ** واننا لنضيف الآن أن الامر ماكان يمكن ان يكون خلاف ذلك في ذلك الحين لقد كانت الفلسفة التي سمت نفسها علم العلوم ، تنطوي دائما في ذاتها على قدر كبير من « **المضمون الدنيوي** يعني انها انشغلت دائما بمسائل علمية خالصة لكن « مضمونها الدنيوي » اختلف في الازمان المختلفة

وهكذا اذا اقتصرنا هنا على امثلة مستقاة من تاريخ الفلسفة الحديثة فان الفلاسفة في القرن السابع عشر انشغلوا بصورة رئيسية بمسائل الرياضيات والعلوم الطبيعية ولقد استخدمت فلسفة القرن الثامن عشر لاغراضها الاكتشافات والنظريات العلمية للعصر السابق ، لكنها هي نفسها ، اذا درست العلوم الطبيعية ، فلعلها فعلت ذلك في شخص كانط وحده **فالمسائل الاجتماعية** هي التي احتلت المرتبة الاولى في فرنسا وقتذاك ، وهي المسائل التي استمرت تشغل بصورة رئيسية الفلاسفة في القرن التاسع عشر وان تكن من وجهة نظر مختلفة ومثال ذلك ان شيلنغ يقول صراحة انه يعتقد ان **حل قضية تاريخية معينة يشكل الواجب الاهم للفلسفة المتسامية** اما ما هي هذه القضية فهذا ما سوف نراه عاجلا

اذا كانت الاشياء جميعا تجري وكانت الاشياء جميعا تتغير اذا كانت كل ظاهرة تنكر ذاتها اذا لم تكن هناك مؤسسة نافعة الا واصبحت ضارة آخر الامر متحولة بذلك الى نقيضتها بالذات فانه يترتب على ذلك انه من الحمق البحث عن التسريع الكامل وانه من المحال اختراع بنية اجتماعية تكون **الافضل** بالنسبة الى سائر العصور والشعوب ان أي شيء صالح في موضعه الصحيح وفي الزمن الصحيح والفكر الجدلي ينفي **كل الطوباويات**

وكان لابد ان ينفيها لأن « الطبيعة البشرية ، هذا المقياس المزعوم ابدا الذي يستخدمه كما راينا كتاب عصر الانوار والقرن الثامن والاشتراكيون والطوباويون في النصف الاول من القرن التاسع عشر على حد سواء قد تعرض للمصير المشترك بين سائر الظواهر فقد اعترف به **خاضعا للتغير**

❋ ليعذرنا القارىء لهذه الاستشهادات المتكررة من **هيلين الفاتنة** فقد اعدنا مؤخرا قراءة مقالة السيد ميخائيلوفسكي « الداروينية واوبريتات اوفنباخ ولا نبرح تحت تأثيرها الشديد .

❋❋ [في ذاته ولذاته]

وبذلك اختفت تلك النظرة المثالية الساذجة الى التاريخ التي كان ينادي بها كتاب عصر الانوار والطوباويون على حد سواء والتي كانت الصيغة التالية تعبر عنها **ان العقل ، الرأي يسود العالم** ويقول هيغل ان العقل يسود التاريخ طبعا لكنه يسوده بمثل معنى سيادته على حركة الاجرام السماوية ، يعني بمعنى **التطابق مع القانون** ان حركة الاجرام السماوية تتطابق مع القانون ، لكنه من الطبيعي الا تملك اية فكرة عن هذا التطابق وينطبق الامر نفسه على تقدم البشرية التاريخي فمن المؤكد ان في هذا التقدم قوانين خصوصية فاعلة . لكن هذا لايعني ان البشر واعون لها ، وبالتالي ان العقل البشري ، معرفتنا ، فلسفتنا هي العوامل الرئيسية في التقدم التاريخي ان بوم منيرفا لا يطير الا ليلا وحين تأخذ الفلسفة ترسم رسومها الكالحة على خلفية الواقع الكالحة ، وحين يجعل البشر يدرسون نظامهم الاجتماعي الخاص ، فانكم تستطيعون ان تقولوا بيقين تام ان هذا النظام ولى زمانه وهو يستعد ان يفسح مكانه لنظام جديد لن يتضح طابعه الحقيقي من جديد في نظر الجنس البشري الا بعد ان نكون قد لعب دوره التاريخي ان بوم منيرفا لن يطير من جديد الا ليلا (٢٨) ولا جدوى من التأكيد على ان الرحلات الجوية الدورية لطائر الحكمة عميمة الفائدة ، بل هي ضرورية تماما بيد انها لاتفسر شيئا على الاطلاق ، بل هي نفسها تتطلب التفسير ، ومن الارجح انه يمكن تفسيرها ، لأنها هي الاخرى **تتطابق مع القانون**

وان الاعتراف بأن طيرانات بوم منيرفا تتطابق مع القانون قد كان اساسا لنظرة جديدة كل الجدة الى تاريخ التطور الفكري للجنس البشري ان الميتافيزيائيين في جميع العصور ولدى سائر الشعوب ومن مختلف الاتجاهات ، حالما يحصلون على نظام فلسفي معين يعتبرونه الحقيقة الوحيدة ويعتبرون سائر النظم الاخرى مغلوطة بصورة لا جدال فيها انهم لايعرفون الا **التعارض المجرد** بين التصورات المجردة ـ **الحقيقة والخطأ** ولذا لم يكن تاريخ الفكر بالنسبة اليهم الا تشابكا تيهيا من الاخطاء المحزنة حينا والمضحكة حينا آخر التي استمر رقصها الجنوني حتى تلك اللحظة المباركة التي تم فيها ابتكار نظام الفلسفة الحقيقي كذلك كان ج.ب.سيي ، هذا الميتافيزيائي الأشد حماسة بين الميتافيزيائيين ينظر الى **تاريخ** فرعه الخاص من المعرفة لقد اوصى بعدم دراسته،لانه ليس فيه شيء سوى الاخطاء .وكان المثاليون **الجدليون** ينظرون الى الاشياء بصورة مغايرة فقد قالوا ان **الفلسفة هي التعبير الفكري عن عصرها** فكل فلسفة صحيحة بالنسبة الى عصرها الخاص ، وخاطئة بالنسبة الى عصر آخر

لكنه اذا كان العقل لايسود العالم الا بمعنى **تطابق الظواهر مع القانون** ؛ اذا لم تكن الافكار ولا المعرفة ولا الانوار هي التي توجه البشر في تدبير مجتمعاتهم اذا جاز التعبير وفي تقدمهم الاجتماعي ، فأين هي الحرية الانسانية اذن ؟ أين هو المجال

حيث الانسان « يحكم ويختار » دون ان يتسلى مثل طفل صغير بدمية جوفاء ، دون ان يكون لعبة في يد قوة خارجية ، حتى اذا امكن الا تكون قوة عمياء ؟

ان المسألة القديمة لكن الجديدة ابدا **للحرية والضرورة** قد واجهت المثاليين في القرن التاسع عشر مثلما واجهت الميتافيزيائيين في القرن السابق ، ومثلما واجهت جميع الفلاسفة على الاطلاق ، هؤلاء الذين اهتموا بمسائل **العلاقات بين الوجود والفكر** وكان ابو الهول هذا يخاطب كل مفكر قائلا **حل لغزي والا التهمت نظامك**

لقد كانت مسألة الحرية والضرورة على وجه الدقة تلك القضية التي اعتبر شيلنغ ان **حلها في تطبيقها على التاريخ** يشكل الواجب الاعظم المترتب على الفلسفة المتسامية هل حلتها هذه الفلسفة ؟ وكيف حلتها

ولنلاحظ بادىء الامر ان هذه المسألة طرحت بالنسبة الى شيلنغ كما بالنسبة الى هيغل المصاعب في تطبيقها على التاريخ بالضبط اذ كان في الامكان ، من وجهة النظر **الانتروبولوجية** ، اعتبارها محلولة بصورة مسبقة

ولا بد من ايضاح هنا ، وحين نقدم هذا الايضاح سوف نطلب من القارىء ان يمنحه اهتماما خاصا نظرا للاهمية الهائلة التي يتحلى هذا الموضوع بها

ان الابرة المغناطيسية تدور نحو الشمال ومنشأ ذلك فعل شكل خصوصي من المادة يخضع هو نفسه لقوانين معينة هي قوانين **العالم المادي** بيد ان حركات تلك المادة غير ملحوظة بالنسبة الى الابرة التي لاتملك ادنى تصور عنها انها تتخيل انها تدور نحو الشمال بصورة مستقلة عن أي سبب خارجي لمجرد انها تجد ان هذا الدوران يسعدها ان **الضرورة** المادية **تمثل** في هيئة **فعاليتها الحرة الخاصة**

ولقد حاول ليبنز بهذا المثال ان يفسر رأيه في حرية الارادة وان سبينوزا ليفسر بمثال مشابه نظرته الخاصة المماثلة تماما

ان سببا خارجيا ما نقل الى حجر قدرا معينا من الحركة وان الحركة لتستمر طبعا لفترة من الزمن بعد توقف السبب عن الفعل وان هذا الاستمرار في حركة الحجر **أمر ضروري حسب قوانين العالم المادي** لكن تصوروا ان يكون الحجر قادرا على التفكير ، انه واع لحركته الخاصة التي تبعث السرور فيه ، لكن لايعرف اسبابها ، بل لايعرف أن هناك أي سبب خارجي لهذه الحركة على الاطلاق كيف يستطيع الحجر في هذه الحال ان يتصور حركته الخاصة ؟ حتما على اعتبارها نتيجة رغبته الخاصة ، اختياره الحر الخاص لسوف يقول في نفسه اني اتحرك لأني اريد ان اتحرك وينطبق الامر نفسه على تلك الحرية الانسانية التي يفخر بها البشر جميعا ايما فخار ان ماهيتها تستقيم في حقيقة ان البشر يعون ميولهم لكنهم لايعرفون الاسباب الخارجية التي تؤدي الى قيام هذه الميول وهكذا فان الطفل يتصور انه حر في رغبته بذلك الحليب الذي يشكل غذاءه .. » .

ان هذا الايضاح سوف يبدو في نظر الكثيرين من القراء الحاليين « **ماديا فظا** » وسوف يدهشون لأن ليبنز ، هذا المثالي المحض ، يمكن ان يقدمه ولسوف يضيفون ان المقارنة ليست برهانا على اية حال وان المقارنة الوهمية بين الانسان والابرة المغناطيسية أو الحجر هي أقل من برهان أيضا وهذا ما سوف نلاحظ بشأنه ان المقارنة سوف تكف عن كونها وهمية حالما نتذكر الظواهر التي تجري يوميا في **الرأس الانسانية** ولقد اشار ماديو القرن الثامن عشر منذ ذلك الحين الى ان كل حركة ارادية يقابلها في الدماغ حركة معينة للالياف الدماغية ان ما هو وهم خالص فيما يتعلق بالابرة المغناطيسية أو الحجر يصبح حقيقة لا جدال فيها فيما يتعلق بالدماغ ان حركة للمادة تحدث وفقا لقوانين الضرورة القاضية تترافق في واقع الامر في الدماغ بما يسمى عملية الفكر الحرة واما بشأن الدهشة ، الطبيعية كليا للوهلة الاولى ، حيال المحاكمة المادية للمثالي ليبنز فيجب ان نتذكر ما قد أشرنا اليه من قبل من ان جميع المثاليين الحازمين كانوا **احاديين** يعني انه لم يكن ثمة مكان على الاطلاق في نظرتهم الى العالم لتلك الهوة التي لايمكن اجتيازها والتي تفصل المادة عن الروح في نظريات **الثنائيين** ففي رأي الثنائيين ان تجمعا للمادة لايمكن ان يكون قادرا على التفكير الا اذا انحشر فيه جزيء من الروح فالمادة والروح في نظر الثنائيين جوهران مستقلان كل الاستقلال وليس بينهما ادنى علاقة مشتركة ان المقارنة التي اجراها ليبنز قد تبدو مجنونة في نظره لمجرد ان الابرة المغناطيسية لا تملك نفسا على الاطلاق لكن تصوروا انكم تتعاملون مع انسان يناقش على هذا الغرار ان الابرة شيء مادي تماما بالفعل لكن ما هي المادة نفسها ؟ اعتقد انها تدين بوجودها للروح وليس ذلك بمعنى ان **الروح خلقها** ، بل بمعنى انها هي نفسها **الروح** ، لكنه موجود في شكل آخر فحسب ولا يقابل هذا الشكل طبيعة الروح الحقيقية بل هو يتعارض مع هذه الطبيعة بصورة مباشرة لكن هذا لايمنعه من ان يكون شكلا لوجود الروح ـ والسبب في ذلك ان الروح يجب من جراء طبيعته بالذات ان يتحول الى نقيضه الخاص ولقد تدهشون لهذه المحاكمة ايضا ، لكن لابد ان توافقوا على أي حال على ان الانسان الذي يجسد هذه المحاكمة المقنعة الانسان الذي لايرى في المادة الا « **الوجود الآخر للروح** » ، لن ينفر من الايضاحات التي تنسب الى المادة وظائف الروح أو التي تجعل هذه الوظائف تابعة بصورة صميمية لقوانين المادة ان مثل هذا الانسان قد يقبل **بتفسير مادي** للظواهر الروحية ويعطيه في الوقت نفسه **معنى مثاليا** صارما (اما اذا فعل ذلك باجهاد ذهنه او بطريقة اخرى فتلك مسألة مختلفة كل الاختلاف) ولقد عمل المثاليون الالمان على هذا الغرار

ان فعالية الانسان الروحية تخضع لقوانين الضرورة المادية ، لكن هذا لا يدمر الحرية الانسانية في حال من الاحوال فليست قوانين الضرورة المادية بالذات الا قوانين حركة الروح ان **الحريـة تفترض الضرورة بصورة مسبقة ، والضرورة**

تتحول كليا الى الحرية ، وبالتالي فان حرية الانسان في واقع الامر اوسع بصورة لا تقارن مما يفترضه الثنائيون عندما يحاولون ان يرسموا حدودا بين الفعالية **الحرة** والفعالية **الضرورية** فينتزعوا بذلك من **مملكة الحرية** كل تلك المنطقة (وهي منطقة عريضة جدا حتى في زعمهم التي فصلوها جانبا من اجل الضرورة

كذلك كانت محاكمة المثاليين الجدليين وكما يرى القارىء ، **فقد تمسكوا** بحزم بأبرة ليبنز المغناطيسية ، سوى ان هذه الابرة تحولت كليا ، أو تحولت روحيا اذا جاز التعبير بين ايديهم

لكن تحول الابرة لم يحل مع ذلك جميع المصاعب التي تنطوي عليها مسألة العلاقة بين الحرية والضرورة لنفترض ان الفرد مطلق الحرية بالرغم من خضوعه لقوانين الضرورة او الاكثر من ذلك **بسبب** هذا الخضوع بالضبط بيد اننا نتعامل في المجتمع وبالتالي في التاريخ ليس مع فرد واحد بل مع كتلة كاملة من الافراد وان السؤال ليطرح اذن افلا تنهك حرية **الفرد الواحد** بفعل حرية **الجميع** ؟ لقد كان في نيتي ان اعمل هذا الشيء أو ذاك – مثلا ان احقق الحقيقة والعدالة في العلاقات الاجتماعية ولقد اتخذت هذه النية بنفسي **بصورة حرة** وتلك الاعمال التي سأقوم بها بغرض وضع تلك النية موضع التطبيق لن تكون دون ذلك **حرية** بيد ان جيراني يضايقونني في تحقيق هدفي لقد ثأروا ضد هدفي تماما بمثل الحرية التي اتخذته بها. وان اعمالهم الموجهة ضدي **لاتقل عن ذلك حرية.** كيف يكمنني ان اتغلب على العوائق التي يخلقونها ؟ سوف اناقشهم طبعا وأحاول ان اقنعهم وربما اتوسل اليهم أو أخيفهم لكن من اين لي ان اعرف ما اذا كانت هذه الارادة ستؤدي الى نتيجة ما ؟ لقد اعتاد الكتاب الفرنسيون لعصر الانوار ان يقولوا La raison finira par avoir raison

لكن كيما ينتصر عقلي يلزمني ان يعترف جيراني به على اعتباره عقلهم **الخاص** أيضا وما الذي يحملني على الرجاء بأن يتحقق ذلك ؟ ان اعمال مواطني تفلت من كل تكهن بقدر ما يكون نشاطهم حرا – وانه لحر تماما – وبقدر ماتكون الضرورة المادية قد تحولت الى **حرية** ، بطرق مجهولة مني – وهي **افتراضا « قد تحولت تحولا تاما الى حرية** واني لآمل بأن اتكهن بها بهذا الشرط الوحيد الا وهو ان يكون في مقدوري اعتبارها مثلما اعتبر سائر الظواهر الاخرى للعالم الخارجي يعني من حيث هي النتائج **الضرورية لبعض الاسباب** التي هي معروفة لدي من قبل او يمكن ان تكون معروفة لدي وبكلام آخر فان حريتي لن تكون كلمة جوفاء الا في هذه الحالة الوحيدة الا وهي حين يترافق **وعيي** لها **بمعرفة الاسباب** التي تؤدي الى قيام الاعمال **الحرة** من جانب اشباهي نعني اذا كان في مقدوري ان اعبرها من وجهة نظر **ضرورتها** وان اشباهي ليستطيعون ان يقولوا الشيء نفسه بشأن

---

* [ان العقل سينتهي بأن ينتصر]

اعمالي **الخاصة** لكن ما معنى ذلك ؟ ان هذا ليعني ان **امكانية النشاط التاريخي الحر (الواعي) لأي امرىء كان يرجع الى الصفر اذا لم تقم في اساس الافعال الانسانية الحرة ضرورة تقع في متناول فهم الشخص الفاعل**

ولقد راينا من قبل ان المادية الميتافيزيائية الفرنسية انتهت عمليا الى **القدرية**. وبالفعل فاذا كان مصير شعب كامل يتوقف على ذرة ضالة فان كل مانستطيع ان نفعله اذن هو الجلوس مكتوفي الايدي ، لأننا عاجزون بصورة مطلقة ولن نكون في مقدورنا قط لا ان نتكهن باحاييل مثل هذه الذرة ولا ان نمنعها

ونرى الآن ان **المثالية يمكن ان تقود الى القدرية** ايضا فاذا لم يكن هناك شيء ضروري في افعال مواطني أو اذا كانت هذه الافعال ممتنعة عن فهمي من زاويه ضرورتها فان كل ما استطيع ان افعله اذن هو الاعتماد على العناية الآلهية. ان حططي الاحكم ورغباتي الاكرم سوف تتحطم على الافعال غير المتوقعة على الاطلاق للبشر الآخرين. وفي هذه الحال فان **كل شيء يمكن ان يتأتى من أي شيء** حسب تعبير لوكريسيوس

وانه لمما يثير الاهتمام ان المثالية بقدر ما تحاول التأكيد اكثر فأكثر على الحرية في مجال **النظرية** تجد نفسها ملزمة أكثر فأكثر بأن تحد منها في ميدان **النشاط العملي** حيث لاتستطيع ان تتحكم في **مصادفة مسلحة بجميع قوى الحرية**

ولقد ادرك المثاليون الجدليون ذلك على خير وجه ، بحيث **كانت الضرورة** في الفلسفة العملية **الخاصة بهم الضمانة الاضمن للحرية والضمانة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها** وان الواجب الاخلاقي نفسه لايمكن ان يطمئنني بخصوص نتائج افعالي اذا كانت هذه النتائج متوقفة على الحرية وحدها كما كان شيلنغ يقول **لابد ان تكون ثمة ضرورة في الحرية**

لكن ما هي الضرورة المقصودة في هذه الحال اذن ؟ لاستطيع المرء ان يجد عزاء في تكراره اللامتناهي لفكرة ان بعض الحركات الارادية تقابل بالضرورة بعض الحركات في المادة الدماغية فلا يمكن اقامة اية حسابات عملية على هذه الموضوعة المجردة كما لاتتوفر اي منظور للتقدم في هذا الاتجاه فرأس جاري ليست خلية زجاجية والياف الدماغية ليست نحلا وانا لا استطيع مشاهدة حركاتها حتى اذا كنت اعلم يقينا ـ ونحن لا نبرح بعيدين جدا عن مثل هذا الوضع ـ ان هذه النية أو تلك في نفس مواطني سوف تعقب هذه الحركة أو تلك لهذا الليف العصبي أو ذاك وبنتيجة ذلك فانه لابد لنا ان نقترب من دراسة ضرورة الافعال الانسانية من زاوية اخرى

وتزداد ضرورة هذه الدراسة نظرا لأن بوم مينرفا لا يطير كما نعلم الا مساء. يعني ان العلاقات الاجتماعية بين البشر **لاتمثل ثمرة نشاطهم الشعوري** ان البشر يسعون بصورة شعورية خلف اغراضهم الخاصة والشخصية فكل واحد منهم يسعى جاهدا بصورة شعورية كي يزيد من حجم ملكيته مثلا ، ومع ذلك فانه يترتب على

حصيلة اعمالهم الفردية بعض النتائج الاجتماعية التي ربما ما كانوا يرغبون فيها على الاطلاق ومن المؤكد انهم لم يتنبأوا بها ان المواطنين الرومان الاغنياء قد ابتاعوا اراضي المزارعين الفقراء ، وكان كل واحد منهم يعرف بالطبع ان فلانا وفلانا من الناس يصبحان بفضل جهوده بروليتاريين لايملكان أرضا لكن من هو الذي تكهن من بينهم بأن الملكيات الكبرى Latifundia سوف تدمر الجمهورية ، وتدمر معها ايطاليا نفسها ؟ من هو الذي ادرك من بينهم ، او كان في مقدوره ان يدرك النتائج التاريخية لتعطشه الى الكسب ؟ لا احد ، ومع ذلك فتلك كانت النتائج ان الملكيات الكبيرة ادت الى زوال الجمهورية وايطاليا على حد سواء

ان افعال الافراد الشعورية الحرة تولد بالضرورة نتائج لم تكن متوقعة من قبلهم ولا كان في مقدورهم التكهن بها ، وهي نتائج تتناول المجتمع بأسره ، يعني تؤثر في حصيلة العلاقات بين الافراد **وهكذا فاننا ننتقل من مملكة الحرية الى مملكة الضرورة**

واذا كانت هذه العواقب الاجتماعية غير المقصودة لاعمال البشر الفردية تؤدي الى تغيير النظام الاجتماعي ــ الامر الذي يحدث دائما وان بسرعة متفاوتة ــ فان اهدافا فردية جديدة تمثل امام البشر اذن ان نشاطهم الشعوري الحر يتخذ بالضرورة شكلا جديدا اننا ننتقل من جديد من مملكة الضرورة الى مملكة الحرية

ان كل عملية ضرورية هي عملية تجري بصورة متطابقة مع القانون وان التغيرات بالعلاقات الاجتماعية غير المتوقعة من البشر ، لكن الحادثة بالضرورة بنتيجة اعمالهم تجري بطبيعة الأمر وفق قوانين محددة ومن واجب الفلسفة النظرية **ان تكتشف هذه القوانين**

وينطبق الامر نفسه بطبيعة الحال على التبدلات التي تحدثها العلاقات الاجتماعية المتبدلة في اهداف الحياة ، في فعالية البشر الحرة وبكلام آخر ، فان **تحول الضرورة الى حرية يجري كذلك وفقا لقوانين محددة يمكن للفلسفة النظرية ويجب عليها ان تكتشفها**

وحين تنجز الفلسفة النظرية هذه المهمة فسوف توفر اساسا جديدا ومكينا للفلسفة العملية فحين اعرف قوانين التقدم الاجتماعي والتاريخي استطيع ان اؤثر في مجرى التاريخ وفقا لأهدافي ، دون أن أبالي بأحابيل الذرات الضالة ولا بفكرة ان مواطني من حيث هم كائنات تتمتع بالارادة الحرة ، يهيئون لي في كل لحظة اكواما كاملة من المفاجآت الابعث على الذهول ومن الطبيعي انه ليس في مقدوري ان أكفل كلا من مواطني ، وبصورة خاصة اذا كان ينتسب الى « طبقة المثقفين » ؛ لكنني سأكون عارفا باتجاه القوى الاجتماعية في خطوطه العريضة ، ولن يتبقى لي سوى الاعتماد على حصيلتها كيما احقق اهدافي

وهكذا اذا كان في مقدوري ان اتوصل مثلا الى القناعة المعزية بأن اسس المجتمع » في روسيا ، خلافا للبلدان الاخرى ، هي التي سوف تنتصر فلن يتحقق ذلك الا في حدود نجاحي في تصور افعال « الروس » الامجاد على اعتبارها أفعالا تتطابق مع القانون ، ودراستها من وجهة نظر الضرورة لا من وجهة نظر الحرية يقول هيغل **ان التاريخ العالمي تقدم في وعي الحرية ، وهو تقدم يجب علينا ان نفهمه في ضرورته**

ولنتابع مهما كان فهمنا جيدا « لطبيعة الانسان فاننا لانبرح بعيدين جدا عن فهم تلك النتائج الاجتماعية التي تترتب على افعال البشر الافراد لنفترض اننا قبلنا على غرار اقتصاديي المدرسة القديمة ، بأن السعي الى الربح هو الصفة الرئيسية للطبيعة البشرية اتكون اذن في وضع يمكننا من توقع الاشكال التي سيتخذها ذلك السعي ؟ أجل ، في علاقات اجتماعية معينة معروفة من قبلنا بيد ان هذه العلاقات الاجتماعية المعينة والمعروفة سوف تتبدل هي نفسها تحت ضغط الطبيعة الانسانية ، تحت تأثير جشع مواطني الى الربح وفي أي اتجاه سوف تتبدل اننا لن نعرف ذلك أكثر من معرفتنا بذلك الاتجاه الجديد الذي سوف يتخذه السعي الى الربح في العلاقات الاجتماعية المتبدلة والجديدة ولسوف نجد انفسنا في نفس الوضع تماما اذا جعلنا ، جنبا الى جنب مع الاشتراكيين Ex cathedra الالمان ، نؤكد ان طبيعة الانسان لايستنفذها مجرد السعي الى الربح بل هو يملك كذلك « حسا اجتماعيا Gemeinsinn سوف تكون تلك اغنية جديدة على لحن قديم ولكي نخرج من هذه الجهالة ، المغطاة تحت زطانة اكثر او اقل علما ، لابد لنا ان ننتقل من دراسة **الطبيعة الانسانية** الى دراسة **طبيعة العلاقات الاجتماعية** ، وان علينا ان نفهم هذه العلاقات من حيث هي عملية جوهرية مطابقة للقانون ، الامر الذي يعود بنا الى هذا السؤال **علامَ تتوقف طبيعة العلاقات الاجتماعية ، وما الذي يحددها ؟**

لقد رأينا انه لا الماديون في القرن الأخير ولا الاشتراكيون الطوباويون قد أعطوا جوابا مرضيا عن هذا السؤال اترى نجح المثاليون الجدليون في الجواب عنه ؟

كلا ، فهم أيضا لم ينجحوا ، وهم لم ينجحوا بالضبط لأنهم **مثاليون** لنتذكر بفرض ادراك موضوعتهم المناظرة المشار اليها من قبل بشأن معرفة ما اذا كان الدستور يتوقف على العادات أم العادات تتوقف على الدستور ولقد اصاب هيغل في ملاحظته عن هذه المناقشة حين قال ان السؤال طرح هنا بصورة مغلوطة نظرا ، في واقع الامر ، لأنه اذا كانت عادات شعب ماتؤثر من دون ريب في دستوره ودستوره يؤثر في عاداته ، فان العادات والدستور على حد سواء تتوقف مع ذلك على قوة « **ثالثة** » أو خاصة تخلق سواء العادات المؤثرة في الدستور أو الدستور المؤثر في العادات لكن ماهي في رأي هيغل هذه القوة الخاصة ، هذا الاساس الاخير الذي تنهض عليه طبيعة البشر وطبيعة العلاقات الاجتماعية على حد سواء ؟ هذه

القوة هي **المفهوم** أو ـ وهـذا يعني الشيء نفسـه ـ « **الفكرة** التي شكل تحقيقها كل تاريخ الشعب صاحب العلاقة **ان كل شعب يحقق فكرته الخاصة** ، وكل فكرة خاصة لكل شعب على حدة تمثل مرحلة في تطور **الفكرة المطلقة** وهكذا تتبين ان التاريخ انما هو المنطق المطبق فتفسير عصر تاريخي معين يعني بيان المرحلة التي تقابلها من التطور المنطقي للفكرة **المطلقة** ولكن ما هي اذن هذه « الفكرة المطلقة ؟ ليست شيئا آخر سوى تشخيص عمليتنا المنطقية الخاصة واليكم مانقوله عنها رجل كان هو نفسه نصيرا متحمسا للمثالية وقد اتبع تعاليمها بكل اخلاص قبل ان نكتشف عاجلا جدا اين يقوم العيب الاساسي في هـذا الاتجـاه الفلسـفي

« شكلت من التفاح والكمثرى والفريز واللوز الفكرة العامة وهي « فاكهة مضيت ابعد من ذلك وتخيلت ان فكرتي المجردة « فاكهة المشتقة من الفاكهة الحقيقية هي كيان قائم خارج عني ، هي فعلا الجوهر الحقيقي للكمثرى والتفاحة...الخ، في لغة الفلسفة التأملية انا اصرح ان « الفاكهة هي مادة الكمثرى ، والتفاحة واللوزة الخ ولذلك اقول انه ليس جوهريا للكمثرى ان تكون كمثرى ، وانه ليس جوهريا للتفاحة ان تكون تفاحة ، وان ماهو جوهري لتلك الاشياء ليس كيانها الحقيقي الذي تدركه الحواس ، بل الجوهري هو انني استخلصت منها ، ثم اضفيت عليها جوهر فكرتي ـ الفاكهة ولذلك اعلن ان التفاح والكمثرى واللوز الخ اشكال للوجود فقط Modi) « الفاكهة » ان فهمي المحدود ، تؤيده حواسي يميز بالطبع التفاحة عن الكمثرى ، والكمثرى عن اللوزة ، ولكن عقلي التأملي يعلن ان تلك الاختلافات الحسية غير جوهرية ولا اهمية لها ، انه يرى في التفاحة ، الشيء ذاته الذي في الكمثرى ، ويرى في الكمثرى ما يراه في اللوزة ، أي « فاكهة والفواكه الحقيقية الخاصة ليست أكثر من اشكال جوهرها الحقيقي هو « المادة » ـ « الفاكهة »

بهذه الطريقة لا يحصل المرء على أي غزارة خصوصية من التعريفات ان عالم التعدين الذي يتألف كل علمه من الاقرار بأن كل المعادن هي « معادن » فعلا لن يكون عالم تعدين الا في تخيله

اما وقد انحدرت الفواكه الحقيقية المختلفة الى فاكهة تجريدية واحدة ـ « فاكهة فان على التأمل ، للحصول على بعض مظاهر المضمون الحقيقي ، ان يحاول بطريقة ما ان يجد طريق العودة من « الفاكهة » ، من المادة ، الى الفواكه الحقيقية الدنيوية المختلفة الكمثرى ، التفاحة ، اللوزة الخ فكما ان من الصعب انتاج الفواكه الحقيقية من فكرة « الفاكهة » المجردة ، فان من السهل انتاج هذه الفكرة من الفواكه الحقيقية في الحقيقة يستحيل الوصول الى نقيض تجريد ما دون التخلي عن هذا التجريد .

ولذلك فان الفيلسوف التأملي يتخلى عن تجريد « الفاكهة » ولكن بشكل **تأملي صوفي** ـ مع مظهر **عدم** التخلي عنها وهكذا يرتفع فوق تجريده ولكن في المظهر فقط انه يناقش كما يلي

اذا كانت الكمثرى والتفاح واللوز والفريز ليست في الحقيقة شيئا سوى مادة » ، « فاكهة » فان السؤال يطرح لماذا تتظاهر الفاكهة لي أحيانا كتفاحة واحيانا اخرى ككمثرى واحيانا اخرى كفريزة ، ؟ لماذا **مظهر التباين** هذا الذي يناقض بشكل يلفت النظر مفهومي التأملي لـ « الوحدة الجوهر الفاكهة

ويجيب الفيلسوف التأملي هذا يحصل بسبب الفاكهة ليست ميتة غير متميزة عديمة الحركة بل حية متميزة ذاتيا متحركة وتباين الفواكه الدنيوية ليس بذي مغزى فقط لادراكي الحسي بل أيضا لـ الفاكهة نفسها في التفاحة تتقمص الفاكهة الوجود الشبيه بالتفاحة، وفي الكمثرى تتقمص الوجود الشبيه بالكمثرى. ولذلك علينا الا نمعن في القول وكأننا ننطلق من وجهة نظر الجوهر substance الكمثرى فاكهة والتفاحة فاكهة واللوزة فاكهة بل علينا القول ان الفاكهة تمثل نفسها ككمثرى ، و الفاكهة تمثل نفسها كتفاحة الفاكهة تمثل نفسها كلوزة والاختلافات التي تميز التفاح والكمثرى واللوز الواحدة عن الاخرى هي اختلافات ذاتية لـ الفاكهة تجعل الفواكه الخاصة أعضاء تابعة لعملية حياة الفاكهة»*

ان هذا النقد جارح لكنه مصيب من دون شك فحين نشخص عمليتنا الذهنية الخاصة في هيئة الفكرة المطلقة ، وحين نبحث في هذه الفكرة عن تفسير سائر الظواهر فان المثالية تنخرط في طريق مسدودة لن تستطيع الخلاص منها الا بالتخلي عن الفكرة **يعني التخلي عن المثالية** ومثال ذلك هل تفسر لنا كلمات شيلنغ التالية شيئا من الطبيعة المغناطيسية

« ان المغناطيسية فعل عام للاحياء ، لانحشار الوحدة في العدد ، المفهوم في التنوع. ان تدخل الذاتي في الموضوعي الذي يسمى في ميدان الفكرة الوعي الذاتي ، ينكشف هنا وقد اسقط في الوجود**

هذه كلمات لا تفسر شيئا على الاطلاق وانه ليتبين ان التفسيرات من هذا النوع هي كذلك غير مرضية في ميدان التاريخ لماذا سقطت اليونان ؟ لأن الفكرة التي كانت تشكل مبدأ الحياة الاغريقية ، مركز الروح الاغريقي (**فكرة الجمال**) ، ما كان ممكن ان تكون سوى طور قصير العمر جدا في تطور العالم الروحي ان الاجوبة من هذا النوع لاتفعل سوى تكرار السؤال في صيغة الايجاب ، والاكثر من

---

* [ماركس وانجلز **العائلة المقدسة أو نقد النقد النقدي** ، الترجمة العربية ، منشورات دار دمشق ص ٦٩ ٧١]

** [شيلنغ **أفكار من أجل فلسفة طبيعية** ، لاندشوت ١٨٠٩ ، الفصل الخامس ص ٢٢٣]

ذلك في شكل مفخم   وان هيغل ، الذي ندين له بهذا التفسير لسقوط اليونان ، ليحس ذلك هو نفسه فيما يبدو ، ويسرع فيكمل تفسيره المثالي بالاشارة الى الوضع الاقتصادي لليونان القديمة ، فيقول «**لقد سقطت لاسيديمونا قبل كل شيء من جراء التفاوت في الثروات** ❊ » ، وهو لايتصرف على هذا الفرار بالنسبة الى اليونان وحدها   وان المرء ليستطيع ان يقول ان ذلك هو سلوكه الدائم في فلسفة التاريخ   أولا بعض الاعتبارات الغامضة عن صفات الفكرة المطلقة ، ومن بعد اشارة اوسع جدا ، واكثر اقناعا بما لايقاس بطبيعة الحال ، عن طبيعة علاقات الملكية وتطورها عند الشعب الذي يتحدث عنه   وفي الحقيقة اننا لن نجد في المجموعة الثانية من الايضاحات أي أثر للمثالية   وحين يلجأ هيغل اليها ــ هو الذي اعتاد ان يقول ان «**المثالية هي حقيقة المادية**» ــ فانه يدين بنفسه فقر المثالية ، معترفا ضمنا بأن الواقع هو في الحقيقة العكس تماما ، وان **المادية هي حقيقة المثالية**

ومهما يكن من امر ، فان **المادية** التي اقترب هيغل هنا منها كانت مادية بدائية ، مضفية ، سرعان ماكانت تعود الى المثالية من جديد حالما يجد ذلك ضروريا من أجل تفسير أصل هذه الاشكال او تلك من اشكال علاقات الملكية   وصحيح انه كثيرا ما يحدث هنا ان يعبر هيغل عن افكار مادية خالصة ، لكنه كان يعتبر على العموم علاقات الملكية من حيث هي تحقيق مفاهيم الحق التي تطورت بفعل قوتها الباطنة الخاصة

اذن ما الذي تعلمناه عن الجدليين المثاليين ؟

لقد تخلوا عن وجهة نظر الطبيعة الانسانية وتخلصوا بفعل ذلك من المفهوم الطوباوي عن الظواهر الاجتماعية   لقد شرعوا يدرسون الحياة الاجتماعية على اعتبارها عملية ضرورية تملك قوانينها الخاصة ، لكنهم كانوا يعودون بطريقة ملتوية ، بتسخيصهم عملية عقلنا المنطقي (يعني احد جوانب **الطبيعة الانسانية**)   الى نفس وجهة النظر الرديئة ، **وبالتالي كانت الطبيعة الحقيقية للعلاقات الاجتماعية تظل عصية على افهامهم**

ولنرجع الآن لبرهة قصيرة الى مجال فلسفتنا الروسية الخاصة

ان السيد ميخائيلوفسكي قد سمع من السيد فيليبوف ، الذي سمع ذلك بدوره من الكاتب الاميركي فريزر ، ان فلسفة هيغل بمجموعها ترجع الى « **صوفية غالفانية**   ، ان ما قلناه من قبل عن الاهداف التي وضعتها الفلسفة المثالية الالمانية نصب عينيها سوف يكون كافيا ليبين للقارىء مبلغ سخف راي فريزر   وان السيدين فيليبوف وميخائيلوفسكي نفسيهما ليشعران بأن صاحبهما الاميركي قد مضى بعيدا   ويقول السيد ميخائيلوفسكي   يكفي ان نتذكر المسيرة المتعاقبة للمتافيزياء السابقة،بدءا من القدامى ، مع هيراكليتوس ، وتأثيرها (في هيغل) ... » ،

❊   [هيغل   **فلسفة التاريخ**]

ثم يسترسل من فوره على أي حال ومع ذلك فان ملاحظات فريزر بالغة الاهمية حتى الدرجة القصوى ، ومن المؤكد انها تنطوي على عنصر من الحقيقة يجب ان تقبل وان لم نكن نستطيع الا ان نعترف ان تششيدرين سخر من هذه الصيغة قبل زمن طويل جدا ولكن مايستطيع مساعده السابق السيد ميخائيلوفسكي طالما انه أخذ على عاتقه ان يفسر لغير المطلعين فيلسوفا لايعرفه الا سماعا ؟ لا بد له ، شاء أم أبى ان يكرر بمظهر الرجل العالم عبارات لاتعني شيئا على الاطلاق

ولنستعد على اية حال المسيرة المتعاقبة للمثالية الالمانية يقول السيد ميخائيلوفسكي

« ان التجارب الغالفانية تؤثر في جميع المفكرين في أوروبا ، بما فيهم الفيلسوف الالماني الشاب هيغل ويخلق هيغل نظاما ميتافيزيائيا عملاقا يرعد في ارجاء العالم بحيث لا سبيل الى الخلاص منه حتى على ضفاف نهر موسكوفا »

ان الحالة تعرض لنا هنا وكأن هيغل اصيب بعدوى الصوفية الغالفانية بصوره مباشرة من الفيزيائيين بيد ان نظام هيغل لايمثل الا التطور اللاحق لآراء شيلنغ فمن الواضح ان العدوى اثرت بالضرورة في هذا الاخير مسبقا ويرد السيد ميخائيلوفسكي،أو السيد فيليبوف ، او السيد فريزر ،انها فعلتذلكحقا

ان شيلنغ وبعض الاطباء الذين كانوا تلامذة له دفعوا بنظرية الاستقطاب حتى مداها الاقصى حسن لكنه من المعروف ان فخته كان سلفا لشيلنغ كيف اثرت فيه عدوى الغالفانية ؟ لايقول السيد ميخائيلوفسكي شيئا عن هذا الامر من المرجح انه يحسب انه ليس لذلك اهمية على الاطلاق وانه لعلى حق اذا كان يحسب ذلك فعلا وكيما يقتنع المرء بذلك يكفيه ان يقرأ احد اعمال فخته الفلسفية الاولى Grundlage der gesamten Wissenschaftslehre * لايبزغ ١٧٩٤ ان أي مجهر يعجز عن اكتشاف أثر الغالفانية » في هذا المؤلف ، ومع ذلك نجد فيه نفس تلك « الثلاثية » الشهيرة التي تشكل في رأي السيد ميخائيلوفسكي الصفة المميزة الرئيسية لفلسفة هيغل ، والتي يرد فريزر أصلها ، «ا بعنصر من الحقيقة » فيما يزعم ، الى « تجارب غالفاني وفولتا » لابد لنا من الاعتراف بأن هذا كله غريب جدا ، بالرغم من اننا لانستطيع الا ان نعترف بأن هيغل مع ذلك ، الخ ، الخ

ويعرف القارىء من قبل ما هي آراء شيلنغ عن المغناطيسية ان عيب المثالية الالمانية لايقوم ابدا في قيامها المزعوم على افتتان غير محدود وغير معقول (في شكل صوفي) باكتشافات عصرها العلمية ، بل على النقيض من ذلك في محاولتها تفسير جميع ظواهر الطبيعة والتاريخ بواسطة عملية الفكر التي شخصتها .

---

* [اسس نظرية المعرفة العامة]

وختاما اليكم هذا الخبر السار لقد اكتشف السيد ميخائيلوفسكي ان الميتافيزياء والراسمالية يتحدان برابطة وثيقة جدا ، وان الميتافيزياء ، كي نستخدم لغة المادية الاقتصادية ، هي جزء مركب اساسي من البنية الفوقية الخاصة بالشكل الراسمالي للانتاج ، بالرغم من ان الراسمال يبتلع في الوقت نفسه ويتمثل جميع التطبيقات التقنية لعلم معاد للميتافيزياء باعتباره مؤسسا على المشاهدة والتجربة ويعد السيد ميخائيلوفسكي بمناقشة هذا التناقض العجيب في وقت آخر ولكن دراسته هي التي سوف تكون " غريبة حقا ان مايسميه الميتافيزياء قد اجتازت تطورها الالمع في اليونان القديمة وفي المانيا في القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ولقد كان يعتقد حتى الوقت الراهن ان اليونان القديمة لم تكن بلدا راسماليا على الاطلاق ، وفي المانيا كانت الراسمالية في الوقت المشار اليه قد اخذت لتوها في النمو ولسوف تثبت دراسة السيد ميخائيلوفسكي ان هذا خطأ فادح من وجهة نظر **علم الاجتماع الذاتي** وان اليونان القديمة والمانيا في ايام فخته وهيغل كانتا بلدين كلاسيكيين للراسمالية بالضبط وانتم ترون الآن السبب في اهمية هذا الامر فليسرع مؤلفنا وينشر اذن اكتشافه المرموق غن ياعزيزي ولا تكن خجولا

❋

الفصل الخامس

المادية الحديثة

كان لابد لافلاس المثالية في تفسير ظواهر الطبيعة والتطور الاجتماعي ان يجبر ، ولقد اجبر بالفعل الناس الذين يفكرون (يعني **لا** الانتقائيين **ولا** الثنائيين) على العودة الى التصور المادي عن العالم بيد انه لم يكن في وسع المادية الجديدة ان تظل تكرارا بسيطا لتعاليم المادية الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر لقد نهضت المادية من جديد وقد اغتنت بكل مكتسبات المثالية وكان اهم هذه المكتسبات **الطريقة الجدلية**، دراسة الظواهر في تطورها ، في نسوئها ودمارها وكان **كارل ماركس** العبقري الذي مثل هذا الاتجاه الجديد في الفكر

ولم يكن ماركس اول من ثار ضد المثالية بل لودفيغ فيورباخ هو الذي رفع راية الثورة ومن ثم بعد فيورباخ بوقت قصير ، ظهر الاخوان بوير على المسرح الادبي وارأؤهما تستحق بعض الاهتمام من جانب القارىء الروسي في الوقت الحاضر

لقد كانت آراء الاخوين وير رد فعل ضد مثالية هيغل ومع ذلك كانا مشبعين كليا بمثالية انتقائية سطحية جدا ومحدودة

ولقد رأينا ان المثاليين الالمان الكبار لم ينجحوا في فهم الطبيعة الفعلية للعلاقات الاجتماعية او اكتشاف اساسها الواقعي لقد راوا في التطور الاجتماعي عملية ضرورية ، مطابقة للقانون وكانوا مصيبين تماما من وجهة النظر هذه لكن عندما طرحت مسألة المحرك الاولي للتطور التاريخي استنجدوا بالفكرة المطلقة التي يجب ان توفر خصائصها التفسير الاخير والاعمق لتلك العملية وكانت تلك هي نقطة الضعف في المثالية وقد وجهت الثورة الفلسفية ضرباتها الاولى ضدها فقد ثار الجناح اليساري المتطرف من المدرسة الهيغلية بكل حزم ضد «الفكرة المطلقة»

لقد كانت الفكرة المطلقة موجودة (ان وجدت) خارج الزمان والمكان ، وعلى اي حال خارج رأس كل انسان مفرد وان الجنس البشري ، اذ يجدد في تطوره التاريخي مسيرة التطور المنطقي للفكرة المطلقة يخضع لقوة غريبة عنه تقف خارجا عنه وحين ثار الهيغليون الشباب ضد الفكرة المطلقة ثاروا قبل كل شيء باسم فعالية الانسان المستقلة باسم العقل الانساني

ويقول ادغار بوير

تخطىء الفلسفة التأملية خطأ فادحا حين تتكلم عن العقل كما لو كان قوة مجردة ومطلقة ليس العقل قوة موضوعية مجردة لا يمثل الانسان بالنسبة اليها الا الذاتي والطارىء والعابر لا القوة المسيطرة هي الانسان نفسه ، وعيه الذاتي ، وليس العقل الا قوة هذا الوعي ، وبالتالي فليس ثمة عقل مطلق ، بل هناك عقل يتغير بصورة ابدية مع تطور الوعي الذاتي انه لايوجد مطلقا في شكله النهائي ، بل هو يتغير ابدا*

وهكذا فليس هناك فكرة مطلقة ولا عقل مجرد بل وعي الانسان فقط العقل الانساني المحدود والمتغير ابدا وهذا صحيح تماما ولن يناقض السيد ميخائيلوفسكي نفسه ذلك هو الذي يرى كما نعرف من قبل ان الاشياء جميعا « تحتمل الجدال بشيء أكثر أو أقل من النجاح المشكوك فيه لكن الغريب حقا هو ان موقفنا يزداد صعوبة بقدر مانؤكد هذه الفكرة الصحيحة ان المثاليين الالمان القدماء قد ربطوا بالفكرة المطلقة تطابق كل عملية جارية في الطبيعة أو التاريخ مع القانون ويواجهنا السؤال الآن بم نربط هذا التطابق مع القانون وقد دمرنا حامله الفكرة المطلقة ؟ ولنفترض اننا نستطيع ان تحصل على جواب مرض في بضع كلمات فيما يتعلق بالطبيعة اننا نربطه بصفات المادة لكن الأمور في مجال التاريخ ليست على هذا القدر من البساطة فالقوة المسيطرة في التاريخ هي وعي الانسان الذاتي ، العقل الانساني المحدود والمتغير ابدا اثمة تطابق مع القانون في تطور هذا العقل ؟ من المؤكد ان ادغار بوير سيرد بالايجاب عن هذا السؤال لأن الانسان وبالتالي عقله ، ليسا عنده شيئا طارئا في حال من الاحوال كما رأينا لكن لو أنتم طلبتم من بوير هذا نفسه ان يفسر لكم تصوره عن التطابق مع القانون في تطور العقل الانساني ، لو سألتموه على سبيل المثال عن السبب في ان العقل تطور بطريقة واحدة في عصر تاريخي معين وبطريقة اخرى في عصر تاريخي آخر ، فلن تحصلوا عمليا على أي جواب منه. كان سيرد عليكم قائلا : ان« العقل الانساني المتطور يخلق الاشكال الاجتماعية»، وان العقل التاريخي هو القوة المحركة للتاريخ العالمي ، وبالتالي ان كل نظام اجتماعي خاص يتبين بطلانه حالما يحقق العقل خطوة جديدة في تطوره** بيد ان جميع هذه التأكيدات وما شابهها لاتسكل جوابا عن السؤال بل بالاحرى دوران حول هذا السؤال لماذا يتخذ العقل الانساني خطوات جديدة في تطوره ولماذا يتخذها في هذا الاتجاه وليس في ذاك الاتجاه واما تضطرون ادغار بوير لمعالجة هذه المسألة بالذات فانه سينحيها جانبا على عجل باشارة لا معنى لها الى خصائص العقل الانساني المحدود ، المتغير ابدا ، بالضبط مثلما اقتصر المثاليون القدامى على الاشارة الى خصائص الفكرة المطلقة

---

* ادغار بوير Der Streit der Kritik mit Kirche und Staat بون ١٨٤٤ ، ص ١٨٤ [**مناظرة النقد مع الكنيسة والدولة**]

** المصدر نفسه ، ص ١٨٥

ان اعتبار العقل القوة المحركة للتاريخ العالمي وتفسير تطوره بنوع معين من الخصائص الباطنة ، المحايثة الخاصة ، يعني تحويله الى شيء ما غير مشروط — و بكلام آخر بعث نفس تلك الفكرة المطلقة بشكل آخر وهي الفكرة التي أعلن للتو عن دفنها الى الابد ان العيب الاهم لهذه الفكرة المطلقة المنبعثة قد كان تواجدها السلمي مع الثنائية الاشد اطلاقا أو اذا شئنا مزيدا من الدقة انها تفترض هذه الثنائية بصورة لا جدال فيها ؛ ولما كانت عمليات الطبيعة غير مشروطة بالعقل الانساني المحدود والمتغير أبدا فقد تبين ان في الوجود قوتين اذن المادة في الطبيعة والعقل الانساني في التاريخ ولم يكن هناك جسر تصل حركة المادة بتطور العقل مملكة الضرورة بمملكة الحرية وهذا هو السبب في قولنا ان آراء بوير كانت مشبعة كليا مثالية انتقائية سطحية جدا ومحدودة

ان الرأي يسود العالم — هذا ما نادى به كتاب عصر الانوار الفرنسي وهذا ما ردده أيضا كما رأينا الاخوان بوير حين ثارا ضد المثالية الهيغلية لكنه اذا كان الراي يسود العالم فان المحركين الاولين للتاريخ هم اذن اولئك البشر الذين تنتقد فكرهم الآراء القديمة وخلق آراء جديدة وذلك كان تفكير الاخوين بوير في حقيقة الامر فجوهر العملية التاريخية يرجع في رأيهما الى ما يقوم به « الروح النقدي من اعادة لصنع المخزون المتوفر من الآراء واشكال الحياة في المجتمع المشروطة بذلك المخزون وان هذه الآراء التي عبر عنها الاخوان بوير قد استوردها بمجملها الى الادب الروسي مؤلف **الرسائل التاريخية** (٢٩) مع هذا التعديل البسيط الا وهو ان هذا المؤلف لايتحدث عن الروح النقدي بل عن الفكر » النقدي ، لأن الحديث عن الروح كان محظورا من قبل **Sovermennik** .

ان الانسان المفكر نقديا حين تتخيل نفسه المهندس الاعظم خالق التاريخ ينفصل بذلك ويفصل اشباهه في نوع خاص ، أعلى ، من الجنس البشري. وان هذا النوع الاعلى يتناقض مع **الجمهور** الغريب عن الفكر النقدي والقادر فقط على لعب دور الطين بين الايدي الخلاقة لاولئك الذين يفكرون نقديا ان **الابطال** يتعارضون مع **الرعاع** ومهما يكن حب البطل للرعاع عظيما ، ومهما املأ قلبه بالعطف على حاجاتهم القديمة جدا وآلامهم المتصلة ، فانه لايستطيع الا ان ينظر اليهم من عل ولا يستطيع الا ان يدرك ان الامور جميعا وقف عليه هو البطل بينما الرعاع جمهور غريب عن كل عنصر خلاق ، شيء اشبه بمجموعة هائلة من الاصفار لاتكتسب بعض الاهمية الايجابية الا حين تتنازل وحدة « تفكر نقديا » فتأخذ مكانها في مقدمتهم ان المثالية الانتقائية للاخوين بوير قد كانت في اصل ذلك الصنف الرهيب بل المثير للاشمئزاز للفكر النقدي » الالماني في الاربعينات من القرن التاسع عشر ، وانه ليصنع اليوم العيب نفسه في الانتليجنتزيا الروسية من خلال انصاره الروس وكان كارل ماركس الذي سننتقل اليه الآن العدو الذي هاجم هذا الصلف بلا رحمة ولا هوادة

يقــول ماركس ان اقامة التعارض بين الافــراد الــذين يفكــرون نقديــا و « الجمهور ليس أكثر من صورة كاريكاتورية للنظرية الهيغلية عن التاريخ ، هذه النظرية التي ليست بدورها الا الامتداد التأملي للعقيدة القديمة عن التعارض بين الروح والمادة

« عند **هيغل** تعامل **الروح المطلقة** للتاريخ❊ **الجمهور** مسبقا على انه شيء مادي وتجد تعبيرها الحقيقي في **الفلسفة** فقط والفيلسوف بالنسبة لهيغل هو العضو الوحيد الذي عن طريقه يصل خالق التاريخ أو الروح المطلقة ، الى الوعي الذاتي بواســطة العـــودة بالفكــر الــى الـــوراء (retrospection) بعــد تنتهي الحركــة ومشاركة الفيلسوف في التاريخ تتدنى الى الوعي **الاستعادي** لان الحركــة الواقعيــة تحققت بواسطة الروح المطلقة بصورة لاشعورية❊❊ بحيث يظهر الفيلسوف بعد فوات الاوان (post festum) ❊❊❊

لقد ارتكب هيغل تهافتا مزدوجا أولا لانه يعلن ان الفلسفة تشكل وجود الروح **المطلقة** يرفض الاعتراف بـ **الفرد الفلسفي الحقيقي** على انه الروح المطلقــة ثانيــا **لان** الروح المطلقة ، طبقا له ، تصنع التاريخ **في المظهر** فقط بما ان الروح المطلقــة تصبح **واعية** لذاتها كروح العالم الخلاقة في الفيلسوف **وبعد فوات الاوان** ❊❊❊❊ فقط فان صنعها للتاريخ يوجد فقط في الوعي ، في الرأي في مفهوم الفيلسوف أي فقط في الخيال التأملي ن الهربرونو❊❊❊❊ يضع حدا لتهافت هيغل

أولا **ينادي** بالنقد على انه الروح **المطلقة** وبنفسه على انه **هو نفسه** النقد ، وكمــا ان عنصر النقد منفي من **الجمهور** فان عنصر الجمهور منفي من النقد وبالتالي فان النقد يجد نفسه مجسدا **في الجمهور** ، بل في قبضة صغيرة من الرجال المختارين في الهر **برونو** واتباعه على وجه الحصر

ويتملص الهر برويو بذلك من تهافت آخر لهيغل فهو لايصنع التاريخ ، كالروح الهيغلية ، بعد فوات الاوان ، وفي التخيل ان الهر برونو يلعب **بوعي** دور **الروح العالمية** **في** معارضة جمهور بقية البشر انه حاليا يدخل في **علاقة دراماتيكية** مع ذاك الجمهور انه يخترع ويصنع التاريخ بقصد ، وبعد تأمل ناضج

فمن جهة ينتصب الجمهور ، ذاك العنصر **المادي** المنفعل الغيبي التــاريخي للتاريخ ومن جهة اخرى تنتصب الروح أي النقد ، أي الهر برونو وشركاه باعتباره

❊ أي الفكرة المطلقة

❊❊ [بعد العرس]

❊❊❊ لم ينس القارىء صيغة هيغل الموردة اعلاه ان بوم منيرفا لايطير الا ليلا

❊❊❊❊ بروتو بوير الاخ البكر لادغار **مؤلف** Kritik der Evangeli Geschichte der Syneptik [**نقد التاريخ الانجيلي للاناجيل**] وهو كتاب اشتهر في زمانه.

العنصر الفعال الذي يظهر منه كل **فعل تاريخي** ان عمل التحويل **الاجتماعي** يرجع الى **العمل الدماغي** للنقد النقدي* »

ان هذه الاسطر تثير وهما عجيبا ، اذ يبدو انها لم تكتب قبل خمسين عاما ، بل قبل شهر واحد فقط ، وليس ضد الهيغليين اليساريين الالمان ، بل ضد علماء الاجتماع الذاتيين الروس ويشتد هذا الوهم حين نقرأ الفقرة التالية من مقالة لانجلز

« من الطبيعي ان النقد المكتفي ذاتيا ، الكامل والتام في ذاته ، **لا يعترف** بالتاريخ في مجراه الحقيقي ، لان ذلك يعني اعتراف الجمهور الوضيع بكل كثافته الضخمة ، حيث ان القضية هي تحرير الجمهور من الكثافة ولذلك تحرر التاريخ من كثافته ، والنقد الذي له وضع حر بالنسبة لموضوعه يخاطب التاريخ قائلا « **كان عليك ان تجري بالطريقة كذا وكذا** وان لقوانين النقد **قوة المفعول الرجعي** فقد كان سلوك التاريخ **قبل** مراسيم النقد يختلف تماما عن سلوكه **بعدها** ولذا فالتاريخ الجماهيري أو مايسمى بالتاريخ **الحقيقي** ينحرف بشكل ملحوظ عن التاريخ النقدي** »

من هو المقصود في هذه الفقرة ؟ أهم الكتاب الالمان في الاربعينات أم بعض « علماء الاجتماع المعاصرين عندنا الذين يحاضرون بكل رصانة في موضوع ان الكاثوليكي يتصور مسيرة التاريح بطريقة واحدة ، والبروتستانتي بطريقة اخرى ، والملكي بطريقة ثالثة والجمهوري بطريقة رابعة وبالتالي ان الانسان الذاتي الحقيقي لايستطيع فحسب ، بل يجب عليه ، ان يبتكر لنفسه ، من أجل استخدامه الفكري الخاص ، تاريخا يتفق على خير وجه مع افضل المثل العليا ؟ أكان انجلز يتكهن حقا بحماقاتنا الروسية ؟ ابدا ! من الطبيعي انه لم يحلم بها البتة ، واذا كانت سخريته تتلاءم بعد نصف قرن كامل مع مفكرينا الذاتيين مثل القفاز ، فانما يجب ان نبحث عن تفسير لذلك في حقيقة ان هراءنا الذاتي لا يملك اية اصالة على الاطلاق ، وهو لايمثل اكثر من طبعة رخيصة عن صورة كاريكاتورية لتلك « الهيغليانية ذاتها التي يسن عليها مثل هذه الحرب الفاشلة جدا

ان جميع النزاعات التاريخية الكبرى ترجع في رأي النقد النقدي » الى نزاع **الافكار** ويلاحظ ماركس ان هذه **الافكار** خزيت في كل مرة لم تتطابق فيها مع المصالح الاقتصادية الفعلية لتلك الشريحة الاجتماعية التي كانت تشكل في حينه

---

* ف انجلز وك ماركس Die heilige Familie oder Kritik der Kritischen Kritik Gegen Bruno Bauer und Consorten Frankfurt an Main, 1845 S 126-128

والكتاب مجموعة مقالات لماركس وانجلز ضد نظريات مختلفة « للنقد النقدي

** المصدر نفسه ، ص ١٨٣ [ص ٩ من الترجمة العربية] والفقرة اعلاه مأخوذة من مقالة لماركس ضد مقالة لبرونو بوير [**العائلة المقدسة** ، منشورات دار دمشق ، ص ١٠٧ ــ ٠٨] .

محرك التقدم التاريخي وان فهم هذه المصالح وحده يعطينا مفتاح فهم المسيرة الحقيقية للتطور التاريخي

ولقد رأينا ان الكتاب الفرنسيين لعصر الانوار لم يغلقوا أعينهم عن المصالح ، وكانوا يستنجدون بها عن طيبة خاطر من أجل تفسير حالة المجتمع في عصر معين بيد ان فكرتهم عن الأهمية الحاسمة **للمصالح** كانت مجرد رواية مختلفة عن «الصيغة» القائلة ان الآراء تسود العالم ففي رأيهم ان المصالح نفسها تتوقف على آراء البشر وتتغير مع تغير هذه الآراء ان **مثل** هذا التفسير لأهمية المصالح يمثل انتصار المثالية في تطبيقها على التاريخ ، وهو يخلف وراءه بعيدا حتى المثالية الجدلية الالمانية التي كانت ترى ان البشر يكتشفون مصالح مادية جديدة كلما وجدت الفكرة المطلقة انه من الضروري اتخاذ خطوة جديدة في تطورها المنطقي ولقد فهم ماركس اهمية المصالح المادية بصورة مغايرة تماما

ان القارىء الروسي يتصور ان النظرية الماركسية عن التاريخ تشكل تشنيعا دنيئا بالجنس البشري. اننا نجد عند اوسبنسكي، اذا لم اكن مخطئا، في قصته **دمار** ، امرأة عجوزا هي زوجة موظف ظلت تكرر بكل عناد حتى في هذيان الموت المبدأ المخزي الذي عملت به طوال حياتها املأ جيبك ! » ان الانتليجنتزيا الروسية تتصور بكل سذاجة ان ماركس ينسب هذه القاعدة الدنيئة الى الجنس البشري بأكمله انه يؤكد ان ابناء الانسان ، مهما كان العمل الذي ينصرفون اليه ، لايفعلون على سبيل الحصر وبوعي تام ، الا « املاء جيوبهم وان المثقف الروسي النزيه يجد بطبيعة الحال ان مثل هذه النظرة « مقيتة » بقدر ماتبدو نظرية داروين « مقيتة » في نظر سيدة رسمية تتخيل ان كل مغزى هذه النظرية يقتصر على هذه الفرضية المثيرة للاشمئزاز والقائلة انها ، هي السيدة الرسمية المحترمة جدا ، ليست سوى قرد يرتدي قلنسوة وفي الحقيقة ان ماركس لايفتري على المثقفين اكثر مما يفتري داروين على السيدات الرسميات

وكيما نفهم آراء ماركس التاريخية يجب ان نتذكر النتائج التي انتهت اليها الفلسفة والعلوم الاجتماعية والتاريخية في المرحلة السابقة مباشرة ان المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية قد آلوا كما نعرف الى النتيجة القائلة ان « الاحوال الشخصية يعني علاقات الملكية تشكل اساس النظام الاجتماعي بأكمله وانا لنعرف أيضا ان الفلسفة المثالية الالمانية توصلت في شخص هيغل ـ رغما عنها ، وضد روحها بالذات ومن جراء عجز وافلاس التفسير المثالي للتاريخ ـ الى النتيجة نفسها وان ماركس ، الذي تناول جميع نتائج المعرفة العلمية والفكر الفلسفي في عصره ، قد اتفق كليا مع المؤرخين الفرنسيين وهيغل في النتيجة المشار اليها اعلاه ويقول ماركس : لقد اقتنعت بأن « العلاقات الحقوقية واشكال الدولة على حد سواء

لايمكن ان تدرك من تلقاء نفسها كما لايمكن ان تدرك من زاوية مايسمى التطور العام للفكر الانساني بل ان جذورها تمتد في شروط الحياة المادية هذه التي يجمع هيغل حصيلتها ، على غرار الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر ، تحت اسم المجتمع المدني وان من واجبنا على اية حال البحث عن تشريح **المجتمع المدني** في الاقتصاد السياسي*

ولكن علام تتوقف اقتصاد **مجتمع معين** ان أيا من المؤرخين الفرنسيين او الاشتراكيين الطوباويين أو هيغل لم يستطع ان يقدم الجواب عن هذا السؤال بصورة مرضية. **لقد استنجدوا جميعا بالطبيعة الانسانية بصورة مباشرة أو غير مباشرة. وان جدارة ماركس العلمية العظيمة تستقيم في انه اقترب من المسألة من الجانب المناقض على** طول الخط وانه اعتبر الطبيعة الانسانية نفسها من حيث هي النتيجة المتغيرة ابدا للتقدم التاريخي الذي يقع سببه **خارج** الانسان فلا بد للانسان في سبيل وجوده من تغذية عضويته مستدركا المواد اللازمة له من **الطبيعة الخارجية** وان هذا الاستدراك ليفترض عملا معينا يطبقه الانسان على **هذه** الطبيعة الخارجية لكنه حين يفعل في العالم الخارجي يغير طبيعته الخاصة ان ماهية نظرية ماركس التاريخية بأكملها محتواة في هذه الكلمات القليلة وان تكن هذه الكلمات لاتوفر بطبيعة الحال ، اذا اخذت بحد ذاتها ، فهما كاملا لتلك النظرية بل تتطلب بعض الايضاحات

كان فرانكلين يسمي الانسان **حيوانا صانعا للادوات** (a tool making animal) وبالفعل فان انتاج الادوات واستخدامها يشكلان صفة مميزة للانسان ولقد عارض داروين الرأي القائل ان الانسان وحده قادر على استعمال الادوات وأعطى أمثلة عديدة تبين ان استخدامها في شكل بدائي جدا صفة مميزة لحيوانات لبونة كثيرة وانه لعلى حق تماما بطبيعة الحال من وجهة نظره الخاصة ، يعني انه لاتوجد صفة واحدة في تلك « الطبيعة الانسانية » شهيرة الا وتصادف في نوع آخر من الحيوان ، وبالتالي انه لايوجد أي اساس على الاطلاق لاعتبار الانسان كائنا خصوصيا وفصله في « مملكة خصوصية لكن يجب الا ننسى ان **الفوارق الكمية تتحول الى فوارق نوعية**، ان ماهو موجود في **حالة بدائية** في نوع معين من الحيوان يمكن ان يصبح **الصفة المميزة** في نوع آخر من الحيوان وان هذا ليصح بصورة خاصة بالنسبة الى استخدام الادوات ان الفيل يحطم الاغصان ويستخدمها كي يطرد الذباب عنه وهذا امر مثير للاهتمام ومفيد علميا لكن استخدام الاغصان في القتال ضد الذباب لم يلعب على الارجح أي دور اساسي في تاريخ تطور النوع **الفيل** فالفيلة لم تصبح فيلة لان اسلافها الاكثر او الاقل

* [كارل ماركس وفريديريك انجلز **دراسات اقتصادية** ، منشورات دار دمشق ص ٥٢]

شبها بالفيلة طردت الذباب بواسطة الاغصان وان الامر مختلف كليا مع الانسان*

ان وجود الانسان المتوحش الاسترالي يتوقف بأسره على اداته البمرنغ** ، بالضبط مثلما يتوقف وجود البريطاني الحديث بأسره على آلاته انتزع من الاسترالي البمرنغ واجعل منه مزارعا ولسوف يبدل بالضرورة كل نمطه في الحياة، وجميع عاداته واسلوبه في التفكير بكامله و طبيعته برمتها

لقد قلنا اجعل منه **مزارعا** ان مثال الزراعة يبين بكل وضوح ان عملية الفعل الانتاجي الذي يمارسه الانسان على الطبيعة يفترض شيئا اكثر من ادوات العمل ان ادوات العمل لاتشكل الا قسما من الوسائط الضرورية للانتاج ولـذا يكون من الاصح ان نتحدث لا عن تطور **ادوات العمل** بل بصورة اعم عن **تطور وسائل الانتاج والقوى المنتجة** ـ وان يكن من المؤكد تماما ان القسم الاهم من هذا التطور يخص او خص على الاقل حتى الوقت الراهن (حتى ظهور الصناعات **الكيميائية الرئيسية**، ادوات العمل على وجه الدقة

ان الانسان ليكتسب في ادوات العمل اعضاء جديدة على العموم تغير بنيته التشريحية وهو منذ ارتفع الى مستوى استخدام تلك الادوات اتخذ تاريخ تطوره مظهرا جديدا كل الجدة فمن قبل كما هي الحال بالنسبة الى جميع الحيوانات الاخرى كان هذا التطور يقتصر على تبدلات تطرأ على اعضائه الطبيعية ؛ لكنه اصبح ابتداء من ذلك الحين قبل كل شيء ، **تاريخ اتقان اعضائه الاصطناعية ، تاريخ نمو قواه المنتجة**

ان الانسان ـ **الحيوان الصانع للادوات** ـ هو في الوقت نفسه **حيوان اجتماعي** يتحدر من اسلاف عاشوا لاجيال عديدة في قطعان اكثر او اقل كبرا ولا يهمنا كثيرا هنا لماذا اخذ اسلافنا يعيشون في قطعان ـ ان على علماء الحيوان ان يوضحوا ذلك ، وهم يوضحونه لكن الشيء الرئيسي من وجهة نظر فلسفة التاريخ هو ان المجتمع أخذ منذ اليوم الذي جعلت الاعضاء الاصطناعية تلعب دورا اساسيا في حياة الانسان يتبدل وفقا لتقدم القوى المنتجة

لايؤثر البشر خلال الانتاج في الطبيعة وحدها ، بل في بعضهم بعضا ، وهم لاينتجون الا اذا تعاونوا بطريقة ما وتبادلوا نشاطاتهم ولا بد لهم في سبيل الانتاج

---

* « ان استخدام الادوات صفة مقصورة على الانسان بصورة كلية بحيث ان اكتشاف قطعة واحدة منحوتة من الصوان في طبقة طمية أو كهف كان يعتبر برهانا كافيا على ان الانسان مر بتلك الارجاء دانييل ولسون Prehistoric man [**انسان ما قبل التاريخ**] ، المجلد الاول ، ص ١٥١ ١٥٢ لندن ١٨٧٦ [النص وارد باللغة الانكليزية في الطبعة الروسية]

** [Boomrang اداة من الخشب المعقوف كان سكان استراليا الاصليون يجعلون منها قذيفة ترمى على الهدف] .

من الدخول في ارتباطات وعلاقات محددة مع بعضهم بعضا ، ولا يحدث فعلهم في الطبيعة، لايحدث الانتاج الا ضمن هذه الارتباطات والعلاقات الاجتماعية* »

وهكذا فان ادوات العمل ، **هذه الاعضاء الاصطناعية** ، ليست باعضاء للانسان انفردي بقدر ما هي اعضاء **للانسان الاجتماعي** ولذا فان كل تبدل اساسي يتناولها يؤدي الى حدوث تبدل في البنية الاجتماعية

« ومن الطبيعي ان هذه العلاقات الاجتماعية التي تنشأ بين المنتجين ، والظروف التي يتبادلون نشاطاتهم في ظلها ويسهمون في مجموع فعل الانتاج تختلف وفقا لخاصية وسائط الانتاج فحين ابتكرت الادوات الحربية الجديدة التي هي الاسلحة النارية تبدل بالضرورة كل تنظيم الجيش الداخلي ، كما تحولت العلاقات التي كان يمكن للافراد ضمنها ان يشكلوا جيشا وان يتصرفوا كجيش ، كما تغيرت علاقات الجيوش المختلفة ببعضها بعضا

« وهكذا فان العلاقات الاجتماعية التي ينتج الافراد ضمنها ، **علاقات الانتاج الاجتماعية ، تتبدل ، تتعرض للتحول مع تبدل وتطور وسائط الانتاج المادية ، أي القوى** **المنتجة وان علاقات الانتاج بمجموعها تشكل مايسمى العلاقات الاجتماعية ، او المجتمع ، وعلى الاخص مجتمعا في مرحلة محددة من التطور التاريخي ،** مجتمعا ذا خاصية مميزة مخصوصة وان المجتمع **القديم** ، والمجتمع **الاقطاعي** ، والمجتمع **البورجوازي** ، هي مثل تلك الكليات من العلاقات الانتاجية ، وكل منها يشير في الوقت نفسه الى مرحلة مخصوصة من التطور في تاريخ الجنس البشري**

ولا ضرورة لأن نضيف ان المراحل الاقدم من التطور الانساني تمثل كليات من علاقات الانتاج لاتقل عن ذلك تميزا كما انه لا ضرورة لأن نكرر ان حالة القوى المنتجة في تلك المراحل الاقدم كان لها أثر حاسم كذلك في العلاقات الاجتماعية بين البشر

ويجب ان نتوقف عند هذه النقطة لندرس بعض الاعتراضات التي هي للوهلة الاولى مقنعة بصورة لا بأس بها

وهذا هو الاعتراض الاول

كثيرا ما يقال للماركسيين انه ليس من ينكر الاهمية الكبرى لادوات العمل والدور الكبير الذي لعبته القوى المنتجة في التطور التاريخي للجنس البشري لكن الانسان هو الذي اخترع ادوات العمل واستخدمها في عمله وانكم لتعترفون نفسكم ان استخدامها يفترض بصورة مسبقة درجة عالية جدا نسبيا من التطور الذهني وان كل خطوة جديدة الى الامام في اتقان ادوات العمل تتطلب جهودا من

---

* كارل ماركس **Lohwarbeit und Kapital** [العمل المأجور ورأس المال في كارل ماركس وفريدريك **دراسات اقتصادية** ، منشورات دار دمشق ، ص ٢٩] .

** [المصدر نفسه ، ص ٢٩]

الذهن الانساني ان جهود الذهن هي **السبب** وتطور القوى المنتجة هـو **النتيجة** وبالتالي فان الذهن هو المحرك الاولي للتقدم التاريخي ، الامر الذي يعني ان الحق في جانب اولئك الناس الذين اكدوا ان الآراء تسود العالم ، يعني ان العقل الانساني هو العنصر السائد

ليس ماهو طبيعي اكثر من هذه الملاحظة ، الامر الذي لايمنع ان تكون مغلوطة.

فمما لا ريب فيه ان استخدام ادوات العمل يفترض بصورة مسبقة تطورا عاليا للذهن في الانسان الحيواني لكن لنر الاسباب التي تفسر بها العلوم الطبيعية الحديثة هذا التطور

يقول داروين

« لم يكن في مقدور الانسان ان يبلغ مركزه السائد الحالي في العالم بدون استخدام يديه ، المتكيفتين بصورة رائعة كي تعملا وفقا لارادته* »

وليست الفكرة جديدة ، بل لقد نادى بها هيلفيتيوس من قبل لكن هيلفيتيوس الذي لم يتمكن قط من اتخاذ موقف حازم من وجهة نظر التطور ، لم يستطع ان يعطي فكرته الخاصة شكلا اكثر او اقل اقناعا اما داروين فقدم دفاعا عنها ترسانة كاملة من الحجج ، وبالرغم من انها كانت جميعا بطبيعة الحال ذات طابع افتراضي ، فان حصيلتها كانت مقنعة بما فيه الكفاية على اية حال ماذا يقول داروين اذن ؟ من اين حصل شبه الانسان على يديه الحاليتين ، الانسانيتين تماما ، اللتين مارستا مثل هذا التأثير المرموق في تحقيق نجاحات « ذهنه ؟ الارجح انهما تشكلتا بفضل بعض خصائص **البيئة الجغرافية** التي حققت الانتفاع من تقسيم العمل بين طرفيه الاماميين وطرفيه الخلفيين ولقد ظهرت نجاحات الذهن من حيث هي **النتيجة البعيدة** لهذا التقسيم واصبحت بدورها – في ظروف خارجية ملائمة مرة اخرى – **السبب المباشر** لظهور اعضاء الانسان الاصطناعية ، لاستخدام الادوات.

ولقد قدمت هذه الاعضاء الاصطناعية الجديدة خدمات جديدة لتطوره الذهني ، كما انعكست نجاحات « الذهن » من جديد على الاعضاء ان امامنا عملية طويلة يتناوب فيها السبب والنتيجة باستمرار لكنه يكون من قبيل الخطأ ان ندرس هذه العملية من وجهة نظر **التفاعل البسيط** فكيما يستطيع الأنسان ان يستفيد من النجاحات التي سبق لذهنه ان حققها ، ان يتقن ادواته ، يعني ان **يضاعف سلطته على الطبيعة** ، لابد له ان يكون في بيئة جغرافية **معينة** ، قادرة على تزويده ١ – بالمواد الضرورية من أجل هذا الاتقان ، ٢ – بالاشياء التي تتطلب معالجتها الادوات المتقنة فحيث لم تكن تتوفر المعادن لم يكن ذهن الانسان الاجتماعي يستطيع وحده في اية ظروف،ان يقوده ما وراء حدود « مرحلة الحجر المصقول »، وكذلك لم يكن له بد بالطريقة نفسها ، كيما ينتقل الى الحياة الرعوية والزراعية ، من

---

* [**اصل الانسان** ، لندن ، ١٨١٥ ، ص ٥١]

بعض الحيوانات والنباتات التي « لم يكن الذهن ليتحرك من مكانه » لولاها لكن هذا ليس بكل شيء أيضا ان التطور الذهني للمجتمعات البدائية كان لابد ان يحدث بمزيد من السرعة بقدر ماتعظم العلاقات المتبادلة بينها وقد كانت هذه العلاقات بطبيعة الحال اكثر تواترا بقدر ما كانت شروط السكن الجغرافية أعظم تنوعا ، يعني بنتيجة ذلك بقدر ما كانت الفوارق بين منتجات هذه المحلة وتلك اقل تماثلا❋

واخيرا فان الجميع يعرفون مبلغ اهمية وسائط الاتصال الطبيعية في هذا المجال. وان هيغل هو الذي قال من قبل ان الجبال تفصل البشر بينما البحار والانهار تجمعهم❋❋

وان البيئة الاجتماعية لتمارس أثرا لايقل حسما في مصير المجتمعات الاكبر أيضا ومصير الدول التي قامت على انقاض التنظيمات العشائرية البدائية

« ليس الخصب المطلق للارض ، بل بالاحرى تنوع صفاتها الكيماوية ، وتركيبها الجيولوجي ، وتضاريسها الفيزيائية ، هي مايشكل القاعدة الطبيعية لتقسيم العمل الاجتماعي ويحرض الانسان ، بسبب الظروف المختلفة الاشكال التي يوجد في وسطها ، على مضاعفة حاجاته ومواهبه ووسائل عمله واساليبه وان ضرورة توجيه قوة طبيعية ماتوجيها اجتماعيا ، واستخدامها ، وتوفيرها ، وتملكها على نطاق واسع بواسطة اعمال فنية ، وباختصار ترويضها ، هذه الضرورة هي التي تلعب الدور الحاسم في تاريخ الصناعة كذلك كانت ضرورة تنظيم وتوزيع مجاري المياه في مصر ، ولومبارديا وهولندا ، الخ وتلك هي الحال كذلك في الهند ، وايران ، الخ حيث الري

❋ ان الكتاب المعروف جيدا الذي كتبه فون مارتيوس عن سكان البرازيل البدائيين (٣٠) يقدم امثلة عديدة باعثة على الاهتمام عن أثر الخصائص الجغرافية التافهة جدا في ظاهر الامر في تطور العلاقات المتبادلة بين السكان

❋❋ ومهما يكن من شيء ، فيجب ان نشير فيما يتعلق بالبحر انه لايجمع البشر دائما ويلاحظ راتزل بحق Anthropo - Geogarphie ، شتوتغارت ١٨٨٢ ص ٩٢) ان البحر في مرحلة دنيا من التطور يشكل حدا **مطلقا** ، يعني انه يجعل جميع العلاقات من أي نوع كانت بين الشعوب التي يقسمها أمرا مستحيلا وان العلاقات التي لم تصبح ممكنة في الاصل الا بفعل خصائص البيئة الجغرافية تترك من جهتها طابعها على ملامح القبائل البدائية ان أهل الجزر يتميزون بصورة ملحوظة من سكان القارات ويقول راتزل ان سكان الجزر يختلفون في بعض الحالات كل الاختلاف عن اولئك الذين يسكنون الارض اليابسة الاقرب أو الجزيرة الكبيرة الاقرب ، لكنهم حتى حيث ينتسبون في الاصل الى نفس العرق أو نفس الجماعة العرقية ، فانهم يتميزون منها دائما حتى درجة كبيرة وفي الحقيقة ان المرء يستطيع ان يضيف ، كقاعدة ، انهم يختلفون اكثر مما تختلف فيما بينها الفروع المقابلة من هذا العرق أو هذه الجماعة على اليابسة » (راتزل المصدر المذكور ، ص ٩٦) [النص بالالمانية في الطبعة الروسية] ههنا يتكرر نفس القانون الذي يتحكم في تكوين الانواع والاشكال المتنوعة من الحيوانات .

بواسطة الاقنية الصناعية يوفر للارض ليس الماء الذي لا غناء لها عنه فحسب ، بل كذلك الاسمدة المعدنية التي ينتزعها من الجبال ويمزجها بطينة فتمديد الاقنية هو السر في الازدهار الصناعي في اسبانيا وصقلية ابان السيطرة العربية* »

وهكذا فان اسلافنا اشباه البشر لم يستطيعوا ان يرتفعوا الى ذلك المستوى من التطور الذهني الذي كان لابد منه في سبيل تحولهم الى حيوانات صانعة للادوات الا بفضل بعض الصفات الخصوصية في البيئة الجغرافية . وكذلك فان بعض خصائص هذه البيئة نفسها كانت تستطيع وحدها ان تفسح المجال من اجل تطبيق هذه القدرة الجديدة الخاصة «بصناعة الادوات» في الممارسة واتقانها بصورةمتصلة.

وفي العملية التاريخية لتطور القوى المنتجة يجب ان تعتبر قدرة الانسان على صناعة الادوات قبل كل شيء من حيث **هي مقدار** ثابت بينما الشروط الخارجية المحيطة من أجل استخدام هذه القدرة في الممارسة يجب ان تعتبر من حيث هي **مقدار متحول باستمرار****

---

* كارل ماركس Das Kapital, dritte Anflange, S. 524 - 526.

رأس المال ، الكتاب الاول الجزء الثاني ، الترجمة العربية ، منشورات دار اليقظة العربية ص ٨٠٣ –] ويضيف ماركس في الهامش « كان توزيع المياه في الهند احد الاسس المادية لسلطة المركزية على عضويات الانتاج الصغيرة غير المترابطة ولقد فهم الفاتحون المسلمون هذه الحقيقة من الانكليز الذين خلفوهم » ويمكننا ان نقارن مع رأي ماركس المورد اعلاه رأي احد الباحثين المحدثين من الهبات التي تقدمها الطبيعة الحية للانسان ليست اثمنها الثروة المادية ، الطاقة بالاحرى وسائل انتاج الطاقة » (راتزل المؤلف المذكور ص ٣٤٣ النص وارد بالالمانية في الطبعة الروسية]

** يقول لودفيغ جايجر « يجب ان نحترس من ان ننسب الى الفكر دورا كبيرا جدا في نشوء فمن المؤكد اكتشاف **الادوات الاولى** ذات الاهمية الاساسية حدث بمحض الصدفة ، مثله كمثل اكتشافات عظيمة عديدة في العصور الحديثة ولقد توصلت الى هذه الفكرة حين تبينت ان اسماء الادوات لاتنشأ قط من صناعتها وان هذه الاسماء لاتملك قط طابعا وراثيا بل تنشأ من الاستخدام الذي تعيد الاداة فيه هكذا في اللغة الالمانية نجد ان Scheere (مقص)، و Sâge منشار Hacke (مجرفة) تستمد اسماءها من فعل قص Scheeren ونشر Sâgen وجرف Hacken وان هذا القانون اللغوي يجب ان يجتذب اهتمامنا اكثر فأكثر لان الاجهزة التي لاتمثل ادوات تتشكل بطريقة وراثية ، منفعلة ، انطلاقا من المواد التي تخدم في صنعها أو المعالجة التي تؤدي الى تكوينها ومثال ذلك ان قربة الخمر تسمى في لغات متعددة باسم الجلد المسلوخ عن الحيوان فالكلمة بالالمانية Schlauch يقابلها في الانكليزية Slough جلد الافعى الكلمة اليونانية Ascos هي في وقت واحد جلد بمعنى الوعاء وجلد الحيوان وهكذا تبين اللغة لنا هنا بكل جلاء كيف صنع الوعاء المسمى قربة ومن يأ شيء صنع ولا ينطبق الامر نفسه على الادوات ، فهي في الاصل ، اذا اعتمدنا على اللغة ، لم تصنع مطلقا . وهكذا

ان الفارق في النتائج الي حققتهـا المجتمعـات البشريـة المختلفة (**مراحـل الحضارة** تفسر على وجه الدقة بحقيقة ان البيئة لم تتح للقبائل الانسانية المختلفة ان تستخدم عمليا على قدم المساواة قدرتها على الاختراع وهنـاك مدرسـة من الانثروبولوجيين ترد هذا الفارق المشار اليه في النتائج الى الصفـات المختلفـة للعروق الانسانية لكن هذا الراي لا يصمد للبحث انه مجرد لون جديد من الطريقة
للعروق الانسانية لكن هذا الراي لايصمد للبحث انه مجرد لون جديد من الطريقة
القديمة لتفسير الظواهر التاريخية بالاسنادات الى الطبيعـة الانسـانية (او الاسنادات الى **الطبيعة العرقية** هنا) وهو لم يمض في عمقه العلمي الى ابعد مـن آراء طبيب موليير الذي اعلن بكل حكمة ان الافيون ينوم لانه يتحلى بخاصة التنويم ان هذا العرق متخلف لانه يملك خاصية التخلف)

حين يفعل الانسان في الطبيعة الخارجية يبدل طبيعته الخاصة انه يطـور قدراته وفي عدادها أيضا القدرة على صنع الادوات **لكن مقياس هـذه القدرة يتقرر في كل لحظة بدرجة تطور القوى المنتجة المكتسبة من قبل**

وحـين تصبـح اداة العمـل موضـوعـا لـلانتـاج فـان امكانيـة صنعهـا بالـذات ــ وكـذلـك امكانيـة اتقانهـا بصـورة أكثـر أو أقـل ــ تتوقف كليا على الادوات التي تخدم في صناعتها وهو أمر مفهوم من الجميع حتى بضاح ولكن اليكم مايمكن ان يبـدو عصيا عـلى الفهم للوهلة الاولى ان بلوتارك وهو يأتي على ذكـر الاختراعـات التي حققهـا ارخميدس ابان حصـار سيراكوس من قبل الرومان يجد من الضرورة بمكان **الاعتذار** عن المخترع ففي رايه انه ليس مما يلائم الفيلسوف بالطبع ان ينصرف الى اهتمامات من هذا النوع لكن ارخميدس يجد له عذرا في الخطر البالغ الذي كانت بلاده عرضة له واننـا نسـأل من يفكر اليوم في البحث عن ظروف مخففة للاثم الذي ارتكبه اديسون ؟ انا لانعتبر اليوم امرا شائنا ــ بل العكس من ذلك تماما ــ ان يستخدم الانسان في الممارسة قدرته على الاختراعات الميكانيكية بينما كان الاغريق (او الرومان اذا كنتم تفضلون ذلك) يرون رأيا مغايرا تمامـا وبالتـالي لابـد ان تقـدم الاكتشافات والاختراعات الميكانيكية عندهم جرى ــ وقد جرى فعلا ــ بصورة ابطأ حتى درجـة لا تقارن منه عندنا وقد يبدو هنا من جديد ان **الآراء تسود العالم** لكن من اين

فالسكين الاولى يمكن جدا ان تكون قد عثر عليها مصادفة ، واقول انها حجر مسنون قد استخدم في اللعب مثلا ل جايجر Die Urgeschichte der Menschheit im lichte der Sprache. mit besonderer begichung auf die Entstehung des Werkzeugs
التاريخ البدائي للانسانية على ضوء اللغة ، مع الاهتمام بصورة خاصة باصل أدوات العمل] ، ص ٣٦ ــ ٣٧ (في مجموعة **دراسة في تاريخ التطور الانساني** ، شتوتغارت ، ١٨٧٨) .

اسقى الاغريق مثل هذا « الراي » العجيب ؟ اننا لانستطيع ان نفسر نشأته بصفات « الذهن الانساني » ، وبالتالي لايبقى امامنا الا ان نتذكر علاقاتهم الاجتماعية لقد كان مجتمعا اليونان وروما كما نعلم مجتمعين **لمالكي العبيد** ، وكان العمل الجسدي كله ، عمل الانتاج كله ، يقع في هذين المجتمعين على عاتق العبيد لقد كان الرجل الحر **يخجل** من مثل هذا العمل ، بحيث نشأ بطبيعة الحال موقف يتصف بالازدراء حيال حتى اهم الاختراعات التي تتصل بعملية الانتاج — وفي عدادها الاختراعات الميكانيكية وهذا هو السبب في ان بلوتارك ينظر الى ارخميدس نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتنا اليوم الى ادسون※ ولكن لماذا اقيمت العبودية في اليونان ؟ الم يكن ذلك بسبب ان الاغريق من جراء بعض الاخطاء في « ذهنهم » ، قد اعتبروا ان نظام ملكية العبيد هو الافضل ؟ كلا ، لم يكن ذلك هو السبب فقد كان زمن لم يكن فيه عبودية لدى الاغريق ، وفي ذلك الحين ماكانوا يعتبرون على الاطلاق ان النظام الاجتماعي القائم على ملكية العبيد نظام طبيعي ومحتوم ولقد نشأت العبودية في وقت لاحق عند الاغريق ، واخذت تلعب بصورة تدريجية دورا متعاظم الاهمية في حياتهم ومن بعد تغيرت نظرة مواطني اليونان ايضا فجعلوا يدافعون عن العبودية على اعتبارها مؤسسة طبيعية تماما واساسية بصورة لاتقبل الجدال ولكن لماذا نشأت العبودية اذن وتطورت بين الاغريق ؟ من المؤكد لنفس السبب الذي قامت من اجله وتطورت في بلدان اخرى ايضا في مرحلة معينة من تطورها الاجتماعي. وان هذا السبب لمعروف جيدا انه يكمن في حالة القوى المنتجة وبالفعل ، فكيما استفيد من تحويل عدوي المغلوب الى عبد بالاحرى منه الى لحم مجفف فمن الضرورة بمكان ان يكون نتاج عمله غير الحر قادرا ليس على اعالته وحده ، بل على اعالتي ايضا ولو بصورة جزئية وبكلام آخر ، فلا بد من مرحلة معينة من تطور القوى المنتجة تحت تصرفي ولقد دخلت العبودية من هذا الباب على وجه التحديد فليس العمل العبودي مناسبا جدا لتطور القوى المنتجة فهي تتقدم ببطء شديد في شروط العبودية لكنها تتقدم مع ذلك واخيرا حان وقت تبين فيه ان استمرار العمل

※ « ذلك ان فن الميكانيك قد اخترعه لاول مرة اودوكسوس وارشيتاس اللذان ارادا ان يزينا الهندسة بشمائله اللطيفة ، وان يؤيدا بالامثلة الحسية والبراهين الآلية بعض القضايا التي لم يكن في الامكان اقامة البرهان عليها بالمحاكمة واليقين لكن حين ثار افلاطون ضد ذلك ، ولامهما على افساد الهندسة التي افقداها كرامتها واجبراها على الانحطاط من الاشياء غير المادية والفكرية المجردة الى الاشياء الجسمية والحسية ، وعلى استخدام مادة دنيئة تتطلب عمل اليدين وتفيد في حرف عبودية ، فصلت الميكانيك عن الهندسة وظلت طويلا موضع احتقار الفلسفة ، واصبحت احد الفنون العسكرية » Plutarchi, Vita Marcelli [بلوتارك ، **حياة مارسيلوس**] منشورات توبنر ، لايبزغ ١٨٨٣ ، الفصل الرابع عشر ، ص ١٣٥ — ١٣٦) وانه ليتضح ان فكرة بلوتارك ليست بالفكرة الجديدة .

العبودي أقل فائدة من استمرار العمل الحر وعندئذ **الغيت** العبودية ، أو **اضمحلت** بصورة تدريجية ، وطردت من التاريخ من قبل نفس تطور القوى المنتجة الذي ادخلها اليه* وهكذا نرى ، ونحن نعود الى بلوتارك ، ان رأيه في اختراعات ارخميدس حددته حالة القوى المنتجة في عصره وبما ان الآراء من هذا النوع تؤثر دون ريب تأثيرا كبيرا في مسيرة الاكتشاف والاختراع اللاحقة ، فاننا نستطيع ان نقول اذن ان **تقدم القوى المنتجة بالنسبة الى كل شعب ، في كل مرحلة من تاريخه ، يتقرر بشروط هذه القوى في المرحلة المقصودة** (٣١

وطبيعي اننا كلما عالجنا الاختراعات والاكتشافات فأننا نعالج « العقل » ايضا. فالاختراعات والاكتشافات مستحيلة بدون العقل استحالتها قبل ظهور الانسان على وجه البسيطة ولا تهمل العقيدة التي نقدمها دور العقل مطلقا ، بل تحاول فقط ان تفسر لماذا تصرف العقل في كل زمن معين **بهذه الطريقة بالاحرى من غيرها** ؛ انها لاتحتقر نجاحات العقل ، بل تسعى فقط للعثور على سبب كاف لها

ولقد رفع مؤخرا ضد هذه العقيدة اعتراض آخر ، وسنترك للسيد كارييف ان يقدمه

يقول هذا الكاتب ، وقد عرض فلسفة انجلز التاريخية بقدر اكثر أو أقل من النجاح

« لقد اكمل انجلز مع مرور الزمن نظريته باعتبارات جديدة ادخلت عليها تعديلا اساسيا فاذا هو لم يعترف من قبل الا باستقصاء بنية المجتمع الاقتصادية وحدها من حيث هي اساس التصور المادي التاريخي ، نقد اعترف في وقت لاحق بأن دراسة بنية العائلة لاتقل عن ذلك أهمية ولقد حدث ذلك بتأثير تصورات جديدة عن اشكال الزواج البدائية والعلاقات العائلية ، التي قادته لان يأخذ بعين الاعتبار لا عملية انتاج المنتجات فحسب ، بل عملية تكاثر الاجيال الانسانية أيضا وفي هذا المجال ، كان لكتاب مورغان **المجتمع القديم** أثره الظاهر ، * الخ

---

* لقد كان للفلاحين الروس طوال فترة من الزمن ، كما هو معروف ، الحق في امتلاك الاقنان ، وقد انتفعوا من هذا الحق ولم يكونوا يجدون ، بوصفهم فلاحين ، اية جاذبية في القنانة لكننا لم نكن نجد فلاحا واحدا يعتبر هذا الامر شاذا عن الطبيعة في حالة القوى المنتجة في روسيا في ذلك الحين. ان « الموجيك » الذي وفر بعض المال كان يفكر بصورة طبيعية في ابتياع الاقنان مثلما كان الرجل الحر الروماني يعمل جاهدا على الحصول على العبيد وان العبيد الذين ثاروا بقيادة سبارتاكوس شنوا الحرب ضد اسيادهم وليس ضد العبودية ، ولو انهم نجحوا في الحصول على حريتهم لاصبحوا هم انفسهم اصحابا للعبيد في ظروف ملائمة ، وبراحة ضمير تامة وان المرء ليتذكر ، شاء أم أبى ، صيغة شيلنغ التي تكتسب اذن معنى جديدا **يجب ان تكون ضرورة في الحرية** وبالفعل ، فان التاريخ يبين ان الحرية ، كائنا ما كان شكلها ، لاتظهر الا حيث تصبح ضرورة اقتصادية

* راجع **المادية الاقتصادية في التاريخ** ، في Vestnik Yevropy [**رسول اوربا**] ، أيلول ١٨٥٤ ، ص ٦٠١ .

وهكذا فاذا كان انجلز لم يعترف من قبل الا باستقصاء بنية المجتمع الاقتصادية وحدها من حيث هي اساس التصور المادي » (؟) « للتاريخ واذا هو اعترف في وقت لاحق بأن دراسة بنية العائلة لاتقل عن ذلك اهمية » ، الخ ، الخ فقد كف عن كونه ماديا اقتصاديا بكل معنى الكلمة ويسجل السيد كاربيف هذا الحدث ببهجة المؤرخ الحيادي ، بينما السيد ميخائيلوفسكي يطفر فرحا » للسبب عينه ؛ بيد ان كليهما يقول نفس الشيء الواحد جوهريا وكليهما يكرر ما قاله قبلهما الكاتب الالماني السطحي جدا فايسنغرون في كتابه Entwicklungsgesetze der Menschme*

انه لمن الطبيعي تماما ان مفكرا من طبقة انجلز تابع طوال عشرات السنين تقدم العلوم في زمنه يعمد بصورة اساسية الى تكملة نظريته الاساسية عن تاريخ الجنس البشري لكن هناك تكملة وتكملة كما ان هناك « خيارا وفقوسا ** وفي الحالة الراهنة تقتصر المسألة كلها على معرفة ما اذا كان انجلز غير نظريته » بنتيجة تلك التكملة التي ادخلها عليها اكان ملزما حقا بالاعتراف جنبا الى جنب مع تطور الانتاج بتأثير عامل آخر لايقل عنه اهمية فيما يقال ان الجواب يسير اذا ما اراد المرء ان يدرس القضية بشيء قليل من الجدية

يقول داروين ان الفيلة تطرد الذباب بالاغصان احيانا ولقد اشرنا بهذا الشأن الى ان الاغصان مع ذلك لاتلعب اي دور اساسي في حياة الفيلة ، وان الفيل لم يصبح فيلا لانه استخدم الاغصان لكن الفيل يتكاثر وان للفيل الذكر علاقة معينة بانثاه. وان للذكر والانثى علاقة معينة بأولادهما ومن الواضح ان هذه العلاقات لم تخلقها الاغصان بل خلقتها شروط الحياة العامة لهذا النوع وهي شروط دور الغصن فيها ضئيل بصورة لامتناهية حتى تمكن مساواته بالصفر دون خطأ لكن تصوروا ان الغصن جعل يلعب في حياة الفيل دورا متعاظم الاهمية باطراد ، بمعنى انه جعل يمارس تأثيرا متعاظما باطراد في بنية تلك الشروط العامة التي تتوقف عليها جميع عادات الفيلة ووجودها بالذات مع مرور الزمن وتصوروا ان الغصن اكتسب آخر الامر تأثيرا **حاسما** في خلق تلك الشروط عندئذ لابد ان نعترف انه يقرر مع مرور الزمن علاقات الفيل الذكر بانثاه وأولاده أيضا عندئذ لابد لنا ان نعترف بأنه كان ثمة زمن تطورت فيه علاقات الفيلة العائلية بصورة مستقلة (بمعنى علاقتها بالغصن) ، لكنه جاء زمن في وقت لاحق جعلت فيه تلك العلاقات تتقرر بالغصن ايكون ثمة شيء غريب في هذا الاعتراف ؟ ابدا على الاطلاق باستثناء غرابة نفس الفرضية القائلة ان الغصن يمكن ان يكتسب بصورة مفاجئة اهمية حاسمة في حياة الفيل واننا لنعرف ان هذه الفرضية لايمكن بخصوص الفيل الا ان تبدو غريبة ؛ لكن الامور تختلف اذا ما طبقت على التاريخ **الانساني**

* [قوانين التطور الانساني]

** [fagot et fagot ، بالفرنسية في النص الاصلي] .

فالانسان لم ينفصل عن العالم الحيواني الا بصورة تدريجية ولقد كان زمن لعب الادوات فيه في حياة اسلافنا القردة دورا تافها جدا بقدر تفاهة دور الاغصان حياة الفيلة وخلال هذه الفترة الطويلة من الزمن كانت العلاقات بين القردة الذكور والقردة والاناث ، بالضبط مثل العلاقات بين كل منها والقردة الصغار ، تتعين بالشروط العامة لحياة هذا النوع وهي شروط لم تكن لها اية علاقة البتة بأدوات العمل فعلام كانت علاقات اسلافنا العائلية تتوقف اذن ؟ ان على العلماء الطبيعيين ان يفسروا ذلك وليس للمؤرخ مايفعله بعد في هذا المجال لكن ادوات العمل جعلت الآن تلعب دورا متزايد الاهمية باطراد في حياة الانسان واخذت القوى المنتجة تتطور اكثر فأكثر وجاءت اخيرا برهة اكتسبت فيها تأثيرا حاسما في مجمل بنية العلاقات الاجتماعية ، ومن ضمنها العلاقات العائلية وان عمل المؤرخ يبدأ عند هذه النقطة فعليه ان يبين كيف ولماذا تغيرت علاقات اسلافنا العائلية وفقا لتطور قواهم المنتجة وكيف تطورت العائلة وفقا للعلاقات الاقتصادية لكنه من الواضح انه حين ينكب على مثل هذا التفسير فان من واجبه في دراسة العائلة البدائية ان يأخذ بعين الاعتبار لا الاقتصاد وحده ذلك ان الناس تكاثروا حتى قبل تكتسب ادوات العمل اهميتها الفاصلة في الحياة البشرية فحتى قبل هذا الوقت كان ثمة نوع من العلاقات العائلية التي كانت تتقرر بشروط الوجود العامة للنوع الانسان العاقل ماذا على المؤرخ ان يفعل هنا اذن ؟ يجب عليه قبل كل شيء ان يطلب ملف النوع من العالم الطبيعي الذي نقل اليه مهمة مواصلة دراسة تطور الانسان ويجب عليه ثانيا ان يكمل هذا الملف « من مصادره الخاصة وبكلام آخر فان عليه ان يتناول العائلة كما خرجت الى الوجود في المرحلة الحيوانية من تطور الانسانية اذا جاز التعبير وان يبين بعدئذ ما هي التبدلات التي طرأت عليها ابان المرحلة التاريخية تحت تأثير تطور القوى المنتجة من جراء التبدلات في العلاقات الاقتصادية هذا كل مايقوله انجلز واننا لنسأل حين يقول ذلك فهل يعدل أي تعدل في نظريته « الاصلية عن اهمية القوى المنتجة في تاريخ الانسانية ؟ يقبل جنبا الى جنب مع تأثير هذا العامل بتأثير عامل آخر لايقل عنه اهمية » ؟ لايبدو ذلك ابدا فلماذا يتحدث اذن السيدان فاسنعرون وكاريف عن تغيير في آرائه ولماذا يطفر السيد ميخائيلوفسكي من الفرح ؟ على الارجح بنتيجة طيشهم جميعـــا

ويهتف معارضونا في جوقة واحدة ومع ذلك فانه لغريب حقا ان يرجع تاريخ العائلة الى تاريخ العلاقات الاقتصادية حتى خلال ماتسميه المرحلةالتاريخية ». قد يكون ذلك غريبا وقد لايكون انـه يحتمل الجـدال حسـب تعبير السـيد ميخائيلوفسكي واننا نجادل بشأنه بكل طيبة خاطر ايها السادة لكن بشرط واحد : تصرفوا بصورة جدية خلال المناقشة وادرسوا بانتباه معنى كلماتكم ولا

تنسبوا الينا اوهامكم الخاصة ، ولا تتعجلوا اكتشاف التناقضات عندنا ، هذه التناقضات التي لا وجود لها لدينا او لدى اساتذتنا لا حاليا ولا فيما مضى هل وافقتم حسن فلنتجادل اذن

تقولون اننا لانستطيع ان نفسر تاريخ العائلة بتاريخ العلاقات الاقتصادية فذلك تصور ضيق ، ومحدود ، ولا علمي وانا لنؤكد العكس ونجعل من الباحثين المختصين حكما بيننا

من المؤكد انكم تعرفون كتاب **اصول العائلة** لجيرو ــ تولون اننا نفتح هذا الكتاب الذي تعرفون ونعثر فيه مثلا على الفقرة التالية

الاسباب التي ادت الى قيام زمر عائلية منفصلة ضمن الرهط (la horde) تتصل بالتأكيد بزيادة الثروة العامة وان تطبيق نوع من الحبوب او اكتشافه ، وتدجين نوع حيواني جديد أو تصالبه مع نوع آخر ، ربما كانت اسبابا كافية لتحول جذري في المجتمع المتوحش ؛ ان جميع النجاحات الكبرى في الحضارة تطابقت على الدوام مع تبدلات عميقة في حياة السكان الاقتصادية* ص ١٣٨

ونقرأ بعد صفحات قليلة

يبدو ان الانتقال من مؤسسات القرابة الانثوية الى مؤسسات القرابة الذكرية قد كان نذيره بصورة خاصة نزاع من طبيعة حقوقية بشأن حق الملكية (ص ١٤١)

وبعد قليل أيضا

« يبدو ان تنظيم العائلة الذكرية نشأ في كل مكان على وجه التقريب بتأثير قوة بسيطة وعنيفة على حد سواء ، ألا وهي قوة حق الملكية (ص ١٤٦

ومما لا ريب فيه انكم تعرفون الاهمية التي يعزوها ماك لينان الى قتل الاطفال الاناث في تاريخ العائلة البدائية وانكم لاتجهلون ان انجلز يتخذ موقفا سلبيا جدا من اعمال هذا المؤلف وهذا سبب اضافي يجعلنا نلتفت الى مايقوله ماك لينان عن اسباب قتل الاطفال الذي كان له اثر حاسم فيما يبدو في تطورالعائلة.

بالنسبة الى القبائل المحاطة بالاعداء ، والمفتقرة الى اية معونة من قبل التقنية ، والمكافحة في سبيل توفير المعيشة لها ، كان الابناء مصدر قوة سواء من أجل الدفاع عن الذات ام من أجل الحصول على الغذاء ، وكانت البنات مصدر ضعف** »

فما هو السبب الذي كان يدفع اذن في راي ماك لينان القبائل البدائية الى قتل البنات ؟ انه نقص وسائط المعيشة وضعف القوى المنتجة ولو ان هذه

---

* اننا نستشهد عن الطبعة الفرنسية لعام ١٨٧٤

** ج.ف. ماك لينان Studies in ancient history-primitive marriage
[دراسات في التاريخ القديم ــ الزواج البدائي] ، ص ٧٥ .

القبائل كانت تملك مايكفي من الطعام لكان من الارجح الا تعمد الى قتل بناتها خوفا من ان يأتي العدو يوما فيقتلهن او يأسرهن

ونعود فنقول ان انجلز لم يكن يشاطر ماك لينان نظريته عن تاريخ العائلة ، ونحن نجد كذلك ان هذه النظرية غير مرضية لكن الامر الهام هنا هو ان ماك لينان يشترك ايضا في الخطيئة المأخوذة على انجلز لانه يبحث هو الآخر في حالة القوى المنتجة عن حل للغز تاريخ العلاقات العائلية

ايجب ان نواصل استشهاداتنا ، فنستشهد بليبرت ومورغان ؟ لانرى حاجة الى ذلك لأن كل من قراهما يعرف انهما في هذا المضمار مذنبان كبيران على قدم المساواة مع ماك لينان وانجلز وان هربرت سبنسر ليخطىء هنا أيضا كما هو معروف جيدا بالرغم من ان نظرياته السوسيولوجية لا تمت بأية صلة على الاطلاق الى المادية الاقتصادية

ومن المؤكد ان المرء يستطيع ان يستفيد من هذا الظرف الاخير لاغراض المناظرة ويقول أترون ؟ ان في مقدور المرء ان يتفق مع ماركس وانجلز في هذه المسألة أو تلك على انفراد، ولا يشاطرهما نظريتهما عن التاريخ بكل تأكيد ! والمسألة الوحيدة هي ان نعرف الى اي جانب ينحاز المنطق

ولنستطرد

ان تطور العائلة يتقرر بتطور حق الملكية هذا مايقوله جيرو ـ تولون ، مضيفا ان سائر نجاحات الحضارة الكبرى تتفق على العموم مع تبدلات طرات على الحياة الاقتصادية الانسانية ومن المرجح ان القارىء لاحظ من تلقاء نفسه ان جيرو ـ تولون ليس دقيقا كل الدقة في مصطلحاته فعنده ان مفهوم حق الملكية » يستنفذه كليا مفهوم الحياة الاقتصادية لكن الحق هو الحق ، والاقتصاد هو الاقتصاد ولا يجوز خلط المفهومين معا من اين نشأ حق الملكية هذا ؟ لعله نشأ تحت تأثير اقتصاد مجتمع معين يقول لاسال ان القانون المدني ليس دائما الا التعبير عن العلاقات الاقتصادية) أو لعله يدين بأصله الى سبب مختلف كل الاختلاف وههنا يجب ان نواصل التحليل ولا نقطعه بالضبط حيث يصبح ذا اهمية عميقة حقا وحيوية حقا

ولقد رأينا من قبل ان المؤرخين الفرنسيين في عهد عودة الملكية لم يجدوا جوابا مرضيا عن مسألة اصل حق الملكية وان السيد كارييف ليعالج في مقالته « المادية الاقتصادية في التاريخ المدرسة التاريخية للحق في المانيا ولن يضيرنا ان نتذكر هنا آراء هذه المدرسة ايضا

اليكم مايقوله استاذنا عنها

« حين ظهرت في مطلع القرن الحالي في المانيا مايسمى « المدرسة التاريخية للحق » وجعلت تنظر الى الحق ليس من حيث هو نظام جامد من القواعد الحقوقية كما كان الحقوقيون السابقون يتصورونه ، بل من حيث هو شيء متحرك ومتبدل ومتطور ، فقد برز في هذه المدرسة اتجاه قوي الى معارضة المفهوم التاريخي عن الحق على اعتباره المفهوم الصحيح الوحيد حصرا بجميع المفاهيم الممكنة الاخرى في هذا المضمار المفهوم التاريخي لم يقبل قط بوجود حقائق علمية قابلة للتطبيق على سائر العصور ، يعني مايسمى القوانين العامة في لغة العلم الحديث بل انكر هذه القوانين بصورة مباشرة ، وانكر معها اية نظرية عن القانون وذلك باسم فكرة تبعية القانون للشروط المحلية – وهي تبعية وجدت في كل مكان وكل زمان لكنها لاتنفي المبادىء المشتركة سائر الامم*

ان في هذه الاسطر القليلة كثيرا – لنقل من الهفوات التي سوف يحتج عليها اساتذة المدرسة التاريخية للحق وتلامذتها لسوف يقولون على سبيل المثال انه حين يتهمهم السيد كاريف بانكار مايسمى القوانين العامة في لغة العلم الحديث فهو اما يمسخ افكارهم عن قصد ، أو يمزج المفاهيم بطريقة لاتناسب على الاطلاق « فيلسوف التاريخ » ، فيخلط « القوانين » التي تقع في منظور تاريخ القانون مع تلك القوانين التي تحدد تطور الشعوب ان المدرسة التاريخية للحق لم تحلم قط بانكار وجود النوع الثاني من القوانين وقد حاولت باستمرار اكتشافها بالرغم من ان جهودها لم تتكلل بالنجاح لكن السبب في هذا الفشل بالذات بناء حتى الدرجة القصوى ، ولو ان السيد كاريف كلف نفسه عناء التفكير في الامر فلعله كان يدرك اخيرا – من يدري ؟ – **ماهية العملية التاريخية**

وفي القرن الثامن عشر كان الاتجاه الى تفسير تاريخ الحق بفعل الشارع وهو الاتجاه الذي عارضته المدرسة التاريخية بكل عنف ولقد صاغ سافييني منذ عام ١٨١٤ النظرية الجديدة كما يلي

ان حصيلة هذه العقيدة تستقيم في الحق ينشأ مما يسمى في الاستعمال الشائع ، وان يكن هذا التعبير لايتصف بالدقة التامة ، **الحق العرفي** ، يعني انه ينشأ من العادات والمعتقدات الشعبية ومن الفقه في وقت لاحق وهكذا فان قوة باطنة هي التي تخلقه في كل مكان ، فاعلة دون عنف ، لا ارادة الشارع الشخصية **

ولقد شرح سافييني هذه الفكرة فيما بعد في مؤلفه الشهير System des

---

* **رسول اوربا** ، تموز ١٨٩٤ ، ص ١٢

** فريدريك كارل فون سافييني

Vom Bruf unserer Zeit fur Gesetzgebung undRechtswiasenschaft

[**في دعوة عصرنا لتشريع وعلم القانون**] ، الطبعة الثالثة،هايدلبرغ ١٨٤٠،ص ١٤ . ظهرت الطبعة الاولى عام ١٨١٤ .

* Heutigen romischen Rechts حيث يقول

« ان الحق الايجابي يحيا في وجدان الشعب المشترك بحيث نستطيع ان نسميه **الحق الشعبي** لكن يجب الا نستخلص من ذلك انه من صنع اعضاء فرادى من هذا الشعب بصورة اعتباطية ان الحق الايجابي هو من عمل روح الشعب التي تحيا ونفعل في اعضائه الفرادى ، وبالتالي فالحق الايجابي هو بفعل الضرورة لا بفعل المصادفة نفس الحق الواحد في وجدانات الاشخاص الفرادي »

ويستطرد سافييني قائلا :

« واذا اخذنا بعين الاعتبار مسألة نشوء الدولة ، فان من واجبنا بالطريقة نفسها ان نفسره بضرورة عليا ، بفعل قوة تبني من الداخل ، كما بينا اعلاه في حالة الحق عامة وان هذا ليصح ليس في حالة وجود الدولة عامة ، بل في حالة ذلك الشكل الخصوصي الذي تتخذه الدولة في كل امة على حدة** »

ان القانون ينشأ بطريقة خفية مثله كمثل اللغة ، ويحيا في الوجدان العام للشعب ليس في شكل قواعد مجردة ، بل في شكل تصور حي للمؤسسات الحقوقية في ترابطها العضوي بحيث حين تقوم ضرورة لذلك ، فان القاعدة المجردة تنفصل في شكلها المنطقي عن ذلك التصور العام بفعل عملية اصطناعية ***(dnrch einen kunstlichen Prozess)

ولا تعنينا هنا المصالح العملية للمدرسة التاريخية للحق ، لكن بقدر مايتعلق الامر **بنظريتها** نستطيع ان نقول منذ الآن استنادا الى الاستشهادات الواردة اعلاه انها تمثل

١ — رد فعل ضد الفكرة التي كانت شائعة على نطاق واسع في القرن الثامن عشر والتي تقول ان القانون من صنع الارادة الاعتباطية لاشخاص فرادي (المشرعين) ومحاولة لايجاد تفسير علمي لتاريخ الحق ، لفهم هذا التاريخ من حيث هو عملية ضرورية ، وبالتالي متطابقة مع القانون

٢ — محاولة من أجل تفسير تلك العملية انطلاقا **من وجهة نظر مثالية خالصة** ان روح الشعب وجدان الشعب هو السلطة الاخيرة التي تتوجه اليها المدرسة التاريخية للحق

ولقد عبر بوختا بمزيد من الحدة أيضا عن الطابع المثالي لآراء هذه المدرسة فعنده كما هو الامر عند سافييني أن الحق العرفي هو الذي يشكل القانون البدائي لكن كيف نشأ الحق العرفي ؟ كثيرا ما يقال ان هذا الحق من

---

* [**نظام القانون الروماني في الوقت الراهن**] ، طبعة برلين ١٨٤٠ ، المجلد الاول ، ص ١٤

** المصدر نفسه ، ص ٢٢

*** المصدر نفسه : ص ١٦

صنع الممارسة اليومية (Uebung) لكن تلك حالة خصوصيــة فحسب مــن وجهــة النظر المادية عن اصل المفاهيم الشعبية

« ان وجهة النظر المناقضة بالضبط هي الصائبة فالممارسة اليومية هي المرحلــة الاخيرة ، وهي تقتصر على ان تعبر وتجسد القانون الذي نشأ ، والذي يحيا في قناعــة الافراد المنتسبين الى شعب معين فالعادة لا تؤثر في القناعة الا بمعنى هــذه القناعة تصبح بفضل العادة اعظم وعيا واشد متانة* »

وهكذا فالقناعة الشعبية بخصوص هذه المؤسسة الحقوقيــة او تلك تنشــأ بصورة مستقلة عن الممارسة اليومية ، وبصورة ابكر من العادة فما هو مصدر هذه القناعة اذن ؟ انها تنشأ من اعماق روح الشعب وان الشكل الخصوصي الذي تتخذه هذه القناعة عند كل شعب على حدة يجب ان يفسر بالصفات الخاصة لروح الشعب صاحب العلاقة هذا غامض جدا ـ غامض بحيث لاينطوي على أي أثر للتفسير العلمي ويحس بوختا نفسه ان الامور هنا غير مرضية تماما فيحاول ان يصححها بمثل هذه الملاحظة

ينشأ الحق بطريقة خفية . من ذا الذي يأخذ على عاتقه البحث عــن الدروب التي ادت الى قيام قناعة ما وولادتها ، ونموها وازدهارها وتظاهرها ؟ ان اولئــك الذين حاولوا ان يفعلوا ذلك انطلقوا على الاغلب من افكار خاطئة**

على الاغلب ؟ هذا يعني ان ثمة باحثين كانت افكارهم الاصلية صحيحة فما هي النتائج التي انتهى اليها هؤلاء الاشخاص بخصوص تكون المفاهيم الشعبية عن الحق ؟ لابد لنا ان نفترض ان هذا الامر ظل سرا بالنســبة الى بوختا ، لانــه لايتقدم خطــوة واحــدة الى ابعد مــن الاشــارات عديمــة المعنى الى خصائص الروح الشعبية

ولا نستطيع كذلك ان نستخلص أي ايضاح من ملاحظة سافييني الآنفة الذكر بأن الحق يحيا في وجدان الشعب العام ليس في شكل قواعد مجردة ، بل « في شكل تصور حي للمؤسسات الحقوقية في ترابطهــا العضوي وليس مــن الصعب ان نفهم السبب الذي حدا بسافييني الى اعطائنا هذا الخبر المشوش نوعا ما فاذا نحن افترضنا ان الحق موجود في وجدان الشعب في شكل قواعد مجردة فاننا

---

* Cursus der Institutionen [الوجيــز في المؤســسات] لايبــزغ ١٨٤١ ، المجلد الاول ، ص ٣١ ويتحدث بوختا في الهامش بحدة عن الانتقائيين الذين يسعون الى مصالحة الاراء المتناقضة عن اصل الحق ، ويستخدم تعابير بحيث لابد للمرء ان يتساءل ما اذا كان قــد توقع ظهور السيد كاريف لكن لابد لنا ان نقول من جهة اخرى انه كان في المانيا في ايــام بوختــا مايكفيها من الانتقائيين المحليين وقد يحدث عوز في جميع الامور ، أما هذا النوع من المفكرين فــان له احتياطيا لاينضب في كل مكان وزمان

** المصدر نفسه ، ص : ٢٨

نصطدم أولا بالوجدان المشترك للحقوقيين الذين يعرفون على خير وجه مبلغ الصعوبة التي يدرك بها الشعب هذه القواعد المجردة ، وثانيا فان نظريتنا عن اصل الحق سوف تتخذ شكلا لايمكن تصديقه على الاطلاق لسوف يتوجب علينا ان نقبل بأن البشر الذين يشكلون شعبا معينا اصطنعوا مفاهيم حقوقية محددة قبل ان يدخلوا في اية علاقات عملية ببعضهم بعضا وقبل حصولهم على اية تجربة عملية على الاطلاق واما اختزنوا تلك المفاهيم مثلما يختزن المتسول فتات الخبز فقد انطلقوا في مجال الممارسة اليومية وانخرطوا في طريق التاريخ ومن المؤكد ان احدا لن يصدق ذلك ولذا يحذف سافييني القواعد المجردة ان الحق لايوجد في وجدان الشعب في شكل مفاهيم متميزة وهو لايمثل مجموعة من البلورات تامة التكون بصورة مسبقة ، بل محلول مشبع اكثر أو أقل تتبلور منه القواعد الحقوقية المناسبة عندما تنشأ ضرورة ذلك يعني عند الاحتكاك بالممارسة اليومية ولا يفتقر هذا التصور الى الدهاء لكنه لايتقدم بنا بطبيعة الحال خطوة واحدة من فهم هذه الظاهرة بصورة علمية

ولنأخذ مثالا

يقول لنا رينك ان الاسكيمو لايعرفون على وجه التقريب الملكية النظامية ، لكنه يعدد بقدر ما يمكن الحديث عن الملكية ، ثلاثة أنواع لها

ـ الملكية التي تخص جماعة تتألف على العموم من اكثر من عائلة واحدة ، مثلا السكن الشتوي

٢ ـ الملكية التي تشكل ملكية مشتركة لعائلة واحدة ، أو على الاكثر ثلاث عائلات تجمع القرابة بينها كالخيمة وآنية المنزل ـ مصابيح سطول ، صحون خشبية ، اصص حجرية ، القارب (**umiak**) الذي يستطيع يحمل كل هذه الآنية مع الخيمة، مزلجة او مزلجان مع كلابهم ومؤن الشتاء

٣ فيما يتعلق بالملكية الشخصية يعني ما يملكه كل فرد ثيابه اسلحته والادوات او كل مايستعمله شخصيا بصورة خاصة بل ان هذه الاشياء تعتبر انها تملك نوعا من العلاقة فوق الطبيعية مع صاحبها تذكرنا بالرابطة بين النفس والجسد. ولم يكن من المألوف اعارتها للاخرين*

لنحاول ان نتصور اصل هذه الاشكال الثلاثة للملكية من وجهة نظر المدرسة التاريخية القديمة للحق

بما ان القناعات حسب تعبير بوختا تسبق الممارسة اليومية ولا تنشأ على أساس العادة فلا بد ان يفترض المرء ان الامور جرت على المنوال التالي قبل ان يعيش الاسكيمو في مساكن شتوية حتى قبل ان يباشروا بناءها انتهوا الى

---

* الدكتور هنري رينك **Tales and traditions of the Eskimo**
أساطير الاسكيمو وتقاليدهم] ، ١٨٧٥ ، ص ٩ ـ و ٣٠

الفناعة بأنه اذا ما قامت المساكن الشتوية بينهم فلا بد ان تكون ملكا لمجموعة تتألف من عائلات عديدة ولقد اقتنع هؤلاء المتوحشون كذلك بالطريقة نفسها بأنه اذا ما ظهرت فيما بينهم خيام صيفية وبراميل وصحون خشبية ومراكب وأصص ومزالج وكلاب فان جميع هذه الاشياء يجب أن تكون ملكا لعائلة واحدة ، أو على الاكثر ثلاث تجمع القرابة فيما بينها واخيرا فقد شكلوا قناعة لاتقل متانة عن ذلك بأن الثياب والسلاح والادوات يجب أن تشكل ملكية شخصية وانه سيكون من الخطأ حتى اعارة هذه السلع ولنضف الى ذلك ان جميع هذه « القناعات وجدت على الارجح ليس في شكل قواعد مجردة بل في شكل تصـ حي عن المؤسسات الحقوقية في ترابطها العضوي وانه تبلورت من محلول هذه التصورات الحقوقية ــ عندما نشأت ضرورة ذلك يعني عندما صادفوا المساكن الشتوية والخيام الصيفية والبراميل والاصص الحجرية والصحون الخشبية والمراكب والمزالج والكلاب ــ قواعد الحق العرفي للاسكيمو في شكلها المنطقي بصورة تزيد أو تنقص وان صفات المحلول الحقوقي آنف الذكر قد تحددت بالصفات السرية للروح الاسكيمو

ليس هذا تفسيرا علميا في حال من الاحوال بل كما يقول الالمان Redensarten [مماحكات] خالصة

ان ذلك النوع من المثالية الذي يمثله انصار المدرسة التاريخية للحق يتبين انه عاجز عن تفسير الظواهر الاجتماعية أكثر من عجز مثالية شيلينغ وهيغل الاعمق حتى درجة كبيرة

كيف خرج العلم من تلك الطريق المسدودة التي انحشرت المثالية فيها ؟ لنسمع مايقوله السيد كوفالفسكي احد ابرز اساتذة القانون المقارن في الوقت الحاضر

فبعد ما أشار السيد كوفالفسكي الى ان الحياة الاجتماعية للقبائل البدائية تحمل طابع الشيوعية ، كتب يقول ــ اسمع جيدا يا سيد ف.ف. فهذا اسناذ » أيضا

« استقصينا عن الحوافز الحقيقية لمثل هذه الاوضاع ، شئنا ان نعرف الاسباب التي دفعت اسلافنا في العصور الاولى والتي لاتبرح تلزم المتوحشين بألا يتخلوا عن نظام للشيوعية اكثر او اقل وضوحا ، فان علينا بصورة خاصة ان نعرف انماط الانتاج الاقدم ذلك ان توزيع الثروات واستهلاكها يجب ان يتوقفا على اسلوب جنيها واليكم ماتعلمنا اياه الاثنوغرافيا في هذا الموضوع ان الشعوب التي تحيا من الصيد والقنص تؤمن طعامها عادة في ارهاط ففي استراليا يتم صيد حيوان الكنغر بفصائل مسلحة تتألف من عشرات او حتى مئات السكان الاصليين وكذلك الامر بالنسبة الى صيد الوعل في البلدان الشمالية لقد تبين ان الرجل الفرد عاجز عن القيام لوحده بالصراع في سبيل الوجود انه في حاجة الى المعونة والدعم وقواه تتضاعف عشر مرات بتأثير المجتمع ... وهكذا نجد الانتاج الجماعي اولا وكنتيجة طبيعية وضرورية له الاستهلاك

الجماعي   ان الاثنوغرافيا غنية بالوقائع التي تثبت ذلك* »

ويعيد كوفالفسكي بعدئذ الى الاذهان نظرية ليرمينيه المثالية القائلة ان الملكية الخاصة تنشأ من الشعور بالشخصية ويستطرد

« كلا ، ليس الامر كذلك ، فالانسان البدائي لم يتوصل بهذه الطريقة الى التملك الشخصي للحجر المنحوت الذي يستخدمه كسلاح أو جلد الوحش الذي سيغطي جسده لقد توصل الى هذه الفكرة بنتيجة تطبيق قواه الفردية على انتاج الشيء موضوع البحث. ان الصوان الذي يستخدمه كفأس قد نحته بيديه الخاصتين   وفي القنص الذي انخرط فيه مع رفاق عديدين ، فانه هو الذي وجه الضربة القاضية الى الحيوان ، وبالتالي فان جلد هذا الحيوان اصبح ملكية شخصية له   ان الحق العرفي عند المتوحشين يتميز بالدقة في هذا الشأن   انه يحتاط بكل عناية سلفا ، على سبيل المثال ، من أجل الحالة التي وقع فيها الحيوان المطارد تحت الضربة المشتركة لصيادين معا   ففي هذه الحالة يكون جلد الحيوان من نصيب الصياد الذي جاء سهمه اقرب الى القلب   وانه ليحتاط ايضا من أجل الحالة التي يسقط الحيوان الجريح فيها تحت الضربة القاضية لصياد وقع عليه صدفة   ان تطبيق العمل الفردي يولد اذن بصورة منطقية التملك الفردي واننا لنستطيع ان نرسم هذه الظاهرة عبر التاريخ بأسره   ان ذلك الذي زرع شجرة مثمرة يصبح مالكها   وفي وقت لاحق كان المحارب الذي يستولي على غنيمة مايصبح مالكا لها على وجه الحصر بحيث لا تملك اسرته بعدئذ أي حق في تلك الغنيمة   وبالطريقة نفسها فان عائلة الكاهن لاتملك حقا في الضحايا التي يقدمها المؤمنون والتي تصبح ملكيته الشخصية   وان هذا كله لتؤكده على السواء القوانين الهندية والحق العرفي عند السلافيين الجنوبيين   وقوزاق الدون والارلنديين القدامى   وانه لامر هام الا نرتكب خطأ بشأن المبدأ الحقيقي لمثل هذا التملك الذي هو نتيجة تطبيق الجهد الشخصي على الحصول على شيء معين   ذلك انه حينما تدعم معونة الاقارب جهود الانسان الشخصية   فان الاشياء التي تم الحصول عليها لاتظل ملكية خاصة** »

واننا لنفهم من هنا لماذا كانت الاسلحة والثياب والغذاء والزينة هي الاشياء التي اصبحت بادىء الامر اشياء للتملك الشخصي

---

* كوفالفسكي: Tableau des origines et de l'évolution de la famille et de la propriété [لوحة اصول وتطور العائلة والملكية] ، ستوكهولم ١٨٥٠   ٥٢ – ٥٣

كتاب الراحل ن سيبير Essai sur la civilisation économique des primitifs [دراسة في حضارة البدائيين الاقتصادية] ليضم حقائق عديدة تبين باشد الوضوح ان انماط التملك تحددها انماط الانتاج

** المصدر نفسه ، ص ٩٥

« منذ المحاولات الاولى لتدجين الحيوانات شكلت الكلاب والجياد والقطط وحيوانات الجر أهم رأسمال للتملك الشخصي والعائلي*

وهذا مثال يبين حتى اية درجة يستمر تنظيم الانتاج في ممارسة تأثيره في انماط التملك ان صيد الحيتان عند الاسكيمو يتم في قوارب كبيرة وبزمر متعددة، والقوارب المستخدمة لهذا الفرض تشكل ملكية جماعية بينما القوارب الصغيرة التي تستخدم من اجل نقل الحاجيات المنزلية ملكية خاصة بكل عائلة او على الاكثر ثلاث عائلات تجمع القرابة بينها

وتتحول الارض ايضا الى موضوع للتملك مع ظهور الزراعة ، واصحاب الملكية العقارية تجمعات عائلية متفاوتة الاهمية وان هذا ليشكل بطبيعة الحال احد اشكال التملك الجماعي كيف نفسر أصوله ؟ يقول السيد كوفالفسكي

يخيل الينا ان اسبابه تقوم في ظاهرة الانتاج الجماعي ، نفس تلك الظاهرة التي ادت في يوم من الايام الى تملك الجزء الاكبر من الاشياء المنقولة**

ولقد دخلت الملكية **الخاصة** بطبيعة الحال ، منذ قيامها في نزاع مع الاشكال الاقدم للتملك الجماعي وحيثما «كان التطور السريع للقوى المنتجة يفتح حقلا متزايد الاتساع باطراد للجهود الفردية » ، فقد اضمحلت الملكية الجماعية بسرعة لابأس بها أو لم يعد لها وجود الا في شكل مؤسسة بدائية اذا جاز التعبير ولسوف نرى في وقت لاحق ان هذه العملية الخاصة بتفسخ الملكية الجماعية بفعل ضرورةطبيعية، **مادية** ، تتفاوت حتى درجة كبيرة حسب المكان والزمان ولنقتصر حاليا على التأكيد على النتيجة التي توصل اليها علم الحقوق الحديث الا وهي ان **المفاهيم الحقوقية** ــ او المعتقدات حسب تعبير بوختا ــ **تتحدد بأنماط الانتاج** في كل مكان

كان شيلنغ يقول ان ظاهرة **المغناطيسية** يجب ان تفهم من حيث هي تدخل الذاتي في الموضوعي وان المحاولات الهادفة الى اكتشاف تفسير مثالي لتاريخ الحق لا تمثل اكثر من ملحق ، من « Seitenstuck » للفلسفة الطبيعية المثالية انها نفس الاعتبارات ، الذكية احيانا بل المتألقة ، لكن الاعتباطية والسطحية ابدا عن موضوع الروح المكتفي ذاتيا **والمتطور ذاتيا**

ان المعتقد القانوني لايمكن ان **يسبق** الممارسة اليومية لمجرد هذا السبب وحده ، الا وهو انه **سيفتقر الى اي سبب** على الاطلاق اذا هو **لم ينشأ من تلك الممارسة** ان رجل الاسكيمو نصير للملكية الفردية للثياب والاسلحة والادوات لسبب بسيط هو ان هذه الملكية تلائمه اكثر ولأن **طبيعة هذه الاشياء بالذات تدفعه** الى ذلك فلا بد للقناص البدائي ، كي يتعلم جيدا كيف يستخدم سلاحه ، قوسه

* المصدر نفسه ، ص ٥٧

** المصدر نفسه ، ص ٩٣

او بمرنفه ، ان **يتكيف معه** ، ان يدرس جيدا جميع خصائصه الفردية ، وان **يكيفه** اذا امكن مع خصائصه الفردية الخالصة* وان الملكية الفردية لهي هنا في طبيعة الامور اكثر من اي نمط آخر للتملك ولذا « **يعتقد** » المتوحش بتفوق هذا النمط، بل يبلغ به الامر كما نعلم ان يؤمن بوجود علاقة سرية بين هذه الادوات الفردية والاسلحة وبين صاحبها بيد ان هذا الاعتقاد نشأ من الممارسة ، وهو لايسبقها ، كما انه لايدين بأصله لخصائص « روح **الانسان المتوحش** ، بل لخصائص تلك الاشياء التي يستخدمها ولطابع تلك الانماط من الانتاج التي لا سبيل امامه لتجنبها في مرحلة معينة من تطور قواه المنتجة

اما حتى اية درجة تسبق الممارسة اليومية « **المعتقد** » القانوني ، فهذا ما تبينه الاعمال الرمزية العديدة الموجودة في **الحق البدائي** ان انماط الانتاج تتغير ، والعلاقات تتبدل بين البشر ضمن عملية الانتاج ، والممارسة اليومية تتطور ، لكن المعتقد يستمر قائما في شكله القديم ولما كان يناقض الممارسة الجديدة ، فان اوهاما قانونية تظهر ، رموزا واعمالا الغرض الوحيد منها الالتفاف صوريا حول هذا التناقض الذي سوف يتم القضاء عليه مع مرور الزمن بصورة جذرية ان معتقدا قانونيا جديدا يتشكل على اساس الممارسة الاقتصادية الجديدة

ولا يكفي ان نتحقق من ظهور الملكية الخاصة لبعض الحاجيات في مجتمع معين كي نحدد بذلك طابع هذه المؤسسة ان للملكية الخاصة على الدوام حدودا تتوقف كليا على اقتصاد المجتمع يقول السيد كوفالفسكي ان الانسان في حالة التوحش والهمجية لايتملك الا الاشياء النافعة بصورة مباشرة اما الفائض ، بالرغم من انه كسبه بعمل ذراعيه ، فانه يتنازل عنه دون مقابل للآخرين لاعضاء اسرته ،

---

* ان رابطة وثيقة توجد كما هو معروف القناص بسلاحه في جميع القبائل البدائية

Der Jäger darf sich keiner fremden waffen bedlemen

[لايجوز للقناص ان يستخدم سلاح الغير] ، هذا ما **يقوله مارتيوس** بخصوص البدائيين البرازيليين وانه ليفسر كما يلي اصل مثل هذا المعتقد عند **هؤلاء المتوحشين** ان المتوحشين الذين يرمون بالسبطانة يؤكدون بصورة خاصة ان هذا السلاح يتلف اذا استخدمه انسان غريب ولا ينفصلون عن سلاحهم قط [بالالمانية في النص الاصلي] **Von dem Rechtszustande unter den** Ureinwohnern Braziliens [**الحق عند سكان البرازيل الاصليين**]

ميونيخ ١٨٣٢ ، ص ٣٢ ونقرأ كذلك عند اوسكار بيشل ، في كتابه **Volkerkunde** [**علم السلالات البشرية**] مايلي « ان استخدام هذه الاسلحة يتطلب مهارة فائقة وتدريبا مستمرا ويؤكد لنا المستكشفون انه حيث يستخدمها المتوحشون يتدرب الاطفال على الرماية بأسلحة تتناسب مع سنهم » [بالالمانية في النص الاصلي] (لايبزغ ١٨٧٥ ، ص ١٩٠) .

او عشيرته او قبيلته » وان رينك ليورد وقائع مماثلة بخصوص الاسكيمو*
ماهو منشأ مثل هذه العادات ؟ انها تنشأ في رأي السيد كوفالفسكي** من كون الرجل المتوحش لايعرف **التوفير** ، وهي صيغة غير واضحة ، كما انها غير مرضية بصورة خاصة لأن الاقتصاديين المبتذلين اساؤوا استعمالها حتى درجة كبيرة واننا لنفهم على اية حال بأي معنى يستخدمها المؤلف وبالفعل ، فان الشعوب البدائية تجهل التوفير لسبب وجيه هو انه يصعب عليها ، بل يستحيل ان تمارسه ان توفير لحم الحيوان المقتول لايمكن ان يتم الا ضمن حدود زهيدة جدا ، لأنه سوف يفسد ولا يعود صالحا للاستهلاك ولو توفرت امكانية بيعه ، فمما لا ريب فيه ان « توفير » المال الذي يتم الحصول عليه لقاءه سوف يكون امرا يسيرا لكن المال لا وجود له بعد في هذه المرحلة من التطور الاقتصادي وانه ليترتب على ذلك ان اقتصاد المجتمعات البدائية بالذات يفرض حدودا ضيقة على تطور روح التوفير وفضلا عن ذلك ، فاذا انا توفرت لي الفرصة لأقتل اليوم حيوانا كبيرا وتقاسمت لحمه مع الغير ، فقد أعود غدا صفر اليدين (ان القنص عمل غير ثابت وعندئذ يتقاسم اعضاء العشيرة الآخرون غنيمتهم معي وهكذا فان عادة الاقتسام تشكل نوعا من الضمان المتبادل الذي لايمكن لقبائل القناصة ان تستمر في الحياة بدونه ويجب الا ننسى أخيرا ان الملكية الخاصة في هذه القبائل موجودة في حالة مضفية فحسب ، وان الملكية **الجماعية** هي السائدة،وان العادات والاعراف التي تطورت على هذا الاساس تفرض بدورها حدودا على الملاك الخاص هنا أيضا يعقب المعتقد الاقتصاد

ان الرابطة التي تصل المفاهيم الحقوقية بالوضع الاقتصادي تتضح بجلاء بمثال اورده رودبرتوس راضيا في مؤلفاته فمن المعروف ان المؤلفين اللاتينيين عارضوا **الربا** بكل شدة وكان كاتون الرقيب يعتبر المرابي اسوأ من اللص مرتين (بالضبط مرتين هكذا كان العجوز يقول) ، وكان آباء الكنيسة متفقين في هذه النقطة كل الاتفاق مع الكتاب الوثنيين لكن الغريب ان هؤلاء وأولئك انما قاموا ضد الربح الناتج عن الرأسمال **المالي** فحسب ، وأما بشأن القروض عينا **ومكافآتها** فقد كان موقفهم ألين حتى درجة كبيرة لماذا هذا الفارق ؟ لأن الرأسمال المالي او الرأسمال الربوي هو الذي كان يفتك فتكا رهيبا في المجتمع في ذلك الزمان لانه هو الذي **كان يدمر ايطاليا** ههنا ايضا يسير المعتقد » الحقوقي يدا بيد مع الاقتصاد

ويقول بوست

---

* [في اساطير الاسكيمو وتقاليدهم مع لمحة عن عاداتهم ودينهم ولغتهم وغيرها من الخصائص]
** المؤلف المذكور ٥٦ [في لوحة عن اصول وتطور العائلة والملكية] .

« ان الحق نتاج خالص لضرورة أو بصورة ادق للحاجة وان المرء ليبحث عبثا عن اساس مثالي له»*

ان هذه الصيغة لتكون بصورة مطلقة في روح احدث نظرية حقوقية لولا ان مؤلفها يبرهن على تشوش كبير جدا في تصوراته وضار جدا بعواقبه

وعلى العموم فان كل مجتمع ينصرف الى اعداد النظام الحقوقي الذي يتجاوب على افضل وجه مع حاجاته ويثبت انه الانجح في حينه اما ان حصيلة معينة من المؤسسات الحقوقية تفيد المجتمع او تضره فذلك امر لايمكن ان يتوقف في حال من الاحوال على خصائص « فكرة » ما ، كائنة ما كانت هذه الفكرة وكائنا من كان صاحبها لقد رأينا انه **يتوقف على أنماط الانتاج وعلى تلك العلاقات المتبادلة بين الناس التي خلقتها تلك الانماط** وبهذا المعنى فان الحق لايملك ولا يمكن ان يملك اية اسس **مثالية** ، نظرا لأن اسسه **واقعية** بصورة دائمة بيد ان **الاسس الواقعية** لأي نظام حقوقي معين لاتنفي اتخاذ **موقف مثالي** حياله من جانب اعضاء المجتمع حيث سري مفعوله وعلى العموم ، فان المجتمع يربح من مثل هذا الموقف. وعلى العكس من ذلك فانه يحدث في المراحل الانتقالية حين لايلبي النظام الحقوقي الساري المفعول الحاجات المتعاظمة التي ولدها تقدم القوى المنتجة ان تعمد العناصر المتقدمة من السكان الى أمثلة **نظام جديد من المؤسسات** أكثر تطابقا مع روح العصر وان الادب الفرنسي لمليء بالامثلة على هذه الاوضاع التي هي في طريق التكون

ان نشأة الحق انطلاقا من **الحاجة** لاينفي الاساس **المثالي** للحق الا في نظر اولئك الاشخاص الذين اعتادوا قصر **الحاجة** على ميدان **المادة** وعلى اقامة التعارض بين هذا الميدان **وميدان « الروح الخالص »** الغريب عن الحاجة وفي واقع الامر ان المثالي هو مايخدم البشر فحسب . وكل مجتمع يسترشد في اعداد مثله بحاجاته وحدها وان الشذوذات الظاهرية عن هذه القاعدة الراسخة تفسر بحقيقة ان **المثل الاعلى** يتخلف في كثير من الاحيان **عن الحاجات بنتيجة التطور الاجتماعي***

---

* البرت هيرمان بوست Der Ursprung des Rechts , Prologomena zu Einer allgeinein vergleichenden Rechtswissenschaft [**اصل الحق مدخل الى النظرية العامة للحقوق المقارنة**] اولدنبورغ ١٨٧٦ ٢٥

* ينتسب بوست الى تلك المقولة من الناس الذين لايبرحون بعيدين عن الخلاص من المثالية فعنده مثلا ان نظام العشيرة يقابل المجمع القناص والرحالة ، وان نظام العشيرة يفسح مكانه مع ظهور الزراعة وحياة الاستقرار المرتبة عليها Gaugenossenschaft مانسميه المساعة على اساس محلي) أنراه بحث عن تفسير لتاريخ المجتمعات في تطور القوى المنتجة في الحالات المفردة يتمسك بهذا المبدأ بصورة دائمة على وجه التقريب لكن هذا لايعوقه عن اعتبار im Menschen schaffend ewigen Geist » [الروح الازلي الخلاق في الانسان] السبب الاول لتاريخ الحق هذا مؤلف يبدو انه انما شاهد النور كي يدخل الغبطة الى قلب السيد كارييف .

اما ان العلاقات الاجتماعية تتوقف على حالة القوى المنتجة فحقيقة ينتشر ادراكها اكثر فأكثر في العلوم الاجتماعية في الوقت الراهن بالرغم من الانتقائية المحتومة عند عدد كبير من رجال العلم وبالرغم من مستبقاتهم المثالية ويقول اوسكار بيسشل الذي اوردناه اعلاه كما ان التشريح المقارن رفع الى مرتبة الحقيقة العلمية المثل اللاتيني القائل* **Ex ungue leonem** ، كذلك تستطيع الاثنولوجيا ان تستنتج مستوى الحضارة عند شعب ما من تسلحه**

« ثمة رابطة وثيقة جدا بين اساليب البحث عن الطعام وبنية الجماعة فحيثما يتحالف الانسان مع الانسان تظهر السلطة العامة الى الوجود وان الروابط الاجتماعية لاضعف ماتكون عند ارهاط القناصة الرحالة في البرازيل ؛ لكنه لم يكن لهم بد من الدفاع عن مناطقهم أيضا ، ولذا كان يلزمهم زعيم عسكري على الاقل ان القبائل الرعوية تخضع في اغلب الحالات لبطريرك نظرا لان القطعان تخص على العموم سيدا واحدا خدمه هم اعضاء قبيلته او ملاكون سابقون للقطعان كانوا مستقلين فيما مضى ومن بعد افلسوا وان الحياة الرعوية لتتصف في اغلب الاحيان ، وان لم يكن على وجه الحصر ، بهجرات كبرى للسكان ، الى شمال العالم القديم وفي جنوب افريقيا على حد سواء ، بينما لايعرف تاريخ اميركا ، على العكس من ذلك ، سوى غارات للقبائل المتوحشة من القناصة على الاراضي المجاورة للشعوب المتحضرة وان شعوبا بأكملها قد استطاعت ، بعدما غادرت مقر سكناها القديم ، ان تحقق هذه الرحلات الكبيرة والطويلة بفضل القطعان التي كانت ترافقها وتزودها في الطريق بالطعام الضروري وفضلا عن ذلك ، فان تربية الماشية في السهوب يحفز الى تغيير المراعي ، لكن الحياة المستقرة والزراعة تؤديان عاجلا الى ظهور الاتجاه الى العمل العبودي وان العبودية لتقود عاجلا او اجلا الى الاستبداد ، نظرا لان ذلك الذي يملك اكبر عدد من العبيد يخضع لارادته بواسطتهم بكل سهولة أولئك الذين هم اضعف منه ومع انقسام البشر الى احرار وعبيد ينشق المجتمع الى طبقات*** »

---

* [يعرف الاسد من مخالبه]

** المؤلف المذكور ، ص ٣٩ حين كنا نقتطف هذه الفقرة بدا لنا ان السيد ميخائيلوفسكي ينهض بكل قامته كي يهتف ارى ان هذا يحتمل الجدال فقد يتسلح الصينيون بالبنادق الانكليزية ايمكن للرء ان يحكم على مستوى حضارتهم بالاستناد الى هذه البنادق ؟ » حسن جدا ، ياسيد ميخائيلوفسكي لايستطيع المرء ان يحكم انطلاقا من البنادق الانكليزية على الحضارة الصينية ، لكنه يجب ان يحكم انطلاقا منها على الحضارة الانكليزية

*** المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣

ان لدى بيسشل الكثير من مثل هذه الاعتبارات ، **بعضها صحيحة تماما** وبناءة جدا والبعض الآخر تحتمل الجدال لدى غير السيد **ميخائيلوفسكي ايضا** لكن الامر الذي يهمنا هنا ليست التفاصيل الخاصة لفكر بيسشل بل اتجاهه العام وهو اتجاه يتفق كليا مع الاتجاه الذي رأيناه من قبل عند السيد كوفالفسكي: **انه يبحث عن تفسير تاريخ الحق ، بل البنية الاجتماعية بكاملها ، في انماط الانتاج ، في حالة القوى المنتجة .**

ولقد استحث ماركس علماء الاجتماع بالحاح ، قبل زمن طويل ، ان يفعلوا ذلك وان مغزى المقدمة الشهيرة **لاسهام في نقد الاقتصاد السياسي** التي كان حظها سيئا جدا عندنا والتي اساء فهمها بصورة غريبة جدا ورهيبة جدا معظم الكتاب الروس الذين قرؤوها في الاصل او اطلعوا على مقتطفات منها هذا المغزى يكمن هنا حتى درجة كبيرة وان لم يكن بصورة كلية (وسوف تتبين القارىء في وقت لاحق السبب الذي يدفعنا الى هذا التحفظ)

ان البشر يدخلون ، في سياق انتاج حياتهم الاجتماعي ، في علاقات محددة **لا** غنى عنها ومستقلة عن ارادتهم ، علاقات توافق مرحلة معينة من تطور قواهم الانتاجية المادية وان الحصيلة العامة لتلك العلاقات الانتاجية تشكل **بنية** المجتمع **الاقتصادية** ، وهي الاساس الواقعي الذي تنهض عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية*

يقول هيغل عن شيلنغ ان هذا الفيلسوف لم يعرف كيف يطور المبادىء الاساسية لنظامه ، وان الظهور المباغت للروح المطلق عنده يحدث **اثر طلقة نارية** (**Wie aus der Pistolegeschossen**) وان المثقف الروسي المتوسط يحس بنفسه ضائعا كما لو ان طلقة نارية دوت في اذنيه على حين غرة عندما يقال له ان الاشياء جميعا ترجع الى الاساس الاقتصادي عند ماركس (يقول البعض بكل بساطة الى الاقتصاد وانه ليتساءل في اندهاش أليم لماذا الى الاقتصاد ؟ مما لا ريب فيه ان للاقتصاد اهميته (بصورة خاصة بالنسبة الى الفلاحين الفقراء والعمال) لكن الذهن لايقل عن ذلك اهمية على اية حال ، (وعلى الاخص بالنسبة الينا نحن المثقفين) واننا لنأمل ان يكون العرض السابق قد بين للقارىء ان اندهاش المثقف الروسي المتوسط انما ينشأ هنا لأن المثقف كان على الدوام لا مباليا حتى درجة ما بهذا « **الفكر الهام بصورة خاصة** » في نظره وحين يقول ماركس انه **يجب ان نبحث عن تشريح المجتمع في الاقتصاد السياسي** ، فانه لايفكر مطلقا في اخافة العالم العلمي بطلقات نارية ، بل يقدم بكل بساطة جوابا مباشرا ومضبوطا عن المسائل اللعينة التي عذبت الرؤوس المفكرة **طوال قرن كامل**

---

* [كارل ماركس وفريدريك انجلز ، **دراسات اقتصادية** ، منشورات دار دمشق ، ص ٥٣] .

ان الماديين الفرنسيين الذين طوروا بثبات آراءهم الحسية ، انتهوا الى نتيجة القائلة ان الانسان مع كل افكاره ومشاعره ومطامحه ، هو نتاج البيئة الاجتماعية ولقد كان من الضرورة بمكان ، في سبيل المضي قدما في تطبيق المادية على دراسة الانسان ، حل مسألة مايحدد بنية هذه البيئة وما هي قوانين تطورها ولقد عجز الماديون الفرنسيون عن حل هذه المسألة فلم يكن لهم بد بالتالي ان يكونوا غير مخلصين مع انفسهم وان يعودوا الى وجهة النظر **المثالية** القديمة التي سبق فدانوها بكل عنف لقد قالوا ان البيئة يخلقها **رأي** البشر ولكن المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية الذين لم يقنعهم هذا الجواب السطحي اخذوا على أنفسهم مهمة تحليل البيئة الاجتماعية ، وقد تبين ان نتيجة هذا التحليل ذات اهمية رئيسية بالنسبة الى العلم ان **المؤسسات السياسية** تمد جذورها في **الحالة الاجتماعية** والحالة الاجتماعية تحددها حالة الملكية وعلى أي حال فان سؤالا جديدا نهض مع هذه النتيجة امام العلم الذي ما كان يستطيع ان يمضي قدما دون ان يقدم جوابا عنه **ما الذي يحدد اذن حالة الملكية** ؟ وكان الحل يتجاوز امكانات المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية لا فاضطروا ان يتهربوا منه باعتبارات عن خصائص الطبيعة البشرية لم تكن تفسر شيئا على الاطلاق وفي الوقت نفسه كان المثاليان الالمانيان الكبيران شيلنغ وهيغل ، يدركان جيدا بطلان وجهة النظر هذه ، وقد سخر منها هيغل بمرارة لقد كانا يدركان ان مفتاح تطور الانسانية التاريخي يجب ان يبحث عنه **خارج** الطبيعة الانسانية وتلك كانت جدارتهما الكبرى لكنه لم يكن بد كي تثمر هذه الجدارة علميا من تحديد **أين يجب البحث عن هذا** المفتاح ولقد بحثا عنه في **خصائص الروح** في **القوانين المنطقية لتطور الفكرة المطلقة** وتلك كانت الخطيئة القاضية التي ارتكبها هذان المثاليان لقد رجعا بطريق ملتوية الى **وجهة نظر الطبيعة الانسانية** ، طالما ان الفكرة المطلقة ، كما رأينا ليست سوى فكرنا المنطقي المشخص وان الاكتشاف العبقري الذي توصل ماركس اليه يصلح هذه الخطيئة القاضية للمثاليين وهو يقتل المثالية في الوقت نفسه ان حالة الملكية ومعها محصلة خصائص البيئة الاجتماعية (لقد رأينا في الفصل عن المثالية ان هيغل نفسه اضطر للاعتراف بالاهمية الحاسمة لحالة الملكية) لاتحدد بخصائص الفكرة المطلقة ولا بطابع الطبيعة الانسانية بل بالعلاقات التي تقوم بالضرورة بين البشر في سياق انتاج حياتهم الاجتماعي يعني في صراعهم من أجل الوجود وكثيرا مايقارن ماركس بداروين – وهي المقارنة التي ينشرح لها صدر السادة ميخائيلوفسكي وكارييف وشركاهما ولسوف نقول فيما بعد بأي معنى يجب ان نفهم تلك المقارنة ، بالرغم من ان الكثيرين من القراء يستطيعون على الارجح ان يدركوا ذلك دون مساعدة منا اما الآن فسوف نجيز لأنفسنا تقديم مقارنة اخرى راجين الايستاء منها مفكرونا الذاتيون .

كان علم الفلك قبل كوبرنيكوس يعلم ان الارض مركز ثابت تدور حوله الشمس والاجرام السماوية الاخرى وهي نظرية جعلت من المحال تفسير عدد كبير جدا من ظواهر الميكانيك السماوي لكن البولوني العبقري تصدى لتفسيرها من وجهة النظر المعاكسة . فافترض ان الشمس ليست هي التي تدور حول الارض ، بل على العكس الارض هي التي تدور حول الشمس لقد اكتشفت وجهة النظر الصحيحة وبذلك اتضحت امور كثيرة كانت غامضة قبل كوبرنيكوس

وقبل ماركس اتخذ الاخصائيون في العلوم الاجتماعية من الطبيعة الانسانية منطلقا لهم وبذلك ظلت المسائل الاهم للتطور الانساني غامضة دون حل ولكن مذهب ماركس اعطى الامور اتجاها مختلفا يقول ماركس **ان الانسان ، بينما يؤثر في العالم الخارجي من أجل الابقاء على وجوده ، يبدل طبيعته الخاصة »** وبنتيجة ذلك فانه يجب ان نبدأ التفسير العلمي للتطور التاريخي من النهاية المقابلة ، يجب البحث عن الطريقة التي تتم فيها هذه العملية كيف يتم تاثير الانسان في الطبيعة الخارجية أثناء انتاجه وان هذا الاكتشاف يمكن ان يوضع دون تردد ، نظرا لاهميته الكبيرة بالنسبة الى العلم ، على قدم المساواة مع اكتشاف كوبرنيكوس، وعلى قدم المساواة مع اعظم الاكتشافات العلمية واخصبها

والحقيقه ان العلوم الاجتماعية قبل ماركس كانت تفتقر الى الاساس المتين أكثر من افتقار علم الفلك السابق لكوبرنيكوس ولا يبرح الفرنسيون يسمون العلوم التي تدرس المجتمعات الانسانية العلوم الاخلاقية والسياسية تمييزا لها من العلوم » بكل معنى الكلمة ، التي يعتبرونها العلوم المضبوطة الوحيدة ويجب ان نعترف بأن علوم المجتمع قبل ماركس لم تكن مضبوطة ولا كان يمكن ان تكون مضبوطة فما دام العلماء يلتجئون الى الطبيعة الانسانية على اعتبارها السلطة الاعلى فانه لم يكن لهم بد من تفسير علاقات الاجتماعية بآراء البشر **بنشاطهم الشعوري** لكن هذا النشاط لمن طبيعة بحيث يتصوره الانسان بصورة محتومة على اعتباره نشاطا حرا وان النشاط الحر ينفي **فكرة الضرورة بالذات** وبتعبير آخر فكرة القانون الطبيعي، في حين أن القانون الطبيعي يشكل الاساس الذي لا غنى عنه من أجل كل تفسير علمي **كانت فكرة الحرية تمحو فكرة الضرورة ، كابحة بذلك تقدم العلم** وان هذا الضلال ليشاهد اليوم أيضا بوضوح مذهل في المؤلفات السوسيولوجية للكتاب الروس الذاتيين

لكننا نعرف انه **لابد من وجود ضرورة في الحرية** وحين نعمي مفهوم الضرورة تصبح فكرة الحرية بالذات بالغة الغموض وقليلة العزاء جدا بينما الضرورة التي طردت من الباب تعود من النافذة لقد كان المفكرون الذين انطلقوا من الحرية يصطدمون لدى كل خطوة بالضرورة وكان لا بد لهم أخيرا من الاعتراف بكل الم بفعلها الذي لا عناء عنه ، والذي لا تقاوم والذي لايمكن التغلب عليه مطلقا ولقد تبين لهم ، والرعب يملأ قلوبهم ، ان الحرية تابع ازلي عاجز وميئوس بصورة محزنة ،

دمية عاجزة بين يدي ضرورة عمياء وان اليأس الذي كان يستولي احيانا على عقول المثاليين الاصفى ذكاء والانقى قلبا لمؤثر حقا
يقول جورج بوخنر

انقضت علي أيام عديدة وانا أريد في كل لحظة أتناول القلم لكني لم استطع اكتب كلمة واحدة فحين درست تاريخ الثورة احسستني مسحوقا جاز التعبير تحت وطأة جبرية التاريخ الرهيبة اني اكتشفت في الطبيعة الانسانية تفاهة منفرة وفي الشرط الانساني قوة لاتقهر تخص الجميع عامة ولا تخص احدا خاصة ليس الفرد الا زبدا على قمة موجة وليست العظمة الا مصادفة محضة وليست قوة العبقرية الا شعوذة ، محاولة مضحكة للقتال ضد قانون فولاذي اقصى مايستطاع هو معرفته ، لكنه من المحال السيطرة عليه ❊

ولقد كان من الواجب ولو من أجل تفادي هذه النوبات من اليأس المشروع كليا على أي حال ، ان نتخلى ولو لبعض الوقت عن وجهة النظر القديمة وان نحاول **تحرير الحرية** باللجوء الى تلك **الضرورة** بالذات التي كانت تسخر منها ؛ كان لابد مرة اخرى من اعادة النظر في المسألة التي طرحها من قبل **الجدليون** المثاليون أفلا تنشأ الحرية عن الضرورة ؟ الا تشكل الضرورة الاساس الوحيد المتين الضمانة الوحيدة للحرية الانسانية شرطها المحتم ؟

ولسوف نرى إلام انتهت هذه المحاولة عند ماركس لكننا سنحاول اولا ان نوضح نظريته التاريخية بحيث نبدد كل سوء فهم بشأنها

ان علاقات للانتاج تقوم على اساس حالة معينة للقوى المنتجة وتجد التعبير المثالي عنها في المفاهيم وفي الانظمة الاكثر أو الاقل تجريدا في العادات او القوانين المكتوبة وليست بنا حاجة بعد اليوم الى البرهان على ذلك فقد رأينا ان النظرية الحديثة عن الحق تقدم البرهان عليه (لنتذكر ما قاله السيد ميخائيلوفسكي في هذا الشأن) بيد انه لن يضيرنا ان ننظر الى المسألة من وجهة النظر المختلفة التالية واذا ما تأكدنا مرةمن الطريقةالتي تنشأ بها المفاهيم الحقوقية من علاقات الانتاج فان عبارة ماركس التالية لن تدهشنا مطلقا ليس وعي البشر هو الذي يقرر وجودهم (وبكلام آخر شكل وجودهم الاجتماعي ـ ج.ب. بل الامر على النقيض من ذلك اذ ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يقرر وعيهم❊❊
واننا لنعرف الآن ان الامور تجري على هذا الفرار فيما يخص أحد ميادين الوعي

❊ في رسالة الى خطيبته حررت عام ٣٣. **هامش من السيد ميخائيلوفسكي** ليس المقصود بوخنر الذي بشر بالمادية بالمعنى الفلسفي العام بل اخوه الذي مات شابا ، وهو مؤلف مأساة شهيرة **موت دانتون**

❊❊ [كارل ماركس وفريدريك انجلز **دراسات اقتصادية** ، منشورات دار دمشق ، ص ٥٣]

ونعرف لماذا تجري على هذا الغرار يبقى ان نعرف ما اذا كانت الامور تجري على هذا الفرار دائما ، واذا كان الجواب بالايجاب فلماذا فلتقتصر الآن على المفــاهيم الحقوقيــة

ان **قوى** المجتمع **الانتاجية** المادية تدخل ، في مرحلة معينة من نموها في نزاع **مع علاقات الانتاج** القائمة ، أو ـ وهذا ما لايعدو كونه التعبير الحقوقي عن الامر نفسه ـ **مع** علاقات الملكية التي كانت فعالة ضمنها حتى ذلك الحين وعندئذ تتحول هذه العلاقات **من اشكال** لتطور القوى الانتاجية الى **قيود** لها ، فيبدأ عصر من الثورة الاجتماعية »

ان الملكية الجماعية المنقولة أو غير المنقولة تنشأ من كونها مناسبة بل لا غنى عنها لعملية الانتاج البدائية انهــا تتيح للمجتمع البدائي الاستمرار في الوجــود ، وتسهم في تطور قواه الانتاجية ، فيتمسك البشر بها ويعتبرونها طبيعيةوضرورية. ولكن هذه القوى الانتاجية ضمن علاقات الملكية هذه وبفضلها تتطور حتى درجة ينفتح معها حقل اوسع امام تطبيق الجهود الفردية فتصبح الملكية الجماعية ابتداء من ذلك الحين في بعض الحالات **ضارة** بالجماعــة اذ هي تقــوم حجر عثرة في طريق قواها المنتجة ،وبالتالي **فهي تفسح المجال امام التملك الفردي**.وانثورة اكثر او أقل سرعة تحدث في المؤسسات الحقوقية الاجتماعية مترافقة بثورة في مفاهيم الافراد الحقوقية ان البشر الذين كانوا يعتبرون من قبل الملكية الجماعية الملكية الصالحة الوحيدة يأخذون بعد الآن في اعتبار الملكية الفردية افضل منها في بعض الحالات وعلى اي حال فان الصيغة خاطئة اننا نقدم على انهما عمليتان منفصلتان ماهو غير قابل للانفصال على الاطلاق ، ما يمثل وجهين لنفس العملية الواحدة **ان علاقات البشر الفعلية في عملية الانتاج يجب ان تختلف بنتيجة تقدم القوى الانتاجية ، وان هذه العلاقات الفعلية الجديدة تتظاهر في مفاهيم حقوقية جديدة .**

ان السيد كاريف يؤكد لنا ان المادية لا تقل ضيقا عن المثالية عند تطبيقها على التاريخ ان كلتاهما لاتمثلان في رأيه الا « مرحلة » في تقدم الحقيقة العلمية الكلية.

« بعد المرحلتين الاولى والثانية لابد من قيام مرحلة ثالثة ، وأن ماهو محدود فيالقضية والنقيضة سوف يجد تطبيقه في التركيب حيث يتم التعبير عن الحقيقة الكلية❊

يا له من تركيب باعث على الاهتمام ! ويستطرد السيد الاستاذ

فيم سوف يستقيم هذا التركيب ، هذا ما لن اقوله في الوقت الحاضر »

يا للأسى ومن حسن الحظ ان صاحبنا « المؤرخ الفيلسوف » لايتمسك بحزم بعهد الصمت الذي قطعه على نفسه انه يفهمنا في الحال فيم سوف تستقيم ومن اين سوف تخرج الحقيقة العلمية والكلية التي ســوف تنتهي الانسانيــة المستنيرة بأسرها الى ادراكها مع الزمن وان يكن السيد كاريف في الوقت الحاضر الشخص الوحيد الذي يعرفها انها ستنمو من الاعتبارات التالية

❊ **رسول اوربا** ، تموز ١٨٩٤ ، ص ٦

« كل شخصية انسانية ، اذ تتألف من جسد ونفس ، تعيش حياة مزدوجة ـ جسدية ونفسية ـ فلا تتراءى في انظارنا قط من حيث هي جسد على وجه الحصر بحاجاته المادية ، ولا من حيث هي نفس على وجه الحصر بحاجاتها الفكرية والاخلاقية ان للجسد والنفس حاجاتهما التي تبحث عن تلبيتها وتضع كلا من الافراد في علاقات مختلفة حيال العالم الخارجي ، يعني حيال الطبيعة والبشر الآخرين ، يعني حيال المجتمع ، وهي علاقات ذات طابع مزدوج*

اما ان الانسان يتألف من نفس وجسد فذلك تركيب صحيح وان لم يكن جديدا كل الجدة ولو ان السيد الاستاذ يعرف تاريخ الفلسفة الحديثة فلا بد ان يعرف ان هذه الفلسفة حطمت اسنانها على هذا التركيب طوال قرون لانها لم تتمكن من مجاراته بصورة مناسبة واذا كان يتوهم ان التركيب المشار اليه سوف يكشف له عن ماهية العملية التاريخية فلا بد للسيد ف.ف. ان يوافقنا بأن اساذه ضل السبيل انه ليس مقدرا للسيد كارييف ان يصبح في حال من الاحوال سبينوزا فلسفة التاريخ

ومع تطور القوى المنتجة الذي يؤدي الى حدوث التبدلات في علاقات البشر المتبادلة في عملية الانتاج الاجتماعية فان علاقات الملكية تتبدل بمجموعها هي الاخرى لكن غيزو قال لنا من قبل ان الدساتير السياسية متجذرة في علاقات الملكية ، وهو ماتؤكده المعرفة الحديثة تأكيدا كاملا فاذا كانت أواصر القربى تفسح المكان امام رابطة الارض ، فانما تم ذلك في اعقاب التغيرات التي طرأت على علاقات الملكية وان الروابط المتشكلة على اساس اقليمي تنصهر كائنا ما كان حجمها في عضويات تسمى الدول ، وهذا يتم أيضا بنتيجة التغيرات الطارئة على علاقات الملكية ، أو بنتيجة المتطلبات الجديدة لعملية الانتاج الاجتماعية ولقد تم البرهان على ذلك بصورة ممتازة بخصوص الدول الشرقية العظمى على سبيل المثال** وبصورة لاتقل عن ذلك جودة بالنسبة الى دول العالم القديم*** ، ولن يكون من العسير اثباته بشأن أي دولة تملك عن اصولها ما يكفي من المعلومات وانه ليكفينا في سبيل ذلك الا نبسط كثيرا ، عن عمد او غير عمد ، نظرية ماركس واليكم ما الذي نقصده

---

* المصدر نفسه ، ص ٧

** انظر كتاب ميتشنيكوف (٢٣) عن **الانهار التاريخية الكبرى** حيث لم يفعل هذا الكاتب الراحل سوى تلخيص النتائج التي خلص اليها المؤرخون الاكثر سلطة وبصورة خاصة لونورمان ويقول ايليزيه روكنوس في مقدمته لهذا الكتاب نظرية ميتشنيكوف تسجل منعطفا في تاريخ العلم وهذا غير صحيح بمعنى ان النظرية ليست جديدة ان هيغل قد عبر عنها من قبل بطريقة بالغة الوضوح لكن مما لا ريب فيه ان العلم سيكسب الشيء الكثير هو التزم بهذه النظرية بصورة منهجية

*** راجع مورغان **المجتمع القديم** ، وانجلز **اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة** .

ان حالة معينة للقوى المنتجة تحدد العلاقات **في داخل** مجتمع معين بيد ان الحالة نفسها للقوى المنتجة تحدد كذلك العلاقات الخارجية لهذا المجتمع مع المجتمعات الاخرى وان **حاجات جديدة** تظهر على اساس هذه العلاقات الخارجية، وهي حاجات تؤدي الى تكوين **اجهزة جديدة** وللوهلة الاولى ، فان العلاقات بين المجتمعات تمثل على اعتبارها مجموعة من الافعال « السياسية التي لاتملك اي صلة مباشرة بالاقتصاد بيد انها تقوم على **الاقتصاد** في واقع الامر وهذا الاقتصاد هو الذي يقرر الحوافز العميقة (لا السطحية وحدها) للعلاقات بين القبائل والأمم ونتائجها على حد سواء ان كل درجة من تطور القوى الانتاجية تملك نظامها الخاص للتسلح وتكتيكها العسكري ، ودبلوماسيتها ، وقانونها الاممي وصحيح اننا نستطيع ان نشير الى عدد كبير من الحالات حيث لاتملك النزاعات الدولية علاقة مباشرة بالاقتصاد ، وليس بين تلامذة ماركس رجل واحد يحلم بأن ينكر وجود مثل هذه الحالات ان كل مايقولون هو ما يلي لاتقفوا عند سطح الظواهر ، بل انزلوا الى اعماقها ، وتساءلوا عن الاساس الذي نشأ عليه هذا الحق الاممي أو ذاك ، وما الذي خلق امكانية هذا النزاع الاممي او ذاك ، وانكم منتهون اذن في آخر تحليل الى الاقتصاد واذا كانت دراسة الحالات المشخصة متعبة احيانا فمرد ذلك الى ان المجتمعات التي تتجابه **تجتاز مراحل مختلفة من التطور الاقتصادي**

وان جوقة الخصوم الفصحاء تقاطعنا عند هذه النقطة حيث يهتفون: حسن لنقبل بأن العلاقات السياسية تشتق جذورها من العلاقات الاقتصادية لكن هذه العلاقات السياسية اذا قامت مرة وايان اشتقت جذورها ، سوف تؤثر بدورها في الاقتصاد فنحن نواجه اذن هنا ظاهرة تفاعل ولا شيء سوى التفاعل

لسنا نحن الذين اخترعنا هذا الاعتراض ، بل اليكم قصة حقيقية تبين الاهمية الكبرى التي يعلقها خصوم المادية الاقتصادية » على هذه الحجة

يورد ماركس في **رأس المال** وقائع يتبين منها ان الارستقراطية الانكليزية انتفعت من سلطتها السياسية كي تحقق أعمالا رابحة في الاراضي وان الدكتور بول بارث ، مؤلف دراسة نقدية بعنوان Die geschist philosophie Hegel's und der hegelianer ، * يطبق على ذلك كي يتهم ماركس بالتناقض ، طالما انه يعترف هكذا بوجود التفاعل وان صاحبنا الدكتور ، كي يبرهن على ان التفاعل المذكور حقيقة قائمة يشير الى كتاب سترنيغ ، هذا الكاتب الذي صنع الشيء الكثير من أجل دراسة الاقتصاد الالماني ويؤكد السيد كاربيف ان صفحات كتاب بارث المكرسة لنقد المادية الاقتصادية يمكن ان تعطى كمثال على الطريقة التي يجب ان تحل بها قضية دور العامل الاقتصادي في التاريخ ومن الطبيعي انه لم يتخلف عن الاشارة الى اعتراض بارث ، او الى التقرير الموثوق لايننانا ــ

---

* [فلسفة التاريخ عند هيغل والهيغليين]

مترنيغ « الذي صاغ حتى هذه الموضوعة العامة القائلةان التفاعل بين السياسة والاقتصاد يشكل السمة الاساسية لتطور جميع الدول وسائر الشعوب
لنحاول ان نوضح قليلا هذا اللغز

قبل كل شيء ، ماذا يقول اينانا ـ سترنيغ ؟ ان تاريخ المانيا الاقتصادي خلال العصر الكارولنجي يملي عليه الملاحظات التالية

التفاعل بين السياسة والاقتصاد الذي يشكل السمة الاساسية لتطور جميع الدول وسائر الشعوب يمكن ترسم خطوطه هنا بالطرق الادق فكما ان الدور السياسي الذي يصبح من نصيب شعب ما يحدد تطور قواه وبنية مؤسساته الاجتماعية واعدادها على حد سواء كذلك تحدد القوة الفطرية لهذا الشعب وقوانين التطور الطبيعية مقياس نشاطه السياسي وطبيعته وبهذه الطريقة على وجه الدقة ، فان النظام السياسي للكارولنجيين أثر في تحول النظام الاجتماعي وفي تطور الحالة الاقتصادية التي كان الشعب يعيش فيها في ذلك الحين بصورة لاتقل عن تأثير القوى الاساسية لهذا الشعب وحياته الاقتصادية في اتجاه هذا النظام السياسي، تاركة فيه طابعهاالاصيل✻ ».

هذا كل شيء ، وهو ليس بالكثير ومع ذلك يحسبون انه يكفي من أجل دحض ماركس

ثانيا لنتذكر الآن مايقوله ماركس بشأن علاقات الاقتصاد بالقانون والسياسة

المؤسسات الحقوقية والسياسية تقوم على اساس العلاقات الفعلية بين البشر في عملية الانتاج الاجتماعية هذه المؤسسات لتسهم خلال مرحلة معينة في تطور قوى الشعب الانتاجية وفي ازدهار حياته الاقتصادية

هذه كلمات ماركس بالذات واننا لنسأل اول رجل حسن النية نصادفه اينكر ماركس هنا دور السياسة في التقدم الاقتصادي وهل يشكل التذكير بهذا الدور دحضا لماركس ؟ كلا اليس صحيحا اننا لانجد أثرا لمثل هذا الانكار عند ماركس ، وان اولئك الذين يجابهونه بهذا الاعتراض لايدحضون شيئا على الاطلاق ؟ اجل ! وذلك بحيث لابد ان نواجه هذا السؤال ايكون ماركس قد دحض ، أم أنهم فهموه بصورة رديئة ؟ ولا نجد الا جوابا واحدا عن ذلك وهو مثل فرنسي يقول

La plus belle fille du monde ne peut donner que ce qu'elle a✻✻

ان نقاد ماركس لايستطيعون ان يتجاوزوا مقدار الفهم الذي منحتهم اياه

✻ Deutsche Wirtschaftsgeschte bis zum Schluss der karolingen-pcriode [تاريخ الاقتصاد السياسي حتى نهاية العصر الكارولنجي] ، لايبزغ ١٨٨٩ ، الجزء الاول ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤

✻✻ ـ لاتستطيع أجمل فتاة في العالم ان تعطي أكثر مما لديها] .

الطبيعة المحسنة*

ان ثمة تفاعلا بين السياسة والاقتصاد ، هذا امر لا ريب فيه ، **كما انه امر** لا ريب فيه ان السيد كاريف لايفهم ماركس لكن ايمنعنا وجود هذا التفاعل من المضي قدما في تحليل الحقائق الاجتماعية ؟ كلا ان التفكير في ذلك يعادل على وجه التقريب الاعتقاد بأن عدم الفهم الذي يبرهن عليه السيد كاريف يمكن ان **يمنعنا** من الوصول الى مفاهيم تاريخية فلسفية صحيحة

ان المؤسسات السياسية تؤثر في الحياة الاقتصادية **فهي اما ان تسهم في** تقدمها ، **واما ان تقف حجر عثرة في طريقها** وفي رأي ماركس ان الحالة الاولى ليس فيها مايدهش مطلقا ما دام كل نظام سياسي قد وجد **من أجل الاسهام في تقدم القوى المنتجة** (بصورة شعورية أو غير شعورية ، هذا ما لا اهمية له في هذه الحال وان الحالة الثانية لاتناقض وجهة النظر الماركسية مطلقا فالتجربة التاريخية تبين ان اي نظام سياسي يتدهور وينتهي الى الزوال حالما يكف عن الاتفاق مع حالة القوى المنتجة حالما يصبح عقبة في سبيل تقدمها ان هذه الحالة ، وهي أبعد ماتكون عن مناقضة تعاليم ماركس ، تشكل على العكس من ذلك أفضل اثبات لها لأنها تبين بأي معنى تتحكم الاقتصاد بالسياسة وكيف يسبق تطور القوى المنتجة عند شعب معين تطوره السياسي

---

* يقول ماركس ان **كل صراع طبقي هو صراع سياسي** ويستنتج بارث **فالسياسة في رأيك اذن لا أثر لها في الاقتصاد ، بينما تورد انت نفسك حقائق تثبت ان الخ** ويهتف السيد كاريف مرحى هذا ما اسميه نموذجا عن الطريقة التي يجب مناقشة ماركس بها وان نموذج السيد كاريف يشهد بالفعل على قوة مرموقة في التفكير ويقول هذا النموذج مثلا كان روسو يعيش في مجتمع بلغت فيه الامتيازات والفوارق بين المراتب والخضوع لاستبداد مطلق دروها لكن روسو توصل بفضل الطريقة العقلانية لبناء الدولة الموروثة عن القدماء والمستخدمة قبل هوبس ولوك الى رسم صورة مجتمع مثالي يقوم على اساس المساواة وسيادة الشعب ، وهو مجتمع على طرفي نقيض مع المجتمع القائم في فرنسا ولقد طبقت نظريته في الممارسة بفضل الجمعية التأسيسية La convention ، وبذلك مارست الفلسفة تأثيرها في السياسة ، وبواسطة هذه السياسة أثرت بصورة غير مباشرة في الاقتصاد ». (المصدر المذكور ، ص:٥٨).

مارأيكم في هذه المحاكمة الباهرة التي تحول روسو ابن الجمهوري الفقير من جنيف الى نتاج للمجتمع الارستقراطي ؟ ان دحض السيد بارث يعني ان يكرر الانسان نفسه لكن ما رأيكم في السيد كاريف الذي يصفق لبارث ؟ أواه ايها السيد ف.ف. ، ان صاحبك « استاذ التاريخ » لايساوي في الحقيقة شيئا واننا لنسدي اليك نصيحة ودية فتش لك عن « استاذ » جديد

ان التطور الاقتصادي يجر في اذياله ثورات حقوقية ، وهو امر ليس من السهل على **الميتافيزيائي ادراكه** فمهما رفع عقيرته بالصياح عن التفاعل فهو معتاد مع ذلك على النظر الى الظواهر الواحدة تلو الاخرى والواحدة مستقلة عن الاخرى وعلى النقيض من ذلك فان هذا الامر سهل الادراك على من يملك حدا ادنى من القدرة على الفكر **الجدلي** لانه يعرف ان **التبدلات الكمية** المتراكمة تدريجيا **تؤدي** في النهاية الى **تبدلات نوعية** وان هذه التبدلاتالنوعية تمثل **قفزات** في الطبيعة انقطاعات في الاسمرارية

ولا يستطيع خصومنا عند هذه النقطة ان يتحملوا المزيد فيصرخون اضبطك بالجرم المشهود هكذا كان يتحدث هيغل » ونرد عليهم **ذلك هو قانون الطبيعة**

ان القول سهل لكن الفعل ليس كذلك دائما ولا بد من تعديل هذا المثل قليلا عند تطبيقه على التاريخ ان القول سهل جدا ، لكن الفعل معقد حتى الدرجة القصوى فمن السهل ان نقول ان تطور القوى المنتجة يجر في اذياله ثورات في المؤسسات الحقوقية بيد ان هذه الثورات عمليات معقدة يتشكل في سياقها بين اعضاء المجتمع تحالفات مصالح مذهلة جدا ان البعض ، الذين يجدون مصلحتهم في الابقاء على النظام القائم يدافعون عنه بكل الوسائل التي في حوزتهم بينما البعض الآخر الذين اصبح هذا النظام ضارا وبغيضا بالنسبة اليهم يهاجمونه بكل مايملكون من قوى. ولا تتوقف الامور عند هذا الحد فمصالح المجددين ليست متماثلة دائما فبعضهم يريدون هذا الاصلاح ، والبعض الآخر يريدون اصلاحا آخر وتقوم المناقشات في معسكر المصلحين انفسهم ويتداخل النضال ، وبالرغم من انالانسان يتألف من نفس وجسد حسب الملاحظة الصحيحة جدا للسيد كاربيف ، فان هذا النضال بشأن المصالح المادية التي لا جدال فيها على الاطلاق يطرح بالضرورة على الفرقاء المنازعين القضية الروحية التي لا جدال فيها **قضية العدالة** حتى اية درجة يناقض النظام القائم العدالة ؟ وحتى اية درجة تتطابق المطالب الجديدة معها ؟ من المحتم ان يتساءل المقاتلون عن هذه الامور وان كانوا لايسمون العدالة باسمها دائما بل لعلهم يجسدونها في صورة الاهة ما انسانية الملامح ، بل حيوانية المظهر وهكذا فان « الجسد بالرغم من اللعنة التي يرميه بها السيد كاربيف ، يولد النفس طالما ان النضال **الاقتصادي** يثير مسائل اخلاقية وان النفس عندما ننظر الى الامور عن كثب ، تنكشف على اعتبارها جسدا ، و ((**عدالة**)) **المؤمنين القدماء** تنكشف في الاغلب على اعتبارها **مصالح المستثمرين**

ان نفس اولئك الذين يتهمون ماركس بروح ابتكارية مدهشة بانكار دور السياسة يزعمون ايضا ان هذا المفكر لاينسب نظرا لأنه لايرى في اي مكان الا « الاقتصاد » وحده ، اية اهمية الى الافكار الفلسفية والاخلاقية والدينية والجمالية. وان هذا لغو مضاد للطبيعة مرة اخرى كما كان تششيدرين يقول ؛ ان ماركس لم ينكر « **اهمية** » هذه المفاهيم بل اوضح تكونها فحسب

ما الكهرباء ؟ احد اشكال الحركة **ما الحرارة ؟** احد اشكال الحركة ما الضوء ؟ احد اشكال الحركة **لقد ضبطتكم يافتيان** انكم تنكرون **اهمية الضوء** والحرارة والكهرباء **فعندكم الاشياء جميعا حركة فحسب** !! **باللفقر في الافكار** ! للضيق الذهني » بالضبط ايها السادة ، **الضيق الذهني هو الكلمة الصحيحة** لقد فهمتم جيدا نظرية تحول الطاقة

ان كل مرحلة من تطور القوى المنتجة تترافق بالضرورة **بتجمع معين للبشر** في عملية الانتاج الاجتماعية يعني **بعلاقات انتاجية معينة** ، يعني **ببنية معينة للمجتمع بكامله** واذا ما اعطيت هذه البنية مرة ، فليس من العسير ان نفهم ان طابعها ينعكس في **نفسية** البسر في عاداتهم واخلاقهم ، ومشاعرهم ، وافكارهم وطموحاتهم ، ومثلهم العليا وان العادات ، والاخلاق ، والآراء ، والمطامح والمثل العليا يجب بالضرورة ان تتطابق مع طريقة حياة البشر ، مع **اساليبهم في البحث عن الطعام** كي نستعير عبارة بيشل **ان نفسية مجتمع معين تتطابق دائما مع اقتصاده ، تقابله دائما ، وتتحدد به على الدوام** ذلك تكرار للظاهرة التي لاحظها الاغريق القدماء من قبل في العالم المادي ان المطابقة تنتصر دائما بسبب ان اللا مطابقة من جراء طبيعتها بالذات محكوم عليها بالفناء أيكون **في مصلحة المجتمع** في نضاله من أجل الوجود ان تقوم هذه **المطابقة** بين نفسيته واقتصاده ، بين نفسيته وشروط وجوده؟ **ان له في ذلك مصلحة كبيرة ،طالما ان العادات والافكار التي لاتتطابق** مع الاقتصاد والتي تتعارض مع شروط الوجود سوف **تعوق الابقاء على هــذا الوجــود** وان نفسية متطابقة مع الاقتصاد نافعة للمجتمع **ايضا منفعة الاعضاء المتطابقة** مع وظيفتها بالنسبة الى العضويــة الحيــة لكن أيكون قولنــا **إن اعضاء الحيوان** يجب أن تتفق مـــع شروط وجوده معنـــاه **أن هـــذه الاعضاء لا تملك أيــة اهميـــة** بالنسبــة الى ذلك الحيوان ؟ **ان الامر على النقيض من ذلك تمــامــا** ان معنى ذلك هو الاعتراف بانها تملك **اهمية** كبرى ، **اساسية** ولا بد ان يكون **دماغ المرء هزيلا** حتى نفهم الامر بصورة مغايرة وان هذا الامر لينطبق بالضبط ، **ايها السادة** ، على النفسية فحين يقرر ماركس انها تتطابق مع اقتصاد المجتمع ، **فقد كان** يقرر بذلك اهميتها الفذة

ان الفارق بين ماركس والسيد كاربيف مثلا يرتد هنا الى ان هذا الأخير يظل ثنائيا نموذجيا بالرغم من ميله الى « التركيب » ، **ففي نظره** هناك الاقتصاد الى اليمين والنفسية الى اليسار ، النفس في جيب **والجسد في الجيب** الاخرى وان تفاعلا نتم بين هاتين المادتين لكن كلا منهما تحيا حياة مستقلة تضيع اصولها في ضبـــاب المجهول ❊

❊ لا يتوهمن أحد أننا نفتري على الاستاذ الفاضل **انه** يستشهد باطراء عظيم برأي بارث الذي ينص على الحق يحيا حياة ذاتية ، وان لم **تكن مستقلة** » وان هذه الذاتية بالضبط لم تكن مستقلة » هي التي تمنع السيد كاربيف من فهم « ماهية العملية التاريخية كيف تمنعه من ذلك ، هذا ما سوف نبينه **في النص**

وتلغي نظرية ماركس هـذه الثنائيـة فعنده ان اقتصـاد المجتمع ونفسيته يشكلان وجهين لنفس الظاهرة الواحدة ، ظاهرة « انتاج الحياة » ، النضال في سبيل الوجود التي يتجمع البشر فيها بطريقة معينة وفقا لحالة معينة للقوى المنتجة ان النضال في سبيل الوجود يخلق **اقتصادهم** ، ومن هنـاك أيضـا تستمد **النفسية** جذورها فالاقتصاد اذن نتاج مثله كمثل النفسية ولذا **يتبدل** اقتصاد كل مجتمع يتقدم فحالة جديدة للقوى المنتجة تؤدي الى بنية اقتصادية جديدة والى نفسيـة جديدة في الوقت نفسه ، الى « روح عصري » جديد واننا لنرى أننا لانستطيع إلا بفرض التبسيط ان نعامل الاقتصاد **كسبب اول** لجميع الظواهر الاجتماعية انه نتيجة هو الآخر وليس سببا اولا ، فهو تابع للقوى المنتجة

والآن اليكم التفسير الذي وعدنا به في الهامش

« ان للجسد والنفس حاجاتهما التي تتطلب الارضاء والتي تضع كل فرد في موقف مختلف حيال العالم الخارجي ، يعني حيال الطبيعة والبشر الآخرين ان موقف الانسان حيال الطبيعة ، تبعا لمتطلبات الفرد الجسدية والروحية ، يخلق اذن من جهة واحدة فنونـا من مختلف الاصناف تسعى الى ضمان وجود الفرد المادي ، ومن جهة أخرى مجمل الثقافة الذهنية والاخلاقية (٣٤)

ان موقف الانسان المادي حيال الطبيعة ينطلق من حاجـات الجسـد ، مـن خصائص المادة فيجب على المرء ان يبحث في حاجات الجسد عن « اسباب القنص ، وتربية الماشية ، والزراعة ، والصناعات التحويلية ، والتجارة ، والعمليات المالية » ـ وذلك هو الحس السليم بالذات فما حاجتنا بدون جسـد الى لحم الطرائد أو حيوانات الذبح والى الارض والآلات والى التجـارة والذهب ؟ ولكن لابـد من السؤال أيضا ما الجسد دون نفس ؟ مادة خالصة ولكن المادة ميتة وهي لاتستطيع ان تخلق شيئا من تلقاء نفسها ، الا اذا كانت تتشكل هي نفسها من نفس وجسد وبالتالي فان المادة لاتنصب الاشراك للطرائد ، وتدجن الحيوانات ، وتزرع الارض ، وتقوم بالتجارة وتشرف على المصارف بفضل ذكائها الخـاص ، بل بتوجيـه من النفس وبنتيجة ذلك فان علينا ان نفتش في النفس عن السبب الأول لموقف الانسان المادي حيال الطبيعة ولذا فان للنفس حاجات من مرتبتين ، وهي تتركب اذن مـن نفس وجسد ايضا ، وهذا امر غير معقول نوعا ما بل ثمة ماهـو اكثـر من ذلك فالمرء يأخذ في « الارتياب لسبب آخر أيضا فاذا صدقنا السيد كاربيف ، فـان موقف الانسان المادي حيال الطبيعة ينشأ عن الحاجات الجسدية أهذا صحيح ؟ حيال الطبيعة فحسب ؟ لعل السيد كاربيف يتذكر كيف لعن الاب غيبير الكومونات التي كانت تسعى الى التخلص من النير الاقطاعي على اعتبارها « مؤسسات دنيئة » الغرض الوحيد من وجودها في اعتقاده رفض انجاز الالتزامات الاقطاعية ما الذي كان يتكلم اذن في الاب غيبير ؟ « النفس » أم « الجسد » ؟ اذا كان « الجسد » ، فانه سوف يتركب اذن بدوره ، نكرر ذلك ، من « جسـد » و « نفس » . واذا كـان

« النفس فلا بد لنا من الاعتراف بأنها تتركب من « نفس » و « جسد » ، لانها لاتظهر في هذه الحالة ذلك الازدراء للعالم الذي يشكل صفتها المميزة في رأي السيد كاريبف جربوا ان تفهموا شيئا عن ذلك لعل السيد كاريبف يقول لنا ان النفس حقا هي التي كانت تتكلم في الاب غيبير ، لكن تحت املاء الجسد وان الامر نفسه يحدث حين ينصرف الانسان الى القنص ، والى المصارف الخ لكنه لابد للجسد قبل كل شيء ، كي يتمكن من الاملاء ، ان يتركب من جسد ونفس ، وفضلا عن ذلك ، فان المادي المبتذل قد يقدم هذه الملحوظة : « النفس تتكلم تحت املاء الجسد ؟ اذن فكون الانسان يتركب من نفس وجسد لايضمن لنا اي شيء على الاطلاق لعل النفس لم تفعل في سياق التاريخ بأسره الا التكلم تحت املاء الجسد ؟ » ولعل السيد كاريبف وقد استاء من هذه الفرضية ، يتصدى لدحض « المادية المبتذلة » ، ونحن لانسك لحظة واحدة في ان النصر سوف يكون حليف الاستاذ المحترم لكن هل ستفيده كثيرا في هذه المناظرة الحقيقة التي لاجدال فيها والتي تنص على ان الانسان يتركب من نفس وجسد ؟.

وليس هذا كل شيء لقد قرأنا عن السيد كاريبف ان حاجات الفرد الروحية هي التربة حيث تزدهر «الميثولوجيا والدين والآداب والفنون وعلى العموم الموقف النظري حيال العالم الخارجي [وحيال الذات أيضا] وقضايا الوجود والمعرفة وكذلك « التكاثر الخلاق المنزه للظواهر الخارجية » [وافكار المرء الخاصة] ولقد صدقناه لكن اننا نعرف طالبا في التكنولوجيا كرس نفسه بحماسة فائقة لتقنيات الصناعة التحويلية دون ان يظهر ادنى موقف « نظري » حيال كل ما عدده السيد الاستاذ ، الامر الذي يثير لدينا سؤالا ايتركب صديقنا من جسد فقط ؟ اننا نرجو السيد كاريبف ان يبدد على عجل هذا الشك الذي يعذبنا من جهة ، والذي يذل من جهة ثانية هذا التكنولوجي الشاب الموهوب بصورة استثنائية والذي ربما اصبح عبقريا في مستقبل الايام

اذا كانت محاكمة السيد كاريبف تملك اي معنى فهذا المعنى هو بالضرورة كما يلي يملك الانسان حاجات من مرتبة عليا ومرتبة دنيا ، مطامح انانية واخرى غيرية ومع ذلك لانستطيع ان نؤسس « فلسفة التاريخ » على هذه البدهية ، لانها لن تقودنا سوى الى عموميات مجترة بشأن الطبيعة الانسانية ، ذلك انها لاتعدو كونها فكرة عامة من المرتبة نفسها

ان نقادنا الثاقبين ضبطونا ، اثناء هذا الحوار مع السيد كاريبف ، في تناقض صريح مع أنفسنا ، والاخطر من ذلك مع ماركس ليس الاقتصاد السبب الاول في الظواهر الاجتماعية ، هذا ماقلناه ونحن نؤكد في الوقت نفسه – وهذا هو التناقض الاول – ان نفسية المجتمع تتكيف مع اقتصاده. ولكننا نؤكد انالاقتصاد والنفسية في مجتمع ما هما وجهان لنفس الظاهرة الواحدة ، بينما يرى ماركس – وهنا هو التناقض الثاني الذي يؤسف له بقدر مانبتعد عن النظرية التي اخذنا

على عاتقنا مهمة عرضها ـ ان **الاقتصاد هو الاساس الواقعي الذي تنهض عليه** الفوقية الروحية

لنوضح ذلك

اما ان السبب الرئيسي لتقدم المجتمعات التاريخي يكمن في تطور القوى المنتجة هذا مأخوذ عن ماركس حرفيا ، وبالتالي فليس هنا اي تناقض على الاطلاق واذا ما انزلق تناقض ما في موضع ما ، فلا يمكن ان يكون ذلك قد حدث اذن الا بخصوص العلاقة بين الاقتصاد والنفسية في مجتمع معين فلنر ما اذا كان لمثل هذا التناقض وجود

ليتذكر القارىء مشكورا اصل الملكية الخاصة ان تطور القوى المنتجة ينشىء بين البشر علاقات انتاجية بحيث يتبين ان الملكية الخاصة لبعض الاشياء انسب لعملية الانتاج وتتبدل وفقا لذلك المفاهيم الحقوقية عند الانسان البدائي ان **نفسية** المجتمع تتكيف مع **اقتصاده** وعلى **الاساس الاقتصادي** المعين تنهض بصورة لا محيد عنها **بنية فوقية ايديولوجية** مناسبة له ولكن كل مرحلة جديدة في تطور القوى الانتاجية تضع البشر ، في حياتهم اليومية في علاقات متبادلة جديده لاتتفق بعد الآن مع علاقات الانتاج التي اصبحت باطلة وان هذا الوضع الجديد الذي لم يسبق له مثيل ينعكس على نفسية الافراد ويغيرها بصورة محسوسة جدا باي منحى ؟ ان بعض اعضاء المجتمع سوف يدافعون عن النظام القائم فهم حماة الجمود بينما الاعضاء الآخرون الذين يجدون ان النظام القائم ليس في مصلحتهم سوف يدافعون عن التقدم ان نفسيتهم تتبدل في اتجاه **علاقات الانتاج التي توشك ان تحل مكان العلاقات الاقتصادية القديمة التي باتت باطلة** ان تكيف النفسية مع الاقتصاد يستمر كما ترون لكن التطور النفسي البطيء **يسبق** الثورة الاقتصادية*

واذا ماتحققت هذه الثورة قام تناسق تام بين نفسية المجتمع واقتصاده ان نفسية جديدة تزدهر بكل حرية على اساس هذا الاقتصاد الجديد ولن يعكر هذا التناسق شيء على الاطلاق خلال فترة من الزمن بل هو يتوطد اكثر فأكثر لكن الدلائل المنذرة بنشاز جديد تظهر شيئا فشيئا ان نفسية الطبقة الطليعية تسبق من جديد للاسباب التي اشرنا اليها لتونا ، علاقات الانتاج القائمة ؛ انها تبدا من جديد دون ان تكف لحظة واحدة عن التكيف مع الاقتصاد ، في التكيف مع علاقات الانتاج **الجديدة** التي تنطوي على بذرة اقتصاد المستقبل اليس هذان وجهين لنفس العملية الواحدة ؟

---

* ان البروليتاريا الاوروبية تجتاز في واقع الامر هذه المرحلة في الوقت الحاضر ، ان نفسيتها تتكيف بصورة مسبقة مع علاقات الانتاج

لقد استقينا امثلتنا حتى الآن كي نبرهن على فكر ماركس ، من ميدان حق الملكية ومما لا جدال فيه ان هذا الحق مناط بالايديولوجية،لكن بايديولوجية من مرتبة بدائية ، ودنيا اذا جاز التعبير كيف نفهم نظرية ماركس في تطبيقها على الاشكال العليا للايديولوجية العلم والفلسفة ، والفن الخ ؟

ان الاقتصاد يلعب في تطور هذه الميادين من الايديولوجية دور الاساس بمعنى انه لابد للمجتمع ان يبلغ مستوى معينا من الازدهار كي تنفصل عنه مقولة من الافراد يكرسون انفسهم على وجه الحصر للمشاغل الفكرية والعلمية وغيرها ان نصوص **افلاطون وبلوتارك** التي اشرنا اليها اعلاه تبين ان اتجاه العمل الفكري بالذات في المجتمع ينظم على **علاقات الانتاج** القائمة فيه ولقد قال فيكو ايضا ان العلوم تنشأ من الحاجات الاجتماعية وفيما يخص علما مثل الاقتصاد السياسي فان الامر واضح بالنسبة الى كل من يملك ادنى معرفة بالتاريخ وقد لاحظ الكونت بيكيو بحق ان الاقتصاد السياسي يثبت بصورة خاصة القاعدة التي تنص على ان الممارسة تسبق العلم في كل مكان وزمان*

ومن المؤكد اننا نستطيع ان نفهم ذلك بمعنى مجرد تماما أيضا اننا نستطيع ان نقول ان العلم في حاجة الى التجربة بكل تأكيد وهو اكمل بقدر ما يقوم على اساس تجربة اوسع لكن المسألة ليست هنا قارنوا بين افكار ارسطو وكزينوفون في موضوع الاقتصاد وبين افكار ريكاردو وآدم سميث ولسوف ترون ان الفارق بين العلم الاقتصادي في اليونان القديمة والعلم الاقتصادي للمجتمع البورجوازي ليس فارقا في **الدرجة** فحسب بل في **الطبيعة** ان وجهة النظر مختلفة جدا والموقف حيال الموضوع مغاير جدا كيف نفسر هذا الفارق ؟ بكل بساطة حقيقة ان **الظواهر نفسها تبدلت** ان علاقات الانتاج في المجتمع البورجوازي لا تشبه علاقات الانتاج في المجتمع القديم ان علاقات مختلفة في عملية الانتاج انجبت مفاهيم مختلفة في العلم وفضلا عن ذلك قارنوا نظريات ريكاردو بنظريات باستيا وسترون ان هذين الرجلين لا ينظران بالطريقة نفسها الى علاقات الانتاج التي ظلت ثابتة في **خطوطها الكبرى** نظرا لكونها

---

* حتى قبل يتكون [الاقتصاد السياسي] في القرن السابع عشر كانت بعض الامم قد ازدهرت منذ عديدة بالاعتماد على تجربتها الخاصة التي استخدمها هذا العلم لموضوعاته في وقت لاحق [بالايطالية في النص الاصلي] Storia della Economica pnbblica in Itallia, etc.. [**تاريخ الاقتصاد السياسي في ايطاليا**] لوغانو ١٨٢٩

ويكرر ذلك جون ستوارت ميل في كتابه **مبادىء الاقتصاد السياسي** لندن ١٨٤٣ المجلد الاول في جميع فروع الاعمال الانسانية تسبق الممارسة العلم بوقت طويل وبالتالي مفهوم الاقتصاد السياسي من حيث هو فرع من العلم مفهوم حديث جدا لكن الموضوع الذي ابحاثه حوله قد شكل بالضرورة في جميع الازمان احد الاهتمامات العملية الرئيسية للجنس البشري [بالانكليزية في النص الاصلي]

علاقات **بورجوازية** لماذا ؟ لأن هذه العلاقات كانت في سبيلها الى الازدهار ايام ريكاردو وكانت تتوطد باستمرار بينمـا شرعت تتدهور في عصر باستيا ولقـد انعكست الشروط المختلفة لنفس العلاقات الانتاجية بالضرورة في نظريات الاشخاص الذين كانوا يدافعون عنها

ولنأخذ أيضا نظرية الحق العام لماذا وكيف تطورت ؟ يقول الاستاذ غومبلويتس:

« ان الحق العام يصبح موضوع اجتهادات علمية حالما ينشـأ النزاع بين الطبقـات السائدة بشأن مجال النفوذ الخاص بكل منها وهكذا فان المعركة السياسية الكبيرة الاولى التي نصادفها في النصف الثاني من العصر الوسيط الاوروبي ، الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الروحية ، بين الامبراطور والبابا ، تسجل أوائل الحق العام الالماني... وان النزاع السياسي الثاني الذي ادى الى الانقسام بين الطبقات السائدة وزود الكتاب السياسيين بمادة من اجل معالجة القسم المقابل من الحـق العـام قـد كان انتخـاب الامبراطور وهكذا دواليك

ماهي العلاقات الطبقية ؟ قبل كل شيء العلاقـات حيث يتواجـه البشر في عملية الانتاج الاجتماعية اي **علاقات انتاجية** وتجد هذه العلاقات التعبير عنها في بنية المجتمع السياسية وفي صراع الطبقات السياسي ، وهو الصراع الذي يؤدي الى ظهور وتطور **النظريات السياسية** المختلفة ان بنية فوقية ايديولوجية مناسبة تنهض بالضرورة على الاساس الاقتصادي

لكن هذه الايديولوجية ، اذا لم تكن بدائية فهي ليست مع ذلك من المرتبة الاعلى كيف هي الامور بالنسبة الى الفلسفة والفن على سبيل المثال ؟ لابد لنا ان نعود قليلا الى الوراء قبل ان نجيب عن هذا السؤال

كان هيلفيتيوس ينطلق من مبدأ ان l'hmme n'est que sensibilité [الانسان حسية فقط] ومن الواضح من وجهة النظر هذه ان الانسان سـوف يتجنب الاحساسات الاليمة ويحاول ان يحصل على الاحساسات اللذيذة تلك هي الانانية الحتمية والضرورية للمادة الحاسة لكن كيف تظهر عند الانسان اذن مطامح منزهة كليا مثل حب الحقيقة والبطولة ؟ لم يعرف هيلفيتيوس كيف يحل هذه القضية ، وكيما يتخلص من الصعوبة شطب بكل بساطة ذلك المجهول س الذي كان يتوجب عليه ان يحدد مقداره لقد روى انه لايوجد عالم يحب الحقيقة حبا منزها ، وان كل امرىء يرى فيها طريق المجد ، وفي المجد المال ، وفي المال الوسيلة من أجل الحصول على احساسات جسدية لذيذة ، مثلا شراء اطعمة لذيذة الطعم و belles esclaves [عبدات جميلات] ولا حاجة الى التأكيد على تفاهة مثل هذا التفسير فهو يعبر مرة اخرى عن عجز المادية **الميتافيزيائية** الفرنسية ، كما اشرنا من قبل ـ حيال **قضايا التطور**

---

* Rechtsstaat und Sozialismus [الدولة الدستورية والاشتراكية] انسبورك ١٨٨١ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

وغالبا ماينسب الى ابي المادية **الجدلية** الحديثة تصور عن تاريخ الافكار لايفعل سوى استئناف اعتبارات هيلفيتيوس الميتافيزيائية واليكم بصورة تقريبية كيف يتصورون ، مثلا مذهب ماركس عن تاريخ الفلسفة اذا كان كانط قد عني بعلم الجمال المتسامي ، او عالج مقولات الذهن وتناقضات العقل ، فلم يكن ذلك كله الا عبارات جوفاء فحقيقة الامر ان علم الجمال لم يكن يعنيه اكثر من التناقضات او المقولات لقد كان يستهدف غرضا واحدا ان يوفر للطبقة التي ينتسب اليها يعني البورجوازية الصغيرة الالمانية ، اقصى مايمكن من الصحون الشهية و العبدات الجميلات ؟ وبما ان المقولات والتناقضات بدت له وسائل ممتازة من اجل بلوغ هذا المأرب ، فقد جعل ينشئها

أثمة حاجة الى الاشارة الى ان هذا هراء خالص ؟ حين يقول ماركس ان نظرية معينة تقابل مرحلة معينة من التطور الاقتصادي للمجتمع فانه لايقصد مطلقا ان المفكرين الذين يمثلون الطبقة الحاكمة خلال هذه المرحلة قد قولبوا مذاهبهم بصورة واعية وفقا لمصالح حماتهم في البورصة الاكثر او الاقل ثراء والاكثر او الاقل كرما

لقد كان هناك متملقون في كل زمان ومكان طبعا لكنهم ليسوا هم الذين تقدموا بالفكر البشري وان اولئك الذين تقدموا بهذا الفكر حقا قد عنيوا بالحقيقة وليس بمصالح الاقوياء في هذا العالم*

يقول ماركس

« ان بنية فوقية تامة تتألف من مشاعر واوهام واساليب في التفكير ومفاهيم فلسفية خاصة تنهض فوق الاشكال المختلفة للملكية وان الطبقة بأسرها تخلقها وتكونها على اساس الشروط المادية والعلاقات الاجتماعية المقابلة** »

ان تكون البنية الفوقية الايديولوجية يتم **بدون معرفة البشر**.انهم لايعتبرون هذه البنية الفوقية عاقبة مؤقتة لاوضاع مؤقتة بل ضرورة الزامية طبيعية بجوهرها ان الافراد الذين تكونت آراؤهم ومشاعرهم تحت تأثير التربية او البيئة بصورة اعم ، قد يلتزمون بصدق تام وبتفان مطلق بأفكار وبنى اجتماعية تمد جذورها في مصالح **طبقية ضيقة** اكثر او اقل وينطبق الامر نفسه على الاحزاب فالديموقراطيون الفرنسيون في عام ١٨٤٨ عكسوا طموحات البورجوازية الصغيرة وقد كانت البورجوازية الصغيرة تطمح بطبيعة الحال الى الدفاع عن مصالحها ويقول ماركس

---

* الامر الذي لم يمنعهم من ان يخافوا الكبار احيانا ومثال ذلك ان كانط كان يقول « لايمكن لاحد ان يجبرني على قول عكس ما افكر فيه ، لكني لن اجازف فأقول كل ما افكر فيه » .

** [كارل ماركس **انقلاب لويس بونابرت في ١٨ برومير**] .

« لكن يجب الا نشارك في هذا المفهوم المحدود بأن مبدأ البورجوازية الصغيرة هو تحقيق الغلبة لمصلحة طبقية انانية انها تعتقد على النقيض عن ذلك ان الشروط **الخاصة** لتحررها هي الشروط **العامة** التي لايمكن خارجا عنها انقاذ المجتمع الحديث وتجنب الصراع الطبقي. كذلك يجب الا نتوهم ان الممثلين الديموقراطيين هم جميعا بقالون (shopkeepers) او مدافعون متحمسون عن البقالين فقد ينفصلون عنهم بهوة سحيقة بفعل ثقافتهم ووضعهم الشخصي وان مايصنع منهم ممثلين للبورجوازية الصغيرة هو ان دماغهم لايستطيع ان يتجاوز الحدود التي لايتجاوزها البورجوازي الصغير نفسه في حياته ، وانهم بالتالي منساقون نظريا الى نفس المشاكل والحلول التي ينساق اليها عمليا البورجوازيون الصغار بدافع مصلحتهم المادية واوضاعهم الاجتماعية تلك هي على العموم الرابطة القائمة بين الممثلين السياسيين والادبيين لطبقة ما والطبقة التي يمثلونها*

هذا مايقوله ماركس في كتابه عن coup d'état (انقلاب) نابليون الثالث وانه ليفسر في أحد مؤلفاته الأخرى ربما بصورة أفضل من ذلك الجدلية النفسية **للطبقات** انه يقصد الدور الذي لعبته أحيانا بعض **الطبقات** في تحرر شعبها

---

* المصدر نفسه

فيما يتعلق بتأثير الظروف des circonstances في تعضي الحيوان يقدم لامارك ملاحظة يفيدنا ان نتذكرها هنا تفاديا لاي سوء فهم من المؤكد اننا اذا اخذنا هذه العبارات بصورة حرفية فسوف اتهم بالخطأ لانه كائنة ما كانت الظروف فهي لا تحقق بصورة مباشرة أي تبدل في شكل الحيوانات وتعضيها تبدلات هامة في الظروف تؤدي عند الحيوان الى ظهور حاجات جددة كان يجهلها من قبل اسمرت هذه الحاجات الجديدة فترة طويلة أدت الى ظهور عادات جديدة ولكن كانت ظروف جديدة قد اعطت هذه الحيوانات عادات جديدة يعني قادتها الى نشاطات جديدة اصبحت معتادة ، فان النتيجة ستكون استخدام جزء واحد بالاحرى من الجزء الآخر ، وفي بعض الحالات انعدام الاستعمال التام لجزء لم يعد ضروريا بعد الان وان زيادة الاستعمال او انعدامه لن يبقيا دون تأثير في بنية الاعضاء وبالتالي العضوية بكاملها [لا مارك Philosophie Zoologique , Etc طبعة جديدة باشراف شارك مارنان ، ١٨٧٣ المجلد الاول ، ص ٢٢٣ ٢٢٤] ويجب ان نفهم بالطريقة نفسها أثر الضرورات الاقتصادية وما ينشأ عنها من حاجات في نفسية الشعوب ان عملية بطيئة للتكيف تجري هنا في اعقاب التمرين وعدم التمرين وان خصوم المادية الاقتصادية يتوهمون ان الانسان ، لدى ظهور حاجات جديدة ، سوف يعيد النظر في الحال وعن قصد في افكاره حسب اعتقاد ماركس ومن الطبيعي ان هذا الامر يبدو لهم رأيا احمق تماما بيد ان هذه الحماقة من صنعهم ، لاننا لانجد شيئا من هذا القبيل عند ماركس. ان اعتبارات هؤلاء المفكرين تذكرنا بالحجة الظافرة التالية لكاهن مناهض لداروين « يزعم داروين اننا اذا القينا دجاجة في الماء فسوف ينشأ لها زعانف ؛ ولكنني أؤكد ان الدجاجة سوف تغرق » .

« لايمكن لاية طبقة في المجتمع البورجوازي ان تلعب هذا الدور ما لم تثر عنصراً من الحماسة في صفوفها الخاصة وفي صفوف الجماهير ، عنصرا تتآطر فيه وتمتزج بالمجتمع بأكمله ، تتوحد فيه مع المجتمع ، وتثير الشعور والاعتراف بأنها الممثل العام لهذا المجتمع ، عنصرا تكون فيه مطالبها وحقوقها الخاصة بالفعل مطالب وحقوق المجتمع بالذات ، وتكون حقا الرأس الاجتماعي والقلب الاجتماعي ان طبقة خاصة لايمكن ان تدعي لنفسها السيادة العامة الا باسم حقوق المجتمع العامة وكيما تستولي عنوة على هذا المركز التحريري وتضمن الاستغلال السياسي لجميع ميادين المجتمع في مصلحة ميدانها الخاص ، فانه لايكفيها الطاقة الثورية ووعي قوتها الخاصة فاذا كان من الواجب ان يتطابق تحرر طبقة معينة مع ثورة الشعب ، واذا كان من الواجب ان تعامل طبقة اجتماعية واحدة على اعتبارها المجتمع بأسره ، فانه يجب على العكس من ذلك أن تتمركز سائر شرور المجتمع في طبقة اخرى ، ان تكون طبقة محددة هي طبقة الفضيحة العامة ، هي الطبقة التي تجسد جميع العوائق واذا كان لابد لطبقة معينة ان تكون طبقة التحرير الممتازة ، فانه يجب بالمقابل ان تكون طبقة اخرى طبقة الاستعباد جهارا ان الاهمية العامة السلبية التي كانت للنبالة والاكليروس الفرنسيين قد كانت نتيجتها الضرورية الاهمية العامة الايجابية للبورجوازية ، وهي الطبقة الاقرب اليهما والمناهضة لهما بصورة مباشرة* »

بعد هذا الايضاح الاولي لن يكون من العسير فهم نظرية ماركس عن الاشكال العليا للايديولوجية ، الفلسفة والفن مثلا لكننا سوف نقارنها ، طلبا لمزيد من الوضوح بنظرية تين الذي يقول

كي نفهم أثرا فنيا أو فنانا أو جماعة من الفنانين يجب ان نتمثل بدقة الحالة العامة للفكر والاخلاق في العصر الذي ينتسبون اليه هناك يقوم التفسير الاخير ؛ هناك يكمن السبب البدائي الذي يقرر كل شيء آخر وان هذه الحقيقة ، ايها السادة، لتؤكدها التجربة وبالفعل ، فاذا راجعنا العصور الرئيسية لتاريخ الفن وجدنا ان الفنون تظهر وتختفي مع بعض شروط الفكر والاخلاق المرتبطة بها ومثال ذلك ان المسرح الاغريقي، مسرح ايزخليوس وسوفوكليس واوريبيدس ، قد ظهر في زمن انتصار الاغريق على الفرس ، في العصر البطولي للمدن الجمهورية الصغيرة ، ابان الجهد العظيم الذي حققت به استقلالها وانشأت هيمنتها على العالم المتحضر ؛ واننا لنراه يختفي مع زوال هذا الاستقلال وهذه الطاقة عندما انتهى انحطاط الاخلاق والغزو المقدوني الى تسليم الاغريق للاجانب

وكذلك تطورت العمارة الغوتلية مع الاستقرار النهائي للنظام الاقطاعي ، في نصف نهضة القرن الحادي عشر ، حين اخذ المجتمع في الاستقرار بعد تخلصه من النورمانديين ومن قطاع الطرق واننا لنراها تختفي مع انحلال هذا النظام العسكري للبارونات الصغار المستعبين جنبا الى جنب مع محصلة العادات المشتقة منه ، حوالي نهاية القرن الخامس عشر ، بنتيجة قيام الانظمة الملكية الحديثة

---

* مشاركة في نقد فلسفة الحق عند هيغل الحوليات الالمانية الفرنسية ، ١٨٤٤) .

وكذلك ازدهر فن الرسم الهولندي في تلك الفترة المجيدة حين اتمت هولنـدا ، بفضل عنادها وشجاعتها ، تحررها من السيطرة الاسبانيـة ، وحاربت انكلترا بأسلحـة متكافئة ، واصبحت من بين جميع الدول الاوروبية أغناها واكثرها حرية وجدا وازدهارا وانما لنراه ينحط في مطلع القرن الثامن عشر ، حين تراجعت هولندا الى الدور الثاني ، متنازلة لانكلترا عن الدور الاول ، واكتفت بأن تكون مصرفا ومركزا تجاريـا جيد التنظيم وجيد الادارة ومسالما ، حيث يستطيع الانسان ان يعيش كما يحلو له ، عـلى اعتبـاره بورجوازيا عاقلا ، وقد تجردت عن الطموحات الكبرى والانفعالات الكبرى

« وأخيرا فان المسرح الفرنسي قد ظهر بالطريقة نفسها عندما أنشأت الملكية الوطيدة النبيلة ، في ظل لويس الرابع عشر ، حكم الذوق السليم ، وحياة البـلاط وعيشـة التألق وأناقة الحياة المنزلية الارستقراطية ، واختفى عندما قضت الثورة على المجتمع النبيل وعادات البلاط... ومثلما يدرس علماء الطبيعة الحرارة الحكمية كي يفهموا ظهور هذا النوع أو ذاك من النباتات ، الذرة أو الشوفان ، والصبر أو الصنوبر كذلك يجب ندرس الحرارة الاخلاقية كي نفهم ظهور هذا النوع من الفنون أو ذاك ، النحت الوثني أو التصوير الواقعي ، والعمارة الغوتية أو الادب الكلاسيكي ، والموسيقى الشهوانية أو الشعر المثالي ان آثار الفكر البشري مثلها كمثل اثار الطبيعة الحية ، لاتفسر الا ببيئتها*

ان أيا من تلامذة ماركس يوافق على هذه الآراء دون تحفظ أجل ان أي عمل فني ، مثله كمثل أي نظام فلسفي يمكن ان يفسر بحالة الفـكر والاخلاق في عصر معين لكن كيف تفسر هذه الحالة العامة للفكر والاخلاق ؟ يعتقـد تلامذة ماركس انها تفسر بالنظام الاجتماعي بخصائص البيئة الاجتماعيـة عندمـا يحدث تغير كبير في الشرط الانساني ، فانه يجلب بصورة متدرجة تغيرا مقابلا في المفاهيم الانسانية** هذا ما يقوله تين أيضا وان هذا لصحيح لكننا نريد ان نعرف فحسب ما الذي يسبب هذه التغيرات في شـرط الانسـان الاجتماعي ، يعني في النظام الاجتماعي وان الماديين الاقتصاديين يختلفون مع تين في هذه النقطة وحدها

فعند تين ان رسالة التاريخ من حيث هو علم هي في آخر تحليل من ((**مرتبة نفسية**)). وعنده ان الحالة العامة للفكر والاخـلاق لاتنجب فحسب الاشكال المختلفـة للفن والادب والفلسفة عند شعب معين بل تنجب أيضا **صناعته** وجماع مؤسسـاتـه الاجتماعية وان هذا ليعني ان السبب الاول للبيئة الاجتماعية هو « حالة الفكر والاخـلاق

---

* **Philosophie de l'art** [**فلسفـة الفن**] بارسي ١٨٧٢ الطبعـة الثانيـة عشرة) ص ١٣ – ١٧

** **Phillosophie de l'art dans les pays-Bas** [**فلسفة الفن في البلدان الواطئة**] ، باريس ١٨٧٢ ، ص ١٣ – ١٧ .

وانه ليترتب على ذلك ان **نفسية** الانسان الاجتماعي تتحدد **بشرطه وشرطه بنفسيته** وذلك هو مرة اخرى التناقض الذي لم يتوصل الفلاسفة الى حله ولم يحله تين ايضا فلقد اقتصر في سياق مجموعة من المؤلفات المرموقة على تقديم البراهين الفزيرة على الموضوعة الاولى ــ موضوعة **ان حالة الفكر والاخلاق تتحدد بالبيئة الاجتماعية** .

وان معاصري تين الفرنسيين الذين لم يقبلوا بنظرياته الجمالية قد طرحوا امامه **النقيضة : ان خصائص البيئة الاجتماعية تتحدد بحالة الفكر والاخلاق**※

واننا لنستطيع ان نواصل المناقشة حتى أبد الابدين دون ان نحل التناقض المشؤوم ، بل دون ان نلاحظ وجوده

ان نظرية ماركس التاريخية هي وحدها التي تحل هذا التناقض وبذلك تضع نهاية مرضية للمناظرة أو على الاقل توفر امكانية انهائها بصورة مرضية لاولئك الذين لهم اذنان للسمع ودماغ للتفكير

ان خصائص البيئة الاجتماعية تتحدد في كل عصر معين بحالة القوى المنتجة. واذا ماتقررت حالة القوى المنتجة مرة فان خصائص البيئة الاجتماعية تتحدد من جراء ذلك والنفسية المقابلة لها والتفاعل بين البيئة من جهة والافكار والعادات من جهة اخرى وان برونوتيير لمصيب تماما حين يقول اننا لانقتصر على التكيف مع بيئتنا بل نكيفها أيضا مع حاجاتنا ويتساءل المرء لكن من اين تنشأ الحاجات التي لا تقابل خصائص البيئة المحيطة بنا ؟ انها تنشأ فينا (وحين نقول هذا لانقصد حاجات البشر المادية فحسب ، بل مايسمى حاجاتهم الروحية أيضا) بفضل تلك الحركة التاريخية ، نفس ذلك التطور للقوى المنتجة الذي يثبت من جرائه كل نظام اجتماعي معين ، عاجلا أو آجلا انه غير مناسب ، وبال ، وانه يتطلب صهرا جذريا ولعله لايناسب الا المعول ولقد اشرنا اعلاه الى مثال المؤسسات الحقوقية كي نبرهن كيف ان نفسية البشر يمكن ان تتجاوز الاشكال الخاصة للحياة الاجتماعية

ولسنا نرتاب في ان قراء عديدين ــ حتى من بين المؤيدين لنا ــ سوف يتذكرون لدى قراءة هذه الاسطر أمثلة عديدة وجمهرة من الحقائق التاريخية التي

※ اننا نتعرض لتأثير البيئة السياسية والتاريخية ، ونتعرض لتأثير البيئة الاجتماعية ، ونتعرض أيضا لتأثير البيئة الحكمية لكن يجب الا ننسى اننا كنا نتعرض لهذا التأثير فاننا نستطيع نقاومه أيضا ومما لاريب فيه انكم تعرفون ان هناك أمثلة على ذلك لاتنسى واذا كنا نتعرض لتأثير البيئة ، فاننا نملك قوة أيضا تستقيم في ألا ننساق مع هذا التأثير أو اردنا ان نعول ماهو أكثر من ذلك ، فهي القوة على جعل البيئة مطابقة لما يناسبنا وتكييفها معه. ف برونوتيير: **تطور النقد منذ عصر النهضة حتى أيامنا** ، باريس ١٨٨٠ ، ص ٢٦٠ ــ ٢٦١ (النص بالفرنسية في النص الروسي

لايمكن في الظاهر تفسيرها **مطلقا** من وجهة نظرنا ولسوف يتهيأون لمخاطبتنا كما **يلي** انك على حق ؛ لكن ليس الحق كله وان اولئك الذين يؤيدون الراي المضاد على حق ايضا لكن ليس الحق كله ؛ فهم وانت لاتشاهدون الا نصف الحقيقة صبرك ايها القارىء ! لاتفتش مطلقا عن الخلاص في **الانتقائية** دون محاولة الحصول على الدرس الذي يمكن ان يقدمه لك التصور **الاحادي الحديث** يعني **المادي** للتاريخ

لقد كانت موضوعاتنا حتى الآن مجردة بالضرورة لكننا نعرف من قبل **انه ليس ثمة حقيقة مجردة ، وان الحقيقة مشخصة دائما** ولذا كان من واجبنا ان نعطي موضوعاتنا شكلا اكثر تشخيصا

بما ان كل مجتمع على وجه التقريب خاضع لتأثير المجتمعات المجاورة له فاننا نستطيع ان نقول انه **يوجد بالنسبة الى كل مجتمع بيئة اجتماعية معينة ، بيئة تاريخية معينة تؤثر في تطوره** لكن حصيلة المؤثرات التيتمارسها علىمجتمع معين المجتمعات المجاورة له لايمكن ان تساوي قط حصيلة نفس المؤثرات التي يتعرض لها مجتمع آخر في الوقت نفسه وبالتالي **فان كل مجتمع يحيا في بيئته التاريخية الخاصة به التي يمكن ان تشبه كثيرا ــ وفي الواقع انها تشبه كثيرا في اغلب الاحيان ــ البيئة التاريخيةالمحيطة للشعوب الاخرى دون ان تكون قط ، ولا يمكن ان تكون قط ، متماثلة معها** وان هذا ليدخل عاملا للتنوع بالغ الاهمية في عملية تطور اجتماعي كان يمكن لنا حتى الآن من وجهة نظرنا السابقة تخطيطها حتى درجة كبيرة

ولنأخذ مثالا ان العشيرة نمط من الجماعة خاص بجميع المجتمعات البشرية في درجة معينة من تطورها بيد ان تأثير البيئة التاريخية ينوع حتى درجة كبيرة مصائر العشائر في القبائل المختلفة ، وهو نضفي عليها اذا جاز التعبير سمات فردية ؛ ويبطىء من انحلالها أو يعجل فيه وهو ينوع بصورة خاصة عملية هذا الانحلال وان هذا التنوع يحدد تنوع الاشكال الاجتماعية التي سوف تحل مكان العشيرة ولقد قلنا حتى الآن ان تطور القوى المنتجة يؤول الى ظهور الملكية الخاصة وزوال الشيوعية البدائية ويجب علينا الآن ان نقول ان طابع الملكية التي نشأت على انقاض الشيوعية البدائية قد تنوع من جراء تأثير البيئة التاريخية التي تحيط بكل مجتمع معين

« ان دراسة دقيقة لاشكال الملكية الجماعية في آسيا ، وعلى الاخص في الهند ، تبين الاشكال المختلفة للملكية الجماعية قد انجبت أثناء انحلالها اشكالا مختلفة للملكية هكذا على سبيل المثال فان الانماط الاصلية المختلفة للملكيةالخاصةفي روما وعند الجرمان يمكن ان ترد الى الاشكال المختلفة للملكية المشاعة في الهند* »

---

* ماركس Zur Kritik der politischen Oekonomie [نقد الاقتصاد السياسي ــ اميركونغ ، ص .

ومن **المفروغ** منه ان تأثير البيئة التاريخية **في مجتمع معين يفعل** ايضا **في تطور افكاره** اترى تضعف المؤثرات الخارجية تبعية التطور لبنية المجتمع الاقتصادية ؟ واذا كانت تضعفه فالى أي مدى ؟

قارنوا **الانياذة بالأوذيسة** او المأساة الكلاسكية الفرنسية بالمأساة الكلاسكية الاغريقية قارنوا المأساة الروسية في القرن الثامن عشر بالمأساة الفرنسية ماذا تجدون ان **الانياذة** مجرد محاكاة **للاوذيسة** ، والمأساة الكلاسكية الفرنسية مجرد محاكاة للمأساة الكلاسكية عند الاغريق والمأساة الروسية في القرن الثامن عشر عمل قامت به ايد غير حاذقة على صورة المأساة الفرنسية ومثالها ان ثمة محاكاة في الحالات الثلاث لكن **المقلد** يبعد عن نموذجه بعد المجتمع الذي هو احد افراده عن المجتمع الذي عاش **نموذجه** فيه ولاحظوا اننا لانتحدث عن الاتقان الاكثر او الاقل كمالا للشكل بل على ما يصنع **روح** العمل بالذات من يشبه آخيل راسين ؟ ايسبه اغريقيا خرج لتوه من الهمجية أم مركيزا à talon rouge (ذا حذاء احمر من القرن السابع عشر ؟ واننا لنعرف ان شخصيات **الانياذة** رومان من عهد اوغسطوس واما شخصيات مايسمى المسرحيات الروسية للقرن الثامن عشر فمن المبالغ فيه الادعاء بأنهم يعطوننا صورة عن الشعب الروسي في ذلك الحين ؟ لكن خراقتهم بالذات تشهد على حالة مجتمع **لم يبلغ سن الرشد بعد** (٣٥)

وهذا مثال آخر مما لا ريب فيه ان لوك هو استاذ الغالبية العظمى من الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر وكان هيلفيتيوس يسميه أعظم الميتافيزيائيين في جميع العصور وسائر البلدان ومع ذلك فان بين لوك وتلامذته الفرنسيين نفس المسافة التي تفصل المجتمع الانكليزي ابان الثورة المجيدة » glorious revolution عن المجتمع الفرنسي قبل ثلاثين عاما من « العصيان الكبير great rebellion للشعب الفرنسي

ومثال ثالث أيضا ان الاشتراكيين الحقيقيين الالمان للاعوام ١٨٤٠ — ١٨٥٠ قد استوردوا افكارهم من فرنسا مباشرة ومع ذلك فلا بد لنا من الاعتراف بأن هذه الافكار حملت بعدما اجتازت الحدود طابع المجتمع الذي كان مقدرا لها الانتشار فيه

وهكذا فان تأثير ادب البلد الواحد في ادب البلد الآخر يتناسب طردا مع تشابه العلاقات الاجتماعية في هذين البلدين ، وهو منعدم بصورة مطلقة حيث لا وجود لذلك التشابه ومثال ذلك ان الآداب الاوروبية لم تمارس حتى الآن أي تأثير البتة في الزنوج الافريقيين **وان هذا التأثير لذو منحى وحيد حين لايستطيع الشعب الواحد ، من جراء تخلفه . ان يعطي شيئا للشعب الآخر ، سواء من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون** ومثال ذلك ان الادب الفرنسي في القرن الثامن عشر اثر في الادب الروسي دون ان يتأثر به البتة **واخيرا فان هذا التأثير متبادل**

حين يستطيع كل من الشعبين القائمين بالمبادلة ان يستعير شيئا من الشعب الآخر بنتيجة تشابه الحالة الاجتماعية ، وبالتالي تشابه التطور الفكري ومثال ذلك ان الادب الفرنسي أثر في الادب الروسي وتأثر به بدوره

لقد كان زمن اغتبطت الارستقراطية الانكليزية فيه حتى درجة كبيرة بالأدب شبه الكلاسيكي الفرنسي لكن المقلدين الانكليز لم يتوصلوا قط الى مساواة نماذجهم الفرنسيين وان السبب في ذلك هو ان الارستقراطيين الانكليز ما كانوا يستطيعون ، بالرغم من سائر جهودهم ان ينقلوا الى انكلترا العلاقات الاجتماعية التي ازدهر فيها شبه الادب الكلاسيكي الفرنسي

ولقد كان الفلاسفة الفرنسيون معجبين ايما اعجاب بلوك ، لكنهم مضوا الى ابعد كثيرا من استاذهم وان السبب في ذلك هو ان الطبقة التي كانوا يمثلونها في فرنسا مضت ابعد جدا في نضالها ضد النظام القديم من الطبقة التي كان لوك يترجم عن طموحاتها في المجتمع الانكليزي

وحين يكون لدينا ـ كما هي الحالة في أوروبا الحديثة ـ نظام كامل من المجتمعات التي يمارس كل منها تأثيرا قويا جدا في المجتمعات الاخرى ، **فان تطور الافكار** داخل كل من هذه المجتمعات يصبح بالغ التعقيد ، مثله كمثل **تطور الاقتصاد** تحت تأثير المبادلات الدولية

وانه ليبدو اذن ان لدينا ادبا وحيدا مشتركا بين الجنس البشري المتحضر بأسره لكنه كما ينقسم النوع في علم الحيوان الى اجناس فان هذا الادب العالمي ينقسم ايضا الى الاداب الوطنية

(ان كل تيار ادبي وكل فكرة فلسفية يتخذان سماتهما المميزة الخاصة ، بل معنى جديدا كل الجدة أحيانا في كل بلد متحضر *)

حين جاء هيوم الى فرنسا استقبله الفلاسفة على اعتباره تلميذا لهم لكن هذا التلميذ الذي لا جدال فيه اخذ يتحدث ذات يوم أثناء عشاء عند دولباخ ، عن « الديانة الطبيعية قائلا واما الملحدون فانا لا اعترف بوجودهم اذ لم التق بواحد منهم قط ورد عليه كاتب **نظام الطبيعة** قائلا « لم يسعفك الحظ حتى الآن لكن اليك سبعة عشر ملحدا جالسين حول هذه المائدة » وان هيوم نفسه قد مارس تأثيرا حاسما في كانط الذي اخرجه من **سباته العقائدي** وكانط نفسه هو الذي وضع هذه الصيغة ، لكن فلسفته تختلف اختلافا كبيرا عن فلسفة هيوم. ان الراسمال نفسه من الافكار قد قاد الماديين الفرنسيين الى الالحاد المناضل ، وهيوم الى اللا مبالاة الدينية ، وكانط الى الدين العملي » لأن المسألة الدينية لم تكن تلعب في انكلترا في ذلك الحين نفس الدور الذي تلعبه في فرنسا ، ولا في فرنسا نفس الدور الذي كانت تلعبه في المانيا وان السبب في هذا الفارق هو ان

---

* [هذه الثغرة لاتوجد في الطبعة الروسية الاولى]

القوى الاجماعية في اي من هذه البلدان لم ترتبط فيما بينها بالعلاقات نفسها ان العناصر الاجتماعية المتماثلة في **طبيعتها** لكن المختلفة في درجة تطورهـا قـد كانت تختلط بصورة متفاوتة في مختلف البلدان الاوروبية مؤدية هكذا في كـل مـن هذه البلدان الى قيام حالة للفكر والاخلاق اصيلة كل الاصالة عبرت عنها الاداب والفلسفة والفنون الخ في كل امة على حدة ولقد ترتب على ذلك ان المسألة الواحدة اهاجت الفرنسيين حتى درجة الهوى وتركت الانكليز باردين بينما كان الالماني التقدمي ينظر باحترام الى الفكرة التي كان التقدمي الفرنسي يرفضها بعنف وإلام تدين الفلسفة الالمانية بنجاحاتها العملاقة ؟ يجيب هيغل للواقع الالمـاني ؛ فالفرنسيون لايملكون فراغا للاشتغال بالفلسفة اذ تدفعهم الحياة الى الميـدان العملي Zum praktischen بينمـا الواقـع الالمـاني اكثر عقـلانيـة ، بحيث يستطيـع الالمـان ان يعقلنوا نظرياتهم بسلام وهدوء beim Theoretischen stehen bleiben وفـي الحقيقـة ان هـذه العـقلانيـة المزعـومة للواقع الالماني قد كان مردها الى بؤس الحياة الاجتماعية والسياسية في المانيا ، هذا البؤس الذي لم يترك للالمان المتنفعين في ذلك الحين خيارا آخر سوى ان يخدموا كموظفين واقعا منفرا (ان يتكيفوا مع العملي أو يبحثوا عن العزاء في **النظرية** ، وان يركزوا في هذا المجال كل قوة هواهم وكل طاقـة فكرهم لكن لو ان البلدان الاكثر تقدما الماضية ابعد في ميدان العملي لم تشحذ الفكر النظري عنـد الالمان لو انها لم توقظ هؤلاء الالمان من سباتهم العقائدي فان هذه الصفة السالبة التي هي بؤس الحياة الاجتماعية والسياسية ما كانت لتؤدي قط الى مثل هذه النتيجة الايجابية العملاقة التي هي ازدهار الفلسفة الالمانية .

ننطق غوته مفيستو فيلس بمايلي Vernunft wird Unsinn, Wohlthat plage*
وان المـرء ليستطيـع ان يجـازف بمثـل هـــذه المفارقـــة بخصوص تاريخ الفلسفة الالمانية لقد انجب الهراء العقل والبؤس تبين انه خير

لكنني احسب اننا نستطيع ان ننهي هـذا القسم من عرضنـا **فلنلخص** ما سبق قوله

يتظاهر التفاعل في حياة الشعوب على الصعيدين الدولي والداخلي على حـد سواء وهو طبيعي تماما ومحتوم بصورة مطلقة، ومع ذلك لايفسر شيئا بحد ذاته فلا بد للمرء في سبيل فهمه ان يوضح خصائص القوى التي تمارسـه وهـــذه الخصائص لايمكن ان تجد تفسيرها الاخير في حقيقة التفاعل مهما تكن التبدلات التي تتعرض لها بفعله وفي الحالة التي تهمنا هنا فان صفات القوى المتفاعلة ، خصائص الاجهزة الاجتماعية التي تؤثر في بعضها بعضا ، تفسر في آخر تحليل بالسبب الذي نعرفه من قبل **البنية الاقتصادية لهذه الاجهزة التي تتحدد بحالة قواهـا المنتجـة .**

---

* [لقد اصبح العقل جنونا والحق باطلا]

وانا لنأمل ان تكون فلسفة التاريخ التي نعرضها قد اتخذت الآن شكلا اكثر حسية حتى درجة ما بيد انها لا تبرح مجردة ، لا تبرح بعيدة عن الحياة الواقعية ولا بد لنا بعد ان تقوم بخطوة اخرى كي نقترب منها

لقد تحدثنا بادىء الامر عن المجتمع ومن ثم مضينا الى التفاعل بين المجتمعات ولكن المجتمعات ليست في حال من الاحوال متجانسة في تركيبها فنحن عرفنا من قبل ان انحلال الشيوعية البدائية ادى الى التفاوت الى ظهور الطبقات التي تختلف مصالحها وفي الغالب تتعارض كليا وانا لنعرف من قبل ان هذه الطبقات تخوض فيما بينها صراعا متصلا على وجه التقريب خفيا حينا ومكشوفا حينا ، مزمنا حينا وحاداً حينا وان هذا النضال ليمارس تأثيراً كبيرا رئيسيا في تطور الافكار ، وانا لنستطيع ان نقول دون مبالغة انه من المحال فهم هذا التطور **اذا لم يؤخذ صراع الطبقات بعين الاعتبار .**

سأل برونوتيير

أتريدون ان تعرفوا السبب الرئيسي ، اذا جاز لي التعبير في مأساة فولتير؟ ابحثوا عنه قبل كل شيء في فردية فولتير وبصورة خاصة في الضرورة التي اثقلت عليه ، وهو يتبع راسين وكينولت كي يصنع مع ذلك شيئا مختلفا عما صنعاه واما المسرحية الرومانسية ، مسرحية هوغو ودوماس ، فأجرؤ على القول ان تعريفها متضمن برمته في تعريف مأساة فولتير ان الرومانسية في المسرح لم تشأ ان تفعل هذا الشيء او ذاك بل ارادت ان تفعل عكس الكلاسيكية وفي الادب كما في الفن. بعد تأثير الفرد فان التأثير الاهم هو تأثير الاعمال في الاعمال فأما ان نسعى الى منافسة الذين سبقونا في ميدانهم الخاص ، وبذلك تستمر بعض الاساليب وتتأسس المدارس وتتشكل الاعراف ؛ واما ان نحاول ان نفعل غير مافعلوه وبذلك نقف التطور في معارضة العرف وتتجدد المدارس وتتغير الاساليب*

واذا تركنا جانبا في الوقت الحاضر مسألة دور الفرد فاننا سنلاحظ انه حان الاوان منذ زمن طويل كي نفكر في تأثير الاعمال في الاعمال ان التطور يسلك بالفعل الطريق التي بينها برونوتيير في جميع الايديولوجيات طرا **فاما** ان يسلك الايديولوجيون في عصر معين الطريق التي سار عليها الذين سبقوهم ،مطورين **افكارهم،** ومطبقين **طرائقهم** ، وغير معطين انفسهم الحق الا في منافستهم » **واما** ان يثوروا ضد افكار الماضي وطرائقه ، **فيدخلون في تنافس معها** وكان سان سيمون يقول ان العصور **النقدية** تعقب العصور **العضوية**. وان تلك العصور النقدية لتستحق الاهتمام بصورة خاصة

خذوا اية مسألة كانت ، مسألة النقد على سبيل المثال لقد كان انصار التجارة الحرة يعتبرون النقد الثروة par excellence [المثلى] وكانوا ينسبون الى النقد

---

* المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣

اهمية مبالغا فيها استثنائية على وجه التقريب وان اولئك الذين ثاروا ضد انصار التجارة الحرة ودخلوا في **تناقض** » **معهم لم يصححوا هذا التطرف فحسب،** بل سقطوا هم انفسهم ــ على الاقل اكثرهم حماسة ــ **في التطرف المقابل تماما** ليس النقد بالنسبة اليهم **الا رمزا لا يملك بحد ذاته اية قيمة على الاطلاق** وكان ذلك موقف هيوم بصورة خاصة واذا كان في مقدورنا **ان نفسر نظرية المذهب التجاري** بالتطور الضعيف للانتاج والتداول التجاريين في عصره ، **فانه** سيكون من المستغرب ان نفسر آراء معارضيهم بمجرد تقرير **ان الانتاج والتداول** التجاريين تطورا حتى درجة بعيدة ذلك ان هذا التطور لم يحول البتة النقد الى رمز مجرد عن اية قيمة صحيحة **فما هو السبب في تطرف هيوم اذن ؟** السبب فيه فعل نضالي « **تناقض** » هيوم مع انصار المذهب التجاري **لقد اراد ان** « يفعل عكس انصار المذهب التجاري ، بالضبط مثلما **ارادت الرومانسية ان** « تفعل عكس الكلاسيكية.
ولهذا نستطيع ان نقول هنا ما قاله برونوتيير عن المسرح الرومانسي الا وهو ان **نظرية النقد عند هيوم متضمنة كليا في نظرية انصار المذهب التجاري التي** هي **نقيضتها** .

ومثال آخر لقد خاض **فلاسفة القرن الثامن عشر نضالا حادا وحاسما ضد** جميع اشكال الصوفية ، **بينما كان الطوباويون الفرنسيون اكثر او اقل تشربا** بالشعور الديني ما الذي كان وراء هذه العودة الى الصوفية ؟ ايجب ان نقبل بان الناس **من طراز مؤلف المسيحية الجديدة** كانوا يملكون « انوارا » (Lumières) اقل من الموسوعيين ؟ كلا ، لم تكن انوارهم » **اقل ، كما ان مفاهيمهم** ترتبط بصورة وثيقة على العموم بمفاهيم الموسوعيين ؛ **انهم ينحدرون منهم في خط مستقيم** لكنهم دخلوا في تناقض » **معهم حول بعض النقاط ــ على وجه الدقة حول** قضية تنظيم المجتمع ــ وحاولوا ان يصنعوا العكس **من الموسوعيين** كان موقفهم حيال الدين نقيض موقف الفلاسفة بكل بساطة لقد كانت **نظرتهم** الى الدين مضمنة بصورة مسبقة في نظرة هؤلاء الموسوعيين

لنأخذ اخيرا تاريخ الفلسفة **ان المادية هي التي تغلبت في فرنسا في** القسم الثاني من القرن الثامن عشر،وقد **انضوى تحت لوائها** القسم المتطرف من الطبقة الثالثة (Tiers etat) وفي انكلترا في القرن السابع عشر كانت المادية هوى المدافعين عن **النظام القديم** والارستقراطيين وانصار الحكم **المطلق** وان السبب لواضح هنا ايضا فاولئك الذين كانت الارستقراطية الانكليزية « في تناقض » معهم في عهد عودة الملكية كانوا مؤمنين متطرفين ، ولم نكن بد لخصومهم ، **وان كانوا رجعيين** جدا ، ان يمضوا **الى المادية** كي « يصنعوا العكس منهم **وكانت الامور** على النقيض من ذلك تماما في فرنسا في القرن الثامن عشر ، حيث وقف حماة النظام **القديم** الى جانب الدين فكان الثوريون المتطرفون هم الذين انتهوا **الى المادية** ان تاريخ الافكار مليء بأمثلة مماثلة تقدم جميعا الاثبات نفسه **كي نفهم « حالة الافكار » في عصر حرج معين ، وكي**

نفهم السبب في غلبة هذه العقيدة من دون تلك في سياق مثل هذا العصر ، فيجب قبل كل شيء ان نطلع على «حالة الفكر» في العصر السابق ، وان نعرف المذاهب والتيارات التي كانت سائدة اذن ولن نتمكن دون ذلك ان نفهم قط الحالة الذهنية للعصر المذكور ـ مهما كانت معرفتنا ضليعة باقتصاده

لكن من واجبنا الا نفهم حتى هـذا الامـر بصورة تجريدية كمـا هي عادة الانتليجنتريا الروسية في فهم الامور جميعا ان الأيديولوجيين في عصر معين لا يخوضون قط النضال ضد سابقيهم Sur toute la ligne [على طول الخط] في جميع قضايا المعرفة الانسانية والعلاقات الاجتماعية لقد كان الطوباويون الفرنسيون في القرن التاسع‌عشر متفقين كلياً مع الموسوعيين حول عددمن المفاهيم الانتروبولوجية؛ وان الارستقراطيين في عهـد عودة الملكية الانكليزية يتفقون كل الاتفاق مع المتطهرين ، الذين يبغضونهم اشد البغض ، في عدد من المسائل ، مثلا القانون المدني ، ان النفسية ارض تنقسم الى مقاطعات والمقاطعات الى محافظـات والمحافظات الى اقضيـة ونواح وكل ناحيـة تشكل تجمعا للافراد ، يعني المسائل الفردية وحين يقـوم تناقض حين ينشب صراع ، فان حمّاه لا تشمل على العموم الا بعض المقاطعات ـ هذا اذا لم يكن بعض الاقضية فقط ـ بينما لا تتأثر المناطق المجاورة الا بانعكاسه وبتناول الهجوم بادىء ذي بدء المقاطعة التي كانت تملك السيادة في المرحلة السابقـة ولا تنتشر كوارث الحرب الا بصورة تدريجيـة الى المقاطعات المجاورة والحلفـاء الاخلص للمقاطعة التي تتعرض للهجوم ولذا يجب ان نؤكد انه من الضرورة بمكان ، عند توضيح طابع عصر حرج معين ، ان نعـرف لا السمات العامة لنفسية المرحلـة العضوية السابقة فحسب ، بل الخصائص الفردية لهذه النفسية ايضا ان نعرف ان السيادة كانت تخص الدين خلال هذه المرحلة التاريخية ، وكانت تخص السياسة خلال مرحلة تاريخية اخرى ، وهلم جرا وان هذا الظرف لينعكس بصورة لا مفر منها في طابع العصور الحرجة التي اما ان يستمر كل منها وفقا للظروف ، في الاعتراف صوريا بالسيادة القائمة ، مدخلا مضمونا جديـدا ، معارضا ، الى الافكار السائـدة (ومثال ذلك الثورة الانكليزية الاولى) ، وإما ان ينكرها كليا بحيث تنتقل السيادة الى مقاطعات جديدة من الفكر ومثال ذلك الادب الفرنسي في عصر الانوار) واذا نحن لم نغب عن انظارنا ان هذه النزاعات حول السيادة التي تقوم بـين بعض المقاطعات النفسية تنتشر الى المقاطعات المجاورة ، وتنتشر بشدة متفاوتة في كل حالـة ، وفي اتجاهات مختلفة ، فاننا نستطيع ان نفهم اذن حتى اي مدى يستحيل علينا ، هنا كما في كل مكان آخر ان نقتصر على العموميات

ولعل خصومنا يردون علينا قائلين قد تكون الامور كذلك لكننا لا نرى ما شأن الصراع الطبقي هنا ، وانه ليتراءى لنا انك بدات بشرب الانخاب لصحتها وانتهيت بشرب نخب لراحتها الابدية ، اذ انك تعترف بنفسك الآن بأن تحركات الفكر الانساني

خاضعة لبعض القوانين الخاصة التي **لا علاقة لها مطلقا بقوانين الاقتصاد**.كما لا علاقة **لها** بتطور القوى المنتجة الذي رددته **على مسامعنا** حتى أضجرتنا به
ونسرع الى الاجابة فنقول

اما ان ثمة قوانين خاصة بتطور الفكر الانساني او بصورة ادق **بتسلسل المفاهيم والتصورات** ، فليس هناك مادي «" اقتصادي " » واحد انكر ذلك **في** حدود **معر**فتنا مثال ذلك ان ايا من هؤلاء **الماديين** لم يرد قوانين المنطق الى قوانين تداول البضائع وعلى ذلك **فليس هناك مادي واحد من هذا الصنف** ارتأى انه **في** الامكان **البحث** في قوانين الفكرعن السبب البدئي،عن **المحـرك الاول** لتطور الانسانية الذهني. **بل** ان هـذا على وجـه الدقة هو مايميز « **الماديين الاقتصاديين في مصلحتهم** مـن **المثاليين** وبصورة خاصة من الانتقائيين

فحالما تزود المعدة بقدر من الطعام تأخذ في عملها وفقا للقوانين العامة للهضـم المعدي لكن أيمكن لهذه القوانين ان **تفسر السبب في ان الاطعمة المغـذية والشهيـة** تأخذ طريقها **كل يوم الى معدتك** ، **بينما هي لا تزور معدتي الا في** الندرى ؟ اتفسر هذه القوانين السبب في ان البعض يأكلون **كثيرا والبعض** يتضورون جوعا ؟ يبدو انه يجب علينا ان نبحث عن تفسير ذلك **في** مجال آخر ، **في فعل** قوانين اخرى وينطبق الامر نفسه على الفكر الانساني فاذا ما **وجد هذا الفكر في** وضـع معين ، **واذا ما** تلقى من البيئـة المحيطية **انطباعات معينة** ، فانـه يحبكها **وفق قوانين** معينة (**نظرا لان** تنوع الانطباعات المتلقاة **ينوّع هنا ايضا النتائج حتى الدرجة القصـوى**) **لكن ما الذي** يضع الفكر الانساني **في** مثل هذا الوضع ؟ **ما الذي** يحدد تدفق الانطباعات الجديدة وطابعها ؟ هذه هي المسألة التي **لا** تمكن **الاجابة** عنها بأي من قوانين الفكر

ولنتابع لنفرض ان كـرة **مطاطية سقطت من اعلى** برج مرتفع ان حركتها تجري وفق **قانون الميكانيك** المعروف عموما والبسيط جدا لكن هذه هي تقع عـلى مستوى مائل فتتعدل حركتها وفقا **لقانون ميكانيكي** آخر ، هو الاخر معروف عموما وبسيط **جدا** واننا **لنحصل** بذلك على حركة **في** خط منكسر نستطيع ويجب ان نقول انها تدين بمنشئها الى **الفعل المشترك** لهذين **القانونين** ولكن من اين جاء المستـوى **المائل** الذي سقطت الكرة عليه ؟ **هذا** مالايفسره القانون الاول ولا القانون الثاني ولا **فعلهما المشترك** وينطبق الامر نفسه على الفكر الانساني من اين جاءت الظروف **التي جعلت** حركته خاضعة **للفعل المشترك** لهذه القوانين او تلك ؟ هـذا مالا تفسره القوانين كلا على حدة ولا فعلها **المشترك**

يجب ان نبحث عن الظروف **التي تحدد** حركة الفكر حيث بحث فلاسفة الانوار عنهـا بيد اننا لا نتوقف **في** هذه الايام عند **تلك** الحدود التي لم يستطيعوا اجتيازها، فنحن لا **نكتفي** بالقـول ان الانسان ، مـع **كل** افكاره ومشاعره هـو نتـاج البيئة **الاجتماعية** اننا ننصرف الى **تفهم تكوين هذه البيئة** ، فنقول ان خصائصها نتيجـة **لاسباب** محددة خارج الانسان وهي حتى **الوقت** الحاضر لا تتوقف على ارادته . ان

التبدلات المتعددة الاشكال التي تتناول **العلاقات المتبادلة الفعلية بين البشر** تؤدي بالضرورة الى تبدلات في « حالة الفكر » ، **في العلاقات بين الافكار والمشاعر والمعتقدات**.
ان الافكار والمشاعر والمعتقدات تختلط وفقا لقوانينها الخاصة ، بيد ان هذه القوانين تفعل تحت تأثير ظروف خارجية لا علاقة لها بهذه القوانين وحيث لا يرى برونوتيير الا فعل الاعمال في الاعمال نرى نحن بالاضافة الى ذلك فعلا اعمق للجماعات الاجتماعية للشرائح الاجتماعية ، للطبقات ؛ وحيث يقول بكل بساطة ان تناقضا برز وان الناس ارادوا ان يفعلوا عكس ماكان يفعله السابقون لهم نضيف نحن لقد ارادوا ذلك لان تناقضا جديدا ظهر في **علاقاتهم الفعلية** ، لان جماعة اجتماعية جديدة تحركت وهي لم تعد قادرة على الاستمرار في الحياة مثلما كانت تحيا من قبل

وبينما لا يعرف برونوتيير الا ان الرومانسيين ارادوا ان يناقضوا الكلاسيكيين، يحاول جورج براندس ان يفسر ميلهم الى «التناقض» بوضع الطبقة الاجتماعية التي ينتسبون اليها ولنذكر على سبيل المثال مايقوله عن اسباب رومانسية السببية الفرنسية في عهد عودة الملكية وعهد لويس فيليب

وحين يقول ماركس انه«**كي تكون طبقة طبقة التحرر المثلى يجب على العكس ان تكون طبقة اخرى طبقة الاستعباد المكشوفة*** » ، فانه يصوغ كذلك قانونا خاصا ـ وبالغ الاهمية ـ لتطور الفكر الاجتماعي بيد ان هذا القانون لا يفعل ولا يمكن ان يفعل الا في المجتمعات المنقسمة الى طبقات ، انه لا يفعل ولا يستطيع ان يفعل في المجتمعات البدائية . حيث لا طبقات ولا صراع طبقيا

لنفكر في فعل هذا القانون حين تتخذ فئة اجتماعية مظهر الفئة الاستعبادية في نظر بقية السكان فان الافكار السائدة عند هذه الفئة تبدو بالضرورة في نظر السكان صالحة للمستعبدين وحدهم ، فاذا الوجدان الاجتماعي يدخل في تناقض » معها وينجذب مع الافكار **المعارضة**. ولكن مثل هذا النضال كما قلنا من قبل لايجري قط على طول الخط بل تظل هناك على الدوام جزيرة من الافكار التي يعترف بها الثوريون وحماة النظام على حد سواء ان الهجوم الرئيسي يوجه ضد الافكار التي تخدم للتعبير عن المفاهيم الاشد ضررا للنظام الشائخ في حينه وان الثوريين ليسعرون برغبة لا تقاوم في « **مناقضة** » السابقين لهم بخصوص **هذه** المظاهر بالضبط من الايديولوجية واما بخصوص الافكار الاخرى ، فعلى الرغم من ان جذورها تغوص عميقا في علاقات الماضي الاجتماعية ، فانهم يظلون في الاغلب لامبالين على الاطلاق حيالها بل يستمرون احيانا في التمسك بها بدافع العرف وحده هكذا على سبيل المثال لم يتعرض الماديون الفرنسيون عمليا **للادب** التقليدي على الاطلاق ، بينما كانوا يشنون القتال ضد الافكار الفلسفية والسياسية للنظام القديم يعني ضد

* [مقدمة مشاركة في نقد فلسفة الحق عند هيغل] .

الاكليروس والارستقراطية الملكية وصحيح ان علم الجمال عند ديدرو قد كان التعبير عن العلاقات الاجتماعية الجديدة لكن الصراع في هذا الميدان كان محدودا جدا لان القوى الرئيسية تمركزت في موضع آخر* ان راية الثورة لم ترفع الا في وقت لاحق ومن قبل اناس كان من الواجب في الظاهر بالرغم من تعلقهم السديد بالنظام الذي اطاحت الثورة به ان يتمسكوا بالآراء الفردية التي تكونت في العصر الذهبي لهذا النظام .. لكن مبدأ « التناقض » يفسر هنا هذه الغرابة الظاهرية. كيف تريدون من شاتوبريان ان يتمسك بجمالية الماضي طالما ان فولتير المشؤوم والبغيض ، قد كان احد ابطالها ؟

يقول هيغل **Der Widerspruch ist das Fortleitenden** ان تاريخ الافكار يثبت مرة اخرى فيما يبدو ان « الميتافيزيائي » العجوز لم يخطىء وانه يؤكد ايضا في الظاهر ، تحول التبدلات الكمية الى تبدلات نوعية لكننا نرجو من القارىء الا ينزعج مطلقا وان يصغي الينا حتى النهاية

لقد قلنا انه اذا ما اعطيت قوى المجتمع الانتاجية مرة فان بنيته وبنتيجة ذلك نفسيته تعطيان ايضا ولقد نسب الينا على هذا الاساس الفكرة القائلة انه يمكن ان نستخلص بكل دقة من حالة المجتمع الاقتصادية حالة افكاره لكن الامر ليس كذلك لان ايديولوجية عصر معين ترتبط على الدوام باوثق رباط ـ سلبيا او ايجابيا ـ بايديولوجية العصر السابق فنحن لا نستطيع ان نفهم حالة الفكر في عصر معين الا بالاستناد الى حالة الفكر في المرحلة السابقة ومن المؤكد انه ليس ثمة طبقة ترضى بأن تنساق مع افكار تناقض طموحاتها فكل طبقة تكيف على خير وجه وان يكن بصورة غير شعورية مثلها الاعلى مع حاجاتها الاقتصادية بيد ان هذا التكيف يمكن ان يتم بأساليب مختلفة اما لماذا يتم بهذه الطريقة من دون تلك فهذا ما لا يفسره وضع الطبقة المعنية مأخوذا على حدة بل تفسره جميع خصائص العلاقات القائمة بين هذه الطبقة او الطبقات المضادة لها ذلك ان التناقض لا يصبح مع ظهور الطبقات **سببا محركا** فحسب ، بل سببا **مكونا** ايضا***

---

* من المعروف ان الحركة الاوروبية جرت في المانيا بقدر اعظم جدا من العنف ، لكن النضال السياسي في هذا البلد لم يكن يحتكر اهتمام المجددين

** [التناقض يشق الطريق قدما »]

*** رب من يسأل عن علاقة النضال الطبقي بتاريخ هذا الفن فن العمارة على سبيل المثال ومع ذلك فان هذا الفن مرتبط بصورة وثيقة بذلك النضال انظر ادوارد كوروايه L'Architecture Gothique [فن العمارة القوطية] وبصورة خاصة الجزء الرابع « فن العمارة المدنية » .

ولكن ما هو اذن دور الفرد في تاريـخ الايديولوجية ؟ ان برونوتيير ينسب الى الفرد اهمية عظيمة ، **مستقلة** عن بيئته ، كما يؤكد غوبو ان الانسان العبقري يخلـق شيئا جديدا دائما*

اما نحن فنقول ان الانسان العبقري ، في ميدان الافكار الاجتماعية ، يسبـق معاصريه بمعنى انه يدرك قبلهم معنى العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تتكـون وهكذا فاننا لا نستطيع ان نتحدث هنا عن استقلال الانسان العبقـري بالنسبة الى البيئة ان الانسان العبقري يكتشف في ميدان العلوم الطبيعية قوانين لا يرتبط فعلها طبعا بالعلاقات الاجتماعية ؛ ومع ذلك فان البيئة الاجتماعية تلعب دورها في تاريـخ كل اكتشاف عظيم اولا بتهيئة حصيلة المعارف التي لن يتمكن اي عبقري ان يفعل شيئا بدونها ، وثانيا بتوجيه فكر هذا العبقري في هذا المنحى او ذاك**

وفي ميدان الفن يقدم العبقري التعبير الاكمل عن الاتجاهات الجمالية السائدة في مجتمع معين او طبقة معينة*** واخيرا فان البيئة الاجتماعية تمارس تأثيرها في جميع هذه المجالات الثلاثية بتوفير قدر اكبر او اقل من امكانيات النمو للعباقـرة الفـرادى

---

* « Il introduit dans le monde des idées et des sentiments des types nouvaux »

L'Art du point de vue Sociologique [« انه يدخل الى عالم الافكار والمشاعر انماطا جديدة »] :

[**الفن من وجهة النظر السوسيولوجية**] ، باريس ١٨٥٩ ، ص ٣١

** وعلى اي حال ، فان التمييز بين هذين النمطين من التأثير صوري خالص ان حصيلة المعارف تتشكل لان الحاجات الاجتماعية دفعت البشر الى تكوينها ووجهت فكرهم في الوجهة الصحيحة

*** ان مؤلف **العلاقات الجمالية بين الفرد والواقع** (تشيرنيشيفسكي) كان يعرف جيدا ارتباط الاذواق والاحكام الجمالية لطبقة معينة بوضعها الاقتصادي ، وكان يقول ان الجميل هو الحياة ويفسر هذه الفكرة بالاعتبارات التالية

عند عامة البشر تعني الحياة الجميلة الحياة كما يجب ان تكون ، ان يأكلوا حتى شبعهم وان يسكنوا منزلا جميلا ، وان يناموا ملء جفونهم ، وفيما عدا ذلك ، فان فكرة الحياة عند الفلاحين تشمل دائما فكرة العمل ؛ **فالحياة مستحيلة دون عمل ، والحقيقة** انها ستكون مضجرة بدونه ان الفلاح الشاب والفلاحة الشابة **يكتسبان طراوة فائقة** ووجنات متوردة ، وهو الشرط الاولي للجمال في رأي عامة الناس ، لانهما يأكلان حتى شبعهما ، ولانهما يشتغلان جيدا دون ان يكون عملهما مرهقا ان الفتاة الريفية التي تعمل كثيرا ، وبالتالي تملك بنية متينة ، سوف تكون قوية الجسم اذا كانت تأكل كفايتها — وهي صفة اساسية للجمال الفلاحي ايضا ان المرأة الجميلة للعالم « الاثيري » تبدو في نظر الفلاح عجفاء » حقا ، بل تترك فيه احساسا بالنفور ، نظرا لاعتياده على اعتبار «النحول»

ومن الطبيعي اننا لن نتمكن قط من تفسير كل **فردية** الانسان العبقري بتأثير بيئته ، لكن هذا لا يبرهن بحد ذاته على اي شيء على الاطلاق

يستطيع علم القذائف ان يفسر محرك قذيفة ، وهو قادر على التنبؤ بهذا المحرك ، لكنه لن يكون قادرا قط على اخبارنا بعدد الشظايا التي ستنجم عن انفجار هذه القذيفة ولا اين ستطير كل من هذه الشظايا على وجه الدقة ولكن هذا لا يقلل مطلقا من الثقة التي نستطيع ان نضعها في نتائج هذا العلم اننا لانحتاج لاتخاذ وجهة نظر مثالية ـ او انتقائية ـ عن علم القذائف ، بل ان التفسيرات الميكانيكية تكفينا ، وان تركتنا ـ وهذا مالاينكره احد ـ في الغموض بشأن المصير الفردي لكل شظية من شظايا القذيفة وحجمها وشكلها

نتيجة للمرض او الحظ العاثر ولكن العمل لا يتيح للمرء ان يسمن فاذا كانت الفتاة الفلاحة سمينة ، فان ذلك عرض للمرض ، دلالة على المزاج « اللنفاوي » والناس يعتبرون السمنة عيبا ان الفاتنة القوية لا يمكن ان تكون لها يدان صغيرتان وقدمان صغيرتان ، لانها تعمل كثيرا ، واغانينا لا تأتي على ذكر هذه الصفات الجمالية وباختصار ، فان وصف الفتاة الجميلة في اغانينا الشعبية لا يتضمن صفة واحدة للجمال الا وتعبر عن الصحة المتينة والبنية المتوازنة ، وهما على الدوام نتيجة لحياة الكفاية والعمل الجدي المتصل الذي لا يبلغ حد الارهاق والامر يختلف بالنسبة الى الفتاة الجميلة في المجتمع فقد عاش اجدادها لاجيال متعددة دون ان يقوموا بأي عمل جسدي ، فالدم لا يتدفق اذن الى الاطراف من جراء حياة الكسل هذه ، ومع كل جيل جديد تزداد عضلات الذراعين والرجلين ضعفا ، والعظام رقة ، وان النتيجة الحتمية لذلك كله هي الايدي والاقدام الصغيرة ، دلالة الحياة الوحيدة التي تبدو لائقة في نظر الطبقات العليا في المجتمع ـ الحياة دون العمل الجسدي واذا كان لاحدى سيدات المجتمع يدان كبيرتان وقدمان كبيرتان ، فاما ان يكون ذلك عيبا في البنية ، واما دلالة على أن اليسر مستجد في عائلتها وصحيح ان الصحة الجيدة لا يمكن قط ان تفقد قيمتها في نظر الانسان ، لان الصحة الرديئة عقبة حتى كان المرء يعيش الكفاية والترف ولذا فان الوجنات المتوردة وطراوة البشرة تحتفظ بجاذبيتها عند الطبقات الراقية ، لكن الشحوب ، والنحول ، والوهن ، والهزال ، تتخذ كذلك في انظارهم فضيلة الجمال بقدر ما تبدو نتيجة لحياة الكسل والترف

الشحوب والوهن والهزال تتخذ معنى آخر ايضا في نظر هذه الطبقات فاذا كان الفلاح يطلب الراحة والطمأنينة فان افراد المجتمع الراقي الذين يجهلون الحاجة والعمل الجسدي ، لكن كثيرا مايضجرون نتيجة الكسل والافتقار الى الهموم المادية ، يفتشون عن « الاحاسيس القوية والانفعالات والاهواء التي تضفي اللون والتنوع والجاذبية على حياة اجتماعية تصبح مضجرة وباهتة بدونها ولكن الاحاسيس القوية والاهواء اللاهبة تبلي المرء على عجل ، فكيف يمكن للمرء اذن الا يجد الفتنة في هزال المرأة الجميلة وشحوبها طالما انهما دلالة على انها عاشت كثيرا [ن.ج. تشيرنيشيفسكي **بحوث فلسفية مختارة** ، موسكو ١٩٥٣ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨]

بالسخرية القدر الغريبة ان مبدأ التناقض بالذات ، هـذا الذي يهاجمه اصحابنا الذاتيون بلا هوادة ، ويتهمونه بأنه اختراع باطل « للميتافيزيائي هيغل ، يقربنا فيما يبدو من nos chers amis les ennemis [اصدقائنا الاعزاء الاعداء]. فاذا كان هيوم ينكر قيمة النقد الصحيحة كي يناقض اصحاب المذهب التجاري ، واذا كان الرومانسيون لم يخترعوا مسرحهم إلا كي « يفعلوا العكس » من الكلاسيكيين ، فليس ثمة حقيقة موضوعية.بل هناك حقيقة لي فقط،حقيقة للسيد ميخائيلوفسكي، حقيقة للامير نيشتشسيرسكي ، الخ ان الحقيقة ذاتية ، وكل مايلبي حاجاتنا الى المعرفـة حقيقي

لا ، ليس الامر كذلك ؛ ان مبدأ التناقض لا يدمر الحقيقة الموضوعية ، بل لايفعل الا ان يقودنا اليها ومن المؤكـد ان الدرب التي يدفع الانسانية اليهـا ليست درب الخط المستقيم ولكن الميكانيك يعرف حـالات حيث مانضيع في المسافة يريـح في السرعة . ان جسما يتحرك على خط دُوَيري يذهب من نقطة الى نقطة أوطأ بسرعـة اعظم مما لو كان تحرك في خط مستقيم ان « التناقض » لا يظهر الا حيث نكـون صراع حيث تكون حركة ؛ وهناك حيث تكون حركة يتقـدم الفكر وان نكن بطرق ملتوية ان تناقض هيوم مع انصار المذهب التجاري قـد خلص به الى نظريـة لا تثبت بيـد ان الواقـع الاجتماعي ، والفكـر الانساني بالتالي لم يتوقفا في حركتهما عنـد النقطة التي بلغاها في زمن هيوم ان حركتهما قـد وضعتنا في تناقض مع هيـوم وكان من نتيجـة هـذا التناقض نظرية مضبوطة عن النقد ، وهذه النظرية التي هي نتيجة تحليل اشمل للواقـع تشكل حقيقة موضوعية لـن يلغيها اي تناقض لاحق ، لقـد كان مؤلف كتاب ملاحظات عن ستيوارت ميل يحب ان نكرر هذين البيتين لنكراسوف

ما اخذتـه الحيـاة منـا مـرة

لن نستطيـع القـدر ان ينتزعه مـرة اخرى

وان هـذا لصحيح بصورة لا جدال فيها اذا ما طبق على المعرفة فليس في استطاعـة اي قـدر ان ينتزع منـا اكتشافات كوبرنيكوس ، او اكتشاف تحـول الطاقـة ، او اكتشاف تطور الانواع ، او الاكتشافات التي ندين بها لعبقرية ماركس.

ان العلاقات الاجتماعية تتبدل وتتبدل معها النظريات العلميـة وانه ليظهر اخيرا بنتيجـة هذه التغيرات تحليل جامع للواقـع ، وتظهر في اعقابه حقيقة موضوعية لقد كان لكزينوفون آراء اقتصادية تختلف عن آراء جان باتيست سي، ومما لا ريب فيـه ان آراء كزينوفون سخيفة ولكننا نعرف في الوقت الراهن ما هو منشأ ضيقهـا وهذه المعرفة هي حقيقة موضوعية ، وليس في قدرة اي قـدر » ان ينتزع منـا هذه الحقيقة الصحيحة التي اكتشفناها اخيراً

« ولكن الفكر الانساني لن يتوقف بالتأكيد عند ماتسميه اكتشاف ماركس او

اكتشافاته ؟ كلا بالتأكيد ايها السادة بل سوف نقوم باكتشافات اخرى تكمل نظرية ماركس وتؤكدها بالضبط كما ان اكتشافات جديدة في علم الفلك كملت اكتشاف كوبرنيكوس واكدتها

ان الطريقة الذاتية في علم الاجتماع هي أوج الهراء لكن لكل هراء سببه الكافي ونحن التلامذة المتواضعين لرجل عظيم نستطيع ان نقول – ليس دون اعتزاز – اننا نعرف السبب الكافي لهذا الهراء واليكم هذا السبب

لم يكن السيد ميخائيلوفسكي اول من اكتشف « الطريقة الذاتية » ولا هو ملاك المدرسة نقصد مؤلف **الرسائل التاريخية***. لقد كان برونوبوير وتلامذته يبشرون بها – برونوبوير هذا نفسه الذي انجب مؤلف **الرسائل التاريخية** الذي انجب بدوره السيد ميخائيلوفسكي واخوته

ليست موضوعية المؤرخ، مثلها مثل كل موضوعية اخرى ، الا ثرثرة خالصة، لكن ليس بمعنى ان الموضوعية مثل اعلى يستحيل بلوغه فحين يريد المؤرخ ان يتبع الموضوعية يعني النظرة الخاصة بالغالبية تصور الجمهور فانه لا يمكن الا ان يتدنى وحين يتدنى يكف عن كونه مبدعا ويصبح عاملا لقاء اجر بالقطعة ويتحول الى مرتزق عصره** هذه الاسطر كتبها شيليغا الذي كان تلميذا لبرونوبوير والذي سخر منه بقسوة بالغة ماركس وانجلز في كتابهما **العائلة المقدسة** واذا وضعنا عالم الاجتماع محل المؤرخ في هذه الاسطر ، استبدلنا الابداع الفني للتاريخ بابداع « المثل العليا الاجتماعية ، حصلنا على الطريقة الذاتية في علم الاجتماع »

حاولوا ان تتخيلوا ذهنية المثالي ان الراي في نظره هو جوهر الظواهر الاجتماعية ، سببها الاولي بالذات وانه ليخيل اليه ان المجتمعات كما يشهد التاريخ على ذلك قد جسدت في الاغلب الآراء الأسخف وانه ليفكر كما يلي لماذا لاتتحقق رايي انا الآخر اذن طالما انه ، والحمد لله ليس سخيفا ؟ ومادام ثمة مثل اعلى فلا بد ان تكون هناك امكانية للتحويل الاجتماعي وفق الرغبات التي يوحي بها هذا المثل الاعلى واما التحقق من هذا المثل الاعلى بواسطة مقياس موضوعي ، فهذا امر مستحيل نظرا لان هذا المقياس معدوم وبالفعل فان رأي الغالبية لايمكن ان يكون مقياسا للحقيقة

وهكذا فان ثمة امكانية لتحقيق بعض التحولات لان مثلي الاعلى يتطلبها لاني اعتبرها نافعة ولكنني اعتبرها نافعة لاني اريد ان اعتبرها كذلك ونظرا

---

* بيوتر لافروف]

** شيليغا: Die Organisation der Arbeit der Menschheit und die Kunst der Geschichtschreibung Schilosserr's Duhlmann's und Bruno Bauer's.

تنظيم عمل الانسانية وفن التاريخ عند شيلو سرود وهلمان وبرونوبوير] . شارلوتنبر ١٨٤٦ ، ص ١٥٦

لانعـدام المقياس الموضوعي فلست املك اذن مقياسا سوى رغبتي لا تتدخلوا في ارادتي! ـ تلكهي الحجة الاخيرة للذاتية. انطريقتها هي reductio ad absurdum [الارجاع الى العبث] الخاص بالمثالية والخاص بالانتفائية ايضا بكل تأكيـد ، طالما ان جميع اخطاء « السادة المحترمين للفلسفة الذين يلتهمهم هـذا الطفيلي تقـع على راسه

انه من المحال من وجهة نظر ماركس معارضة افكار الفرد الذاتية بأفكـار الجمهور بأفكار الغالبية ، الخ على اعتبار ان هذه الافكار تشكل شيئـا موضوعيا ان « الجمهور يتألف من كائنات بشرية ، وافكار البشر هي دائما افكار ذاتية طالما ان مختلف الافكار هي احدى صفات **الذات** فليست آراء «**الجمهور**» هي السيء الموضوعي،بل **العلاقات** الطبيعية او الاجتماعية التي **تعبر تلك الآراء عنها.** ان مقياس الحقيقة لا يوجد في شخصي بل في العلاقات الموجودة خارجي وان الافكار التي تعطي تصورا صحيحا عن هذه العلاقات هي الافكار **الحقيقية** وامـا الأفكار التي تشوهها فهي افكار **خاطئة.** ان تلك النظرية التي تدرك بصورة صحيحة، في علوم الطبيعة العلاقات المتبادلة بـين ظواهر الطبيعة هي النظرية **الحقيقيـة** ، وان ذلك الوصف التاريخي الذي يصف بصورة صحيحـة العلاقات الاجتماعيـة القائمـة في عصر معين هو الوصف **الحقيقي** وحيث لا بد للمؤرخ ان يصف الصراع بين قوى اجتماعية متعارضة فانـه سيتعاطف بصورة حتمية مع هذه القوة او تلك، هذا اذا لم يصبح هو نفسه متحذلقاً بائسا وبهـذا المعنى يكون **ذاتيا** سـواء تعاطف **مع الاقلية او مع الاكثرية** لكن هذه الذاتية لن تمنعه من ان يكون مؤرخـاً موضوعيا **تماما** اذا هو **لم يشوه نظام العلاقات الاقتصادية الفعلية التي انجبت تلك القـوى الاجتمـاعيـة المتصارعـة** وينسى معسـق الطريقـة « الذاتيـة » هـذه **العلاقة الفعلية** ولذا لا يقدم لنـا شيئا على الاطـلاق باستثناء تعاطفه الغالي او كراهيته الرهيبة وهو يثير ضوضاء كبيرة متهما خصومه بانتهاك المناقب الحميدة حين يردون عليه بأن ما فعله لايكفي واذ يشعر بعجزه عن النفوذ الى سر العلاقات الاجتماعية الفعلية يثور لكل تلويح الى موضوعيتها كما لو كان هذا التلميح اهانـة شخصية كما لو كان سخرية بعجزه وانه ليسعى اذن جاهدا الى اغـراق تلك العلاقات في طوفان استيائه الاخلاقي الخاص

وهكذا يتبين ان المثل العليا شديدة التنوع من وجهة نظر ماركس دنيئـة ورفيعة صحيحة وخاطئة **وان المثل الاعلى الذي يطابق الواقع الاقتصادي هـو المثل الاعلى الصحيح** ولسوف يقول الذاتيون الذين يسمعون هـذا الكلام اني اذا رحت اكيف مثلي العليا مع الواقع فاني سأصبـح متزلفا بائسا لاولئك الكسالى المتهللين » لكنهم لن يقولوا ذلك الا لانهم لايفهمون ، من حيث هم ميتافيزيائيون ، الطابع الثنائي **المتعارض** لكل واقع ان « **اولئـك الكسالى المتهللين** » **يعتمدون**

على واقع في سبيله الى الزوال . واقع يولد خلفه واقع جديد . واقع الغد الذي تعني خدمته المعاونة على انتصار « قضية الحب الكبرى »* .

ويستطيع القارىء ان يتبين الآن ماذا كانت تلك الصورة عن الماركسيين القائلة انهم لاينسبون اية اهمية الى المثل العليا تتفق مع « الواقع » ان هذه الصورة عنهم تثبت انها على طرفي نقيض مع « الواقع » واذا شئنا ان ننظر الى الامور من زاوية المثل العليا » ، فلا بد لنا ان نقول ان نظرية ماركس هي النظرية الاكثر مثالية التي عرفها تاريخ الفكر الانساني وان هذا لينطبق سواء على مهماتها العلمية او اهدافها العملية .

ما عسانا نفعل اذا كان السيد ماركس لايفهم اهمية وعي الذات وقوته ؟ ما عسانا نفعل اذا كان لا يقيم وزنا لحقيقة الوعي الذاتي المعترف بها ؟ »

لقد كتبت هذه الكلمات منذعام ١٨٤٧ بيد أحد اتباع برونوبوير** ، وبالرغم من انها لا تنطق اليوم بلغة الاربعينات ، فان اولئك الذين يأخذون على ماركس تجاهله عنصر الفكر والاحساس في التاريخ لم يتجاوزوا اوبتيز في الوقت الحاضر انهم مقتنعون جميعا بعد بأن ماركس يستخف بقوة الوعي الذاتي الانساني، وجميعهم يؤكدون بطرق متنوعة الامر نفسه*** وحقيقة الامر ان ماركس كان يعتبرتفسير « الوعي الذاتي » الانساني المهمة الاولية للعلوم الاجتماعية

انه يقول

« ان العيب الرئيسي للمادية السابقة كلها ـ بما فيها مادية فيورباخ ـ هو ان الواقع، الحسية لا تتم فيها الا على صورة الموضوع او المشاهدة ، وليس على اعتبارها فاعلية انسانية حسية ، على اعتبارها ممارسة ، ليس بصورة ذاتية ولذا حصل ان المثالية طورت

الاستشهاد هنا من قصيدة لنكراسوف بعنوان « فارس لساعة واحدة » وقد ورد في مقطع منها

من جمهرة الكسالى المتهللين
الملوثة ايديهم بالدماء
خذني الى معسكر القاتلين
في سبيل قضية الحب الكبرى]

** تيودور اوبيتز Die Helden der Masse. Charakteristen [ابطال الجمهور خصائصهم] غروفبرغ ١٨٤٨ ، ص ٦ ـ ٧ اننا ننصح بالحاح السيد ميخائيلوفسكي بأن يقرأ هذا الكتب فسوف يجد فيه الكثير من افكاره الاصيلة

*** ولكن لا ، ابدا لم يخطر حتى الان في بال احد ان يعارض ماركس بأن الانسان يتألف من نفس وجسد السيد كاربيف طريف بصورة مزدوجة ـ لم يجادل احد قبله ضد ماركس بهذه الطريقة ٢ ـ من الارجح ان احدا بعده لن يجادل ضد ماركس على هذا الغرار ويستطيع السيد ف.ف. يتبين من هذا الهامش اننا نعرف كيف نقدر جدارات « استاذه » .

الجانب **الفاعل** ، بصورة متعارضة مع المادية ، لكن بصورة مجردة فحسب ، لان المثاليه بطبيعة الحال لا تعرف الفاعلية الواقعية الحسية بصفتها هذه*

هل فكرتم ايها السادة في هذا النص ؟ سوف نحاول ان نفسره لكم

ان سائر جهود دولباخ وهيلفيتيوس وتلامذتهما انصبت على البرهان على امكانية التفسير المادي للطبيعة ولكنه حتى انكار الافكار النظرية لم يؤد بهؤلاء الماديين ابعد من اعبار الانسان عضوا في المملكة الحيوانية ، على اعتباره مادة حسية [matière sensible] انهم لم يحاولوا انيحللوا **تاريخ الانسان** منوجهة نظرهم، او حين حاولوا ذلك (هيلفيتيوس) لم يكن النجاححليفا لهم ولكن الانسان لايصبح « **ذاتيا** » **الا في التاريخ** طالما ان **وعيه** لا يتطور الا في هذا التاريخ اما الاقتصار على اعتباره عضوا في المملكة الحيوانية فمعناه الاقتصار على اعتباره « **شيئا** » ، يعني غض النظر عن تطوره التاريخي عن ممارساته الاجتماعية عن فعاليته المشخصة وان غض النظر عن هذه الامور جميعا يعني جعل المادية « **ضيقة مشؤومة ، باعثة على اليأس** » (غوته والاكثر من ذلك انه يعني جعل الماديه **قدرية** كما رأينا اعلاه تحكم على الانسان بالخضوع التام لمادة عمياء وان ماركس. الذي ادرك هذه الفجوة في المادية الفرنسية وحتى في مادية فيورباخ قد اخذ على عاتقه مهمة **تصحيحها** ان ماديته « الاقتصادية تجيب عن السؤال كيف تتطور **الفعالية المشخصة** » للانسان وكيف يتطور من بعد **وعيه** كيف تتشكل **الجانب الذاتي من التاريخ** وحين تحل هذه المسألة ، ولو جزئيا فان المادية ستكف عن كونها ضيقة ومشؤومة وباعثة على اليأس وستكف عن التواري امام المثالية حين يتعلق الامر بتفسير الجانب العملي للوجود الانساني انها تتحرر اذن من قدريتها المميزة

ان اصحاب القلوب الحساسة والعقول الهزيلة يثورون ضد نظرية ماركس لانهم يأخذون كلمتها **الاولى** على اعتبارها كلمتها **الاخيرة** ، يقول ماركس كي نفسر **الذات** لنر العلاقات التي تقوم بين البشر تحت تأثير الضرورة **الموضوعية** واذا ماعرفنا هذه العلاقات مرة كان في وسعنا ان نفسر كيف يتطور الوعي الانساني تحت تأثيرها اذ **الواقع الموضوعي** سوف ساعدنا على فهم **الجانب الذاتي** من التاريخ

وهنا يتدخل عادة أصحاب القلوب الحساسة والعقول الهزيلة واننا لنشاهد هنا مشهدا مذهلا على غرار هذا الحوار بين تشاتسكي وفاموسوف(٢٦)

— « يدخل البشر في انتاج حياتهم الاجتماعيفيعلاقات محددة ضرورية مستقلة عن ارادتهم

— يا الهي هذا انسان قدري

---

* [فروض عن فيورباخ ، في **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات **دار دمشق** ص ١٠٦] .

ــ « ان البنى القومية الايديولوجية تنهض على قاعدة اقتصادية »
ــ ماذا يقول ؟ انــه يتحدث مثلما يكتب انه يرفض **الاعتراف** بدور الفــرد في التارسخ
ــ لكن اسمعني حتى النهاية انه يترتب على ماسبق ان
ــ لن اسمع ! حاكموه ليحاكم لاساءته الى الاخلاق من قبل **الأفراد** التقدميين النشيطين ، تحت الرقابة العالية لعلم الاجتماع الذاتي

ومن المعروف ان دخول سكالوزوب(٢٧) انقذ تشاتسكي لكن الامور اتخــذت حتى الان منحى آخــر في مناقشات تلامذة ماركس الروس مــع قضاتهم الذاتيــين الصارمين ان سكالوزوب يكم أفواه امثال تشاتسكي،ومن ثم فان اشباه فاموسوف في علم الاجتماع الذاتي يرفعون أصابعهم عن آذانهم ويعلنون وهم يدركون تفوقهم جيدا وباختصار ، فانهم لم يقولوا شيئاً ، وقد ظلت نظرياتهم غامضة جدا .»(٢٨)

ولقد سبق لهيغــل ان قال انه في الامكان ارجاع أي فلسفة الى **صورية جوفاء** بالاقتصار على تكرار موضوعاتهــا الاساسية ولم يتورط ماركس في هذه الخطيئة، فهو لا يقتصر على تكرار ان تطور القوى المنتجة يقوم في اساس كل تطــور الانسانيــة التاريخي ومن النادر ان نصادف مفكرا بذل مثل الجهد الذي بذله ماركس من اجل تطوير موضوعاته الاساسية

ولكن جوقة السادة الذاتيين تغني وتقول وتزمجر وترعد ولكن اين طور افكاره على وجه الدقة ؟ خذوا داروين ان له كتابا ، ولكن ليس ثمــة كتاب لماركس بحيث لا بد لنا من **اعادة تركيب** افكاره

مما لا ريب فيه ان اعادة التركيب ليست بالعمل اللذيذ ولا السهل ، وعلى الاخص بالنسبة الى اولئك الذين يفتقرون الى المتطلبات **« الذاتية »** من اجل الفهم الصحيح وبالتالي من اجل اعادة تركيب فكر الغير ولكنه لا حاجة الى اعــادة التركيب ، نظرا لان الكتاب الذي يأسى السادة الذاتيون لعدم وجوده موجود منذ زمن طويل بل ان هناك كتبا كثيرة وهي جميعا تشرح الواحــد بصورة افضل مــن الاخر النظرية الماركسية عن التاريخ

ان اول هذه الكتب هو تاريخ الفلسفة والعلوم الاجتماعية بدءا من نهاية القرن الثامن عشر ادرسوا هذا الكتاب الهام (من المؤكد ان مطالعــة **لويس** لا تكفي) ، يبين لكم لماذا ظهرت نظرية ماركس ، ولماذا **كان لا بد ان تظهر** ، وما هي القضايا التــي كانت حتى ذلك الحين تفتقر الى الحل والتي كانت تبدو غير قابلة للحل ، فقدمت الحلول لها وبالتالي ما هو **مغزاها الحقيقي** .

والكتاب الثــاني هو **رأس المال** ، هذا **رأس المال** الذي « قراتمــوه » جميعــاً ، والذي ايدتموه » جميعا ولكن احدا منكم ايها السادة الاعزاء ، لم **يفهمه** .

وان **الكتاب الثالث** هو تاريخ الاحداث الاوروبية ابتداء من عام ١٨٤٨ **يعني** منذ ظهور **البيـان الشهير** ، تكبدوا عناء التعمق في معنى هذا الكتاب الكبير الواسع المغزى وقولوا لنا بكل اخلاص – ان كان ثمة حياد بعد في اخلاصكم الذاتي » – ما اذا كانت نظرية ماركس لم تزوده بقدرة مدهشة لم يسبق لها مثيل على التنبؤ بالاحداث ماذا حل بالطوباويين المعاصرين له من رجعيين او ركوديين أو تقدمين ؟ الى اي نوع من الاوحال تحول الغبار الذي تفتت اليه « **مثلهم الاعلى** » لدى اول احتكاك له **الواقع** ؟ لم يبق اثر حتى من ذلك الغبار بينما اقوال ماركس تحققت يوميا – في خطوطها الكبرى بكل تأكيد – ولن تكف عن التحقق حتى يتحقق اخيرا **مثله الاعلى** كليا

ومما لا ريب فيه ان شهادة هذه الكتب الثلاثة تكفيكم ومما لا ريب فيه انكم لا تستطيعون ان تنكروا وجود اي كتاب منها ولكن سوف تقولون بالتأكيد اننا نستخلص منها ماليس موجودا فيها لا بأس ، قولوا ذلك وبرهنوا عليه اننا ننتظر براهينكم بفارغ الصبر وسوف نبدأ بأن نشرح لكم معنى الكتاب الثاني وغرضنا من ذلك الا تضلوا فيه السبيل

انتم تقولون انكم تقبلون آراء ماركس **الاقتصادية** ، لكن تنكرون نظريته التاريخية. لا بد للمرء ان يعترف بأن هذا القول يعني الشيء الكثير جدا الا وهو **انكم لا تفهمون شيئا من نظرية ماركس التاريخية ولا من آرائه الاقتصادية**(٣٩) .

عم يتحدث في الكتاب الاول من **رأس المال** ؟ انه يتحدث فيما يتحدث عنه ، عن القيمة ويقول ان القيمة **علاقة انتاج اجتماعية** انتم توافقون على ذلك ؟ اذا لم توافقوا فانتم تنكرون اذن اقوالكم الخاصة عن اتفاقكم مع نظرية ماركس الاقتصادية. واذا وافقتم فأنتم تقبلون اذن **نظريته التاريخية**. وان نكن من المؤكد انكم لا تفهمونها.

فاذا كانت علاقات الانتاج الموجودة بصورة مستقلة عن ارادة البشر والعاملة من خلف ظهورهم تنعكس في دماغهم في صورة مقولات الاقتصاد السياسي – **القيمة، النقد ، الراسمال** الخ – اذا قبلتم بذلك فانتم تقبلون اذن في الوقت نفسه بان فوقية ايديولوجية تقابل قاعدة اقتصادية معينة سوف تتطور على اساسها وعندئذ فان اهتداءكم سيكون قد تحقق بنسبة ٧٥ ٪ لان كل مايجب عليكم ان تفعلوه اذن هو ان تطبقوا فكرتكم – يعني الفكرة التي استعرتموها من ماركس – على تحليل المقولات العليا للايديولوجية الحق ، العدالة ، الاخلاق ، المساواة ، الخ

او لعل اتفاقكم مع ماركس لا يبدأ الا مع الكتاب الثاني من **رأس المال** ؟ لان هناك اناسا لا يعترفون بماركس الا في حدود مايسمى رسالته الى السيد ميخائيلوفسكي(٤٠) .

انكم لا تعترفون بنظرية ماركس التاريخية ؟ وبالتالي فانتم تعتبرون ان ماركس اخطأ في وجهة نظره التي قدر انطلاقا منها ، مثلا تاريخ فرنسا بين ١٨٤٨ و١٨٥١ في صحيفته* Neue Rheinische Zeitung وفي المجلات الدورية الاخرى التي كانت تصدر في ذلك الحين ، وكذلك في كتابه **انقلاب لويس بونابارت في ١٨ برومير** ؛ وانه لامر يؤسف له انكم لم تكلفوا انفسكم عناء بيان خطأ وجهةالنظر هذه ؛ وانه لامر يؤسف له ايضا ان آراءكم ظلت **بدائية جدا بحيث لا يمكن حتى « اعادة تركيبها » نظرا لنقص** المعطيات

انكم لا تعرفون بالنظرية الماركسية عن التاريخ ؟ وبالتالي فانتم تعتبرون ان ماركس اخطأ في وجهة النظر التي حكم انطلاقا منها ، مثلا ، على المذاهب الفلسفية للماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر(٤١) ؛ وانه لأمر يؤسف له انكم لم تدحضوا ماركس في هذه الحالة ايضا ولكن لعلكم لاتعرفون حتى اين عالج هذا الموضوع ؟ وليس في نيتنا ان نساعدكم على الخروج من هذه الصعوبة ، لانه من واجب المرء ان يعرف مؤلفيه في الموضوع الذي اخذ على نفسه مهمة مناقشته اليس اغلبكم اساتذة عاديين وفوق عاديين قارعين لاجراس العلم حسب تعبير السيد ميخائيلوفسكي ؟ وصحيح ان هذا اللقب لم يمنعكم مطلقا من الاهتمام بصورة رئيسية بعلوم «تخرج عن البرنامج» ـ علم الاجتماع الذاتي،وفلسفة التاريخ الذاتية ، الخ...

ـ ولكن لماذا لم يكتب ماركس كتاباً يشرح فيه من وجهة نظره كل تاريخ الجنس البشري منذ العصور القديمة حتى ايامنا هذه ، دون ان يتغاضى عن اي من مظاهر التطور الاقتصادي والحقوقي ، والديني ، والفلسفي وهلم جرا ؟

ان العلامة الاولى لكل ذهن مثقف هي في القدرة على طرح الاسئلة وادراك الاجوبة التي يستطيع المرء او لا يستطيع انتظارها من العلم الحديث ولكننا لا نجد على الاطلاق اثرا لهذه العلامة عند خصوم ماركس ، بالرغم من كونهم اساتذة **فوق عاديين** بل **عاديون** احيانا وربما بسبب هذه الصفة بالذات ايمكنكم ان تتصوروا حقا ان هناك مؤلفا في علم الحياة يستعرض بصورة جامعة تاريخ المملكتين الحيوانية والنباتية من وجهة نظر داروين ؟ تحدثوا في هذا الموضوع مع اي عالم نباتي او حيواني وسوف يخبركم بعد ان يضحك من صميم قلبه لبساطتكم الصبيانية،ان استعراض مجمل تاريخ الأنواع الطويل من وجهة نظر داروين انما هو **مثل اعلى** ليس من المعروف متى يبلغه العلم وان ما اكتشفناه حاليا هو **وجهة النظر** التي تستطيع وحدها ان

---

* [المجلة الرينانية الجديدة]

تعطينا مفتاح فهم تاريخ الانواع*... وينطبق الامر نفسه على العلم التاريخي الحديث.
ويسأل السيد ميخائيلوفسكي

« ما هو عمل داروين ؟ بعض الافكار العامة المترابطة بصورة وثيقة والمتوجة بجبل مرتفع من الحقائق اين نبحث عن عمل مماثل لماركس ؟ انه غير موجود ولا يقتصر الامر على انعدام مثل هذا العمل عند ماركس ، بل هو معدوم في مجمل الادبيات الماركسية بالرغم من اتساعها وشدة انتشارها ان اسس المادية الاقتصادية بالذات ، التي كررت مرات لا تحصى مثل البديهيات ، لا تبرح حتى يومنا هذا دون رابطة تجمع بينها ودون اختبار من قبل الحقائق الامر الذي يستلفت الانتباه بصورة خاصة في نظرية تعتمد مبدئيا على الحقائق المادية ، الملموسة ، وتدعي لقب « العلم بصورة خصوصية** »

اما ان الأسس النظرية للمادية الاقتصادية لا تبرح دون رابطة تجمع بينها فهذا **مخالف للحقيقة كليا** يكفي ان يقرأ المرء مقدمة **نقد الاقتصاد السياسي** ليرى كيف انها تترابط بصورة وثيقة ومتناسقة واما ان هذه الموضوعات لم تختبر من قبل الحقائق فهذا خطل ايضا فلقد اختبرت بفعل تحليل الظواهر الاجتماعية في **١٨ برومير** وفي **راس المال** على حد سواء ، ولم يقتصر هذا الاختبار في المؤلف الاخير على الفصل الخاص بالتراكم البدئي « وحده كما يتصور السيد ميخائيلوفسكي(٤٢). بل تناولته **جميع الفصول على الاطلاق ، من اولها حتى آخرها** وعلى أي حال ، فاذا كانت هذه النظرية لم تعرض و جيل مرتفع » من الحقائق يؤيدها وهو ما يميزها في راي السيد ميخائيلوفسكي في غير صالحها ، من نظرية داروين فان ثمة سوء فهم هنا ايضا ان مجموعة الحقائق التي يشتمل عليها كتاب*** Origin of species تفيد بصورة رئيسية في البرهان على **قابلية التحول** عند الانواع ؛ **وحين يتطرق داروين الى تاريخ الانواع عامة فانه يفعل ذلك بصورة عابرة وعلى اساس الفرضية الخالصة ؛** لعل هذا التاريخ قد سلك هذه الطريق او تلك لكن الامر الذي لاريبة فيه هو انه **قد كان ثمة تاريخ ، وان الانواع قد تحولت** واننا نسأل الان السيد ميخائيلوفسكي أكان يتوجب على ماركس ان يبرهن على ان الانسانية لاتقف جامدة ، وعلى ان الاشكال الاجتماعية تتبدل وعلى ان آراء الناس تتطور ؟ وباختصار أكان يتوجب عليه ان

---

* ان جميع هذه الفروع المختلفة من تاريخ التطور ، التي لا تبرح حتى اليوم متباعدة جدا والتي انبثقت من مصادر تجريبية متنوعة من المعرفة ، سوف تتقدم من الان فصاعدا بفعل المعرفة المتعاظمة التي حصلنا عليها عن ترابطها انها سوف تتوجه جميعا ، سائرة في طريق تجريبية متباينة جدا وعاملة بطرق متنوعة جدا ، نحو نفس الهدف الواحد ، الهدف الاخير لتاريخ احادي عمومي للتطور (بالالمانية في النص الاصلي) هيغل Wege der Heutigen Entwickelungsgeschicnte ايينا ١٨٧٥ ، ص ٩٦ [**اهداف وطرق تاريخ التطور اليومي**]

** **الرسول الروسي** ، كانون الثاني ١٨٩٤ القسم الثاني ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

*** [**اصل الانـواع**]

برهن على **قابلية تحول** مثل **هذا** النوع من **الظواهر ؟ كلا بكل** تأكيد وان كان من السهل تكدس عشرات من « جبال الحقائق **المرتفعة** » **للبرهان** على ذلك ما الذي كان على ماركس ان **يفعله ؟** ان التاريخ السابق **للعلوم الاجتماعية** والفلسفة قد كدس جبلا مرتفعا » من التناقضات التي كانت تتطلب حلا عاجلا ، **ولقد حل ماركس هذه التناقضات مستعينا بنظريته التي تستقيم ، مثلها كمثل نظرية داروين ، في « بعض الافكار العامة المترابطة بصورة وثيقة »** وحين **ظهرت هذه الافكار** تبين انها تتيح حل جميع التناقضات التي حيرت **المفكرين فيما مضى** ولم يكن ماركس في حاجة الى تكدس الجبال من الحقائق ــ **لقد تكفل سابقوه بذلك ــ بل الاستفادة من هذه المواد** ، من بين مواد عديدة اخرى ، **والانصراف الى دراسة تاريخ الجنس** البشري من وجهة نظر جديدة **وهذا هو** مافعله ماركس **متخذا من المرحلة** الراسمالية موضوعا لدراسته ، ومن هنا كان **راس المال** ، **كي لانقول شيئا عن الدراسات الاحادية الموضوع** مثل **١٨ برومير**

ولكن **رأس المال** ، **كما يلاحظ السيد ميخائيلوفسكي** ، « يتناول مرحلة واحدة من التاريخ وبالرغم **من هذا التجديد فان الموضوع لا تستنفد** مناقشته حتى ولا بصورة تقريبية

هذا صحيح لكننا سوف نذكر السيد **ميخائيلوفسكي** مرة اخرى بأن العلامة الاولى للذهن **المثقف هو معرفة** مايحق لنا **ان نطالب رجال العلم به** ، ولم يكن **في مقدور** ماركس ان يعطي **في دراسته** جميع **عصور التاريخ** ، **كما** لم يكن **في مقدور** داروين ان يكتب تاريخ **جميع** الانواع الحيوانية والنباتية حتى **في** حدود مرحلة تاريخية واحدة لا يستنفد الموضوع ، وان بصورة **تقريبية** **لا ايهاالسيد ميخائيلوفسكي** ان مناقشة هذا الموضوع لا تستنفد حتى بصورةتقريبية **ولكن قل لنا** قبل كل شيء اي **موضوع** استنفدت مناقشته عند داروين حتى « **بصورة تقريبية** » ومن ثم فاننا سوف نشرح لك الان السبب **في** ان **رأس المال** لا يستنفد **الموضوع بأكمله**

ان تطور الجنس البشري ، حسب **النظرية الجديدة** ، وقف على **تطور القوى** المنتجة الذي يؤدي الى تبدل **في العلاقات الاقتصادية** ولذا كان من الواجب ، في كل بحث تاريخي البدء بدراسة حالة **القوى المنتجة والعلاقات** الاقتصادية في بلد معين ولكن البحث يجب بطبيعة الحال الا **يتوقف عند هذه** النقطة بل يجب ان يبين كيف نغطي **الهيكل العظمي** الجاف **للاقتصاد باللحم الحي** للاشكال الاجتماعية والسياسية ومن **بعد ــ وهذا هو الجانب الاهم والافتن من القضية ــ** للافكار والمشاعر والمطامح والمثل العليا ويمكن **القول ان المؤرخ** يتلقى **مادة ميتة** (يرى القارىء اننا قد جعلنا نستوحي اسلوب **السيد كاريف**) ، ولكن **عضوية نابضة بالحياة** يجب ان تخرج من بين يديه ولم **يستنفد ماركس** ــ وهذا طبعا بصورة تقريبية فقط ــ **الا المسائل** المتعلقة بصورة **رئيسية** بالحضارة المادية للعصر الذي

اختاره لقد مات ماركس في سن غير متقدمة نسبيا ، ولو انه عاش عشرين سنة اخرى ، فمن الارجح انه كان يكمل (ربما باستثناء بعض الدراسات الاحادية الموضوع) دراسة الحضارة المادية لذلك العصر وهذا مايستاء السيد ميخائيلوفسكي منه وهذا هو يوبخ المفكر الشهير وقد وضع يديه على خاصرتيه

ــ كيف ، ياصديقي ! عصر واحد ... وبصورة ناقصة ايضا ؟ لا ، لا استطيع ان اهنئك على ذلك لقد كان في مقدورك على الاقل ان تقتدي بداروين

ولا ستطيع مؤلف راس المال المسكين ان يرد على هذه النقطة الذاتية الا بالتنهد وبهذا الاقرار المحزون Die Kunst ist lang und Kurz ist unser Lezben*

ولكن السيد ميخائيلوفسكي يستدير على عجل وبعنف الى « جمهور » اتباع ماركس

ــ في هذه الحال اين كنتم وماذا كنتم تفعلون ؟ لماذا لم تساعدوا هذا الرجل البائس ؟ لما لم تستنفدوا جميع العصور ؟.

ويرد التلامذة وقد انحنوا ورفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم

ــ لم نكن نملك الزقت لذلك ، ايها السيد البطل الذاتي كانت لدينا اعمال اخرى ، لقد كنا نحارب علاقات الانتاج التي ترهق الانسان في الوقت الحاضر كن رحوما لقد فعلنا شيئا على اي حال ، واذا أعطينا الوقت فسوف نفعل ما هو افضل من ذلك ايضا

ويروق السيد ميخائيلوفسكي قليلا

ــ اذن فأنتم ترون بأنفسكم ان الامر لم يستنفد ؟

ــ وكيف لا نرى ذلك ؟ وهو لم يستنفد كذلك عند انصار داروين** ، ولا عند علماء الاجتماع الذاتيين ــ وان كانوا ينشدون اغنية أخرى

ولكن ذكر داروين يثير نوبة جديدة من الغضب عند مؤلفنا ، فيصيح

ــ لماذا تزعجونني بداروين ؟ ان داروين يؤيده كبار الناس ، وكثيرون من الاساتذة قد انحازوا الى جانبه ، ولكن من هم أتباع ماركس ؟ عمال فقط ، وبعض التلامذة من الصناجة الذين لا يملكون شهادات علمية

ان هذا التوبيخ يتخذ طابعا بالغ الاهمية بحيث لانستطيع ، شئنا ام أبينا ، ان نفض النظر عنه

---

* [الفن طويل وحياتنا قصيرة غوته فاوست]

** انه مما يبعث على الاهتمام ان خصوم داروين اكدوا دائما ، ولا يبرحون يؤكدون ، ان نظريته نفتقر بالضبط الى ذلك « الجبل المرتفع » من الحقائق ومن المعروف جيدا ان فيرنوف تحدث بهذا المعنى في مؤتمر علماء الطبيعة والاطباء في ميونيخ في ايلول من عام ۱۸۷۷ ولقد اشار هيكل بحق ، في الرد عليه ، الى ان نظرية داروين اذا لم تثبتها الحقائق التي كنا نعرفها من قبل ، فان اية حقائق جديدة لن تقدم برهانا نافعا عليها .

« يلمح انجلز في كتابه **اصل العائلة** الى ان كتاب ماركس **رأس المال** قد احيط بالصمت من قبل الاقتصاديين المحترفين **الالمان** ، ويؤكد في كتابه **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ان منظري المادية **الاقتصادية** قد فضلوا منذ البداية ان يتوجهوا الى الطبقة العاملة التي وجدوا عندها **الترحاب الذي** لم يبحثوا عنه ولا كانوا يتوقعونه عند العلم الرسمي ما مدى صحة هذه **الحقائق وما مغزاها** ؟ اولا ، ليس **في** الامكان **مطلقا** ان « يحاط بالصمت » اي شيء ثمين لوقت **طويل حتى** عندنا **في** روسيا ، بالرغم من ضعف وحقارة حياتنا العلمية والادبية وان **هذا لاقل امكانية في** المانيا بجامعاتها العديدة ، وانتشار الثقافة فيها ، وصحفها التي لا تحصى ، **وجرائدها** ذات الاتجاهات المتنوعة ، واهمية الدور **الذي** تلعبه هناك الكلمة المنطوقة **فضلا** عن الكلمة المطبوعة واذا كان عدد من اساقفة العلم في المانيا قد قابلوا **راس المال** بالصمت بادىء الامر فمن الصعب تفسير ذلك بالرغبة في « احاطة » **مؤلف ماركس** « **بالصمت** والافضل ان نفترض ان السبب في **هذا** الصمت كان الاخفاق **في فهمه** ، **هذا** الاخفاق الذي سرعان ما قامت الى جانبه المعارضة **اللاهية** من جهة ، **والاحترام التام من جهة** ثانية ، وكان من نتيجة ذلك ان القسم النظري **من رأس المال** احتل **بسرعة كبيرة منزلة** رفيعة غير مشكوك فيها في العلم **المعترف به** ولكن مصير المادية **الاقتصادية من** حيث **هي** نظرية تاريخية قد كان مختلفا **كل الاختلاف** ، بما في ذلك المنظورات **المتوجهة** نحو المستقبل التي يشتمل **رأس المال عليها** ان المادية **الاقتصادية** ، بالرغم **من انقضاء نصف** قرن على وجودها ، لم تمارس حتى الان اي **تأثير** ملحوظ في **الاوساط العلمية** ، لكنها تنتشر في واقع الامر بسرعة فائقة في الطبقة العاملة* »

وهكذا فان معارضة نشأت سريعا **بعد فترة قصيرة** من الصمت هذا صحيح ولقد كانت معارضة حامية جدا بحيث **لا يمكن لاي** محاضر ان يحصل على لقب الاستاذ اذا هو قبل حتى **بنظرية** ماركس « **الاقتصادية** » ، **ولقد** كانت معارضة حامية جدا بحيث ان اقل المحاضرين **موهبة** يستطيع الاعتماد على الترقية السريعة اذا هو نجح فقط في ابتكار **اعتراض** او **اعتراضين** ضد **رأس المال** سرعان ماينسيان في الغداة اجل ، **في الحقيقة انها كانت** معارضة حامية جدا

والاحترام التام وهذا صحيح **ايضا** ، **ايها** السيد **ميخائيلوفسكي** ! انه بالضبط ذلك النوع من الاحترام الذي **لا بد للصينيين** ان ينظروا به الى الجيش الياباني « **انهم يقاتلون** جيدا ، والافضل **الا تتعرض** لضرباتهم » ان الاساتذة الالمان قد امتلأوا ، ولا يزالون ، بمثل **هذا الاحترام** لمؤلف **رأس المال** وبقدر ما يكون الاستاذ اذكى ، وبقدر ما تكون **معارفه اوسع** ، كان يمتلىء باحترام اعظم ، **لانه** كان يدرك بمزيد من الوضوح انه **لا يملك** اي حظ في دحض **رأس المال** وهذا

---

* **الرسول الروسي** ، كانون الثاني ١٨٩٤ ، **القسم الثاني** ، ص : ١١٥ ــ ١١٦ .

هو السبب في ان ايا من منارات العلم الرسمي لم يجازف بالهجوم على هذا الكتاب . انهم يفضلون ان يرسلوا الى المعركة الشبان ، السذج ، « التلامذة الصناجة » الذين يبحثون عن الترقية

لا حاجـة بك ان تفقـد فتى ذكيـا ،
بل يكفيك ان ترسـل ريـاد ،
وسوف انتظـر وارى . . .(٤٢)

مما لا ريب فيه ان مثل هذا الاحترام عظيم لكننا لم نسمع عن اي نوع آخر من الاحترام ، ولا يمكن ان يتوفر شيء منه في اي استاذ ــ لانـه لن يصبح اذن استاذا في المانيـا

ولكن ما الذي يبرهن هذا الاحترام عليه ؟ انه يبرهن على مايلي ان حقل البحث الذي يغطيه رأس المـال هو بالضبط ذلك الحقل الذي تم استصلاحه منذ الآن مـن وجهـة نظر نظرية ماركس التاريخية وهذا هو السبب في ان الخصوم لايجرؤون على الهجوم على هذا الحقل انهم «يحترمونه»، ومما لاريب فيه ان هذا في مصلحتهم. ولكنه لا بد من كل سذاجة عالم الاجتماع « الذاتي من اجل التساؤل بكل دهشـة عن السبب في ان هؤلاء الخصوم لم ينصرفوا حتى اليوم الحاضر الى استصلاح الحقول المجـاورة بقواهم الخاصة ، لكن بطريقة ماركس « ما الذي تطلبه هناك ، ايها البطل العزيز ؟ ان الحقل الوحيد الذي استصلح بهذه الروح لايترك لنا مجالا للراحة حتى هذا الحقل الوحيد يثير لنا المتاعب ــ وانت تريدنا ان نعالج الحقول المجاورة بالطريقة نفسها ان السيد ميخائيلوفسكي لا يسبر الامور حتى اعماقها ولذا فانه لايفهم مصير المادية الاقتصادية من حيث هي نظرية تاريخية » ، او موقف الاساتذة الالمان حيـال « المنظورات في اتجاه المستقبل ليس لديهم وقت للتفكير في المستقبل ايها السيد عندما ينزلق الحاضر تحت اقدامهم

ورب من يقول ان الاساتذة في المانيا ليسوا مشربين جميعا من دون ريب بروح الصراع الطبقي والانضباط « العلمي » فمن المؤكد ان ثمـة اخصائيين لا هم لهم الا العلم وحـده هذا ما لايمكن انكاره ، فهناك مثل هؤلاء الناس ، هذا امر بديهي ، وليس في المانيا وحدها بيد ان هؤلاء الاخصائيين ــ بالضبط لانهم اخصائيون ــ مستغرقون كليا في موضوعهم ! انهم يشتغلون رقعتهم الهزيلة من الحقل العلمي ، ولا يهمون مطلقا بالنظريات الفلسفية والتاريخية العامة ومن النادر ان يكون لـدى مثل هؤلاء الاخصائيين اية فكرة عن ماركس ، واذا وجدت هذه الفكرة فهم يتصورونه امرءاً مقيتاً اتعب بعض الناس في مكان ما كيف تريدونهم ان يكتبوا بروح ماركس ، بينما لاتشتمل دراساتهم الاحادية الموضوع على أي اثـر للروح الفلسفية ؟ لكن شيئا يحدث هنا اشبه بتلك الحالات حيث الحجارة تصرخ اذا سكت البشر ان الاخصائيين انفسهم لا يعرفون شيئا عن نظرية ماركس لكن النتائج التي حصلوا عليها تهتف

عاليا في مصلحة هذه النظرية وليس هناك موضوع واحد في مجالات الأختصاص في تاريخ الحضارة او تاريخ العلاقات السياسية الا ويؤكدها بطريقة او بأخرى وان هناك عدداً من الامثلة المدهشة التي تبين الى اي مدى تجبر روح العلوم الاجتماعية الحديثة الاخصائيين على ان يتخذوا بصورة لا شعورية وجهة النظر النظرية الماركسية عن التاريخ (عن التاريخ بالضبط ايها السيد ميخائيلوفسكي) ولقد اطلع القارىء من قبل على مثالين من هذا النوع ــ اوسكار بيشل وجيرو ــ تولون. ولنأخذ الآن مثالا ثالثاً ان الكاتب الشهير فوستل دي كولانج قد طرح في كتابه **المدينة القديمة** الفكرة القائلة ان المعتقدات الدينية هي اساس جميع المؤسسات الاجتماعية للعصور القديمة. وكان يمكن الافتراض حتى انه سيتشبث بهذه الفكرة عندما ينتقل الى دراسة تفاصيل التاريخ الاغريقي والروماني وهذا هو يتطرق الى مسألة **سقوط سبارطة** ، فاذا هو نتبين ان السبب في هذا السقوط قد كان اقتصاديا محضا*

ولقد تطرق الى مسألة سقوط الجمهورية الرومانية ــ وهذا هو يلتجىء الى الاقتصاد مرة اخرى** ماذا نستنتج من ذلك؟ان الرجل قد اثبت نظرية ماركس في الحالات الخاصة ، لكن اذا انتم دعوتموه ماركسيا فمن الارجح انه سيأخذ بالتلويح بذراعيه احتجاجا الامر الذي سوف يغتبط له السيد كارييف أيما اغتباط ولكن ما عسانا نفعل اذا كان الكائن الانساني لا يظهر مخلصا مع نفسه حتى النهاية ؟

ولكن السيد ميخائيلوفسكي يقاطعنا قائلا اسمحوا لي ، فان لدي بعض الامثلة التي سأوردها

اخذنا كتاب بلوس (٤٤) شاهدنا انه كتاب قيم جدا لايحمل مع ذلك اي اثر خاص لتلك الثورة الحاسمة في علم التاريخ وانه لا يترتب في حال من الاحوال على مايقوله بلوس عن الصراع الطبقي والشروط الاقتصادية وهو قليل جدا نسبيا انه يشيد تاريخه على التطور الذاتي لاشكال الانتاج والمبادلة وانه ليكون امرا صعبا تجاوز الشروط الاقتصادية في رواية احداث عام ١٨٤٨ انتزعوا من كتاب بلوس اطراءه للثورة التي حققها ماركس في علم التاريخ وبعض العبارات التقليدية ذات المصطلحات الماركسية ، ولن تتصوروا اذن انكم امام نصير للمادية الاقتصادية وان صفحات جيدة

---

* انظر كتابه Du droit du propriéte à Sparte [في حق الملكية في سبارطة]
ولا يعنينا هنا على الاطلاق الآراء الواردة فيه عن تاريخ الملكية البدائية

** انه لواضح تماما في نظر كل من شاهد التفصيل التفاصيل بالضبط ايها السيد ميخائيلوفسكي والنصوص المصالح المادية للعدد الاكبر هي التي كانت محركه الحقيقي .فرنسية في النص الاصلي] Histoire des institutions historiques de p'ancienne France Les Origines du système féodale ص
. تاريخ المؤسسات السياسية في فرنسا القديمة اصول النظام الاقطاعي] .

عديدة ذات مضمون تاريخي في مؤلفات انجلز وكاوتسكي وآخرين قليلين تستطيع كذلك الاستغناء عن لصاقة المادية الاقتصادية نظرا لانها تأخذ عمليا بعين الاعتبار مجموع الحياة الاجتماعية ، حتى وان كان الوتر الاقتصادي يسود في هذه النغمة*

من الواضح ان السيد ميخائيلوفسكي يحتفظ بذكرى ثابتة عن المثل السائر اذا كان اسمك فطرا فتعال الى السلة انه يناقش كما يلي اذا كنت ماديا اقتصاديا، فيجب ان تثبت انظارك في **الاقتصاد** ، ولا تعالج « مجموع الحياة الاجتماعية، حتى وان كان الوتر الاقتصادي يسود في هذه النغمة » ولكننا اوضحنا من قبل للسيد ميخائيلوفسكي ان مهمة الماركسيين العلمية تكمن بالضبط فيما يلي: اما انطلقوا من « الوتر » ، فان من واجبهم ان يفسروا مجموع الحياة الاجتماعية كيف يمكنه ان يتوقع منهم في هذه الحالة ان يتخلوا عن هذه المهمة وان يظلوا ماركسيين في الوقت نفسه ؟ وطبيعي ان السيد ميخائيلوفسكي لم يشأ قط أن يفكر بصورة جدية في معنى هذه المهمة ، لكن الخطأ في ذلك لا يقع على كاهل نظرية ماركس التاريخية

اننا نفهم جيدا ، مادمنا لم نتخل عن المهمة المذكورة ، ان السيد ميخائيلوفسكي غالبا ماسوف يجد نفسه في مركز عسير فغالبا ماسوف يكون بعيدا جدا عن التفكير، حين يقرأ « صفحة جيدة ذات مضمون تاريخي » (« لن تتصوروا ذلك ») ان هذه الصفحة كتبها مادي اقتصادي هذا مايسمونه الوقوع في ورطة لكن أيكون ماركس ملوما اذا كان السيد ميخائيلوفسكي قد وقع فيها

ان آخيل المدرسة الذاتية يتوهم ان من واجب الماديين الاقتصاديين الا يتحدثوا الا عن التطور الذاتي لاشكال الانتاج والمبادلة ما هو هذا التطور الذاتي ، ايها السيد ميخائيلوفسكي العميق جدا ؟ اذا كنت تتوهم ان اشكال الانتاج يمكن في راي ماركس أن تتطور « من تلقاء ذاتها » فانك تخطىء بصورة فادحة ما هي علاقات الانتاج الاجتماعية ؟ علاقات بين كائنات بشرية كيف يمكنها ان تتطور دون هذه الكائنات ؟ ذلك انه اذا لم يكن هناك بشر، فلن تكون هناك اية علاقات للانتاج على الاطلاق يقول لك الكيميائي « تتركب المادة من جزيئات تتجمع في ذرات ، والذرات تتجمع بدورها في اجسام مركبة ؛ وان جميع العمليات الكيميائية تتم وفقا لقوانين معينة » امكنك ان تستخلص من ذلك هذه النتيجة المذهلة ، الا وهي ان الامر الهام بالنسبة الى الكيميائي هو القوانين وحدها وان المادة ــ الجزيئات والذرات ــ تستطيع تماما ان تبقى جامدة دون ان يمنع ذلك « التطور الذاتي » للتراكيب الكيميائية ؟ ان سخف هذه النتيجة واضح في نظر الجميع لكن الامر الذي لم يتضح بعد في نظر الجميع لسوء الحظ هو سخف التضاد (المماثل تماماً فيما يتعلق بقيمته الباطنة) **بين الفرد وقوانين الحياة الاجتماعية**،بين نشاط البشر والمنطق الباطن لاشكال تواجدهم

---

* **الرسول الروسي** ، كانون الثاني ١٨٩٤ ، القسم الثاني ص ١١٧ .

وانا نكرر ياسيد ميخائيلوفسكي ان مهمة النظرية التاريخية الجديدة تقوم في تفسير **« مجموع الحياة الاجتماعية » بما تسميه الوتر الاقتصادي ، يعني بتطور قوى الانتاج بالذات** . ان هذا الوتر » هو الاساس بمعنى ما ولقد قلنا اعلاه بأي معنى)، لكن السيد ميخائيلوفسكي يتوهم مخطئا ان الماركسي يعيش منه » **مثل شخصية** بودكا في مسرحية اوسبنسكي **المرقب**(٤٥)

ان تفسير مجموع التطور التاريخي مع التمسك بصورة حازمة بمبدأ وحيد بشكل مهمة عسيرة ولكن ماذا تريد ؟ ليس العلم على العموم بالأمر اليسير ، باستثناء العلم الذاتي الذي يوضح جميع القضايا بسهولة تبعث على الذهول وما دمنا تطرقنا الى هذا الموضوع فاننا سنخبر السيد ميخائيلوفسكي بأنه من الممكن في المسائل المتعلقة بتطور الافكار ان يجد حتى أخبر الناس بهذا « الوتر عاجزين كليا اذا لم يتمتعوا بموهبة خاصة **هي الحس الجمالي** ان علم النفس يتكيف مع الاقتصاد لكن هذا التكيف عملية معقدة وانا لنحتاج اكثر من مرة الى موهبة الفنان كي نفهم مسيرتها ونتصور جيدا كيف تتم ونبين ذلك للاخرين ومثال ذلك ان بلزاك حقق الشيء الكثير كي يفسر نفسية الطبقات المختلفة في المجتمع الذي كان يحيا فيه(٤٦) واننا نستطيع ان نتعلم الكثير من إبسن وعند كثيرين غيره ايضا ولنأمل بأن يظهر في سياق الزمن عدد كبير من امثال هؤلاء الفنانين الذين سيفهمون من جهة واحدة « القوانين الفولاذية » لحركة « الوتر » ، ويكونون قادرين من جهة ثانية على ان يفهموا ويُفهموا الاخرين كيف يكتسي هذا « الوتر ، بفضل حركته بالذات ، **« باللحم الحي » للايديولوجية** ولسوف تقول لي انه حيث تتدخل المخيلة الشعرية تتدخل بالضرورة نزوة الفنان واثر الوهم بالطبع ، وهذا امر لا بد من المرور به ولقد كان ماركس يعرفه جيدا ، ولذا يقول ان من واجبنا ان نقيم بالنسبة الى كل عصر تمييزا دقيقا بين **حالة الاقتصاد التي يمكن تحديدها بدقة العلوم الطبيعية وبين حالة الافكار** وان اشياء كثيرة جدا لا تبرح غامضة بالنسبة الينا في هذا المجال . ولكن هناك اشياء غامضة اكثر بالنسبة الى المثاليين ، واكثر منها بالنسبة الى الانتقائيين ، الذين لم يفهموا قط مغزى المصاعب التي يصادفونها متوهمين انه سيكون في مقدورهم على الدوام ان يسووا جميع المسائل بفضل **« التفاعل »** الشهير ، والحقيقة انهم لا يسوون شيئا على الاطلاق ، بل يختبئون فقط خلف ظهر الصعوبات التي يصادفونها ان النشاط الانساني المشخص لم يفسر حتى الان ، كما يقول ماركس ، الا من وجهة النظر المثالية وما الذي جرى اذن ؟ هل وجدوا الكثير من الايضاحات المرضية ؟ ان اعتباراتنا عن فعالية « النفس » الانسانية تفتقر الى الاساس الوطيد وتذكرنا بأحكام الفلاسفة الاغريق القدامى عن الطبيعة ان لدينا على الاكثر فرضيات عبقرية ، واحيانا ذكية فحسب ، يستحيل على اية حال اثباتها او البرهان عليها لافتقارنا الى اوهى نقطة استناد عملية ولم يتحقق شيء ما الا في تلك الحالات التي

لم يكن بد فيهـا من ربط النفسية الاجتماعية « بالوتر » ومع ذلك فحين اشـار ماركس الى ذلك ، واوصى بمواصلة المحاولات التي بوشرت ، وقال ان من واجبنا ان نسترشد « بالوتر » دائما ، فقد اتهم بالتحيز والضيق الذهني ! اهذا عدل ؟ ان علماء الاجتماع الذاتيين يستطيعون وحدهم ان يزعموا ذلك

ويستطرد السيد ميخائيلوفسكي ساخرا ما اظرف ذلك ان صيغتكـم الجديدة قد اكتشفت قبل خمسين عاما ؟

اجل ، ياسيد ميخائيلوفسكي حوالي ذلك الحين ، واخفاقك في فهم ذلـك يبعث على المزيد من الاسف اليس في العلم عدد كبير من مثل هذه الصيغ الجديدة التي اكتشفت منذ عشرات بل مئات السنين ، ومع ذلك فهي حتى الآن حـرف ميت بالنسبة الى الملايين من « **الافراد** » غير المعنيين بالمعرفة ؟ تخيل انـك التقيت برجل مثل هوتنتو ورحت تحاول اقناعه بأن الارض تدور حول الشمس ان هوتنتو يملك نظريته « الاصيلة » الخاصة عن الارض والشمس على حد سواء. وانه ليصعب عليه الاستغناء عن نظريته وانه سوف يأخذ في السخرية هو الاخر فيقول لك «انك تحمل لي صيغة جديدة تعترف بنفسك ان تاريخها يعود الى عدة قرون مضت.» ولكن ما الذي تثبته سخرية هوتنتو هذا ؟ ان هوتنتو هو هوتنتو ، وهو امر لم يكن في حاجة الى برهان

وعلى اي حال ، فان سخرية السيد ميخائيلوفسكي تبرهن عـلى اكـثر مما تستطيع سخرية هوتنتو ان تبرهن عليه انها تبرهن على أن صاحبنا «عالم الاجتماع» ينتسب الى مقولة الناس الذين ينسون قرابتهم ان وجهة نظره الذاتية قد ورثهـا بصورة خاصة عن برونو بوير ، وشيليغا وغيرهم من **السابقين** لماركس **بمعنى التقويم الزمني** وبالتالي فان « الصيغة الجديدة لميخائيلوفسكي اقدم من صيغتنا حتى بمعنى التقويم الزمني ، وهي من حيث مضمونها الباطن اقدم كثيرا لان مثاليـة برونو بوير التاريخية قد كانت عودة الى آراء ماديي القرن الثامن عشر*

ان السيد ميخائيلوفسكي قلق جدا لان كتاب الاميركي مورغان عن المجتمع القديم » ظهر بعد سنوات عديدة من نشر ماركس وانجلز لمبادىء المادية الاقتصادية(٤٨) و بصورة مستقلة عنها » تماما ولنقدم الملاحظة التالية في هذا الشأن

اولا ، ليس كتاب مورغان « مستقلا » عن المادية المدعوة الاقتصادية لهذا السبب البسيط جدا الا وهو ان مورغان نفسه يتبنى وجهة النظر هذه كما يستطيـع ميخائيلوفسكي ان يتبين بنفسه اذا قرأ الكتاب الذي يشير اليه صحيح ان مورغان

---

* واما بخصوص تطبيق علم الحياة على حل القضايا الاجتماعية ، فان الصيغة الجديدة موضوع البحث هي « نموذج يعود تاريخه كما رأينا الى حوالي عام ١٨٣٠ ان هذه الصيغ الجديدة للسيد ميخائيلوفسكي هي في واقع الامر صيغ قديمة محترمة جدا فالحقيقة ان « **الـذهن الروسي والنفس الروسية يثرثران ويكذبان عن اثنين** » (٤٧)

توصل الى المادية الاقتصادية بصورة مستقلة عن **ماركس وانجلز** ، ولكن هذا يشكل نقطة في صالح نظريتهما

ثانيا . ما وجه الخطأ اذا ادت اكتشافات مورغان الى اثبات نظرية ماركس وانجلز بعد سنوات عديدة ؟ اننا على ثقة من ان اكتشافات كثيرة اخرى سوف تبرهن عليها ايضا واما بخصوص موضوعات السيد ميخائيلوفسكي ، فان قناعتنا راسخة بالعكس تماما فلن يأتي اكتشاف واحد ليثبت وجهة النظر « الذاتية » لا في خمس سنوات ولا في خمسة آلاف سنة

ان مقدمة لانجلز(٤٩) قد اخبرت السيد ميخائيلوفسكي بأن مؤلف **اوضاع الطبقة العاملة في انكلترا** وصديقه ماركس كانا يملكان حوالي عام ١٨٤٥ معلومات « ناقصة » ان هذه الصيغة هي من انجلز) في تاريخ الاقتصاد وان السيد ميخائيلوفسكي ليغتبط بهذا الامر ايما اغتباط فما دامت عقيدة المادية الاقتصادية قد ظهرت حوالي ذلك الوقت فهي تفتقر اذن كليا الى الاساس الكافي وان هذا الاستنتاج لجدير بتلميذ ذكي في الصف الرابع ان اي شخص يافع يدرك ان تعابير «مناسب » و ناقص » و قليل » و « كثير يجب ان تؤخذ بمعناها النسبي لدى تطبيقها على المعرفة العلمية او على اي شيء آخر فبعد الاعلان عن المبادىء الاساسية للنظرية التاريخية الجديدة قضى ماركس وانجلز عشرات السنين في التعمق في تاريخ الاقتصاد ــ وقد حققا فيه نجاحات كبيرة ، وهو امر سهل الادراك نظرا لما يتحليان من قدرات استثنائية . **وكان لا بد ان يتبين لهما ، بفضل هذه النجاحات** ، ان اعلامهما السابق « ناقص الامر الذي لايعني بعد أن نظريتهما **تفتقر الى الاساس** . وقد صدر كتاب داروين عن اصل الانواع في عام ١٨٥٩ ، ونستطيع أن نؤكد ان مؤلفه وجد بعد عشر سنوات ان بضاعته من المعارف حين اصدر كتابه كانت ناقصة ولكن ما الذي يثبته هذا الامر ؟

ويسخر السيد ميخائيلوفسكي على هواه ايضا في موضوع هذه « النظرية التي تزعم تفسير التاريخ العمومي والتي كان تاريخ اليونان القديم وتاريخ الجرمان بالنسبة اليها لغزين لا بد من حلهما بعد اربعين سنة من اعلانها* يعني حتى صدور كتاب مورغان ولكن هذه السخرية لاتستند سوى الى « سوء فهم

اما ان **النضال الطبقي كان يشكل أساس** التاريخ الاغريقي والروماني ، فهذا ما لايمكن الا ان يكون معروفا لدى ماركس وانجلز حوالي عام ١٨٤٨ ولو لمجرد ان المؤلفين الاغريق والرومان كانوا يعرفونه من قبل اقرأوا توسيديديس وكزينوفون وارسطو واقرأوا المؤرخين الرومان ولو تيت ــ ليف وحده . الذي كثيراً ما ينتقل بصورة عابرة في وصفه الاحداث الى وجهة نظر ذاتية وسوف تجدون لدى كل منهم اليقين الوطيد بأن العلاقات الاقتصادية وما يترتب عليها من صراع طبقي،هي اساس

---

* المصدر نفسه . ص ٨.

التاريخ الباطن لمجتمعات ذلك الزمان وان هذا اليقين ليرتدي عندهم الشكل المباشر لتسجيل كل واقعة يومية بسيطة ومعروفة جيدا ، وان يكن بوليبوس يبني هذه المشاهدة على نوع من فلسفة التاريخ ومهما يكن من شيء فان هذه الحقيقة معترف بها من الجميع ، ولن يتصور السيد ميخائيلوفسكي على اي حال ان ماركس وانجلز « لم نقرآ القدماء » ان القضايا التي ظلت لغزاً لم يحل بالنسبة الى ماركس وانجلز ، وبالنسبة الى **جميع رجال العلم ايضا** ، قد كانت المسائل المتعلقة بأشكال **الحياة قبل التاريخية** في اليونان وروما وبين القبائل الجرمانية (كما يقول السيد ميخائيلوفسكي نفسه في كل مكان) وان **هذه** القضايا هي التي حمل كتاب مورغان حلها لكن اترى مؤلفنا يتصور انه لم تكن ثمة مسائل غير محلولة في علم الحياة بالنسبة الى داروين عندما كتب كتابه السهير

ويستطرد السيد ميخائيلوفسكي قائلا

ان مقولة الضرورة عمومية عامة جدا بحيث تحتضن حتى الآمال الاشد جنونا والمخاوف الاشد حماقة التي هي مدعوة في الظاهر الى مكافحتها ومن وجهة نظرها ليس الامل في تحطيم الجدار بالجبين حماقة بل ضرورة ، بالضبط كما ان كواسيمودو لم يكن احدب بل ضرورة وقايين ويهوذا لم يكونا شريرين بل ضرورتان وباختصار فانه اذا كان لا بد لنا ان نسترشد بها وحدها في الحياة العملية وقعنا في فراغ وهمي لا حدود له حيث لا توجد افكار ولا موضوعات ولا ظواهر ، بل مجرد اشباح غامضة للافكر والاشياء*» .

بالضبط ، ياسيد ميخائيلوفسكي ان المسوخ من جميع الانواع تمثل نتاجا للضرورة مثلها كمثل الظواهر الاكثر طبيعية وان لم يترتب على ذلك ان يكف يهوذا عن كونه مجرما ، طالما انه من العبث الخالص معارضة فكرة الاجرام بفكرة « الضرورة » لكن اذا كنت ياسيدي العزيز تتوق الى مرتبة البطولة (وكل مفكر ذاتي بطل ذاتي بفعل مهنته اذا جاز التعبير) فاسع وبرهن اذن على انك لست بطلا مجنونا ، وان آمالك ليست حمقاء ولا مخاوفك مجنونة وانك لست « كواسيمودو » الفكر ، وانك لاتدعو **الجمهور** الى « تحطيم الجدران بالجبين ولا بد لك من سوء الحظ من اجل اثبات جميع هذه الامور ان تلجأ الى مقولة الضرورة وانت تجهل كيفية استعمالها بل ان ذاتيتك تمنعك من مجرد التفكير في ذلك ، طالما ان هذه المقولة تحول بالنسبة اليك الواقع الى مملكة الاشباح وانك لتجد نفسك اذن في طريق مسدودة وعندئذ توقع على **Testimoniun Paupertatis من اجل علم الاجتماع الخاص بك مؤكدا ان « مقولة الضرورة » لا تثبت شيئا بحجة انها تثبت الشيء الكثير وان هذه الشهادة النظرية لفقر الحال هي الوثيقة

---

* المصدر نفسه ، ص ١١٣ — ١١٤

** [شهادة فقر حال]

الوحيدة التي تزود بها تلامذتك « **الباحثين عن المدينة** »* ان هذا لهزيل ، **هزيل** جدا ، ايها السيد ميخائيلوفسكي

ان قرقف كريلوف يدعي انه الطير البطولي الذي ليس اشعال الحريق في المحيط الا لهوا بالنسبة اليه وحين يطلب منه ان يفسر على اية **قوانين** فيزيائية او كيمائية يرتكز مشروعه الخاص باشعال النار في البحر يجد نفسه في المصاعب ، وكيما يتملص منها بطريقة ما يروح يتمتم في كآبة ويهمس لا يكاد يسمع ان « القوانين مجرد طريقة في الكلام ، لكنها في واقع الامر لاتفسر شيئا ، والمرء لا يستطيع ان يؤسس عليها اي مشروع كان ، وانه يجب عليه ان يضع رجاءه في المصادفة وحدها ، اذ من المعروف منذ زمن طويل ان المرء يستطيع في المآزق ان يصنع سهامه من اي خشب كان . ومهما يكن من شيء ، فان La raison finit toujours par avoir raison**

أواه ! ياله من طير شرير لا عقل له

لنقارن هذه التمتمة الغامضة للقرقف بفلسفة ماركس التاريخية الجريئة والمتناسقة بصورة تبعث على الذهول

كان اسلافنا القردة ، مثلهم كمثل جميع الحيوانات الاخرى ، في حالة خضوع تام **للطبيعة** ولقد كان تطورهم تطورا لا شعوريا مطلقا يحدده التكيف مع البيئة بواسطة الانتقاء الطبيعي في الصراع من اجل الوجود وتلك كانت المملكة المظلمة **للضرورة الحكمية** وفي ذلك الحين لم يكن **فجر الشعور ، وبالتالي الحرية** ، قد اشرق بعد بيد ان الضرورة الحكمية اوصلت الانسان الى مرحلة من التطور جعل ينفصل فيها شيئا فشيئا عن بقية العالم الحيواني. لقداصبح **حيوانا صانعا للادوات .** ان الاداة عضو يؤثر الانسان بواسطته في الطبيعة كي يحقق اهدافه ، انه عضو يخضع **الضرورة للشعور** الانساني ، وان يكن ذلك بنسبة ضئيلة جدا بادىء الامر ، بقطع ونتف اذا جاز مثل هذا التعبير **ان درجة تطور القوى المنتجة تحدد مقياس سلطان الانسان على الطبيعة .**

وان تطور القوى المنتجة يتحدد هو نفسه بصفات البيئة الجغرافية المحيطة بالانسان وبهذه الطريقة ، فان الطبيعة بالذات تمنح الانسان وسائل اخضاعها

بيد ان الانسان لا يصارع الطبيعة بصورة فردية فالصراع معها يجري، حسب تعبير ماركس من قبل الانسان الاجتماعي (der Gesselschaftsmench) , يعني جماعة تتفاوت في حجمها وان خصائص الانسان الاجتماعي تتحدد في زمن معين بدرجة تطور القوى المنتجة ، لان بنية الجماعة بأكملها تتوقف على درجة تطور هذه القوى وهكذا فان هذه البنية تتحدد في سياق الزمن بخصائص البيئة

* [اشارة الى رسالة القديس بولس الى العبرانيين (الاصحاح ١٢ ، الفقرة ١٤) حيث يقول : ليس لدينا مدينة دائمة ، لكننا نبحث عن المدينة الآتية]

** [ينتهي العقل دائما بأن يكون الحق الى جانبه]

الجغرافية التي توفر للبشر امكانية اكبر او اقل من اجل تطوير قواهم المنتجة لكنه حالما تقوم بعض العلاقات الاجتماعية المحددة فان تطورها اللاحق يتم وفقا **لقوانينها الخاصة** التي يؤدي فعلها الى تسريع او تأخير تطور القوى المنتجة التي تحدد التطور التاريخي للانسان ان تبعية الانسان للبيئة الجغرافية تتحول من تبعية **مباشرة** الى تبعية **غير مباشرة** ان البيئة الجغرافية تؤثر في الانسان من خلال البيئة **الاجتماعية**، لكن علاقة الانسان ببيئته الاجتماعية تصبح **بفضل ذلك** متغيرة حتى الدرجة القصوى، فهي تختلف في كل مرحلة من مراحل تطور القوى المنتجة عما كانت عليه من قبل ان البيئة الجغرافية قد اثرت في البريطانيين في عصر قيصر بصورة تختلف كل الاختلاف عن تأثيرها في السكان الحاليين لبريطانيا العظمى وبهذه الطريقة حلت **المادية الجدلية التناقضات** التي لم يعرف فلاسفة الانوار في القرن الثامن عشر سبيلا الى الخروج منها*

ان تطور البيئة الاجتماعية خاضع لقوانينه الخاصة . وهذا يعني ان خصائصه وقف حتى درجة قليلة على ارادة البشر وشعورهم بقدر خصائص البيئة الجغرافية ان فعل الانسان في الطبيعة بواسطة الانتاج قد ادى الى قيام شكل جديد لتبعية الانسان ، نمط جديد لعبوديته ، الا وهي **الضرورة الاقتصادية** وبقدر ما كانت سلطة الانسان على الطبيعة تنمو وبقدر ماكانت قواه الانتاجية تتطور كانت هذه العبودية تزداد استقرارا **ان علاقات البشر المتبادلة في عملية الانتاج الاجتماعية قد ازدادت تعقيدا مع تطور القوى المنتجة** ؛ فقد افلت مجرى هذه العملية كليا من ايديهم، **وأصبح المنتج عبدا لانتاجه الخاص** مثال ذلك الفوضى الراسمالية في الانتاج

لكنه كما ان الطبيعة المحيطة بالانسان نفسه اعطته الفرصة الاولى من اجل **تطوير** قواه المنتجة ، وبالتالي من اجل التحرر بصورة تدريجية من نير الطبيعة ، **كذلك** تقود علاقات الانتاج العلاقات الاجتماعية ، بفعل منطق تطورها بالذات الانسان الى ادراك اسباب استعباده من قبل الضرورة **الاقتصادية** وان هذا ليوفر امكانية انتصار جديد وحاسم **للشعور** على **الضرورة** ، **للعقل** على **القانون** الاعمى

---

* يقول مونتسكيو في هذا الشأن اذا ما اعطيت البيئة الجغرافية مرة فان طابع المجتمع يعطى في الوقت نفسه ان الاستبداد وحده يمكن يقوم في بيئة ما وجمهوريات مستقلة صغيرة يمكن ان تقوم في بيئات اخرى.الخ فولتير قائلا كلا ان علاقات اجتماعية متنوعة تنشأ في سياق الزمن في نفس البيئة الجغرافية الواحدة وبنتيجة ذلك فانه ليس للبيئة الجغرافية تأثير في المصير التاريخي للجنس البشري ان الامور جميعا تتوقف على رأي البشر لقد رأى مونتسكيو جانبا واحدا من التناقض ، وفولتير وانصاره رأوا الجانب الاخر وكان التناقض يحل عادة بمساعدة التفاعل وحده. وان **المادية الجدلية** لتعترف كما رأينا بوجود التفاعل ، لكنها تفسره بالاستناد الى تطور القوى المنتجة ان التناقض الذي لم يكن في وسع فلاسفة الانوار في افضل الاحوال سوى اخفائه في جيوبهم يحل بطريقة بسيطة جدا وان **المحاكمة الجدلية** لتثبت هنا ايضا انها أقوى بما لا يقاس من **الحس المشترك** (« العقل » لفلاسفة الانوار .

واما يدرك المنتج (« الانسان الاجتماعي ») ان سبب عبوديته من قبل انتاجه الخاص يقوم في فوضى الانتاج ، فانه ينظم **هذا الأنتاج** وبذلك يخضعه لارادته عندئذ تنتهي مملكة الضرورة ويقوم ملك **الحرية** التي تثبت انها **ضرورة** هي نفسها. ان الستار يسدل على مقدمة التاريخ البشري ، ويبدأ التاريخ*

وهكذا فان المادية الجدلية لاتسعى ، كما ينسب خصومها اليها ، الى اقناع الانسان بأنه من العبث التمرد على الضرورة الاقتصادية ، بل هي سباقة الى ارشاده الى **كيفية التغلب** على هذه الضرورة وهكذا يتم القضاء على **القدرية الحتمية** اللاصقة **بالمادية الميتافيزيائية** ، كما يتم القضاء ، بالطريقة ذاتها بالضبط ، على كل اساس لذلك التشاؤم الذي تؤول اليه بالضرورة كل **مثالية** حازمة **ويقول** جورج بوخنر ان الفرد مجرد زبد على قمة الموج ، والبشر يخضعون لقانون فولاذي يمكن اكتشافه فقط لكن لا يمكن اخضاعه للارادة البشرية ويرد ماركس قائلا لا ، فنحن حين **نكتشف** هذا القانون الفولاذي ، فان امر الاطاحة بنيره يتوقف علينا وحدنا ، كما يتوقف علينا ان نجعل من **الضرورة** عبدا مطيعا **للعقل**

يقول المثالي انا حشرة ويرد عليه المادي الجدلي قائلا انا حشرة مادمت جاهلا لكنني اله عندما **اعرف** (** Tantum possumus, quantum scimu)

---

* اننا نأمل ان تتضح بعد كل ماقيل العلاقة القائمة بين تعاليم ماركس وتعاليم داروين لقد نجح داروين في حل قضية اصل الانواع الحيوانية والنباتية في النضال من اجل الوجود وقد حل ماركس قضية قيام الانماط المختلفة للتنظيم الاجتماعي في نضال البشر من اجل وجودهم ومنطقيا ، تبدأ ابحاث ماركس حيث انتهت ابحاث داروين ان الحيوانات والنباتات خاضعة لفعل البيئة **الحكمية** ، وهذا الفعل يطبق على الانسان الاجتماعي بواسطة العلاقات الاجتماعية التي تنشأ من القوى المنتجة التي تتطور بادىء الامر بسرعة اكثر او اقل وفقا لخصائص البيئة الحكمية ويفسر داروين اصل الانواع **لا** انطلاقا من تكيف العضوية مع شروط قائمة خارجا عنها ، **لا بطبيعة العضوية** بل بفعل **الطبيعة الخارجية.** وان ماركس ليفسر تطور الانسانية التاريخي **لا بالطبيعة الانسانية** بل بطابع **العلاقات** القائمة بين البشر ، العلاقات الناجمة عن فعل الانسان الاجتماعي في **الطبيعة الخارجية** وان الروح التي وجهت كلا المفكرين في ابحاثهما مماثلة بصورة مطلقة ولذا نستطيع ان نقول ان الماركسية هي الداروينية المطبقة على علم المجتمعات ونحن نعرف الاشياء **زمنيا** لم تجر على هذا المنوال ، ولكن هذا امر غير ذي بال) ، بيد أن التطبيق **العلمي** لا يمضي الى ابعد من ذلك ان النتائج التي استخلصها من الداروينية بعض المؤلفين البورجوازيين ليست تطبيقا علميا لها على دراسة الانسان الاجتماعي ، بل مجرد طوباوية بورجوازية ، مجرد عظة اخلاقية ذات مضمون قبيح بقدر ماتنطوي عظات السادة الذاتيين على مضمون جميل الكتاب البورجوازيين الذين يستشهدون بداروين انما يوصون قراءهم في واقع الامر **ليس بطرائق المؤلف العلمية بل بالغرائز الحيوانية لتلك الحيوانات التي درسها داروين** واذا كان ماركس يلتقي بداروين ، فان الكتاب البورجوازيين يلتقون **بالحيوانات التي درسها داروين .**

** (نستطيع بقدر معرفتنا ، فرنسيس بيكون)

وانهم ليثورون ضد هذه النظرية التي قدمت للمرة الاولى اساسا وطيدا من اجل حقوق العقل الانساني ، والتي رات في العقل للمرة الاولى لادمية عاجزة في يد المصادفة بل قوة عظيمة لا تغلب ، ويثورون باسم حقوق نفس هذا العقل الذي يزعمون انه يداس بالاقدام ، وباسم مثل عليا يدعون انها موضع الازدراء وانهم ليجرؤون على اتهام هذه النظرية بالخمول ، بالاستسلام للاحداث بتملق هذه الأحداث على وجه التقريب ، مثلما كان مولخالين بطل غريبوئيدوف يتملق جميع الذين يعلونه في الرتبة ! في الحقيقة اننا نواجه هنا حالة ذلك الانسان الذي يلقي تبعة اخطائه على عاتق الآخرين

تقول **المادية الجدلية**✻ ان العقل البشري لا يمكن ان يكون خالق التاريخ لانه هو نفسه **نتاج** التاريخ ، لكن هذا النتاج حين ظهر **لايجوز** — وهو بفعل طبيعته بالذات **لايستطيع** — ان ينحني امام الواقع الذي اورثه اياه التاريخ ، انه يسعى جاهدا بالضرورة كي يحول هذا الواقع على صورته ومثاله ، **ان يجعله اكثر عقلانية**

ان المادية الجدلية ، مثلها كمثل فاوست غوته ، تنادي

Im Anfang war die Tat !✻✻

ان**الفعل** (الفعالية البشرية المحددة بقوانين والمتظاهرةفيعملية الانتاج الاجتماعية) يفسر للجدلي المادي التطور التاريخي للعقل عند الانسان الاجتماعي✻✻✻ وان **الفلسفة العملية** للمادية التاريخية تعود بأكملها الى الفعل ان **المادية الجدلية فلسفة للفعل** .

وحين يقول المفكر المثالي « **مثلي الاعلى** » فانه يؤكد بذلك **انتصار الضرورة العمياء** ان المفكر المثالي عاجز عن اقامة مثله الاعلى على عملية تطور الواقع ، ولذا فان حقل المصادقة الذي لا حدود له — وبنتيجة ذلك حقل الضرورة العمياء — يبدأ في الحال فيما وراء جدران الحديقة الهزيلة لمثله الاعلى وان المادية الجدلية لتدلنا على الطريقة من اجل تحويل ذلك الحقل الى **حديقة** واسعة يزدهر فيها **المثل الاعلى** بيد انها تضيف فقط ان **تربة هذا الحقل بالذات** هي التي تكشف لنا عن عوامل ذلك التحول **وعلينا ان نكتشفها وان نكون قادرين على استعمالها** .

✻ نستعمل تعبير المادية الجدلية لانه يستطيع وحده ان يسم بصورة مضبوطة فلسفة ماركس لقد كان دولباخ وهيلفيتيوس ماديين ميتافيزيائيين وكانا يكافحان المثالية الميتافيزيائية لكن ماديتهما افسحت المكان للمثالية الجدلية التي غلبت بدورها من قبل المادية الجدلية ان عبارة « المادية الاقتصادية غير صالحة على الاطلاق ، وماركس لم يسم نفسه قط ماديا اقتصاديا

✻✻ [في البدء كان الفعل]

✻✻✻ « ان الحياة الاجتماعية **عملية** بصورة جوهرية وان سائر الاسرار التي انحرفت بالنظرية في اتجاه الصوفية تجد حلها العقلاني في الممارسة الانسانية وفي تفهم هذه الممارسة [ماركس فروض عن فيورباخ في كتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، منشورات دار دمشق ، ص ١٠٩ — ١١٠] .

ان المادية الجدلية ، على النقيض من الذاتية ، لا تحدد حقوق العقل فهي تعلم ان حقوق العقل غير محدودة وغير متناهية مثلها كمثل قواه انها تنادي بأن كل ما في رأس الانسان من اشياء معقولة ، يعني كل ما لا يمثل وهما بل معرفة حقيقية بالواقع ، سوف تنتقل بالضرورة الى هذا الواقع وسوف تجلب اليه بالضرورة نصيبها الخاص من العقلاني

يستطيع المرء ان يتبين من هنا ما هو دور الفرد في التاريخ في رأي الجدليين الماديين انهم ابعد ما يكون عن الغاء هذا الدور ، بل يطرحون امام الفرد رسالة لا بد من وصفها بأنها **مثالية بصورة خالصة وكلية** بالمعنى المبتذل وغير الصحيح للكلمة فما دام العقل لا يستطيع ان يتغلب على الضرورة العمياء الا بعد ان يتعلم كيف يعرف قوانينها الباطنة ، الا بعد ان يقهرها بنفس اسلحتها ، فان تقدم المعرفة وتطور الوعي الانساني يصبحان المهمة العظمى والاسمى الملقاة على عاتق الفرد المفكر Licht, Mehr licht !* ـ هذا هو اشد مانحتاج اليه

لقد قيل منذ زمن طويل لا يشعل الانسان مصباحا ويضعه تحت المكيال ويضيف المادي الجدلي الى ذلك ولكن هذا النور لا يجوز حبسه في غرفة عمل المثقف ان مملكة العقل ستظل عبارة طنانة وحلما سمحا طالما كان « ابطال » يتصورون انه يكفي ان ينيروا عقلهم الخاص كي يقودوا الجمهور على هواهم ويصهروه كما يحلو لهم ان هذه المملكة لن تقترب منا بخطوات العمالقة الا حين يصبح الجمهور نفسه بطل التاريخ ، حين ينمو في ذهنه الوعي المناسب ولقد قلنا طوروا الوعي الانساني ونضيف الآن طوروا الوعي الذاتي عند المنتجين واذا كانت الفلسفة الذاتية تبدو ضارة في نظرنا ، فالسبب في ذلك على وجه الدقة انها تمنع المثقفين من الاسهام في تقدم هذا الوعي اذ نقيم التعارض بين البطل والجمهور، وتمثل هذا الجمهور على اعتباره سلسلة من الاصفار تتوقف قيمتها فقط على المثل الاعلى للبطل الذي يقودها

يقول المثل الشعبي لا دخان بلا نار ويقول الذاتيون اذا كان هناك ابطال فان هناك دائما جمهورا لهم ، ونحن ، الانتليجنتريا الذاتية ، اولئك الابطال . واننا نرد على ذلك قائلين ان التعارض الذي تقيمونه بين الابطال والجمهور مجرد ادعاء ، وبالتالي وهم خالص ولسوف تبقون ثرثارين خالصين مالم تفهموا انه لا بد لكم في سبيل تحقيق النصر لمثلكم الاعلى ، ان تقضوا على كل امكانية لمثل ذلك التعارض وان توقظوا في الجمهور الوعي البطولي بالذات**

---

* [النور ، مزيدا من النور كلمات غوته الاخيرة على فراش الموت]

** مع عمق الفعل التاريخي تزداد اذن سعة الجمهور الذي تشكل فعله » ماركس « العائلة المقدسة .

لقد كان الماديون الفرنسيون يقولون ان الراي يسود العالم ، ولما كنا ممثلي الرأي فنحن خالقو التاريخ اذن اننا الابطال ، وما على الجمهور الا ان يتبعنا

ان هذا الضيق الفكري قد كان يقابل المركز الاستثنائي لفلاسفة الانوار لقد كانوا يمثلون **البورجوازية** .

وان المادية الجدلية الحديثة تسعى الى القضاء على الطبقات وبالفعل فهي قد ظهرت حين اصبح هذا القضاء على الطبقات ضرورة تاريخية ولذا فهي تتوجه الى المنتجين الذين يجب ان يصيروا ابطال المرحلة التاريخية الآتية وهكذا فان العلم والعمال يتلاقون للمرة الاولى منذ كان العالم ومنذ كانت الأرض تدور حول الشمس : ان العلم يسرع الى نجدة الجماهير الكادحة ، والجماهير الكادحة تعتمد على نتائج العلم في حركتا الواعية

واذا كان هذا كله مجرد ميتافيزياء ففي الحقيقة اننا لا ندري ما الذي نسميه خصومنا ميتافيزياء

ويرد الذاتيون لكن كل ماتقوله منوط بميدان النبوءة وحدها انه مجرد تخمين يتخذ شكلا منهجيا حتى درجة ما بفضل احابيل الجدلية الهيغلية وحدها وهذا هو السبب في اننا ندعوكم ميتافيزيائيين

ولقد بينا من قبل انه لا يمكن ادخال « الثلاثية » في نزاعنا الا حين يفتقر المرء الى ادنى فكرة عنها ولقد رأينا اعلاه ان هذه « الثلاثية » لم تلعب قط عند هيغل نفسه دور **الحجة** ، وانها لم تكن قط صفة مميزة لفلسفته ولقد بينا كذلك ــ على الاقل نجرؤ على الأمل في ذلك ــ ان ما يصنع قوة المادية التاريخية ليس هو اللجوء الى الثلاثية بل التحليل العلمي للتطور التاريخي ولذا فانه في مقدورنا الا نهتم بهذا الاعتراف البتة لكننا نعتقد ان القارىء سوف يجد الفائدة اذا تذكر الحقيقة الهامة التالية من تاريخ الادب الروسي في السبعينات

لقد اشار السيد جوكوفسكي في تحليله لكتاب **راس المال**(٥٠) الى ان المؤلف يستند فيما يسمونه اليوم تنبؤاته على اعتبارات « صورية » فحسب ، وان محاكمته تشكل دون شعور منه ، تلاعبا خالصا بالمفاهيم واليكم كيف يرد الراحل نقولاس سيبير على هذه التهمة

> اننا نظل على قناعة بأن دراسة القضية المادية عند ماركس تسبق الجانب الصوري من عمله ولو ان السيد جوكوفسكي قرأ كتاب ماركس بمزيد من الاهتمام وعدم التحيز ، فاننا نعتقد انه سيكون أول من يوافقنا على ذلك فمن المؤكد انه كان تبين اذن ان مؤلف **راس المال** يثبت ، بواسطةدراسة الشروط المادية للمرحلة الرأسمالية التي نجتازها بالضبط، ان الانسانية لا تطرح قط على نفسها الا المهمات التي تستطيع ان تحلها . ان ماركس يقود

قراءه خطوة خطوة عبر تيه الانتاج الراسمالي ويجعلنا نفهم ، بتحليل عناصره المركبة ، طابعه المؤقت »*

ويستطرد ن. سيبير قائلا

« لنأخذ الصناعة الكبرى بما تفترضه كل من عملياتها من انتقال متواصل من يد الى يد ، بحركتها الحموية التي تدفع بصورة يومية على وجه التقريب العمال من مصنع الى آخر افلا تشكل شروطها المادية بيئة تحضيرية لاشكال جديدة للنظام الاجتماعي، للتعاون الاجتماعي ؟ افلا تعمل في نفس المنحى الازمات الاقتصادية التي تتكرر بصورة دورية؟ افلا تسعى الى نفس الهدف القيود المفروضة على الاسواق ، وانقاص يوم العمل ، وتنافس البلدان المختلفة في السوق العالمية ، وانتصار الراسمال الكبير على الراسمال الصغير ؟..»

وبعد ان يشير ن. سيبير الى الزيادة السريعة غير المعقولة في القوى المنتجة التي ترافق تطور الراسمالية ، فأنه يسأل من جديد

أم ان هذه الامور ليست تحولات مادية ، بل تحولات صورية خالصة ؟ افلا يشكل الواقع التالي على سبيل المثال ، الا وهو ان الانتاج الراسمالي يغمر بصورة دورية السوق العالمية بالسلع ، ويدفع بالملايين الى الموت جوعا بينما هناك فائض من سلع الاستهلاك ، تناقضا فعليا ؟.. ثم اليس هو تناقضا فعليا آخر للراسمالية — ولنقل بصورة عابرة انه تناقض يعترف به عن طيبة خاطر الراسماليون انفسهم — انها تشكو من نقص الايدي العاملة بينما هي تسرح عددا كبيرا من العمال ؟ اليس من قبيل التناقض الفعلي انها تحول وسائل اختصار العمل البدني ، مثل التحسينات والاتقانات الآلية وغيرها ، الى وسائل من اجل اطالة يوم العمل ؟ اليس من قبيل التناقض الفعلي ان الراسمالية ، وهي تنادي بعصمة الملكية ، تنتزع اراضي غالبية الفلاحين ، وتحيل الغالبية العظمى من السكان الى يد عاملة مأجورة ؟

اتكون هذه الحقائق جميعا ، وكثير غيرها ، مجرد ميتافيزياء دون ان يكون لها وجود واقعي ؟ لكنه يكفي ان نتناول اي عدد من المجلة الانكليزية ايكونومست لنقتنع في الحال بالعكس من ذلك وهكذا فان الباحث في الشروط الاجتماعية والاقتصادية في الوقت الحاضر لايحتاج مطلقا لان ينسب الى الانتاج الراسمالي تناقضات جدلية وصورية خالصة بصورة قبلية اذ لديه من التناقضات الفعلية ما يستنفد منه حياة كاملة »

وبالرغم من ان رد سيبير مقنع في مضمونه ، فانه معتدل في شكله اما رد السيد ميخائيلوفسكي على الكاتب نفسه فيتسم بطابع مختلف كل الاختلاف

---

* ن. سيبير بعض الملاحظات بشأن مقالة السيد جوكوفسكي ، كارل ماركس وكتابه عن راس المال» Otetchstvenniye Zapiski ، تشرين الثاني ١٨٧٧ ، ص ٦) .

ان هذا الذاتي الفاضل يفهم حتى في الوقت الراهن بصورة « **ضيقة** » جدا ، كي لا نقول بصورة محدودة ، المؤلف الذي كان يدافع عنه وتقتذاك ، بل يحاول ان يقنع الآخرين بأن هذا التفسير المحدود هو التفسير الصحيح الوحيد . وان مثل هذا الشخص لا يمكن بطبيعة الحال ان يكون مدافعا يركن اليه عن **راس المال** ، ولذا فقد غص جوابه بالطرف الصبيانية جدا . واليكم احدى هذه الطرف على سبيل المثال ان السيد جوكوفسكي ، كي يدعم التهم التي وجهها الى ماركس ـ الصورية واساءة استعمال الجدلية الهيغلية ـ يستشهد خاصة بفقرة من مقدمة **نقد الاقتصاد السياسي** . ويجد السيد ميخائيلوفسكي ان خصم ماركس « مصيب حين يرى في هذا النص انعكاسا للفلسفة الهيغلية « **لو ان ماركس لم يكتب الا مقدمة « النقد »** ، فان **السيد جوكوفسكي سيكون على صواب مطلق*** ـ يعني ان ذلك سوف يثبت اذن ان ماركس لا يعدو كونه صوريا وهيغليا ان السيد ميخائيلوفسكي قد اخطأ الهدف هنا بكل براعة ، و استنفد » حتى درجة كبيرة عواقب بادرته ، بحيث لا بد للمرء ان يتساءل اترى هذا الكاتب الذي كان يثير قدرا كبيرا من الآمال قد قرأ المقدمة التي استشهد بها** ؟ ونستطيع ان نورد عددا من الطرف المماثلة (سوف تصادف احداها ادناه) ، لكنها ليست موضع البحث هنا . فمهما يكن فهم السيد ميخائيلوفسكي لماركس سيئا فقد ادرك مع ذلك في الحال ان السيد جوكوفسكي « **يهرف** » في موضوع « **الصورية** » ، واتضح له ان مثل هذا الهراء انما هو نتيجة افراط في **الوقاحة** .

ويلاحظ السيد ميخائيلوفسكي بحق

لو ان ماركس قال ان قانون تطور المجتمعات الحديثة هو بحيث تنكر بصورة عفوية حالتها السابقة ، ومن بعد تنكر هذا الانكار ، بحيث توفق بين تناقضات المراحل التي اجتازتها في وحدة الملكية الفردية الملكية الجماعية ، لو انه قال هذا الشيء **فقط** (حتى عبر صفحات وصفحات) ، فلن يكون الا هيغليا محضا يصنع القوانين في اعماق فكره ويكتفي بمبادىء صورية خالصة دون اي اعتبار لمضمونها لكن كل من قرأ **راس المال** يعرف انه قال اكثر من ذلك »

وفي رأي السيد ميخائيلوفسكي ان المصطلحات الهيغلية التي حشر ماركس فكره الاقتصادي فيها يمكن نزعها بكل سهولة مثل القفاز او القلنسوة

« واما مراحل التطور الاقتصادي التي تم اجتيازها ، فلا يمكن ان يكون ثمة ادنى شك بشأنها ان تالي العملية امر يتسم بالقدر نفسه من التأكيد ، الا وهو تمركز وسائل الانتاج اكثر فأكثر في عدد متناقص من الايدي ومن المؤكد انه يمكن ان تكون ثمة شكوك

---

* ميخائيلوفسكي **المؤلفات** ، المجلد الثاني ، ص ٣٥٨

** ان ماركس يعرض في هذه الفقرة بالضبط تصوره المادي للتاريخ .

بخصوص المستقبل فماركس يفترض انه مادام تمركز الرأسمال يترافق بتشريك العمل ، فان هذا التشريك يشكل الاساس الاقتصادي واخلاقي [كيف يمكن لتشريك العمل ان « يشكل » الاساس الاخلاقي ؟ وماذا عن « التطور الذاتي للاشكال » اذن ؟ — ج . ب .] الذي سوف يتطور عليه نظام حقوقي واجتماعي جديد ان السيد جوكوفسكي على حق تام حين يسمي هذه الفرضية تخمينا ، ولكنه لا يملك اي حق [اي حق «اخلاقي» طبعا —ج.ب.] في ان يسكت عن الدور الذي ينسبه ماركس الى عملية التشريك ...*

ويلاحظ السيد ميخائيلوفسكي بحق

« ان **رأس المال** كرس بأكمله لدراسة كيف ان الشكل الاجتماعي ، اذا ما ظهر مرة ، لا يكف عن التطور ، وعن تقوية خصائصه النموذجية ، مخضعا ومتمثلا » (؟) « الاكتشافات والابتكارات والتحسينات في وسائل الانتاج ، والاسواق الجديدة ، والعلم نفسه ، مجبرا اياها على العمل من أجله ، وكيف ان هذا الكهل يصبح اخيرا عاجزا عن مقاومة التبدلات التالية في الشروط المادية** »

« وعند ماركس ، « فان تحليل العلاقات بين الشكل الاجتماعي [يعني الرأسمالية ، اليس كذلك ايها السيد ميخائيلوفسكي ؟ — ج.ب.] وشروط وجوده المادية [يعني القوى المنتجة التي تجعل وجود الشكل الرأسمالي للانتاج اكثر تزعزعا باستمرار ، اليس كذلك ايها السيد ميخائيلوفسكي ؟ — ج.ب.] هو بالضبط الذي سوف يبقى صرحا لمنطق المؤلف وسعة اطلاعه وان السيد جوكوفسكي ليجد الشجاعة الخلقية على التأكيد بأن ماركس يتهرب من هذه المسألة ليس في مقدور المرء أن يفعل هنا اكثر من ذلك ولا يبقى لنا الا ان نتأمل ، في ذهول ، بقية التمارين الباعثة على الدوار التي يقوم بها ، منفذا قفزاته المحفوفة بالمخاطر كي يسلي الجمهور الذي سيفهم قسم منه في الحال من دون ريب ان بهلوانا شجاعا يعرض العابه امامه ، بينما القسم الاخر سوف يعزو ، للاسف الشديد ، معنى آخر الى هذا المشهد المدهش*** »

وباختصار **** ، فاذا كان السيد جوكوفسكي قد اتهم ماركس بالصورية ، فان هذه التهمة تشكل ، في رأي السيد ميخائيلوفسكي ، « كذبة كبيرة تتألف من الاكاذيب الصغيرة »

حكم قاس ، لكنه عدل ... لكنه اذا كان عادلا بحق السيد جوكوفسكي ، فانه عادل كذلك بحق جميع اولئك الذين يكررون اليوم ان « تخمينات » ماركس لاتقوم الا

---

* المصدر نفسه ، ص : ٣٥٣ — ٣٥٤

** المصدر نفسه ، ص : ٣٨٧

*** المصدر نفسه ، ص : ٣٥٧ — ٣٥٨

**** [Summa summarun باللاتينية في النص الاهلي]

على اساس الثلاثية الهيغلية وحدها واذا كان ذلك الحكم عادلا بحق جميع هؤلاء الناس ، اذن تلطفوا فاقرأوا المقطع التالي

لقد حشا [كارل ماركس] بالحقائق المخطط الجدلي الاجوف بحيث يمكن رفع هذا المخطط مثلما يرفع غطاء عن إناء دون افساد اي شيء باستثناء نقطة واحدة — وهي حقا عظيمة الاهمية ففيما يتعلق بالمستقبل ، تصاغ القوانين « المحايثة » للمجتمع بصورة مفرطة الجدلية وانه ليكفي الهيغلي الاورثوذكسي ان يقرأ ان « الانكار يجب ان يتلوه انكار الانكار » ، لكن العاميين في الحكمة الهيغلية لا يمكن ان يرضوا بذلك فالاستقراء الجدلي ليس برهانا بالنسبة اليهم ؛ وان غير الهيغلي الذي آمن بذلك يجب ان يعرف انه مجرد ايمان ، وليس يقينا* »

ان السيد ميخائيلوفسكي قد تفوه بنفسه بادانته الخاصة .

ان السيد ميخائيلوفسكي يعرف قبل اي امرىء آخر انه يستأنف هنا كلمات السيد جوكوفسكي بخصوص « صورية » حجج ماركس المؤيدة « لنبوءاته » انه لم ينس مقالته « كارل ماركس امام محكمة السيد جوكوفسكي » ، بل يخاف ان يتذكر قارئه هذه المقالة في لحظة غير مناسبة . ولذا فانه يتظاهر بأنه يقول اليوم ماقاله بالضبط قبل ثمانية عشر عاما ، ولهذا الهدف يكرران « المخطط الجدلي » يمكن رفعه مثل غطاء الخ ومن بعد تأتي « **النقطة الواحدة** » التي يتفق فيها السيد ميخائيلوفسكي خفية عن القارىء ، مع السيد جوكوفسكي لكن هذه « النقطة الواحدة هي نفس تلك النقطة « **العظيمة الاهمية** » التي كانت ذريعة لفضح السيد جوكوفسكي على اعتباره « بهلوانا »

كان السيد ميخائيلوفسكي يقول عام ١٨٧٧ انه فيما يتعلق بالمستقبل ، يعني بالضبط فيمايتعلق«بالنقطة الواحدةالعظيمة الاهمية»،لم يقتصرماركس علىالاستشهاد بهيغل اما اليوم ،اذا صدقنا السيد ميخائيلوفسكي ، فانه قد اقتصر على ذلك وفي عام ١٨٧٧ قال السيد ميخائيلوفسكي ان ماركس برهن « بمنطق » ساحق و « بسعة اطلاع عظيمة » ان « الشكل الاجتماعي المعين » (يعني الرأسمالية) « يصبح عاجزا عن مقاومة » التبدلات التالية في « **الشروط المادية** » لوجوده ولقد كان هذا يشير بالضبط الى تلك «**النقطة العظيمة الاهمية**» .اما اليوم فان السيد ميخائيلوفسكي قد نسي كل الأشياء المقنعة التي قالها ماركس بشأن هذه النقطة ، والمنطق وسعة الاطلاع العظيمة اللذين برهن عليهما بهذه المناسبة وفي عام ١٨٧٧ دهش السيد ميخائيلوفسكي امام « الشجاعة الاخلاقية » التي صدرت عن السيد جوكوفسكي حين سكت عن حقيقة ان ماركس استشهد ، تأييدا لتخميناته ، بتشربك العمل الذي

---

* Russkoye Bogatstvo ، شباط ١٨٥٤ ، القسم الثاني ص ١٥٠ — ١٥١ .

كان قيد التحقيق في المجتمع الراسمالي ــ وهو ماكان يتعلق دوما « بالنقطة الواحدة العظيمة الاهمية   واليوم يزعم السيد ميخائيلوفسكي ان نبوءة ماركس هنا جدلية خالصة »   وفي عام ١٨٧٧ كان « كل من قرأ **رأس المال** » يعرف ان ماركس « **قال اكثر من ذلك** »   ويبدو في الوقت الحاضر انه لم يقل « سوى ذلك   وان نقبين اتباعه بشأن المستقبل « يتعلق على وجه الحصر بالسلسلة الهيغلية الثلاثية* انه والله لانقلاب عظيم

ان السيد ميخائيلوفسكي قد لفظ ادانته الخاصة ، وهو يدرك ذلك جيدا

ولكن ما الذي حمل السيد ميخائيلوفسكي على ان يضع نفسه تحت رحمة الحكم الصارم الذي اصدره هو نفسه ؟ ايكون هذا الرجل ، الذي نضح يوما بكل حمية بهاليل » النقد ، قد احس في شيخوخته بالميل الى ممارسة «الفن البهلواني» بنفسه؟ تكون مثل هذه التحولات ممكنة حقا ؟ ان جميع التحولات ممكنة ايها القارىء ؟ وان الناس الذين تحدث لهم مثل هذه التحولات يستحقون اقسى اللوم   ولسنا نحن الذين سنرافع عنهم   ولكن تجب معاملتهم بانسانية كما يقال   تذكر الجملة الجميلة لمؤلف **ملاحظات عن ستوارت ميل**   حين يتصرف المرء بصورة سيئة ، فليس ذلك خطيئته دوما بقدر ما هو بؤسه   وتذكر ماكان يقوله هذا المؤلف نفسه بخصوص النشاط الادبي لنقولاس بوليفوي

لقد كان نقولاس بوليفوي تلميذا لفكتور كوزان   وكان يعتبره سيد الحكمة كلها واعظم فلاسفة العالم ...ولم يكن في مقدور تلميذ كوزان ان يقبل بالفلسفة الهيغلية وحين بدأت هذه الفلسفة تدخل الى روسيا ، تبين ان تلامذة كوزان قوم مختلفون ، وهم لم يرتكبوا اي جرم اخلاقي حين دافعوا عن معتقداتهم ووصفوا بالسخف تأكيدات الناس الذين تقدموا عليهم في ميدان الفكر المتطور   ولا يمكننا ان نتهم الناس لان اناسا آخرين يتحلون بقوى أجد وبفكر أحزم قد تقدموا عليهم   ان هؤلاء على حق   لانهم اقرب الى الحقيقة ؛ لكن الاخر ليس مذنبا ، فهو قد اخطأ فحسب* »

لقد كان السيد ميخائيلوفسكي **انتقائيا** طوال حياته   ان تكوين ذهنه وتكوينه الفلسفي ــ اذ جاز مثل هذا التعبير لدى الحديث عن هذا الكاتب ــ يمنعانه من قبول فلسفة التاريخ الماركسية   وحين بدات افكار ماركس تشق طريقها الى روسيا جرب بادىء الامر الدفاع عنها ، الامر الذي لم يتم بطبيعة الحال دون تحفظات كثيرة « اخطاء فهم » ضخمة جدا   لكنه كان يعتقد في ذلك الحين ان في مقدوره ان يطحن

---

* المصدر نفسه ، ص : ١٦٦

* تشيرنيشفسكي   **دراسات في المرحلة الغوغولية في الادب الروسي** ، سان بطرسبورغ ، ١٨٩٢ ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

هذه الافكار في طاحونته الانتقائية ، وبذلك يدخل قدرا اكبر من التنوع في حميتـه الذهنية   ومن ثم ادرك ان افكار ماركس لاتناسب في حال من الاحوال لتكون زينـة لذلك الموزاييك المعروف تحت اسـم الانتقائية ، وان انتشارها يهدد بتدمير هـذا الموزاييك العزيز جدا على قلبه   وهكذا فقد اعلن الحرب على هذه الافكار ، ومـن الطبيعي انه وجد نفسه متخلفا جدا في ميدان الفكر المتطور   لكننا نعتقـد حقا ان الذنب ليس ذنبه ، وانه قد اخطأ فحسب

« ولكن هذا لا يبرر « البهلوانيات » على اي حال »

ونحن لا نحاول تبريرها ، بل نشير فقط الى الظروف المخففـة   ان السيـد ميخائيلوفسكي قد وجد نفسه ذات يوم ، دون ان يعرف كيف ، من جراء تطور الفكر الاجتماعي في روسيا ، في وضع لا يستطيع التخلص منه الا «بالبهلوانيات»   وصحيح ان ثمة مخرجا آخر ، لكنه لم يكن بد من بطولة **حقيقية** من اجل اللجوء اليه   ولقـد كان هذا المخرج **القاء اسلحة الانتقائية** .

***

خاتمة

في هذا العرض لافكار ماركس اخذنا بعين الاعتبار بصورة رئيسية حتى الآن الاعتراضات الموجهة اليها من وجهة النظر النظرية وانه ليفيدنا الآن ان نتعرف ايضا الى « العقل العملي » لقسم من خصومها على الاقل ، وسوف نستخدم في سبيل ذلك طريقة **التاريخ المقارن** ، يعني اننا سنتوقف اولا لنرى كيف استقبل « العقل العملي » **للطوباويين الالمان** افكار ماركس ، ثم انتقل الى العقل العملي لمواطنينا الأعزاء والمحترمين

في اواخر الاربعينات دخل ماركس وانجلز في مناظرة مثيرة للاهتمام مع المدعو كارل هاينزن(٥١) ، وقد اتخذت هذه القضية طابعا حاميا في الحال ولقد حاول كارل هاينزن بادىء الامر ان يسخر من افكار خصميه ، وقد برهن في هذا المجال على مرونة فكرية لاتتخلف مطلقا عن المرونة التي يتحلى بها السيد ميخائيلوفسكي ومن الطبيعي ان ماركس وانجلز دفعا له بالعملة نفسها(٥٢) ولم تمر القضية دون بعض الالفاظ النابية ، فقد وصف هاينزن انجلز « بالصبي الوقح الذي لا عقل له » ، كما نعت ماركس هاينزن بأنه يمثل dergrobianischen Literatur ، ونعته انجلز بأجهل انسان في عصره(٥٣) ولكن ماذا كان محور المناظرة ؟ ما هي الافكار التي كان هاينزن ينسبها الى ماركس وانجلز ؟ لقد كان هاينزن يؤكد لقرائه انه ، من وجهة نظر ماركس ، لا يملك اي امرىء ينطوي على نوايا سمحة ان **يصنع شيئا في المانيا في ذلك الحين** وكان يقول ان ماركس يرى ان « البورجوازية يجب ان تسود بادىء الامر وان تصنع بذلك بروليتاريا المصنع التي ستبدأ اذن بالعمل من تلقاء نفسها* ان ماركس وانجلز « لم يأخذا بعين الاعتبار **تلك** البروليتاريا التي خلقها مصاصو الدماء الالمان الاربعة والثلاثون » ، يعني الشعب الالماني بأسره ، بل عمال المصانع فحسب (ان « البروليتاريا » تعني عند هاينزن حالة الشعب الذي تدهور في البؤس وان هذه البروليتاريا العديدة لا تملك اي حق في المطالبة بمستقبل افضل ، لانها **« تحمل خاتم الاضطهاد من دون خاتم المصنع »** ان عليها « ان تعاني الجوع وان تموت جوعا (Hungeran und Verhungern) حتى تصبح المانيا انكلترا ان المصنع هو المدرسة التي يجب ان يجتازها الشعب قبل ان يحصل على الحق في تحسين مصيره*** »

---

* [ادب الانذال]

** Die helden des Deutschen Komminusmus (ابطال الشيوعية الالمانية) ، برن ١٨٤٨ ، ص : ٢١

*** المصدر نفسه ، ص : ٢٢

ان كل من يعرف قدرا ضئيلا من تاريخ المانيا يعرف في الوقت الحاضر مبلغ سخف هذه الاتهامات من جانب هاينزن ان الجميع يعرفون ان ماركس وانجلز لم يغلقا عيونهما عن بؤس الشعب الالماني وان الجميع يدركون انه من الظلم ان تنسب اليهم الفكرة القائلة إنه ليس امام اي انسان سمح الطبع مايفعله في المانيا طالما انها لم تصبح انكلترا وانه يبدو ان هذين الرجلين قد فعلا شيئا حتى دون ان ينتظرا مثل هذا التحول في بلدهما لكن ما السبب في أن هاينزن ينسب اليهما مثل هذا الهراء ؟ أيكون السبب في ذلك سوء النية من جانبه ؟ كلا ، وسوف نعيد القول ان ذلك ليس خطيئته بل بؤسه ان كل ما في الامر انه لم يفهم آراء ماركس وانجلز ، ولذا فقد تراءت له ضارة،ولما كان يحب بلده حبا جما ، فقد حمل السلاح ضد هذه الآراء التي كان يبدو انها ضارة ببلده لكن عدم الفهم ناصح رديء وهو مساعد لا يركن اليه البتة في اية مناظرة وهذا هو السبب في ان هاينزن انتهى الى وضع مضحك جدا لقد كان شخصا ذكيا جدا ، لكن الذكاء وحده دون الفهم لا يقود بعيدا وليس هو الذي يضحك اخيرا

ولسوف يوافق القارىء على انه من الواجب النظر الى هاينزن في مثل الضوء الذي ننظر فيه عندنا الى مناظرة مماثلة ، مع السيد ميخائيلوفسكي على سبيل المثال. وهل السيد ميخائيلوفسكي وحده ؟ افلا يكرر جميع اولئك الذين ينسبون الى «تلامذة» ماركس الطموح الى الدخول في خدمة كولوبايف ورازوفاييف(٥٤) ــ وعددهم لا يحصى ــ خطيئة هاينزن ؟ ان ايا منهم لم يخترع حجة واحدة ضد الماديين « الاقتصاديين » لا توجد ، **قبل حوالي خمسين عاما ،** في حجج هاينزن واذا كان لديهم شيء اصيل فهو جهلهم الساذج بمبلغ **عدم اصالتهم** في حقيقة الامر انهم يحاولون ابدا ان يجدوا « سبلا جديدة لروسيا ، لكن « الفكر الروسي المسكين » يتعثر فحسب ، من جراء جهالتهم ، في اوحال دروب الفكر الاوروبي المهجورة منذ زمن طويل ان الظاهرة عجيبة ، وان تكن غرابتها الظاهرية تفسر اذا طبقنا عليها مقولة الضرورة » **في مرحلة معينة من التطور الاقتصادي لبلد معين تظهر « بالضرورة »بعض السخافات الحسنة النية في رؤوس مثقفيه .**

وهذا مثال يبين مبلغ هزل موقف هاينزن في مناقشته مع ماركس لقد ضايق خصميه بالاسئلة كي يزوداه « بمثل اعلى » مفصل عن المستقبل قال لهما اخبراني كيف سيتم تنظيم علاقات الملكية وفقا لآرائكما ؟ كيف ستكون حدود الملكية الخاصة من جهة واحدة ، والملكية الاجتماعية من جهة ثانية ؟ ولقد اجاباه بأن علاقات الملكية في المجتمع تتحدد في كل مرحلة معينة بحالة قواه المنتجة ، وبالتالي فانه ليس في مقدور المرء الا ان يشير الى الاتجاه العام للتطور الاجتماعي ، من دون ان يتمكن من اعداد اية مشاريع قوانين بصورة مسبقة . اننا نستطيع ان نقول منذ الآن ان تشريك العمل المترتب على الصناعة الحديثة لا بد ان يؤدي الى تأميم وسائل الانتاج بيد ان

المـرء لا يستطيع ان يقول الى اي حد يمكن تنفيذ هذا التأمين خلال السنوات العشر القادمة مثلا ان هذا سوف يتوقف على طبيعة العلاقات المتبادلة بين الصناعة الصغيرة والصناعة الكبيرة في ذلك الحين ، والملكية العقارية الكبيرة والملكية الفلاحية ، وهلم جرا واستنج هاينزن واذن . فانتما لا تملكان اي مثل اعلى اواه ياله من مثل اعلى رائع **سوف تصنعه الآلات ، وفي وقت لاحق فقط !**

لقد تبنى هاينزن وجهة النظـر **الطوباوية** وان الطوباوي لينطلق دائما كمـا نعرف . في اعداد « مثله الاعلى من فكرة **مجردة ما** ــ مثلا فكرة الطبيعة الانسانية ــ او من **مبدأ** مجرد ما ــ مثلا مبدأ حقوق الشخصية ، او مبدأ « الفردية » ، الخ ، الخ . واذا ما اتخذ هذا المبدأ مرة فانه ليس من الصعب انطلاقا منه ان يحدد دون صعوبة . وبأدق التفاصيل ، ما **يجب ان تكون عليه** (ونحن لا نعرف بطبيعـة الحـال في اي مكان وفي اية ظروف) **علاقات الملكية بين البشر على سبيل المثال . وانه لامـر** مفهوم ان ينظر الطوباوي بدهشة الى اولئك الذين يخبرونه بأنه لا يمكن ان تكون هناك علاقات ملكية جيدة بحد ذاتها ، **دون اي اعتبار لظروف زمانها . انه يبدو له ان مثل** هؤلاء الناس لا يملكون اية « مثل عليا » على الاطلاق واذا كان القارىء قد تابـع عرضنا بشيء من الانتباه فانه يعلم ان الطوباوي في هذه الحالة مخطىء في الغالب لقد كان لماركس وانجلز مثل اعلى ، **ومثل اعلى** محدد جدا **خضوع الضرورة للحرية القوى الاقتصادية** العمياء **لقوة العقل الانساني** واما انطلقا من هذا المثل الاعلى فقد وجها نشاطهما العملي وفقا له وكان هذا النشاط العملي يستقيم طبعا ليس في خدمة البورجوازيـة بل في تطوير الوعي الذاتي لاولئك المنتجين بالـذات الـذين يجب ان يصبحوا في الوقت المناسب ، سادة منتجاتهم

ولم يكن لدى ماركس وانجلز سبب « ليعنيا » بتحويل المانيا الى انكلترا ، او بخدمة البورجوازية كما يقول الناس عندنا في الوقت الحاضر : لقد تطورت البورجوازية دون مساعدتهما وكان من المحال ايقاف هذا التطور ، يعني انه لم تكن هناك ايـة قـوى اجتماعية قادرة على ذلك ولم تكن ثمة حاجة تدعو الى ذلك على اي حال ، لان النظام الاقتصادي القديم لم يكن في آخر تحليل افضل من النظام البورجوازي ، وكان قد شاخ في الاربعينات حتى درجة كبيرة بحيث اصبح **شرا بالنسبة الى الجميع.** بيـد ان استحالةايقاف تطور الانتاج الرأسمالي لم يكن كافيا لحرمان الناس المفكرين في المانيـا من امكانية **خدمة رخاء الشعب** وكان للبورجوازية رفاقهـا الحتميون في الطريق جميع اولئك الذين فرضت عليها **الضرورة الاقتصادية** ان يخدموا محفظتها بصورة فعلية وبقدر ما كان وعي هؤلاء الخـدم بالرغم منهم يتطور ، وبقدر ما كان وضعهم يتحسن كانت مقاومتهم تتعاظم ضـد امثال كولوباييف ورازوفاييف عنـد جميع الشعوب وفي سائر البلدان ولذا فقـد اخـذ ماركس وانجلز على عاتقهمـا ان يطـورا ذلك الوعي الذاتي لقـد وضعا نصب اعينهما منذ البداية ، بصورة تتفق مع روح المادية الجدلية ، **مهمة مثالية خالصة بكل معنى الكلمة .**

ان الواقع الاقتصادي مقياس المثل الاعلى هذا ماقاله ماركس وانجلز وعلى **هذا** الاساس اتهما بالمولخالينية الاقتصادية* ، وبالاستعداد لان يدوسا باقدامهما **المضعفين** اقتصاديا ولأن ينبطحا امام الاقوياء اقتصاديا وكان مصدر هذه التهمة **تفسير ميتافيزيائي** لما كان هذان المؤلفان يعنيانه من « **الواقع الاقتصادي** » فحين يقال للميتافيزيائي انه يجب على المرء ، في المسائل الاجتماعية ، ان ينطلق من الواقع، فانه يتصور انهم ينصحونه بالاستسلام لهذا الواقع انه لا يدرك ان كل واقعاقتصادي ينطوي على **عناصر متناقضة** ، وان الاستسلام للواقع يعني قبول احد هذه العناصر فقط ، الا وهو ذلك العنصر الذي **يسود** في حينه اما المادي الجدلي فانه يضع نصب عينيه على الدوام عنصرا آخر من الواقع العنصر المناقض للعنصر الاول ، **العنصر الذي ينضج المستقبل فيه** . واننا لنسأل اذا انطلق المرء من هذا العنصر ، اذا اتخذ المرء هذا العنصر مقياسا « لمثله العليا » ، أيكون معنى ذلك الدخول في خدمة امثال كولوباييف ورازوفاييف ؟

واذا كان لا بد للواقع الاقتصادي ان يكون مقياسا للمثل الاعلى ، فانه من البديهي اذن ان المقياس **الاخلاقي** للمثل الاعلى **ناقص** ، ليس لان مشاعر البشرالاخلاقية تستحق اللامبالاة او الازدراء ، بل لان هذه المشاعر لا تكفي لان تبين لنا الوسيلة الصحيحة من اجل خدمة اشباهنا فلا يكفي الطبيب ان يتعاطف مع حالة مريضه ، بل لا بد له كذلك ان يأخذ بعين الاعتبار **الواقع الحكمي** للعضوية وان ينطلق منه لمكافحته واذا ما اكتفى الطبيب بالاستياء الاخلاقي من الداء فانه يستاهل السخرية الامر وبهذا المعنى سخر ماركس من « **النقد الاخلاقي** » ومن « **الاخلاق النقدية** » لخصومه . بيد ان خصومه حسبوا انه يضحك من « **الاخلاق** » وهذا هاينزن يهتف: « ليس للاخلاق والارادةالانسانية اية قيمة في نظر الناس الذين لا يملكون هم انفسهم اخلاقا او ارادة »**

ولنلاحظ على اية حال انه اذا كان خصومنا الروس للمادية الاقتصادية لا يفعلون على العموم الا تكرار حجج سابقيهم الالمان دون ان يعرفوا ذلك ، فانهم مع ذلك ينوعون هذه الحجج في التفاصيل الصغيرة وهكذا فان الطوباويين الالمان لم يسهبوا على سبيل المثال في الحديث عن « قانون التطور الاقتصادي » في المانيا اما عندنا فالابحاث المطولة من هذا النوع اتخذت في الحقيقة ابعادا مرعبة وان القارىء ليتذكر ان السيد « ف.ف. » وعد ، عام ١٨٨٢ ، بان يكتشف قانون التطور الاقتصادي في روسيا(٥٥) وصحيح انه راح يخاف هذا القانون فيما بعد ، لكنه بين بنفسه في ذلك الحين انه انما يخافه بصورة مؤقتة فقط ، وذلك حتى يكتشف المثقفون الروس قانونا جيدا ولطيفا وعلى العموم ، فان السيد « ف.ف. » يسهم

---

* [نسبة الى مولخالين ، والمقصود العبودية والاستسلام]

** المصدر نفسه ، ص ٢٢

عن طيبة خاطر في المناقشات التي لا تنتهي عمـا اذا كان يجب على روسيا ام لا ان تجتاز مرحلة الرأسمالية ، وقد حشرت تعاليم ماركس في هذه المناقشة منـذ اوائل السبعينـات

ان مؤلف السيد سيرج كريفنكو الأخير والأحدث يبين كيف تجري هذه المناقشات عندنا ان هذا المؤلف ينصح السيد بيوتر ستروفا ، الذي كان ينكر تأكيداته ، بان يفكر بصورة افضل قليلا في مسألة « ضرورة الرأسمالية وعواقبها الجيدة » انه يقـول(٥٦)

> اذا كان النظام الرأسمالي يمثل مرحلة محتومة لا مفر منها للتطور لا بد لاي مجتمع انساني من اجتيازها ، واذا لم يتبق الا ان نحني الرأس امام هذه الضرورة التاريخية ، فهل يجب اذن ان نلجأ الى تدابير لا يمكنها الا ان تؤخر قيام النظام الرأسمالي ، ام انه مـن الانسب العمل على تسهيل الانتقال الى هذا الحدث وبذل كل الجهود من اجل الاسراع به ، يعني السعي الى تنمية الصناعة الرأسمالية والتحويل الرأسمالي للحرف اليدوية ، ودعم الكولاك وتدمير المشاعات الزراعية ، واغتصاب ملكية المزارع ، وباختصار تسيير الفلاحين الزائدين نحـو المصانع*

في الحقيقة ان السيد كريفنكو يطرح هنا سؤالين ١ ـ أتمثل الرأسمالية مرحلة محتومة لا مفر منها ؟ ٢ ـ اذا كان الجواب بالايجاب ، فما هي العواقب العملية التي تترتب على ذلك ؟

ولنتوقف عند السؤال الاول

ان السيد س. كريفنكو يصوغه بصورة صحيحة بمعنى ان قسما من مثقفينا ـ وهو القسم الاعظم منهم ـ يصوغه بهذا الشكل بالذات أتمثل الرأسمالية مرحلة محتومة لا مفر منها لا بد ان يجتازها كل مجتمع انساني ؟ لقد كان يعتقد فيما مضى ان ماركس اجاب على هذا السؤال بالتأكيد ، الامر الذي كان يبعث على قدر كبير مـن الازعاج وبعد نشر الرسالة الشهيرة المدعوة « الى السيد ميخائيلوفسكي »** ثارت الدهشة لان ماركس لم يعترف « بحتمية » هذه المرحلة ، وعندئذ أعلن الخبثاء بقدر كبير من الفرحة الماكرة : آه ، لقد لحق العار بتلاميذه الروس ! لكن هؤلاء الخبثاء نسوا المثل القائل *** bien rira qui rira le dernier

العار بتلاميذه الروس لكن هؤلاء الخبثاء نسوا المثل القائل

وفي الحقيقة ان خصوم «التلاميذ الروس» لماركس قد انخرطوا من اول المناقشة حتى آخرها في اسوأ « هراء باطل مضاد للطبيعة »

---

* Russkoyo Bogatstvo كانون الاول ١٨٩٣ القسم الثاني ، ص ١٩٨

** في هذه المسودة لرسالة لم تكمل لا يكتب ماركس الى السيد ميخائيلوفسكي ، بل الى رئيس تحرير **حوليات الوطن** ، ويتحدث عن السيد ميخائيلوفسكي في صيغة المجهول .

*** [يضحك جيدا من يضحك اخيرا]

فحين كانوا يناقشون ما اذا كانت نظرية ماركس التاريخية قابلة للتطبيق على روسيا نسوا ــ اوه ! مجرد ترهة ــ بكل بساطة ان يتسائلوا عن حقيقة هذه النظرية. ولقد كانت ورطة رائعة بالفعل تلك التي سقط فيها اصحابنا الذاتيون وفي مقدمتهم السيد ميخائيلوفسكي

حين قرأ السيد ميخائيلوفسكي (اذا كان قد قرأ) مقدمة **نقد الاقتصاد السياسي** حيث تعرض فلسفة ماركس التاريخية قرر انها مجرد هيغلية خالصة فحين لم يــر الفيل حيث الفيل موجود بالفعل*، راح السيد ميخائيلوفسكي يبحث ذات اليمين وذات اليسار، وحسب اخيرا انه قد عثر فعلا على الفيل الذي يبحث عنه في الفصل الخاص بالتراكم الرأسمالي البدئي حيث يتحدث ماركس عن التقدم التاريخي للرأسماليــة الغربية ولا يتحدث مطلقا عن جماع التاريخ الانساني

ان اية عملية هي بصورة لا جدال فيها « حتمية حيث هي موجودة هكــذا الاشتعال بالنسبة الى عود الكبريت حين يشعل، وعود الكبريت هذا محتم » عليه ان ينطفىء حين تبلغ عملية الاشتعال نهايتها ان **راس المال** يتحدث عن مجرى التطور الرأسمالي الذي كان « محتوما » بالنسبة الى تلك البلدان التي حدث هذا التطــور فيهــا وحين تصور السيد ميخائيلوفسكي ان امامــه في الفصل المذكــور آنفا من **راس المال** فلسفة تاريخية كاملة قرر ان الانتاج الرأسمالي محتــوم في راي ماركس بالنسبة الى جميع البلدان وسائر الشعوب**، ومن ثم اخذ يتفجع على الموقف البائس لاولئك الروس الذين، الخ و ــ ياله من ماجن ــ اذ دفع على هــذا

---

* [هناك قصة روسية شهيرة تتحدث عن رجل ذهب الى حديقة الحيوانات و « لم يلاحظ » الفيــل]

** انظر مقالة «كارل ماركس امام محكمة السيد جوكوفسكي» و Otetchestvenniyé Zapiski عدد تشرين الاول ١٨٧٧ في الفصل السادس من **راس المــال** فقرة بعنوان « عملية التراكم البدائي » ولقد اراد ماركس ان يقدم هنا دراسة تاريخية للخطوات الاولى لعملية الانتاج الرأسمالية، لكنه يقــدم في واقع الامر شيئا اكثر بصورة لا تقارن فلسفة كاملة للتاريخ « اننا نكرر ان هذا كله لغو خالص، ففلسفة ماركس التاريخية معروضة في مقدمة **نقــد الاقتصاد السياسي**، هذه المقدمة التي لم يفهمها السيد ميخائيلوفسكي مطلقا، وذلك في صورة « بعض الافكار العاملة المترابطة بصورة وثيقة

لكن لنقل هنا بصورة عابرة ان السيد ميخائيلوفسكي قد نجح في عدم فهم ماركس حتى فيما يتعلق « بحتمية التطور الرأسمالي بالنسبة الى الغرب لقد رأى في تشريع العمل « تصحيحا » لقدريــة التطور التاريخي. واما تصور ان «**(الاقتصادي)**» يعمل من تلقاء ذاته بالنسبة الى ماركس، دون ان يلعب الانسان اي دور فيه، فقد كان منطقيا في اعتباره ان كل تدخل من قبل الانسان في مسيرة عملية الانتاج الخاصة به يشكل تصحيحا، بينما هذا التدخل بالنسبة الى ماركس، **مهما يكن الشكل المشخص الذي يتخــذه**، يشكل النتاج الضروري للعلاقات الاقتصادية المعطاة هيا وجربوا بعد ذلك ان تتناقشوا في الماركسية مع اناس يبذلون جهدا صبورا كي **لا** يفهموا منها شيئا !

الغرار الجزية الضرورية لحاجته الذاتية الى التفجع ، فقد اعلن بمهابة ، مخاطبا السيد جوكوفسكي اترى ، اننا نعرف نحن ايضا ان ننتقد ماركس ، ونحن ايضا لا نتبع بصـــورة عميـــاء * Magister Dixit وانه لمفروغ منه ان قضية « الحتمية » لم تتقدم خطوة واحدة ؛ لكن قراءة هذه المرثاة اوحت الى ماركس ان يمـد يـد المعونـة الى السيد ميخائيلوفسكي ، فسود في شكل رسالـة الى رئيس تحـرير Otetchestvenniyé Zapiski ملاحظاته من مقالـة السيد ميخائيلوفسكي ولقـد نشرت هذه المسودة في صحافتنا بعد وفاة ماركس ، فوفرت لاولئك الروس الذين ، الخ ، على الاقل **فرصة** العثور على الحل الصحيح لمسألة « الحتمية »

ماذا كان في مقدور ماركس ان يقول عن مقالة السيد ميخائيلوفسكي ؟ حين اخذ السيد ميخائيلوفسكي على انه فلسفة ماركس التاريخية ما هو ليس بذلكعلى الاطلاق، فقد وضع نفسه في موضع صعب وكان من الواضح انه لا بد لماركس ان ينجد قبل كل شيء هذا الكاتب الروسي الشاب الذي يبشر بالخير وبالاضافة فقد كان هـذا الكاتب الروسي الشاب يشكو من ان ماركس يحكم على روسيا بالرأسمالية ، ولـذا اراد ان يبين للكاتب الروسي ان المادية الجدلية لا تحكم على اية بلدان بأي شيء كان ، وانها لا تدل على اية طريق عامة و حتمية » بالنسبة الى جميع الشعوب في سائر الازمان ، وان التطور اللاحق لاي مجتمع معين يتوقف دائما على العلاقات القائمة بـين القوى الاجتماعية فيه ، وان من واجب اي شخص جاد اذن ان يدرس هذه العلاقات بادىء الامر دون أن يتخبط في التخمينات أو التفجعات بشأن اية « حتمية » وهمية ، لان مثل هذه الدراسة تستطيع وحدها ان تبين ما هو « حتمي » وماليس هو «حتميا» بالنسبة الى مجتمع معين

وهذا مافعله ماركس ، اذ كشف بادىء ذي بدء سوء الفهم » عند السيـد ميخائيلوفسكي

ان الفصل الخاص بالتراكم البدئي لايزعم اكثر من رسم الطريق الذي انبثق منه ، في اوروبا الغربية ، النظام الاقتصادي الرأسمالي من احشاء النظام الاقتصادي الاقطاعي فهو يصف بالتالي الحركة التاريخية التي حولت المنتجين ، حين فصلتهم عن وسائلانتاجهم، الى عمال مأجورين بروليتاريين بالمعنى الحديث للكلمة) ، بينما حولت اولئك الـذين يملكون وسائل الانتاج الى رأسماليين وان جميع الثورات في هذا التاريخ تتحلى باهمية مدوية عملت كرافعات من اجل تقدم الطبقة الرأسمالية التي هي في سبيلها الـى التكون بيد ان اساس هذا التطور بأسره هو اغتصاب ملكية المزارعين وفي آخـر الامر يلخص الاتجاه التاريخي للانتاج فيما يلي ان الملكية الرأسمالية ، المستندة بالفعـل الى نمط للانتاج الجماعي ، لا يمكن ان تتحول الى ملكية جماعية ولم أقدم اي برهان على هذا الامر . وذلك للسبب الوجيه التالي ، الا وهو ان هذا التأكيد ليس بحد ذاته الا الخلاصة العامة لشروح طويلة مقدمة من قبل في الفصول عن الانتاج الرأسمالي(٥٧) .

* [ما قاله المعلم] .

وان ماركس ، كي يفهم السيد ميخائيلوفسكي انه اخذ على انها نظرية تاريخية ما ليس هو كذلك ولا يمكن ان يكون كذلك ، يورد مثال روما القديمة . وانه لمثال مقنع جدا فاذا كان « محتوما » بالفعل على جميع الشعوب ان تمر بالرأسمالية ، فما عسانا نقول عن روما ، وعن سبارطة ، وعن امبراطورية الإنكا وعن عدد كبير من الشعوب التي خرجت من مسرح التاريخ دون ان تنفذ ذلك الالتزام الوهمي ؟ ان ماركس الذي لم يكن جاهلا بمصير هذه الشعوب ماكان يمكن ان يتحدث عن «الحتمية» العمومية للتطور الرأسمالي

ويقول ماركس

لكن هذا كثير بالنسبة الى ناقدي اذ لا بد له بصورة مطلقة ان يحول مخططي التاريخي الخاص بتكون الرأسمالية في اوروبا الغربية الى نظرية تاريخية فلسفية عن المسيرة العامة المفروضة من القدر على جميع الشعوب ، مهما تكن الظروف التي تواجهها لكني أسأله المعذرة ، فهو يشرفني كثيرا ويخزيني كثيرا في الوقت ذاته »(٥٨)

بذلك يطفح الكيل ! ان مثل هذا التفسير يحول ماركس الى احد اولئك « الرجال اصحاب الصيغ الذين يسخر منهم في مناظرته مع برودون(٥٩) ان السيد ميخائيلوفسكي يعزو الى ماركس « صيغة للتقدم ، لكن ماركس يرد لا شكرا جزيلا لست في حاجة الى مثل هذه الهدايا

لقد رأينا اعلاه كيف يتصور الطوباويون قوانين التطور التاريخي ليتذكر القارىء ما قلناه عن سان سيمون ان هذه القوانين الخاصة بالتطور التاريخي ترتدي في انظارهم طابعا صوفيا ، كما ان الطريق التي يتقدم عليها الجنس البشري هي في رأيهم **مرسومة سلفا** ، ولا يمكن لاي حدث تاريخي ان يغير مجراها ياله من ضلال سيكولوجي عجيب ان الطبيعة الانسانية تشكل منطلق تحليلهم ، لكن قوانين تطور هذه الطبيعة ، التي تتخذ في انظارهم طابعا عجيبا ، **تنقل الى مكان ما خارج الانسان وخارج العلاقات الفعلية بين البشر** الى ميدان **ما فوق التاريخ .**

وان المادية الجدلية لتنقل هنا ايضا المسألة الى ارض مختلفة كل الاختلاف ، وبذلك تضفي عليها مظهرا جديدا كل الجدة

ان الجدليين الماديين « يردون الاشياء جميعا الى الاقتصاد ولقد فسرنا من قبل بأي معنى يجب ان نفهم ذلك لكن ما هو الاقتصاد ؟ انه حصيلة العلاقات الفعلية بين البشر الذين يشكلون مجتمعا معينا ضمن عملية الانتاج ولا تمثل هذه العلاقات اية ماهية ميتافيزيائية جامدة ، بل هي تتبدل باستمرار تحت تأثير القوى المنتجة والبيئة التاريخية على حد سواء واذا ما اعطيت هذه العلاقات الفعلية للبشر في عملية الانتاج مرة ، فانه تترتب عليها بعض العواقب بصورة محتومة وبهذا المعنى فان لحركة المجتمعات قوانينها ولم يفسر ذلك احد بصورة افضل من ماركس لكنه بما ان الحركة الاقتصادية لكل مجتمع ترتدي مظهرا « **خصوصيا** » بنتيجة

« **خصوصية** » الشروط التي تحدث فيها ، فانه لا يمكن ان تكون هناك اية « صيغة للتقدم تشمل ماضي الحركة الاقتصادية **لجميع** المجتمعات وتتنبأ بمستقبلها ان صيغة التقدم هي تلك الحقيقة المجردة التي يحبها الميتافيزيائيون حبا جما حسب تعبير مؤلف **دراسات عن المرحلة الغوغولية** . لكنه لا وجود للحقائق المجردة حسب تعبير هذا المؤلف نفسه ! فالحقيقة مشخصة دائما ، والاشياء جميعا وقف على الزمان والمكان واذا كانت الاشياء جميعا وقفا على الظروف ، فانه يجب على الروس الخ ان يستخرجوا العبرة منها(٦٠)

« كيما استطيع ان احكم بأهلية على تطور روسيا الاقتصادي فقد تعلمت اللغة الروسية ومن بعد ددرست طوال سنوات المنشورات الرسمية وغيرها المتعلقة بهذا الموضوع »

ان تلامذة ماركس الروس يظلون امناء له في هذه الحالة ايضا ومن المؤكد ان احدهم قد يكون اكثر اطلاعا في شؤون الاقتصاد والاخر اقل منه اطلاعا ، **لكن الشيىء الهام هنا ليس حجم المعارف الفردية ، بل وجهة النظر نفسها .** ان تلامذة ماركس الروس لا يسترشدون بأي مثل اعلى ذاتي او بأية « صيغة للتقدم »، بل ينطلقون من واقع بلادهم الاقتصادي

ما هي النتائج التي ينتهي ماركس اليها بخصوص روسيا ؟

« اذا استمرت روسيا في سلوك الطريق الي تتبعها منذ عام فسوف تفقد اروع فرصة قدمها التاريخ يوما الى شعب من الشعوب وتجتاز جميع التقلبات المحتومة للنظام الرأسمالي

ويضيف بعد قليل ان روسيا قد عانت الكثير مؤخرا كي تتقدم في هذا الطريق ونعتقد اننا نستطيع من جانبنا ان نضيف ان روسيا ، منذ كتبت هذه الرسالة (يعني منذ عام ١٨٧٧ ، لم تكف عن التقدم على هذه الطريق وبسرعة متزايدة ابدا

ماذا يترتب على رسالة ماركس اذن ؟ ثلاث نتائج

١ ــ ان ماركس لا يخزي تلاميذه الروس بل يخزي السادة الذاتيين الذين حاولوا دون ان يملكوا ادنى فكرة عن وجهة نظره العلمية ، ان يعيدوا صهره على مثالهم وان يجعلوا منه **ميتافيزيائيا وطوباويا** .

٢ ــ ان السادة الذاتيين **لم يخجلوا** من الرسالة لهذا السبب البسيط ، الا وهو انهم ــ هم المخلصون « لمثلهم الاعلى » ــ لم يفهموا شيئا من هذه الرسالة

٣ ــ اذا كان السادة الذاتيون يريدون ان يتناقشوا معنا في مسألة اين تذهب روسيا وكيف تذهب ، فان عليهم ان ينطلقوا دائما من **تحليل الواقع الاقتصادي**

وقبل ثمانية عشر عاما قادت دراسة هذا الواقع ماركس الى هذه النتيجة **الشرطية** :

« اذا استمرت روسيا في الطريق التي انخرطت فيها منذ تحرير الاقنان ، فسوف تصبح بلدا رأسماليا تماما واذا ما اضحت تحت نير النظام الرأسمالي فلا بد لها ان تخضع لقوانين الراسمالية التي لا ترحم ، مثل بقية الشعوب الدنيوية وهذا كل شيء ».

وان هذا كل شيء بالفعل لكن الروسي المعني بالعمل لخير وطنه لا يمكن ان يكتفي بمثل هذه النتيجة الشرطية ان سؤالا سيلقى عليه بصورة لا مفر منها هل ستواصل روسيا سلوك هذه الدرب ؟ اليس هناك اية معطيات تتيح الامل في تخليها عن هذه الدرب ؟

ولا بدّ للمرء في سبيل الجواب عن هذا السؤال ان يلتفت الى دراسة وضع البلاد الفعلي الى تحليل حياتها الداخلية الراهنة وان تلامذة ماركس يؤكدون على اساس هذا التحليل **اجل سوف تواصل ! ليس هناك معطيات تتيح الامل بأن تتخلى روسيا عن الطريق الرأسمالية التي انخرطت فيها بعد عام ١٨٦٠ . وهذا كل شيء !))** .

ويعتقد السادة الذاتيون ان التلامذة يخطئون فليبرهنوا على ذلك بمعطيات يقدمها **الواقع** الروسي ان « التلامذة » يقولون « سوف تواصل اتباع الطريق الراسمالية ، ليس لأن ثمة قوة خارجية ، قانونا سريا يلزمها بذلك ، بل لانه لا وجود لقوة داخلية قادرة على ابعادها عن هذا الطريق ايظن السادة الذاتيون ان مثل هذه القوة موجودة ؟ فليبينوا لنا فيم تستقيم هذه القوة اذن ، فليبرهنوا على وجودها ولسوف يسعدنا ان نصغي اليهم فنحن حتى الآن لم نسمعهم يقولون شيئاً محدداً في هذا الموضوع

ويهتف خصومنا الاعزاء ماذا تقصدون ؟ الا توجد قوة ؟ ومثلنا الاعلى ماذا صنعتم به ؟

آه ايها السادة ايها السادة في الحق ان سذاجتكم تبعث على الرثاء ان القضية هي كيف تحققون اي مثل اعلى وبالاحرى مثلكم الاعلى ، وان نكن على قدر كبير من الغموض ولكن القضية حين تطرح على هذا الغرار تتردد بصورة ركيكة جدا وما لم تحل فان « مثلكم الاعلى لن يتحلى الابقيمة « مثالية

تصوروا ان شابا القي في سجن حجري خلف قضبان حديدية ، وحراسه لا ينامون في الليل ولا في النهار ان الشاب يضحك منهم انه يتناول قطعة من الفحم تدبر امر الحصول عليها ويرسم على الجدار قاربا ويتخذ مكانه فيه ووداعا ايها السجن ، وداعا ايها الحراس اليقظون لقد استرد الشاب حريته

قصة جميلة **لكنها مجرد قصة** والحقيقة ان قاربا صغيرا رسم على الحائط **لم يحمل قط كائناً من كان الى اي مكان على الاطلاق .**

ان روسيا قد انخرطت بصورة واضحة ، منذ الغاء نظام الرق في طريق الراسمالية وهو ما يتبينه السادة الذاتيون **بكل وضوح** ، ويؤكدون بأنفسهم ان علاقاتنا الاقتصادية القديمة **تتحطم بسرعة مذهلة ومتزايدة باطراد** ولكنهم يخاطبون بعضهم بعضا قائلين ليس **هذا بالامر الهام** **لسوف نحمل** روسيا على الصعود الى القارب الصغير لمثلنا العليا ، وسوف **تبحر عليه مبتعدة عن هذه الطريق** الى اراض بعيدة ، الى ممالك نائية

ان السادة الذاتيين قاصون ممتازون ، **لكن ... « هذا كل شيء ! »** هـذا كل شيء ـ وانه لضئيل بصورة رهيبة ، **والقصص لم تغير من** قبل مجرى التاريخ قط ولذات ذلك السبب المبتذل الذي يجعل ان السنونو لا يتغذى بالخرافات*

ان السادة الذاتيين قد اتخذوا تصنيفاً ثنائيا عجيبا لهؤلاء «الروس الذين...».

فاولئك الذين **يؤمنون** بامكانية الابحار بعيدا على متن المركب الصغير للمثل الاعلى الذاتي يعترف بهم على اعتبارهم اناسا شرفاء ومحسنين حقيقيين للشعب ، لكن اولئك الذين يقولون ان هـذا الايمان **لا يقـوم على اي اساس مطلقا** ننسب اليهم نوع من الخبث غير الطبيعي يحملهم على السعي الحازم الى قتل الموجيك الروسي جوعا ليس ثمة مأساة وضعت على المسرح ابالسة مثل « الماديين الاقتصاديين الروس على الاقل كما يتصورهم السادة الذاتيون وان هذا الحكم الغريب لأشبه في الاسس التي يقوم عليها بحكم هانزن الذي سبق للقارىء ان اطلع عليه والذي ننسب الى ماركس النية في ترك الشعب الالماني « Hungern und verhurgern »

وتتسائل السيد ميخائيلوفسكي عن السبب في اننا نجد في هذا الوقت بالذات اناسا قادرين بضمير مرتاح على الحكم على الملايين من البشر بالموت جوعاً وبؤسا »؟

وان السيد سيرج كريفنكو يعتقد انه اذا ماقرر المرء ان الراسمالية حتمية في روسيا ، فلا بد له ، كي يظل منطقيا مع نفسه ، من ان « يبذل جهده في سبيل التحويل الراسمالي للحرف وتنشيط الكولاك ودمار المشاعات الزراعية واغتصاب ملكية المزارعين وعلى العموم تسيير فائض الفلاحين نحو المعامل وان السيد كريفنكو ليعتقد ذلك لهذا السبب الوحيد ، الا وهو انه عاجز هو نفسه عن ان يظل **« منطقيا » مع نفسه .**

لقد كان هاينزن يعترف لماركس على الاقل بالميل الى الشغيلة الـذين يحملون « خاتم المعمل ومن المؤكد ان السادة الذاتيين **لا يعترفون** حتى بمثل هذا الضعف القليل لتلامذة ماركس الروس الذين يحقدون فيما يبدو على سائر ابناء البشر دون استثناء ، ويريدونهم ان يموتوا جوعاً ، ربما باستثناء ممثلي طبقة التجار ذلك ان السيد كريفنكـو ما كان يكتب الاسطر الواردة اعلاه لو انه اكتشف عنـد هؤلاء التلامذة اقل عطف على عمال المصانع

---

* [ثمة مثل روسي يقول السنونو لا يتغذى بالخرافات] .

يبذل جهده على العموم في سبيل تسيير فائض الفلاحين نحو المعامل ليحفظنا القديسون لماذا بذل الجهد ؟ من المؤكد ان كل تدفق جديد لليد العاملة في السكان العاملين سوف يؤدي الى انخفاض الاجور وان السيد كريفنكو نفسه يعرف ان انخفاض الاجور لا يمكن ان يخدم العمال او يسعدهم لماذا يريد هؤلاء «التلامذة» اذن ، اذا كانوا منطقيين مع انفسهم ، ان يؤذوا العامل ويسببوا له المتاعب ؟ من الواضح ان هؤلاء الناس ليسوا منطقيين مع انفسهم الا في كراهيتهم للجنس البشري. فهم يكرهون عامل المصنع او لعلهم يحبونه ، لكن على طريقتهم الخاصة ـ انهم يحبونه وبالتالي يسعون الى ايذائه « من يحب كثيرا يعاقب بشدة » ـ يالهم من اناس غرباء يا له من منطق عجيب !

تنشيط الكولاك ودمار المشاعات الزراعية ، واغتصاب ملكية المزارعين.»

يا للهول ولكن ما الغاية من بذل الجهد في سبيل ذلك كله ؟ من المؤكد ان نمو طبقة الكولاك واغتصاب ملكية المزارعين سوف ينعكسان في انخفاض القوة الشرائية بين السكان الزراعيين وهذا الانخفاض في القوة الشرائية سيؤدي الى انخفاض الطلب على السلع الصناعية ، وبالتالي ينقص الطلب على اليد العاملة ، يعني بخفض الاجور. من المؤكد ان هؤلاء « التلامذة » مخلصون مع انفسهم فهم لا يحبون العامل بل ان خبثهم يمضي الى ابعد من ذلك ، لان هذا الانخفاض في القوة الشرائية سوف يؤثر في مصالح اصحاب العمل الذين يشكلون ، في رأي السادة الذاتيين ، موضع عناية « التلامذة لا ، في الحقيقة ان هؤلاء التلامذة اناس غريبو الأطوار !

يبذل جهده في سبيل التحويل الرأسمالي للحرف ولا يتردد امام شراء الاراضي الفلاحية ، او افتتاح الدكاكين والمواخير ، او اي نشاط قذر آخر ولكن ماغرض الناس المنطقيين مع انفسهم من جميع هذه التصرفات ؟ افليسوا على قناعة من ان الرأسمالية تطور محتوم ؟ واذا كانت اقامة المواخير على سبيل المثال جزءا اساسيا من التطور المذكور ، فان هذه المواخير سوف تظهر بصورة حتمية (وكأنها لا وجود لها في الوقت الحاضر !) ويبدو ان السيد كريفنكو يفترض ان النشاطات القذرة لا بد ان تعجل في التطور الرأسمالي ، لكننا نعود فنكرر انه اذا كانت الرأسمالية امرا لا مفر منه ، فان « القذارة » سوف تنشأ من تلقاء ذاتها فما غرض تلامذة ماركس المنطقيين من « السعي » اليها ؟

ان نظريتهم تلوذ بالصمت هنا امام مطالب الاحساس الاخلاقي انهم يرون ان القذارة لا مفر منها ، وهم يعبدونها بسبب هذه الحتمية ويسرعون من كل حدب وصوب الى مساعدتها ، ويقولون في انفسهم « ان هذه القذارة المسكينة لن تتغلب بما يكفي من السرعة دون معونتنا »

لا بدّ من احد الامرين ، ايها السيد كريفنكو فاما ان الامر ليس كذلك ، وعندئذ فان جميع حججك عن التلامذة « المنطقيين مع انفسهم » تسقط من تلقاء ذاتها ، واما

ان الامر صحيح وعندئذ فان « منطقك مـع نفسك و قدرتـك الخاصة على المعرفة » هما اللذان يسقطان

خذ ماتشاء ، التحويل الرأسمالي للحرف مثلا انه عملية ذات وجهين فاولا يظهر اناس **يمركزون** في ايديهم وسائل الانتاج ، وثانيا اناس **يشغلون وسائل الانتـاج** هذه لقاء اجر معين فلنفترض ان القذارة تشكل صفة مميزة للناس الذين من المقولة الاولى ؛ لكن الناس الذين يشتغلون لحسابهم لقاء اجر قد يفلتون فيما يبدو من هـذا « الطور » من التطور الاخلاقي واذا كان الامر كذلك ، فما وجه القذارة في نشاطي اذا كرسته لهؤلاء الناس ، واذا طورت وعيهم الذاتي ودافعت عن مصالحهم المادية ؟ لعل السيد كريفنكو يقول ان مثل هذا النشاط سوف يؤخر تطور الرأسماليـة ابدا ان مثال انكلترا وفرنسا والمانيا سوف يبين له ان مثل هذا النشاط في تلـك البلدان لم يقتصر على عدم تأخير نمو الرأسمالية فيها ، بل على العكس من ذلك عجل فيه ، وبذلك عجل في الحل العلمي لبعض « المسائل اللعينة » التي كانت قائمة هناك

او لنأخذ دمار المشاعات الزراعية هذه عملية ذات وجهين ايضا ان قطـع الارض التي يملكها الفلاحون تتمركز في ايدي الكولاك ، وعددا متزايدا باطراد مـن الفلاحين المستقلين سابقا يتحولون الى بروليتاريين وان هذا كله يترافق بطبيعـة الحال بتصادم المصالح ، بالصراع ويظهر التلميذ الروسي على المسرح وقـد اجتذبته الضوضاء اليه ، ويرفع صوته في ترتيلة قصيرة لكن من اعماق القلب الـى « مقولة الضرورة » و **يفتتح ماخورا** ! هذا مايفعله على الاقل الأحـزم » مـن بينهم ، بينما يكتفي المعتدلون بافتتاح **دكان صغير** اليس الامر كـذلك ، يا سيـد كريفنكو ؟ ولكن لماذا لا يقف « التلميذ » الى جانب الفلاحين الفقراء ؟

لكنه اذا اراد ان يقف الى جانبهم ، افلا يجب عليه ان يسعى اذن الى منـع اغتصاب ملكيتهم ؟ »

« حسناً لنعترف بذلك . هذا مايجب ان يسعى اليه » .

« **ابدا** ! ان الامر على النقيض من ذلك ، فهو سوف يعجل في هذا التطور ان السادة الذاتيين يتصورون ابدا ان المشاعة الزراعية تتجه « من تلقاء نفسهـا » نحـو « شكل اعلى » وانهم لمخطئون ان الاتجاه الفعـلي الوحيـد للمشاعة الزراعية هو **الاتجـاه الى الانحلال** ، وبقدر ما تتحسن شروط طبقة الفلاحين سيكون ذلك الانحلال اسرع وفضلا عن ذلك فان هذا الانحلال يمكن ان يتم في شروط **اكثر او اقل فائـدة** للشعب وان مـن واجب « التلامـذة » ان « يسعوا جهدهم » كي يتـم الانحـلال في شروط **اكثر فائدة للشعب** .

ولكن لماذا لا نمنع هذا الانحلال نفسه ؟ »

ولماذا لم تمنع مجاعة عام ١٨٩١ ؟ الم يكن ذلك في مقدورك ؟ اننا نصدقك بيد اننا نعتبر قضيتنا خاسرة اذا لم يتبق لنا الا ان نحمل **اخلاقيتك** مسؤولية **احـداث**

كانت مستقلة عن ارادتك بدلا من ان ندحض آراءك بواسطة **الحجج المنطقية** ولكن لماذا تطبق علينا مقياسا مختلفا ؟ لماذا تمثل فقر الشعب ، في مناقشاتك معنا ، وكأننا مسؤولون عنه ؟ لانه حيث لا يستطيع المنطق مساعدتك تستطيع **الكلمات** ذلك ، وبصورة خاصة **كلمات الرثاء** لم يكن في مقدورك ان تمنع مجاعة عام ١٨٩١ ؟ فمن يستطيع اذن ان يؤكد ان في مقدورك ان تمنع انحلال المشاعة الزراعية ، واغتصاب ملكية الفلاحين ؟ لنأخذ الحد الوسط ، الحبيب جدا الى الانتقائيين لنتصور انك سوف تنجح في بعض الحالات في منع ذلك لكن في الحالات التي سوف تخفق جهودك فيها ، حيث تنحل المشاعة الزراعية بالرغم منك ويصبح الفلاحون بدون ارض ـ كيف سوف تتصرف مع ضحايا هذا التطور المحتوم ؟ لم يكن شارون يجتاز بنهر ستيكس الا تلك الانفس التي تستطيع ان تدفع له اجر اتعابه هل ستحمل على متن قاربك الصغير ، لتنقلهم الى محكمة المثل الاعلى الذاتي فقط اولئك الاعضاء النشيطين للمشاعة الزراعية ؟ هل ستطرد بمجذافك بروليتاريي الارياف ؟ من المؤكد انكم ستوافقون ، ايها السادة ، على ان هذا السلوك سوف نكون « قذرا وحين تعترفون بذلك فلا بد لكم ان تنصرفوا حيال اولئك الناس كما يجدر ، في رايكم ، بكل انسان شريف ان يتصرف يعني الا تديروا مواخير لهم حيث يأتون فيسكرون ، بل تزيدون قدرتهم على **المقاومة** ضد الماخور وضد صاحبه ، وضد جميع وسائل التخدير التي يقدمها او يمكن ان يقدمها لهم التاريخ

او لعلنا **نحن** الذين بدأنا الآن نروي اقاصيص الجنيات ؟ لعل المشاعة الزراعية **لا** تجتاز مرحلة الانحلال ؟ لعل اغتصاب ملكية المزارعين ليس واقعة ؟ لعلنا اخترعنا هذا كله وهدفنا الوحيد منه ان نغرق الفلاح في فقره ، بعدما كان يتمتع حتى الوقت الحاضر برخاء يحسد عليه ؟ افتحوا اذن اي مؤلف وضعه احد انصاركم وسوف يبين لكم كيف تجري الامور حاليا ، يعني قبل ان يكون اي من التلامذة قد اسس ماخورا او افتتح دكانا صغيرا حين تجادلوننا تقدمون الأمور وكأن الناس يعيشون منذ الآن في مملكة مثلكم العليا الذاتية ، بينما نحن نجرهم ، من جراء حقدنا الصميمي على الجنس البشري ، الى نثر الرأسمالية من اقدامهم لكن العكس تماما هو الصحيح ان النثر هو القائم ، ونحن نتساءل كيف يمكن مكافحة هذا النثر ، كيف يمكننا ان نجعل الشعب في وضع يقترب حتى درجة ما من « المثل الاعلى » ؟ وقد تجدون اننا نعطي الجواب المغلوط عن السؤال ، لكن لماذا تشوهون نوايانا(٦١) ؟ ايكون ذلك « نظيفا » حقا ؟ في الحقيقة ان مثل هذا « النقد » لا يليق حتى **بصنعة الايقونات في سوزدال** .

لكن كيف يستطيع المرء ان يكافح النثر الرأسمالي الموجود ـ واننا لنكرر ذلك ـ بصورة مستقلة عن جهودنا وجهودكم ؟ ان لديكم جوابا واحدا « توطيد المشاعة الزراعية ، تقوية رابطة الفلاح بالارض وانا لنجيب بأن هذا الجواب لا يليق الا بالطوباويين لماذا ؟ لانه جواب مجرد ففي رأيكم ان المشاعة الزراعية صالحة في كل مكان وزمان ، **بينما نرى ان الحقيقة** المجردة لا وجود لها ، بل الحقيقة مشخصة دائما والامور جميعا وقف على شروط الزمان والمكان لقد كان زمان كان يمكن للمشاعة الزراعية فيه ان تكون مفيدة للشعب **بأسره** ، والارجح ان ثمة امكنة حتى الآن تفيد المزارعين فيها ولسنا نحن الذين سنبدأ ثورة ضد مثل هذه المشاعة لكن هناك عددا كبيرا من الحالات حولت المشاعة الزراعية فيها الى وسيلة **لاستغلال** الفلاح واننا لنثور ضد مثل هذه المشاعة ، مثلما نثور ضد كل الامور التي تلحق الضرر بالشعب تذكروا الفلاح الذي يدفع عند اوسبنسكي **« لقاء لا شيء(٦٢) »** .

ما الذي ينبغي للمرء في رأيكم ان يفعله به ؟ تجيبون نقله الى مملكة المثل الاعلى حسنا ، انقلوه ، وليكن الله في عونكم لكن طالما انه لم ينقل بعد ، طالما انه لم يتخذ مقعده على متن قارب المثل الاعلى ، طالما ان القارب لم يأت بعد لينقله ولا نعرف بعد متى سيأتي ، أفلا يكون من الافضل له ان يتخلص من هذا الدفع لقاء لا شيء » ؟ أفلن يكون من الافضل له ان يكف عن كونه عضوا في المشاعة الزراعية التي لاتعني الا انه سيتكلف نفقات غير منتجة على الاطلاق ، وربما بالاضافة الى ذلك جلسات دورية من الجلد في مركز الناحية ؟ نعتقد ان **نعم** ، لكنكم تتهموننا لذلك باننا ننوي ان نقضي على الشعب جوعا أهذا عدل ؟ أليس فيه شيء من القذارة » ؟ او لعلكم عاجزون حقا عن فهمنا ؟ أيكون الامر كذلك حقا ؟ لقد قال تشاداييف مرة ان الروسي في زمانه لم يفهم من الغرب حتى قياسه المنطقي أتكون تلك هي حالتكم حقا ؟ سنقبل ان السيد س . كريفنكو ، بكل اخلاص ، لا يفهمنا ، ونقبل بذلك فيما يتعلق ايضا بالسيد كاربيف والسيد يوجاكوف لكن السيد ميخائيلوفسكي قد اوحى لنا على الدوام بانه « اذكى » من ذلك حتى درجة كبيرة

ماذا اخترعتم ايها السادة في سبيل تحسين نصيب الملايين من الفلاحين الذين فقدوا اراضيهم فعليا ؟ حين يتعلق الامر بالناس الذين يدفعون « لقاء لا شيء » ، فانكم لا تقدرون ان تقدموا الا نصيحة واحدة بالرغم من انه يدفع « لقاء لا شيء » ، فلا يجوز له مع ذلك ان يدمر رابطته بالمشاعة الزراعية ، لان هذه الرابطة اذا تعرضت للدمار مرة لم يمكن اصلاحها قط ومن المؤكد ان هذه الطريقة لا تخلو من المساوىء المؤقتة بالنسبة الى اولئك الذين يدفعون لقاء لا شيء ، لكن ... « مايعانيه الموجيك لا يشكل كارثة* »

---

* [تراسوف : **تأملات عند باب الشرف**]

وانه ليتضح اجمالا من ذلك ان سادتنا الذاتيين مستعدون **للتضحية على مذبح مثلهم الاعلى بمصالح الشعب** الاشد حيوية **وانه ليترتب على ذلك ، اجمالا ، ان بشارتهم تزداد اضرارا بالشعب بصورة مطردة !**

يقول تولستوي عن انا بافلوفنا شيرر* ان « الحماسة اصبحت رسالتها الاجتماعية » وان الحقد على الرأسمالية قد اصبح الرسالة الاجتماعية لاصحابنا الذاتيين **ما عسى** ان تكون فائدة حماسة عانس بالنسبة الى روسيا ؟ لا شيء على الاطلاق **وما هي الفائدة التي يحصل عليها المنتجون في روسيا من الحقد « الذاتي » على الرأسمالية؟** لا شيء على الاطلاق ايضا !

ولقد كانت حماسة آنا شيرر على الاقل عديمة الضرر لكن الحقد الطوباوي على الراسمالية قد بدأ يلحق ضررا ايجابياً بالمنتج الروسي ، لانه يجعل مثقفينا قليلي الحساسية حتى الدرجة القصوى حيال وسائل توطيد المشاعة الزراعية فلا يكادون يتطرقون الى هذه القضية حتى يخيم الليل ـ ليل تكون فيه القطط جميعا سوداء جدا بحيث يسقط سادتنا الذاتيون في اذرع **انبياء موسكو** وان هذا التعتيم الذاتي للفكر يقدم المعونة على وجه الدقة الى ذلك **الماخور** الذي يتهم « التلامذة » بالرغبة في اقامته انه لمخز ان نقول ذلك ، لكن من الاجرام ان نخفيه **ان خصوم الرأسمالية الطوباويين يثبتون انهم شركاء هذه الرأسمالية في شكلها الاشد فظاظة وخزيا وضررا .**

لقد تحدثنا حتى الآن عن الطوباويين الذين حاولوا ، او يحاولون اليوم ، ان يبتدعوا حجة ما **ضد ماركس** فلنر الآن كيف يتصرف اولئك الطوباويون ، او كيف تصرفوا ، **الذين يدعون الاستشهاد به .**

ان هاينزن ، الذي يورده السادة الذاتيون بدقة مذهلة في مناقشاتهم مع التلامذة الروس قد كان طوباويا ذا نزعة ديموقراطية بورجوازية لكنه كان في المانيا في عصره طوباويات اخرى **ذات اتجاه معاكس**(٦٣)

واليكم كيف كان وضع المانيا الاجتماعي والاقتصادي في ذلك الحين في خطوطه العريضة

كانت البورجوازية من جهة واحدة تتطور بسرعة وتطالب باصرار بمختلف انواع المساعدة والتأييد من قبل الحكومات الالمانية وان Zolverein** الشهير قد كان من عملها ، ولم تكن الحملة في مصلحته تجري بواسطة « الاستدعاءات وحدها، بل كذلك بواسطة ابحاث علمية اكثر او اقل ، كأعمال فريديريك ليست(٦٤) مثلا ومن جهة ثانية فان دمار الاسس الاقتصادية القديمة قد ترك الشعب الالماني اعزل

* [**في الحرب والسلام**]

** [الاتحاد الجمركي النشأ بين الدول الالمانية عام ١٨٣٤] .

حيال الراسمالية   ولقد كان الفلاحون والحرفيون قد انخرطوا في هذه الاثناء في عملية التقدم الراسمالي بصور كافية كي يختبروا على انفسهم جميع جوانبها السيئة التي تكون ملموسة بصورة خاصة ابان **المراحل الانتقالية**   لكن كتلة الشغيلة كانت بعد عاجزة عن المقاومة ، ولم يكن في مقدورها بعد مجابهة ممثلي الراسمال حتى اية درجة ملحوظة   وفيما بعد ، **في الستينات** ، قال ماركس ان المانيا كانت تعاني في وقت واحد **من تطور الراسمالية ومن عدم كفاية تطورها**   ولقد كانت آلامها من جراء عدم كفاية تطور الراسمالية اعظم من ذلك ايضا في الاربعينات   لقد دمرت الراسمالية الاسس القديمة للحياة الفلاحية ؛ وان الصناعة **الحرفية** ، التي ازدهرت في المانيا فيما مضى ، كانت مضطرة الآن الى تحمل منافسة الانتاج **الآلي** الذي كان بالغ القوة جدا بالنسبة اليها   وازداد الحرفيون فقرا ، وسقطوا اكثر فاكثر كل عام تحت رحمة **الوسطاء** . وكان على الفلاحين في الوقت نفسه مجموعة كبيرة من الخدمات حيال الملاكين العقاريين والدولة ، وقد كان في الامكان تحملها في الايام السابقة ، لكنها باتت في الاربعينات مرهقة لانها كانت تتجاوب بصورة متناقضة ابدا مع الشروط الفعلية للحياة في الارياف. وبلغ بؤس الفلاحين ابعادا مخيفة ؛ فقد اصبح الكولاك سيد القرية المطلق ، وكثيرا ما كان يبتاع محصول الفلاح حتى قبل نضوجه ، كما اصبح التسول نوعا من العمل الموسمي   ولقد اشار الباحثون في ذلك الحين الى مشاعات كانت مئات قليلة من العائلات فيها ، من أصل الوف عديدة من الاسر ، غير منخرطة في التسول   وفي اماكن اخرى ـ وهذا امر لا يصدق على الاطلاق ، لكن صحافة تلك الايام قررته ـ **كان الفلاحون يأكلون جيف الحيوانات**   لقد كانوا يهجرون قراهم   ولا يجدون عملا كافيا في المراكز الصناعية ، وكانت الصحف تشير الى البطالة المتزايدة وما تؤدي اليه من هجرة متعاظمة

واليكم كيف تصف احدى الصحف الاكثر تقدما في ذلك العصر حالة الجماهير الكادحة

> في رافنسبرغ وفي اماكن اخرى من المانيا لا يستطيع مائة الف عامل ان يحيوا من عملهم ، فهم لا يجدون سوقا لمنتجاتهم » (**كان الحرفيون هم المقصودون بصورة رئيسية**)
> « انهم يبحثون عن العمل والخبز ، دون ان يجدوا ايا منهما ، لانه من الصعب ان لم يكن من المستحيل بالنسبة اليهم ان يجدوا عملا خارج صناعة الغزل   ان بين العمال مزاحمة هائلة على الاجر الاشد ضآلة*)

وكانت معنويات الشعب تنهار بطبيعة الحال. فقد كان دمار **العلاقات الاقتصادية** القديمة يقابلها تزعزع **المفاهيم الاخلاقية** القديمة   وكانت صحف تلك الايام ومجلاتها تغص بالشكاوى من السكر بين العمال ، ومن الانحلال الجنسي في وسطهم ، ومن

---

* Der Gesellschaftspiegel [**مرآة المجتمع**] ، القسم الاول ، ص: ٧٨   **رسالة ويستفاليا.**

حب الزينة والتبذير اللذين يعيشان فسادا بينهم جنبا الى جنب مع الانخفاض في الاجور ولم يكن في الطبقة العاملة الالمانية بعد اية اشارة الى تلك الاخلاق **الجديدة** التي جعلت تتطور بسرعة لديها فيما بعد على اساس حركة التحرر الجديدة التي اثارها تطور الراسمالية بالذات ان الحركة الجماهيرية من اجل التحرر لم تكن قد بدأت في ذلك الحين ولم يكن استياء الجماهير الاهم يتظاهر من وقت لآخر الا في الاضرابات اليائسة والعصيانات التي لا هدف لها ، وفي تدمير الآلات الذي لا معنى له. لكن شرارات الوعي كانت قد لامست رؤوس العمال الالمان ان الكتاب الذي كان ترفا عديم الضرورة في النظام القديم قد اصبح سلعة ضرورية في الشروط الجديدة ، واستولى هوس القراءة على قلوب العمال

تلك كانت الاوضاع التي لم يكن بد للقسم حسن النوايا من المثقفين الالمان (der Gcbil deten _ كما كانوا يقولون في ذلك الحين) ان يأخذه بعين الاعتبار ما الذي يجب عمله وكيف تمكن مساعدة الشعب ؟ اجاب المثقفون بالقضاء على الراسمالية وان مؤلفات ماركس وانجلز التي ظهرت في ذلك الحين قد استقبلت بحرارة من قبل فئة من المثقفين الالمان على اعتبارها تشكل عددا من الحجج العلمية الجديدة **الى جانب القضاء على الرأسمالية** .

بينما كان السادة السياسيون الليبراليون ينفخون بقوة متعاظمة في بوق ليست الخاص بتعرفة الحماية ، محاولين ان يؤكدوا لنا انهم يعنون بانطلاقة الصناعة في مصلحة الطبقة العاملة بصورة رئيسية ، وبينما كان خصومهم ، المتحمسون للتجارة الحرة ، يحاولون ان يبرهنوا على ان انكلترا اصبحت البلد المزدهر والكلاسيكي للتجارة والصناعة دون ان تلعب الحماية في ذلك اي دور على الاطلاق ، فان كتاب انجلز الرائع عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترا** قد ظهر في الوقت المناسب كي يدمر تلك الاوهام لقد اعترف جميع الناس بانه احد الاعمال البارزة في العصور الحديثة لقد اثبت بعدد من البراهين التي لا تدحض نحو اية هوة يندفع ذلك المجتمع الذي جعل مبداه المحرك الجشع الشخصي والمزاحمة الحرة بين اصحاب الاعمال الخاصين الذين يشكل المال إلهـا بالنسبة اليهم »*

ولذا فانه من الواجب الغاء الرأسمالية ، والا فان المانيا سوف تسقط في تلك الهوة التي استقرت انكلترا في قعرها في هذه الاثناء هذا ما اثبته انجلز ومن ذا سوف يقضي على الرأسمالية ؟ المثقفون die Gebildeten وفي راي احد هؤلاء المثقفين ان خاصية المانيا تستقيم بالضبط في ان المثقفين مدعوون الى القضاء على الرأسمالية فيها ، بينما في الغرب (in den westlichen Landern)

---

* المصدر نفسه ص ٨٦ Notizen und Nachritmen [ملاحظات واخبار] .

فالعمال هم الذين يحاربونها بصورة رئيسية »* وكيف سيقضي المثقفون الالمان على الراسمالية ؟ بتنظيم الانتاج (Organisation der Arbeit) ومـاذا يجب ان يفعل المثقفـون مـن اجـل تنظيم الانتاج المذكـور ؟ ان Allgemeines Volksblat الصادرة في كولونيا في ١٨٤٥ قد اقترحت لذلك التدابير التالية

١ ـ تنشيط التربية الشعبية بتنظيم المحاضرات ، والحفلات الموسيقية ، الخ.

٢ ـ تأسيس ورشات كبيرة يستطيع فيها العمال والحرفيون ان يعملوا لحسابهم الخاص وليس لحساب معلم او تاجر. وان Allgemeines Volksblat لتأمل ان يستطيع هؤلاء الحرفيون مع الزمن ان ينتظموا من تلقاء انفسهم في رابطات

٣ ـ تأسيس مخازن من اجل بيع السلع المصنعة من قبل الحرفيين ، وكذلك من قبل الورشات الوطنية

ان الصحيفة ترى ان هذه التدابير سوف تنقذ المانيا من شـرور الراسمالية ، وسوف يكون اتخاذها اسهل نظراً لان « الناس هنا وهناك بداوا منذ الآن في انشـاء المخازن الدائمـة المسماة الاسواق الصناعية ، حيث يستطيع الحرفيون ان يضعـوا سلعهم من اجل البيع » ، ويحصلوا في الحال على سلفـة على حسابها ومن ثـم يرد وصف للمميزات التي سوف تترتب على ذلك كله ، في مصلحة المنتج والمستهلك على حـد سـواء

وان القضاء على الراسمالية ليبدو سهلا حيث **لا يزال نموها قليلا** ، ولذا فـان الطوباويين الالمان قد شددوا غالبا وعن طيبة خاطر على ان المانيا لم تصبح انكلترا بعد. بل لقـد كان هاينزن على استعداد لان ينكر صراحة وجود بروليتاريا مصنعيـة في المانيا ، لكن بما ان الامر الاساسي بالنسبة الى الطوباويين قد كان البرهان «للمجتمع» على ضرورة تنظيم الانتاج فقد كانوا ينتقلون احيانا ، دون صعوبة ودون ان يلاحظوا ذلك ، الى وجهة نظر الناس الذين كانوا يؤكدون ان **الراسماليـة الالمانية لا تستطيـع ان تتطور قدما بعد الآن من جراء تناقضاتها الباطنة،وان السوق الداخلية قد اشبعت حاليا ، وان قوة السكان الشرائية في هبوط ، وان الاستيلاء على اسواق خارجيـة أمر غير متوقع،وبالتالي ان عدد العمال المنخرطين في الصناعات التحويليةلابد ان ينقص باستمرار** تلك كانت وجهة نظر صحيفة **مرآة المجتمـع** التي استشهدنا بها مـرات عديدة ، والتي كانت احدى الصحف الرئيسية للطوباويين الالمان في ذلك الحـين

* انظر مقالة هيس في المجلد نفسه من المجلة الانفة الذكر ص وما يليها انظر كذلك ، Neue Anekdoten Herausgegeben von Karl Grün دار مستادت ، ١٨٤٥

[**الاقاصيص الجديدة** ، أصدرها كارل غرون] في المانيا خلافا لفرنسا ، فان الاقلية المثقفة هي التي انخرطت في مكافحة الرأسمالية وهي التي « **تضمن النصر عليها** » .

بعد ظهور كراسة بوهل في برلين عام ١٩٤٥ Andeutungen Ober die Noth der Arbeitenden Klassen und Ober di.Aufgabe der Veréiné Zum Wohl der selben*

ولقد تسائل بوهل هل الاتحادات من اجل تحسين حالة الطبقة العاملة قادرة على تحقيق مهمتها ؟ وكان لا بد له في سبيل الاجابة عن هذا السؤال ، من طرح سؤال آخر ما هو منشأ البؤس الحالي للطبقة العاملة ؟

ويقول بوهل ليس الفقير والبروليتاري شيئا واحدا البتة فالفقير لا يريد او لا ستطيع ان يعمل اما البروليتاري فيبحث عن العمل وهو قادر عليه ، لكن هذا العمل غير موجود ولذا فهو يقع في البؤس ولقد كانت مثل هذه الظاهرة مجهولة تماما فيما مضى ، بالرغم من ان الفقراء كانوا موجودين دائما ، ومثلهم المضطهدون الاقنان على سبيل المثال

من اين تأتي البروليتاريا ؟ ان **المزاحمة** هي التي خلقتها ان المنافسة،اذ حطمت الاغلال القديمة التي كانت تقيد الانتاج قد حققت ازدهارا صناعيا لم يسبق له مثيل لكنها ارغمت كذلك المعلمين على تخفيض اسعار سلعهم ولذا فهم يحاولون ان يتقصوا اجور المستخدمين او عددهم وان النتيجة الثانية تتحقق باحكام الآلات، الامر الذي يلقي باعداد كبيرة من العمال في الشارع وفيما عدا ذلك ، فان الحرفيون عاجزون عن مجابهة مزاحمة الانتاج الآلي ، فهم يتحولون ايضا الى بروليتاريين وتنخفض الاجور اكثر فاكثر ويشير بوهل الى مثال صناعة الاقطان الهندية التي كانت مزدهرة في المانيا حتى العشرينات لقد كانت الاجور مرتفعة جدا اذن ، وكان في مقدور العامل الجيد ان يربح ١٨ ـ ٢٠ تالر في الاسبوع لكن الآلات ظهرت ، ومع الآلات عمل النساء والاولاد ـ فهبطت الاجور بصورة رهيبة ان مبدأ المزاحمة الحرة يعمل في كل زمان ومكان على هذا الغرار حيثما تحققت السيطرة له **انه يؤدي الى فرط الانتاج** ، وفرط الانتاج الى البطالة وبقدر ما يزداد نمو الصناعة الكبرى تتسع البطالة وينقص عدد العمال المشتغلين في المشاريع الصناعية وان الحقيقة التالية لتؤكد ذلك ان الكوارث الآنفة الذكر لا تحدث الا في البلدان الصناعية فالبلدان الزراعية لا تعرفها بيد ان الاوضاع التي تخلقها المزاحمة الحرة تشكل خطرا كبيرا على المجتمع(Für der Gesellschaft) وبالتالي لا يستطيع المجتمع ان يتخذ موقف اللامبالاة حيالها فما الذي يجب ان يفعله المجتمع اذن ؟ ان بوهل يلتفت هنا الى السؤال الذي يحتل مرتبة الشرف ، اذا جاز التعبير ، في مؤلفه ايستطيع اي **اتحاد** ، كائنا ما كان ، ان يقضي على بؤس الطبقة العاملة ؟

---

* [ملاحظات عن بؤس الطبقات الكادحة وعن مهمة الاتحادات في سبيل تحسين حالتنا] .

ان الاتحاد البرليني من اجل اغاثة الطبقة العاملة قد وضع نصب عينيه « ليس القضاء على الفقر القائم بقدر منع ظهوره في المستقبل » وان بوهل ليلتفت الى هذا الاتحاد الآن فيسأل كيف ستمنعون ظهور الفقر في المستقبل ، وماذا ستفعلون لهذه الغاية ؟ ان بؤس العامل الحديث ينشأ عن نقص الطلب على عمله فالعامل لا يحتاج الى الاحسان ، بل الى العمل ولكن من اين سيحصل الاتحاد على هذا العمل ؟ فكيما يزداد الطلب على العمل لا بد ان يزداد الطلب على منتجات العمل لكن هذا الطلب يتناقص من جراء نقص مكاسب الجماهير العاملة او لعل الاتحاد سيكتشف اسواقا جديدة ؟ ان بوهل لا يعتقد ان ذلك ممكن ايضا وانه ينتهي الى الاستنتاج بان المهمة التي وضعها اتحاد برلين نصب عينيه هي ((**وهم حسن النية**)) .

وينصح بوهل الاتحاد البرليني ان يفكر اكثر في اسباب بؤس الطبقة العاملة قبل ان يبدأ نضاله ضده انه يعتبر **الملطفات** عديمة الجدوى صحيح ان اعتمادات العمل وصناديق التوفير والتقاعد وما شابه يمكن ان تحسن اوضاع افراد قليلين ، لكنها لن تقضي على الشر» . وكذلك لن تستطيع الاتحادات ان تفعل ذلك «فالاتحادات ايضا لن تفلت من الضرورة القاسية (dura Necessitas) للمزاحمة »

ما هي الوسائل التي يتصورها بوهل من اجل القضاء على هذا الشر ، هذا ما يصعب تقريره بصورة مضبوطة من كراسته . ويبدو انه يطالب بتدخل الدولة ،مضيفا على اية حال بان نتيجة مثل هذا التدخل **مشكوك فيها** ومهما يكن من امر ، فان كراسته تركت اثرا عميقا في المثقفين الالمان في ذلك الحين ، وليس بمعنى تحريرهم من الاوهام لقد كان الامر على النقيض من ذلك ، اذ وجدوا فيها برهانا جديدا على ضرورة تنظيم العمل

واليكم ماقالته صحيفة **مرآة المجتمع** عن كراسة بوهل

نشر الكاتب الشهير ل بوهل مؤخرا مؤلفا بعنوان Andehtungen انه يعتقد – ونحن نشاطره الرأي – ان بؤس الطبقة العاملة مرده الى فائض القوى المنتجة ، وان هذا الفائض نتيجة للمزاحمة الحرة وللاكتشافات والاختراعات الاخيرة في الفيزياء والميكانيك ، وان العودة الى الورشات والنقابات الحرفية ستضاهي في الضرر اعتراض سبيل الاكتشافات والاختراعات ، وانه ليس هناك بالتالي **في الشروط الاجتماعية الراهنة** » (ان التشديد هو منكاتب المجلة) اية وسائل فعالة من اجل مساعدة العمال واذا افترضنا ان العلاقات الانانية القائمة في الوقت الحاضر بين اصحاب العمل الخاصين لم تتغير ، فان علينا ان نوافق بوهل على انه ليس في مقدور اي اتحاد ان يلغي الفقر القائم بيد ان مثل هذا الافتراض لا ضرورة له على الاطلاق ان الامر على النقيض من ذلك ، اذ يمكن ان تقوم اتحادات ، وهي قد قامت بالفعل ، هدفها القضاء بالوسائل السلمية على الاساس الاناني الانف الذكر لمجتمعنا وان كل ما يلزم من اجل ذلك هو ألا تقف الحكومة حجر عثرة في طريق مثل هذه الاتحادات »

من الواضح ان المعلق لم يفهم ، او لم يشأ ان يفهم فكرة بوهل بيد ان هذا الامر لا يهمنا اذا كنا قد التفتنا الى المانيا ، فما ذلك الا لان الدروس المستخلصة من تاريخها تساعدنا بصورة افضل على ان نفهم بعض التيارات الفكرية في روسيا الحالية. وبهذا المعنى فان حركة المثقفين الالمان في الاربعينات تنطوي على عناصر كثيرة مفيدة لنا

فاولا تذكرنا محاكمة بوهل بمحاكمة السيد « ن ـ ون لقد بدأ كلاهما بالاشارة الى تطور القوى المنتجة على اعتباره السبب في انخفاض الطلب على العمل وبالتالي في الانخفاض النسبي لعدد العمال وان كليهما ليتحدثان عن اشباع السوق الداخلية وعن الضرورة الناشئة عن ذلك من اجل مزيد من النقص في الطلب على العمل ويبدو ان بوهل لا يعترف بامكانية استيلاء الالمان على اسواق خارجية وان السيد « ن ـ ون ليرفض بحزم ان يعترف بهذه الامكانية فيما يتعلق بالصناعيين الروس واخيرا فان كليهما يتركان مسألة الاسواق الخارجية دون دراسة على الاطلاق ، ولا يقدم اي منهما حجة جدية واحدة تؤيد رايه

ولا يستخلص بوهل اية نتيجة واضحة من بحثه ، باستثناء انه من الواجب التفكير بصورة اعمق في اوضاع الطبقة العاملة قبل مساعدتها اما السيد « ن ـ ون » فيخلص الى النتيجة بأن مجتمعنا يواجه في الحقيقة مهمة صعبة لكن غير مستعصية ـ مهمة تنظيم انتاجنا الوطني لكننا اذا اكملنا آراء بوهل بالاعتبارات التي طرحها بشأنها معلق مرآة المجتمع الذي استشهدنا به وصلنا بالضبط الى موضوعة السيد « ن ـ ون » ان السيد « ن ـ ون » = بوهل مرآة المجتمع وان هذه « الصيغة لتؤدي بنا الى الافكار التالية

ان السيد « ن ـ ون » يسمى ماركسيا في بلادنا ، بل الماركسي الحقيقي » الوحيد لكن ايمكن ان يقال ان حصيلة آراء بوهل ومعلق مرآة المجتمع عن اوضاع المانيا في الاربعينات تعادل آراء ماركس عن هذه الاوضاع نفسها ؟ وبكلام اخر ، هل بوهل المكمل بمرآة المجتمع ماركسيا وفضلا عن ذلك الماركسي الحقيقي الوحيد ، الماركسي * par excellence لا بالتأكيد ان حقيقة ان بوهل اشار الى التناقضات التي يقع فيها المجتمع الراسمالي من جراء تطور القوى المنتجة لا يترتب عليها مطلقا تبني وجهة نظر مجردة جدا وبنتيجة هذا الامر وحده فان روح ابحاثه لا تملك اي شيء مشترك مع افكار ماركس فحين تستمع اليه تتصوران الراسمالية الالمانية سوف تختنق بين ليلة وضحاها تحت عبء تطورها الخاص ، وانه لم يبق امامها مكان تذهب اليه ، وان الحرف اليدوية قد حولت راسماليا بصورة جازمة ، وان عدد العمال الالمان سوف ينخفض سريعا ولم يعبر ماركس عن مثل هذه الآراء

* [بصورة ممتازة] .

قط ، بل الامر على النقيض من ذلك ، لانه حين سنحت له الفرصة للحديث عن مستقبل الراسمالية الالمانية ، في أواخر الاربعينات وبصورة خاصة في أوائل الخمسينات ، فقد قال شيئا مختلفا كل الاختلاف ، ولا بد ان يكون المرء قد اخفق كليا في فهم افكاره كي يعتبر ان امثال « ن ـ ون » الالمان ماركسيون حقيقيون*

---

* لقد كان في المانيا في ذلك الحين عدد كبير من اشباه «ن ـ ون» ، ومن اتجاهات مختلفة ولعل المحافظين كانوا ابرزهم . وهكذا فان الهر الدكتور كارل فولغراف، Ordentlicher Professor der Recht [استاذ عادي في الحقوق] ، في كراسة تحمل عنوانا لا ينتهي « Von der ùber und unter ihr Naturnothwendiges Hass Erweiterten und Heralogedrückten Concurenz In Allen Nahrungs - und Erwerbs - zweigen des Bürgerlichen Lebens, Als Der nächsten Ursache des Allgemenen Alle Klassen mehr odér wénigér Drückenden Nothstandes in Deutschland insonderheit des Getreidé Wuchers sowievon den Mitteln zu ihrer Abstellung », Darmstadt 1845.

[في المزاحمة المتزايدة او المتناقصة ما وراء وما قبل حدودها المحددة بالقوانين الطبيعية في جميع فروع المهن والصناعات في الحياة المدنية ، على اعتبارها السبب المباشر في البؤس العام الذي يتناول اكثر او اقل جميع الطبقات في المانيا ، وبصورة خاصة في المضاربة على الحبوب ، وكذلك في وسائل القضاء على المزاحمة المذكورة ، ارمستادت ١٨٤٨] يصور الوضع الاقتصادي في الوطن الالماني » بصورة تشابه حتى درجة الذهول لوحة الوضع الاقتصادي في روسيا التي نجدها في دراسات عن اوضاعنا الاقتصادية بعد الاصلاح للسيد « ن ـ ون » ان فولغراف يمثل الامور كذلك وكأن تطور القوى المنتجة قد ادى منذ الان ، « تحت تأثير المزاحمة الحرة » ، الى النقص النسبي في عدد العمال المشتغلين في الصناعة ولقد وصف بمزيد من التفصيل بالنسبة الى بوهل تأثير البطالة في حالة السوق الداخلية ان المنتجين في احد فروع الصناعة هم في الوقت نفسه مستهلكون لمنتجات فروع اخرى ، لكن البطالة تحرم المنتجين من القوة الشرائية ، فينقص الطلب ، وبذلك تصبح البطالة عامة ، فينشأ الاملاق التام (Volliger Pauperismus) « وبما ان طبقة الفلاحين تتعرض للدمار من جراء المزاحمة المفرطة ، فان ركودة تامة في الاعمال تترتب على ذلك ، وتتفسخ العضوية الاجتماعية ،وتؤدي عملياتها الفسيولوجية الى ظهور كتلة متوحشة يسبب الجوع فيها تخمرا تعجز امامه عقوبات الدولة ، وحتى اسلحتها ان المزاحمة الحرة تؤدي في القرى الى انقاص المساكن الفلاحية حتى ابعاد ضئيلة ، ولا تجد الايدي العاملة في اي مسكن فلاحي عملا كافيا على مدار السنة . « وهكذا فان آلاف القرى ، وبصورة خاصة تلك الواقعة في المناطق القليلة الخصب ، كما في ايرلندا بالضبط على وجه التقريب ، يظل الفلاحون الفقراء دون عمل او شغل امام ابواب منازلهم ولا يستطيع اي منهم يساعد الاخر ، لانهم جميعا يملكون القليل جدا ، وجميعا يحتاجون الى الاجور ، وجميعا يبحثون عن العمل ولا يجدونه ولقد ابتكر فولغراف من جانبه عددا من « التدابير » من اجل مكافحة التأثير الهدام « للمزاحمة الحرة » ، لكن بروح تختلف كليا عن روح الصحيفة الاشتراكية مرآة المجتمع .

ان اشباه « ن ــ ون » **الالمان** يفكرون بصورة **تجريدية تماما** ، مثلهم مثل اصحابنا من **اشباه بوهل وفولغراف** الحاليين وان التفكير **تجريديا يعني الوقوع في الخطأ** ، حتى في تلك الحالات حيث ننطلق من مبدأ صحيح كل الصحة هل تعرف ايها القارىء ما هو **ضـد الفيزياء** عند دالامبير ؟ لقد قال دالأمبير ان في مقدوره ، بالاستناد الى القوانين الفيزيائية التي لا تقبل الجدال مطلقا ان يثبت حتميـة ظواهر هي مستحيلة تماما في واقع الامر ؛ يكفي من اجل ذلك ان ندفع حتى حده الاقصى مفعول اي قانون ، ناسين لبرهة واحدة ان ثمة قوانين اخرى تعدل فعله ومن المؤكد اننا سنتوصل بذلك الى نتائج غير معقولة على الاطلاق ولقد قدم دالامبير ، كي يبرهن على ذلك . عدة امثلة لامعة حقا ، بل كان ينوي ان يكتب في اوقات فراغه **فيزياء ضدية** كاملة وان السادة امثال « ن ــ ون » وفولغراف يكتبون منذ الآن **اقتصادا ضديـا** ليس على سبيل المزاح ، بل بصورة جادة تماما وهذه هي طريقتهم انهم يتناولون قانونا اقتصاديا لا جدال فيه ، ويشيرون بصورة صائبة الى **النتائج** المترتبة عليه ، ومن ثم ينسون ان تحقيق هذا القانون هو في الحيـاة **عمليـة تاريخية كاملـة** ، ويقدمون الامور وكأن هذا القانون **حقق مسبقا نتائجه بصورة كاملـة** في الواقـع بينما هم قـد انصرفوا الى كتابة اعمالهم ولا يتبقى الا ان يكدسوا اكواما من الاحصائيات الرديئة الهضم ، وان يستشهدوا بماركس كيفما اتفق ، وعندئذ فان « دراسات فولغراف او بوهل او «ن ــ ون» تتخذ مظهر العمل العلمي المقنع الذي تم بروح مؤلف **رأس المال.** لكن هذا مجرد وهم بصري لا اكثر

اما ان ثمة فجوات كبيرة في التحليل الذي قام فيه فولغراف عن الاقتصاد الالماني في عصره . فالبرهان على ذلك في هذه الحقيقة التي لا جدال فيها نبؤته عن « **تفسخ العضوية الاجتماعية** » في المانيا واما ان السيد « ن ــ ون استخدم اسم ماركس عبثا ، بالضبط كما ان السيد جوكوفسكي اخطأ في اسخدام الحساب التكاملي فهذا ما سوف يفهمه السيد سيرج كريفنكو الفاضل جدا دونما عناء

ومهما يكن رأي اولئك السادة الذين يتهمون ماركس بالضيق ، فان هذا الكاتب لم يأخذ قط بعين الاعتبار التطور الاقتصادي لبلد ما **بصورة منفصلة عن تلك القـوى الاجتماعية التي تؤثر في تطوره اللاحق وهي تشتق اصلها منه** (ليس هذا واضحـا تماما في نظرك ياسيد كريفنكو ، لكن صبرا فاذا ما عرف وضع اقتصادي ما ، فان بعض القوى الاجتماعية تعرف اذن ، ولا بد لفعلها ان يؤثر بالضرورة في التطور اللاحق لذلك الوضع (أيخونك الصبر يا سيد كريفنكو ؟ اليك هذا المثال الملموس) لنفترض اننا نعرف الاقتصاد الانكليزي في عصر التراكم الرأسمالي البدئي اننا نعرف من ذلك القوى الاجتماعية التي كانت تجلس في البرلمان البريطاني في تلك الايام ولقد كان فعل هذه القوى الاجتماعية الشرط الضروري من اجل التطور اللاحق لذلك الاقتصاد، بينما كان اتجاه هذا الفعل محددا بخصائص الوضع الاقتصادي في انكلترا وقتذاك .

ولنفترض الآن اننا نعرف الوضع الاقتصادي لانكلترا الحديثة ؛ اننا نعرف من ذلك قواها الاجتماعية في الوقت الحاضر ، هذه القوى التي ستمارس فعلها في تطور الاقتصاد اللاحق وحين كان ماركس يعمل فيما يروق لبعض الناس ان يسموه نبوءاته ، فقد كان يأخذ بعين الاعتبار هذه القوى الاجتماعية دون ان يتصور ان فعلها يمكن ان يوقف وفقا لارادة هذه الجماعة او تلك من الاشخاص ، الاقوياء بنواياهم الطيبة وحدها « Mit der Grundichkeit der geschichtlicehen Aetion wird der Umfang dermasse zunemmen deren action sie ist* »

وكان الطوباويون الالمان في الاربعينات يفكرون بطريقة مغايرة فحين كانوا يطرحون بعض القضايا ماكانوا يفكرون الا في مساوىء وضع بلادهم الاقتصادي ، وكانوا ينسون ان يدرسوا القوى الاجتماعية التي تطورت على اساس ذلك الوضع ان المعلق الآنف الذكر في **مرآة المجتمع** يفكر كما يلي ان وضع شعبنا الاقتصادي محزن ، وبالتالي فاننا نواجه قضية تنظيم الانتاج ، وهي قضية عسيرة لكن غير مستعصية لكن القوى الاجتماعية التي تطورت على اساس ذلك الوضع الاقتصادي المحزن ، أفلن تعترض سبيل التنظيم المطلوب ؟ ان المعلق الممتلىء بالنوايا الطيبة لا يطرح على نفسه هذا السؤال مطلقا ان الطوباوي لا يأخذ قط بعين الاعتبار بصورة كافية القوى الاجتماعية لعصره ، وذلك لهذا السبب البسيط ، كي نستعير تعبير ماركس ، الا وهو انه **يضع نفسه فوق المجتمع** دائما وان هذا السبب نفسه يؤدي ، كي نستعير تعبير ماركس مرة اخرى ، الى ان تكون حساباته «Ohne wirth gemacht**» بحيث لا يعدو ما يسميه « النقد » ان يكون انعداما مطلقا للفكر النقدي ، عجزا عن اتخاذ نظرة نقدية الى الواقع من حوله

ان تنظيم الانتاج في بلد معين لا يمكن ان يتحقق الا نتيجة لفعل القوى الاجتماعية الموجودة فيه وما الذي يتطلبه هذا التنظيم ؟ وعي المنتجين لعملية الانتاج **المأخوذة في كليتها وتعقيدها** وحيث لا يتوفر هذا الوعي بعد ، فان طرح تنظيم الانتاج على اعتباره مطلبا اجتماعيا فوريا لا يمكن ان يتم الا من قبل اناس لا يبرحون طوباويين عنيدين ولو لفظوا اسم ماركس خمسة مليارات مرة بأعظم الاحترام ماذا يقول السيد « ن ــ ون » في مؤلفه الشهير عن هذا الوعي من جانب المنتجين ؟ لا شيىء على الاطلاق انه يعلق آماله على وعي « المجتمع المثقف » واذا كان لا بد بعد ذلك من المناداة به ماركسيا حقيقيا ، فلماذا لا ننادي كذلك بالسيد كريفنكو الهيغلي الحقيقي الوحيد في زماننا ؟ الهيغلي الممتاز ؟

---

* [« مع عمق الفعل التاريخي ينمو ايضا حجم الكتلة التي هي فعله »]

** [« دون اعتبار للاستاذ »]

لكنه آن لنا ان نختتم حديثنا ما هي النتائج التي حققناها باستخدامنا الطريقة التاريخية المقارنة ؟ اذا لم نكن مخطئين ، فهي النتائج التالية :

١ ـ ان قناعة هاينزن وانصاره بان ماركس حكم عليه من قبل آرائه الخاصة بالعجز في المانيا قد اثبتت انها هراء خالص ولسوف ينتهي الى المصير نفسه رأي ميخائيلوفسكي عندما يزعم ان اولئك الذين اعتنقوا في روسيا افكار ماركس لا يمكن ان يقدموا للشعب الروسي اية منفعة ، بل على النقيض من ذلك سوف يسيئون اليه.

٢ ـ ان افكار بوهل وفولفراف عن الوضع الاقتصادي في المانيا في عصرهما قد تبين انها سطحية ، وضيقة ، وخاطئة ، من جراء طابعها التجريدي بالذات وان ثمة اسبابا تدعونا الى الخوف من ان يكشف التاريخ الاقتصادي المقبل لروسيا عن اخطاء مماثلة في افكار السيد « ن ـ ون »

٣ ـ ان الناس الذين اخذوا على عاتقهم في الاربعينات في المانيا مهمة تنظيم الانتاج قد كانوا طوباويين وانهم لطوباويون ايضا اولئك الناس الذين يناقشون تنظيم الانتاج في روسيا الحالية

٤ ـ لقد كنس التاريخ اوهام الطوباويين الالمان في الاربعينات وان لدينا كل الاسباب لنرى ان المصير نفسه ينتظر اوهام طوباويينا الروس لقد سخرت الرأسمالية من اولئك ، واننا لنتوقع ، والالم يحز في قلبنا ، ان تسخر من هؤلاء ايضا.

لكن ألم تحمل هذه الاوهام حقا اية فائدة للشعب الالماني ؟ ابدا من وجهة النظر الاقتصادية . او ابدا على وجه التقريب كي يكون تعبيرنا أصح ان جميع هذه الاسواق من اجل بيع السلع الحرفية وجميع الجهود الهادفة الى خلق اتحادات للانتاج ، قد حسنت على الاكثر مصير مائة من المنتجين الالمان بيد انها اسهمت في ايقاظ وعيهم الذاتي وبهذا المعنى فقد كانت عميمة الفائدة بالنسبة اليهم ولقد تحققت المنفعة نفسها ، لكن بصورة مباشرة هذه المرة وليس بصورة ملتوية ، من جراء النشاط التربوي للمثقفين الالمان ـ تأسيس المدارس ، وانشاء صالات المطالعة الشعبية وان العواقب الضارة المترتبة على الرأسمالية بالنسبة الى الشعب الالماني لا يمكن ان تخفف او يقضى عليها كلها في كل لحظة الا بقدر ما ينمو وعي المنتجين. وهذا ما ادركه ماركس بصورة افضل من الطوباويين ، ولذا كان نشاطه اعظم فائدة للشعب الالماني

ومن المؤكد اننا سوف نشاهد في روسيا الظاهرة نفسها ان السيد كريفنكو ، في عدد تشرين الاول لعام ١٨٥٤ من **الرسول الروسي** ، يعبر عن « قلقه » ـ كما نقول عندنا ـ بشأن تنظيم الانتاج الروسي(٦٦) وان هذا « القلق » لن يغير شيئا او يحقق السعادة لاي كان ان قلق السيد كريفنكو لأخرق وعقيم ، لكنه سيكون مفيدا بالرغم من تينك الصفتين السلبيتين اذا ايقظ وعي منتج واحد فقط ، وعندئذ سوف يتبين ان السيد كريفنكو لم يعش على هذه الارض كي يرتكب اخطاء في المنطق فحسب ، او يترجم بصورة خاطئة مقتطفات من مقالات اجنبية لا « يتعاطف » معها . فعندنا ايضا

لن يكون في الامكان مكافحة العواقب الضارة لرأسماليتنا الا بقدر ما ينمو وعي المنتجين ولعل العبارة التي كتبناها تتيح للسادة الذاتيين ان يتبينوا ذلك في الحقيقة اننا لسنا في حال من الاحوال « ماديين غلاظا » ، ولا يستقيم ضيقنا » الا في اننا نأخذ على عاتقنا ، قبل كل شيء ، **رسالة مثالية** كليا

والآن الى اللقاء ، ايها السادة خصومنا ! اننا نتذوق سلفا اللذة العظيمة التي سوف توفرها لنا اعتراضاتكم لكن اسهروا جيدا على السيد كريفنكو فعلى الرغم من انه لا يكتب بصورة رديئة ــ على اي حال هو يكتب باحساس ــ فانه لم يعط مع ذلك « ان يهضم افكاره جيدا »



ملحق رقم ١ (١)

عودة الى السيد ميخائيلوفسكي

والى « الثلاثيـــة »

أ

في عدد تشرين الاول من **الرسول الروسي** يعارض السيد ميخائيلوفسكي السيد ستروفيه ببعض الاعتبارات الجديدة المتعلقة بفلسفة هيغل والمادية «الاقتصادية»(٢).
ففي رايه ان التصور المادي للتاريـخ والمادية الاقتصاديـة شيئان متميزان فالمادية الاقتصادية ترد الاشياء جميعا الى الاقتصاد

لنقبل بذلك لكن اذا رحت ابحث عن جذور واسس مؤسسات المجتمع الحقوقيـة والسياسية وافكاره الفلسفية وآرائه الاخرى ، وكذلك بنيته الاقتصادية ، في خصائص اعضائه العرقية والعشائريـة ، وفي نسب المحورين الطولاني والعرضاني لجماجمهم ، وفي قياس الزاوية الوجهية عندهم ، وفي أبعاد الفكين وشكلهما ، وفي ابعاد القفص الصدري ، وفي القوة العضلية ، الخ ، او على النقيض من ذلك في العوامل الجغرافية الخالصة ـ في كون انكلترا جزيرة ، وفي كون قسم من آسيا سهوبا مجردة ، وفي كون سويسرا بلـدا جبليا ، وفي كون انهار الشمال تتجلد ، الخ .، ـ افلن تكون تلك طريقـة مادية في فهـم التاريخ ؟ من الواضح ان الماديـة الاقتصادية ، من حيث هي نظرية تاريخية ، لا تمثـل الا حالـة خاصة من التصور المادي للتاريخ* »

كان مونتسكيو يميل الى تعليل تاريخ الامم « بعوامل جغرافية خالصة » ومما لا جدال فيه انه كان ماديا في حدود تمسكه بهذا التعليل ولقد راينـا ان الماديـة الجدلية المعاصرة لا تستهين بأثر البيئة الجغرافية في تطور المجتمعات انها تؤكـد فحسب بصورة افضل نمط تأثير العامل الجغرافي في « الانسان الاجتماعي انهـا

---

* **ارسول الروسي** ، تشرين الاول ١٨٥٤ ، القسم الثاني ، ص ٥٠ .

تبين ان البيئة الجغرافية توفر للبشر امكانية اعظم او اقل من اجل تطوير قواهم الانتاجية ، وانها تدفعهم من جراء ذلك ، بقوة اعظم او اقل ، في طريق التطور التاريخي ولقد كان مونتسكيو يفكر كما يلي ان البيئة الجغرافية تحدد بعض الخصائص الجسدية والنفسية ، وهذه الخصائص تؤدي الى هذه البيئة الاجتماعية او تلك وان المادية التاريخية لتميط اللثام عما تفتقر اليه هذه المحاكمة ان فعل البيئة الجغرافية يتظاهر قبل كل شيء ، وبالدرجة الاقوى ، في طابع **العلاقات الاجتماعية** التي تؤثر بدورها في آراء البشر وفي عاداتهم وفي نموهم البدني بقوة اعظم بصورة لا متناهية من المناخ مثلا وان الجغرافيا الحديثة (ولنتذكر مرة اخرى كتاب ميتشنيكوف الذي قدم له ايليزيه ريكلوس) تتفق كليا في هذا المجال مع المادية الجدلية ومن المؤكد ان هذه المادية حالة خاصة من النظرة المادية الى التاريخ ، لكنها تفسره بصورة اكمل ، واكثر شمولا ، مما تفعله تلك « الحالات الخاصة » الاخرى **ان المادية الجدلية هي الشكل الاعلى لتطور التصور المادي للتاريخ .**

ولقد قال دولباخ ان مصير الشعوب التاريخي يتحدد احيانا لقرن كامل مقبل بحركة ذرة راحت تلعب الاحابيل في دماغ رجل قوي ولقد كانت تلك نظرة مادية الى التاريخ ايضا ، لكنها لم تكن ذات فائدة في تعليل الظواهر التاريخية وان المادية الجدلية لأخصب بما لا يقاس في هذا المجال ومن المؤكد انها لا تمثل الا حالة خاصة من التصور المادي للتاريخ ، بيد انها الحالة الخاصة التي تتفق وحدها مع حالة العلم الراهنة ولقد تظاهر ضعف مادية دولباخ في عودة انصاره الى المثالية ان الآراء تسود العالم وان المادية الجدلية لتطرد في الوقت الراهن المثالية من مراكزها الاخيرة

وان السيد ميخائيلوفسكي ليتصور ان المادي الحازم هو ذلك الذي يفسر جميع الظواهر بواسطة الميكانيك الذري ان المادية الحديثة ، المادية الجدلية ، لا تستطيع ان تجد تفسيرا **ميكانيكيا** للتاريخ وهذا هو **ضعفها** اذا شئتم لكن هل يستطيع علم الحياة الحديث ان يقدم تفسيرا ميكانيكيا لاصل الانواع وتطورها ؟ كلا وهذا هو **ضعفه** وان العبقري الذي راود احلام لابلاس سوف يسمو بكل تأكيد على مثل هذا الضعف لكننا لا نعرف مطلقا متى يظهر مثل هذا العبقري ، فلنكتف اذن بذلك التعليل للظواهر الذي يتفق على افضل صورة مع العلم في عصرنا تلك هي « **حالتنا** الخاصة »

ان المادية الجدلية تقول انه ليس وعي البشر الذي يقرر وجودهم ، بل وجودهم هو الذي يقرر وعيهم ، وانه يجب البحث عن حالة مجتمع معين في برهة معينة ليس في فلسفته بل في اقتصاده. ويقدم السيد ميخائيلوفسكي عدة ملاحظات بهذا الشأن، وهذه احداها

« ان الانصاف السلبية » (أ) « للصيغة الاساسية لعلماء الاجتماع الماديين تتضمن احتجاجا او ردة فعل ضد الفلسفة عامة ، لكن ضد الفلسفة الهيغلية بصورة ظاهرة ان « تفسير الوجود بالوعي » يخص هذه الفلسفة الاخيرة ان مؤسسي المادية الاقتصادية هيغليون ، واذا كانوا يؤكدون بكل عناد ، بصفتهم هذه ، على انه « ليس انطلاقا من الفلسفة » ، ليس « انطلاقا من الوعي » ، فالسبب في ذلك انهم عاجزون عن التخلص من قبضة الفكر الهيغلي ، بل لا يحاولون ذلك*

حين قرانا هذه السطور حسبنا ان مؤلفنا ، على غرار السيد كاربيف ، كان يتلمس طريقه الى « التركيب » ولقد قلنا في انفسنا من المؤكد ان تركيب السيد ميخائيلوفسكي سوف يكون اعلى قليلا من تركيب السيد كاربيف ، ولن يقتصر السيد ميخائيلوفسكي على تكرار فكرة شماس اوسبنسكي في روايته العضال ، الا وهي ان « الروح عنصر على حدة » ، وانه « كما ان للجسد ادوية عديدة من اجل صحته ، فكذلك هي حال الروح » ومع ذلك فان السيد ميخائيلوفسكي لا يستطيع هو الاخر الامتناع عن التركيب ان هيغل هو القضية ، والمادية الاقتصادية هي النقيضة ، وانتقائية الذاتيين الروس المحدثين هي التركيب كيف يستطيع المرء ان يقاوم اغراء مثل هذه « الثلاثية » ؟ وعندئذ اخذنا نتذكر العلاقة التي تقوم في واقع الامر بين نظرية ماركس التاريخية وفلسفة هيغل

لقد «لاحظنا» قبل كل شيء ان الصيرورة التاريخية عند هيغل لا تفسر في حال من الاحوال بآراء البشر او فلسفتهم . ان الماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر هم الذين فسروا التاريخ بالافكار ، « بالآراء » ، وقد سخر هيغل طبعا من مثل هذا التفسير ، قائلا ان العقل يسود التاريخ حقا ، لكنه يسود اذن حركة الاجرام السماوية ، فهل يعني ذلك ان هذه الاجرام تعي حركتها ؟ ان تطور الانسانية التاريخي عقلاني بمعنى انه يتطابق مع القوانين لكنه اذا كان ثمة قوانين تتحكم في التطور التاريخي ، فهذا لا يسبب في حال من الاحوال انه من واجبنا ان نبحث عن سببه الاول في الافكار ، في الآراء ؛ ان الامر على النقيض من ذلك ، فوجود هذه القوانين يبين ان البشر يصنعون تاريخهم بصورة لا شعورية .

ومن بعد فكرنا اننا لا نتذكر مطلقا كيف يرتب لويس افكار هيغل لكن كل من قرا تاريخ الفلسفة الشهير يقر باننا لا نشوه هذه الافكار وبالتالي فحين يؤكد انصار المادية « الاقتصادية » ان فلسفة البشر لا تحدد واقعهم الاجتماعي فهم لا يناقضون هيغل مطلقا ، وهم في هذا المجال لا يشكلون النقيضة بالنسبة اليه في حال من الاحوال ومعنى ذلك ان السيد ميخائيلوفسكي اخطأ تركيبه ، وان لم يقتصر على تكرار افكار الشماس

---

* المصدر نفسه ، ص : ٥١ – ٥٢

وفي راي السيد ميخائيلوفسكي ان الادعاء بان الفلسفة ، يعني افكار الناس ، لا تفسر التاريخ امر لم يكن في الامكان حدوثه الا في المانيا في الاربعينات ، حين لم تكن الثورة ضد النظام الهيغلي قد اتضحت بعد وانا لنرى الان ان هذا الراي لا يقوم ، في احسن الاحوال ، الا على **لويس** .

ولقد قلنا اعلاه ان **لويس** لا يعرف السيد ميخائيلوفسكي على تطور الفكر الفلسفي في المانيا الا بصورة رديئة جدا واليكم برهانا آخر على ذلك ان مؤلفنا يستشهد مسرورابالرسالة الشهيرةالتي يودع بييلنسكي(٣) فيها «القلنسوةالفلسفية» لهيغل ويقول بييلنسكي في هذه الرسالة فيما يقوله ان مصير الذات الفرد ، الشخص الانساني ، لاهم من مصير العالم ومن نصيب الامبراطور الصيني ، أي Allgemenheit※ الهيغلية ويقدم السيد ميخائيلوفسكي ملاحظات عديدة بخصوص هذا النص ، لكنه لا « يلاحظ » ان بييلنسكي حشر العمومية هنا من دون مناسبة ومن المؤكد ان السيد ميخائيلوفسكي يحسب ان العمومية الهيغلية هي مثل الروح او الفكرة المطلقة تماما لكن العمومية لا تشكل عند هيغل حتى الصفة المميزة للفكرة المطلقة بل هي تحتل في عمله مركزا لا يسمو على مركز Besonderheit※※ أو Einzelheit※※※ مثلا ولذا فاننا لا نفهم السبب في رفعها الى مرتبة الامبراطور الصيني واستحقاقها خلافا لاختيها الأخريين تلك الانحناءة الساخرة وقد يبدو هذا امرا جزئيا لا يستاهل الاهتمام في الوقت الحاضر لكن الامر ليس كذلك ان عمومية هيغل التي اسيىء فهمها لاتبرح تمنع السيد ميخائيلوفسكي مثلا من فهم تاريخ الفلسفة الالمانية ــ تمنعه حتى درجة ان **لويس** نفسه لاينقذه من ورطته.

وفي راي السيد ميخائيلوفسكي ان عبارة العمومية قادتهيغل الى الانكار التام **لحقوق الفرد** ،فهو يقول لا يوجد نظام فلسفي عامل الفرد بمثلهذه القسوة الباردة بمثل ؟] هذا الاحتقار الساحق كنظام هيغل (ص:٥٥) ليس هذا صحيحا الا وفقا **للويس** لماذا يعتبر هيغل تاريخ الشرق المرحلة الاولى **الادنى** لتطور الجنس البشري ؟ لان **الفرد** لم يكن متطورا في الشرق ، ولم يكن قد تطور حتى تلك الايام ولماذا يتحدث هيغل بكل حماسة عن اليونان القديمة التي يحس الانسان الحديث في تاريخها بانه اصبح اخيرا في« بيته» ؟ لان الشخصية الفردية (« الفردية الجميلة » ــ die schöne individualität ») كانت متطورة في اليونان القديمة ولماذا يتحدث هيغل بمثل ذلك الاعجاب عن سقراط ؟ ولماذا كان سباقا من بين مؤرخي الفلسفة الى انصاف **السفسطائيين** ؟ الانه كان يحتقر الفرد حقا ؟

※ [العمومية]

※※ [الخصوصية]

※※※ [الفردية]

لقد سمع السيد ميخائيلوفسكي جرسا يرن ، لكنه لايستطيع ان يحدد مكانه...

لم يحتقر هيغل الفرد ، بل على النقيض من ذلك اقام عبادة **للابطال** ورثها من بعده برونو بوير بكاملها ان الاتصال بالنسبة الى هيغل أدوات الروح العمومي ، وبهذا المعنى فانهم **لم يكونوا احرارا** ولقد ثار برونو بوير ضد « الروح »، وبذلك حرر **« ابطاله »** ان ابطال **« الفكر النقدي »** هم بالنسبة اليه الخالقون الفعليون للتاريخ ، **على النقيض من « الجمهور »** الذي ينتهي اخيرا ، بالرغم من ان بلاهته وعطالته تستدران دموع الغضب من عيون الابطال ، الى الانخراط في الطريق التي دل عليها الوعي البطولي للذات وان التعارض بين **« الابطال »** و **« الجمهور »** (« الرعاع ») قد انتقل من برونو بوير الى ابنائه الطبيعيين الروس ، وانه ليسعدنا ان نشاهده في الوقت الحاضر في مقالات السيد ميخائيلوفسكي لكن السيد ميخائيلوفسكي فقد ذكرى قرابته الفلسفية ، وهو ما لا يمكننا امتداحه

وهكذا حصلنا بصورة مباغتة على عناصر تركيب » جديد ان عبادة الابطال الهيغلية ، هؤلاء الابطال القائمين على خدمة الروح العمومي ، هي **القضية** وان عبادة بوير لابطال **« الفكر النقدي »** المسترشدين « بوعيهم الذاتي وحده هي **النقيضة** واخيرا فان نظرية ماركس التي تحقق المصالحة بين النقيضين بحذفها الروح العمومية وتفسيرها منشأ الوعي البطولي للذات بتطور البيئة هي **التركيب**

ان من واجب خصومنا ، المتحيزين « للتركيب » حتى هذه الدرجة ، ان يتذكروا ان نظرية ماركس لم تكن في حال من الاحوال رد الفعل **المباشر** الاول ضد هيغل **؛ ان رد** الفعل الاول ـ السطحي من جراء ضيقه ـ تشكله في المانيا آراء فيورباخ ، **وبصورة خاصة آراء برونو بوير** الذي حان الاوان كي يعترف اصحابنا الذاتيون بقرابتهم له

وان السيد ميخائيلوفسكي ليقول في مقالته ضد بيتر ستروفيه اشياء كثيرة اخرى وفي غير مناسبة على الاطلاق ، عن هيغل وماركس وبما ان المكان لا يتيح لنا ان نعددها هنا ، فاننا سنقتصر على ان نطرح على القارىء القضية الهامة التالية

اذا أخذنا بعين الاعتبار ١ ـ السيد ميخائيلوفسكي٢ـجهله التام بهيغل٣ ـ عدم فهمه المطلق لماركس ٤ ـ حاجته التي لا تقاوم الى الحديث عن هيغل وعن ماركس وعن علاقاتهما ، فكم من الاخطاء سيقع السيد ميخائيلوفسكي فيها بعد من جراء الحاجة المذكورة ؟

ولعل احدا لن يجد حلا لهذه القضية ، **فهي** معادلة ذات مجاهيل عديدة وليس هناك الا وسيلة واحدة من اجل الاستعاضة فيها عن المقادير **المجهولة** بمقادير محددة: مطالعة مقالات السيد ميخائيلوفسكي بكل عناية **وتسجيل جميع اخطائه** ومن المؤكد انها ليست مهمة تبعث على السرور ، ولا هي بمهمة سهلة ، فالاخطاء لا حصر لها ، الا اذا تخلص السيد ميخائيلوفسكي من عاداته السيئة في مناقشة الفلسفة دون ان يستشير بصورة مسبقة اولئك الذين يعرفون عنها اكثر مما يعرف .

ولن نعني هنا هجمات السيد ميخائيلوفسكي على السيد بيوتر ستروفيه وبقدر ما يتعلق الامر بهذه الهجمات ، فان السيد ميخائيلوفسكي ينتسب حاليا الى **مؤلف ملاحظات نقدية عن مسألة تطور روسيا الاقتصادي** ، ونحن لا ننوي التعدي على ملكية الآخرين ومهما يكن من امر ، فلعل السيد بيوتر ستروفيه يصفح عنا اذا سمحنا لانفسنا « بملاحظتين صغيرتين

لقد اغتاظ السيد ميخائيلوفسكي لان السيد بيوتر ستروفيه « لوح في وجهه » بعلامة استفهام ولقد بلغ الغيظ به حدا لم يكتف معه بالاشارة الى الاخطاء اللغوية عند السيد ستروفيه ، بل هو يتهمه بانه « غير روسي » ، بل يروي بشأنه قصة المانيين قال احدهما « سوف لن افعل » ، فرد عليه الآخر بان قواعد اللغة تتطلب منه ان يقول « لن افعل وعلى اي حال ، فما الذي دفع بالسيد ستروفيه الى رفع يده ، مسلحا باشارة استفهام ، ضد السيد ميخائيلوفسكي ؟ كان ذلك بسبب من كاماته ان النظام الاقتصادي الحديث في اوربا قد بدأ يتكون حين لم يكن ثمة علم يدير هذه المرتبة من الظواهر » ، الخ وكانت اشارة الاستفهام تخص كلمة « يدير » ، وقد رد السيد ميخائيلوفسكي عليها قائلا لعل هذه الكلمة لا تقال في الالمانية يا للخبث **في الالمانية** !) ، لكني أؤكد لك ياسيد ستروفيه انها لا تثير في الروسية سؤالا عند كائن من كان ، كما لا تتطلب اية اشارة استفهام » ان كاتب هذه السطور يحمل اسما روسيا نقيا ، ويملك نفسا روسيا بقدر السيد ميخائيلوفسكي ، ولا يمكن لأشد النقاد مرارة ان يجازف فيسميه المانيا ومع ذلك فان كلمة « يدير » تثير سؤالا عنده انه يتساءل اذا كان في مقدور المرء ان يقول ان العلم **يدير** مرتبة معينة من الظواهر ؛ فهل لا يستطيع بعدئذ ان يرقي التقنيات الى رتبة **ضباط** ويعين مثلا ان السك يأمر على المعادن الثمينة ؟ في رأينا ان تلك صيغة بائسة ، وهي ستضفي على التقنيات **مظهرا عسكريا جديا** ، بالضبط كما ان كلمة « يدير » تضفي على العلم مظهر **البيروقراطية** وبنتيجة ذلك فان السيد ميخائيلوفسكي مخطيء. ان السيد ستروفيه قد جرد اشارة استفهامه دون ان يحدد فكرته ، واننا لنجهل كيف كان سيصحح خطيئة السيد ميخائيلوفسكي فلنفترض انه « لن يفعل ذلك » ، لكن **الحقيقة الواقعة** لسوء الحظ هي ان السيد ميخائيلوفسكي « سوف لن يتراجع » عن اخطائه ومع ذلك فانه من الواضح انه ليس « دخيلا » على الروس في حال من الاحوال

وفي المقالة نفسها يرعد السيد ميخائيلوفسكي بصورة مضحكة ضد عبارة السيد ستروفيه « لا ، فلنعترف بافتقارنا الى الثقافة ولنتدرب على يد الرأسمالية » ان السيد ميخائيوفسكي يقدم هذه العبارة وكأنها تعني **« لنضح بالمنتج على مذبح المستثمر ! »** ولن يصعب على السيد ستروفيه ان يبين بطلان هذه المحاولة ، وهذا ما يتضح من دون شك لجميع الذين قرأوا بعناية **الملاحظات النقدية** لكن لا بد من الاعتراف بان السيد ستروفيه عبر عن نفسه بقدر كبير من الاهمال ، الامر الذي

يمكن ان يكون قد اغوى الكثيرين من اصحاب العقول الساذجة وافرح بعض البهاليل »
ولسوف نقول للسيد ستروفيه : **خذ ذلك بعين الاعتبار في المستقبل** واما السادة البهاليل فلنذكرهم بان بييلنسكي قد طرح في اواخر حياته ، وقد صرف العمومية منذ زمن طويل الفكرة القائلة ان **البورجوازية وحدها** سوف تضمن مستقبل الثقافة في روسيا(٤) ولقد كان هذا التهديد اخرق حتى درجة كبيرة لكن ما السبب في هذه الخراقة ؟ **افتتان كريم بالغرب** ونحن على يقين بأنه نفس الافتتان الذي ادى الى خراقة السيد ستروفيه ولا يجوز اثارة الضوضاء بشأن هذه الخراقة الا من قبل اولئك الذين لا يملكون جوابا على حججه الاقتصادية مثلا

ولقد اعلن السيد كريفنكو كذلك الحرب على السيد ستروفيه(٥) ان لديه اسبابه الخاصة للشكوى لقد ترجم بصورة مغلوطة فقرة من مقالة المانية للسيد ستروفيه ، وقد ضبطه هذا الاخير بالجرم المشهود ويدافع السيد كريفنكو عن نفسه ، ويحاول ان يثبت ان ترجمته صحيحة على وجه التقريب لكن محاذيره عرجاء ، وهو لا يبرح مذنبا بجريمة تشويه فكر خصمه لكن المرء لا يستطيع ان يلومه على ذلك نظرا لشبهه العظيم بالطير الذي قيل عنه

ان طير الجنة سيرين
يغني بصوت قوي مرتفع
وحين ننشد مدائح الرب
ينسى كل شيء حتى نفسه*

حين يؤنب السيد كريفنكو التلامذة » ينسى كل شيء حتى نفسه لماذا لا تتركه وشأنه ياسيد ستروفيه ؟



* [طير الجنة سيرين - طير خرافي سماوي له وجه امراة وصدرها ، وقد ورد في الاساطير والمحفوظات الروسية القديمة]

الملحق رقم ٢ (١)

بعض الكلمات الى خصومنا

ان السؤال يطرح من جديد عندنا ما هي الطريق التي سيسلكها تطور روسيا الاقتصادي ؟ وانه ليناقش مطولا ، وبحمية بحمية عظيمة حتى ان الناس الذين يوصفون بالعقلاء في عالمنا ينتابهم الضيق حيال مايعتبرونه حمية زائدة لدى الاطراف المتنازعة ويقول هؤلاء العقلاء ما جدوى الهياج ، ما جدوى تبادل التحديات وكلمات اللوم المريرة ما جدوى السخرية من خصومنا ؟ اليس من الافضل ان ندرس ببرودة اعصاب هذه المسألة ذات الاهمية الكبرى حقا بالنسبة الى بلادنا ، لكن التي تتطلب ، من جراء هذه الاهمية بالذات ، مناقشتها بأعصاب هادئة ؟

ان العقلاء كما هي الحال دائما مصيبون ومخطئون في وقت واحد وفي الحقيقة ما السبب في مثل هذا الهياج وهذا الهوى من جانب كتاب ينتسبون الى معسكرين مختلفين يسعى كل منهما ، مهما يقل خصومة ، الى الدفاع عن مصالح الشعب الاساسية بقدر مايتيح له ذلك ذكاؤه وقواه وامكاناته ؟ من المؤكد انه يكفي ان يطرح السؤال كي يجاب عنه في الحال وبصورة جازمة بواسطة تفاهتين او ثلاث تفاهات صالحة في جميع المواقف التسامح شيء حسن ، « يجب احترام راي الغير حتى حين يختلف عن رايك بصورة جذرية » الخ هذا كله صحيح جدا ، وقد قيل للعالم » منذ زمن طويل جدا لكن مالايقل عن ذلك صحة هو ان الكائنات البشرية كانت ولا تزال وسوف تبقى مستعدة للهياج كلما كانت القضية متعلقة ، او تتعلق او سوف تتعلق بمصالحها الحيوية كانت هي الطبيعة الانسانية ـ هذا ما كنا نقوله لولا معرفتنا بان هذه العبارة قد اسيىء استعمالها زمنا طويلا وعلى اي حال ، فليس لدى الانسانية سبب يحملها على الاسف لان تلك هي « طبيعتها » فليس ثمة خطوة هامة تحققت في التاريخ ن مساعدة الهوى الذي يشكل قوة عظيمة

للتقدم بقدر ما يضاعف قوى الناس الاخلاقية فيشحذ قدراتهم الفكرية والناس لا يناقشون ببرودة اعصاب الا القضايا التي لا اهمية لها ، او التي لم تطرح بعد في جدول الاعمال بالنسبة الى بلد معين او عصر معين ، والتالي فهي لا تهم الا حفنة من المفكرين المعتكفين في مكاتبهم لكن ما ان تصبح احدى القضايا الاجتماعية الكبرى في جدول الاعمال حتى تثير الاهواء بصورة حتمية مهما دعا ابطال الاعتدال الى الهدوء وتمالك الاعصاب

وان مسألة تطور بلادنا الاقتصادي هي بالضبط تلك المسألة الاجتماعية الكبرى التي لا نستطيع ان نناقشها باعتدال في الوقت الحاضر ، وذلك بكل بساطة لانها اصبحت في جدول الاعمال ومن المؤكد ان هذا لا يعني ان الاقتصاد اتخذ في الوقت الحاضر فقط اهمية حاسمة في تطورنا الاجتماعي لقد كان يتحلى بمثل هذه الاهمية دائما وفي كل مكان لكن الناس الذين يهتمون في بلادنا ، كما في كل مكان آخر ـ بالقضايا الاجتماعية لم يدركوا ذلك بصورة شعورية على الدوام ، بحيث كانوا يركزون جل هواهم على قضايا لا تمس الاقتصاد الا من بعيد جدا فلنتذكر روسيا قبل خمسين عاما لقد تغيرت الاحوال في الوقت الحاضر ام اهمية الاقتصاد العظيمة والاساسية يدركها حاليا في بلادنا حتى اولئك الذين ثاروا بكل عنفوان ضد « ضيق » النظرية الماركسية عن التاريخ وان جميع الناس الذين يفكرون يدركون حاليا ان مستقبلنا باسره وقف على الحل الذي سيقدم الى قضية تطورنا الاقتصادي. ولذا فان المفكرين الأبعد عن الضيق » يركزون على هذه القضية جل هواهم لكن اذا كنا لا نستطيع ان نناقش هذه القضية باعتدال ، فانه من واجبنا على الاقل ان نحرص على استبعاد كل تجاوز سواء في التعبير عن افكارنا ام في طرائقنا في المناظرة هذا مطلب لا يمكن رفع اي اعتراض ضده وانهم ليعرفون جيدا في الغرب ان الهوى الجاد ينفي كل تجاوز وصحيح ان البعض يعتقدون بعد عندنا ان الهوى والتجاوز صنوان ، لكنه حان الوقت كي نتحضر نحن ايضا

وبقدر ما يتعلق الامر باللياقات الادبية ، فانه يبدو اننا تحضرنا حتى الآن حتى درجة كبيرة جدا ـ كبيرة جدا بحيث ان السيد ميخائيلوفسكي « الطليعي ابدا » يؤنب الالمان (ماركس وانجلز ودوهرنغ) لان المرء يجد فيما يبدو في مناظرتهم « اشياء عديمة الجدوى مطلقا بل تشوه الموضوع المعالج وتنفر في قسوتها ويذكر السيد ميخائيلوفسكي هنا بملاحظة بورن عن كون الالمان قساة في المناظرة دائما ! وانه ليضيف واخشى ان تكون هذه القسوة الالمانية التقليدية ، بالاضافة الى التأثيرات الالمانية الاخرى ، قد تغلغلت في بلادنا ، وقد زادت منها همجيتها الخاصة ، بحيث تنتهي المناظرة الى مشابهة التوبيخ الذي يضعه الكونت الكسي تولستوي في فم اميرته ضد بوتوك ـ بوغاتير :

ايهـا الطفيلي ، المتسول ، الاحمق الجاهل !
ايهـا العجل ، الخنزير ، العبد الحبشي ،
يا ابن الابالسة ، **ايهـا الغبي القـذر ،**
اهلكتك الخمـر واكلت احشاءك
لولا ان حيائي البتـولي
يمنعني من استخدام كلمات اقسى ،
لكنت صببت على راسك غير هذه الشتائم ،
ايهـا الدنيء ، المنحط ، السافـل*

ليست هذه المـرة الاولى التي يستشهد السيد ميخائيلوفسكي فيها بهذه الاميرة التولستوية صاحبة الحديث الصفيق فقد سبق له في مناسبات عديدة ان **نصـح** الكتاب الروس بعدم التشبه بها في مناظراتهم وانها لنصيحة ممتازة ، **هذا مـا** لا سبيل الى انكاره ؛ لكن من المؤسف فقط ان مؤلفنا لايتبعها هو نفسه دائما **فنحن** نعرف على سبيل المثال انه دعا مرة احد خصومه **قملة** ، كما دعا خصما آخـر **بهلوانا ادبيا** ولقد زين مناظرته مع السيد دي لاسيردا بالملاحظة التالية من بين جميع اللغات الاوروبية ، لا تملك كلمة لاسيردا معنى الا في اللغـة الاسبانية ، حيث **تعني** الخنزير ما حاجة المؤلف الى هذا الكلام ؟ هذا مايصعب علينا تصوره

ولقد رد السيد دي لاسيردا قائلا « جميل ، أليس كذلك ؟ » **جميل جدا في** الحقيقة ويروح اميرة تولستوي تماما لكن الاميرة كانت اصرح ، وحين كـانت تغتاظ من احدهم كانت تصرح بكل بساطة ثور ، عجل ، خنزير الخ ولـم تكن تتعدى على اللغات الاجنبية كي توجه كلمة قاسية الى خصمها

واذا قارنا السيد ميخائيلوفسكي بأميرة تولستوي وجدنا انه يحتقر **الكلمـات** التي من طراز « العبد الحبشي و ابن الابالسة » ، الخ ، **ويرتمي على النعـوت** الجسثيات** اذا جاز التعبير اننا نجده يستعمل كلمات«الخنوس» و «الخنزير»، والخنازير من مختلف الاجناس المدجنة » و « الخضراء » ، الخ هذا رتيب نوعا، لكنه قوي جدا وعلى العموم ، اذا التفتنا من قاموس الشتائم عند اميرة تولستوي الى قاموس الشتائم الخاص بصاحبنا عالم الاجتماع الذاتي ، فاننا نجد ان **الملائح الحية تزدهر في لوحة مختلفة كل الاختلاف** ، لكنها ليست في حال من الاحوال ، في القوة والتعبير ، دون الملائح التي تستخدمها الاميرة النشيطة في المناظرة ويؤكد **السيـد** ميخائيلوفسكي ***Est modus in rebus ، او كما يقول الروس يجب **ان** تعرف حدك ؛ ليس ما هو اصح من ذلك ، ونحن نأسف من صميم قلوبنا لان **هـذا**

* **الرسول الروسي** ، المجلد الاول ، ١٨٩٥ ، مقالة الادب والحياة
** [الجثسيات هي الحيوانات ذات الجلد القاسي]
*** [ثمة مقياس لسائر الاشياء هوراس]

العالم الاجتماعي الفاضل كثيرا ما ينسى تلك الحقيقة وقد يهتف بصورة مأسوية

Deteriora seqnor Video Meliora proboqne, !*

ومع ذلك فاننا نامل ان يتحضر السيد ميخائيلوفسكي مع الزمن وان تتغلب اخيرا نواياه الطيبة على « همجيتنا الخاصة » ، ويتوقف عن نعت خصومه بصفـات « الخنزير و الخنوس وان السيد ميخائيلوفسكي يعتقد هو نفسه بحـق ان

La raison finit toujours par avoir raison **

ان القراء عندنا يستنكرون اليوم المناظرة الحامية ، لكنهم يخلطون في استنكارهم الحمية بالقسوة ، وهما ليستا شيئا واحدا في حال من الاحوال ولقـد اوضـح بوشكين الفارق الكبير الذي يفصل بين الحمية والقسوة

من المؤكد ان الاهانة تسيىء دائما
فلا تكتب اذن قط ان هذا الشيخ البالغ الثمانين
هوتيس يحمل نظارتين ، او مفتر دنيء ،
شرير ومنحط ــ ذلك معناه التهجم على الانسان
لكنك تستطيع ان تكتب وتنشر مثلا
ان « السيد فلانا ، البارناسي من اتباع الايمان القديم ،
هو فيما يكتبه خطيب سخيف ، ركيك ابدا ،
مضجر بصورة قاتلة ، ثقيل الظل نوعا ما ، بل احمق
وهكذا فانت لا تتهجم على الانسان ، بل على الكاتب***

فاذا اردت ، مثل اميرة تولستوي او السيد ميخائيلوفسكي ، ان تسمي خصمك « خنزيرا » او قملة فإنك « تتهجم على الانسان اذن ؛ لكن اذا عمـدت الى البرهان على ان فلانا من اتباع الايمان القديم في علم الاجتماع او فلسفة التاريخ او الاقتصاد وهو فيما يكتبه ، في « اعماله او دراساته » ، ركيك ابدا ، مضجـر بصورة قاتلة ، ثقيل الظل نوعاً ما ، بل « غليظ الذهن » ، فانك « لا تتهجم على الانسان ، بل على الكاتب » ولسوف تكون تلك حمية لا قسوة ومن المؤكد انك قد تخطيء في حكمك ، وسوف يفعل خصومك حسنا اذا هم كشفوا عن خطأك بيد انه سيكون لهم الحق في اتهامك بالخطأ وحده ، من دون الحمية ، ذلك ان الآداب لا يمكن ان تتطور من دون مثل هذه الحمية واذا حاولت الآداب الاستغناء عن الحمية فسوف تتحول في الحال ، على حد تعبير بيلنسكي ، الى **اجترار للتفاهات المبتذلـة** ، وهـو ما لايمكن ان يطمح اليه الا اعداء الادب وحدهم

---

* [ارى الخير وأؤيده لكني أصنع الشر اوفيد **التحولات**]

** [ينتصر العقل دائما آخر الامر]

*** [القصيدة الهجائية لعام ١٨٢٩ ضد الناقد كاتشينوفسكي] .

ان اعتبارات السيد ميخائيلوفسكي المتعلقة بالقسوة الالمانية التقليدية وهمجيتنا الخاصة قد اثارها « الكتاب الهام » للسيد ن بلتوف **دراسة في تطور المفهوم الآحادي عن التاريخ** ولقد اتهم البعض السيد بلتوف بالمبالغة في الحمية — وبصورة خاصة ناقد(٢) Russkaya Mysl الذي يعلن بخصوص هذا الكتاب « اذا كنا لا نشاطر آراء المادية الاقتصادية الضيقة في رأينا ، فقد كنا نرحب بانصار هذه الآراء ، وذلك في مصلحة العلم وحياتنا الاجتماعية على حد سواء ، لو أن بعضهم — السيدين ستروفيه وبلتوف — لم يظهرا في المناظرة حمية مبالغة فيها وسخروا من مؤلفين أعمالهم جديرة بكل احترام »

ان Russkaya Mysl التي اخذنا هذه السطور عنها هي نفس تلك المجلة التي وصفت قبل زمن قصير انصار المادية الاقتصادية « بالجماجم المحشوة » وشخصت في كتاب السيد ستروفيه نتاجا لاطلاع واسع غير مهضوم يضاف اليه انعدام تام للمنطق انها نرى ان Russkaya Mysl لا تحب الحمية المبالغ فيها ، وهي تبرهن على اعتدال مرموق في حكمها على انصار المادية الاقتصادية بل هي سوف ترحب بهم اليوم عن طيبة خاطر في مصلحة العلم وحياتنا الاجتماعية لكن ما فائدة ذلك ؟ ماذا تستطيع الجماجم المحشوة ان تفعل من اجل حياتنا الاجتماعية ؟ ايستطيع العلم ان يربح كثيرا من سعة الاطلاع غير المهضومة التي يضاف اليها انعدام المنطق التام ؟ انه ليبدو لنا أن الخوف من الحمية المبالغ فيها يقود مجلة Russkaya Mysl بعيدا جدا أو يجبرها على قول أشياء قد تحمل القارىء على الشك في انها تشكو هي الاخرى من سوء الهضم الذي يضاف اليه انعدام المنطق التام.

ان السيد ستروفيه لايلجأ مطلقا الى الحمية (فكم بالاحرى الحمية المبالغ فيها) ، واذا كان السيد بلتوف يفعل ذلك ، فمن المؤكد انها من ذلك النوع الذي سيقول عنه بوشكين انه يستهدف الكاتب وحده ، وبالتالي فهو جائز كليا ان ناقد Russkaya Mysl يجد ان المؤلفات التي يسخر منها السيد بلتوف جديرة بالاحترام ولو كان السيد بلتوف يشاطره رايه فمن المؤكد انه يخطىء اذا سخر منها لكن ماذا لو كان مقتنعا بالعكس ؟ ماذا لو أن « مؤلفات » هؤلاء السادة تبدو له مضجرة ونقيلة الظل وفارغة تماما ، بل ضارة في ايامنا ، حيث أصبحت الحياة الاجتماعية بالغة التعقيد وهي تتطلب جهدا ذهنيا جديدا من جانب اولئك الذين لم يعتادوا ، حسب تعبير غوغول . على وضع أصابعهم في انوفهم حين ينظرون الى العالم ؟ لعل ناقد Russkaya Mysl يجد في هؤلاء الكتاب مشاعل حقيقية ، منارات للخلاص لكن ماذا اذا كان السيد بلتوف يجدهم مطافىء ومخدرين للذهن ؟ قد يقول الناقد ان السيد بلتوف يخطىء وهذا من حقه ، لكن عليه ان يبرهن عن رايه اذن ، ولا يقتصر على مجرد ادانة الحمية المبالغ فيها وما هو راي الناقد في غريتش وبولغارين ؟ اننا واثقون من أن قسما كبيرا من صحافتنا سوف تتهمه بالحمية المبالغ فيها اذا أذاع

رايـه ايكون معنى ذلك ان ناقد Russkaya Mysl لا يملك الحـق في ان يقول صراحة رايـه في نشاطـات غريتش وبولغارين الادبية ؟ ومـن المؤكد اننا لا نحشـر الاشخاص الذين يناقشهم السيدان ستروفيه وبلتوف في نفس المقولة مـع غريتش وبولغارين لكننا نسأل ناقد Russkaya Mysl لمـاذا تسمح اللياقة الادبية بـأن نقول صراحة رأينا في غريتش وبولغارين ، لكنهـا تحظر ذلك فيمـا يخص السيدين ميخائيلوفسكي وكاربيف ؟ مما لا ريب فيه ان الناقد يتصور، على غرار فأرة الخرافة، انه ليس ثمة حيوان اقـوى من القط ، وبالتالي ان هـذا القط يستحق مـن جميع الحيوانات الاخرى احتراما خاصا بيد اننا نملك الحق في الارتياب في ذلك اننـا نعتقد مثلا ان القط الذاتي ليس بالحيوان غير القوي جـدا فحسب ، بل هو حيوان تفسخ كثيرا ، وبالتالي فهو لا يستحق اي احترام خاص على الاطلاق واننا علـى استعداد لمناقشة هذا الامر مع الناقد اذا لم يوافقنا لكننا نرجوه قبل ان ننخرط في هذه المناظرة ان يفكر مليا في الفرق الذي لا جدال فيه بين **حمية الحـكم وقسوة التعبير**. ان الاحكام التي اصـدرها السيدام ستروفيه وبلتوف قد تبدو في نظر الكثيرين متسمة بالحمية ، لكن هـل لجأ اي منهما ، دفاعا عن آرائه ، الى تلك الشتائم القاسية التي لجـأ اليها مرارا وتكرارا في مناوشاته الادبية السيد ميخائيلوفسكي ، هـذا Miles Gloriosus* الحقيقي لادبنا الطليعي ؟ ابدا لـم يفعل اي منهما ذلك وان ناقد Russkaya Mysl نفسه سيعترف لهما بذلك اذا هو اراد ان يفكر مليـا في الفارق المشار اليه اعلاه بين الحمية والقسوة

وبالمناسبة فان هـذا الناقد يقول

« ان اقل ما يقال ان السيد بلتوف ينشر بكل وقاحة الاتهامات التي مـن هـذا القبيل الكاتب الفلاني يتحدث عن ماركس دون ان يكون قـد قراه ، ويدين فلسفة هيغل دون أن يكون قـد اطلع عليها شخصيا ، الخ ولقد كان من الافضل اذن لو انـه لـم يرتكب الاخطاء هو نفسه ، وعلى الاخص في المسائل الاساسية ولكن السيد بلتوف ينطق بالهراء الاشد جنونا عـن هيغل بالذات اننا لنقرا في الصفحة ٨٦ من كتابه اذا كانت علوم الطبيعة الحديثة تؤكد لدى كـل خطوة الفكرة الهيغلية العبقرية عـن الانتقال مـن الكمية الى الكيفية ، ايمكننا ان نقول انها لا تملك ايـة بالهيغليـة ؟ » لكـن المصيبة يا سيد بلتوف هي ان هيغل لم يؤكد ذلك قط بـل قال العكس منه تماما فعنده ان الكيفية تتحول الـى الكمية »

اذا أردنا ان نقول رأينا في فهم الناقد لفلسفة هيغل ، فمما لا ريب فيه أن حكمنا سيبدو لـه « حادا بصورة مبالغ فيها لكن اللوم لن يقع علينا اذن. واننا لنستطيع أن نؤكد للناقد ان معرفته الفلسفية أثارت احـكاما بالغة الحدة لدى جميـع أولئك الذين قرأوا نقده والذين يملكون ادنى اطلاع على تاريخ الفلسفة

* [عنوان ملهاة بقلم بلانتوس **الجندي المجيد** بمعنى « المتبجح] .

ومن المؤكد اننا لا نستطيع ان نتطلب من كل صحفي تكوينا فلسفيا جديا ، لكننا نستطيع أن نتوقع منه على الاقل الا يصدر احكاما جازمة في الامور التي يجهلها ، والا فان الناس العارفين سوف يصدرون بحقه احكاما بالغة « الحدة »

اننا نقرأ في القسم الاول من **موسوعة** هيغل الهامش التالي (الفقرة ١٠٨ ، مقالة « القياس »)

« ان الكيفية والكمية تتميزان بعد وليستا متماثلتين بصورة مطلقة وبالتالي فان هذين التعريفين مستقلان حتى درجة ما عن بعضهما بعضا بحيث يمكن من جهة واحدة للكمية ان تتبدل دون أن تتغير نوعية الشيء ، لكن زيادتها أو نقصها اللذين كان الشيء عديم المبالاة حيالهما بادىء الامر يملكان من جهة ثانية حدا تتغير النوعية ما وراءه هكذا ، على سبيل المثل ، لا تؤثر تغيرات الحرارة في الحالة السائلة بادىء الامر ، لكن اذا زادت الحرارة او نقصت باستمرار ، فان برهة تأتي حيث هذه الحالة من التماسك تتعرض لتبدل نوعي ويتحول الماء الى بخار أو الى جليد انه يبدو بادىء الامر ان التغير الكمي لا يؤثر في حال من الاحوال في طبيعة الشيء الاساسية ؛ لكن شيئا مختلفا يختفي خلف ذلك ، وهذا التبدل في الكمية البسيط ظاهرا يؤدي الى اختلاف نوعيته »

ان المصيبة يا سيد بلتوف هي أن هيغل لم يؤكد ذلك قط ، بل قال العكس منه تماما » الا تبرح تعتقد ، ايها السيد الناقد ، ان المصيبة هي هناك حقا ؟ * أم لعلك غيرت رايك اليوم في هذه النقطة ؟ واذا كنت قد غيرت رايك ، فأين تقوم المصيبة في الوقت الحاضر ؟ لقد كنا نقول ذلك لولا خوفنا من اتهامك لنا بالحدة المبالغ فيها

ونكرر اننا لا نستطيع أن نتوقع من كل صحفي أن يكون ملما بتاريخ الفلسفة . ولذا فان مصيبة ناقد Russkaya Mysl ليست كما يمكن أن تبدو للوهلة الاولى لكن « **المصيبة هي** » ان هذه **المصيبة** ليست وحيدة فثمة مصيبة ثانية ، وهي المصيبة الرئيسية ، الاسوأ من الاولى ان الناقد لم يكلف نفسه عناء قراءة الكتاب الذي ينقده

ففي الصفحتين ٧٥ ـ ٧٦ من كتابه يورد السيد بلتوف فقرة طويلة جدا من منطق هيغل** Wissenschaft der Logik وهذا هو مطلع هذه الفقرة

« ان تحولات الوجود لا تقوم فقط في التحول من الكمية الى كمية اخرى ، بل ايضا في التحول من الكمية الى الكيفية والعكس بالعكس » (ص ٧٥)

لو أن الناقد قرأ هذه الفقرة على الاقل لما وقع في مصيبة المناداة بأن « هيغل لم يؤكد ذلك قط ، بل قال العكس منه تماما

---

* في العدد الثالث من Russkaya Mysl يواصل الناقد تمسكه برايه ، وينصح اولئك الذين لا يتفقون معه بأن يراجعوا « على الاقل » الترجمة الروسية لكتاب يوبرنيغ هاينزه **تاريخ الفلسفة الحديثة** . ولكن لماذا لا يراجع الناقد نفسه « على الاقل هيغل نفسه ؟

** [**علم المنطق**] .

اننا نعرف كيف يكتب غالبية النقاد عندنا ــ ومن سوء الحظ في أماكن أخرى أيضا ! ان الناقد يتصفح الكتاب ، ويقرأ بسرعة صفحة من كل عشر صفحات ، بل من كل عشرين صفحة ، ويسجل الفقرات التي تبدو له أكثر تميزا ومن ثم ينسخ هذه الفقرات مرفقا اياها بعبارات لومه أو تحبيذه انه « حائر » ، انه « يأسف جداً » أو انه « يرحب من صميم قلبه » ــ ومن بعد فقد تم الهدف واصبح النقد جاهزا ويستطيع المرء أن يتصور مبلغ اللغو الذي ينشر بنتيجة ذلك ، وعلى الاخص ــ وليست هذه حالة نادرة ــ اذا كان الناقد لا يملك ادنى فكرة عن الموضوع المعالج

ولا يخطر في بالنا ان ننصح السادة النقاد بالتخلي **بصورة جازمة** عن هذه العادة السيئة ان ذنب الكلب اعوج حتى اذا وضع في الف قالب . ومع ذلك فان الواجب يدعو على الاقل لان يظهروا شيئا أكثر من الجد عندما يتعلق الامر ــ كما هي الحال مثلا في المناقشات عن تطور روسيا الاقتصادي ــ بالمصالح الحيوية لبلادنا أينوون حقا الاستمرار في تضليل القراء في هذا الموضوع ايضا بنقودهم الطائشة ؟ في الحقيقة انه يجب على المرء ان يعرف متى يتوقف ، كما يقول السيد ميخائيلوفسكي.

فالسيد ميخائيلوفسكي لا يحب أساليب السيد بلتوف في المناظرة فهو يقول ان السيد بلتوف رجل موهوب ولا يفتقر الى الذكاء ، لكن الامر كثيرا ما يتحول عنده ، لسوء الحظ ، الى تهريج مؤلم » لماذا التهريج ؟ ومن الذي يؤلمه في واقع الامر تهريج السيد بلتوف المؤلم ؟

حين سخرت Sevremennik من بوغودين في الستينات فمما لا ريب فيه انه وجد هذه المجلة تهرج بصورة أليمة ولم يكن الوحيد الذي حصل على هذا الانطباع ان جميع المعجبين بالمؤرخ الموسكوفي شاطروه اياه ويا له من هجوم اذن ضد فرسان الشغب (٣) ويا لها من نقمة على التصرفات الصبيانية لهؤلاء المشاغبين وانه ليخيل الينا مع ذلك ان الحماسة المتألقة لأولئك « المشاغبين لم تتحول قط الى تهريج مؤلم واذا كان الاشخاص الذين سخروا منهم قد فكروا بطريقة مختلفة ، فالسبب الوحيد في ذلك هو ذلك الضعف البشري الذي جعل ليابكين ــ تيابكين* يعتبر أن الرسالة التي وصف فيها بأنه « فلاح جلف » « طويلة جدا

وان أولئك الذين يجدون أن أساليب السيد بلتوف في المناظرة « غير ظريفة سوف يهتفون

ــ هكذا اذن انت تزعم ان السيد بلتوف يتحلى بذكاء دوبروليوبوف ومعلونيه في الشغب ؟ هذا ظريف حقا

* [في **المفتش** لغوغول]

انتظروا أيها السادة   اننا لا نقارن السيد بلتوف بمشاغبي الستينات ، بل كل ما نقول هو انه ليس من حق السيد ميخائيلوفسكي ان يحكم متى ، وأين على وجه الدقة ، يتحول ذكاء السيد بلتوف الى التهريج المؤلم   من يستطيع أن يكون الخصم والحكم في الوقت نفسه ؟

لكن السيد ميخائيلوفسكي لا يكتفي باتهام السيد بلتوف « بالتهريج المؤلم » ، بل يوجه اليه تهمة خطيرة جدا   وكي نسهل على القارىء ادراك حقيقة الامر ، فاننا سنترك للسيد ميخائيلوفسكي ان يصوغ تهمته بعباراته الخاصة

عرضت في احدى مقالاتي في Russkaya Mysl كيف كانت علاقاتي الشخصية بالمرحوم نيقولاس سيبير وأشرت بصورة خاصة الى أن هذا العالم المحترم ، في دراساته المتعلقة بمستقبل الرأسمالية في روسيا ، « كان يستخدم جميع الحجج التي تقع في يده ، لكنه يختفي لدى أدنى خطر خلف سلطة تطور جدلي ثلاثي ثابت ولا جدال فيه   » ويعلن السيد بلتوف وهو يورد كلماتي هذه   « فيما يتعلق بالسيد سيبير ، فقد تبادلنا الاحاديث معه أكثر من مرة دون أن نسمع منه قط اشارة الى التطور الجدلي ؛ ولقد قال لنا هو نفسه أكثر من مرة انه يجهل كليا تأثير هيغل في تطور الاقتصاد الحديث   وصحيح انه ليس أسهل من الاستشهاد بالموتى ، وبالتالي فان شهادة السيد ميخائيلوفسكي لا تدحض ! » وأود أن اطرح الامر بصورة مختلفة   لا يمكن الاستشهاد بالموتى دائما ، وبالتالي فانه من السهل دحض شهادة السيد بلتوف

« ان مجلة Slovo قد نشرت عام ١٨٧٩ مقالة لسيبير بعنوان   تطبيق الجدلية على العلم   (٤)   لقد كانت هذه المقالة ــ الناقصة على أي حال ــ انتحالا ، بل ترجمة حرفية على وجه التقريب لكتاب انجلز ثورة الهر دوهرنغ في العلوم   ان يترجم المرء هذا الكتاب و « يجهل تأثير هيغل في تطور الاقتصاد الحديث » ، هذا أمر غريب حقا ، ليس من جانب سيبير وحده ، بل حتى من جانب بوتوك ــ بوغاتير كما تصفه الاميرة في المناظرة الآنفة الذكر   وأعتقد أن السيد بلتوف يدرك هذا الامر أيضا   ومهما يكن من أمر ، فاني سوف أستشهد بكلمات قليلة من مقدمة سيبير القصيرة   « يستحق كتاب انجلز اهتماما خاصا سواء بسبب حزم وصلاحية المفاهيم الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي يعرضها أم لان التطبيق العملي لطريقة التناقضات الجدلية توضح فيه بمجموعة من الشواهد الجديدة والامثلة الفعلية التي تسهل حتى درجة غير قليلة التعرف الوثيق الى هذه الطريقة في استصقاء الحقيقة التي رفعت الى العلياء حينا والقيت في الحضيض حينا آخر وانه ليمكن القول أن تلك هي المرة الاولى في وجود ما يسمى الجدلية التي يتم فيها عرض هذه الجدلية أمام القارىء في ضوء واقعي حقا

« وبالتالي فقد كان سيبير عارفا بتأثير هيغل في تطور الاقتصاد الحديث ، وكان مهتما حتى درجة كبيرة « بطريقة التنقضات الجدلية » تلك هي الحقيقة ، المثبتة بالبراهين ، وهي تحل تماما المسألة الجارحة الخاصة بمن يكذب عن اثنين * »

الحقيقة وعلى الاخص الحقيقة المثبتة بالبراهين ، هذا شيء رائع حقا وفي مصلحة هذه الحقيقة سوف نواصل قليلا الفقرة التي استشهد بها السيد ميخائيلوفسكي من مقالة نيقولاس سيبير « تطبيق الجدلية على العلم »

اننا نجد عند سيبير الملاحظة التالية ، بالضبط في اعقاب الكلمات التي توقف السيد ميخائيلوفسكي عندها

« وعلى أي حال فاننا نمتنع من جانبنا عن اصدار حكم على صحة هذه الطريقة في تطبيقها على الفروع المختلفة من المعرفة ، وكذلك على ما اذا كانت تمثل أو لا تمثل — في حدود امكانية أن تنسب اليها أهمية فعلية — مجرد مظهر أو حتى نسخة طبق الاصل عن طريقة نظرية التطور والصيرورة العمومية وان المؤلف ليأخذها بعين الاعتبار في هذا المعنى الاخير بالضبط ، أو على الاقل يحاول أن يبرهن عليها بواسطة الحقائق التي توصلت نظرية التطور اليها ، ولا بد لنا من الاعتراف بأن قرابة كبيرة تنكشف هنا من وجهة نظر معينة

وهكذا نرى أن الاقتصادي الروسي الراحل ، حتى بعد ترجمته لكتاب انجلز **ثورة الهر دوهرنغ في العلوم** ، يظل جاهلا بتأثير هيغل في تطور الاقتصاد الحديث وكذلك بفائدة الجدلية المطبقة على فروع المعرفة المختلفة ، أو يرفض على الاقل اصدار حكم في هذا الشأن واننا لنسأل اذن هل يعقل ان سيبير هذا نفسه ، في مناقشاته مع السيد ميخائيلوفسكي ، « كان يختفي لدى ادنى خطر خلف سلطة تطور جدلي ثلاثي ثابت ولا جدال فيه » ؟ ولماذا كان سيبير يغير في هذه الحالات وحدها آراءه غير الحازمة عادة عن الجدلية ؟ أيكون السبب في ذلك انه كان يتعرض اذن « لخطر » عظيم جدا بانسحاقه امام خصمه الرهيب ؟ اننا نشك في ذلك ! ان سيبير ، بحصيلته الثقيلة جدا من المعرفة ، قد كان الشخص الاخير الذي يمكن لمثل ذلك الخصم أن شكل خطرا عليه

اجل يا للحقيقة الرائعة المثبتة بالبراهين لقد كان السيد ميخائيلوفسكي على حق تام حين قال انها تحل القضية الحادة الخاصة بمعرفة من الذي يكذب عن اثنين !

لكن اذا كانت « النفس الروسية التي تجسدت في شخص فرد معين تلجأ بصورة لا ريب فيها الى تشويه الحقيقة ، فانها لا تكتفي بتشويهها مرة واحدة ، بل تشوهها **مرتين** اخريين أيضا مرة حين تدعي أن سيبير يختفي وراء سلطة الثلاثية ،

* **الرسول الروسي** ، كانون الثاني ١٨٩٥ ، القسم الثاني ، ص ١٤٠ — ١٤١ .

ومرة ثانية حين تورد ، بادعاء يبعث على الدهشة ، نصا يبرهن بكل وضوح على أن السيد بلتوف كان على صواب

بخ ، بخ ، يا سيد ميخائيلوفسكي

ان السيد ميخائيلوفسكي يتعجب قائلا : « انه لمن الصعب أن يظل المرء جاهلا بتأثير هيغل في تطور الاقتصاد الحديث بعد أن يكون قد ترجم كتاب انجلز **ثورة دوهرنغ** » ايكون ذلك من الصعب جدا حقا ؟ ابدا في رأينا انه ليكون من الغريب حقا بالنسبة الى سيبير ، بعدما ترجم الكتاب المذكور ، أن يظل جاهلا **برأي انجلز** (وماركس طبعا) **في تأثير هيغل في تطور العلم موضوع البحث** ولم يكن سيبير جاهلا بذلك الراي ، كما يتضح بصورة بدهية وكما يتبين من مقدمته لكن سيبير لا يكتفي **بآراء الغير** . فبصفته عالما جديا لا يعتمد على آراء الغير ، بل اعتاد أن يدرس القضايا بنفسه ، فانه لا يعتبر نفسه مخولا ، بالرغم من معرفته راي انجلز عن هيغل ، ان يقول : « اني اعرف هيغل ودوره في تطور الافكار » ولعل السيد ميخائيلوفسكي لا يفهم هذا التواضع العلمي ، هو الذي لا يملك ـ كما يقول هو نفسه ـ « أي ادعاء » بمعرفة فلسفة هيغل ، ومع ذلك يناقشها بكل صفاقة لكن quod licet Bovi , non licet Jovi * ان السيد ميخائيلوفسكي ، الذي لم يكن طوال عمره سوى صحفي ذكي ، قد أصيب بعدوى الوقاحة المألوفة عند اعضاء هذه الدعوة ، فنسي الفارق الذي يقوم بينه وبين رجال العلم وبنتيجة هذا النسيان ، فقد جازف بقول أشياء تبرهن على أن « النفس » ، في الحقيقة ، « تكذب عن اثنين »

بخ ، بخ ، أيها السيد ميخائيلوفسكي

لكن هل تشوه هذه « النفس » الفاضلة الحقيقة عن اثنين فقط ؟ لعل القارىء يتذكر حادثة « اسقاط » السيد ميخائيلوفسكي « لمرحلة الازهار » ان هذا الاسقاط لذو اهمية عظيمة » ، فهو يبين انه شوه الحقيقة من أجل انجلز أيضا لماذا لا يقول السيد ميخائيلوفسكي كلمة واحدة عن هذه القصة البناءة ؟

بخ ، بخ ، أيها السيد ميخائيلوفسكي !

لكن هل تعلم ماذا ؟ لعل « النفس الروسية » لا تشوه الحقيقة ؟ لعل المسكينة تقول الحقيقة الخالصة ؟ وكي نضع صدقها فوق كل ارتياب يكفي أن نفترض ان سيبير كان يمزح مع الكاتب الشاب حين لوح « **بالثلاثية** » في وجهه وان ذلك لأشبه بالحقيقة في واقع الامر ان السيد ميخائيلوفسكي يؤكد لنا أن سيبير كان عارفا بالطريقة الجدلية ؛ وبما أن سيبير يعرف هذه الطريقة ، فلا بد أن يعرف على خير وجه ان الثلاثية الشهيرة لم تلعب دور الحجة قط عند هيغل ومن جهة اخرى فان السيد ميخائيلوفسكي ، الجاهل بهيغل ، قد يكون عبر في حديثه مع سيبير عن

---

* [المسموح به لثور غير مسموح به لجوبتر على الاطلاق] .

الفكرة ـ التي عاد اليها فيما بعد مرارا وتكرارا ـ القائلة ان كل حجج هيغل والهيغليين ترتد الى الاستنجاد بالثلاثية ولا بد ان سيبير اغتبط بذلك ، ولذا راح يستخدم الثلاثية كي يضايق ذلك الشاب المندفع لكن القليل الاطلاع ومن المؤكد أن سيبير لو تكهن بالوضع المؤسي الذي سوف ينتهي محدثه اليه بنتيجة دعابته لامتنع عنها لكنه ما كان يستطيع أن يتكهن بذلك ، ولذا سمح لنفسه بشيء من التسلية على حساب السيد ميخائيلوفسكي وان صدق هذا الاخير أمر لا يطاله الشك اذا كان افتراضنا صحيحا فلينقب السيد ميخائيلوفسكي في ذكرياته ، فلعله يتذكر ظرفا يبين أن افتراضنا ليس عديم الاساس مطلقا ومن جهتنا فانه سوف يسعدنا جدا ان نسمع بمثل هذا الظرف الذي سوف ينقذ شرف « النفس الروسية ومن المؤكد ان هذا سوف يسعد السيد بلتوف أيضا

ان السيد ميخائيلوفسكي انسان مسل جدا انه مستاء كل الاستياء من السيد بلتوف لانه قال ان « الذهن الروسي والنفس الروسية يثرثران ويكذبان عن اثنين في اكتشافات » عالمنا الاجتماعي الذاتي وفي راي السيد ميخائيلوفسكي انه اذا لم يكن السيد بلتوف مسؤولا عن نص الشاهد ، فانه يمكن مع ذلك اعتباره مسؤولا عن اختياره لكن قسوة أساليبنا في المناظرة تجبر عالمنا الاجتماعي الفاضل على الاعتراف بأن هذا اللوم يشكل لباقة عديمة المنفعة لكن من اين اخذ السيد بلتوف شاهده ؟ من بوشكين ان أوجين اونييغين يعتقد ان الذهن الروسي والنفس الروسية يثرثران ويكذبان عن اثنين في صحافتنا باكملها ايمكن اعتبار بوشكين مسؤولا عن هذا الحكم القاسي الذي يصدره بطله ؟ في حدود معرفتنا لم يفكر احد حتى الآن ــ وان يكن هذا الامر مرجحا ــ ان اونييغين يعبر عن راي الشاعر الكبير نفسه ولكن هذا السيد ميخائيلوفسكي يود أن يعتبر السيد بلتوف مسؤولا عن عدم عثوره في مؤلفات زميله الا على الثرثرة والكذب « عن اثنين لماذا ؟ لماذا لا يحق لنا أن نطبق هذا « الشاهد » على « مؤلفات » عالمنا الاجتماعي ؟ على الارجح لان هذه المؤلفات تستأهل ، في نظر كاتبها ، معاملة تنطوي على قدر أعظم من الاحترام. بيد أن هذا الامر يحتمل الجدال » على حد تعبير السيد ميخائيلوفسكي نفسه

ويقول السيد ميخائيلوفسكي حقيقة الامر ان السيد بلتوف لم يتهمني في هذه الفقرة بأية اكاذيب ؛ لقد افلت ذلك بكل بساطة كي يزيد من حدة الموضوع واستخدم الشاهد كورقة تين » (ص ١٤٠) لماذا « افلت وليس « عبر عن قناعته الوطيدة ؟ ما هو معنى هذه العبارة ان السيد ميخائيلوفسكي في مقالاته يثرثر ويكذب عن اثنين ؟ معناها ان السيد ميخائيلوفسكي لا يفعل سوى التفوه بأراء قديمة دحضت في الغرب منذ زمن طويل ، وحين يفعل ذلك **يضيف الى اخطاء الغربيين أخطاءه الخاصة التي ترعرت في وطنه** ايكون حقا من الضرورة بمكان استخدام « ورقة التين » عند التعبير عن مثل هذا راي في نشاطات السيد

ميخائيلوفسكي الادبية ؟ ان السيد ميخائيلوفسكي مقتنع بأن مثل هذا الرأي لا يمكن الا « افلاته » لكنه لا يمكن ان يكون ثمرة تقدير جدي ومتعمق لكن هذا أمر يحتمل الجدال كـي نستخدم عبارته الخاصة مرة أخرى

ان كاتب هذه السطور يعلن بكل برودة أعصاب وعن قصد ، ودون ان يشعر بالحاجة الى ايـة ورقة تين ، انه على يقين تام بأن **عـدم تقدير « مؤلفات » السيد ميخائيلوفسكي تقديرا عاليا هو بداية كـل الحكمة .**

لكنه اذا كان السيد بلتوف في الحديث عن النفس الروسية ، لـم يتهم السيد ميخائيلوفسكي بأية كذبة ، فلماذا ينتقي عالمنا الاجتماعي هذا الشاهد بالذات كي يباشر نزاعه التاعس بشأن سيبير ؟ على الارجح كي يزيد من « حدته » وفـي الحقيقة انه ليس في مثل هـذه الطرق شيء حاد على الاطـلاق ، لكـن هناك اناسا يتصورون ذلـك فحسب ان زوجة أحـد الموظفين تختصم مع بواب في احـدى اقاصيص اوسبنسكي لقد نطق البواب بكلمة **podlye** قريب) فـاذا زوجة الموظف تصيح مـاذا ؟ انا **podlaya** [حقيرة] انا ؟ سوف اعلمك كيف تهينني ان ابني ضابط في بولونيا ، الخ الخ ان السيد ميخائيلوفسكي ، مثله مثل زوجة الموظف يطبق على كلمة مفردة ويهتف محتدا انا اكذب عن اثنين انا ؟ انت تجرؤ على الارتياب في صدقي ؟ انا الذي سوف اتهمك بالكذب عـن عديدين انظر ما قلته عن سيبير واننا لننظر الى ما قاله السيد بلتوف عن سيبير ونرى انـه نطق بالحقيقة الخالصة * **Die moral von der Geschichte** هو ان فرط الحدة يسيء الى زوجات الموظفين والى السيد ميخائيلوفسكي على حد سواء

ويستطرد السيد ميخائيلوفسكي قائلا لقد أخذ السيد بلتوف على عاتقـه أن يبرهن أأن الانتصار الحاسم للاحادية المادية قد تحقق بفضل ما يسمى نظريـة المادية الاقتصادية في التاريخ وهـي النظرية التي ترتبط بصورة وثيقة « بالماديـة الفلسفية العامـة ولهذه الغاية يقوم السيد بلتوف بجولة في تاريخ الفلسفة أما مبلغ ما تتصف هذه المرحلة بـه من اضطراب ونقص ، فهذا ما يمكن أن نتحقق منـه من عناوين الفصول المكرسة لها المادیـة الفرنسية في القـرن الثامن عشـر ، المؤرخون الفرنسيون في عصر عودة الملكية الطوباويون » ، « الفلسفة المثاليـة الالمانية المادية الحديثة » (ص ١٤٦) ان السيد ميخائيلوفسكي يغتاظ مرة أخرى دونما سبب ، ويسيء غيظه اليه مرة أخرى لو أن السيد بلتوف كتب خلاصة مقتضبة لتاريخ الفلسفة ، نزهة انتقل فيها من المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر الى المؤرخين الفرنسيين لعصر عودة الملكية ، ومن المؤرخين الى الطوباويين ومـن الطوباويين الى المثاليين الالمان الخ فلعله كان يسلك سبيلا مضطربا وغير معقول.

---

* [مغزى القصـة] .

لكن القضية هي أن السيد بلتوف لم يكتب تاريخا للفلسفة ، فقد قال منذ الصفحة الاولى من كتابه انه ينوي تقديم دراسة مقتضبة عن النظرية التي تسمى خطأ المادية **الاقتصادية** ولقد عثر على بذور ضعيفة لهذه النظريةعند الماديين الفرنسيين وبيّن ان هذه البذور نماها حتى درجة كبيرة المؤرخون الفرنسيون لعصر عودة الملكية ؛ ومن ثم التفت الى اناس لم يكونوا اخصائيين في التاريخ ، لكنه لم يكن لهم بد مع ذلك من التفكير مليا في القضايا الرئيسية لتطور الانسان التاريخي ، واقصد الطوباويين والفلاسفة الالمان بيد أنه لم يعدد في حال من الاحوال جميع الماديين في القرن الثامن عشر ، ومؤرخي عصر عودة الملكية ، والطوباويين ، والمثاليين الجدليين ، بل اتى على ذكر اهمهم اولئك الذين اسهموا أكثر من غيرهم في المسألة التي تعنيه ولقد بين ان جميع هؤلاء الرجال من أصحاب الموهبة الفنية والاطلاع الواسع تعثروا في تناقضات كانت نظرية ماركس التاريخية الطريقة المنطقية الوحيدة من أجل الخروج منها وباختصار ، فقد كان * il prenait son bien où il le trouvait ما هو الاعتراض على مثل هذه الطريقة ؟ ولماذا لا يحبها السيد ميخائيلوفسكي ؟

لو أن السيد ميخائيلوفسكي لم يكتف بقراءة **لودفيغ فيورباخ** و **ثورة الهر دوهرنغ في العلوم** ، بل ــ وهذا هو الاهم ــ فهمهما لعرف من تلقاء نفسه اذن الدور الذي لعبته نظريات الماديين الفرنسين في القرن الماضي ، ونظريات المؤرخين الفرنسيين في عصر عودة الملكية ، ونظريات الطوباويين والمثاليين الجدليين في تطور آراء ماركس وانجلز ولقد اوضح السيد بلتوف هذا الدور حين قدم باختصار مميزات هذه النظريات جميعا ، الاكثر أساسية من وجهة النظر هذه ، وان السيد ميخائيلوفسكي ليهز كتفيه احتقارا اذن ان خطة السيد بلتوف لا تروق له واننا لنرد على ذلك بأن كل خطة هي خطة جيدة اذا أتاحت لواضعها الوصول الى غاياته اما ان السيد بلتوف توصل الى غاياته ، فان خصومه أنفسهم ، في حدود معرفتنا ، لا ينكرون ذلك

ويستطرد السيد ميخائيلوفسكي قائلا

« ان السيد بلتوف يتحدث عن المؤرخين الفرنسيين والطوباويين الفرنسيين على حد سواء ، ويحكم على هؤلاء واولئك بالقياس الى فهمهم أو عدم فهمهم للاقتصاد من حيث هو أساس البناء الاجتماعي ومن الغريب أنه لا يأتي على ذكر لويس بلان ، بالرغم من أن مقدمة **تاريخ السنوات العشر** تكفي وحدها لتضمن لهذا الكاتب مكانة الشرف بين مؤسسي ما يسمى المادية الاقتصادية ومن المؤكد أن في هذه المقدمة أشياء كثيرة لا يستطيع السيد بلتوف الموافقة عليها ، لكن فيها صراع الطبقات ووصفا لخصائص هذه الطبقات الاقتصادية ، ودور الاقتصاد من حيث هو النابض الخفي للسياسة ، وباختصار

---

* [يأخذ خيراته حيث يجدها]

الشيء الكثير مما دمج **في وقت لاحق** في المذهب الذي يدافع السيد بلتوف عنه بكل هذا الحماس واذا كنت اسجل هذه الفجوة فالسبب الاول في ذلك انها تبعث بحد ذاتها على الدهشة ، ومن ثم لانها تشير الى بعض الاهداف الجانبية التي **لا علاقة لها** البتة بالنزاهة » (ص ١٥٠

ان السيد بلتوف يتحدث عن **أسلاف** ماركس ، وقد كان لويس‌بلان **معاصراً** له بالاحرى ومن المؤكد أن **تاريخ السنوات العشر** صدر في وقت لم تكن افكار ماركس التاريخية قد اتخذت فيه شكلها النهائي لكنه ما كان يمكن أن يكون لهذا الكتاب أي تأثير حاسم فيها لهذا السبب على الاقل ، الا وهو ان آراء لويس‌بلان بخصوص النوابض الباطنة للتطور الاجتماعي لا تنطوي على اي شيء جديد البتة بالمقارنة مع آراء اوغستان تييري أو غيزو على سبيل المثال وصحيح تماما أن « فيها صراع الطبقات ، ووصفا لخصائص هذه الطبقات الاقتصادية ، ودور الاقتصاد » ، الخ لكن هذه الاشياء جميعا موجودة من قبل عند تييري وغيزو ومينييه ، كما بين السيد بلتوف بصورة لا تقبل الجدال . ان غيزو الذي اتخذ وجهة نظر الصراع الطبقي قد تعاطف مع نضال البورجوازية ضد الارستقراطية ، لكنه كان معاديا جدا لنضال الطبقة العاملة ضد البورجوازية ، هذا النضال الذي كان في أوائله في ذلك الحين وكان لويس‌بلان **يتعاطف** مع هذا النضال الاخير بالذات*

كان **أحرى** بلويس‌بلان أن يقول ، كما قال غيزو ، ان المؤسسات السياسية متأصلة الجذور في وجود الامة الاجتماعي ، وان الوجود الاجتماعي يتقرر في آخر تحليل بعلاقات الملكية ! لكن ما هو منشأ علاقات الملكية هذه ؟ هذا ما كان يجهله كلا لويس‌بلان وغيزو على حد سواء . وهذا هو السبب في أن لويس‌بلان اضطر ، بالرغم من « اقتصاده » ، أن يتحول الى **المثالية** ، مثله مثل غيزو اما انه مثالي في آرائه الفلسفية والتاريخية ، فهذا ما يعرفه الجميع دون أن يضطروا الى المواظبة على دروس خاصة **

---

* وذلك بطريقته الخاصة التي جعلته يلعب ذلك الدور البائس في عام ١٨٤٨ ثمة هوة بين الصراع الطبقي على طريقة لويس‌بلان والصراع الطبقي كما سوف يفهمه ماركس « **في وقت لاحق** » وان من لا يرى هذه الهوة لاشبه بالفيلسوف الذي لم ير الفيل في حديقة الحيوان (٥)

(وفي هذا يكمن اختلافه عن غيزو لكن الفارق لم يكن جوهريا ، وهو لا يدخل أي شيء جديد في **مفهوم** لويس‌بلان عن « الاقتصاد من حيث هو النابض الخفي للسياسة ») [هامش لطبعة عام ١٩٠٥]

** لقد كان لويس‌بلان يملك بطبيعة الحال ، من حيث هو مثالي من المقولة الدنيا (يعني غير الجدلية) ، « **صيغته عن التقدم** » وان أقل ما يمكن أن يقال عن هذه الصيغة ، بالرغم من « **تفاهتها النظرية** » ، هو انها ليست أسوأ من « صيغة التقدم » الخاصة بالسيد ميخائيلوفسكي .

ولدى صدور **تاريخ السنوات العشر** ، كانت المسألة المطروحة في جـدول أعمال العلوم الاجتماعية هي تلك المسألة التي سوف يحلها ماركس **« في وقت لاحـق »** **ما هو منشأ علاقات الملكية ؟** ولم يقل لويس‌بلان شيئا جديدا في هذا الموضوع ، ومـن الطبيعي أن نفترض ان السيد بلتوف لم يقل كلمة واحدة عن لويس‌بلان لهذا السبب بالذات وأن السيد ميخائيلوفسكي ليفضل التلميح الـى وجود بعض الاسـباب الجانبيـة * Chacun a son goùt .

وفي رأي السيد ميخائيلوفسكي أن نزهة السيد بلتوف في مجال تاريخ الفلسفة « أضعف حتى مما كان يظن بالحكم على العناوين المذكورة أعلاه » لماذا ؟ لان السيد بلتوف كتب يقول ان

« هيغل كان ينعت بالميتافيزيائي موقف المفكرين – المثاليين والماديين على حد سواء – الذين يتصورون ويقدمون الظواهر ، شاؤوا أبوا ، على اعتبارها ثابتة ، دونمـا **رابطة** فيما بينها **ولا** امكانية للتحول من الواحدة الى الاخرى ، وذلك من جراء عجزهم عن **فهم** عملية التطور ولقد كن يعارض هذا الموقف **بالجدلية** التي تدرس الظواهر في **صيرورتها** على وجـه الدقة وبالتالي **في ترابطها**

ويلاحظ السيد ميخائيلوفسكي بخبث في هذا الشأن

« يعتبر السيد بلتوف نفسه خبيرا في فلسفة هيغل وبما أنه يهمني أن أتعلم منه ، كما أتعلم من كل رجل حاذق فاني أسأله بادىء ذي بـدء أن يدلني **في مؤلفات هيغل** على الفقرة التي حصل منها على هذا التعريف الهيغلي المزعوم عن الموقف الميتافيزيائي » واني لاجرؤ على التأكيد انه لن يستطيع أن يدلني عليه لقد كانت الميتافيزياء بالنسبة الى هيغل علم الماهية المطلقـة للاشياء هذه الماهية التي تتسامى علـى حدود التجربة والمشاهدة ، علم الجوهر السري للظواهر ان هذا التعريف المزعوم هيغليا قد استقاه السيد بلتوف ليس عند هيغل بل عند انجلز (في نفس ذلك الكتاب الجدالي ضد دوهرنغ) الذي يميز بصورة اعتباطية تماما الميتافيزياء مـن الجدلية بعلامة الجمود والسيولة » (ص ١٤٧

ولا نعرف ما سوف يقوله السيد بلتوف ردا علـى ذلك لكننا سوف نعمد بحرية ، دون انتظار ايضاحاته ، الى الرد على هذا الذاتي الفاضل

لنفتح القسم الاول من **موسوعة** هيغل ، فنجد في هامش الفقرة ٣١ ، ص ٥٧ من الترجمة الروسية للسيد تشيخوف ، والفقرة ٣٢ ، ص ٥٨ من الترجمة نفسها

« لم يكن فكر هذه الميتافيزياء حرا وصحيحا بالمعنى الموضوعي ، **لانها** لـم تكن تترك للموضوع أن يتطور بحرية من تلقاء نفسه ويجد تحديده بنفسه ، بـل كانت **تتناوله مـن حيث هـو شيء جاهز** ان هـذه الميتافيزياء عقائدية ، لانـه **لا بد لها** ، وفقا **لطبيعة** التحديدات المنتهية ، أن تقبل بأنه ، من أصل تأكيدين متناقضين ، **لا بد أن يكون الواحد** صحيحا والآخر مغلوطا بالضرورة » (٦)

---

* [لكل امرىء ذوقه]

ان هيغل يتحدث هنا عن الميتافيزياء القديمة السابقة لكانط والتـي يقول عنهـا انها قـد حذفت من عـداد العـلوم بعدمـا انتزعت مـن جذورهـا »
Ist so zu sagen, mit Stumpf und Stiel ausgerottet worden, aus der)
Wissenschaften verschwunden * (والتي يعارضها **بفلسفته الجدلية** التي تأخذ الظواهر في تطورها وترابطها وليس من حيث هي معطاة بصورة جازمة ومنفصلة عن بعضها بعضا بهوة حقيقية . وهو يقول : « الكل وحده هو الحقيقة ، لكن الكل لا يكشف عن ذاته كليا الا في تطوره » (Das wahre ist das Ganze . Das Comye aber ist nur das durch seine Entwicklung sich wollende wesen) **

ويؤكـد السيد ميخائيلوفسكي أن هيغل صهر الميتافيزياء بالجدليـة ، لكن الشخص الذي استقص هذه المعلومات منه لم يفسر لـه الامر جيدا فعند هيغل يضاف الى **العنصر الجدلي العنصر التأملي** الذي تصبح فلسفته بفضله **فلسفة مثالية** . وان هيغل ، من حيث هو مثالي ، **ليفعل ما يفعله جميع المثاليين** انـه يعلق اهمية فلسفية خاصة على « نتائج » (مفاهيم) عزيزة على الميتافيزياء القديمة لكن هذه المفاهيم ـ المطلق في مظاهر **تطوره** المختلفة ـ تظهر عنده ، بفضل « العنصر الجدلي » ، على اعتباراها **نتائج** بالضبط وليس على اعتبارها **معطيات** اصلية ان الميتافيزياء عند هيغل تنحل في المنطق ، ولهذا السبب فان دهشته ستكون عظيمة اذا بلغه انه ، هـو المفكر التأملي ، يوصف بالميتافيزيائي*** ohne weiteres . ولسوف يقول ان الناس الذين يسمونه هكذا « Lassen sich mit Thieren vergleichen welke alle Tône einer Musik mit durchgehört aben, an deren Sinn aber das Eine, die Harmoniedieser Tône , nicht gekommen ist » **** وهي الصيغة التـي استخدمها هـو نفسه ليسم متحذلقي العـلم

ونعود فنقول ان هذا المفكر التأملي الذي كان يحتقر **ميتافيزياء الذهن** (وهـذا تعبيره أيضا) قد كان **مثاليا** وبهذا المعنى كان يملك **ميتافيزياء للعقل** خاصة به . لكن هل نسي السيد بلتوف ذلك أم اغفل ذكره في كتابه ؟ انه لم ينسه ولـم يغفل ذكره لقد استشهد من كتاب ماركس وانجلز **العائلة المقدسة** بمقاطع طويلة تتعرض

---

* Wissenschaft der Logik ، فورود ، الفصل الاول

** Die Phünomenologie des Geistes [علـم ظواهر الفـكر] فورود ، الفصـل الثالث والعشـرون

*** [لا أكـر]

**** [يمكن أن يقارنوا بوحوش سمعت جميع أنغام قطعة موسيقية ، لكن شيئا واحدا لم يبلغ حواسها ، ألا وهو تناغم الاصوات » **دروس في تاريخ الفلسفة** ، القسم الاول] .

فيها نتائج هيغل التأملية » لنقد قارس وانـنا لنعتقد ان هــذه الفقرات الموردة توضح بصورة كافية عــدم جواز صهر الجدلية مع ما يسميه السيد ميخائيلوفسكي الميتافيزياء الهيغلية وهكذا فاذا كان السيد بلتوف قد نسي شيئا فهو انما نسي انه كان من واجبه ، نظرا « للامبالاة » المدهشة التي يبديها مفكرونا الطليعيون » حيال تاريخ الفلسفة ، أن يعنى بايضاح الفــارق الحاد الذي كان قائما زمــن هيغل بيــن الميتافيزياء والفلسفة التأملية* وانه ليترتب على ذلك كله أن السيد ميخائيلوفسكي يخطىء خطأ جسيما حين « يجرؤ على أن يؤكد » مالا يمكن تأكيده

ويقول السيد بلتوف أن هيغل يصف بالميتافيزيائيين حتـى أولئك الماديــين العاجزين عن تصور الظواهر في ترابطها أهــذا صحيح أم لا ؟ كلفوا أنفسكم عنـاء قراءة هــذه الصفحة من الفقرة ٢٧ من القسم الاول مــن **موسوعة** هيغل نفسه « اننا نجد التطبيق الفلسفي الاكمل والاحدث لوجهة النظر هذه في الميتافيزياء القديمة كما كانت تعرض قبل كانط ومهما يكن من امر ، فان زمن هذه الميتافيزياء لم ينقض الا بالنسبة الـى تاريخ الفلسفة ؛ لكنها في حــد ذاتها لا تزال قائمة كما هــو عهدها دائما ، وهي تمثل نظرة عقلانية الى ألامور » ما هي هذه « النظرة العقلانية الـى الامور ؟ انها النظرة الميتافيزيائية القديمة الى الامور ، المناقضة للنظرة الجدلية ولقد كانت الفلسفة المادية للقرن الثامن عشر ، **في مجملها** ، **« عقلانية »** كليا ؛ ولــم يكن في مقدورها أن تدرس الظواهر الا من زاوية التحديدات النهائية اما ان هيغل أدرك تماما هذا الجانب الضعيف من المادية الفرنسية ، ومن الفلسفة الفرنسية للقرن الثامن عشر عموما ، فهذا ما يستطيع أي امرىء الاقتناع بـه اذا كلف نفسه عنـاء مطالعــة المقاطــع التي تعالــج هــــذا الموضــوع فــــي القســم الثالث مــــن Vorlesungen über die Geschichte der Philosophie**. ولهذا فانه ماكان يستطيع أن يعبر وجهة نظر الماديين الفرنسيين أيضا الا من حيث هي أحد ألوان الميتافيزياء القديمة*** هل السيد بلتوف على حق ؟ ام انه مخطىء ؟ انه على حق بصورة

---

* وعلى أي حال ، فاذا كان لدى السيد ميخائيلوفسكي ادنى رغبة في معرفة المغزى التاريخي « لميتافيزياء هيغــل فاننا نوصيه بمطالعــة كتاب شعبي جــدا كان شهيــرا فـي زمانــه Die posaune des jüngsten Gerichts über Hegel, den Atheisten und Antichristen [هيغل الملحد والمسيح الدجال أمـام يـوم الدينونة الاخيرة] انـه كتاب صغير ظريف جـدا

** [**دروس في تاريخ الفلسفة**]

*** وعلى أي حال فانه يقول بخصوص المادية يجب علينا مـع ذلك أن نعترف بالطموح الحدسي لدى المادية للخروج من الازدواجية التي تعتبر ان العالم الثنائي جوهري وحقيقي ، والى القضاء على هذا التمزق للوحدة الاصلية . » (**الموسوعة** ، القسم الثالث ، ص ٥٤) [هامش لطبعة ١٩٠٥]

مطلقة ، اليس كذلك ؟ لكن السيد ميخائيلوفسكي « يجرؤ أن يؤكد » ولكن أيا من السيد بلتوف أو كاتب هذه السطور لا يستطيع أن يفعل شيئا في هذا الشأن ان المصيبة هي على وجه الدقة أن السيد ميخائيلوفسكي ، عندما يتناقش مع « التلامذة الروس » لماركس ، « يجرؤ » أن يحسم مسائل مجهولة منه كليا

أيها البطل المغوار ان شجاعتك سوف تقضي عليك

ان كل من يملك اطلاعا في الفلسفة سوف يلاحظ أن السيد بلتوف عندما يعرض افكار هيغل أو شيلنغ **يستخدم بصورة دائمة على وجه التقريب عبارات هذين المفكرين بالذات** ومثال ذلك أن تعريفه للفكر الجدلي يشكل ترجمة شبه حرفية **للهامش** والملحق الاول للفقرة ٨١ من القسم الاول من **الموسوعة** ؛ ومن ثم فانه يورد بصورة حرفية تقريبا بعض المقاطع من **مقدمة فلسفة الحق وفلسفة التاريخ** بيد أن هذا الكاتب الذي يستشهد بصورة بالغة الدقة برجال من طراز هيلفيتيوس وانفانتان واوسكار بيشل وغيرهم لا يشير قط على وجه التقريب الى مؤلفات شيلنغ وهيغل ، أو الى الفصول من هذه المؤلفات ، التي يستشهد بها لماذا يخالف هنا قاعدته العامة ؟ يلوح لنا أنه يفعل ذلك كحيلة عسكرية اننا نعتقد أن خط تفكيره قد كان كما يلي ان اصحابنا الذاتيين يعلنون ان الفلسفة المثالية الالمانية ميتافيزيائية ويعتقدون أن هذا يكفي ؛ انهم لم يدرسوها ، كما فعل ذلك مثلا كاتب **ملاحظات عن ستوارت ميل** وحين استشهد ببعض الأفكار المرموقة للمثاليين الالمان ، فان السادة الذاتيين ، اذ لا يرون المصدر الذي استقيت منه ، سوف يتصورون انني اخترعت هذه الافكار شخصيا أو استعرتها من انجلز وسوف يهتفون هذا يحتمل الجدال » ، « اجرؤ أن أؤكد » ، الخ وعندئذ سوف أميط اللثام عن جهلهم ، وتبدأ التسلية واذا كان السيد بلتوف لجأ حقا في مناظرته الى هذه الحيلة العسكرية الصغيرة ، فلا بد من الاعتراف بنجاحها التام وبالفعل ، فقد كانت تسليتنا كبيرة !

لكن لندع الكلام مرة أخرى للسيد ميخائيلوفسكي

« ان كل نظام فلسفي يؤكد مع السيد بلتوف أن حقوق العقل لا متناهية وغير محدودة بقدر قدرته وانه بالتالي قد اكتشف الماهية المطلقة للاشياء – اكانت مادة ام روحا – هو نظام ميتافيزيائي وسواء توصل هذا النظام أو لم يتوصل الى فكرة صيرورة ما يفترض انه ماهية الاشياء واذا هو توصل اليها ما اذا كان يعزو الى هذه الصيرورة طريقة جدلية أو اية طريقة أخرى ، فمن المؤكد أن هذا امر بالغ الاهمية في تحديد موضعه في تاريخ الفلسفة ، لكنه لا يغير شيئا في طابعه الميتافيزيائي (Russkoye Bogatstvo كانون الثاني ١٨٩٥ ، ص ١٤٨)

وبقدر ما نستطيع الحكم بالاستناد الى هذه الفقرة ، فان السيد ميخائيلوفسكي اذ يرفض الفكر الميتافيزيائي لا يعتقد أن حقوق العقل غير محدودة ؛ فلنأمل أن يمتدحه الامير ميشتشرسكي من أجل ذلك ومن الواضح أيضا أن السيد

ميخائيلوفسكي لا يعتقد ان **قدرة** العقل **لا** متناهية وغير محدودة وان هذا الامر يبعث على الدهشة من قبل انسان اكد لقرائه مرات عديدة ان La raison finit toujours par avoir raison * فاذا كانت قدرة العقل (وحتى حقوقه محدودة فان هذا التأكيد لا مكان له فيما يبدو لكن السيد ميخائيلوفسكي سوف يقول انه متأكد من انتصار العقل النهائي فيما يتعلق بالامور العملية وحدها ، وانه يشك في قدرته حالما يتعلق الامر بمعرفة الماهية المطلقة للاشياء (اكانت مادة أم روحا » عظيم لكن ما هي الماهية المطلقة للاشياء ؟

اتكون ما كان كانط يسميه **الشيء في ذاته** Ding an sich) ؟ اذا كان الجواب نعم فاننا نؤكد اذن بصورة جازمة ان هذا الشيء في ذاته نعرفه جيداً واننا ندين لهيغل بهذه المعرفة (ان « فلاسفتنا الوقورين » سوف يهتفون النجدة ! لكننا نرجوهم الا يثوروا)

الشيء في ذاته هو الموضوع الذي استخرج منه كل ما يجعله في متناول الشعور ، جميع العناصر الحسية فضلا عن المفاهيم المحددة ومن البين أنه لا يتبقى من ذلك سوى تجريد خالص ، سوى فراغ خالص وقد طرح خارج حدود الشعور فهو انكار كل احساس وكل مفهوم محدد لكنه من اليسير في هذا الشأن أن نقوم بالمحاكمة البسيطة التالية ، ألا وهي ن مثل هذه **الثمالة التافهة**** هي في ذاتها نتاج الفكر الذي خلق هذا التجريد الخالص ، أو أنا » فارغة تجعل من هويتها الجوفاء موضوعها الخاص ان التعريف السلبي الذي يعطى عن هذه الهوية المجردة على اعتبارها موضوعا متضمن بين المقولات الكانطية وهو معروف جيدا بقدر هذه الهوية الجوفاء وبالتالي فانه مما يبعث على الدهشة ان نسمعهم يكررون غالبا أنهم كانوا يجهلون أنه ليس أسهل من معرفتها*** »

وهكذا فاننا نعود فنقول اننا نعرف على أفضل وجه ما هي ماهية الاشياء **المطلقة** ، وبكلام آخر الشيء في ذاته ، انه تجريد خالص وان السيد ميخائيلوفسكي **يريد** أن يستخدم هذا التجريد الخالص كي يخيف الناس الذين يتبعون حكمة هيغل الفخورة Von der Grosse und Macht seines Geistes kann der Mensch nicht grosse genung denk **** « تلك أغنية قديمة أيها السيد ميخائيلوفسكي ***** Sie sind zu spat gekommen

---

* [العقل ينتهي دائما الى الانتصار]

** [caput mortuum باللاتينية في النص الاصلي]

*** هيغل ، **الموسوعة** ، القسم الاول ، ص ٧٩ – ٨٠ الفقرة ٤٤

**** **تاريخ الفلسفة** ، القسم الاول ، ص ٦ [لا يفكر الانسان قط بما يكفي من العظمة في عظمة فكره وقدرته]

***** [لقد وصلت متأخرا جدا !]

اننا على يقين من أن هذه السطور سوف تبدو في نظر السيد ميخائيلوفسكي سفسطة خالصة ولسوف يقول لنا « من فضلك ! ما الذي تقصده في هذه الحال من التفسير المادي للطبيعة والتاريخ ؟ » اليك ما نقصده

حين قال شيلنغ ان المغناطيسية هي دخول الذاتي في الموضوعي ، فقد كان ذلك تفسيرا **مثاليا** للطبيعة لكن حين تفسر المغناطيسية من وجهة نظر الفيزياء الحديثة ، فان هذه الظاهرة تعطى تفسيرا **ماديا** وحين فسر هيغل ،أو بكل بساطة أصحاب النزعة السلافية عندنا ، بعض الظواهر التاريخية بخصائص النفس القومية ، فقد كانوا ينظرون الى الظواهر المذكورة من زاوية **المثالية** اذن وحين فسر ماركس أحداث فرنسا بين ١٨٤٨ و ١٨٥٠ بالصراع الطبقي فيمجتمع هذا البلد ، فقد قدم عنها تفسيرا **ماديا** أهذا واضح ؟ والا فما الذي تريده بعد ؟ انه لواضح جدا حتى انه لا بد من قدر كبير من العناد من أجل عدم فهمه

ويفكر السيد ميخائيلوفسكي وقد خرج فكره عن الخط C'est bien le moment ! * (« ثمة شيء مغلوط هنا ، يقول لانج

فليسمح لنا بأن نقاطع السيد ميخائيلوفسكي : اننا نعرف على افضل وجه ما يقوله لانج ، لكننا نستطيع أن نؤكد للسيد ميخائيلوفسكي أن المرجع الذي يستنجد به هنا يخطىء بصورة فادحة ومثال ذلك أن لانج ينسى في كتابه **تاريخ المادية** أن نذكر الصيغة المميزة جدا لاحد الماديين الفرنسيين الابرز** Nous ne connaissons que l'écorce des phénomènes *** وان آخرين ممن لايقلون شهرة عنه قد عبروا مرات عديدة عن آراء مماثلة وهكذا فأنت ترى يا سيد ميخائيلوفسكي أن هؤلاء الفلاسفة ما كانوا يعرفون بعد أن الشيء في ذاته لا يعدو كونه الثمالة التافهة للتجريد لقد كانوا يتخذون ما يسميه الكثيرون اليوم **وجهة نظر الفلسفة النقدية** .

ولا حاجة الى القول ان هذه الاشياء جميعا سوف تبدو جديدة كل الجدة في نظر السيد ميخائيلوفسكي ، بل غير قابلة للتصديق على الاطلاق لكننا سنمتنع حاليا عن اخباره عن الماديين الفرنسيين الذين نستشهد بهم ، وعن مؤلفاتهم التي نوردها **فليجرؤ** اولا ان **يؤكد** ، ومن بعد سوف نتحادث

واذا أحب أن يعرف رأينا في العلاقة القائمة بين أحاسيسنا والاشياء الخارجية ، فاننا نحيله الى « الفكر الحسي والواقع وهي مقالة للسيد سيتشينوف منشورة في المجموعة **اغاثة الجياع** ويخيل الينا ان السيد بلتوف مثله كمثل اي تلميذ

* [انها اللحظة المناسبة حقا !]

** [دولباخ في **نظام الطبيعة**]

*** [اننا لا نعرف الا قشرة الظواهر]

روسي أو غير روسي لماركس ، سوف يوافق كليا العالم الفيزيولوجي الشهير وهذا ما يقولـه السيد سيشينوف :

مهما تكن الاشياء الخارجية في ذاتها فانه بصورة مستقلة عـن شعورنا ـ حتى اذا كان الانطباع الذي لدينا عنها علامة اتفاقية خالصة ـ يقابل التماثل والخلاف الـذي ندركه تماثل وخلاف واقعيان وبكلام آخر ، فان نقاط التماثل والخلاف التي يكتشفها الانسـان بين الاشياء المدركـة هي نقاط تماثل وخلاف فعليين* »

وحين يدحض السيد ميخائيلوفسكي السيد سيتشينوف ، فاننا لا نوافـق على الاعتراف بأن المحدودية لا تتناول قدرة العقل البشري وحدها ، بـل حقوقـه أيضـا **

لقد قال السيد بلتوف أن الاحادية المادية انتصرت في النصف الثاني من هـذا القرن في العلم الذي انصهرت الفلسفة معه كليا في هذه الاثناء ويلاحظ السيد ميخائيلوفسكي « أخشى أن يكون مخطئا » وانه ليستنجد تبريرا لخشيته بلانج الـذي يـرى أن « die gründliche naturforsehung durch ihre eignen consequenzen über materialismus ninausführt *** واذا كـان السيد بلتوف مخطئا ، فان الاحادية المادية لـم تنتصر في العلم اذن أيكون معنى ذلك بالتالي أن العلماء يفسرون حتى اليوم الراهن الطبيعة بواسطة ادخال الذاتي في الموضوعي وباللطائف الاخرىللفلسفة الطبيعية المثالية ؟ « اننا نخشى أن يكون مخطئا » ذلك الـذي يفترض هـذا ، وتزداد خشيتنا لان رجـلا بالغ الشهرة في العـلم ، العالم الطبيعي الانكليزي هكسلي يفكر كما يلي

« من المؤكد أن جميع المطلعين على المسألة في ايامنا والعارفين بالحقائق لا يمكن أن يرتابوا في أن مبادىء علم النفس محتواة في غريزة الجملة العصبية ان ما يسمى عمـل الفكر هـو مجموعة مـن الوظائف الدماغية كما أن مـواد الشعور هـي نتاج فعاليـة الدمـاغ **** »

---

* اغاثـة الجياع ، ص ٢٠٧

** ان لدى خصومنا ههنا فرصة ملائمة جدا لمفاجئتنا بالجرم المشهود للتناقض فنحن نعلن من جهة واحدة أن « الشيء في ذاته » الكانطي تجريد خالص ونستشهد من جهة ثانية مـع المديح بالسيد سيتشينوف الذي يتحدث عـن الاشياء كما هي موجودة في ذاتها بصورة مستقلة عـن شعورنا ومن المؤكد أن الناس الذين يفهمون لـن يجدوا تناقضا في ذلك ، لكن هـل يوجد الكثيرون من الـذين يفهمون بين خصومنا ؟ [حاشية لطبعة عـام ١٩٠٥]

*** [ان البحث الطبيعي السليم بنتاجه بالذات يؤدي الـى ما وراء المادية]

**** توماس هكسلي هيوم ، حياته وفلسفته ، ص ٨٠ [باريس ١٨٨٠] .

ولنلاحظ أن الرجل الذي ينطق بهذا الكلام هو ما يسمى في انكلترا **لا أدريا** وانه ليعتقد أن الرأي الذي يعبر عنه بشأن فعالية الذهن يتفق كل الاتفاق مع المثالية الخالصة . أما نحن الذين الفنا التفسيرات التي يمكن أن تعطيها عن الطبيعة المثالية الحازمة ، والذين نفهم دواعي الحياء عند هذا الانكليزي الفاضل ، فاننا نكرر مع السيد بلتوف ان **الآحادية المادية انتصرت في العلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .**

ومن المؤكد أن السيد ميخائيلوفسكي على اطلاع على أبحاث سيتشينوف في علم النفس . ولقد عارض كافيلين فيما مضى وجهة نظر هذا العالم ، ونحن نخشى أن يكون هذا الليبرالي الراحل قد أخطأ . لكن لعل السيد ميخائيلوفسكي يوافق كافيلين؟ او لعله في حاجة الى بعض الايضاحات الجديدة في هذه النقطة ؟ حسنا ، اننا نمتنع عنها في انتظار أن يأخذ في « التأكيد » من جديد .

يقول السيد بلتوف ان مفهوم « الطبيعة البشرية » الذي ساد في العلوم الاجتماعية قبل ماركس ادى الى اساءة استعمال للقياسات البيولوجية لا يبرح أثره قويا جدا في علم الاجتماع الغربي حتى الوقت الراهن ، وبصورة خاصة في الادبيات شبه السوسيولوجية الروسية . وان هذا ليوفر ذريعة للسيد ميخائيلوفسكي لكي يتهم مؤلف الكتاب عن الآحادية التاريخية بالظلم الصارخ والتشكيك مرة أخرى في سلامة اساليبه في المناظرة . انه يقول :

> أتوجه الى القارىء ، حتى اذا كان موقفه عدائيا مني . لكنه على بعض الاطلاع على كتاباتي ــ ان لم يكن عليها جميعا ، فعلى الاقل مقالة واحدة ، مثلا « المنهج القياسي في العلوم الاجتماعية » أو « ما هو التقدم ؟ » . ليس صحيحا أن الادب الروسي يسيىء بصورة خاصة استعمال القياسات البيولوجية . ففي اوروبا ، بفضل جهود سبنسر الطيبة ، باتت هذه السلعة أكثر شيوعا حتى درجة كبيرة ، هذا كي لا نقول شيئا عن زمن القياسات المضحكة لبونتشيلي وأخويته . واذا لم تمض الامور عندنا الى أبعد من التمارين القياسية للمرحوم ستروفين (التاريخ والمنهج » « السياسة من حيث هي علم ») والسيد ليلينفيلد (العلم الاجتماعي للمستقبل) وبعض المقالات الصحفية ، فمما لا ريب فيه ان هناك « نقطة من عسلي » كما تقول نحلة كريلوف . ذلك أنه ليس امرؤ بذل من الجهد مثل ما بذلت في مكافحة القياسات البيولوجية . وقد عانيت في حينه الشيء الكثير على أيدي « الصبية السبنسريين » واني لآمل « تمر العاصفة بسلام في الوقت الحاضر أيضا » ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .

ان هذه الخطبة لتلوح صادقة جدا بحيث يمكن حقا للقارىء المناوىء للسيد ميخائيلوفسكي أن يقول في نفسه : « انه ليبدو ان السيد بلتوف انساق بعيدا في حماسته الجدالية » . لكن الامر ليس كذلك ، والسيد ميخائيلوفسكي أول من يعرف هذه الحقيقة . فاذا هو وجه الى القارىء مثل هذا النداء المثير للشفقة ، فذلك

لنفس السبب الذي حمل ترابنون * بلاوتوس على القول Pergam turbare porro ita maec res postulat** «

ما الذي قاله السيد بلتوف بالضبط ؟ لقد قال

اذا كان لا بد من البحث عن سبب كل التقدم الاجتماعي التاريخي في طبيعة الانسان واذا كان المجتمع يتألف من الافراد كما يلاحظ سان سيمون نفسه بكل صواب ، فان طبيعة الفرد يجب أن تزودنا اذن بمفتاح تفسير التاريخ ان طبيعة الفرد هي موضوع **علم الغريزة** بالمعنى الواسع للكلمة يعني العلم الذي يغطي أيضا الظواهر **السيكولوجية** وهذا هو السبب في أن علم الغريزة يشكل في نظر سان سيمون والباعة أساس علم الاجتماع الذي يسمونه الفيزياء الاجتماعية ولقد ورد **في الآراء الفلسفية والادبية والصناعية** التي طبعت في حياة سان سيمون وبمشاركة فعالة منه مقال بالغ الاهمية لكنه ناقص لسوا الحظ بقلم **دكتور في الطب** لم يذكر اسمه **في** علم الغريزة المطبق على تحسين المؤسسات الاجتماعية ان الكاتب يعتبر علم الاجتماع جزءا مكملا « **لعلم الغريزة العام** » الذي يكرس نفسه لاعتبارات من « مرتبة أعلى **بعدما** اغتنى بالملاحظات والتجارب الخاصة « **لعلم الغريزة الخاص** » ان **الافراد** هم بالنسبة اليه « مجرد أعضاء في الجسم الاجتماعي الذي يدرس وظائفه « بالضبط كما يدرس علم الغريزة الخاص وظائف الافراد ان علم الغريزة العام يدرس يقول المؤلف يعبر عن قوانين الوجود الاجتماعي التي يجب أن تتطابق القوانين المكتوبة معها ان علماء الاجتماع البوراجوازيين ، سبنسر على سبيل المثال ، قد استخدموا في وقت لاحق عقيدة العضويةالاجتماعية ليستخلصوا أشد النتائج محافظة بيد أن الدكتور في الطب الذي استشهدنا به كان **مصلحا** في المحل الاول وقد درس الجسم الاجتماعي بهدف **اعادة تنظيم** المجتمع طالما ان **علم الغريزة الاجتماعي و علم الصحة** المرتبط به بصورة وثيقة يزودانا بالاسس الايجابية التي يمكن أن يبنى عليها نظام التنظيم الاجتماعي الذي تتطلبه الحالة الراهنة للعالم المتمدن

يتضح من هذه الكلمات وحدها أن القياسات البيولوجية يمكن في راي السيد **بلتوف** ، اساءة استعمالها ليس بمعنى النزعة المحافظة البورجوازية عند سبنسر **فحسب** ، بل بمعنى **الخطط الطوباوية للاصلاح الاجتماعي** أيضا وان تشبيهالمجتمع بالعضوية يلعب هنا دورا من **الدرجة الثانية** ، ان لم يكن من الدرجة العاشرة ان **الامر** الاساسي ليس هو تشبيه المجتمع بالعضوية بل الرغبة في تأسيس « **علم الاجتماع** » على هذه المعطيات **البيولوجية** أو تلك. ولقد عارض السيد ميخائيلوفسكي بقوة تشبيه المجتمع بالعضوية ، ومما لاريب فيه اننا نجد في النضال ضد هذا التشبيه

* [احدى شخصيات Mostellaria (**الشبح**) ، وهو عبد محتال لا ضمير له] .

** [سوف أواصل الشغب فالحالة تتطلب ذلك]

« قطرة من **عسله** » لكن هذا الامر لا يملك أهمية جوهرية ان الامر الجوهري هو مسألة معرفة ما اذا كان السيد ميخائيلوفسكي يعتقد أم لا بامكانية تأسيس علم الاجتماع على هذه المعطيات البيولوجية أو تلك وليس ثمة ظل من شك في هذا الشأن . كما يمكن أن يقتنع بذلك كل من قرأ مثلا «نظرية داروين والعلم الاجتماعي» ويقول السيد ميخائيلوفسكي في هذه المقالة

تحت العنوان الرئيسي نظرية داروين والعلم الاجتماعي سوف نتحدث عن مسائل عديدة عالجتها وسوتها واعادت تسويتها نظرية داروين أو هذا أو ذاك من أنصارها المتكاثرين يوما بعد يوم ومهما يكن من أمر ، فان مهمتنا الرئيسية تستقيم في تحديد العلاقة المتبادلة ، من وجهة نظر النظرية الداروينية ، بين التقسيم الفيزيولوجي للعمل ، يعني تقسيم العمل بين أعضاء كل غير قابل للانقسام ، والتقسيم الاقتصادي للعمل ، يعني تقسيم العمل بين أجناس وعروق وشعوب ومجتمعات كاملة غير قابلة للانقسام وفي رأينا أن هذه المهمة ترتد الى البحث عن القوانين الاساسية للتعاون ، يعني أساس العلم الاجتماعي*

ان البحث عن قوانين التعاون الاساسية ، يعني **أساس العلم الاجتماعي** ، في **علم الحياة** هو اتخاذ موقف السان سيمونيين لعام ١٨٢٠ وبكلام آخر « اجترار لغو قديم والكذب عن اثنين

وقد يهتف السيد ميخائيلوفسكي هنا قائلا ان نظرية داروين لم يكن لها وجود بعد عام ١٨٢٠ لكن القارىء ادرك من دون ريب أن المقصود هنا ليس النظرية الداروينية ، بل الاتجاه الطوباوي عند السيد ميخائيلوفسكي والسان سيمونيين نحو **تطبيق علم الغريزة على تحسين المؤسسات الاجتماعية** . وان السيد ميخائيلوفسكي ، في المقالة المشار اليها ، يتفق كليا مع هيكل (« ان هيكل على حق بصورة مطلقة ») حين يقول ان رجال الدولة والاقتصاديين والمؤرخين في المستقبل يجب أن يركزوا جل اهتمامهم على علم الحيوان المقارن ، يعني على علم البنية وعلم الغريزة المقارنين عند الحيوانات ، اذا كانوا راغبين في الحصول على تصور صحيح عن موضوعهم الخاص . قولوا ما شئتم ، لكن اذا كان هيكل « على حق بصورة مطلقة يعني اذا كان علماء الاجتماع (وحتى المؤرخون) يجب أن يركزوا جل اهتمامهم على علم البنية وعلم الغريزة عند الحيوانات ، فلا بد اذن أن تكون اساءة استعمال للقياسات البيولوجية **في هذا الاتجاه أو ذاك** أوليس بينا أن نظرة السيد ميخائيلوفسكي الى علم الاجتماع هي النظرة السان سيمونية القديمة ؟

حسنا ، هذا كل ما قاله السيد بلتوف ، والسيد ميخائيلوفسكي يحاول عبثا أن يتخلص من مسؤوليته عن الافكار السوسيولوجية لبومارتسيف ــ توجين ان

---

* ميخائيلوفسكي **المؤلفات** ، المجلد الخامس ، ص ٢

أعماله « السوسيولوجية » الخاصة لم تتجاوز مطلقا موضوعات معلمه وصديقه الراحل ان السيد ميخائيلوفسكي لم يدرك فيم يستقيم اكتشاف ماركس ، ولذا فهو باق طوباويا عنيدا وانه لوضع مؤس جدا ، لكن مؤلفنا لن يستطيع خلاصا منه الا اذا بذل جهدا فكريا جديدا ان النداءات الباكية الى القارىء ، حتى القارىء الاكثر ودا لن تنفع « عالمنا الاجتماعي المسكين » على الاطلاق

لقد قال السيد بلتوف كلمتين دفاعا عن السيد ستروفيه ، فاذا السيدان ميخائيلوفسكي و ن ــ ون يستندان اليهما كي « يؤكدا » انه وضع السيد ستروفه ((تحت حمايته)) لقد قلنا الشيء الكثير دفاعا عن السيد بلتوف ما عسى ان يقول السيدان ميخائيلوفسكي و « ن ــ ون » ؟ من المؤكد انهما سيعتبران السيد بلتوف تابعا لنا واذ نعتذر سلفا للسيد بلتوف لاننا نستبق رده على السادة الذاتيين ، فاننا نسأل هؤلاء ايكون اتفاق المرء مع مؤلف ما معناه بالضرورة اخذ هذا المؤلف تحت حمايته ؟ ان السيد ميخائيلوفسكي يتفق مع السيد « ن ــ ون » في بعض المسائل ذات الاهمية الراهنة في الحياة الروسية . أيجب أن نفهم من اتفاقهما أن السيد ميخائيلوفسكي أخذ السيد « ن ــ ون » تحت حمايته ؟ أم لعل السيد ن ــ ون هو الذي اخذ السيد ميخائيلوفسكي تحت حمايته ؟ ما عسى يقول الراحل دوبروليوبوف حين يسمع هذه اللغة الغريبة التي ينطق بها الادب الطليعي الحالي ؟

ويلوح للسيد ميخائيلوفسكي أن السيد بلتوف يشوه مذهبه عن الأبطال والجمهور وانما لنعتقد مرة أخرى ان السيد بلتوف على حق تام ، وان السيد ميخائيلوفسكي حين يعارضه يلعب دور ترانيون لكن قبل أن نبرهن على رأينا هذا ، نرى انه لا بد من كلمات قليلة عن مذكرة السيد « ن ــ ون » في عدد آذار من **الرسول الروسي** ما معنى الضرورة الاقتصادية ؟ »

ان السيد « ن ــ ون » ينصب بطاريتين ضد السيد بلتوف ، وسوف نستعرضهما الواحدة بعد الثانية

ان هدف البطارية الاولى هو مقالة السيد بلتوف « كي نرد على سؤال ما اذا كانت روسيا سوف تسلك طريق التطور الراسمالي أم لا ؟ ــ يجب على المرء أن ينصرف الى دراسة وضع البلاد الفعلي ، الى تحليل حياتها الداخلية الراهنة وان تلامذة ماركس الروس يقولون بالاستناد الى مثل هذا التحليل ليس ثمة معطيات تتيح الامل في أن تفادر روسيا عاجلا طريق التطور الراسمالي ويرد السيد ن ــ ون بحقد لا وجود لمثل هذا التحليل أحقا يا سيد « ن ــ ون » ؟ لنتفق على المصطلحات بادىء الامر ماذا تقصد **بالتحليل** ؟ أيوفر التحليل معطيات جديدة من أجل تكوين حكم في الموضوع ام انه يعمل بمعطيات سابقة تم الحصول عليها بطرق اخرى ؟ اننا نجازف بالتعرض لتهمة كوننا « ميتافيزيائيين » ونتمسك بالتعريف

القديم الذي يقول ان التحليل لايوفر معطيات جديدة من اجل تكوين حكم فيالموضوع ، بل يعمل بمعطيات جاهزة من قبل وانه ليترتب على هذا التعريف ان تلامذة ماركس الروس ، في تحليلهم للحياة الداخلية الروسية ، قـد لا يقدمون أية مشاهدات مستقلة عـن هذه الحياة ، بل تكتفي بالمواد المجموعة من قبل الكتاب الشعبيين مثلا واذا هم استخلصوا من هذه المواد استنتاجا جديدا ، فان ذلك يتضمن بحد ذاته أنهـم اخضعوا تلك المعطيات لتحليل جديد ومن هنا نشأ السؤال ما هي المعطيات عـن تطور الرأسمالية المتوفرة في الادب النارودني ، وهل استخلص حقا تلامذة ماركس الروس استنتاجا جديدا من هذه المعطيات ؟ وكيما نجيب عن هـذا السؤال سوف نتناول مثلا كتاب السيد ديمنتييف **المصنع وما اعطاه للسكان وما أخذه منهم** اننا نقرأ في هذا الكتاب (الصفحة ٢٤١ وما يليها)

« ان صناعتنا قـد مرت ، قبل أن تتخـذ شكل الانتاج المصنعي الرأسمالي الـذي نجدها فيه في الوقت الراهن ، بنفس مراحل التطور التي اجتازتها في الغرب ولقد كان نظام الرق أحـد الاسباب الاقوى لتخلفنا عـن الغرب ولقد اجتازت صناعتنا ، من جراء هـذا النظام ، مرحلة أطول جدا من الانتاج الحرفي والمنزلي ولم يحصـل الرأسمال الا في عـام ١٨٦١ على امكانية تحقيق شكل الانتاج الذي انتقل الغرب اليـه قبل قرن ونصف القرن تقريبا ، واعتبارا من هـذا التاريخ فقط بـدأ انحطاط أسـرع للانتاج الحرفي والانتاج المنزلي ، وهو الانحطاط الذي ترافق بتحولهما الى انتاج مصنعي . لكنه خلال هـذهالسنوات الثلاثين (المنصرمة منذ الغاء نظام الرق) تغيرت الاشياء جميعا فلم يكن بـد لصناعتنا أن تتخذ بصورة محتومة ، وقـد انخرطت في نفس طريق التطور الاقتصادي التي تسلكها أوروبا الغربية ، الشكل الذي تطورت فيه في الغرب ـ وهـي قد اتخذت هـذا الشكل بالفعل ان حقيقة تملك الجماهير الشعبية للارض ، وهـي الحقيقة التي يشار اليها من أجـل البرهان عندنا على استحالة قيام تلك الطبقة مـن العمال الاحرار مـن جميع الروابط التي تشكل الرفيقة الحتمية لشكل الصناعة الحديث ـ قد كانت ولا تزال بصورة لا مـراء فيها عاملا ملجما خطيرا لكنه أقل خطرا مما يعتقد عـادة ان نقص حصص الارض الموزعة ، وهو ليس بالنقص النادر على الاطلاق ، فضلا عـن انحطاط الزراعة التام مـن جهة واحدة ، واهتمام الحكومة مـن جهة ثانية بتطور الصناعات التحويلية علىاعتبارها عنصرا ضروريا من أجل توازن ميزان الدولة الاقتصادي ، قـد أسهما وهما يسهمان بعد حتى درجة كبيرة في الحد من أهمية الملكية العقارية واننا لنرى نتائج هـذه الاوضاع تشكل طبقة خاصة مـن عمال المصانع ، طبقة لا تبرح تحمل اسم « الفلاحية » ، لكنها لا تملك عمليا أيـة علاقة مشتركة مع المزارعين الفلاحين ، وهي لا تحتفظ بعلاقتها بالارض الا بدرجة تافهة ، ونصفها لا يغادر في الوقت الحاضر ، فـي الجيل الثالث ، المصنع قط ولا يملك أيـة ملكية على الاطلاق في الريف باستثناء حق قانوني في الارض ، لكنه عمليا غير قابل للتحقيق على وجـه التقريب »

ان **المعطيات الموضوعية** التي قدمها السيد ديمينتييف تبين بصورة بليغة جدا أن الراسمالية ، بكل عواقبها ، تتطور سريعا في روسيا وان الكاتب ليضم الى هذه المعطيات اعتبارات يتبين منها أن تطور الانتاج الراسمالي يمكن تعويقه وان كل ما يجب عمله في سبيل ذلك هو تذكر القول المأثور :* gouverner c'est prévoir وان تلامذة ماركس الروس يخضعون هذه النتيجة لتحليلهم **الخاص** ، ويجدون انه من المحال تعويق أي شيء كان في هذا المجال ، وان السيد ديمينتييف يخطىء ، مثله مثل جمهرة الشعبيين الذين تضم أعمالهم كتلة من المعطيات الموضوعية المماثلة كليا لما نشاهده عند السيد ديمينتييف** ان السيد « ن ـ ون » يطالب برؤية هذا التحليل مما لا ريب فيه أنه يود ان يعلم متى وأين نشر مثل هذا التحليل في الصحافة الروسية واننا لنستطيع أن نعطيه جوابين على الاقل

ففي كتاب السيد ستروفه الذي لا يتذوقه مطلقا توجد أولا دراسة كفوءة عن **حدود تدخل ممكن في الوقت الراهن للدولة في حياة روسيا الاقتصادية .** وان هذه الدراسة لتشكل جزءا من التحليل الذي يطالب السيد « ن ـ ون به » ، وليس لدى السيد ن ـ ون » شيء صالح يعارض هذا التحليل به

ثانيا ألا يذكر السيد « ن ـ ون المناظرة التي قامت قبل خمسين سنة بين أنصار النزعة السلافية وأنصار النزعة الغربية ؟ ان تحليل الحياة الداخلية الروسية » قد لعب في هذه المناظرة أيضا دورا بالغ الاهمية ، لكن هذا التحليل اقتصر في الصحافة ، على وجه الحصر تقريبا ، على قضايا أدبية محضة وان ثمة أسبابا تاريخية لذلك ومن المؤكد أن من واجب السيد « ن ـ ون » أن يأخذها بعين الاعتبار اذا كان راغبا عن التعرض لتهمة المتحذلق المضحك أيريد السيد ن ـ ون أن يقول أن هذه الاسباب لا علاقة لها اليوم البتة بالتحليل الذي قام به « التلامذة الروس » ؟ (٨)

---

* [الحكم يعني التنبؤ]

** يقول السيد ن ـ ون » « من بين مئات الدراسات الاحصائية وغلاها التي تحققت خلال السنوات العشرين الاخيرة تقريبا ، لم نصادف قط أعمالا تتفق نتائجها في أي مجال مع الاستنتاجات الاقتصادية للسادة بلتوف وستروفه وسكنوزتسوف » ان مؤلفي الاحصائية التي تشير اليها أيها السيد « ن ـ ون ينتهون عادة الى نتيجة مزدوجة النتيجة الاولى تتطابق مع الحقيقة الموضوعية وتقول ان الرأسمالية تتطور وان « الاسس » القديمة تنهار ، والنتيجة الثانية هي نتيجة « ذاتية » تقول ان التطور الرأسمالي يمكن تعويقه ، اذا ، الح ، الخ ، **لكنه لم تقدم قط على أية حال أية معطيات تؤكد هذه النتيجة الاخيرة ، بحيث تظل تأكيدا خالصا** ، بالرغم من المعطيات الاحصائية الاكثر أو الاقل غزارة المتوفرة في الدراسات التي تتزين بها وان دراسات السيد « ن ـ ون » لتعاني من ضعف مماثل ، مما يمكن أن نسميه فاقة دم الاستقراء « الذاتي » وبالفعل ، ما هو « التحليل » الذي يعتمد عليه السيد « ن ـ ون » كي يؤكد أنه في مقدور مجتمعنا منذ الآن أن ينظم الانتاج ؟ **لا وجود لمثل هذا التحليل .**

ان التلامذة لم ينشروا حتى الآن اية دراسات أصيلة عن الاقتصاد الروسي الامر الذي يفسره كون الاتجاه الذي ينتسبون اليه لا يبرح فتيا جدا إن التيار **النارودني** هو الذي ساد حتى الوقت الراهن الادب الروسي وكان الباحثون بفضله يغرقون دائما في لجج آمالهم **الذاتية** حين يقدمون المعطيات الموضوعية التي تشهد على انهيار « الاسس » القديمة لكن غزارة هذه المعطيات التي قدمها النارودنيون هي الضبط التي استحقت بروز نظرة جديدة في الحياة الروسية. ومما لا ريب فيه ان هذه النظرة الجديدة سوف تصبح الاساس من اجل مشاهدات مستقلة جديدة وانا لنستطيع منذ الآن أن تستلفت انتباه السيد « ن - ون » مثلا الى كتابات السيد خاريزومينوف التي تناقض بقوة كتاب الايمان النارودني ، وهو ما شعر بـه بصورة جيدة السيد « ف. ف. » طالما أنه حاول كثيرا ، لكن عبثا ، أن يدحض هذا الباحث الفاضل واذا كان السيد بوستنيكوف لا يمت بعلاقة الى الماركسية ، فان السيد « ن - ون » لن يمضي دون ريب حتى درجة التأكيد على أن مؤلف **الاقتصاد الفلاحي في روسيا الجنوبية** ينضم الى الآراء المألوفة لاصحابنا النارودنيين عن وضع المشاعة الراهن في روسيا الجديدة ومن المسألة الزراعية عامة. واما السيد بورودين ، مؤلف دراسة مرموقة عن القوازق في الاورال فانه ينضم كليا الى الموضوعات التي ندافع عنها ، والتي لم يكن لها حظ الاستحسان لدى السيد « ن - ون » ان الصحافة النارودنية تجاهلت هذا المؤلف ، لكن لم يكن حافزها الى ذلك افتقاره الى القيمة ؛ ان السبب الوحيد في ذلك هو ان للصحافة المذكورة أساليبها « الذاتية » في النظر الى الامور (٩) ومهما يكن من أمر ، فانما تلك بداية فقط أيها السيد « ن - ون » ان عصر الدراسات الماركسية في روسيا قد بدأ لتوه*

وان السيد « ن - ون » ليعتبر نفسه ماركسيا ، وهو مخطىء في ذلك انه سليل غير شرعي للمفكر الكبير فنظريته ثمرة معاشرة غير شرعية بين النظرية الماركسية والسيد « ف. ف. » ان السيد « ن - ون » قد اخذ عن Mütterchen ** الخاصة بـه قاموسه وبعض النظريات الاقتصادية التي فهمها أية حال بصورة بالغة التجريد ، وبالتالي بصورة ملتوية لكنه ورث عن*** Vâtterchen الخاص بـه موقفا طوباويا من الاصلاح الاجتماعي يستند اليه كي

---

* اننا لا نتحدث عن كتاب السيد ستروفه ، فالسيد « ن - ون » لا يحبه لكنه يخطىء اذ يعلن بصورة جازمة حتى هذه الدرجة بأنه لا يساوي شيئا وان السيد ستروفه لقادر كليا على مواجهة السيد « ن - ون » ندا لند واما التحليل الشخصي للسيد « ن - ون » فاذا ما اخذ امرؤ على عاتقه « **تحليله** » بدوره من وجهة نظر ماركسية لن يتبقى منه سوى التفاهات العمومية واننا لنأمل لا يطول انتظار هذا التحليل

** [الام الصغيرة]

*** [الاب الصغير] .

يوجه الى السيد بلتوف بطاريته الثانية

لقد قال السيد بلتوف ان العلاقات الاجتماعية ، بفعل منطق تطورها بالذات ، تقود الانسان الى وعي عبوديته للضرورة الاقتصادية

« ان المنتج (الانسان الاجتماعي) اذ يصبح واعيا لان السبب في عبوديته لانتاجه الخاص يستقيم في فوضى هذا الانتاج ينظم الانتاج ، وبذلك يخضعه لارادته ان حكم الضرورة ينتهي ويقوم حكم الحرية التي يتبين انها ضرورة هي الاخرى »

ويرى السيد « ن ـ ون » ان هذا كله صحيح تماما ، لكنه يعتقد أن من واجبه ان يكمل كما يلي كلمات السيد بلتوف الصائبة

« فالقضية تستقيم اذن في أن المجتمع ، الذي كان حتى ذلك الحين شاهدا منفصلا على تظاهرات هذا القانون الذي يلجم تطور قواه المنتجة ، يبحث بمساعدة الشروط الاقتصادية المادية القائمة عن الطريقة من أجل اخضاع ذلك القانون لسلطانه بأن يحيط تظاهراته بشروط هي أبعد ما تكون عن لجم تطور قوى العمل الانتاجية [قوى العمل !] للمجتمع برمته ، بل تسهل هذا التطور بالاحرى »

ان السيد « ن ـ ون » ، دون أن يلحظ ذلك هو نفسه ، قد استخلص من كلمات السيد بلتوف « الصائبة تماما » نتيجة مشوشة حتى الدرجة القصوى

ان السيد بلتوف يتحدث عن الرجل الاجتماعي ، عن مجموع المنتجين الذين تقع على عاتقهم حقا مهمة التغلب على الضرورة الاقتصادية . لكن السيد « ن ـ ون » يستبدل بهؤلاء **المنتجين** المجتمع الذي « لا يستطيع ، بوصفه كلا منتجا ، ان ينظر في لا مبالاة ، بصورة « موضوعية » ، الى تطور العلاقات الاجتماعية الاقتصادية التي تحكم على غالبية أعضائه بالافقار المتدرج

المجتمع بوصفه كلا منتجا !... ان « تحليل » ماركس ، الذي يجرؤ السيد « ن ـ ون » على الادعاء بأنه ينضم اليه ، لا يتوقف عند فكرة المجتمع بوصفه **كلا** منتجا انه **يقسم** المجتمع ، بصورة تتفق مع طبيعته الحقيقية ، الى **طبقات** منفصلة تملك كل منها مصلحتها الاقتصادية الخاصة ورسالتها الخصوصية الخاصة. لماذا لا يفعل « تحليل السيد « ن ـ ون » الشيء نفسه ؟ لماذا يتحدث السيد « ن ـ ون » ، بدلا عن مهمة المنتجين الروس ، عن مهمة المجتمع بوصفه كلا واحدا ؟ ان هذا المجتمع ، اذا ما اخذ على اعتباره كلا واحدا ، يتعارض عادة مع الشعب ، وان لهذا التعارض سببا ؛ وبالرغم من « كليته » يتبين اذن انه جزء ضئيل ، مجرد أقلية تافهة من السكان الروس . وحين يؤكد السيد « ن ـ ون » لنا أن هذه الاقلية الهزيلة سوف تنظم الانتاج ، فاننا لا نستطيع الا أن نهز أكتافنا ونقول : ان السيد « ن ـ ون » لم يأخذ ذلك من ماركس ؛ لقد ورثه عن أبيه الصغير ، عن السيد « ف . ف » .

ان تنظيم الانتاج عند ماركس يفترض موقفا واعيا من جانب المنتجين الـذين يجب بالتالي أن يكون تحررهم الاقتصادي مـن صنع أيديهم الخاصة وعند السيد « ن ــ ون » يفترض تنظيم الانتاج موقفا واعيا حياله مـن جانب المجتمع اذا كانت تلك هـي الماركسية ، فمن المؤكد ان ماركس لـم يكن ماركسيا قط

لكن لنفترض ان المجتمع يتصرف حقا من حيث هو منظم الانتاج كيف ستكون علاقتـه بالمنتجين اذن ؟ انه **ينظمهم** فالمجتمع هـو **البطل** اذن ، والمنتجون هـم **الجمهـور** .

ان السيد ميخائيلوفسكي « يؤكـد » ان السيد بلتوف شوه نظريته عن الابطال والرعاع أيعتقد السيد ميخائيلوفسكي ، مثله مثل السيد « ن ــ ون » ، أن فـي مقدور المجتمع أن ينظم الانتاج ؟ اذا كان يعتقد ذلك ، فانـه ينادي اذن بالموضوعـة القائلة ان المجتمع ، **الانتليجنتزيا** ، يشكل البطل خالق تطورنا التاريخي المقبل ، بينما ملايين المنتجين هم **الرعاع** الذين سوف يصهرهم البطل على هواه ، وفقا لمثله الاعلى . وليجب الآن القارىء غير المنحاز أكان السيد بلتوف على حق عندما قال ان الشعب هو الرعاع في النظرة « الذاتيـة » ؟.

ويؤكد السيد ميخائيلوفسكي انه ، وأولئك الذين يفكرون مثله ، لا يعارضون تطور الوعي عند المنتج انـه يقول

« يلوح لي فقط انه لـم تكن هناك حاجـة على الاطلاق ، مـن اجل برنامج على هذا القدر من البساطة وعلى هذا القدر من الوضوح ، للتحليق في سحب الفلسفة الهيغلية والغطس بعدئذ في خليط الذاتي والموضوعي »

لكن حقيقة الامر أيها السيد ميخائيلوفسكي هي ان الوعي الذاتي عند المنتجين ، في نظر الناس الذين يفكرون على غرارك ، لا يمكن أن يتخذ المعنى الذي يملكه في نظر خصومك فمن وجهة نظرك يمكن تنظيم الانتاج من قبل « المجتمع » ؛ اما من وجهة نظر خصومك فهذا لا يمكن أن يتحقق الا من قبل المنتجين أنفسهم فقط من وجهة نظرك المجتمع يفعل والمنتج يتعاون ، ومن وجهة نظر خصومك المنتجون لا يتعاونون ، بـل يفعلون ؛ ومن البديهي ان أولئك الذين يتعاونون يحتاجون الى قدر من الوعي دون ما يحتاجه أولئك الذين يفعلون وهذا ما قيل قبل زمن طويل جـدا وبصورة صائبة تماما « بريق الشمس شيء ، وبريق القمر شيء ، وبريق النجوم شيء ؛ ذلك أن بريق كـل نجمة يختلف عن بريق النجمة الاخرى* **انك تعتبر المنتجين مثلما كان الطوباويون الفرنسيون والالمان يعتبرونهم بين الاعوام ١٨٣٠ ــ ١٨٥٠** . وان خصومك ليدينون **كـل طوباوية حيال المنتجين** لو انك كنت مطلعا على تاريخ

* [القديس بولس الرسالة الاولى الى أهل كورنثيوس] .

المذاهب الاقتصادية ايها السيد ميخائيلوفسكي لعرفت انه لم يكن بد بادىء الامر ، في سبيل تجاوز هذه الطوباوية ، من التحليق في سحب الفلسفة الهيغلية ، والغطس بعدئذ حتى أعماق نثر الاقتصاد السياسي

ولا يحب السيد ميخائيلوفسكي كلمة المنتج ، فرائحة الاسطبل تفوح منها*

واننا لنرد عليه قائلين هذا افضل ما عندنا » وفي حدود معرفتنا ، فان كلمة « **المنتج** » استخدمت بادىء الامر من قبل سان سيمون والسان سيمونيين ولقد استخدمت عددا لا يحصى من المرات في أوروبا الغربية منذ تأسيس صحيفة **المنتج** Le Producteur يعني منذ عام ١٨٢٥ ولم تذكر قط أي امرىء كان بالاصطبلات لكن **ارستقراطيا تائبا** من بلادنا لم يكد يتفوه بها حتى قامت صورة الاصطبلات في ذهنه في الحال كيف نفسر هذه الظاهرة العجيبة ؟ طبعا بذكريات وتقاليد الارستقراطي التائب

ان السيد « ن ـ ون يستشهد بكل خبث بعبارة السيد بلتوف التالية « من المؤكد ان احدهم [تلامذة ماركس] قد يكون أكثر اطلاعا على أمور الاقتصاد ، والآخر دون ذلك لكن الشيء الهام ليس هو حجم المعارف الفردية ، بل وجهة النظر بالذات » ويتساءل السيد « ن ـ ون » « ماذا حدث اذن لجميع متطلبات التمسك بأرضية الواقع ، لضرورة الدراسة المستفيضة لمجرى التطور الاقتصادي ؟ »

ـ لا يتردد صدى ذلك بصورة واضحة جدا يا سيد ن ـ ون انه ليتبين الآن أن ذلك كله أمر ثانوي وان « الامر الهام ليس هو حجم المعارف ، بل وجهة النظر

واننا لنرى أن السيد « ن ـ ون » لم يفهم السيد بلتوف ، فلنحاول أن ننجده لنخلصه من مصاعبه ففي نفس العدد الذي نشرت فيه مذكرة السيد « ن ـ ون » من **الرسول الروسي** وجدنا مقالة بقلم السيد موكييفسكي بعنوان « من هو الرجل المثقف ؟ » (ص ٣٣ ، الهامش) ، وعثرنا فيها على هذه السطور التي قد تكون فائدتها عميقة بالنسبة الى السيد « ن ـ ون »

> « كان عالم عربي يقول لتلامذته اذا أخبركم امرؤ ما بأن قوانين الرياضيات خاطئة ، وبرهانا على ذلك حول عصاه الى أفعى ، فلا تعتبروا مثل هذا البرهان مقنعا ». ان هذا المثال نموذجي ؛ ان الرجل المثقف سوف يرفض هذا النوع من البراهين ، حتى اذا كان ، على خلاف العالم ، جاهلا بقوانين الرياضيات ولسوف يقول ان تحويل العصا الى افعى معجزة غير عادية ، لكنه لا يترتب عليه أن قوانين الرياضيات خاطئة ومن جهة ثانية فانه لا يمكننا أن نرتب في أن الناس غير المثقفين سوف يضعون كل قناعاتهم ومعتقداتهم عند قدمي صانع المعجزات »

* [ان الكلمة الروسية proizvoditel (المنتج) تعني الحصان أيضا] .

ولعل احد تلامذة الحكيم العربي كان يملك معارف أوسع في الرياضيات ، بينما تلميذ آخر دونه في هذا المجال لكن الامر الذي لا ريب فيه هو أن أيا من هؤلاء التلامذة ما كان ليرتمي على قدمي صانع المعجزات لماذا ؟ لانهم جميعا تعلموا في مدرسة جيدة ؛ لان الشيء الاساسي هنا ليس حجم المعارف ، بل وجهة النظر التي لا يؤدي تحول العصا الى أفعى ، انطلاقا منها ، الى الغاء الحقائق الرياضية أتفهم ذلك يا سيد « ن ـ ون » ؟ نرجو ذلك ، لانه بالغ البساطة ، وبدائي جدا واذا كنت قد فهمت فلا بد أن ترى بنفسك أن ما يقوله السيد بلتوف عن وجهة النظر ، الح لا يلغي ما يقوله ايضا عن ضرورة التمسك بأرضية الواقع

لكننا نخشى مع ذلك الا تكون قد فهمت الموضوع فلنقدم اليك مثالا آخر اذن مهما تكن معارفك الاقتصادية ، فلا بد أنها تتجاوز معارف السيد « ف.ف » ولكن هذا لا يمنعكما مع ذلك من التمسك بوجهة النظر ذاتها فكلاكما طوباويان وان من يرغب في وصف آرائكما المشتركة سوف يترك جانبا الفوارق الكمية في معارف كل منكما ويقول ان الشيء الاساسي هو وجهة النظر التي استعارها هذان المؤلفان من طوباويي ما قبل الطوفان

ولا بد أن يكون واضحا لك الآن ، يا سيد « ن ـ ون » ، انك اخطأت حين ارتبت في أن السيد بلتوف لجأ الى الطريقة الذاتية واخطأت الهدف بصورة واضحة .

ومهما يكن من شيء ، فلنكرر الامر بعبارات أخرى. فمهما اختلف تلامذة ماركس الروس في سعة معارفهم فان أيا منهم ، اذا ظل صادقا مع نفسه ، لن يصدقك ، أو يصدق السيد « ف.ف » حين تؤكدان أن « المجتمع » ـ كائنا ما كان ـ سوف ينظم الانتاج عندنا ان وجهة نظرهم تمنعهم من القاء معتقداتهم عند أقدام صانعي المعجزات الاجتماعيين*

يكفي هذا لكن ما دمنا تطرقنا الى الطريقة الذاتية فلنلاحظ بأي احتقار يعاملها السيد « ن ـ ون » واذا صدقناه ، فان هذه الطريقة لا تنطوي على ذرة من العلم بل تلتف فحسب بمعطف « يسبغ عليها » مظهرا « علميا » رائع ، يا سيد « ن ـ ون » لكن ما عسى أن يقول السيد ميخائيلوفسكي ، « الوصي » عليك ؟.

وعلى العموم فان السيد « ن ـ ون » يتعامل بوقاحة تامة مع « الاوصياء » الذاتيين عليه ان مقالته « دفاع عن سلطان المال من حيث هو علامة العصر » (١١) يحمل هذا التصدير L'ignoramce est moins éloignée de la vérité que le Préjugê ** ومما لا ريب فيه أن الحقيقة هي السيد « ن ـ ون » شخصيا ؛

---

* فلاشر مرة اخرى الى كلمة نيورباخ التي أوردتها أعلاه ان وجهة النظر هي التي تميز الانسان من القرد هامش لطبعة عام ١٩٠٥]

** [الجهل أقل بعدا عن الحقيقة من المسبق]

وهذا مايقوله : « ان من يتبع دون لف او دوران الطريقة الذاتية في الاستقصاء يستطيع أن يكون على يقين تام من انه سيتوصل الى نتائج قريبة ان لم تكن مماثلة للنتائج التي توصلنا اليها » (**الرسول الروسي** ، آذار ، ص ٥٤) أما المستبق ، فمن المؤكد انه السيد ستروفه الذي توجه الحقيقة ضده ابرة « تحليلها » لكن من هو الجهل ؟ الاقرب الى الحقيقة (يعني الى السيد « ن ــ ون ») مــن المستبق (يعني السيد ستروفه) ؟ الجهل هو بكل تأكيد حلفــاء السيد « ن ــ ون » الذاتيون الحاليون رائع ، يا سيد « ن ــ ون » لقد أصبت نقطة الضعف عند حلفائك لكن ، مــرة أخرى ، ما عسى أن يقول السيد ميخائيلوفسكي عنك ؟ من المؤكــد انه سيتذكر حكمة الخرافــة الشهيرة

بالرغــم من أن المعونة زمن الحاجة غالية القيمة ،
فــلا يعرف جميع الناس كيف يمنحونهــا

لكن كفانا جدالا ! اننا نعتقد اننا لم نترك أي اعتراض لخصومنا دون رد عليه واذا أغفلنا صدفة أيا مــن هــذه الاعتراضات ، فمن المؤكد انه سوف تسنــح لنــا مناسبات عديدة للعودة الــى مناظرتنا ولــذا فان في مقدورنا ان نضع القلم جانبــا لكن قبل أن نستأذن ، فاننا سوف نقول كلمتين أخريين لخصومنا

انكم « تسعون جهدكم » أيها السادة من أجل الخلاص من الرأسمالية ، لكــن انظروا فقط الى ما يجري ان الرأسمالية تواصل طريقها دون أن تهتم « بجهودكم » مطلقا ، بينما « مثلكم العليا » ونواياكم الطيبة تتركــم تراوحون في مكانكم ولاي غرض ؟ لــن يكون ذلك في مصلحتكم ، ولا في مصلحة أي امرىء آخر ! ما عسى أن يكون السبب في ذلك ؟ السبب في ذلك أنكم طوباويون ، افتتانكم بخططكم **الطوباوية** عــن الاصلاح الاجتماعــي ، وعماكم عــن القضايا الفورية والملحة التــي تقــع تحت انوفكم ــ ونعتذر عن هذه الصيغة فكروا مليا في الموضوع ولعلــكم تعترفون اذن اننا على حق . وعلى أي حــال ، فسوف نتحدث في هذا الموضوع في فرصة أخرى . وفي هــذه الاثناء ليحفظكم الرب ــ امين

❋ ❋ ❋

جورج بليخانوف

ودوره في

الدفاع عن الفلسفة الماركسية وتفسيرها

بقلم

فيرا فومينا

ان جورج بليخانوف ، الأسبق بين الماركسيين الروس ، مفكر وداعية من المرتبة الاولى اشتهر في روسيا والخارج منذ السنوات العشرين الاخيرة من القرن التاسع عشر بدراسات مرموقة عن نظرية الماركسية وتاريخها لقد دافع بليخانوف في مؤلفاته عن مذهب ماركس وانجلز وشرحه ونشره على نطاق شعبي ولقد أعد وشخص بعمق مسائل الفلسفة الماركسية ، وبالاخص في مجال نظرية المادية التاريخية دور الجماهير والفرد في التاريخ ، والتفاعل بين القاعدة والبنية الفوقية ، ودور الايديولوجية ، الخ ولقد فعل بليخانوف الشيء الكثير من أجل تفسير الجمالية الماركسية وتطويرها

ان أفضل دراسات بليخانوف المتعلقة بتاريخ الفكر الفلسفي والجمالي والفني والاجتماعي وبصورة خاصة تاريخ المادية وتاريخ الفلسفة الروسية ، قد شكلت اسهاما هاما في تقدم الفكر العلمي والثقافة

وكان لينين يضع بليخانوف في عداد الاشتراكيين الذين يملكون المعرفة الفضلى عن الفلسفة الماركسية ، وكان يؤكد ان اعماله الفلسفية هي الفضلى في الادب الماركسي لجميع البلدان

ان جداراته الشخصية عظيمة في الماضي ففي عشرين سنة ، من ١٨٨٣ حتى ١٩٠٣ كتب قدرا من الاعمال الممتازة ، بصورة خاصة ضد الانتهازيين والماخيين والشعبيين* لقد خلف بليخانوف ارثا فلسفيا ثريا جدا يخدم اليوم أيضا في الدفاع عن النظرية الماركسية وفي نضال البروليتاريا ضد الايديولوجية البورجوازية الرجعية

ان أوائل النشاط السياسي والاجتماعي والادبي والنظري لجورج بليخانوف يتطابق مع نضوج الوضع الثوري في روسيا الذي حدث في أواخر المرحلة ١٨٧٩ - ١٨٨٠

ان الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) التي انتهت لتوها قد جلبت للشعب الروسي قدرا كبيرا من الاختبارات القاسية ، لقد عرت الحرب الآفات الفعالة التي يعاني النظام منها ، من الحكم التعسفي والابتزاز الى التبديد الهائل لاموال الدولة والتموين السيء للقوات العسكرية ، وجميع عيوب الجهاز العسكري والاداري وكان ذلك كله يقوي من تصاعد الاستياء عند الجماهير التي كانت تتحمل العبء الثقيل للقيصرية والملاكين العقاريين الكبار والرأسماليين

---

* لينين **المؤلفات الكاملة** المجلد العشرون ص ٢٧٦ المنشورات الاجتماعية ، باريس ، والمنشورات في اللغات الاجنبية • موسكو ١٩٥٩

وكانت الرأسمالية قد اصبحت في تلك الاثناء النظام الاقتصادي السائد في روسيا فبعد اصلاح عام ١٨٦١ حلت علاقات الانتاج البورجوازية محل العلاقات الاقطاعية ان الرأسمالية قد انزرعت في الصناعة ، وكانت تتغلغل عميقا اكثر فأكثر في الريف ، مستتبعة انشقاقا في طبقة الفلاحين ان نزع ملكية الفلاحين قد خلق جيشا من المأجورين الاحرار من أجل الصناعة ومن أجل الملكية العقارية الرأسمالية الكبيرة وان بقايا نظام الرق في الانتاج الزراعي ، يشجعها النظام ، قد كانت تؤخر نمو قوى الانتاج بابقائها عناصر من الاقتصاد الطبيعي في بعض ارجاء البلاد لقد كانت الرأسمالية تشق ببطء والم طريقها في الاقتصاد الريفي ، دون أن تمس طوال عشرات عديدة من السنين سيطرة السيد وفي ريف ما بعد الاصلاح كانت تسود الملكية الصغيرة المجزاة وقليلة الانتاجية لطبقة الفلاحين المنشأة لحسابها ان البلاد قد ظلت زراعية بصورة جوهرية

وكان تقدم الرأسمالية ، مع بقاء سلطة الملاكين العقاريين الكبار على حالها ، يزيد من خطورة التضاد المحتد باستمرار بين الجماهير الكادحة والطبقات الحاكمة

ان القسم الاعظم من طبقة الفلاحين ، الخاضع للنير المزدوج لنظام الرق والرأسمال ، قد كان يعاني من نقص الاراضي ، ومن بقايا نظام الرق والاستثمار الرأسمالي كانت طبقة الفلاحين تتعرض للدمار وللاملاق وفي هذه الاوضاع استعادت الحركة الفلاحية ضد الملاكين العقاريين الكبار قوة جديدة ابتداء من عام ١٨٧٥ بعدما وهنت قيلا بين ١٨٦٥ و ١٨٧٠

وكان وضع الطبقة العاملة بالغ القسوة أيضا لقد كان الاستثمار الرأسمالي الذي لا يعرف الحدود ، والاجور الواطئة ، وانعدام أي تشريع من أجل حماية العمل ، وحظر تشكيل الروابط العمالية ، والتعسف البوليسي ، تثير الاستياء والاضطرابات. وحوالي عام ١٨٧٥ ظهرت الروابط العمالية السرية الاولى ـ « اتحاد عمال روسيا الجنوبية » و « اتحاد العمال الروس في الشمال » اللذان كانا يسعيان الى تنظيم الحركة العمالية العفوية

لقد كانت الحركة العمالية تتطور بصورة مستقلة عن الاتجاه الذي كان سائدا في حركة التحرر المذهب الشعبي الثوري الذي انجب جماعة « الارض والحرية » ان المذهب الشعبي للمرحلة ١٨٧٠ ـ ١٨٨٠ قد تطور تحت تأثير الافكار الديموقراطية الثورية لبييلنسكي وهرتزن وتشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف ومهما تكن نقائص نظرية هؤلاء الشعبيين الثوريين فقد لعبوا دورا هاما في حركة تحرير البلاد لقد قاتلوا بكل نكران للذات في سبيل تحرر الفلاحين وفي سبيل الغاء الحكم المطلق وامتيازات النبالة ؛ ولقد بذلوا قصارى جهدهم من أجل استنهاض الفلاحين ضد الحكومة القيصرية ان حركة ارادة الشعب تسجل النقطة القمية للنضال السياسي الذي خاضه الشعبيون الثوريون ضد الملاكين العقاريين الكبار وضد

القيصرية خلال الفترة ١٨٧٠ ـ ١٨٨١ ولقد قدر ماركس وانجلز تقديرا عاليا بطولة الثوريين المنتسبين الى « ارادة الشعب » واخلاصهم في خدمة الشعب فقد سجلا صعود الازمة الثورية الروسية وان مركز الحركة الثورية اخذ ينتقل الى روسيا وفي عام ١٨٨٥ ، في مقدمة الطبعة الروسية **لبيان الحزب الشيوعي** (الذي ترجمه بليخانوف) ، اكدا على ان « روسيا هي في طليعة الحركة الثورية في أوروبا »

ان علاقات الثوريين الروس مع الحركة الثورية في أوروبا الغربية قد توثقت بعد الاصلاح فانطلاقا من منتصف القرن التاسع عشر وخلال نصف قرن تابعت روسيا الثورية بكل انتباه تطور الفكر النظري في أوروبا وتمثلت التجربة الثورية لشغيلة البلدان الغربية ان العناصر التقدمية في روسيا قد اطلعت على مؤلفات ماركس وانجلز ان **بيان الحزب الشيوعي** قد ترجم للمرة الاولى عام ١٨٦٩ ، والمجلد الاول من **رأس المال** في ١٨٧٢ ولقد كان الشعبيون الثوريون (بيوتر لافروف وغيرمان لوباتين وفيرا زاسوليتش وآخرون كثيرون أيضا) يراسلون بانتظام ماركس وانجلز بخصوص مسائل الوضع الاقتصادي والسياسي في روسيا ، وحركة التحرر الروسية ، وأفكار الاشتراكية

ولقد انضم بليخانوف في اوائل نشاطه السياسي الى الرابطات الشعبية الثورية.

ولد جورج فالانتينوفيتش بليخانوف في ١١ كانون الاول ١٨٥٦ في غودالوفكا ، وهي قرية من ناحية ليبيتسك ، في حكومة تامبوف وكان أبوه ، فالانتان بتروفيتش بليخانوف ، سيدا ريفيا صغيرا وان والدته ، ماري فيدورفنا التي كانت قريبة لبيلنسكي وكانت تقدمية الميول ، قد مارست تأثيرا عظيما في ابنها وبعدما أتم بليخانوف دروسه في المدرسة العسكرية في فورونيج ، واظب خلال بضعة أشهر من عام ١٨٧٣ على الدروس في مدرسة قسطنطين في بطرسبورغ من أجل صف الضباط النبلاء ، ومن ثم انتسب الى مؤسسة المناجم عام ١٨٧٤

وفي عام ١٨٧٦ انتسب بليخانوف الى حلقة من « المشاغبين » انصهرت فيما بعد مع « الارض والحرية » ولقد كان في عداد منظمي المظاهرة السياسية الاولى في روسيا ، وهي المظاهرة التي جرت عام ١٨٧٦ في ساحة كاتدرائية قازان ، في بطرسبورغ ، والتي اشترك فيها للمرة الاولى عمال من العاصمة ولقد القى في هذه المظاهرة مرافعة لاهبة ضد القيصرية وتأييدا لافكار تشيرنيشيفسكي الذي كان منفيا الى سيبريا في ذلك الحين ولسوف يعيش ابتداء من ذلك الحين في السرية ان مكتبة بطرسبورغ العامة (حاليا مكتبة سالكتوف ـ شتشيدرين) قد أصبحت الجامعة التي سوف يتخرج فيها الملجأ حيث يستطيع أن يعمل

وكان بليخانوف منذ شبابه معجبا متحمسا بتشيرنيشيفسكي وبيلنسكي اللذين كان يعتبرهما معلميه ومربييه الحقيقيين ان مقالات بيلنسكي قد أثرت فيه بثروة افكارها وكان نبل طموحات تشيرنيشيفسكي وبطولته الثورية يلهمانه الحزم

على النضال في سبيل قضية الشعب وليس من قبيل الصدفة أن يكرس بليخانوف فيما بعد عددا كبيرا من مؤلفاته لممثلين بارزين للديموقراطية الثورية الروسية مثل بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي وهرتزن ودوبروليوبوف

كان بليخانوف في السنوات الاولى من نشاطه احد منظري المذهب الشعبي وقد « مضى الى الشعب » في مناسبتين ، بوصفه داعية شعبيا ، كي يهيىء عصيانه ، ذلك انه كان يؤمن بامكانية الانتقال الى الاشتراكية بواسطة الثورة الفلاحية وفي الوقت نفسه كان يهتم اهتماما عظيما بما كان يسميه « القضية العمالية » لقد كان يوجه حلقات من العمال ، ويخطب في اجتماعات عمالية ويساعد في تنظيم الاضرابات وينشر مقالات او معلومات في مجلة **الارض والحرية** ويحرر نداءات ومنشورات عن الاضطرابات العمالية والاضرابات ويدعو العمال الى النضال وكان الاحتكاك بالعمال بالغ الخصب بالنسبة اليه فقد هيأه ليفهم الدور التاريخي للطبقة العاملة في الحركة الثورية ان الفهم الواضح لهذا الدور والانتقال الى مواقع البروليتاريا الثورية قد اصبحا ممكنين بعد عام ۱۸۸۰ في اعقاب الدراسة العميقة التي قام بها بليخانوف عن الماركسية والحركة العمالية في أوروبا الغربية

وبعد مقتل الكسندر الثاني عام ۱۸۸۱ من قبل الشعبيين الذين يقودهم أندريه جيليابوف وصوفيا بيروفسكايا دشن عهد الكسندر الثالث سنوات من الرجعية القاتمة ان موجة الارهاب الثوري للمذهب الشعبي قد ردت كما سحق المذهب الشعبي الثوري ، فتفسخ بعد عام ۱۸۹۰ الى حركة ليبرالية تبشر بالمصالحة مع القيصرية والتخلي عن النضال الثوري

ولقد اعتقل بليخانوف في مناسبتين عام ۱۸۷۷ وعام ۱۸۷۸ لنشاطه الثوري وفي عام ۱۸۸۰ اضطره اشتداد القمع الى الهجرة واصبح بين ۱۸۸۲ و ۱۸۸۳ ماركسيا راسخ القناعة ، وحوالي عام ۱۸۹۰ اتصل بأنجلز بصورة مباشرة

وفي جنيف عام ۱۸۸۳ ، أسس بليخانوف وفيرا زاسوليتش ودوتش واكسيلرود واغناتوف الرابطة الماركسية الروسية الاولى جماعة « تحرير العمل التي حددت كمهمة لها نشر الاشتراكية العلمية بترجمة مؤلفات ماركس وانجلز الى الروسية وبنقد النظريات الشعبية التي كانت سائدة آنذاك في روسيا ، وذلك من وجهة نظر ماركسية ان جماعة « تحرير العمل » قد قدمت قاعدة نظرية للاشتراكية الديموقراطية الروسية واسهمت حتى درجة كبيرة في تطوير الوعي السياسي عند الطليعة العمالية في روسيا

ويشير لينين الى أن منشورات جماعة « تحرير العمل » ، وهي طبعت دون الرقابة في الخارج قد كانت المنشورات الاولى التي عرضت الافكار الماركسية بصورة منهجية وبجميع النتائج العملية المترتبة عليها*

* **المؤلفات الكاملة** ، المجلد العشرون ، ص ۲٥٧

وفي نيسان من عام ١٨٩١ ، ذهب لينين الى الخارج كي يتصل بجماعة « تحرير العمل » بهدف توحيد العمل الثوري للماركسيين الروس وكان لقدوم لينين اهمية كبيرة من اجل الحركة العمالية الروسية ، لأن جماعة « تحرير العمل » باتت من جراء ذلك على اتصال منتظم بروسيا للمرة الاولى

ان بليخانوف الذي كان مقيما في المهجر (عاش في فرنسا وسويسرا وايطاليا) والذي كرس نفسه لنشر افكار ماركس وانجلز الثورية ، قد قام بنشاط عظيم جدا بوصفه داعية ، كما القى محاضرات وعروضا في مواضيع مختلفة. وفي عام ١٨٨٢ ترجم **بيان الحزب الشيوعي** لماركس وانجلز ، كما اصدر عام ١٨٩٢ الترجمة الروسية الاولى (المزودة بتعليقات غزيرة) لكراسة انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ولقد ترجم فصلا من كتاب ماركس وانجلز **العائلة المقدسة** المعركة النقدية ضد المادية الفرنسية

وبعد عام ١٨٨٠ بوقت قصير باشر بليخانوف نشر دراسات أصيلة مرموقة عن نظرية الماركسية الثورية ، وهي الدراسات التي خدمت في تعليم وتثقيف الماركسيين الروس

ان كالينين تلميذ لينين ورفيقه في السلاح ، قد حدد بصورة جيدة جدا دور بليخانوف خلال هذه المرحلة

في عهد من الرجعية المظلمة حين كان العامل المتوسط لا يتوصل الى الحصول على التعليم الابتدائي الا لقاء جهود رهيبة ، كانت منشورات سرية يعود الفضل فيها الى جورج بليخانوف متداولة منذ ذلك الحين في الحلقات العمالية

« وكانت هذه الكتب تفتح عالما جديدا امام الطبقة العاملة وكانت تدعوها الى النضال في سبيل مستقبل افضل وكانت تعلمها اسس الماركسية في شكل بسيط ، واضح وفي متناول الجميع وكانت تبث فيها ، بفعل ما تلهمه من ايمان بالنصر الاخير الذي سوف تحققه المثل العليا للطبقة العاملة ، القناعة بان بروليتاريا منظمة سوف تكنس دونما جهد جميع العوائق وجميع المصاعب التي تنتصب في طريقها*

وحوالي عام ١٨٩٠ كان بليخانوف يحتل مكانا بارزا بين الاشتراكيين في أوروبا الغربية وفي اميركا ، وكان يتمتع بشهرة دولية على اعتباره منظرا للماركسية ومناضلا في الحركة العمالية ولقد مثل طوال سنوات الحركة العمالية الاشتراكية الديموقراطية في روسيا في مكتب الاممية الثانية التي كان يجعله على اطلاع دائم على الوضع في روسيا ولقد اشترك بنصيب هام في النشاط السياسي للاحزاب الاشتراكية الالماني والسويسري والفرنسي والايطالي وكذلك في اعمال مؤتمرات الاممية الثانية وامانة سرها

---

* ازفستيا بلدية بتروغراد ، الدد ٤٠ ، ١٢ حزيران ١٩١٨

ولقد كتب جملة من المقالات في مواضيع روسية واممية ، وتقارير يضم مجموعها دائرة واسعة من القضايا السياسية والاقتصادية والفلسفية التاريخية والادبية والفنية وان معظم هذه المقالات قد نشرت في مطبوعات سرية في روسيا وفي الصحافة الاشتراكية في المانيا وبلغاريا وسويسرا وفرنسا وايطاليا وبولونيا ، الخ .

ولقد كان للنقد الذي قام بليخانوف به للفوضوية والفوضوية النقابية اهمية كبرى في النضال الايديولوجي من اجل اقامة اساس نظري للحركة العمالية الاممية

فمنذ عام ١٨٨٠ ، حين كانت نظريات باكونين الفوضوية تمارس تأثيرا عظيما في السبيبة المثقفة في روسيا، نهض بليخانوف ضد الفوضوية وضد تكتيكها المغامر. ومهما يكن من امر فانه يترك في الظل في نقده للافكار الفوضوية مسألة موقف الثورة البروليتارية من الدولة ، وكذلك مسألة الدولة عامة ، الامر الذي سيعود عليه بانتقادات لينين

ولم يوجد بين الماركسيين في اوربا الغربية من رفع راية النضال ضد البرنشتاينية ، فأخذ بليخانوف هذا الامر على عاتقه ولقد انتقد كذلك انتهازية بعض الاشتراكيين مثل ميليدان وبيسولاتي ، كما يعرف الجميع معرفة جيدة المعركة التي خاضها في روسيا ضد التيار الانتهازي المسمى « المذهب الاقتصادي » وضد الصورة البورجوازية المحرفة عن الماركسية المسماة « الماركسية الشرعية » ولقد فعل كذلك الشيء الكثير من اجل كشف القناع عن الاشتراكيين الثوريين ، وبصورة خاصة تكتيكهم القائم على الارهاب الفردي

وفي سياق نضاله ضد التيارات المناهضة للماركسية خلال السنوات العشرين الاخيرة من القرن الماضي منح بليخانوف اهتماما كبيرا للدعاية لافكار الاشتراكية العلمية والمذهب الاقتصادي الماركسي وكيما يعرّف الاشتراكية العلمية ، فانه يعارضها بانظمة الاشتراكية الطوباوية لروبرت اوين وسان سيمون وفوريه ، والاشتراكية البورجوازية الصغيرة لبرودون والشعبيين والفوضويين ، الخ ان اعمالا من نمط **اوغستان تييري والتصور المادي عن التاريخ ، والاشتراكية المعاصرة ، والاشتراكية العلمية والدين ، والوقائع الاممية ، ومقدمة لاربعة خطابات عمالية،والوقائع الداخلية،** الخ هذا كي لا نتحدث عن كتبه المعروفة جيدا ضد المذهب الشعبي ، والفوضوية ، و « المذهب الاقتصادي » ، والبرنشتاينية والستروفية ، تبين ان بليخانوف درس بصورة عميقة قضايا الاشتراكية العلمية

ويدافع بليخانوف في المؤلفات الموجهة ضد الخصوم البورجوازيين عن عقيدة ماركس الاقتصادية بتحليل الجوهر الاجتماعي لافكار المؤلفين الكلاسيكيين للاقتصاد السياسي البورجوازي مثل آدم سميث وريكاردو ، ويبرز بصورة خصوصية العنصر الثوري في النظرية الماركسية عن فضل القيمة والراسمال .

لقد لعب بليخانوف دورا كبيرا في حياة الماركسيين من الجيل القديم ، وكان نفوذه عظيما جدا في هذه المرحلة في الاوساط الثورية في روسيا

وحوالي عام ١٩٠٠ دخلت الراسمالية عهدا جديدا من تطورها ، عهد الامبريالية، عهد الانقلابات والمعارك الثورية الذي يتطلب اعادة النظر في طرق العمل القديمة ، وتحولا عميقا في نشاط الاحزاب الاشتراكية الديموقراطية ، وتطويرا خصبا للنظرية الماركسية وفقا للشروط التاريخية الجديدة .

ومع بقاء بليخانوف مناضلا نشيطا في الحركة العمالية الاممية ، ومع استمراره في الدفاع عن الماركسية وتفسيرها ، فانه لم يتمكن من ادراك طابع هذه المرحلة التاريخية الجديدة ، ولم يتمكن من اكتشاف قوانينها وخصائصها النوعية،واستخراج العبرة من التجارب الجديدة للحركة العمالية ، وتزويد الطبقة العاملة باقتراحات جديدة ونتائج نظرية جديدة ان تحقيق هذه المهمة التاريخية قد كان من نصيب لينين الذي خطا بالماركسية الى مرحلة جديدة

وفي عام ١٩٠٣ ، بعد المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، اصبح بليخانوف منشفيا ان انتقاله الى المواقع المنشفية ، وتناقضاته في النظرية والممارسة الماركسيتين في هذه المرحلة من نشاطه ، مردها حتى درجة كبيرة الى نفوذ الاصلاحية التي كانت شديدة الانتشار في الحركة العمالية في اوروبا الغربية وحين اصبح بليخانوف منشفيا حارب لينين والبلاشفة في مسائل سياسية هامة من الماركسية دور البروليتاريا وتكتيكها في الثورة ، والعلاقات مع طبقة الفلاحين ، والحكم الواجب اصداره على ثورة عام ١٩٠٥ ، ومشاكل الدولة ، الخ ولقد ترتبت على انتقال بليخانوف الى المنشفية اخطاء نظرية خطيرة في الفلسفة لقد كف بليخانوف عن كونه ماركسيا منطقيا مع نفسه في مجموعة من المسائل

لكن بليخانوف ظل ، دون ان يتخلى عن وجهات النظر المنشفية في مسائل جوهرية من سياسة الطبقة العاملة وتكتيكها ، متمسكا ببقاء الحزب فمن عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩١٢ كافح دعاة التصفية ، ودافع عن منظمة الحزب السرية ، وايد لينين في نضاله من اجل الحزب

وفي عام ١٩١٢ وقف ضد مؤتمر آب الذي عقده دعاة التصفية ، وهو ما يؤكد لينين عليه حين يكتب ان بليخانوف قال بكل صراحة ان ذلك المؤتمر انما هو مؤتمر « عناصر لا حزبية ومناهضة للحزب* »

ومن عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٢ ، حينما كان البلاشفة يخوضون بقيادة لينين معركة حاسمة ضد الماخية ، كان بليخانوف المنظر الوحيد من الاممية الثانية الذي كتب مقالات ضد بوغدانوف ولوناتشارسكي ، وفضح شولياتيكوف على اعتباره

---

* لينين ، المؤلفات الكاملة ، باريس ـ موسكو ، المجلد السادس والثلاثون ، ص ١٨٤ .

مبسطا للماركسية ، الخ وفي تلك الفترة كتب **المسائل الاساسية للماركسية** ، وهو مؤلف عظيم القيمة انتقد فيه بعنف بنيديتوغروتشه وماح وافيناريوس وبيتزولدت وفندلباند وريكرت وبرغسون ونيتشه وفلاسفة وعلماء اجتماع بورجوازيين آخرين عديدين مدافعا في الوقت نفسه عن الاسس الفلسفية للماركسية وفي هذه المرحلة دافع عن التقاليد المادي والتحرري للفكر الروسي التقدمي ضد « الباحثين عن الدين وضد حركة **فيخي** لكنه يصبح بعد عام ١٩١٢ نصيرا « للوحدة » مع دعاة التصفية ويكتب لينين: من المؤسف ان يسوّد حاليا الجدارات الكبرى لنضاله ضد دعاةالتصفية في فترة النكبة ونضاله ضد الماخيين عندما كانت الماخية في اوجها وذلك بموعظة لا يستطيع هو نفسه تفسيرها مع من الوحدة اذن ؟ وباية شروط ؟*

وخلال الحرب العالمية الأولى ايد بليخانوف وجهة نظر الاشتراكية الشوفينية وبعد الثورة الديموقراطية البورجوازية في شباط ١٩١٧ بعد سبع وثلاثين سنة من الاغتراب رجع الى روسيا واقام في بتروغراد

ان كل هذه السنين التي قضاها بليخانوف في الخارج فصلته عن الحركة الثورية الروسية وحين عاد الى روسيا ظل اسير اصلاحية وشوفينية الاممية الثانية ولم يتمكن من تبين التعقيد الكبير جدا الخاص بتطور روسيا الاجتماعي وان الخطاب الذي القاه ضد التوجه اللينيني نحو الثورة الاشتراكية معروف جدا انه يحكم على الثورة الروسية انطلاقا من عقائد الاممية الثانية المتعلقة بضرورة النضوج البطيء للشروط الاقتصادية » للاشتراكية و المستوى العالي للثقافة الذي يزعم انه ضروري من اجل الانتقال الى الاشتراكية ، الخ ولقد كان يرى ان ثورة شباط لعام ١٩١٧ يجب ، من حيث هي ثورة بورجوازية ، ان تسجل نقطة الانتقال من اجل مرحلة من تطور الرأسمالية في روسيا ولذا عارض ثورة اوكتوبر التي كان يرى فيها « انحرافا عن جميع قوانين التاريخ ومهما يكن من شيء فان بليخانوف، مع استمراره في انكار ضرورة الثورة الاشتراكية الفورية في روسيا ، لم يحارب مطلقا الطبقة العاملة الظافرة وجمهورية المجالس السوفييتية ولقد مات في ٣٠ ايار من عام ١٩١٨ في مصح بيتكاجارفي في فنلنده ، ودفن في لينينغراد في مقبرة فولكوف ، قرب مدفني بيلنسكي ودوبروليوبوف

***

ان انتشار الماركسية في الطبقة العاملة وفي الانتليجنتزيا التقدمية في اواخر القرن التاسع عشر قد عاكسه تغلغل النظريات البورجوازية ضد الماركسية الى الحركة العاملة والحركة الثورية وفي الغرب لم يكن جامعيون بورجوازيون مثاليون

* لينين **المؤلفات الكاملة** ، باريس ـ موسكو ، المجلد السادس والثلاثون ، ص ٢٦٩ .

والنقائيون برانتانو وسومبارت وشونره — غوفرينتز) الوحيدين الذين يناهضون الماركسية الثورية ، بل منظرو الاممية الثانية الذين يتأثرون بهم ايضا برنشتاين وكاوتسكي وهوخبرغ وآخرون وفي روسيا حيث كانت مؤلفات ماركس وانجلز معروفة بصورة ضئيلة بعد في نصها الاصلي لم يكن العمل على نقد الماركسية من وجهة نظر بورجوازية ، وتسفيهها واسقاط اعتبارها سرا او علنا ، مقتصرا على الايديولوجيين الرسميين للنظام والجامعيين والمنتسبين الى البورجوازية الليبرالية ، بل لقد شمل الشعبيين الليبراليين والماركسيين الشرعيين ايضا

وفي هذه الشروط كان لمؤلفات بليخانوف الماركسية للمرحلة ١٨٨٠ — ١٩٠٠ اهمية بالغة سواء انشرت في الصحافة الروسية ام في الصحافة الاجنبية ، لانها كانت تدافع عن افكار الماركسية وتعرض وتبرز اهمية المضمون العلمي والثوري للماركسية

ان بليخانوف الذي كان يؤمن بلا تحفظ بانتصار افكار الماركسية قد خاض النضال بجراة واقدام ضد جميع اولئك الذين كانوا ينتقدون الماركسية ويشوهونها لقد كان السباق في روسيا الى تقدم تحليل ماركسي لامع لاخطاء الشعبيين والى مناهضة الطوباويات الشعبية بالفلسفة الماركسية وبيان الدور التاريخي للطبقة العاملة الروسية وبهذه الطريقة توجيه ضربات قاسية الى الشعبيين

وكان لينين يقدر تقديرا عاليا **الاشتراكية والنضال السياسي** (١٨٨٣ الذي كان يسميه « دستور الايمان الاول* للاشتراكية الروسية وانا لنجد في هذا الكتاب الى جانب النقد النافذ للنظريات الاشتراكية المثالية،عرضا براقا للاشتراكية العلمية لماركس وانجلز ان هذا المؤلف يسلط النور على المعنى العميق للقول المأثور جيدا للماركسية ان كل صراع طبقي هو صراع سياسي وانه ليعالج ضرورة الربط بين النضال الثوري في روسيا وبين الاشتراكية العلمية المفهومة جيدا

ولقد ترجمت هذه الكراسة بعد عام ١٨٩٠ الى البولونية والبلغارية

وان **خلافاتنا** (١٨٨٥) **ودراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** (١٨٩٥ مثلهما مثل **الاشتراكية والنضال السياسي** ، قد شقا الدرب امام انتصار الماركسية في روسيا ، وكانا في عصرهما مؤلفين نظريين كبيرين للماركسية الروسية

ان بليخانوف يقوم في هذه المؤلفات للمرة الاولى في روسيا بتطبيق اصيل للماركسية على تحليل العلاقات الاقتصادية في روسيا ما بعد الاصلاح ؛ انه يبرز فيها المسلمات التي تشكلت من قبل للحركة الثورية الروسية والمهمات السياسية للطبقة العاملة انه يفضح الطابع الرجعي لافكار الشعبيين المزعومة « اشتراكية » ، هذه الافكار التي لا تملك اية علاقة مشتركة مع الاشتراكية العلمية .

---

* رسالة الى زاسوليتش بتاريخ ٢٣ نيسان ١٨٩٥

ويواصل بليخانوف في **خلافاتنا** نقده للعقيدة النظرية الشعبية بمجموعها ، وبصورة خاصة « النظريات » الاقتصادية للمذهب الشعبي واخطاء هذا المذهب بخصوص المسألة الفلاحية في روسيا ، ويقول لينين في كتابه **من هم « اصدقاء الشعب » وكيف يناضلون ضد الاشتراكيين الديموقراطيين** عن **خلافاتنا** انه « المؤلف الاول الاشتراكي الديموقراطي » بقلم ماركسي روسي ولقد كان انجلز يقدر هذا المؤلف تقديرا عاليا

وفي لندن ، حيث اضطر الى اللجوء بعد طرده من فرنسا عام ١٨٩٤ ، كتب بليخانوف احد افضل كتبه الماركسية ، **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** (١٨٥٥) الذي يقول لينين عنه انه « كون جيلا كاملا من الماركسيين الروس

وفيما يتعلق بالمواضيع المتطرق اليها يجب ان نقرب من هذا المؤلف كتاب **ابحاث في تاريخ المادية** التي كتبها بليخانوف باللغة الالمانية عام ١٨٩٤ ، وقد نشرت في شتوتغارت عام ١٨٩٦ ، ونالت نجاحا عظيما في الخارج والمقالة **بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل** (١٨٩١) المنشورة بالالمانية ايضا (وكان انجلز يعتبرها مقالة مرموقة) ، وكذلك بعض الدراسات الفلسفية المحررة في السنوات التالية

وقد نشر كتاب **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** بصورة قانونية في روسيا تحت الاسم المستعار بلتوف ولقد ادخل بليخانوف الى عنوان الكتاب ، بغرض تضليل الرقابة كما يقول هو نفسه ، عبارة « الاحادية » « الخرقاء عن قصد » دون ان يشير الى التصور التاريخي المقصود ، المادي ام المثالي ولقد سجل انجلز بتاريخ ٣٠ كانون الثاني عام ١٨٩٥ مايلي : « ان كتاب جورج قد خرج في الوقت المناسب تماما* » وفي ٨ شباط ١٨٩٥ كتب الى بليخانوف يقول مهما يكن من امر ، فانه نجاح عظيم أن تتمكن من نشره في البلاد نفسها** وان الكتاب الذي ترجم الى عدة لغات اجنبية قد نال شهرة سريعة

ويؤكد بليخانوف في هذا المؤلف بصورة رئيسية على قضايا التصور المادي التاريخ. وانه ليستهدف في مناظرته مع الشعبيين الليبراليين من امثال ميخائيلوفسكي وكاربيف ان يفضح مثالية علم الاجتماع الذاتي

ان مؤلفات بليخانوف المذكورة اعلاه ، ومثلها كتاباته الأخرى في تلك المرحلة ، تعكس ببريق سعة اطلاعه الماركسي ومعرفته العميقة بتاريخ الفكر الفلسفي والاجتماعي. ان مؤلفاته تبرز التحضير التاريخي للماركسية على اساس الفكر الاجتماعي الطليعي للماضي ، وتبين مصادرها واجزاءها المركبة ، وتوضح القضايا الاهم للمادية الجدلية

---

* رسالة الى زاسوليتش بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٨٩٥

** رسالة الى بليخانوف بتاريخ ٨ شباط ١٨٩٥

والتاريخية ، والاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية وفي النضال ضد المظاهر المختلفة للمثالية ، وبصورة خاصة ضد الوضعية والكانطية ، وكذلك ضد المادية الاقتصادية ، ادخل بليخانوف اشياء كثيرة جديدة واصيلة في حجج الافكار الماركسية لقد شخص مقترحات الماركسية وطورها

ان افضل المؤلفات التي كتبها بليخانوف بين عامي ١٨٨٠ و ١٨٩٥ في مرحلة ازدهار نشاطه الماركسي النظري ، قبل ان يؤسس لينين « اتحاد النضال في سبيل تحرير الطبقة العاملة » ، قد جمعت في هذا المجلد .

***

لقد دافع بليخانوف ، في نضاله ضد المثالية والميتافيزياء والطوباويات الرجعية « الاشتراكية » الشعبية ، عن المادية في الفلسفة والتاريخ ، وابرز الطابع الموضوعي لقوانين التطور الاجتماعي ، وديالكتيكية التطور التاريخي

وكان الهدف الرئيسي الذي وضعه بليخانوف نصب عينيه هو البرهان على ان الماركسية قابلة للتطبيق على الشروط التاريخية لروسيا .

ولقد كان جوهر النظرية الاقتصادية للمذهب الشعبي يستقيم في فكرة تطور غير راسمالي لروسيا ، في مسألة معرفة ما اذا كان « يجب » على روسيا او «لا يجبعليها» ان تجتاز « مدرسة » الراسمالية

لقد كان الذاتيون الشعبيون يعتقدون ان روسيا تسلك طريقا اصيلة فاذاكانت الراسمالية قد « زرعت بصورة مصطنعة » فيها ، فانها لا تشكل الا عرضا طارئا في البنية الاقتصادية الروسية « النوعية » ، وظاهرة انحطاطية ، وتقهقرا الى الوراء ولذا يدعو الواجب الى « تأخير » تقدمها و « ابطائه » ، الى «وضع حد لدمار » الاسس القديمة للحياة الروسية من قبل الراسمالية ولقد كانت وجهة النظر هذه رجعية وكانت تسعى في واقع الامر الى الحفاظ على بقايا العلاقات الاقطاعية لنظام الرق

وكان الشعبيون يحاولون ، في اعتباراتهم عن استحالة تطور الراسمالية في روسيا تشويه آراء ماركس وتلامذته الروس . ومثال ذلك ان ميخائيلوفسكي كان يزعم ان ماركس طبق دونما نقد مخططه التاريخي على روسيا وان الماركسيين الروس استعاروا دونما نقد ايضا « مخططاته السابقة الصنع » ، غير متأثرين بالوقائع التي تبرهن على وجود « طريق نوعية » من اجل روسيا متميزة من الراسمالية لقد كان ميخائيلوفسكي وفورونتسوف وآخرون يزعمون ان الماركسية ، من حيث هي نظرية ، ليست قابلة للتطبيق ضمن بعض الحدود الا على بلدان أوروبا الغربية ، وانه لا يمكن في حال من الاحوال استخدامها في روسيا

ولقدبين بليخانوف بصورة مقنعة، وبصورة مناقضة للاحكام الشعبية عن الماركسية . ان الماركسية قابلة للتطبيق بصورة كاملة على الشروط الاقتصادية والسياسية في روسيا .

وكيما يميط بليخانوف اللثام عن خطل النظرية الاقتصادية للمذهب الشعبي يقارب شروط ظهور الرأسمالية ودورها التاريخي في الغرب بشروط تطورها في روسيا ؛ وانه ليسلط النور على المقدمات العامة لتطور الرأسمالية في البلدان المختلفة، ويستنتج من ذلك انه لا يمكن معارضة روسيا بالغرب وانه ليبين كل العبث الموجود في الخرافة الشعبية عن طابع نوعي لتطور روسيا الاقتصادي واننا لنجد في **خلافاتنا** تحليلا ماركسيا عميقا للعلاقات الاقتصادية في روسيا ما بعد الاصلاح ، وكذلك للتطور الرأسمالي في المدن والارياف وان الكتاب غاص بالوقائع التاريخية والمعطيات الاحصائية التي تسم الميادين المختلفة للحياة الاقتصادية في روسيا وانه ليبين على خير وجه تغلغل الرأسمال الاجنبي في روسيا والتبعية المتعاظمة ابدا للحرافة الصناعية الصغيرة حيال الرأسمال التجاري والتحول البروليتاري للحرفيين وتحول الانتاج الحرفي الصغير الى نظام خاص بالصناعة الكبيرة المنزلية انه يكتب قائلا ان الرأسمالية تواصل طريقها ، طاردة المنتجين الاحرار من مواقعهم المترنحة وخالقة . بنفس الاساليب المجربة في الغرب.جيشا من العمال في روسيا*».

ويبين بليخانوف بصورة لا تقل عن ذلك اقناعا تغلغل الرأسمالية في الزراعة وانحلال المشاعة و اسس المير

ان الشعبيين الذين كانوا يناضلون ضد الرأسمالية من وجهة نظر بورجوازية صغيرة كانوا يرون في المشاعة سورا لا يتزعزع وعقارا ضد سائر ادواء الرأسمالية، واساسا للتحول الاشتراكي في روسيا يتيح اجتناب الرأسمالية واما كانوا يؤمثلون الاشكال السابقة للرأسمالية فقد كانوا يخطئون كل الخطأ في الاحكام التي كانوا يصدرونها عن الواقع ؛ ويقول بليخانوف انهم يعملون بوصفهم ميتافيزيائيين لايفهمون التناقضات الجدلية للحياة لقد كانوا يتحدثون عن انتاج « شعبي » دون تناقضات باطنة ويتصورون الشعب كما لو كان كتلة جامدة لقد كانوا يعتبرون الظواهر التاريخية من وجهة نظر ميتافيزيائية ، بصورة مستقلة عن تطورها وعن تغيرها الفعلي

لقد كانوا يرفضون ان يروا ما يطرأ على المشاعات من ضعف وانحلال ويبين بليخانوف في **خلافاتنا** ، بالاستناد الى حقائق دقيقة ، ان المشاعات الزراعية برهنت على حيوية لا جدال فيها طالما لم تخرج من شروط الاقتصاد الطبيعي ولقد جعلت تتفكك ليس بتأثير ظروف خارجية مستقلة عنها ، بل من جراء اسباب باطنة ، لأن «نمو الاقتصاد النقدي والانتاج السلعي ينسف الملكية المشاعة للارض** »

---

* انظر الصفحة ١٧٥ من هذا المجلد

** انظر الصفحة ١٩٧ من هذا المجلد

لقد كان بليخانوف على قناعة راسخة بان روسيا منخرطة في طريق الراسمالية ليس لأن ثمة قوة خارجية ما او لأن القانون العجيب يدفعها الى ذلك كما كان الذاتيون يتصورون بل لانه لا وجود لقوة باطنة فعلية قادرة على الانحراف بها عن هذه الطريق ولقد كان يرى ان حياتنا الاجتماعية باسرها تتجه نحو الراسمالية

ان النتيجة الرئيسية التي تبرز من تحليل الواقع الروسي تستقيم في ان الانتاج الراسمالي الكبير يمتد يتقدم باستمرار ان الوهم الخاص « بانتاج شعبي عجيب والطوباويات الشعبية الاخرى تتبدد بفعل الحياة بالذات

ويبين بليخانوف في اعماله « ان المشاعة الزراعية تتجه بصورة اساسية، بحكم تنظيمها الباطن الى افساح المكان امام اشكال بورجوازية وليس شيوعية للحياة الاجتماعية »، وان « الدور الذي يخصها دور **منفعل** لا **فاعل** . ذلك انه ليس في مقدورها ان تدفع روسيا في طريق الشيوعية*

ان الجدارة التاريخية العظمى لبليخانوف تستقيم في انه حل من وجهة نظر ماركسية بصورة متوازية مع دراسته لتطور روسيا الاقتصادي مسألة القوى الطبيعية والصراع الطبقي في روسيا لقد كان الشعبيون يؤمثلون «الشعب» وكانوا يعتبرون طبقة الفلاحين من حيث هي القوة الثورية الرئيسية ويغمضون عيونهم عن دور البروليتاريا ولقد كان بليخانوف اول من عارض في روسيا الطوباوية الشعبية بنظرية الدور التاريخي للطبقة العاملة الروسية في النضال من اجل التحرر

لقد كانت وجهة النظر الشعبية تقوم على الفكرة الخاطئة بان الصناعة تكاد لا تتقدم في روسيا ونتيجة لذلك فان الطبقة العاملة التافهة عدديا لن تتطور قدما

ويبين بليخانوف على اساس حجج مقنعة السبب في انه ينبغي للثوريين ان يضعوا آمالهم في البروليتاريا هذه القوة الصاعدة في المجتمع المرتبطة بشكل الانتاج الاكثر تقدما الذي هو الانتاج الصناعي الكبير وليس في طبقة الفلاحين المتفوقة عدديا ، لكن التي لا بد ، في اعقاب نمو الانتاج التجاري. ان تنشطر الى معسكرين متعارضين: اقلية من المستغلين واكثرية من الشغيلة**

لقد كان بليخانوف اول من بين في بلادنا ان الطبقة العاملة هي التي يجب ان تلعب الدور الرئيسي في الثورة المنتظرة في روسيا « ان الطبقة العاملة في مراكزنا الصناعية تستطيع وحدها ان تأخذ مبادرة الحركة الشيوعية وهذه الطبقة لا تستطيع ان تحصل على تحررها الا بجهدها الواعي الخاص***

ان هذا اليقين عند بليخانوف بخصوص المستقبل التاريخي للطبقة العاملة الروسية يتضح بصورة لامعة في خطابه في المؤتمر الاشتراكي الاممي في باريس عام

* انظر الصفحة ٢٨٤ من هذا المجلد

** انظر الصفحة ٢٢٨ من هذا المجلد

*** انظر الصفحة ٢٨٤ من هذا المجلد

١٨٨٩ عندما يعلن « ان الحركة الثورية في روسيا لا تستطيع ان تنتصر الا من حيث هي حركة ثورية للعمال ليس هناك حل آخر ، ولا يمكن ان يكون هناك حل آخر»*

ان بليخانوف يعارض الاقتصاديين المبتذلين الذين لا يعزون الى النظام السياسي سوى اهمية ضئيلة بالمبدأ الماركسي القائل انه حيثما ينقسم المجتمع الى طبقات فان تناقضات المصالح بين الطبقات تؤول بصورة محتومة الى صراعها في سبيل الهيمنة السياسية ولذا كان من قبيل الخطأ ان يوصى العمال بالكفاح على الصعيد الاقتصادي وحده ، مع نسيان المهمات السياسية للطبقة العاملة ويبين بليخانوف ان هذا البرنامج يعادل التخلي عن النضال الطبقي الثوري ، وعن الثورة ، وعن الاشتراكية ان النضال الطبقي النضال السياسي ضد القيصرية والبورجوازية هو الوسيلة الوحيدة التي تتيح حل قضية التحرر التاريخي للطبقة العاملة وان هذا النضال ليتوّج في الثورة التي تشكل التظاهرة الجبارة للصراع الطبقي والوسيلة الاقوى من اجل الحصول على التحول الإقتصادي والاجتماعي للمجتمع

ويناهض بليخانوف الافكار الطوباوية للمذهب الشعبي القائل ان روسيا هي في عشية ثورة اشتراكية لقد كان الشعبيون ينطلقون من الوهم بانه ليس في روسيا بورجوازية ، وبالتالي ان روسيا سوف تتجنب الثورة البورجوازية ، فيما تتوفر ، نظرا لنزوع الطبقة الفلاحية الى الشيوعية ، الشروط الملائمة من اجل ثورة اشتراكية شعبية ويرى بليخانوف ان الاشتراكية مستحيلة بدون مقدمات اقتصادية فالثورة التي يجب ان تحدث في روسيا لا يمكن ان تكون الا ثورة بورجوازية وانه ليعلق في كتاباته الاولى اهمية كبيرة على المسألة الفلاحية ويعتبر امرا ضروريا ان يقوم العمال عندما يحصلون على الحرية السياسية بالعمل الثوري بين الفلاحين وينشروا في الريف افكار الاشتراكية العلمية

لكن بليخانوف ، وهو يعتبر ان طبقة الفلاحين تنحل من حيث هي طبقة ، لم يأخذ بعين الاعتبار ان احدى المهمات الاهم للثورة الديموقراطية البورجوازية في روسيا سوف تكون النضال في سبيل دمار الملكية العقارية الكبيرة وان طبقة الفلاحين يجب ان تلعب في هذا النضال دورا تقدميا عظيما

وكثيرا ما يطرح على بساط البحث ، منذ كتابات بليخانوف الاولى ، انفعالية طبقة الفلاحين ولا مبالاتها السياسية ونزعتها المحافظة ان هذا الضلال يبرهن على ان المؤلف كان يستهين بالافكار الثورية للطبقة الفلاحية ولقد استحالت هذه الاستهانة في وقت لاحق الى معالجة خاطئة ومنشفية لقضية طبقة الفلاحين وموقف الاشتراكية الديموقراطية حيال هذه الطبقة

---

* انظر الصفحة ٣٥٥ من هذا المجلد

وفي بداية المرحلة ١٨٨٠ ـ ١٨٩٠ ، حين لم تكن الحركة الثورية البروليتارية في روسيا الا في مرحلة مضغية بعد ، دافع بليخانوف بصورة لامعة عن النظرية الماركسية ان برنامج العمل الثوري المعروض في **خلافاتنا** يسجل بالنسبة الى ذلك العصر خطوة كبيرة جدا الى الامام في النضال من اجل نشر الماركسية في روسيا ان اعضاء الحلقات الاشتراكية الديموقراطية لبلاغوئييف وتوتشيسكي وبروسنيف ، الذين كانوا يقومون اذن بالعمل العلمي في روسيا في ارتباط مع جماعة «تحرير العمل»، قد كانوا يقدرون اعمال بليخانوف تقديرا عاليا ولقد اكدوا على اهميتها في الدعاية للنظرية الثورية حين كانت قوى التقدم مبعثرة ومترنحة بعد ولقد كانوا يطالبون بان يرسل اليهم « بأسرع وقت ممكن اكبر عدد من الاعداد الممكنة » من **الاشتراكية والنضال السياسي** ومن **خلافاتنا**

كان وضع البرنامج ضرورة ملحة بالنسبة الى الاشتراكيين الديموقراطيين الروس في ذلك العصر ولقد حرر بليخانوف مشروعين لهذا البرنامج ، احدهما عام ١٨٨٤ والاخر عام ١٨٨٧ وكان البرنامج الاول يتضمن مجموعة من الاخطاء : كان يقبل بالارهاب الفردي وعبادة « الابطال » وغير ذلك من بقايا المذهب الشعبي ، وان الحلقات الماركسية في روسيا ، وبصورة خاصة حلقة بلاغوئييف ، قد وجدت ان البرنامج ناقص وكان البرنامج الثاني افضل ، وقد قيل فيه ان هدف الاشتراكيين الديموقراطيين الروس يستقيم في التحرر التام للعمل حيال الرأسمال بفضل تحويل جميع وسائل الانتاج وسائر اغراضه الى ملكية اجتماعية ، وان هذا لن يكون ممكنا الا بنتيجة ثورة شيوعية ويرى لينين في **مشروع برنامج لحزبنا** ان مشروع بليخانوف يتضمن عناصر ضرورية بصورة مطلقة لبرنامج حزب عمالي اشتراكي ديموقراطي*

ان **الاشتراكية والنضال السياسي** ، وكذلك **خلافاتنا** ، قد لعبا دورا تاريخيا كبيرا فبتأثير هذين المؤلفين توجه الماركسيون الروس الاوائل بانظارهم وآمالهم نحو الطبقة العاملة وسعوا لتطوير وعي طبقي ، واعطاء هذه الطبقة منظمتها الثورية ، حزبها ووجهوا نشاطهم نحو مساعدة الطبقة العاملة كي تنهض ضد النظام القائم ان بليخانوف « قد بين للثوريين الروس هدفهم تكوين حزب عمالي ثوري** » لكن ولادة حزب ماركسي ثوري لم تصبح ممكنة الا في السنوات الاخيرة من القرن .

عندئذ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الماركسية الروسية بانصهار قوتين كبيرتين : الحركة العمالية والاشتراكية العلمية وان هذه المرحلة الجديدة لمرتبطة باسم لينين ونشاط اتحاد النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة المؤسس من قبله والذي كان نواة الحزب الماركسي للطبقة العاملة في روسيا

* * *

---

* لينين المؤلفات الكاملة ، باريس ـ موسكو ، المجلد الرابع ، ص ٢٣٠

** لينين المؤلفات الكاملة ، باريس ـ موسكو ، المجلد الرابع ، ص ٢٧١ .

ان نفوذ النشاط النظري لجورج بليخانوف بوصفه فيلسوفا ماركسيا بارزا لا يقتصر على تطبيقه بصورة حاذقة الموضوعات الاساسية للنظرية الماركسية على شروط روسيا التاريخية وعلى الدفاع عن الماركسية وتفسيرها في النضال ضد اعدائها

لقد سعى بليخانوف في اعماله الفلسفية الى الدفاع عن الاشياء الجديدة التي اتى بها ماركس وانجلز في الفلسفة وتفسيرها وتعميمها ويؤكد بليخانوف على ان عظمة المادية الجدلية والمادية التاريخية تستقيم في تغلب هذه الفلسفة على تحديدات المادية الميتافيزيائية والمثالية وتوفيرها التفسير لجميع مظاهر الحياة البشرية

لقد نادى بليخانوف بان « ظهور فلسفة ماركس التاريخية قد كان ثورة حقيقية، الفلسفة العظمى التي عرضها الفكر البشري* ولقد كان يعتبر فلسفة ماركس التاريخية النتيجة الضرورية والطبيعية لتطور جماع تاريخ الفكر الاجتماعي الدرجة العليا لتطور الفلسفة ؛ وكان يرى في التصور الماركسي للعالم التعبير عن مصالح طبقة السروليتاريا

وكان بليخانوف يمنح اعظم الانتباه للدعاية للمادية التاريخية ، وكان يبرز محتوى هذه المادية الامر الذي كان في ذلك العصر ضرورة ملحة نظرا لان خصوم ماركس البورجوازيين في الغرب وفي روسيا على حد سواء كانوا يعملون على تخفيض المادية التاريخية الى مستوى المادية «الاقتصادية» المبتذلة ، والاستعاضة عنها بجميع صنوف النظريات ضد العلمية . مثل العرقية ، والمالتوسية ونظرية « العوامل ، والنظريات الجغرافية ، الخ ساكتين عن اكتشاف التصور المادي للتاريخ الذي حققه ماركس

وينصرف بليخانوف في **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** الى مناظرة حامية ضد ميخائيلوفسكي الذي « افلتت » منه نظرية ماركس التاريخية ، والاسوأ من ذلك الذي كان يعمل في مصلحة المذهب الذاتي ، على طمس افكار ماركس العبقرية ويبين بليخانوف ان الكثيرين من اخصائيي التاريخ والاقتصاد وتاريخ العلاقات السياسية وتاريخ الثقافة لا يعرفون شيئا من المادية التاريخية لماركس في حين ان النتائج التي توصل هؤلاء الاخصائيون اليها تشهد مع ذلك الى جانب نظرية ماركس وان بليخانوف لعلى يقين من ان اكتشافات عديدة جدا تؤكد هذه النظرية سوف تتحقق واما بشأن موضوعات السيد ميخائيلوفسكي فاننا على يقين من العكس ان اي اكتشاف لن يأتي ليؤيد وجهة النظر الذاتية » لا في خمس سنوات ولا في عشر سنوات

ويكتب بليخانوف في مناسبات عديدة ان التصور المادي للتاريخ الذي اكتشفه ماركس يشكل احد الانتصارات الكبرى للفكر النظري في القرن التاسع عشر كما

---

* انظر في المجلد الثاني من هذه الطبعة افكار ماركس الفلسفية والاجتماعية

يشكل جدارة ماركس التاريخية والعمومية . ان اي انسان لم يتمكن ، قبل ماركس ، من تقديم تفسيرات صحيحة وعلمية دقيقة عن تاريخ الحياة الاجتماعية ، وكان ماركس اول من عمم المادية بحيث تشمل تطور المجتمع وخلق علما للمجتمع

وبهذا الشأن يؤكد بليخانوف على ان التصور المادي للتاريخ ، وهو ان المنجزات الاهم للماركسية ، لا يشكل الا قسما في الفلسفة المادية لماركس وانجلز وانه من قبيل الخطأ الا نرى « جوهر الماركسية » الا في المادية التاريخية ان التفسير المادي للتاريخ يفترض فهما ماديا للطبيعة

ولقد برهن بليخانوف بصورة لامعة ومقنعة على الوحـدة العضويـة لنظريات ماركس الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والرابطة الوثيقة للموضوعات الاساسية للماركسية ، وعرّف الماركسية من حيث هي فلسفة بروليتارية ثورية متناسقة تشكل قطعة واحـدة

وفي العرض الذي يقدمه بليخانوف عن افكار ماركس المادية عن المجتمع البشري وتاريخه يمكن ان نتتبع بصورة دقيقة الارادة في ابراز جوهر ظواهر الحياة الاجتماعية واساسها المادي وان بليخانوف ليحلل من وجهة النظر هذه الافكار الفلسفية للماديين السابقين لماركس ، والاشتراكيين الطوباويين وعلماء الاجتماع والمؤرخين في فرنسا القرن التاسع عشر،وافكار كونت،وسبنسر وهيغل والاخوين بويروفخته وفاينسنفرون وغيرهم من الفلاسفة ويؤكد على الاكتشاف العبقـري لماركس ، التصـور المادي للتاريخ ويصحح الخطيئة الاساسية للفلاسفة وعلماء الاجتماع السابقـين لماركس الذين كانوا ينطلقون من مقدمات مثالية في تحليل المجتمع

ويبين بليخانوف ان ثمة مقدمة للتفسير المادي العلمي للتطورالتاريخي والاجتماعي من قبل ماركس الا وهي القاعدة الموضوعية للحياة الاجتماعية ، البنية الاقتصادية للمجتمـع

ويعلق بليخانوف بعمق على المفهوم الماركسي عن القوانين الاجتماعية ويهتم بالطريقة التي طرحت بها مسألة قوانين تطور المجتمع في نظريات اسلاف الماركسية ، الماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر والاشتراكيين الطوباويين للقرن التاسع عشر وانه ليشير الى انهم بقوا ، رغم بعض الحدوس المادية ، مثاليين في تصورهم للتاريخ، وانهم لم يتمكنوا من فهم الضرورة الموضوعية وقوانين تطور المجتمع ، وبذلك الكشف عن جذور الحوافز الايديولوجية للنشاط الانساني ويبين بليخانوف ان الماركسية كانت سباقة الى اعطاء دراسة علمية عن التطور التاريخي ان الماركسية قد ابرزت موضوعية قوانين التاريخ التي تفعل بقوة القوانين الطبيعية،وبضرورة فولاذية.وهو يبين ان تبدلات العلاقات الاجتماعية تظل بالضرورة ، اذا هي كانت على الاغلب غير قابلـة للتكهن بها نتيجة لفعل البشر وانها تتحقق بصورة مطابقة لقوانين دقيقة للحياة الاجتماعية

ان فعل البشر وافكارهم ونظرياتهم لا تتوقف على المصادفة . انها تخضع لقوانين الصيرورة التاريخية ، ولا بد في سبيل اكتشاف هذه القوانين ، كما يقول بليخانوف ، من دراسة وقائع حياة الانسانية الماضية بواسطة طريقة المادية الجدلية الماركسية . ولا يستطيع ان يتنبأ بالمستقبل الا ذلك الذي فهم الماضي ، ذلك الذي يرى نظام التعاقب والترابط في الاحداث التاريخية ، يرى الشروط التي تحددها ، ولا يرى فيها تيها من الاحتمالات

وكان بليخانوف يقدر تقديرا عاليا دور الجدلية في الحياة الاجتماعية ان الطريقة الجدلية المطبقة على الظواهر الاجتماعية قد احدثت كما يبين ثورة كاملة « انه يمكننا ان نقول دون مبالغة اننا ندين لها بمفهوم التاريخ البشري من حيث هو تطور خاضع لقوانين* »

ويترتب على ذلك ان خصائص البيئة الاجتماعية تتوقف كذلك على الارادة والوعي بصورة ضئيلة جدا كمثل تبعيتها لخصائص البيئة الجغرافية ويقول بليخانوف ، مؤكدا على فكرة ماركس ، اننا نخطىء اذا بحثنا عن قوانين المجتمع في الطبيعة

ونسجل ان بليخانوف لم يتوان عن نقد النظريات البورجوازية شبه العلمية شديدة الانتشار حتى يومنا الحاضر التي تريد ان تطبق على المجتمع قوانين علم الحياة وبذلك ترد التقدم الاجتماعي الى التطور البيولوجي انه يسخر من الوضعيين والداورنيين الاجتماعيين وجميع اولئك الذين يحلمون باصلاح العلوم الاجتماعية بواسطة العلوم الطبيعية ،بدراسة قوانين الفيزيولوجيا،وينعتهم جميعا بالطوباويين. ويكتب بليخانوف قائلا ان اولئك الذين ينظرون الى المجتمع من وجهة النظر هذه يضعون انفسهم في مركز لا منفذ له ، لان الفيزيولوجيا والبيولوجيا والطب وعلم الحيوان عاجزة عن تفسير الميدان النوعي للصيرورة الاجتماعية

ويبين بليخانوف الفارق بين الماركسية والدارونية ويؤكد عليه لقد استطاع داروين ان يحل مشكلة اصل الانواع النباتية والحيوانية ، بينما حل ماركس مشكلة اصل الانواع المختلفة للتنظيم الاجتماعي ويقول بليخانوف ان داروين يخطىء اذا هو اتجه الى تطبيق نظريته البيولوجية على تفسير الظواهر الاجتماعية ولذا فان بليخانوف ، حين يكتب هو نفسه في **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** ، ان الماركسية هي الدارونية المطبقة على العلم الاجتماعي ، فمن الواضح انه تفلت منه هنا صيغة غير موفقةلاتعبر مطلقا عن فكرته الحقيقية عنالعلاقة بين الماركسية والدارونية.

ان القوانين الموضوعية للانتاج المادي ، قوانين صراع الطبقات ، هي التي تتيح فهم المنطق الباطن للتطور الاجتماعي،غنى العلاقات الاجتماعية وتنوعها وههنا يجب

---

* انظر بليخانوف : المؤلفات الكاملة ، منشورات موسكو لينغراد ، المجلد الثامن ، ص : ١٢٩ .

ان نبحث عن اسباب الظواهر الاجتماعية ويوضح بليخانوف ان الظواهر الاخرى للحياة الاجتماعية ، الايديولوجية على سبيل المثال ، تملك قوانينها النوعية وعند المادي ان تاريخ الفكر البشري عملية ضرورية وخاضعة لقوانين وان تطور الفكر البشري يخضع هو الآخر لقوانينه الخاصة ومثال ذلك ان احدا لا يوحد بين قوانين المنطق وقوانين التداول التجاري بيد ان الماركسيين لايعتقدون انه في الامكان البحث في قوانين الفكر ، كما يفعل المثاليون ، عن الاسباب الاولى والمحرك الاول لتطور البشرية الذهني فقوانين الفكر لا تستطيع ان تحل مسألة معرفة ما الذي يقرر تدفق الانطباعات الجديدة وطابعها ان تفسير هذه المسائل غير ممكن الا بتحليل الحياة الاجتماعية وانعكاساتها في شعور البشر

ان دفاع بليخانوف عن الحتمية الماركسية ضد الارادية يملك اهمية رئيسية ان ماركس يعتبر تاريخ المجتمع البشري عملية ضرورية خاضعة لقوانين ، وفي الوقت نفسه نتاجا لفعل البشر وثمة تداخل بين المظاهر الموضوعية والذاتية للحياة الاجتماعية ان الضرورة التاريخية لا تستبعد حرية فعل البشر وان الماركسيين ، حين يدرسون الشروط الموضوعية لوجود البشر المادي ، يدرسون في الوقت نفسه العلاقات التي قامت بين البشر وكذلك افكارهم ومثلهم العليا وطموحاتهم وان تأكيد الذاتيين الاراديين الذي ينص على ان الارادة البشرية وفعل البشر هما حران بصورة مطلقة ومستقلان عن الشروط الاجتماعية تأكيد غير صحيح ففي الممارسة ليست الارادة حرة الا « بصورة مزعومة » ، كما ان فكرة الحرية التامة تشكل انحرافا ضالا ان حرية الارادة لا وجود لها في ذاتها انها نتيجة لمعرفة الضرورة التاريخية ، لمعرفة قوانين التقدم وفي رأي بليخانوف ان الحرية الفردية لا تستقيم فحسب في معرفة قوانين الطبيعة والتاريخ ، في حقيقة تعلم الخضوع لهذه القوانين ، بل في حقيقة معرفة الجمع ما بينها على الصورة الانفع

ويقول بليخانوف انه مما لا يقل خطلا عن ذلك البحث عن القوة المحركة للصيرورة التاريخية خارج نشاط البشر العلمي لقد حاول المؤرخون وعلماء الاجتماع البورجوازيون ان يعزوا الى الماركسية حتمية ميتافيزيائية مطلقة لقد زعموا ان الضرورة التاريخية في رأي ماركس ، تفعل من تلقاء ذاتها دون ان يكون للبشر نصيب فيها ، طالما انه من الواجب الا يظل مكان لحرية نشاط الانسان في حدود الاعتراف بفعل الضرورة التاريخية

لقد أماط بليخانوف اللثام بكل عمق عن كل هذا التزوير للافكار الماركسية ودحض وجهة النظر القائلة ان فعل الضرورة التاريخية يملك طابعا اوتوماتيا ؛ لقد بين ان التاريخ هو نتيجة لفعل البشر

ولقد دحض بصورة بارعة اولئك الذين يزعمون ان البشر يخضعون لقوانين

الضرورة الفولاذية وان جميع افعالهم مقررة سلفا ، الخ انه يقول ، مستشهداً بماركس « كلا فحين نعرف هذا القانون الفولاذي يتوقف علينا ان نطرح نيره ، يتوقف علينا ان نحول الضرورة الى عبد خاضع للعقل »

ان المادية الجدلية لاتعلم فحسب انه من العبث الثورة ضد الضرورة الاقتصادية، بل تبين كيف يمكن استخدام هذه الضرورة الاقتصادية في النشاط العملي وهكذا تنحّى جانبا وجهة النظر القدرية وينادى بقوة الفعل العظمى التي لا تقهر ، قوة العقل البشري الذي يسعى وقد عرف القوى الباطنة للضرورة الى تحويل الواقع كي يجعله معقولا لقد صنع البشر ، ولا بد لهم ان يصنعوا ، تاريخهم بصورة لاشعورية، بقدر ما تفعل القوى المحركة للتاريخ دون دراتهم في الظل لكنه اذا ما اكتشفت هذه القوى مرة ، اذا ما عرفت قوانين فعلها ، فان البشر سوف يصبحون قادرين على استخدامها ، على اخضاعها لعقلهم وان جدارة ماركس لتقوم في اكتشاف هذه القوى واخضاع فعلها لدراسة بالغة العناية*

ويشرح بليخانوف ان رسالة المادية الجدلية تستقيم في تفسير مجمل الحياة الاجتماعية ومهما يكن من امر فانه لا‌بد ، في سبيل تفسير مجمل التطور التاريخي بصورة منطقية ، من التمسك بالمبدأ الماركسي ، والكشف باديء الامر عن الاساس الجذري للحياة الاجتماعية وحسب نظرية ماركس وانجلز فان هذا الاساس هو تطور القوى المنتجة ، انتاج الخيرات المادية لكنه لا بد للبشر في سبيل الانتاج من الدخول في علاقات يسميها ماركس علاقات الانتاج وان مجموع هذه العلاقات يشكل بنية المجتمع الاقتصادية ، هذه البنية التي تتطور على اساسها جميع علاقات البشر الاجتماعية الاخرى ومن وجهة نظر الماركسية ، فان التقدم التاريخي تقرره في آخر تحليل لا ارادة البشر ، بل تطور قوى الانتاج المادية وان هذا التطور ليؤول الى تغير العلاقات الاقتصادية ولذا فان البحث التاريخي يجب ان يبدأ بدراسة حالة القوى الانتاجية في البلد المقصود واقتصاده الذي تتطور على اساسه الايديولوجيات المختلفة والسيكولوجية الاجتماعية

ويدحض بليخانوف في نضاله ضد المثالية تأكيدات ميخائيلوفسكي وكارييف التي تقول ان « جهود العقل » تلعب الدور الحاسم في تطور قوى الانتاج ووسائطه ، في عملية خلق ادوات العمل وتطبيقها انه يبين ان امكانية انتاج الادوات بالذات تتطور داخل عملية فعل في الطبيعة ، عملية استيلاء على وسائل الوجود ان الانسان، اذ يفعل في الطبيعة ، يحول طبيعته الخاصة يطور جميع امكاناته ، وبصورة خاصة امكانية « صنع الادوات » **لكن درجة تطور القوى الانتاجية التي تم اكتسابها من قبل هي التي تحدد في كل لحظة مقياس هذه الامكانية ».**

---

* انظر الصفحة ٣٧٤ ـ ٣٧٥ من هذا المجلد

ان الرابطة الوثيقة التي يقيمها ماركس بين **قوى الانتاج** وعلاقاتــه ، الوحــدة ما بينها هي مايسميه بليخانوف السبب الاولي للتقدم الاجتماعي انه يرى بوضوح جدلية تطورها في حقيقة ان علاقات الانتاج تشكل النتيجة ، وقوى الانتاج السبب لكن النتيجة بدورها تصبح سببا ان علاقات الانتاج تصبح مصدرا جديــدا ، شكلا جديدا لتطور قوى الانتاج

ويسلط بليخانوف الضوء ايضا على تأثير الطبيعة ــ المقدمة الطبيعية ، واحدى المقدمات الاهم في التاريخ كما يقول ــ في تطور المجتمع ، وان بالغ غالبا في تقدير هذا الاثر وهكذا فانه يشدد في اعماله الاولى ،وخاصة في **دراسة في تطورالتصور الاحادي عن التاريخ** على ان العلاقات الاجتماعية تفعل بصورة اقوى بصورة لا متناهيــة من الشروط الطبيعية في التطور التاريخي وانه ليكتب في دراسة اخرى حررهــا في الفترة نفسها ، **دراسات في تاريخ المادية** ، قائــلا ان التأثير المتبادل لقــوى الانتــاج وعلاقاته يشكل السبب في تطور اجتماعي يملك منطقه الخاص وقوانينه المستقلة عن البيئة الطبيعية ، وان هذا المنطق الباطن « يمكن ايضا » ان يدخل في تناقض مــع متطلبات البيئة وانه ليتحدث بالروح نفسه عن التأثير غير المباشر للمناخ ويؤكــد ان المصائر التاريخية للشعوب لا تقع في تبعية حصرية للبيئة الجغرافيــة ذلك ان الجغرافية بعيدة عن تفسير جميع الاشياء في التاريخ » ان الثبات النسبي للبيئــة الجغرافية بالمقارنة مع تغير المصائر التاريخية للشعوب يثبت ذلك كما يؤكد بليخانوف. وبعبارات اخرى فان تبعية الانسان للبيئة الجغرافية مقدار متحول وهو يتحول في كل مرحلة جديدة من التطور التاريخي وان بليخانوف على حق حين يؤكــد ان البيئة الجغرافية لا تفعل سوى الاسهام في تطور القوى الانتاجية او اعاقتها ومهما يكن من شيء ، فان صيغا تفلت من بليخانوف منذ اعماله الاولى تشير الى انــه يبالغ في تقدير دور البيئة الطبيعية ، البيئة الجغرافية ، وانه يفسر حالة القوى الانتاجية بخصائص البيئة الجغرافية وان هذا ليشكل تنازلا في مصلحة مايسمى النزعــة الجغرافية في علم الاجتماع

ويتحدث بليخانوف في **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** عن السكان على اعتبارهم عنصرا تكوينيا للتطور الاجتماعي ، عنصرا ليس نموه على اي حال السبب الاساسي في التقدم الاجتماعي وانه ليستشهد بحكم ماركس الــذي ينص على ان القوانين المجردة للتكاثر لا وجود لها بالنسبة الى الحيوانات والنباتات ، في حين ان الزيادة او النقصان في السكان يتقرران في المجتمعات البشرية بالبنية الاقتصادية

وان بليخانوف ليحلل بوصفه ماركسيا ، في مؤلفات المرحلة ١٨٨٠ ــ ١٨٩٠ ، مسألة دور الجماهير الشعبية والفرد بالنسبة الى الدور التاريخي للبروليتاريا في الصراع الطبقي الثوري وفي عام ١٨٩٨ يكرس دراسة خاصة لهذا الموضوع لكنــه يوجه نقده في نصوصــه السابقة ضــد النظريات العلميــة للافروف وتكاتشــوف

وميخائيلوفسكي وغيرهم من الشعبيين عن قضية دور « الابطال » في التاريخ لقد كانوا يبشرون في اعقاب الاخوين بوير،بالمذهب الذاتي في تصور التاريخ ، ويغمضون عيونهم عن دور الجماهير الشعبية والطبقات في التاريخ ، ويعتبرون الانتلجنتزيا قوة اجتماعية على حدة سوف تلعب دورا من المرتبة الاولى في التطور الاجتماعي لقد كانت الجماهير عاجزة ، من وجهة نظرهم ، عن اي فعل واع ومنظم انها لا تستطيع الا ان تخضع « للابطال » وتتبعهم بصورة عمياء

لقد كان الايديولوجيون الشعبيون يعتقدون ان تقدم التاريخ هو علىوجه الحصر من عمل افراد يفكرون بصورة نقدية ، وهم اذن نوع متفوق وخصوصي من الجنس البشري ان الفرد المفكر نقديا هو « البطل » ، وهو يقود « الجمهور » الذي يعارض الابطال ان الجمهور عند الشعبيين قد كان « كتلة بسيطة مجردة عن كل قدرة على الخلق شيئا اشبه بمجموعة هائلة من الاصفار لا تصبح لها قيمة مفيدة الا اذا تنازلت وحدة « تفكر نقديا فتقدمتها » ويسجل بليخانوف في مكان آخر ان جمهور الشعبيين هم الملايين من المنتجين « الذين يقولبهم البطل على هواه » تلك كانت العبادة الضارة جدا لشخصية « البطل » الذي يعلو على الجمهور

ولقد اوضح بليخانوف بصورة مرموقة في احد النصوص المختلفة من **دراسات في تاريخ المادية** خطأ عبادة الشخصيات التاريخية. فغالبا ماتعتبر اعمال هؤلاء الرجال سببا في حركات التاريخ الكبرى . « وهكذا فان دور موسى ،وابراهيم، وليكورغوس، الخ يتخذ هذا الحجم المذهل الذي نجده له عند دولباخ والفلاسفة ان تاريخ الشعوب يتحول الى مجموعة من « حياة المشاهير » وكذلك فان « الدين والاعراف والعادات وجماع خلق شعب معين تبدو وكأنها تكونت بفعل رجل واحد كان يسير وفق خطة محددة بصورة مسبقة . وهكذا تزول اية فكرة عن العلم الاجتماعي ، واية فكرة عن القوانين التي يتوقف عليها مصير الانسان في التطور التاريخي ويسجل بليخانوف ان وجهة النظر هذه لا تملك اية صفة علمية على الاطلاق

ويبين بليخانوف ان الايديولوجيين الشعبيين انما اتبعوا التكتيك بالغ الضرر الخاص بالارهاب الفردي الذي كان يكبح تطور المبادرة الثورية ونشاط طبقة العمال وطبقة الفلاحين لانهم ما كانوا يملكون مبدئيا اية ثقة في الجماهير وما كانوا يعترفون الا بالمبارزة » بين افراد منعزلين والنظام. وان اخفاق محاولات النضال ضد القيصرية بقوى الابطال الافراد وحدها والانقطاع عن الجماهير الشعبية قد قادا الشعبيين الى اخطاء افدح من ذلك ، الى التطور في اتجاه الليبرالية وان بليخانوف الذي كان على وعي تام بخطر عبادة الافراد ، « الابطال » ، على تطور الحركة الثورية الجماهيرية

لم يقتصر على ان يخضع لنقده التهافت السياسي والنظري للايديولوجية الشعبية في هذه المسألة ويسخر من غرور اصحابها الذي لا حدود له ، بل قدم كذلك نموذجا للعمق في تفهم النظرية الماركسية عن قوانين تطور المجتمع ، وتفهم دور الجماهير والفرد في التاريخ

ويقول بليخانوف ان ميخائيلوفسكي ، « أشيل الذاتية المتحمس » ، يعتبر انه « من واجب الماركسيين ان يقتصروا على الحديث عن « التطور الذاتي لاشكال الأنتاج والمبادلة ويرد عليه بليخانوف قائلا « اذا كنت تحسب ان أشكال الانتاج ، بالنسبة الى ماركس ، تستطيع ان تتطور « بذاتها » فانت تخطىء بصورة قاسية ما علاقات الانتاج الاجتماعية ؟ علاقات بين كائنات انسانية . كيف يمكنها ان تتطور بدون هذه الكائنات ؟ » ان الجماهير الكادحة هي التي تشكل محرك تقدم الانتاج

واذا كان البطل يعمل والمنتج يتعاون في نظر الذاتيين ، كما يقول بليخانوف ، فان المنتجين من وجهة نظر الماركسية لا يتعاونون ، بل يعملون . ان تقدم المجتمع لا يتحقق الا بفضل فعل المنتجين بالذات

واما يستخلص بليخانوف امثلته من ميدان الحياة الاجتماعية يبرهن على ان التاريخ تصنعه الجماهير ، يصنعه ملايين المنتجين ، ولا يصنعه هوى « الابطال » او مخيلتهم . « ان الحركة العمالية التي لا تكف في الوقت الراهن عن التطور لا تملك شروطها في الخطط الطوباوية لمختلف المصلحين ، بل في قوانين الانتاج والمبادلة

ان الذاتيين ينسبون الى الرجال العظام اعمالا لا يستطيع القيام بها الا الجماهير وحدها . فليس الأفراد بل الجماهير الشعبية ، الطبقات ، هي التي تلعب الدور الحاسم في التطور التاريخي في تحقيق اعادة التنظيم الاجتماعي في روسيا . ويقول بليخانوف ان الذاتيين ، اصحاب النزعة الارادية ، لا يعرفون كيف يرتفعون من فعل الافراد المنعزلين الى فعل الجماهير ، الى فعل الطبقات الاجتماعية ، ان علماء الاجتماع الشعبيين ، مثلهم مثل علماء الاجتماع البورجوازيين ، يرون في النشاط السياسي الذي يقوم به عظماء الرجال الحافز الاعظم ، ان لم يكن الحافز الاوحد للتطور التاريخي . انهم يقفون اهتماما كبيرا على سلالة الملوك دون ان يتركوا مكانا لنشاط الجماهير البشرية

ويقول بليخانوف ان حياة الجماهير الشعبية يجب ان تستوقف انتباه المؤرخ ، مؤكدا على ان الشعب هو الذي يجب ان يصبح بطل التاريخ ان التاريخ الحقيقي لاي بلد هو تاريخ الشعب ، تاريخ المواطنين « لا يوجد في تطور الانسانية التاريخي مرحلة هامة يمكن اجتيازها ليس دون ان يسهم البشر فيها فحسب ، بل دون ان يسهم فيها عدد هائل من البشر ، يعني الجماهير* »

---

* بليخانوف : المؤلفات الكاملة ، المجلد الثامن ، ص : ٢١٠

لسوف تظل مملكة العقل صيغة متبججة وحلما كريما طالما ان « ابطالا » يتصورون انه تكفي ان يضيئواعقلهم الخاص كي يقودوا الجمهور كمايحلولهم ويقولبونه حسب هواهم ، ولن تأخذ هذه المملكة في الاقتراب منا بخطا العمالقة الا حين يصبح الجمهور نفسه بطل التاريخ ، حين يتطور وعي مناسب في عقله

ويقول بليخانوف ان عظمة فلسفة ماركس تستقيم في دعوتها الانسان الى الخلق خلافا لعدد كبير من التيارات الفلسفية التي تحكم على الانسان بالعطالة وبقبول الواقع بصورة منفعلة ان ماركس يدعو البروليتاريا الى العمل ، وذلك لانها الطبقة التي يجب ان تلعب الدور التاريخي الكبير في المجتمع المعاصر وان الماركسيين ليتوجهون الى هذه البروليتاريا ، الى الطبقة الثورية بكل معنى الكلمة وتستخدم البروليتاريا نظرية ماركس الفلسفية كدليل موثوق في النضال في سبيل التحرر ، وهذه النظرية تبعث فيها طاقة لم يسبق لها مثيل ان الفلسفة العملية للماركسية تؤول باسرها الى العمل وبليخانوف يسمي المادية الجدلية فلسفة للفعل

بيد ان الماركسية ، وهي تنسب اهمية حاسمة لفعل الجماهير في التطور التاريخي ، لابعد ماتكون في الوقت نفسه عن انكار دور الفرد في التاريخ ، عن ارجاعه الى الصفر

ان في مقدور الفرد البارز ، المرتبط بالجماهير بصورة وثيقة ، المعبر عن مصالحها وطموحاتها ، ان يلعب في بعض الشروط دورا اجتماعيا بايقاظه وعي الذات البطولي في الجماهير وهو يستطيع بعمله التقدمي ان يعجل في تطور المجتمع وبالتالي فان « تقدم المعرفة ، تقدم الوعي يصبح المهمة العظيمة والسامية للفرد المفكر النور ، مزيدا من النور ، هذا ما يلزم بادىء الامر وهذا النور لا يجوز تركه حبيسا في مكتب « المثقف طوروا وعي الانسانية طوروا وعي المنتجين

ويؤكد بليخانوف ان اهمية الفعل الاجتماعي للرجال العظام يتوقف على طريقتهم في فهم تطور المجتمع ، وان هذه الطريقة ليحددها ارتباطهم بالشعب والطبقة الطليعية. لكنه ليس ثمة رجل عظيم يستطيع ان يفرض على المجتمع علاقات لا تقابل حالة القوى المنتجة

هكذا انتقد بليخانوف بصورة لامعة ، في اواخر القرن التاسع عشر ، العبادة المثالية للشخصية وشرح النظرية الماركسية عن دور الشعب والفرد في التاريخ وان اعمال بليخانوف الماركسية تقدم المعونة في الوقت الحاضر ايضا في النضال في سبيل تصفية البقايا الحالية لعبادة الشخصية .

وحين يفسر بليخانوف الدور العظيم الذي يلعبه الشعب في التاريخ يهتم بأن يبين ان الحركة الثورية للشعب للطبقة العاملة تستطيع وحدها ان تطيح بمسخ

سياسي مثــل الحكم المطلق الروسي وان تؤول الى دكتاتوريــة البروليتاريا الى انتصار الاشتراكية ولقــد كان لذلك اهمية كبرى في حركة التحرر الروسية التي كانت افكار البلانكية والفوضوية شديدة الانتشار فيها في المرحلة ١٨٨٠ ـ ١٨٩٠ وان بليخانــوف ليدافع في **الاشتراكية والنضال السياسي** ، وفي **خلافاتنــا** ، الخ ، عن فكرة دكتاتورية البروليتاريا مبينا ان دكتاتورية البروليتاريا تشكل العمــل الاول للثورة الاجتماعية ، تشكل الدلالة على هذه الثورة ولا تستقيم رسالة دكتاتوريــة البروليتاريا في تدمير الهيمنة السياسية للبورجوازية فحسب ، بل في تنظيم الحيــاة على الصعيد الاجتماعي والسياسي ويقول مؤكدا لقد كانت السلطة السياسية ، دائما وفي كل مكان ، الرافعة التي حققت الطبقة السائدة بواسطتها الثورة الاجتماعية الضرورية من اجل مستوى حياتها ومن اجل تقدمها اللاحق*

وحين اصبح بليخانوف منشفيا لم ينكر بصورة علنية المبــدأ الماركسي الخاص بدكتاتورية البروليتاريا لكنه انساق مع ذلك مع الاوهــام الدستورية الاصلاحيــة وابتعد عن حل المسائل العملية الحسيــة الخــاصة بالنضال في سبيل دكتاتوريــة البروليتاريا

وان مكانا هاما يخص ، في مجموعة المسائل بالغة الاهمية للمادية التاريخية التي درسها بليخانوف مسألة ولادة الايديولوجيات وتطورهــا وولادة اشكــال الوعي الاجتماعي وتفاعلاتها ، مسألة علاقات البنى الفوقية السياسية والايديولوجية بالقاعدة الاقتصادية ، الح

وكما انه ليس في الطبيعة شيء جامد وازلي وغير متغير ، كذلك في تاريخ الحياة الاجتماعية تتبدل مع تبدل نمط الانتاج الافكار والنظريات والمؤسسات السياسية ، الح . ، يعني جماع البنية الفوقية وان هذا كله ليشكل النتاج التاريخي لنشــاط البشر الفعــلي

ويستلفت بليخانوف في اعماله الانتباه اولا الى خاصية تبعية تطور اشكال الوعي الاجتماعي للانتاج المادي. انه يخضع لنقد مفصل وواضح النظريات المثالية عن «التطور الذاتي للايديولوجية ، والمفاهيم القائلة ان الحالة العامة للافكار والعادات لا تخــلق فحسب الانواع المختلفة للفن والادب والفلسفة في عصر معين بل صناعته وبيئتــه الاجتماعية ايضا وان بليخانوف ليبين لنا ويقنعنا بان التصور المادي للتاريخ يكتشف وحده السبب الحقيقي لحالة الافكار والعادات في انتاج الخيرات المادية

ان البشر ينتجون الخيرات المادية ويخلقون القاعدة الاقتصادية التي يتطــور على اساسها النظام السياسي والسيكولوجية والايديولوجية في ملء التفاعل بين المجتمع

---

* انظر الصفحة : ٢٦ من هذا المجلد

والطبيعة وان اتجاه العمل الذهني بالذات في المجتمع تحدده في آخر تحليل علاقات البشر في الانتاج . ولا تدحضهذه الموضوعة المادية وقائعالتأثير الايديولوجي والسياسي للبلدان الاجنبية في سياسة بلد معين وايديولوجيته. ويكمل بليخانوف دراسته لعلاقات الاقتصاد والايديولوجيــة داخل بلد معين وتفسيره لتبعية التطور السياسي والفكري بالنسبة الى النظام الاقتصادي بدراسة التأثيرات الاجنبية في تطور ثقافة الشعــوب. « كان الفلاسفة الفرنسيون متحمسين للوك ، لكنهم مضوا الى ابعد جدا من معلمهم وان مرد ذلك الى ان الطبقة التي كانوا يمثلونها في فرنسا قد مضت في نضالها ضــد النظام القديم الى ابعد جدا من طبقة المجتمع الانكليزي التي كانت فلسفة لوك تعبر عن طموحاتهــا وهكذا فليس في مقــدور المؤثرات الاجنبية ان تحــذف الشيء الاساسي ، حقيقة ان خصائص واصالة الافكار الاجتماعية الخاصة ببلد معين يفسرها في آخر تحليل السبب الاساسي الباطن لتطوره ، درجة تطور علاقاته الاقتصــاديــة الخــاصة

وليست حجة بليخانوف بأقل اقناعا من ذلك فيما يتعلق بالنظرية الماركسية عن التأثير الراجع لاشكال البنية الفوقية في الاقتصاد ان تبعية السياسة للاقتصــاد لا تنفي تفاعلهما لا تنفي تأثير المؤسسات السياسية في الحيــاة الاقتصادية ان النظام السياسي يسهم في تطــور القوى المنتجة ، او يقف حجــر عثرة في طريقها وان اي نظام سياسي انما يؤسس كي يسهم في تطور القوى المنتجة ، فاذا هو تحول الى عقبة في طريق تطورها فلا بد من القضاء عليه

وفي مجتمعات المستثمرين تتعارض الطبقات السائدة والطبقات المسودة في عملية الانتاج ويوضح بليخانوف ان العلاقات الطبقية هي قبل كل شيء العلاقات التي يتخذ البشر فيها مواقفهم حيال بعضهم بعضا في سياق عملية الانتاج الاجتماعية وتجــد العلاقات الطبقية تعبيرها في التنظيم السياسي للمجتمع وفي الصــراع السياسي ويخدم هذا الصراع كمصدر من اجل ظهور وتطور النظــريات السياسية المتنوعــة والبنية الفوقية الايديولوجيــة ولن يكون في مقدورنا ان نتوصل الى فهــم تاريخ الانسانية الروحي ، ان نتوصل الى الفكرة الصائبة القائلة ان هناك على الدوام في المجتمعات المنقسمة الى طبقات ايديولوجية سائدة هي ايديولوجية الطبقة السائــدة الا اذا اخذنا بعين الاعتبار الصراع الطبقي ودرسناه

ويجب ان نسجل لبليخانوف ، في عداد فضائله المؤكدة ، دحضه اللامع للفكرة التي يجهد البعض انفسهم كي ينسبوهــا الى الماركسية ، وهي الفكرة القائلــة ان الشروط الاقتصادية تقرر الحياة الروحية كليا وبصورة ناجزة (وليس في آخر تحليل

فقط) الفكرة التي يمكن ان نستخلص منها اية نظرية بصورة مباشرة من اي وضع اقتصادي ان هذا التحويل التبسيطي لمادية ماركس التاريخية الى «مادية اقتصادية» قد نشره في اواخر القرن التاسع عشر ميخائيلوفسكي والذاتيون الشعبيون الآخرون ، مثلهم كمثل علماء الاجتماع البورجوازيين في الغرب

ويقول بليخانوف ان ميخائيلوفسكي يخطىء حين يتصور ان الماركسي لا يعرف سوى الجانب الاقتصادي ، **انه « يحيا على هذا الوتر »** . ابدا لم يعتبر ماركس التطور الاقتصادي لبلد ما بصورة مستقلة عن القوى الاجتماعية التي تمارس ، وهي ترسل جذورها عميقا في الاقتصاد ، فعلا في الاتجاه اللاحق لهذا البلد بالذات ان افضل العارفين بالتطور الاقتصادي يستشعرون عجزهم احيانا في المسائل المتعلقة بتطور الايديولوجية اذا كانوا لا يملكون مطلقا حاسة جمالية تمكنهم من ان يفهموا ، على سبيل المثال ، العملية المعقدة لتطور السيكولوجية الاجتماعية واهميتها في حياة المجتمع وتكيفها مع الاقتصاد ، وروابطها مع الايديولوجية ويشير بليخانوف الى ان كتابا عظاما مثل بلزاك وايبسن قد فعلوا الشيء الكثير من اجل تفسير سيكولوجية الطبقات المختلفة للمجتمع في زمانهم لنأمل ان لايعوزنا مع الزمن الكتاب الذين يفهمون « القوانين الفولاذية » لحركة « الوتر » ، كما يفهمون ويفهمون الاخرين كيف ان هذا الوتر يرتدي ، بفضل تلك الحركة ، **« اللحم الحي » للايديولوجية »**

ان ماركس كما يبين بليخانوف لم ينف قط الاهمية القصوى للسياسة والايديولوجيات (للافكار الاخلاقية والفلسفية والدينية والجمالية) في حياة البشر ، بل فسر قبل كل شيء تكونها الذي صادفه في علاقات المجتمع الاقتصادية ومن بعد درس ماركس الطريقة التي اكتسى بها الصقل العظمي الاقتصادي بلحم الاشكال الاجتماعية والسياسية ، واخيرا (وهذا هو المظهر الاهم والاشد جاذبية) كيف تولد الافكار والعواطف والطموحات وتتطور

لقد بين بليخانوف الاستقلال النسبي لتطور الايديولوجيات وبذلك دحض الوهم المميز للايديولوجيين البورجوازيين والتحريفيين ، الا وهو استقلال الايديولوجيات المطلق ان عملية ولادة البنية الفوقية الايديولوجية من قبل القاعدة الاقتصادية تتم دون معرفة البشر ، ولذا فما اكثر ما نفقد حس الارتباط ، حس تبعية العلاقات الايديولوجية للعلاقات الاقتصادية ؛ ان العلاقات الاولى تتخذ شكلا « ذا اكتفاء ذاتي »، وعندئذ نرتكب خطأ اعتبار الايديولوجية شيئا مستقلا بفعل طبيعته بالذات ان وجود الاستقلال النسبي في تطور الأيديولوجيات مرده في المحل الاول ، كما يشيربليخانوف الى ذلك ، الى التسلسل في تطور كل شكل ايديولوجي على حدة ان ما يثبت الاستقلال النسبي لتطور الايديولوجيات هو حقيقة ان ايديولوجيي اية طبقة يتصرفون

بصورة فاعلة حيال ارث الافكار التي خلقها العصر السابق ويستخدمون منجزات الاجيال السابقة « ان ايديولوجية اي عصر تنشيء دائما العلاقة الاوثق ـ الايجابية او السلبية ـ مع ايديولوجية العصر السابق وانطلاقا من اللحظة التي يحدث فيها تقسيم العمل الفكري ، حين يأخذ هذان العملان في التعارض يظهر تقسيم العمل والفروع الخاصة من الانتاج الفكري ان الايديولوجيات تنعزل نوعا ما في ميدان مستقل نسبيا ، مع اتجاهات خاصة بها وتطور خصوصي وان وجود هذه الظواهر يبين ان استقلال الايديولوجية النسبي يشكل واقعا قائما حقيقة تاريخية

ويقول بليخانوف انه من الخطل ان ينسب الى الماركسية الفكرة القائلة ان الاوضاع الاقتصادية لمجتمع ما تتيح تفسيرا مباشرا لمضمون افكاره جميعا ، ان الافكار التي تظهر في نفس المجتمع كثيرا ما تلعب دورا مختلفا كل الاختلاف

ان آراء بليخانوف العميقة عن دور الافكار واهميتها في تطور المجتمع تتحلى اليوم ايضا باهمية عظيمة . ان الشعبيين الذين كانت مثلهم الطوباوية منفصلة كل الانفصال عن الحياة الواقعية قد الحقوا بنضال الجماهير الثوري ، في المرحلة ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ ، ضررا بالغا بتأكيدهم استقلال الافكار والنظريات عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحين فضح بليخانوف النزعة الذاتية عند ميخائيلوفسكي والاخرين طور بصورة شخصية واصيلة التصور الماركسي عن دور الافكار والنظريات

ان المثل الاعلى يمكن ان يكون ساميا او منحطا صائبا او مغلوطا ومن وجهة نظر ماركس ، كما يبين بليخانوف ، فان الافكار ، المثل الاعلى ، تشكل دائما انعكاسا للشروط المادية الخاصة بحياة البشر وان المثل الاعلى الذي يوافق مظهر الواقع الاقتصادي المتوجه نحو التقدم هو وحده المثل الاعلى الصائب. ويحسب الميتافيزيائي انه اذا كان الانسان السياسي يعتمد على الواقع ، فمعنى ذلك انه ينصح بالاستسلام لهذا الواقع لكن الجدلي المادي يبين ان حياة المجتمع الطبقي تملك طابعا متضادا ان الرجعيين يعتمدون على واقع ولى ؛ لكن حياة جديدة تولد فيه هي واقع الغد ؛ وحين يضع الانسان نفسه في خدمة هذه الحياة الجديدة فمعنى ذلك انه يسهم في انتصار الجديد

ان الماركسيين ينسبون اهمية عظيمة الى الافكار والمثل العليا بالرغم من ان علماء الاجتماع الشعبيين ينكرون ذلك الافكار تصبح قوة عظيمة ، لكن بشرط لاغنى عنه يجب ان تشمل الواقع ومجرى التاريخ وعلاقة الطبقات وتعبر عنها وفي هذه الحالة وحدها تكون هذه الافكار قاهرة لا تغلب وتخدم التقدم ، والا فهي تلجم التقدم الاجتماعي ان اية طبقة وحزبها السياسي لا يمكن ان يسمياثوريين الا حين يعبران عن

الاتجاهات الاجتماعية الاكثر تقدمية ، حين يكونان حاملين للافكار الاكثر تقدما لعصرهما حين يحددان مهمات النضال الاجتماعي

وكان بليخانوف يسمي الافكار الثورية « ديناميتا » لا يمكن ان يعوض عنه « أي نوع آخر من المتفجرات في العالم*

وكان الماركسي بليخانوف يدعو دون كلل الى ادخال المثل العليا للاشتراكية العلمية الى الحقائق ولقد تحدث عن الدور الاستثنائي للنظرية الثورية في نضال البروليتاريا الطبقي بدون نظرية ثورية لا وجود للحركة الثورية بالمعنى الحقيقي للكلمة** لقد كان يريد نشر الافكار الطليعية الصادرة عن القوى الاجتماعية الاكثر تقدمية وهو ماكان يرى فيه عاملا كبيرا جدا من اجل التقدم

ومهما يكن من شيء ، فان بليخانوف لم يظل في الممارسة منطقيا مع نظرياته . ففي وقت لاحق حين اصبح منشفيا انجرف مع الاستخفاف بالجانب الذاتي للحركة الثورية ، ومع الحط من دور الحزب الثوري ، ومع انقاص التأثير الراجع للوعي الاجتماعي في الاقتصاد ودور الافكار في تقدم المجتمع

***

ان نزول مادي مناضل مثل بليخانوف الى حلبة الصراع ليدافع عن القواعد الفلسفية للماركسية ، المادية والجدلية الماركسيتين ، وذلك حين كانت البورجوازية تشن الهجوم على الماركسية وفلسفتها في اواخر القرن التاسع عشر وفيما بعد ، قد كان امرا بالغ الاهمية لقد بين بليخانوف ان رد الفعل الايديولوجي البورجوازي يتم تحت شعار المثالية الفلسفية والانتقائية وفي آخر تحليل فقد كان يرى اسس هذه الحملة ضد الماركسية في خوف البورجوازية امام ظهور البروليتاريا الثورية في الحلبة الدولية

وفي سبيل الدفاع عن القضية العادلة في الفلسفة فضح بليخانوف المثالية في مختلف اشكالها البركلية ،والهيومية ، والفختيةوالكانطية ،والشيلنغية ، والهيغلية، والذاتية الاجتماعية للمذهب الشعبي ، واظهر القرابة التي تجمع بين المثالية والدين.

ولا بد من منح اهمية خاصة لنضاله الحاسم ضد الرجعيةالنبالية والبورجوازية التي كانت تفتري على المادية الجدلية وتسعى جهدها لاخراجها من المسيرة العامة لتطور الفلسفة التقدمي

* انظر الصفحة ٤٠٤ من هذا المجلد

** المصدر نفسه .

ولقد عرض بليخانوف شروط ظهور المادية الجدلية بتبيانه التسلسل الذي ساد تطور الفلسفة المادية

ان الشيء الجوهري في تصور بليخانوف عن فلسفة التاريخ هو النضال ضد المثالية وظهور تقليد مادي في الفلسفة ومع ذلك فلسنا نجد في مؤلفاته اية صياغة واضحة للفكرة المادية الجدلية عن موضوع الفلسفة

ان بليخانوف يدافع عن الجدلية ، ويتتبع تطورها في تاريخ الفلسفة، ويدرس ويحلل الانظمة العديدة والمدارس المتعددة للتيارات الفلسفية المتباينة

وبهذه المناسبة يعرّي التعديلات المثالية للنظريات المادية من قبل مؤرخي الفلسفة البورجوازيين وتزويرهم لتاريخ المادية، وارادتهم في تجاهل المادية والسكوت عنها ويبين بليخانوف كيف يخفق العلماء البورجوازيون في استعراضهم تاريخ الفلسفة في شكل تسلسل مسطح للافكار ، يعني تتابعا محضا للانظمة الفلسفية دونما اعتبار للترابط القائم بين تاريح الافكار وتاريخ المجتمع. وانه ليتطلب في الوقت نفسه ان يؤخذ بعين الاعتبار التسلسل الذي يسود تطور الافكار وان ترى الرابطة التي تجمع بين الانظمة والمدارس الفلسفية المتنوعة والارث الفكري للماضي

وان بليخانوف لينصرف، منطلقا من مواقع المادية الجدلية، الى ايضاح التسلسل في افكار المادية ، وكذلك ايضاح الفارق بين المادية الجدلية والمادية قبل الماركسية او فلسفة هيغل ايضا وان هذا الامر ثمين جدا لانه لم يكن هناك بعد في الادبيات الاشتراكية للمرحلة ١٨٨٠ ــ ١٩٠٠ ، اية فكرة واضحة جيدا عن الفارق بين المادية الجدلية والانظمة المادية السابقة والاكثر من ذلك انه لم يكن من الندرى الخلط بين افكار ماركس وافكار دولباخ او هيلفيتيوس وكانت الجوانب الضعيفة للمادية الميتافيزيائية تنسب الى المادية الجدلية وفيما عدا ذلك ، فقد انتشرت فكرة تقول ان المادية الجدلية جزء من الهيغلية اليسارية ولكن بليخانوف يرى ان التسلسل والرابطة بين المادية قبل الماركسية والمادية الجدلية يقومان في دفاعهما المشترك عن المادية وهو يصعد بنسب المادية الى هيراكليتوس وديموقريطس وسبينوزا والماديين الفرنسيين وفيورباخ بيد انه يرتكب هفوة مع ذلك حين يقول ان مادية ماركس هي في سلالة السبينوزية لكن من يرى في ذلك توحيدا بين المادية الجدلية وفلسفة سبينوزا يخطىء خطأ فادحا فبليخانوف لا يفعل سوى التأكيد على الاساس المادي للرابطة بين المذاهب الفلسفية لديموقريطس وسبينوزا وفيورباخ وماركس ، وفي رايه ان هذه الرابطة تقوم في ان هؤلاء المفكرين جميعا قدموا حلا ماديا للقضية الاساسية في الفلسفة باثباتهم اولية المادي على المثالي

ان منطلق **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** هو الفكرة التي تم التعبير عنها بجلاء ، الا وهي ان حل القضية الاساسية للفلسفة تخدم كخط فاصل بين المادية والمثالية .

ان الوجوديقرر الشعور،هذا ماينادي بليخانوف بهوهو ينشر الفرضيةالاساسية للمادية وينهض دون كلل ضد اي نوع « للتركيب » بين المادية والمثالية ، يعني الازدواجية ان الوجود والطبيعة همـا اللذان يشكلان العنصر الاساسي والبدئي الذي يحدد سائر مظاهر الحيـاة

ويقول بليخانوف ان المادية والمثالية يستنفذان التيـارات الاساسية للفكـر الفلسفي وبالرغم من قيام الانظمة الازدواجية دائمـا بصورة موازية ، وهي تعترف بالروح وبالمادة من حيث هما جوهران منفصلان ومستقلان فان الازدواجيـة لـم تستطع قط ان ترد بصورة مرضية على السؤال الذي لا مفر منه والذي يقضي بمعرفة كيف امكن لهذين الجوهرين المستقلين ، اللذين لا يجمع بينهما اي شيء مشترك ، ان يؤثرا في بعضهما بعضا ويبين بليخانوف ان كل تركيب لوجهتي النظر المادية والمثالية يؤول الى الانتقائية وانه لمن المحال من وجهة نظر الازدواجية فهم طبيعة الظواهر التاريخية ، طالما ان الازدواجية انتقائية دائما ويقول بليخانوف كي يوضح فكرته « من المؤكد ان ذهن الانتقائي قمين بجميع الخلائط ، بالجمع بين ماركس وكانط ، بل الواقعيين » في العصر الوسيط اما بالنسبة الى الناس الذين يصنعون النظـام في افكارهم فان تساكن ماركس والفلسفة الكانطية يتخذ دائما صورة مسخ حقيقي » .

ويعزو بليخانوف الى الماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر دورا هاما بصـورة خاصة في تاريخ المادية وانه ليعارض المثالية بتصور الماديين الفرنسيين للشعور من حيث هو « ظاهرة طبيعية » ، من حيث هو خاصية للمادة ؛ وانه ليبين النضال الحاسم الذي خاضوه ضد المثاليين الذين يفسرون الشعور بقوى فوق طبيعية ، الخ ويحلل بليخانوف اخلاق الماديين الفرنسيين ، ويبين طابعها التقدمي بالنسبة الى العصـر ، ويدافع عنهم ضد تهمة اللا اخلاقية التي يوجهها اليهم مؤرخو الفلسفة البورجوازيون الحمقى واما يقدر بصـورة عالية نضال الماديين الفرنسيين ضد الكنيسة وضـد الدين فانه يبين مع ذلك الطابع المحدود والبورجوازي الذي تتصف آراؤهم بـه . ومهما يكن من امر ، فان بليخانوف يصرف جل اهتمامه للافكار التاريخية الخـاصة بالماديين السابقين للماركسية ، ويتمسك بصورة خاصة بالمحاولة التي بذلها الماديون الفرنسيون من اجل تفسير سيطرة بعض الافكار وبعض العاداتفي مجتمع معين ، وذلك انطلاقا من شروط الحياة الاجتماعية ويؤكد بليخانوف في الوقت نفسه على ان الماديين الفرنسيين الذين تعثروا في تناقضات مستعصية ، لم يتجاوزوا التصور المثـالي عن التاريـخ

ويدافع بليخانوف ، في مساجلته مع مؤرخي الفلسفة البورجوازيين ، عن مادية فيورباخ ضد الاتهامات الموجهـة اليها بالتهافت في فهم الطبيعة ، ويبرز القرابة التي تجمع افكار فيورباخ الفلسفية الى افكار الماديين الفرنسيين ، مبينا ان فلسفة فيورباخ بالغة الضيق لانها تستخف بالجدلية ، وكذلك لانها تفتقر الى تصور مادي عن التاريخ.

وعلى اي حال فان بليخانوف في الحكم الذي نصدره على فيورباخ وسبينوزا والماديين الفرنسيين للقرن الثامن عشر لا يؤكد بما فيه الكفاية على ضيقهم المميز الجانب الآلي والجانب التأملي الخ

ويقول بليخانوف ان الفلسفة الماركسية ــ المادية الجدلية التي هي ابرز الانظمة الفلسفية ــ احادية. ان المادية وحدها تفسر جيدا ظواهر الطبيعة والمجتمع الانساني. وحتى في ميدان علم النفس، هذا العلم الذي يعنى بصورة خاصة بظواهر النفس «لا ننجح في عملنا الا بشرط اتخاذنا الطبيعة من حيث هي المرحلة **البدئية**، مع عدم اعتبارنا لتظاهرات النفس الا من حيث هي النتائج الضرورية لحركة المادة*

ان الفلسفة المادية الماركسية تمضي حتى نهاية افكارها بحل القضية الاساسية للفلسفة واما تأخذ العالم الخارجي من حيث هو العنصر البدئي فانها تنظر اليه في الوقت نفسه من حيث هو يتطور ويتغير

ويفسر بليخانوف، في ملحوظاته على كتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية**، الموضوعات الاساسية للمادية الجدلية ازلية المادة، والاشكال الاساسية للوجود والحركة، والمكان والزمان؛ وانه ليدخض التصور المثالي ــ الذاتي الكانطي عن المكان والزمان والسببية

ان الحركة خاصة لاصقة بالمادة ولا تحتاج المادة الى محرك فوق طبيعي كي تتحرك، كي تنتج ما نسميه الاحساس، والفكر ان المادية الاحدث يعني المادية الجدلية هي النظام الفلسفي الوحيد المنطقي مع ذاته والاكثر تقدما انها تتفق مع معطيات العلوم الطبيعية والصوفية غريبة عنها

ويوضح بليخانوف من وجهة نظر الماركسي قضايا المعرفة ان العالم الخارجي هو نقطة انطلاق المعرفة، وصورنا وافكارنا عن الاشياء وظواهر العالم الخارجي تملك محتوى موضوعيا

ان المادي هو اساس النفسي والمثالي، ولا وجود للفكر خارج الانسان، فالفكر وظيفة للدماغ، حصيلة فعل العمليات العصبية ــ النفسية

وينتقد بليخانوف، في ملحوظاته من اجل كتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** وفي كتابه **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ**، اللا ادريين من امثال هيوم وكانط، الذين ينكرون قابلية العالم الخارجي للمعرفة او يضعونها موضع الشك

ويقول بليخانوف ان وجود العالم الخارجي لا يمكن ان يوضع موضع الشك فأحاسيسي تشكل نتيجة فعل الاشياء الخارجية فيّ، ولذا فهي تقابل ولا يمكن الا ان تقابل العلاقات بين الاشياء الخارجية وانه ليترتب على ذلك ان معرفة الشيء هي

---

* المؤلفات الكاملة، المجلد الثامن ص ١٣٩

دائما معرفة يتم الحصول عليها بوساطة الاحساسات التي ينتجها الشيء وان الاحساس . الشعور بالاشياء الموجودة خارجا عنا يشكل اساس المعرفة

ويقول بليخانوف في اتفاق تام مع انجلز ان النظريات الكانطية والهيومية عن عدم قابلية العالم الخارجي للمعرفة تدحضها الصناعة والتجربة ، وان كل تجربة وكل فعل انتاجي يقوم الانسان بهما يمثلان موقفا **فاعلا** حيال العالم الخارجي وان العلم ليبرهن على انه في الامكان التكهن بمجموعة كاملة من الظواهر واثارتها ومعنى هذا انه يمكننا كذلك ان نتكهن بالافعال التي سوف تمارسها فينا « الاشياء في ذاتها ». ويقول بليخانوف انه اذا كان في مقدورنا ان نتنبأ ببعض افعال « الاشياء في ذاتها » بصورة مقنعة . فمعنى ذلك اننا نعرف بعض خصائصها على الاقل واذا كنا نعرف بعض خصائص الاشياء ، فاننا لا نملك الحق في معاملة هذه الاشياء من حيث هي غير قابلة للمعرفة

ولقد عرض بليخانوف بصورة متألقة في عدد من المؤلفات ، وبصورة خاصة في دراسة في **تطور التصور الاحادي عن التاريخ** ،النظريةالماركسيةعنالحقيقة الموضوعية، فربطبصورة واضحة بين التأكيد بقابلية العالم الخارجي للمعرفة وبين التأكيد بقدرة المعرفة البشرية على توفير الحقائق الموضوعية ويقول بليخانوف ، داحضا ميخائيلوفسكي وكاربيف والذاتيين الآخرين الذين كانوا ينكرون بصورة جازمة وجود اية حقيقة موضوعيةوكانوا يزعمون ان الحقيقي هو كل ما يلبي حاجتنا الى المعارف ، وبكلام آخر لا شيء سوى الحقيقة الذاتية لا يجوز البحث عن الحقيقة في ميدان الذاتي لكن في اعقاب دراسة دقيقة لعلاقات الواقع الموضوعية

انه ليعمم حجته:ان الحقيقة الموضوعية انعكاس امينللواقع وانه ليوجدخارجا عنا اشياء وظواهر ، وكذلك خصائصها وعلاقاتها والافكار الحقيقية الوحيدةهي تلك الافكار التي تعكس بامانة ظواهر الواقع وهذه العلاقات ؛ اما الافكار التي تشوهها فهي خاطئة

ان نكران الحقيقة الموضوعية من قبل الذاتيين المعلل بحقيقة ان الحياة تتطور في ملء التناقضات لا يصمد للبحث كما يقول بليخانوف ان وجود التناقضات في الحياة لأبعد ما يكون عن دحض الحقيقة الموضوعية ، بل هو لا يفعل الا قيادتنا اليها وليس طريق المعرفة مستقيما على اي حال « فتناقضات الحياة تجبرنا على النظر الى الواقع بصورة اعمق واوسع وبنتيجة ذلك فان معرفة العالم تصبح حقيقية اكثر انها تعطي حقيقة موضوعية ، مطلقة ، لا تستطيع ان تلغي اي تطور لاحق للمعرفة ، كما لا تستطيع ان تلغي اي تناقض لاحق

واما يؤكد بليخانوف على هذا الغرار امكانية معرفة الحقيقة المطلقة فانه يعبر عن يقينه في لا تناهي المعرفة الانسانية ، يقينه بان الفكر البشري لن يتوقف في منتصف الطريق في طموحه الى معرفة العالم ، وبأن اكتشافات جديدة ستأتي لتكمل وتؤكد

نظرية ماركس العبقرية ، بالضبط مثلما كملت اكتشافات جديدةفي علم الفلك اكتشاف كوبرنيكس واثبتته

ومهما يكن من شيء ، فانه لا يمكن السكوت عن بعض الالتباس الذي يقع فيه بليخانوف أحيانا في مسائل نظرية المعرفة ومثال ذلك تضامنه مع حكم هيوم بأنه من واجب الانسان ان يؤمن بوجود العالم الخارجي وكان لينين يصف هذه العبارة بانها خرقاء ، قائلا ان « كلمة الايمان حتى اذا وضعت بين قوسين صغرين وكررت بعد هيوم ، تكشف بكل تأكيد عن بعض الالتباس في التعبير*

وان اخطر خطيئة في ميدان نظرية المعرفة تستقيم في الموضوعة التي استخدمها بليخانوف عام ١٨٥٢ في ملاحظاته على الطبعة الاولى لترجمة كتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ** ، الا وهي ان احساساتنا أشبه بالهيروغليفات وكان ذلك يعني أن الاحساسات المثارة فينا بالفعل الذي تمارسه علينا مختلف اشكال المادة المتحركة ليست صورا عن العالم الخارجي ، وانها لا تنقل الينا رابطة ظواهر العالم الخارجي الا بصورة اتفاقية « ان احساساتنا نوع من الهيروغليفات تحمل الى معرفتنا ما يجري في الواقع وهذه الهيروغليفات لا تشبه الوقائع التي تعلمنا عنها** ان هذه الخطيئة التي يرتكبها بليخانوف تكشف حتى درجة ما عن اثر هيلمولتز فيه

ولقد وصف بليخانوف الامور في وقت لاحق وكأنه ارتكب هنا مجرد خطيئة في المصطلحات ، في الكلمات ، وقال انه يدرك كل ما في هذا الخطل من مساوىء وعلى اي حال فقد وجد لينين انه من الضرورة بمكان تسجيل هذه الخطيئة التي يرتكبها بليخانوف من حيث هي تقهقر بالنسبة الى صيغ انجلز المادية ، من حيث هي تنازل للا أدرية

وبالرغم من الاخطاء الخطيرة التي يرتكبها بليخانوف في ميدان الفلسفة فان تاريخ الفلسفة الماركسية مدين له بالشيء الكثير فقد فضح التصورات المثالية الرجعية والمناهضة للعلم وأبرز عبث نظريات المعممين الذين يشوهون فلسفة الماركسية ، وانتقد التباس الانتقائيين والوضعيين ، ودافع عن صحة المادية الجدلية

* * *

لقد دافع بليخانوف بحرارة عن الجدلية وطبقها بمهارة على الحياة الاجتماعية واعتبرها بحق من حيث هي فتح للفكر الفلسفي الماركسي ، وعرف كيف يجد فيها عنصر العظمة والجدة الذي يميز ، بصورة موازية للاكتشاف العبقري الذي هو

* لينين **المادية والمذهب التجريبي النقدي** ، **المؤلفات** ، باريس ـ موسكو ، المجلد الرابع عشر ، ص ١٤٥

** انظر ص ٣٥١ من هذا المجلد

التصور المادي عن التاريخ ، مادية ماركس من مذهب الماديين السابقين لـه وان بليخانوف ليسلط النور على المظاهر المختلفة للجدلية المادية ، فيوضح بجلاء نظريـة التطور ، وعلاقات التطور والثورة ، والوثبات ، الخ وانه يبين من وجهة النظر هذه التعارض القائم بين الطريقة الجدلية المادية وطريقة هيغل ، كما انه يـرى الى دور الفلسفة المثالية الهيغلية على اعتبارها أحد مصادر النظرية الماركسية

ويوضح بليخانوف مسائل الجدلية الماركسية في السنوات العشرين الاخيرة من القرن التاسع عشر في سلسلة من المؤلفات **مدافع جديد عن الحكم المطلق أو مصائب السيد تيخوميروف** (١٨٨٩ وهو المؤلف الـذي شكل دفاعه المفصل الاول عـن الجدلية المادية ، و **بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل** ، و **دراسة في تطور التصور الاحادي عـن التاريخ** ، و **دراسات في تاريخ المادية** وكذلك في مؤلفاته عن بييلنسكي وتشيرنيشيفسكي ، أو مقالاته ضد برنشتاين وستروفيه والتحريفيين الآخرين

وكان بليخانوف يسمي هيغل عملاق الفكر الفلسفي المثالي ، ويعتبر أن جدارته العظمى هي في استعادة المنهج الجدلي ان فلسفة هيغل التأملية ، التـي تعتبر أن الواقع يشكل نتاجا لتطور الفكرة المطلقة او الروح العمومي ، تتحلى بهذا التفوق على المادية الميتافيزيائية ، الا وهـو تطبيقها للمنهج الجدلي ويشير بليخانوف الـى أن الفلسفة الهيغلية مجدت المنهج الجدلي ، والى أن هيغل شرح ظواهر الواقع من وجهة نظر ولادتها وتطورها ودمارها ويقول بليخانوف ، مستشهدا بهيغل **« كل مـا هو منته محكوم عليه بالدمار الذاتـي »** .

ان الغلاف الرجعي لنظام هيغل الفلسفي قـد منع الكثيرين من خصوم هـذا الفيلسوف من ملاحظة النواة التقدمية والمجددة لطريقته الجدلية ، نظرية التطور. وان هيغل قـد مارس نفوذا خصبا على الفـكر الفلسفي لعصره ، الامـر الذي أوضحـه بليخانوف جيدا. فهو يبين ان جدلية هيغل تمثل خطوة تقدمية بالنسبة الى الميتافيزياء، وان هيغل قـدم خدمات جلى الى الفكر الانساني بالرغم من تمسكه بالفكرة المطلقة ولقد عمم بليخانوف في الوقت نفسه موضوعة ماركس وانجلز عـن التناقض بين طريقة هيغل ونظامه ، فأبرز المثالية والصوفية اللتين تتشرب بهما الفلسفة الهيغلية لقد بين ما في نظام هيغل من عنصر محافظ وما فيه من تناقض مع فكرة التطور التي هـي المنهج الجدلي ويقول بليخانوف انه اذا كانت الطريقة الهيغلية تتطلب التطور فـان نظامه الرجعي يسعى الى تبرير البنية السياسية الرجعية لالمانيا في ذلك العصر انه يعمل علـى البرهان على « كمال » و « أزلية » النظام الاجتماعي القائم في المانيـا في ذلـك الحين

وكان بليخانوف يرى أن من نقاط ضعف جدليـة هيغل توجهها نحـو الماضي وحـده ولقد قال هيغل ان « الفلسفة تصل دائما متأخرة جـدا » وهي لا تفعـل

الا ادراك ما قد حدث مسبقا ويقول بليخانوف ساخرا انه من المؤكد ان الفلسفة لا تستطيع ان ترد الحياة الى نظام اجتماعي بال قد ولى زمانه لكن أيجب حقا ان تظل الفلسفة دائما مغلقة حيال عملية ولادة الجديد ؟ ان المادية الجدلية وحدها تغلبت على هذه المبالغة كما يؤكد بليخانوف ان جدلية هيغل المثالية متنافرة مع المادية ، غريبة على المادية ، وهي قد تحولت في فلسفة ماركس الى نقيضها المطلق والتام

ويقول بليخانوف في **بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل** « يقول كارل ماركس بحق ان طريقته تمثل النقيضة التامة لطريقة هيغل وبالفعل فقد كان ماركس ، بصفته ماديا ، يفهم الجدلية بصورة مغايرة للمثالي هيغل

ان الماركسية ، خلافا لجدلية هيغل المثالية التي تؤكد حركة الفكر الخالص العفوية وتنكر في واقع الامر تطور الطبيعة ، تطور المادية ، « قد وضعت الجدلية على قدميها » ، وحولتها الى أساس ، ونزعت عنها ستارة السحب المثالية التي لفها هيغل بها

ونصادف أحيانا عند بليخانوف صيغا تشير الى قصور الفكر النقدي حيال فلسفة هيغل ، لكنه لا تجوز المبالغة في ذلك ان جدارة بليخانوف هي في كونه عارض بصورة براقة ومقنعة الطريقة المثالية الهيغلية بالطريقة الجدلية الماركسية

ويؤكد بليخانوف ان الطريقة الجدلية والمادية تترابطان بصورة وثيقة في فلسفة ماركس وانجلز لذا فان الصفة الاشد تمييزا للمادية المعاصرة تقوم في المنهج الجدلي وان هذا ما يميزها بصورة جوهرية من المادية القديمة ، من المادية الميتافيزيائية للقرن الثامن عشر وان المذهب الحديث للتطور يجد أساسه الوطيد في المادية ، وكان بليخانوف يقول عن طريقة ماركس انها الطريقة الاكثر ثورية بين جميع الطرق التي استخدمت حتى الآن ان الجدلية الماركسية أداة للمعرفة لا بديل عنها ، وبواسطتها تنكشف الاتجاهات المتناقضة لتطور الطبيعة والمجتمع

ومن وجهة النظر هذه يخصص بليخانوف في مؤلفاته مكانا واسعا لتفسير الفارق الجذري بين الجدلية والميتافيزياء ، بين الطريقتين المختلفتين من أجل دراسة الواقع والتصدي له ، ان جدلية ماركس ، خلافا للميتافيزياء ، تدرس الظواهر في تطورها المتناقض ، في ترابطها وتبعيتها المباشرة لبعضها بعضا ، في حركتها المتواصلة والدائمة

وان بليخانوف ليأخذ بعين الاعتبار من وجهة نظر الطريقة العلمية الوحيدة ، الطريقة الجدلية ، الميتافيزياء تاريخيا ، وذلك فيما يتعلق بتطور المعرفة وانه ليسلط النور على التهافت العلمي والجوهر الرجعي لوجهة النظر الميتافيزيائية التي تنفي التناقضات والطفرات والثورات ولا تعترف الا بالتبدلات الكمية ان الميتافيزيائيين الذين ينطقون باسم النظرية المبتذلة عن التطور يلوثون مذهبهم بمجلوب من النزعة المحافظة ، وبذلك يشوهون نظرية التطور بالذات .

ان مغزى التصور الميتافيزيائي عن العالم يستقيم ، كما يبين بليخانوف ذلك ، في عدم اعترافه الا بالتبدل الكمي الذي يطرأ على الاشياء والظواهر ان التطور يمثل للميتافيزيائيين في مظهر زيادة أو نقصان تدريجيين في أبعاد الشيء موضع الدراسة ، وينطبق الامر نفسه على دمار الظاهرة فالميتافيزيائيون يفهمون من الدمار مجرد نقصان متدرج للظاهرة حتى تصبح غير ملموسة على الاطلاق لكنه لا يمكن لاي من الزيادة أو النقصان التدريجيين أن يفسرا ولادة الاشياء وزوالها

ولقد كان ماركس سباقا الى تبيان جوهر المنهج الجدلي ، وبليخانوف يفسر جدلية الانتقال من التحولات الكمية الى التحولات الكيفية بواسطة تدرجات الاستمرار وبواسطة الطفرات والثورات ، ويركز نار نقده على ضيق المفاهيم التطورية

ويبين بليخانوف ، في دحضه ليف تيخوميروف الشعبي السابق الذي أصبح مرتدا ، والذي يرفض الصيرورة الجدلية ، وينكر « الثورات العنيفة ، طفرات الطبيعة والمجتمع ، ويزعم أنه من المناسب « بالمعنىالعلمي » التحدث فقط عن « تحويل بطيء لنمط أية ظاهرة كانت » ، ان الجدلية لا يغيب عن نظرها هذا الواقع الذي لا يطاله الشك ، الا وهو ان نفس العملية المستمرة الواحدة هي التي تعمل في سائر مراحل التبدل ، لكنه يظهر في هذه العملية سلسلة من الشروط لا بد فيها للتبدل المتدرج ان يؤول بالضرورة الى طفرة

وبالنسبة الى الاشتراكيين المزودين بالطريقة الجدلية ليست الثورات كما يقول بليخانوف الا مراحل ضرورية بقدر التطور في عملية الصيرورة التاريخية

وحين يفسر بليخانوف العقيدة الجدلية عن الطفرات يبين بذلك ان الطبيعة تدحض لدى كل خطوة افكار الميتافيزيائيين باماطتها اللثام عن تناقض الظواهر ، تدرجات الاستمرار ، الطفرات ، وان الانتقال من الكمية الى الكيفية ، أي الطفرات ، ليحتل مكانا أوسع أيضا في المجتمع

ويستنجد بليخانوف بعدد كبير من الحقائق المأخوذة من تاريخ الانسانية فيحلل بيد معلم العملية الجدلية الخاصة بالانتقال من الكمية الى الكيفية ، عملية الحركة العاملة بالطفرات ان كل طفرة يهيؤها التطور السابق لها ، ولا يمكن أن تحدث دون سبب كاف يقوم في مجرى الحياة الاجتماعية السابقة ويعطي بليخانوف في مقالاته ، وبصورة خاصة المقالات التي كتبها ضد تيخوميروف ، ومن ثم ، بعد عام ١٩٠٠ ، ضد ستروفيه ، تفسيرا نظريا عاما مضبوطا عن عمل قانون الانتقال من الكمية الى الكيفية والعكس بالعكس

ويضع بليخانوف في متناول الجميع قانون وحدة ونضال الاضداد ان كل تطور يتسبب عن تناقضات باطنة ، فهو نتيجة تفاعل المظاهر المتضادة وان تناقض أية ظاهرة معناه انها تطور انطلاقا من ذاتها العناصر التي سوف تضع عاجلا أم آجلا

حدا لوجودها وتحولها الى ضدها الخاص،ذلك أن الاشياء جميعا تتطور بالتناقضات، بصراع القوى المتضادة ذلك هو القانون الكبير الابدي العمومي لتناقض الجديد والقديم ، قانون انكار الشكل المتولد عن مضمون معين بنتيجة تطور هذا المضمون ، القانون الذي يخضع له تطور الطبيعة وتطور المجتمع على حد سواء .

ان تفسير التطور من حيث هو تناقض جدلي داخل عمليات الواقع وظواهره لم يؤد ببليخانوف مع ذلك الى فهم قانون وحدة الاضداد وصراعها من حيث هو قانون الجدلية الاساسي. واذا كان بليخانوف يعترف بهذا القانون ، فانه لا يعتبره من حيث هو يشكل جوهر الجدلية لذا اشار لينين ، مع تقديره العالي لمرافعة بليخانوف في مصلحة طريقة ماركس الجدلية ، اكثر من مرة الى أن بليخانوف لا يصرف ما يكفي من الانتباه الى قانون وحدة الاضداد وصراعها ، وهو القانون الاهم للعالم الموضوعي وللمعرفة وكان لينين يشير كذلك الى أن بليخانوف ، في عرضه لقوانين الجدلية كي يضعها بصورة افضل في متناول الناس جميعا ، يردها الى حصيلة من الامثلة دون ان يعير الاهتمام اللازم الى الجدلية من حيث هي نظرية ماركسية للمعرفة

ولا بد من الاعتراف بالاهمية العظيمة للجهد الذي بذله بليخانوف في نهاية المرحلة ١٨٨٠ ـ ١٨٩٠ من أجل تفهم مضبوط لقانون « انكار الانكار » ؛ فبليخانوف ينهض ضد أولئك الذين يشوهون هذا القانون اذ لا يرون فيه الا تظاهرة « للثلاثية » الهيغلية الشهيرة ، ضد ميخائيلوفسكي على سبيل المثال ، الذي يرد الجدلية الماركسية الى « الثلاثية » الهيغلية بتمسكه بنمط من تعابير ماركس كان بليخانوف يرى في القانون العمومي لانكار الانكار مبدأ الجدلية ، عنصرها النوعي الذي يبرهن على الترابط بين ما يولد وما يزول وانه ليدافع بعنفوان عن ماركس ضد تهمة الصورية ، والخضوع « للثلاثية » الهيغلية ، الخ ، كما يبين خطيئة أولئك الذين يزعمون أن التكهن العبقري الذي يقدمه ماركس بخصوص مآل تطور الراسمالية لا يعتمد الا على « الثلاثية » ان « الثلاثية » لم يستنجد قط بها في الماركسية من حيث هي برهان فليست جدلية ماركس قبلية ، بل هي تقوم على أساس الدراسة الحسية للواقع ، وتسلط النور على الاتجاهات المتناقضة التي تتظاهر في تطور هذا الواقع ان مايشكل قوة المادية التاريخية هو الدراسة المعمقة للعملية التاريخية وليس اللجوء الى « الثلاثية » ويقول بليخانوف ان فكرة حية عن جميع صفات الموضوع الواقعية تتشكل بهذه الطريقة وحدها ، مشددا في الوقت نفسه على عداء الجدلية الماركسية للمخططات المجردة



ان مؤلفات بليخانوف التي تدافع عن المادية الجدلية والتاريخية ، وهــي متألقة بأسلوبها ، طافحة بحرارة المساجلة ، وعميقــة بمضمونها ، تشكل اسهاما غنيا فــي الادبيات الماركسية . انها تسلط النور بطريقة أصيلة على القضايا الاساسية العديدة والموضوعات الكثيرة للمادية الماركسية ، والمنهج الجدلي ، والتصور المادي عن التاريخ وفلسفة الماركسية عموما

لقد كانت مؤلفات جورج بليخانوف الماركسية موجهة ضــد الرجعية والتعمية الفلسفيتين ، نحو تحقيق اعادة تنظيم روسيا سياسيا واجتماعيا ، وتحرير الشعب الروسي وشعوب البلدان الاخرى مــن الاستعباد والاضطهاد الأجتماعي . ولقد خدمت دعاية الاممية البروليتارية وتوثيق الروابط بين الحركة الثورية في روسيا وفي أوروبا الغربية ولــذا فهي لم تفقد اهميتها في الوقت الحاضر

وهذا هو السبب في أن لينين شــدد على ضرورة دراســة مؤلفات بليخانوف الفلسفية واصــر على اعــادة نشرها كــي تمثل في « مجموعــة الموجزات الالزاميــة للشيوعيــة »



حَواشي

الاشتراكية والنضـال السياسي

١ ـ ان **الاشتراكية والنضال السياسي** الذي كتبه بليخانوف في صيف عام ١٨٨٣ ، حين حزم امره على القطيعة مع « ارادة الشعب » ، يشكل في وقت واحد اول نقد للمذهب الشعبي بقلم ماركسي روسي واول مؤلف أصدرته جماعة « تحرير العمل « **دستـور الايمـان الاول للاشتراكية الروسيـة** » (لينـين)

وكانت رغبة بليخانوف ان ينشر هذه الدراسة **في العدد الاول من رسـول ارادة الشعب** (راجـع **المراسلات المحفوظة في** بيت بليخانوف،في‌لينينغراد ،وكذلك الرسائل المنشورة عام ١٩٢٠ **في العـدد الثاني من مجلة الاعمـال والايام**) لكن مفاوضاتـه مع لجنة التحرير باءت بالفشل ، اذ رفض لافروف **وتيخوميروف** اللذان كانا يرئسان تحـرير **الـرسول** ان ينشرا **مؤلفا** تتهم فيه « ارادة الشعب » بالافتقار **الى** اي مبدأ (راجع رسالة تيخوميروف الى لافروف‌بتاريخ ٣ آب ١٨٨٣) وهكذا صدر **الاشتراكيـة والنضال السياسي في** كراسة بواسطة « تحـرير العمل في تشرين الاول من عام ١٨٨٣ تلك كانت **الملزمة الاولى من مكتبة الاشتراكية المعاصرة**

ولقد قدم لافروف تقريرا عنه في السنة التالية في العدد الثاني من **الرسول** (ص ٦٤ ـ ٦٧) ، فاستنكر بعنف القسم الجدالي من المؤلف (راجع **فـي المجـلد الراهن فـي** الصفحات ٦٣ ـ ٧٧ منـه وسالة بليخانوف الى لافروف الـتي تشكل مقدمـة**خلافاتنا**

ولقد اعيد نشر **الاشتراكية والنضال السياسي** في حياة بليخانوف

ـ في مجموعة المقـالات **عـلى جبهتـين** (١٩٠٥)

ـ مع هوامش‌تكميلية في المجلدالاول ، والاوحد، ، من طبعة جنيف لاعمال بليخانوف (١٩٠٥)

ـ في كراسة (١٩٠٦)

ولقد صدرت عنه ترجمات بالبولونية والبلغارية في اواخر القرن التاسع عشر

وان النص الروسي ليتفق مع الطبعة الاولـى‌المقارنة بطبعة مجموعـة **عـلى جبهتـين** وهـوامش المجلد الاول من طبعة جنيف ـ ص ٥

٢ ـ لقد صدر من مجلـة **الارض والحريـة** ، صحيفة الشعبيين الثوريين ، خمسة اعداد (من تشرين ثان ١٨٧٨ حتى نيسان ١٨٧٩) وكان يديرها كرافتشنسكي وموروزوف ، وساعد بليخانوف في لاصدار العدد الاخير . ـ ص : ٥ .

٣ ـ مجلة اصدرها « الاقتسام الاسود   انظر ادناه الهامش رقم ١٤) من مطلع عام ١٨٨٠ حتى نهاية عام ١٨٨١)   وكان يديرها بادىء الامر بليخانوف واكسيلرود وستيفانوفيتش ودوتش.وكان العدد الاول تحت الطباعة في بطرسبورغ حين اكتشفت الشرطة المطبعة ، ومع ذلك امكن اصداره في الخارج ، وكذلك العدد الثاني   اما الاعداد الثالث والرابع والخامس فصدرت في مينسك ـ ص ٥

٤ ـ نشرت في لندن مغفلة من اسم المؤلف ، عام ١٨٨٢ ، غداة تنفيذ حكم الاعدام بالثوري الشهير ولقد كانت من تأليف ليف تيخوميروف . ـ ص ٦.

٥ ـ ماركس وانجلز « بيان الحزب الشيوعي. ـص ٧

٦ ـ اكسيلرود ، الذي كان يمثل روسيا في المؤتمر الاشتراكي الاممي في كوار سويسرا في تشرين الاول عام ١٨٨١ ـ ص ٨

٧ ـ تنويه بافتتاحية العدد السابع من ارادة الشعب (٢٣ كانون الاول ١٨٨١)   حيث ينتقد تيخوميروف بعنف خطاب اكسيلرود في كوار ـ ص ٨

٨ ـ عام ١٨٦٧ في هامبورغ ـ ص ٩

٩ ـ صحيفة دورية اصدرها لافروف في زوريخ ولندن من ١٨٧٣ حتى ١٨٨٧ ، وقد صدر منها خمسة اعداد   وكان لافروف وانصاره الشعبيون الثوريون يسعون الى الاتصال بالاشتراكية الديموقراطية الغربية ، وخاصة الاشتراكية الديموقراطية الالمانية ،وقد تراسل لافروف شخصيا مع ماركس ومع انجلز ـ ص

١٠ ـ كانوا ينادون بالعصيان بأي ثمن ، استنادا الى نظريات باكونين الفوضوية ومن هنا كانت تسميتهم « بالشعبيين المشاغبين   ص

١١ ـ قاد باكونين « وهو خصم عنيد لكارل ماركس ، الفئة الفوضوية السرية من الاممية الاولى التي طرد منها في مؤتمر لاهاي عام ١٨٧٢ ـ ص

١٢ ـ نشر تكاتشوف ، منظر المذهب الشعبي ، عام ١٨٧٤ في زوريخ Offener Brief un Herrn Fr. Engels (« رسالة مفتوحة الى السيد فريدريك انجلز »)   وقد رد انجلزعليها عام ١٨٧٥،في صحيفة Volksstaat « العدد السادس والثلاثون وما يليه ، بمقالة عنوانها « Sosiales aus Russland » « القضايا الاجتماعية في روسيا » ، التي اعيد نشرها عام ١٨٩٤ مع هوامش تكميلية   ويقول انجلز « لا يمكن ان نتصور ثورة اسهل والطف،اذ يكفي ان نطلق الثورة بصورة متواقتة في ثلاث او اربع محلات « فاذا« الثوريون بالغريزة » ، و « الضرورة العملية » « و « غريزة البقاء » يقومون بما تبقى « من تلقاء انفسهم »   وانه ليستحيل حقا ان

نفهم طالما ان الاشياء جميعا على هذا القدرالذي **لا** يصدق من السهولة ، لماذا لم تتحقق **الثورة** منذ زمن بعيد ، لماذا لم يحرر الشعب ولماذا لم تتحولروسيا الى بلد اشتراكي نموذجي — ص ١٢

١٣ — في الروسية Nabat . مجلة اصدرهاتكاتشوف من عام ١٨٧٥ حتى عام ١٨٨١ **في جنيف** اولا ، ثم في لندن وقد دعا تكاتشوف فيها الى تنظيم الثوريين في جمعية سرية من أجل الاستيلاء على السلطة والانبعاث الاجتماعي في روسيا — ص ١٢:

١٤ — في مؤتمر فورونيج (١٨٧٩) ، انقسمت الارض والحرية الى فريقين « ارادة الشعب » الذي كان ينادي بالارهاب ، و الاقتسام الاسود **الذي** كان ينكر فائدة هذا الارهاب ولقد انتسب بليخانوف الى « الاقتسام الاسود من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢ ١٦

١٥ — ٥ شباط ١٨٨٠. ان ستيبان خالتورين (١٨٥٦ — ١٨٨٥ ، عضو اتحاد العمال الروس في الشمال » الذي انتقل بعد القضاء على هذا الاتحادالى صفوف « ارادة الشعب هو الذي نظم العملية — ص ١٧

١٦ — في الطبعة الاولى « **الى مرحلة الحرية التجارية في الغرب** » — ص ١٨

٧٧ — يشير بليخانوف الى افتتاحية العدد الاول (١ تشرين الاول ١٨٧٩) من **ارادة الشعب :** « **هل ناخذ المبادرة في الحملة المناهضة للحكومة وفيالانقلاب السياسي او نستمر في تجاهل العمل السياسي ، مبددين قوانا في الانتفاض امام الشعبمثل سمكة في الجليد** » — ص ١٩

١٨ انصار اشتراكية بورجوازية صغيرة كانت على قدر من الانتشار في المانيا حوالي عام ١٨٤٥. راجع ماركس وانجلز **الايديولوجية الالمانية و بيان الحزب الشيوعي** ، وكذلك مقالة انجلز الاشتراكيون الحقيقيون » — ص

١٩ — مقدمة ماركس وانجلز للطبعة الروسية الاولى من **بيان الحزب الشيوعي** (٢١ كانون الثاني ١٨٨٢ — ص ٢٢

٢٠ — نشرت في **المكتبة الاشتراكية الثورية الروسية** وتلك هي الترجمة الروسية الصحيحة الاولى **للبيان** فحتى ذلك الحين لم يكن هناك الا ترجمة باكونين • جنيف ١٨٦٩ ، مطبعة **كولوكول (الجرس)** ، وهي ترجمة رديئة (— ص ، ٢٢

٢١ — المقصود **المبادىء الاساسية لنظرية الاقتصاد السياسي من أدم سميث حتى ايامنا الراهنة** ١٨٨٠) حيث يقدم ايفانيوكوف ماركس على اعتباره خصما للثورة الروسية ، — ص ٢٤

٢٢ — اشتراكي Ex - cathedra (انظر ادناه الهامش رقم ٣١) ، ونصير « للسلام الاجتماعي » ، ومعجب بالتريديونيونية الانكليزية التيكان يجد فيها علاجا ضد المحاولات الثورية **وأن**

المؤلف الذي يشير بليخانوف اليه هو Ueber das Verhälinis von Arbetislohn und Arbeitzgeit zur Arbettsleitstung (« في علاقات الاجرة ويوم العمل مع الانتاجية ») ، المنشور في لايبزغ عام ١٨٧٦ ، حيث يؤيد برانتانوالفكرة القائلة ان رفع الاجور وانقاص يوم العمل يعودان بالمنفعة على العمال والرأسماليين على حدسواء لانهما يزيدان الانتاجية — ص ٢٨

٢٣ — تأسس عام ١٨٨١ واعيدت تسميته « بالاتحاد الاشتراكي الديمقراطي » عام ١٨٨٤ كان ينادي بخليط من الاصلاحات الديموقراطية البورجوزية والماركسية المفهومة بصورة رديئة والبيان المقصود كراسة حررها مؤسس الاتحاد ، هايندمان :England for all « انكلترا للجميع » نشرت في لندن عام ١٨٨١ راجع مقامة لينين « هايندمان وماركس » — ص ٢٨

٢٤ — تأسس في بطرسبورغ في اواخر عام ١٨٧٨ بانصهار عدة حلقات عمالية وكان يعد اكثر من مائتي عضو ، واستمر في الوجود حتى عام ١٨٨٠ وكان برنامجه الذي أثار بعض الانفعال بين الشعبيين ينتسب الى الاشتراكية الديموقراطية الغربية كان يحدد للرابطة كهدف اخير الثورة الاشتراكية وكهدف مباشر الحصول على الحريات والحقوق السياسية بليخانوف « العامل الروسي في الحركة الثورية — ص ٣٣

٢٥ — بالروسية Zerno صحيفة سرية موجهة الى العمال كان « الاقتسام الاسود » يصدرها من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨١ وقد صدر منهاستة اعداد طبع العدد الاول منها في جنيف ٢٥ تشرين الاول ١٨٨٠) ، والاعداد الباقية في روسيا.وكانت **الحبة** تستهدف نشر الافكار الشعبية بين بروليتاريي المدن — ص ٣٣

٢٦ — نشر تحت عنوان « رسالة الى هيئة التحرير في العدد الخامس (٨ نيسان ١٨٧٩) من **الارض والحرية** ولقد ورد فيه بصورة خاصة **« اننا نعرف ان الحريات سوف تضمن لنا وتضمن لرابطتنا لطف السلطات ، وانها ستمكننا من انتشرح بصورة افضل تصورنا عن العالم وان ننشر افكارنا بصورة اكثر فعالية »** وكان الاتحاد يعتبران مطالب الشعبيين سوف تظل حرفا ميتا طالما لم ينخرطوا في القتال ضد الحكم المطلق — ص ٣٣.

٢٧ — ونقا لرودبرتوس Briefe und sozial politische Aufsatze رسائل ومقالات سياسية واجتماعية) ، منشورات فون رودولفمير ، برلين ١٨٨٢ — ص ٣٥

٢٨ — مؤرخ انكليزي للاقتصاد. ويشير بليخانوف الى Six Centuries of Work and Wages (« ستة قرون من العمل والاجور ») ، المنشور في اكسفورد في ١٨٨٤ — ص ٣٥

٢٥ — اقتصادي من مدرسة مالتوس ، مؤلف **البحث في البر في علاقاته مع الحالة الاخلاقية والرفاهية المادية للطبقات الدنيا من المجتمع** ،وزير الداخلية في عهد لويس فيليب ابان ثورة ١٨٤٨ — ص ٣٥ .

٣٠ ـ راجع في المجلد الثاني من هذه الطبعة :**السيد ستروفيه ينقد النظرية الماركسية للتطــور الاجتماعي** ـ ص : ٣٥

٣١ ـ ممثلو تيار ليبرالي بورجوازي ظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكان يضم عددا من الاساتذة البورجوازيين الالمان الذين كانوا يبشرون في كراسيهم الجامعية « بالنظريات » الاصلاحية عن تحول الرأسمالية الى الاشتراكية ٣٨

٣٢ ـ بالروسيــــة Narodnoié Délo. مجلة صدرت بادارة نقولاس أوتين (باستثناء العدد الاول الذي كان بادارة باكونين) ، سكرتير الفرع الروسي من الاممية الاولى ، ان **قضية الشعب** قـد ايدت ماركس وانجلز ضد الفوضويين الباكونينيين .كان أوتين ينحدر من « الارض والحرية » ، ولـم تنفصل مجلته قط عن النظريات الشعبية كانت تؤمثل المشاعة الزراعيـة ، ولا تقبـل بـدكتاتـوريـة البروليتاريا ـ ص ٤٢

٣٣ ـ المقصود دراسة **في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** (المنشور في هذا المجلد) ، وقد صدر تحت الاسم المستعار بلتوف ـ ص ٤٣

٣٤ ـ راجع افتتاحية ١٥ تشرين الثاني ١٨٧٩ :**« في هذه الجمعية سوف ينحدر تسعون بالمائة مـن النواب من الطبقة الفلاحية ، يعني من حزبنا ، اذا افترضنا انه تصرف بما يكفي من المهارة . ما الـذي تستطيع ان ترسمه مثل هذه الجمعية ؟ انه لاكثر من المحتمل ان تقلب الاقتصاد والدولة رأسا على عقب ... »** ـ ص ٤٦

٣٥ ـ **ارادة الشعب** ، العدد الثالث ـ ص ٤٧

٣٦ ـ منشور حررته اللجنة التنفيذية **لارادة الشعب** في ١٠ آذار ١٨٨١ غداة اغتيال الكسنـدر الثاني وقد اعيد نشره في **تقويم ارادة الشعب لعام** ١٨٨٣ (ص ٩ ـ ١٤) ـ ص ٤٧

٣٧ ـ **« باعتباره تدبيرا مؤقتا ، في انتظـار قرار الجمعية الوطنية » (رسالة الى الكسندر الثالث)** ـ ص : ٤٧

٣٨ ـ بالروسيــــة **« Raznotcenintsy »** (« رجال من مراتب والقاب مختلفة ») مقولـة من المجتمع الروسي في اواخر القرن الثامن عشـرو في القرن **التاسع عشر ، وهم رجال متعلمون من** اصل غير نبيل ، منحدرون من مراتب مختلفة تجـار ، وبورجوازيون صغار ، واكليروس ، وفلاحون ولقـد قدم هؤلاء **الرازنوتشينتسي** جيلا كاملا من الثوريين ،ابطال النضال ضد الحكم المطلق ونظام الرق ـ ص ٤٩

٣٩ ـ شواهد مستعارة من العدد ٨ ـ ٩ (٥ شباط ١٨٨٢) من ارادة الشعب (ص ٣) ـ ص ٥٠ .

٤٠ – بالروسيـة Rabotchaia Gazeta ، صحيفة سرية صدرت في بطرسبورغ من كانـون **الاول ١٨٨٠** حتى كانون الاول ١٨٨١ بادارة جيليابوف من **قبل فريق العمال الاعضاء في** « ارادة الشعب **وان القضاء** على الحزب اوقف صدورها بعد ثلاثـة اعـداد – ص ٥٧

٤١ – بالروسية Rabotnik، جريدة سرية ذات اتجاه باكونيني صدرت في جنيف ١٨٧٥ **١٨٧٦ انتقت الى ايدي** الشعبيين الليبراليين وراحت وقد صدر منها خمسة عشر عددا – ص ٥٧

٤٥ بالروسية Nédélia ، مجلة اسبوعية صدرت في بطرسبورغ من ١٨٦٦ حتى ١٩٠ وفي عام **١٨٧٦** انتقلت الى أيدي الشعبيين الليبراليين وراحت وقد صدر منها خمسة عشر عددا – ص ٥٧ **المثقفين** الى التخلي عن الكفاح الثوري من اجـل القيام برسالتهم التمدينية » – ص ٥٩

٤٣ – نشر عام ١٨٨٣ في العدد الاول مـــن **رسول ارادة الشعب** وقد ورد فيه **« ان رسول ارادة الشعب تعتزم ان تكون ، في الخارج ، الناطقةباسم الاشتراكية كما يتم التعبير عنها في « ارادة الشعب » التي تناضل في سبيل اهداف محـددةتماما ، في شروط محددة تماما »** – ص ٥٩

خلافاتنـــا

١ – أن **هذا** الكتاب الذي ألفه بليخانوف في جنيف عام ١٨٨٤ ونشر في مطلع عام ١٨٨٥ يشكل **الملزمة** الثالثة من **مكتبة الاشتراكية المعاصرة** التـــي يصدرها « تحرير العمل » وكان انجلز يقدره تقديرا **عاليا (راجع** رسالته الى فيرا زاسوليتش بتاريـخ٢٣ نيسان ١٨٨٥

وان فريق بلاغوئييف ، وهو احدى الرابطـات العمالية الاشتراكية الديموقراطية الاولى في روسيا، **قد** كتب يقول بهذا الخصوص في رسالة الى اعضاء« تحرير العمل »

« اذا لم يحقق هذا الكتاب انضماما شاملا الى افكار فريقنا (وان كنا نشاهد منذ الان ظاهــرة من هذا القبيل) ، فانه سيوفر على الاقل وثائـق غزيرة من اجل نقد برنامج « ارادة الشعب » ، وذلك لان اعادة النظر في هذا البرنامج امر لا غنى عنـه بصورة ايجابية في كفاحنا . اذا كان ذلك في مقدوركم، فارسلوا الينا المزيد من الاعداد ... » .

وكان بليخانوف نفسه يعتبر **خلافاتنا** مرحلـة اساسية في النضال ضد المذهب الشعبي ولقـد **اراد** ، بعد صدور الكتاب بعشر سنوات ، ان يكمله بقسم ثان يهاجم فيه الشعبيين الليبراليين وبصورة **خاصة ميخائيلوفسكي وفورنتسوف** ومهما يكن مـن شيء ، فلما كان يملك امكانية الالتفاف حول حظـر **الرقابة** باستخدام اسم مستعار ، حيث اصدر مؤلفين:**دراسة في تطـور التصور الاحادي عـــن التاريـخ و اسس المذهب الشعبي وفقا للسيد فورونتسوف ،المسمى « ف . ف . »** . ولقد فكر فيمابعد في اتخاذ

عنوان **خلافاتنا** مرة اخرى من اجل مناظرة ضـــد الاشتراكيين الثوريين ، ذرية الشعبيين لكنه لـم يتمكن من اكمال المؤلف الذي وفر المواد من اجـــلمجموعة من المقالات لصحيفة **ايسكرا** (عام ١٩٠٣ الاعداد ٣٢ ــ ٣٥ و ٣٩) **البروليتاريـا والطبقـةالفلاحيـة .**

ان **خلافاتنا** ، مثله كمثل جميع مؤلفات بليخانوف السابقةلعام ١٩٠٠ ، لم يعد نشرهقبل عام ١٩٠٥، وكان الحصول عليه في ذلك التاريخ مستحيلا علىوجه التقريب وفي عام ١٩٠٥ ، اعيد طبع الكتـاب في المجلد الاول من طبعة جنيف للاعمال

ولقد تم تحقيق النص الروسي وفقا للطبعة الاولى المقارنة مع طبعة جنيف **للاعمال** ــ ص ٦٣

١٢ ــ ان الزاوية الفهرسية التي ترد فيها اخبار لافروف (ص ٦٤ ــ ٦٧ من العدد الثاني مـن **الرسول** ، نيسان ١٨٨٤) تقدم كذلك كتاب انجلـــز**الاشتراكية العلمية** المنشور هو الاخر في **مكتبـة الاشتراكية المعاصرة** ــ ص ٦٣

٣ ــ كان بليخانوف قد انتسب عام ١٨٧٦ الـىحلقة من المشاغبين الباكونينيين ، وهي حلقـة ذات اتجاه شعبي ثوري سوف تندمج في وقت لاحق مـع « الارض والحرية » ــ ص ٦٧

٤ ــ ان بيان **مكتبة الاشتراكية المعاصرة** المنشورفي جنيف من قبل « تحرير العمل » في ٢٥ ايلـول ١٨٨٣ يحمل توقيعي أكسيلرود وبليخانوف ، وقـداعيد نشره في العام نفسه كملحق للطبعة الاولى مـن **الاشتراكية والنضال السياسي** ، وفي عام ١٩٠٥ فيالمجلد الاول من طبعة جنيف **لاعمال** بليخانوف (ص : ١٣٩ ــ ١٤٠) ــ ص ٦٨

٥ ــ المقصود مقال كاراسوف (ن روسانوف)الذي يحمل عنوان « افلاس العلم البورجـوازي » (**الرسول** ، العدد الاول) ــ ص ٦٨

٦ ــ المقصود مقال تاراسوف الذي يحمل عنوان « العامل السياسي والعامل الاقتصادي في حيـاة الشعوب » الذي نشر القسم الاول منه العدد الثانيلعام ١٨٨٤ من **رسول اراىدة الشعب** وان المؤلف يستنجد بدوهرنغ كي يؤيد ان السياسة تلعب الدورالاول في التطور التاريخي . ــ ص : ٦٨

٧ ــ المنشور في العدد الثاني (١٨٨٤) مـن**رسول ارادة الشعب** ــ ص : ٧٢

٨ ــ بخصوص تكاتشوف راجع المدخل ، ٦ ص ٨٧ ــ ١٢٨ ــ ص ٧٣

٩ ــ الاسم المستعار لفاسيلي فورنتسوف ــ ص ٧٣

١٠ ــ مقتل الكسندر الثاني الذي تم تنفيـذ الحكم به بقرار من « ارادة الشعب » ولقد القيت القنبلة من قبل اغناس غرينيفيتسكي الذي اصـابالانفجار منه مقتلا ، وان منظمي العملية ــ جيليابوف وكيبالتشيتش وصوفيا بيروفسكايا وميخائيلوف وريساكوف ــقداهدموا ، كما اعقبذلكقمعواسعالنطاق ملأ السجون والمعتقلات . ــ ص ٧٣ .

١١ ـ « عدالة الشعب » ، جمعية سرية تمارس **الارهاب** ليكون قدوة، اسسها عام ١٨٦٩ سيرج ونيتشائييف، تلميذ باكونين الذي كان يقول عنه ان رسالته « **الشعب لا تعليم الشعب** » وقد وصف ماركس وانجلز برنامج نيتشائييف بأنه « **شيوعية الثكنة** » . ـ ص ٧٤

١٢ ـ لافروف « في الغربة » (**رسول ارادة الشعب** ، العدد الثاني ، ١٨٨٤ ص ٢٣ ـ ص ٧٤

١٣ ـ المقصود البرنامج الاول لجماعة « تحرير العمل (١٨٨٤) ولقد نشر هذا البرنامج مع ملحوظة تتضمن الاشارة الى انه ليس بالبرنامج النهائي وانه يقبل التصحيحات والتكملات غير المتناقضة مع المفاهيم الاساسية للاشتراكية العلمية (انظر ص ٣٠٩ من **الطبعة الحالية**) ـ ص ٧٥

١٤ ـ شخصية من مهزلة غريبوئييدوف **كثرة الذكاء مصيبة** ـ ص ٧٥

١٥ ـ شاهد من دانتي يختتم مقدمة ماركس للطبعة الاول من الكتاب الاول من **رأس المال** ـ ص ٧٧

١٦ ـ شواهد مستقاة من القسم الاول من « قانون التطور الاقتصادي للمجتمع وقضايا الاشتراكية في روسيا » ، وهي مقالة لبليخانوف نشرت في العددين الثالث والرابع من **الارض والحرية** حين كان المؤلف شعبيا بعد ـ ص ٨١

١٧ ـ نشرت رسائل هرتزن الثلاث الى وليم لنتون باللغة الانكليزية عام ١٨٥٤ وباللغة الروسية عام ١٨٥٨ تحت عنوان **العالم القديم وروسيا** ويستشهد بليخانوف بالرسالة الثالثة المكرسة لروسيا. ـ ص ٨٠٣

١٨ ـ نشرت في العدد ١٢ (١٨٥٨) من Sovrémennik (راجع **نصوص فلسفية مختارة. نقد الموانع الفلسفية** ضد الملكية المشاعة للارض ص ١٨٤ ـ ٢٢٥ ، منشورات اللغات الاجنبية ، موسكو ١٩٥٥) ـ ص ٨٥

١٩ ـ شواهد مستقاة من Studien ، وهو تحليل كتاب هاكسهاوزن : **ابحاث عن العلاقات الباطنة للحياة القومية ، وبصورة اخص المؤسسات الريفية في روسيا (Sovrémennik)** العدد السابع ، ١٨٥٧) ـ ص ٨٩

٢٠ ـ (Sovrémennik) ، العددان الثامن والتاسع (١٨٥٨) ـ ص : ٩٤

٢١ ـ مأخوذ من **النداء الافتتاحي لرابطة الشغيلة الاممية** (الاممية الاولى) ، الذي حرره ماركس عام ١٨٦٤ ـ ص ٩٥

٢٢ ـ **كراسة فارزار ، تلميذ لافروف ، المنشورة** بعد عام ١٨٧٠ حين بدأ الشعبيون « يذهبون الى الشعب » . ـ ص ٩٩

٢٣ ـ في الاصل رسالة الى جول ميشله في عام ١٨٥١ ـ ص ٥.

٢٤ ـ صحفي رجعي ، رئيس تحرير **انبـــاء مـــوسكـــو** (**Moskovskié Védomost**) ـ ص ٦.

٢٥ ـ سلافي النزعة ، رئيس تحرير روسيـــا (**Rouss**) ـ ص ٥.

٢٦ ـ شواهد مستقاة من ماذا نستطيع ننتظر من الثورة ؟ ـ ص ٦.

٢٧ ـ **سلطان الارض** ، عنوان مجموعة من الاقـاصيص بقلم غليب ، وسبنسكي ـ ص ٦.

٢٨ ـ **في رسالة مفتوحة الى السيـــد فريـديريك انجلز** ـ ص : ١١٣

٢٩ ـ « رسالة الى رئيس تحرير مجلـــــة **الى الامام** » (١٨٧٤) ـ ص

٣٠ ـ صدرت في منشورات **الناقوس** في لندنعام ١٨٧٩ ـ ص ١١٤

٣١ ـ صدرت في لندن بتاريخ ١٨٧٤ وكانت تحمل توقيع رئيس تحرير مجلة **الى الامام** ! » ذلك نقد لكراسة تكاتشوف **مهمات الدعاية الثورية في روسيا** ـ ص ١١٤

٣٢ ـ زاوية تحريرية تصادف في اعداد كثيرة من **الناقوس** (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ـ ص ١١٥

٣٣ ـ شواهد مستقاة من مقالة تكاتشوف ما العمل الآن ؟ ـ ص ١١٥

٣٤ ـ راجع فريديريك انجلز **Die Loge Englands** **Past and Presant)** [**المـاضي والحاضر**] بقلم توماس كارليل :١١٨

٣٥ ـ عبارة مأخوذة عن بيساريف هكذا كان الشعبيـون الثوريـون يقـدمون انفسهم احيـانا ص ١١٨

٣٦ ـ **في ادب المفتربين** ، القسم الثـاني برنامج المفتربين البلانكيين المنتسبين الى الكومونة »، **Volksstaat)** ، ١٨٧٤ ـ ص ١٢١

٣٧ ـ بالالمانية **Deutsch Französische Jahrbücher**. اصدرها كارل ماركس وارنولد روج في باريس عام ١٨٤٤ ولم يصدر من **الحوليات** سوى عدد واحد مزدوج في باريس عام ١٨٤٤ ويشير بليخانوف الى مقالة ماركس اسهام في نقد فلسفة الحق عند هيغل ـ ص ١٢٤

٣٨ ـ في مقالة ثاراسوف عن « افلاس العلم البورجوازي راجع الهامش رقم ٢٠ ـ ص ١٢٤.

٣٩ ـ بقلم اوسيب ابتكمان عرض تاريخي ونظري لمبادىء « الاقتسام الاسود ـ ص ١٢٧.

٤٠ ـ هذه الافتتاحية بقلم بليخانوف ١٢٧

٤١ ـ ان جميع الشواهد التالية المأخوذة عن تيخوميروف هي من « ماذا نستطيع ان ننتظر مــن الثورة ؟ » ـ ص ١٢٧

٤٢ ـ لاسال : **برنامج العمال** ـ ص ١٣٢

٤٣ — في « العمل التحضيري للحزب (**تقويم ارادة الشعب لعام ١٨٨٣** ص ١٣٤) — ص ١٣٣

٤٤ — رسالة بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٨٧٣ — ص ١٤٢

٤٥ — عقيدة الاقتصاد السياسي البورجوازي المؤسس على نظريات مالتوس الرجعية ويصوغها ماركس كما يلي في **رأس المال** وفقا لهذه العقيدة ، فان التراكم يؤدي الى ارتفاع في الاجور يزيد شيئا فشيئا عدد العمال حتى نقطة يزحمون عندها السوق جدا بحيث لا يعود الرأسمال كافيا من اجل تشغيلهم جميعا في وقت واحد عندئذ تهبط الاجور ، وينقلب ظهر المجن (كارل ماركس **رأس المال** ، الكتاب الاول ، المجلد الثالث منشورات اليقظة **العربية**) ان الاجر يصادف حده « الطبيعي » في زيادة السكان وان فقر الطبقات الكادحة والبطالة نتيجتان لقانون طبيعي وليس للشروط التي خلقتها الرأسمالية وكان لاسال هو الذي وجد اسم « **القانون الفولاذي** » وقد دان ماركس هذه العقيدة في رأس المال وفي **نقد برنامج غوتا** ، وذلك بدحض نظرية الاجور عند لاسال — ص ١٤٨

٤٦ — شاهد مأخوذ من « ماذا نستطيع ان ننتظر من الثورة ؟ — ص ١٤٩

٤٧ — نقرأ في الطبعة الاولى « **الاشتراكية الديموقراطية الغربية .** » — ص ١٥

٤٨ — شاهد مأخوذ من مؤلف فريدريخ ليست: **Das Nationale System der Politischen Oekonomie** **(النظام القومي للاقتصاد السياسي)** الطبعة الثانية ، شتوتغارت وتوينجن ، ١٨٤٢ ، ص ١٥٤ — ص ١٥٦

٤٩ — المصدر نفسه ، ص ١٥٥ — ص ١٥٦

٥٠ — الرابطة البروليتارية الثورية الاولى التي اسسها ماركس وانجلز في لندن في جنيف ١٨٤٧ وهذا التجمع هو الذي كلف ماركس وانجلز بتحرير **بيان الحزب** الشيوعي (شباط ١٨٤٨ وقد ادى اخفاق ثورة عام ١٨٤٨ في المانيا الى الانفصال بين انصار ماركس وانجلز من جهة وفئة فيليش — سكابر من جهة ثانية (١٨٥٠) وفي اواخر عام ١٨٥٢ بادر ماركس الى حل عصبة الشيوعيين بصورة رسمية ، هذه العصبة التي كانت سلف الاشتراكية الديموقراطية الالمانية والاممية الاولى — ص ١٥٩

٥١ — نشر في ٣٠ آب ١٨٨٠ من قبل اللجنة التنفيذية « لارادة الشعب — ص ١٦٠

٥٢ — « **الصراع الطبقي** » ، صحيفة الحزب الاجتماعي الثوري الاممي ، وكانت تصدر في جنيف باللغة البولونية راجع مقالة بليخانوف عن العدد الثاني (**المؤلفات** ، المجلد الرابع) ص ١٦٦

٥٣ — **مدرسة مانشستر** ، فريق من الاقتصاديين الانكليز (كومون برايت ، الخ) كان في النصف الاول من القرن التاسع عشر الناطق بمصالح البورجوازية الصناعية وكان هذا الفريق يدعو الى حرية التجارة ويرفض كل فكرة عن تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي وقد عارض هذا الفريق بقوة الضرائب الجمركية على القمح ، كما عارض التحديد التشريعي لساعات العمل ، وكان يرى ان المحرك الاول للانتاج

هو المزاحمة الحرة ولقد برهن ماركس ان ديماغوجية مدرسة مانشستر تخفي ارادتها في تحرير المشروع الرأسمالي الحر من اي عائق وفي زيادةاستغلال الطبقة العاملة – ص ١٦٥

٥٤ – بالروسية **Vestnik Evropy** مجلةليبرالية شهرية صدرت في بطرسبورغ من ١٨٦٦ حتى ١٩١٨ ، وكانت مناهضة للماركسية بعد عام ١٨٩٠ .– ص ١٦٨

٥٥ – استعار فورنتسوف هذه اللوحة من مقالةلغيشيناكوف (« الصناعة الروسية وحاجاتها منشورة في العدد العاشر ١٨٧٠ من **رسول اوروبا** – ص

٥٦ – المقصود المعرض الروسي للصناعة والفنون الجميلة الذي اقيم في موسكو عام ١٨٨٢ ص ١٧٥

٥٧ – المقصود **مصير الراسمالية في روسيا** لفاسيلي فورونتسوف الذي يقدم ايساييف تقريرا عنه في عدد كانون الثاني ١٨٨٣ من **الرسول القانوني** (**Iouriditcheski Vestnik**) ١٨٨٠.–ص:٢١١

٥٨ – شاهد مأخوذ من الهامش رقم ٨ منكراسةبليخانوف **ماذا يريد الاشتراكيون الديموقراطيون** ص ١٩٢

٥٩ – يشير بليخانوف الى كتاب توغان – بارانوفسكي **الازمات الصناعية دراسات في تاريخ انكلترا الاجتماعي** – ص : ١٩٣

٦٠ – ان هذه التأكيدات عن لينينمن قبل بليخانوف ، العائدة الى صيف عام ١٩٠٥ ، خاطئة بصورة مطلقة وانا لنتبين هنا بوضوح النزوع عند المنشفيبليخانوف الى التعريض بدفاع لينين ومحاكمته في مصلحة النظرية الماركسية عن الاسواق على اعتبارهااستئنافا لنظرية الاسواق عند الاقتصادي المبتذل جان باتسيت سيي ، وذلك بغرض الاساءة الى البلشفية.ان لينين ، على العكس من ذلك ، ينتقد في مؤلفه **ملحوظة عن نظرية الاسواق** نظرية الاسواق عند سميثوسيي – ص ١٩٣

٦١ – نموذج الفلاح الثري الجديد الذي ابدعهسالتيكوف – شتشيدرين والذي يتكرر في عدد من اقاصيصه وان كولوباييف نظير له – ص : ١٩٤.

٦٢ – **فلاحو التاج .** هم الفلاحون المقيمون علىاراض تابعة للتاج والملزمون بدفع ربع عقاري الى الخزينة بالاضافة الى ضريبة الدولة ولقد كانتالتكاليف المالية المترتبة على فلاحي التاج باهظة جدا. وعلى أي حال ، فقد كان وضعهم ايسر حتى درجة مامن وضع الاقنان كان القانون يخصهم بحق اوسع من اجل استخدام الارض ، ويعترف بهم من حيثهم « احرار اشرار ويسمح لهم بتغيير مكان اقامتهم

فلاحو الاقطاعات مقولة خاصة من الاقنانتخصالعائلة الامبراطورية وان اراضي الاقطاعات ، يعني الاراضي مع الفلاحين الذين يقطنونها ، قد انشئت اجل تغطية تكاليف بلاط القياصرة ولم يكن وضع فلاحي الاقطاعات يختلف على وجه التقريب من وضعالفلاحين الاميريين

الفلاحون المستعبدون مؤقتا : تسمية للفلاحين الاميريين السابقين في روسيا الذيناعفوا من الالزامات

الشخصية الخاصة بنظام الرق وبعد الغاء نظام الرق عام ١٨٦١ ، حصل الفلاحون على حصص من الارض ليس كملكية خاصة بل للانتفاع ، وكانوا ملزمين لقاء ذلك بدفع اداءات مختلفة عينا ونقدا لحساب ملاكي الارض والسادة العقاريين يعني كانوا « مستعبدين مؤقتا » (راجع ايضا هامش رقم ٦٦ من اصل الصفحة ٢١٩ عملية الافتداء – ص ٢٠٣

٦٣ – يريد بليخانوف ان يقول الزراعة المشاعية – ص ٢٠٦

٦٤ – رمز روسيا في النثرية الشهيرة التي تختتم المجلد الاول من **نفوس ميتة**. – ص: ٢٠٩.

٦٥ – لا بد ان الامر اختلط على بليخانوف ليس في الصفحة ٤٠ – ٤١ من مؤلف بروغافين الذي اخذ هذا الشاهد منه ذكر لهذه الناحية – ص ٢١٥

٦٦ – عملية عمدت اليها الحكومة القيصرية بعد الغاء نظام الرق ان اصلاح عام ١٨٦١ كان يتوقع افتداء الفلاحين المستبعدين مؤقتا لاراضيهم .وكان الفلاح المستبعد مؤقتا يتحول في ختام عملية الافتداء الى ملاك يعفى من الاداءات لحساب الملاك العقاري – ص ٢١٩

٦٧ – شاهد مأخوذ من تقرير لافروف عن **الاشتراكية والنضال السياسي** – ص ٢٣٢

٦٨ الاحرف الاولى من اسم ثاراسوف يشير بليخانوف الى تقريره (**الرسول** ، العدد الثاني، ١٨٨٤ ص ٦٧ – ٨٥) عن مؤلف لافرديز **الجمعيات الناطقة نقد الحكومة التمثيلية** باريس ١٨٨٣ – ص: ٢٣٥

٦٩ – « المشاعة الزراعية في جبال بيرينه (Otétchestvennyé Zapiski) العدد التاسع ، ١٨٨٣ ، ص ٥٧ – ٧٨) – ص ٢٤١

٧٠ – اصدره بطرس الثالث في ١٨ شباط ١٧٦٢ ، وكان يعفي النبالة من خدمة الدولة. – ص٢٤٣.

٧١ – الاحرف السوداء غير واردة في نص **الاشتراكية والنضال السياسي** – ص: ٢٥٤

٧٢ – تعبير ادخله ميخائيلوفسكي في الادب كي يسم ذلك النموذج من البشر الذي يرى انه لم يدفع دينه للشعب عن جميع خطايا آبائه وعن جميع اهوال نظام الرق – ص ٢٥٦

٧٣ – **الملكية العقارية المشاعية اسباب انحلالها وسياقه وعواقبه** ، موسكو ١٨٧٩ – ص ٢٦٥

٧٤ – **الدولة والثورة** ، جنيف – بروكسل رابوتنيك » ١٨٧٧ – ص ٢٧٢

٧٥ – **في اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** – ص ٢٧٥

٧٦ – **في انقلاب لويس بونابرت في ١٨ برومير**. – ص ٢٨٣

٧٧ – نشر في العدد ٦ – ٨ (١٨٨٣) من **رسول اوروبا** – ص ٢٨٥

٧٨ – بالروسية Otetchestvenyé Zapiski ، مجلة شهرية تأسست في بطرسبورغ عام ١٨٣٩ ، وقد رأس تحريرها بادىء الامر كراييفسكي ،ومن ثم ، بعد عام ١٨٦٩ ، سالتيكوف – شتشيدرين.

ولكراسوف وايليسايف وقد تكفل بييلنسكي فيها بالنقد الادبي من ١٨٣٩ حتى ١٨٤٦ كما اشترك في تحريرها هرتزن وغرانوفسكي واوغاريف،الخ حظر القيصرصدورها عام ١٨٨٤ ٢٨٥:

٧٥ – اشارة الى الصيغة التي كثيرا ما تترددفي فم ريبيتيلوف ، وهو شخصية تافهة وصاحبة من مسرحية **كثرة الذكاء مصيبة** لغريبوئيدوف ص ٢٨٦

٨٠ – ثوري بولوني حاول ان يقتل الكسندر الثاني في ٦حزيران في باريس – ص ٢٨٦

٨١ – لا ريب ان بليخانوف يقصد الفقرة التي ينشىء فيها تيخوميروف المقارنة بين المحافظين الذين يتوقعون خلاص روسيا على يد الصناعة القوية وبين الاشتراكيين الديموقراطيين الذين ينتظرون هذا الخلاص على يد الطبقة العاملة – ص ٢٨٨

٨٢ – راجع **رسول ارادة الشعب** ، العدد الثاني ، ١٨٨٤ ، ص ٢٣٦ – ص ٢٩٠

٨٣ – ان غولدنبورغ الذي خان رغما عنه اسرار ارادة الشعب قد انتحر في زنزانته في قلعة بطرس وبولس اما جيليابوف فأبدى حتى النهاية شجاعة رائعة – ص ٢٩٣

٨٤ – يستشهد بليخانوف هنا بالمقالة – البرنامج العمل التحضيري للحزب المنشورة في **تقويم ارادة الشعب لعام ١٨٨٣** وقد ورد فيها بصورة خاصة « **ان السكان العاملين المدنيين ، الذين يملكون اهمية كبيرة بصورة خصوصية بالنسبةالى الثورة ، سواء بوضعهم ام بتطورهم الفكري النسبي ، يجب ان ينالوا الاهتمام الاكثر جدية منجانب الحزب** » (ص ١٣٠) – ص ٢٩٣

٨٥ – محاولات اغتيال الكسندر الثاني المهيأةمن قبل « ارادة الشعب » – ص ٢٩٣

٨٦ – ان موجة الاضرابات في ١٨٧٨ – ١٨٨٠ قد اثرت في مجموعة من القطاعات الصناعية وبصورة خاصة صناعة النسيج حيث كان استغلالالعمال وحشيا بصورة خاصة ولقد وقعت خلال ثلاث سنوات اكثر من مائة حالة منالانقطاع عن العمل ولقد كان للحركةطابع اقتصادي على وجه الحصر: كان العمال يؤمنون بالقيصر بعد ، بل رفعوا عريضةالى وريث العرش الكسندر الثالث المقبل اعضاء عديدين من ارادة الشعب اسهموا بصورةفعالة في تنظيم الاضرابات بليخانوف في عدادهم – ص ٢٩٥

٨٧ – في العدد الخاص من **الرسول** (١٨٨٦ في زاوية ظهر حديثا اذ الملحوظة موقعة بالحرفين الاولين **ل . ت** – ص ٣٠٦

٨٨ – ان مقال « منعطف محتوم كتبه بليخانوف بمناسبة مقدمة تيخوميروف للطبعة الثانية من كتابه **روسيا السياسية والاجتماعية** وان الكراس **مدافع جديد عن الحكم المطلق او مصائب السيد تيخوميروف** يشكل جوابا على كراس تيخوميروف « لماذا لم اعدثوريا » وكان بليخانوف قد كتب تقريرا صغيرا عن الكراس نفسه . راجع في هذا المجلد مقالة « مدافعجديد عن الحكم المطلق . – ص ٣٠٦ .

برنامج الفريق الاشتراكي الديموقراطي

« تحرير العمــل »

– لا بد ان بليخانوف حرر هذا المشروع فيخريف ١٨٨٣ عند تأسيس « تحرير العمل » وهذا ما يمكننا استنتاجه من مراسلات اعضاء الفريق والاشارة الى هذا النص من قبل دوتش في رسالة الى الرفاق في روسيا

وان البرنامج الذي نشر في كراسة في جنيفعام ١٨٨٤ قد ورد في المجلد الاول من طبعة جنيف **لاعمال** بليخانوف ١٩٠٥

ويطابق النص الوارد في هذا المجلد نص المجلدالثاني من طبعة موسكو – لينغراد **لاعمال** بليخانوف ٢٤ مجلدا ١٩٢٣ – ١٩٢٧ الذي اعد وفقا لطبعة١٩٠٥ وهي الطبعة الاخيرة التي صدرت في حياة بليخانوف ٣٠٩

٢ – فيما يتعلق بهذه النقطة التي تم الاحتفاظ بها في مشروع عام ١٨٨٧ يلاحظ لينين عام ١٨٩٩ في **مشروع برنامج لحزبنا : « لا يمكن ، من وجهة نظرمبدئية ، ربط انتصار الاشتراكيـــة باستبـــدال البرلمانية بتشريع شعبي مباشر** (**المؤلفــات** ، باريس – موسكو المجلد الرابع ص ٢٤٥ ٢١٠

٣ في الفقــرات المتعلقــة « بالانتيلجنتزيا الاشتراكية يتضح الماضي الشعبي الخاص بمؤلفيها – ص

٤ – عام ١٩٠٧ ، **في البرنامج الزراعي للاشتراكية الديموقراطية في الثورة الروسية الاولى للاعوام ١٩٠٥ – ١٩٠٧** يشير لينين بهـــذا الخصوص :« **ليست خطيئة هذا البرنامج مطلقا ان فيه مبادىء او مطالب خصوصية مغلوطة . ان مبادئه صحيحة...ان خطيئة هذا البرنامج طابعه المجرد ، انعدام ايــة وجهة نظر صحيحة الى الموضوع ومن المؤكد انه يكون من قبيل السخف لوم مؤلفي البرنامج عــلى هذه الخطيئة ، هم الذين عرضوا للمرة الاولى بعض المبادىء قبل وقت طويل من تكوين الحزب العمالي. ان الامر على النقيض من ذلك ، اذ يجب التأكيـــدبصورة رئيسية على ان هذا البرنامج ، على بعــد عشرين عاما من الثورة الروسية ، يعترف بالطابــعالحتمي « لمراجعة جذرية » لمسالة الاصلاح الزراعي.»**

المؤلفات ، باريس – موسكو ، المجلد الثالث عشر ٢٦٨ – ٢٦٩ – ص

٥ – نجد هنا تأثير لاسال ان ثمة بندا مماثلافي برنامجغوتا لعام ١٨٧٥ ويجد لينين ، عام ١٨٩٩، انه يجب حذف هذه النقطة من برنامج **الاشتراكيــة**الديموقراطية الروسية وعلى أي حال فانـــه سيعترف بان وجودها كان امرا طبيعيا في مرحلــة تحرير العمل . – ص ٣١٣ .

٦ ـ بخصوص الطابع المغلوط لموضوعة المشروع الاول للبرنامج عن ضرورة الارهاب الفردي ، راجـــع ملحوظة بليخانوف ، ص ٣٠٠ ـ ص ٣١٣

٧ ـ ان برنامج عام ١٨٨٧ **لا** يأخذ بعين الاعتبارمطلقا امكانية « حركة ثورية خاصة » بطبقة الفلاحين. وعلى اي حال ، فان ايا من المشروعين الاول والثاني**لا** يسلط النور حقا على دور الطبقة الفلاحيـــة **في** الثورة البورجوازية ، ولاعلىحاجة البروليتاريا الملحةالى التحالف مع طبقة الفلاحين في سبيل تحقيـق النصر على القيصرية ـ ص ٣١٣

مشروع برنامج

الاشتراكيين الديموقراطيين الروس

ـ ان **مشروع برنامج الاشتراكيين الديموقراطيين الروس** ، وهو البرنامج الثاني «لتحرير العمل» المصاغ عام ١٨٨٧ قد نشر في جنيف عام ١٨٨٨ ،كملحق لكراسة **مــاذا يريـــد الاشتراكيــون الديموقراطيون** ومن عشر سنوات اعيد نشره في جنيف كملحق لكراسة اكسيلرور **تأملات في قضايا وتكتيك الاشتراكيين الديموقراطيين الروس في اليومالراهن** وان **التقويم الاشتراكي الديموقراطي لعــام ١٩٠٢** يعيد نشره جنيف ، منشورات فريق بوربا وقد طبعه كوكلين عام ١٩٠٣ مع **بيـان مـن اجل اعادة افتتاح منشورات فريق « تحرير العمل »**. وسوف تكون تلك هي المرة الاخيرة التي ينشر فيهافي حياة المؤلف

وان النص الحالي ليطابق نص المجلد الثاني مرطبعة موسكو ـ لينغراد **للاعمال** وكان لينين يقدره تقديرا عاليا **المؤلفات الكاملة** ، باريس ـ موسكو ،المجلد الرابع ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ٣١٤

٢ ـ راجع الهامش رقم ٢ في ص ٣١٢ ـ ص ٣١٤

٣ ـ عام ١٨٩٩ ، وجد لينين انه من النافل يحلل في حيثيات البرنامج«اسباب«عدماستعرار» الخ ، المثقفين (**المؤلفات** باريس ـ موسكو ،المجلد الرابع ص ٢٤٤ ٣١٥

٤ ـ يلاحظ لينين عام ١٨٩٩ بهذا الخصوص **اننا نرى انه لا مكان للاشارة في برنامج**الحزب **العمالي الى وسائل العمل التي كانت ضرورية عام ١٨٨٥ في برنامج فريق الثوريين المقيمين في الخارج ... وكيما تكون جميع الاشيا١ واضحة ، لنحدد في الحالان الارهاب في رأينا الشخصي هو** في الوقت الراهن **وسيلة للنضال غير مناسبة ، وان من واجب الحزب**(من حيث هو حزب) **ان يرفضه (حتى الوقت الذي يستلزم فيه تغير في الشروط تغيرا في التكتيك معه).»المؤلفات** ، باريس ـ موسكو المجد الرابع ص ٢٤٤ . ـ ص ٣١٦ .

٥ ــ ورد في الطبعتين الاولين استنادا الى هذه **الحقوق** فان الحزب العمالي **سوف يصدر** ولقد ادخل التصحيح في طبعة عام١٩٠٣ ، تبنته طبعة **الاعمال** ــ ص ٣١٧

٦ ــ يلاحظ لينين بهذا الخصوص « **يبدو لي ان الفكرة الاساسية المعبر عنها هنا صحيحةكل الصحة، وانه من واجب الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي ان يسجل بالفعل في برنامجه مطلبا مناسبا .** » **المؤلفات** ، باريس ــ موسكو المجلد الرابع ، ص ٢٤٨

وعلى أي حال فقد كان يرى ان المطلب، بالنسبة الى نهاية القرن التاسع عشر ، يفتقر الى الوضوح. وكان ذلك هو رأي بليخانوف ايضا وانه ليفسر صيغته بدافع « الدبلوماسية وذلك في **تعليق على مشروع برنامج الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي في روسيا** ــ ص ٣١٧

٧ ــ بخصوص التصحيحات والاضافات على هذه النقطة ، راجع لينين **مشروع برنامج من اجل حزبنا** **المؤلفات** ، باريس ــ موسكو ، المجلد الرابع،ص ٢٣٥ ــ ٢٤٦ ــ ص ٣١٧

٨ ــ راجع الهامش رقم ٥ من اجل **برنامج فريق« تحرير العمل »** ــ ص ٣١٧

٩ ــ يلاحظ لينين بهذا الشأن عام ١٨٩٩ «**حين كانت تقاليد المذهب الشعبي الثوري حية بعد ، فقد كان مثل هذا البيان كافيا ؛ اما اليوم ، فان من واجبنا ان نبدأ نحن انفسنا مناقشة « مبادىء النشاط الاساسية » في قلب الطبقة الفلاحية اذا كنا نريد للحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي ان يصبح المناضل الطليعي للديموقراطية** **المؤلفات** ، باريس ــ موسكو ، المجلد الرابع ، ص ٢٥٣ ص ٣١٧

مدافع جديد عن الحكم المطلق

او مصائب السيد تيخوميروف

١ ــ ان الدافع الى كتابة كراسة **مدافع جديدعن الحكم المطلق او مصائب السيد تيخوميروف** هو كراسة تيخوميروف **لماذا لم اعد ثوريا** التي اثارت ضجة كبيرة ونشرت بالروسية في باريس عام ١٨٨٨

ان ليف تيخوميروف،وهو عضوسابق في «الارض والحرية وعضو اللجنة التنفيذية لارادة الشعب » ، قد خان القضية الثورية وافترى على الثوريين الروس وفي اعقاب نشر كراسته الدنيئة طلب العفو عنه عام ١٨٨٨ وعاد من المهجر الى روسيا في ١٨٨٩ وسرعان ما اصبح احد المدافعين عن الحكم المطلق وواحد من اشد ايديولوجية حماسة ، فأسهم في أصدار الصحيفة الرجعية الملكية **موسكو فسكايه فيدموستي** ثم اصبح رئيس تحريرها

وقد اعطى بليخانوف تقريرا عن الكراسة غداة نشرهـــا بالذات ، في آب ١٨٨٨ ، وكتب يقـــول بصورة نبوئية . « **هذا هو الرجل الذي يجب ان يعهد اليه بصحيفة موسكو فسكايه فيدموستي . اية نعمة يشكلها هذا المفكر الظريف بالنسبة الى صحافتنـاالرجعية ! »**

وكان يهيىء في هذه الاثناء ردا اكثر تفصيلاصدر **في** شكل **مدافع جديد عن الحكم المطلق** ، وهو الملزمة التاسعة في **مكتبة الاشتراكية المعاصرة** ، وذلك في جنيف عام ١٨٨٩ واعيـد نشـر الكراسة في بطرسبورغ عام ١٩٠٦ كملحق لمجلة **سوكول** ، لكـــنبصورة قانونية **هذه** المرة ، مع تصحيحات من الرقابة كلت حدتها حتى درجة كبيرة ، وبصورة خاصة فـي الفقرات المتعلقة بالاسرة الامبراطورية

وان النص الراهن هو نص المجلد الثالث مـنطبعة موسكو ـ لننغراد للمؤلفات ، وهو طبق الاصل عن طبعة جنيف ـ ص ٣١٨

٢ ـ في الرسالة الشهيرة الى غوغول انظر **النصوص الفلسفية المختارة** ، ص ٥٨٦ ـ ٥٩٥ منشورات اللغات الاجنبية ، موسكو ١٩٥١ ـ ص ٣١٩

٣ ـ في الروسية **روسكي فيستنيك** ، وهـــي مجلة شهرية فوق رجعية بادارة كاتكوف ـ ص ٣١٩

٤ ـ شخصية من شخصيات غريبوئيدوف في **كثرة الـذكاء مصيبـة** ، وهو يجسد الوصولية ص ٣٢٤

٥ ـ يستشهد بليخانوف وفقا لترجمة ميخائيلوف « **المحسنة** » من قبل الرقابة وكان ميخائيلوف قد كتب « « خارج سلطان **الله** ـ ص ٣٢٦

٦ ـ احد ابطال الملاحم الروسية من القـرنالثاني عشر حتى القرن الرابع عشر ، وواحد مـــن الشجعان الذين دافعوا عن الارض الروسية وكـانايليا مورروميتز قد اقعده مرض في ساقيه لسنوات عديدة قبل ان يحقق مآثره الاسطورية،وهذه الصورةهي التي يستخدمها بليخانوف كي يبين ان المشاعـة التي كانت تشكل في نظرية الشعبيين « اساسا »للحياة القومية لم تعد تمثل سوى شكل شائخ ،متهاو، على وشك الانهيار ـ ص ٣٢٧

٧ ـ انظر العدد رقم ٣ من **ارادة الشعب** ، الاولمن كانون الثاني ١٨٨٠ ـ ص ٣٢٨

٨ ـ انظر بخصوص مؤتمر فورونيج الهامش رقم١٤ في الصفحة ٧٣١ . وان مؤتمر ليبيتسك الذي عقد عشية مؤتمر فورونيج قد جمع أنصار الارهاب وينوهبليخانوف هنا بوجهة النظر التي دافع عنها في مؤتمر فورونيج حيث نهض بقوة ضد الارهاب واما لـم يحصل على التأييد غادر المؤتمر وحـرر ملحوظـــة بخصوص حوافز استقالته من « الارض والحرية .انظر مقالته بعنوان « التاريخ البائس لحزب الشعب » . ـ ص ٣٢٩ .

٩ ـ **روسيا عام ١٨٣٩** (باريس ١٨٤٣) يتحدث كوستين **في** هذا الكتاب عن انطباعاته السفرية ويدين **الاوتوقراطية** ولقد كلف المكتب الثالث (الشرطة السياسية **نقولاس غريتش** بالرد عليه في الكراريس الصادرة بالفرنسية والالمانية ـ ص ٣٢٤

١٠ ـ بالروسية **موسكو فسكيه فيدوموستي** صدرت من ١٧٥٦ حتى ١٩١٨ ، ويعود تاريخ **اتجاهها فوق الرجعي** الى ادارة كاتكوف ـ ص ٣٢٤

١١ ـ شخصيات من **النفوس الميتة** لغوغول ـ ص ٣٣٧

١٢ ـ آلت سياسة **الحكومة** الروسية الخاضعة لمصالح الرجعية **الاوروبية** الى تدمير **نفوذ الاوتوقراطية** الروسية في رومانيا وبلغاريا وبلاد الصرب ومعذلك حافظت شعوب هذه البلدان دائما على عواطف **الود** حيال الشعب الروسي الذي ساعدها على التحرر من النير التركي ـ ص ٣٣٩

١٣ ـ ان الكسندر الثالث ، المذعور لاغتيال والده ، اعتكف في قصر غاتشينا ، قريبامن بطرسبورغ ، طوال عامين **في** اعقاب ارتقائه العرش ويصفه ماركس وانجلز « **بأسير الثورة** » في مقدمة **الطبعة** الروسية من **البيان** (١٨٨٢) ـ ص ٣٤٢

١٤ ـ صحفي اميركي ، وهو مبعوث خاص لمجلة **سنتوري ماغازاين** ولما كانت السلطات الروسية عارفة « بعدائه للارهابيين فتحت له على مصاريعها ابواب السجون والمعتقلات في سيبريا التي زارها **في** ١٨٨٤ ـ ١٨٨٦ ، فاذا ما رآه جورج كينان هناك يثير عواطفه .وعند عودته الى الولايات المتحدة **نشر** سلسلة من التقارير الصحفية القاضيه بالنسبة الى الاوتوقراطية الروسية وقد منعت كتبه في روسيا حتى عام ١٩٠٥ ـ ص : ٣٤٣

١٥ ـ المدعي العام في محاكمة ، « ارادة الشعب » المسماة « محاكمة المائة والثلاثة والسبعين » (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) ، وقد تحول استجوابه الى فضيحة من جراء تفاهته وتهافته وافتراءاته وهو الاستجواب **الذي** نظمه شعرا احد المتهمين في سياق جلسات المحكمة بالذات وان كراسة منسوخة « **لارادة الشعب** » (١٨٨٣) **قد عممت هذه المسخرة** ـ ص ٣٤٧

١٦ ـ انظر الهامش رقم ٦١ في الصفحة ٧٣٩ ٣٤٩

١٧ ـ جواب رازوفاييف (**في فيللا مونبروبوه**) على سائل سأله كيف سوف يستطيع الاستمرار **في** كسب المال اذا « **كان الاخرون لا يملكون فلسا** » ـ ص ٣٥٠

خطاب في المؤتمر الاشتراكي الاممي
في باريس

١ ــ انعقد المؤتمر الاشتراكي الاممي في باريس، وهو اول مؤتمر للاممية الثانية ، من ١٤ ــ ٢١ تموز ١٨٨٩ وكان بليخانوف يمثل فيه تحرير العمل »، وذلك دون توكيل نظامي وان خطابه الذي اختتمه بالكلمات الشهيرة عن انتصار الحركة الثورية من حيث هي حركة عمالية قد حصل على تقدير جيد ، وبصورة خاصة من قبل انجلز وننشر هنا

آ ــ اعادة الترجمة عن الروسية للنص الاصلي الملقى بالفرنسية

ب ــ ترجمة النص الروسي الذي نشر عام ١٨٨٠ في جنيف في العدد الاول من **الاشتراكي الديموقراطي** . ــ ص : ٣٥٣

بمناسبة الذكرى الستين
لوفاة هيغل

١ ــ ان **بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل** قد كتبه بليخانوف بالالمانية من اجل مجلة **داي نيوزيت** وهي المجلة النظرية للاشتراكية الديموقراطية الالمانية التي اسسها كارل كاوتسكي في شتوتغارت عام ١٨٨٣ ولقد نشر المقال عام ١٨٩١ في الاعداد السابع والثامن والتاسع وامتدحه انجلز (انظر خاصة رسالته الى كاوتسكي بتاريخ ٣ كانون الاول ١٨٩١ علم بليخانوف بهذا التقدير كتب اليه في ٢٥ آذار ١٨٩٣

« بلغني انك كتبت الى كاوتسكي عدة اسطر لطيفة بشأني تتعلق بمقالي عن هيغل . اذا كان هذا الامر صحيحا ، فلست اتمنى أي مديح آخر ، وهمي الوحيدة الا اكون تلميذا غير أهل لمعلم مثل ماركس ومثلك شخصيا . »

وفي عام ١٨٩٢ صدرت ترجمة للمقال في مجموعة بلغارية **الاشتراكي الديموقراطي** ، فهنأ انجلز محرري هذه المجموعة وفي عام ١٨٩٤ صدرت ترجمة فرنسية في **العصر الجديد** (العددان العاشر والحادي عشر) ولم تصدر الطبعة الروسية الاولى المراجعة من قبل بليخانوف نفسه ، الا عام ١٩٠٦ في مجموعة بعنوان **نقد نقادنا** (سان بطرسبورغ)

والنص الراهن يطابق طبعة موسكو ــ لنفراد **للمؤلفات** (المجلد السابع) التي تعيد نشر النص الروسي لعام ١٩٠٦ وقد روجع الاصل بالالمانية ٣٥٦

٢ ــ انظر **رأس المال** ، المجلد الاول ، خاتمة للطبعة الثانية ، وكذلك رسالة ماركس الى كوغلمان بتاريخ ٢٧ حزيران ١٨٧ ــ ص ٣٥٦

٣ ــ انظر في المجلد السابع من طبعة موسكو ــ لنعراد المقالة التي يكرسها بليخانوف له . ــ ٣٦٧ .

تنبيه وملحوظات من اجل الترجمة الروسية
لكتاب انجلز
لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية

١ ـ نشر بليخانوف في جنيف عام ١٨٩٢ في **مكتبة الاشتراكية المعاصرة** ، ترجمته مع التنبيه والملحوظات لكتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** الذي صدر عام ١٨٨٦ في **نيوزيت** .

واصدر طبعة ثانية ، في جنيف ايضا ، عام ١٩٠٥ ، كذلك في **مكتبة الاشتراكية المعاصرة** ، وكانت تتضمن مقدمة اوسع جدا مع تصحيحات كبيرة في الملحوظات

ونجد هنا وفقا لنص طبعة موسكو ـ لننغراد التي تقابل طبعتي ١٨٩٢ و ١٩٠٥ مع المخطوطات المحفوظة في دار بليخانوف)

آ ـ تنبيه عام ١٨٩٢

ب ـ ملحوظات عام ١٨٩٢ مع التصحيحات المدخلة عام ١٩٠

اما مقدمة عام ١٩٠٥ فسوف تنشر في المجلد الثالث من الطبعة الحالية ـ ص ٣٨٠

٢ ـ في الروسية **فابروسي فيلوسوفيبي اي بسيكولوغيي** استمرت هذه المجلة التي تأسست عام ١٨٨٩ في الوجود حتى عام ١٩١٨ ولما كانت محافظة جدا فقد خدمت كنقطة تجمع للمثاليين من جميع المدارس الذين تتابعوا خلال هذه السنوات الثلاثين الكانطية الجديدة ، والماخية ، وتيار فيخي الخ ـ ص ٣٨٠

٣ ـ يسمي بليخانوف الاتجاهات المادية للسينات من القرن الماضي اتجاهات الرفض بسبب انكارها الثوري للواقع الروسي في ذلك الحين ، وبسبب نضالها ضد العبودية والاوتوقراطية ـ ص ٣٨٠

٤ ـ سان **بطرسبورغ** عام ١٨٩٠ وفي القسم الثالث من الملحق الذي يحمل عنوان الفلسفة عند الروس تلخص الحركة الفكرية للستينات في الاسطر القليلة التالية

« ان هذه السنوات الصاخبة تتصف بظهور المادية . ان انصار هذا المذهب ، تشير نيشيفسكي وانطونوفيتش وبيساريف ، يثيرون الاهتمام بافكارهم اقل مما يثيرونه بالدور الذي لعبوه في ذلك الحين . ولم يلاق ايورليفيتش اية صعوبة في الخلاص من هذا التيار فيما يتعلق بالمبادىء الفلسفية ، لكنه كان من الاصعب عليه جدا ان يعارض نفوذ هؤلاء الكتاب ...» ـ ص ٣٨٠

٥ ـ فيما يتعلق بصعوبة الحصول على **العائلة المقدسة** (الصادر عام ١٨٤٥) ، انظر مثلا هذه الرسالة من بيرازيتش الى بليخانوف الذي طلب منه ان يعيد نسخة من الكتاب

وتاريخ الرسالة فيينا ، في كانون الاول ١٨٩٢

« كان يجب ان ابلغ البارحة نتائج المفاوضات الجارية مع الدكتور فكتور ادلر الذي يبدو انه المالك الوحيد لهذا المؤلف في الاوساط التي اختلف اليها ... وسوف اسعى لنسخه وارسل المخطوط لك .»
ـ ص ٣٨٠

٦ في العدد التاسع لعام ١٨٨٥ وهذه فقرة من الفصل « المعركة النقدية ضد المادية الفرنسية المقدمة تحت عنوان » المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر ولقد ترجم بليخانوف عام ١٨٩٢ هذه الفقرة ونشرها كملحق للكتاب **لودفيغ فيورباخ** وفي عام ١٨٨٥ كان قد هيأملخصا لهمع مقتطفات كبيرة من اجل **الاسبوع** ولم تنشر هذه الدراسة بعدئذ ، ربما بسبب انتقال **الاسبوع** الى ايدي الشعبيين الاحرار ، وهي لم تنشر الا بعد وفاةبليخانوف ـ ص ٣٨٠

٧ ـ لم تصدر الرجمة الروسية الا عام ١٩٠٦ في بطرسبورغ ، في منشورات **نوفي غولوس** ، وهي ناقصة ـ ص ٣٨٠

٨ ـ **في تاريخ المادية ونقد اهميتها الراهنة** ،بطرسبورغ ، ١٨٩١ ـ ص ٣٨١

٩ ـ **لودفيغ فيورباخ** ، شتوتغارت ١٨٨٥ ـص ٣٨١

١٠ ـ المقصود **تأملات في تاريخ الدين والفلسفةفي المانيا** ـ ص : ٣٨٢

١١ ـ انظر مؤلفات هنري هايني التي جمعها ارنست أيلستر ، لايبزغ وفيينا ـ ص : ٣٨٢

١٢ ـ انظر الفصل المعنون ، « موسكو الشبان ـ ص ٣٨٣

١٣ ـ انظر الرسالة الى بوتكين بتاريخ الاول من آذار ١٨٤١ انه لخطأ واضح القول ان بييلنسكي تراخى في خدمة النظري » منذ الاربعينات ، يعني بعد رفضه الاستسلام للواقع ـ ص ٣٨٦

١٤ ـ انظر رسالة بييلنسكي الى أنينكوفبتاريخ١٥ شباط ١٨٤٨ ـ ص ٣٨٦

١٥ ـ الملقاة في ربيع هام ١٨٩٨بمناسبة الذكرىالخمسين لوفاة بييلنسكي امام المغتربين الروس في جنيف وزوريخ وبرن ـ ص ٣٨٧

ـ العنوان المضبوط هو : **Rheinische Zeitung für Politik, Handel und Gewerbe.**
المجلة الرينانية من اجل السياسة والتجارة والصناعة ») ، وقد تأسست بمساعدة الهيغليين اليساريين من قبل بعض اعضاء البورجوازية الرينانيةالراديكالية المعارضة للحكومة البروسية.وقد اتخذت **المجلة** تحت ادارة ماركس طابعا ديموقراطيا ثوريا .ويشير لينين في مقاله عن ماركس الى **« اننا نرى ماركس ينتقل من المثالية الىالمادية ومن الديموقراطيةالثورية الى الشيوعية »** ابان اسهامه في **المجلة الرينانية » المؤلفات** ، باريس ـ موسكو ، المجلد الرابع والعشرون ، ص ٤١ ، ٧٥ ـ ص ٣٨٨.

١٧ ـ في الحقيقة ان **المجلة الرينانية الجديدة**صدرت من ألاولمن حزيران١٨٤٨حتى ١٩ ايار١٨٤٩. ويقول انجلز في مقالته ماركس والمجلة الرينانيةالجديدة » (١٨٨٤) أن **المجلة الرينانية الجديدةكانت،** تحت ادارة ماركس الاكثر شهرة بين الصحف الالمانية للسنوات الثورية » **« لم يكن لاية** صحيفة المانية ، قبلها او بعدها ، مثل هذه القوة وهذا النفوذ ، كما لو لم تكن قادرة،**مثل المجلةالرينانية الجديدة** ، على كهربة الجماهير البروليتارية »

ويقول لينين انها « تظل في ايامنا النموذج الذي لم يتجاوز ، الصحيفة الفضلى للبروليتاريا الثورية».

لينين **المؤلفات** ، باريس ــ موسكو ، المجلد الواحد والعشرون ص ٧٦ ــ ص ٣٨٩

٨١ــ العنوان المضبوط Die gute Sache der Freiheit und meineeigemp Angelegenheit

(« القضية العادلة للحرية وقضيتي الخاصة ص ٣٩٤

١٩ ــ في « ما هو التقدم » ، « ما هي السعادة » ، « ملحوظات رجل عامي ــ ص ٣٩٧

٢٠ ــ يستخدم بليخانوف بصورة خاصة الفصل الثاني « طبيعة الدين ــ ص ٣٩٧

٢١ ــ مجلة اشتراكية تأسست في باريس في كانون الثاني ١٨٩٩ وقد نشرت اجوبة الاستفتاء في الاعداد ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩ و ــ ص ٣٩٩

٢٢ ــ يستهدف بليخانوف الماركسيين السابقين « الشرعيين مثل بردياييف وبولغاكوف الذين انصرفوا حوالي اواخر القرن الى نقد » ماركس من وجهة النظر الكانطية ، ومن بعد اعتنقوا الصوفية ــ ص ٤٠٠

٢٣ ــ هذا فصل من الايديولوجية الالمانية ــ ص ٤٠

٢٤ ــ **المركب البخاري** الويستفالي ، مجلة شهرية صدرت تحت اشراف الاشتراكي الحقيقي لوننغ في بيليفيلد ، ومن بعد في بادربورن من كانون الثاني ١٨٤٥ حتى آذار ١٨٤٨ ــ ص ٤٠

٢٥ ــ بالروسية Osvobojdénié مجلة اصدرها ستروفيه في شتوتغارت وفي باريس من ١٩٠٢ حتى ١٩٠٥ ؛ وكانت ابتداء من ١٩٠٤ صحيفة « **اتحاد التحرر** » ذي الاتجاه الليبرالي البورجوازي الذي سوف يشكل نواة حزب « الكاديت » ، وقد ادانها المؤتمر الثاني للحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي في روسيا عام ١٩٠٣ ، بناء على اقتراح بليخانوف ولينين ، على اعتبارها مناهضة للثورة ومناهضة للبروليتاريا ــ ص ٤٠١

٢٦ ــ الصحيفة الرسمية للحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي في روسيا ، وقد صدرت جنيف من ١٤ ايار حتى ١٢ تشرين الثاني ١٩٠٥ . وكان لينين يديرها ، وقد خلفت **الايسكرا** اللينينية والصحيفة البلشفية **فبيريود** كي تصبح المركز الايديولوجي والتنظيمي للبلشفية في مرحلة الثورة الروسية الاولى . وان المنشفي بليخانوف يحاول في الملاحق التي اضافها عام ١٩٠٥ الى ملحوظاته من اجل كتاب انجلز **لودفيغ فيورباخ** ان يسقط اعتبار النظرية اللينينية التي نادت بها صحيفة **بروليتاري** عن هيمنة البروليتاريا في الثورة البورجوازية ، مقدما هذه النظرية على اعتبارها عودة الى « الشعبية ــ ص ٤٠٢

٢٧ ــ انظر في كتاب لينين « الاشتراكية الديموقراطية والحكومة الثورية المؤقتة الفقرة عن « الخلاف في وجهة النظر بين الاشتراكية الديموقراطية الثورية والذيلية ــ ص ٤٠٣

٢٨ ــ المنشفي هو الذي يتحدث هنا ان بليخانوف يسم لينين بالبلانكية كي يضلل البلاشفة من

حيث هم فئة وحين يقصر بليخانوف أهمية ثـورةعام ١٩٠٥ على انشاء جمهورية برلمانية بورجوازية ، فانه يهاجم قرارات المؤتمر الثالث للحزب العمالي‌الاشتراكي الديموقراطي في روسيا الذي‌نادى بضرورة اقامة دكتاتورية البروليتاريا وطبقة الفلاحين وكان لينين يرى ان خلق حكومة مؤقتة ثورية يشكل احـد الشروط الاساسية من اجل تحويل الثورة البورجوازية الى ثورة اشتراكية – ص ٤٠٣

٢٩ــانظركتاب بريستلي: A free discussion of the doctrine of materialism and philosophical necessity (« مناقشة حـرة حول مذاهب المادية والضرورة الفلسفية ») ، لندن ١٧٧٨ – ص ٤٠٨

٣٠ – انظر المجلد الثاني من الطبعة الحالية – ص ٤١٢

٣١ – بطل **ذكريات مجنون** لغوغول – ص ٤١٥

٣٢ – في **المادية والمذهب التجريبي النقدي** . ويسجل لينين في هذه‌الفقرة «التباساًفي العبارات». – ص : ٤١٥

٣٣ – يقدم لينين في **المادية والمذهب التجريبي النقدي** نقـدا لخطيئة بليخانـوف فـي مسألـة « الهيروغليفات – ص ٤١٧

٣٤ – راجع **جدلية الطبيعة** لانجلز حيث يسجل‌من وجهة نظر مادية وجدلية خطيئة اولئك الذيـن ينكرون الطابع النوعي لاشكال الحركـة المختلفـةكيفيا – ص ٤١٨

٣٥ – مؤلف دولباخ الرئيسي **نظام الطبيعـة** الصادر في امستردام عام ١٧٧٠ تحت الاسم المستعار « ميرابو » مع الاشارة الخاطئة الى مصدره «لندرا»،وكان قد نسب طويلا الـى موسوعيين مختلفـين وبصورة خاصة ديدرو ولاغرانج – ص ٤١٩

٣٦ – انظر اوسبنسكي (**الارقام الحيـة**) **« ليس بالامر البالغ البساطة ما يختفي احيانا خلف خطوط الاحصائيات ! يفكر المرء ، يفكر دونما نهايةفي هذه الاصفار التي لا تساوي شيئا على الاطلاق ، ويسود صفحات من الحسابات ، وتسقط عبرة ، على‌غير انتظار ، فتتلف كل شيء »** – ص ٤٢٠

٣٧ – في **أصل الانسان والانتقـاء الجنسي** ، الفصل الخامس – ص ٤٢٤

٣٨ – العنوان المضبوط **المجتمع القـديم دراسة في مسيرة التقدم البشري من حالة التوحش الى الحضارة بالهمجية** – ص ٤٢٧

٣٩ – فـي Die soziale Verfassung des Inkareichs. Eine Untersuchung des Altperunischen Agrakommunismus (« النظام‌الاجتماعي لدولةالانكاس،دراسة في‌الشيوعية الزراعية لاهل بيرو القدماء انظر كذلك مقالاته عن« القواعد الاقتصادية لنظام الامومـة » في **التطـور الاجتماعي** ، الاعداد الاول والثاني والرابع لعـــام١٨٥٨ – ص ٤٢٨ .

البورجوازيون القدماء

ـ كتب هذا المقال باللغة الفرنسية مباشرة من اجل **الاشتراكي** بمناسبة عيد الاول من ايار عام ١٨٩٣ ، وصدر في العدد ١٣٥ بتاريخ ٢٣ نيسان ولم ينشر بالروسية الا بعد وفاة بليخانوف في طبعة موسكو ـ لننغراد **للمؤلفات الكاملة** . (المجلد الرابع والعشرون) ـ ص : ٤٣١

دراسة في تطور
التصور الاحادي عن التاريخ

١ ـ مما لا ريب فيه ان **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** هو اشهر مؤلفات بليخانوف

وكان بليخانوف يريد بادىء الامر ان يجعل منه القسم الثاني من **خلافاتنا** (انظر الهامش رقم ١ في الصفحة ٧٢٤) ، لكنه لما عرضت امكانية نشره بصورة مشروعة في روسيا تحت اسم مستعار اضطر الكاتب ان يقدمه كمؤلف على حدة **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** ، الذي صدر عام ١٨٩٥ تحت الاسم المستعار بلتوف

وان الوثائق المخطوطة في « محفوظات بليخانوف ـ المسودات الاولى ، والتصحيحات المطبعية ، الخ قد أتاحت اعادة تركيب تاريخ الكتاب اليوم لقد بدأ بليخانوف بكتابة الفصل الخامس ، وهو الذي يعالج مسألة تطبيق الماركسية على روسيا ، والافكار التي عبر ماركس عنها في هذا الشأن في رسالته الشهيرة الى **حوليات الوطن** ولدينا تحريران اوليان لهذه القطعة ، والارجح ان تاريخهما يعود الى عام ١٨٩٢ ، وكان المؤلف قد كتبهما من اجل **رسول الشمال** حيث لم ينشرا قط ، وكان عنوان احدهما **سوء تفاهم غريب** ، وعنوان الاخر **سوء تفاهم صغير** . وقد عرفت بهما الملزمة الرابعة من **الميراث الادبي** لبليخانوف عام ١٩٣٧

وكان بليخانوف ينوي اعادة طبع **الدراسة** في الخارج ، لكن ثورة عام ١٩٠٥ أتاحت له ان يصدر منه طبعة ثانية في روسيا وفي هذه الاثناء في ١٩٠٤ ، توفي الخصم الرئيسي الذي يهاجمه بليخانوف في هذا الكتاب ، وهو نقولاس ميخايلوفسكي ، فامتنع بليخانوف بدافع من اللباقة عن ادخال اية تصحيحات اساسية الى الطبعة الثانية عام ١٩٠٥ والطبعة الثالثة عام ١٩٠٦ ومع ذلك كان يحس عميقا بضرورة استكمال كتابه بصورة جدية . (انظر رسالته بتاريخ ٩ شباط ١٩٠٤ الى فريق مدينة برن لمساعدة الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي في روسيا) وان الملاحظات التي عثر عليها في محفوظاته تشهد على ذلك

وان النص الحالي مطابق لنص المجلد السابع من طبعة موسكو ـ لننغراد **للمؤلفات** ، وقد قوبل مع الطبعة الاولى لعام ١٨٩٥ ومع طبعة عام ١٩٠٥ ـ ص ٤٣٥

٢ ــ انظر ادناه الهامش رقم ١ في الصفحة ٧٥٩(من أجل **بعض الكلمات الى خصومنا**).ــص: ٤٣٥.

٣ ــ في العدد الخامس لعام ١٨٩٥ المقال المعنون « فوق مرتفعات الحقيقة الموضوعية » ، الذي يتحدث عن **الدراسة** ــ ص ٤٣٥

٤ ــ Russkoyé Bogatstvo (**الثروة الروسية**) مجلة شهرية تأسست عام ١٨٧٦ ، وصدرت حتى عام ١٩١٨ ، وكانت الناطقة باسم الشعبيين الاحرار منذ نهاية القرن التاسع عشر وهي مناهضة للماركسية بعنف ، وكان ميخائيلوفسكي احد مدرائها ــ ص ٤٣٥

٥ ــ نشر في **الثروة الروسية** ، العدد الاول لعام ١٨٩٤ ، في زاوية **الادب والحياة** وهذا المقال يفتتح حملة الشعبيين على الماركسية ــ ص ٤٣٧

٦ ــ نشر **مصير الرأسمالية في روسيا** عام ١٨٨٢. وان المجلد الاول من **لوائح دراسة اقتصادية لروسيا وفقا لارقام الاحصاء الزراعي** يعود تاريخه الى عام ١٨٩٢ ــ ص ٤٤٢

٧ ــ **انظر التاريخ العام للحضارة في اوروبا والتاريخ العام للحضارة في فرنسا** ــ ص ٤٥٣

٨ ــ ينوه بليخانوف هنا بكتاب **مخطط لوحة تاريخية لتقدم الفكر البشري** ، باريس ١٧٩٤ ص ٤٥٦

٩ ــ في خطاب استقبال في الاكاديمية الفرنسية ، بتاريخ ١٣ ايار ١٧٧١ ــ ص ٤٥٧

ــ صحيفة السان سيمونيين ١٨٢٥ ــ ١٨٢٦ وقد اسسها سان سيمون وادارها بازار وانفانتان والاخوان رودريغس ، وكان شعارها « **ان العصر الذهبي الذي وضعه تقليد اعمى في الماضي حتى الان هو الى الامام منا** » ــ ص ٤٥٩

ــ المقصود هو تشيرنيشيفسكي وان التعليق الذي ضمه الى ترجمته لكتاب **اسس الاقتصاد السياسي** لستوارت ميل يشكل نقدا نافذا لهذا الفيلسوف ــ ص ٤٦٠

١٢ ــ نقيضة اشاعها ميخائيلوفسكي في مقال نشره عام ١٨٨٢ بعنوان « الابطال والجمهور » ص ٤٦٠

١٣ ــ Sovrémennik (**المعاصر**) مجلة شهرية ادبية وسياسية وعلمية في وقت واحد ، اسسها بوشكين عام ١٨٣٦ واستلم ادارتها نكراسوف وباناييف عام ١٨٤٧ كانت هذه المجلة الاكثر تقدمية في زمانها ، وقد اسهم فيها اشهر الديموقراطيين الثوريين وقتذاك مثل بيلنسكي وتشير نيشيفسكي ودوبروليوبوف وسالتيكوف ــ شتشيدرين وقد حظرت عام ١٨٦٦ ــ ص ٤٦٨

١٤ ــ مؤلف لتشيرنيشيفسكي ــ ص ٤٦٨

١٥ ــ اشارة الى البيان الذي اطلق به نقولا الاول اللعنة ضد ثورات عام ١٨٤٨ وقد ورد فيه بصورة خاصة « **ايها الوثنيون ، اصيخوا السمع وانحنوا ، فالله يتحدث اليكم بصوتي ! »** . ــ ص ٤٧٠ .

١٦ ـ ميز ميخائيلوفسكي شكلين للحقيقة **الحقيقة ـ الواقع** » (ما هو موجود) و « **الحقيقة ـ العدالة** (ما يجب ان يكون) ـ ص ٤٧٢

١٧ ـ فئة من الليبراليين البورجوازيين المعتدلين الذين لعبوا دوراً بارزا في الحياة السياسية في فرنسا ابان عودة الملكية ، وقد كانوا خصوما الـداء للديموقراطية والجمهورية وانكروا حتى مبادىء الثورة وشرعيتها وكانوا يقبلون مع ذلك النظام المدني الجـديد ، يعني البنيـة الجديـدة للاقتصاد البورجوازي ـ ص ٤٧٤

١٨ ـ تأسس من قبل الحكومة القيصرية عـام ١٨٨٢ ، وكان هدفه الرسمي تقديم الاعتمادات الـى الفلاحين من اجل شراء الارض وفي الممارسة رفـع اسعار الملكية العقارية ، في مصلحة النبالة ، ولـم ينتفع من قروضه الا الكولاك وحدهم ـ ص : ٤٧٦ .

١٩ ـ اطناب لقصيدة لنكراسوف بعنوان **فارس ساعة واحدة** نقرأ فيها خاصة

من الظافرين الذين يثرثرون بتفاهة

والذين احمرت الاذرعتهم بالدماء ،

خذني الى معسكر اولئك الذين يقضون

في سبيل قضية الحب العظمى . ـ ص ٤٧٧

٢٠ ـ الاسم المستعار لنقولاس دانييلسون وهو شعبي قدم الترجمة الروسية الاولى لكتـاب **رأس المال** (الكتاب الاول عام ١٨٧٢ ، بالتعاون مـع هرمان لوباتين والكتاب الثاني عام ١٨٨٥ والكتاب الثالث عام ١٨٩٦) وكانت له مراسلات متصلة مع ماركس وانجلز ـ ص ٤٧٨

٢١ ـ مجلة فلسفية وسياسية وادبية اسسها بيير لورو عام ١٨٣٤ ، وقد اصبحت عام ١٨٣٢ الناطقة باسم السان سيمونيين ـ ص ٤٨٠

٢٢ ـ يقصد بليخانوف هـذه الفقرة مـن **الشعر والحقيقة** : **« ان الكتب المحظورة ، تلك الكتب التي احرقت بيد الجلاد بعدما اثارت ضوضاء كبيرة ، لـم يكن لها اي تأثير فينا واستشهد على سبيل المثال بكتاب « نظام الطبيعة » الذي قرأناه بشيء مـن الفضول ، دون ان نتوصل الى فهم كيف امكن ان يكون هذا المؤلف خطيرا . لقد كان يبدو لنا مشؤوما حتى درجة كبيرة ، ووهميا ، وكئيبا بحيث كنا نلاقي عناء كبيرا في احتمال نصه وكنا نرتعش امامه كمـا نرتعش حيال شبح . »** ـ ص ٤٨٨

٢٣ ـ في الرسالة الى بوتكين بتاريخ الاول من آذار ١٨٤١ ونقرأ فيها بصورة خاصة

« واشكرك بكل تواضع يا ايفور فيدوروفيتش وارفع قبعتي امام قلنسوتك الليلية الفلسفية . لكنه يشرفني أن اعلمك ، مع كل الاحترام الواجب لادعائك الحكمة السامية الفلسفية ، اني اذا ما توصلت يوما الى الارتفاع الى الدرجة الاخيرة من السلم العظيم للصيرورة ، فاني سوف ارجوك ان تقدم الي تقريرا عن جميع التضحيات للحياة اليومية والتاريخ ، وللضحايا الذين لا حصر لها للاتفـاق ، والتطـير ، ومحاكم التفتيش ، وفيليب الثاني ، الخ ، الخ والا فسوف القي بنفسي وراسي اولا مـن هـذا المكان العالي . »

و « ايغور فيدوروفيتش » هو التحريف الساخر الى اللغة الروسية لاثنين من اسماء هيمس الصغيرة جورج وفريدريخ – ص : ٥٠

٢٤ – أن هذا الشاهد والشاهدالذي يليه مستمدان في مقال لميخائيلوفسكي بعنوان في الصيرورة الجدلية وفي صيغ التقدم الثلاثية – ص ٥٠٢

٢٥ – انظر الفصل الثالث عشرمن **انتي دوهرنغ.** – ص ٥٠٥

٢٦ – انظر **اوتيتشيستفينيه زايسكي** ، ١٨٧٧، العدد العاشر – ص ٥٠٨

٢٧ – ان الطبعة الروسية **الكاملة لانتي دوهرنغ**صدرت عام ١٩٠٤ – ص ٥٠٩

٢٨ – انظر **بمناسبة الذكرى الستين لوفاة هيغل** ، ص ٣٥٦ – ٣٧٦ – ص ٥١١

٢٩ المقصود بيوتر لافروف وقد نشرت **الرسائل التاريخية في** بطرسبورغ عام ١٨٧٠ ، تحت الاسم المستعار ميرتوف – ص ٥٢٥

٣٠ – المقصود Von dem Rechtszustande unter den Ureinwohnern Brasiliens (في الحالة القانونية للسكان البدائيين في البرازيل ») ميونيخ ، ١٨٣٢ – ص ٥٢٣

٣١ – يشرح بليخانوف معطولا هذه الفكرة في الاضافات التي كان ينوي ان يدخلها الى الطبعة الثانية ص – ٥٣٧

٣٢ – كرس بليخانوف لفاينسغرون مقالا لم ينشرقط ، ونجده في **الميراث الادبي** لبليخانوف ، الملزمة الخامسة – ص ٥٣٧

٣٣ – **الحضارة والانهر التاريخية الكبرى** ، باريس ١٨٨٩ مع مقدمة لايليزه ريكلوس ص ٥٥٨

٣٤ – شاهد من « المادية الاقتصادية في التاريخ » (**رسول اوروبا** ، تموز ١٨٩٤ – ص ٥٦٤.

٣٥ – اشارة الى مآسي سوماروكوف وكنياجين وخيراسكوف – ص ٥٧٥

٣٦ – شخصيتان لغريبوئيدوف في **كثرة الذكاء مصيبة** ، واولاهما ارستقراطي شاب مستنير ، وثانيتهما فوق رجعي – ص : ٥٩٠

٣٧ – شخصية من المسرحية نفسها وهي نموذج الانسان صاحب النظر المحدود – ص ٥٩١.

٣٨ – كان بليخانوف ينوي ايضاح هذه التلميحات الادبية التي يقصد منها تضليل الرقيب ونجد في ملاحظاته

وسكالوزوب – الرقابة . رواية قصة بلتوف.« وثائق » ، من « نوفويه سلوفر » ومن « ناتشالو ».

والمقصود منشورات ماركسية عانت في ذلك الحين من الرقباء الامبراطوريين وان **الدراسة** (الموقعة باسم « بلتوف) ، وقد سحبت من المكاتب. لم تمكن اعادة نشرها طوال عشر سنوات كما ان المجموعة التي تحمل عنوان **وثائق تسم تطورنا الاقتصادي** ، المطبوعة عام ١٨٩٥ وقد صودرت بعد انتظارها الاذن بالتوزيع طوال ثمانية عشر شهرا ، ولم يمكن انقاذ الا نسخ قليلة منها وان المجلة **نوفويه سلوفو**

(**الكلمة الجديدة**) قد حظرت في كانون الاول ١٨٩٧،كما حظرت كذلك المجلة **ناتشالو** (**البداية**) التي خلفتها وذلك بعد اصدارها الخامس ان الماركسيين ، خلافا للشعبيين ، قد حرموا على وجه التقريب ، عمليا ، من اي منبر قانوني — ص ٥٩١

١٢٥ ـ ملحوظة من بليخانوف تتعلق بهذه الفقرة

« ماكانوا يفهمون انه ليس في الامكان قبول نظريات ماركس الاقتصادية ورفض نظرياته التاريخية: ان « رأس المال » دراسة تاريخية ايضا بيد ان الكثيرين من « الماركسيين » أساؤوا فهمه ايضا راجع مصير الكتاب الثالث . ان ستروفيه وبولغاكوف وتوغان بارانوفسكي يشوهون نظريات ماركس الاقتصادية » ـ ص ٥٩٢

٤٠ ـ المقصود رسالة كارل ماركس الى هيئة تحرير **حوليات الوطن** (اواخر ١٨٧٧)، ردا على مقالة ميخائيلوفسكي « كارل ماركس امام محكمة السيد جوكوفسكي ». ولقد اكتشفها انجلز بين اوراق ماركس بعد وفاته وارسل نسخة منها الى فيرا زاسوليتش . وقد ورد في رسالة انجلز مايلي

« تجدين طيه نسخة عن مخطوطة لماركس تستطيعين ان تنتفعي بها كما تجدين مناسبا . لا ادري ما اذا كان ماركس قد عثر في « الكلمة » او في « حوليات الوطن » على مقالة « كارل ماركس امام محكمة السيد جوكوفسكي » . ولقد رد عليها بهذا الجواب وغرضه من دون ريب ان تنشر في روسيا لكنه لم يبعث بها آخر الامر الى بطرسبورغ خشية ان يعرض اسمه للخطر المجلة التي سوف تنشر له نصا . »

وقد نشر جواب ماركس في العدد الخامس من **رسول ارادة الشعب** عام ١٨٨٦ ، وفي **الرسول الحقوقي** عام ١٨٨٨ (العدد العاشر)، وكان يسمى بصورة مغلوطة « الرسالة الى ميخائيلوفسكي » بالرغم من ان ماركس لم يتحدث عن هذا الاخير الا في صيغة الغائب

ويحتج ماركس بقوة في هذا النص ضد اولئك الذين يريدون ان يحولوا « المخطط التاريخي لتكون الرأسمالية في اوروبا الغربية الى نظرية تاريخية ـ فلسفية عن المسيرة المحتومة ، المفروضة على جميع الشعوب كائنة ما كانت الظروف التاريخية التي تكون هذه الشعوب فيها ولقد اطبق الشعبيون على هذه الفقرة التي ارادوا ان يروا فيها تأكيدا لنظريتهم الخاصة « بالنوعية » — ص ٥٩٢

٤١ ـ راجع الهامش رقم ٦ في الصفحة ٧٤٩ . انظر كذلك **الايديولوجية الالمانية** — ص ٥٩٣

٤٢ ـ في العدد السادس من **الفكر الروسي** كتب ميخائيلوفسكي عام ١٨٩٢ ان فلسفة ماركس **« معروضة في الفصل السادس من « رأس المال » تحت العنوان المحو « لما يسمى التراكم البدئي . »**
ـ ص ٥٩٤

٤٣ ـ اغنية للجنود ، كلماتها من تأليف تولستوي ، وهي تسخر من عجز بعض الجنرالات الروس ابان حرب القرم — ص ٥٩٨ .

٤٤ ـ المقصود **تاريخ الثورة الالمانية لعام ١٨٤٨**، وقد اعيد طبعه عام ١٩٢٢ تحت عنوان **الثورة الالمانية. تاريخ حركة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ في المانيا** ـ ص ٥٩٩

٤٥ ـ ان الشخص المذكور يحصل على وسائط معيشته من تأجير وتر كمان للعازفين العابرين ـ ص ٦٠

٤٦ ـ انظر رسالة انجلز الى الآنسة هاركنس (نيسان ١٨٨٨) **تعلمت** (في روايات بلزاك) حتى **فيما يتعلق بالتفاصيل الاقتصادية (مثلا اعادة توزيع الملكية الفعلية والشخصية بعد الثورة) اكثر مما تعلمت في جميع كتب المؤرخين والاقتصاديين والاحصائيين المحترفين لذلك العصر . »**

ملحوظة من بليخانوف بخصوص هذه الفقرة من **الاحادية**

« يجب الا نخشى من وضع غليب اوسبنسكي في هذا المجال في مستوى بلزاك كتابه « سلطان الارض » . مراجعة مقالتي عن اوسبنسكي في « الاشتراكي الديموقراطي » ـ ص

٤٧ ـ اشعار من المسودة الاولى لقصيدة بوشكين **اوجين اونييغين** ـ ص ٦٠٢

٤٨ ـ صدر مؤلف مورغان عام ١٨٧٧ ـ ص ٦٠٢

٤٩ ـ المقصود مقدمة انجلز لكتاب **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية .** ـ ص ٦٠٣

٥٠ ـ في المقالة المعنونة « كارل ماركس وكتابه عن الرأسمال » **(رسول اوروبا** ، الملزمة التاسعة ، **١٨٧٧)** ـ ص ٦١٠

٥١ ـ موظف صغير ليبرالي سابق كان يحلم منذ عام ١٨٤٤ في التقدم ضمن حدود القانون وفي دستور المانى بائس (انجلز **الشيوعيون وكارل هاينزن)** ـ ص ٦١٧

٥٢ ـ يشير بليخانوف الى نص انجلز الوارد اعلاه وكذلك الى مقالة ماركس « النقد التهذيبي والتهذيب النقدي » وقد نشرا عام ١٨٤٧ في Deutsche - Brüsseller - Zeitung ـ ص ٦١٧

٥٣ ـ هذا نص انجلز **يتوهم السيد هاينزن بالتأكيد انه في الامكان تعديل وتكييف علاقات الملكية وحق الوراثة ، الخ ، وفقا لارادتنا ان السيد هاينزن ـ وهو احد الاشخاص الاشد جهلا في هذا القرن ـ يستطيع طبعا الا يعرف ان علاقات الملكية في كل عصر هي النتيجة التي لاغنى عنها لنمط الانتاج والمبادلة الخاص بالعصر المذكور . »** ـ ص ٦١٧

٥٤ ـ من المعروف أن الشعبيين الليبراليين كانوا يتهمون الماركسيين بأنهم يريدون ان يصبحوا تباعا للكولاك في سبيل التعجيل بالزراعة الرأسماليه . وفيما يتعلق بكولوباييف ورازوفاييف ، انظر الهامش ٦١ في الصفحة ٧٣٩ ـ ص ٦١٨

٥٥ ـ يعلن فورونتسوف بصورة خاصة في مقدمة **مصير الرأسمالية في روسيا** (١٨٨٢ انه سوف يعيد طبع مؤلفاته كي **« يحض علماءنا وناشرينا المحلفين للرأسمالية والشعبية على دراسة قانون تطور**

روسيا الاقتصادي ، الذي هو اساس التظاهـــراتالاخرى للبلاد ليس في مقدور اي نشاط سياسي متصل ان يتكلل بالنجاح مع الجهل بهذا القانون . » ـ ص ٦٢٠

٥٦ ـ شاهد مأخوذ من « بخصوص المعزولين عنالحضارة (**الفكر الروسي** ، كانون الاول ١٨٩٢ ـ ص ٦٢١

٥٧ ـ يشير بليخانوف في هذه الفقرة بأكملها الـى رســـالة مـاركس الـى **حـوليـات الـوطـن** (انظر الهامش ٤٠ في الصفحـة ٧٥٦) ـ ص ٦٢٣

٥٨ ـ كان ماركس يرى ان « **الملكية المشاعة الحاليـة في روسيا يمكن ان تخـدم كمنطلـق لتطـور شيوعي** » اذا « **اعطت الثورة الروسية الاشارة لثورةعمالية في الغرب .** » وتصادف الفكرة نفسها فـــي مقدمة الطبعة الروسية الاولى **للبيان** ، وكذلك فيمقالة انجلز القضـــايا الاجتماعيـــة في روسيـــا » (١٨٧٥) حيث يرد على تكاتشوف وعلى اي حال ،فقد ادرك انجلز جيدا في السنوات الاخيرة مـــن القرن التاسع عشر ان المشاعة الزراعية لن تقاومصعود الرأسمالية ، وهو ما يشير اليه في السياسة الخارجية للقيصرية الروسية ١٨٩٠)،«والاشتراكية في المانيا ١٨٩١) ، و اتستطيع اوروبا نزع السلاح ؟ (١٨٩٣ وكذلك في خاتمة جوابالى بيوتر تكاتشوف ١٨٩٤ حيث كتب بصورة خاصة :

« لن اجازف في الحكم على ما اذا كانت هـذهالمشاعة لاتبرح سليمة بحيث تستطيع ان تصبح ، متشاركة مع ثورة في اوروبا الغربية ، منطلقا لتطورشيوعي عندما يحين الاوان ، كما كنا ماركس وانا نأمل فيه عام ١٨٨٢ . ومهما يكن من شيء ، فثمة نقطـةلا مجال للارتياب فيها : كيما يبقى شيء على قيدالحياة من هذه المشاعة لا بد اولا من الاطاحة بطغيان القياصرة ، لا بد من ثورة في روسيا . » ـ ص ٦٢٤

٥٩ ـ المقصود بؤس الفلسفة ـ ص : ٦٢٤

٦٠ ـ انظر **ابحاث في الادب الروسي في زمـن غوغول** ٦٢٥

٦١ ـ ملحوظة من بليخانوف : **اقصد هنـا نشاط الاشتراكيين الديموقراطيين الذي اسهم فـي تقدم الرأسمالية بقضائه على اشكال الانتاج البالية،مثل الصناعة المنزلية وفي مؤتمر بريسلو ، عـام ١٨٩٥ ، لخص بيبل جيدا موقف الاشتراكية الديموقراطية الغربية حيال الرأسمالية أتساءل دائمـــا بخصوص اي تدبير ما اذا كان يضر بتقدم الرأسمالية. اذا كان يضر بها ، فانا ضده**

٦٢ ـ اشارة الى اقصوصة بعنوان **صفر** حيثيمتنع فلاح عن زراعة حصته من الاراضي المشاعة كي لا تسحقه الضرائب ومع ذلك لم يكن له بد من انيدفع للدولة الضريبة على الرأس يعـني يدفـــع سدى ـ ص : ٦٣١

٦٣ ـ ملحوظة من بليخانوف « اعني **اشتراكيا** ٦٣٢

٦٤ كـان الاقتصادي ليسـ يجــد فـي الحماية وسيلة من اجل تطوير الصاعة الالمانية التي كانت في المهد بعد . ـ ص ٦٣٤

٦٥ ــ ملحوظة من بليخانوف « **بخصوص « ن ــ ون »** **خطيئته الاساسية . اساء فهم « قانـون القيمة » . نظر اليه من وجهة نظر سكونيـــة ، لاحركية** ما كان انجلز يقوله عن فرص الخطـأ عند ستروفيه « ون ــ ون »

ويقصد بليخانوف رسالة كتبها انجلز اليه في٢٦ شباط ١٨٩٥ وقد ورد فيها واما بشأن دانييلسون (ن ــ ون) ، فاخشى الا نتوصل الى اي شيء انه لمن المحال اطلاقا النقاش مـع الجيل الروسي الذي ينتسب اليه ، والذي يثابـــر بعناد على الايمان بالرسالة الشيوعية الطبيعية التي تميز روسيا « **روسيا المقدســة** الحقيقيــة للامـــم الوثنية ــ ص ٦٣٨

٦٦ ــ اشارة الى المقال المعنون تأملات فيحاجات صناعتنا الوطنية ــ ص ٦٤٢

عــودة الى السيــد ميخائيلوفسكي

والى « الثلاثيــة »

١ ــ هذا الملحق وارد في الطبعة الاولى مـــن الدراسة ــ ص ٦٤٤

٢ ــ في زاوية **الادب والحياة** ، تحت عنوان السيد ستروفيه وكتابه ملاحظات نقدية عن تطـور روسيا الاقتصادي » ــ ص ٦٤٤

٣ ــ انظر الصفحة ٥٠١والهامش ٢٣ العائد اليها ــ ص ٦٤٧

٤ ــ اشارة الى الرسالة الى انينكوف بتاريـخ١٥ شباط ١٨٤٨ حيث يكتب بيبلنسكي مـايلي **« حين كنت في مناقشتنا عن البورجوازية اسميـكمحافظا كنت اتصرف مثل ابله ، وكنت تتصرف مثـل رجل ذكي ... انني ارى بوضوح اليوم ان تقدم روسيافي المجال المدني لن يبدأ الى حين تتحول نبالتنا الـى بورجوازية . »** ــ ص ٦٥٠

٥ ــ في الكلمة الختامية لكتاب « تأملات في حاجات صناعتنا الوطنية ــ ص ٦٥٠

بعض الكلمات الى خصـومنا

١ ــ رد على التقرير الذي نشره ميخائيلوفسكي عن **الدراسة** في العدو الاول من **الفكـــر الروسي** (١٨٩٥ ولقد نشر هذا المقال عام ١٨٩٥ تحتالاسم المستعار اليوناني اوتيس (شخص ، وهو الاسم الذي اخفى اوليس تحته هويته في سيكلوب وكان يشكل جزءا مـن **وثائـق مـن اجـل وصف تطورنا الاقتصادي** ، وهي مجموعة احرقتها الرقابة .وقد اعيد نشر المقال كملحق للطبعة الثانية (١٩٠٥) من **الاحادية** .

ويتبع النص الروسي المجلد السابع من طبعةموسكو ـ لتنفراد **للاعمال** ، المقابلة مع طبعة عـــام **١٩٠٥** ، والنسخ التي امكن انقاذها مــن **الوثائــق**والمخطوط المحفوظ في محفوظـات بليخانـوف ص ٦٥١

٢ ـ المقصود الليبرالي غولتسيف وان التقرير المذكور قد نشر في العدد الاول من **الفكــر الروسي (١٨٩٥)** ـ ص ٦٥٥

٣ ـ في الروسية Svistok ، وهو ملحــق هجائي لمجلة **المعـاصر** ، وكـان دوبـروليـوبوف برئس تحريره من ١٨٥٩ حتى ١٨٦٣ ـ ص ٦٥٨

٤ ـ نشر في العدد الحادي عشر من **الكلمــة**(١٨٧٩) بتوقيع الاحرف الاولى ن ص ٦٥٩.

٥ ـ ملحوظة من بليخانوف

« كيف يدعو لويس بلان الى المصالحة الطبقية.لا مقارنة ممكنة مع غيزو الـذي كـان لا يقبـل المصالحة . من الواضح ان ميخائيلوفسكي لم يقـرأسوى « تاريخ السنوات العشر . » ـ ص ٦٦٥

٦ ـ ملحوظة من بليخانوف

« ص ٢٢ ، الوجه الثاني ، الملحق الاول .العثور على شاهد اوضح من القســم الاول مــن « موسوعة » هيغل . »

مما لا ريب فيه أن بليخانوف كان يفكر في الفقرة ٨٠ وملحقها ، حيث يعرف الفارق بين الفكــر الجدلي والفكر الميتافيزيائي ـ ص ٦٦٦

٧ ـ مؤلف مغفل لبرونو بوير نشر عام ١٨٤١ .ـ ص ٦٦٨

٨ ملحوظة من بليخانوف **« اخذ منشوراتنـــا السرية بعين الاعتبار ، وهي ما لا يمكن ان يجهلهـــا « ن ـ ون » . ليس في الادعاء بعدم وجودهـــا اياستقامة فكرية ، لانه من المعروف ان الرقابة لا تسمح بالاستشهاد بالمؤلفات السرية** ـ ص ٦٧٨

٩ ـ اشارة الى **ناحيتا بوكـروف واكسندروف**لخارنيرومينوف **(في الحرف في حكومة فلاديمــير** ، موسكو ١٨٨٢) ، **والزراعة في جنوبي روسيـا** لبـوستنيكوف (مــوسكو ١٨٩١ **وقـوزاق الاورال ؛ وصف احصــائي في مجلدين** لبورودين (اورالسك ١٨٩١ ـ ص ٦٧٩

١٠ ـ شواهد من ما معنى الضرورة الاقتصادية ؟ » **(الرسول الروسي** ، العدد الثالث ، ١٨٩٥). ـ ص ٦٨٠

١١ ـ نشر في العددين الاول والثاني من **الرسول الروسي** عام ١٨٩٥ ـ ص ٦٨٣ .

* * *

الفهرس



مصادر الاشتراكية العلمية

		السعر
		ق.ل
ـ النظرية المادية في المعرفة	تأليف روجيه فارودي	١٨٠٠
٢ ـ المادية والمذهب النقدي التجريبي	تأليف لينـين	١٥٠٠
٣ ـ بؤس الفلسفة	تأليف كارل ماركس	١٠٠٠
٤ ـ الايديولوجية الالمانية	تأليف كارل ماركس وانجلز	٢٥٠٠
٥ ـ العائلة المقـدسة	تأليف كارل ماركس وانجلز	١٠٠٠
٦ ـ الشيوعية العلمية	تأليف كارل ماركس وانجلز ولينين	٢٠٠٠
٧ ـ في الاستعمار	تأليف كارل ماركس وانجلز	٧٥٠
٨ ـ انتي دوهونـغ	تأليف فريديرك انجلز	٢٠٠٠
٩ ـ مؤلفات الرئيس ماوتسي تونغ المختارة ٤/١		١٢٠٠
ـ مؤلفات بليخانوف المختارة المجلد الاول		٤٠٠٠

المكتبــة الاشـــتراكيــة

١ ـ الماركسية وقضايا علم اللغة	تأليف ستالـين	٣٠٠
٢ ـ المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية	تأليف ستالـين	٣٠٠
٣ ـ اسس اللينينيــة	تأليف ستالـين	٧٠٠
٤ ـ حول مسائـل اللينينية	تأليف ستالـين	٥٠٠
٥ ـ الانسان اثمن رأسمـال	تأليف ستالـين	٣٠٠
٦ ـ تطور المجتمع منذ بدء التاريخ	تأليف سيفال	٣٠٠
٧ ـ دور الافكار التقدمية في تطور المجتمع	تأليف كونستانتينوف	٥٠٠
٨ ـ اصلاح اجتماعي ام ثورة	تأليف روزا لوكسمبرغ	٥٠٠
٩ ـ حول تاريخ تطور الفلسفة	تأليف جدانوف	٢٠٠
١٠ـ القضايا الاساسية في الماركسية	تأليف بليخانوف	٥٠٠
١١ـ المادية المقاتلة	تأليف بليخانوف	٤٥٠
١٢ـ دور الفرد في التاريخ	تأليف بليخانوف	٥٠٠
١٣ـ الاشتراكية الخيالية في القرن التاسع عشر	تأليف بليخانوف	٥٠٠
١٤ـ دور العنف في التاريخ	تأليف فريديريك انجلز	٦٠٠
١٥ـ حرب الفلاحين في المانيا	تأليف فريديريك انجلز	٥٠٠
١٦ـ اليسارية مرض الشيوعية الطفولي	تأليف لينين	٥٠٠
١٧ـ لودفيج فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية	تأليف انجلز	٥٠٠
١٨ـ البيان الشيوعي	تأليف ماركس وانجلز	٥٠٠
١٩ـ الطبقة والامــة	تأليف فلير زمين	٣٠٠

العنوان الاصلي للكتاب بالانكليزيـة

Georgi Plekhanov

Selected Philosiphical
Works

ive volumes

Vol. I

Progress Publishers

Moscow. 1976

الموافقـــــة

رقم ٦٢٧٤ تاريخ ١٧/١٠/١٩٧٦

١٩٨٠/٥/أ/٤٠٠٠

ان هذا المجلد الاول من مؤلفات بليخانوف يضم افضل ما كتبه بين عامي ١٨٨٠ – ١٨٩٥، في مرحلة ازدهار نشاطه الماركسي النظري ، قبل أن يؤسس لينين « اتحاد النضال في سبيل تحرير الطبقة العاملة » .

فهناك أولا **الاشتراكية والنضال السياسي** الذي كان لينين يقدره تقديرا عاليا ، مسميا اياه « دستور الايمان الاول للاشتراكية الروسية » . واننا لنجد فيه ، الى جانب النقد النافذ للنظريات الاشتراكية المثالية ، عرضا براقا للاشتراكية العلمية لماركس وانجلز ، وفيه يسلط بليخانوف النور على المعنى العميق للقول الماركسي المأثور : « ان كل صراع طبقي هو صراع سياسي » .

اما **خلافاتنا** الذي يقول لينين عنه انه « المؤلف الاول الاشتراكي الديموقراطي » بقلم ماركسي روسي ، والذي كان انجلز ايضا يقدره تقديرا عاليا ، فقد شق الدرب امام انتصار الماركسية في روسيا ، اذ طبق بليخانوف فيه للمرة الاولى ، بصورة اصيلة ، الماركسية على تحليل العلاقات الاقتصادية في روسيا ما بعد الاصلاح، فاضحا الطابع الرجعي لافكار الشعبيين « الاشتراكية » المزعومة ، وموضحا المهمات السياسية الواقعة على كاهل الطبقة العاملة .

ولعل اهم ما ضمه هذا المجلد هو **دراسة في تطور التصور الاحادي عن التاريخ** الذي « كوّن جيلا كاملا من الماركسيين الروس » على حد تعبير لينين ايضا ،والذي يعرض قضايا التصور المادي للتاريخ بسعة اطلاع ماركسية ومعرفة عميقة بتاريخ الفكر الفلسفي والاجتماعي، حيث يوضح بليخانوف القضايا الاهم للمادية الجدلية والتاريخية ، والاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية ، داحضا المظاهر المختلفة للمثالية ، وبصورة خاصة الوضعية والكانطية .

الناشر

التوزيع في الاقطار العربية

دار دمشق

دمشق : شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٢٢
بيروت : شارع سوريا بناية صمدي وصالحة

السعر : ٤٠ ل.ل